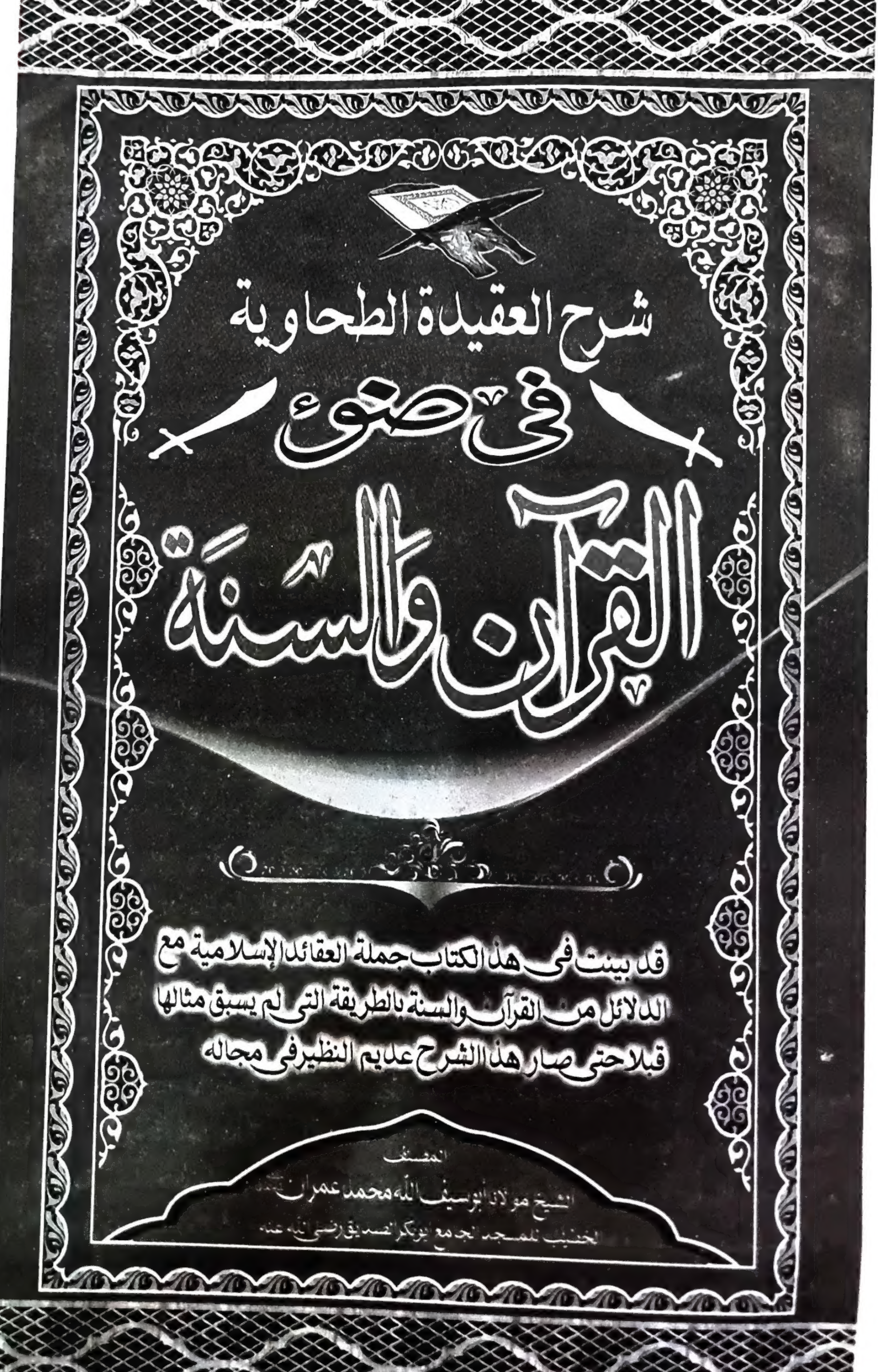

شرح العقيدة الطحاوية
في ضوء
القرآن والسنة
قد بينت في هذ الكتاب جملة العقائد الإسلامية مع
الدلائل من القرآن والسنة بالطريقة التي لم يسبق مثالها
قبلا حتى صار هذ الشرح عديم النظير في مجاله
المصنف
الشيخ مولانا أبو سيف الله محمد عمران
الخطيب للمسجد الجامع أبوبكر الصديق رضي الله عنه



حق الطباعة

اسم الکتاب:

شرح العقیدة الطحاویة فی ضوء القرآن والسنة

المصنف:

الشیخ مولانا أبو سیف اللّٰہ محمد عمران حفظه اللّٰہ تعالیٰ

الخطیب للمسجد الجامع أبو بکر صدیق رضی اللّٰہ تعالیٰ عنه

إی میل: aqeedatahawia@gmail.com

ناشر: مکتبة السّعد

تاریخ الطباعة: ٢٠١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

شرح العقيدة الطحاوية

أعوذ بالله من الشيطٰن الرجيم

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الذی خلق السمٰوات والأرض، وجعل الظلمٰت والنور، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون. الحمد لله الذی أنزل علیٰ عبده الكتاب ولم يجعل لهٗ عوجا. الحمد لله الذی لهٗ ملک السمٰوات والأرض وله الحمد فی الآخرة وهو الحكيم الخبير. فاطر السمٰوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا. يذرؤكم فيه، ليس كمثلهٖ شيء وهو السميع البصير. الحمد لله الذی تعالیٰ وتنزه عن سمات الحدوث لايشبه شيئًا من خلقهٖ ولا يشبههٗ شيء من خلقهٖ فی ذاتهٖ وصفاتهٖ وأفعالهٖ لاتدركه الأبصار وهو يدرک الأبصار وهو اللطيف الخبير. محيط بكل شيء كما يليق بشانهٖ وكما قال فی كتابهٖ، فلايحيط بهٖ أي شيء فلا يتمكن فی مكان ولايجری عليه زمان، بل هو خالق المكان والزمان فهو كما كان قبل الزمان والمكان فهو الأن كما كان وسيكون كما الأن. لانقول إننا بعدهٗ وهو قبلنا؛ لأن القبل والبعد من الزمان وهو لايحيط به الزمّان ولا المكان فهو أزلي أبدي ليس لهٗ قبل ولا بعد ولا فوق ولا تحت ولايمين ولا شمال ولاخلف ولا أمام كما فی الحديث "أنت الظاهر ليس فوقک شيء أنت، الباطن ليس دونک شيء أنت الأول ليس قبلک شيء، أنت الآخر ليس بعدک شيء." (سنن الترمذي، ح: ۳۴۰۰) وهو خالق ومالک وقادر وقاهر وجبار وقهار وستار لا تبلغه الأوهام ولاتدركه الأفكار، مهما تصورت ببالک فهو وراء ذٰلک، كما قال شيخنا أبوحنيفة رحمه الله. وهو تعالیٰ وتنزه عن الأعضاء والجوارح والحدود والغايات، كما قال فی كتابهٖ: إنه أحد، والأحد لايكون مركبا وكما قال فی كتابهٖ: إنهٗ محيط بكل شيء، فلا تحده الحدود ولا تنهيه الغايات، ليس كمثلهٖ شيء وهو السميع البصير. وصلی الله علیٰ سيدنا ونبينا محمد وعلیٰ جميع الأنبياء والمرسلين وعلیٰ آلهم وأصحابهم أجمعين الذين اتبعوهم بإحسان فی أزمنتهم وسلم تسليما كثيرا.

وقد قال الله سبحانهٗ وتعالیٰ: إنهٗ ﴿يَصْطَفِيْ مِنَ الْمَلٰٓئِكَةِ رُسُلاً وَّمِنَ النَّاسِ﴾ (الحج:۷۵) وقد

اختار واصطفى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن يكون إمام الأنبياء وخاتمهم وجعل شريعته حقًا واجبًا علىٰ جميع الإنس والجن إلىٰ يوم الدين.

أما بعد: لقد كتب الإمام الطحاوي رحمه الله كتابًا سماه "العقيدة الطحاوية" قبل أكثر من ألف سنة وجمع فيها عقائد أهل السنة والجماعة وبيّن فيها الضلال والزيغ والبدعة من أهل الهواء وردّ عليها بالاختصار فى زمانه . وقد اشتهر وانتشر هٰذا الكتاب بين المسلمين وتلقته أمة محمد صلى الله عليه وسلم بالقبول ، حتىٰ صار هٰذا الكتاب معبرًا لعقيدة أهل الحق. وهٰذا الكتاب مع إجماله واختصاره ، فائدتهٗ أكثر مما أستطيع أن أسطر وأزيد مما أستطيع أن أبين . ولقد كتب علىٰ هٰذا الكتاب شروح لكن للأسف الشرح لهٰذا الكتاب الذى اشتهر وانتشر وغلبت شهرتهٗ على الشروح الأخرىٰ لا يعبر عن العقيدة الطحاوية ولا ينوب عنها، بل الشارح يخالف الإمام الطحاوي، بل أهل السنة والجماعة فى أشياء كثيرة . وقد ملأ شرحهٗ بالعقائد الفاسدة والأراء الباطلة وسلك مسلكًا شاذًا وقد اعترف بهٰذا فى بعض الأماكنة ، فلهٰذا السبب احتيج إلى الشرح الذى يعبر عن العقيدة الطحاوية وينوب منابها غير مخالف لطريقة أهل السنة والجماعة حائدًا عن المسلك الشاذة بعيدا عن الآراء المبتدعة ومع ذٰلك نائيًا عن طريقة المتكلمين الذين سلكوا لأدلتهم مسلكًا يشبه طريقة الفلاسفة، بل أخذاً من القرآن والسنة كما فهم الصحابةؓ والتابعونؒ ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين، رضي الله تعالىٰ عنهم.

ولقد ظهرت فى هٰذا الزمان أناس كثيرة يدّعون أنهم علىٰ طريقة السلف الصالح ولقد رأيتهم ولاحظتهم وسمعت منهم وناظرتهم حتىٰ علمت أنهم مخطئون فى ما زعموا أنهم علىٰ منهج السلف الصالح، بل الحق أنهم بعيدون عنها. وهٰؤلاء الزاعمون أصناف شتى هم يشبّهون الله بخلقهٖ ويحسبون أنهم مهتدون. وإن شاء الله تعالىٰ نبين فى هٰذا الشرح مسلك السلف الصالح بالأدلة الواضحة ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيىٰ من حي عن بينة.

ولقد روي عن السلف الصالح ذم علىٰ علم الكلام ، فاعلم أن علم الكلام مصطلح لهٗ معانى متعددة. فبعض الناس يفهمون من هٰذا المصطلح منهج الفلاسفة وطريقة بيانهم ، ففى هٰذا المعنى هٰذا العلم مردود، بل كفر و ضلال. وبعض الناس يفهمون من هٰذا المصطلح منهج المعتزلة ومن سلك مسلكهم ، ففى هٰذا المعنى أيضًا هٰذا العلم مردود، بل قد يكون كفرا ، وبعض الأحيان يفهم منه أنهٗ منهج المتكلمين الذين غلوا وسلكوا لأدلتهم طريقة تشبه طريقة المعتزلة ونهجوا منهجا يشبه منهجهم ولو لإثبات منهج أهل السنة والجماعة وبلغوا مبلغًا فى علوم العقلية المنطقية ، كما زعموا، حتىٰ صار أكثر كلامهم وأغلبهم بدلا عن القرآن والسنة. ومنهم من ندموا فى آخر حياتهم علىٰ خوضهم فى هٰذا المجال هٰذا الخوض ورجعوا إلى التمسك بالقرآن والسنة ، ففى هٰذا المعنى أيضًا

هو علم مذموم لايليق بالمسلم ، ففى كل هٰذه الأقسام المذكورة هٰذا العلم كان مذموما متروكا عند السلف الصالح وبعض الأحيان يفهم منه أصول الدين ودعائم الشريعة وعماد الإسلام التى تتعلق بالعقيدة السليمة عن ذات اللّٰه سبحانهٗ وتعالىٰ وصفاته وعن الأنبياء والملائكة والكتب وجملة الأشياء الضرورة فى الدين ، وبيانها ووضاحتها كما هي المأثورة من السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين ، ففى هٰذا المعنى هٰذا العلم ليس ممدوحا فقط، بل هو من ضروريات الدين وأساسه الذى لايكون مسلم مسلما إلا به ، فمن هٰذه الوضاحة يبين أن هٰذا المصطلح "علم الكلام" قد يكون مذموما وقد يكون ممدوحا، بل أساسا لدين الإسلام علىٰ حسب ما يفهم القائل والسامع منه. فعلماء أهل السنة والجماعة عند ما يستخدمون هٰذا المصطلح لمسلكهم إنما يستخدمونهٗ فى المعنى الاخر من المعانى المذكورة الذى هو فى هٰذا المعنى أساس الدين. وقد يسأل ما هو المدارج للعقل والنقل فى هٰذا العلم الكلامية ، وكيف تلائمون بينها؟

فنجيب بتوفيق اللّٰه تعالىٰ أن الدلائل للعقلية والنقلية علىٰ أربعة أوجه ، منها ما يكون الدليل العقلي القطعي ، والدليل النقلي القطعي ، فهٰذا القسم تعارض بينهما محال؛ لأن القطع لايخالف القطع . ومنها ما يكون الدليل العقلي الظني ، والدليل النقلي القطعي . ففى هٰذا هو الظاهر أن الدليل النقلي القطعي يكون علىٰ ظاهره ويؤول أو يرد الدليل العقلي الظني ، ومنها ما يكون الدليل العقلي القطعي ، والدليل النقلي الظني اما علىٰ ثبوته أو دلالته ، ففى هٰذا الدليل العقلي القطعي يؤخذ كما هو ويؤول أو يفوض الدليل النقلي الظني. ومنها ما يكون الدليل العقلي الظني والدليل النقلي الظني ، ففى هٰذا يؤخذ الدليل النقلي الظني كما هو ويؤول أو يرد الدليل العقلي الظني. فهٰذا هو الميزان ميزان الحق والاعتدال ، بعيد عن الزيغ والضلال. فنسأل اللّٰه سبحانهٗ وتعالىٰ أن يوفقنا لطريقة الهدى والحق ويحفظنا من طريقة البدعة والضلال ، وأن يوفقنا أن نشرح هٰذا الكتاب الجميل بشرح يستوعب جميع ما احتاج المسلم من العقيدة السليمة الصالحة معبرا عن طريقة السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين ، وفى الحديث "خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ." (مسند البزار، ح:٣٥٠٧)

وصلى اللّٰه تعالىٰ علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين وعلىٰ جميع الأنبياء والمرسلين وعلىٰ آلهم وأصحابهم أجميعن وسلم تسليما كثيرا كثيرا.

التنبيه:

الحمد للّٰه فى هٰذا الكتاب حوالى ألفين وخمس مائة آية من القرآن الكريم . ونحن الحمد للّٰه شكّلنا الآيات بتوفيق اللّٰه تعالىٰ لكن يمكن أن بعض الإعراب فات منا ، فنحن أولا نستغفر اللّٰه ونتوب إليه وثانيا نعتذر منكم للإعراب الفائتة وكذٰلك للخطأ فى الإعراب أوفى اسم السورة أو رقم الآية المنقولة منها وكذٰلك فى الأحاديث المنقولة فى هٰذا الكتاب التي هي تقريباً ألف ومائتان. عفا اللّٰه عنا .

العقيدة الطحاوية

المتن:

قال العلامة حجة الإسلام أبوجعفر الورّاق الطحاوي بمصر رحمه اللّٰه.

الشرح:

الإمام الطحاوي ولد في سنة مائتين وتسعة وعشرين من الهجرة وتوفي في سنة ثلاثمائة وواحد وعشرين. كان إماما حافظا فقيها. اسمه أبوجعفر أحمد بن محمد بن سلمة بن سلمة بن عبدالملك بن سلمة بن سليم بن سليمان بن جنب الأزدي الطحاوي. كان شافعيا ، ثم تحنف وصار من كبار علماء الحنفية و ناصرها. الإمام الطحاوي كتب كتبا كثيرة في موضوعات متعددة من الدين وكتب هٰذا الكتاب المسمى بالعقيدة الطحاوية ليبين مذهب أهل السنة والجماعة.

المتن:

"بسم اللّٰه الرحمٰن الرحيم."

الشرح:

الشيخ يبدأ كتابهٗ بذكر اللّٰه تعالٰى كما هو دأب المسلمين وكما هو من آداب الإسلام مستعيناً بهٖ ، داعيا لنصرهٖ ومددهٖ أن باسم اللّٰه بداية هٰذا الكتاب وخلالهٖ ونهايتهٖ ، فكأنهٗ يسأل اللّٰه سبحانهٗ وتعالٰى هداية ورشدا ونصرة في خلال كتابة هٰذا الكتاب . واسم الجلالة "اللّٰه" اسم ذاته تعالٰى الذى يدل علٰى ذاته الجامع للكمالات والصفات العلٰى ، وفي القرآن والسنة اسم اللّٰه يدل علٰى ذاتهٖ ثم تنسب صفات الكمالات إليه ، كما في ﴿ هُوَ اللّٰهُ الَّذِىْ لَآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيْمُ. هُوَ اللّٰهُ الَّذِىْ لَآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوْسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيْزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحٰنَ اللّٰهِ عَمَّا يُشْرِكُوْنَ. هُوَ اللّٰهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنٰى يُسَبِّحُ لَهٗ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ﴾ (الحشر:٢٢-٢٤) ولا يجوز إطلاق هٰذا الاسم علٰى غير اللّٰه تعالٰى. وفي اشتقاقهٖ قولان.

القول الأول: أنهٗ غير مشتق . والقول الثاني: إنهٗ مشتق من الإلٰه وزيد "ال" للتعريف وادغم لامان. فصار "اللّٰه" .

والرحمٰن من اسم الجلالة مشتقة من الرحمة بصيغة المبالغة ولايجوز إطلاقهٗ علٰى غير اللّٰه فلا يقال لمخلوق "الرحمٰن" بل "عبدالرحمٰن" .

والرحيم من اسم الجلالة مشتقة أيضًا من الرحمة وأقل مبالغة من اسم الرحمٰن، فيجوز إطلاقهُ علىٰ غير الله، كما فى القرآن ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة:١٢٨) فى حق النبي صلى الله عليه وسلم. ثم من العلماء من قالوا: أن الرحمٰن يدل علىٰ رحمة عامة شاملة للمؤمنين، وللكافرين كالرزق والمطر والماء والنعم العامة. والرحيم يدل علىٰ رحمة خاصة أي للمؤمنين: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ (الأحزاب:٤٣) ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف:٥٦) وللكفار ﴿أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي﴾ (العنكبوت:٢٣) ثم رحمة فى المخلوق تدل علىٰ رقة القلب ولينه الذى يحضه علىٰ نوع من أفعال الرحمة والشفقة، وهٰذا لايجوز فى حق الله سبحانهُ وتعالىٰ. وإن قيل لِمَ؟ فنقول بتوفيق الله عزوجل إن شاء الله سبحانهُ وتعالىٰ أن الله عز وجل لايمكن لأي شيء أن يحملهُ علىٰ أن يفعل شيئًا لم يرده فى الأزل أو يحملهُ علىٰ أن لايفعل شيئًا أرادهُ أن يفعل فى الأزل، فالله سبحانهُ وتعالىٰ علم فى الأزل ما كان وما يكون وما لايكون وما لايكون لو يكون كيف يكون، فما علم كونهُ فى الأزل أراد أن يكون وما علم عدمهُ فى الأزل أراد أن لا يكون، وهٰذا من ضرورات الدين، فإذا يكون هٰكذا، فكيف للرقة أو شيء ما أن يحمل الله عزوجل علىٰ أن يفعل أولا يفعل شيئًا؟ هٰذا من صفات المنفعلين والمتأثرين، والله سبحانهُ وتعالىٰ متنزه عن ذٰلك، ثم كل شيء فى العالم وكل شيء غير الله هو العالم، فكل شيء فى العالم يحصل بعلم الله وبإرادتهٖ وقدرتهٖ وكلامهٖ وتكوينهٖ، فكيف يجوز لأي شيء الذى هو من خلق الله ومتكون بإرادتهٖ وقدرتهٖ أن يؤثر على الله عز وجل؟ ولو أراد الله لم يخلق هٰذا الشيء من البداية، فإذا خلقه فهو من خلقهٖ، فكيف يأتى هٰذا الشيء بالرقة فى حق ذات الله تعالىٰ؟ ثم الرقة نوع من الألم والتأثر، والإنسان يفعل أفعالا لكى يذهب هٰذا الألم منه، فكيف تجوز هٰذه الصفة فى حق ذات البارى تعالىٰ؟! سبحان الله سبحان الله. من اعتقد أن ذات البارى تعالىٰ متصف بالرقة، فلم يدر ذات الله سبحانهُ وتعالىٰ. ونحن نعرف من ضرورات الدين أن الشخص لو لبث طول عمره على الكفر حتىٰ بلغ سبعين سنة، ثم أسلم، ثم مات فى اليوم التالى على الإسلام دخل الجنة، والشخص لو لبث طول عمره على الإسلام حتىٰ بلغ سبعين سنة ثم كفر ومات فى اليوم التالى على الكفر دخل النار للأبد الآباد. وهٰذا قانون الحق سبحانهُ وتعالىٰ وهل نحن نرىٰ الإنسان ينسى عصيان عبده المجازى لسبعين سنة ويقبل منه طاعة يوم واحد أو نرىٰ بالعكس؟؛ لأن الإنسان منفعل متأثر، لهُ انفعالات وتأثرات تعرض علىٰ ذاتهٖ والله سبحانهُ وتعالىٰ وتقدس وتنزه عن جميع هٰذه الصفات ومتصف بصفات الكمال وفى الحديث "أن المرأة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل الله عز وجل أرحم بعبادهٖ من الأم بولدها؟ فقال صلى الله عليه وسلم: نعم، فقالت: فالأم لايطرح ولدها فى النار فكيف الله عباده؟ ففاضت عيناه صلى الله عليه وسلم وقال: إن

الله إنما عذب عاصين من عباده .(سنن ابن ماجة، ح:٤٢٩٧) ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان نبيا رسولا هاديا مربيا فكان يجيب الناس على حسب عقولهم. فهٰذا الجواب كافی شافی. ويدل أنهٗ ليست رحمة الله كرحمة الأم أو الأب أو غيرهما من دون الله، بل رحمتهٗ صفته الكمال ليست انفعالا وتأثرا الذی نوع من الضعف .

[فإن] قلتم : بينتم أن رحمة الله عزوجل ليست رقة ولا لها علاقة من الانفعال والتأثر فبين لنا ما هی رحمة الله .

فقلنا: بتوفيق الله عزوجل إن شاء الله أن للعلماء فيها مسالک ، فمنهم من قال : إن الرحمة إرادة الإنعام فهي تحت صفة الإرادة ، ومنهم من قال: إنها فعل الإنعام فهي تحت صفة التكوين ومنهم من قال نحن لا نعين معنى دون معنى، بل نعتقد أن رحمة الله كما يليق بشانهٖ متعقدا أنها ليست من نوع الرقة وأمثالها كرحمة المخلوقين . فإن سئلتم أيها أقوى عندک مذهبا . فقلنا بتوفيق الله تعالٰى: إنهٗ ورد فی الحديث الصحيح "إن الله تعالٰى خلق مائة رحمة فوضع واحدة منها فی الأرض وأبقى تسعة وتسعين للآخرة ." (مسند أحمد، ح: ٢٣٧١٩) . فهٰذا الحديث يدل على قوة المسلک الذی أنها من صفات التكوين والفعل وهٰذا هو مسلک شيخنا أبوحنيفة رحمه الله تعالٰى.

ثم هناک من الناس يدّعون ويزعمون أنهم من أتباع السلف الصالح وينكرون على أن رحمة الله تكون من إرادة الإنعام أو فعل الإنعام، بل لهٗ رحمة كما يليق بشانهٖ ، وليست كرحمتنا وهؤلاء الناس هٰذا الكلام منهم على غاية الخدع والمنافقة لأنک لو بحثت لوجدت أن هؤلاء الناس يقولون: إن رحمتهٗ كما تليق بشانهٖ لكن يعتقدون أن رحمتهٗ نفس الرحمة التی تكون عند المخلوقين التی هي عبارة عن الرقة والانفعال والتأثر وثم يقولون ليست كرحمتنا وكلامهم فی غاية الإضلال لأنهم يثبتون لله صفات المخلوقين وثم يقولون: إنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهٖ شَيْءٌ وَّهُوَ السَّمِيْعُ الْبَصِيْرُ﴾ (الشورى:١١) وهؤلاء المشبّهة من أتباع ابن تيمية ويسمون أنفسهم أهل الحديث أو سلفية ، وهٰذه الأسامی لاتنطبق عليهم . فإن قلتم كيف تقولون إن هؤلاء الناس مشبهة وهم يقولون: إنهٗ ليس كمثلهٖ شيء وهو السميع البصير، ولا يقولون إن صفات الله كصفات غيره.

قلنا بتوفيق الله عزوجل إن شاء الله : أنهٗ أخبرنا هل يد واحد من الإنسان تشبه واحدا آخرا من الإنسان فی جميع الوجوه . فإن قلتم: نعم! أخطأتم؛ لأن المعلوم أنهٗ حتّٰى السطور فی بنان واحد من الإنسان لاتشبه السطور فی بنان واحدٍ آخرٍ من الإنسان بجميع الوجوه، بل تختلف ، ولهٰذا السبب، تستخدم كعلامة التعيين ، فهل يجوز أن يقال لسطور بنان واحد من الإنسان أنها ليس كمثلها شيء، وأنا أعطيک المثال أسهل من هٰذا ، فرسول الله صلى الله تعالٰى عليه وسلم ومعلوم أن الله

عزوجل لم يخلق مثلهٗ ، فهل يجوز أن يقال لهٗ أنهٗ ليس كمثلهٖ شيء؟ فإن قلتم: لا ، فقد أصبتم ،لأن ليس كمثلهٖ شيء من شأنه تعالٰى المختص بهٖ وشانهٗ لايشاركه فيه غيره. فإذا يكون هٰكذا ، فعلمنا أنهٗ ليس كمثلهٖ شيء لايعني أن لهٗ رحمة في معنى الرقة والانفعال ، لكن ليس كمثلنا؛ لأن هٰذا الشيء يوجد في المخلوق لأن واحد من المخلوق لايشبه واحدا آخرا من المخلوق في جميع الوجوه ومع هٰذا لايطلق عليه ليس كمثلهٖ شيءٌ ، لأنهٗ ولو لا يشبه آخرا في جميع الوجوه، بل يشبههٗ في الجملة فيدهٗ لاتشبه يدا آخرا من المخلوقين لكن تشبهها في أن كلتيهما جارحتان ورحمتهٗ تشبهها رحمة آخر من المخلوقين في أن كلتيهما من نوع الرقة والإنفعال ، لكن ذات الباري سبحانهٗ وتعالٰى ليس كمثلهٖ شيء فهومع صفاتهٗ لايشبه صفات الآخرين في أي وجه من الوجوه ، فرحمتهٗ ليست برقة ويدهٗ ليست بجارحة ، لٰكن هٰؤلاء الناس يثبتون للّٰه رقة فيشبهونه بخلقهٖ ، ثم يقولون ليس كمثلنا . فهٰذا ليست لهٗ فائدة بعد التشبيه ، فلهٰذا السبب صدق اسم المشبهة عليهم. وليس كلهم سواء، بل هم أصناف شتى، فممكن يوجد منهم من لايعتقد هٰكذا ، وينفي معنى الرقة عن ذات اللّٰه تعالٰى وهٰذا لايعني أن الآخرون من نفس الفرقة لايعتقدون علٰى هٰذا وأنا عرفتهم ورأيتهم من قريب وأكثر كتبهم لا توضح، بل يتكلمون علٰى طريقة أن هٰذهٖ صفات حقيقية علٰى ظاهرها للّٰه تعالٰى . ثم يقولون بلا تشبيه وبلا تاويل، فالناس لاسيما عوام الناس منهم يأخذون هٰذه الصفات علٰى ظاهرها ويقعون في التشبيه الصرف، وعلماء هم أيضًا يشبّهون اللّٰه بخلقهٖ في كتبهم وإن شاء اللّٰه! نتكلم عن هٰذا الموضوع في الأماكن الأخرىٰ حسب الضرورة.

المتن: هٰذا ذكر بيان عقيدة أهل السنة والجماعة علٰى مذهب فقهاء الملة أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي وأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري وأبي عبداللّٰه محمد بن الحسن الشيباني رضوان اللّٰه عليهم أجمعين وما يعتقدون من أصول الدين ويدينون بهٖ لرب العالمين.

الشرح:

فالشيخ يقول إن هٰذا بيان عقيدة أهل السنة والجماعة. فمن أهل السنة والجماعة؟ ففي الحديث أن هٰذه الأمة يعني أمة محمد صلى اللّٰه عليه وسلم ستفترق علٰى ثلاثة وسبعين فرقة ، كلهم في النار إلا واحدة. وهي "ما أنا عليه وأصحابي. ." (سنن الترمذي، ح: ٢٦٤١) وفي رواية أخرىٰ "أنها هي الجماعة . ." (سنن ابن ماجة، ح: ٣٩٩٣) وفي الحديث "عليكم بالجماعة . " (مسند أحمد، ح: ٢٣١٤٥) وفي الحديث "عليكم بالسواد الاعظم . ." (مسند أحمد، ح: ١٨٤٥٠) وفي الحديث "فإذا شذ الشاذ منهم (يعني الجماعة) اختطفته الشياطين كما يختطف الذئب الشاة من

الغنم..." (المعجم الكبير، ح: ٣٨٩) وفي الحديث "من فارق الجماعة مات ميتة جاهلية..." (مسند أحمد، ح: ٢١١٦٦) فأهل السنة والجماعة هي الفرقة التي على طريقة نبينا صلى الله عليه وسلم صاحب الشريعة الإسلامية كما يفهمها أصحابهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. وهي الجماعة وهي السواد الأعظم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

فإن سئلتم فهمنا أن من أهل السنة والجماعة هي الفرقة التي على ما عليه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهي السواد الأعظم، فأخبرنا على أي فرقة تنطبق هذه الصفات، حتى نكون معهم.

فقلنا بتوفيق الله تعالى إن شاء الله عزوجل أن الرسول عليه الصلوات والسلام أعطانا وأخبرنا عن بعض الصفات لهذه الفرقة، وهي أنها السواد الأعظم ولايسلك مسالك الشاذة ويأخذ من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ونحن نرى أن هذه الصفات تنطبق على الأشاعرة والماتريدية من أصحاب المذاهب الأربعة [1]؛ لأنهم السواد الأعظم من هذه الأمة وهم لايسلكون آراءً شاذة.

ويأخذون من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم. وهذه الصفة الأخيرة التي هي أعظم الصفة لهذه الفرقة تنطبق على الأحناف أكثر من غيرهم؛ لأن شيخنا الموفق أبوحنيفة رحمه الله تعالى كان لهٗ حظ وافر من أخذ من أقوال وأفعال الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وكان يعتبر أقوالهم وأفعالهم حجة بعد القرآن والسنة والإجماع حتى يفضّل آراء هم على رأيه وكان يقول لو يأتينا من الصحابة فعلى رأس العين، ولو يأتينا من التابعين فهم رجال ونحن رجال، ولهٗ نصيب أوفر من الأئمة الثلاثة في هذا المجال وحتى يقال: أن الإمام الشافعي لايحتج بأقوال الصحابة وبأفعالهم، والصحيح أنهٗ كان يأخذ من الصحابة، لكن ليس كما كان يفعل ويأخذ شيخنا أبوحنيفة رحمه الله تعالى، وعندي هذا سبب عظيم إن شاء الله تعالى لقبول مذهب الحنفية، حتى صار مذهب أكثر أمة محمد صلى الله عليه وسلم وفي الحديث "من أحبه الله توضع لهٗ القبول في الأرض." (صحيح مسلم، ح: ٢٦٣٧) وأصحاب الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أولياء الله وحب أولياء الله يأتي بحب الله للمحب إن شاء الله العزيز.

فهذه الفرقة مشتملة على هذه الصفات معروفة بالأشاعرة والماتريدية من المذاهب الأربعة هي أهل السنة والجماعة. فإن سألت أنك ادعيت أن هذه الفرقة على ما عليه سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابهٗ رضي الله تعالى عنهم، فما هو الدليل؟

---

(١) الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة وعلى الحنفية منهم أكثر انطباقا من غيرهم لما سنبين قريبا إن شاء الله عزوجل

فقلنا: إن شاء الله بقراءة هذا الكتاب مع الشرح سيبين لك هذا. ثم من المذاهب الأربعة الذين يسلكون مسلك البدعة والخرافات والشرك والضلال ليسوا قطعا وبتاتا من أهل السنة والجماعة، بل من أهل الهواء والبدعة، وقد يكونون مشركين كافرين. وأيضًا أهل الظاهر من ابن حزم وأتباعهٔ وابن تيمية وأتباعه الذين يسمون أنفسهم الفرقة السلفية ليسوا من أهل السنة والجماعة.

فان سألت لم؟

فنجيب بتوفيق الله عزوجل إن شاء الله سبحانهٔ وتعالٰى أنهٔ ما ذكرنا من الصفات الواردة لأهل السنة والجماعة هي مفقودة فيهم. فأهل الظاهر من أصحاب ابن حزم وابن تيمية وغيرهم ليسوا من السواد الأعظم وهم عندهم آراء شاذة كثيرة جدا. وهم لايعتبرون حجية أقوال الصحابة وأفعالهم رضي الله تعالٰى عنهم أما أنهم ليسوا السواد الأعظم، فهٰذا معلوم بالحس؛ لأن أهل الظاهر قليل جدا ونحن نعبر ابن تيمية وأتباعهٔ بأهل الظاهر أيضًا ولو هم لايعتبرون أنفسهم بهٰذا الاسم، لسبب أنهم كثير الأخذ من آراء أهل الظاهر ولأنهم من نفاة التقليد ولأنهم فى العقيدة جامدون فى الظاهر، حتٰى يقعون فى التشبيه، كما سنبين إن شاء الله تعالٰى.

فكل هٰؤلاء الناس من أتباع ابن حزم وابن تيمية ومن جرى مجراهم قليل جدا. ومقارنتهم مع أهل المذاهب الأربعة كما مقارنة القطرة مع الحوض. ثم الآراء الشاذة فهي كثيرة جدا فى هٰؤلاء الناس، حتٰى هم معروفون بها وحتٰى هم فى الأحيان يخالفون الآراء مجمع عليها فى الصحابة رضي الله تعالٰى عنهم، وهٰذا يدل علٰى عدم الصفة الثالثة مما ذكرنا من الصفات وهي عدم الأخذ من الصحابة رضي الله تعالٰى عنهم ونحن نرٰى أن أهل الظاهر يرون أن الطلاق الثلاث فى مجلس واحد تعتبر واحدة وهٰذا خلاف إجماع الصحابة رضي الله تعالٰى عنهم لأنهم قاطبتهم رأوا أن الطلاق الثلاث فى مجلس واحد طلاقة ثلاثة وهم يستدلون بحديث ابن عباس رضي الله تعالٰى عنهما، وهٰذا عجب منهم؛ لأن ابن عباس رضي الله عنهما كان يفتى أن الطلاق الثلاث فى مجلس واحد طلاقة ثلاثة، وأما هٰذا الحديث فتأويلهٔ موجود عند علماء أهل السنة تاويلة حسنة لاتخالف إجماع الصحابة رضي الله تعالٰى عنهم. وكذٰلك هم يجوزون بيع أمهات الأولاد وكذٰلك كثير منهم لايأخذون بأذان الثانى الزائد من زمان عثمان رضي الله عنه، ولايرون عشرين ركعة فى التراويح، ولايرون الطلاق فى الحيض، وهٰذا مخالف لحديث فى البخاري الصحيح الصريح. ثم بعض منهم يستخفون بآراء الصحابة رضي الله تعالٰى عنهم إلٰى حد، حتٰى فى كلامهم رائحة كلام الرافضة وهٰذا معروف عند من اطلع علٰى كلام الشوكاني فى بعض الأماكن من نيل الأوطار وإرشاد الفحول، ثم ابن حزم وأتباعهٔ لايعتبرون القياس إلا ما هو من قبيل دلالة النص وهٰذا خلاف ما عليه أمة محمد صلى الله عليه

سلم من زمان الصحابة رضي الله تعالٰى عنهم وقد ثبت أن الصحابة رضي الله تعالٰى عنهم كانوا يقيسون عند عدم وجود النص . وفى الحديث الذى تلقاه العلماء بالقبول أن الرسول عليه الصلوٰة والسلام أقر معاذ بن جبل على القياس ، وبالعكس ابن تيمية وأتباعهٗ يتوسعون فى القياس حتّٰى يعلّلون على العلل غير المنضبطة ويسمونها الحكمة ويقيسون عليها ، وهٰذا خلاف ما عليه جمهور ، ثم ابن تيمية ينكر إنكارا شديدا علٰى شد الرحل لزيارة النبي صلى الله عليه وسلم عند قبرهٖ ، وهٰذا خلاف ما هو المأثور من زمان السلف الصالح ، وما قال أنهم يسافرون لزيارة المسجد دون النبي صلى الله عليه وسلم قول مردود بلا دليل؛ لأنهٗ لم يثبت منهم شد الرحل لزيارة مسجد الأقصى كما ثبت لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم فى العقيدة ، فعقيدة ابن حزم فى ذات الله تعالٰى وصفاتهٖ تشبه عقيدة المعتزلة والجهمية؛ لأنهٗ شديد التأويل ، حتّٰى أوّل صفة السمع والبصر وقال: إنهٗ سميع بصير بمعنى أنهٗ عليم بلا فرق ، وهٰذا تعطيل هٰذه الصفات ، ولايعتبر القرآن من الكلام الأزلي، بل العلم الأزلي فقط ، وعنده آراء شاذة باطلة كثيرة جدا ، وهٰذا معروف عنه من اطلع علٰى كتابهٖ "الفصل بين الملل والنحل" وفى الفقه فعندهٗ آراء شاذة وحتّٰى بعض الأحيان مضحكة وهٰذا معروف عند من اطلع علٰى كتبهٖ فى الفقه . وأما ابن تيمية فبالعكس أنهٗ وقع فى تجسيم ذات البارى تعالٰى ونعوذ بالله من ذٰلك ، وعقيدتهٗ فى ذات البارى تعالٰى تشبه عقيدة الكرامية ، فإنهٗ قال: إن الله لهٗ حد يعلمه هو ولا نعلمهٗ ، وهو مستقر على العرش ، وهو محل للحوادث ، وأنهٗ فى جهة الفوق ، والقرآن محدث فى ذاتهٖ تعالٰى ، وليس الكلام الأزلي ومع ذٰلك غير مخلوق (وهٰذا مناقضة ظاهرة) وذكر بعض العلماء أن ابن تيمية قال: أن ذات البارى تعالٰى مركب مفتقر إلٰى ذاتهٖ افتقار الكل إلى الجزء ، وكل هٰذه العقيدة عقيدة باطلة فاسدة. وبعض منها لاسيما الجسمية ، والافتقار كفر صريح ، ثم عندهٗ آراء كثيرة جدا تخالف إجماع الأمة ، والعلماء قالوا: أن ابن تيمية خالف الإجماع فى قريبا من ستين مسئلة.

والراقم هٰذه السطور غفر الله لهٗ فى السجن الآن فى دارالحرب فى الولاية المتحدة ، قال: إنهٗ رأى أتباع ابن تيمية كثيرة فى هٰذا البلد وحتّٰى فى السجن وهم يشبهون الله بخلقهٖ. منهم من يعتقدون أن الله فى مكان ومكانهٗ العرش ، وهو ينزل إلى السماء الدنيا بمعنى الانتقال من مكان إلٰى مكان – نعوذ بالله – وهو محل للحوادث ، وأن القرآن وسائر كلامهٖ حادث فى ذاتهٖ ، ويتكلم بصوت حادث، ومنهم من يعتقدون أنهٗ ذو أعضاء وجوارح ، لكن ليس كمثلنا . ومنهم من لا يستخدمون كلمة الأعضاء والجوارح لهٗ ، لكن يعتقدون فى وجه كانهٗ ذو أعضاء وجوارح ، وكلهم يعتقدون أنهٗ فى جهة الفوق ، ثم منهم من يقولون إنهٗ لو نعرج إلى الجهة الفوق نقرب منه مسافة ، ومنهم من

يتوقفون فى هذا أولا يقولون بهذا ومن العقيدة الفائضة بينهم أن معنى الاستواء أنه تعالى صعد عليه واستقر ، ونعوذ بالله من جميع هذه العقائد الفاسدة وقد تكون مكفرة ، فمقدار الكلام أن التشبيه والتجسيم فائضة بينهم ونحن إن شاء الله العزيز فى هذا الشرح نبين عقيدتهم مع الرد البليغ القاطع مع غيرهم من أهل الهواء والبدعة والرد عليهم إن شاء الله العزيز ، وذكرنا أننا نثبت إن شاء الله أن منهج الأشاعرة الذين هم أتباع الشيخ أبو الحسن الأشعري الشافعي والماتريدية الذين هم أتباع الشيخ أبو منصور الماتريدي رحمهما الله تعالى هو منهج أهل السنة والجماعة ، وما نحن نقصد بهما هو من جهة الأغلبية إلا من منهم غلا فى علم الكلام المذموم والفلسفة ، وانحرف وحاد عن جهة السلف الصالح ، فنحن لانعتبرهم على طريقة أهل السنة والجماعة ، وهذا الكتاب "العقيدة الطحاوية" توافق مع منهج الماتريدي ومع منهج الأشعري أيضًا إلا فى بعض الأماكن التى سنبين إن شاء الله تعالى فى الشرح ، فما نحن إن شاء الله تعالى نسطر ونتكلم ونبين فى هذا الشرح من المنهج الماتريدي والأشعري ، فهو منهج أهل السنة والجماعة دون من انحرف من هذا المنهج من المنسوب إلى الماتريدي أو الأشعري ، ثم إن قلتم إنكم أكثرتم الكلام على أتباع ابن حزم وابن تيمية ، هل هناك سبب لهذا؟ فقلنا بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز نعم! له سبب عظيم وهو فى هذا الزمان قد ظهرت هذه الفرقة التى تسمى نفسها "الفرقة السلفية" ونحن لاحظنا هذه الفرقة وتعاملنا معها حتى علمنا أن هذه الفرقة فى غاية الضلال ، وعلمنا أن ابن تيمية كان فى غاية الضلال فى أصول الدين وفروعه . وهذه الفرقة تتبعهُ فى هذهِ وتدعوا الناس إليها ، وتخدعهم أنها تتبع القرآن والسنة والسلف الصالح، وتنكر على الأشاعرة والماتريدية إنكارا شديدا ، وترد على المذاهب الأربعة ، وفى الحقيقة هذه الفرقة تدعوا الناس إلى طريقة النار تدعوهم إلى فساد العقيدة وضلالة فى الفروع ، فقمنا نحذر الناس من هذه الفرقة ، ثم كما ذكرنا فى بداية الكتاب أنهُ قد كتب شرح "العقيدة الطحاوية" على غير منهجها ، فهذه الفرقة تستخدم هذا الشرح دون اعتبار المتن وتخدع الناس ، وهذا الشرح منسوب إلى ابن أبى العز ويقال حنفيا ، وهو فى الحقيقة من أتباع ابن تيمية ، كان تلميذ تلاميذه ، وهذا معروف من اطلع على كتابه ، ومن يعرف من حال حياته ، وقد خالف العقيدة الطحاوية التى هي العقيدة لأبى حنيفة فى عدة من المواضع. ومن قرأ الفقه الأكبر لأبى حنيفة وهذا الشرح من ابن أبى العز للعقيدة الطحاوية واطلع على فتاوىٰ ابن تيمية فقد علم أن عقيدة ابن أبى العز يخالف عقيدة أبى حنيفة ويوافق مع ابن تيمية وكان كثير الأخذ منه ويتبعه فى الحق والباطل ، فلهذا قمنا نحن لكتابة هذا الشرح على العقيدة الطحاوية ، حتى إن شاء الله العزيز يتبين الرشد من الغى والحق من الباطل بتوفيق الله عزوجل وبرحمته وهدايته ، ونحن نبين كل هذا إن شاء الله تعالى فى

هذا الكتاب.

ثم إن تسئل أنكم ذكرتم التقليد وقلتم: أن أهل الظاهر ينفرنه ، فأخبرنا طريقة الرشد فى هذا المجال .

فنجيب إن شاء الله عزوجل بتوفيقه تعالى أن التقليد مأثور من زمان الصحابة رضي الله تعالى عنهم وأن الصحابة رضي الله تعالى عنهم ليس كلهم فقهاء والمجتهدين، بل منهم مجتهدون مفتون، وهم قليل جدا بنسبة من فيهم من المستفتين المقلدين ، فالقرآن الكريم يخبرنا بذلك ، فقال الله عزوجل ﴿يٰأَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْآ أَطِيْعُوْا اللّٰهَ وَأَطِيْعُوْا الرَّسُوْلَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (النساء:٥٩) وقال تعالى ﴿فَاسْئَلُوْآ أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَاتَعْلَمُوْنَ﴾ (النحل:٤٣) وقال تعالى ﴿وَ لَوْ رَدُّوْهُ إِلَى الرَّسُوْلِ وَ إِلٰى أُولِى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِيْنَ يَسْتَنْبِطُوْنَهُ﴾ (النساء:٨٣) وقال تعالى ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوْا فِى الدِّيْنِ وَ لِيُنْذِرُوْا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوْآ إِلَيْهِمْ﴾ (التوبة:١٢٢) وقال تعالى ﴿وَ السّٰبِقُوْنَ الْأَوَّلُوْنَ مِنَ الْمُهٰجِرِيْنَ وَ الْأَنْصَارِ وَ الَّذِيْنَ اتَّبَعُوْهُمْ بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوْا عَنْهُ﴾(التوبة:١٠٠) فثبت أن من الصحابة طائفة تعتبر أولو الأمر والمستنبطون للأحكام والسابقون الأولون ، وهؤلاء الذين أمرعنهم أن يطاعوا وأن يسألوا منهم عن أمور الدين؛ لأن القرآن نزل فى زمان الصحابة رضي الله تعالى عنهم فهذه الآيات تتكلم أولا عن زمانهم ، ثم يفيد الكلام عن زمان بعد ذلك الزمان؛ لأنهُ هاديا شارعا إلى يوم القيامة. ثم قد ثبت من سيرة الصحابة رضي الله تعالى عنهم أن أكثرهم يستفتون المفتون منهم فى الحوادث ويتبعونهم.

فإن قلتم نحن لاننكر بهذا، بل نتكلم عن التقليد بلادليل .

فقلنا بتوفيق الله تعالى: أن أهل الظاهر قد ضلوا وناقضوا إنكارهم بأفعالهم وهذا هو من دأبهم ، ونحن نبين لك من الأمور تكون شافيا ودليلا قاطعا مسكتا فى هذا المجال ، فنقول بتوفيق الله تعالى إن شاء الله عزوجل أننا ذكرنا أن التقليد يعنى بدون معرفة الدليل مأثور من زمان الصحابة رضي الله تعالى عنهم وأمة محمد صلى الله عليه وسلم اتبعوه فى هذا قبل ظهور الخلاف ممن شذ وفى الحديث "عليكم بالسواد الأعظم والجماعة ومن شذ شذ إلى النار." (المستدرك للحاكم، ح: ٣٩١) ومن زمان الصحابة رضي الله تعالى عنهم كانوا يفتون الناس بدون أي إشارة إلى الدليل والناس يتبعونهم ، وكذلك فى زمان التابعين وتبع التابعين حين اتسعت دائرة الاجتهاد إن عوام الناس كانوا يتبعون أئمة المجتهدين من المدينة والمكة والكوفة والبصرة والشام والمصربدون معرفة الدلائل وبدون الإنكار عليهم فى هذا المجال ، وفى الحديث الذى تلقاه العلماء بالقبول أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث معاذ بن جبل إلى اليمن ليأخذوا الدين منه يعنى من اجتهاده من القرآن

والسنة والرأي المبنى عليهما(مسند أحمد، ح:٢٢٠٠٧) وهذا دليل ظاهر لتقليد المجتهدين .
وهذه كلها دلائل ظاهرة فى جواز، بل وجوب التقليد للعامي والفقيه غير المجتهد للمجتهد، بل نحن إن شاء الله الآن نذكر الأمور بطريقة الإلزام تسكت أهل الظاهر إن شاء الله تعالى. فنقول لأهل الظاهر النفاة للتقليد أنكم لاتعتقدون فى تقليد بدون معرفة الدليل، بل تقول إنهٔ لابد من معرفة الدليل ثم يقلد هذا الدليل. فيا عجب منكم أنكم تنسبون القول والفعل إلى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بقول محدث اعتمادا عليه بدون معرفة الدليل ، بدون أن تسمع مباشرة من رواة التى موجودة فى سند هذا الحديث ، وبدون أن تعرف أي واحد منهم مباشرة وأحوالهم وتقواهم وصداقتهم ، وبدون أن تعرف أن جميع هذه الرواة تلقوا هذا الحديث بعضهم من بعض مباشرة ، وبدون أن تعرف قوة الحافظة والذاكرة لهذه الرواة مباشرة ، فجميع هذه الأمور والأكثر من ذلك أنتم تأخذونهٔ اعتمادا على قول المحدث فقط ، مثلا الصحيح البخاري ، فأنتم تأخذون جميع أحاديثه ما فى البخاري، بل تعتبرونها قطعية الثبوت ، كما هو مذهبكم أن أخبار الآحاد قطعية الثبوت ولا تبحثون عن الرواة للصحيح البخاري ولا ما قالوا المحدثون الأخرون عن هذه الرواة ولا أي شيء كل هذا اعتمادا كاملا جازما على البخاري.

وإن قلتم : نحن نفعل هذا، لأن الأمة تلقى الصحيح البخاري بالقبول ، قلنا ليس هذا فقط؛ لأن لو البخاري يذكر حديثا فى غير الصحيح البخاري ويقول هذا صحيح لأنتم تأخذونهٔ جميعا بدون أي شك اعتمادا على البخاري ، فيا عجب منكم أنتم تنسبون القول والفعل إلى نبينا سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وقد قال: "من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعدهٔ من النار." (صحيح البخاري، ح:١٠٧) اعتمادا على قول المحدث وتنكرون على المقلد العامي يقبل فتوى المجتهد بدون معرفة الدليل اعتمادا عليه ، ونسبة القول والفعل إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أكثر أهمية وأشد خطرا من قبول الفتوىٰ من المجتهد ، فأنا أسألكم يا أهل الظاهرا أن لو المجتهد يقول للعامي هذا هو العلم الذى أنا بلغت بعد اجتهادى من النصوص الإسلامية ، وهو صحيح عندى ، لكن أنا لست نبيا فقد أكون مخطأ ، والعامي يقبل منه هذا الحكم ويتبعه اعتقادا أنهٔ اجتهاد المجتهد الذى يخطىء ويصيب ، هل هذا أشد خطرا أو أن العامي يقبل قول المحدث الذى يقول لهٔ: إن هذا القول صدر من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ونسبته إليه بهذا صحيحة ، والعامي يقبل منه وثم عندكم بالجزم؛ لأن الآحاد عندكم كالمتواتر فى الثبوت ، فهل هذا أشد خطرا أو الأول؟ فعجبا منكم تقبلون الثاني بالجزم بدون معرفة الدليل لصحة الحديث من عندكم، بل فقط اعتمادا على قول المحدث. وينكرون على الأول الذى هو أهون منه بأضعاف وأضعاف كثيرة ، فهل هذا إلا مناقضة ظاه

عندكم؟ وهكذا منهجكم في غاية المناقضات ، ثم نسألكم يا أهل الظاهر! أن العامي الذى لايعرف ولا يفهم دلائل القرآن والسنة للأحكام الفروعية ، فهل يستطيع العالم المضل أن يضلهٗ مع إعطاء الدليل؟ ومثالهٗ أن العالم المضل يستطيع أن يعطيه الفتوى الضال ويعطيه الحديث المنسوخ أو المنكر أو الموضوع أو الشاذ أو مؤول عن ظاهرها بالإجماع أو يعطيه الآية المنسوخة أو مؤولة عن ظاهرها بالإجماع أو القياس الفاسد أو الإجماع المفترى وغيرها من الأشياء الفاسدة ويقول لهٗ : إن هٰذا الدليل دليل صحيح محتج بهٖ والعامي لايعرف فيقبل منه فهل يفيد هٰذا العامي معرفة هٰذا الدليل الفاسد وهو يتبع الضلالة . فهل هٰذا إلا التقليد الصريح؟ يا أهل الظاهر! أنا أعرفكم لأنني تعاملت مع مثلكم ، فأخبرني أليس عند ما واحد من مشائخكم يقول إن هٰذا الحديث في البخاري فعامّتكم لايلهون إلى البخاري ليتثبت أنهٗ موجود فيه، بل يعتمدون على قول شيخكم ، أليس كذٰلك؟ فهل هٰذا إلا التقليد العميّ؟ وثم أنتم تنكرون على التقليد ، فهل هٰذا إلا مناقضة ظاهرة عندكم ؟

فالحق أن العامي حتٰى لو يخبره العالم بدليل فهو يقلد هٰذا العالم اعتمادا عليه؛ لأنهٗ مع اطلاعهٖ بدليل العالم لايعرف هل هو جميع صحيح أم لا. فإذا يكون هٰكذا ، فهو يعرف أولا يعرف هو مقلد، فليس هناك ضرر لو لايعرف الدليل؛ لأن معرفتهٗ بهٖ مع عدم معرفة صحتهٖ كعدم معرفتهٖ إطلاقا ، ثم لو قلتم إنهٗ على العامي أن يبحث عن عالم الحق والهداية ويتثبت هٰذا ثم يستفتيه ، فقلنا: أنتم الأن رجعتم إلى مذهبنا؛ لأننا نقول بهٰذا أن العامي يبحث عن العالم المشهور يتبع الحق من أهل السنة والجماعة وثم يقلدهٗ ، فهٰذا هو شغل العامي ، ثم بعد أن وجد العالم بهٰذه الصفة ، فهو يعرف دليلهٗ أو لايعرف دليلهٗ لايضرهٗ ، هٰذا لما ذكرنا؛ لأنهٗ لايعرف صحته مباشرة إلا باعتماد على هٰذا العالم وهٰذا بنسبة الجواز وإلا معرفة الدليل أفضل من عدم معرفته؛ لأنهٗ من طلبة العلم الشريف وهو أفضل لامحالة ، لكن من ناحية الجواز فكلاهما يجوزان ، ثم يا أهل الظاهر أنتم تدّعون أنكم لاتقلدون، بل تبحثون وتتبعون ما هو الأقوى عندكم وقد علمنا بالمعاملة معكم بملاحظتكم أن هٰذا الدعوى غير صحيحة، بل كثير من الأحيان أنتم تبحثون في آراء المجتهدين لما هو أسهل وأشهىٰ عندكم ، هل هٰذا الا اتباع الهوى ، ثم حتٰى أنكم في كثير أو أكثر المسائل تقلدون آراء مشائخكم بدون معرفة الدليل. وليس عندكم إلا مناقضات بين أقوالكم وأفعالكم في هٰذا المجال، بل ربما أنتم أكثر تقليد لمشائخكم منا ؛ لأنكم تفضلون آراء مشائخكم حتٰى على آراء الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم، بل إجماعهم كما في مسئلة الطلاق الثلاث. وراقم الحروف يقول إن أهل الظاهر يعظمون شيخهم ابن تيمية كتعظيم الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم عمليا ، حتٰى لو واحد ينتقد عليه لآراءه الفاسدة فيبغضونهٗ أهل الظاهر بغضا شديدا ويخرجونهٗ من جملة أهل السنة فقط لهٰذا السبب وأنا رأيت هٰذا

منهم نفسا كأن ابن تيمية من أفضل الصحابة رضي اللّٰه تعالىٰ عنهم ونقد عليه بنفسه خروج من طريقة اهل السنة والجماعة وأيضًا لو الصحابة رضي اللّٰه تعالىٰ عنهم يقولون رأيا وابن تيمية يقول رأيا ، فهم أقرب للقبول من ابن تيمية منهم من الصحابة رضي اللّٰه تعالىٰ عنهم ، وقد ذكرنا أنهم لايعتبرون أقوال الصحابة وأفعالهم بأنفسها حجة بعد النصوص ، ومع ذٰلک أقوال ابن تيمية هو أساس منهجهم لايحيدون عنها إلا قليلا.

ثم لو قلتم إننا قد علمنا جواز التقليد، بل وجوبه على العامي بمعرفة الدليل أو بدونه ، فهل يجوز لنا أن نقلد من أئمة المجتهدين غير الأئمة الأربعة أو لا يجوز؟

وهل يجوز لنا أن نقلدهم معا أو لا بد من اختيار واحد منهم والتقييد به؟

فنجيب بتوفيق اللّٰه تعالىٰ إن شاء اللّٰه العزيز أنهٗ ذكر حافظ ابن الصلاح الإجماع فى عدم جواز تقليد غير المذاهب الأربعة ، والسبب أن المذاهب غير الأئمة الأربعة لم تبلغنا بطريقة موثوقة بها، وأيضًا لم تبلغنا مع تصحيح معانى آراء هم وتقييد إطلاقها وتخصيص عمومها وجزم عدم تحريفها وغيرها من الأمور المهمة اللازمة التى لابد منها لتجويز تقليد مذاهبهم ، فلهٰذا العلماء لم يجوزه وأما المذاهب الأربعة ففقهاء هم رحمهم اللّٰه تعالىٰ بذلوا سعيهم وجهدهم حتىٰ أبلغونا هٰذه المذاهب الأربعة بطريقة صحيحة موثوقة بها مع تعيين المعانى الصحيحة لأقوالها وتحديد حدودها وتقييد قيودها وتضبيط دائرتها ، حتىٰ نستطيع أن نفهمها بوجوه صحيحة ، وأيضًا وجود علماء ها بوافرة، حتىٰ نرجع إليهم لإدراكها بدون أن نقع فى الغلط والتحريف، فلابد من تقييد نطاق التقليد بهٰذه المذاهب الأربعة .

وأما السؤال الآخر فنقول بتوفيق اللّٰه تعالىٰ إن شاء اللّٰه العزيز إنهٗ واجب على العامي تقليد المجتهد المعين أو غير المعين فى الجملة ويجوز بدون معرفة الدليل وبمعرفته وليس عليه واجبًا بنفسه أن يقيّد بالمجتهد الواحد دون المجتهد ، لٰكن العلماء بسبب السد الذرائع ألزموه أن يقيد بواحدة من المذاهب الأربعة ، وبيانهٗ لو العامي أُرسل أن يختار مايشاء من هٰذه المذاهب الأربعة من الفتاوىٰ ليقع فى اتباع الهوىٰ دون اتباع الدين؛ لأنهٗ سيختار ما هو أشهىٰ وأهوىٰ عندهٗ دون اعتبار القوي والضعيف والراجح والمرجوح. وقال تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾(الجاثية:٢٣) وهٰذا نظر من العلماء نظر صحيح؛ لأن لاسيما بعد زمان السلف الصالح وخصوصاً فى زماننا للعامي أن يقع فى الشهوة والهوى ، حتىٰ فى أمور الدين ليس نادراً، بل متوقع جدا . ونحن نرىٰ عامة الناس من أهل الظاهر يقعون فى هٰذا المذموم لأنهم لايتقيدون بالمذهب، بل يختارون من بين أقوال الفقهاء ، فللمراعاة لهٰذا الخطر العظيم ولسد ذرائعه ألزم على العامي أن يتقيد بالمذهب دون المذهب وسد الذرائع حجة من حجج الدين ، كما هو المعروف فى أصول الفقه ، فما يؤدى إلى اتباع الهوىٰ الذى

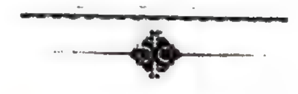
هو الحرام ، فسدهُ واجب .

فلهذا السبب العلماء ألزموا العامي أن يتقيد بالمذهب من هذه المذاهب الأربعة ثم إن تسأل ما ذا يفعل العامي إذا بدا لهُ أن هذا الرأي مثلا فى مذهبه خطأ ؟ . فنجيب بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز أن لو العامي لو بدا لهُ هذا الشيء بطريقة صحيحة وهذا ليس فقط بقراءة الحديث الواحد فى الموضوع، بل لابد من اطلاع دلائل مذهبه فى الموضوع ودلائل المذهب الآخرفى الموضوع ، ثم لابد من فهمها ومقارنتها تحت ضوء الأصول الفقه الإسلامي والتمكن الصحيح باللغة العربية ، وهذا لايكاد أن يوجد إلا فى العالم المتبحر ، ولوغير المجتهد فواجب عليه أن يترك مذهبهُ فى هذا المجال الذى هو خطأ عندهُ ويقلد المذاهب الآخر الذى هو صواب عندهُ ؛ لأننا لا نقلد الأئمة المجتهدين إلا لاتباع الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ، فلو بدا لنا أنهم أخطئوا فى المسئلة فحرام علينا أن نقلدهم فى هذا الشيء، بل لا بد من تقليد الحق الذى فيه اتباع الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ، ثم لابد لهذا العالم أن يقلد المذهب الآخر الصحيح عندهُ فى هذا المجال ، لكن بالتقيد بالمذاهب الأربعة؛ لأن الخروج من المذاهب الأربعة وقع فى الشذوذ . وفى الحديث "عليكم بالسواد الأعظم ." (مسند أحمد، ح:١٨٤٥٠) وفى الحديث "ومن شذ شذ إلى النار." (سنن الترمذي، ح:٢١٦٧) اللّٰهم إلا هو بلغ فى هذا المجال درجة المجتهد وهذا لايكاد أن يوجد فى زماننا ، لٰكن فى الزمان الماضى كا لإمام محمد الشيباني والإمام أبويوسف والإمام الزفر من المذهب الحنفي والإمام المزني من مذهب الشافعي (والله أعلم) كانوا من هذا القبيل ، وممكن أن يقال (والله أعلم) أن الشيخ ابن حجر العسقلاني والإمام النووي من الشوافع والإمام ابن الهمام والإمام الطحاوي من الأحناف من هذا القبيل أيضًا (والله أعلم)

فالشيخ الإمام الطحاوي يخبرنا أن هذه العقيدة الطحاوية هي عقيدة الأئمة من أهل السنة والجماعة إمام أبوحنيفة وإمام أبويوسف وإمام محمد ، وهؤلاء لايحتاجون إلى التعريف لشهرتهم عند المسلمين ، والمذهب الحنفي مذهب أكثر المسلمين وهو مذهب هؤلاء الأئمة فى العقيدة والفقه ، والعلماء من جميع المذاهب تلقوا العقيدة الطحاوية بالقبول واعتبروه عقيدة أهل السنة والجماعة ، فهو ولو منسوب إلى الأحناف ، لكن مقبول عند الجميع.

المتن:

نقول فى توحيد الله معتقدين بتوفيق الله أن الله واحد لاشريک لهُ (٢) ولاشيء مثلهُ ، ولاشيء يعجزهُ ولا إله غيره (٣) قديم بلا ابتداء (٤) دائم بلا انتهاء لايفنى ولايبيد (٥) ولايكون إلا مايريد.



الشرح:

فالشيخ يقول عن توحيد الله تعالىٰ أن الله واحد لا شريك لهٗ وهٰذا أعظم الشيء فى الإسلام وأجلّ أركانه وأساس دعوة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام قاطبتهم ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُوْلٍ إِلَّا نُوْحِيْٓ إِلَيْهِ أَنَّهٗ لَآ إِلٰهَ إِلَّآ أَنَا فَاعْبُدُوْنِ﴾ (الأنبياء:٢٥) والفرق الأعظم بين الكفر والإسلام. وما كان هناك حاجة أن نتكلم فى هٰذا المجال أكثر من هٰذا؛ لأنهٗ واضح بيّن بنفسه، لكن قد ظهر الشرك الجلي فى المسمى بالمسلمين، ووقعوا فيه من دون أن يعترفوا بها جهلا أو عنادا، ولا عذر فى أي منهما، فنحتاج أن نذكر هٰذا الأمر بالتفصيل ونشرح ما هو التوحيد وما هو الشرك وما هو البدعة القبيحة وغيرهم من الأمور، حتىٰ ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَّيَحْيٰى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ (الأنفال:٤٢)

فنقول بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله عزوجل أنهٗ اعلم أن التوحيد أساس الدين والشرك هدمهٗ، والمشرك بالشرك الجلي الأكبر ليس لهٗ مغفرة فى الآخرة ويخلد فى النار: ﴿إِنَّ اللّٰهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُّشْرَكَ بِهٖ وَيَغْفِرُ مَا دُوْنَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَّشَآءُ﴾ (النساء:٤٨) فالعلماء لبيان التوحيد صنفوه بالأصناف لتسهيل الإفهام:

(١) التوحيد فى الألوهية (٢) التوحيد فى الربوبية

(٣) التوحيد فى الأسماء والصفات (٤) التوحيد فى الحاكمية

التوحيد فى الألوهية

التوحيد فى الألوهية معناه أنك توحّد الله سبحانهٗ وتعالىٰ فى عبادتك وهٰذا يشمل سجودك وركوعك وطوافك ودعائك وغيرها من الأمور، وفى القرآن ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِيْ وَنُسُكِيْ وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِيْ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰلَمِيْنَ﴾ (الأنعام:١٦٢) ﴿وَأَنَّ الْمَسٰجِدَ لِلّٰهِ فَلَا تَدْعُوْا مَعَ اللّٰهِ أَحَدًا﴾ (الجن:١٨) ﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوا ارْكَعُوْا وَاسْجُدُوْا وَاعْبُدُوْا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ﴾ (الحج:٧٧) ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِيْنَ وَالْعٰكِفِيْنَ وَالرُّكَّعِ السُّجُوْدِ﴾ (البقرة:١٢٥) ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُوْنِيْٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر:٦٠)

وفى الحديث "الدعاء هو العبادة." (سنن أبى داود، ح: ١٤٧٩) "الدعاء مخ العبادة." (سنن الترمذي، ح: ٣٣٧١)

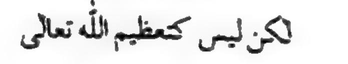
فثبت بهٰذا أنه من يزعمون أنهم مسلمين ويسجدون لمشائخهم أو لقبورهم ويركعون ويطوفون حولها ويعكفون عليها ويدعونهم يشركون بالله بالشرك الأكبر؛ لأنها عبادة لغير الله

تعالى ومن عبد غير الله فقد كفر و ضل وغوى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْتَهْوِىْ بِهِ الرِّيْحُ فِى مَكَانٍ سَحِيْقٍ﴾ (الحج: ٣١)

ثم لو قلتم إن الملائكة سجدوا لآدم عليه الصلاة والسلام فأخبرنا المطابقة بين هٰذا وبين الآيات القرآنية التى ذكرتم. فنجيب بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز أن العلماء اتفقوا على أن سجدة الملائكة لآدم عليه الصلاة والسلام ماكانت للعبادة ، وهٰذا محال لاتجوز قطعا وبتاتا ، ثم منهم من قالوا: إنهٗ كانت فى وجه أن الآدم عليه السلام كان قبلة لهم ، كماأن الكعبة قبلة لنا ، والسجدة فى الحقيقة كانت لله وحدهٗ ، فعلى هٰذا لا إشكال ، ومنهم من قالوا: إن هٰذه السجدة سجدة التحية من نوع التعظيم [1] وكانت جائزة فى الشرائع السابقة وصارت محرما فى شريعة نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم كما نرى من الآيات السابقة منها ﴿وَأَنَّ الْمَسٰجِدَ لِلّٰهِ﴾ (الجن:١٨) هٰذا يدل على عدم الجواز مطلقا أن يكون السجدة لغير الله فى وجه ما ثم قد ثبت من الأحاديث المشهورة المستفيضة منع على الإطلاق عن السجدة لغير الله تعالى وفى الحديث "لا تفعلوا السجود لغير الله ولو إنى أمر الواحد أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها." (سنن ابن ماجة، ح:١٨٥٣) . والأحاديث فى هٰذا المجال مستفيضة مشهورة تفيد العلم ، وثم قد أجمع الأمة فى منعها ، فلو واحد يسجد لإنسان سجدة التحية مجوزا بها يصير كافرا ، وغير مجوز بها يصير فاسقا فى غاية الفسوق ، ولو فعل بنية العبادة مجوزا أو عدمَ مجوزٍ يصير كافرا ، وهٰذا كلهٗ فى سجدة للإنسان ، وأما السجدة لصنم أو لصورة أو لوثن أو لقبر أو لشمس أو لقمر أو لشجرة وغيرها من الأشياء فهو كفر على الإطلاق ولايُسمع فيه أنهٗ تحية أو قبلة أو غيرُمجوزٍ ولاشيء آخر ؛ لأنها من شعائر الكفر ، فلا يلتفت إلى شيء ما، بل إلى تكفير فاعلها وفى القرآن ﴿وَ مِنْ اٰيٰتِهِ الَّيْلُ وَ النَّهَارُ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوْا لِلشَّمْسِ وَ لَا لِلْقَمَرِ وَ اسْجُدُوْا لِلّٰهِ الَّذِىْ خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُوْنَ﴾ (فصلت:٣٧) فقد ثبت أن السجدة لهٰذه الأشياء يعبر عبادة غير الله تعالى بإطلاق لإطلاق هٰذه الآية فتكون كفرا بواحا. والانحناء على منوال السجدة مع جميع تفاصيلها كما ذكرنا.

وأما الطواف فلايجوز إلا لبيت الله الكعبة ولم يثبت جوازهٗ فى الشرائع السابقة إلا لهٗ ، فمن طاف لقبر من قبور الأنبياء أو الصالحين كما يفعلون المسمى بالمسلمين فقد كفر بالله تعالى على الإطلاق ، وقال تعالى ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّائِفِيْنَ﴾ (البقرة:١٢٥) فهو صورةٌ لبيت الله وحقيقة لعبادة الله وتعظيمه؛ لأنهٗ بيتهٗ وضع هدًى وقبلة وبركة لأهل الأرض. ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُّضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِىْ بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَّ هُدًى لِّلْعٰلَمِيْنَ﴾ (آل عمران:٩٦) والله سبحانهٗ وتعالى منزه من الزمان والمكان ولسنا كذلك

1 لكن ليس كتعظيم الله تعالى



فلا بد من المكان لعبادة الله وتعظيمه دعاء وتضرعا وسارعا و سابقا إليه ، فلهذا وضع المساجد في الأرض وأعظمها المسجد الحرام وضع فيه الكعبة قبلة ومطافا لنا لنعبد الله ولا نشرك بالله شيئا. وفي القرآن ﴿ وَ لْيَطَّوَّفُوْا بِالْبَيْتِ الْعَتِيْقِ ذٰلِكَ ۗ وَ مَنْ يُّعَظِّمْ حُرُمٰتِ اللّٰهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهٗ عِنْدَ رَبِّهٖ ؕ وَ اُحِلَّتْ لَكُمُ الْاَنْعَامُ اِلَّا مَا يُتْلٰى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْاَوْثَانِ وَ اجْتَنِبُوْا قَوْلَ الزُّوْرِ ۙ حُنَفَآءَ لِلّٰهِ غَيْرَ مُشْرِكِيْنَ بِهٖ ؕ ﴾ (الحج:٢٩-٣١)فثبت أن الطواف لغير الله يكون شركا وكفرا على الإطلاق ، ثم الطواف لايكون إلا بنية الطواف فمن يجري في دائرة في ميدان كما يفعلون المسابقين في رياضة الجري أو أشياء هكذا ، فهذا لايكون طوافا كما هو ظاهر. وأما العاكفين على القبور وأشياء هكذا فينبغي أن يكون كفرا؛ لأنهٗ من شرائع الكفر كما في القرآن ﴿مَا هٰذِهِ التَّمَاثِيْلُ الَّتِيْٓ اَنْتُمْ لَهَا عٰكِفُوْنَ﴾ (الأنبياء:٥٢) و ﴿فَاَتَوْا عَلٰى قَوْمٍ يَّعْكُفُوْنَ عَلٰٓى اَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ (الأعراف:١٣٨) ﴿قَالُوْا لَنْ نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عٰكِفِيْنَ حَتّٰى يَرْجِعَ اِلَيْنَا مُوْسٰى﴾ (طٰه:٩١)

قال العبد الفقير راقم الحروف إنهٗ ليس فقيها، بل العبد الحقير غفر الله لهٗ المظلوم من أيدى الظالمين الكافرين الذين سجّنوه منذ أكثر من عشرة سنة فهو الأن في سجن في الولايات المتحدة فيقول: إن لو العاكف على القبر يعكف عليه بنية العبادة أو لحب لغير الله علىٰ درجة حب الله أو لتعظيم أهل القبر علىٰ درجة تعظيم الله فهو كفر بواح ، وفي القرآن ﴿وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَّتَّخِذُ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ اَنْدَادًا يُّحِبُّوْنَهُمْ كَحُبِّ اللّٰهِ ؕ وَ الَّذِيْنَ اٰمَنُوْٓا اَشَدُّ حُبًّا لِّلّٰهِ ؕ﴾(البقرة:١٦٥) فالحب لغير الله كائنا ما كان كحب الله شرك أكبر ، وكذٰلك التعظيم والتوقير ، وفي القرآن ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَّهٗ كُفُوًا اَحَدٌ﴾ (الإخلاص:٤)ومن جعل كفوا لهٗ في نوع ما فقد كفر بالله تعالىٰ وللعبادة فهو ظاهر أن العبادة لغير الله كفر بواح ﴿وَاِلٰهُكُمْ اِلٰهٌ وَّاحِدٌ لَآ اِلٰهَ اِلَّا هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيْمُ﴾ (البقرة:١٦٣) والكفار يفعلون هٰذا لآلهتهم الباطلة بنية العبادة وهٰذا من شعاره ، وفي القرآن ﴿قَالُوْا نَعْبُدُ اَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عٰكِفِيْنَ﴾ (الشعراء:٧١) فثبت أنهٗ بنية العبادة ، والاعتكاف نوع من العبادة في شريعة الإسلام أيضا ﴿وَاَنْتُمْ عٰكِفُوْنَ فِي الْمَسٰجِدِ﴾ (البقرة:١٨٧) فمن عكف على القبر بالنيات التي ذكرنا فهو كفر بواح ومن عكف على القبر؛ لأنهٗ يحب أهل القبر ، لٰكن ليس كحب الله أو يحترمهٗ ، لكن ليس كتعظيم الله فهو حرام لامحالة؛ لأنهٗ شبه بعبدة الأوثان وبدعة قبيحة وشبه بالاعتكاف الذي شرع للمسجد فقط ، لكن هل هو شرك أكبر يعني كفر فلاأدري وأنا أُرجع هٰذه إلى الفقهاء ، ونحن نرىٰ أن الزوج لهٗ زوجة شابة جميلة فهو عاكف بها يعني مشغول بها ويقصدها وهٰذا العكف ليس، بل لشهوة وثم ليس فيه أي شيء ؛ لأنها زوجتهٗ إلا لو هٰذه الشهوة تُخل في طاعتهٖ لله تعالىٰ ورسولهٖ صلى الله عليه وسلم فتكون حرامًا بهٰذا السبب وإلا لا بأس فيها ، فلهٰذا السبب نحن توقفنا في المسئلة الأخيرة التي أرجعناها إلى

الفقهاء.

ثـم النذر من العبادة فلايجوز لغير اللّٰه وهو يشمل المطلق والمعلّق. والمطلق أن يقول القائل أنهُ عليه صوم شهر للّٰه تعالىٰ. والمعلق أن يقول القائل : لو اللّٰه يتقبل دعائى هٰذا سأفعل حجا واحدا للّٰه تـعـالـىٰ تـطـوعا، وهو كما نرىٰ عبادة صريح ، فيكون كفراً لغير اللّٰه تعالىٰ كائنا من كان من الأنبياء أو الصالحين أو غيرهم ، وفى القرآن ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ............. حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ (الحج: ٢٩-٣١) وأما الـنـذر لـلّٰـه تـعـالـىٰ ، لٰـكن بأشياء محرّمة [1] من البدعات والـخـرافـات فـحـرام ، كـما يفعلون من عوام الناس أنهُ لو اللّٰه عزوجل يتقبل دعائهُ سيشترى غلافا أو سترا وغيرها من الأشياء لقبر الفلان ويُلبسهُ بها ، فهٰذه الأمور كلها من البدعات والخرافات ولقد نهىٰ رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم أن يجصص القبر وأن يبنى عليه وأن يقعد عليه وأن يكتب عليه وكره كسو الحجارة والطين ، فهٰذه الأمور معصية فنذر للّٰه بالمعصية لايجوز ، وفى الحقيقة لو واحد يـنـذر للّٰه بالمعصية التى معلوم من الدين بالضرورة ، فيصير كافرا؛ لأنهُ يستحل، بل يستحسن الأمور المعصية التى معلومة من الدين بالضرورة وأمثال هٰذه الأمور تكون شرب الخمر أو الزناء أواللواط أو الـغـش وغيـرهـا مـن الأمـور من قبيلها ، وأما هٰذه الأمور التى ذكرنا يعنى تجليل القبر وغلفها وسترها وغيـرهـا مـن الأمـور ، فـفـى هٰذه الأمور نقول: النذر للّٰه بها يكون كفراً لحق واحد الذى يعلم أنها من الـبـدعـات الـمـحرمة ؛ لأنها لم تشرع في الدين وأنها من قبيل البنيان [2] عـلى القبر وأنها خلاف الـسـنة الموروثة من زمان النبي صـلى اللّٰه عليه وسلم فاعتبارها قربة يكون بدعة قبيحة وأما من لايعرف ففعلهُ حـرام ولا يـعـذر فـى فـعـلـهٖ. وأما تكفيرهُ ، ففى هٰذا نتوقف؛ لأن هٰذه الأمور لم تشتهر ولم تنتشر علم حرمتهٖ فى الأمة، فنرجع هٰذا الأمر إلى الفقهاء.

ثـم الـنـذر للّٰه أن يطعم مجاورين القبر للفلان فهٰذا أيضًا لايجوز؛ لأننا قد ذكرنا أن المجاورة لـلـقـبـر لاتـجـوز وهـى مـن قـبـيـل الـعـكـف علىٰ غير اللّٰه يشبه العكف على الأصنام ومن شعائر الكفر ، فـإطـعـامـهـم تـأيـيـد هـم وتـقـريـر فـعـلـهـم وهٰذا لايجوز؛ لأنهُ ولو فعل بوجه غير العبادة وغير التعظيم وغيـر الـحـب كحب اللّٰه وتعظيمه فعلى الأقل تكون بدعة قبيحة ولايجوز تقرير البدعة ومن فعل هٰذا مـجـوزا بهٰذا مع علم حرمتهٖ فيكون كافرا و إن لـم يـعـلـم ففسقا وفى تكفيرهٖ توقف عندنا ونرجع هٰذا الأمر إلى الفقهاء ، وأما تقرير العكف على القبر بوجه العبادة والتعظيم والحب كمثل الحب للّٰه فلا بد

---

(١) ولو هويعرف أن هٰذا ليس جائزا ، فالنذر بهٰذا يكون كفرا؛ لأنهُ من باب استحلال الحرام والإهانة فى حضرة اللّٰه عزوجل.

(٢) والزيادة عليه وورد النهي فى أن يزاد على القبر وأيضًا رأى النبي صلى اللّٰه عليه وسلم نمطا على الباب فكره وقال:" إن اللّٰه لم يأمرنا أن نكسوا الحجارة والطين." (صحيح مسلم، ح: ٢٠١٧)

من تكفيره ولا نتوقف حتى لويدعى الجهل؛ لأن العبادة لغير الله وتعظيمه وحبه كمثل حب لله حرام كفر من ضرورات الدين فلا توقف فى هذه الأمور . ثم لوسئلتم هل يجوز شد الرحل لزيارة قبور الأولياء؟

فنقول بتوفيق الله إن شاء الله عزوجل أن العلماء قد اختلفوا فى هذه المسئلة واتفقوا فى جوازه لسيدنا ونبينا صلى الله تعالى عليه وسلم لتواتر هذا العمل من زمان الصحابة رضي الله تعالى عنهم ولم يثبت إنكار عليه من أي من السلف الصالح فى هذه المسئلة وأما إنكار ابن تيمية وأتباعه فى هذه المسئلة فهو من شذوذهم كشذوذهم فى عشرات من المسائل ، فعليكم بالجماعة والسواد لأعظم ومن شذ شذ إلى النار. وأما استدلالهٗ من الحديث أنهٗ لايشد الرحل إلا لثلاثة من المساجد المسجد الحرام والمسجد النبوي صلى الله عليه وسلم والمسجد الأقصى فلا استدلال لهٗ فى هذا الحديث لموقفه؛ لأنهٗ قد ثبت جواز السفر لطلبة علم الدين قربة لله تعالى وفى الحديث إنهٗ "من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله لهٗ طريقا إلى الجنة." (سنن الترمذي، ح: ٢٦٤٦) وفى الحديث "من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع." (سنن الترمذي، ح:٢٦٤٧) وكذلك ﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْٓا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيْلِ اللّٰهِ﴾ (النساء:٩٤) ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى الْأَرْضِ﴾ (النساء:١٠١) والهجرة "من هاجر لله ورسوله فهجرتهٗ لله ورسوله."

وأما المباحات فالسفر جائز لكل شيء مباح ﴿وَاٰخَرُوْنَ يَضْرِبُوْنَ فِى الْأَرْضِ يَبْتَغُوْنَ مِنْ فَضْلِ اللّٰهِ﴾ (المزمل:٢٠) وقد يكون المباح نوع من العبادة بالنية الصالحة. فثبت أن الحديث ليس على الإطلاق قطعا وبتاتا. والشيخ ابن حجر العسقلاني شرح هذا الحديث استشهادا بنفس الحديث من مسند أحمد [1] أن هذا الأحاديث وُردت فى المساجد ومقيد بها يعنى من المساجد لاتشد الرحل إلا لهٰذه المساجد الثلاثة. لعظمتها فى الأجر وغيرها من الأمور . وأما ما عدا ذلك فكما ذكرنا أن الحديث لايشملها وكيف ولو يشمل فيصير مناقضة ظاهرة بين النصوص وهذا محال.

ثم هناك حديث آخر صحيح يدل على استحباب السفر إلى زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم وهو أن الرجل خرج إلى قرية ليزور أخا لهٗ وأرسل الله إليه ملكا فسألهٗ سببًا لزيارته فقال: إنهٗ أحب هذا الأخ لله ، فقال الملك أن الله أحبك كما أحببتهٗ. فكيف بمن يخرج لزيارة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عند قبره حبالهٗ وإن قلتم: إن هذا الحديث فى الأحياء والرسول عليه الصلوٰة والسلام قد مات من هذا الدنيا ورحل إلى أول منزل الآخرة يعنى البرزخ ، فقلنا قد ورد الأحاديث المتعددة تقوى بعضها بعضا ، ومنها "من زار قبرهٗ كان كمن زارهٗ حيا" وثم يؤيد هذه الأحاديث إطباق

(١) لاينبغى للمطى أن تعمل إلى مسجد يبتغى فيه الصلاة إلا إلى المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدى هذا

لسلف الصالح وعملهم المأثور أنهم كانوا يسافرون لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم وتأويل ابن تيمية لهٰذا السفر تاويل مردود بلا دليل ، كما ذكرنا سابقا ، ثم إطباق جمهور الفقهاء، بل إجماعهم إلا من شذ وعليكم بالسواد الأعظم ، فهٰذه الأمور كثيرة بجمعها تفيد قريبًا من القطع في جواز، بل استحباب هٰذا الفعل ، وقد اتفق المذاهب الأربعة في استحبابه والحنابلة أيضًا معنا ، كما في المغني[1] قد ورد استحباب هٰذا وأما ابن تيمية فالحق منهجه ليس منهج الحنابلة، بل مختلف ، وهٰذا ظاهر لمن اطلع وقارن منهج ابن تيمية مع منهج الحنابلة قبلهٗ وبعض أتباع ابن تيمية يأتون بحديث لاستدلالهم "لاتجعلوا قبري عيدا ." (مسند البزار، ح: ٥٠٩) وهٰذا عجب منهم؛ لأننا لانعتقد في اتخاذ قبر نبينا صلى الله عليه وسلم عيدا ، ومعنى العيد أن نذهب إلٰى قبر النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم المعين ونجمع ونحتفل وغيرها من الأمور كمثلها سبحان الله من من أهل السنة يجوز هٰذا الشيء هٰذهٖ بدعة لامحالة ، والمنهي عنها في الحديث وليس لهٰذا الحديث علاقة بمن يسافر لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم بدون أي تعيين واحتفالات والأشياء مثلها وهٰذا الشيء مأثور من زمان الصحابة رضي الله تعالٰى عنهم ولاخلاف فيه من السلف الصالح فهو مستحب مؤكد ولامجال لابن تيمية وأتباعه لإنكارهٖ. وهٰذا في حق نبينا صلى الله تعالٰى عليه وسلم وأما في غيرهٖ من الأنبياء والصالحين فالعلماء عندهم آراء مختلفة في هٰذا الشأن ثم في شأن الأنبياء ، فكم منهم نحن نستطيع أن نقطع أن قبرهٗ هٰذا أو هٰذا، هٰذا لايكاد أن يوجد فبقي قبور الصالحين ، فقلنا إن العلماء قد اختلفوا في هٰذا ، لكن نقول بتوفيق اللّٰه تعالٰى إن شاء الله عز وجل: إنهٗ لم يثبت من الصحابة رضي اللّٰه عنهم شد الرحل لزيارة قبور الأجلة منهم ، ثم السلف الصالح لم يثبت منهم أيضًا وليس هناك أي حديث في علمي يحض لزيارة قبور الصالحين والأحاديث في زيارة القبور التي في علمي كلها عاما ومطلقا "زوروا القبور ، فإنها تذكركم الموت ." (سنن ابن ماجة، ح: ١٥٦٩) ولا أعلم أي حديثا يحث لزيارة قبور الأنبياء (غير النبي صلى الله تعالٰى عليه وسلم) وقبور الصالحين وخصوصاً شد الرحل لها. والرسول عليه الصلاة والسلام قال عن قبر موسٰى عليه الصلٰوة والسلام : "فلو كنت ثم لأريتكم قبرهٗ إلٰى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر." (صحيح البخاري، ح: ٣٤٠٧) ولم يذكر شد الرحل لزيارتهٖ ولم يحث الصحابة رضي اللّٰه تعالٰى عنهم أن يسافروا لزيارتهٖ، بل قال: إنهٗ لو كان ثم لأراهم قبر موسٰى عليه السلام ، ثم الفقهاء لم يجمعوا كما جمعوا في قبر نبينا صلى الله تعالٰى عليه وسلم ، ثم الأمر المهم أشد الاهتمام هو أن هٰذا الشيء لاسيما في العوام يفتح أبواب المنكرات والبدعات والخرافات والشرك والضلال وهٰذا لايخفى علٰى أحد ما ، ومايؤدي إلى الحرام فسدهٗ واجب من باب السد

(١) الكتاب المشهور للمذهب الحنبلي .

الذرائع ، وهٰذا أصل من أصول الفقه الإسلامي فنقول بتوفيق اللّٰه تعالىٰ إن شاء اللّٰه عزوجل: إننا لانجيز قطعا وبتاتا شد الرحل لزيارة قبور الصالحين ، فإنهٗ قد فتحت أبواب الشرك والبدعة وسد هٰذه الأبواب واجبًا من ناحية أصل من أصول الشريعة ومع ذٰلك أن هٰذا الشيء لم يثبت من الصحابة رضي اللّٰه عنهم، والسلف الأول فكونه بدعة أقرب من كونه مستحب والنهي يفوق على الإجازة ، كماهو مبرهن فی أصول الفقه [1] وهٰذا فی شد الرحل ، وأما زيارة القبور بدونه فی الجملة فهي مأمورة بها ، والرسول صلى اللّٰه عليه وسلم كان يزور البقيع ، وقال: زوروا القبور ، فإنها تذكر الموت (صحيح مسلم، ح:٩٠٨) ونهى أن يبنى عليه وأن يجلس عليه وأن يكتب عليه وأن يجصص وأن يزاد وأن يرفع وأمر بتسويتها ، والسنة أن يكون مسنّما كما هو فی حق نبينا صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم ونهىٰ أن يتخذ عليها المساجد وقد ذكرنا سابقًا عنها ونهىٰ أن يتخذ عليها السرج ولعن النساء التی يزرن القبور وبعض أهل العلم قالوا: إن هٰذا النهي منسوخ وفی اطلاعی الناقص على الأحاديث أن هٰذا النسخ فقط فی حق الرجال دون النساء ، ثم لو سلم النسخ فی حقهن ففقهاء قد نهوا النساء أن يحضرن المساجد بسبب ظهور الفتنة لسد الذرائع ، وقالت عائشة رضي اللّٰه عنها: "لو رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم كان موجودا رائيا ما أحدثت النساء لنهاهن عن حضور المساجد." (صحيح البخاري، ح: ٨٦٩) وهٰذا فی زمانها بعد رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم فناهيک عن زماننا ذو الفتن وهٰذا فی حق المساجد فما تظن عن القبور؟ فتكون غير جائز قطعا وبتاتا. وكذٰلک اتباع الجنائز قد ورد النهي فی حق النساء فی الأحاديث .

وإن قلتم: إنكم منعتم شد الرحل يعني السفر لزيارة قبور الصالحين ومن أسبابه سد الذرائع ، فلما ذا لم تمنعوا شد الرحل لزيارة قبر النبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم لنفس السبب.

قلنا بتوفيق اللّٰه إن شاء اللّٰه تعالىٰ إن هٰذا السؤال قد يصدر من أتباع ابن تيمية ، والحق أن غايتهٗ تايد لمذهب شيخهم ، فاعلموا أنهٗ كما ذكرنا أن السفر لزيارة قبر النبي صلى اللّٰه عليه وسلم مأثور من زمان الصحابة رضي اللّٰه تعالىٰ عنهم والسلف الأول كانوا يفعلون ذٰلک ثم قد ورد الأحاديث تقوى بعضها بعضا لهٰذا ولم إطباق الفقهاء لاستحباب هٰذا الأمر، حتٰى كما ذكرنا أن المذاهب الأربعة يتفقون لاستحباب هٰذا الأمر على الأقل فليس حالهٗ حال القبور الأخرىٰ وأيضًا قد حفظ اللّٰه قبر نبيه صلى اللّٰه عليه وسلم من الأشياء التی تحصل فی قبور أخرىٰ من البدعات والخرافات وأيضًا نبينا وسيدنا محمد صلى اللّٰه عليه وسلم لايقاس علىٰ غيره؛ لأن جميع المسلمين يعرفونهٗ ويحبونهٗ ويعتقدون عليه ضرورة؛ لأنهٗ لا إسلام بدونها ، فلهٰذا لو واحد يشركه مع اللّٰه

(١) وما نهيتكم عنه فانتهوا وما أمرتم به فأتوا منه ما استطعتم .



ليشركهٗ مع زيارة قبرهٖ وبدونها ويخرج من الإسلام وأما الآخرين من الأولياء والصالحين ، فزيارة قبورهم يأتي بإشراكهم مع الله ابتداء وشروعا.

وأما قبور الأنبياء الأخرين فهي كما ذكرنا غير معلومة ولهٰذا الناس لايقصدون إليها وأيضًا نبينا وسيدنا محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ليس كمثل الأولياء والصالحين، بل هٰؤلاء من جملة أمته وهو رسول الله ونبيه صلى الله تعالىٰ عليه وسلم صاحب الوحي والشريعة الإسلامية وكتاب الله العزيز فالقصد إليه حتىٰ بالسفر من واحد من أمتهٖ يدل علىٰ حبهٖ له. وجزم الاعتقاد عليه واستعداد لاتباعهٖ وبذل نفسهٖ ومالهٖ لهٗ ولشريعتهٖ وتعظيمه واحترامه (ليس كما تعظيم الله) وهٰذا كلهٗ واجب وأصل من أصول الدين فكيف يقاس هٰذا علىٰ هٰذا ، فلجميع ما ذكرنا هناك فرق كبير بين قبر النبي صلى الله عليه وسلم وبين القبور الأخرىٰ ، ومن لايفهم هٰذا فهو جاهل بمقامه الكريم صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ، والحق أتباع ابن تيمية لاسيما من أهل النجد ومن يجرى مجراهم لايعرفون عظمة النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ، والأنبياء كما هي بحقها. فنحن نقول لهم أن ليس معنى التوحيد لله تعالىٰ تنقيص الأنبياء من مقامهم الكريم وليس معنى إثبات توحيد الله تعالىٰ أن يتكلم واحد في حق الأنبياء كأنهم من عوام الناس ، هٰذا الله أكبر خطير جدا. يؤدى إلى الكفر؛ لأن مقام الأنبياء الكريم وكلام عنهم مشي على السيف المسلول ، فالحذر والحذر!

فالحق أنهٗ ليس هناك مقارنة بين الخالق والمخلوق، بين الله وأنبياء ه الكريم عليهم الصلوات والسلام. الله سبحانهٗ وتعالىٰ هو خالقنا مالكنا ، وليس هناك شيء إلا هو مالكه . كل شيء لهٗ العاجز تحتهٗ ولا حول ولا قوة إلا بهٖ ، لايشاركهٗ أي شيء في ذاتهٖ وصفاتهٖ وأفعالهٖ وهو خالق كل شيء وأفعاله. وهو الإلٰه الواحد ، لانعبد إلا هو ، ولا نستعين إلا إياه ، ولا نركع ولا نسجد ولانصلي ولا نصوم إلا لهٗ ، والزكوة والحج والذبح والنسك والنذر والدعاء والحياة والممات لهٗ رب العالمين ، هو الملجأ ، هو المأوى ، لاضرر ولا نفع إلا منه ، ولا شريك لهٗ ، الرب للعالمين ، هادى السمٰوات والأرض الذى أعطى كل شيء خلقهٗ ثم هدى ، لا إلٰه إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه مخلصين لهٗ الدين ، ولو كره الكافرون. الله أكبر ، فكيف تكون مقارنة بين رب العالمين وبين خلقه العاجز ، لكن المقارنة بين المخلوق والمخلوق فالأنبياء هم سادات الخلق وأفضلهم وأعلمهم ، قد اصطفاهم الله واجتباهم ، فصاروا الفاضلين المفضلين ، فلا بد أن نراعى مرتبتهم العالية ومقامهم الكريم وصفاتهم الفاضلة وفضيلتهم الفائقة ، ولا نتكلم عنهم كما نتكلم بعضنا عن بعض ولا نفكر عنهم إلا بمراعاة مراتبهم الموهوبة من عند الله ، والحذر الشديد و إلا أن تحبط أعمالنا وأننا لا نشعرون ، وفي القرآن ﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوْا لَاتَرْفَعُوْٓا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَ لَاتَجْهَرُوْا لَهٗ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ

أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُوْنَ﴾(الحجرات:٢) ﴿لَاتَجْعَلُوْا دُعَآءَ الرَّسُوْلِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ط﴾(النور:٦٣) ﴿وَ الَّذِيْنَ يُؤْذُوْنَ رَسُوْلَ اللّٰهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ﴾(التوبة:٦١) ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ يُؤْذُوْنَ اللّٰهَ وَرَسُوْلَهٗ لَعَنَهُمُ اللّٰهُ فِى الدُّنْيَا وَالْاٰخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِيْنًا﴾ (الأحزاب:٥٧) ﴿قُلْ أَبِاللّٰهِ وَاٰيٰتِهٖ وَرَسُوْلِهٖ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُوْنَ لَا تَعْتَذِرُوْا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ﴾(التوبة:٦٦)

ولقد أجمع الأمة أنهٗ أدنى من أدنى تنقيص وتعريض عن مقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يكون كفرا بواحا يوجب قتل فاعلها وكذٰلك قصد إيذآء هم وغيرها من الأمور. ونحن نرىٰ الصحابة رضي اللّٰه تعالىٰ عنهم وهم فى أمر توحيد كما هم ومع ذٰلك تعاملهم بالنبي الكريم صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم كما ورد فى البخاري فقال عروة بن مسعود: عند ما جعل يرمقهم فى حادثة الصلح الحديبية ، فقال: "فو اللّٰه ما تنخّم رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم فدلك بها وجههٗ وجلدهٗ وإذا أمرهم ابتدروا أمره وإذا توضا كادوا يقتتلون علىٰ وضوئه. وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عندهٗ. وما يحدون إليه النظر تعظيماً لهٗ. (صحيح البخاري، ح: ٢٧٣١) فهٰذا الصحابة رضي اللّٰه تعالىٰ عنهم من أعلم بالتوحيد منهم وهٰذا معاملتهم مع نبيهم ونبينا سيدنا محمد صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم وكانوا يتبركون بجميع أشيائه حتىٰ المحدثين صنفوا فى كتبهم أبواباً مستقلة لبيانه.

ثم لو قالوا إن الرسول عليه الصلوات والسلام قال: "لا تطرونى كما أطرت النصارىٰ المسيح ابن مريم." إنما أنا عبداللّٰه ورسوله." (صحيح البخاري، ح:٣٤٤٥) . فقلنا: هٰذا الحديث يخبر بنفس الشيء الذى ذكرنا أنهٗ ليس هناك مقارنة بين اللّٰه ورسوله؛ لأن اللّٰه هو الخالق القادر والرسول هو المخلوق العاجز ، والنصارىٰ أطروا فى المسيح عليه الصلوات والسلام حتىٰ أشركوه باللّٰه –ونعوذ باللّٰه– ثم قال: أنا عبداللّٰه ورسولهٗ. فلازم علينا توقيرهٗ وتعظيمهٗ كرسول اللّٰه وهٰذا بعين الذى ذكرنا وقد قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم: "إنهٗ أول الناس خروجا إذا بعثوا ، وهو خطيبهم إذا وفدوا ، ومبشرهم إذا أيسوا ، ولواء الحمد بيدهٖ يوم القيامة." (سنن الترمذي، ح: ٣٦١٠) وأنهٗ سيد ولد آدم وأكرمهٗ علىٰ رب العالمين ، وصاحب المقام المحمود ، وصاحب الشفاعة الكبرىٰ ، وإمام الأنبياء وخاتمتهم ، وأكرم الأولين والآخرين ، وفاتح باب الجنة ، وأول شافع ، وأول مشفع ، وصاحب الوسيلة التى هي أرفع المنزلة فى الجنة ، وأنهٗ حبيب اللّٰه وخليل اللّٰه وغيرها من الفضائل ، ولم تكن من الإطراء المنهية عنها وإلا كيف أخبرنا بها وكيف يجوز لنا أن نذكرها؟! فياأهل النجد! افهموا ، لاتخلطوا واعرفوا فرق المراتب ، فإن اللّٰه هو اللّٰه ، والأنبياء أنبيائهٗ. ثم ماذكرنا من استحباب السفر لزيارة قبر سيدنا ونبينا محمد صلى اللّٰه عليه وسلم فهو باعتبار نفس

العظام ، وأما من يحج فلا ينبغي لهُ قطعا وبتاتا أن يرجع إلى بلدهِ دون حضور على قبرنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد ورد الإنكار الشديد في الحديث لهذا ولما فيها من الإعراض ولوصورةً، ونحن نسأل لو واحد يذهب إلى بلد آخر الذي يسكن فيه أخوه لشغل ما ولم يزر أخاه في هذا السفر فما ظنك بهذا الشخص؟ وهذا نسبة الأخ للأخ ، فما ظنك بسيدنا ونبينا ومحسننا الأعظم باعتبار الخلق وقد هدانا الله بهِ وأرسلهُ رحمة لنا رحمة شاملة كاملة ، فكيف واحد يذهب إلى البلد العرب ولا يزورهُ [1] ولايحضر قبرهُ ويسلم ويصلى عليه ، إن هذا من كفران الإحسان ، فلاينبغي لواحد أن يفعل هذا الأمر. وثم عندما يحضر قبرهُ صلى الله تعالى عليه وسلم فلايمس قبرهُ ولايقبّلهُ ولا كذلك بالشبك ؛ لأنها لم يورد ولم يثبت والرسول عليه الصلوة والسلام لم تثبت منه هذه الأشياء عند زيارة القبور، بل يصلى ويسلم ويفكّر عنه وتعظيمه واحترامه وإحسانه العظيم وحبّه والشوق إليه ويعزم على اتباعهِ بالجزم حتى الموت وبعدهُ ، ويسأل الله ثباتا في السؤال عنه في القبر وغيره من الأمور التي ذكرت في كتب الفقه ، فليراجع.

فالآن نرجع إلى أصل الموضوع وهو النذر ، وقد ذكر أنهُ لغير الله تعالى يكون شركا جليا أكبرا ويجوز لله تعالى فقط ، ثم نتكلم في أنهُ هل يجوز النذر لله في شد الرحل لزيارة قبور الأنبياء والصالحين وبيانهُ أنهُ واحد يقول لو الله يتقبل دعائي فعليّ لهُ أن أزور قبر هذا النبي أو هذا الولي من الأولياء (يعني غير الانبياء) وقد ذكرنا أننا لانجيز قطعا وبتاتا شد الرحل لزيارة قبور الأولياء فضلا عن النذر لله لهُ وقلنا في الأنبياء (غير نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم) أن قبورهم غير معلومة في الأكثر، ثم لم يثبت شد الرحل لهذا من الصحابة رضي الله تعالى عنهم ولانعرف أي حديث لهذا ، ولا ينبغي لنا أن نزيد في دين الإسلام شيئًا؛ لأنهُ لايجوز ، فالأولى أن يترك هذا النذر ، وأما زيارة قبر نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم فهو من عظيم القربة ، وأما النذر لشد الرحل لزيارتهِ فعلى قياس شيخنا أبوحنيفة رحمه الله تعالى لايجوز؛ لأنهُ لايجوز عنده النذر إلا في القربات المقصودة من جنس الواجب ، وهذا ليس منها ، والتفصيل في كتب الفقه ، وأما في قياس المذاهب الآخرين من المذاهب الأربعة فيجوز؛ لأنهم يُجوّزون النذر في القربات النافلة وغير المقصودة.

ولهم استدلال من حديث البريدة أن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم انصرف من بعض مغازيه ، فجاءت جارية سوداء ، فقالت: يارسول الله! إني كنت نذرت إن ردّك الله سالما أن أضرب بين يديك بالدف وأتغنى فقال لها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم " إن كنت نذرت فاضربي وإلا فلا." (سنن الترمذي، ح: ٣٦٩٠) الحب للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم والفرح والسرور

---

(١) وقد ورد في الحديث أن زيارة قبره كزيارته في حياته.

والطلب لرجوعه سالما من أصول الدين ، لكن ضرب الدف والغناء لها ليس منها ومع ذلک تقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا منها ، وأثبت أن ضرب الدف القليل والغناء اليسير في مثل هذه الحالة حالة الفرح والسرور يجوز ويكون على الأقل مباح وهذا يكون المستدل للمذاهب الأخرى في جواز النذر لله لشد الرحل لزيارة قبر نبينا صلى الله تعالىٰ عليه وسلم، وليراجع كتب الفقه لاستدلال الأحناف. وثبت من هذا الحديث جواز ضرب الدف القليل والغناء اليسير في مواقع السرور المباحة بدون أن يكون للدف خلاخل وبدون أن يكون الغناء مشتمل على بيان النساء والأمارد والخمر والغيبة والبهتان والكذب وغيرها من الأمور المحرمة . ولايجوز أن تكون من المرأة الأجنبية؛ لأن رؤيتها غير جائزة وإن تكون محجوبة لسد الذرائع ، كما ذكرنا سابقا في حق المساجد والقبور وأيضًا صوتها يكون فتنة لاسيما في زماننا.

ومواقع السرور يعني العيدين والنكاح والوليمة وتقدم عزيز من الأقرباء والأصدقاء من السفر والعقيقة وأمثالها ، ويجوز أيضًا لرفع وحشة أن يتغنى يسيرا بنفسه. وأيضًا للنشاط في العمل المباح وأيضًا يجوز الحدو للبعير كما فعلا أنجشة وسلمة بن الأكوع رضي الله عنهما وكل هذا إذا أمن الفتنة من جهة النساء والرجال ، وفي الحديث " رويدک أنجشة رفقا بالقوارير." (صحيح البخاري، ح: ٦٢١٠) وأما ما عدا ذلک فهو من اللغو ، وفي القرآن ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ (المؤمنون:٣) ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (الفرقان:٧٢) فيكره وأما الآلات المطربة من الطنبور والرباب والقانون والمزمار والمعازف ، فكلها يكره تحريما. وفي الحديث "بعثت لكسر المزامير . ." (كنز العمال، ح: ٤٠٦٨٩) "إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء" فذكر منها: "واتخذت القيان والمعازف ." (سنن الترمذي، ح: ٢٢١٠) وقال عبدالله بن مسعود: "الغناء ينبت النفاق في القلب ." (سنن أبي داود، ح:٤٩٢٧) وأيضًا تفسير مشهور لآية ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ (لقمان:٦) هو الغناء وكذلک اللعب بالنرد والشطرنج فهما حرامان قطعيان قمارا ويكرهان تحريما بدون القمار؛ لأن فيهما من السبب إثارة العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله وعن الصلوٰة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطٰنُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَ الْبَغْضَآءَ فِي الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ وَ يَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللّٰهِ وَعَنِ الصَّلٰوةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُوْنَ﴾ (المائدة:٩١) وفي الحديث: "من لعب بالنرد، فكأنما غمس يدهُ في دم الخنزير." (المعجم الأوسط، ح:٩١٨٠) أو كما قال عليه الصلوٰة والسلام ، والله أعلم.

ثم الذبح أيضًا من العبادة فلايجوز قطعا وبتاتا لغير الله ، وهو يشمل نوعان. (ا) الذبح تقربا لله كما في الهدي والضحايا وهو عبادة من ناحية التقرب إلى الله تعالىٰ ولأنهُ ذُبح بإسمهٖ تعالىٰ تحليلا

له (٢) الذبح لمنفعة الطعام وهو عبادة من ناحية أنه ذبح باسمه تعالى تحليلا له والتسمية واجب، فلايحل بدونها ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ (الأنعام: ١٢١) وفي الحديث: "إذا وجدت مع كلبك كلبا آخر فلا تأكلوا الصيد لأنك سميت على كلبك ولم تسم على كلب آخر." (صحيح البخاري، ح: ٥٤٧٥) فمن ذبح بتسمية غير الله أو ذبح بتسمية الله تعالى، لكن تقربا إلى غير الله فقد كفر بالله العظيم وكذلك من ذبح على القبر أوعلى النهر أوعلى قدوم واحد من السفر أو على إطلاق القوة النارية من السلاح وغيرها من الأشياء التي تدل على أن الذبح لتقرب إلى فلان من غير الله تعالى فكلها كفر وشرك أكبر جلي والذبيحة محرمة؛ لأننا قد ذكرنا أن الذبح عبادة، وفي القرآن ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٢) ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ (الحج: ٢٨) ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ (الأنعام: ١٢١) ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ..... وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ (المائدة: ٣) وفي الحديث: "لعن الله من ذبح لغير الله." (صحيح مسلم، ح: ٤٤) وكذلك أي نوع من الصدقة لغير الله كفر وشرك أكبر جلي؛ لأن الصدقة من عبادة الله فلايجوز لغيره تقرباً إليه، وفي القرآن: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (الأنعام: ١٣٦) ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ (الدهر: ٩) وأيضا ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٧٢) ثم إرسال الحيوان تقربا إلى غير الله كما يفعلون أهل الشرك شرك أكبر وهو من قبيل البحيرة والسائبة وفي القرآن ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ﴾ (المائدة: ١٠٣) فكل هذه الأمور التي ذكرنا شرك أكبر جلي والمشرك بالله مخلد في النار أبدا مؤبدا. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ (البينة: ٦)

والدعاء أيضاً عبادة كما ذكرنا سابقا ولايجوز قطعا و بتاتا لغير الله وفي الحديث: "الدعاء هو العبادة." (سنن أبي داود، ح: ١٤٧٩) "الدعاء مخ العبادة." (سنن الترمذي، ح: ٣٣٧١) وفي القرآن ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر: ٦٠) ونحن نتكلم عن الدعاء المعهود وأما الدعاء كما واحد يدعوا واحدا أخرا حاضرا إلى الوليمة أو لشغل آخر، فلسنا في هذا، هو شيء آخر بالتمام ولايحرم إلا أن يكون لأشياء محرمة وفي القرآن ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (المؤمنون: ٧٣)، بل نتكلم عن الدعاء

المعهود إنما هو من العبادة من قبيل الواحد يدعوا الله لحاجاته فالواحد يدعوا الأصنام أو الأوثان أو الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء دعاء ، فهٰذا شرك أكبر جلي يشتمل علىٰ أنواع من الشرك.

منها أنهُ يعتقد أن هٰذا المدعو يستطيع أن يسمع كلامهُ ويراه من قريب وبعيد ويعلم أحوالهُ ويستطيع أن ينفعهُ أو يضر أعدائهُ بطريقة فوق الأسباب ، فهٰذا شرك فى السمع والبصر والعلم والقدرة مع الله وحدهُ ثم الدعاء بنفسه عبادة فيكون شرك فى العبادة أيضًا ولو واحد يدعوا علىٰ نية الدعاء المعهود واحدا حاضرا فيكون شركا فى العبادة ، ثم يسألهُ شيئًا ماوراء الأسباب فيكون شركاً فى القدرة ، وأما واحد يدعوا واحد أخرا حاضرا ، لكن ليس بنية الدعاء المعهود الذى هو العبادة، بل لشغل ما الذى هو تحت الأسباب المحصّلة فلاشيء فيه إلا أن يكون هٰذا الشغل حراما أو مكروها فيكون حراما أو مكروها. وإن شاء الله نتكلم عن هٰذا فى الشرك فى الصفات أيضًا . وفى القرآن ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَآئِهِمْ غَافِلُوْنَ﴾ (الأحقاف:٥) ﴿وَالَّذِيْنَ تَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِهِ لَايَسْتَطِيْعُوْنَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُوْنَ وَإِنْ تَدْعُوْهُمْ إِلَى الْهُدٰى لَايَسْمَعُوْا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُوْنَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَايُبْصِرُوْنَ﴾ (الأعراف:١٩٧-١٩٨) ﴿إِنْ تَدْعُوْهُمْ لَايَسْمَعُوْا دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوْا مَااسْتَجَابُوْا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُوْنَ بِشِرْكِكُمْ﴾ (فاطر:١٤) ﴿وَالَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ لَايَخْلُقُوْنَ شَيْئًا وَّهُمْ يُخْلَقُوْنَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَّمَا يَشْعُرُوْنَ أَيَّانَ يُبْعَثُوْنَ﴾ (النحل:٢٠-٢١)

ثم من أنواع الشرك الحلف بغير الله. وفى الحديث "من حلف بغير الله فقد أشرك." (سنن أبى داود، ح: ٣٢٥١) وفى الحديث "لاتحلفوا بآبائكم، ولا تحلفوا إلا بالله ." (سنن ابن ماجة، ح: ٣٧٢٩) وفى الحديث" من حلف باللات والعزىٰ فليقل لا إلٰه إلا الله." (صحيح البخاري، ح: ٤٨٦٠) ثم لو حلف بغير الله تعظيما لهُ كتعظيم لله أو حلف به يعتقد أن المحلوف به يشهد هٰذا الحلف محيطا به سمعاً وبصراً وعلماً من قريب وبعيد فهٰذه أنواع من الحلف شرك أكبر؛ لأنهُ يشتمل علىٰ الشرك فى التعظيم و فى السمع و البصر و العلم مع الله تعالىٰ ونعوذ بالله تعالىٰ . ولو حلف بغير الله بدون هٰذاالمعنى ، يعنى لايقصد تعظيمهُ كتعظيم الله ولا أشياء أخرىٰ مما ذكرنا ولاأشياء من أمثالها ، فهٰذا النوع من الحلف شرك أصغر. والشرك الأكبر كفر والشرك الأصغر فسوق ، لٰكن غير مخرج من الملة الإسلامية. ومن هٰذا البيان نبين أن الاعتقاد أن واحدا من غير الله شهيد علىٰ كل شيء بنفسه أو بصفاته فهٰذا شرك أكبر مخرج من الملة؛ لأنهُ هو الله عزوجل شهيد علىٰ كل شيء ﴿وَاللّٰهُ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيْدٌ﴾ (البروج:٩) ولا شريك لهُ فى ذاته وفى صفاته وأفعاله ، ثم ليس المعنى أنهُ بنفسه فى كل مكان ، فإن الحل فى المكان من صفات الأجسام -تعالىٰ الله عن

ذٰلک– بل معنی أنہٗ شهيد علٰی کل شيء کمايليق بشانہٖ يسمع ويری ويشهد ويعلم ، لايخفٰی عليه أي شيء وهو تعالٰی وتقدس عن أن يکون فی مکان أو يجری عليه زمان لا تحيط به الأفکار ولاتحويه الجهات ولاتحده الحدود ، فهو العالی فی دنوہٖ والقريب فی علوہٖ کما يلیق بشانہٖ وهو العزيز الحکيم اللطيف الخبير.

ثم من الکبائر أن تحلف بالله کاذبا وفی الحديث "ولا تحلفوا بالله إلاوأنتم صادقون." (سنن أبی داود، ح:۳۲۴۸) "من حلف علٰی يمين مصبورة کاذباً فليتبوأ بوجهہٖ مقعدہٗ من النار." (سنن أبی داود، ح:۳۲۴۲) من حلف علٰی يمين هو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان." ثم لو واحد يحلف أن يفعل شيئًا أو أن لايفعل شيئًا صادقا ، ثم بدالہٗ أن غيرہٗ خيرا فليأت بما هو خير وليکفر عن يمينہٖ، وفی الحديث: "إنی والله إن شاء الله لا أحلف علٰی يمين فأری غيرها خيرا منها إلا کفرت يمينی وأتيت الذی هو خير" أوقال "أتيت الذی هو خير وکفرت يمينی." (صحيح البخاري، ح:۶۶۲۳)

ثم لو تسأل أنہٗ ثبت فی بعض الحديث أن الرسول عليه السلام قال "وأبيه." وهٰذا فی حديث قصة الأعرابي ، قال صلی الله تعالٰی عليه وسلم: "أفلح أنہٗ وأبيه إن صدق دخل الجنة وأبيه إن صدق." (سنن أبی داود، ح:۳۹۲) فکيف تطابق هٰذا الحديث مع الأحاديث المنهية عنه .

فقلنا بتوفيق الله تعالٰی إن شاء الله عزوجل: إن العلماء أجابوا عن هٰذا بالأجوبة المختلفة ، لٰکن لم يجوزوا الحلف بغير الله تعالٰی علی الإطلاق للنفي الوارد بالصراحة؛ لأن النبي صلی الله تعالٰی عليه وسلم لم يقر من حلف بغير الله کما حصل بعمر رضي الله تعالٰی عنه أنہٗ حلف بأبيه ، فقال عليه الصلوٰة والسلام: "إن الله ينهاکم أن تحلفوا بآبائکم ، فمن کان حالفا فليحلف بالله أو ليسکت." (سنن أبی داود، ح:۳۲۴۹) وهٰذا مع غيرہٖ من النصوص فی النهي الصريح للحلف بغير الله فلايجوز قطعا وبتاتا أن يستدل بجوازہٖ من هٰذه الکلمة "وأبيه." وأمثالها ، فکذٰلک من الأقسام الواردة فی القرآن ، فالکافی لنا أن نقول إن الله ورسولہٗ صلی الله تعالٰی عليه وسلم قد نهانا أن نحلف بغير الله ، فلننتهی منه وأما الحلف بغير الله الذی ورد من الرسول عليه الصلوٰة والسلام ، فهو ليس علٰی معنی الحلف المعهود، بل شيء آخر مشتمل علی الحکم لانطلع عليها وأما الله فلايسأل عما يفعل وهو يفعل ما يشاء ويحکم مايريد ولايفوق عليه أحد حتٰی يعترض عليه وأما من اعترض عليه فقد کفر بالله العظيم ، وکذٰلک ليس لنا أن نعترض رسول الله صلی الله عليه وسلم؛ لأنہٗ رسول الله صلی الله عليه وسلم فالله فوقه ، وليس نحن ، ثم الرسول عليه الصلوٰة والسلام لايفعل المنهي عنه من الله؛ لأن الأنبياء معصومين ﴿وَمَآ أُرِيْدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلٰى مَآ أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ (هود:۸۸) ولأن الله يختارهم

واصطفاهم علىٰ علمه. ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام:١٢٣) ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ (الحج:٧٥) وهٰذا القدر كاف، ثم من بين كلام العلماء وجها شافيا لجواب هذا السؤال أنه فى لغة العربية يجوز للواو الحلف أو غيره من الكلمات للأقسام أن تكون صورة علىٰ وجه الأقسام وحقيقة بمعنى التاكيد أو استشهاد ، فما ورد فى حديث "وأبيه." فهو فى الحقيقة لتاكيد الكلام وليس بمعنى الحلف المعهود فقد يكون معناه أن هٰذا الأمر مؤكد كوجود أبيه يعنى كما هو معلوم أن له اب وهٰذا الأمر حقيقة كوجوده، والله أعلم. هٰذا فقط الوجه الاحتما لي من الوجوه وكذٰلك فى القرآن الأقسام من الله تعالىٰ صدرت بمعنى التاكيد والاستشهاد علىٰ صورة الحلف ، وليس على الحقيقة ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ (التين:١-٣) وهو بمعنى الاستشهاد انهُ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ يشير إلىٰ أرض الشام المولد والمبعث لعيسى ابن مريم عليه السلام. وَطُورِ سِينِينَ لموسىٰ عليه السلام وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين:٤) فأيم الله أن وجود هٰذه الأنبياء يشهد أن الإنسان خلق فى أحسن تقويم. ثم لو واحد لايتبع منهج هٰذه الأنبياء فيكون ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ (التين:٥) فالأقسام الواردة فى القرآن وفى الحديث بغير الله تعالىٰ هي أقسام صورة ، وليست على الحقيقة، بل علىٰ معنى التاكيد والاستشهاد حاوية على الحكم غير المقصورة فى عقولنا الناقصة.

ثم هل يجوز لنا أن نحلف صورة بغير الله تعالىٰ علىٰ معنى التاكيد والاستشهاد ؟ فقلنا: لا؛ لنهي الوارد المطلق وأيضًا؛ لأننا لا نطلع علىٰ أسرار الله ورسوله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ، فلو نهينا من جهتهما من أمر ، فعلينا أن ننتهي منه ، إلا ثبت نسخهٔ من جهتهما ولم يثبت قطعا وبتاتا فى الحلف بغير الله تعالىٰ.

وأيضًا لو نجوز الحلف بغير الله عزوجل صورة علىٰ معنى التاكيد والاستشهاد ؛ لنفتح الباب للناس أن يقعوا فى الشرك ، كما ورد فى الحديث: "من حلف بغير الله فقد أشرك." (سنن أبى داود، ح: ٣٢٥١) لأن الناس لايفهمون ولايراعون هٰذه الدقائق ، ولا يأمن منهم أن يقعوا فى المنهي عنه ولا نحن نرىٰ الرسول عليه الصلوات والسلام فرق بين الحلف بغير الله صورة وبين حقيقة فى النهي عنه ، فما نهانا عنه الله عزوجل بلسان الرسول عليه الصلوات والسلام فواجب لازم علينا أن ننتهي منه .

ثم من أنواع الشرك الرياء والسمعة ، وفى الحديث : "الرياء شرك." (سنن الترمذي، ح:١٥٣٥) وفى الحديث: "من سمع سمع الله به ومن يرائى يرائى الله به." (مسند أحمد، ح:٢٠٣٥٦) وفى الحديث: "قال الله عزوجل : أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل لي عملا

أشرك فيه غيري، فأنا منه بريئٌ، وهو للذي أشرك." (سنن ابن ماجة، ح: ٤٢٠٢) ثم الرياء والسمعة شرك خفي وهو شرك أصغر، وفي الحديث: "الشرك الخفي: أن يقوم الرجل يصلي، فيزين صلاتهُ لما يرى من نظر الرجل." (سنن ابن ماجة، ح: ٤٢٠٤) وأيضًا "إن أخوف ما أتخوف على أمتي الإشراك بالله، أما إني لست أقول: يعبدون شمسا ولا قمرا ولا وثنا ولكن أعمالا لغير الله وشهوة خفية." (سنن ابن ماجة، ح: ٤٢٠٥) فمعناهما كما في الحديث أن الرجل يعبدالله يعمل لهُ عملا بنية العبادة لهُ، لٰكن يرائي الناس ويسمعهم؛ لكي يمدحونهُ وينظرون إليه ويشتاقون إليه وغيرها من المنافع، فهٰذا العمل مردود عند الله، والعامل ليس مأجور، بل مأزور عند الله تعالى وهو شرك خفي، وهو شرك أصغر، وليس مخرجا من ملة الإسلام، لكن من الكبائر المحرمة كما هو ظاهر من الأحاديث المذكورة وأيضًا قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا لا تُبْطِلُوْا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذٰى كَالَّذِيْ يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (البقرة:٢٦٤) فثبت أن هذا الشيء دأب الكفار، ولايليق بالمسلم المؤمن وأيضًا ثبت أنهُ يجوز للرياء والسمعة أن يكون شركا أكبرا كفرا إذا قارنهما ما هو كفر وشرك أكبر مثلاً إذا عمل عمل العبادة ولا يقصد به العبادة لله، بل يقصد به العبادة أو التعظيم لغير الله أو يقصد به العبادة لله ومعها العبادة أو التعظيم لغير الله لجلب المنافع المذكورة السابقة وأمثالها.

فهٰذا كلها شرك أكبر وكفر بواح وكذٰلك إذا عمل عمل العبادة لله ويشارك غير الله ليس في العبادة والتعظيم، لكن على وجه أو قصد يليق بالله فقط، يعني لو قال: إنهُ عمل هٰذا العمل لله عبادة، لٰكن في الحب والشوق والعلاقة أنا أشارك فلاناً معهُ في هٰذا العمل فهٰذا أيضًا شرك أكبر. وثم هو ليس من الرياء والسمعة. الرياء والسمعة هو ما ذكرنا سابقا وهو الشرك الخفي، لكن قد يكون هٰذه الأعمال المذكورة المشتملة على الشرك الأكبر تعمل لجلب نفس المنافع التي تقال الرياء والسمعة، وهٰذه نحن نقول منافعا على زعم الفاعل وليس منافعا حقيقة، بل مهلكا مضرا. وأيضًا بيّنا أن الحب والقصد والشوق والعلاقة وجميع ما في معناها كلها في معنى العبادة فلا تجوز الحب والقصد والشوق والعلاقة وأمثالها لغير الله على درجة كهي لله تعالى وإلا يكون شركا أكبرا. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَّتَّخِذُ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ أَنْدَاداً يُحِبُّوْنَهُمْ كَحُبِّ اللّٰهِ وَالَّذِيْنَ آمَنُوْا أَشَدُّ حُبًّا لِّلّٰهِ﴾ (البقرة:١٦٥) وكذٰلك جميع أعمال العبادة لاتجوز لغير الله عبادة أو تعظيما وإلا أن يكون شركا أكبرا مخرجا من الملة الإسلامية. والمسلم المؤمن أشد حبا لله ويحب من أحبه الله (وليس على درجة حب الله) ويبغض من أبغضه الله وهٰذا الولاء والبراء الإسلامية وأصل من أصول الدين.

التوحيد فى الربوبية

نقول بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز: إن التوحيد فى الربوبية معناها أنهٗ لا رب إلا الله عزوجل، فهو المالک والخالق والرازق والقادر والمعطى والمانع والنافع والضار ولهٗ ما فى العالم وكل شيء هو آخذ بناصيتها وكل شيء محتاج إليه فى خلقها ووجودها.

﴿اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰلَمِيْنَ﴾ (الفاتحة:١) ﴿لَهٗ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ﴾ (البقرة:١١٦) ﴿وَلَا يَئُوْدُهٗ حِفْظُهُمَا﴾ (البقرة:٢٥٥) ﴿خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمٰتِ وَالنُّوْرَ﴾ (الأنعام:١) ﴿تَبٰرَكَ الَّذِىْ بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلٰى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيْرٌ﴾ (الملک:١) ﴿اَللّٰهُ الَّذِىْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِىْ سِتَّةِ اَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوٰى عَلَى الْعَرْشِ... يُدَبِّرُ الْاَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ اِلَى الْاَرْضِ﴾ (الم سجدة:٣-٥) ﴿سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى الْاَرْضِ﴾ (لقمان:٢٠) ﴿هُوَ الَّذِىْ خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِى الْاَرْضِ جَمِيْعًا﴾ (البقرة:٢٩) ﴿وَاللّٰهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُوْنَ﴾ (الصافات:٩٦) ﴿وَمَا بِكُمْ مِّنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّٰهِ﴾ (النحل:٥٣) ﴿قُلْ لَّآ اَمْلِكُ لِنَفْسِىْ نَفْعًا وَّلَا ضَرًّا اِلَّا مَا شَآءَ اللّٰهُ﴾ (الأعراف:١٨٨)

والمشركون فى الجملة يعترفون بربوبية الله تعالىٰ وهٰذا ظاهر من القرآن ﴿وَلَئِنْ سَاَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ لَيَقُوْلُنَّ اللّٰهُ﴾ (لقمان:٢٥) ﴿قُلْ لِّمَنِ الْاَرْضُ وَمَنْ فِيْهَا اِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ سَيَقُوْلُوْنَ لِلّٰهِ قُلْ اَفَلَا تَذَكَّرُوْنَ قُلْ مَنْ رَّبُّ السَّمٰوٰتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيْمِ سَيَقُوْلُوْنَ لِلّٰهِ قُلْ اَفَلَا تَتَّقُوْنَ قُلْ مَنْۢ بِيَدِهٖ مَلَكُوْتُ كُلِّ شَىْءٍ وَّهُوَ يُجِيْرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ اِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ سَيَقُوْلُوْنَ لِلّٰهِ قُلْ فَاَنّٰى تُسْحَرُوْنَ﴾ (المؤمنون:٨٤-٨٩)

لٰكن ثم يشركون مع الله فى وجه أن الله عزوجل قد أعطى هٰذه النعمة مثلاً تحت التأثير من الشركاء المزعومة، ولهٰذه العقيدة كانوا يعبدونهم وينسبون إليهم النعم والفضل ويبتغون تقربا إليهم وفى القرآن: ﴿فَاِذَا رَكِبُوْا فِى الْفُلْكِ دَعَوُا اللّٰهَ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ فَلَمَّا نَجّٰىهُمْ اِلَى الْبَرِّ اِذَا هُمْ يُشْرِكُوْنَ لِيَكْفُرُوْا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوْا فَسَوْفَ يَعْلَمُوْنَ﴾ (العنكبوت:٦٥-٦٦) ﴿وَاِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُّنِيْبِيْنَ اِلَيْهِ ثُمَّ اِذَا اَذَاقَهُمْ مِّنْهُ رَحْمَةً اِذَا فَرِيْقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُوْنَ لِيَكْفُرُوْا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوْا فَسَوْفَ تَعْلَمُوْنَ﴾ (الروم:٣٣-٣٤) ﴿هُوَ الَّذِىْ خَلَقَكُمْ مِّنْ نَّفْسٍ وَّاحِدَةٍ وَّجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ اِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهٖ فَلَمَّا اَثْقَلَتْ دَّعَوَا اللّٰهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُوْنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِيْنَ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا لَهٗ شُرَكَاءَ فِيْمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّٰهُ عَمَّا يُشْرِكُوْنَ اَيُشْرِكُوْنَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَّهُمْ يُخْلَقُوْنَ وَلَا يَسْتَطِيْعُوْنَ لَهُمْ نَصْرًا وَّلَا اَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُوْنَ﴾ (الأعراف:١٨٩-١٩٢) فالمشركون يعترفون أن الخالق الحقيقي هو الله عزوجل، بل يعترفون أنهٗ

خالق شركاء هم المزعومة، وأنهُ كل شيء لهُ فى العالم كما هو ظاهر مما ذكرنا من الآيات سابقا، حتى المشركون كانوا يقولون فى تلبيتهم: "لبيک لبيک اللّٰهم لبيک لبيک لا شريک لک لبيک إن الحمد والنعمة لک والملک لاشريک لک إلا شريكا هو لک تملكهُ وما ملک."

وقالوا لهٰذه الشركاء إنهم شفعاء عند الله ومقرّبوهم إليه ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(الزمر:٤٣-٤٤) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(يونس:١٨) ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾(الزمر:٣) ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾(آل عمران:٩٤) ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾(الروم:١١-١٣)

فالمشركون يفعلون العبادات من السجود والركوع والطواف والذبح والحلف والدعاء والتضرع والخشوع والخضوع لشركاء هم معتقدا أن هٰذه الشركاء شفعاء هم عند الله ومقرّبوهم إليه حتىٰ الله عزوجل يتقبل دعاء هٰذا المشركين ويعطيهم ما يشتهون تحت ضغط وتأثير الشفاعة من هٰذه الشركاء المزعومة، وهٰذا هو الشرک الذى كانوا يفعلونهُ، وكما ترىٰ أن القرآن أعلن ظاهرا عاليا أن هٰذا الشيء كفر بواح وشرک أكبر ورد عليهم وخاصم وجادل وقاتل رسول الله عليه الصلوات والسلام ضدّ هٰؤلاء المشركين حتىٰ رجعوا إلىٰ توحيد الله أو قُتلوا. وقال العبد الفقير غفر اللّٰه لهُ : إنهُ قد ظهر هٰذا الشرک الأكبر بين المسمى بالمسلمين من بين الصوفياء الغلاة وغيرهم وفى الهند والباكستان الطائفة البريلوية يخوضون فى أنواع من الشرک والبدعات ويزعمون أنهم مسلمون، بل أهلُ السنة والجماعة، والحق أن عقيدتهم وأفعالهم مشتملة علىٰ أنواع الكفر البواح ولايجوز للمسلمين أن يناكحوهم وأن يصلوا وراء هم إلا لو ظهر أنهُ واحد يعزو نفسهُ إليهم، لكن عقيدتهُ لم تبلغ مبلغ الكفر وهٰذا لو يظهر بعد البحث والتفتيش و إلا هٰذه الطائفة قد ظهرت وكشفت عن عقيدتها وعقيدتهم كفرية لا محالة، فالحذر فالحذر!

وهم يدعون إلىٰ غير الله ويذبحون لهم ويعتقدون أن الأنبياء والأولياء يسمعون ويرون كل شيء ويعرفون الغيب ويقدرون علىٰ نفعهم وضرهم بطريقة ما فوق الأسباب وغيرها من الكفريات، والحق أنهم شياطين الإنس ويحتمل بعضهم يخوضون فى السحر، فشياطين الإنس يتصلون مع

شياطين الجن وقد أضلهم الله على علم وختم على أسماعهم وقلوبهم وجعل على أبصارهم غشاوة ، فمن يهديهم من بعد الله أفلا تذكرون. فهؤلاء الناس يفعلون ما كانوا يفعلون المشركون فى الجاهلية قبل الإسلام ، فيعبدون الأنبياء والأولياء نوعا من العبادات من الركوع والسجود والذبح والطواف والدعاء والنذر وغيرها من الأشياء ويعتقدون أنهم الوسائل والذرائع والشفعاء عند الله عزوجل. وقد بين الله عزوجل أن هؤلاء مشركون وليس لهم المغفرة، بل خلود فى النار ﴿إِنَّ اللّٰهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهٖ وَيَغْفِرُ مَا دُوْنَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَّشَآءُ﴾ (النساء:٤٨) ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِيْنَ فِىْ نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِيْنَ فِيْهَا أُولٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ (البينة:٦) وقد ردّ الله عزوجل شركاء هم وقال: إن العبادة لهُ الخالص ﴿أَلاَ لِلّٰهِ الدِّيْنُ الْخَالِصُ وَالَّذِيْنَ اتَّخَذُوْا مِنْ دُوْنِهٖ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُوْنَا إِلَى اللّٰهِ زُلْفٰى إِنَّ اللّٰهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِىْ مَا هُمْ فِيْهِ يَخْتَلِفُوْنَ إِنَّ اللّٰهَ لاَ يَهْدِىْ مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾(الزمر:٣) ﴿قُلْ إِنِّىْ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّٰهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّيْنَ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُوْنَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِيْنَ قُلْ إِنِّىْ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّىْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيْمٍ قُلِ اللّٰهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِيْنِىْ فَاعْبُدُوْا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُوْنِهٖ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِيْنَ الَّذِيْنَ خَسِرُوْا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ ذٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِيْنُ﴾(الزمر:١١-١٥) وثم نحن ذكرنا بالتفصيل فى التوحيد فى الأولوهية بيانا شافيا والحمد لله أن العبادة لله الخالص لا شريك لهُ الله أكبر الله أكبر. وكيف واحد يفكر عن العبادة لغيرهٖ وهو خالقهُ ورازقهُ إن هذا لشيء عجيب. وقد رد الله عزوجل على المشركين وقال: إنهُ ليس لأحد أن يوقع الضغط والتأثير عليه، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا ، وكيف هذا حتى يخطر ببال أحد الله أكبر الله أكبر.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهٖ وَالْأَرْضُ جَمِيْعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمٰوٰتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِيْنِهٖ سُبْحَانَهُ وَتَعَالٰى عَمَّا يُشْرِكُوْنَ﴾ (الزمر:٦٧)[1] فقال الله عزوجل ﴿أَمِ اتَّخَذُوْا مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوْا لاَ يَمْلِكُوْنَ شَيْئًا وَّلاَ يَعْقِلُوْنَ قُلْ لِلّٰهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيْعًا لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُوْنَ﴾(الزمر:٤٣-٤٤) فبين أنهُ ليس واحدا يملك شيئًا لا شفاعة ولا غيرها ، والشفاعة كلها لله يعنى لايشفع أحد عندهُ إلا بإذنهٖ ﴿وَكَمْ مِّنْ مَّلَكٍ فِى السَّمٰوٰتِ لاَ تُغْنِىْ شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَّأْذَنَ اللّٰهُ لِمَنْ يَّشَآءُ وَيَرْضٰى﴾ (النجم:٢٦)﴿مَنْ ذَا الَّذِىْ يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهٖ﴾ (البقرة:٢٥٥) ﴿وَلاَ تَنْفَعُ

---

(١) لا يجوز قطعا وبتاتا أن تؤخذ هذه الآية وأمثالها على ظاهرها حتى تعتقد الأعضاء والجوارح لله تعالى، تعالى الله عن هذه الأشياء، بل معنى هذه الآية كما يليق بالله عزوجل كما هو يعلمهُ والخالق لايتحد مع المخلوق الحادث قطعا وبتاتا. ونحن نفهم من هذه الآية أن الأرض تكون مقبوضة والسموات مطويات وكلها (الأرض والسموات) تحت قدرة الله وكلها عاجزة تحت ملكه وسيطرته. ونحن نتكلم عن هذه الأمور إن شاء الله العزيز بالتفصيل فيما بعد .

الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ﴾(سبا:٢٣) وقد بين الله عز وجل ان ليس هناک اي واحد لا من الأنبياء ولا من الملائكة ولا من الأولياء ولا غيرهم يقدرون التاثير على الله عزوجل. الله اكبر الله اكبر. وهل هذا إلا كفر بواح وقد قال الله عزوجل ﴿وَيَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُوْلُوْنَ هٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللّٰهِ قُلْ أَتُنَبِّئُوْنَ اللّٰهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمٰوٰتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالٰى عَمَّا يُشْرِكُوْنَ﴾ (يونس:١٨) فرد الله عليهم أن تكون هناک الشفعاء يأتون بالمنفعة ويدفعون المضرّة من عند الله وقال: اتخاذ الشفعاء هكذا شرك بالله العظيم. وبين أنهٗ ليس هناک من يستطيع الشفاعة إلا بإجازة الله تعالٰى ، فناهيک عن جلب المنفعة من عندہٖ ، الله أكبر الله أكبر ، وهل هذا إلا كفر بواح . الله عزوجل لايشفع عندهٗ أحد إلا بإذنهٖ ولمن أجازهٗ ، وأما التأثير فهذا لايجوز على الله عزوجل قطعا وبتاتا ، هذا يخالف كونهٗ هو الله. وكيف واحد يخطر ببالهٖ هذا الشيء إنهٗ سفيه عظيم. وقد قال الله تعالٰى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُوْلُوْنَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلٰى ذِي الْعَرْشِ سَبِيْلًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالٰى عَمَّا يَقُوْلُوْنَ عُلُوًّا كَبِيْرًا﴾(الإسراء:٤٢-٤٣)

﴿لَوْ كَانَ فِيْهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللّٰهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللّٰهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُوْنَ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُوْنَ﴾ (الأنبياء:٢٢-٢٣) والله عزوجل العزيز الجبار الواحد القهار الكبير المتعال الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن لهٗ كفوا أحد لايعجزهٗ شيء لامعقب لحكمهٖ وهو علم كل شيء فى الأزل وأراد حسب علمهٖ فى الأزل ولامغيّر لإرادتهٖ ولا مبدل لقضائهٖ وهو على كل شيء قدير ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِيْنَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ مِنْ وَّلِيٍّ وَّلَا نَصِيْرٍ﴾ (العنكبوت:٢٢) ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّٰهِ﴾ (العنكبوت:٢٢) ﴿وَاللّٰهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهٖ﴾(الرعد:٤١) ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيْدُ﴾(البروج:١٦) ونحن نذكركم من أنواع الشرک الأكبر موجودة فى اتخاذ الشفعاء عند الله حسب زعمهم أنهٗ لو واحد يدعوا مثلا رسول الله صلى الله تعالٰى عليه وسلم بنية الشفاعة أو الوسيلة ، كما يزعم عند الله تعالٰى لجلب المنفعة أو دفع المضرة. فاولا أنهٗ يدعوه وهذا عبادة ، فهذا الشرک فى العبادة ثانيًا هو يعتقد أنهٗ يسمعهٗ من قريب وبعيد فهذا شرک فى السماعة وثالثاً أنهٗ يعتقد أنهٗ يراه ، فهذا شرک فى البصر ورابعا أنهٗ يعتقد أنهٗ يعرف مصائبهٗ ، فهذا شرک فى العلم وخامسا يحتمل أنهٗ يعتقد أن الرسول عليه الصلوات والسلام يقدر أن يجلب المنفعة من عند الله بالتاثير عليه ، وهذا تفويق الرسول عليه السلام على الله عزوجل ، وهذا شرک أعظم وكفر أكبر. فأيها المسلم الحذر الحذر لاتخرب عاقبتک وابتعد من جميع الشرک ، فإن المشرک يخلد فى النار لأبد الآباد. فلا تعبد إلا الله ، ولاتذبح إلا لله ، ولا تطف إلا بيت الله ، ولا تصم إلا لله ، ولا تنذر ولا تعمل أي نوعا من العبادة إلا لله ، ولا تتخذ أربابا من دون الله ، ولاأنداد من دون الله ، ولا الشفعاء عند الله

كما فعلوا المشركون ، ولا تتخذ الوسائل والذرائع عند الله كما يفعلون المشركون ، واعلم أن هؤلاء المشركون يعبدون من دون الله الشفعاء والشركاء وهؤلاء الشركاء (كما فى زعمهم) فى الحقيقة مشفقون من الله ولا يعبدون إلا هو يعنى الأنبياء والملائكة والأولياء ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ [1] وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ (الإسراء:٥٦-٥٧) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء:٢٥-٢٩) ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الزمر:٦٤-٦٦)

ثم لو تسأل أن هناك أمور مثلا الوسيلة والاستشفاع و سماع الموتى والتبرك ، فاشرح لنا هذه الأمور لأنها تتعلق بهذا الموضوع الذى نحن فينا حتى نفهم ولانقع منها ماهو محرّم فى الشريعة، فقلنا بتوفيق الله تعالى إن شاء الله عزوجل إنكم سألتم عن الأمور ومنها التبرك. فالتبرك عبارة عن رجاء البركة من الله بذريعة شيء ما وهو يجوز قطعا وبتاتا من آثار الأنبياء والصالحين ، فالقرآن والحديث يدلان على ذلك وفى القرآن ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ (البقرة:٢٤٨) وهذا التابوت كانت بنو إسرائيل يغلبون به من قاتلهم حتى عصوا فغُلبوا على التابوت ثم رده الله إليهم كما فى الآية آية لملك طالوت. هكذا فى تفسير القرطبي! فهذا نوع من التبرك ، ثم الأحاديث فى هذا الباب كثيرة جدا، ومعلوم بالقطع أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم يتبركون بكل شيء يتعلق بالنبي الكريم صلى الله عليه وسلم ، وفى الصحيح المسلم أنهٗ كانوا خدم المدينة يجيئون إليه بأنيتهم فيها الماء حتى الرسول صلى الله عليه وسلم يغمس يدهٗ فيها ، وعند الحلق لاتقع شعرةٌ إلافى يد رجل (صحيح مسلم، ح: ٢٣٢٤،٢٣٢٥) وكانوا يتبركون بعرقه وثيابه وبوضوئه وبفضل من شرابه وطعامه وبكل شيء يتعلق به ، وهذا فيه أحاديث كثيرة جدا ، ثم هناك أحاديث فى التبرك بالصالحين فى الجملة ، ومنها " وهل تنصرون إلابضعفائكم ." (صحيح البخاري، ح:٢٨٩٦) "يأتى على الناس زمان فيغزوا فئام من الناس ، فيقولون فيكم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون لهم: نعم ، فيفتح لهم ، ثم يأتى على الناس زمان ، فيغزوا فئام من الناس ، فيقال: هل فيكم من صاحب أصحاب

(١) الوسيلة معناه ما تقربهم إليه تعالى من الطاعات وإن شاء الله نتكلم عنها فيما بعد.



رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم، ثم يأتي على الناس زمان، فيغزوا فئام من الناس، فيقال لهم: هل فيكم من صاحب من صاحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم." (صحيح البخاري، ح: ٣٦٤٩) وهذا قليل من كثير؛ لأن الأحاديث والآثار فى هذا الباب كثيرة صحيحة وضعيفة، لكن مع كثرتها تفيد القطع فى التبرك. ومعنى التبرك كما ذكرنا رجاء البركة من الله يعني سؤال البركة منه بالمتبرك به يعني واحد عندهٗ شعر من أشعار رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو يتبرك به، يعني يرجوا البركة من الله تعالٰى بمعنى أن هذا الشعر مبارك قطعا؛ لأنهٗ شعر النبي الكريم صلى الله عليه وسلم فيرجوا لكونه عندهٗ أن الله تعالٰى قد بارك فى حياته وذاته، وهذا فى حق النبي الكريم صلى الله عليه وسلم والأنبياء، وكذٰلك من شهد لهٗ النبي عليه الصلوات والسلام أنهٗ من أهل الإيمان والصلاح، فهذا يفيد أن هذا الرجل مبارك عند الله تعالٰى وأما غيرهم من الأولياء [1] والصالحين فيفيد حالهم غلبة الظن فى كونهم مباركا عند الله تعالٰى فيجوز التبرك بآثارهم ظنا. والتبرك ليس من شرطه أن يكون المتبرك بآثاره حيا حاضرا؛ لأن حياتهٗ وحضورهٗ أوعدمهما ليس لهما علاقة فى التبرك بآثاره والصحابة رضي الله تعالٰى عنهم كانوا يتبركون بأشعار النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وثيابه وعرقه وغيرها من الأشياء والرسول عليه السلام لم يعرف من منهم يتبرك بآثاره ومتى؟ إلا أنهٗ كان يعرف أنهم يتبركون بآثاره فى الجملة، وفى الحديث عن الرجل سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم بردتهٗ لتكون كفنهٗ حين يموت، ولم يعرف هذا الرجل أنهٗ يموت قبل النبي صلى الله عليه وسلم أو بعدهٗ وكذٰلك لم يعلم النبي صلى الله تعالٰى عليه وسلم هذا إلاأن يعلمه الله تعالٰى عن هذا، وهذا ليس بضروري، وهذا مثال واحد فقط ومن اطلع على الأحاديث والآثار فى هذا الباب ليجد كأن أكثر التبرك بآثار المتبرك به فى عدم حضوره؛ لأن كما ذكرنا فى معنى التبرك أنهٗ رجاء البركة بآثار المبارك لشخصية المبارك، والعلم لهذا الشخص لهذا الفعل لادخل لهٗ فيه، فلو هناك شعرالنبي الكريم صلى الله عليه وسلم وآلاف من المسلمين يتبركون به والرسول عليه السلام لايعرف واحدا منهم؛ لأن هذا الشعر هو المبارك، فالتبرك به ممكن، والعلم للنبي الكريم صلى الله عليه وسلم بالمتبرك وفعل التبرك غير لازم فافهم هذا؛ لأن من الناس لايفهمون هذا وثم الآية عن التابوت الذى ذكرنا أيضا تدل على هذا؛ لأنهٗ كان فيه مما ترك آل موسٰى وآل هارون وهم قد رحلوا من هذا الدنيا إلى الآخرة، لكن التبرك بآثارهم موجود. فالتبرك فى حياة وحضور المتبرك به فى علمه وفى عدم حضوره فى حياته أوبعدهٗ ليس فى علمه والعلم وعدمهٗ ليس لهٗ دخل فى التبرك، ثم لوتسئل هل يجوز التبرك رجاء فى قبول الدعاء لويُدعى فى حضور المتبرك به، فقلنا بتوفيق الله إن شاء الله العزيز أن هذا النوع من التبرك قد يُستدل لهٗ من الأحاديث "إذا سمعتم الديك فادعوا؛ لأنهٗ قد رأى ملكا."

---

(١) يعني بظاهر أحوالهم بين أيدينا

(مصنف ابن أبى شيبة، ح:٢٩٨٠٥) وهذا استدلال غير بين؛ لأن كيف نعرف أن أمرا للدعاء تبركا بالملك، لكن البعض استدلوا هكذا وابين وأوضح للاستدلال هو الحديث عن الناس اجتمعوا لذكر الله، فغفر الله لهم وغفر من حضرهم حتى لوقت يسير وقال: " هذا القوم لايشقى جليسهم." (صحيح مسلم، ح: ٢٦٨٩) فقدجعل الله هذا القوم مباركا إلى حد حتى غفر جليسه الذى ليس منهم كاملة، فقد يقال: إن دعاء الداعى فى حضور المبارك أرجى أن لايكون شقيا فيه، ثم من هذا قد يتوسعون ويشملون الأحياء والأموات يعنى فى حضور الحي المبارك وفى حضور الميت المبارك يعنى عند قبره، وهذا الشيء قديكون خطيرا جدا. فقلنا بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز أنه معلوم ليس على الله التاثير والضغط من أي ما، والتبرك بآثار الصالحين رجاء البركة من عند الله تعالى، ثم يعطى الله من يشاء مايشاء ويمنع مايشاء من يشاء، وهذاحتى فى التبرك بالنبي الكريم صلى الله عليه وسلم وبآثار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فضلا عن غيره، وقدورد الأحاديث [1] والآثار فيه كثيرة، لكن لم يثبت فى علمنا أن الصحابة الكرام رضي الله عنهم تبركوا هذا النوع من التبرك، يعنى أتوا قبرهٗ صلى الله عليه وسلم ودعا عندهٗ قصدا وتخصيصا إنا لانقول قطعا وبتاتا إنهٗ لابركة فى حضرته الكريم صلى الله عليه وسلم، وهذا الشيء المسلم لايستطيع أن يقول ويكون تنقيصا فى شانه صلى الله عليه وسلم والتنقيص فى شانه كفر وكما ذكرنا سابقا هم كانوا يتبركون فى غزوهم بحضور الصحابة والتابعين وأتباع التابعين، فناهيك عن إمام الأنبياء وخير الخلائق صلى الله تعالى عليه وسلم، ومع ذلك نقول إن الفرض علينا الإيمان به واتباعهٗ والاقتداء بأقواله وأفعاله صلى الله تعالى عليه وسلم وأما التبرك بآثاره فهو ليس من الواجبات وكم من المسلمين عنده شعر أو ثوب أو عرق وغيرها من الأشياء من أمثالها من النبي الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم هذا نادر جدا جدا ومن سعد أن يكون عنده من هذه الأشياء فواجب عليه أن يحترم هذه الأشياء وأما التبرك فلم يثبت فى علمنا أنهٗ تارك لواجب ما فى عدم فعله؛ لأن الواجب عليه أن يحترم هذه الأشياء ويحبها ويحب صاحبها صلى الله تعالى عليه وسلم ويتبعهٗ صلى الله تعالى عليه وسلم، فإذا يكون هكذا فى التبرك بآثاره الذى ثبت [2] فما ظنك عن الأشياء غير الثابتة من الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم [3] ثم العوام يفتحون أبواب الشرك والبدعات بطريقة هذه الأشياء ولو واحد يجيز للعوام التبرك فى الدعاء عند قبور الصالحين وهو يذهب ويرفع يديه عند قبر بعضهم، هذا خطير جدا جدا وقد يفتح أبواب الشرك الأكبر وسد أبواب الشرك والبدعات القبيحة واجب لازم فى الدين وأشد أهمية

---

(١) يعنى فى التبرك فى الجملة.

(٢) فلازم عليه أن يعتقد أن التبرك ثابت فى الجملة وأن هذه الأشياء ثبت التبرك بها، فيرجوا أن الله تعالى قدبارك أيضا؛ لأن اليأس من رحمة الله تعالى دأب القوم الكافرين والقنوط من رحمة دأب القوم الضالين، لكن البحث عن هذه الأشياء حتى يتبرك بها، فإنهٗ غير واجب بالإجماع، فإذا يكون هكذا فى الأشياء الثابتة فى التبرك بها.

(٣) يعنى لم يثبت أنهم فعلوه.

بأضعاف من التبرك على الإطلاق ، فلانجيز قطعا وبتاتا لاسيما للعوام أن يفعلوا هذا الشيء عند قبر النبي الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم فضلا عن غيره لا لأنهٗ ليس فى حضوره بركة صلى الله تعالى عليه وسلم وهذا لايقول المسلم، بل؛ لأنهٗ لم يثبت هذا عندنا من الصحابة رضي الله تعالى عنهم ولأنهٗ دقيق وقد يقع العوام فى الشرك الجلي؛ لأنهٗ قد يفتح أبواب الشرك والبدعات . وأما أهل العلم الذين يفهمون معنى التبرك ويفهمون أن هذا النوع من التبرك هو رجاء البركة فى حضور من جعله الله مباركا ، وهو من قبيل "هذا القوم لايشقى جليسهم" وإنهٗ ليس ضغطا ولاتاثيرا على الله تعالى وقد يعطى وقد يمنع مع التبرك وبدونها فنقول: إنهٗ لم يثبت فى علمنا هذا الفعل من الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم وهناك روايات فى التاريخ مثلا تاريخ البغداد للحافظ البغدادي من المتقدمين أنهم كانوا يفعلون هذا ، والله أعلم بصحة هذه الروايات ، لكن تقليد الصحابة رضي الله تعالى عنهم أولى والزم من تقليد غيرهم من بعدهم ، وقدقال الله تعالى:

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾(التوبة:١٠٠)

﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ (البقرة:١٣٧) وأيضا العوام يتبعون الخواص فلانرى لهم أيضا هذا الفعل وهذا فى حق نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم وأما فى حق غيره من الأنبياء فقد قلنا إن قبورهم غير معلومة فى الأكثر على الأقل وثم لا نرى السفر قصدا لزيارة قبورهم؛ لأنهٗ لم يثبت وأما قبور الأولياء فلانجيز قطعاوبتاتا هذا الفعل لأهل العلم أيضا؛ لأن السفر لقصد زيارة قبورهم غير صحيح لما ذكرنا وأيضا كثير من هذه القبور مصنوعة وأيضا أكثر هذه القبور صارت أماكن الشرك والبدعات ففعل هذا الشيء عندها قديكون تقوية لها وأيضا حضور هذه القبور مع هذه الشرك والبدعات بدون الإنكار عليها لايجوز فى الشريعة؛ لأن حضور المنكرات بنفسه لايجوز وقد قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ (النساء:١٤٠)وقد ثبت النهي فى الحديث عن الجليس السوء وأما أمر زيارة القبور فهو فى الجملة وليس مخصوصا بالقبر دون القبر، بل امثالهٗ حاصل بزيارة المقبرة العامة ، فلهذه الأشياء وأمثالها لايجوز قطعا حتى لأهل العلم أن يفعلوا هذا الفعل عند قبور الأولياء ، ولواختار واحد من أهل العلم أن يفعل هذا النوع من التبرك عند قبر نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم فلايجوز لهٗ قطعا وبتاتا أن يرفع يديه وصوته بالدعاء لمافيه إضلال الناس أنهٗ يدعوا نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم بدلا إلى الله تعالى ، وقد يتوهم هذا الشرك الأكبر من فعله ، وهوفى الحقيقة يدعوا إلى الله تعالى، ولايفعل شيئًا ما الذى يدل على أنهٗ يفعل هذا النوع من التبرك لما فيه من الأخطار التى ذكرنا سابقا ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم وندعو الله أن يجعلنا منهم .

ثم اعلم أن الرقية على نفس المنوال وهي تجوز بالقرآن وبأسماء الله وصفاته والأدعية الواردة فى الأحاديث لها بشرط أن يعتقد أن الرقية لاتؤثر بنفسها، بل الله يشفى إن شاء ، فهى أيضا

تشبه النوع من التبرك يظهر من الغور الدقيق؛ لأن المريض يرجوا بركة القرآن وذكر الله تعالىٰ ويستشفى من الله رجاء أن الله يبارك عليه ويشفاه؛ لأنهٗ يقرأ القرآن ويذكر الله تعالىٰ، لكن فى عرف الشريعة تقال الرقية، ثم ماذكرنا أنها تجوز بكلام الله تعالىٰ وأسمائه وصفاته والأدعية الواردة لها ولاتجوز بغيرها من الأشياء، ثم هل يجوز أن يكتب على التميمة وتعلق رقية واعتقادا علىٰ أنها لاتؤثر بنفسها، بل الله يشفى إن شاء، وهى سبب من الأسباب كالطعام والشراب لاتشبع ولاتروى بنفسها، بل الله يشبع ويروى باتخاذ هٰذين السببين عادة، ففى الظاهر لايُرى فيه بأس وقد يستدل لهٰذا من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله تعالىٰ عنهما أنهٗ كان يكتب هٰذه الكلمات "أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وشرعباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون." (سنن أبى داود، ح: ۳۸۹۳) ويُعلق علىٰ من لم يعقل من بنيه. ثم هناك أحاديث تنهى عن التعليق منها " من تعلق شيئًا وكل إليه." (مسند أحمد، ح: ۱۸۷۸۱) "ومن علق فقد أشرك." (مسند أحمد، ح: ۱۷۴۲۲) فهٰذه محمولة علىٰ ما يفعله الكفار والمشركون فى الجاهلية من تعليق التمائم واتخاذ الحلقات ويعتقدون أنها ترفع الآفات وثم إنها لم تكن مشتملة علىٰ كلام الله وأسمائه وصفاته وهٰذه كلها الشرك الأكبر، ونحن قدذكرنا أن الرقية والتميمة حتىٰ بالقرآن وبأسماء الله تعالىٰ لاتدفعان شيئًا، بل الله يفعل لو يشاء، وهٰذه من الأسباب، فما ظنك عن الرقية والتميمة بالأشياء غير الجائزة. والرسول عليه السلام كما ورد فى الحديث من ابن ماجة إن صح قال لمن فى يده حلقة أن ينزعها، وقال: إنها لاتزيدك إلا وهنا(سنن ابن ماجة، ح: ۳۵۳۱) وهٰذا الشخص قد اتخذه من الواهنة وهٰذا كلهٗ محمول علىٰ ماذكرنا[1] بدليل من الحديث "إن الرقى والتمائم . . . . . شرك." (سنن أبى داود، ح: ۳۸۸۳) فقد أشمل فى الحديث الرقية والتميمة فى كونها شرك ومع هٰذا هناك الأحاديث كثيرة فى جواز، بل سنية الرقية، فعلمنا أن الحديث وأمثالهٗ محمولة علىٰ ما يتخذونه ويعتقدونهٗ أهل الشرك وليس على الإطلاق ونحن ذكرنا حديث عبدالله بن عمرو رضي الله تعالىٰ عنهما ولوكان شركا لكان من أبعد الناس منه وكيف لا؟ فإنهٗ من أجلة الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم والأحاديث فى جواز الرقية كثيرة ومنها عن الفاتحة "وماعلمت أنها رقية." (سنن الترمذي، ح: ۲۰۶۳) ومنها

---

(۱) يعنى هٰذه التمائم من القسم المنهي عنه وليس من القسم الجائز

"لابأس بالرقى مالم تكن شركا ." (سنن أبي داود، ح: ٣٨٨٦) ومنها أن الرقية تفيد بقدر الله تعالىٰ وهٰذا علىٰ سؤال من الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم عنها ، ومنها رقية جبريل عليه السلام: "بسم الله أرقيك والله يشفيك من كل داء فيك من شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد" ثلاث مرات (سنن ابن ماجة، ح: ٣٥٢٤) ومنها "خير الدواء القرآن." (سنن ابن ماجة، ح: ٣٥٠١) وأحاديث كثيرة غيرها في نفس الموضوع.

وأما الوسيلة فمنها ماتجوز ومنها ما لاتجوز وتكون الشرك الأكبر ومعنى الوسيلة في اللغة القرب والتقرب والذريعة والمقام والمرتبة ولتعددمعناها قدضلوا الناس وأضلوا ، فاعلم أن هناك الوسيلة وهي الدرجة الرفيعة في الجنة لرسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ، وفي الحديث "سلو لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة ، لاتنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجوا أن أكون أنا هو ، ومن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة ." (صحيح مسلم، ح: ٣٨٤) وهٰذه الوسيلة ليس من الوسيلة التي نحن نتكلم عنها في هٰذاالباب ، ثم هناك الوسيلة ، وهٰذه مايفعلونها أهل الشرك من اتخاذ غير الله وسيلة وقربة إلى الله تعالىٰ ﴿ وَالَّذِيْنَ اتَّخَذُوْا مِنْ دُوْنِهٖ أَوْلِيَاءَ مَانَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُوْنَا إِلَى اللّٰهِ زُلْفٰى﴾ (الزمر:٣) ونحن بيّناهٰذا سابقا فهم يدعون إلىٰ غير الله ويعبدونهم أنواعا من العبادات ويقولون هٰذه كلها قربة ووسيلة إلى الله تعالىٰ وهٰذه كلها الشرك الأكبر ، كما ذكرنا سابقا .

ثم هناك الوسيلة التي أيضا شرك أكبر وهي أن يقول واحد : اللّٰهم إني أسألك بوسيلة نبيك الكريم صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ويعتقد أن الرسول عليه السلام يسمع دعاءهٗ ، فيكون وسيلة لهٗ إلى الله تعالىٰ ويرفع حاجتهٗ إليه ويشفع لهٗ وغيرها من الأشياء ، وهٰذا شرك في السمع والبصر والعلم كما ذكرنا سابقا ، وهٰذا أيضا شرك أكبر ، ثم لو يعتقد أن الرسول عليه الصلوٰة والسلام لهٗ تاثيرعلى الله تعالىٰ أن يجلب المنفعة منه ، فهٰذا أعظم الكفر؛ لأنهٗ فوّق الرسول عليه الصلوٰة والسلام على الله تعالىٰ وهٰذا كلهٗ أيضا مما بيّناسابقا . ونحن ذكرنا رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وهوخير الخلائق حتىٰ يشمل جميع الخلائق هٰذا البيان.

فإذا علمت هٰذا القدر ، فاعلم أن ثم أنواعا من الوسيلة جائزة، بل مأمورة بها ، ومنها الوسيلة بأسماء الله تعالىٰ وصفاته ﴿وَلِلّٰهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنٰى فَادْعُوْهُ بِهَا ﴾ (الأعراف:١٨٠) والحديث "أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك لاأحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت علىٰ نفسك." (سنن الترمذي: ح: ٣٤٩٣) وفي الحديث الدعاء لمهموم والحزن "اللّٰهم . . . . .

(١) الرقية أيضا سبب تحت قدر الله تعالى

اسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو انزلته فى كتابك أوعلمته احدا من خلقك اواستاثرت به فى علم الغيب عندك" الحديث (مسند أحمد، ح: ٣٧١٢) فهٰذه الوسيلة مأمورة بها وهو كما ترى أن تسأل اللّٰه باسمائه وصفاته واسماءهٗ وصفاتهٗ ليست غيرهٗ ، فكما قال واحد: " يا اللّٰه إنى اسألك رحمتك لأنك وبانك أنت الرحمٰن فارحمنى" ثم منها الوسيلة بأعمال الصالحة وهي أيضا جائزة ، كما يدل عليه الحديث عن ثلاثة أشخاص أُغلقوا فى الغار ، فسألوا اللّٰه كلهم بأعمالهم الصالحة وتضرعوا إليه تعالٰى بوسيلتها ، ففتحوا ، وهو كما يقول واحد: "اللّٰهم إنى فعلت هٰذا الفعل الصالح لك ، فإذا ترى أنى مخلص فى هٰذا الفعل ونيتى كانت صالحة ، فاسألك بهٰذا العمل أن تقبل دعائى" وهٰذه الوسيلة جائزة وليس المعنى لهٰذه الوسيلة أن اللّٰه عزوجل يلزمهٗ أداء الثواب علٰى أعمالنا وهو غريم بها ، تعالٰى اللّٰه عن ذٰلك لايجب عليه شيء قطعا وبتاتا . الحق أنهٗ واجب علينا أن نعبدهٗ ونطيع أحكامهٗ ؛ لأنهٗ خالقنا ومالكنا ورازقنا ولايجب عليه أي شيء ، مهما يعطينا من النعم والثواب فهو فضلهٗ على الإطلاق ، لوأن اللّٰه عزوجل عذب أهل السمٰوات والأرض لعذبهم وهو غير ظالم فيه ولورحمهم كانت رحمتهٗ خير من أعمالهم، بل المعنى لهٰذه الوسيلة أنهٗ يسأل أن كما وفقه اللّٰه لهٰذا العمل الصالح بفضله ، فأيضا يتقبل دعاءهٗ بفضله وأيضا؛ لأنهٗ وفقهٗ لهٰذا العمل الصالح المبارك فيجعل دعائهٗ أيضا مبارك بقبوله لهٗ؛ لأن هٰذاالعمل المبارك كان هو محلا لهٗ (واللّٰه أعلم) .

ثم من الوسيلة الجائزة وسيلة بدعاء الأنبياء والصالحين ، وهٰذا معلوم بالتواتر؛ لأن الصحابة رضي اللّٰه تعالٰى عنهم كانوا يسألون النبي صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم للدعاء وكذٰلك بعضهم بعضا، وكذٰلك فى زمان التابعين وكذٰلك إلٰى زماننا المسلمون يسألون بعضهم بعضا للدعاء وخصوصا يسألون الصالحين منهم وهٰذا لاخفاء فيه ، والأحاديث والآثار والتاريخ كلها يدل عليها ومنها الصحابي رضي اللّٰه تعالٰى عنه سأل رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم أن يدعوا للمطر ، ومنها أن يسألهٗ للبصر؛ لأنهٗ كان أعمٰى وغيرها من الأحاديث والآثار وهٰذا العمل مشهور متوارث منتشر بين المسلمين من زمان النبي صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم ، وثبت فى الحديث أن عمر بن الخطاب رضي اللّٰه تعالٰى عنه كان إذا قُحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب ، فقال: " اللّٰهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا و إنا نتوسل إليك بعم نبينا فَاسْقِنَا قال: فيسقون ." (صحيح البخاري، ح: ١٠١٠) ومعنى هٰذه الوسيلة هو أن يسأل للدعاء واحد واحدا من الصالحين كما بدالهٗ من ظاهر أحواله ويرجوا أن اللّٰه يتقبل دعائه لهٗ؛ لأنهٗ من الناس ناس مستجاب الدعوات عند اللّٰه وذٰلك كلهٗ من فضل اللّٰه ولاواجب ولاكالجبر على اللّٰه وقد ثبت في الحديث: "رب أشعث أغبر لو أقسم على اللّٰه لأبرّه ."

(شعب الإيمان، ح: ١٠٠٠٠) فهٰذا هو يعني المسلم يرى واحدا من المسلمين من ظاهر أحواله أنهٗ رجل تقى صالح، فسألهٗ أن يدعوا لهٗ رجاء لقبول الدعاء ، ثم يعطى اللّٰه من يشاء من فضلهٖ ويمنع من يشاء ، والظاهر أن هٰذه الوسيلة يمكن عملها مع الحاضر فقط ، حتىٰ يتمكن من سؤالهم للدعاء؛ لأن الغائب لايسمع كلامهٗ ولايراه ولايعرف أحوالهٗ؛ لأن اللّٰه تعالىٰ إنما هو الذى يسمع ويرى ويعلم جميع الأشياء لاشريك لهٗ الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن لهٗ كفوا احد .

ثم من الوسيلة الجائزة وسيلة تبركا بالأنبياء والصالحين ، وهٰذا النوع من الوسيلة قد شدد فى إنكارها ابن تيمية وأتباعهٗ ، وحتىٰ أتباع ابن تيمية كأنهم لايعرفون أن هٰذه الوسيلة جائزة عند جماهير العلماء وحتىٰ عند أحمد بن حنبل وهٰكذا أتباع ابن تيمية يظنون أن منهجهم مقبول عند جمهور الأمة ومواقفهم متبوعة عند جمهور الأمة ، والحق أنهم يُخطئون فيها ، وسبب هٰذا (واللّٰه أعلم) هم لايقرؤون إلا من مشايخهم الذين فى كتبهم يريئونهم أنهم على الحق ، ومسلكهم مسلك الجمهور من الأمة وما عدا ذٰلک فهو شاذ باطل ، وهٰكذا كان يفعل شيخ مشائخهم يعنى ابن تيمية ، كان ينسب جميع ما يعتقد إلى السلف الصالح والمتقدمين ولايأتى بأي شيء من كتب السلف الصالح الذى يدل علىٰ ادعائه؛ لأنها فى الحقيقة دعاوى وبس ، والعبد الحقير الراقم للحروف غفر اللّٰه لهٗ قد جرّب أتباع ابن تيمية وعرف أنهم يعيشون فى الظلمة وفى عالم الأحلام يعتقدون أن منهجهم منهج الجمهور ومقبول عند عامة العلماء والحق أنهٗ مملوء من الشواذّ.

قال العبد الحقير غفر اللّٰه لهٗ : نحن ذكرنا فى بداية البيان للوسيلة بيان الوسيلة التى هي شرک أكبر وهي أنهٗ واحد يعتقد أن دعائه يسمعه الأنبياء والصالحون وهم يرفعونهٗ إلى اللّٰه وذكرنا أن هٰذا الشرک أكبر مشتمل علىٰ أنواع من الشرک ، منها شرک فى السمع والبصر والعلم فيحتمل (واللّٰه أعلم) أن ابن تيمية خلط تلک الوسيلة مع هٰذه الوسيلة التى نحن كنا فيه الأن . فردّهما جميعا بدون أن يُفرّق بينهما ، والحق أنهٗ هناک فرق كبير بينهما ، وهو أن فى الوسيلة السابقة المتوسل يعتقد أن المتوسل بهٖ من الأنبياء والصالحين يسمع دعاءهٗ بغض النظر أنهٗ حاضر معهٗ أوغائب ، ولم يرفعهٗ إلى اللّٰه لهٗ ، وهٰذا شرک فى السمع والبصر والعلم ، وثم لو يعتقد أن عندهٗ تاثير لجلب الدعاء المقبول من عند اللّٰه فهٰذا من أعظم الكفر؛ لأنهٗ يفوّق المتوسل بهٖ على اللّٰه وأما هٰذه الوسيلة التى نحن فيها الأن فهو المتوسل لايعتقد قطعاوبتاتا أن المتوسل بهٖ يسمع دعاءهٗ ولوكان غائبا ولايعتقد قطعا وبتاتا أنهٗ يعرف أحوالهٗ ولايعتقد أنهٗ يراه ولايعتقد أنهٗ يرفع دعاءهٗ إلى اللّٰه ولايعتقد قطعا وبتاتا أن عندهٗ تاثير أن يجلب قبول الدعاء من عند اللّٰه هٰذهٖ كلها غير موجودة فى هٰذه الوسيلة، بل هٰذه الوسيلة لها علاقة بهٰذه الأشياء، بل هٰذه الوسيلة مشتملة فقط على التبرک بذات المتوسل بهٖ وقد

ذكرنا سابقا أنهٗ ليس من شروط التبرک أن المتبرَّک بهٖ يعرف المتبرِک بهٖ والتبرک بهٖ، بل ليس لهٰذه الأشياء أي علاقة بالتبرک وكذٰلک هٰذه الوسيلة فمعنى هٰذه الوسيلة أن المتوسل يتبرک مثلا بالنبي الكريم صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم؛ لأن اللّٰه قد جعلهٗ مباركا على الإطلاق وهو يعترف بهٰذا ويؤمن بهٖ ويحبهٗ ويسعى فى اتباعهٖ ، فكل هٰذه الأشياء مجتمعة فى هٰذه الوسيلة ، فهو يتوسل بالنبي الكريم صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم وعلاقته معهٗ ويرجوا أن اللّٰه يتقبل دعاءهٗ ، ثم يعطى اللّٰه من يشاء ويمنع من يشاء . وقد ذكرنا الأحاديث سابقا أنهٗ هناک مسلمون وجودهم مبارک لهم ولغيرهم: " وهل تنصرون إلا بضعفائكم." (سنن أبي داود، ح: ٢٥٩٤) "لولا فيكم رجال خشع وبهائم رتع وصبيان رضع لصب العذاب على المؤمنين صبا ." (معجم ابن عساكر، ح: ٦٣٩) وغيرها من الأحاديث والآثار فى هٰذا الباب كثيرة ، ثم لو المتوسل بهٖ من الذين معلوم بالقطع أنهم من أهل الجنة كالأنبياء فهم مباركون بالقطع ، وأما الذين بدالنا من ظاهر أحوالهم أنهم أتقياء ولا لنا علم ماعدا هٰذا ، فهم مباركون بالظن والتوسل بهم على هٰذا الظن ، ثم لو تسأل ماهي دلائل الجواز لهٰذه الوسيلة؛ لأننا نرىٰ ابن تيمية وأتباعهٗ قد ردوها ردا شديدا ، فقلنا: نحن قد ذكرنا أنها نوع من التبرک ، فدلائل التبرک دلائل لها ، ثم الفقهاء قد جوّزوها وهي جائزة عند عامة العلماء ، والحنابلة أيضا معنا لاسيما قبل ابن تيمية ، والإمام أحمد ماكان يرى فيه بأسا كما ثبت عنه وابن تيمية كما ذكرنا أبعد من المذهب الحنبلي منه أقرب منه ، ومن دلائلها [1] أيضا أثر وارد الذى سنذكرهٗ فيما بعد إن شاء اللّٰه تعالىٰ . ثم جميع ماذكرنا فى هٰذا النوع من الوسيلة فهو لأهل العلم فى الجملة ، وقدبيّناأنهٗ هناک فرق كبير بين هٰذه الوسيلة وبين ما ذكرنا فى البداية التى هي شرک أكبر والفرق كبير لكن قد يكون دقيقا ، ولهٰذا السبب لاينبغى للعوام أن يخوضوا فيها ، ولاينبغى لأهل العلم أن يدلوا العوام عليها لاسيما فى زماننا، لمافيه من الأخطار ، وهي أن كثيراً من العوام يقعون فى الشرک بذريعة هٰذه الوسيلة ؛ لأنهم لايفهمونها وأيضًا من معانى الوسيلة "الذريعة " فقد يفهمون أن التوسل بالأنبياء والصالحين أخلهم ذرائع إلى اللّٰه وهٰذا قد بينا شرک بواح فى صفات اللّٰه تعالىٰ من العلم والسمع والبصر وأيضًا إبقاء هم على التوحيد وحفظ عقيدتهم أصل من أصول الدين، بل هي أساس الدين الأعظم ولايخطر أساس الدين لشيء [2] الذى ليس أصلا من أصول الدين ولاواجبًا ولامقصودا، بل على الأكثر مستحسن ، فافهم هٰذا فللعوام أن يتوسلوا بأسماء اللّٰه وبأعمالهم و بدعاء الحاضر من الصالحين وبس.

---

(١) يعنى دلائل هٰذه الوسيلة

(٢) يعنى هٰذه الوسيلة

ثم لو تسأل هل يجوز للداعي أن يدعوا بحق فلان ؟ فقلنا بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز: إن بعض أهل العلم لم يجوزوا هذا؛ لأنهٔ ليس على الله حق غيره تعالى ، لكن هناك حديث حسنهٔ حافظ ابن حجر رواه ابن ماجة أنهٔ قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: " من قال إذا خرج إلى المسجد: اللّٰهم إني أسالك بحق السائلين عليک وبحق ممشا ي هذا فإني لم أخرج أشرا ولابطرا ولارياء ولاسمعة ، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك ، أسالک أن تنقذني من النار وأن تغفرلي ذنوبي ، إنهٔ لايغفر الذنوب الاأنت ، أقبل الله عليه بوجهه (وليس إقبال الله بوجهه كإقبال الإنسان ، ولأن الله تعالى عن المكان والزمان والمواجهة والمقابلة والأعضاء والجوارح . فقد يكون معناه رحمتهٔ وقبولهٔ والله أعلم) واستغفرلهٔ سبعون ألف ملک ." (سنن ابن ماجة، ح:٧٧٨) فحق الغير على الله ليس على معنى الحقيقي قطعا وبتاتا فإنكار بعض أهل العلم للقول "اللّٰهم إني أسالک بحق فلان " صحيح في معنى الحقيقة ، لكن قد ورد الحديث عنه ومهما يمكن التاويل لايجوز ردّهٔ . فتاويل الحديث أنهٔ من قبيل ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّٰهِ لِلَّذِيْنَ يَعْمَلُوْنَ السُّوْءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوْبُوْنَ مِنْ قَرِيْبٍ﴾ (النساء:١٧) القرآن الكريم والحديث " حق العبد على الله أن لايعذبهٔ إن يعبده ولايشرک به شيئًا." (صحيح البخاري: ح: ٢٨٥٦) وليس معنى "على الله" حق العبد على الله على ظاهر اللغة لا بل معنى الله سبحانهٔ وتعالى أخذ على نفسه فضلا ورحمة منه أنهٔ يفعل هذه الأشياء وليس على الله واجبًا، فنفس التاويل للحديث اللّٰهم إني أسالک بحق السائلين عليک الخ يعني ما أخبرنا الله تعالى مما أخذ على نفسه فضلا ورحمة منه مما يعطي السائلين إليه ومما يعطي على المشي إلى المسجد وليس على الله واجبًا . فإذا فهمت هذا فاعلم أنهٔ من الذي معلوم عنه بالقطع أنهٔ من أهل الجنة وهم الأنبياء ومن شهد لهٔ الأنبياء بهذا ، فيجوز أن يقال: اللّٰهم إني أسالک بحقه في نفس المعنى قياسا على هذا الحديث ، يعني ما أخذ الله على نفسه مما قد هيّأ لهم من النعم [1] والراحة والثواب وليس على الله واجبًا وأما ما عدا لهم من الصالحين [2] فلا ينبغي أن يقال: "اللّٰهم إني أسئلك بحقه"؛ لأننا لانعلم ما هو مكانهٔ عند الله بالقطع ، فينبغي تركهٔ وقد جوزنا في التبرک وفي التوسل بالتبرک به على غلبة الظن؛ لأنهٔ هناک فرق ظاهر بين سؤال بحقه بهم وسؤال توسلا وتبركا بذاته على ظاهر أحواله؛ لأننا نرى المسلمين يسألون الصالحين منهم للدعاء رجاء بالقبول وليس هذا إلا على غلبة الظن وهذا متوارث بين المسلمين وهكذا يحسبون على الأتقياء منهم خيرا وفضلا وليس هذا إلا على غلبة الظن ويقبلون شهادة العدول منهم وليس هذا إلا على غلبة الظن ويصلون وراء هم وليس هذا إلا على غلبة

---

(١) فالمعنى أنك أخذت على نفسك ما قد أردت لهم من الثواب ونحن نواليهم ونحبهم فهب لنا رحمة من عندك أيضاً

(٢) يعني في ظاهر أحوالهم بين أيدينا

الظن وهٰكذا منها أمور كثيرة وكلها علٰى ظاهر الأحوال وقد قال عمر رضي الله تعالٰى عنه: "نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر." (مسند الإمام الشافعي، ح:٨) وهٰكذا يتبرك بآثاره وبذاته توسلا به علٰى غلبة الظن ، وأما حقهٗ على الله تعالٰى يعني ما أراد الله أن يعطيهٗ فى الدنيا والآخرة فهو شيء آخر ولايعلم إلا للأنبياء ومن شهد لهم الأنبياء عليهم الصلوات السلام ؛ لأنهم معلوم بالقطع عنهم أن اللّٰه تعالٰى قد أراد فى الأزل خيرا لهم فى الدنيا والآخرة ، فلاينبغى أن يسأل بحق غيرهم وحالهم غير معلوم والله أعلم . ثم كما ذكرنا سابقا أن كل هٰذا لأهل العلم ، وأما العوام فيجوز لهم هٰذا الدعاء الذى فى الحديث بعينه بشرط أن يفهموا معنى الحق فى حق الله تعالٰى ، ولاينبغى لهم أن يعدوا إلٰى ماعداه مماذكرنا قياساعليه لما فيه من الأخطار التى قد ذكرنا سابقا (والله أعلم) .

التنبيه :

اعوذبالله من الشيطٰن الرجيم بسم الله الرحمٰن الرحيم فى الأوراق الآتية نحن تكلمنا عن سماع الموتٰى وقلنا: إنهٗ ثابت فى الجملة فنجزم حيثما ورد فيه النص ونتوقف فيما لم يرد ، لكن ثم بدا لى أنهٗ لم يوجد أي سبب للتفرق فى سماع الموتٰى بين ماورد فيه النص وبينما لم يرد فيه؛ لأنهٗ لم نعلم أي إشارة فى النصوص أن سماع الموتٰى مقيد بهٰذا القدر ، فنحن نرى أن النصوص وردت فى سماع القتلٰى فى قليب بدر وفى سماع قرع النعال لسائر الموتٰى وفى سماع السلام وفى سماعهم: "السلام عليكم يا أهل القبور من المسلمين والمؤمنين ، أنتم لنا سلف ونحن لكم تبعون وإنا إن شاء اللّٰه بكم لاحقون" كما فى الحديث أخرج العقيلي عن أبى هريرة رضي الله تعالٰى عنه مرفوعا. (الضعفاء الكبير ، ح:١٥٧٣) . وكذٰلك ما ورد فيما عداها من النصوص ونحن لانجد أي إشارة فيها أن السماع مخصوص بها ولهٰذا صار عندى فى قول سماع الموتٰى فى الجملة نظر [1] لأنهٗ لوهناك من العلماء يقولون: إنه فى الجملة ويتوقفون فى إطلاقه ، لكن نحن بعد تتبع النصوص فى هٰذا الشان لم نجد يعنى فى تتبعنا الناقص وجها ما لتخصيص سماع الموتٰى بما ورد فيه النصوص إلا أنهٗ يؤخذ الآية إنك لاتسمع الموتٰى علٰى ظاهرها و إطلاقها ، ثم تخصيص الآية بما ورد فيه النصوص لسماع الموتٰى ، لكن نحن كما بينا أن هٰذه الآية تتكلم عن إسماع الذى هم ينتفعون به وهٰذا غير موجود فى حق الموتٰى .لأنهم قد رحلوا من دار الامتحان ، فليس لهم أن يتغيروا مماهم ماتوا عليه ، فإذا أثبتنا هٰذا المعنى للآية فلايوجد وجه مفهوم لتخصيص سماع الموتٰى ، هٰذا لأهل العلم أن يغوروا فى هٰذا الشان؛ لأن النصوص الواردة فى سماع الموتٰى أنها تشير أنهم يسمعون ماقيل عندهم إطلاقا

---

(١) لكن مع هذا لانستطيع أيضا أن نقول إن سماع الموتى على الإطلاق؛ لأن النصوص ليست صريحة على هذا أيضا

كمايسمعون الأحياء وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم فى شان قتلى التى كان فى قليب بدر" ماأنتم بأسمع لماقلت منهم ." (صحيح البخاري، ح:٣٩٧٦) "إنهم الأن يسمعون ماأقول ." (صحيح البخاري، ح: ٣٩٨٠) فهم لويسمعون حين ذاك ماقيل لهم، فمايمنعهم أن يسمعوا فى غير حينذاك ، وهٰذا القدر لإمعان أهل العلم فيه ، ثم لونثبت سماع الموتىٰ مطلقا ، فلايؤثر فى مسئلة الاستشفاع؛ لأنهٗ ولوأن أهل القبور يسمعون دائما ماقيل عندهم ، لكن هناك أمور أخرىٰ لابد من مراعاتها التى ذكرنا لعدم الاستشفاع إلا فى حق نبينا صلى الله عليه وسلم.

ثم نوسب فى هٰذا المقام أن نذكر الإشكال الكبير عند منكرى سماع الموتىٰ فى سماع الموتىٰ وهو أنهم يقولون: لو نحن نسلم أن الموتىٰ يسمعون ، لكن كيف يبلغ أصواتنا فى داخل قبورهم ونحن (ولو عند القبر) ، لكن علىٰ خارجها؟ فهم يقولون: إن التراب والحجر بيننا وبين أهل القبر يحول بين أصواتنا وبينهم .

فالجواب بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز أن الموقف أن الأصوات لا تبلغ فى داخل القبر غير سائغ؛ لأن الأحاديث تخبرنا أن صيحة عذاب القبر يسمعها ما يلى القبر غير الثقلين يعنى البهائم عند القبر تسمع عذاب القبر ، فإذا كان صوت عذاب القبر من داخل القبر يبلغ خارج القبر حتىٰ تسمعه البهائم ، فما ذا هو المنع لصوت خارج القبر أن يدخل داخلهٗ ؟

فلو قيل: إن هٰذا عن الصيحات التى تكون أرفع من الصوت العادى ، فنجيب إن شاء الله العزيز بتوفيقهٖ إذا كانت النصوص تخبرنا عن بعض الأشياء مثلاً السلام عند القبر أن الموتىٰ يسمعونه إذا قيل عند قبورهم فنخذ هٰذه الأشياء كمثل الصيحات؛ لأن الله عزوجل قادر أن يجعلها كمثل الصيحات حتىٰ يدخل فى داخل القبر لسماع أهل القبور ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (فاطر:٢٢) والله أعلم ويهدى من يشاء إلىٰ صراط مستقيم.

وأما سماع الموتىٰ فهٰذا الموضوع قدكثر الكلام فيه ، فقلنا بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز: إنهٗ قد اختلف فى مسئلة سماع الموتىٰ ، والحق أنهٗ ثابت فى الجملة وقد وردت أحاديث كثيرة فى هذ الباب منها " إن الموتىٰ يسمع قرع نعالهم حينما يتولون عنه ." (صحيح البخاري، ح: ١٣٧٤) ومنها ما جاء عن السلام علىٰ أهل القبور عند حضور قبورهم ومنها "ما من أحد يمر علىٰ قبر اخيه المسلم كان يعرفهٗ فى الدنيا ، فيسلم عليه إلا رد الله روحهٗ حتىٰ يرد عليه السلام." (نيل الأوطار، ح: ١٢٠٩) وهٰذا ولو المسلم الزائر لايسمع رد أهل القبر ثم هناك أحاديث أخرىٰ فى هذا الباب التى مجتمعة تدل علىٰ سماع الموتى فى الجملة بالقطع ، ثم لو سئل أنهٗ قدوردت إنكار عائشة

رضي الله عنها على الحديث [1] عن قليب بدر واستدلت بالآية ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ (النمل:٨٠) قلنا إن سيدتنا عائشة رضي الله تعالىٰ عنها لم تكن تسمع مباشرة هذ الحديث من النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم، بل بلغتها من قبيل ابن عمرؓ، فقد حملت علىٰ وهمه بدون أن ينسبهُ إلى الكذب (ونعوذبالله) لأن الصحابة رضي الله عنهم كلهم عدول بالقطع بالإجماع استشهادا بهٰذه الآية، لكن قدورد نفس الحديث من الأصحاب أخرىٰ فلاوجه لحمله على الوهم، لكن لم يبلغها من الصحابة الأخرون على الأقل في البداية، فحملته علىٰ وهم ابن عمررضي الله تعالىٰ عنه، ونحن قلنا على الأقل في البداية؛ لأنهُ هناك قصة عائشة رضي الله تعالىٰ عنها مع أخيها الميت التي قد تدل علىٰ رجوعها من إنكار سماع الموتى ونحن نذكرها فيما بعد إن شاء الله العزيز.

الآن نتكلم عن هٰذه الآية وأمثالها، ففي القرآن ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ (النمل:٨٠) ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ (فاطر:٢٢) قلنابتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز: إن هٰذه الآيات لاتدل علىٰ إنكار سماع الموتى؛ لأن في الآية إنكار الإسماع وليس إنكار السماع، ثم الكلمات "الموتى" و"من في القبور" استخدمت للإشارة إلى الكفار الأحياء والمراد أن الموتى وأهل القبور كمالاتستطيع أن تنفعهم بعد صيرورتهم إلى القبور وكذٰلك هٰؤلاء الكفار؛ لأنهم ولو أحياء، لكن بنسبة الاستجابة والقبول والنفع من سماع الحق والهداية كالأموات؛ لأنهم لايتقبلون الحق ولايلتفتون إليه وهٰذا ظاهر لمن قرأسياق هٰذه الآيات بالغور والإمعان، فقدقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ (النمل:٨٠-٨١) ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ (فاطر:١٨-٢٣) فقدذكر الله تعالىٰ إنك لاتسمع الموتى وقدذكرولاتسمع الصم، فالصم في هٰذه الآية ليس علىٰ ظاهر المعنى، بل معناه الذين لاينتفعون بالسمع وهٰذا ظاهر، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (الأنفال:٢٠-٢٢) وشر الدواب هم الكفار ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ (البينة:٦) ففي الآيةالصم معناه الذين لاينتفعون بالسمع وكذٰلك شبه الكفار (يعني الذين كتب الله عليهم الشقاوة) بالموتى في السمع وهم يسمعون في

(١) هو الحديث المشهور أن الرسول عليه السلام قام على قليب بدر وفيه قتلىٰ بدر من المشركين، فقال عليه الصلوة والسلام: "هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟" ثم قال: "إنهم الآن يسمعون ما أقول." (صحيح البخاري، ح: ٣٩٨٠)

الحقيقة ، لكن باعتبار عدم الانتفاع بالسمع هم لايسمعون فكذلك يجوز للميت أن يسمع ، لكن لأنهم لايستطيعون الانتفاع بالسمع (فكأنهم لا يسمعون) لأنهم قد رحلوا من دار الامتحان (يعنى الدنيا) إلى أول منزل من منازل دار الجزاء (يعني البرزخ) وكذلك فى الآية ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ (فاطر:٢٢) يعنى إسماع الذى ينتفع به فشبه الضالّ بالأعمى ؛ لأنهم لايرون الحق وأنهم يرون فى الجملة وشبّه الكفار بالأموات ؛ لأنهم لايسمعون الحق سمعا قبولا ولو يسمعون فى الجملة وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ (الأنفال:٢٣) يعنى لأنفعهم بالسماع فيقبلون الحق ، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ (الأنعام:٣٦) وقد قال تعالى : ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ (النمل:٨١) وأيضا قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ (يونس:٤٢) وأيضا قال تعالى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف:١٧٠)

فثبت أنهُ قد ورد السمع والإسماع فى معنى الانتفاع بهما وورد عدم السمع والإسماع فى معنى عدم الانتفاع بهما فى القرآن الكريم ، فإنكار السمع والإسماع على الإطلاق للموتى استشهادا بالآية ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ (النمل:٨٠) وأمثالها غير سائغ، بل يكون معنى الآية؛ لأن الكفار لاينتفعون بسمع الحق ؛ لأنهم لايقبلونهُ فمثلهم مثل الأموات الذين لايستطيعون على الانتفاع بسمع للحق ؛ لأنهم قد رحلوا من دار الامتحان ، فلايجوز لهم فى البرزخ أن يتغيروا مما هم ماتوا عليه فى الدنيا ، فلوماتوا فى الدنيا على الحق فهم عليه فى البرزخ ، ولوماتوا على الباطل فهم عليه فى البرزخ ولايستطيعون فى البرزخ أن يقبلوا الحق فى معنى المعتدبه نافعًا لهم عند الله تعالى ، فكما أهل القبور لاينتفعون بالسمع للحق وللهداية ، وكذلك هؤلاء الكفار لاينتفعون به. فمعنى الآية أنت يا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم لاتسمع هذه الكفار إسماعًا ينتفعون به كما لاتسمع الأموات إسماعًا ينتفعون به .

وقد ثبت عنهم فى القرآن والحديث أنهم بعد الموت لايستطيعون أن يتغيروا مما هم ماتوا عليه كما ذكرنا وفى القرآن: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون:٩٩-١٠٠)

فإذا فهمت هذا ، فاعلم أن الآية تنفى إسماع الموتى إسماعا نافعا ، لكن هي ساكتة عن الإسماع فى الجملة ، فإذا ثبت من الأحاديث إسماعهم وسماعهم فى الجملة ، فلايجوز الإنكار، بل وجب قبولها وهي ماورد النص فيه يعنى فى السلام وفى سمع قرع نعال المتولين عنه بعد الدفن وسمع أهل قليب بدر وكذلك ماورد فيه النص .

ثم هناک وجه آخر لإثبات سماع الموتٰی وهو انه قدثبت فی الأحاديث المشهورة أن الرسول صلی اللّٰه تعالٰی عليه وسلم تكلم مع عدد من الأنبياء [1] عليهم الصلٰوة والسلام وكلهم قد توفوا إلا سيدنا عيسٰی بن مريم عليه السلام ، فثبت سماع الموتٰی من هٰذه الحادثة ، ولوقلتم: إن هٰذا من المستثنيات ، فقلنا: قدسلمتم الاستثناء من الآية إنک لاتسمع الموتٰی ، فصارت الآية مخصصة، فبعد ذٰلک يجوز تخصيصها المزيد من الأحاديث الأخرٰی (ولو الآحاد) بدلا عن التاويلات الركيكة للأحاديث ، وهٰذه إذا كانت الأحاديث فی سماع الموتٰی لم تبلغ حد التواتر أو المشهور والحق أن الأحاديث فی سماع الموتٰی مجتمعة تبلغ مبلغ المشهور ، ثم هٰذا كلهٗ علٰی أصول شيخنا أبوحنيفة رحمه اللّٰه تعالٰی ، وأما علٰی أصول الأئمة الأخرٰی فيجوز تخصيص إطلاق الآية بخبر الواحد عندهم، ثم هٰذا إن يؤخذ الآية "لاتسمع الموتٰی" علٰی نفي الإسماع والسماع علی الإطلاق، وكما بيّنا هي ليس هٰكذا ، واللّٰه أعلم .

ثم اعلم أنهٗ لم يثبت إنكار سماع الموتٰی من أبی حنيفة رحمه اللّٰه تعالٰی ولا التفات إلٰی من قال غير هٰذا ، وقد ثبت إنكار عائشة رضي اللّٰه تعالٰی عنها علی الحديث عن ابن عمر رضي اللّٰه تعالٰی عنه كماذكرنا سابقًا ، فقالت: إنما قال النبي صلی اللّٰه تعالٰی عليه وسلم : إنهم ليعلمون الأن أن ما كنت أقول لهم حق وقدقال اللّٰه تعالٰی: إنک لاتسمع الموتٰی (صحيح البخاري، ح: ١٣٧١) وحملت رواية ابن عمرؓ علٰی وهم ، لكن كما ذكرنا أنهٗ لم يهم ابن عمر رضي اللّٰه عنه وقد روی نفس الرواية الأصحاب الأخرٰی رضي اللّٰه تعالٰی عنهم كماروی ابن عمر رضي اللّٰه تعالٰی عنه ، ثم فی جامع الترمذي أخرج القصة لعائشة رضي اللّٰه تعالٰی عنها أنهٗ توفي عبدالرحمٰن بن أبی بكر رضي اللّٰه تعالٰی عنه أخو عائشة رضي اللّٰه تعالٰی عنها بالحبشة ، فحمل إلٰی مكة فدفن فيها ، فلما قدمت عائشة رضي اللّٰه تعالٰی عنها أتت قبرعبدالرحمٰن بن أبی بكر رضي اللّٰه تعالٰی عنه ، فقالت: واللّٰه لوحضرتک مادفنت إلا حيث مت ، ولوشهدتک مازرتک، انتهٰی (سنن الترمذي، ح:١٠٥٥) وهٰذا خطاب عائشة رضي اللّٰه تعالٰی عنها لأخيه الميت قد يدل أنها رجعت عن موقفها وأقرت بسماع الموتٰی وأيضا يدل أنها تعتقد أنه لاينبغی للنساء أن يزرن القبور كما قالت ، "ولوشهدتک مازرتک"، فيحتمل كل الاحتمال أنها قد بلغت بعد اجتهادها فی هٰذا الموضوع وبعد الإمعان والغور فی الروايات ، فرجعت عن إنكارها لسماع الموتٰی إلٰی إثباته كما دلت قصتها مع أخيها الميت. (واللّٰه أعلم) ثم هٰذا الكلام كلهٗ فی سماع الأموات فی حضورهم وأما من يعتقد أن الميت كائنا من كان

(١) فی المعراج

يسمع من قريب وبعيد، فهٰذا شرک جلي أكبر ، والله لايغفر أن يشرک به ويغفرمادون ذٰلک لمن يشآء وهٰذا نحن كما تكلمنا فيه بالتفصيل الحمد لله .

وأما الاستشفاع فقلنا بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله عزوجل: إن الاستشفاع لو بمعنى أنهٗ واحد يحضر واحدا حيّا حاضرا آخرا ويسالهٗ للدعاء ، فهٰذا يجوز والمتوارث بين المسلمين وإن قيل: كيف يجوز للمسئول أن يدعو للسائل ؟ وقد قال الله تعالىٰ: ﴿مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ (البقرة:٢٥٥) فكيف يدعو لهٗ ولم يستأذن من الله ، ثم لايستطيع أن يستأذن فی هٰذه الدنيا؛ لأن الوحي لايأتي إلا على الأنبياء ، فقلنا: إنهٗ قد أجاز الله تعالىٰ فی الجملة أن يدعو المسلمين بعضهم لبعض ، وقدقال الله تعالىٰ: ﴿ وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحشر:١٠) وفی الحديث: "دعوة الأخ لأخيه فی ظهر الغيب مستجابة ." (شعب الإيمان: ح:٨٦٣٠) والدلائل فی هٰذاالباب كثيرة تفيد بالقطع لإجازته للدعاء لغيرهٖ من المسلمين ، فهٰذا النوع من الاستشفاع يجوز، بل سنة؛ لأن الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم كانوا يسألون النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم للدعاء .

ثم لواستشفاع بمعنى أنهٗ واحد يسأل واحدا آخر غائبا للدعاء فهو شرک أكبر جلي يشتمل على الشرک فی السمع والبصر والعلم وقد بيّناهٰذا سابقا .

ثم استشفاع بمعنى أنهٗ واحد يحضر قبر واحد آخر و يسألهٗ للدعاء فهو فيه الكلام ، فاعلم أن المخلوق لايستطيع علىٰ أي شيء والله علىٰ كل شيء قدير ، ثم فی العالم الله عزوجل قد قدرنطاقا للعمل للمخلوق ، ففی هٰذا النطاق الإنسان فی الظاهربمعنى المجاز يقدر أن يفعل أشياء والله فی الحقيقة خالق لكلها ، وهٰذا النطاق هو مشتمل علىٰ مايكون تحت الأسباب وماهو خارج عن هٰذا النطاق هو مافوق الأسباب وهوخارج من مقدور الإنسان ، فمثلا الإنسان يستطيع أن يمشي ويأكل ويشرب ويتزوج ويصلي ويصوم ويعمل أشياء بيدهٖ ويكسب وغيرها من الأشياء الكثيرة ، وهٰذهٖ كلها ماهي تحت الأسباب المتاحة للإنسان ، ثم ماهي وراء هٰذه الأسباب ، فالإنسان حتىٰ فی معنى المجازي غير قادرعليها ، فمثلا لايستطيع أن يأتي بالمطرمن السماء وأن ينفع ويضر بدون الأسباب المادية وأن يسمع من بعيد ويرى من بعيد وأن يعلم أشياء بدون الأسباب المادية وغيرها من الأشياء التی أكثرمن أن يمكن إحصاء ها.

فإذا فهمت هٰذا ، فافهم أنهٗ من يحضر القبر ويسألهٗ فإن يسأله أن يفعل لهٗ أي شيء مثلاً أن يعطي مالا وأشياء غيره من أمثاله ، فهٰذا شرک جلي أكبر تشتمل على الشرک فی القدرة؛ لأن الميت قدغادر هٰذه الدنيا ، فسؤال المال منه سؤال لشيء الذی ماوراء الأسباب فی حقهٖ وخارج عن نطاقهٖ ،

وهذا يدل على أن السائل يعتقد أن الميت قادر على أن ينفع بدون الأسباب المادية ، وهذا شرك في قدرة الله تعالى وقد ذكرنا أن المخلوق لايستطيع على أي شيء وفي القرآن ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرًّا ﴾(الأعراف:١٨٨) ﴿ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ (الجن:٢١) ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (يونس:١٠٦) ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(الفاتحة:٣) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (النحل:٧٣) ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعاً وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (المائدة:٧٦) ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (الأعراف:١٩٧) ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾(النحل:٢٠-٢٢) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحج:٧٣-٧٤) ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾(سبا:٢٢) ففي الحقيقة لايجوز أن يسأل مخلوقًا على الإطلاق لأي شيء؛ لأنهُ لايستطيع مطلقًا وفي الحديث ، فإذا سألت فاسأل الله ، فإذا استعنت فاستعن بالله. (سنن الترمذي، ح:٢٥١٦) وفي القرآن ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة:٣) ، لٰكن كما ذكرنا أن الإنسان في ماتحت الأسباب المتاحة لهُ قادر في معنى المجاز والله في الحقيقة خالقهُ وأفعالهُ كلها ، فجاز أن يُسأل مايكون تحت نطاقه في معنى المجاز استحسانًا مادام لايسأل للأشياء المحرمة والسائل في الحال أنهُ أجاز لهُ الشريعة فيه السؤال بشرط أن يعتقد أن المسئول غيرقادر في الحقيقة ، وكل شيء من الله تعالىٰ في الحقيقة ، وهٰذا المسئول هو سبب ظاهري ومجازي فيما هي تحت الأسباب وبس ، لكن ما هي وراء الأسباب فهي خارج من نطاق الإنسان ، فهي على حالها أنهُ لايجوز سؤالها من الإنسان حتىٰ في معنى المجاز ، والإنسان غيرقادر عليها حتىٰ في معنى المجاز ، فسؤالهُ منه لامحالة يعبر عن إنساب القدرة للإنسان التي هي لله فقط ، فيكون الشرك في قدرة الله ، فافهم هٰذا جيدا أن الإنسان غير قادر مطلقا إلا ماأعطاه الله في معنى المجاز في الأشياء اليسيرة بالأسباب المادية ، وأما ورآئها فهي لله على الإطلاق ، فالميت قدانقطعت علاقتهُ من الأسباب المادية من هٰذه الدنيا ، فسؤالهُ للمال يكون شركا على الإطلاق وكذٰلك جميع الأشياء، وأما سؤالهُ أن يدعوا الله؛ لأن يفعل الله للسائل شيئًا فهٰذا لايكون شركا؛ لأن الدعاء هو ماتحت الأسباب بنسبة الميت ، وقد ورد أنهم يدعون للأحياء ،" اللّٰهم

ألهمهم أن يعملوا بطاعتك، اللّٰهم لاتمتهم حتیٰ تهديهم كماهديتنا" وغيرهٗ من الأحاديث ، لكن هٰذه المسئلة تدورحول سماع الموتیٰ ، وقدتكلمنا فيه بالتفصيل ، وقلنا: إنهٗ ثابت فی الجملة ، وقلنا: إنهٗ لانستطيع أن نجزم أن الميت يسمع دائما ماقيل فی حضورهٖ كا لأحياء ، فلانستطيع أن نجزم أنهٗ يسمع من يحضرهٗ ويسألهٗ للدعاء ، فإذا يكون هٰكذا فلا جزم فی هٰذا الفعل ، ثم لم يثبت هٰذا الفعل فی علمنا من الصحابة رضي اللّٰه تعالیٰ عنهم ولا التابعين أنهم كانوا يحضرون بعضهم قبور بعض ويستشفعون للدعاء ، ثم نحن ذكرنا سابقا أن سد الأنقاب التی يمكن للشرك أن يدخل منها أشد أهمية بالأضعاف الكثيرة من هٰذه الأمور ، فلا ينبغی هٰذا الفعل ولاينبغی أن واحدا من المسلم يحضر قبر أخيه المسلم ويسألهٗ للدعاء ولأن أيضا هٰذه الأمور دقيقة ، ووقوع فی الشرك من لايفهم هٰذه الدقائق متوقع ، فتركهٗ متقرر ، ثم نحن نریٰ عمل رسول اللّٰه صلی اللّٰه عليه وسلم أنهٗ كان يحضر البقيع ويسلم عليه ويستغفر لهٗ وهولنا أسوة حسنة ، ثم ماقلنا: هٰذا فی حق غير الأنبياء (يعنی عدم جزم سماع الموتیٰ دائمًا لما قيل عندهم) وأما الأنبياء عليهم السلام ، ففی سماعهم إجماع ماقيل عندهم يعنی عند حضور قبورهم؛ لأننا نریٰ أن الفقهاء فی ذكر آداب زيارة قبر النبي صلی اللّٰه تعالیٰ عليه وسلم دائما يذكرون الاستشفاع منه عند قبرهٖ ، وهٰذا لأنهم يعتقدون أنهٗ يسمع كل هٰذا الكلام الذی قيل عندهٗ ، ثم أحاديث المعراج أن الرسول عليه السلام كلم عددا من الأنبياء عليهم السلام وكلهم سمعوا كلامه وكلهم قد توفوا دون عيسیٰ عليه السلام فقط ثم ثبت أن الرسول عليه الصلوٰة والسلام مرعلیٰ قبر موسیٰ عليه الصلوٰة والسلام وكان يصلی فی قبرهٖ .(سنن النسائي، ح:١٦٣٣) وهٰذا فی قصة الإسراء والمعراج . ثم ثبت فی الحديث أنهٗ عليه السلام قال فی وادی الأرزق كأنهٗ يریٰ موسیٰ عليه السلام مارا بالوادی لهٗ جؤار إلی اللّٰه بالتلبية ، وكذٰلك فی ثنية هرشی كأنهٗ يریٰ يونس عليه السلام مارا بالوادی ملبيا.(صحيح مسلم، ح:٤٣٨) والعلماء فسروا هٰذا الحديث بالتفاسير ، لكن يحتمل أنهٗ صلی اللّٰه عليه وسلم يتكلم عن حقيقة الحال دون أن يعبر عما مضی أوغيرهٗ من الأشياء ، فلوعلیٰ حقيقة الحال ، فثبت أنهمايحجّان البيت كما هو ظاهر من التلبية ، ولوثبت عنهما أمكن عن غيرهما من الأنبياء عليهم الصلوٰة والسلام ولقد ثبت أنهٗ صلی اللّٰه عليه وسلم رأی سيدنا المسيح بن مريم عليه السلام يطوف البيت. (صحيح البخاري، ح:٥٩٠٢) وهٰذا فی الرؤيا ورؤيا الأنبياء وحي ، لٰكن سيدنا المسيح بن مريم عليه السلام لم يمت بعد، بل ينزل من السماء ثم يموت كماهو معلوم بالتواتر وأيضا فی الحديث :"ما من أحد يسلم عليّ إلا رد اللّٰه عليّ روحی حتیٰ أرد عليه السلام." (سنن أبی داود، ح:٢٠٤١) "لاتجعلوا بيوتكم قبورا ولاتجعلوا قبری عيدا وصلوا عليّ ، فإن صلاتكم تبلغنی حيث كنتم ." (سنن أبی داود، ح:٢٠٤٢) " من صلّی عليّ عندقبری سمعتهٗ ومن

صلى عليّ نائيا أبلغ إليّ." (شعب الإيمان، ح: ١٤٨١) "إن لله ملائكة سياحون فى الأرض يبلغونى من أمتى السلام." (سنن النسائي، ح: ١٢٨٢) "إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء." (سنن النسائي، ح: ١٣٧٤) فكل هذه الأحاديث تدل على أن شأن الأنبياء ليس كشأن غيرهم، والمسلمون فى العالم يصلون ويسلمون على النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وكل هذا يؤخذ إليه وهو يرد سلامنا، ولولا يبلغ إلي تلفظا، ثم قدثبت من الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم بآثار صحيحة انهم استشفعوا بالنبي الكريم صلى الله عليه وسلم وقدروى ابن أبى شيبة والبيهقي بسند صحيح أنهٗ جاء رجل فى زمان عمر رضي الله تعالىٰ عنه إلى قبر النبي الكريم صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وقد اصاب الناس قحط، فقال يارسول الله! استسق لأمتك، فانهم قدهلكوا إلى آخره. (مصنف ابن أبى شيبة، ح: ٣٢٠٠٢) وهذا الرجل هو صحابي مشهور اسمهٗ بلال بن الحارث رضي الله تعالىٰ عنه ثم رأى النبي الكريم صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فى الرؤيا، ثم ذكر هذا إلى عمر رضي الله تعالىٰ عنه، ويحتمل أنهٗ ذكر إليه رضي الله تعالىٰ عنه استشفاعهٗ عند قبر النبيّ الكريم صلى الله تعالىٰ عليه وسلم، ولوثبت هذا فقدثبت أيضا إقرار عمر رضي الله تعالىٰ عنه على استشفاعه. ثم هناك أثر آخر رواه الطبراني بسند صحيح عن عثمان بن حنيف رضي الله تعالىٰ عنه أنهٗ أرشد الرجل لحاجة أن يصلى ركعتين فى مسجد النبوي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم، ثم قال عند قبر النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم الذى هو متصل بالمسجد، فيتوسل بالنبي الكريم صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ويستشفع به. (المعجم الكبير، ح: ٨٣١١) وهذان أثران صحيحان يدلان صحة التوسل به صلى الله تعالىٰ عليه وسلم حتّى بعد الوفات. وهو نوع من التبرك كما ذكرنا سابقا وأيضا صحة الاستشفاع به عند قبره يعنى فى حضوره صلى الله تعالىٰ عليه وسلم. ثم ثبت فى زمان التابعين أنهم كانوا يستشفعون بالنبي الكريم صلى الله تعالىٰ عليه وسلم عندقبره كماذكرقاضى عياض فى كتابه "الشفاء" أن الإمام مالك رحمه الله تعالىٰ كان يفعلهٗ ثم كما ذكرنا الفقهاء من المذاهب الأربعة ذكروا استشفاع فى كتبهم يعنى استشفاع بالنبي الكريم صلى الله تعالىٰ عليه وسلم عند قبره. فهٰذه الأشياء يعنى الروايات التى ذكرنا والأثران والفتاوى من العلماء مجتمعة تدل على أن الأنبياء عليهم الصلوٰة والسلام يسمعون كلما قيل عند قبورهم، ثم كما ذكرنا فى حق الأنبياء عليهم الصلوٰة والسلام غير نبينا صلى الله تعالىٰ عليه وسلم أن قبورهم غير معلومة على الأكثر، ولم لم يثبت فى علمنا من الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم أو التابعين رحمهم الله أنهم كانوا يستشفعون بهم عليهم الصلوات والسلام عند قبورهم، فأولى تركه تقليدا بهم رضيَ الله تعالىٰ عنهم، لكن يثبت الاستشفاع بنبينا صلى الله تعالىٰ عليه وسلم منهم فلاوجه للإنكار، فثبت الاستشفاع به صلى الله تعالىٰ عليه وسلم

عند قبره عليه الصلوٰة والسلام. (والله أعلم)

ثم اعلم أن جميع ماذكرنا فى باب التوسل (الوسيلة) وفى باب الاستشفاع فهي فى الجملة لأهل العلم ، وأما عوام الناس فلاينبغى لهم أن يخوضوا فيها ، فلاينبغى لأهل العلم أن يدلوا العوام على هٰذه الأشياء؛ لأن العوام يقعون فى الشرك عند ما يخوضون فى هٰذه الأشياء؛ لأن هٰذه الأشياء دقيقة ولابد لواحد الذى يتوسل ويستشفع أن يعلم هٰذه الدقائق بالكلية وإلا يقع فى الشرك أو البدعة ويكسب خسران الدنيا والآخرة ، فنحن نقترح على العلماء والفقهاء اقتراحا شديدا أن يراعوا هٰذا الأمر فى حق العوام ولأن إبقاء هم على التوحيد أساس الدين ولايخطر أساس الدين للأشياء غير الضرورية ، ونحن لانقول هٰذا إنكارا على التوسل والاستشفاع عند القبر، بل نقول للأسباب التى ذكرنا . فينبغى لأهل العلم أن يرشدوا العوام فى حاجاتهم إلىٰ ركعتين لصلوة الحاجة كماورد فيها الأحاديث . وثم يدعو ، فيحمد الله ويثنى عليه ويصلى ويسلم علىٰ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم والأنبياء عليهم الصلوٰة والسلام وعلىٰ آلهم وأصحابهم أجمعين ثم يدعو الله لحاجاته والمسنون هٰذا الدعاء لاإلٰه إلا الله الحكيم الكريم سبحان الله رب العرش العظيم ، الحمد لله رب العٰلمين ، أسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك والغنيمة من كل بر والسلامة من كل اثم ، لاتدع لى ذنبا إلا غفرته ولاهما إلافرجته ، ولاحاجة هي لك رضا إلا قضيتها يا أرحم الراحمين . ثم يسأل الله من أمر الدنيا والآخرة ماشاء. فإن يتوسل فيتوسل بأسماء الله وصفاته والأعمال الصالحة التى لهٗ وبس، ولا ينبغى أن يتوسل بالنبي الكريم صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ويتبرك ويستشفع عند قبره صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ويتبرك بآثار الصالحين حتىٰ يتعلم دقائق هٰذه الأمور كلها كما بيّنا فى هٰذا الكتاب ويمهر الأمور التى لابد من مراعاتها لتجنب الوقوع فى الشرك والبدعة وما أشبههما ويكون من أهل العلم فى هٰذاالمجال ثم يجوز لهٗ التوسل والتبرك والاستشفاع عند قبرالنبي الكريم صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ، بل يستحسن كما بيّنا فى هٰذا الكتاب .

اعلم أن حياة الأنبياء عليهم الصلوٰة والسلام فى البرزخ متفق عليها عندأهل السنة والجماعة وهي أعلىٰ من حياةالشهداء والصالحين بأضعاف لايمكن إحصائه لنا وفى الحديث: "أكثروا الصلوٰة علىّ يوم الجمعة، فإنهٗ مشهود تشهده الملائكة وأن احدا لن يصلى على إلا عرضت عليّ صلوتهٗ حتىٰ يفرغ منها فسئل وبعد الموت ، فقال صلى الله تعالىٰ عليه وسلم : وبعد الموت إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء ، فنبي الله حي يرزق." (سنن ابن ماجة، ح:١٦٣٧) "إن لله ملائكة سياحين فى الأرض يبلغونى من اُمتى السلام" "من صلى علىّ عند قبرى سمعته ومن صلى علىّ نائيا أبلغ إلى" فأرواح الأنبياء فى جنة الفردوس فى الرفيق الأعلىٰ كما قالت فاطمة رضي الله تعالىٰ عنها حين قبض رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "وا أبتاه جنة الفردوس ماواه ." (سنن ابن ماجة،

ح: ١٦٣٠) وقال رسول اللّه صلى اللّه تعالىٰ عليه وسلم إنهٗ لم يقبض نبي قط حتىٰ يرى مقعده من الجنة ثم يحيا أويخير (مسند أحمد، ح: ٢٤٥٨٣) وكان يقول صلى اللّه تعالىٰ عليه وسلم فى مرضه الذى قبض فيه "فى الرفيق الاعلى" والرفيق الأعلىٰ معناه الذين أنعم الله عليهم ويدل عليه الحديث الآخر عن عائشة رضي اللّه تعالىٰ عنها قالت سمعت رسول اللّه صلى اللّه تعالىٰ عليه وسلم يقول مامن نبي يمرض إلا خير بين الدنيا والآخرة وكان فى شكواه الذى قبض فيه أخذته بحّة شديدة فسمعته يقول" مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين الشهداء والصالحين ." (صحيح البخاري، ح: ٤٥٨٦) فأرواح الأنبياء فى الرفيق الأعلىٰ فى الجنة الفردوس وقدتكون أحيانا فى بعض السماء كما ورد فى حديث المعراج أن الرسول صلى اللّه تعالىٰ عليه وسلم التقى عددا من الأنبياء فى السمٰوات المختلفة وقدتحج بيت العتيق الكعبة ، لوثبت الحديث عن موسىٰ ويونس عليهما السلام فى هٰذا الشان علىٰ حقيقة الحال ، و لكن فى الجملة هي فى الرفيق الأعلىٰ فى أعلى الجنة كما ثبت من الأحاديث التى ذكرنا ، وأجسادهم فى قبورهم كهيئتها كانت فى الدنيا صحيحا طريا ، وعندها علاقة ثابتة قوية مع أرواحها وهم يصلون كما موسىٰ عليه السلام رآه الرسول صلى اللّه تعالىٰ عليه وسلم يصلي فى قبره ويدعون ويرزقون ويسمعون كلام من يتكلم عند قبورهم ويجيبون سلامهم ويعرض عليهم الصلوات والسلام من عندنا فى البرزخ ، وحياتهم هٰذا حياة برزخية ، ولايمكننا أن نحصي عما من النعم والفضل والراحة والثواب وعلاقة مع اللّه وعلاقات بعضهم مع بعض فى الرفيق الأعلىٰ ، وأشياء كثيرة من أمثالها التى هم فيها فى حياتهم البرزخية ، فهم ماهم فيه من رحمة اللّه وفضله وإنعامه عليهم صلوات اللّه عليهم والسلام. وكذٰلك حياة برزخية ثابتة للصديقين والشهداء والصالحين وهي أدنىٰ حالا من حياة الأنبياء عليهم الصلوٰة والسلام فى البرزخ ، وهي ثابتة لجميع المؤمنين وهي أدنىٰ حالا من الصديقين والشهداء ، وهي ثابتة لعصاة المؤمنين ؛ لأنهم قد يعذبون وإلا كيف يعذبون بدون الحياة وهي ثابتة لكفار ، وهم يعذبون أشداً من عذاب عصاة المؤمنين وإلا كيف يعذبون بدون الحياة؟ ونحن نتكلم عن هٰذا إن شاء اللّه فى عذاب القبر وثوابه فيما بعد .

ثم هناك شيء يقال: عرض الأعمال وقد كثر الكلام فيه وضل الناس فيه ، فنحن نتكلم عن ماهو صحيح وكافى إن شاء اللّه تعالىٰ ، فنقول بتوفيق اللّه تعالىٰ إن شاء اللّه عز وجل: إن عرض الأعمال فى موضوعنا معناه أن أعمال الأمة تعرض علىٰ نبينا صلى اللّه عليه وسلم فى الجملة وبالإجمال ، ثم إذا فهمت معناه فاعلم أنهٗ قدثبت أن صلواتنا وسلامنا عليه صلى اللّه تعالىٰ عليه وسلم تعرض عليه صلى اللّه تعالىٰ عليه وسلم . هٰذا القدر ثابت بالأحاديث المشهورة وأما ماعدا ذٰلك فالقرآن والأحاديث فى الجملة ينكرها وفى القرآن: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِىْ نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ

فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ (غافر:٧٧) ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ (يونس:٤٦) ففى هذه الآية قد قال الله تعالى: إنهُ بعد وفاة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم إنهُ هو الذى يكون شهيدا على افعالهم ، ونحن نعلم لن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ليس سميعا بصيرا عليما لكل شيء بل سماعته وبصارته وعلمه تحت الأسباب العادية ، لكن كان يمكنه أن يشهد لأفعالهم بعد وفاته بواسطة عرض أعمالهم عليه من عند الله كما أمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم تشهد للأنبياء السابقة عليهم السلام فى يوم القيامة (اللهم اجعلنا من أهل هذه الشهادة) اعتمادا على العلم بهم بواسطة القرآن والحديث ، ولم يروهم ولم يحضروهم فى الدنيا ، وهذا ثبت فى الحديث ، فإذا قال الله عزوجل : ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾(يونس:٤٦) فهذا يدل أنّ أعمالنا لاتعرض عليه صلى الله تعالى عليه وسلم وابين من هذا قول عيسى عليه الصلوٰة والسلام فى يوم القيامة كما قال الله تعالى عنه فى القرآن الكريم ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (المائدة:١١٧) وهذا نص فى إنكار العلم عن أمته عليه الصلوٰة والسلام بعد ما رفعه الله إليه حيا ، يعنى بعد رفعه إلى السماء عليه الصلوٰة والسلام وإن قلت: إنهُ عيسىٰ عليه السلام لم يمت، بل رفع إلى السماء حيا وأنت الأن تتكلم عن عرض أعمال الأمة عليه صلى الله تعالى عليه وسلم بعد وفاته صلى الله تعالى عليه وسلم والمسيح بن مريم عليه الصلوات والسلام عند مايموت بعد نزوله فبعد وفاته لاتكون أمتهُ موجودة؛ لأن هذه الأمة أمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم من زمانه إلى يوم القيامة وعيسىٰ عليه السلام نفسه ينزل ويتبع شريعة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فيصير من أمته من وجه ، فقول عيسىٰ عليه السلام للاستدلال فى هذا الموضوع غير كامل . فأجبنا بتوفيق الله تعالى إن شاء الله عزوجل: أنهُ الحى فى السماء وكان لايعرض عليه أعمال أمته ، فماظنك بمن توفي من الأنبياء عليهم الصلوٰة والسلام ، ثم نحن نعلم ضرورة أن الأنبياء عليهم السلام ماكانوا يعلمون فى حياتهم فى هذه الدنيا من أعمال أمتهم إلا ماهم يشهدون بأنفسهم أوما يعلمهم الله بالوحي بدون اللزوم أن يكون مشتملا على جميع أعماله قطعا وبتاتا ، وفى القرآن: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ (التوبة:١٠١) ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (التوبة:٤٣) وقد قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : "إنكم تختصمون إلىّ وإنما أنا بشر ، ولعل بعضكم الحن بحجته من بعض ، فقضيت لهُ من حق أخيه شيئًا فلاياخذه فإنما أقطعه به قطعة من النار." (سنن ابن ماجة، ح:٢٣١٧) وهذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حي موجود فى هذه الدنيا ، لكن ماكان يعلم الذين مردوا على النفاق فى المدينة ، فماظنك عن غيرهم؟ وماكان يعلم أحوال الخصمان يختصمان إليه ، فماظنك عن غيرهما؟ وقد

أرسل رسول الله صلی الله تعالیٰ علیه وسلم علیا رضي الله تعالیٰ عنه لبعض شانه ، فرجع علي رضي الله تعالیٰ عنه بعد شهد ماشهد ، وأخبر رسول الله صلی الله تعالیٰ علیه وسلم مماشهد ، فقال رسول الله صلی الله تعالیٰ علیه وسلم : إنهٗ قد یری الشاهد (یعنی علیا فی هٰذه القصة) مالا یری الغائب (یعنی نفسه صلی الله تعالیٰ علیه وسلم فی هٰذه القصة) فهٰذا احوالهٗ صلی الله تعالیٰ علیه وسلم وجمیع الأنبیاء علیهم الصلوٰة والسلامَ کمثله فی هٰذا الشأن فی هٰذه الدنیا عندما کانوا موجودین فیها ، فماظنک بعد وفاتهم؟ ثم قال رسول الله صلی الله تعالیٰ علیه وسلم فی الحدیث فی یوم القیامة: "الا إنهٗ یجاء برجال من أمتی فیؤخذبهم ذات الشمال ، فأقول: أصحابی، فیقال: إنک لاتدری ماأحدثوا بعدک" فأقول کما قال العبدالصالح: ﴿وَکُنتُ عَلَیۡهِمۡ شَهِیۡدًا مَّادُمۡتُ فِیۡهِمۡ فَلَمَّا تَوَفَّیۡتَنِیۡ کُنۡتَ أَنۡتَ الرَّقِیۡبَ عَلَیۡهِمۡ وَأَنۡتَ عَلٰی کُلِّ شَیۡءٍ شَهِیۡدٌ إِنۡ تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُکَ وَإِنۡ تَغۡفِرۡلَهُمۡ فَإِنَّکَ أَنۡتَ الۡعَزِیۡزُ الۡحَکِیۡمُ﴾ (المائدة:١١٧-١١٨) فیقال: إن هٰؤلاء لم یزالوا مرتدین علیٰ أعقابهم منذ فارقتهم." انتهی: (صحیح البخاري، ح:٤٦٢٥) وفی روایة أخریٰ قال: "إنی فرطکم علی الحوض ، من مر علیٰ شرب ومن شرب لم یظمأ أبدا لیردن علیٰ اقوام أعرفهم ویعرفوننی ، ثم یحال بینی وبینهم فأقول: انهم منی فیقال انک لاتدری ماأحدثوا بعدک، فأقول: سحقًاسحقًا لمن غیر بعدی." (صحیح البخاري، ح:٦٥٨٣، ٦٥٨٤) وهٰذا الحدیثُ یتکلم عن قبائل العرب الذین أسلموا علیٰ ید نبینا صلی الله تعالیٰ علیه وسلم ، فلهٰذا السبب فی الحدیث یقول:" أصحابی "، "أعرفهم ویعرفوننی" ثم ارتدوا فی خلافة الصدیق رضي الله تعالیٰ عنه حتیٰ جاهد هو وأصحاب رسول الله صلی الله تعالیٰ علیه وسلم (الأنصار والمهاجرین) هٰؤلاء المرتدین کما هو معلوم من التاریخ والسیر، ولهٰذا السبب الحدیث یقول: "ان هٰؤلاء لم یزالوا مرتدین علیٰ أعقابهم منذ فارقتهم." وهٰذا رسول الله صلی الله تعالیٰ علیه وسلم لایعلم أحوال من أسلموا حینما کان صلی الله تعالیٰ علیه وسلم موجودا فی هٰذه الدنیا عما فعلوا بعد وفاته صلی الله تعالیٰ علیه وسلم ، فماظنک عن غیرهم؟ وهٰذا الحدیث متواتر مستفیض تفید العلم أسانیدها فی الجملة. ثم فی القرآن: ﴿یَوۡمَ یَجۡمَعُ اللّٰهُ الرُّسُلَ فَیَقُوۡلُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡ قَالُوۡا: لَا عِلۡمَ لَنَا إِنَّکَ أَنۡتَ عَلَّامُ الۡغُیُوۡبِ﴾ (المائدة:١٠٩) وهناک تفاسیر لهٰذه الآیة ، لٰکن أظهرها أنهٗ لاعلم لنا یعنی علم محیط کما هو علمک یا الله افأنت أعلم منا ، علمک محیط بکل شيء ونحن فقط نعلم ماهم أجابونا علی الظاهر ، وأنت تعلم ظاهرهم وباطنهم ، ثم نحن فقط نعلم عما شهدنا ، ولانعلم مافعلوا فی غیبتنا وبعد وفاتنا ، وأنت تعلم کل شيء ، أنت علام الغیوب ، فهٰؤلاء الأنبیاء علیهم الصلوٰة السلام کلهم ینفون عن أنفسهم علما عن أمتهم الاماهو علی الظاهر فی شهادتهم وهٰذا فی حیاتهم فما ظنک عما بعد وفاتهم . وهٰذا أیضا یدل علیٰ عدم عرض أعمال أمتهم علیهم ثم الآیة ﴿فَکَیۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِنۡ کُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِیۡدٍ وَّ جِئۡنَا بِکَ عَلٰی هٰؤُلَآءِ

شَهِيدًا﴾ (النساء: ٤١) ففي تفسيره رواه ابن أبي حاتم أنهُ قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم باكيا يارب هذا شهدت على من أنا بين أظهرهم فكيف بمن لم أره وكذلك تفسير هذه الآية روي عن عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه أنهُ قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: "شهيد عليهم مادمت فيهم فإذا توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم." (مسند الحميدي، ح: ١٠٢) ويؤيده الحديث الصحيح الذى ذكرنا سابقا عن حال يوم القيامة، فهذا كلهُ يدل على نفي عرض الأعمال على الأنبياء عليهم الصلوٰة والسلام .

فإن قلت: إنهُ هناك بعض الآثار تدل على عرض أعمالنا على نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم : "حياتي خير لكم وموتي خيرلكم ، تعرض عليَّ أعمالكم ، فماكان من حسن حمدت الله عليه وماكان من سيء استغفرت الله لكم . أخرج البزار بسند صحيح من حديث ابن مسعود ." (مسند البزار: ح:١٩٢٥) وكذلك على باقي الأنبياء عليهم الصلوٰة والسلام وكذلك عرض أعمالنا على أقاربنا بعد وفاتهم قلنا إنهُ ماذكرنامن الدلائل القطعية من القرآن والحديث التي تدل على نفي عرض الأعمال ، فهذه الآثار ليس لها مقارنة مع هذه الدلائل القطعية هذه الآثار والله أعلم بصحتها لاتقرب في القوة والاستدلال إلى الدلائل القطعية التي ذكرنا من القرآن والسنة التي تدل على نفي عرض الأعمال . القرآن والسنة يخبران أن الأنبياء عليهم الصلوٰة والسلام لايعرفون إلا مايشهدون من أعمال الأمة ، ولذلك نفوا عن أنفسهم علم بواطنهم ومافعلوا بعد وفاتهم ، ولوكان الله سبحانهُ وتعالى يعلمهم عن أحوال أمتهم لمانفوا عن أنفسهم علما بها ، وكل هذا ثابت بالدلائل القطعية ، فأين هذه الآثار مع هذه الدلائل القطعية؟ فقلنا عن هذه الآثار أنها تدل على الصلوات والسلام التي هي ثابتة أنها تعرض عليهم الصلوات والسلام ويحتمل أنها تدل على عرض الأعمال بالإجمال جدا الذي لايبلغ درجة الشهادة ولايبلغ العلم عن التفصيل مثلا أكثر أمتك على الشر أو أكثر أمتك على الخير وهذا مطرد في حق نبينا صلى الله عليه وسلم ، وأما الأنبياء الأخرىٰ فزمان أمتهم قد انقرض فيحتمل في حقهم هكذا أكثر الناس على الخير أو أكثر الناس على الشر ، وهذا فقط مثال ، والقصد أنهُ يحتمل عرض الأعمال هكذا بالإجمال وبالقليل ، ثم يحتمل أن الأنبياء عليهم الصلوٰة والسلام ونبينا صلى الله تعالى عليه وسلم يدعون للناس للخير .

واعلم أنهُ لو نسلّم عرض الأعمال فلابد من أن نشترط أنهُ قليل إجمالي حتى لايعارض النصوص القطعية التي ذكرنا ، ولايلزم منه نفي النص من النصوص القطعية التي ذكرنا؛ لأن نفي النص القطعي كفر بواح ، فافهم وخذ حذرا.

وأما عرض الأعمال على الأقارب فقد جاء فيه بعض الأحاديث أنهُ أعمالنا تعرض على أقاربنا

وعشائرنا فی البرزخ وهم يستبشرون به إن كان خيرا ويدعون لنا إن كان غير ذلك "اللّٰهم لاتمتهم حتّٰى تهديهم كما هديتنا." (مسند أحمد، ح:١٢٦٨٣) والدلائل التي ذكرنا سابقا علٰى نفي عرض الأعمال يمكن لأكثرها أن تستخدم في هٰذا البيان أيضا؛ لأن أقارب وعشيرة النبي صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم أيضًا من أمته ، فإذا نفى عن أمته الشهادة والعلم بعد وفاته فقد نفى عن أقارب وعشيرة أيضًا ، ثم أيضا يدل عليه الحديث أخرجه النسائي في كتاب الجنائز أنهٗ بعد وفاة المومن حينما الملائكة يأخذون بروحه ، فيأتون به إلٰى أرواح المومنين فيسألونه أرواح المومنين: ماذا فعل فلان؟ ماذا فعل فلان؟ (سنن النسائي، ح:١٨٣٣) والظاهر أنهم يسألون عمن يعرفون وهٰذا يحوى أقاربهم وعشائرهم أيضا[1] وأيضا يدل عليه الدعاء: "اللّٰهم لاتمتهم حتّٰى تهديهم كما هديتنا" في الحديث عن عرض الأعمال الذى ذكرنا فوقا؛ لأن هٰذا الدعاء بصيغة الجمع "لاتمتهم حتّٰى تهديهم" وهٰذا دعاء إجمالي وليس تفصيلي ثم يدل عليه الحس وهو نحن نعلم بالضرورة أن أقاربنا وعشائرنا في حياتهم لايعلمون عن أحوالنا إلا ماشهدوا منا على الظاهر وهٰذه من المشاهدة وكم من الأحيان واحد يفعل ويخوض في الشر الكبير بدون أن يعلم أبوه وأمه وزوجته وأولاده فضلا عن الأقارب والعشائر وغيرهم وهٰذا من المشاهدة وهٰذا كلهٗ وهم أحياء وهم لايعلمون إلا ما يشهدون منا على الظاهر ولايعلمون أفعالنا في غيبتهم وهم أحياء ، فما ظنك وهم أموات؟ فثبت أنهٗ عرض إجمالي[2] في الجملة لايبلغ درجة الشهادة ولاالعلم التفصيلي واللّٰه أعلم ويهدى من يشاء إلٰى صراط المستقيم.

التوحيد في الأسماء والصفات

الحمد للّٰه رب العلمين والصلوٰة والسلام علٰى رسوله الكريم وعلٰى جميع الأنبياء والمرسلين. نحن قد تكلمنا في الشرك في الألوهية والربوبية ، وكثير ماذكرنا تحوى أيضا على الكلام في الشرك في الأسماء والصفات.

اعلم أن للّٰه عزوجل صفات الكمال لاشريك لهٗ فيها ، فهو حي ، مريد ، سميع ، بصير، متكلم، قادر ، عليم ، وغيرها من الأسماء والصفات ، ونحن نتكلم في الأسماء والصفات فيما بعد أيضا؛ لأنهٗ هناك مواضيع تحوى هٰذا الموضوع ، فالأن نتكلم عن الشرك في الأسماء والصفات، والشرك في الأسماء والصفات معناه أن يوصف غيراللّٰه بصفات اللّٰه ونعوذباللّٰه مثلا يوصف واحد رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم بعلم الغيب والعلم بماكان ومايكون أو أنهٗ يسمع من قريب

---

(١) فلو كان تعرض أعمال أقاربهم وعشائرهم عليهم بالتفصيل لما احتاجوا أن يسألوا عنهم من هٰذا الروح القادم للمومن

(٢) مثلاً "أقاربكم في الجملة على الخير" أو "أكثرهم على الشر" على هٰذا المنوال ، واللّٰه أعلم .

وبعيد أو يرى كل شيء أو يقدر فوق الأسباب العادية وغيرها من الأشياء من أمثالها ، وكل هذا كفر بواح وشرك أكبر ، والله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء . فإذا فهمت هذا فنحن الآن نتكلم في صفات العلم والقدرة والرؤية والسماعة؛ لأن من الناس يدعون أنهم مسلمون ويشركون بالله تعالى في هذه الصفات ويثبتونها لغير الله تعالى .

ثم اعلم أنهُ لافرق بين من يثبت هذه الصفات لغير الله تعالى ويعتقد أنها ذاتية لهذا الفلان من غير الله تعالى أو يعتقد أنها لهُ إعطاءً من الله تعالى؛ لأنهُ من أثبت هذه الصفات لغير الله تعالى فقد جحد النصوص القطعية كما سنذكرها ، وقد ذكرنا كثيرا منها سابقا ، وجحود النص القطعي كفر بواح فضلا عن النصوص القطعية ، ثم الشرك الجلي الأكبر ليس معلق على ثبوت وجود غير الله الذي لهُ صفات ذاتية من نفسه كصفات الله تعالى، بل على ثبوت غير الله الذي لهُ صفات كصفات الله . فنحن نقول لو واحد يثبت أنهُ هناك إله آخر غير الله ، لكن هو مخلوق لله هل هذا شرك أم لا؟ لابد من نعم أنهُ الشرك الأكبر وكذلك لو واحد يقول: إنهُ هناك خالق آخر من غير الله ، لكن صفته الخلق مخلوق لله هل هذا شرك أم لا ؟ لابد من نعم وكذلك لو واحد يقول إنهُ هناك رب آخر من غير الله ، لكن ربوبيتهُ مخلوقة لله هل هذا الشرك أم لا ؟ لابد من نعم وكذلك في صفات العلم والبصر والسمع والقدرة يعني لو واحد يقول: إنهُ هناك عليم بكل شيء غير الله ، لكن علمهُ مخلوق لله هل هذا شرك أم لا ؟ لابد من نعم انهُ شرك أكبر وكذلك في جميع صفات الله تعالى، الله سبحانهُ وتعالى يقول: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (الإخلاص:٤) فمن أثبت لهُ كفوا في ذاته أو في صفاته أو في أفعاله ذاتيا أو إعطاء من عنده تعالى فقد جحد هذه الآية وهذا كفر بواح ، ثم أكثر المشركين ليس عقيدتهم أن الذين هم يشركون بالله هم ليسوا من خلق الله لا! ماكان هكذا عقيدتهم، بل هم يعتقدون أن الرب على الإطلاق ، والمالك على الإطلاق هو الله تعالى وهذه شركاء (في زعمهم) أيضا مخلوقون لله تعالى ذاتا وصفاتا وأفعالا ، لكن مع ذلك هم يشركونهم بالله في الألوهية والربوبية والأسماء والصفات وهذا ظاهر من القرآن وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ سَيَقُوْلُوْنَ لِلّٰهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُوْنَ قُلْ مَنْ رَّبُّ السَّمٰوٰتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيْمِ سَيَقُوْلُوْنَ لِلّٰهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُوْنَ قُلْ مَنْ بِيَدِهٖ مَلَكُوْتُ كُلِّ شَيْءٍ وَّهُوَ يُجِيْرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ سَيَقُوْلُوْنَ لِلّٰهِ قُلْ فَأَنّٰى تُسْحَرُوْنَ﴾ (المؤمنون:٨٤-٨٩) ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُوْلُنَّ اللّٰهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُوْنَ﴾ (لقمان:٢٥) فقد كانوا مشركين من المكة يعتقدون أن الله تعالى خالق السموات والأرض وما بينهما، مالك كل شيء ، وهم كانوا يعبدونه ويدعونه حتى عندما كانوا يلبون كانوا يقولون: "لبيك اللّٰهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك

إلاشريكا هولك تملكهُ وما ملك" فقد كانوا يعتقدون أن الشركاء الذين يشركونهم مع الله كانوا ملكا لله فى ذاتهم فضلا عن صفاتهم، لكن مع ذلك الله سبحانهُ وتعالىٰ أخبر أنهم مشركون وأنهم كافرون؛ لأن كما قلنا لافرق بين إثبات الشريك لله تعالىٰ الذى يعتقد أنهُ مملوك لله ذاتا وصفاتا أوغير مملوك للّٰه تعالىٰ ذاتا أوصفاتا أو ذاتا وصفاتا. الشريك هو الشريك والمشرك يكون كافرا لامحالة، والمشركون من مكة كان شركهم من النوع الأول؛ لأنهم يعتقدون أن الشركاء (فى زعمهم) كلهم مخلوق مملوك لله تعالىٰ ذاتا وصفاتا حتىٰ هم يعتقدون أن الله تعالىٰ هو الذى قادر فى الحقيقة، والشركاء ليسوا قادرين فى الحقيقة، وقدقال الله تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللّٰهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾(العنكبوت:٦٥-٦٦) ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ (الإسراء:٦٧) ﴿هُوَ الَّذِىْ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللّٰهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِيْنَ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيْمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّٰهُ عَمَّا يُشْرِكُوْنَ أَيُشْرِكُوْنَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُوْنَ وَلاَ يَسْتَطِيْعُوْنَ لَهُمْ نَصْرًا وَلاَ أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُوْنَ﴾(الأعراف:١٨٩-١٩٢) فثبت أنهم يعتقدون أن الله قادر فى الحقيقة خالق فى الحقيقة سميع، بصير فى الحقيقة، لكن لأنهم يدّعون ويعتقدون أن الله عزوجل أعطاهم قوة ليسمعوا دعاءهم ويعرفوا أحوالهمْ، ويعتقدون أنهم قادرون من عند الله عزوجل فى الجملة، فاعتقادهم على الله تعالىٰ لم ينفعهم ولم يمنعهم من أن يكونوا مشركين وكافرين. وهؤلاء المشركون كما ثبت من الآيات التى ذكرنا كانوا يدعون الله وحدهُ عند مايتورطون فى المصيبة العظمىٰ وينسون ماعداه من الشركاء (فى زعمهم) لكن عندما ينجون فصاروا يشركون مع الله تعالىٰ ويقولون أنهم شفعاء عند الله تعالىٰ. وفى القرآن: ﴿وَيَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُوْلُوْنَ هٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللّٰهِ قُلْ أَتُنَبِّئُوْنَ اللّٰهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمٰوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالٰى عَمَّا يُشْرِكُوْنَ﴾(يونس:١٨) ﴿ أَلَا لِلّٰهِ الدِّيْنُ الْخَالِصُ وَالَّذِيْنَ اتَّخَذُوْا مِنْ دُوْنِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُوْنَا إِلَى اللّٰهِ زُلْفٰى إِنَّ اللّٰهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيْ مَا هُمْ فِيْهِ يَخْتَلِفُوْنَ إِنَّ اللّٰهَ لَا يَهْدِىْ مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (الزمر:٣) فهٰذا كان حال المشركين من أهل الجاهلية وهم كانوا يفعلون أفعالا من قبيل العبادة لشركاءهم توسلا إلى الله عزوجل، فهم كانوا يسجدون ويركعون لهم ويذبحون لهم ويطوفون لهم وغيرها من الأفعال العبادة، وقدتكلمنا فيها بالتفصيل، ومن جملتها اعتقادهم أنهم قدأعطاهم الله قوة لسماعة من قريب وبعيد وكذلك لهم قدرة من عند الله أن يجلبوا النفع من عند الله وهٰذه كلها لم يمنعهم أن يكونوا مشركين، وكذلك

من يدعى أنهٗ مسلم ويثبت للأنبياء عليهم الصلوٰة والسلام ولأولياء صفاتا كصفات اللّٰه تعالىٰ فيثبت لهم أنهم يسمعون كل شيء وفوق الأسباب العادية ويرون كل شيء وفوق الأسباب العادية ويعلمون غيبا وفوق الأسباب العادية ويقدرون فوق الأسباب العادية فهو مشرک غير مسلم ويخلد في جهنم دائما أبدا لومات علىٰ هٰذه العقيدة؛ لأنهٗ أشرک باللّٰه وجعل لهٗ كفوا في صفاته ولافرق أنهٗ يقول: إن لهم هٰذه الصفات من ذاتهم أو من عنداللّٰه تعالىٰ في كونه بسببها مشركا كافرا .

ثم اعلم ونحن ذكرنا هٰذا سابقا أيضا أنهٗ ليس هناک أي تاثير إلا من اللّٰه فنحن في الحقيقة لانستطيع أن نرىٰ ونسمع ونعلم ونقدر شيئًا ما ، لكن لأنهٗ اللّٰه سبحانهٗ وتعالىٰ قدّرلنا دائرة وفي هٰذه الدائرة نحن نستطيع أن نسمع ونرىٰ ونعلم وغيرها من الأشياء ، وهي كلها في الحقيقة من قدرة اللّٰه تعالىٰ وخلقه وهٰذه دائرة محدودة بأسباب عادية فمن أثبت لغير اللّٰه هٰذه الصفات فوق الأسباب العادية فقد أشرک باللّٰه عزوجل ، فمن قال: وهو في باكستان مثلا "يارسول اللّٰه!" ويعتقد أنهٗ صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم يسمع كلامهٗ فقد أشركه مع اللّٰه في صفة السمع؛ لأنهٗ هو اللّٰه تعالىٰ يسمع كل شيء ولاشريک لهٗ . وكذٰلک لواعتقد في البصر هٰكذا وكذٰلک في غيرها من الصفات.

ونحن الأن نتكلم في هٰذه الصفات الأربعة وهو إن شاء اللّٰه يكفي لجميع صفات اللّٰه تعالىٰ وأيضالأنهٗ قد ضل الناس وأشركوا باللّٰه غيره في هٰذه الصفات .

(١) صفة السمع

﴿إنه سميع قريب﴾ (سبا:٥٠)، ﴿إنک سميع الدعاء﴾ (آل عمران:٣٨) فاعلم أن اللّٰه عزوجل يسمع كل شيء "إِنَّنِيْ مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَ أَرٰى "، " إِنَّ اللّٰهَ سَمِيْعٌ بَصِيْرٌ" ولاشريک لهٗ في هٰذا ونحن نسمع ماقيل عندنا وماعداه فلانسمع ، فمن يعتقد أنهٗ هناک غير اللّٰه يسمع ماقيل في غيابه ، فهٰذا شرک مع اللّٰه تعالىٰ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَّدْعُوْ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ مَنْ لَّا يَسْتَجِيْبُ لَهٗ إِلٰى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غٰفِلُوْنَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوْا لَهُمْ أَعْدَاءً وَّكَانُوْا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِيْنَ﴾ (الأحقاف:٥-٦) وهٰذه الآية نص في الرد علىٰ من يعتقد أن الأنبياء عليهم الصلوٰة والسلام والأولياء يسمعون دعائه ؛ لأنهم من دون اللّٰه وهم في الحقيقة عن دعائه غافلون ، ثم يوم القيامة عندما يعرفون عن شرک هٰذا الداعي فيصيرون منكرين علىٰ فعله ؛ لأنهم أشدالناس كراهية للشرک مع اللّٰه تعالىٰ " إِنْ تَدْعُوْهُمْ لَا يَسْمَعُوْا دُعَآءَكُمْ وَ لَوْ سَمِعُوْا مَا اسْتَجَابُوْا لَكُمْ وَ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ يَكْفُرُوْنَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُکَ مِثْلُ خَبِيْرٍ " فهٰذه الآية أيضا نص في الرد علىٰ من يدعوغير اللّٰه ويعتقد أنهم يسمعون فقال اللّٰه عزوجل: هم لايسمعون ثم قال: ولوسمعوا يعني علىٰ سبيل الفرض فلايستجيبون ، ثم يوم القيامة بعد الاطلاع سيكونون

كافرين منكرين لشرك هٰذا المشرك . ثم نحن نعلم ضرورة أن الأنبياء عليهم الصلٰوة والسلام والأولياء ماكانوا يسمعون إلا ماقيل عندهم وهٰذا معلوم بالحس ، ونحن نرىٰ رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ماكان يسمع إلا ماقيل عنده ، والمنافقون والكافرون كانوا يقولون مايقولون ، ويؤامرون ما يؤامرون ، ورسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ماكان يعلم عنهم إلا ما أخبر عنهم من جهة الوحي وكذٰلك ماكان يسمع كلام الصحابة رضي الله عنهم إلامايقولون عندهٗ وهٰذا كل معلوم بالضرورة من حياتهٖ صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ، وقدقال ابن أبي: "لَئِنْ رَّجَعْنَآ إِلَى الْمَدِيْنَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ" وسمعهٗ زيد بن أرقم رضي الله عنه ، فشكا إلى النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ، فجاء ابن أبى إلى النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وحلف أنهٗ ماقال هٰذا المقال، فصدقهٗ رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وكذّب زيد بن أرقم رضي الله عنه حتىٰ أنزل الله عن هٰذا فى سورة المنافقون ، فقال رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم لزيد: "إن الله قد صدقك." (صحيح البخاري: ح:٤٩٠٢) وهٰذا فقط قصة واحدة وحياة رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم والأنبياء عليهم الصلٰوة والسلام كلهم ، فمعلوم من حياتهم أنهم لايسمعون إلا ماقيل عندهم والناس حولهم من المسلمين والكافرين (ابن أبي كان منافقا) فكلهم يعرفون هٰذا ، فهٰذا فى الأنبياء عليهم الصلٰوة والسلام ، فما ظنك عن غيرهم؟ فمن أثبت السمع من قريب وبعيد وفوق الأسباب العادية لغير الله ، فهو صار مشركا بالله ، والمشرك إن مات علىٰ شركه يخلد فى النار أبدا ، فافهم وخذ حذرا.

(٢) صفة البصر

الله سبحانهٗ وتعالىٰ يبصر كل شيء ﴿إِنَّهٗ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيْرٌ﴾ (الملك:١٩) ولاشريك لهٗ فى هٰذا ونحن نرىٰ ما نشهد وماعدا ذٰلك فلا نرىٰ ، فمن أثبت لغير الله بصارة لكل شيء أو بصارة مافوق الأسباب العادية فقد أشركه مع الله فى صفة البصر ، ونحن ذكرنا سابقا أن الأنبياء عليهم الصلٰوة والسلام ماكانوا يعرفون إلا مايشهدون أنفسهم والدلائل التى ذكرنا سابقا فى هٰذا الشان مستدلة لهٰذا الباب أيضا والباب الذى قبلهٗ فى صفة السمع . ونحن نعلم ضرورة أن الأنبياء عليهم الصلٰوة والسلام والأولياء فى حياتهم لايرون إلا ما يشهدون وهٰذا من المشاهدة بالحس ونحن نرى رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم يقول لعلي رضي الله تعالىٰ عنه: " الشاهد يرى مالايرى الغائب ." (مسند احمد، ح:٦٢٨) والشاهد هو إشارة إلىٰ علي رضي الله تعالىٰ عنه؛ لأنهٗ شهد الشيء وأخبر النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم عنه والغائب إشارة إلىٰ نفسهٖ صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ؛ لأنهٗ لم يشهد بنفسهٖ و لكن علم عن هٰذا بعد إخبار علي رضي الله تعالىٰ عنه إياه ونحن نرىٰ سيدنا موسىٰ

علیہ السلام لم يعلم عن اتخاذ قومه العجل؛ لأنهٗ كان فی الطور ولم يشهد قومهٗ فقال اللّٰه عزوجل لهٗ: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَکَ مِنْ بَعْدِکَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ فَرَجَعَ مُوسٰى إِلٰى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ (طٰه:٨٥) ونحن نرٰی داؤد علیه السلام لم يرى الخصمان حين تسوروا المحراب ﴿وَهَلْ أَتَاکَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلٰى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغٰى بَعْضُنَا عَلٰى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلٰى سَوَآءِ الصِّرَاطِ﴾ (ص:٢١-٢٢) ونحن نرٰی سليمان عليه السلام لم يعلم عن سبأ وقومها؛ لأنهٗ لم يشهدهم ، حتٰی الهد هد يخبره عنهم: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُکَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ (النمل:٢٢) ونحن نرٰی عيسٰی عليه السلام وهو يقول فی يوم القيامة ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(المائدة:١١٧) فنفى عنه الشهود إلاماشهد بنفسهٖ فی حضورهٖ ونفى الشهود فی غيابهٖ والرسول صلى اللّٰه تعالٰی علیه وسلم سيقول نفس المقالة فی یوم القيامة كما جاء فی الحديث الصحيح فنفى عنه الرؤية إلا مارأى حاضرا بنفسهٖ وكذٰلک رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالٰی علیه وسلم نحن نرٰی أنهٗ أهدي إليه شاة مسمومة ، فأكل منها قليلا وأكل منها بعض الصحابة رضي اللّٰه تعالٰی عنهم حتٰی استشهد واحد من الصحابة رضي اللّٰه عنهم منها ، ولم يعلم رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالٰی علیه وسلم ولم يشهد السم حتٰی أخبره اللّٰه عزوجل، وأنطق الطعام المسموم الذی أخبر صلى اللّٰه تعالٰی علیه وسلم أنهٗ مسموم ، فقال صلى اللّٰه تعالٰی علیه وسلم لهم أن يفزعوا عنه أيديهم؛ لأنهٗ أخبرهٗ صلى اللّٰه تعالٰی علیه وسلم أنهٗ مسموم وكان صلى اللّٰه تعالٰی علیه وسلم يجد ألما من هٰذا الطعام الذی قدأكل بعضه قبل علمه ، فقال صلى اللّٰه تعالٰی علیه وسلم فی مرضه الذی توفي فيه ياعائشة! ما أزال أجد ألم الطعام الذی أكلت بخيبر ، فهٰذا أوان وجدت انقطاع أبهرى من ذٰلک السم. (صحيح البخاري، ح:٤٤٢٨) ولهٰذا السبب رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالٰی علیه وسلم قدحصل على الشهادة فی سبيل اللّٰه أيضا بالشهادة الحكمية وكذٰلک نحن نرٰی فی حديث التيمم أن عائشة رضي اللّٰه تعالٰی عنها قدانقطعت عقدها فی بعض أسفار رسول اللّٰه صلى اللّٰه علیه وسلم ، فأقام رسول اللّٰه صلى اللّٰه علیه وسلم على التماسهٖ وأقام الناس معهٗ حتٰی أصبحوا علٰی غير ماء فأنزل اللّٰه التيمم ، فقال أسيد بن الحضير رضي اللّٰه تعالٰی عنه: ماهي بأول بركتكم يا آل أبی بكر. (صحيح مسلم، ح:١٠٨) ثم بعثوا البعير الذی كانت عليه رضي اللّٰه تعالٰی عنها فوجدوا العقد تحته. وهٰذا الرسول عليه السلام مع جلة من الصحابة رضي اللّٰه تعالٰی عنهم ولم يشهدوا العقد ولم يروه وكان تحت البعير فماظنک عما غيره. وهٰذهٖ القصص قليلة من الكثيرة لم هٰذاالشيء لايحتاج إلى البيان؛ لأنهٗ معلوم من الدين بالضرورة أنهٗ ليس هناک غير اللّٰه من الملائكة والأنبياء والأولياء وغيرهم الذی يرى ويسمع من

قريب وبعيد وفى الشهود والغياب وفوق الأسباب ، لكن لأنهٗ قدظهر الشرك وظهر الناس الذين يدّعون أنهم مسلمون وثم يشركون بالله فى ذاتهٖ وصفاتهٖ ، فلهٰذا ذكرنا هٰذا بالتفصيل الكافى إن شاء اللّٰه العزيز . فاعلم أنهٗ من يثبت لغير الله كائنا من كان السمع أوالبصر محيطا بكل شيء أو فوق الأسباب العادية فقد أشركه مع الله والمشرك مخلد فى النار خالدا مخلدا فيها أبدا ، فافهم وخذ حذرا

(٣) صفة العلم

اللّٰه سبحانهٗ وتعالىٰ هو عالم الغيب والشهادة يعنى مايغيب عنا ومالايغيب عنا فهو يعلم كل شيء ولايغيب عنه شيء ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٩) ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ (التغابن:١٨) ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (الأنعام:٨٠) فمن أثبت لغير الله علما بكل شيء أو علما بماكان ومايكون أوعلما من فوق الأسباب العادية فقد أشركه مع الله فى صفة العلم وماذكرنا من الدلائل سابقا فى باب صفة السمع والبصر وفى ماقبلها من الأبواب من هٰذا الشأن كلها مستدلة لهٰذا الباب أيضا . وقد قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللّٰهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (النمل:٦٥) وقال اللّٰه عزوجل إخبارا عن نوح عليه السلام: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَآئِنُ اللّٰهِ وَلَآ أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ (هود:٣١)وقال اللّٰه عزوجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ لَآ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَآئِنُ اللّٰهِ وَلَآ أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ (الأنعام:٥٠) وقال اللّٰه تعالىٰ: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ (الأنعام:٥٩) ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهٖٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ (البقرة:٢٥٥) وقال اللّٰه عزوجل: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ (التوبة:١٠١) وهٰذا رسول اللّٰه صلى الله عليه وسلم لايعلم المنافقين الذين مردوا على النفاق من أهل المدينة فماظنك عن غيرهم ثم نحن قد ذكرنا الدلائل الكثيرة فى الأبواب السابقة التى مستدلة لهٰذا الباب ثم هٰذا الشيء معلوم من الدين بالضرورة أنهٗ لايعلم الغيب إلا الله ،والأنبياء والملائكة لايعرفون إلا ما يشهدون أو يُخبَرون عنها فلا احتياج إلى البيان المزيد وهٰذا شأنهم ، فماظنك عن غيرهم ، فمن أثبت علما محيطا أو علما بالغيب أو فوق الأسباب العادية لغير الله ، فقد أشركهٗ مع الله والمشرك إن مات علىٰ شركهٖ يخلد فى النار خالدا مخلدا فيها أبدا ، فافهم وخذ حذرا.

ثم اعلم أن اللّٰه عزوجل أعْلَم أشياء كثيرة التى يغيب عنا إلى الأنبياء ،من هٰذا بعض أحوال الآخرة ومن بعض الأخبار مما مضى فى الدنيا ومما سيأتى وهٰذا فى الشرع، يقال: " أنباء الغيب " فلايكون واحد بمعرفة هٰذه الأخبار عالم الغيب فى وجهٍ ما؛ لأنهٗ قد نفى الله عزوجل علما بالغيب عن دونهٖ كما هو الظاهر من الآيات التى ذكرنا وأيضا اعلم أنهٗ ماأعطاه الله عزوجل من العلم إلى الأنبياء

عليهم الصلوٰة والسلام فنسبتهٗ بعلمه تعالىٰ المحيط كالعدم وفي الحديث الصحيح أنهٗ سيدنا خضر عليه السلام قال لسيدنا موسىٰ عليه السلام عندما ركبوا السفينة وجاء عصفور ونقر في البحر نقرة أو نقرتين أنهٗ " ياموسىٰ ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مامثل مانقص هٰذا العصفور بمنقاره من البحر ." انتهىٰ . (صحيح البخاري، ح: ٣٤٠١) وهٰذا مثال فقط وفي الحقيقة أن علم جميع الخلائق بنسبة علم الله تعالىٰ كالعدم ولامقارنة بين محدود وغير محدود . فاعلم كمانحن لانكون عالما بالغيب في وجه ما بعد مانعرف أشياء كثيرة من أحوال الآخرة ، ومن أشراط الساعة ومن أحوال الأمم الماضية بواسطة الأنبياء و كذٰلك الأنبياء عليهم الصلوات والسلام لايكونون عالمين بالغيب في وجه ما قطعا وبتاتا بمعرفة هٰذه الأشياء بواسطة الوحي ، فافهم. ، لكن يقال: إنهم يعرفون بعض أنباء الغيب التى أوحيت إليهم وليس جميع أنباء الغيب ، وقد ذكرنا سابقا أنهٗ هو الله تعالىٰ عالم بكل شيء ونسبة علم جميع الخلائق من علم الله تعالىٰ كالعدم وهٰذا المصطلح " أنباء الغيب " ليس منا، بل من القرآن ، وقدقال الله تعالىٰ لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذكر قصة نوح عليه السلام: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَآءِ الْغَيْبِ نُوْحِيْهَآ إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَآ أَنْتَ وَ لَاقَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِيْنَ﴾ (هود:٤٩) وبعد قصة زكريا ويحيىٰ ومريم عليهم السلام ﴿ذٰلِكَ مِنْ أَنْبَآءِ الْغَيْبِ نُوْحِيْهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُوْنَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَاكُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُوْنَ﴾ (آل عمران:٤٤)

(٣) صفة القدرة

. اللّٰه سبحانهٗ وتعالىٰ هو الذى قادرعلىٰ كل شيء قادرعلى الإطلاق ، لايحتاج إلى الأسباب، فمن أثبت لغير الله قدرة علىٰ كل شيء أوقدرة على الإطلاق أوقدرة مافوق الأسباب فقدأشرك مع اللّٰه عزوجل : ﴿وَهُوَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ﴾ (المائدة:١٢٠) وهٰذا قال اللّٰه عزوجل عن نفسه ، وثم قدذكرنا دلائلاكثيرة في الأبواب السابقة التى تدل علىٰ نفي القدرة عن غير الله تعالىٰ وفي الحقيقة أنهٗ لاتاثير ولا استطاعة إلا من الله ونحن قدبيّنا هذا قبلا ، وقال الله عزوجل لرسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم : ﴿قُلْ لَآأَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَّلَارَشَدًا﴾ (الجن: ٢١)﴿ وَالَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ لا يَخْلُقُوْنَ شَيْئاً وَّهُمْ يُخْلَقُوْنَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَّمَا يَشْعُرُوْنَ أَيَّانَ يُبْعَثُوْنَ﴾ (النحل:٢٠-٢١) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوْا لَهٗ إِنَّ الَّذِيْنَ تَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ لَنْ يَّخْلُقُوْا ذُبَابًا وَّلَوِ اجْتَمَعُوْا لَهٗ وَإِنْ يَّسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوْهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوْبُ مَا قَدَرُوْا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهٖ إِنَّ اللّٰهَ لَقَوِيٌّ عَزِيْزٌ﴾(الحج:٧٣-٧٤) ﴿قُلْ أَتَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَّلَا نَفْعاً وَّاللّٰهُ هُوَ السَّمِيْعُ

﴿الْعَلِيمُ﴾ (المائدة:٧٦) وغيرها من الآيات الكثيرة فى هذا الباب . فاعلم من أثبت القدرة على شيء ما من جهة فوق الأسباب للملائكة أو الأنبياء أو غيرهم فقد أشركهم مع الله عزوجل ومن أثبت لهم قدرة أنهم قادرون أن يجلبوا المنفعة من عند الله فقد كفر بالله عزوجل، والمشرك والكافر خالدان مخلدان فى النار أبدا إن ماتا على الكفر والشرك ، فافهم وخذ حذرا.

ونحن قد ذكرنا هذه الصفة الأربعة لما ظهر عنها من الشرك والضلال وجميع صفات الله تعالى وأفعاله هكذا لاشريك لهُ فى ذاتهِ وصفاتهِ وأفعاله ، وصفاتهُ محيطة بكل شيء وهو لايحتاج إلى الأسباب وهو الأزلي الأبدي ، وصفاتهُ أزلية أبدية معهُ ، ومن أثبت صفاتا لغير الله صفاتا أزلية أومحيطة أو غير محتاجة إلى الأسباب فقد أشركه مع الله عزوجل والله لايغفر أن يشرك بهِ، والمشرك والكافر فى نار جهنم خالدين فيها ، أولئك هم شر البرية .

التوحيد فى الحاكمية

التوحيد فى الحاكمية معناه أنهُ هو الله الذى لهُ الحق أن يشرع القوانين ويحل الأشياء ويحرم الأشياء وليس هذا إلا لله تعالى ، فمن أثبت هذا لغير الله تعالى فقد أشركه مع الله عزوجل وقدقال الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الشورى: ٢١) فقدسماهم الله شركاء الذين هم أعطوا إليهم فى زعمهم اختياراً على شرع القوانين فيشرعون لهم حسب هواهم بغير هدى من الله تعالى فثبت أنهُ من فعل هذا يعنى يعتقد أنهُ هناك الذى من غيرالله عنده اختيار لشرع القوانين من دون الله ، فقد صار مشركا بالله العظيم وهذه المسئلة عظيمة جدا وقدصار فى زماننا الأمراء الفسقة الظلمة لايريدون شريعة الله تعالى، بل يريدون القوانين المستعارة من الطواغيت المغربية وهم يخضعون أعناقهم إليهم بدلا أن يخضعوا لله تعالى ، وكثير منهم المستبدون يسيطرون على العوام بالجبر والقهر وباستخدام القوات العسكرية، ومنهم أيضا فى نظام الملوكية يتناوبون المملكة من نفس الأهل والعشيرة ، ويسيطرون على الناس جبرا وقهرا ، ومنهم أيضا الذين يدّعون النظام الجمهورى ويعملون عمل التصويت فى البلاد وأكثرهُ مخدوع ويسفّهون الناس ويستخفّون بهم ، ثم من العوام الذين يصوتون لهم وأيضا من العوام الذين لايريدون شريعة الله تعالى، بل شريعة الطواغيت ، فاعلم أنهُ من لا يريد شريعة الله فليس مسلماً. فقد قال الله عزوجل: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ

لَهُ مُسْلِمُونَ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران:٨٣-٨٥) ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللّٰهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللّٰهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّٰهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّٰهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة:٤٩-٥٠) فمن يبتغ غير دين اللّٰه ليحكم به أويحكم به ولايريد شريعة اللّٰه الإسلام فلن يُقبل منهم ، وهوفي الآخرة من الخاسرين ، وقدقال اللّٰه عزوجل لنبيه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم أن يحكم بما أنزل اللّٰه وأن لا يتبع أهوآء الناس الذين لايريدون حكم اللّٰه ويبغون حكم الجاهلية وهؤلاء هم الفاسقون فهؤلاء الأمراء والملوک والرؤساء الذين لايريدون شريعة الإسلام ويبغون الشريعة الجاهلية التی هم يستعيرونها من بلاد المغرب ويقلدونهم فی هٰذا ويفضلون هٰذه الشريعة على الشريعة الإسلامية ويستخفون بشريعة اللّٰه تعالىٰ ولا يعيرون إليها بالا ولايلقون إليها سمعا ولايرفعون إليها بصرا ولايلوون إليها قلبا ، ثم مع ذٰلک يدّعون أنهم مسلمون ، هيهات هيهات أنّٰى لهم الإسلام؟ وهم لايريدون الإسلام وأنّٰى هم مسلمون؟ وهم لايريدون شريعة اللّٰه تعالىٰ، بل يكرهونها ويستهينون بها ويقاتلون ضد الذين يريدونها وينصرون أعداء اللّٰه ويتخذونهم أولياء ، وقدقال اللّٰه تعالىٰ فی القرآن: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللّٰهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة:٤٤) ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللّٰهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (المائدة:٤٥) ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللّٰهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (المائدة:٤٧) ومعنى هٰذه الآيات أنهُ من جحد بماأنزل اللّٰه فقدكفر ومن أقر به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق . وهؤلاء الناس لايشرح من أعمالهم أنهم يبالون عن شريعة الإسلام فی وجه ما، بل أعمالهم وأفعالهم يدلون أنهم لايقرون بأهمية شريعة الإسلام وأنها هي القانون الحق الذي محق بأن تكون نظاما وقانونا للبلاد ، ثم هؤلاء الناس يقاتلون ضد الذين يريدون الشريعة الإسلامية ويُخلّون فی طريقتهم بالقوات العسكرية ، ومن فعل هٰذا فقد كشف عن نفسه أظهر من الشمس أنهُ لاعلاقة لهُ بالإسلام ، وأيضا ينصرون أعداء اللّٰه ويوالونهم ويقاتلون معهم ضد المسلمين ويلقون القبض على المسلمين ويسلمونهم إلىٰ أعداء اللّٰه الكفرة وقد قال اللّٰه تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّٰهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللّٰهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ

لَـمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِيْنَ﴾ (المائدة: ٥١-٥٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِيْنَ اتَّخَذُوْا دِيْنَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِيْنَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ﴾ (المائدة:٥٧) ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِيْنَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيْماً الَّذِيْنَ يَتَّخِذُوْنَ الْكَافِرِيْنَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُوْنِ الْمُؤْمِنِيْنَ أَيَبْتَغُوْنَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلّٰهِ جَمِيْعاً﴾ (النساء:١٣٨-١٣٩) ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ ارْتَدُّوْا عَلٰى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلٰى لَهُمْ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوْا لِلَّذِيْنَ كَرِهُوْا مَا نَزَّلَ اللّٰهُ سَنُطِيْعُكُمْ فِيْ بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللّٰهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلٰئِكَةُ يَضْرِبُوْنَ وُجُوْهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوْا مَا أَسْخَطَ اللّٰهَ وَكَرِهُوْا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ (محمد:٢٥-٢٨) فقد بين الله عزوجل أنهٗ من يوالى الكفار ، فإنهٗ منهم ويدل علىٰ من يحب الكفر فهو كافر ومن يحب أفعال الكفار التى يناقض شريعة الله تعالىٰ فهو كافر ومن يحب نظام الكفار الذى يناقض شريعة الله تعالىٰ فهو كافر ، ومن يحب قوانين الكفار التى يناقض شريعة الله تعالىٰ فهو كافر ، ومن يحب تحكيم قوانين الكفار بدلا تحكيم شريعة الله تعالىٰ فهو كافر ، ومن يحب ثقافة الكفار التى يناقض شريعة الله تعالىٰ فهو كافر ومن يحب الكفار على المسلمين فهو كافر ومن يقاتل مع الكفار ضد المسلمين بسبب أنهم مسلمون فهو كافر ومن يتبع الكفار إعراضا عن اتباع الله تعالىٰ ورسوله صلى الله عليه وسلم فهو كافر ، ومن ينصر الكفار ضد المسلمين بسبب أنهم مسلمون فهو كافر ، ومن يتجسس للكفار ضد المسلمين بسبب أنهم مسلمون أو بسبب أنهٗ لايريد شريعة الله تعالىٰ تُحكم بها علىٰ وجه الأرض أو ينصر الكفار فى وجه ما بسبب ماذكرنا فهو كافر. وقد بيّن الله تعالىٰ كما تدل عليه الآيات التى ذكرنا أن الذين يقولون للذين كرهوا ماأنزل الله يعنى الكفار أنهم سيطيعونهم فى بعض الأمور هؤلاء هم الذين الشيطان سول لهم وأملىٰ لهم وهؤلاء هم الذين ارتدوا علىٰ أدبارهم من بعد ماتبين لهم الهدى وهؤلاء هم الذين اتبعوا ماأسخط الله وكرهوا رضوانهٗ وأحبط الله أعمالهم فهؤلاء الأمراء يتبعون الكفار فى قوانينهم ونظامهم ويطيعون أوامرهم التى يأمرونهم لمصالحهم تفضيلا علىٰ قوانين الله تعالىٰ وأوامره وإعراضا عن دينه الإسلام ، فأنى لهم الإسلام وقد ارتدوا علىٰ أدبارهم وكرهوا رضوان الله تعالىٰ الذى هو فى الإسلام وقد قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِيْنَ يَزْعُمُوْنَ أَنَّهُمْ آمَنُوْا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيْدُوْنَ أَنْ يَتَحَاكَمُوْا إِلَى الطَّاغُوْتِ وَقَدْ أُمِرُوْا أَنْ يَكْفُرُوْا بِهٖ وَيُرِيْدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيْداً﴾ (النساء:٦٠) فكيف يكون مسلما الذى يرضى أن يحكم بقوانين الطاغوت إعراضا واستخفافا بقوانين الله تعالىٰ ، وهٰكذا العوام الذين لايريدون شريعة الله تعالىٰ

ويريدون أن يتحاكموا إلى قوانين الطاغوت ، والطاغوت كل من يحكم بقوانين غير الله وكل من يعبد من دون الله ، وقدقال الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ﴾ (التوبة:٣١) وفسر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية انهم يتبعونهم فيما أحلوا لهم وحرّموا عليهم وذلك عبادتهم إياهم . فالعوام الذين يريدون الطواغيت ولايريدون شريعة الله تعالى ويكرهونها ويستخفون بها ، فأنى لهم الإسلام وأنى هم المسلمون؟ والعوام الذين يحكّمون قوانين غير الله إعراضا عن قوانين الله تعالى و يعتبرون قوانين الله تعالى أنها نعوذ بالله ليست مناسبة لهذا الزمان ولاحول ولاقوة إلا بالله ، فكيف لهم الإسلام وأنى هم المسلمون؟ وقد قال الله تعالى فى القرآن: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (النساء:٦٥) ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَّلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَّكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب:٣٦) ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَمَا أُولٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ وَإِنْ يَّكُنْ لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَّحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَّقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ يُّطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (النور:٤٧-٥٢) فكيف بمن لايحكّم شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ويجد فى نفسه حرجا منها ويعتقد أن له الخيار بعد حكم الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ويتولّى ويعرض عن أوامر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فهل لهم الإسلام؟ كلا . أولئك الذين فى قلوبهم مرض وهم المرتابون بماأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم وأولئك هم الظالمون ، فافهم .

واعلم أن الأمراء أو العوام أو غيرهم الذين يعرضون عن شريعة الله تعالى ويحكّمون قوانين الطواغيت فقد عبدوهم وأشركوهم مع الله تعالى وكفروا به ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ (النساء:٥٩) فمن لايرضى أن يرده إلى الله الرسول فليس من الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وهومن الكافرين .

واعلم أن الأمير إذا يحكم بغير ماأنزل الله كفرا بماأنزل الله أوإعراضا واستخفافا واستهانة بما أنزل الله ولو آمن به أواعتقاداً أنه لايناسب فى وجه ما أوتفضيلا بغيرماأنزل الله على ما أنزل الله أوكراهية بما أنزل الله أوحبا بغير ما أنزل الله لأنهٗ علامة استحلاله أواعتقاداً أنهٗ لاباس بحكم بغير ماأنزل الله ولويعتقد أن الأولى أن يحكم بماأنزل الله أوغيرها من الأشياء التى يشبهها فهو فى هذه

الحالة يكفر ويخرج من ملة الإسلام ووجب خلعهُ وقتالهُ بالقوة ،ولو يحكم بغير ماأنزل اللّٰه ، لكن هو يعتقد أن الفرض عليه أن يحكم بماأنزل اللّٰه وهو عاصى ومسيئ فاسق فى حكم بغير ما أنزل اللّٰه ، ويعتقد أنهُ ماأنزل اللّٰه هو الحق والمناسب والصحيح من كل وجه وغيرهُ هو الباطل والغلط والظلم والطغيان ﴿ ذٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ (الحج:٦٢) ويحب ماأنزل اللّٰه ويكره غيرهُ فهو فى هٰذه الحالة ظالم فاسق ، ونتوقف فى كفره ونفوض أمره إلىٰ أهل العلم ، لكن وجب خلعهُ فى هٰذه الحالة أيضا بالقوة حتىٰ لايلعب بالشريعة الإسلامية ولايكون واحدا لايحكم بشريعة اللّٰه ، ويقول: إنهُ يعتقد عليها ويحبها ويكره غيرها ويقول كذالك من الأشياء التى ذكرنا ، لكن لايطّبقها وهٰذا حرام [1] وإنكار عليه واجب وفى الحديث: "من رأى منكم منكرا فليغيره بيدهٖ ، فإن لم يستطع فبلسانه وإن لم يستطع فبقلبه وذٰلك أضعف الإيمان ." (صحيح مسلم، ح:٧٨) مامن نبي بعثه اللّٰه فى أمة قبلى إلا كان لهُ من أمتهٖ حواريون وأصحاب يأخذون بسنتهٖ ويقتدون بأمرهٖ ، ثم أنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون ويفعلون مالايؤمرون ، فمن جاهدهم بيدهٖ فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانهٖ فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبهٖ فهو مؤمن ، وليس وراء ذٰلك من الإيمان حبة خردل ." (المعجم الكبير، ح:٩٧٨٣) ثم الإمام الأمير إنما يقام لإقامة الحدود واستيفاء الحقوق وحفظ أموال الأيتام والمجانين وإقامة الصلوات والجهاد والزكوة وحرز للمسلمين وحفاظتهم وحفاظة الثغور للبلاد الإسلامية والتوسع فيها ولدعوة الكفار إلى الإسلام ووضع الجزية عليهم و قتال من ورائه ضدهم ولتطبيق قوانين اللّٰه تعالىٰ وفى إبقاء من لايفعل هٰذه الأشياء، بل يطبق قوانين غير اللّٰه تعالىٰ إبطال غاية ومقصد نصب الإمام الأمير وتعطيل قوانين الشريعة ، وإبطال كل هٰذه المصالح لايجوز قطعا وبتاتا فى الشرع ، فكيف مايؤدى إليه وهو إبقاء هٰذا الظالم الفاسق الذى يحكم بغير ماأنزل اللّٰه ، فلابد من خلعهٖ بقوة حتىٰ نأتى بمن يحكم بما أنزل اللّٰه ويطبّق الشريعة ويراعي ويحفظ جميع المصالح التى لها شرع نصب الإمام الأمير فى شريعة اللّٰه تعالىٰ . وإن قلت: إنهُ ذكر فى الأحاديث السمع والطاعة للإمام المسلم فى المنشط والمكره والنهي عن خروج عليه: "عليك السمع والطاعة فى عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك ." (صحيح مسلم، ح:١٨٨٦) "بايعنا رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم أن لاننازع الأمر اهلهُ إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من اللّٰه فيه برهان ." (صحيح البخاري، ح:٧٠٥٦) "اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ماحملوا وعليكم ما حملتم." (صحيح مسلم، ح:١٨٤٦) "يكون بعدى ائمة لايهتدون بهداي ولايستنّون بسنتى وسيقوم فيهم رجال ، قلوبهم قلوب الشياطين فى جثمان إنس " قيل: كيف أصنع

(١) يعنى عدم تطبيق الشريعة حرام وإن قال: إنهُ يعتقد أن الشريعة الإسلامية التى هي واجب وفرض وصحيح أن تطبّق فى البلاد وكذلك عدم إنكار على الذى من لايطّبق الشريعة حرام .

يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فقال صلى الله عليه وسلم: تسمع تطيع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع واطع ." (صحيح مسلم، ح:١٨٤٧) " من كره من أميره شيئا فليصبر عليه ، فإنهٗ ليس أحد من الناس يخرج من السلطان شبرا فمات عليه إلا مات ميتة جاهلية ." (صحيح مسلم، ح:٤٠٥٣) " من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة لاحجة لهٗ ، ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية." (صحيح مسلم، ح: ١٨٥١) "ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون ، فمن كره فقدبرئ ، ومن أنكر فقد سلم و لكن من رضي وتابع ، قالوا: يارسول الله ! أفلانقاتلهم؟ قال: لا، ما صلّوا ." (صحيح مسلم، ح: ١٨٥٤) قلنا بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز: إنهٗ هذه الأحاديث بالغور والإمعان تدل على الأفعال الذاتية للأمراء وظلمهم وجورهم فى بعض الأشياء ، وهم فى الجملة يطبّقون الشريعة ولهٰذا السبب نحن نرىٰ فى الأحاديث الأخرىٰ: "من أطاعنى فقد أطاع الله ومن يعصنى فقدعصى الله ومن يطع الأمير فقد أطاعنى ومن يعص الأمير فقد عصانى ." (صحيح البخاري، ح:٢٩٥٧) يعنى أنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا أنطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، فإطاعتى إطاعة الله ومعصيتى معصية الله ، وكذلك الأمير هو يطبّق شريعتى ، فمن أطاعه فقد أطاعنى ، ومن عصاه فقد عصانى ، ولهٰذا فى الحديث الآخر" ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله اسمعوا لهٗ أطيعوا ." (صحيح مسلم، ح:١٨٣٨) وأيضا " على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولاطاعة ." (صحيح البخاري، ح:٧١٤٤) " لاطاعة فى معصية الله ، إنما الطاعة فى المعروف ." (صحيح مسلم، ح: ١٨٤٠ فثبت أنهٗ السمع والطاعة فى المنشط والمكره مادام الأمير يطيع الله ورسولهٗ صلى الله عليه وسلم فى تطبيق أوامره ونواهيه وإلا لاسمع ولاطاعة ، فكيف بمن يطبق قوانين غير الله تعالىٰ؟ فأنى لهٗ السمع والطاعة؟ هيهات هيهات ! فمعنى هذه الأحاديث أن لايُخرج من طاعة السلطان بسبب أنهٗ يخوض فى المعصية فى بعض أمور حياته ويظلم ويجور بعض الأحيان ، لكن فى الجملة فالقوانين فى سيطرته كلها إسلامية مطبقة فى الدار الإسلامية ، فلا يعطل الشريعة ولايبطل جميع هذه المصالح المتعلقة بنصب الإمام الأمير وفى الحديث: " إنما الإمام جنة يقاتل من ورائه ويتقى به، فإن أمر بتقوى الله عزوجل وعدل كان لهٗ بذٰلك أجر وإن يأمر بغيره كان عليه منه ." (صحيح مسلم، ح: ١٨٤١ فصرح فى هذا الحديث أن الإمام جنة ويقاتل من ورائه ويتقى به فهٰذا لايكون إلا هو يقيم الجهاد ويحفظ المسلمين فى أنفسهم وأموالهم وحقوقهم ويقيم الحدود الإسلامية التى بدونها لاتمكن حرازة للمسلمين فى أنفسهم وأموالهم وحقوقهم ، ثم الحديث أيضا يدل علىٰ جباية الجزية؛ لأن القتال يكون بعد عدم قبولها من الكفار فى أكثر الأحيان وأيضا يدل علىٰ جباية الزكوة والحقوق الأخرىٰ تتعلق بالأموال؛ لأن فيها أيضا حرازة للمسلمين فى حقوقهم وأنفسهم ثم لو الإمام يفعل

ويراعى جميع هذه الواجبات ، لكن يجور فى بعض الأشياء فهو عليه منه ولاينبغى الخروج عليه ولاينزع من طاعته فى المعروف وينصح لهٗ ويذكر فى معصية ، فإن الذكرى تنفع المؤمنين فيؤمر بالمعروف وينهي عن المنكر وفى القرآن ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران:١١٠) وكذلك الحديث الذى يتكلم عن الأمراء فتعرفون وتنكرون يعنى من أفعالهم أشياء تعرفونها؛ لأنها ليست بمنكرات ، لكن من أفعالهم أشياء تنكرونها؛ لأنها غير شرعية ، فمن أنكر فقد سلم يعنى عليك الإنكار على الأفعال المنكرة منهم ، فتأمرهم بالمعروف وتنهٰهم عن المنكر ومن كره فقد برئ يعنى لو ليس عندهٗ وسعة أن ينكر معلنا بسبب أنهٗ قد يؤدى إلى المفسدة الكبرى فكره فى نفسهٖ فقد برئ من الذمة ، لكن من رضي ورضا بالمنكر كفر؛ لأنهٗ استحلال الحرام وتابع واتباع المنكر مع عدم استحلالهٖ فسوق . ثم لو نقاتل هٰؤلاء الأمراء ، ففى الحديث لا، ماصلوا [1] ،يعنى لو هم يخوضون فى المعصية ، لكن تشبثهم ومواظبتهم على الصلوٰة تدل علىٰ أنهم يبالون عن الإسلام فى وجه ما ويؤدون عمد الإسلام الخمسة ثم القتال قد يؤدى إلى الأشياء لانحسبها من التفرق والتشتت والفوضى والخطر علىٰ حفظ الأموال والأنفس ، فالإمام الذى يطبق الشريعة الإسلامية ويراعى واجبات الإمامة فى الجملة ، لكن يقصر فى الأشياء مع هذا ، فمصالح نصب الإمام حاصلة فى الجملة ، فخروج عليه بسبب تقصيره فى بعض الأشياء قد يؤدى إلى الحالة أسوء من الحالة الحاصلة والمفسدة الكبرى من المفسدة الحاصلة ، لكن لو الإمام لايطبق الشريعة فجميع الواجبات والمصالح تتعلق بالإمام فائتة، بل معكوسة؛ لأنهٗ يطبق شريعة الطواغيت فلايقيم الصلوات فى البلاد ولازكوة ولا جزية ولاعشر ولاخراج ولاجهاد ولاحدودا ولاشيئا من الشريعة ، فكيف لايقام علىٰ ضده ولايخرج عليه حتىٰ يغير وينزع بالقوة ، وفى الحديث الذى ذكرنا سابقا " مامن نبي بعثه اللّٰه فى أمة قبلى إلا كان لهٗ من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنة ويقتدون بأمره ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف ، يقولون مالايفعلون ، ويفعلون مالايؤمرون ، فمن جاهدهم بيدهٖ فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذٰلك من إيمان

---

(١) وفى رواية أخرى عنه "شرار الأئمة أنهم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم . قالوا يارسول اللّٰه! أفلاننابذهم عند ذلك؟ قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم: لا! ما أقاموا فيكم الصلاة ، لا! ما أقاموا فيكم الصلوة ." (مسند الشاميين، ح:٥٨٦) فهم يصلون ويقيمون الصلوات فى البلاد الإسلامية وإقامتهم الصلوات فى البلاد لامحالة تدل على إقامتهم الشريعة الإسلامية فى البلاد؛ لأن من يقيم الصلوات فى البلاد وهذا يشمل التعزير لمن لا يصلى والإجبار عليه حتى يصلي فهو أولى وأحرى أن يقيم القوانين الإسلامية الأخرى؛ لأن الصلوة عماد الدين وهي أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة ،كما فى الحديث. (شعب الإيمان، ح:٢٥٠٠) وهي المرادة بالإيمان فى هذه الآية ﴿وما كان اللّٰه ليضيع إيمانكم﴾ (البقرة:١٤٣) كما فى التفاسير: فالإشارة فى الحديث بإقامتهم الصلوات فى البلاد لا محالة إشارة إلى إقامتهم الشريعة الإسلامية .

حبة خردل." (المعجم الكبير، ح: ٩٧٨٢) وأيضا أن هذا الأمير قد صير البلاد دار الحرب لأنهٗ لايكون دار الإسلام والشريعة الإسلامية لاتطبق فيه، فيكون دار الحرب حتٰى نغير هذا الأمير ونأتي بالشريعة الإسلامية.

واعلم أن الإسلام يعلو ولايعلٰى وهو الفطرة التى فطر اللّٰه الناس عليها ويحق أن يكون قانونا ودستورا علٰى وجه الأرض ولهٰذا وجب نصب الإمام لحصول هٰذه الغاية الواجبة فمن يفوت هٰذه الغاية فلايكون إماما ويجب نزعهٗ حتٰى نأتي بالإسلام الذى هو دستور من اللّٰه تعالٰى والعالم للّٰه فدستورهٗ يحق أن يُنفذ عليه، هل مالك مجازي من الإنسان يتحمل إنسانا آخر أن ينفذ أوامرهٗ فى بيته، فماظنك عن المالك الحقيقي على الإطلاق. ثم فى البداية نحن ذكرنا لو أن الأمير يحكم بغير ماأنزل اللّٰه إقرارا بما أنزل اللّٰه وإقراراً أنهٗ الخاطئ فى حكم بغير ماأنزل اللّٰه فهو فاسق ظالم، وبعد ذٰلك شرعنا فى البيان أن الذى لايحكم بماأنزل اللّٰه فى بلاده المسيطرة ويقر بما أنزل اللّٰه ويقر أنهٗ خاطئ فى عدم حكمه به أنهٗ يجب خلعه بالقوة، لكن توقفنا فى كفره وفوضنا أمره إلٰى أهل العلم، لٰكن مع هٰذا قلنا: إنهٗ قد يصير كافرا بدون التوقف والتفويض بسبب أن استمراره فى عدم حكم بماأنزل اللّٰه تعالٰى قد يصيّره علٰى بغض أو إعراض أواستخفاف أوكراهية أومقاومة وغيرها من الأشياء للشريعة الإسلامية، وهٰذه كلها كفر بواح. ثم كذٰلك البيان فى العوام أنهٗ من يختار منهم الأمراء الذين لايطبقون الشريعة الإسلامية؛ لأنهٗ (يعني هٰذا الشخص من العوام) يكره الشريعة ولايريدها أويعرض عنها استخفافا ولويؤمن بها أو يعتبرها غير مناسبة فى وجه ما أويفضّل غيرها عليها أويُحب غيرها أو يعتقد أنهٗ لابأس بعدم تطبيق الشريعة ولويعتقد أنها أولى أوغيرها من الأشياء التى تشبهها، فهو فى هٰذه الحالة يكون كافرا خارجا من الملة الإسلامية ويرتد ويقتل للارتداد. ولويختار من الأمراء الذين لايطبقون الشريعة الإسلامية، لكن يعتقد أن تطبيق الشريعة فرض واجب، وهي الحقة المناسبة العادلة الصحيحة من كل وجه، وغيرها باطلة والغلط والظلم والطغيان ويحب الشريعة الإسلامية ويكره غيرها وهو عاصي خاطي فاسق ظالم فى اختياره من هٰذه الأمراء فهو فى هٰذه الحالة ظالم فاسق، ونتوقف فى كفره ونفوض أمره إلٰى أهل العلم. إنما على العوام أن يجمعوا ويغيّروا وينزعوا هٰذه الأمراء ولايسمحوا لهم أن يكونوا أمراء ولايقبلوهم، بل يقاوموا علٰى ضدهم فإن هٰؤلاء الأمراء لايكون أمراء إلا أن يكونوا هناك من الناس لأن يكون عليهم أمراء، فإذا لايقبلهم الناس لايكون أمراء، ونحن قدذكرنا أنهٗ لاسمع ولا طاعة فى معصية اللّٰه، وإنما الطاعة فى المعروف، فالعوام يجب عليهم أن يقاوموا ضد هٰذه الأمراء وفقط عدم القبول والمقاومة ضدهم تكون ذريعة إن شاء اللّٰه العزيز لنزعهم عن أماكنهم فى المملكة والاحتياج إلٰى استخدام القوة لنزعهم قد يكون فى بعض الأحيان، ولابد من إتيان شريعة اللّٰه تعالٰى علٰى أرض اللّٰه تعالٰى ولابد من إعادة الخلافة

الإسلامية ، ونحن الأن ضعفاء فى الأرض ، والسبب الكبير لهٰذا عدم تطبيق الشريعة الإسلامية ، فنحن إن شاء اللّٰه العزيز إذا نأتى بالخلافة الإسلامية وننفذ الشريعة الإسلامية فى البلاد ونأتى بالجهاد والقتال كماهو حقها ، فإن شاء اللّٰه سيعيد اللّٰه تعالىٰ العزة لنا كما هي فى الأزمان الماضية ، وقد قال اللّٰه ﴿وَلِلّٰهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُوْلِهٖ وَلِلْمُؤْمِنِيْنَ وَلٰكِنَّ الْمُنَافِقِيْنَ لَايَعْلَمُوْنَ﴾ (المنافقون:٨)

المتن:

" ثم الشيخ الطحاوي يقول ولاشيء مثلهٗ . "

الشرح:

ونحن قدذكرنا بيان هٰذا قبلا ، ونحن إن شاء اللّٰه تعالىٰ سنذكره فيما بعد أيضا . إن اللّٰه تعالىٰ ليس كمثلهٖ شيء وهو السميع البصير ، فليس لهٗ مثيل فى ذاتهٖ وصفاتهٖ وأفعاله ، ونحن قد ذكرنا سابقا أن ابن تيمية وأتباعه منهم ابن أبى العز شارح العقيدة الطحاوية ومنهم الناس يقولون أنفسهم السلفية ، فهٰؤلاء الناس يشبهون اللّٰه بخلقهٖ ونعوذ باللّٰه تعالىٰ ، فخذ حذرك من هٰؤلاء الناس . واعلم أن اللّٰه تعالىٰ لايتمكن فى مكان ولايجرى عليه زمان ولايحل فيه الحوادث والأعراض وتعالىٰ عن الحدود والغايات ، وتنزه عن الأعضاء والأركان والأدوات لاتحويه الجهات والأقطار ، وهو بكل شيء محيط، وإحاطته لكل شيء ليس إحاطة الغرفة بساكنها ، تعالىٰ عن ذٰلك، بل إحاطته كما تليق بشانهٖ، فإذا كان هو بكل شيء محيطا ، فلازم أنهٗ لايحيطهٗ شيء ، فلايكون فى مكان ولايكون فى زمان، ونحن نتكلم عن هٰذا فيما بعد أيضا إن شاء اللّٰه تعالىٰ .

المتن:

"ولاشيء يعجزه. "

الشرح:

فقال الشيخ الطحاوي: إنهٗ لايعجزهٗ شيء ما لأنه علىٰ كل شيء قدير ومأأنتم بمعجزين فى الأرض ولافى السماء ومالكم من دون اللّٰه من ولى ولانصير ، وقدرته علىٰ كل شيء على الإطلاق؛ لأنهٗ القادر المطلق ولا نقول قطعا وبتاتا أنهٗ غير قادر علىٰ شيء ما . ثم اعلم أن المتكلمين خاضوا فى الأمور فى الكلام علىٰ صفة القدرة للّٰه تعالىٰ خوضا لم يفعله الصحابة رضي اللّٰه تعالىٰ عنهم ولا التابعين ونحن نتحاشى من هٰذا الأسلوب ، ونتّبع رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم كما أصحابه رضي اللّٰه تعالىٰ عنهم اتبعوه ، ونحن نقول: إن اللّٰه تعالىٰ لايعجزه شيء وهوعلىٰ كل شيء قدير ، وكل شيء فى العالم هو بقدرته تعالىٰ ، وهو الذى أعطى الوجود لكل شيء موجود وبدء الخلق من العدم وهو

لايحتاج فى خلق الأشياء إلى مباشرة ما، بل إرادته لكون الشيء يلزم وجود هذا الشيء بقدرته ، فما علم كونه فى الأزل أراد كونه فى الأزل فى الوقت الذى علم كونه ، وماعلم عدمه فى الأزل أراد عدمه فى الأزل ، فإذا جاء الوقت الذى أراد كونه فى الأزل فيه يتكون هذا الشيء بقدرته تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس:٨٢) وكن من صفة كلامه وكلامه أزلي ، فكلمة كن منه أزلي ويتعلق بالمكون فى وقت تكونه كما إرادته وقدرته أزليتان وتتعلقان بالمكون فى وقت تكونه ، ونحن إذا ذكرنا أن المتكلمين خاضوا فى الأشياء ، فكانت إشارة إلى ماذكروا من المحالات والواجبات والممكنات ، فاعلم أن الله تعالى على كل شيء قدير ، فهو قادر على أن ينطق الجماد ، كماهو معلوم من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم ويحرّكها ، وهو قادر على أن يجري كلام المنطق والحساب على لسان الصبي فى المهد ، كما سيدنا عيسى عليه السلام كلم فى المهد بالكلام الحكيم البليغ، وهو قادر على أن يطير الإنسان فى الهواء ، وهو قادر على أن يذهب صفة الإحراق من النار ، كما فى قصة إبراهيم عليه السلام ، وصفة البرودة من الثلج ، و هو قادر على أن يقلب العصا إلى الحية وبالعكس (قصة موسى عليه السلام) ، وهو قادر على أن يخرج الناقة من الصخرة (قصة صالح عليه السلام) ، وهو قادر على أن يفلق البحر والقمر فلقتين (قصة موسى عليه السلام ومعجزة شق القمر لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم) ، هو قادر على الإطلاق قادرعلى كل شيء ، هو قادر على أن يخلق المرأة من الرجل (حواء رضي الله تعالى عنها) وبالعكس(عيسى عليه السلام) والرجل والمرأة من الرجل والمرأة إذا اجتمعا (كما هو العادة) . لأنه هو الذى يحرق وليس النار ، فإذا أراد فالنار موجود ، والإحراق ليس موجودا وهو الذى يخلق من الرجل والمرأة إذا التقيا ، وليس الرجل و المرأة يخلقان ، فإذا أراد أن يخلق بدونهما يخلق بدونهما (آدم عليه السلام) وكذلك الكلام فى غيرها من الأشياء . وليس شيئا له محال . فإن قلت: ماذا تقول فى أشياء مثلا الشيء يكون موجودا ومعدوما فى نفس الزمان ونفس الوجه ، والشيء يكون أبيضا خالصا وأسوداً خالصا فى نفس الزمان ونفس الوجه ونفس الجسم يكون فى الأماكن المختلفة فى نفس الوجه ، ونفس الزمان والجسمين يكونان فى حيز واحد فى نفس الوجه ، ونفس الزمان وغيرها من الأشياء من أشباهها . قلنا بتوفيق الله إن شاء الله العزيز : إنهٗ ماذا تعني من قولك: إن الشيء يكون موجودا ومعدوما فى نفس الزمان ونفس الوجه، ونحن نعلم أن الله تعالى علم وأراد قبل أن يخلق بقدرته تعالى؛ لأنهٗ إذا فعل شيئًا ، فلابد من أن نقول: إنهٗ أراد فعلهٗ وفعل؛ لأن الله سبحانهٗ وتعالى تنزه و تقدس من أن يصدر منه فعل بالجهل والغفلة ، تعالى الله عن ذلك؛ لأنهٗ عليم خبير ، فعلم كل شيء فى الأزل ، فماعلم كونه أراد كونه ، وما علم عدمه لم يرد كونه ، فإذا هناك الشيء أراد كونه فيعنى أراد عدم عدمه ، وإذا أراد عدم الشيء فيعنى أنهٗ أراد عدم وجوده ، فإذا عين للشيء بإرادته وجوده أوعدمه

حصل كما أراد ، وأنت تتكلم عن الشيء يكون موجودا ومعدوما في نفس الوجه والزمان ، وهذا يؤدي أنهٔ أراد كون الشيء وعدمه في نفس الوجه والزمان ، وكيف واحد يريد وجود الشيء وعدمه في نفس الوقت والوجه ، هذا لايتوقع من الإنسان، فماظنك عن العليم الخبير الحكيم ، لوفعل هذا واحد من الإنسان يقال لهٔ: أنت لاتعرف ماتريد ، وهل هذ ايجوز في حق اللّٰه تعالىٰ؟ قطعا وبتاتا لايجوز .

ثم هٰذا الشيء الذي أنت تتكلم عنه إما أن يكون موجودا فما معنى تكوّن الشيء الموجود من قبل ؟ وإما أن يكون معدوما ، فمامعنى فناء الشيء المعدوم من قبل ؟ وهٰذه السفاهة لاتليق بالإنسان فضلا عن العليم الحكيم ، فسؤالك يؤدي إلى المناقضة في الإرادة والعلم وقدرته تعالىٰ ، فسؤالك غير صحيح ، ولايكون الشيء محالا في قدرة اللّٰه تعالىٰ؛ لأنهٔ إذا أراد شيئًا كائنا ماكان فهو قادر علىٰ فعله وأنت تسأل عن أشياء التي في الحقيقة ليست بشيء ما، لأنها لم تتعين بسبب المناقضات فيها بنفسها فسؤالك كأنه" هل هو قادر علىٰ ماهو ليس بشيء ما ؟ "والقدرة علىٰ ماهو ليس شيئًا مالا تكون قدرة ، وثم هٰذا السؤال سفيه ، فالجواب أن اللّٰه تعالىٰ علىٰ كل شيء قدير ولايعجزه شيء ما ، وكذٰلك سؤالك في الذي يكون أبيضا خالصا وأسودا خالصا في نفس الزمان والوجه وهٰذا أيضا مناقضة في العلم والإرادة ولاتليق باللّٰه تعالىٰ وهو سؤال غير صحيح وعن الذي غير متعين ، فيؤدي إلىٰ كأنه سؤال عن القدرة علىٰ ليس بشيء ما ، وهٰذا سؤال سفيه ، واللّٰه تعالىٰ علىٰ كل شيء قدير ولايعجزه شيء . وسؤالك عن نفس الجسم في الأماكن المختلفة في نفس الزمان والوجه ، فقلنا بتوفيق اللّٰه تعالىٰ: إن اللّٰه تعالىٰ قادر علىٰ أن يخلق أجساماً تشبه هٰذا الجسم بالكلية في أماكن مختلفة ، ويخيل إلىٰ أبصارنا أنها نفس الجسم في أماكن مختلفة في نفس الزمان والوجه ، ولوسؤالك عن عين الجسم في أماكن مختلفة في نفس الزمان والوجه ، فقلنا بتوفيق اللّٰه تعالىٰ إن شاء اللّٰه العزيز: إن اللّٰه تعالىٰ إذا أراد للجسم أن يحتوي مثلا علىٰ خمسة أمتار في خمسة أمتار في الحجم ، فيعني أنهٔ سيحوى الحيز مشتملا علىٰ خمسة أمتار في خمسة أمتار ، فإذا كان الجسم حل في الحيز المعين يحوى خمسة أمتار في خمسة أمتار ، ثم أنت تقول لهٰذا الجسم أن يكون في حيز ماعدا هٰذا الحيز المحل لهٰذا الجسم ، وهٰذا يناقض ماأراد اللّٰه تعالىٰ لهٔ؛ لأنهٔ إذاعلم اللّٰه تعالىٰ وأراد لهٰذا الجسم أن يكون مشتملا علىٰ هٰذا الحجم ،فخلقه اللّٰه تعالىٰ بقدرته علىٰ هٰذا الحجم ، فهو يحل في الحيز يستوى حجمه ، ثم السؤال لهذ الجسم لكونه في حيز ماعدا هٰذا الحيز يؤدي إلى المناقضة؛ لأنهٔ سؤال عن الجسم الذي لم يتعين بعد ، لأنك إذا تسأل عن الجسم الذي لهٔ حجم يحوى حيزا ما ، فلابد من تعيين جسامته الذي يحوى هٰذا الحيز وإلا يكون سؤالا عن الجسم الذي ليس بجسم ، واللّٰه سبحانهٔ وتعالىٰ قادرعلى الإطلاق أن يخلق جميع أنواع الأجسام ، وقبل خلقه علم وأراد كونه ، فإذا علم وأراد كونه علم وأرادجسامته؛ لأنهٔ لابد للجسم من الجسامة [1]

(١) وإلا يكون عاريا عن نفسه .

وليست جسامته إلا ماهي تحوى حيزا ما ، فإذا خلق هٰذا الجسم علىٰ هٰذه الجسامة فهو متعين للحيز علىٰ حسب جسامته المتعينة وأنت تتكلم عن الجسم الذى جسامته غير متعينة ، لأنك أنت تتكلم كون جسامته فى الحيزات المتفرقة ، فأنت تتكلم فى الحقيقة عن الجسم غير المتعين بنسبة الجسامة ، فسؤالك غير صحيح ويؤدى سؤالك إلىٰ مناقضة بنفسها تحت ماهو تعريف الجسم ، فسؤالك كأنهٗ " هل هو قادر علىٰ أن يخلق جسما الذى هو ليس بجسم ؟ " وهٰذا سؤال سفيه.

والجواب أن اللّٰه تعالىٰ علىٰ كل شيء قدير ولايعجزه شيء ما . وكذٰلك سؤالك عن الجسمين فى حيز واحد ، فاللّٰه عزوجل قادرعلىٰ أن يُدخل جسما فى جسم حتىٰ تتداخل وتتماسك أجزائهما ويجتمعان فى حيز واحد ، ونحن نرىٰ أن الصوف يأخذ كثيرا من الحيز مع خفة وزنه ، والحديد يأخذ قليلا من الحيز مع ثقل وزنه ، وهٰذا يدل علىٰ تداخل أجزاء الحديد وتماسكه وتفارق أجزاء الصوف وتباعده ، ثم قال فى القرآن الكريم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ (الأعراف:٤٠) فمن يكذب بآيات اللّٰه ويستكبر عنها فلا يجوز شرعا أن يفتح لهم أبواب السماء وكذٰلك لايدخل الجنة كما لايجوز عادة أن يلج الجمل فى سم الخياط، وهٰذا تعليق بما لايجوز عادة ، لكن كما يجوز عقلا أن اللّٰه تعالىٰ قادر أن يفتح لهٰذ الشخص أبواب السماء ويدخله الجنة ، فكذٰلك يجوز عقلا أن يلج الجمل فى سم الخياط ، لٰكن اللّٰه سبحانهٗ وتعالىٰ لايفتح لهٰذا الشخص أبواب السماء ولايدخله الجنة ، كما قال فى كتابه تعالىٰ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ (النساء:١٢٢) ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (النساء:٨٧) ، لٰكن عقلا هو قادر عليه وهٰذه الآية تخبر غير مباشرة عن الأجسام فى الحيز الواحد؛ لأن الجمل لما يلج فى سم الخياط مع حجمه الذى أكبر بأضعاف كثيرة من الحيز فى سم الخياط ، فكل جزء من الجمل الذى حجمهٗ يستوى الحيز فى سم الخياط كمثل الجسم المستقل بنسبة لهٗ ، فلما يلج الجمل فى سم الخياط كانه أجسام كثيرة تحلّ فى الحيز الواحد.

وإن قلت: نحن لانتكلم عن الجسمين فى الحيز الواحد من ناحية تداخل أجزائهما وتماسكهما، بل نتكلم أن كلا منهما يبقى علىٰ هيئته وكلا منهما يحوى هٰذا الحيز الواحد مثلاً بالكامل ، ثم كون كل منهما فى هٰذا نفس الحيز ، فأجبنا بتوفيق اللّٰه إن شاء اللّٰه العزيز: أن سؤالك علىٰ نفس المنوال كسؤال نفس الجسم فى حيزان أو حيزات فى نفس الوقت . الفرق أنهٗ كان السؤال السابق عن الجسم الواحد فى الحيزات المتفرقة، وهٰذا السؤال عن الحيز الواحد مع الأجسام المتعددة، فالجواب عن نفس المنوال أنهٗ يؤدى إلى المناقضة بنفسها تحت ما هو تعريف الحيز؛ لأن اللّٰه تعالىٰ إذا خلق الحيز مثلا خمسة أمتار فى خمسة أمتار فعلم وأراد كونهٗ خمسة أمتار فى خمسة أمتار، ثم إذاخلقه خلقه هٰكذا بقدرته تعالىٰ . فهٰذا الحيز يصلح للجسم حجمه خمسة أمتار

فی خمسة أمتار، فلوأنت تقول: لوهٰذا الحيز يصلح للجسم حجمه عشرة أمتار فی عشرة أمتار فهٰذا يكون مناقضة عما علم وأراد الله منه وأيضا يؤدى إلى الحيز غير المتعين، ولابد للحيز من تعيين مقياسه، فالله عزوجل لوخلق الحيز فعيّن مقياسه؛ لأنهٗ لاينفک منه، فإذا عين لهٗ المقياس فلايخرج من هٰذا المقياس ولولم يعين لهٗ المقياس فيكون الحيز غير المتعين بنسبة حيازه كما فی السؤال السابق كان سؤالا عن الجسم غير المتعين بنسبة جسامته، وكما كان السؤال السابق يؤدى إلى السؤال "هل هو قادر علىٰ أن يخلق جسما الذی هو ليس بجسم "وكذٰلک هذ السؤال يؤدى إلى السؤال عن الحيز الذی هو ليس بحيز، فكلاهما سؤالان سفيهان لأنهما يتكلمان عن الجسم بدون علم جسامته والحيز بدون علم حيازته ولايليق بالله العليم الحكيم هٰذا الجهل وعدم إرادة المحكم، والجواب أن الله تعالىٰ قادرعلىٰ أن يخلق جميع أنواع الأجسام والحيزات وقبل خلقهاعلمها وأرادها بجميع تفاصيلها التی تشتمل علىٰ علم وإرادة تعيين جسامة وحيازته أيضا، فافهم، والله أعلم، ويهدی من يشاء إلىٰ صراط مستقيم.

وإن قلتم: ماذا تقول فی هذه الأشياء المخوضة فيها عند المتكلمين (١) هل يمكن إظهار المعجزة فی يد كاذب؟ (٢) هل يجوز التكليف مالايطاق؟ (٣) هل يمكن الكذب فی كلام الله تعالىٰ؟ (٤) هل تمكن نسبة الظلم والجور إلى الله تعالىٰ؟ (٥) هل تمكن الحوادث لا أول لها؟

فأجبنا بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز: أن المسئلة الأولىٰ فالمتكلمون قالوا: إنهٗ لايجوز إظهار المعجزة علىٰ يد كاذب؛ لأنهم قالوا: إن المعجزة بمنزلة التفويض وابتداء نصب وتولية النبوة إلىٰ من ظهر فی يدهٖ المعجزة، ويقولون كان واحدا يقول فی جميع الناس: إنهٗ رسول هٰذا الملک الذی هو موجود فی المجمع وثم يقول: ودليلی أنهٗ سيقوم الملک ويحرک يدهٗ ثلاثة مرات لوأنی صادق فی ادّعائی فيفعله الملک كما ذكر، فحصل العلم للناس فی المجمع أنهٗ رسول الملک ويقولون: إنه لايتصور الكذب فيه؛ لأن فعل الملک يكون بمنزلة مباشرة التفويض والتولية إلىٰ هٰذا المدعی بماهو ادعاه، والكذب إنما يتصور فی الأخبار دون التفويض وتولية الأمرإلىٰ واحد ما.

فقالوا: إذا ظهرت المعجزة فی يد مدعی النبوة فهو كأنه ادعى النبوة، وقال إنهٗ رسول الله، ودليلی أنهٗ سيظهر الله فی يدی هذه المعجزة، فلما أظهر الله فی يدهٖ المعجزة، فصار بمنزلة تولية منصب النبوة إليه، فيكون نبيا لله لامحالة، وهٰذا كلام بعض المتكلمين من الأشاعرة، وهم قالوا هٰذا الكلام جوابا لشبهة قدتكون فی بعض الكافرين أنهٗ مايمنع أن الله سبحانهٗ وتعالىٰ أراد إغوائنا وإضلالنا وسوقنا إلى الهلاک، فيظهر المعجزة فی يد من ليس نبيا لهٗ فی الحقيقة، بل كذاب والناس يتبعه ويصير إلى النار، فلدفعا لهٰذه الشبهة قالوا: إنهٗ لايجوز إظهار المعجزة فی يد كاذب لسبب الذی ذكرنا، فنحن نقول للمتكلمين ولجميع الناس: إنهٗ ما يمنع لو أراد الله أن يعلمنا أن لا نكون معذبين؟ فالجواب لاشيء؛

لأنهٗ لو أراد اللّٰه هلاكنا ومصيرنا إلى النار فلايحتاج إلى إغوائنا وإضلالنا ووقوعنا في الالتباس حتى نتبع ونؤمن كذابا ، اللّٰه عزوجل لايحتاج إلى هٰذه الأشياء ، وقد ورد في الحديث: "لو أن اللّٰه تعالى عذب أهل سمٰواته وأهل أرضه عذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم كانت رحمتهٗ خيرا لهم من أعمالهم" وهٰذا الشيء لاينكر اي واحد من المسلمين ، فإذا علمت هٰذا فاي حاجة إلى أن تقول: إنهٗ لايجوز إظهار المعجزة في يد كاذب؛ لأن السبب الذى لأجله تقول هٰذا القول ينفي بسبب الذى ذكرنا ، وهو أن اللّٰه تعالى لا يمنعه شيء ما لوأراد أن يعذبنا ويهلكنا حتى لونتبع رسوله الحق وفي القرآن: ﴿قُلْ فَمَنْ يَّمْلِكُ مِنَ اللّٰهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُّهْلِكَ الْمَسِيْحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهٗ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيْعاً وَلِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللّٰهُ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ﴾ (المائدة:١٧) ففي هٰذه الآية أخبر اللّٰه تعالى أنهٗ لوأراد أن يهلك المسيح بن مريم رسول اللّٰه ونبيهٗ لايمنعه شيء ما؛ لأن لهٗ ما في السمٰوات ومافي الأرض وهو على كل شيء قدير ، فظهر أن جوابك لهٰذه الشبهة لايفيد في ماذكرنا . ثم قولك إنهٗ لايتصور الكذب في التفويض والتولية ليس بصحيح؛ لأن نحن نرى لوواحد يقول للناس إنهٗ فوض هٰذا الأمر إلى هٰذا الشخص وفي الحقيقة أنهٗ لم يفوضه هٰذا الأمر ، فهٰذا الشيء ممكن أن يكون وليس بغير ممكن مثلا لو واحد قال للناس: إنه ولّٰى هٰذا الشخص على خزانته ، فالناس يظنون أن هٰذا الشخص ولّي على خزانته ، وعنده مفتاح لها ، ويستطيع أن يتصرف فيها وينفق ما يشاء ويمسك مايشاء ، لكن في الحقيقة أنهٗ كذب إليهم ، ولم يول هٰذا الشخص على خزانته ،ولم يعطه مفتاحا لها ، ولم يستطع هٰذا الشخص أن يبلغ إلى مافيها فضلا عن أن يتصرف فيها ، فهٰذا ممكن ولااستحالة في هٰذا. ثم قولك إن المعجزة تنزل منزلة التفويض للنبوة إلى المدعي الذى في يده ظهرت المعجزة ، فهٰذا غير صحيح أيضا؛ لأنهٗ لاشك أن المعجزة تدل على نبوة النبي عليه الصلٰوة والسلام وفي الحديث: "مامن الأنبياء نبي إلا أعطى من الآيات مامثلهٗ آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيتهٗ وحيا أوحاه اللّٰه إليّ فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة." (صحيح البخاري، ح: ٤٩٨١) لكن ليس ابتداء النبوة للنبي عليه الصلٰوة والسلام، بل تدل على نبوة الحاصلة وأيضا نبوة النبي عليه الصلٰوة والسلام ليست منوطة على المعجزة ، لكن مع ذٰلك فقد أعطى اللّٰه جميع الأنبياء من المعجزات التي تدل على نبوتهم حتى يستدلون بهاعلى نبوتهم عند الحاجة ، وليست منوطة عليها، ونحن نرى في قصة موسٰى عليه السلام في القرآن في سورة طٰهٰ: ﴿فَلَمَّا أَتٰهَا نُوْدِيَ يَا مُوْسٰى إِنِّيْ أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوْحٰى﴾ (طٰهٰ:١١-١٣) فهٰذا الوحي ظهرنبوة موسٰى عليه السلام عمليا في الدنيا وقد قال اللّٰه تعالى لهٗ: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ فكان نبيا عمليا ظاهرا كما كان نبيا في علمه تعالى قبل هٰذا ، ثم أعطاه اللّٰه من المعجزات : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِيْنِكَ يَا مُوْسٰى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلٰى غَنَمِيْ وَلِيَ

فِيهَا مَآرِبُ أُخْرٰى قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسٰى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعٰى قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولٰى وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلٰى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرٰى لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرٰى﴾ (طه:١٧-٢٣) فأعطاه اللّٰه النبوة قبل إعطاء المعجزة ، فالنبوة ليست منوطة على المعجزات ، ثم أعطاه اللّٰـه من المعجزات آية لنبوته كمثل جميع الأنبياء ، كما ذكرنا من الحديث ، ثم أمرهٗ أن يذهب إلٰى فرعون ﴿اذْهَبْ إِلٰى فِرْعَوْنَ إِنَّهٗ طَغٰى﴾ (النازعات:١٧) ثم لما جاء موسٰى إلٰى فرعون فقال لهٗ : ﴿وَقَالَ مُوسٰى يٰفِرْعَوْنُ إِنِّيْ رَسُولٌ مِّنْ رَّبِّ الْعٰلَمِيْنَ﴾ (الأعراف:١٠٤) ولم يريه من المعجزات بعد ، ثم لما لم يقبل منه وقال: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُوْلَكُمُ الَّذِيْ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُوْنٌ﴾ (الشعراء:٢٧) وقال ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلٰهًا غَيْرِيْ لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُوْنِيْنَ﴾ (الشعراء:٢٩) فصارت الحاجة إلٰى إثبات النبوة من المعجزة، فقال سيدنا موسٰى عليه الصلوٰة والسلام: ﴿قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِيْنٍ قَالَ فَأْتِ بِهٖ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ فَأَلْقٰى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِيْنٌ وَنَزَعَ يَدَهٗ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنّٰظِرِيْنَ﴾(الشعراء:٣٠-٣٣) فمن هٰذه القصة ظهر أن نبوة النبي عليه الصلوٰة والسلام ليست منوطة على المعجزة ، لكن قد أعطيها لإثبات النبوة الحاصلة ، ثم لو قبل منه بدون إظهار المعجزات ، فنعم ما هو كما دعا موسٰى عليه السلام فرعون قبلا بدون إظهار المعجزات، بل بالدلائل القاطعة الباهرة ، ففي القرآن الكريم : ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعٰلَمِيْنَ قَالَ رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُّوْقِنِيْنَ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهٗ أَلَا تَسْتَمِعُوْنَ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِيْنَ قَالَ إِنَّ رَسُوْلَكُمُ الَّذِيْ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُوْنٌ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُوْنَ﴾ (الشعراء:٢٣-٢٨) ثم إذا عاند ولم يقبل منه فانتهضت الحاجة إلى المعجزات الباهرة لإثبات نبوته الحاصلة ، فأراه موسٰى عليه الصلوٰة والسلام من المعجزات . فقولك إن المعجزة بمنزلة تفويض النبوة إلى النبي عليه السلام غير صحيح، بل المعجزة مخبر عن نبوة النبي عليه السلام الحاصلة من قبل وثم أنت لاتنكر تصور الكذب في الأخبار ، فبدا من هٰذا الكلام أن قول المتكلمين في هٰذا المجال قول باطل ، ونحن نتكلم عن قولهم إن اظهار المعجزة في يد كاذب لايمكن وهوغير مقدور ، وهٰذا باطل كما بينا من هٰذا الكلام أن جميع دلائلهم لهٰذا الدعوى غير صحيحة والحق أنهٗ تعالٰى لو شاء أن يظهر معجزة في يد كاذب فلايمنعهٗ أي شيء وهو قادر عليه يعني قادر علٰى أن يخلق معجزة في يد من يدعى أنهٗ نبيهٗ وفي الحقيقة أنهٗ لم يعطه النبوة فلايأتي إليه وحي قط؛ لأنهٗ علٰى كل شيء قدير ، فلايقال قطعا وبتاتا إن هٰذا الشيء غير مقدور عليه منه تعالٰى ، ثم هٰذا فقط بنسبة القدرة وأما وقوعهٗ [1] فقطعا وبتاتا لايجوز؛ لأنهٗ ممتنع من ناحية الشرع ، فاللّٰه عزوجل لم يخلق ولن يخلق معجزة ماعلٰى يد كاذب ، والمعلوم كل مدعى النبوة بعد نبينا صلى اللّٰـه عليه وسلم كاذب ولاتكون عليك نزول عيسٰى بن مريم عليه الصلوٰة والسلام ذريعة الالتباس؛

---

(١) يعني وقوع ظهور المعجزة في يد كاذب .

لأنها ظهرت نبوتهُ قبل نبينا صلى الله عليه وسلم وكذلك زمان نبوته (يعني اتباع شريعته) قبل نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم، فإذا ينزل من السماء سيكون مع كونه نبيا، أمتيا لنبينا صلى الله عليه وسلم ويتبعهُ وفي الحديث: "لو كان موسى حيا لما وسعه إلا اتباعي." (مسند أحمد، ح: ٢١٦٣١) فلاتكون نبوة بعد نبينا صلى الله عليه وسلم قط، ومن جحد هذا في وجه ما فقد كفر بالله تعالى، فقلنا إنهُ لايجوز شرعا إظهار المعجزة في يد من يدعى النبوة كاذبا وفي القرآن: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ (الكهف: ٥١) ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ (النساء: ١٢٢) ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (النساء: ٨٧) ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ (التوبة: ١١١) ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (الأنفال: ٧-٨) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ (الحج: ٦٢) ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ (الأنعام: ٧٣) ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ (الأنبياء: ١٨) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (يونس: ٨١-٨٢) ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (بني إسرائيل: ٨١) ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ (سبا: ٤٨-٤٩) وفي قصة موسى عليه السلام إذا أراد السحرة أن يجاروه في معجزاته بسحرهم، فقال سيدنا موسى عليه الصلوٰة والسلام ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (يونس: ٨١-٨٢) ودلائل هذا الباب كثيرة صريحة قطعية فقد أجمع المسلمون على هذا، فلاتجوز شرعا قطعا وبتاتا أن تظهر المعجزة في يد كاذب، فلم تقع ولاتقع ولن تقع، لكن من ناحية القدرة، فلايقال قطعا وبتاتا أنها غير مقدورة، بل الله على كل شيء قدير، كما في الكتاب الكريم، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

وأما سؤالك الثاني عن تكليف مالايطاق فأجبنا بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز أن التكليف مالايطاق يجوز عقلا، لكن ممتنع شرعا، فالله عزوجل لو شاء أن يكلف واحدا وراء وسعه لايمنعهُ أي شيء وثم إذا لم يستطع هذا الشخص أن يفعل هذا العمل الذى كلفهُ به فيعذبه الله على هذا، فلايمنعهُ أي شيء لو أراد أن يفعل هذا وفي القرآن: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ (البقرة: ٢٨٦) فعلمنا الله أن ندعوا بهذا الدعاء ونسألهُ أن لايحملنا وراء وسعنا؛ لأنهُ قادر على تحميلنا وراء وسعنا، ولوفعل لكان فيه عادلا حكيما؛ لأن لهُ مافي العالم كله، فيتصرف فيه كيف يشاء؛ لاحجر عليه والحكمة إما عبارة عن الشيء الذى يلائم مصلحتك، والله عزوجل غني عن المصالح، فلايبقى إلا أن تكون الحكمة في حقه تعالى ماتلائم إرادتهُ، والله عزوجل فعال لمايريد إذا أراد شيئا يوجد بدون توقف الساعة، ومالايريد لايوجد قطا مطلقا، وهومتنزه ومتقدس عن الغفلة والجهل،

فإذا أراد أن يحملنا وراء وسعنا كان منه حكمة وعدلا ، ثم أيضا في الحديث عن الذين يصنعون الصور (يعنى الصورة التى لهٗ روح) يعذبون يوم القيامة يقال لهم: أحيوا ما خلقتم ." (صحيح البخاري، ح:٥٠٠٥ ٢١) "من صور صورة فى الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة وليس بنافخ " ففى هذه الأحاديث أخبار عن التكليف مالايطاق فى يوم القيامة ، لكن يوم القيامة ليس دارالتكليف ، ففى الحقيقة هٰذا التكليف نوع من العذاب لهم ، ثم اعلم أن اللّٰه تعالٰى قادرعلٰى تكليف عباده مالايطاق ، لٰكن هو بفضله ورحمته لايفعل ذٰلک ، فلهٰذا قلنا: إنهٗ لايجوز شرعا ، ودليل هٰذا ﴿لَا يُكَلِّفُ اللّٰهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة:٢٨٦) فاللّٰه عزوجل لايكلف عبادهٗ وراء وسعه فضلا ورحمة منه وأمّا ما فى الحديث عن نفخ الروح فى التصاوير ، فهٰذا كما قلنا ذكرا عن يوم القيامة الذى ليس بدار التكليف ، فهٰذا التكليف فى الحقيقة عذاب لهم لما فعلوا من المحرمات إذا كانوا يصورون تصاوير ذوى روح فى الدنيا ، فافهم، ونسأل اللّٰه الهدي والتقى والعفاف والغنى .

وأما سؤالک الثالث عن إمكان الكذب فى كلام اللّٰه تعالٰى فجوابهٗ أنهٗ ممكن عقلا وممتنع شرعا ، فاللّٰه تعالٰى مثلا أخبر عن آل فرعون أنهم سيدخلون فى أشد العذاب يوم القيامة ، لكن مع ذٰلک هو قادرعلٰى أن لايدخلهم يوم القيامة فى أشد العذاب ، لكن هٰذا ممتنع الوقوع بسبب أنهٗ أخبر أنهم يدخلون فى أشد العذاب ، فهو سيحصل كما أخبر ، وكذٰلک لو علم اللّٰه تعالٰى أن هٰذا الشيء يكون هٰكذا هٰذا لا يعنى أنهٗ غير قادر أن يجعل هٰذا الشيء يكون غيرهٰكذا، بل هو قادرعليه ، لكن هو ممتنع الوقوع بسبب أنهٗ علم أنهٗ يكوّنهٗ هٰكذا ولو يكوّنهٗ غيرهٰكذا ، لكان فى علمه أنهٗ يكون غير هٰكذا، فافهم ، ودليل ذٰلک ﴿وَهُوَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ﴾(المائدة:١٢٠) بلا استثناء وأيضا أنهٗ مثلا نتكلم عن الشخص الحي الأن ، فلوسألتک هل اللّٰه قادرعلٰى أن يميته الأن ؟ فجوابک لايكون إلا نعم ، ثم سألتک ، هل اللّٰه قادرعلٰى أن لايميته الأن ؟ فجوابک لايكون إلا نعم ، والمعلوم أنهٗ يكون واحدا منهما إما يموت وإما لايموت ، وكذٰلک فى علم اللّٰه تعالٰى يكون واحداً منهما ، إمايموت وإما لايموت ، لكن جوابک فى سؤالين كليهما كان نعم؛ لأنهٗ بغض النظر عن العلم والإرادة كلاهما مقدوران ، واللّٰه قادرعليهما ، لٰكن سيكون واحدامنهما ممتنع الوقوع نظرا فى علم اللّٰه تعالٰى وإرادته، وكذٰلک الكلام فى كلام اللّٰه فبغض النظر عن إخباره عدم إدخال آل فرعون أشد العذاب يوم القيامة مقدور، واللّٰه قادرعليه ، لكن ممتنع الوقوع نظراً فى إخباره؛ لأنهٗ فى إخباره صادق .

ثم هناک مبحث آخر فى هٰذا الموضوع عند المتكلمين وهم خاضوا فيه دفعا لنفس الشبهة التى ذكرنا سابقا التى قد تكون عند بعض الكافرين وهومايمنع أن اللّٰه تعالٰى يريد إغوائنا وسوقنا إلى الهلاک؟ فمانحن نرى فى كلامه تعالٰى من إخبار الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن يكونوا فى الجنة

وإخبار الذين كذبوا بآياته وعملوا السيئات أن يكونوا في جهنم ، فما يمنع أن يكونوا كلها (العوذ بالله) غير صحيحة فأجاب المتكلمون أنهٔ لايتصور الكذب في كلامه تعالى؛ لأنهٔ كلام النفس ولايتصور الكذب في كلام النفس ونحن نقول لهذا المتكلمين ولجميع الناس ماقلنا سابقا أنهٔ نعلم نحن وكذلك أنتم تعلمون أنهٔ لو أراد الله أن يهلكنا ويعذبنا فلايحتاج إلى شيء ما ، ولايمنعهٔ شيء ما ، فجوابك لهذه الشبهة لايغني عن هذا شيئًا . ثم أنتم تقولون: إنهٔ لايتصور الكذب في كلام النفس، لكن نحن نعلم وأنتم تعلمون أنهٔ ليس عندنا كلامه النفس، بل هم قائم بذاته تعالى وعندنا كلامه اللفظي الذي هو العبارات المنظومة بلسان عربي ، والعبارات المنظومة المرتبة لاتكون قديما قائما بذاته تعالى، بل محدثا حادثا وأنتم تسلمو وكذلك نحن نعلم أن الله تعالى قادرعلى أن يحدث العبارات الكاذبة وإفهامها إلى شخص ما ، وكذلك قادر أن يحدث اعتقادا جازماً في قلب هذا الشخص أنها من الله تعالى .

ثم قولك: إنهٔ لايتصور الكذب في كلام النفس غير صحيح؛ لأنهٔ إذا كذب رجل ، فيجد في نفسه هذا الكلام الكاذب؛ لأنهٔ يزورهٔ في نفسه وهذا كلام النفس ثم يبلغهٔ إلى الآخرين إما بواسطة التلفظ بالصوت أوبالإشارة أوبالكتابة وغيرها من الأشياء ، فإذا ثبت هذا ، فنقول: إذا سلمتم أنتم ونحن أن الله قادر أن يحدث العبارات الكاذبة وإفهامها إلى أي ما ، فقبل خلق هذه العبارات لتكون هذه العبارات قائما بذاته من الأزل وتكون كلام النفس ، فكيف تقولون: إنهٔ لايتصور الكذب فيه وهو غير ممكن ، فثبت أنما تقولون هو باطل ، لكن لايجوز الكذب في كلامه تعالى قطعا وبتاتا من ناحية الشرع ، فالله عزوجل متنزه ومتقدس ومتعالي عن أن يكون في كلامه كذبا وفي القرآن: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ (النساء:١٢٢) ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (النساء:٨٧) ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ (التوبة:١١١) ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ (الأنفال:٧) فلايقال: إن الله تعالى غير قادر أن يكلمنا بكلام غير صادق؛ لأن كلامهٔ كلام النفس ، لايقال هذا قطعا وبتاتا ، وقدبيّنا فساد قول المتكلمين، بل يقال: إن الله تعالى على كل شيء قدير وهو أصدق في قوله وحديثه من غيره بأضعاف لاتحصى على الإطلاق ، وهو صادق ولايصدرمنه الكذب قطعا وبتاتا ولو كان ممكنا ، وأما الجواب لدفع هذه الشبهة التي قد تكون عند بعض الكافرين ، فقلنا لهم كما قلنا سابقا لو أن الله أراد أن يعذبنا فلا فرار ولامحيص لنا ، وهو لايحتاج إلى شيء ما ولايمنعهٔ شيء ما ، لكن هو لم يفعل هذا، بل خلقنا وأعطانا من النعم أكثر من مايمكن إحصائها ، فكيف تظن بهذا المنعم الحقيقي والرحمن الحقيقي أنهٔ سيفعل بكم هذه اللعبة وهو لايحتاج إليها ، إن أراد أن يعذبكم ليقدر أن يعذبكم بدونها ، فلاتخوضوا في هذا الهذيان، بل تقبلوا كلامهٔ تعالى وأطيعوه ورسولهٔ صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى تكونوا من

الفائزين فى الدنيا والآخرة ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

وأما سؤالك الرابع عن نسبة الظلم والجور إلى الله تعالى ، فأجبنا بتوفيق الله تعالى أن نسبة الظلم والجور إلى الله تعالى ممتنع من ناحية؛ لأن كل شيء فى العالم له هو مالكه وخالقه على الإطلاق ، فما يتصرف فيه يكون حكمة وعدلا منه ، وفى الحديث: " لو أن الله عذب أهل سمواته وأهل أرضه عذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم كانت رحمته خيرا لهم من أعمالهم ." (سنن أبى داود، ح:٤٦٩٩) وفى القرآن: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة:١٧)وهو يفعل ما يشاء يحكم مايريد لامنع عليه ولاحجر ولافرض عليه ولاواجب ولاحرام عليه ولامكروه ولاسنة ولامستحب. كل شيء يريد أن يفعل له أن يفعل وكل شيء يريد أن لايفعل له أن لايفعل ، فلهذا السبب نسبة الظلم والجور ممتنع عليه لأنهما عبارتان عن فعل الفاعل الذى لم يستحق أن يفعله ، فلايتصور هذا فى حق الله تعالى المالك على الإطلاق ، ولايقال: إنه غير قادر عليهما؛ لأن امتناع نسبتهما إليه تعالى ليس لنقصان فى القدرة (نعوذ بالله) بل بأسباب أخرى التى ذكرنا، بل يقال: إن نسبتهما إليه تعالى ممتنع؛ لأنه تعالى له أن يفعل مايفعل وأن لايفعل مالايفعل بدون الحجر والمنع والنقد والجرح ، تعالى الله عنها.

وأما سؤالك الخامس عن إمكان الحوادث لا أول لها ، فاعلم هذا السؤال من قبيل الأسئلة التى ذكرنا سابقا من التى تناقض بعضها بعضا ، وهي غير صحيحة ، وفى الحقيقة أسئلة سفيهة . ، فإذا علمت هذا ، فافهم أن معنى الحوادث لاأول لها أنه يكون الحادث مسبوقا بالحادث الآخر إلى مالانهاية له يعنى إلى الأزل وهذا الشيء يناقض بعضه بعضا؛ لأنه إذا كانت جميع الأجزاء لشيء حادثة ، فلابد لشيء إلا أن يكون حادثا يعنى لو جميع أجزاء الكل (وفى الحقيقة لو جزء واحد من الكل يكون حادثا فلابد لجميع أجزائه الباقية أن تكون حادثة ، وكذلك الكل لابد له من أن يكون حادثا؛ لأن القديم لايكون محلا للحوادث فافهم) حادثة فالكل أيضا يكون حادثا ، وهذا أمر بديهى ، فإذا كانت جميع الحوادث من جملة الحوادث حادثة ، فلابد لجملة من أن تكون حادثة ، فلا تمكن لها أن تكون أزلية ، ففى تسلسل الحوادث الذى فيه الحادث مسبوق بالحادث فجميع أجزاء هذا التسلسل حادثة ، فلابد للتسلسل من أن يكون حادثا؛ لأن جميع أجزائه حادثة ، والحادث لابد له من أن يكون له بداية ، وماله بداية لايمكن له أن يكون أزليا ، فلايمكن لتسلسل الحوادث أن يكون إلى مالانهاية له فى الأزل، بل لا بهلة من البداية ، فإذا يكون تسلسل الحوادث لابد له من أن يكون حادثا، فسؤال عن الإمكان تسلسل الحوادث إلى الأزل ، سؤال عن إمكان الحادث أن يكون أزليا ،

وهٰذاسؤال سفيه جدا ، فسؤال عن الحوادث لاأول لها الذى عبارة عن تسلسل الحوادث إلى الأزل ، سؤال يناقض بعضه بعضا ، وسؤال غيرصحيح؛ لأنهٗ سؤال عن إمكان الحادث أن يكون أزليا ، وفى تعبير آخر سؤال عن إمكان الحادث أن يكون غير حادث ، وهٰذا سؤال سفيه غيرصحيح . فاعلم أن اللّٰـه تعالٰى قادرعلٰى أن يخلق جميع أنواع الحوادث ، والحادث لابد لهٗ من أن يكون حادثا ، وهٰذا السؤال عن الحوادث لاأول لها ، سؤال غير صحيح غير معقول يناقض بعضه بعضا ، ولاكلام علٰى إطلاق قدرة اللّٰـه تعالٰى؛ لأنها مطلقة لانهاية لها ، وهو علٰى كل شيء قدير بدون استثناء ، فافهم . ثم هناك كلام آخر فى هٰذا الموضوع ، وهو أنك فهمت أن السؤال عن الحوادث لاأول لها سؤال عن الحادث أن يكون غير حادث ، وهٰذا الشيء بالبداهة يناقض بعضه بعضا؛ لأنهٗ لابد من الحادث إلا أن يكون حادثا ، فالحوادث لاأول لها أمر ممتنع ، فلايكون ، وقد ضل ابن تيمية فى هٰذا الأمرضلالا بعيدا ، وتابعه ابن أبى العز الذى كتب شرحا على العقيدة الطحاوية (كتاب هٰذا) وملأ فيه من أشياء باطلة فاسدة ، وكان ابن أبى العز من أتباع ابن تيمية ، وكان تلميذ تلاميذه ، وأكثر النقل من كتب ابن تيمية فى شرحهٖ بدون إحالة عليه؛ لأن عقائد ابن تيمية كانت أشياء محذورة؛ لأن العلماء من معاصرى ابن تيمية أخذوا عليه بسبب ضلالة عقيدتهٖ ، وهٰذا الشيء عن الحوادث واحد منها ، وقد اضلهُ اللّٰه فى هٰذه المسئلة علٰى علم وختم علٰى سمعه وقلبه وجعل علٰى بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعداللّٰه أفلا تذكرون . ابن تيمية قال: إن الحوادث تتسلسل إلٰى مالانهاية لها ، يعنى إلى الأزل ، وفى الحقيقة هٰذا الأمر مستعار من الفلاسفة الملاحدة الذين يقولون عن قدم العالم ، وابن تيمية اختلف من الفلاسفة فى بعض الأمر ، وقال عن قدم نوع العالم ، ففرق بين النوع والعين ، والفلاسفة قالوا عن قدم العالم ، وعقيدة ابن تيمية عن العالم موجودة فى كتبه ، منها شرح حديث عمران بن حصين رضي اللّٰه تعالٰى عنه ، ثم ابن تيمية فرق بين الحوادث ، وقال فيها مخلوقة وفيها غير مخلوقة ، هٰذا الشيء مستعار من الكرامية ، ثم قال: الحوادث التى ليست قائمة بذات اللّٰه تعالٰى هي مخلوقة ، ونحن منها ، والحوادث التى قائمة بذات اللّٰه تعالٰى (تعالٰى اللّٰه عما يقول الظالمون علوا كبيرا) هي غير مخلوقة ، وهٰذا كلهٗ مستعار من الكرامية ، ولم يقل بهٰذا أي واحد من أهل السنة والجماعة . والكرامية هي فرقة مشبهة ، والعلماء كفروهم لضلالاتهم ، ومن جملة ضلالاتهم أنهم يعتقدون أن اللّٰه محل للحوادث ، وابن تيمية يعتقد علٰى هٰذا أيضا . ثم إذا رفع السؤال وهو أن اللّٰه قديم أزلي ، والحوادث لاتكون أزليا ، واللّٰـه عزوجل القديم لايكون فى القدم محلا للحوادث ؛ لامتناع كون الحوادث فى القدم ، يعنى فى الأزل ، فإذا لاتكون الحوادث قائمة بهٖ فى الأزل ، فهٰذهٖ صفة لهٗ من الأزل يعنى صفة عدم كونه محلا

للحوادث ، والصفة الأزلية صفة [1] ابدية؛ لأن جميع صفاته أزلية أبدية لايطرأ عليها الفناء ونعوذبالله، وأيضاً الأزلي لايقبل الفناء؛ لأن حدوث الفناء حادث ، والأزلي لايطرأ عليه الحادث لمابينا ، فافهم. فابن تيمية لدفع هذا السؤال جاء بهذه الضلالة أن الحوادث لاأول لها ، وهي تتسلسل إلى الأزل حتى يثبت وجود نوعها فى الأزل قائما بذات الله تعالى ، وتعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا . ولم يتوقف على هذا، بل أثبت وجود نوع الحوادث فى الأزل غير قائما بذات الله تعالى أيضا الذى هو مخلوق عنده ، فثبت النوع القديم للمخلوق يعنى للعالم ، وقال: إن نوع الخلق لم يزل مع الله وقال: إن الله لم يكن وحدهُ قط، بل لم يزل نوع العالم معهُ ، وقال: هذا من كمال الله تعالى (ونعوذبالله من ذلك) وقال هذا أزلية الخالقية والفاعلية لله تعالى وقال مهما من الحوادث الذى تقول عنه إنهُ الحادث الأول فممكن وجود الحادث قبلهُ؛ لأن الأزل لابداية لهُ وكذلك مهما من الحوادث تقول عنه إنهُ الحادث الأول ، قلنا عن إمكان وجود الحادث قبلهُ ، فثبت الحوادث لاأول لها ، انتهى كلامهُ. وفى الحقيقة هذ الدليل فى غاية السفاهة ، ويدل على فساد فهمه وسفاهة عقله ، وفى الحقيقة أنهُ جميع ماقال فى هذا الباب الذى ذكرنا فى غاية الضلالة ، وبدعة قبيحة فى أصول الدين يناقض القرآن والحديث ومخالف النقل والعقل ، وأقرب من الكفر منه من الإسلام ، ونحن إن شاء الله العزيز نذكر هذا بالتفصيل .

فنقول بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز إننا قد ذكرنا أن تسلسل الحوادث إلى الأزل ممتنع؛ لأن أجزاء هذا التسلسل كلها حادثة ، فلابد لهذا التسلسل من أن يكون حادثاً ، وأما دليل ابن تيمية فهو سفاهة كاملة؛ لأنهُ إذا قلنا مثلا : إن الألف هو الحادث الأول ، فيقول ابن تيمية: إنهُ ممكن وجود الحادث الباء قبلهُ ، فقلنا: فالباء هو الحادث الأول والألف لم يوجدبعد؛ لأن وجودهُ سيكون بعد وجود الباء ، فيقول ابن تيمية: إنهُ يمكن وجود الحادث التاء قبل الباء ، فقلنا: فالتاء هو الحادث الأول والألف والباء لم يوجدا بعد؛ لأن وجودهما سيكون بعد وجود التاء ، فيقول ابن تيمية: إنهُ يمكن وجود الحادث الثاء قبل التاء ، فقلنا: فالثاء هو الحادث الأول ، والألف والباء والتاء لم يوجدوا بعد؛ لأن وجودها بعد وجود الثاء ، فإذا وجد الثاء فهم تابعونه فى الوجود ، فيقول ابن تيمية: إنهُ ممكن وجود الحادث الجيم قبل وجود الثاء ، وهلم جرا هكذا ، فابن تيمية يستمر فى ذهاب إلى القبل يعنى إلى الماضى ، فينفى وجود الحال؛ لأنهُ لايوجد الحال حتى يوجد الماضى ، ففى الحقيقة على هذا المنوال لايوجد أي شيء من الحوادث قطعا وبتاتا؛ لأنهُ مهما من الحوادث الذى نقول عنه إنهُ الحادث الأول ، فابن تيمية يريد أن يذهب قبلهُ وهذا ينفي وجود هذا الحادث الأول ، وكذلك فى سائر الأمثلة ، فلا يوجد حادث ما قطعا ، وهذا الشيء بديهي ، ويا عجب من ابن تيمية وابن أبى

(١) يعنى كما هو ليس محلا للحوادث فى الأزل فكذلك إلى الأبد .

العز ، هم استدلوا بهذا الدليل الذى فى الحقيقة لايدل على موقفهم، بل ينفى وجود الحوادث بالكلية ، والله أعلم أنهم علموا هذا وثم استمروا قصدا على هذا الموقف إضلالا للناس أو أنفسهم ضلوا ولم أضلوا ، لكن هذا الأمر بديهي جدا ، فلابد للحوادث أن تكون لها أولا الذى منه يبدأ خلق الحوادث وهذا ضروري عقلا كما بينا ، وثم أهم من هذا أن القرآن والحديث يخبر أن الله وحدهٗ لاشريک لہٗ كان ولاشيء غيرهٗ معهٗ ، وبعد ذلک خلق الخلق ، وفى الحديث " كان الله ولم يكن شيء معهٗ " (كشف الخفاء، ح: ٢٠١١) " كان الله ولم يكن شيء غيرهٗ ." (صحيح البخاري، ح: ١٣٩١) وفى الحديث يتكلم عن أول الخلق " إن أول ماخلق الله القلم ، فقال لهٗ : اكتب . . . ." (سنن أبى داود، ح: ٤٧٠٠) وفى القرآن ﴿ وَمَآ آتٰكُمُ الرَّسُوْلُ فَخُذُوْهُ وَمَا نَهٰكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوْا ﴾ (الحشر:٧) فماجاء فى الحديث فهو واجب القبول بحسب القرآن ، وفى القرآن: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (الفرقان:٢) وكل شيء يشمل تسلسل الحوادث ، فإذا كان تسلسل الحوادث مخلوقا ، فلابد لهٗ من البداية؛ لأن المخلوق لابدلهٗ من أن يكون حادثا بالضرورة ، وفى القرآن: " خالق كل شيء " "وهو الذى يبدؤ الخلق " ﴿قُلْ سِيْرُوْا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوْا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللّٰهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللّٰهَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ﴾ (العنكبوت:٢٠) وهذه الآية مع صيغة الماضى فيها"كيف بدأ الخلق" والله أعلم قد يستدل منها أيضا على بداية الخلق وأنه هناک أول الخلق الذى يبدأمنه خلق الخلق وإلا فماذكرنا قبلها من الآيات والأحاديث كافية فى هذا الموضوع ، وأيضا هذا مجمعة عند المسلمين، بل عند جميع أهل الأديان الذين يعتقدون فى ذات الله فى وجه ما ، وهو أن الله تعالٰى كان ولاشيء معهٗ ولاشيء غيرهٗ وبعد ذلک خلق الزمان والمكان والأشياء كلها لايختلفان فى هذا مسلمان ، فماقال ابن تيمية عن قدم نوع العالم فباطل مردود وطغيان وضلال و كفر مبين. ومعنى قوله أن نوع العالم قديم أن كل شيء يعني جميع الحوادث فى العالم حادثة مخلوقة بعينها ، لكن مسبوقة بالحوادث الأخرى إلى الأزل ، فأنواع منها موجودة دائمة ، ولوعين جميعها حادثة مخلوقة ، وفى تعبير آخر أن تسلسل هذه الحوادث إلى الأزل فأزلي ، لكن جميع الحوادث فى هذا التسلسل حادثة ، وهذا كما بينا يخالف النقل والعقل ، وأما ماقال إنهٗ كمال الله تعالٰى وهو الخالقية الأزلية والفاعلية الأزلية ، فهو كذاب فى هذا؛ لأنهٗ ليس كمالا قطعا وبتاتا، بل نقص فى ذات الله تعالٰى؛ لأنهٗ يجعل الله تعالٰى علة مجبورة مؤثرة بالإيجاب (وتعالٰى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا) لأن موقف الحوادث لاأول لها يجعل تسلسل الحوادث أزلي والأزلي لايأتى تحت الاختيار فصارالله مجبورا مقهورا موجبا عليه فى خلق الحوادث لانهاية لها (ونعوذ بالله من ذلک) وهذا نقص كبير على الله تعالٰى ، لايقوله المسلم ، وفى الحقيقة هذا نفس الشيء الذى الفلاسفة الملاحدة يقولون: إن الله تعالٰى علة

مجبورة مؤثرة بالإيجاب للعالم ، وليس فاعلا بالاختيار؛ لأنهم يعتقدون أن العالم قديم وقول ابن تيمية أيضا يؤدى إلى نفس النتيجة؛ لأنهٔ يقول عن قدم نوع العالم واعتقاد أن الله موجبا عليه خلق الحوادث كفر بواح، بل الله فاعل بالاختيار وليس واجبًا عليه شيء ، وهو الجبار وليس مجبورا ، والقهار ليس مقهورا ، وهو الموجب وليس موجبا عليه . ثم الحوادث لا أول لها ينافي الآية من القرآن :﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ (الجن:٢٨) وهٰذه الآية تخبر عن إحصاء الله لكل شيء عددا ، وهٰذا يدل علىٰ أن الحوادث لها نهاية؛ لأن ماليست لها نهاية لاتأتى تحت الإحصاء ، والحوادث لاأول لها ، تؤدى إلىٰ عدد الحوادث لانهاية لها ، فإذا أحصى الله كل شيء عددا ، فيعنى أن عدد الحوادث لها نهاية ، وهٰذا يدل علىٰ أن الحوادث لها بداية ، وينفى الحوادث لاأول لها . ثم إذا ثبت أن الحوادث لها أول وبداية ، فلايمكن وجودها فى الأزل ، والله عزوجل أزلي ، فلايكون محلا للحوادث ، فعقيدة ابن تيمية أن الله عزوجل محل للحوادث (وتعالىٰ الله عما يقول الظلمون علوا كبيرا) عقيدة باطلة ، وتؤدى إلىٰ حدوث بارى تعالىٰ؛ لأن مالايسبق الحوادث فهو حادث ، ونحن نعلم وابن تيمية كذٰلك أن الله عزوجل ليس حادثاً ، ومن اعتقد بحدوثه فقدكفر به ، وهٰذا بديهي ، وأيضًا لوكان الله حادثا (نعوذبالله) لكان مخلوقا وليس خالقا لكان مملوكا وليس مالكا لكان مربوبا وليس ربا لكان عابدا وليس معبودا (نعوذبالله من هٰذا الكفر البواح) وهٰذا ينافى أن يكون الله "الله" وعجبا من ابن تيمية ، هو يعرف كل هٰذا ، وثم أجاز قيام الحوادث بذات البارى تعالىٰ ، وفى الحقيقة لايكون من يقوم به الحوادث إلا نفسه حادث ؛ لامتناع وجودالحوادث فى الأزل ، والمعلوم أن الله أزلي أبدي ، فلايكون محلا للحوادث ، ثم المعلوم أن الله تعالىٰ أزلي ، وكذٰلك جميع صفاته كلها أزلية ، هٰذا معلوم من الدين بالضرورة ، وكذٰلك المعلوم من العقل بالضرورة ، فإذا ابن تيمية أجاز قيام الحوادث بذات البارى تعالىٰ ، فثبت لهٔ صفات حادثة ، وهٰذا يناقض ماهو المعلوم من الدين بالضرورة، ثم المعلوم أنهٔ لابد لحادث من المحدث؛ لأن الحوادث لايوجد بنفسه ، وهٰذا معلوم بالضرورة من العقل والنقل وإلا العالم لايحتاج إلىٰ صانع (ونعوذ بالله) وهٰذا قول الدهرية وفى الحقيقة نفس الدهرية وقلبه ينفى هٰذا الموقف لهٔ ، فالمعلوم أن الحادث لهٔ محدث ، وهٰذا بعينه معنى الخلق؛ لأن خلق شيء معنى أن هٰذا الشيء كان معدوما فأوجده الموجد ، وفى تعبير آخر أن هٰذا الحادث كان معدوما ، فيحدثه المحدث وياعجبا من ابن تيمية أنهٔ قال: إن الحوادث منها مخلوقة ومنها غير مخلوقة ، وليس هٰذا إلا سفاهة عقله بل عناده وتمرده ومكابرته مما هو بديهي عقلا ونقلا ، وابن تيمية يعرف أن جميع الحوادث فالله يحدثها ، وليس معنى يحدثها إلا أنها غير موجودة وهو يوجدها يعنى يعطيها الوجود ، وليس هو إلا معنى الخلق؛ لأن الخلق ليس إلا أن الشيء كان معدوما

فأوجده الله تعالى ، فياعجبا منه كيف يتعاطى إلى تفريق الحوادث بين مخلوقة وغير مخلوقة ، من أين جاء بهذه السفاهة التي لاتوجد في النقل ولاالعقل وفي القرآن ﴿ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (الفرقان:٢) ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأنعام:١٠٢) بلااستثناء فيشمل جميع الحوادث ، وأما الله مع صفاته فأزلي ولايأتي الأزلي تحت الخلق؛ لأنه ينافي الأزلية ، فكل شيء يشمل كل شيء ماعدا مالايأتي تحته ، فهذا يشمل جميع الحوادث ، فإذا كان ثابتا أن جميع الحوادث مخلوقة ، فاعتقاد قيام الحوادث بالله تعالى اعتقاد قيام الخلق بالله تعالى ، واعتقاد قيام الخلق بالله كفر بواح؛ لأنه ينفي أن يكون الله " الله " لأنه من يقوم به الخلق فهو مخلوق ، وهذا بديهي والمخلوق لايكون الله وفي القرآن: ﴿ لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ (الطلاق:١) والأمر هنا "الرجعة" بعد الطلاق ، كذا في التفسير ، والمعلوم أن الرجعة مخلوق وابن تيمية يعرف هذا أيضا ، فمعنى " يحدث " في الآية " يخلق " فإذا يحدث معناه يخلق ، فالحادث معناها الخلق ، يعني المخلوق . وثم في القرآن: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس:٨٢) والمعلوم وابن تيمية يعلم هذا أيضا أن جميع الحوادث بإرادة الله تعالى وابن تيمية أيضا لاينكر بهذا؛ لأن بدون إرادة الله تعالى لحادث ما لوجوده لايمكن وجوده ، والله تعالى عزوجل يخبرنا أنه إنما إذا أراد شيئا فلايحتاج إلى المباشرة ولاشيء ما، بل يقول له كن فيكون ، فإذا كانت جميع الحوادث تحت إرادة الله تعالى وقدرته وكلامه وتقع بدون المباشرة من الله تعالى ، فلاوجه لتفريق الحوادث بعضها من بعض، بل كلها على نفس الوجه ، فتكون كلها مخلوقة ، ثم إرادة الله تعالى وقدرته وكلامه كلها صفات له أزلية ، فكلمة "كن "صفة أزلية عند أهل السنة والجماعة ، لكن عند ابن تيمية صفة حادثة ، فإذا تكون كلمة "كن" حادثة عند ابن تيمية ، ومعلوم أن جميع الحوادث فالله يحدثها ، وابن تيمية يعرف هذا أيضا ، فكلمة "كن" تحتاج إلى الإحداث ، والله تعالى يخبرنا أنه يحدث الأشياء بدون المباشرة، بل يقول لها: "كن" فتكون ، فهنا يعني أن كلمة "كن" في حدوثه تحتاج إلى كلمة "كن" أخرى ، وكذلك تتسلسل إلى ما لانهاية لها ، وهذا يؤدي إلى عدم وجودها على الإطلاق؛ لأن كل واحدة منها تحتاج إلى أخرى في وجودها إلى مالانهاية له ، فلا توجد واحدة منها لعدم البداية ، فنحن بينا هذا قبلا في فساد الحوادث لاأول لها ، وعقيدة ابن تيمية في حدوث كلامه تعالى تؤدي إلى عدم وجود كلامه تعالى مطلقا ، ولهذا نحن أهل السنة والجماعة نعتقد أن كلامه تعالى أزلي كجميع صفاته أزلية ، وكلمة "كن " من كلامه الأزلي .

ثم إذا كان ثابتا أن الإحداث للحوادث من ذات الباري تعالى تقع بدون مباشرة، بل يقول: "كن" فتكون ، فاعتقاد قيام الحوادث بذات الباري تعالى يؤدي إلى وجود الحوادث القائمة بذات الباري تعالى بدون هو متصف بها، بل يكون ظرفا لها فقط ، وهذا يؤدي إلى قيام الأفعال الحادثة

بذات البارى تعالى وهو غير فاعل لها من حيث المباشرة يعنى بدون الاتصاف بها ، وابن تيمية يعتقد وجود الأفعال الحادثة القائمة بذات البارى تعالى وهو مباشر لها مشتغل بها متصف بها ، والآية التى ذكرنا تفسد قولهٗ فى هذا ، لأنها تخبر أن الحوادث كلها توجد بدون الاشتغال والمباشرة من عند الله تعالى، بل بإرادته وقدرته وكلامه .

ثم ما ذكرنا أن اعتقاد قيام الحوادث بذات البارى تعالى يؤدى إلى وجود الحوادث القائمة به ، وهو غير مباشر لها غير متصف بها ، وهٰذا يعنى وجود الأشياء القائمة بذاته غير متعلقة به ، وما هو ليس بمتعلق به يكون مخلوقًا بالضرورة ، وقيام الخلق بذات البارى تعالى ينافى كونه ذات البارى تعالى ، وهو كفر بواح . فحاصل كلامنا أن ابن تيمية وأتباعه يعتقدون قيام الأفعال الحادثة بذات البارى تعالى من حيث هو مباشرلها متصف بها ، والآية: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس:٨٢) تمنع أن تكون الحوادث إلا بإرادته وأيضًا تدل على أنهٗ لايحتاج إلى المباشرة والاشتغال بالحوادث فلايفعلهما، بل يقول لها "كن" فتكون ، فالأفعال الحادثة القائمة بذات البارى تعالى كما زعم ابن تيمية لا يكون الله مباشرا لها مشتغلا بها ، بل يقول لها: "كن"فتكون ، فيمنع أن تكون أفعالاً لهٗ فى المعنى أنهٗ هو متعلق بها (بمعنى الاتصاف)، فلاتبقى إلاأن تكون غير متعلقة به وحتى عند ابن تيمية الحوادث غير المتعلقة به تعالى مخلوقة ، فهٰذا يعنى وجود الخلق بذات البارى تعالى ، وهٰذا كفر بواح حتى عند ابن تيمية .

ثم المعلوم وابن تيمية يعلم ذٰلك أيضًا أن كل صفات الله تعالى صفات الكمال ، فمن أثبت صفات حادثة كما فعل ابن تيمية فى إثباته الصفات الفعلية الحادثة لله تعالى ، فقد أثبت النقص لذاته تعالى لأنه لابد لهٰذه الصفات الحادثة من أن تكون من صفات الكمال ، فهٰذا يعنى أنهٗ تعالى كان غير متصفا ببعض صفات الكمال ، حتى صار متصفًا بها بحدوث هٰذه الصفات الحادثة ، فهٰذا يعنى أنهٗ كان ناقصًا قبلا ونعوذ بالله من ذٰلك ، والمعلوم أن الله تعالى من الأزل متصف بجميع صفات الكمال ، وكذٰلك إلى الأبد ، ثم نسأل ابن تيمية من أين جآء ت هٰذه الصفات الحادثة ، فإذا أجاب أن الله تعالى أحدثها فقلنا: فإذا قدر هو على إحداثها ، فما يمنع أن يتصف بها من الأزل وتكون لهٗ من الصفات الأزلية ، وهٰذا هو الحقيقة لأن جميع صفاته أزلية ، لأن لو كانت لهٗ صفات التى هو أحدثها بقدرته ، فكانت مخلوقة لهٗ ، وهذا يؤدى إلى يكون لهٗ صفات مخلوقة ، وهٰذا كفر بواح .

فحاصل الكلام أن الله عزوجل قديم أزلي ، فالحوادث لاتقوم به ، وهٰذا معلوم بالضرورة من النقل والعقل كما بينا من الدلائل النقلية والعقلية ، وما قال ابن تيمية فهو ليس إلا ضلال وبدعة قبيحة فى أصول الدين ومستعار من عقيدة الكرامية . ومن اطلع على عقيدة ابن تيمية اطلاعا عميقا بدون

الانحياز، فيعلم أن كثيرا من عقيدته في مجال الأسماء والصفات لله تعالى مستعارة من الكرامية المجسمة، ونحن قبل إنهاء هذا البحث نريد أن نجيب دليل ابن تيمية لموقف له، وابن تيمية استدل بالحديث من أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن أحوال يوم القيامة، إذا الناس يجعلون يستشفعون بالأنبياء عليهم الصلوات والسلام، فيستشفعون بآدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلوات والسلام، حتى يصيرون إلى نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم فيشفع لهم، ففي هذا الحديث سيدنا آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلوات والسلام كلهم يقولون: " إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبلهُ مثلهُ ولن يغضب بعدهُ مثله." (صحيح البخاري، ح: ٤٧١٢) فاستدل ابن تيمية من هذه الجملة أن هذا الغضب حادث ، لإنهُ لم يكن مثلهُ قبلهُ ولايكون بعدهُ مثلهُ ، فقال: إنهُ يقوم الحوادث بذات الله تعالى . وهذا عجب شديد منه أنهُ استدل بهذا الحديث لموقفه. فنجيبه عن دليله بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز أن هذه الفقرة " إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبلهُ مثلهُ ولن يغضب بعدهُ مثلهُ " لاتوجد في أحاديث أخرى عن نفس الموضوع وهو الشفاعة، فحديث أنس رضي الله تعالى عنه عن نفس أحوال القيامة عن الاستشفاع بالأنبياء عليهم الصلوات والسلام لاتوجد فيه هذه الفقرة، بل يقولون الأنبياء: "لست هناكم" حتى يصير الشفاعة إلى نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم في حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مشكلة أخرى وهو هذا الحديث روي عن أبي زرعة عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه في البخاري والمسلم ، وفيه نسبة الكذبات إلى إبراهيم عليه الصلوة والسلام وهذه لاتجوز قطعًا وبتاتا نقلاً وعقلاً عند إجماع المسلمين ، وابن تيمية لاينكر بهذا ؛ لأن صدق الأنبياء عليهم الصلوات والسلام من صفاتهم الواجبة وإلا صارت الشرائع غير معتبرة ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (الحاقة:٤٤-٤٧) وهذا قال الله تعالى عن نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم إثباتًا أن الأنبياء لايكذبون ، ثم لو كان الأنبياء يكذبون في شيء ما (معاذالله) فرفع الإعتبار منه في جميع الأشياء ، فكيف يكون هاديًا للناس ، وقد قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ (الحج:٧٥) ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام:١٢٤) ؛ فلهذا السبب نحن لانرى في حق نبي ما عليه الصلوة والسلام أن أمتهُ اتهمته بالكذب في شيء ما قبل النبوة أوبعد النبوة [1] ونبينا صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقال: "الصادق الأمين" من الكفار والمشركين وقد قال الله تعالى عن سيدنا إسماعيل عليه السلام: " صَادِقَ الْوَعْدِ" وعن سيدنا إدريس عليه الصلوة والسلام: " صِدِّيقًا نَّبِيًّا" وهذا الشيء في حق جميع الأنبياء عليهم الصلوات والسلام

---

(١) إلا أنهم يكذبونه في نبوته والوحي المنزل إليه تعالى ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (الأنعام:٣٣)

حتى النبي الرسول الذى نتكلم عنه الآن يعنى سيدنا إبراهيم عليه الصلوٰة والسلام ، فقال الله تعالىٰ عنه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ (مريم: ٤١) وهٰذا القرآن يقول: إن إبراهيم عليه الصلوات والسلام كان صديقا؛ لأن هٰذا الشيء وصف واجب لجميع الأنبياء والمرسلين عليهم الصلوات والسلام بالإجماع القطعي من الأمة المسلمة. فلهٰذا السبب بعض العلماء ردوا هٰذه الروايات الآحاد عن كذبات فى حق النبي الرسول إبراهيم عليه الصلوات والسلام بالكلية والباقى وهم الجمهور ونحن أيضًا معهم أوّلوه ، فقالوا: الكذبات فى هٰذه الروايات ليست على المعنى الحقيقية، بل علىٰ معنى التورية ، والتورية جائزة فى مكان الضرورة ، فهى كانت للضرورة كما يفهم من الحديث ، ومعنى التورية أن الشخص يتكلم بشيء وأراد منه المعنى الصحيح ، وهو صادق فى هٰذا الكلام على المعنى الذى أرادهٔ ولو لا يطلع السامع علىٰ هٰذا المعنى وابن تيمية أيضًا حمل هٰذه الأحاديث علىٰ هٰذا التاويل ، لٰكن هناك مشكلة أخرى فى هٰذا الحديث عن أبى هريرة رضي اللّٰه تعالىٰ عنه فى حديث الشفاعة مع هٰذا التاويل ، وهو أن الحديث الصحيح فى البخاري يصرح عن هٰذه الأماكن للتورية لإبراهيم عليه الصلوٰة والسلام ، وهٰذا أيضًا عن أبى هريرة رضي اللّٰه تعالىٰ عنه وهو قولهٔ الأول: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ (الصافات: ٨٩) لقومه المشركين فكأنهٔ عرّض وورّى وعنى من قوله مرض القلب لعبادة قومه الأوثان أوغيرها من المعانى الصحيحة وقوله الثانى ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا﴾ (الأنبياء ٦٣) والآية الكاملة هٰكذا ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ (الأنبياء ٦٣) فكأنهٔ عرّض أن هٰذه الأصنام المكسورة وأنتم تعبدونه؟ فسئلوا هٰذه الأصنام عمن كسرها ، إن نطقوا ، فلونطقوا فكبيرهم هٰذا هو الفاعل ، وإن لم ينطقوا فليس هو بالفاعل ، والمعلوم أن الأصنام جماد لايتكلمون معهم ، ففى تعليق نسبة فعل الكسر إلى كبيرهم علىٰ نطق هٰؤلاء معهم نفي نسبة الفعل إلى كبيرهم فى الحقيقة ، فافهم ! وقوله الثالث فى حق سارة رضي اللّٰه تعالىٰ عنها أنها أخته لدفع ظلم الظلمة ، فكأنهٔ عرّض أختا فى دين اللّٰه وجميع المسلمون والمسلمات إخوة بعضهم بعضا فى دين اللّٰه عزوجل ، فهٰذه هو الثلاث من أقوال إبراهيم عليه السلام علىٰ وجه التورية. والحديث الصحيح [1] فى البخاري عن أبى هريرة رضي اللّٰه تعالىٰ عنه يخبر أن إبراهيم عليه الصلوٰة والسلام لم يفعل التورية إلا ثلاثا وهٰذه هو الثلاث ، لٰكن فى الحديث الذى استدل ابن تيمية به على الموضوع [2] الذى نحن فيه ، ففيه تفصيل هٰذه التوريات يخالف الحديث الصحيح الذى ذكرنا من البخاري وهو فى رواية مسلم عن

---

(١) وهٰذا الحديث مستقل فى هٰذا الموضوع عن التورية وليس عن موضوع الشفاعة ، لٰكن تفصيلهٔ عن التورية يخالف الحديث عن موضوع الشفاعة عن أبى هريرة فى محال أماكن التورية وهٰذا يجعل هٰذا الحديث فى موضوع الشفاعة معلولا ، فافهم

(٢) على موضوع الحوادث فى حق اللّٰه تعالى

عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه وذكر قولهٗ في كوكب ﴿هٰذَا رَبِّي﴾ (الأنعام:٧٦) وقـولهٗ لآلهتهم ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيْرُهُمْ هٰذَا﴾ (الأنبياء ٦٣) وقولهٗ ﴿إِنِّي سَقِيْمٌ﴾ (الصافات:٨٩، (صحيح مسلم، ح: ١٩٣) فهٰـذه التفاصيل منها قولهٗ في الكوكب ﴿هٰذَا رَبِّي﴾ (الأنعام:٧٦) خطأ فاحش، لأنهٗ يخالف الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه في البخاري وأيضًا شمل هٰذا القول في التوريات خطأ عظيم، بل يخالف أصول الدين في الجملة؛ لأن جميع الأنبياء والمرسلين بعثوا وغايتهم العظيمة هي لاإلٰه إلا الله، ودعوة الناس إلى عبادة الله وتوحيده في الألوهية والربوبية ونفي الباطل وقصمه وهدم عبادة غير الله تعالىٰ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُوْلٍ إِلَّا نُوْحِيْ إِلَيْهِ أَنَّهٗ لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُوْنِ﴾ (الأنبياء:٢٥) فمقصد الأنبياء عليهم الصلوات والسلام عبادة الله وحدهٗ والدعوة إليها ومحو الشرك من أصلـه في العالم، فكيف يجوز للنبي الرسول عليه الصلوٰة والسلام أن يعرّض ويورّي بقوله في الكوكب ﴿ هٰذَا رَبِّي﴾ (الأنعام:٧٦) حتّى السامعون يأخذونهٗ علىٰ ظاهره ويفهمون أنهٗ يعتقد أن الكوكب ربهٗ هٰذا لايجوز قطعًا وبتاتا بإجماع المسلمين، ولامجال لهٰذا في أصول دين الله المتين. فقولهٗ ﴿هٰذَا رَبِّي﴾ (الأنعام:٧٦) معنـاه يعني إنكم أيها المشركون تقولون هٰذا ربي فانظروا مايحصل به، فعندما أفل فقال: لاأحب الآفلين، وكذٰلك في القمر إذا أفل ﴿قَالَ لَئِنْ لَّمْ يَهْدِنِيْ رَبِّيْ لَأَكُوْنَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّيْنَ﴾ (الأنعام:٧٧) وفي الشمس إذا أفلت ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّيْ بَرِيْءٌ مِّمَّا تُشْرِكُوْنَ إِنِّيْ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِيْ فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيْفاً وَّمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ وَحَاجَّهٗ قَوْمُهٗ قَالَ أَتُحَاجُّوْنِّيْ فِي اللّٰهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُوْنَ بِهٖ إِلَّا أَنْ يَّشَاءَ رَبِّيْ شَيْئاً وَّسِعَ رَبِّيْ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُوْنَ﴾ (الأنعام:٧٨-٨٠) وقدقال الله تعالىٰ عن إبراهيم عليه الصلوٰة والسلام: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيْمَ رُشْدَهٗ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهٖ عَالِمِيْنَ ﴾ (الأنبياء:٥١) ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيْمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِّلّٰهِ حَنِيْفاً وَّلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ شَاكِراً لِّأَنْعُمِهٖ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلٰى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيْمٍ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَّإِنَّهٗ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِيْنَ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيْمَ حَنِيْفاً وَّمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ ﴾ (النحل:١٢٠-١٢٣)

فالحاصل أن حديث أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه الذي يستدل به ابن تيمية لايخلوا من السقامة والعلالة العظيمة التي يخالف أصول الدين، فكيف يستدل بهٰذا الحديث ابن تيمية لأصل من أصول الدين وهو نفسه يخالف أصلا من أصول الدين لسقامته وعلالته، ثم لو قيل إنهٗ لم يعد قولهٗ عليه الصلوٰة والسلام في الكوكب في الكذبات في الحديث علىٰ معنى التورية، بل يعد قولهٗ "هٰذَا رَبِّي" في الكذبات علىٰ معنى توبيخ ومناظرة ورد علىٰ قومه المشركين، فقلنا إطلاق الكذب علىٰ معنى توبيخ ومناظرة غير معقول وغير مقبول مطلقا، لو واحد يناظر واحدا آخر ويقول شيئًا، والمخاطب لهٗ يعرف أنهٗ يقول هٰذا توبيخا ومناظرة وردا هٰذا لايعد من الكذب على الإطلاق، ثم هو يخالف الحديث

الصحيح الذى ذكرنا ، وهو أنهُ عليه الصلوٰة والسلام لم يكذب إلاثلاثا ، وتفصيلهُ فى الحديث نحن ذكرنا قبلا ، فهٰذا الحديث الذى ابن تيمية يستدل به سقيم عليل، بل ساقط الإعتبار فى وجه ، ولوسلمنا صحته وسلامته فى ماعدا هٰذه السقامة ، فالحديث هو المؤول عند الإجماع ، وكذٰلك عند ابن تيمية فى تاويل الكذبات ، فإذا يؤول ابن تيمية هٰذا الشيء فى الحديث ليوافق أصلا من أُصول الدين ، فعليه أن يؤول ماعداه ، لو يخالف ظاهره أصلا من أُصول الدين حتٰى يوافق أُصول الدين ، ثم الحديث (يعنى مع هٰذه الفقرة "إن ربى قد غضب اليوم الخ) فى علمنا من آحاد وابن تيمية يريد أن يثبت أصلا من أُصول الدين ، يعنى قيام الحوادث بذات الله تعالٰى من الآحاد وهٰذا لايجوز؛ لأن لو الآحاد تخالف ماهو معلوم من أُصول الدين قطعا من النقل والعقل ، فلا بد من تأويلها حتٰى يوافق معناها بأُصول الدين ، وهٰذا مجمع عليه عند المسلمين .

ونحن قد أثبتنا بالقطع من الدلائل النقلية والعقلية امتناع قيام الحوادث بذاته تعالٰى ، ثم نحن نرىٰ ابن تيمية يؤول الأحاديث الآحاد، بل يعرض عنها بالكلية فى بعض الأحيان عند ما تخالف أصلا من أُصوله للفقه ، مثلا فى طلاق الحيض ابن تيمية يقول: إنهُ لايقع؛ لأن من أصوله للفقه أن النهي يقتضى فساد وبطلان المنهي عنه ، فإذا نهي عن طلاق الحيض فهو باطل ، فلايقع ، فأوّل الحديث الصحيح عن ابن عمر رضي الله تعالٰى عنه "طلق ابن عمر رضي الله تعالٰى عنه إمرأته وهي حائض ، فذكر عمر للنبي صلى الله تعالٰى عليه وسلم ، فقال: ليراجعها، قلت: "تُحتسب" قال:"فمه ." ((صحيح البخاري: ح:٥٢٥٢) وفى رواية أخرى "أرأيته إن عجز واستحمق ؟ ." (صحيح البخاري: ح:٥٣٣٣) فأمر النبي صلى الله تعالٰى عليه وسلم للمراجعة وقولهُ صلى الله تعالٰى عليه وسلم فى أحتساب الطلاق "فمه ""أرأيته إن عجز واستحمق ؟" كله يدل علٰى وقوع الطلاق ، وابن تيمية أوّل الحديث فى الوجه أنهُ لايقع ، وهٰذا ليس بتاويل، بل تحريف ، ثم ابن تيمية أعرض وجههُ بالكلية عن الحديث النص فى هٰذا ، وهو قول ابن عمر رضي الله تعالٰى عنهما "حُسِبت علىّ بتطليقة"وهٰذا مانرىٰ ابن تيمية فعل مع النصوص عند ما خالفت أُصولهُ للفقه ، وهويريد أن يثبت أصلا من أُصول الدين الذى يخالف أصلا من أُصول الدين بالحديث المعلول الواحد .

وياعجب من هٰذه المناقضة ونحن قد ذكرنا أن مذهب ابن تيمية وأتباعه فى غاية التناقض ، وأتباع ابن تيمية فكل شيء من ابن تيمية كائناً ما كان ومهما مخالفا للقرآن والسنة ، فهو عندهم إما مقبولة أو إما زلاّت وبس ، وأما مايصدرمن الذين هم لايحبونهم من الأشاعرة والماتريدية ، فأخطئتهم (فى التاويلات علٰى وجه لايناقض أُصول الدين) حتٰى كافية فى إخراجهم من جملة أهل السنة والجماعة ، فعندهم مقاييس متعددة وراقم الحروف العبد الضعيف قد شاهدهم من قريب ،

وهو مظلوم من قبلهم وأتباع ابن تيمية لايريدون أن يسمع جرحا على ابن تيمية ، ومن فعل هذا مهما كان محقًّافى هذا ، ومهما كان تقيا وذاعلما ومتمسكا بالقرآن والسنة ، هو عندهم ضال مبتدع ، وهذا هو دأبهم ، وكفى بهذا لضلالتهم . والحق أن طلاق الحائض يقع كما فى الحديث الصحيح ، وهو مذهب جماهير العلماء، بل إجماعهم ، وهو مذهب الأئمة الأربعة ، والنهي لايقتضى بطلان [١] المنهي عنه فى المعاملات عند الجمهور ، ولايقتضى بطلان المنهي عنه فى العبادات والمعاملات عند الأحناف.

ثم جميع ماذكرنا فى هذا المجال لبيان ضعف دليل ابن تيمية فى نفسه ولبيان أشياء أخرى من طريق الإلزام ، وفى الحقيقة أن هذا الحديث لايدل على ما استدل به عليه ابن تيمية ، ونحن نقبل هذا الحديث ماعدا ما فيه من السقامة التى ذكرنا فى درجة الظن ؛لأن هذا الحديث مع هذه الفقرة "إن ربى قد غضب اليوم الخ" خبر واحد فى علمنا (والله أعلم) ونعلم أنهٗ لايدل على ما قال ابن تيمية؛ لأن الغضب من الله لايشبه غضب المخلوقين ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(الشورىٰ: ١١) ، وهذا القدر كاف لبطلان استدلال ابن تيمية ، وابن تيمية وأتباعه لايفهمون فرقا بين صفات الله تعالىٰ وخلقه ، ولهذا يقعون فى الأغلاط. إنما غضبنا الذى هو غضب الذى يحدث فى أنفسنا بعد أن لم يكن، وهذا من العوارض التى يعترى علينا ، ونحن نعلم بالضرورة أن غضب الله لايشبه غضبنا فى وجه ما ، فإذا كان غضبنا حادثا يحدث فينا فغضبهٗ ليس حادثا يحدث فيه ، تعالىٰ الله عن ذٰلک ، ثم الغضب عبارة عن عدم اقتناع بشيء؛ لأنهٗ يخالف مايريده ، والله عزوجل لايكون إلامايريد ، فجميع الأشياء من الخير والشر والرطب واليابس والحار والبارد فى العالم تحت مشيئته وإرادته.

فإذا علمت هذا ، ففهمت أن غضب الله ليس كغضبنا الذى يعترى على الغاضب ، ويخرجه من أسلوبه العادى حتىٰ فى كثير من الأحيان ، يندم ما فعل فى حالة الغضب ، هل هذا يجوز فى حق الله تعالىٰ؟ الله أكبر الله أكبر قطعاًوبتاتا لايجوز ، ثم مهما من القضايا والأحكام التى يفعل الله تعالىٰ فى يوم القيامة ، هل جميع هذه بعلمه ومشيئته الأزلية ؟ فلابد من نعم، وفى الحديث: "قدرالله مقادير الخلائق قبل خلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة." (صحيح مسلم، ح:٢٦٥٣) وهذا كتابة المقادير بأمر الله وأماعلمهٗ وإرادتهٗ عنها فأزليان ، فإذا علمت هذا ، ففهمت أن غضبه ليس كغضبنا الحادث ، حتىٰ يحدث فيه فى يوم القيامة وهويفعل أشياء فى هذا الغضب التى لم يكن عليما

---

(١) يعنى مع كون فاعله آثما مثلاً الزانى هو آثم فى فعله الزنا ، لكن هذا لايقتضى أن الزنا لم يقع منه، بل الزنا واقع لا محالة، فكذلك طلاق الحيض يقع وإن كان فاعلا لهٗ آثم فى فعله .

ومريدا بها وأيضًا من المعلوم أن غضب الله على العاصي ، والعاصي من خلق الله وما فعل من الأفعال أيضًا من خلق الله ، وكذلك تحت علمه وإرادته ، فغضب الله عليه لا يكون مثل غضبنا الحادث الذي يحصل على شيء يخالف مانريد؛ لأن جميع ما ذكرنا عن العاصي وكذلك جميع الأشياء غيرها كلها بعلمه وبإرادته وخلقه ، وثم في يوم القيامة إذا يشتد غضب الله تعالى وكذلك تشتد رحمتهُ تعالى وفي الحديث: "إن الله تعالى خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة ،كل رحمة طباق مابين السماء والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة، فبها تعطف الوالدة على ولدها ، والوحش والطيربعضها على بعض ، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة " أخرجه مسلم (ح:٢٧٥٣) والأخبار في رحمة الله تعالى على المؤمنين المسلمين في الآخرة كثيرة جدا ، وفي القرآن: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف: ٥٦) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ (الزخرف:٦٦-٧٠) ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة:٣٨)

وأما خشية الأنبياء كما في الحديث فهي ليس خوفا عليهم من الله بإخافة العقوبات وأمثالها ، لا، بل هي خشية جلال الله وعظمته وقهره كما هو دأب عباد الله الصالحين المحسنين المتقين ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (الأنبياء:٢٦-٢٨) وأما الكافرين والفاسقين فهم تحت غضب الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ (غافر:١٠) فهذا ربنا الله عزوجل لاتخرجه صفته الغضب من صفته الرحمة ، وصفته الرحمة من صفته الغضب ، فهو الرحيم القهار ، يرحم ويغضب وينعم ويعذب ، لايشغله شان عن شأن؛ لأن صفاتهُ ليست كصفاتنا كماذاته ليس كذواتنا ، فهو يغضب لم يغضب مثلهُ قبلهُ ولامثلهُ بعدهُ ، وكذلك يكمل الرحمة من تسعة وتسعين باقيا؛ لأن غضبهُ ليس كغضبنا الحادث كما رحمتهُ ليست كرحمتنا الحادثة ، ثم نحن ذكرنا من الدلائل القطعية من النقل والعقل لامتناع قيام الحوادث بذات الله تعالى ، فالاستدلال الباطل من ابن تيمية لموقفه بهذا خبر الواحد المعلول لايقارنها ولايقاربها قطعاً وبتاتا مطلقًا.

واعلم أن غضب الله ورحمتهُ من صفات الله الأزلية ويتعلق بالمرحوم والمغضوب في زمان ما كما خلق الله صفته الأزلية ويتعلق بالمخلوق في زمان ما ، فكما لوخلق الله المخلوق لم يخلق قبلهُ مثلهُ ولابعدهُ مثلهُ لايعني أن صفة خلق الله حادثة وكذلك غضب الله على المغضوب لم يغضب قبلهُ

ولابعدهُ مثلهُ ، لايعنى أن صفة غضب الله حادثة، بل الحادث هو المخلوق والمغضوب ، فافهم. ونحن إن شاء الله العزيز نتكلم عن صفات الله فيما بعد بالتفصيل.

واعلم أن غضب الله ورحمتهُ عند كثير من العلماء أو الأكثر عبارة عن الإنعام والتعذيب والحديث الذى ذكرنا عن خلق مائة رحمة يؤيد هٰذا التفسير ، فتكون الرحمة عبارة عن خلق الله نعما أو ثوابا أو أشياء مثلها للمرحوم وبالقياس فيكون الغضب عبارة عن خلق العذاب للمغضوب ، فهو التفسير ليس ببعيد ، لاسيما مع تاييد الحديث الصحيح، فالحاصل أن غضب الله ليس حادثا ، ولايقوم بالله تعالىٰ الحوادث ، تعالى الله عن ذٰلك ، فيا أتباع ابن تيمية ! فافهموا ولاتشبهوا الله بخلقه.

ثم اعلم أن الله عزوجل مع صفاتهُ من الأزل ، فلابداية لوجودهٖ ، فلا تتعلق قدرة الله بهٖ وبصفاتهٖ الفعلية والذاتية؛ لأن القدرة علىٰ شيء يشمل قدرة علىٰ وجودهٖ ووجود الله تعالىٰ واجب وقديم ، وكذٰلك صفاتهُ فلا تتعلق قدرة بهٖ وبصفاتهٖ ، وكذٰلك لايمكن أن يطرأ الفناء على الله تعالىٰ وصفاتهٖ ، وهٰذا معلوم من الدين بالضرورة ، وكذٰلك من العقل وفى القرآن: ﴿وَاللّٰهُ خَيْرٌ وَّ أَبْقٰى﴾ (طٰه:٧٣) ﴿وَيَبْقٰى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْاِكْرَامِ﴾ (الرحمٰن:٢٧) يعنى ذاته ، ومن العقل أن الأزلي لايقبل الفناء؛ لأن الأزلي لايكون محلا للحوادث كما بيّنا ، فلايكون فيه حدوث الفناء وكذٰلك حدوث الفناء من الزمان والأزلي متنزه عن الزمان ، وأيضًا حدوث الفناء فى وقت ما من الزمان ، والأزل قبل هٰذا الوقت من الزمان لانهاية لهٗ [1] فالأزلي فى الأزل دون هٰذا الوقت حتىٰ لايمكن لهٰذا الوقت أن يلاقيه. والحاصل أن البقاء لله تعالىٰ معلوم من الدين بالضرورة وكذٰلك من العقل والقدرة علىٰ شيء يشمل قدرة علىٰ فنائهٖ فلا تتعلق بالله وبصفاتهٖ؛ لأنهُ متنزه عن الفناء وكذٰلك صفاتهُ ، ثم قدرة الله تعالىٰ أيضًا من صفاتهٖ ، فتعلق قدرة الله تعالىٰ بهٖ وبصفاتهٖ يؤدى إلى تعلق القدرة بالقدرة ، وهٰذا يؤدى إلى دور الذى يناقض بعضه بعضا؛ لأنهُ يؤدى تعلق وجود قدرة الله تعالىٰ علىٰ قدرة الله تعالىٰ وبالعكس ، فالحاصل أن الله تعالىٰ وصفاتهُ من وراء قدرة الله تعالىٰ ،؛ لأن تعلق القدرة بهٖ وبصفاتهٖ يؤدى إلى التناقض من أن يكون الواجب غير واجب والقديم غير قديم والباقى غير باق وغيرها من الأشياء ، فلهٰذا ورد فى الحديث: "لايزال الناس يتسائلون حتىٰ يقال: هٰذا خلق الله الخلق ، فمن خلق الله ؟ فمن وجد من ذٰلك شيئًا ، فليقل آمنت بالله . (صحيح مسلم، ح: ٣٦٠) "يأتى الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا وكذا؟ حتىٰ يقول لهٗ، من خلق ربك؟ فإذا بلغ ذٰلك فليستعذ بالله ولينته." (صحيح بخارى، ح: ٣٢٧٦) لأن هٰذا السؤال من الشيطان وهو سؤال غير صحيح يناقض بعضه بعضا لعدم إمكان الخلق فى حق الله تعالىٰ؛ لأنهُ خالق غير مخلوق ، قادر غير مقدور ،

(١) يعنى ليست هناك بداية فهو غير محدود وغير متناهي.

ولاينافى إطلاقا لقدرة اللّٰه تعالىٰ؛ لأن السؤال عن تعلق القدرة بالله وبصفاته سؤال غير صحيح ويناقض نفسه كما بيّنا ، فلا نقصان فى قدرة اللّٰه تعالىٰ ، فقوله تعالىٰ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(المائدة:١٢٠) علىٰ إطلاقه بلااستثناء وعدم شمولها لله تعالىٰ وصفاته لاينافى إطلاقه؛ لأن عدم شمولها له ولصفاته تعالىٰ للأسباب التى ذكرنا وهو يؤدى إلى التناقض ، فلذلك لايسئل هذا السؤال، بل يستعذ بالله ولينته كما فى الحديث .

المتن:

قديم بلاابتداء .

الشرح:

هذا ظاهر وقد ذكرنا مرات أن الله تعالىٰ أزلي أبدي دائم بلاإنتهاء ولايفنى ولايبيد: هذا ظاهر أيضًا ولايكون إلا مايريد: وهذا من باب القضاء والقدر ، فاعلم أنهٗ لايكون إلا ما أراد الله من الأزل ، كائنا ماكان من الخير والشر ، ونحن نتكلم عن هذا بالتفصيل فيما بعد إن شاء الله عزوجل.

المتن:

لاتبلغه الأوهام ولاتدركه الأفهام ولايشبه الأنام .

الشرح:

فاعلم أن اللّٰه عزوجل ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، وهذا ظاهر لاخفاء فيه ، والمسلمون كلهم يعرفون ويعتقدون أن الله تعالىٰ لايشبه غيره ولايشبهه غيره وكان يكفى هذا القدر، لٰكن قد ظهر التشبيه من الناس الذين يزعمون أنهم مسلمون وهم يشبهون الله بخلقه وثم يسفهون العوام أنهم يتبعون القرآن والسنة وفى زماننا ظهرت هذه الفرقة التى سمت نفسها "السلفية" وأهل هذه الفرقة يزعمون أنهم يتبعون السلف الصالح ، وفى الحقيقة أنهم يتبعون المشبهين الذين ظهروا فى زمان الماضى ، ومنهم ابن تيمية . والعبد الحقير راقم الحروف غفر الله لهٗ قد أتاح الله لهٗ فرصة لملاحظة ومشاهدة هذه الفرقة من قريب ، وقد ذكرنا نحن قبلا من عقيدة هذه الفرقة ، وقلنا إن فى هذه الفرقة أصناف شتّى ، بعضهم أكثر تشبيها من بعض ، ونحن الأن نذكر هذا الأمر بالتفصيل إن شاء الله العزيز حتىٰ نقصم الباطل ونقلعه من أصوله إن شاء الله العزيز ، فنصنّف هذا البحث فى أصناف :

(١) إن الله ليس بجسم ولامركب ولامصور

(٢) هو ليس بذى أعضاء وجوارح

(٣) هو لايتمكن فى مكان ولايجرى عليه زمان ، فلاتحويه الجهات ولا الأقطار

(٤) ليس بعرض ولاتحلهُ الأعراض.

(١) اللّٰـه عزوجل ليس بجسم ولامركب ولامصور: فاعلم أن اللّٰه تعالىٰ ليس جسما ولامركبا ولامصورا والكرامية المشبهة أطلقوا كلمة "الجسم" عليه ، تعالىٰ اللّٰه عما يقول الظالمون علوا كبيرا ، وابن تيمية وأتباعه أجازوا عليه صفات الأجسام بدون إطلاق هٰذه الكلمة عليه على الصراحة ، تعالىٰ اللّٰه عما يقول الظالمون علوا كبيرا . والحق أن اللّٰه عزوجل ليس جسما ولامركبا ولامصورا ، وهٰذا معلوم من الدين بالضرورة نقلا وعقلا؛ لأنهُ معلوم أنهُ لايجوز إطلاق الأسماء على اللّٰه تعالىٰ بدون القرآن أوالحديث أوالإجماع ، ولم تطلق هٰذه الكلمات على اللّٰه عزوجل قطعاً وبتاتا فى القرآن ولافى الحديث ولافى الإجماع ، فلايجوز إطلاقها عليه قطعا وبتاتا ثم فى القرآن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورىٰ:١١) وهٰذه الآية تنفى أن يكون للّٰه مثلا على الإطلاق ، وهٰذه الآية فى غاية المبالغة فى نفيه وهو أن هٰذه الآية تقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورىٰ:١١) فيعنى أنهُ لو كان على الفرض المحال للّٰه مثلا ، فلايكون شيئًا متشابها لهُ ، فما ظنك عن اللّٰه تعالىٰ نفسه ، وهٰذا على الفرض المحال؛ لأنهُ يستحيل أن يكون لهُ مثلا ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (الإخلاص:٤) وأيضًا أجمع المسلمون على هٰذا ، فإذا ثبت هٰذا ، فلو كان اللّٰه جسما لشبهه كل جسم فى العالم ، وهٰذا إبطال الآية ، فلويقول الملحد أنهُ جسم لاكالأجسام ، فهٰذا الشيء لايمنع إبطالهُ لهٰذه الآية؛ لأننا قد بيّنا أننا نحن نرىٰ حتىٰ الخطوط فى بنان أصابعنا لاتشبه بعضها بعضا بالكامل فضلا عن أجسامنا ، وهٰذا لايجعلنا مستحقًا للقول ليس كمثله شيء ، وقدقال اللّٰه تعالىٰ عن إرم ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ (الفجر:٧-٨) وهٰذا لايشاركهم فى صفة اللّٰه تعالىٰ أنهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورىٰ:١١) لأنهُ ولونحن لايتشبه بعضنا بعضا بالكلية ، لكن يتشبه فى الجملة وهو كلنا أجسام ، ولنا مقياس ومقدار وتركيب وصورة وغيرها من الأشياء ، فإذا كان تشبهنا بعضنا ببعض فى وجه دون وجه يخرجنا من أن نكون مصداق القول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورىٰ:١١) فإذا ثبت هٰذا القول للّٰه تعالىٰ فيكون معناه أنهُ لايشبههُ شيء فى وجه ما ، وهو متعال عن التشبه على الإطلاق.

ثم فى القرآن ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الإخلاص:١) وهٰذه السورة نزلت حينما المشركون سألوا النبي صلى اللّٰـه تعالىٰ عليه وسلم عن اللّٰه تعالىٰ وصفاته كذا فى التفسير ، ففى أول الآية لهٰذه السورة اللّٰه عزوجل ذكر صفته الأحدية. والأحد والواحد هناك فرق بين هٰذين الإسمين ، وكلاهما من أسماء اللّٰـه تعالىٰ. الاسم الأحد يدل علىٰ عدم تركيبه؛ لأن معنى الأحد فى اللغة يشمل المعنى الذى لايقبل الانقسام والتجزى ، وهٰذا معلوم من اللغة العربية ، فمن شاء فليراجع القواميس ، فاللّٰه عزوجل هو

واحد أحد فی معنی لاشریک لهٗ ، وأیضًا فی معنی انهٗ نفسه لایقبل التجزی فلایکون جسما ولامرکبا ولامصورا؛ لأن کل هٰذه المصطلحات تعبیرة عن الشیء الذی متکون من الأجزاء ، وتعالی اللّٰه عن ذٰلک ، ثم قد رد اللّٰه تعالٰی علٰی من یجعل لهٗ جزءً ﴿وَجَعَلُوْا لَهٗ مِنْ عِبَادِهٖ جُزْءًا ؕ اِنَّ الْاِنْسَانَ لَكَفُوْرٌ مُّبِيْنٌ﴾ (الزخرف:١٥) وهٰذه الآیة تکفر من یجعل للّٰه جزءً من عبادهٖ ولوانت تغور فی هٰذا المجال لبدالک انهٗ لوواحد یوصف اللّٰه بالجزء والجزء یقبل الانفصال من الکل فیصیر غیر متعلق بهٖ ، وما هو غیر متعلق باللّٰه فلابدلهٗ إلاأن یکون من عبادهٖ ، والآیة تکفرمن یجعل جزءً لهٗ من عبادهٖ ، فمعنی إیصاف اللّٰه بالتجزی کفرنفسه بدون الشرط أن یکون الموصف یصرح أن یکون الجزء من عبادهٖ ، ثم من ناحیة الدلائل العقلیة القطعیة أنهٗ معلوم أن اللّٰه عزوجل لیس جسما؛ لأن الجسم مرکب ، وما هو المرکب فلایکون أزلیا؛ لأن الترکیب بالأجزاء ، والأجزاء یسبق وجودها الکل بالضرورة ، وما هو مسبوق بالآخرفلایکون أزلیا ، وکذٰلک الکلام فی الصورة ؛ لأنها لیس إلا الشکل المترکب ، وأیضًا الترکیب یحتاج إلی من یرکبهٗ؛ لأن التراکیب مختلفة الأنواع ، فیحتاج إلی المخصص لتخصیصهٖ بترکیب ما من التراکیب ، وهٰذا یؤدی أن یکون اللّٰه غیر اللّٰه (ونعوذ باللّٰه من ذٰلک) وکذٰلک الجسم لهٗ مقدار وقیاس والمقادیر مختلفة ، فیحتاج إلی المخصص لتخصیصهٖ بمقدار ما من المقادیر، وهٰذا یؤدی أن یکون اللّٰه حادثا مخلوقا ، تعالٰی اللّٰه عن ذٰلک . ثم من صفات الأجسام التحیز والمتحیز ، فلابدلهٗ من أن یکون محدودا ومحویا؛ لأنهٗ فی الحیز ، وما یحیط بهٰذا الحیز من الحیزات المحیطة بهٖ محیطة لهٰذا الجسم أیضًا ، فمن صفات المتحیز أنهٗ محاط بهٖ ، واللّٰه عزوجل غیر محاط بهٖ ، تعالٰی اللّٰه عن ذٰلک وفی القرآن: ﴿اَلَآ اِنَّهٗ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيْطٌ﴾ (حم سجدة:٥٤) فمن یحیط بکل شیء ، فلایکون محاطا بهٖ من أي شيء ، ثم إحاطته لاتشبه إحاطة المخلوق بالمخلوق فلایکون کالسؤر للبلد محیط بالبلد؛ لأنهٗ لیس کمثلهٖ شیء ، وهو السمیع البصیر ، فهو محیط بکل شیء کما یلیق بشأنهٖ ، ثم لوکان إحاطته کالسؤر المحیط ببلدهٖ لماکان محیطا بکل شيء؛ لأنهٗ یؤدی أن یکون هو فی الحیز المحیط بکل شيء ، فصار غیر محیط بهٰذا الحیز المحیط ، ثم کونه فی الحیز یؤدی إلی أن تکون لهٗ صفات الأجسام من قیاس ومقادیر؛ لأن الحیز لهٗ قیاس ومقدار یقاس ویقدر بحدودهٖ ، فکذٰلک المتحیز الذی فی هٰذا الحیز ، ونحن قد أبطلنا أن یکون للّٰه قیاساً ومقدارا ، تعالٰی اللّٰه عن ذٰلک ، فثابت أنهٗ لیس فی حیز ، فلایتمکن فی مکان ، ونحن نتکلم عن هٰذا فیما بعد بالتفصیل إن شاء اللّٰه عزوجل.

فحاصل الکلام أن اللّٰه تعالٰی لیس جسما فلا تکون لهٗ صورة ولاترکیباً وغیرها من صفات الأجسام وماورد فی الحدیث "إن اللّٰه خلق آدم علٰی صورته." (صحیح ابن حبان، ح:٥٧١٠) فمعناه عند أهل السنة یعنی علٰی صورة آدم یعنی خلقه بدون أن یتطور من النطفة إلی العلقة وإلی المضغة ،

وثم يكون صبيا ، ثم يتكبر ، حتى يكون رجلا فهذه الأشياء العادية التى يمر بها الإنسان فى العادة لم تحصل فى حق آدم عليه السلام، بل خلقه الله تعالى وكان رجلا ستون ذراعا فى السماء من البداية وما ورد فى الحديث ذكر الصورة عن الله فى أحوال الآخرة ، فهو مؤول عند أهل السنة بصفة ، ولله تعالى صفات الكمال ، وهذا التفسير لحديث ليس بعيداً قطعا ، والله ورسولهُ أعلم بمراد كلامهما والحاصل أن الله عزوجل تعالى وتقدس أن يكون جسما مركبا مصورا ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

(٢) الله عزوجل ليس بذى أعضاء وجوارح: والكلام فى هذا الموضوع كمثل كلام فى الموضوع السابق ، فدلائل التى ذكرنا فى الموضوع السابق مطردة فى هذا الموضوع أيضا لإثباته؛ لأنهُ لايكون ذوأعضاء وجوارح إلا جسما مركبا ، وهذا من الضرورة؛ لأن الجسم متركب الأجزاء ، وهذه الأجزاء كمثل أعضاء وجوارح لهُ ، ثم ذوأعضاء وجوارح محتاج إلى أعضائه وجوارحه ، والله عزوجل غير محتاج إلى شيء وإيصافه بالأعضاء والجوارح والأجزاء والأركان والدوات يؤدى إلى احتياجه ، وهذا ينافى كونه الله عزوجل وكونه غنيا على الإطلاق ، وفى القرآن ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٦٣) ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ (الأنعام:١٣٣) فلايحتاج إلى الأعضاء والجوارح والأدوات ، وقد نُسب إلى ابن تيمية أنهُ أجاز فى حق الله تعالى افتقار الكل إلى الجزء، وهذا كفر بواح يؤدى إلى الجسمية والتركيب والاحتياج وغيرها من الأشياء من صفات الأجسام، والعبد الضعيف الراقم الحروف لم يطلع نفسه على كلام ابن تيمية فى هذ الموضوع على هذا المنوال ؛ يعنى على افتقار الكل إلى الجزء فى حق الله تعالىٰ ، لكن بمشاهدة أتباع ابن تيمية يصل إلى النتيجة أن هذا الموقف يعنى التجزى وافتقار الكل إلى الجزء فى حق الله تعالى ليس ببعيد منهم؛ لأن كثير منهم يصرحون أن الله ذوأعضاء وجوارح ، ثم يقولون: ليس كمثلنا ومنهم لايستخدمون هذه الاصطلاحات ، يعنى الأعضاء والجوارح فى حقه نفيا أو إثباتا ، لكن لو تغور على عقيدتهم لتعلم أنهم يعتقدون أنهُ ذوأعضاء وجوارح بدون هذا التصريح ، ثم يقولون: ليس كمثلنا ، والحق أن عقيدة الجسمية منتشرة بينهم، ولامجال للإنكار لهذا الشيء ، وإنهم ينكرون هذه النسبة إليهم ، وهذا كلهُ يقول العبد الضعيف بمشاهدة من نفسه ، والجهل فيهم غالب ، وهو الجهل المركب يعنى لا يعلمون ولا يعترفون بجهالتهم ، ومشائخهم فهم قد أضلوهم فى هذا المجال ضلالا بعيدا ، ويكتبون فى كتبهم أن لله عين حقيقية وساق حقيقية . . . الخ وكذلك على نفس المنوال ، ثم العوام يقرؤن هذه الكتب ويفهمون على حسب فهمهم ، ويبلغون إلى المبالغ المختلفة بين التشبيه بالصراحة وبغير الصراحة ، ونحن قد بيّنا أن الله عزوجل غير متجزى وغير متركب ، وليس جسما ، ولالهُ صفات

الأجسام . وهنا نحن نذكر بعض الأمور الأخرىٰ ، وهو نحن قد ذكرنا أنهٗ لايجوز إطلاق الصفات والأسماء على اللّٰه تعالىٰ بدون القرآن و السنة و الإجماع ، والأعضاء والجوارح لايثبت إطلاقها عليه تعالىٰ بالقرآن أوالسنة أوالإجماع قطعا وبتاتا ، فلا يجوز إطلاق هٰذه المصطلحات عليه تعالىٰ ، ثم لو كان اللّٰه ذا أعضاء وجوارح فمثلايرى بعضو العين (نعوذباللّٰه من ذٰلک) فهذ الشيء يؤدى إلى أن صفة الرؤية ثابتة فقط لعضو العين منه ، والباقى منه أعمى (تعالىٰ اللّٰه عن ذٰلک) كمثل الإنسان لو ضاع عنه العين يصير أعمى ، وكذٰلک الكلام فى صفات أخرى ، وهٰذا يؤدى إلى الإثبات لصفات النقص للّٰه تعالىٰ ، وهٰذا كفر بواح ، وكذٰلک لو كان ذا أعضاء وجوارح لكان محتاجا إلىٰ هٰذه الأعضاء والجوارح ، مثلا لوكان يرى بعضو العين ، فيكون الباقى منه دون العين والعين نفسه محتاجا إلى العين لصفة الرؤية ، وهٰذا نقص كبير يخالف ألوهيّتهٗ وربوبيتهٗ ، وفى تعبير آخر يخالف كونه اللّٰه تعالىٰ ، وفى القرآن: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ (محمد:٣٨) ونفى عن نفسه فقرا و احتياجا على الإطلاق ، وأثبت لنفسه الغنى المطلق ، وكذٰلک لو كان ذا أعضاء وجوارح ، فكان متركب الأجزاء ، ثم إما جميع أجزائه متصفة بصفات الكمال بالاستقلال مثلا متصفة بصفة الإرادة بالاستقلال ، ففى هٰذا بعض منها قد يريد شيئًا، وبعض منها قد يريد شيئًا آخر الذى يناقض الشيء الأول ، فيصير التناقض ، فإما بعض منها ينجح ويفوق فى هٰذه الصورة ، فصارت الباقية خاسرة نعوذباللّٰه ، وهٰذا لايليق باللّٰه أولم ينجح أي منها ، فكل منها يخسر فى ما أراد وهٰذا لايليق باللّٰه أواصطلحوا كل منها علىٰ أمر ، وهٰذا الاحتياج إلى الاصطلاح يدل على الحاجة والضعف ، ولايليق باللّٰه تعالىٰ أو إماجميع أجزائه متصفة بصفات الكمال فى حال اجتماعها ، وليس كل واحد منها بالاستقلال متصفة بصفات الكمال ، ففى هٰذه الحالة الأجزاء مفتقرة إلى الباقية والكل مفتقر إلى جميعها ، وهٰذا الحاجة والافتقار لايليق باللّٰه ، وأيضًا جميع أجزائه متصفة بنقص؛ لأنها لاتكون متصفة بصفات الكمال إلافى حالة الاجتماع ، والنقص لايليق باللّٰه أوإما بعض أجزائه متصفة بصفات الكمال دون البعض ، ففى هٰذه الصورة يكون البعض الذى غير متصف بصفات الكمال متصف بصفات النقص ، والنقص لايليق باللّٰه ، وكذٰلک ليس البعض منها أولى أن يكون متصفا بصفات الكمال من البعض الآخر ، فهٰذا يؤدى إلى احتياج المخصص حتىٰ يخصص بعضا منها لصفات الكمال دون البعض ، وهٰذا يؤدى أن يكون اللّٰه حادثا مخلوقا –ونعوذباللّٰه من ذٰلک– فالمتركب بالأعضاء والجوارح لايكون خالقا أزليا، بل يكون مخلوقا حادثا لحاجته إلى المخصص والمركب؛ لأن التركيب بالأعضاء والجوارح مختلفة ، فلابد من المخصص المركب من يخصصه بتركيب ما، فيركبه علىٰ هٰذا ، وتعالىٰ اللّٰه عن ذٰلک.

فالحاصل أن دلائل النقلية والعقلية كلها تدل على القطع أن اللّٰه عزوجل ليس بذى أعضاء وجوارح ،

فلهذا قال الإمام الطحاوي "وتعالى الله عن الحدود والغايات والأعضاء والأركان والأدوات لاتحويه الجهات الست كسائر المبتدعات" وستأتى هذه الفقرة ؛ لأنها فى هذا الكتاب الذى نحن الآن نشرحه.

ثم اعلم أن ماوردت فى القرآن والأحاديث من الصفات المتشابهات والمتشابه إما معناه ومراده ليس واضحا؛ لأنهٗ غير مفهوم على الإطلاق لنا كمثل "الٓمٓ" أولأن ظاهره لايجوز فى أصول الدين؛ لأنهٗ يناقضها مثلا ﴿الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوٰى﴾ (طٰه:٥) فمن زمان السلف الصالح العلماء إما أوّلوه أو إماتركوا التأويل وفوّضوا مراده إلى الله عزوجل مع التيقن أن ظاهره غير مراد ، وماقيل إن السلف الصالح ماكانوا يؤوّلون ، فهٰذا غير صحيح قطعا وبتاتا؛ لأن التأويل قد ثبت من السلف الصالح فى بعض الصفات ، ونحن نذكر بعضا منها إن شاء الله العزيز فى قليل فيما بعد.

الأن نذكر أمرا مهما هو أن العبدالضعيف شاهد من أتباع ابن تيمية أنهم يسفّهون الناس ، فإذا ثبت تاويل بعض الصفات من السلف الصالح مثلا فى قوله تعالٰى ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَّيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (الرحمٰن:٢٧-٢٨) فقال ابن عباس رضي الله عنهما الوجه عبارة عنه عزوجل ، فثبت التأويل للوجه عن ذات الله تعالٰى عن السلف الصالح ، فأتباع ابن تيمية فى هذه الصورة وأمثالها يخدعون الناس ، ويقولون لهم: إنهٗ لم يقل ابن عباس رضي الله تعالٰى عنهما إنهٗ ليس لهٗ صفة مستقلة "الوجه"، بل فقط قال: "الوجه عبارة عنه عزوجل" وهٰذا خداع منهم يخدعون عوام الناس به؛ لأنهٗ قد ثبت نسبة الوجه إلى الله تعالٰى فى القرآن ومن ينكر هٰذا فقد كفر بالله عزوجل ، ثم المعلوم أنهٗ ليس فى معنى الصورة والأعضاء والجوارح لما بيّنا قبلا ، فإما يقال: إن لهٗ صفةً تقال "الوجه" كما لهٗ صفة العلم والإرادة ، وهوليس فى معنى الصورة والأعضاء، بل كما يليق بشانه ، وهٰذا مذهب بعض العلماء أو إما يؤول "الوجه" علٰى شيء آخر يليق بالله عزوجل بتاويل مقبول فى دائرة اللغة العربية ، وهٰذا مذهب بعض العلماء فى هٰذه الصفة ، فأوّلوا الوجه علٰى وجوده وذاته تعالٰى ، وقد ثبت هٰذا من ابن عباس رضيَ الله تعالٰى عنهما ، فإذا هو أول "الوجه" ، فهو لايقول إنهٗ ليس لهٗ وجه، بل يقول إن لهٗ وجه ، وهو وجوده تعالٰى . فخذ حذرك من هٰذا الخداع من أتباع ابن تيمية الذى فى غلبة ظنى جاء من قبل ابن القيم تلميذ ابن تيمية ، فإذا نرىٰ أن واحدا من السلف الصالح أوّل الآية أو الحديث فى الصفات المتشابهات لله تعالٰى ، فلا يعنى أنهٗ ينكرها قطعا وبتاتا، ولايعنى أنهٗ يقول إن لهٗ هٰذه الصفة فى ظاهر المعنى؛ لأنهٗ لو كان هٰذا عنده على الظاهر لما أولها، بل عند ما هو أولها ، فكأنهٗ يقول إن لله هٰذا الشيء فى هٰذا المعنى الذى هو أعطاها فى تاويلها [1] فافهم. ثم فى الآيتين اللتين ذكرنا

---

(١) وهٰذا تاويل بكونه احتماليا؛ لأن علم معناه باليقين عنده تعالٰى.

لايعنى حتى عند العلماء الذين يثبتون لله تعالى صفة مستقلة "الوجه" أنهٔ لايبقى إلا هذه الصفة (لاحول ولاقوة إلا بالله) هذا لايجوز ، تعالى الله عن الفناء، بل معنى فى هذه الآية حتى عندهم أنهٔ يبقى ذات ربک الذى لهٔ صفة الوجه ذو الجلال والإكرام ، ثم الأن نذكر بعض التأويل ورد من بعض السلف فى هذه الصفات.

(۱) العين: قولهٔ تعالٰى ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ (هود:۳۷) ، قال الربيع بن أنس "بحفظنا إياک حفظ من يراک" وقال ابن عباس رضي الله تعالٰى عنهما "بحراستنا" وقال الضحاک وسفيان "بعلمنا" كذا فى التفسير للقرطبي ، ثم معلوم أن العين ليس عضوا فى حق الله تعالٰى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَّهُوَ السَّمِيْعُ الْبَصِيْرُ﴾ (الشورى:۱۱)

(۲) الوجه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهٗ﴾ (القصص:۸۸) قال ابن عباس رضي الله تعالٰى عنهما: "الوجه عبارة عنه عزوجل" وقال مجاهد معناه " إلا هو" وقال أبوالعالية وسفيان: "إلا ما أريد به وجهه" أي مايقصد إليه بالقربة ، وهذا التأويل لابن تيمية أيضًا فى هذه الآية ، فهو نفسه أوّل هذه الآية، وقال محمد بن يزيد حدثني الثوري قال: سألت أبا عبيدة عن قوله تعالٰى ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهٗ﴾ (القصص:۸۸) فقال: "إلاجاهه كما تقول لفلان وجه فى الناس" أي جاه ، ثم المعلوم أن ليس معنى الآية بالإجماع أنهٔ كل شيء هالک إلاماهو وجهه فقط؛ لأن الله ذاته باقى ودائم على الإطلاق ، لافناء لوجوده ، فلهذا ابن عباس ومجاهد، بل أكثر العلماء قالوا: إن الوجه عبارة عن ذاته ، ومن أوّلهٔ بشيء آخر أوترک التأويل وفوّض معناه إلى الله فهو أيضًا لايقول: إن كل شيء هالک إلا ماهو وجهه فقط؛ لأن الله دائم باقى غير فانى على الإطلاق ، وأيضًا من أثبت من أهل السنة صفة الوجه المستقلة لله تعالٰى فهو يعتقد أن وجهه ليس تعبيراً عن الشكل والصورة والعضو والجزء ، تعالٰى الله عن ذٰلک ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَّهُوَ السَّمِيْعُ الْبَصِيْرُ﴾ (الشورى:۱۱)

(۳) الجنب: قولهٔ تعالٰى ﴿أَنْ تَقُوْلَ نَفْسٌ يَّا حَسْرَتَا عَلٰى مَا فَرَّطْتُ فِيْ جَنْبِ اللّٰهِ﴾ (غافر:۵۶) قال الحسن فى "طاعة الله" قال الضحاک فى "ذكرالله عزوجل" ، قال أبوعبيدة: "فى ثواب الله".

(۴) الساق: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ (القلم:۴۲) قال ابن عباس رضي الله تعالٰى عنهما: "عن كرب وشدة" وقال مجاهد: "شدة الأمروجدّهٔ" وقال أبوعبيدة: "استعارة عن موضع الشدة."

(۵) يدين: قولهٔ تعالٰى عن آدم عليه الصلوٰة والسلام ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (ص:۷۵) قال مجاهد: "اليد ههنا بمعنى التأكيد والصلة مجازه لما خلقت أنا ، كقوله تعالٰى ﴿وَيَبْقٰى وَجْهُ رَبِّکَ﴾ (الرحمٰن:۲۷) اي يبقى ربک" وعند جمهور السلف ونحن معهم "اليدين" صفتين من صفات الله تعالٰى ليستا جارحتين ، تعالٰى الله عن ذٰلک؛ لأنهٔ لو كان معناه الصلة والتاكيد كما قال مجاهد أو

القدرة والملك والنعمة كما عند كثير من المعاصرين، لاشترك حينئذ بين ولي الله ونبيه آدم عليه السلام وعدوه إبليس، ويبطل ما ذكر من التفضيل عليه لبطلان معنى التخصيص، فلم يبق إلا أن يحمل على صفتين تعلقتا بخلق آدم عليه السلام تشريفا له دون خلق إبليس تعلق القدرة بالمقدور، لا من طريق المباشرة ولا من حيث المماسة ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢) ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٥٩) ولا يجوز قطعا ومثلنا أن يحمل على الجارحة؛ لأنه كفر في حق الله تعالى كما ينساقنا. وفي الحديث "كلتا يديه يمين." (صحيح مسلم، ح:٤٨٢٥) فإذا كانتا كلتا يديه يمينا، فهذا بالفور العميق يدل على نفي الجهة والجسمية في حق الله تعالى؛ لأن لنا يدين يمين وشمال؛ لأنا نحن جسم متحيز محوي بالجهات الستة، والله عزوجل تعالى عن الجسم والتحيز والجهات، فكلتا يديه يمين؛ لأن يمينه ليس بمقابل الشمال؛ لأنه لا يتعلق بالجهات ولهذا كلتا يديه يمين، فيمينه عبارة عن القوة كما يدل عليه اللغة، وكلتا يديه يمين؛ لأنه تعالى ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (الذاريات: ٥٨) ولا يليق به الضعف، وفي القرآن ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الملك: ١) والتبارك تفاعل من البركة، والبركة أيضا من معنى اليمن وفي حق الله تعالى معنى "التبارك" تعالى وتعاظم، ومعنى البركة: الكثرة والاتساع، والله ذو وسعة وكثرة يرزق من يشاء بغير حساب، فافهم.

(٦) المجيئة والإتيان: قوله تعالى ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ (الفجر: ٢٢) قال الحسن: أمره وقضاؤه، وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ (البقرة: ٢١٠)، قال الإمام أحمد بن حنبل: إتيانه إتيان أمره تعالى، وهذا التأويل ثابت عن هذا الإمام بطريقة صحيحة، ثم الآن نذكر من تفسير قرطبي بيان جميل عزيز في تفسير هذه الآية، قال الإمام القرطبي: "وقد يحتمل أن يكون معنى الإتيان راجعا إلى الجزاء، فسمى الجزاء إتيانا، كما سمى التخويف والتعذيب في قصة نمروذ إتيانا، فقال عزوجل: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ (النحل: ٢٦) وقال في قصة النضير: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ (الحشر: ٢) وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ (الأنبياء: ٤٧) وإنما احتمل الإتيان هذه المعاني؛ لأن أصل الإتيان عند أهل اللغة هو القصد إلى الشيء، فمعنى الآية: هل ينظرون إلا أن يظهر الله تعالى فعلا من الأفعال مع خلق من خلقه يقصد إلى مجازاتهم ويقضي في أمرهم ما هو قاض، وكما أنه سبحانه أحدث[1] فعلا سماه نزولا واستواء، كذلك يحدث فعلا يسميه إتيانا، وأفعاله بلا

---

(١) هذا حسب مذهب الأشاعرة والقرطبي أشعري فعندهم أفعال الله تعالى حادثة مخلوقة عبارة عن تعلقة لصفة القدرة والكلام والإرادة بالعالم، فالفعل ليس عندهم صفة أزلية مستقلة، بل عبارة عن تعلقة الصفات التي ذكرنا وعندنا الأحناف فعل الله من صفاته الأزلية كما قال أبو حنيفة: "وفعل الله صفة في الأزل، والمفعول حادث مخلوق" ومذهبنا صحيح قوي حسب القرآن والسنة، ونحن إن شاء الله العزيز نتكلم عن هذه الأمور بالتفصيل فيما بعد.

آلة ولاعلة ، وقال ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما في رواية أبي صالح هذا من المكتوم الذي لايفسر ، وقد سكت بعضهم عن تأويلها ، وتأوّلها بعضهم كماذكرنا ، وقيل: الفاء بمعنى الباء أي يأتيهم بظلل ، ومنه الحديث "يأتيهم الله في صورة" أي بصورة امتحانا لهم ، ولايجوز أن يحمل هذا وما أشبهه مماجاء في القرآن والخبر علىٰ وجه الإنتقال والحركة والزوال؛ لأن ذٰلك من صفات الأجسام والأجرام، تعالىٰ الله الكبير المتعال ذوالجلال والإكرام عن مماثلة الأجسام علوا كبيرا ، انتهى كلام القرطبي.

(٧) النور: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمٰوٰتِ وَ الْأَرْضِ﴾ (النور:٣٥) والمعلوم بالقطع عند إجماع المسلمين أنهٗ ليس معنى النور في هٰذه الآية النور المعهود ، يعني الضوء الذي نراه ، وهٰذا معلوم لايختلف فيه مسلم من المسلمين؛ لأنهٗ يكون كفرا بالله عزوجل ، وعبادة الأجسام المخلوقة من الأجرام الفلكية ، هٰذا لاخفاء فيه . ثم اختلف في معناه ، فقال مجاهد والزهري وغيرهما يعني به وبقدرته استقامت أمورالسمٰوات والأرض ، قال ابن عرفة: منور السمٰوات والأرض ، وكذا قال الضحاك والقرطبي ، وقال أبي بن كعب والحسن وأبو العالية : مزين السمٰوات بالشمس والقمر والنجوم ومزين الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين ، وقال ابن عباس وأنس رضي الله تعالىٰ عنهم: المعنى الله هادي أهل السمٰوات والأرض ، وقولهٗ تعالىٰ عن يوم القيامة ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ (الزمر:٦٩) قال الحسن وغيره : بعدل ربها ، وقال الضحاك: بحكم ربها ، وقال ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما: يخلق الله نورا فيضئ به الأرض (كما خلق نورالشمس والقمر) فإضافة النور إليه علىٰ حد إضافة الملك إلى المالك.

(٨) القربة: الحديث رواه الترمذي في جامعه عن أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم: "يقول الله تعالىٰ: أناعند ظن عبدي بي ، وأنامعه حين يذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن اقترب إليَّ شبرا اقتربت منه ذراعا و إن اقترب إليَّ ذراعا اقتربت إليه باعا و إن أتاني يمشي أتيته هرولة" قال أبوعيسىٰ الإمام الترمذي: هٰذا حديث حسن صحيح ويروى عن الأعمش في تفسيرهٰذا الحديث: "من تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا" يعني بالمغفرة والرحمة ، وهٰكذا فسربعض أهل العلم هٰذا الحديث ، قالوا: إنما معناه يقول: إذا تقرب إلي العبد بطاعتي وبما أمرت تسارع إليه مغفرتي ورحمتي . انتهٰى كلام الترمذي. (ح:٣٦٠٣)

قال العبد الحقير: هٰذا التأويل في هٰذا الحديث كما ذكرالإمام الترمذي قديكون سائغا في حديث النزول أيضًا ، وهو الحديث عن أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه أن رسول الله صلى الله تعالىٰ

عليه وسلم قال: "ينزل ربنا تبارك وتعالى حين يبقى ثلث الليل الآخر كل ليلة فيقول: من يسألني فأعطيه، من يدعوني فأستجيب له، من يستغفرني فأغفر له، حتى يطلع الفجر." (سنن ابن ماجه ح:١٣٦٦) فيكون معنى الحديث تسارع الإعطاء والاستجابة والمغفرة قياسا على التأويل السابق الذي ذكرنا من الإمام الترمذي عن بعض أهل العلم، وهذا ليس بعيدا؛ لأنه في حديث آخر يقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم "أقرب مايكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن" حديث حسن صحيح غريب. (سنن الترمذي ح:٣٥٧٩) والقربة من الله ليس قربة جسمانية تتعلق بالمسافة عند إجماع المسلمين، وقال أبوحنيفة رحمه الله تعالى: "ليس قربه وبعدهُ من المسافة، بل على معنى الكرامة والهوان" (الفقه الأكبر) وفي القرآن: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾(الأعراف:٥٦) ومن قبيل هذا الحديث الحديث: "أقرب مايكون العبد من ربه وهوساجد، فأكثروا الدعاء." (صحيح مسلم، ح:٤٨٢) وهذا في الليل والنهار؛ لأن القرب من الله لايتعلق بالمسافة، فالحاصل عند ما يكون عبدا ساجدا لربه في وقت ما من الليل والنهار ماعدا الأوقات المكروهة فيتسارع رحمة الله إليه والقبول أكثر من إذا لايكون ساجدا وكذلك في جوف الليل الآخر يتسارع منه العطاء والقبول والمغفرة أكثر من غيره من الأوقات، ثم السجدة فعل من العبد بإرادته [1] فعبّر القربَ بالقربِ للعبد من ربه وفي جوف الليل الآخر، ففضل محض من الله تعالى بدون فعل العبد بخياره، فعبّر في الحديث بقرب الله تعالى من العبد، وفي الحديث الآخر عبر عن هذا القرب بالنزول. فافهم! وهذا تفسير ليس ببعيد، بل اصلهُ ثابت عن أهل العلم من المتقدمين، كما ذكر الإمام الترمذي في بيان السابق.

ثم هناك تفسير آخر لهذا الحديث عن صفة النزول، وهو مؤيد بحديث آخر، ورد في كتاب النسائي عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله تعالى عنهما، قالا: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: "إن الله عزوجل يمهل حتى يمضي شطر الليل الأول ثم يأمر مناديا يقول: هل من داع يستجاب له، هل من مستغفر يغفرلهُ، هل من سائل يعطى." (السنن الكبرى، ح:١٠٢٤٣) وهذا حديث صحيح ذكره القرطبي في تفسير سورة المزمل، فعلى هذا فيكون الملك المنادى هو النازل وينادى، وهذا ليس بعيدا؛ لأنهُ يقال في اللغة أن الملك ينادى بهذا في مملكته، وليس المعنى هو نفسه ينادى، بل هناك مناديون ينادون بأمره، فنسب الفعل إليه؛ لأنهُ بأمره، وروي عن الإمام مالك في حديث النزول أنهُ هو أمره الذى ينزل، وأما هو نفسه فهو لايتغير ولايتحرك ولاينتقل. (انتهى)؛ لأنهُ لايتمكن في مكان ولايجرى عليه زمان، والتغير والإنتقال من صفات الأجسام، وتدل على

---

(١) هذه من اللطائف التى فتح الله تعالى عليّ فذكرتها احتماليا، فالله والرسول صلى الله عليه وسلم أعلم بمرادها.

الحدوث تعالىٰ الله عن ذٰلک ، وروى الإمام البيهقي عن التابعي حماد بن زيد أن نزول الله إلى السماء الدنيا قربه إلى عباده ، انتهى. ونحن قد بينا معنى القرب في حق الله تعالىٰ ، ثم المعلوم أن النزول في الحديث ليس علىٰ معنى الإنتقال من الأعلىٰ إلى الاسفل ، تعالىٰ الله عن ذٰلک ، هو لا يحويه مكان ولايجرى عليه زمان ولايقوم به الحوادث ، ونحن بينا هٰذا قبلا. ونزول الأمر أي نزول الملک بالأمر.

الأن نذكر شيئًا دقيقا إن شاء الله العزيز هو أن المعلوم هناک دائما في مكان ما من الكرة الأرضية يكون آخر الليل ، هٰذا معلوم من المشاهدة؛ لأن لو في بعض الأماكن من الكرة الأرضية يكون نهارا وفي نفس الوقت في الأماكن الباقية يكون ليلا ، فالليل والنهار في الكرة الأرضية يتناوبون فينتقلون من مكان إلى مكان ، فدائما في مكان ما من الكرة الأرضية يكون آخر الليل؛ لأنهٗ لا ينعدم بالكلية من الكرة الأرضية، بل ينتقل من مكان إلى مكان ، فإذا ثبت هٰذا ، فتكون صفة النزول تتعلق بالمكان الذى فيه وقت آخر الليل ، ثم تتعلق بالمكان الذى فيه وقت آخر الليل ، وكذٰلک كما وقت آخر الليل ينتقل من مكان إلى مكان في الكرة الأرضية ، ولاينعدم هٰذا الوقت بالكلية منها ، فكذٰلک تتعلق صفة النزول ينتقل من مكان إلى مكان مع هٰذا الوقت لِلّيل ، فإذا ثبت هٰذا ، فكيف يكون معنى صفة النزول الانتقال من المكان الأعلىٰ إلى المكان الأسفل ، وهي ثابت دائميا ، فيكون الله تعالىٰ نازلا بصفة النزول دائميا كما وقت آخر الليل دائميا في مكان دون مكان من الكرة الأرضية ، فإذا كانت صفة النزول دائميا ، فعلىٰ عقيدة أن صفة النزول مكانية لايكون الله في المكان الأعلىٰ حتىٰ ينزل منه ، وهٰذه المناقضات تكون في عقيدة من لايعرف ربهٗ تعالىٰ ، فحاصل الكلام من يعتقد أن العرش مكان الله (نعوذ بالله) وهوينزل منه بمعنى الانتقال إلى سماء الدنيا (نعوذبالله) ونحن قد بينا من قبل فساد هٰذه العقيدة ، ومع ذٰلک كما قلنا: إن وقت آخر الليل دائميا في الكرة الأرضية في مكان دون مكان ، فصفة النزول دائميا في مكان دون مكان ، فالله تعالىٰ نازل دائميا[1] فلايكون على العرش ولاينزل؛ لأنهٗ نازل من قبل ، وهٰذا الهذيان يكون في عقيدة من يثبت لله مكانا وانتقالا ، وهٰذا كفر في حق الله عزوجل؛ لأنهٗ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، وهٰذه العقيدة تشبه الوثنية ؛ لأنهم يذهبون إلى مكان معين ، وفيه آلهتهم كمايزعمون فيعبدونهم ، وتعالىٰ الله عن ذٰلک ، فمن آمن وأسلم لله تعالىٰ وكسر الوثنية والجسمية ، ففهم واعتقد أن الله عزوجل لايتمكن في مكان ولايجرى عليه زمان ولايتصف بالانتقال والزوال ولا تحويه الجهات فهو مؤمن أنهٗ مستوى على

(١) يعني على عقيدة من يثبت لله مكانا (نعوذ بالله)

عرشه وينزل إلى سماء الدنيا وأقرب إلى العبد من حبل الوريد ، وهوعلى كل شيء شهيد ، والشان لايشغلهٔ عن الشان ، فالاستواء لاينافى النزول ولابالعكس والقرب إلى العبد لاينافى العلو ، ولابالعكس ، فهو قريب فى علوه ، وعلى فى دنوّه كما يليق بشانه ، وهو فوق كل شيء بفوقية لاتزيده قربا من العرش والسموات ولابعدا من الأرض وما تحت الثرى؛ لأنهٔ ليس فى مكان دون مكان، بل تعالى وتنزه عن مكان ، كما تقدس وتنزه عن زمان محيط بكل شيء ، ولايحيطه أي شيء ، وهو على كل شيء قدير.

(٩) ثم اعلم أن البيان فى التأويل وسيع جدا ، وفى الجملة مهما من الصفات والأفعال التى وردت فى القرآن والحديث التى لايمكن إيصافها إلى الله تعالى على ظاهرمعناها ، فهي مؤولة عن ظاهرها ، ثم إما تأويل على حسب اللغة العربية أو إما تفويض إلى الله تعالى ، مثلا قولهٔ تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (المائدة:٥٤) ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (آل عمران: ٣١) فالحب عبارة عن ميلان إلى شيء والشهوة والاشتياق إليه ، وهذا يدل على الحاجة والله سبحانهٔ وتعالى غني عن العالمين ، كما قال فى القرآن ، فلهذا العلماء قالوا: إن المعنى لهذه الصفة وما أشبهها فى حق الله تعالى محمولة على الغايات لهذه الصفات ، فمثلا فى حق الحب والفرح والرحمة ، فهذه الصفات فى حق الإنسان يدل على حدوث التغير فى نفسه من ميلان القلب إلى شيء أو انتفاع من شيء ، كما فى الرضا والفرح؛ لأنهٔ عبارة عن حصول الاطمئنان والإحساس الجميل المبتغى أو حدوث الحاجة إلى دفع التأسف والرقة بالرحمة على المتأسف والمرقوق عليه ، فكل هذه الأشياء عبارة عن الاحتياج والله تعالى عن ذلك ، ثم جميع الأشياء لهٔ وبقدرته وبإرادته ، فمن فعل شيئًا الذى يأتى بحب الله ورضاه ورحمته يعنى اتباع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فهو بعلم الله وإرادته وقدرته وخلقه ، فكل شيء خلقه ويحتاج إليه تعالى وهولايحتاج إليه ، فالعلماء قالوا أن ينظر إلى غايات هذه الصفات وهو عبارة عن القبول والثواب والإنعام ، فقالوا: هذه الصفات فى حق الله تعالى عبارة عن قبوله لهذا الشخص وثوابه وإنعامه وغيرها من الأشياء التى تشبهها . وكذلك قالوا ، فصفة الغضب أنها عبارة عن عدم قبول المغضوب وعقابه وعذابه وغيرها من الأشياء التى تشبهها؛ لأن الغضب فى الحقيقة عبارة عن حدوث التغير فى النفس لوجود الشيء لايريده ، والله تعالى لايقوم به التغيرات؛ لأن التغير حادث ، والله تعالى عن الحدوث كمابينا سابقا ، وأيضًا لايكون إلا مايريد كائنا ماكان ، فغضب فى حقه محمول على غايته ، وكذلك الكلام فى صفات أخرى من أشباهها وبعض الأحيان تذكر الصفة فى حق الله تعالى ، وهي فى الحقيقة راجعة إلى الخلق ، مثلا قولهٔ تعالى : ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ (الرعد:٥) والتعجب فى حق الله تعالى لايجوز؛ لأنهٔ عبارة عن تغير النفس بحدوث الاستعظام لوقوع الشيء غير

المتوقع لهُ، والله لايقوم به التغير والحوادث، وكل شيء لهُ وبعلمه وقدرته وإرادته الأزلية، فوجود الشيء غير المتوقع لهُ للّٰه لايجوز؛ لأنهُ عليم بكل شيء من الأزل، وكذٰلك مريدها من الأزل، وكذٰلك يخلقها علىٰ حسب علمه وإرادته الأزلية، فمعنى الآية أنهُ هٰذا الشيء ينبغى أن يكون عجبا عندكم لركاكته وسفاهته، والآية: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ءَ إِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِىْ خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰئِكَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِىْ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُوْنَ﴾(الرعد:٥)

الحمدللّٰه رب العلمين، نحن ذكرنا أمورا كثيرة فى هٰذا الباب وعامتها من السلف الصالح كما صرحنا، والسبب حتىٰ تعلم أن التأويل فى الصفات المتشابهات كان من زمان الصحابة رضي اللّٰه تعالىٰ عنهم، وليس حادثا بعد زمان السلف الصالح، كما يزعمون أتباع ابن تيمية ويسفهون الناس ويخدعونهم، ثم من يمر علىٰ الصفة التى لاتليق بشانه تعالىٰ علىٰ ظاهر المعنى، ونحن لم نذكرها هنا، فليراجع علماء أهل السنة والجماعة ويجتنب هٰذه الفرقة التى تدعى أنها "سلفية" كاذبة؛ لأنها تشبه اللّٰه بخلقه فسؤال منهم عن صفات اللّٰه تعالىٰ يؤدى إلى البدعة والضلال. ثم من يترك التأويل (لصفات من المتشابهات) ويعتقد أن اللّٰه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير وليس بذى أعضاء وجوارح وأجزاء وأركان وأدوات، ولايتمكن فى مكان ولايجرى عليه زمان، ولايقوم به العوارض والتغير والحوادث، ولايتصف بصفات تؤدى إلى الاحتياج والشهوة، فمذهبه صحيح، بل قوىّ ومأثور من السلف الصالح، لكن ليس من كلهم كما ذكرنا من التأويلات المأثورة منهم، فهو يعتقد فى التقدس والتنزه للّٰه تعالىٰ كماذكرنا، ويفوض معانى لهٰذه الصفات إلى اللّٰه تعالىٰ ويعتقد أن ظاهرها غير مراد؛ لأنهُ لايليق باللّٰه تعالىٰ ولأنهُ من تأول فتأول علىٰ عقيدة الظن، وليس علىٰ عقيدة القطع؛ لأنهُ لايمكن؛ لأن المعانى لهٰذه الصفات على القطع عنداللّٰه تعالىٰ، فلايمكن حصولهُ إلا بالوحي وهومختص بالأنبياء عليهم الصلوات والسلام، ونبينا صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم كان آخرهم على القطع، فتاويل من العلماء لهٰذه الصفات على الظن، وليس على القطع، فافهم.

ثم فى كثير من الأماكن لابد من تأويل؛ لأن بدونه يؤدى إلى الكفر، فلايمكن تركهُ وتفويضهُ، ونحن الأن نذكر من هٰذا إلزاما علىٰ ابن تيمية وأتباعه.

قال العبد الحقير الضعيف غفراللّٰه لهُ: إنهُ شاهد أتباع ابن تيمية يخدعون الناس ويتخدعون فيقولون. إن القرآن والحديث فى اللغة العربية حتىٰ نفهمهما، فإذا ورد فيهما ذكر الصفات والأفعال للّٰه تعالىٰ فلابدمن أخذها كما ورد؛ لأنهُ لو أراد اللّٰه ورسولهُ صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم المعانى الأخرى غير الظاهرة لهٰذه الصفات لما ذكرها هكذا، بل ذكرها بالكلمات التى تدل علىٰ هذه

المعانى الأخرى ، ثم أخذها كما ورد ليس فى معنى التفويض والتنزيه عندهم، بل أخذها كما ورد يؤدى إلى النتائج المختلفة ؛ لأنهم أصناف شتّٰى كما ذكرنا، فكأنهٗ كل واحد منهم يأخذها كما يأخذها ، وفى الجملة أخذهم إياها كما ورد يؤدى إلى التشبيه وبعضهم أكثر تشبيها من بعض .

وهٰذا البيان الذى ذكرنا خداع وجهالة منهم ، كماسنبين إن شاء اللّٰه العزيز ، فنقول بتوفيق اللّٰه تعالىٰ إن شاء اللّٰه العزيز: إن المعلوم أن القرآن والسنة فى اللغة العربية وهٰذا نفس السبب الذى يمنعكم من الخوض فى الصفات المتشابهات التى وردت فى القرآن والحديث للّٰه تعالىٰ ويكلّفكم علىٰ رجوع إلى أهل العلم ؛ لأنكم لاتعرفون اللغة العربية كما هي حقها ، والصحابة والتابعون كانوا ماهرين بهٰذه اللغة ، وهم بيّنوا المعانى لكثير من هٰذه الصفات وبيّنوا اقتضاء أن هٰذه الصفات لابد من حملها علىٰ غير ظاهرها ، وفسّروا هٰذه الصفات ليس علىٰ حسب اللغة غير العربية ، فتأويلاتهم ليست خارجة من اللغة العربية، بل هي تطبيق اللغة العربية ، والصحابة والتابعون كانوا أحقين بتطبيق اللغة العربية ؛ لأنهم كانوا ماهرين بها وكانوا من أهل هٰذه اللغة وأنتم لستم منهم. ثم أنتم كذابون علىٰ دعواكم أنهٗ لوأراد اللّٰه ورسولهٗ صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم المعانى الأخرىٰ ، لما ذكر هٰذه الصفات بهٰذه الكلمات. من أنتم حتىٰ تحكموا على اللّٰه تعالىٰ ورسوله صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم؟ من أنتم حتىٰ تسبقوا على اللّٰه تعالىٰ ورسوله صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم؟ وقد قال اللّٰه تعالىٰ فى القرآن عن الملائكة المقربين: ﴿لَا يَسْبِقُوْنَهٗ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهٖ يَعْمَلُوْنَ﴾ (الأنبياء:٢٧) وقال اللّٰه تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا لَا تُقَدِّمُوْا بَيْنَ يَدَيِ اللّٰهِ وَرَسُوْلِهٖ﴾ (الحجرات:١) فأخبرنا عن معنى الآية ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوْا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللّٰهُ الَّذِيْنَ جٰهَدُوْا مِنْكُمْ وَ يَعْلَمَ الصّٰبِرِيْنَ﴾ (آل عمران:١٤٢) هل هٰذه الآية علىٰ ظاهرها؟ ماهو معنى ﴿وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللّٰهُ﴾ (آل عمران:١٤٢). هل معناه على الظاهر المتبادر؟ فلابد لكم من أن تقول لا! هٰذه الآية ليست علىٰ ظاهرها؛ لأنهٗ لو تقول أنها علىٰ ظاهرها ، وفى الحقيقة اللّٰه عزوجل لم يكن يعلم الذين جهدوا والصابرين لكفرتم كفرا بواحا ، وكذٰلك فى هٰذه الآيات ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوْا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّٰهُ الَّذِيْنَ جَاهَدُوْا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوْا مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ وَلَا رَسُوْلِهٖ وَلَا الْمُؤْمِنِيْنَ وَلِيْجَةً وَّاللّٰهُ خَبِيْرٌ بِمَا تَعْمَلُوْنَ﴾ (التوبة:١٦) ﴿إِنْ يَّمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهٗ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللّٰهُ الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَآءَ وَ اللّٰهُ لَا يُحِبُّ الظّٰلِمِيْنَ﴾ (آل عمران:١٤٠) ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِيْ كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَّتَّبِعُ الرَّسُوْلَ مِمَّنْ يَّنْقَلِبُ عَلٰى عَقِبَيْهِ﴾ (البقرة:١٤٣) فهل هٰذه الآيات وأشباهها علىٰ ظاهرها؟ فلابد من أن تقول لا! فبطل قولكم بالكلية إنهٗ لوأراد اللّٰه المعانى الأخرىٰ لذكر الكلمات لهٰذه المعانى الأخرىٰ؛ لأن فى هٰذه الآيات اللّٰه تعالىٰ ذكر العلم ونسبته إليه ، وأراد المعنى الآخر ، وأنتم تسلّمون بهٰذا؛ لأنهٗ لابدمن هٰذا إلا أن يكون

كفرابواحا؛ لأن اللّٰه عليم بكل شيء من الأزل وهٰذا معلوم من الدين بالضرورة ، ومن يخالف هٰذا فقد كفر، وظاهر هٰذه الآيات يناقضهٔ ، فلابد من التاويل حتى عندكم ، فذكر شيئًا وأراد شيئًا آخر بالإجماع القطعي عند المسلمين ، فبطل قولكم: إنهٔ لايذكر اللّٰه شيئًا واراد شيئًا آخرا، بل يذكر اللّٰه شيئًا وأراد شيئًا آخرا بطريق الاستعارة والمجاز ، وهٰذا سائغ فى اللغات ، وكذا فى اللغة العربية، بل هو من بلاغتها وقوة خطابها ، وليس منافيالها ، فافهم اولوقلتم: إن هٰذه الآيات مؤولة عن ظاهرها بسبب الآية ﴿إِنَّ اللّٰهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (النساء:٣٢) قلنا هٰذا صحيح على الإطلاق. نحن نسألك ماذا تقول عن الملحد الذى يقول: إن إطلاق هٰذه الآية مقيد بتخصيص الآيات التى ذكرنا سابقا ، فهٰذه الآيات مخصصة لعموم هٰذه الآية ؟ هل هٰذا كفرمنه أم لا ؟ وأيضًا "كل شيء" فى اللغة العربية لايكون مستغرقا مطلقا دائما ، كما فى الآيات ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأحقاف:٢٥) ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (النمل:٢٣) ففى هٰذه الآيات استغراق كل شيء إضافي وليس بكلي على الإطلاق ، فلابد من تقول إن قول هٰذا الملحد لايمنع من تكفيره؛ لأنهٔ أنكر ماهو معلوم من الدين بالضرورة وهو علم اللّٰه المحيط بكل شيء على الإطلاق ، والآية ﴿إِنَّ اللّٰهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (النساء:٣٢) ليست من قبيل ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأحقاف:٢٥) ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (النمل:٢٣) بالإجماع القطعي عندالمسلمين، بل على الاستغراق الكلي ، وأيضًا الدلائل كثيرة كثيرة لهٰذا فى القرآن والسنة ، تدل على القطع أن علم اللّٰه محيط بكل شيء ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك:١٤) ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٩) ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (الأنعام:٨٠) ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (يونس:٦١) ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ (القمر:٥٣) ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللّٰهِ يَسِيرٌ﴾ (الحديد:٢٢) وغيرها من الدلائل الكثيرة جدا تدل على القطع على أنهٔ لايخرج شيء من علم اللّٰه تعالىٰ ، فلهٰذا انتهضت الحاجة إلى تأويل الآيات التى ذكرنا سابقا ، قلنا هٰذا صحيح لاشك فيه أنهٔ معلوم بالقطع من القرآن والسنة والإجماع القطعي أنهٔ لايخرج من علم اللّٰه تعالىٰ شيء ، فلهٰذا تؤول الآيات التى يناقضها على الظاهر المتبادر . فحاصل الكلام أنتم سلمتم أنهٔ هناك الآيات القرآنية والأحاديث التى على الظاهر المتبادر تناقض أصول الدين ، فلابد من أخذها على غير الظاهر المتبادر ، فتؤوّل على معنى الذى يوافق أصول الدين فى دائرة اللغة العربية ، فبطل مادعيتم عن أخذ جميع النصوص على الظواهر ، فإذا ثبت هٰذا فالصفات المتشابهات مثلا ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (ص:٧٥) ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ (طٰه:٥) ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (هود:٣٧) وأمثالها لايجوز أخذها على الظاهر المتبادر؛ لأنهٔ ينافى أصول الدين كما بينا سابقا

، فيصرف عن الظاهر المتبادر ، ثم الفرق بين هذه الآيات عن الصفات المتشابهات والآيات المؤولة في علم الله تعالى التي ذكرنا سابقا أي ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ وأمثالها أن في الآيات عن الصفات المتشابهات تفويض ممكن مع التنزيه ، وهو يفوض معناها إلى الله عزوجل مع العقيدة أنهُ ليس كمثلهِ شيء ، فليس جسما ، ولاتقوم به الحوادث ولا بذي أعضاء وجوارح وأجزاء ، ولايتمكن في مكان ، ولايجرى عليه زمان ، ولايحتاج إلى شيء ، ولاينتهي إلى شيء وغيرها من الأشياء في باب التنزيه؛ لأنهُ فقط يؤدى إلى عدم علم معاني هذه الآيات مع الاعتقاد عليها بالتنزيه ، وأما في الآيات عن علم الله أي "لِنَعْلَمَ" وأمثالها فتفويض[1] غير جائز؛ لأنهُ يؤدى إلى إبطال صفة العلم والجهالة عنها ، والشك في كونها محيطا بكل شيء على الإطلاق وهذا كفر بواح ، فلابد من تأويل. وهذا ماذكرنا مثال واحد ، وهناك في الحقيقة أمثلة كثيرة في النصوص كمثل هذا الذي لابدمن تصريفها عن الظاهر المتبادر.

ثم قبل نذكر بعضا منها ، لابد من بيان تفسير العلم في هذه الآيات أي "إلا لنعلم" وأمثالها ، فتفسيرها عن الرؤية يعني "إلا لنرىٰ" وهذا مأثور عن ابن عباس وعلي رضي الله تعالى عنهما ، وبعض المفسرين قالوا: إنهُ مصروف إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأتباعه ، فيعنى إلا ليعلم النبي وأتباعه ، وأخبره تعالى بذلك عن نفسه ، كما يقال: "فعل الأمير" وفي الحقيقة صدر الفعل من الجيش ، وأما النصوص الأخرىٰ كمثلها فمثلا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ﴾ (محمد:٧) فالمعلوم أن الله لايحتاج إلى النصرة ولايمكن نصرته؛ لأنهُ جميع الأشياء لهُ وبخلقهِ ، فكيف يُنصر وفي القرآن ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ (آل عمران:١٢٦) فلابد من تأويل الآية ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ﴾ (محمد:٧) وكذلك ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ (البقرة:٢٤٥) فالمعلوم أن الله لايمكن أن يقرض ولايحتاج إلى القرض كل شيء لهُ ، فكيف يقرض ، فلا بد من تأويل ، وكذلك في الحديث: "فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ." (صحيح البخاري: ح:٦٥٠٢) ومن المعلوم بالضرورة أن صفة السمع والبصر التي نحن نسمع ونرىٰ بهما ليسا هما الله ، فلابدمن تأويل ، فمعناه قديكون أن الله يحفظ سماعته وبصارته (والله أعلم) . وكذلك الحديث "يقول الله عزوجل يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر ، وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلب الليل والنهار ." (صحيح البخاري، ح:٤٨٢٦) ومعلوم أن الله لايتاذى ، تعالى الله عن ذلك ، ومامن شيء إلاهو آخذ بناصيته ، يعني تحت قدرته وسيطرته ، فلايمكن لأي واحد أن يؤذيه ، كل شيء من علمه وإرادته وقدرته

---

(١) ممكن أن يقال: إن التفويض ممكن أن يقول واحد أن الله عليم بكل شيء بالقطع ، فظاهر المعنى "لنعلم" غير مراد و ثم يفوض معناه إلى الله تعالى .

وخلقه ، فلابد من تأويل.

وقـديكون معناه أن ابن آدم يعصيه ، ويـقـول شيئًا ليس لهُ حق أن يقول وكذٰلك المعلوم أن الله ليس بدهر –نعوذبالله– ؛ لأن الدهر هو الزمان ، فأخذ "أنا الدهر" على الظاهر المتبادر يؤدى إلى المـذهب الدهرية –نعوذبالله– فلابد من تأويل ، فـمـعناه أنا خالق الدهر ومالكه ومدبره ، وكذٰلك هناك أمثلة كثيرة ، هـكـذا فى النصوص التى لابدمن التأويل فيها ، وهي كلها مؤولة عند ابن تيمية وأتباعه أيضًا ، فهم ناقضوا قولهم و مذهبهم الذى ذكرنا سابقا ، وهٰذا دأبهم وعادتهم ، ونحن قلنا قبلا أن مذهبهم فى غاية التناقض ، فالحاصل أنهُ هناك مجازات واستعارات كثيرة فى القرآن والحديث ، وليس كـل شيء على الظاهر المتبادر قطعا وبتاتا ، فيؤول عـلىٰ حسب الضرورة أوفى بعضها تفويض أيضًا ممكن مع التنزيه لوكان سائغا ، ولايؤدى إلى إبطال شيء معلوم من الدين .

(٣) الله لايتمكن فى مكان ولايجرى عليه زمان: هٰذا الباب قدتكلمنا فيه كثيرا من قبل ، والـدلائـل التـى ذكرنا فى نفي الجسمية عن الله تعالىٰ تدل علىٰ نفي المكان عنه أيضًا؛ لأن لا يكون شيء فى مكان إلا يكون مقدرا مقيسا ، وهٰذا كله من صفات الأجسام ، وكذٰلك لايتحيز المكان إلا من لهُ جسم ، فإذا ثبت أن اللّٰه تعالىٰ ليس جسما ، فثابت أنهُ غير متحيز فى مكان ، وكذٰلك من يتحيز المكان فهو يحتاج إلى المكان لوجوده ، والله غني عن العٰلمين ، وإيصافه بالاحتياج ينفى كونه اللّٰه عزوجل؛ لأن المحتاج لايكون إلٰها ولايكون مريدا ، قادرا ، غنيا على الإطلاق ، ولايكون خالقا، مالكا على الإطلاق ، فهٰذا كلهُ ينفى كونه الله عزوجل ، ثم لو كان متحيزا فى مكان ، فلابد لمكان أن يسبق وجود الله أويقارنه ، وهـٰذا يـؤدى إلى أن يكون غير الله ليس بخلق الله؛ لأن المكان ليس الله، بل غيره ، فلويسبق وجوده وجود الله أويقارن وجودالله ، فمعناها أنه لم يخلقه الله ، فكان غير خلق اللّٰه وهٰذا ينفى خالقية الله المطلقة ، وهٰذا كفر بواح ، وفى القرآن ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأنعام:١٠٢) فمن قال: إنهُ هناك من غير الله الذى ليس بخلق الله فقد كفربالقرآن ، ثم هٰذا يؤدى إلى قدم العالم؛ لأن المكان غير الله ، فهومن العالم ، فلويسبق وجوده وجودالله أويقارنه ، فكان أزليا ، فصار العالم أزليا ، وهـٰذا القول قول الفلاسفة الملاحدة ، وهـو كـفر بواح بإجماع المسلمين ، وقـد ذكرنا عنه سابقا ، وفى الـحـديث: "كان الله ولم يكن معهُ شيء" فلم يكن مكاناً ولازماناً ثم فى القرآن :﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ (حم سجدة:٥٤) فهومحيط بكل شيء ، وهـٰذا يدل ضرورة أنهُ لايحيطهُ أي شيء ، فلايكون فى مكان ولاجهة ولازمان؛ لأنهُ لو كان فى مكان ، فكان المكان محيطابه دون هو محيط بالمكان ، وهٰذا يبطل هٰذه الآية ، فثابت أنهُ ليس فى مكان ، ثم لاتشبه إحاطته بشيء إحاطة الخلق بالخلق مثلا إحاطة السور بالبلد؛ لأنهُ يبطل الآية إنهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى:١١) ثم لوكان

إحاطتهٔ بكل شيء كما يحيط السوّر بالبلد لماكان محيطا بكل شيء؛ لأنهٔ في هٰذه الحالة لماكان محيطًا بالحيز المحيط بكل شيء ، فيبطل إطلاق الآية ، وإبطال الآية كفربواح. ثم أيضًا في هٰذه الحالة لكان متحيزا بالحيز المحيط بكل شيء ، وهٰذا يؤدى إلى أن يكون جسما مقدرا مفهما محتاجا إلى المكان والحيز ، وهٰذا كلهٔ يناقض كونه اللّٰه عزوجل ، وقدبينا هٰذا من قبل ، وكذٰلك الكلام في الزمان لوكان في الزمان لكان الزمان محيطا بهٖ ، وهولم يكن محيطا بالزمان وهٰذا فيه إبطال الآية ، ثم لايكون في زمان إلا حادث؛ لأن الأزلي لابداية لهٗ ، فلايمكن أن يحيطه الزمان ، فمن يحيطه الزمان فلايكون أزليا ، فيكون حادثا ، وهٰذا ينافي كونه اللّٰه عزوجل ، وكذٰلك الحديث: "كان اللّٰه ولم يكن معهٗ شيء." (صحيح البخاري، ح: ٣١٩١) فهو كان ، ولم يكن معهٗ زمان ولامكان ، ثم لو كان الزمان محيطا بهٖ لسبق وجوده وجود اللّٰه ، وهذا يؤدى إلى قدم العالم؛ لأن الزمان غير اللّٰه ، فهو من العالم ، ومذهب قدم العالم مذهب كفر بواح ، وايضًا في هٰذه الحالة الزمان لايكون مخلوقا للّٰه ، وهٰذا أيضًا كفر بواح ، وفي القرآن ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ (الأنعام: ١٠٢)

وكذٰلك الكلام في الجهات؛ لأنهٗ لايكون الشيء في الجهة إلا أن يكون في مكان والثابت أنهٗ ليس في مكان ، فثابت أنهٗ ليس في جهة؛ لأنهٗ محيط بكل شيء ، فلايحيطه الجهات؛ لأنهٗ أزلي ، والجهات مخلوقة من العالم ، وهو غني عن العٰلمين ، ثم كما ثبت أنهٗ ليس في مكان ، فلايقال: إنهٗ في مكان دون مكان ، ولايقال: إنهٗ في كل مكان؛ لأن كلا منهما يؤدى إلى نفس النتائج ، وقدبينا من الدلائل القاطعة من العقل والنقل أنهٗ تعالىٰ متقدس عن مكان ، فالمكان دون المكان ، وجميع الأماكن كلها منفية عنه؛ لأنهٗ محيط بكل شيء ، فلايحيطه مكان دون مكان كما لاتحيط بهٖ جميع الأماكن ، ولأن جميع الأماكن مخلوقة من العالم ، واللّٰه أزلي خالق مالك غني عن العٰلمين ، فماهو منتشر بين العوام ، وبعض العلماء أنهٗ تعالىٰ في كل مكان ، فلويعنون بهٖ أنهٗ متحيز في كل مكان ، فهٰذا القول كفربواح ، وحسب علمي هم لايعنون بهٖ هٰذا، بل يعنون بهٖ أنهٗ في كل مكان بلاحلول وتحيز، بل بلا كيفية استدلالا بالآية أنهٗ محيط بكل شيء ، ونحن قد بينا أن اللّٰه عزوجل محيط بكل شيء واستدللنا بهٖ أنهٗ لايتمكن في مكان ، وقد بيّنا أن إحاطته لاتشبه إحاطة الخلق بالخلق؛ لأنهٗ ليس كمثلهٖ شيء وهو السميع البصير ، وقولهم إنهٗ في كل مكان (بلاحلول وبلاتحيز) استدلالا بإحاطته بكل شيء باطل؛ لأن كون الشيء في المكان يكون حلولا وتحيزا فيه ، وهٰذا غير جائز في حق اللّٰه عزوجل ، ولهٰذا هم أيضًا لايقولون بها ، وأما الإحاطة فهي ليست عبارة عن كون الشيء في الشيء ؛ لأنها ليست حلولا ولاتحيزا ، ثم إحاطة اللّٰه لاتشبه إحاطة الخلق بالخلق؛ لأنهٗ ليس كمثلهٖ شيء ، ثم المعلوم وهم أيضا يعلمون أن اللّٰه سبحانهٗ وتعالىٰ أزلي ، وجميع الأماكن يعني العالم حادثة ، والأزلي في الأزل دون

الحادث في الزمان ، فلايلاقي الحادث به ، فلايكون القديم في الحادث في وجه ما ، ثم هذا القول منكم في غاية الالتباس يضل الناس؛ لأن عوام الناس يسمعون هذا القول منكم إنهٔ تعالىٰ في كل مكان فيفهمونه مايفهمون ويأخذونه كما يأخذون ، وقد يذهبون إلى البدعة والكفر بسبب الاعتقاد أنهٔ تعالىٰ في جميع الأماكن كما يكون الخلق في الخلق ، وأنتم توقعون العوام في الأخطار ، وهذا لايجوز قطعاوبتاتا ، ثم ما ذا تعنون بهذا القول انهٔ تعالىٰ في كل مكان؟ هل تعنون به أنهٔ تعالىٰ في كل مكان كما يكون الخلق في الخلق تحيزا واحتلالا؟ لو هذا تعنون فهذا كفر بواح ، وقد بينا قبلا فساد هذا القول والنتائج الكفرية التي يؤدى إليها هذا القول. أوهل تعنون به أنهٔ يعلم ويرىٰ ويسمع ويقدر جميع الأشياء ، فيعبد من كل مكان وجهات ويدعىٰ من كل مكان وجهات ، وهوليس محدودا محويا، بل لاتحويه الجهات والأقطار ولاتحده الحدود فليس في مكان دون مكان كماليس في زمان، بل تعالىٰ وتقدس عن المكان والزمان؟ فلوهذا تعنون به فأنتم على الحق معنا وهذا لايعبر بكونه في كل مكان، بل بكونه دون المكان والزمان فافهم! ولوتعنون به شيئًا آخر غير ماذكرنا، فلابد من تفهيم؛ لأن قولكم حينئذٍ غير معقول وغير مفهوم.

فحاصل الكلام أنهٔ تعالىٰ لايتمكن في مكان ، ولايجرى عليه زمان ، ولاتحويه الجهات ولاالأقطار وهو خالق المكان والزمان والجهة ، ولايحتاج إليها ، وكان في أزله قبل خلق المكان والزمان ، ولامكان لهٔ ولازمان ، وهوالأن على ماعليه كان. وروي عن علي رضي الله تعالىٰ عنه: " إن الله لم يخلق العرش ليتخذه مكانا له، بل إظهارا لقدرته." وقال جعفر بن محمد الصادق رحمه الله تعالىٰ: "من زعم أن الله تعالىٰ في شيء أومن شيء أوعلىٰ شيء فقد أشرك"؛ لأنهٔ لوكان علىٰ شيء لكان محمولا ، ولو كان من شيء لكان محدثا ولوكان في شيء لكان محصورا ، والله يتعالىٰ عن جميع ذٰلک . وقال أبوحنيفه رحمه الله تعالىٰ في كتاب الوصية: "لوكان الله محتاجا إلى الاستقرار والجلوس ، فأين كان قبل خلق العرش ؟ هو يتعالىٰ عن جميع ذٰلک."

ثم مأثورعن كثير من السلف الصالح أن الله عزوجل لاتحده الحدود ، والمعلوم أنهٔ من لاتحده الحدود فلايكون في مكان ولازمان ، ومن العلماء الذين استدلوا علىٰ نفي المكان عن الله تعالىٰ ، من الحديث "أنت الظاهرليس فوقک شيء ، أنت الباطن ليس دونک شيء" فقالوا: هوالظاهر فليس فوقه شيء وهوالباطن فليس دونه (اى تحته) شيء ، فمن ليس فوقه شيء ولاتحته شيء فليس في مكان. وقال علي بن زين العابدين رحمه الله تعالىٰ " إن الله متعالى عن الصفات التى لاتليق به ، وهو غير محدود في مكان." ونقل عبدالقاهر البغدادي في كتابه "الفرق بين الفرق" الإجماع لأهل السنة والجماعة " إن الله لايحويه مكان" ونقل حافظ أبو نعيم في كتابه "الحلية"

بسنده عن علي رضي الله تعالى عنه ان الله عزوجل الأول فليس من شيء ولايخالط شيئا ولايحجبه شيء، فلايكون محدودا ولاهو حادث، من قال إن ربنا محدود، فهو جاهل بخالقه الذى هو يعبده (انتهى). (حلية الأولياء: ج ١ ص٧٢) وأيضًا فى نفس الرواية سيدنا علي رضي الله تعالى عنه نفى عن الله تعالى الأعضاء والجوارح، والعبدالحقير قد اطلع على هذه الرواية عن علي رضي الله تعالى عنه تتكلم عن الله عزوجل بالكلام القاطع الباهر العزيز، فمن شاء فليراجع كتاب الحلية. ثم فى الرواية أنهٗ لايحجب الله شيء؛ لأن الله الغالب غير مغلوب، وكذلك غير محدود، فلايمكن لشيء أن يحجبهٗ، وثم يمكن لمخلوق أن يحجب مخلوقا، وأما الله عزوجل فليس من جنس المخلوق، بل ليس كمثله شيء وهوالسميع البصير، والله عزوجل ليس بمحجوب، بل الخلق هوالمحجوب عنه تعالى، فلايراه الخلق فى هذه الدنيا، وفى القرآن: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوْبُوْنَ﴾ (المطففين:١٥) وهذا عن الفجار يوم القيامة وأما الأبرار فهم يوم القيامة ماكونوا محجوبين عنه، كما فى الحديث: "مامنكم من أحد إلا سيكلمه ربهٗ، ليس بينه وبينهٗ ترجمان ولاحجاب." (صحيح البخاري، ح: ٧٤٤٣) فأما ماجاء فى الحديث "حجابه النور" وفى رواية أبى بكر "النار" "لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ماانتهى إليه بصره من خلقه." (صحيح مسلم، ح: ١٧٩) فحجاب راجع إلى المخلوق؛ لأنهم فى الحقيقة محجوبون والله لايحجبه شيء، ثم لو كشفها يعنى لورفع الحجاب عن أعينهم ولم يثبتهم لرؤيته لاحترقوا وما استطاعوا لها من أجل سبحات وجهه يعنى من عظمته وجلاله وكبريائه وتنزهه وتقدسه. (والله أعلم)

ثم هناك بحوث أخرىٰ تتعلق بهذا الموضوع، وقد كثرالكلام فيها جدا، ولابد من تحقيقها ليتبين الحق من الباطل. فالكلام أن ابن تيمية وأتباعه يعتقدون أن الله عزوجل فى جهة الفوق فيثبتون لهٗ الجهة، ويبدّعون من يعتقد أن الله عزوجل ليس فى مكان ولافى جهة، بل الله المتعالى عن هذه الأشياء، ثم بعض أتباع ابن تيمية يصرحون ويقولون: إنه فى مكان، ومكانه العرش، وأيضًا يقولون: إنه لوواحد يعرج إلى جهة الفوق يتقرب إلى الله تعالى مسافة (نعوذبالله) ومن يهبط إلى السفل يتباعد من الله مسافة، فيعتقدون أن أعلى الجبل قريب من الله مسافة من أسفل الجبل (ولاحول ولاقوة إلا بالله) وبعضهم لايصرحون بكلمة المكان نسبة إلى الله عزوجل، بل يقولون: إنه فوق كل شيء على عرشه وأيضا لايصرحون بأن أعلى الجبل قريب من الله من أسفل الجبل مسافة، بل يقولون: إنه فوق كل شيء فى الحقيقة، ويثبتون لهٗ جهة الفوق، ويثبتون أنهٗ فوق العرش بذاته ودون العرش بصفاته، لكن مع هذا لو واحد يلبث معهم ويلاحظهم ويتكلم معهم فى هذا الموضوع قد بدا لهٗ على الأغلب أن هؤلاء أيضًا يثبتون لهٗ مكانا وحدًا بدون التصريح. ثم كلهم يدّعون أن هذه

العقيدة عقيدة السلف الصالح يعنى الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم والتابعين وأتباع التابعين رحمهم الله تعالىٰ ، ونعوذ بالله من هذا الكذب المفترى. وفی الحقيقة هذه العقيدة ليست عقيدة السلف الصالح قطعا وبتاتا، بل عقيدة المشبهين المجسمين الذين كانوا ينسبون أنفسهم إلى الحنابلة أو المحدثين ، لكن ما كانوا منهم فی الحقيقة .

ولقد كتب عنهم أبو الفرج ابن الجوزی الحنبلي كتابا سماه "دفع الشبه التشبيه" وبيّن فيه انتشار مذهب التجسيم والتشبيه فی الحنابلة ، وأوضح أن هؤلاء القوم ليسوا على مذهب الإمام احمد بن حنبل صاحب المذهب الحنبلي، بل على منهج آخر غيره وابن تيمية وإن كان منسوبا إلى المذهب الحنبلي ما كان منه فی الحقيقة، بل يخالفه فی الأصول والفروع ، حتى يخالف المذهب الحنبلي فی أصول الفقه ، وأما عقيدة ابن تيمية فمخالفة جدا من عقيدة الحنابلة ، ومن اطلع على كتب الحنابلة مثلا أبو الفرج ابن الجوز ي وابن عقيل وعبدالقادر الجيلاني وا بن رجب لوجد أن عقيدة ابن تيمية مخالفة عن عقيدة الحنابلة قبله فی أشياء كثيرة ، مثلا ابن تيمية أجاز قيام الحوادث بذاته تعالىٰ وقال: إن نوع العالم قديم و إن الحوادث لا أول لها وأثبت لله حدا وقال: "له الحد هو يعرفهٗ لانعرفهٗ" وقد نسب إليه أنهٗ قال: إن الافتقار إلى الجزء ليس محال فی حق الله تعالىٰ وقال أيضا: إن القرآن حادث يقوم بذاته تعالىٰ و إن إرادة الله حادثة تقوم بذاته تعالىٰ ولهٗ صوت حادث ، وأثبت لهٗ جهة معهودة ، وقال: إن إنشاء السفر لزيارة نبينا صلى الله تعالىٰ عليه وسلم معصية وتكلم فی مسئلة الحسن والقبح على منوال المعتزلة ، وكذلک فی مسئلة خلق الأفعال طريقه ليس بعيدا من طريق المعتزلة وغيرها من الأشياء الكثيرة جدا التی لم يقل بها أي واحد مشهور من المذهب الحنبلي، بل كلها من بدعات ابن تيمية قبيحة جدا ، وبعضهم فی حد الكفر. فهٰذه العقيدة التی نحن ذكرنا سابقا من ابن تيمية وأتباعه فی إثبات الجهة المعهودة لله تعالىٰ ، هٰذه العقيدة ليست من السلف الصالح على القطع، بل من المجسمة المشبهة وهم استدلوا لعقيدتهم من ظواهر بعض آيات القرآن والأحاديث منها ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ (النحل:٥٠) ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ (الأنعام:٦١) فنجيبهم بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز أن هذه الآية وأشباهها لاتدل على الفوقية المعهودة يعنى جهة الفوق، بل تدل على الفوقية القهرية والغلبة كما هو قول فرعون فی القرآن الكريم ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ (الأعراف:١٢٧) والمعلوم أن فی هٰذه الآية ليس معنى الفوق جهة الفوق، بل الفوقية التی تتعلق بالقهر والتسلط ، واستدلوا بالآية ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ (المعارج:٣) ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر:١٠) فنجيبهم بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز أن ما هو المعنى للآية عن قول موسىٰ عليه الصلوٰة والسلام لله عزوجل عند ماذهب إلى الطور ليكلم الله

تعالىٰ ، فقال: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ (طٰه:٨٤)فهٰذا موسىٰ عليه السلام يقول لله عزوجل على الطور إنهٗ عجل إليه تعالىٰ ليرضى. هل هٰذا يعنى أن الله تعالىٰ كان على الطور فى الحقيقة ؟

وكذٰلك ماهو المعنى للآية عن قول إبراهيم عليه الصلوٰة والسلام عند ما هاجر من بلد قومه إلى الأرض المقدسة الشام ، فقال: ﴿ وَقَالَ إِنِّيْ ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّيْ سَيَهْدِيْنِ ﴾ (الصافات:٩٩) هل هٰذا يعنى أن الله تعالىٰ كان فى أرض الشام فى الحقيقة ؟ وكذٰلك ماهو المعنى للآية ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهٗ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيْلاً ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَّسِيْرًا﴾ (الفرقان:٤٥-٤٦) هل هٰذا يعنى أن الله عزوجل موجود فى مكان بين يدى الظل ، فيقبض إليه الظل يسيرا ؟ وكذٰلك ماهو المعنى للآية ﴿فَفِرُّوْا إِلَى اللهِ إِنِّيْ لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيْرٌ مُّبِيْنٌ ﴾ (الذاريات:٥٠) هل هٰذا يعنى أن نعرج إلى الفوق؟ فلابدلكم من أن تجيبوا أن هٰذه الآيات لاتعنى أن الله عزوجل على الطور أو فى أرض الشام أوبين يدى الظل ولايعنى معنى الفرار إلى الله أن نعرج إلى جهة الفوق. فأنّٰى لكم كيف تعنون بهٰذه الآيات ﴿تَعْرُجُ الْمَلٰٓئِكَةُ وَالرُّوْحُ إِلَيْهِ ﴾ (المعارج:٤) ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾(فاطر:١٠) أن الله عزوجل فى جهة الفوق ، الله أكبر ، أنتم فى غاية التناقض تناقضون أنفسكم ، فكما قول موسىٰ عليه السلام على الطور لله عزوجل ، لايعنى أن الله عزوجل على الطور، بل يعنى أن موسىٰ عليه الصلوٰة والسلام يكلم الله عزوجل ، وهو يعنى سيدنا موسىٰ عليه الصلوٰة والسلام على الطور فى حاله متكلما مع الله عزوجل ، وأما الله عزوجل فلايتمكن فى مكان ، ولايجرى عليه زمان ، لٰكن بسبب أن الله عزوجل عيّن لموسىٰ عليه الصلوٰة والسلام الطور لكلامه معهٗ ، فصار الطور ميقاتا لهٰذه الكلام ، ولكونه ميقاتا لموسىٰ عليه الصلوٰة والسلام لكلامه مع الله عزوجل ، فقال موسىٰ عليه السلام وهو على الطور لله عزوجل ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ ﴾ (طٰه:٨٤) يعنى إلى الميقات الذى فيه أتكلم معك ، وليس على المعنى أن الله عزوجل كان متمكنا على الطور ، تعالىٰ الله عن ذٰلك.

وكذٰلك الله عزوجل جعل العرش والسماء ميقاتا لخطابه للملائكة ولكلامه معهم ، فهم يعرجون إليه عزوجل ويصعدون إليه بالكلم الطيب ، يعنى إلى الميقات الذى فيه يتكلمون معهٗ عزوجل وأما الله فلايتمكن فى مكان ولافى جهة ، ولا يجرى عليه زمان ، وكذٰلك قول إبراهيم عليه الصلوٰة والسلام: ﴿وَقَالَ إِنِّيْ ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّيْ سَيَهْدِيْنِ﴾ (الصافات:٩٩) يعنى مهاجرا إلى حيث أتمكن من عبادة ربى ، كذا فى تفسير القرطبي ، وكذٰلك فى الظل ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَّسِيْرًا﴾ (الفرقان:٤٥-٤٦) معناه قبضه علينا يسير ؛ لأن كل شيء لهٗ يسير كذا فى تفسير القرطبي ، وكذٰلك معنى الفرار إلى الله عزوجل فى الآية ﴿فَفِرُّوْا إِلَى اللهِ﴾ (الذاريات:٥٠) يعنى إلى طاعته ، فحاصل الكلام أن ليس المعنى للآيات ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ (فاطر:١٠) و ﴿تَعْرُجُ الْمَلٰٓئِكَةُ

وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ (المعارج:٤) وأمثالها أن الله عزوجل متحيز فى جهة الفوق نعوذبالله قدبيّنابطلان هذا من قبل كمالايعنى فى الآيات الأخرىٰ التى ذكرنا أن الله متحيز على الطور أو فى الشام أوغيرهما من الأشياء فكما أنتم يا أتباع ابن تيمية لاتأخذون هٰذه الآيات علىٰ معنى أن الله عزوجل متحيز فى جهة الشام أو الطور ، فكذٰلك لا تأخذوا هٰذه الآيات ، يعنى ﴿تَعْرُجُ الْمَلَآئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ (المعارج:٤) وأمثالها علىٰ معنى أنهٗ تعالىٰ متحيز فى جهة الفوق؛ لأن الله تعالىٰ لاتحده الحدود ولاتحويه الجهات هو محيط بكل شيء كمافى القرآن فلايحيطه أي شيء من الجهات والأقطار والأمكنة والأزمنة ، فافهموا واهتدوا ، والله يهدى من يشاء إلىٰ صراط مستقيم. واستدلوا بالآيات ﴿ءَ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَآءِ﴾(الملك:١٦) ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَآءِ﴾ (الملك:١٧) وكذٰلك الحديث " سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم الجارية أين الله؟ قالت: فى السمآء ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله ، قال: اعتقها ، فإنها مؤمنة . رواه مسلم ، فقالوا: إن معنى فى السمآء على السماء كما فى الآية: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾ (التوبة:٢) يعنى على الأرض ، فقالوا: إنهٗ تعالىٰ فوق كل شيء ، فهو فى جهة الفوق. فنجيبهم بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز أخبرنا ما هو المعنى للآية: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ (المجادلة:٧) ماهو المعنى للآية ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ (الأنعام:٣) ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (المجادلة:٦) ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق:١٦) ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ (البقرة:١٨٦) فنحن نعرف أنكم تقولون: إن معيته وقربته وشهادته بنسبة صفاته مثلا علمه وسمعه وبصره ، فيعنى أنتم تؤولون هٰذه الآيات ، فكيف تهجمون علىٰ من يؤول الآية ﴿مَن فِي السَّمَآءِ﴾ ولماذا أنتم لاتؤولون هٰذه الآية يعنى ﴿مَن فِي السَّمَآءِ﴾ بما يليق بالله عزوجل ، و أنتم تؤولون الآية ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ (الأنعام:٣) على التأويل أنهٗ (المتنزه هو وصفاته من الحلول) هو الذى يدعىٰ "الله" فى السموٰت وفى الأرض ، فيعبده الخلق ويوحّدونه ويدعونه رغبا ورهبا إلا من كفر من الجن والإنس ، فلو أنتم تريدون أخذ الآية ﴿مَن فِي السَّمَآءِ﴾ علىٰ ظاهرها، فما يمنعكم عن أخذ الآية ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ (الأنعام:٣) علىٰ ظاهرها ، وكذٰلك مايمنعكم عن أخذ الآيات عن المعية والقربة علىٰ ظاهرها ، حتىٰ أنتم أوّلتموها أنها بنسبة الصفات ، وليس ذات الله تعالىٰ. ولوأجبتم كما هو دأبكم أن هٰذا عقيدة السلف الصالح فأنتم تتبعونهم ، قلنا: إلى ماتشيربقولكم أنهٗ عقيدة السلف الصالح؟ فلوقلتم كماهو دابكم أن عقيدة السلف الصالح أن الله تعالىٰ فوق كل شيء ، وهو ليس فى خلقه ولاخلقه فيه، بل هو تعالىٰ عنها مستوى علىٰ عرشه. قلنا: السلف الصالح لايعتقدون كما أنتم تعتقدون قطعا وبتاتا [1] ونحن إن

(١) يعنى كما عقيدتكم أن الله تعالىٰ فى الحقيقة فى جهة الفوق فوق كل شيء.

شاء الله العزيز سنبين مايعتقدون السلف الصالح.

الأن أثبتنا النقطة أنهٔ أنتم تؤولون الآيات الكثيرة عن المعية والقربة ، وكذلك الآية ﴿وَهُوَ اللّٰهُ فِي السَّمٰوٰتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ (الأنعام:٣) فكيف تهجمون على من يؤول الآية ﴿مَنْ فِي السَّمَآءِ﴾ بمايليق بالله عزوجل ، ثم المعلوم أن معية الله عزوجل وقربتهٔ لا تشبهان معية الخلق وقربتها ، تعالى الله عن ذلك، بل هما كمايليق بالله عزوجل؛ لأن الله عزوجل ليس جسما ، ولايتمكن في مكان ، فقربته ومعيته ليست جسمانية ومكانية، بل كما يليق بشانهٖ فهو يعلم ويسمع ويرىٰ كل شيء، وكذلك ﴿وَهُوَ اللّٰهُ فِي السَّمٰوٰتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ (الأنعام:٣) معناه وهوالذى في السمآء إلٰه وفي الأرض إلٰه ولايعني أنهٔ نفسه في السمٰوات وفي الأرض ، تعالى الله عن ذلك؛ لأنهٔ ليس في خلقه ولاخلقه فيه ، ولأنهٔ لايتمكن في مكان ، ونحن قد بيّناقبلهٔ أنهٔ ليس بمكاني ولازماني ، فلايكون متحيزا في السمٰوات أوفي الأرض ثم في القرآن ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْدًا﴾ (مريم:٩٣) والمعلوم أن الله ليس بعبد ، فلا يكون في السمٰوات ولافي الأرض ، وهٰذه الآية أيضًا تدل علىٰ أنهٔ ليس المعنى في السمآء في الآية ﴿ءَ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَآءِ﴾ (الملك:١٦) السماء المعهود؛ لأن الآية "إن كل من" إلى الآخر تدل علىٰ أن الله ليس في السمٰوات ولافي الأرض؛ لأنهٔ ليس عبدا ، فالمعنى "في السمآء" شيء آخر ونحن نتكلم إن شاء الله العزيز قريبا.

الأن نذكر حديثا يتعلق بهٰذا البحث ، وهو نحن نسأل أتباع تيمية ما هو المعنى للحديث "إذا كان أحدكم يصلي فلايبصق قبل وجهه ، فإن الله قبل وجهه إذا صلى ." (صحيح البخاري، ح:٤٠٦) "أيسرّ أمر أحدكم أن يبصق في وجهه إلا أحدكم إذا استقبل القبلة ، فإنما يستقبل ربه عزوجل." (سنن أبي داود، ح:٤٨٠) "إن احدكم إذا قام في صلاته ، فإنهٔ يناجي ربه أو إن ربه بينه وبين القبلة ." (صحيح البخاري، ح:٤٠٥) فماذا تقولون عن هٰذه الأحاديث؟ هل الله عزوجل في الحقيقة بين المصلي وبين القبلة؟ والمعلوم أن الكعبة هي القبلة كما في النصوص ، فأنتم تؤولون هٰذه الأحاديث أيضًا أنها مجاز واستعارة يعني المصلي يصلي لله ، فكأنهٔ قبل وجهه وهو يناجيه ، وليس المعنى أنهٔ تعالىٰ متحيز قبل وجههٖ في الحقيقة، بل هو مجاز ، وكذلك أنتم تؤولون الآية ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللّٰهِ﴾ (البقرة:١١٥) وروي عن مجاهد والضحاك أن معناها أينما كنتم من شرق أو غرب فثم [1] وجه الله الذى أمرنا باستقباله وهو الكعبة. فالحق أنتم تؤولون متىٰ تشاء ، وتأخلون على الظاهر متىٰ تشاء ، ولهٰذا السبب قلنا: إن مذهبكم في غاية التناقض ، وما ذكرنا من التأويل المحتمل للحديث أن الله قبل وجه المصلي إن شاء الله هو صحيح على الظن عندنا أيضًا . ثم العبد الضعيف

(١) يعني الجهة التي أمرنا باستقبالها .

سمع من بعض أتباع ابن تيمية كلاما سفيها جدا ، وفى الحق من يضلل الله فلا هادي لهُ ، فقالوا: إن كما الشمس عند مايطلع فهي قبل وجهنا ، لكن مع ذلك فى السماء وكذلك الله عزوجل قبل وجهنا عند ما نصلى ومع ذلك فى السماء ، وهذا قول خبيث جدا يدل علىٰ غاية السفاهة لقائله ، وأيضًا غاية تناقضه مع نفسه وهو أنتم ياأتباع بن تيمية لاتقولون إن الله فى السماء علىٰ معنى أن الله فى هٰذه السماء الدنيا الذى نحن نرىٰ كمثل السقف القبابيّ علينا، بل تقولون علىٰ معنى أن الله تعالىٰ فوق السماء، بل فوق كل شيء فكيف تقارنون (نعوذبالله) الله بالشمس الموجود فى هٰذه السماء الدنيا؟ ثم لايقول قائل عند ما الشمس تطلع أن الشمس فوقه، بل يقول: إن الشمس أمامه ، وفى الوقت الزوال يقول: إن الشمس فوقه ، فلايقول: إن الشمس أمامه وأنتم تقولون: الله فى السماء علىٰ معنى فوق كل شيء يعنى فى الجهة الفوق ولاتقولون: إنهُ تعالىٰ فى الجهة الأمام فكيف تقارنون الله (نعوذبالله) بالشمس؟ ثم أفٍّ لكم فوق ألف مرة ، كيف تشبهون الله عزوجل الخالق البارى القدوس بالشمس المخلوقة المربوبة؟ ثم هناك قول خبيث آخر منهم ، وهو كما القمر يكون فى السماء ومع ذلك مع الماشى بالليل فى الطريق ، وكذلك الله فى السماء ومع ذلك معنا ، وهٰذا القول سوء جدا ، ولايليق بالمسلم أن يتلفظ بهٰذه الأقوال. ثم كما قلنا: أنتم لاتقولون إن الله فى السماء علىٰ معنى السماء الدنيا، بل علىٰ معنى فوق كل شيء وأيضًا لايقول الماشى بالليل إن القمر معهُ ، هٰذا لايقال لا فى الحقيقة ولا فى المجاز ، وأيضًا الماشى فى الوقت الذى القمر فيه فى بلد آخر ففى هٰذا الوقت القمر فى السماء ، لكن لايكون مع هٰذا الماشى. ثم القمر فى أوقات مختلفة يكون فى جهات مختلفة يمين وشمال وأمام وخلف وفوق ، لكن مع ذلك يكون فى السماء الدنيا وأنتم لاتقولون إن الله تعالىٰ فى يمين أوشمال أو أمام أوخلف، بل تقولون: إنهُ فى جهة الفوق. ثم أفٍّ لكم فوق ألف مرة كيف تشبهون الله بالقمر المخلوق؟ وأنتم فى الحقيقة المشبهة المجسمة وإن أنكرتم ألف مرة.

ثم ماهو المعنى "فى السماء" فأنتم تقولون: إن معناه "على السماء" ثم تأخذون "على السماء" بمعنى "فوق السماء" وفى الحقيقة لاتكون كلمة "فى" بمعنى "الفوق" فى اللغة العربية ، والآيات التى تستدلون بها مثلا ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾ (التوبة:٢) ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ (طٰه:٧١) فمعنى الكلمة "فى" فى هاتين الآيتين بمعنى "على" ، لكن ليس مطلقا، بل بمعنى "على" يعنى على الأرض متصلا ملاقيا بها ، فلايقال لمن فوق الأرض غير متصل ملاق بها أنهُ فى الأرض كما الطيور عندما يطيرون فوق الأرض ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (النحل:٧٩) فيقال: إنها فى جوّ السماء ، لا يقال: إنها فى الأرض، بل يقال: إنها فوق الأرض ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ

بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ (الملك: ١٩) وكذلك "في جذوع النخل" بمعنى "على جذوع النخل متصلا ملاقيا بها" فلايقال للطير يطير فوق جذوع النخل أنه في جذوع النخل، بل يقال: إنهٗ فوق جذوع النخل، فكلمة "في" في اللغة العربية عند ما تستخدم بمعنى "على" فهي ليست مطلقا في معنى "على"، بل مخصوص، فمعنى العلو بدون الاتصال والملاقاة لايكون تحت كلمة "في" من اللغة العربية، فالآيات التي ذكروا للاستشهاد لاتدل على مستدلّهم، لأنهم لايقولون: إن الله على السماء متصلا ملاقيا به (نعوذبالله)، بل يقولون: إنه "على السماء" بمعنى "فوق السماء، بل فوق العرش، بل فوق كل شيء" والمعنى "في السماء" على معنى "على السماء" لايأتي بمعنى "فوق السماء" غير متصلا بها. ففي الحقيقة سقط استدلالهم بالآية "في السماء" على عقيدتهم أن الله تعالى فوق كل شيء.

فلو سألتم الأن أيها القارء ون أخبرنا عن معنى الآية: "من في السماء" فقلنا بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز: إن "في السماء" جاء بمعاني في القرآن والحديث، فقد يكون معنى "في السماء" يعني السماء المعهود من سبع سموات ويدل عليه حديث المعراج عند ما رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عرجٓ من سماء إلى سماء، وفي كل سماء التقى نبيا من الأنبياء عليهم الصلوات والسلام، وأيضًا تدل عليه الآية ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ (الفرقان: ٦١) وقد يكون على معنى فوقنا، وإن لم يكن في السماء المعهود من السموات وتدل عليه الآية ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ﴾ (الروم: ٤٨) ففي هذه الآية ذكر سحابا في السماء، لكن في الآية الأخرى ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (البقرة: ١٦٤) ذكر السحاب بين السماء والأرض، فالمعنى أنهٗ ليس في السماء المعهود، بل تحته، لكن لأنهٗ فوق الأرض فهو في السماء؛ لأن السماء قد يكون على معنى كل شيء فوق الرأس. فالمعلوم أن هذه المعاني يعني في السماء المعهود أو في مابين السماء والأرض لايجوز لله تعالى؛ لأنهٗ لايتمكن في مكان ولايحيط به أي شيء، بل هو محيط بكل شيء.

فنحن الأن نذكر حديثا يتعلق بهذا البحث، وهو "أن أول زمرة يدخلون الجنة . . . . . . إلى . . . . على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا في السماء." (صحيح البخاري، ح: ٣٣٢٧) ففي هذا الحديث طول آدم عليه الصلوة والسلام عبر بالجملة "في السماء" وفي حديث آخر "طولهٗ ستون ذراعا." (صحيح البخاري، ح: ٦٢٢٧) ف "في السماء" لايعني في هذا الحديث في مكان ما، بل على معنى الطول الذي هو ارتفاع النفس وعلوه، وقد يكون على معنى المقدار والقياس كما في هذا الحديث، وهذا لايجوز على الله عزوجل بالإجماع وقد بينا هذا، وظني حتى ابن تيمية وأتباعه

لايعتقدون أن اللّٰه تعالىٰ مقدرا مقيسا تعالىٰ اللّٰه عن ذٰلك وقديكون علىٰ معنى الرتبة والشرف كما فى الآية ﴿يَرْفَعِ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المجادلة:١١) ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (الم نشرح:٤) ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ (البقرة:٢٥٣) ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ (الأعراف:١٧٦) والقهر والغلبة كما فى الآية ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ (آل عمران:١٣٩) ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (المؤمنون:٩١) ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ﴾ (النمل:٣١) ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ (بنى إسرائيل:٧) والعلو والارتفاع فى معنى الرتبة والشرف والقهر والغلبة من صفات اللّٰه عزوجل ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (الأعلى:١) ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ (الرعد:٩) ﴿إِنَّ اللّٰهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ (النساء:٣٤) ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ (غافر:١٥) فيكون المعنى للجملة "فى السماء" فى الآية ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ (الملك:١٦) يعنى أء منتم من متصف بصفات العلو والارتفاع ،وله الرتبة والشرف والقهر والغلبة والعزة ،حتىٰ لايقارن معهٗ أي واحد؛ لأنهٗ هو الخالق والمالك لكلهم فهو فوقهم على الإطلاق بدون أن يكون أي واحد يقارنه فى وجه ما مثلا كما فى الخلق بين الملك ونائبه ووزيره مقارنة موجودة ،فالملك لهٗ درجة عالية بنسبة الخلق سواه فى المملكة ،ثم نائبه ،ثم ووزيره ،ثم من تحته إلى العوام ، لكن اللّٰه عزوجل هو العلي المتعال رفيع الدرجات على الإطلاق ،حتىٰ لاتكون مقارنة معهٗ على الإطلاق والكلمة "السماء" فيه معنى العلو والارتفاع يقال سما يسمو سموا سماءً يعنى علا وشرف وارتفع ،يقال ساماه أي سابقه فى العزة والشرف ،يقال تسامى القوم يعنى سابق بعضهم بعضا فى العزة والشرف ،يقال مقام سام أي مقام عالى وشريف ،يقال ذهب فى الناس صيته وسماه أي صار مشهورا بالخير فى القوم ،يعنى صار شريفا ،يقال صاحب السمو أي صاحب الشرف والعزة، يقال سامى المبادى أي عالى المبادى ،ثم إذا تمعن فى الآيات ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ (الملك:١٦-١٧) فالأيتان تتكلمان عن الخسف بهم الأرض أو الإرسال عليهم حاصبا ، فتقولان: هل أمنتم من فى السماء أن يفعل بكم هٰذه الأشياء ،فلو كان المعنى من فى السماء التحيز فى جهة الفوق (نعوذباللّٰه)، فأخبرنا ماهو الاختصاص والربط والانسجام فى هاتين الأيتين لهٰذا التحيز (نعوذباللّٰه) بالخسف بهم الأرض والإرسال عليهم حاصبا ، فلو قلتم إنهٗ يحتمل أن الحاصب يأت عليهم من فوقهم، فقال ء امنتم من فوقكم بالتحيز (نعوذباللّٰه) أن يرسل عليكم حاصبا ،قلنا فما بال بخسف بهم الأرض التى يكون تحتهم كما هو المعلوم بالمشاهدة ،فلاجواب لكم فى هٰذا ونحن عندنا جواب حكيم ،وهو ء امنتم ممن هو قاهر وغالب فوقكم ،وله العلو والعظمة وشانه رفيع أعلىٰ ،وهو قادر عليكم على الإطلاق أن يخسف بكم الأرض أو يرسل عليكم حاصبا؛ لأن السماء والأرض والفوق

والتحت كلها مغلوب مقهور مقدور تحت علوه وارتفاعه وقدرته ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ (الأنعام:٦٥) ثم قد يكون العلو على معنى التنزيه كما فى الآيات ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنعام:١٠٠) ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الأعراف:١٩٠) ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ (الجن:٣) ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (الإسراء:٤٣) ففى الحديث نبينا ورسولنا وحبيبنا صلى الله تعالى عليه وسلم سأل الجارية أين الله ؟ (صحيح مسلم، ح:٥٣٧) استفسارا هل هي تعبد الأوثان والأجسام التى تتمكن وتتحيز فى معابد المشركين ،والتى متصفة بالصور والأشكال أوهي تعبد الله تعالى وحدهٔ الذى متصف بصفات العلو والعظمة والعزة والارتفاع والقهر والغلبة والتنزه على الإطلاق ،فهو متعالى عما يصفونه بها المشركون والكافرون ،فالمتنزه عن صفات الأوثان والأجسام فعند ماأجاب فى السماء ،فظهر أنها مؤمنة موحدة لاتعبد الأوثان الأجسام، بل تعبد خالق الأجسام الله الواحد القهار الكبير المتعال العزيز الجبار المتنزه عن صفات الأجسام المتصف بالصفة الفوقية على الإطلاق ولاتشبه فوقيته فوقية المخلوق كما لايشبه هو نفسه ذات الخلق ،وفى قصة أخرىٰ أخرجه أبو داؤد الجارية السوداء أجابت إذا سألها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أين الله فأشارت إلى السماء بإصبعها. (سنن أبى داود، ح:٣٢٨٤) وهٰذا أيضًا معنى يعنى هو العلي العظيم القاهر الغالب كما نحن إذا ندعوا الله نرفع أيدينا قبل وجهنا ،وإذا نتكلم عن الله عزوجل ننظر إلى السماء ، لكن مع ذٰلک لو واحد يسألنا هل الله فى مكان؟ فنجيب أنهٔ متنزه عن المكان قطعا وبتاتا، فنظرنا إلى السماء إشارة إلى علوه وعظمته وليس إشارة إلى تحيزه (تعالى الله عن ذٰلک) ونحن نرىٰ أن الأرض علىٰ شكل الكرة ،فيقوم الإنسان فى بلد من بلاد الأرض ،فينظر إلى العلوّ فطريا عندما يتكلم عن الله سبحانهٔ وتعالىٰ ،وكذٰلک واحد آخر يقوم فى بلد الذى هو فى القطر يخالف القطر الذى فيه الإنسان السابق أي على مائة وثمانين درجة من الإنسان السابق ،فهٰذا أيضًا عندما يتكلم عن الله عزوجل ينظر إلى السماء ،يعنى إلى العلو ،وفى الحقيقة عند ما هٰذا الثانى ينظر إلى العلو ،فهو ينظر إلى السفل بنسبة الإنسان السابق ،وعند ماينظر الإنسان السابق إلى العلو ينظر إلى السفل بنسبة هٰذا الثانى ، لكن مع هٰذا كلاهما ينظران إلى العلو ،وكذٰلک الإنسان فى القطر اليمين والشمال من هٰذين الاثنين السابقين ينظرون إلى العلو ،ولوكان هٰذا بمعنى التحيز فى الجهة لكان الله تعالى متحيزا فى جميع الجهات؛ لأن الأرض كروية وكل واحد فى الأرض حيثما كان ينظر إلى العلو ،يعنى ينظرون إلى جميع الجهات لكرة الأرض ، وابن تيمية وأتباعه لايقولون: إنه فى جميع الجهات، بل يقولون: إنه فى جهة الفوق ، لكن جهة الفوق تؤدى إلى جميع الجهات بنسبة

الكرة الأرضية؛ لأن الجهات اعتباري فما هو فوق بنسبة واحد لايكون فوقا بنسبة آخر، بل قد يكون سفلا أو يمينا أو شمالا أو أماما أوخلفا ،فهذا أيضًا يظهر فساد قول ابن تيمية وأتباعه ،فمعنى في السماء أو إشارة إلى السماء يعنى هو متصف بالعلو والعظمة والقهر والغلبة والتنزه والتقدس ،فكما نحن في السجود نضع جبهتنا على الأرض ،ونقول سبحان ربي الأعلى ،فنشير أننا أخساء والوضعاء أمام علو الله وعظمته ،ولانعنى أنهٗ متحيز إلى جهة الأرض ،فكذلك نشير إلى السماء إشارة إلى وضعنا وخساستنا ومقهوريتنا ومغلوبيتنا أمام علو الله وعظمته ،وكما نصلي إلى القبلة ونستقبل ربنا عزوجل كما في الحديث ، وليس المعنى أنهٗ تعالى متحيز أمامنا، بل بمعنى نحن نتوجه إلى القبلة التي امرنا بتوجهها فكأننا نستقبلهٗ تعالى وكذلك نرفع أيدينا في الدعاء ونشير إلى السماء يعنى إلى العلو إشارة إلى علوه وعظمته ، ثم من السماء ينزل الملائكة بالوحي وأيضًا إليهاترفع أعمال العباد وأيضًا ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (الذاريات:٢٢) ، لكن ليس المعنى أن الله تعالى متحيز في جهة من الجهات؛ لأنهٗ خالق الجهات والأماكن ،وكان الله قبل خلقها وهو الأن على ماكان الله أكبرا وفي قصة أخرى أخرجه أبوداؤد سال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جارية سوداء نوبية: من ربك ؟ فقالت: "الله ." (سنن أبي داود، ح:٣٢٨٣) ففي هذا الحديث سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الجارية عن ربه ،يعنى هل تعرف وتعلم وتعتقد أن الله ربه دون الأوثان الأجسام وفي الحديث الآخر الذى ذكرنا سأل جارية "أين الله؟" يعنى هل هي تعرف وتعتقد أن الله تعالى ربه ،المتصف بالعلو والتنزه دون الأجسام الأوثان المتصفة بصفات المخلوق ، ففي جميع الأحوال القصد هو التثبت عن ماتعتقد الجارية وتعبد ،هل الله المتعال أو الأوثان الأجسام السافلة ،والله أعلم ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

فحاصل الكلام أن الله عزوجل فوقنا ، لكن فوقيته ليست كفوقية المخلوق وكيف وفي القرآن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى:١١) فمن شبه فوقية الله بفوقية الخلق ،فقد أبطل الآية وصار من المشبهة ،ومن جحد الفوقية فقد جحد القرآن؛ لأن القرآن يقول: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ (الأنعام:٦١) فالحق أن الله عزوجل فوق كل شيء ، لكن ليس كالفوقية المعهودة وهذا هو المذهب للسلف الصالح ،ونحن قد ذكرنا قبلا أننا سنتكلم عن مذهب السلف الصالح ،فمذهب السلف الصالح إثبات فوقية الله تعالى وعلوه على خلقه ، لكن ليس على معنى الفوقية المعهودة التي تتعلق بالجهة، بل كما يليق بشانه متنزها عن الجهات والأماكن ،ونحن نتبع السلف الصالح في هذا ، فلهذا مأثور عن كثير من السلف الصالح أنهم لايحدون الله بحدود.

قال أبوحنيفة رحمه الله تعالى: "لاحدلهٗ ولاند لهٗ ولاضد لهٗ وقال: إن قربه وبعدهٗ لايتعلق

بالمسافة ولكن على معنى الكرامة والهوان." (الفقه الأكبر) وقال فى كتابه الوصية: " إنه يرى فى الآخرة بدون الجهة" وقال زين العابدين رضي الله عنه من أئمة أهل البيت: "ليس بمحدود لحد" ونحن ذكرنا عن علي رضي الله تعالى عنه أنهٗ قال: إن الله عزوجل "لاحد له" نقلهٗ عنه حافظ أبونعيم فى كتاب "الحلية" ،ونقل الإمام البيهقي رحمه الله تعالى من كثير من السلف الصالح أنهم لايحدون الله بحدود فى كتابه "الأسماء والصفات" فلو كان السلف الصالح يثبتون الفوقية بمعنى الفوقية المعهودة لحدّوا الله بحد؛ لأنهٗ لايكون الشيء فى جهة مخصوصة إلا هو محدود بهٰذه الجهة ،وهذا دليل آخر لفساد من أثبت الجهة لله تعالى؛ لأن الله تعالى محيط بكل شيء ،ولايحيطه أي شيء ،فلايكون متحيزا محدودا فى جهة؛ لأنهٗ يؤدى إلى أن يكون محاطا،وليس محيطا وتعالى الله عن ذٰلك ، ثم قد بينا أن إحاطته ليست كإحاطة الخلق؛ لأنهٗ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١)

فنحن نتبع السلف الصالح ؛لأنهم يتبعون القرآن والسنة ،ونثبت لله علوا وفوقية وعظمة وقهرا وغلبة على الإطلاق كما يليق بجلاله وفوقيته لاتشبه فوقية الخلق كما قربه لايشبه قربة الخلق، فهو الله الواحد القهار علي فى دنوه وقريب فى علوه ،لاتخالف صفاتهٗ صفاته ولايشغلهٗ شأن عن شأن؛ لأن الشغل بشيء لايجوزعليه؛ لأنهٗ من صفات الضعف يليق بالمخلوق ،وهو الواحد القادر الغالب على الإطلاق ،فهو فوق العرش فوق كل شيء بفوقية لاتزيدهٗ قربا من العرش ولابعدا من الأرض ،فهو العلي القريب الشهيد وهو على كل شيء قدير، الله أكبر.

ولئن سألتم الآن أنهٗ بيّن لنا معنى البينونة والاتصال والانفصال ؛ لأن ابن تيمية وأتباعه يقولون: إن الله بائن عن خلقه ،وكثير من الاشاعرة والماتريدية يقولون: إن الله عزوجل ليس متصلا بالخلق ولامنفصلا. فقلنا بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز: إن كلمة "بائن" لم نجد فى القرآن والأحاديث حسب علمنا لله عزوجل ،فمن أين لابن تيمية وأتباعه أن يطلقوا هٰذه الكلمة على الله من غير دليل من القرآن أو السنة أو الإجماع ،ونحن لانعرف إجماعا لإطلاق هٰذه الكلمة على الله، وأتباع ابن تيمية ينتقدون علينا لإطلاق الكلمة "القديم" على الله تعالى ،وفى الحقيقة أنهٗ هناك حديث فى ابن ماجة فى إطلاق الاسم القديم على الله عزوجل ،ثم هو مأثور من السلف ،وقال الإمام الطحاوي القديم بلا ابتداء ،وأيضًا هم يطلقون الاسم الأزلي على الله ،هل لهم دليل لهٰذا من القرآن والسنة؟ فكيف ينتقدون علينا على إطلاق الاسم القديم؟ وقد أطلق ابن قيم على الله الاسم القديم وهو شيخهم ،نحن نسأل أتباع ابن تيمية أخبرنا من أين أثبتم هٰذه الكلمة "البائن" لله عزوجل. وكذٰلك المتصل والمنفصل لانجد إطلاقهما على الله عزوجل فى القرآن والسنة حسب علمنا

فالأشاعرة والماتريدية مصيبون على عدم إطلاقهما على الله عزوجل ، ومانحن نجد فى القرآن من اسم الجلالة الذى يتعلق ببحثنا هذا ،هو "الغني" وهذا من أسماء الله تعالى ،ومعناه أنهُ الغني عن غيره على الإطلاق ،فعلينا أن نقول: إنهُ الغنى على الإطلاق ،فلايحتاج إلى خلقه فى وجوده وبقائه ،فلايكون فيه ولايكون الخلق فيه؛ لأنهُ لو كان فى خلقه لكان محاطا محصورا ،تعالى الله عن ذلك ،وكذلك لكان حينئذٍ متحيزا ،تعالى الله عن ذلك ،وكذلك حينئذٍ لكان متمكنا ،تعالى الله عن ذلك ،وكذلك لكان حينئذٍ محتاجا ،تعالى الله عن ذلك ،وكذلك حينئذٍ خليطا بالخلق حتى يكون القصد إلى المخلوق قصد إليه ،تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ،وهذاالشيء يؤدى إلى عبادة غير الله وتأليهتهم نعوذبالله ،وكذلك حينئذٍ لكان متشبها بالمخلوق ،وتعالى الله عن ذلك ،وكذلك لو كان الخلق فيه لكان ظرفا متحيزا؛ لأن الظرف لايكون إلا متحيزا ،وتعالى الله عن ذلك ،وكذلك حينئذٍ لكان مقدرا مقيسا؛ لأن الظرف لايكون إلا مقدرا مقيسا ،وتعالى الله عن ذلك ،وكذلك حينئذٍ لكان متجزأً؛ لأن المقدر المقيس لايكون إلا متجزأ ،وتعالى الله عن ذلك ،وكذلك حينئذٍ ليقوم به الخلق؛ لأن لوكان الخلق فيه والخلق يقوم بالمخلوق فيؤدى إلى قيام الخلق بالله ،وهذا يؤدى إلى أن يكون الله مخلوقا ،وتعالى الله عن ذلك ،وكذلك حينئذٍ لكان متشبها بالخلق؛ لأن الظرف مخلوق ،وتعالى الله عن ذلك. فحاصل الكلام أن الله عزوجل لغني عن العالمين ،فهو ليس فى غيره ولاغيره فيه ،وهو ليس غيره ولا غيره هو ،وهذا معلوم من الدين بالضرورة ومن العقل ،ومن جحد هذا فقد كفر بالله وحده.

فحاصل الكلام أن الله عزوجل غني على الإطلاق عن غيره ،وهو ليس خلقه ولاخلقه هو ،وهو ليس فى خلقه ولاخلقه فيه ،وهذا معلوم من الدين بالضرورة ،وأما البينونة فلو هي على معنى الغناء فهو صحيح فى معناه ، لكن إطلاقه على الله يحتاج إلى دليل من القرآن أو السنة أو الإجماع، ونحن لانعرف دليلا لإطلاقه من هذه الأشياء ،وأما البينونة على معنى الانفصال الجسمي ،فهذا المعنى لايجوز إطلاقه على الله عزوجل؛ لأن الله عزوجل ليس جسما ،فالانفصال الجسمي لايليق به، ومعنى الانفصال الجسمي هو انفصال على منوال الانفصال الجسم عن الجسم الذى يؤدى إلى المسافة بينهما وتحديد الحدود لهما وتمكنهما وتحيزهما فى المكان وكونهما محاطا بهما من الحيزان لهما وغيرها من الأشياء من صفات الأجسام ،وكلها لاتجوز على الله عزوجل ،تعالى الله عن ذلك ، فلهذا الأشاعرة والماتريدية قالوا: إنهُ ليس منفصلا من الخلق ،وهم يعنون بهذه المقالة الانفصال الجسمي ،فهم مصيبون فى نفي الانفصال الجسمي عن الله تعالى ،وأيضًا لم نجد فى القرآن والحديث والإجماع إطلاق الانفصال على الله تعالى ،فلايجوز إطلاقه على الله عزوجل ،ثم إطلاقه

على اللّٰه عزوجل يؤدى إلى وقوع الناس فى الضلالة والالتباس؛ لأنهٗ قد يطلق واحد الانفصال على اللّٰه عزوجل علىٰ معنى الغناء الذى ذكرنا ،وهو من صفات اللّٰه عزوجل ، لكن السامع يفهم منه معنى الانفصال الجسمي؛ لأن هٰذه الكلمة تحتوى علىٰ هٰذا المعنى ،فيقع فى الضلالة ،وهٰذا لايجوز ،وكذٰلك مايؤدى إليه لايجوز ،وأما كلمة الاتصال فلايجوز على اللّٰه عزوجل؛ لأنهٗ ينافى صفته الغناء على الإطلاق ،فلايحتاج ولايتعلق وجوده على الخلق، بل هو قائم بالنفس ،وأيضًا ينافى الاتصال والانفصال صفة "ليس كمثله شيء"؛ لأن الاتصال والانفصال من صفات المخلوق ،واللّٰه تعالىٰ عن صفات المخلوق ،فكونه ليس فى خلقه ولاخلقه فيه لايشبه انفصال الخلق ،كما كونه الشهيد والقريب لايشبه اتصال الخلق ،ثم الاتصال ينافى ماذكرنا سابقا من كون اللّٰه عزوجل ليس فى غيره ولاغيره فيه ،وأيضًا لانجد فى القرآن والحديث والإجماع إطلاق الاتصال على اللّٰه عزوجل فلايجوز إطلاقه عليه ولوعلىٰ معنى الشهادة والقرب والمعية التى من صفات اللّٰه عزوجل كما يليق بشأنهٗ بدون أخذه علىٰ معنى الاتصال الجسماني وبدون إرادة النفي لكونه تعالىٰ ليس فى خلقه ولاخلقه فيه؛ لأنهٗ غير وارد ،فلايجوز ،وأيضًا يؤدى إلى وقوع الناس فى الضلالة والالتباس كما ذكرنا فى بيان الانفصال . فالأشاعرة والماتريدية مصيبون علىٰ نفيهم إطلاق الاتصال على اللّٰه عزوجل.

ثم كما ذكرنا البينونة علىٰ معنى الغناء فهي علىٰ هٰذا المعنى صحيح للّٰه عزوجل ، لكن فى إطلاقه على اللّٰه عزوجل نظر؛ لأنهٗ يحتاج دليلا ولانجده ،وأما ما روي عن بعض السلف إطلاق البائن على اللّٰه عزوجل فهو ماكان منه ابتداء، بل ردا علىٰ الجهمية الذين يقولون: إن اللّٰه عزوجل فى كل مكان ،فهم ردوا عليه وأتوا بالاصطلاح الصريح علىٰ إفادة المعنى علىٰ كونه ليس فى خلقه ولاخلقه فيه ،فقالوا: هو بائن عن خلقه ،ولم يورد هٰذا الاصطلاح، بل من قليل منهم علىٰ حسب علمنا ،وهو كما ذكرنا لصراحة ردهم على الجهمية ،وهم عنوا نفس المعنى من هٰذه الكلمة الذى ذكرنا فى معنى "الغنى" سابقا ،ولم يعنوا قطعا وبتاتا الانفصال الجسماني وكيف؟ كلهم اتفقوا علىٰ نفي الحد عن اللّٰه عزوجل ونفى الحد عنه تعالىٰ مأثور من كثير السلف ،ونحن ذكرنا سابقا عن أبى حنيفة رحمه اللّٰه تعالىٰ نفي الحد والجهة والمسافة عن اللّٰه تعالىٰ ،وكذٰلك عن الإمام زين العابدين رضي اللّٰه تعالىٰ عنه ،وكذٰلك عن سيدنا علي رضي اللّٰه تعالىٰ عنه ،وكذٰلك الإمام الطحاوي فى كتاب هٰذا "وتعالىٰ عن الحدود والغايات" ونقل عبدا لقاهر البغدادي رحمه اللّٰه تعالىٰ إجماع المسلمين علىٰ نفي الحد والنهاية عن اللّٰه عزوجل فى كتابه "الفرق بين الفرق" ،ونقل البيهقي رحمه اللّٰه تعالىٰ عن كثير من السلف الصالح رضي اللّٰه تعالىٰ عنهم نفي الحد عن اللّٰه تعالىٰ بسنده فى كتابه المشهور العزيز " الأسماء والصفات" وكيف لا ؟ وفى القرآن ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ (حم سجدة:٥٤) فهو

محيط بكل شيء ،فلايحيطه أي شيء ،ومن صار محدودا بحد صار محاطا محدودا بجهة ،تعالىٰ الله عن ذلك ،وأيضًا الحدود مختلفة ،فلابد لمحدود من المحدّد المخصّص يحده ويخصصه بحدما ،وهذا يؤدى إلى كون الله تعالىٰ حادثا مخلوقا ،تعالىٰ الله عن ذلك ،وأيضًا المحدود يكون متحيزا في حيزما ، ونحن ذكرنا سابقا أن كونه تعالىٰ متحيزا قول باطل ، وأيضًا هذا يؤدى إلى كون الحيز أزليا معه؛ لأن الله تعالىٰ أزلي ،وهذا يؤدى إلى كون العالم أزليا؛ لأن الحيز من العالم ،وهذا كفر بواح، وأيضًا يؤدى إلى قيام الحوادث بذاته تعالىٰ ، ونحن ذكرنا بطلان هذا سابقا. فالذين من السلف الصالح أطلقوا كلمة "البائن" على الله عزوجل لم يعنوا قطعا وبتاتا الانفصال الجسماني، بل عنوا ردا على الجهمية القائلة :بكونه تعالىٰ في مكان ،فقالوا ردا عليها: إنهٔ تعالىٰ غني عن العالمين ،وليس في خلقه ولاخلقه فيه.

وأما المشبّهة والمجسمة الذين ينسبون أنفسهم إلى المحدثين أو الحنابلة ،فهم غلوا غلوًاشديدا كريها خبيثا ،فأطلقوا كلمة "البائن" على الله عزوجل علىٰ معنى الانفصال الجسماني، فقالوا: هو بائن عن خلقه مستوى علىٰ عرشه بحد بينه تعالىٰ وبين الخلق والمسافة ،وقالوا: هو في جهة الفوق فوق كل شيء بائنا عن كل شيء حتىٰ يذهب واحد إلى الفوق ،يتقرب إليه تعالىٰ مسافة، ولو يذهب إلى السفل يتباعد منه مسافة ،وحدوه بجهة الفوق ،وقالوا: إن لهٔ مكان وهو العرش ،وهو فوق العرش وحدوا لهٔ الحد والغاية ،وابن تيمية وأتباعه منهم ، هؤلاء الناس قلّدوا فرعون في قوله ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ (غافر:٣٦-٣٧) والأغلب أن النبي الرسول سيدنا موسىٰ عليه الصلوات والسلام ذكرالله تعالىٰ ،فذكر صفاتهٔ العلو والارتفاع والعظمة والفوقية ،ففرعون أخذه علىٰ معنى الجسمية الظاهرة المتبادرة ولم يعرف أن الله واحد لاشريك لهٔ ،ليس كمثله شيء وهو السميع البصير؛ لأنهٔ كان كافرا من عبدة الأجسام ،فقال ما قال الذى يقتضى الجسمية من التحيز والتمكن ،وقد رد الله عزوجل عليه ،فقال ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ (غافر:٣٧) فهؤلاء القوم قلدوا فرعون في هذا المجال ،وأطلقوا الصفات على الله عزوجل تقتضى الجسمية من الجهات والتحيز والحد ،وكما رد الله عزوجل علىٰ فرعون فما ظنك عنهم؟ ونحن قد بيّنا بطلان التحيز في الجهة والمكان عن الله عزوجل ،وكذلك بطلان كونه محدودا بحد، وكذلك بطلان كونه بائنا منفصلا ،وبطلان إيصافه بالمسافاة لأن هذا يؤدى إلى الحد والتحيز وبطلان إيصافه بالمكان ،وأيضًا ذكرنا أن إطلاق البينونة والانفصال ، ولو بالمعنى الصحيح يعني معنى الغناء وليس على المعنى البينونة الجسماني والانفصال الجسماني ،على الله عزوجل ليس

صحيحا؛ لأنهٔ لم يثبت من القرآن والحديث والإجماع حسب علمنا والقرآن يخبرنا أنهٔ تعالٰی "الغني."

فنحن نقول: إنهٔ غني على الإطلاق و نتحاشى من الكلمات لم تثبت في علمنا ، فبقي الكلام في الاستواء على العرش ، ففي القرآن ﴿الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوٰى﴾ (طٰه:٥) فمن جحد الاستواء على العرش فقد كفر باللّٰه وحدهٔ ،فلاشك قطعاًوبتاتا أن اللّٰه عزوجل مستوى علٰى عرشهٖ كما يليق بشأنهٔ ،ثم قد كثر الكلام في معنى الاستواء على العرش ،فأما المجسمون المشبهون فقد أوّلوا الاستواء علٰى معنى الاستقرار ،وابن تيمية وأتباعه منهم ،وهم أخذوا هٰذا التفسير من مقاتل وكلبي ،فأما مقاتل فقد قال أبوحنيفة رحمه اللّٰه تعالٰى عنه: إن مقاتل كان مشبها، وليس فقط أبوحنيفة، بل مقاتل مشهور بهٰذه النسبة ،وأما كلبي فهو كذاب كما هو المعروف عند المحدثين ،وهٰذا هو المبلغ لهٰؤلاء المجسمين في تأويلهم للاستواء بالاستقرار ،ثم الاستقرار لايجوز على اللّٰه تعالٰى؛ لأن الاستقرار عبارة عن التمكن في المكان ،وهٰذا لايجوز على اللّٰه تعالٰى كما بينا من قبل ،ومع ذٰلك الاستقرار يعبر عن السكون والقرار بعد الاضطراب ،فيقال استقر أمره علٰى ذٰلك ،يعني قبل ذٰلك هٰذا الأمر كان مضطربا منتشرا متشتتا فاستقر يعني سكن واجتمع علٰى ذٰلك ،فهٰذا ظاهر أن هٰذه الأشياء قطعا وبتاتا لاتجوز على اللّٰه تعالٰى ،فلايجوز الاضطراب على اللّٰه عزوجل حتٰى استقرمنه (لاحول ولاقوة إلا باللّٰه) ؛ لأن الاضطراب والانتشار وأمثالها عوارض حادث ،ولايجوز قيام الحوادث باللّٰه عزوجل وأيضًا هي من صفات الأجسام ،واللّٰه عزوجل ليس جسما ،وأيضًا هي من صفات النقص ،وهٰذا بديهي؛ لأن الاضطراب والانتشار وأمثالهما تدل على الضعف والجهل والمغلوبية والعجز والتردد للمضطرب والمنتشر؛ لأنهٔ مغلوب بهٰذا الاضطراب ،فلايعلم ما يفعل، فيتردد ويتأذى من هٰذا الاضطراب ،فلايستطيع أن يدفعه فيعجز ويضعف حتٰى يستقر من الاضطراب، وهٰذا كلهٔ قطعا وبتاتا لايجوز على اللّٰه عزوجل حسب القرآن والأحاديث وإجماع المسلمين القطعي. فتأويل الاستواء بالاستقرار والتمكن لايجوز ، وهٰذا تأويل المشبهة والمجسمة ،وكذٰلك تأويل الاستواء بالصعود مروي عن كلبي وهو كذاب ،وأيضًا الصعود لايجوز على اللّٰه؛ لأنهٔ إنتقال من مكان إلى مكان وقد بينا من قبل أن اللّٰه عزوجل متنزه عن الحلول والتمكن والتحيز والمكان والجهات ،فأي من تأويل يؤدى إلى هٰذه الأشياء ،فلايمكن أخذه؛ لأنهٔ لايجوز على اللّٰه عزوجل.

ثم هناك معاني لاستواء وفي الآية ﴿ثُمَّ اسْتَوٰى إِلَى السَّمَاءِ﴾ (البقرة:٢٩) معناه قصد إليها أي بخلقه واختراعه عند سفيان بن عيينة وابن كيسان ،كذا نقلهٔ القرطبي وفي الآية ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوٰى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾ (القصص:١٤) معناه تم شبابهٔ وكمل عقلهٔ وتفكيرهٔ ،كذا في التفسير وفي

الآية ﴿الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوٰى﴾ (طه:٥) ﴿ثُمَّ اسْتَوٰى عَلَى الْعَرْشِ﴾ (الأعراف:٥٤) كلمة الاستواء أتى بالحرف الجر "على" فإذا نحن نرىٰ في القرآن في الآيات ﴿وَالَّذِىْ خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُوْنَ لِتَسْتَوُوْا عَلٰى ظُهُوْرِهٖ ثُمَّ تَذْكُرُوْا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُوْلُوْا سُبْحَانَ الَّذِىْ سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَهٗ مُقْرِنِيْنَ﴾ (الزخرف:١٢-١٣) والآية ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيْلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهٗ فَآزَرَهٗ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوٰى عَلٰى سُوْقِهٖ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيْظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ (الفتح:٢٩) نحن إذا نغور في هذه الكلمات ﴿إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُوْلُوْا سُبْحَانَ الَّذِىْ سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَهٗ مُقْرِنِيْنَ﴾ (الزخرف:١٣) فإذا يستوى الراكب على الدابة فهي مسخرة له بتسخير الله تعالىٰ إياها له، فذكر الاستواء مع التسخير في نفس الآية ،فانسجام الآية قد يدل علىٰ علاقة الاستواء مع التسخير، فانظر إلىٰ هٰذه الآيات ﴿ثُمَّ اسْتَوٰى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهٗ حَثِيْثًا وَّالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُوْمَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهٖ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللّٰهُ رَبُّ الْعٰلَمِيْنَ﴾ (الأعراف:٥٤) ﴿ثُمَّ اسْتَوٰى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ (الرعد:٢) ثم نغور في هٰذه الكلمات ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهٗ فَآزَرَهٗ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوٰى عَلٰى سُوْقِهٖ﴾ (الفتح:٢٩) يعني الزرع استقام وقام علىٰ أصوله وليس المعنى الزرع استوىٰ علىٰ سوقه كما نستوى على الدابة، بل معنى أنهٗ استقام وقام علىٰ أصوله ،فقد يدل علىٰ أن معنى الاستواء يحتوى علىٰ قيام علىٰ شيء ،فالاستواء علىٰ العرش يعني قيام على العرش ،والعرش يدل على الملك والسيطرة والسلطة ،فيعني قيام على الملك والسلطة والسيطرة. فانظر هٰذه الآيات ﴿اللّٰهُ الَّذِىْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِيْ سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوٰى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُوْنِهٖ مِنْ وَّلِيٍّ وَّلَا شَفِيْعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُوْنَ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِيْ يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهٗ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّوْنَ﴾ (الم سجدة:٤-٥) ﴿هُوَ الَّذِىْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِيْ سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوٰى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيْهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللّٰهُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ بَصِيْرٌ لَهٗ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللّٰهِ تُرْجَعُ الْأُمُوْرُ﴾ (الحديد:٤-٥) فالاستواء يدل علىٰ معنى التسخير وقيام على الملك والسلطة يعني تدبيرها ،فهٰذا يدل علىٰ استيلاء الله تعالىٰ وملكه وسلطته وتدبيره وتسخيره للعالمين.

فلو قيل: إن الله تعالىٰ كان لهٗ الملك والسلطة والتدبير والتسخير قبل الاستواء على العرش ،والآية تقول﴿ثُمَّ اسْتَوٰى عَلَى الْعَرْشِ﴾ "ثُمَّ اسْتَوٰى عَلَى" فلو كان الاستواء يدل على الملك والاستيلاء والسلطة ،فهي حاصلة من قبل علىٰ كل شيء مع العرش ،فماذا معنى لحصول الشيء الحاصل؟ وماذا التخصيص للاستواء بالعرش حينئذٍ؟ فقلنا بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز: إنهٗ إذا نغور في الآيات عن الاستواء على العرش يبدو أنهٗ تعالىٰ يتكلم عن خلق السمٰوات والأرض

،ويتكلم أنهٗ سبحانهٗ وتعالىٰ بعد خلقها لم يصر غافلا عنها تاركا لها مهملا عنها، بل هو بعد خلقها متصرف فيها مدبر لها حاكم عليها ،وكل شيء فى العالم مسخر تحت قدرته وأمره جار ونافذ فيه ،وجميع الحوادث فى العالم بخلقهٖ وقدرته وإرادته ومسخرة تحت أمره وتدبيره ،وفيه رد للمشركين الكافرين الذين يؤمنون أن الله عزوجل خالق السمٰوات والأرض ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُوْلُنَّ اللّٰهُ فَأَنّٰى يُؤْفَكُوْنَ﴾ (العنكبوت: ٦١) ثم يشركون غيره معه ويدعوهم لحاجاتهم إما باتخاذهم شفعآء عند الله عزوجل أو باتخاذهم متصرفا مدبرا فى بعض أمور العالم. فانظر هٰذه النصوص ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللّٰهُ الَّذِىْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِىْ سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوٰى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيْعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهٖ ذٰلِكُمُ اللّٰهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوْهُ أَفَلَا تَذَكَّرُوْنَ﴾ (يونس:٣) وفى سورة الرعد فى الآية ﴿اَللّٰهُ الَّذِىْ رَفَعَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوٰى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَّجْرِىْ لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوْقِنُوْنَ﴾ (الرعد:٢) ثم ذكر كثيراً من أفعاله وصفاتهٖ وفى ضمنها أشياء أخرى حتىٰ قال ﴿لَهٗ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِهٖ لَا يَسْتَجِيْبُوْنَ لَهُمْ بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهٖ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِيْنَ إِلَّا فِىْ ضَلَالٍ وَلِلّٰهِ يَسْجُدُ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَّكَرْهاً وَّظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ قُلْ مَنْ رَّبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللّٰهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُوْنِهٖ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُوْنَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَّلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمٰى وَالْبَصِيْرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَالنُّوْرُ أَمْ جَعَلُوْا لِلّٰهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوْا كَخَلْقِهٖ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّٰهُ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَّهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (الرعد:١٤-١٦) وكذٰلك انظر هٰذا ﴿اَللّٰهُ الَّذِىْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِىْ سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوٰى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِّنْ دُوْنِهٖ مِنْ وَّلِيٍّ وَّلَا شَفِيْعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُوْنَ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِىْ يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهٗ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّوْنَ﴾ (الم سجدة:٤-٥) وكذٰلك انظر هٰذا ﴿تَنْزِيْلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمٰوَاتِ الْعُلَا الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوٰى لَهٗ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرٰى﴾ (طٰه:٤-٦) فهٰذه الآيات تدل علىٰ أن الله عزوجل خلق السمٰوات والأرض وبعد خلقها يتصرف فيها بالكامل دون شركة غيره ،فيأيها المشركون الكافرون لاتتخذوا من دونهٖ أوليآء؛ لأنهم لايملكون نفعا ولاضرا ولايتصرف فى شيء ما وأنتم تعتقدون أن الله عزوجل خالق السمٰوات والأرض ،فاعلموا أنهٗ بعد خلقها ليس مهملا فى حقها ،تعالىٰ الله عن ذٰلك، بل كل شيء فى العالم تحت تسخيره وتدبيره وأمره جار ونافذ فيه. فجواب اعتراضكم الأول أنهٗ تعالىٰ كان قبل الاستواء على العرش مدبرا حاكما مسخرا ،فماذا معنى لحصول الشيء الحاصل ؟ فجوابه أنهٗ هو ليس على المعنى بحصول الشيء الحاصل، بل إخبارا أنهٗ تعالىٰ بعد خلق السمٰوات والأرض لم يصر مهملا عنها، بل

يدبرها وكل شيء في العالم تحت أمره لم يزل ولايزال مسخر تحت قدرته والمعلوم أن التدبير والأمر والتسخير من صفات الله تعالىٰ ،وهي لم تتعلق بالسمٰوات والأرض ومابينهما إلا بعد خلقها ،وكيف تتعلق أمره وتدبيره وتصرفه وبالسمٰوات والأرض وما بينهما وهي لم تكن موجودة بعد ،فأخبر اللّٰه تعالىٰ أنهٗ عزوجل خلق السمٰوات والأرض ومابينهما وبعد خلقها لم يتركها، بل يدبرها ويتصرف فيها ،فأيها الناس لاتعبدوا غير الله ولاتتخذوا من دونهٖ أوليآء ؛لأنهم لايتصرفون في العالم بشيء ما، بل الله وحدهٗ مدبر متصرف في العالم دون شركة غيره ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِيْنَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُوْنِ اللّٰهِ لَا يَمْلِكُوْنَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَلَا فِي الْاَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيْهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَّمَا لَهٗ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيْرٍ﴾(سبا:٢٢) والاستواء على العرش يدل علىٰ جميع هٰذه المعاني ،وهٰذا جواب لاعتراضكم الثاني وهو لماذا خصص العرش بالاستواء ،فجوابه؛ لأن العرش يدل على السلطة والملك علىٰ جميع العالم ،والآيات عن الاستواء على العرش تدل علىٰ هٰذا ،وكذٰلك اللغة ،فيقال ثلّ عرشه (وأيضًا معنى الاستواء في اللغة العربية قد يكون علىٰ معنى الاستيلاء ،فيقال استوى الأمير علىٰ مملكته ،يعني ظهر واستولىٰ وفي الشعر:

قد استولى بشر على العراق

من غير سيف ودم مهراق)

يعني ملكه وسلطته وفي قصة هرقل مع أبي سفيان كما ذكره البخاري ،قال هرقل "فإن كان ماتقول حقًا فسيملك (يعني النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم) موضع قدمي هاتين ." (صحيح البخاري، ح:٧ ١٩٦) موضع قدميه إشارة إلىٰ عرشه ولم يعن عرشه الحسي، بل ملكه وسلطته. فاستوائه تعالىٰ على العرش يدل علىٰ سلطته علىٰ جميع العالم ولو ذكر غير العرش ،فلايأتي بهٰذا المعنى الشامل ،والله أعلم.

فحاصل الكلام استواء اللّٰه تعالىٰ على العرش يحتوى علىٰ معنى أنهٗ جميع العالم مسخر تحت قدرته وأمره جار ونافذ عليه وهو يدبره ويتصرف بلاشركة غيره ،وهٰذا مفهوم من انسجام الآيات القرآنية عن الاستواء على العرش وربطها وسياقها ،ومع ذٰلك لانجدّ المعنى للاستواء، بل الحقيقة الكاملة للاستواء على العرش وكنهه ماوراء عقولنا؛ لأنهٗ من صفات الله تعالىٰ المتشابهة والله عزوجل يقول ﴿هُوَ الَّذِيْٓ اَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتٰبَ مِنْهُ اٰيٰتٌ مُّحْكَمٰتٌ هُنَّ اُمُّ الْكِتٰبِ وَ اُخَرُ مُتَشٰبِهٰتٌ فَاَمَّا الَّذِيْنَ فِيْ قُلُوْبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُوْنَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَآءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَآءَ تَاْوِيْلِهٖ وَ مَا يَعْلَمُ تَاْوِيْلَهٗٓ اِلَّا اللّٰهُ وَ الرّٰسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ يَقُوْلُوْنَ اٰمَنَّا بِهٖ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَ مَا يَذَّكَّرُ اِلَّآ اُولُوا الْاَلْبَابِ﴾ (آل عمران:٧) وسئل الإمام مالك رحمة اللّٰه عليه عن معنى الاستواء ،فقال "الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول

والسؤال عنه بدعة والإيمان به واجب" ونحن لانعدل عن مسلك السلف فى الاستواء على العرش ،فنؤمن به بلاكيف؛ لأن الكيفية لاتجوز على اللّٰه، لأنهٗ من يكيفه فيشبهه ،ولايجوز على اللّٰه التشبيه؛ لأنهٗ ليس كمثلهٖ شيء وهو السميع البصير ،ومسلك السلف الصالح نفي الحد والنهاية عن اللّٰه تعالٰى ونفي المكان والجهة عنه مع الإيمان بالاستوآء على العرش ،فنؤمن أن اللّٰه عزوجل مستوى على العرش فكل شيء مسخر تحت قدرته ،وهو يدبرها ويتصرف فيها بلا شركة غيره وهو تعالٰى وتقدس عن الاستقرار والتمكن والتحيز والحلول والإنتقال والسكون والحركة والجهات والأقطار والأمكنة والأزمنة؛ لأنهٗ ليس كمثلهٖ شيء وهو السميع البصير.

وابن تيمية وأتباعه فقد ضلوا ضلالا بعيدا ،فشبهوا اللّٰه بخلقهٖ وقالوا: الاستواء على العرش هو الاستقرار عليه (حقيقة) وقالوا: إن اللّٰه عزوجل بائن عن خلقه، والعرش انتهاء الخلق وهو فوق العرش بائن عن جميع الخلق ،فهم يوصفون اللّٰه بالبينونة الجسمانية التى تتعلق بالمسافة والحد وإيصاف اللّٰه بالبينونة الجسمية فى غاية تشبيهه بالخلق ؛ لأنها من صفات الأجسام ،ولهٰذا نقول البينونة الجسمية ،ونحن قد بينا فسادها من قبل ثم الكلمة البائن (حتٰى فى معنى الصحيح) لم نجدها فى القرآن والأحاديث حسب علمنا ولا فى الإجماع وإيصاف اللّٰه تعالٰى بالصفات ليست فى القرآن والسنة والإجماع فى غاية الضلالة وفى القرآن ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ (الزمر:٣٢) وقد بينا أيضًا فساد إيصاف اللّٰه تعالٰى بالاستقرار والتمكن ،وهٰذا أيضًا فى غاية التشبيه؛ لأن الملك المخلوق فاستوائه علٰى عرشه قد يكون علٰى معنى الاستقرار عليه؛ لأنهٗ جسم مخلوق فيستقر فى مكان ،فمن فهم استواء اللّٰه تعالٰى كاستواء المخلوق فقد شبه اللّٰه بخلقهٖ، ونحن قد بينا قبلا أن معنى ليس كمثلهٖ شيء وهو السميع البصير أنهٗ تعالٰى لايشبه غيره ولا غيره هوفى وجه ما من الوجوه.

ثم من أين لابن تيمية وأتباعه أن يدعى أن العرش منتهاء الخلق ،وفى الحديث "لما خلق اللّٰه الخلق كتب فى كتابهٖ ،فهو عندهٗ فوق العرش : إن رحمتى تغلب غضبى ." (صحيح البخاري، ح:٧٤٠٤) وهٰذا كتاب وما مكتوب فيه لامحالة مخلوق وهو فوق العرش ،فهٰذا يرد ما ادعى ابن تيمية وأتباعه من كون العرش منتهاء الخلق. ثم معنى كتب فى كتابهٖ يعنى أمر أن يكتب؛ لأن كتابته لاتشبه كتابتنا؛ لأنهٗ ليس كمثلهٖ شيء وهو السميع البصير ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس:٨٢) وتعالٰى عن الأعضاء والجوارح كما ذكرنا من قبل ،ومعنى عنده لايعنى القرب الجسمي؛ لأنهٗ ليس كمثلهٖ شيء وهو السميع البصير فكما واحد يقول "عندى ثلاثة أفراس وأربعة حمر وخمسة بقر ومائة دينار وعشرة آلاف درهم" فلا يعنى أن جميع هٰذه الأشياء معهٗ بالقرب الجسمي، بل يعنى لهٗ هٰذه الأشياء تحت ملكه (المجازي؛ لأن المالك الحقيقي هو اللّٰه تعالٰى)

فمعنى عنده يعنى لهٗ هٰذا الكتاب ثم وضع الكتاب فوق العرش يدل علىٰ عظمته وايضًا يشير إلى أن اللّٰه عزوجل فى تصرفه العالم ليغلب رحمتهٗ غضبه ،فافهم! واللّٰه أعلم ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

ثم اعلم أن العرش مخلوق حادث خلقه اللّٰه تعالىٰ وروي عن علي رضي اللّٰه تعالىٰ عنه أن اللّٰه خلق العرش إظهارا لقدرته ولااتخاذا لمكانه ،وكذٰلک الكرسي مخلوق ،والعرش أعظم وأجسم من الكرسي والكرسي أمام العرش تحته وكل هٰذا معلوم من الأحاديث أو الآثار والعرش كمثل القبة فوق السمٰوات كما فى الحديث وفى الحديث أن فوقنا سبع سموات (كما هو معلوم) وبيننا وبين السمآء الدنيا مسيرة خمس مائة سنة وكذٰلک بين كل سمائين خمس مائة سنة وفوق السمآء السابعة العرش وبين العرش والسمآء السابعة مسيرة خمس مائة سنة ،وكذٰلک تحت أرضنا ستة أراضى الزائدة وبين كل الأرضين مسيرة خمس مائة سنة وهي جميعها مع أرضنا سبع أرضون. ثم يقول الحديث "والذى نفس محمد بيدهٖ لو انكم دليتم (رجلا) بحبل إلى الأرض السفلىٰ لهبط على اللّٰه ." (سنن الترمذي، ح:٣٢٩٨) ثم قرأ ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الحديد:٣) و معنى هبط على اللّٰه يعني هبط على الذى تحت علمه تعالىٰ وقدرته وسلطانه؛ لأن اللّٰه تعالىٰ نفسه تنزه عن المكان والزمان كما ذكرنا سابقا ،وهٰذه الجملة مؤولة عند أتباع ابن تيمية أيضًا بنفس التأويل الذى ذكرنا ،وهٰذا من المناقضات التى لهم (يعني يؤولون متىٰ تشاء ،ومع هٰذا يقولون بأخذ الأسماء والصفات من القرآن والحديث على الظاهر المتبادر) وكما ذكرنا قبلا أن منهجهم فى غاية التناقض.

والعبد الحقير الأن يذكر التجربة التى حصلت لهٗ مع واحد من أتباع ابن تيمية والقصد تحذير الناس منهم؛ لأن عندهم عقائد خبيثة جدا وهو أن العبد الحقير سمع من واحد من أتباع ابن تيمية أنهٗ يقول إن كرة الأرض هي فى السمآء الدنيا ولهٰذا حيثما من كرة الأرض نشير إلى الفوق نشير إلى السمآء الدنيا ،فالسمآء الدنيا كمثل الدائرة محيطة بهٰذه الأرض ،والقمر والنجوم والشمس والأجرام الفلكية ،فكلها فى هٰذه الدائرة ،فكلها فى السمآء الدنيا ،ثم جميع السمٰوات هٰكذا كمثل الدائرة بعضها فوق بعض ،ثم العرش فوقها كمثل الدائرة ،وثم اللّٰه فوق العرش فحيثما من كرة الأرض نشير إلى الفوق نشير إلى اللّٰه كأنهٗ مثل الدائرة فوق دائرة العرش ،وهٰذا قول كفر بواح. وماكان ينبغى لنا أن نذكر هٰذا القول لغاية خباثته وقباحته ،فذكرنا هٰذا للتحذير فقط ،وقائل هٰذا القول يقول إن جميع العالم فى ذات اللّٰه تعالىٰ؛ لأنهٗ كمثل دائرة محيطة بجميع العالم ،وقائل هٰذا القول ليس مسلما؛ لأنهٗ كفر باللّٰه عزوجل ،وقال شيئًا لايليق باللّٰه عزوجل ،ونحن ذكرنا من قبل أن

اللّٰه عزوجل ليس فى خلقه ولا خلقه فيه ،ومن جحد هذا فقد كفر باللّٰه وحدهٗ ،ثم الأحاديث التى ذكرنا قبل السطور تخبر أن العرش ليس كمثل دائرة، بل مثل القبة فوق السمٰوات وكذٰلك تخبر أن السمٰوات ليست محيطة بالأرض، بل هي فوق الأرض بعضها فوق بعض ،وأما تحت الأرض فالأراضى الأخرىٰ، فنحن لسنا فى السمآء الدنيا، بل نحن تحتها فى الأرض ،ولايمكن الدخول فى السمآء الدنيا ولافى السمٰوات الأخرىٰ إلا بإذن كماهو مصرح فى حديث المعراج ،وكذٰلك اللّٰه عزوجل يقول عن السحاب ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (البقرة:١٦٤) فإذا كان السحاب الذى فوقنا ليس فى السمآء الدنيا، بل بين السمآء والأرض ،فكيف نحن نكون فى السمآء الدنيا ،فهٰذا الخبيث الشيطان القائل بهٰذا القول من أتباع ابن تيمية فى إثباته الجهة للّٰه (ونعوذباللّٰه) جحد القرآن والسنة وإجماع المسلمين ووصف اللّٰه بالأشياء لاتليق به قطعًا وبتاتا ،ووصفه بالجسم فى شكل الدّائرة ووصفه بالظرفية أن يكون العالم فى ذاته ،وهٰذه كلّها كفر بواح ،وهٰذا القائل أخبث من الخنزير ،وليس بمسلمٍ. ثم إن سألتم أن حديث المعراج يخبر أنهٗ لاسبيل لدخول فى سماء الدنيا بدون الإذن والقرآن يخبر أن القمر فى السماء ﴿تَبَارَكَ الَّذِىْ جَعَلَ فِى السَّمَاءِ بُرُوْجًا وَّجَعَلَ فِيْهَا سِرَاجًا وَّقَمَرًا مُّنِيْرًا﴾ (الفرقان:١) ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللّٰهُ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقًا وَّجَعَلَ الْقَمَرَ فِيْهِنَّ نُوْرًا وَّجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ (نوح:١٥-١٦) ففى هٰذا الزمان قد انتشر الخبر أن بعض الأشخاص قد بلغوا القمر ونزلوا عليه ،فكيف تطابق هٰذا الخبر بما فى الحديث للمعراج؟

قلنا بتوفيق اللّٰه إن شاء اللّٰه العزيز: إن هٰذه الأخبار عن نزول على القمر كلّها من الكفّار وقد قبلهٗ المسلمون أيضًا ونستطيع أن نرد هٰذا الدعوىٰ والخبر عنْ نزول على القمر ،ثمّ لوثبت أنهم قد نزلوا على القمر فى الحقيقة ،فجوابه إن شاء اللّٰه العزيز بتوفيق اللّٰه تعالىٰ أن هٰذه السماء التى نحن نرىٰ التى فيها القمر والشمس والنجوم هي ليست داخلة السماء الدنيا ؛لأنها لو كانت داخلها التى لايمكن الدخول فيها فكيف نراها؟ والأحاديث تخبرنا أنّه هناك باب فيها مغلق ولا يفتح إلا بإذن ،حتٰى يمكن الدخول فيها. فهٰذه السماء الدنيا التى نحن نرىٰ ليست داخلها ، لكن مع هٰذا هي منها كمثل فناء الدّار الذى ليس داخل الدار ، لكن هو من الدار ،ثمّ هناك دقائق فى القرآن ،وهي أن اللّٰه عزوجل ذكر السحاب ،فقال ﴿اَللّٰهُ الَّذِىْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيْرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهٗ فِى السَّمَاءِ﴾ (الروم:٤٨) فى السماء يعني فوقنا؛ لأن من معانى السماء كل شيء فوق الراس ولم يقل السماء الدنيا ولاذكر أي آية فى القرآن يقول: إن السحاب فى السماء الدنيا. وفى آية أُخرىٰ ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (البقرة:١٦٤) فالسحاب فى السماء علىٰ معنى فوقنا وبين السماء والأرض علىٰ معنى بين السماء الدنيا والأرض ،ونحن نشاهد أن السحاب فوقنا ، لكن لايزال فى جوّ الأرض وليس

خارجا من جوّ الأرض ،ولهٰذا لو واحد يقع من السحاب يقع على الأرض ، لكن القمر والنجوم والشمس في السماء خارجة من جوّ الأرض بالكلية ،فقال القرآن: إنها في السماء الدنيا فوق جوّ الأرض بالكلية في السماء الدنيا ،وليس في داخل السماء الدنيا كما ذكرنا ، لكن مع هٰذا في السماء الدنيا كما بينا بالمثال ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمٰوٰتٍ طِبَاقًا وَّجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَّجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ (نوح:١٥-١٦) ومعنى فيهن يعني في إحداهن يعني السماء الدنيا ،كذا في التفسير للقرطبي. والله أعلم ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

ثمّ إن سألتم أننا نرى القمر والشمس في السماء من جميع كرة الأرض ،كأنها مثل الدائرة حول الأرض ،فماذا يمنعك أن تقول إن السماء حول الأرض محيطة بها ، لكن خارجة عنها ، فالأرض ليس فيها كما هو ثابت من القرآن؟

فقلنا بتوفيق الله عزوجل إن شاء الله العزيز: إننا ذكرنا سابقا أن هٰذه السماء التي فيها الشمس والقمر والنجوم ليست داخل السماء الدنيا، بل هي منها منسوبة إليها وداخل السماء الدنيا الذي مغلق ،ولا سبيل لنا أن نبلغهٔ هو فوق هٰذه السماء التي فيها الشمس والقمر ،ثمّ كما ذكرنا من الحديث أن السمٰوات كلها فوقنا وبعضها فوق بعض ،وأما تحتنا فالأراضي بعضها تحت بعض ،ثمّ لو كانت السماء الدنيا كمثل الدائرة حول الأرض فهٰذا يؤدي إلى أن تكون جميع السمٰوات والعرش كمثل الدائرة بعضها فوق بعض ،وهٰذه كلها خلاف القرآن والحديث؛ لأنها تؤدي إلى أن تكون السمٰوات والعرش في جميع جهات الأرض ،وليست فقط في الجهة الفوق؛ لأنهٔ لو كانت السمٰوات والعرش حول الأرض فنشير إلى الفوق أو اليمين أو التحت أو غيرها لكانت الإشارة إلى السمٰوات والعرش ،وهٰذا خلاف النصوص وحتى أتباع ابن تيمية لايقولون بهٰذا ،ثمّ في هٰذه الحالة أين تكون الأراضي الستة ما عدا أرضنا اللاتي حسب الحديث تحتنا وبين اثنين منهما مسيرة خمس مائة سنة؛ لأنهٔ في هٰذه الحالة يكون فوقنا السماء وتحتنا السماء ،فأين الأراضي الباقية؟

ثمّ في هٰذه الحالة يكون العرش كمثل الدائرة حول فوق السمٰوات ،وهٰذا خلاف القرآن والحديث؛ لأن الحديث يخبرنا أن العرش فوق السمٰوات كمثل القبة (أخرجه أبوداؤد، ح:٤٧٢٦) والقبة ليست دائرة كما هو المعلوم ،وأيضًا القرآن يخبرنا أن الملائكة حول العرش ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ (غافر:٧) ﴿وَتَرَى الْمَلٰٓئِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ (الزمر:٧٥) فالملائكة كيف تكون حول العرش إن كان العرش كمثل الدائرة؛ لأنهٔ في هٰذه الحالة لايمكنهم أن يكونوا حول العرش إلا يكونوا فوقه محيطة به كمثل الدائرة وهٰذا لايقول أي واحد من المسلمين ؛ لأن المعلوم أن كون الملائكة حول العرش لا يعني فوق

العرش (ولا حول ولا قوة إلا بالله) ، بل هم حول العرش كما نحن حول الكعبة فى الطواف وعند أتباع ابن تيمية لايقولون إن كون الملائكة حول العرش معناه فوق العرش (ونعوذ بالله) ؛ لأن فوق العرش تتعلق صفة الاستواء به ،فالله عزوجل مستوى فوق العرش بدون الاستقرار والتمكن والحلول كما بيّنا سابقا ،وأما الملائكة فهم حول العرش يعنى من الجوانب الأربعة أمام خلف ويمين وشمال ،يعظمون الله ويسبحونه ويحمدونه ،وهذا هو المعنى باتفاق المسلمين ،فالعرش كمثل القبة وله الجوانب الستة فتحته السمٰوات والجنة الفردوس كما فى الأحاديث ،والجوانب الأربعة حوله يعنى أمام وخلف ويمين وشمال فالملائكة فيها وأما فوقه فكما ذكرنا الكتاب الذى يقول: "إن رحمتى غلبت غضبى." فهو فوق العرش كما ذكرنا من الحديث ،وأيضًا تتعلق صفة الاستواء بفوق العرش وهو كما ذكرنا ليست علىٰ معنى الإستقرار والتمكن والمماسة ،تعالىٰ الله عن صفات الأجسام؛ لأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورىٰ:١١)

وأيضًا المعلوم من القرآن أن الملائكة يحملون العرش. ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ (غافر:٧) والأحاديث تخبرنا عنهم والحديث يقول إنهم ثمانية أوعال بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين السماء إلى السماء ،ثمّ علىٰ ظهورهم العرش ،ولو كان العرش كمثل الدائرة ،فما معنى حمله من حملة العرش الملائكة علىٰ ظهورهم. وهٰذا بيان السمٰوات والعرش. أما من وصف الله بالمكان ،وقال: إنه حول العرش فوقه ،فقد كفر بالله وأتى بخباثة لاتستطيع البحار أن يغسلها ،وهو ليس مسلما ونحن قد ذكرنا هٰذا من قبل ،فحاصل الكلام أننا لا نستطيع أن نقول: إن السمٰوات والعرش كمثل الدائرة بعضها فوق بعض؛ لأنهٗ يخالف القرآن والحديث ،فالسمٰوات والعرش فوقنا والأرض تحتنا ،وأما السماء التى نحن نرىٰ حول الأرض التى فيها القمر والشمس والنجوم ،فهي منسوبة إلى السماء الدنيا كما فى القرآن ، لكن ليست داخلها ،فمستدار الكلام هو تسليم للقرآن والسنة بدون الجحد والتاويلات الباطلة ،ونحن لا نعرف إلا قليلا عن أنفسنا وما فى الأرض ،فكيف نعلم نحن عن السمٰوات والعرش والأراضى الأخرىٰ إلا ما يخبرنا القرآن والسنة ،فالسمٰوات والعرش فوقنا والأراضى تحتنا ،والقمر والشمس فى السماء المنسوبة إلىٰ سماء الدنيا ،فهما فى السماء الدنيا ، فنحن نعتقد هٰذا؛ لأنهٗ من القرآن والسنة ،وهٰذا أزيد من الكافى لنا. ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة:٢١٣)

ثمّ قبل أن نكمل هٰذا البحث نذكر بعض الأحاديث و توجيهها الصحيحة التى يمكن أتباع ابن تيمية أن يغرون الناس بها. فمنها الحديث فى البخاري عن شريك بن عبدالله عن أنس بن مالك وهو حديث المعراج ،وفيه "فعلا به إلىٰ الجبار (يعنى جبريل عليه السلام مع محمد صلى الله

علیه وسلم إلى الجبار تبارک وتعالٰی) فقال صلی اللّٰه تعالٰی علیه وسلم وهو مکانه "یارب! خفف عنا ،فإن أُمتی لا تستطیع هذا ." (صحیح البخاري، ح:۷۵۱۷) فهٰذا الحدیث منکر عند المحدثین؛ لأن شریک بن عبداللّٰه ضعیف الحافظة ،وعنده مناکیر ،وقد روی مناکیر کثیرة فی هذا الحدیث فی قصة المعراج ،حتٰی قال فی آخر الحدیث: إنهٗ علیه الصلاة والسلام استیقظ وهو فی المسجد الحرام، ومعلوم أن قصة المعراج کانت فی الیقظة کما هی مصرحة فی احادیث کثیرة ،وفی الحدیث مناکیر ما عداه أیضًا ،ثمّ هٰذه الجملة "وهو مکانه" ما جاء فی الأحادیث الأُخری الکثیرة عن قصة المعراج ، فالحدیث لیس معتبرة عند العلماء والمحدثین ،فلا تغتروا بهٖ وبکونه فی البخاري والصحیح البخاري ،فعظمة هٰذا الکتاب مسلّم ، لکن فی الأخیر هو لیس کتاب اللّٰه حتٰی یکون کل حرف منه معتبر فکون قلیل من الصحیح البخاري غیر معتبر ،لایخرج الکتاب من مکانه العظیم . ثمّ "وهو مکانه" لایمکن أن یکون مستدلا لأتباع ابن تیمیة؛ لأنهٗ یقول: "فقال (صلی اللّٰه تعالٰی علیه وسلم) وهو مکانه." یعنی مکان النبي صلی اللّٰه تعالٰی علیه وسلم الذی هو قائم فیه متکلما مع اللّٰه عزوجل ،وهٰذا ظاهر معنی الحدیث ،فالحدیث مع نکارته لیس مستدلا لأتباع ابن تیمیة. ثمّ اعلم أن جمیع الأحادیث فی البخاري ومسلم فی قصة معراج عن أنس رضي اللّٰه تعالٰی عنه ما عداعن شریک بن عبداللّٰه الذی هو منکر الحدیث لیست فیها الجملة "وهو مکانه." وکذٰلک لیست فیها "فعلا بهٖ إلی الجبار."، بل "رجعت إلی ربی." أو "راجعت ربی." ثمّ المعنی "فعلا بهٖ إلی الجبار." أو "رجعت إلی ربی." یعنی إلی المیقات الذی فیه هو یتکلم مع ربه کما سیدنا موسٰی علیه الصلٰوة والسلام قال لربه تعالٰی وهو علی الطور: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ (طٰه:۸۴) ولیس المعنی أن اللّٰه علی الطور حتٰی أتباع ابن تیمیة لایقولون بهٰذا ،فکذٰلک لیس المعنی فی الحدیث "رجعت إلی ربی ." (صحیح مسلم، ح:۱۶۲) أن اللّٰه متحیز فی المکان المرجوع إلیه ،لا، بل کما کان طور میقاتا لموسٰی أن یتکلم مع ربه فکذٰلک عند سدرة المنتهٰی کان میقاتا لنبینا صلی اللّٰه تعالٰی علیه وسلم لیتکلم مع ربه. أما اللّٰه عزوجل فلا یتمکن فی مکان ولایجری علیه زمان ،ومنها الحدیث فی الشفاعة عن أنس رضي اللّٰه تعالٰی عنه ،وفیه "فاستأذن (یعنی النبي صلی اللّٰه علیه وسلم یقول فاستأذن) علٰی ربی فی داره." وهٰذا الحدیث أخرجه البخاري (صحیح البخاري، ح:۷۴۴۰) وکلمة "فی داره." لیست موجودة فی الأحادیث الأُخری عن نفس القصة مثلاًحدیث أبوهریرة رضي اللّٰه تعالٰی عنه عن نفس القصة لیست فیه کلمة "فی داره"، بل فیه "فأنطلق فآتی تحت العرش ." (صحیح البخاري، ح:۷۴۴۰) وکذٰلک نفس الحدیث عن أنس بن مالک من سند آخر لیس فیه کلمة "فی داره."، بل فیه "فاستأذن علٰی ربی تعالٰی فیؤذن لی ." (سنن ابن ماجة، ح:۴۳۱۲) . ولیس فیه "فی داره." وکذٰلک حدیث أبی

هريرة رضي اللّٰه تعالٰی عنه من سند آخر غير السند السابق فيه "فانطلق فآتی تحت العرش ." (صحيح البخاري، ح:٤٢١٢) وليس فيه "فی داره." فالجملة "فی داره." غريب ،ولو ثبتت فكما نحن نقول عندما نحن فی المسجد الحرام أو اي مسجد من المساجد أننا نحن فی بيت اللّٰه وليس المعنى نعوذ باللّٰه . "اللّٰه يسكن فيه" ، بل هٰذا هو المكان يختص لعبادة اللّٰه تعالٰی ومنسوب إلى اللّٰه تشريفًا وتعظيمًا. [1] وفی الحقيقة جميع العالم ملكه ،فكذٰلک "فی داره" معنى الدار أنهٗ منسوب إليه تشريفًا وتعظيمًا للدار وهو يختص بأن يُكون النبي صلى اللّٰه تعالٰی عليه وسلم يسجد لربه تعالٰی فيه ويحمده ويستشفعه وغيرها من الأشياء العظيمة جدًا ،فافهم.

ثمَّ نحن الآن فی كلام عن أُصول الدين فنحتاج إلى الدلائل القاطعة ، فلهٰذا نتكلم ونحقق الأحاديث للبخاري والمسلم ،فلايسوغ للعوام أن يرد الأحاديث من البخاري والمسلم من أنفسهم قطعًا وبتاتا؛ لأن الأحاديث فيهما صحيحة ،فردها لاتجوز إلا مابدا من قليل جدا منهما بعد التحقيق العلمي من النكارة أو الاضطراب أو العلة ،والعوام لايخوضون [2] فيها ،فلا يسوغ لهم كلامًا فی أحاديث البخاري والمسلم ،ولو أشكل عليهم ظاهر الأحاديث من البخاري والمسلم ،فعليهم أن يذهبوا إلى العلماء من أهل السنة والجماعة لتحقق الأمر وليجتنبوا أتباع ابن تيمية ومشائخهم ،وكذٰلک المبتدعة من الغلاة الصوفية كجماعة البريلوية. ومنها [3] حديث أبی هريرة رضي اللّٰه تعالٰی عنه عن أحوال الموتٰی أن الملائكة يصعدون بروح المؤمن إلى السماء إلى حتٰی ينتهي بها إلى السماء التی فيها اللّٰه عزوجل. وهٰذا الحديث أخرجه ابن ماجة. (سنن ابن ماجة، ح: ٤٢١٢) واللّٰه أعلم بصحة هٰذا الحديث؛ لأن نفس الحديث فی صحيح مسلم عن أبی هريرة رضي اللّٰه تعالٰی عنه ليس فيه "حتٰی ينتهي بها إلى السماء التی فيها اللّٰه عزوجل."، بل فيه "فينطلق بهٖ إلى ربه عزوجل." (صحيح مسلم، ح: ٢٨٧٢)

وكذٰلک حديث آخر عن أبی هريرة رضي اللّٰه تعالٰی عنه أخرجه البزار عن نفس الموضوع وليس فيه "حتٰی ينتهي بها إلى السماء"....، بل فيه "وإن المؤمن يصعد بروحه إلى السماء." (مسند

---

(١) كما تقال الجنة دار السلام ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ﴾ (يونس:٢٥) والسلام هو اللّٰه كماهو المعلوم أنهٗ من أسمائه ، فدار السلام يعنی الجنة نسبتها إليه تعالٰی تشريفًا وتعظيمًا يعنی إظهار لشرفها وعظمتها بين يدی الخلق وأما اللّٰه عزوجل فلا مقارنة بينه وبين خلقه كائنا ما كان من الجنة والعرش والكرسي والملائكة والأنبياء عليهم الصلوات والسلام قطعا وبتاتا فی وجه من الوجوه

(٢) ولا يفهمون

٣ يعنی من مستدلّات ابن تيمية وأتباعه لاثبات الجهة للّٰه تعالٰی (وتعالٰی اللّٰه عما يقول الظالمون علوا كبيرا)

البزار، ح: ٩٧٦٠) وكذلك حديث آخر أخرجه النسائي (ح: ١٨٣٣) وابن حبان (ح: ٣٠١٤) عن أبى هريرة رضي الله تعالى عنه عن نفس الموضوع وليس فيه هذه الجملة "حتى ينتهي بها إلى السماء التى فيها الله عزوجل"، بل فيه "حتى يأتوا به أرواح المؤمنين." وكذلك حديث البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه أخرجه الإمام أحمد عن نفس الموضوع ،وليس فيه هذه الجملة "حتى ينتهي بها إلى السماء التى فيها الله عزوجل."، بل فيه "حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة." (مسند الإمام أحمد، ح: ١٨٥٣٤) فحديث بهذه الجملة" ينتهي بها إلى السماء التى فيها الله عزوجل "متفرد عن أبى هريرة رضي الله عنه ثمّ هذه الجملة تناقض أصول الدين ،وهو أن الله لايتمكن فى مكان ولايجرى عليه زمان ،وفى القرآن ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِى السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِى الرَّحْمٰنِ عَبْدًا﴾(مريم:٩٣) والمعلوم أن الله عزوجل ليس عبدا فهو ليس فى الأرض ولا فى السموات؛ لأن حسب الآية كل واحد فى السموات والأرض عبد. وهذا الحديث لو نسلّم صحته ،فلا بدلهُ من التأويل وهو خبر الواحد بهذا السند يناقض القرآن وأُصول الدين ،وفى الحقيقة هذه الجملة "حتى ينتهي بها إلى السماء الّتى فيها الله عزوجل." مؤول عند أتباع ابن تيمية أيضًا ؛لأنهم لايقولون إن الله فى السماء داخل السماء، بل يقولون: إنهُ فوق السماء، بل فوق العرش فوق كل شيء ،فهم يؤولون هذا الحديث أيضًا؛ لأن ظاهره يناقض منهجه أيضًا ،ثمّ هذهِ من المناقضات التى عندهم؛ لأن منهجهم كما يدعون أخذ الظاهر من المعانى ، لكن كما بينا أنهم فى غاية التناقض ،فهم أيضًا يؤولون ولا يأخذون دائمًا على الظاهر. ثمّ لو ثبت هذه الجملة فى الحديث فمعناه حتى ينتهون بها إلى السماء السابعة كما هو مصرح فى حديث آخر عن نفس الموضوع الّتى فيها ميقات لهم لكلام مع الله عزوجل ،فمعنى "التى فيها الله عزوجل." يعنى التى فيها ميقات لهذه الملائكة لكلام مع الله عزوجل وحصول على اوامره واحكامه؛ لأن الملائكة أجسام مخلوقة ،فلا بد لهم من ميقات لهذا الأمر كما كان الطور ميقاتًا لموسىٰ عليه السلام لهذا الأمر ،وأما الله عزوجل فلا يتمكن فى مكان ولايجرى عليه زمان وهذا واضح من حديث آخر عن نفس الموضوع الذى فيه "حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة، فيقول أُكتبوا كتاب عبدى فى عليين وأعيدوه إلى الأرض ،فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أُخرجهم تارة أخرىٰ" (مسند الإمام أحمد، ح: ١٨٥٣٤) وكما قال الله تعالىٰ فى القرآن: ﴿يٰأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْٓا إِنْ تَنْصُرُوا اللّٰهَ﴾ (محمد:٧) ومعناه تنصروا دين الله ونبيه عليه الصلوات والسلام. وكذلك كما فى ﴿كُوْنُوْٓا أَنْصَارَ اللّٰهِ﴾ (الصف:١٤) ومعناه كونوا أنصار دين الله ونبيه عليه السلام ،وكذلك كما فى الحديث "إن الله عزوجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم! مرضت فلم تعدنى... يا ابن آدم! استطعمتك فلم تطعمنى.... يا ابن آدم! إستسقيتك فلم تسقنى." (صحيح مسلم،

ح: ٦٧٢١) فالمعلوم أن الله عزوجل تعالیٰ وتقدس عن ان یکون مریضًا أو مستطعما أو مستسقیا، بل هذا کلهٗ إشارة إلی العبد المریض والعبد المستطعم والعبد المستسقی کما هو مصرح فی نفس الحدیث ،فکذٰلک فی هذا الحدیث جاء "حتیٰ ینتهي بها إلی السماء التی فیها الله عزوجل." ومعناه التی فیها میقات لکلام الله عزوجل وحصول علیٰ أوامره واحکامه تعالیٰ. والله أعلم ،ویهدی من یشاء إلی صراط مستقیم.

ثمّ لو سألتم أنهٗ بین لنا معنی الآیات فی سورة النجم ﴿ذُوْ مِرَّةٍ فَاسْتَوٰى وَهُوَ بِالْاُفُقِ الْاَعْلٰى ثُمَّ دَنَا فَتَدَلّٰى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ اَوْ اَدْنٰى فَاَوْحٰى اِلٰى عَبْدِهٖ مَا اَوْحٰى مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَاٰى اَفَتُمٰرُوْنَهٗ عَلٰى مَا يَرٰى وَلَقَدْ رَاٰهُ نَزْلَةً اُخْرٰى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهٰى﴾ (النجم:٦-١٤)

وقد بیّنتم أن الحدیث فی البخاري عن شریک بن عبدالله عن أنس رضي الله تعالیٰ عنه هو حدیث منکر کثیر المناکیر ،فبین لنا معنی هٰذه الآیات . فقلنا بتوفیق الله عزوجل إن شاء الله العزیز: إنهٗ قد جاء حدیث مرفوع صحیح بلا سقم فی صحیح مسلم یبین لنا معنی هٰذه الآیات ویغنینا عن غیره. وهو قالت سیدتنا عائشة رضي الله تعالیٰ عنها: إنهٗ "من زعم أن محمدًا صلی الله تعالیٰ علیه وسلم رأی ربه فقد أعظم علی الله الفریة. قال مسروق: وکنت متکئًا فجلست ، فقلت: یا أُم المؤمنین! أنظرینی ولا تعجلینی ،ألم یقل الله تعالیٰ ﴿وَلَقَدْ رَاٰهُ بِالْاُفُقِ الْمُبِيْنِ﴾ (التکویر:٢٣) ﴿وَلَقَدْ رَاٰهُ نَزْلَةً اُخْرٰى﴾ (النجم:١٣) فقالت رضي الله تعالیٰ عنها: أنا أول هٰذه الأمة سأل عن ذٰلک رسول الله صلی الله تعالیٰ علیه وسلم، فقال: "إنما هو جبریل علیه السلام . لم أره علیٰ صورته التی خلق علیها غیر هاتین المرتین، رأیته منهبطا من السماء ، سادا عظم خلقه ما بین السماء والأرض. (صحیح مسلم، ح:٢٨٧) وفی روایة أُخری قال مسروق لعائشة رضي الله تعالیٰ عنها: فأین قولهٗ تعالیٰ ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلّٰى . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ اَوْ اَدْنٰى فَاَوْحٰى اِلٰى عَبْدِهٖ مَا اَوْحٰى﴾ (النجم:٨-١٠) قالت رضي الله تعالیٰ عنها : إنما ذاک جبریل علیه السلام کان یأتیه فی صورة الرجال و إنه أتاه فی هٰذه المرة فی صورته التی هي صورته. فسد أُفق السماء ،إنتهی. (صحیح مسلم، ح:٢٩٠) والروایة الأُولی صریحة أنها رضي الله تعالیٰ عنها سمعت هٰذا من رسول الله صلی الله تعالیٰ علیه وسلم ،فلا إلتفات بعد الرسول صلی الله علیه وسلم إلی غیره.

فالآیات فی سورة النجم التی أنتم سألتم عنها هي عن جبریل علیه الصلوٰة والسلام. والرسول علیه السلام رآه فی هاتین المرتین فی صورته التی هي صورته.

ولو سألت ما هو المعنی الآیة ﴿فَاَوْحٰى اِلٰى عَبْدِهٖ مَا اَوْحٰى﴾ (النجم:١٠) وجمیع هٰذه الآیات عن جبریل علیه السلام؟ قلنا بتوفیق الله تعالیٰ إن شاء الله العزیز: إنهٗ لونری انسجام الکلام من بدایة

السورة، فقال الله عزوجل ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ (النجم: ١-١٠) فمن بداية السورة الله عزوجل يتكلم عن صاحب وحيه النبي الرسول محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أنهُ لم يضل ولم يغو ولا ينطق عن الهوى، بل كل هذا من الوحي من عند الله ،ثمّ يتكلم الله عزوجل عن الملك العظيم المقرب سيدنا جبريل عليه السلام الذى كان يأتى بالوحي من عند الله إلى صاحب الوحي نبينا وحبيبنا وسيدنا صلى الله تعالى عليه وسلم ،فقال :﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ (النجم:٥-٩) فكان الله عزوجل يبين أنهُ تعالى يوحى إلى عبده النبي صلى الله عليه وسلم بواسطة هذا الملك العظيم الذى هو ذو هذه الصفات العظيمة ،فقال بعد ذكر هذا الملك العظيم: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ (النجم:١٠) وهذا التفسير ماثور عن قتادة والحسن وابن زيد يعنى المعنى ،فأوحى جبريل على عبدالله محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ما أوحى إليه ربه تعالى. والله أعلم ،ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

٤. الله عزوجل ليس بعرض ولاتحله الأعراض.

العرض وجمعه الأعراض هي العوارض الطارئة على الأجسام من الألوان والطعوم والروائح والحركة والسكون والرطوبة واليبوسة والقيام والجلوس والتحيز وغيرها من الأشياء الكثيرة الطارئة على الأجسام ،وهذه العوارض كما هي ليست قائمة بالنفس، بل تحتاج إلى الجسم لتقوم به وهي كلها حوادث طبعيا ،لأنها أولا طارئة على الأجسام ، والأجسام كلها حادثة كما ذكرنا سابقا؛ لأن كل شيء غير الله مخلوق فحادث ، فلا بد من الأعراض إلا أن تكون مخلوقة حادثة وأيضًا لأنها تطرأ على الأجسام فتتناوبون عليها ،فقد يوجد وقد لا يوجد ،مثلا قد يكون الجسم متحركا فى زمان ما ،ثمّ ساكنًا ،قد يكون قائمًا ،قد يكون جالسًا ،قد يكون راطبًا ،قد يكون يابسًا ،وكذلك جميع الأعراض قد يوجد وقد لايوجد. وهذهِ أمارات الحدوث بالبداهة.

ثمّ اعلم إن الأعراض لا تبقى زمانين ،وهذا صحيح بلا شك ،وخلافه خلاف القرآن والسنة؛ لأنهُ مثلا البقاء أيضًا من الأعراض ،والمعلوم أن الجسم لايكون باقيًا إلا أن الله عزوجل يجعله باقيا ويخلق البقاء فيه ، ففى الحالة الله عزوجل لايخلق البقاء فيه ،فلا بد لجسم إلا أن يكون غير باقيا وهذا لاخفاء فيه؛ لأن المعلوم من الدين بالضرورة أن العالم جميعه كما هو محتاج إلى الله عزوجل فى خلقه فهو محتاج أيضًا فى بقائه وإلا صار غير محتاجًا إليه تعالى فى بقائه بعد الخلق،

وهذا كفر بواح ،لايقول هذا أي واحد من المسلمين ،وفي القرآن ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (البقرة:٢٥٥) والقيوم معناه في اللغة الذى هو قائم بالنفس ،فلا يحتاج إلى آخر ،وكل شيء سواه تحت حفظه يعنى كل شيء سواه يحتاج إليه فى قيامه. وقال تعالىٰ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (البقرة:٢٥٥) فهو حافظ لما فى السمٰوات والأرض ولا يثقله هذا الحفظ؛ لأنهٗ علىٰ كل شيء قدير. وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ (هود:٥٧) فهو يحفظ ما يشاء من الفناء ويفنى ما يشاء ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (فاطر:٤١) فلايوجد حادث إلا بايجاده ،ولايبقىٰ إلا ببقائه ، كذا في التفسير القرطبي. وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ﴾ فقال: ﴿وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ﴾ (النجم:٥٠-٥١) فلهٰذا لم يبقوا باقيا؛ لأن بقاء هم بإبقاء اللّٰه تعالىٰ إياهم . والدلائل لهٰذا كثيرة جدا قاطعة بلا شك من النقل والعقل ،وهٰذا من الضرورات لاخفاء فيه ،والمعلوم أن القادر على الإطلاق والآله على الإطلاق لايكون إلا من يُحتاج إليه على الإطلاق ،فلايكون غيرهٗ إلا محتاجًا إليه تعالىٰ ولا صار المخلوق بعد خلقه قادرا نفسه ،وهٰذا الشرك الجلي الأكبر ، وقد تكلمنا في موضوع الشرك بالتفصيل سابقا ، فإذا ثبت أن كل شيء كائنا ما كان جسما أو عرضا كل شيء محتاج إليه تعالىٰ فى بقائه ، فلهٰذا البقاء للجسم فى زمان ما يعنى الأن بإبقائه تعالىٰ إياه لايبقى فى زمان الآتى بعد الآن إلا بإبقائه تعالىٰ إياه فى حينئذ ،وكذٰلك لونه وطعمه ورائحته وجميع الأعراض[1] والجسم نفسه لا بقاء لها بعد الآن إلا بخلق اللّٰه تعالىٰ البقاء فيها حينئذ كما لابقاء له الآن إلا بخلق اللّٰه تعالىٰ البقاء فيه الآن. فافهم ،هدانا وهداك اللّٰه. ثم ما ذكرنا من تفاصيل الأعراض تغنينا عن الذكر أن اللّٰه عزوجل ليس بعرض ولاتقوم به الأعراض؛ لأن قد ذكرنا أن الأعراض ليست قائمة بالنفس ،واللّٰه عزوجل قائم بالنفس ولا يحتاج إلى غيرهٖ على الإطلاق ،وكل شيء غيره يحتاج إليه على الإطلاق ،وكذٰلك الأعراض مخلوقة حادثة ،واللّٰه عزوجل هو الخالق غير مخلوق ،القديم غير حادث ،والأعراض لا بقاء لها. واللّٰه عزوجل الباقى الدائم لم يزل ولا يزال ،وغيرها من الأشياء كلها بديهة أن اللّٰه ليس بعرض ،وكذٰلك لا تقوم به الأعراض؛ لأن الأعراض حادثة ،واللّٰه عزوجل لاتقوم به الحوادث[2] والأعراض لابقاء لها ،واللّٰه عزوجل لاتقوم بهٖ ما لابقاء لها؛ لأن هذا يؤدى أن يكون لهٗ

---

(١) وأيضًا الأعراض لا تقوم بنفسها، بل تقوم بالجسم وفناء الجسم فناء ها ، فإذا لا يبقى الجسم إلا بخلق اللّٰه تعالىٰ البقاء فيه ،وإذا لا بخلق اللّٰه تعالىٰ البقاء فيه ،فلا بد لهٗ من الفناء ،فالأعراض لابد لها من الفناء حينئذ من باب الأولى، لأنها لا تبقى إلا ببقاء الجسم ـ فافهم!

(٢) لأن ما يقوم به الحادث ،فلا بدلهٗ من أن يكون [illegible] نفسه ـ

بعض الصفات الفانية ،وهٰذا لايجوز نقلا ولا عقلا بإجماع المسلمين والأعراض من الممكنات ،وقد توجد و قد لاتوجد ،وهٰذا من صفات المخلوق ،وهٰذا يؤدى إلى قيام الخلق بالله عزوجل ،وهٰذا كفر بواح. ثمّ هناك غيرها من الدلائل القاطعة لامتناع قيام الأعراض بالله عزوجل ،ونحن تكلمنا فيه فی بيان امتناع قيام الحوادث بذاته تعالیٰ. ونحن ذكرنا أن ابن تيمية قداضله الله فی هٰذه المسئلة وهو اجاز قيام الحوادث بذاتہٖ تعالیٰ مستعيرا هٰذا المذهب من الكرامية المجسمة المشبهة. فأتباع ابن تيمية يتبعونه فی هٰذه الضلالة ،وبعض الأحيان بعض أتباع ابن تيمية يضلون العوام ويغرونهم بهٰذه الأشياء ،فيقولون: إن اللّٰه عزوجل يسمع ويرى ،وهٰذا معلوم من الدين بالضرورة ،فهو يسمعنا ويرانا ،ونحن حادث وكلامنا حادث ،فهٰذا يؤدی إلى أن يكون سمعه لكلامنا ورؤيته لنا حادثين ،وهٰذا يؤدی إلى قيام الحوادث بہٖ تعالیٰ ،فكيف تقولون: إنہٗ لاتقوم بالله تعالیٰ الحوادث ،انتهى.

فقلنا بتوفيق اللّٰه تعالیٰ إن شاء اللّٰه العزيز: إن هٰذا الاستدلال يكشف عن جهالتكم وسخافتكم فی هٰذه الأمور لأنكم تشبهون الله بخلقہٖ ،فيقيسون سمعه وبصره علیٰ أسماعنا وأبصارنا، والمعلوم أن سمعنا وبصرنا حاسّتان تتأثران بما يسمعه ويراه ،ونحن نسمع إذا تيّارات الصوت تدخل فی آذاننا ،ونریٰ إذا عكس المرئي ينطبع فی أعيننا بواسطة الضوء ،والله عزوجل تعالیٰ وتقدس عن جميع هٰذه الأشياء هو لايحتاج إلى تيارات الصوت ولا انطباع المرئي لسمعه ورؤيته ،ولا يجوز وصف اللّٰه تعالیٰ بهٰذه الأشياء؛ لأن كلها من قبيل المماسة التی هي من صفات الأجسام ،تعالیٰ الله عن ذٰلك ،وأيضًا من قبيل الاتحاد مع مخلوق يعنی انطباع المرئي وتيارات الصوت ،ومعلوم أن الله عزوجل لايتحد من المخلوق ،وابن تيمية وأتباعه أيضًا يكفرون من قال باتحاد المخلوق بالخالق.

وفی القرآن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورىٰ: ١١) فقال الله تعالیٰ: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورىٰ: ١١) بعد أن قال ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورىٰ: ١١) فرد اللّٰه تعالیٰ علیٰ هٰؤلاء المشبهة الذين يقيسون سمعه وبصره علیٰ أسماعنا وأبصارنا ،ويقولون: أن سمعه وبصره حادثان كسمعنا وبصرنا. والله عزوجل يخبرنا أن سمعه وبصره ليس كسمعنا وبصرنا؛ لأنہٗ ليس كمثلہٖ شيء فسمعه وبصره أزليان كجميع صفاتہٖ تعالیٰ . بغض النظر أن المسموع والمرئي أزلي كذاته تعالیٰ وكلامه ،فهو لم يزل رائيا لنفسہٖ سامعا كلام نفسه (ونحن نتكلم عن هٰذا فيما بعد بالتفصيل إن شاء الله عزوجل) أو أن المسموع والمرئي حادث كجميع غير الله وكلام غير الله. ونحن نسأل أتباع ابن تيمية هل الله عزوجل يُرى فی يوم القيامة والجنة؟ فلا بد من نعم ؛ لأنهم يعتقدون علیٰ رؤية الله تعالیٰ ،لكن مع التشبيه ،ونحن نعتقد علیٰ رؤية الله تعالیٰ ، لكن بغير التشبيه ،ونحن نتكلم عن هٰذا فيما بعد إن شاء الله عزوجل بالتفصيل.

فجوابهم نعم أن الله يُرى فى الجنة ،ثمّ نسألهم هل الله أزلي؟ فلا بد من نعم. ثمّ نسألهم هل نحن حادث ؟ فلا بد من نعم. فنقول لهم كما نحن حادث ورؤيتنا حادثة والله عزوجل يعنى المرئي فى الجنة أزلي ،فلاينافى كون الرائى ورؤيته حادثا لكون المرئي يعنى الله عزوجل أزليا ،فكذلک لاينافى أن يكون الرائى ورؤيته أزليا (يعنى الله عزوجل وصفته الرؤية) لكون المرئي يعنى (جميع غير الله) حادثا. (اللّٰهم الحمد لله رب العالمين والصلوٰة والسلام علىٰ سيد المرسلين وعلىٰ جميع الأنبياء والمرسلين ،اللّٰهم ارزقنا النظر إلى وجهک الكريم. آمين يارب العالمين)

ونحن لانشبه الله بخلقه على الإطلاق ،فنقول بلا تشبيه ،لو كان هناک بحرا ماءه يحوى الحيّز قياسه عشرون ميلا فى عشرين ميلا ،فلو يحدث فى هٰذا البحر من مخلوقات جديدة مثلا السمک وغيره من الحيوان ،فحدوث هٰذه المخلوقات الجديدة فى البحر هل يزيد من البحر شيئا؟ هل ماء هٰذا البحر يحوى الحيز أكثر من عشرين ميلا فى عشرين ميلا لحدوث هٰذه المخلوقات الجديدة فيه؟ فلا بد من الجواب "لا" ، إن حدوث هٰذه المخلوقات لايغير حيز نفس البحر؛ لأن ماءه يحوى ماكان يحوى من قبل ،فلا تغير ولازيادة ولاحدوث فى نفس البحر ،فالحدوث هو يتعلق بهٰذه المخلوقات الجديدة فيه ،فإذا فهمت هٰذا ،فافهم أن الله عزوجل الذى لايشبه هٰذا البحر ولاغيره من الخلق، فصفته البصر وصفته السمع محيطتان بكل شيء ،فلايخرج أي شيء من إحاطتهما ،فكل مسموع ومرئي تحت إحاطتهما ،فهما هٰكذا أزليا أبديا ،فمهما من الزيادة والنقصان والحدوث والتغير تقع فى المسموعات والمرئيات ،فكل هٰذه تتعلق بالمسموعات والمرئيات ،وأما صفة الله عزوجل السمع والبصر فلاحدوث فيهما ولا تغير ولازيادة ولا نقصان ،فهو يرى ويسمع كل المسموعات والمرئيات وهو وسمعه وبصره أزلي ،ولو كان المسموع والمرئي حادثًا كغير الله وكلام غير الله كما أهل الجنة (اللّٰهم اجعلنا منهم) يرون الله عزوجل ،فهم ورؤيتهم حوادث ،ولو كان المرئي يعنى الله عزوجل أزليا . فافهم ،والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم. وكذٰلک نسألهم هل الله عزوجل يعلم كل شيء من الأزل؟ فلا بد من نعم. ؛ لأن هٰذا معلوم من الدين بالضرورة ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (الأحزاب:٤٠) هل صفة العلم أزلية محيطة بكل شيء أزليا؟ فلا بد من نعم. هل صفته العلم كاملة من الأزل بلا مجال للزيادة أو النقصان؟ فلا بد من نعم. ثمّ نقول لهم: هل الله عزوجل يعلم قبل خلق العالم أن العالم سيكون موجودا؟ فلا بد من نعم. ثمّ نسألهم هل بعد خلق العالم يعلم أنهٗ موجود الآن؟ فلا بد من نعم. فأخبرنا هل الله عزوجل يعلم قبل خلق العالم أن العالم موجود الآن؟ فما ذا تقولون الآن ؟ لو قلتم: نعم ،فهٰذا خلاف الحقيقة؛ لأن العالم لم يخلق بعد ،فهل هٰذا التغير عن العالم يلزم أن علم الله حادث وليس أزلياً ؟ (ونعوذ بالله من ذٰلک) فجوابه لا! قطعًا وبتاتا لايلزم؛ لأن

التغير فى الحقيقة عن العالم وليس فى علم الله تعالىٰ؛ لأن علمه تعالىٰ من الأزل كان محيطا بجميع المعلومات بالتفصيل مثلاً فى هذا الأمر ،فعلم الله كان محيطا من الأزل أن العالم يوجد فى هذا الزمان ،وقبل هذا لم يكن ،وبعد هذا يكون موجودا ،فالعالم كان معلومًا ،ثمّ صار موجودًا ،والعالم من المعلومات[1] والتغير فى المعلومات لايكون تغيرًا فى العلم مثلاً لو كان واحدًا يعرف أن زيدًا يأتى فى المسجد الساعة الخامسة فى الصباح ،ويمكث فيه الساعتين حتىٰ الساعة السابعة ،ثمّ يخرج من المسجد فهو يكتب هذه المعلومات عن زيدٍ فى ورقةٍ ،ثمّ إذا جاء الوقت يعنى الساعة الخامسة فى الصباح جاء زيد ومكث فى المسجد الساعتين ،ثمّ خرج ،فهل من واحد يستطيع أن يدعي أن ما وقع من الحادثة عن زيد عن إتيانه فى المسجد وخروجه بعد ذٰلک يلزم أي نوع من التغيير فى ما مكتوب فى الورقة عن هذه الحادثة ،فلا بد لجواب من "لا" ،فثبت أن التغيرات فى المعلومات يعنى إتيان الزيد ومكثه فى المسجد وخروجه لاتلزم التغير فى العلم عن هذه المعلومات ،فإذا فهمت هذا ،فافهم أن علم الله الأزلي لاحدوث فيه ولا تغير بوقوع المعلومات علىٰ حسبهٖ ،وفى القرآن ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ (ق:٤) فمهما تنقص الأرض منهم الآن الله عزوجل علمه فى الأزل ،فوقوع هذه المعلومات فى الحال لايجعل (نعوذبالله) علمًا عنها فى الحال، بل علم الله أزلي محيط على الإطلاق ،فقبل وقوع المعلومات "المعلومات ستقع فى المستقبل" وحال وقوع المعلومات "المعلوت تكون واقعًا فى الحال" وبعد وقوع المعلومات ، "المعلومات قد وقعت" فهٰذهٖ كلها تغيرات فى المعلومات ،وأما علم الله عنها فلاحدوث ولا تغير فيها . وفى القرآن ﴿وَكَانَ اللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمًا﴾ (الأحزاب:٤٠) بلا استثناء على الإطلاق ،وأيضًا لو كان علم هذه التغيرات فى المعلومات حادثا فى علم الله ،والمعلوم انهٗ لابد لحادث من محدث ،فمن يكون هذا المحدث؟ لايجوز أن يكون غير الله؛ لأنهٗ هذا يؤدى أن يكون الله مخلوقاً محتاجًا (نعوذ بالله) وهٰذا غير الله قادرًا إلها (ونعوذ بالله من ذٰلک) ولو كان الله هذا المحدث ،فكيف يُحدث هذا العلم بدون أن يكون عنده هذا العلم ،ولو كان عنده هذا العلم فهو لايحتاج لإحداثه لهٗ لكونه عنده من قبل ،وأيضًا هذا يؤدى أن تكون لهٗ صفة حادثة مخلوقة ،وهٰذا لايجوز قطعًا وبتاتا ،وهو كفر بواح ،وأيضًا نحن بيّنا امتناع قيام الحوادث بذاتهٖ تعالىٰ ،فلا يجوز أن يكون لهٗ علما حادثا ،فإذا ثبت أنهٗ لاحدوث فى علمهٖ تعالىٰ بسبب التغير فى المعلومات ،فكذٰلک لاحدوث ولاتغير فى سمعه وبصره تعالىٰ بسبب التغير فى المسموعات والمبصرات ،فافهم ،والله أعلم ،ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

ثمّ اعلم أن رؤية الله تعالىٰ فى الآخرة ثابتة ،لاشک فيها (اللّٰهم ارزقنا النظر إلى وجهک

---

(١) يعنى المعلوم فى معنى المخلوق ولا فى المعنى العلم.

الكريم) ، لكن لا يكون الله فى مكان ولاجهة كما بيّنا سابقًا أنهُ تعالىٰ منزه عن هٰذه الأشياء ،ولاتكون هٰذه الرؤية بسبب الانطباع فى أعيننا كما تكون فى حق المخلوقات؛ لأن هٰذه الأشياء لاتجوز قطعًا وبتاتا فى حق الله عزوجل؛ لأن الانطباع لايكون إلا بسبب مماسة الضوء والله تعالىٰ عن المماسة ،وأيضًا هٰذا يؤدى إلى الاتحاد والحلول ،والله عزوجل تعالىٰ عن هٰذه الأشياء ،وعقيدة الاتحاد والحلول فى حق الله عزوجل كفر بواح ،وابن تيمية وأتباعه أيضًا يُكفّرون من قال باتحاد والحلول فى حق الله عزوجل ،ونحن نتكلم عن رؤية الله تعالىٰ فيما بعد إن شاء الله عزوجل بالتفصيل.

فحاصل الكلام أن اللهَ عزوجل ليس جسمًا ولا عرضًا ولاتحله الأعراض والحوادث ،وهو لايتمكن فى مكان ولايجرى عليه زمان.

المتن:

حي لايموت ، قيوم، لاينام، خالق بلا حاجة ، رازق بلامؤنة ، مميت بلامخافة، باعث بلا مشقة .

الشرح:

كل هٰذا بين لاخفاء فيه ولا يحتاج إلىٰ أي شرح. الله عزوجل الحي لايموت القيوم ،فكل شيء يحتاج إليه فى قيامه ،وهو لايحتاج إلى غيره لا تأخذهُ سنة ولا نوم ،وفى القرآن ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ (البقرة:٢٥٥) وهو خالق بلاحاجة، بل الخلق يحتاج إليه فى خلقه وبقائه، فإن الله غني عن العالمين ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ (محمد:٣٨) رازق بلا مؤنة؛ لأنهُ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس:٨٢) ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ (محمد:٣٨) ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (الذاريات:٥٨) وكل شيء لهُ أهون من الهين وأسهل من السهل وإرادته فى الأزل لوجود شيء فى زمان ما وجود هٰذا الشيء فى هٰذا الزمان ،وفى القرآن ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ (ابراهيم:١٩-٢٠)

مميت بلامخافة. الله عزوجل يخلق مايشاء ويفنى ما يشاء، يحيى ما يشاء ويميت ما يشاء ،فعال لما يريد لا معقب لحكمه ولا مبدل لإرادته ،كل شيء فى قبضته ،وفى القرآن عن ثمود ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ (الشمس:١٣-١٥) وفى القرآن ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا . أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا

بِهِ تَبِيعًا﴾ (بنى إسرائيل:٦٨-٦٩) باعث بلامشقة. ؛ لأنهُ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس:٨٢) وباعث يعني في يوم البعث إذا يبعث أجسادنا للحشر والحساب ،فهٰذه كلها عليه أيسر من اليسير ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ (الروم:٢٧) ومعنى أهون عليه "هين"؛ لأن لاشيء يكون على الله أهون من شيء؛ لأن كل شيء لهُ أهون من الهين بلا فرق ،فهٰذا الكلام يجري مجرى كما هو عند الخلق ،فعند الخلق إعادة الشيء أهون من إنشائه ،فعلى هٰذا الإعادة أهون ،فكيف أيها المشركون تثبتون بدء الخلق وتنكرون إعادته وإلا كل شيء البداية والإعادة أهون لله تعالىٰ من الهين ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (لقمان:٢٨) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللّٰهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلٰى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتٰى بَلٰى إِنَّهُ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الأحقاف:٣٣)

المتن:

ما زال بصفاته قديمًا قبل خلقه. لم يزدد بكونهم شيئًا لم يكن قبلهم من صفته وكما كان بصفاته أزليا، كذٰلك عليها أبديا. ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم الخالق ولا بإحداثه البرية استفاد اسم الباري. لهُ معنى الربوبية ولا مربوب. ومعنى الخالق ولا مخلوق. وكما أنهُ محيي الموتى بعد ما أحياء، استحق هٰذا الإسم قبل إحياء هم . كذٰلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم.

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالىٰ الآن يتكلم عن صفات الله عزوجل التى تتعلق بالخلق والتكوين ،ويقول: إن الله عزوجل لهُ هذه الصفات من الأزل ،فكان الله خالقا قبل أن يخلق الخلق ،ورازقا قبل أن يرزق الرزق ،وكذٰلك الصفات الأُخرى من قبيل الخلق والتكوين؛ لأن هٰذه الصفات يعني الترزيق والتخليق والإحياء والإماتة والإبقاء والإفناء وغيرها كلها تتعلق بصفة الفعل والخلق والتكوين جملة ،وهٰذه الصفات أزلية أبدية كما قال شيخنا أبوحنيفة رحمه الله تعالىٰ في الفقه الأكبر ،وكما قال الإمام الطحاوي هنا في هٰذا الكتاب ،ولهٰذا الشيخ أبو منصور الماتريدي الحنفي رحمه الله تعالىٰ عنده هذه الصفات أزلية أيضًا ،وأما الشيخ أبوالحسن الأشعري رحمه الله تعالىٰ ،فعنده هذه الصفات ليست صفات مستقلة، بل عبارة عن تعلق صفة القدرة والكلام والإرادة بشيء ما ، فلهٰذا الأشاعرة يقولون إن فعل الله حادث مخلوق؛ لأن عندهم الفعل والمفعول نفس الشيء وكذٰلك الخلق والمخلوق عندهم نفس الشيء وفي اللغة الخلق قد يكون على معنى المخلوق [1]

(١) ﴿خَلَقَ السَّمٰوٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقٰى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ. هٰذَا خَلْقُ اللّٰهِ فَأَرُوْنِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُوْنِهِ بَلِ الظّٰلِمُوْنَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (لقمان:١٠-١١) خلق الله في هذه الآية أي مخلوق الله .

وقد يكون على معنى فعل خلق المخلوق دون المخلوق ،كما فى القرآن ﴿مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ (الكهف: ٥١) فهنا الخلق عبارة عن فعل خلق المخلوق دون المخلوق ،وهذا ظاهر؛ لأن السماء والأرض والأنفس نفسها مشهودة لهم ، لكن خلق إياها غير مشهود. فحاصل الكلام أن صفة الفعل والخلق والتكوين أزلية عندنا ،وعند الأشاعرة حادثة ،نحن وهم متفقون على هذه الصفات (١) الحياة (٢) العلم (٣) الإرادة (٤) القدرة (٥) السمع (٦) البصر (٧) الكلام.

ثمّ الصفات المتشابهات مثلا الاستواء والنزول واليدين وغيرها ،فنحن وهم متفقون فى إثباتها فى الجملة مع التنزيه أن الله عزوجل لايتمكن فى مكان ،ولايجرى عليه زمان ،ولا لهُ الأعضاء والجوارح ،ولايحتاج إلى شيء ما ،ولايشتهى ولا تقوم به الحوادث ،ثمّ التأويل أو التفويض على حسب سياق الكلام والضرورة ،وأما من صفات الخلق والتكوين والفعل ،وقد تكون بعض الصفات منها من المتشابهات أيضًا ،فهذه كلها عندنا صفات أزلية مستقلة . وعند الأشاعرة غير مستقلة وحادثة ؛لأنها عندهم شاملة فى الصفات السابقة التى ذكرنا قبلا . فعندهم ليس خلقا إلا عبارة عن تعلق صفة العلم والقدرة والإرادة والكلام بالمخلوق ،ثمّ التعلق ليس شيئًا فى الحقيقة، بل هو فقط لإفهام المعنى ،وإلا لزم التسلسل؛ لأن لو هذا التعلق نفسه شيء موجود ،فلخلق هذا التعلق يحتاج إلى تعلق آخر بهذا التعلق وكذلك يتسلسل إلى ما لانهاية لهُ وهذا باطل.

فالتعلق ليس شيئًا إلا لإفهام المعنى ،فالمعنى أن الله عزوجل علم عن شيء أنهُ يوجده فى زمان ما فى الأزل ،فأراد وجوده فى الأزل وأمر وجوده فى الأزل . فإذا جاء هذا الزمان يوجد هذا الشيء بقدرته ،وهذا الشيء هو الخلق والمخلوق والفعل والمفعول ،وهذا مذهب الأشاعرة. ثمّ معنى أمر وجوده فى الأزل يعنى الآية ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢) فكلمة "كن" من كلام الله الأزلي ونحن نتكلم عن هذا فيما بعد إن شاء الله العزيز.

وهذا الأمر ليس أمرا مسموعاً لهذا الشيء المراد؛ لأنهُ لو كان مسموعا لنسمعه؛ لأننا نفعل أشياء كثيرة وكلها من إرادة الله وأمره ، لكن لانسمع هذا الأمر ،وقال الله تعالى للنار ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (الأنبياء: ٦٩) وكذلك نحن نشاهد ونفعل أشياء كثيرة ، لكن لا نسمع هذا الأمر قطعا ،فليس هذا الأمر أمراً مسموعا حتى ينتهض السؤال أنهُ كيف يكون خطابا بالشيء أن يوجد؛ لأنهُ خطاب للمعدوم؛ لأنهُ لم يوجد بعد ،وبعد الوجود لايحتاج إلى أن يوجد ،فكيف يخاطب لأن يوجد ، والوجود حاصل من قبل.

فالجواب لهٰذا أنهُ ليس أمرا مسموعا كما النار كانت موجودا ، فأمرت أن تكون بردا وسلاما علٰى إبراهيم ،وكذٰلك نحنُ موجود ،ونفعل أشياء كثيرة كلها بإرادة اللّٰه وأمره ، لكن لا نسمع هٰذا الأمر ،ثمَّ إذا كان هٰذا الأمر أمراً مسموعًا ،فلخلق السماعة لهٰذا الأمر يحتاج إلى أمر آخر، وهٰذا يلزم التسلسل إلى ما لانهاية لهُ وهو باطل. فليس هٰذا الأمر إلا عبارة عن أمر اللّٰه الأزلي لوجود هٰذا الشيء فى زمان ما. ثمَّ إذا سألتم أنه الأمر لوجود هٰذا الشيء ،فما هو المأمور؟

لوهٰذا الشيء هو المأمور فهو معدوم حتٰى بعد وجوده ،وبعدوجوده لايحتاج إلى وجود حتٰى يؤمر بالوجود؟ فقلنا بتوفيق اللّٰه تعالٰى إن شاء اللّٰه العزيز: إن هٰذا الأمر أمر كوني ،وليس أمرا شرعيا كمثل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (النحل:٩٠) ففى هٰذا النوع من الأمر (يعنى أمر شرعي) يكون مأمورا مكلفا بهٰذا الأمر ،وهٰذا يقال أمر شرعي ،وأما أمر كوني فمأمور بهٖ يوجد بلا محالة ، كما قال للنار ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (الأنبياء:٦٩) فالنار صارت بردا وسلاما بهٰذا الأمر بدون أي التخلف أو الفعل المنسوب إليها ،فأمر كوني عبارة عن إيجاد المأمور بهٖ ،وليس عبارة عن تكليف المأموربه ،فإذا فهمت هٰذا ،فافهم أن أمر اللّٰه الأزلي لوجود الشيء فى زمان ما عبارة عن إيجاد هٰذا الشيء فى هٰذا الزمان ،وليس تكليفًا لمأمور ما بهٰذا الأمر.

ثمَّ قال العبد الحقير غفر اللّٰه له: أن هٰذه الآيات ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس:٨٢) ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (البقرة:١١٧) ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (النحل:٤٠) ففى هٰذه الآيات كلمة "ل" فى "أن يقول له" و "فإنما يقول له" و "لشيء" و "أن نقول له" لو يجوز أن كلمة "ل" فى هٰذه العبارات أن يكون علٰى معنى التعليل وليس علٰى معنى الخطاب؟ وأنا ذكرت هٰذا لأهل العلم أن ينظروا فى هٰذا الأمر ،والعبد الحقير ليس مفسرا ولا فقيها، بل عبد ضعيف مظلوم مسجون فى بلاد الحرب غفر اللّٰه لهُ وأعطاه العافية فى الدنيا والآخرة ،آمين.

وإن قلتم: إن اللّٰه عزوجل هو القادر المطلق فلا يحتاج إلٰى "كن" لإيجاد الأشياء وتكوينها فما الوجه لهٰذه الآيات بغض النظر أن كلمة "ل" فيها للمخاطبة أو للتعليل حتٰى تطابق هٰذه الآيات مع هٰذا الأصل من أُصول الدين أن اللّٰه عزوجل هو القادر المطلق فلايحتاج إلى "كن"؟

فقلنا بتوفيق اللّٰه تعالٰى إن شاء اللّٰه العزيز: إنهُ ليس المعنى لهٰذه الآيات أن اللّٰه عزوجل يحتاج إلى أن يقول "كن" للتكوين ،ولامعنى أن التكوين منوط علٰى هٰذه الكلمة حتٰى ينتهض هٰذا السؤال الذى سألتم، بل كما واحد يريد الشيء أن يكون ،فهو يجد فى نفسه الكلام "كن هٰكذا" هٰذا الكلام ليس إلا تعبيرا لما أراد فى نفسه كما فى القرآن ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ

تسوّى بهم الأرض﴾ (النساء: ٤٢) وفى آية أخرى ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا﴾ (النبا: ٤٠) فهذا الطلب فى نفس الكفار أن تسوى بهم الأرض يجرى مجرى الكلام فى أنفسهم حتى قالوا ﴿يا ليتنى كنت ترابا﴾ (النبا: ٤٠) وهذا أمر لاخفاء فيه كما نحن نجد فى أنفسنا كلاما يعبر عن مطلوبنا ،فنقول فى أنفسنا "لتكن هذا" أو "ليكن هكذا" ونحن ذكرنا هذا ليس على وجه التشبيه؛ لأن الله عزوجل تعالى وتقدس عن التشبيه، بل نريد أن نذكر أن الله عزوجل هو القادر المطلق ،فلا يحتاج لإيجاد الأشياء وتكوينها إلى الكلمات ،فمعنى هذه الآيات أن كلمة "كن" تعبر عن إرادته لتكوين هذا الشيء ،وليس على المعنى أنه تعالى يحتاج إلى هذه الكلمة . فهذه الكلمة التى هى كلام النفس لله تعالى وصفته الأزلية تعبير عن إرادته. [1] فاندفع بهذا البيان هذا السؤال الذى سألتم؛ لأن الكلمة "كن" ليست للاحتياج، بل على معنى التعبير ،ولو نغور بعد هذا البيان على الآيات ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ (النحل: ٤٠) ﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾ (يس: ٨٢) ﴿وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾ (البقرة: ١١٧) فجميع هذه الآيات تقول: إن الله عزوجل إذا أراد شيئا فيقول له "كن فيكون" فلا يفهم منه أن هذه الكلمة محتاجا إليها، بل هذه الكلمة تعبيرة عما أراد الله عزوجل ،ثم فى أحوالنا إذا نحن نريد شيئا فنقول فى أنفسنا: "ليكن كما نريد" فإرادتنا وهذا الكلام فى أنفسنا كله حادث ،وأيضا هذا الكلام فى أنفسنا الذى هو المعبر عن إرادتنا ليس فى الحقيقة متأخر عن الإرادة بحسب الزمان؛ لأنه سرعان ما نريد شيئا نقول فى أنفسنا "ليكن كما نريد" ، لكن مع ذلك للإرادة سابقية من حيث المرتبة ،وثم ما نريد ليس بلازم أن يكون؛ لأننا لا نطيق شيئا، بل كل شيء من الله ،فإذا هو يريد فيكون وإلا لا يكون ،وهذا كله بيان عن أنفسنا ،وأما الله عزوجل فإرادته وكلامه وجميع صفاته أزلية ،وكما ذكرنا أن التعبير عن الإرادة فى النفس لايتأخر عن الإرادة فلا يتأخر كلام الله عن إرادة الله عزوجل؛ لأن جميع صفات الله أزلية، فلا تأخر فى بعضها عن بعض ،ثم كما واحد يكتب بالقلم فيده و القلم يجريان فى نفس الزمان ، لكن مع هذا يقال: إن اليد تحرك ،فيتحرك القلم ،فعلم الله عزوجل شيئا فأراده ،فقال له: كن ،فيكون فى زمان أراده أن يكون فيه ، لكن هذا لايعنى أن إرادته تتأخر عن العلم و كلامه يتأخر عن الإرادة، بل كلها أزلية ،فافهم . كما بلا تشبيه نحن نرى القلم واليد يتحركان فى نفس الوقت ، لكن مع ذلك تحرك اليد فتحرك القلم ولله المثل الأعلى. ثم إذا جاء الوقت الذى أراد الله عزوجل لهذا الشيء أن يكون فيه يكون هذا الشيء بلا تأخر والله على كل شيء قدير. فحاصل الكلام أن التكوين عند الأشاعرة مشمول فى صفة الإرادة والكلام والقدرة وليس صفة مستقلة ،فهم يقولون للشيء المكون أنه هو الفعل والمفعول والخلق والمخلوق والتكوين والمكون. فهذا كلام على حسب الأشاعرة.

---

(١) كما القرآن والتوراة والإنجيل والزبور وغيرها كلام الله وصفته الأزلية.

وأما عندنا يعني الأحناف الماتريدية ومن وافقهم من الأشاعرة في هذا ،فالتكوين صفة مستقلة أزلية كصفات العلم والإرادة وغيرها ،ومذهبنا صحيح قوي ،وهو مذهب شيخنا أبي حنيفة رحمه الله تعالى فقال في الفقه الأكبر: "لم يزل ولا يزال بأسمائه وصفاته لم يحدث له إسم ولا صفة لم يزل عالما بعلمه ،والعلم صفة في الأزل وقادرا بقدرته ،والقدرة صفة في الأزل ،ومتكلما بكلامه ،والكلام صفة في الأزل ،وخالقا بتخليقه ،والتخليق صفة في الأزل ،وفاعلا بفعله ،والفعل صفة في الأزل ،والفاعل هو الله تعالى ،والفعل صفة في الأزل ،والمفعول مخلوق ،وفعل الله تعالى غير مخلوق ،وصفاته في الأزل غير محدثة ولا مخلوقة. فمن قال أنها مخلوقة [1] أو محدثة ، أو وقف أو شك فيها ،فهو كافر بالله تعالى." وهذا مذهبنا وهو قوي صحيح؛ لأن في القرآن الله عزوجل وصف نفسه بالخلق والتصوير والترزيق ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِىْ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيْمُ هُوَ اللّٰهُ الَّذِىْ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوْسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيْزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللّٰهِ عَمَّا يُشْرِكُوْنَ هُوَ اللّٰهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنٰى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ﴾ (الحشر:٢٢-٢٤) فوصف الله عزوجل أنهُ الخالق البارئ المصور كما وصف نفسه أنهُ عالم الغيب والشهادة والملك القدوس والسلام المؤمن والعزيز وغيرها من الأسماء الحسنى ،فكما هذه مستقلة أزلية ،وكذٰلك الخلق والتصوير والبرء مستقلة أزلية ،وفي القرآن ﴿إِنَّ اللّٰهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِيْنُ﴾ (الذاريات:٥٨) فكما قوته تعالى أزلية مستقلة ،وكذٰلك ترزيقه صفة أزلية مستقلة. وكذٰلك في القرآن الله تبارك وتعالى يذكر كثيراً من أفعاله ،مثلا ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوْا شَجَرَهَا ءَ إِلٰهٌ مَّعَ اللّٰهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُوْنَ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَّجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَّجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ءَ إِلٰهٌ مَّعَ اللّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُوْنَ أَمَّنْ يُّجِيْبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوْءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ءَ إِلٰهٌ مَّعَ اللّٰهِ قَلِيْلًا مَّا تَذَكَّرُوْنَ أَمَّنْ يَّهْدِيْكُمْ فِيْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُّرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ءَ إِلٰهٌ مَّعَ اللّٰهِ تَعَالَى اللّٰهُ عَمَّا يُشْرِكُوْنَ أَمَّنْ يَّبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُ وَمَنْ يَّرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ءَ إِلٰهٌ مَّعَ اللّٰهِ قُلْ هَاتُوْا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ﴾ (النمل:٦٠-٦٤) فكل هذه الأفعال ذكر الله عزوجل حتى المشركين يفتحوا أعينهم ويروا

---

(١) التنبيه: هذا لاينطبق على الأشاعرة لأنهم لايقولون بحدوث صفات الله ،فالتكوين في نفسه ليس عندهم صفة حقيقية مستقلة بل عبارة عن الإرادة والكلام والقدرة ،وكل هذا يعني الإرادة والكلام والقدرة عندهم صفات أزلية ،فالتكوين الذي عبارة عنها عندهم أيضًا في المآل أزلي ،لكن هم لايتلفظونه حتى بعد وجود المكوّن ،ثمّ يقولون لهذا المكوّن أنهُ تكوين ،فهو حادث ،لكن في الحقيقة التكوين عندهم أزلي أيضًا ،لكن هم يعبرونه بالإرادة والقدرة والكلام وليس تكوينا ،فافهم.

أنما هم يعبدون سوى الله كلها عبادة باطلة وليس إله إلا الله ،فيأيها الأشاعرة لما ذا أنتم تقولون إن كل هذه الأفعال ليست صفات الله أزلية مستقلة، بل عبارة عن إرادته وقدرته، بأي دليل أنتم تؤولون هذا؟ ثمّ في القرآن ﴿مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الكهف: ٥١) والأرض مشهودة ،فهذا يعني خلق الأرض غير الأرض ،فالخلق غير المخلوق ،فكيف أنتم تقولون: إنهما نفس الشيء؟

ولو قلتم: إن الخلق في هذه الآية معناه إرادته وكلامه لوجوده بقدرته وبس ،فنقول لماذا أنتم تؤولون هكذا؟ والمعلوم أن النصوص على ظاهرها إلا تحتاج إلى التأويل لعدم إمكان أخذها على الظاهر ،ولو قلتم: إن جميع الأفعال بقدرة الله تعالى ،فالخلق ليس إلا قدرة على الخلق ،والترزيق ليس إلا قدرة على الترزيق ،وهكذا أمثالها ،فالقدرة شاملة لكلها ،فنقول: بصفة القدرة المستقلة ،ولا نقول بالترزيق والخلق وغيرها من الأفعال إنها صفات مستقلة ؛لأنها مشمولة في القدرة ،فقلنا: طيبا أن التخليق قدرة على الخلق والترزيق قدرة على إعطاء الرزق ،فهذه القدرة مصححة لحصول المقدور والإرادة لتعيينه ولتخصيصه ولترجيحه للوجود ،فبقي الإيجاد نفسه ،فالقدرة هي قدرة على الإيجاد ،والإيجاد نفسه هو التكوين ،وهو صفة مؤثرة لحصول المقدور ،وفي القرآن ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (آل عمران: ٩٧) .. فواحد يريد أن يحج ويستطيع إليه سبيلا، فهذه الإرادة والقدرة وبقي الحج نفسه ،فإذا يحج ،فهذا فعل الحج ،هل هو قدرة على الحج نفسها أو شيء آخر ،فلا بد من أن نقول: إنهٔ شيء آخر ،فجمع هذا ثلاثة أشياء، الإرادة والقدرة والفعل ،فبلا تشبيه أن الله عزوجل إذا يخلق فبإرادته وكلامه وقدرته وخلقه . فالخلق هو فعل الإيجاد بقدرته ما أراد ،ثمّ أفعال الله ليس كأفعال المخلوقين ،فهي بلا آلة وأعضاء وجوارح ،تعالى الله عن ذلك وبلا مباشرة، لكن مع ذلك هو فعلهٔ ،وهو ليس محلا للحوادث. فلهذا فعلهٔ أزلي ،ثمّ لو كان التكوين نفس المكوَّن ،فعلى هذا يلزم أن يكون المكوِّن هو المكوَّن؛ لأن المكوِّن من يقوم به التكوين ،وهذا باطل، وأيضًا ولو التكوين يقوم بالمكوَّن ،فلا يقوم بالله ،فعلى هذا لايكون الله هو المكوِّن ،وهذا باطل ، وأيضًا لو كان التكوين نفس المكوَّن فيكون حادثا ،فلا بد لحادث من الإحداث ،فيحتاج إلى تكوين آخر لتكوينه ،فيلزم التسلسل إلى ما لانهاية لهٔ ،وهذا باطل.

فلا بد من التكوين الأزلي يقوم بالله عزوجل ،ثمّ لو قلتم: لو كان التكوين أزليا ،فهذا يلزم أن يكون المكوَّن أزليا أيضًا ،وإلا يلزم أن التكوين بلا مكوَّن ،ولا يتصور الضرب بلا مضروب ،فقلنا بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز: إن الضرب (يعني ضرب المخلوق) عرض حادث ،فلا يبقى زمانين ، فلهذا لايتصور الضرب بلا مضروب ،وأما تكوين الله فأزليا أبديا ،فيبقى إلى وجود المكوَّن وبعدهٔ أيضًا؛ لأنهٔ صفة الله أزلية أبدية ،فلايبوط على وجود المكوَّن وعدمه ،فالمكوَّن يوجد في وقت

أراد الله له أن يوجد فيه بتكوين الله وقدرته وكلامه ،وينعدم فى وقت أراده الله له أن ينعدم فيه بتكوينه وقدرته وكلامه ، لكن هٰذه الصفات لاتنعدم؛ لأنهٗ ليس لها بداية ولا نهاية. ثمّ فى الأخير كما قلنا سابقا: إن التكوين فى الحقيقة أزلي عند الأشاعرة أيضًا ، لكن هم يعبرونه بالإرادة للإيجاد وقدرة للإيجاد ،فهم أيضًا يعتقدون أن التكوين الحقيقي هو قائم بالله ، لكن على وجه الإرادة والقدرة والكلام ،وهٰذا هو الفعل الحقيقي عندهم قائم بالله أزليا ، لكن لايعبرونه بالفعل، بل عندما يوجد المخلوق فيعبرون المخلوق بالفعل والتكوين ،وليس على معنى ان الفعل والتكوين قائم بالمخلوق ، فهو خالق ومكوِّن، بل بمعنى أن الفعل والتكوين قائم به ،فهوا المفعول والمكوَّن كما الضرب حاصل بالمضروب ،ويقوم بالضارب ،فالضارب يكون فاعلا ،والمضروب يكون مفعولا ،فالخالق والفاعل هو الله ،والمخلوق هو المفعول المخلوق ،وأما الفعل فعند الأشاعرة هو المفعول ،فهو نفس الفعل ، وأما ما يقوم بالله فهو قدرة وإرادة وكلام ،وبها هو فاعل لهٰذا المفعول ،وأما عندنا ،فالفعل يقوم بالله مع قدرته وإرادته وكلامه ،فبها هو فاعل لهٰذا المفعول ،فإذا نحن نرىٰ ولو الضرب يقوم بالضارب وحاصل بالمضروب ، لكن هٰذا الضرب يقال: إنهٗ فعل يقوم بالضارب؛ لأنهٗ هو الفاعل ،فثبت أن مذهبنا صحيح وقوي ،وثمّ القرآن كلام الله الأزلي ووصف الله نفسه فيه بالخلق والترزيق والتصوير وإحياء الموتىٰ ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الروم: ٥٠) وفى هٰذه الآية أطلق الله تعالىٰ أنهٗ "محى الموتى" ردا على المشركين فى تعجبهم على قدرة الله على الإحياء ،والمعلوم أن يوم البعث والنشور لم يقع بعد ، لكن مع هٰذا هو الله محى الموتىٰ ،فكما استحق هٰذا الاسم من قبل ،فكذٰلك استحق اسم "الخالق" قبل وجود المخلوق ،وهٰذا أيضًا ردّ بليغ علىٰ من قال: إنهٗ لم يستحق الأسماء التى تدل على الفعل قبل وجود المفعول ،فكلها صفات أزلية ،ولايقال إنها عبارة عن قدرة على الأفعال؛ لأن الله عزوجل ذكرها بالاستقلال ،فنحن نثبته بالاستقلال ،فمذهبنا أقرب من القرآن والسنة ،ثمّ صفات الله الفعلية فخارجة عن الحصر من التخليق والترزيق والإنشاء والإبداع والصنع والإحياء والإماتة والتصوير والتركيب وغيرها ،وفى الحديث " اللّٰهم أنا عبدك ابن عبدك ابن أمتك ،ناصيتى بيدك ،ماض فيّ حكمك ،عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ،أو انزلته فى كتابك ،أو علّمته أحدا من خلقك ،أو استأثرت به فى علم الغيب عندك." ثمّ هي جميع الصفات الفعلية جملة هي صفته التكوين من تكوين الرزق والصورة والتركيب والحياة والموت وغيرها .

فالإمام الشيخ الطحاوي رحمه الله يقول: إن الله عزوجل كان خالقا ربا محييا فاعلا قبل المخلوق والمربوب والمفعول ،فالخلق والربوبية والإحياء والفعل صفته الأزلية ،والمخلوق

والمربوب والمفعول حادث. فافهم ،والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

المتن

ذٰلک بأن الله علىٰ كل شيء قدير. وكل شيء إليه فقير. وكل أمر عليه يسير لايحتاج إلى شيء، ليس كمثلهٖ شيء وهو السميع البصير. خلق الخلق بعلمه، وقدر لهم أقدارا وضرب لهم آجالا. ولم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم. وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم. وأمرهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته، وكل شيء يجرى بتقديره ومشيئته ،ومشيئته تنفذ. لا مشيئة للعباد إلا ما شاء لهم. فما شاء لهم كان وما لم يشأ لم يكن. يهدى من يشاء ويعصم ويعافى فضلا. ويضل من يشاء ويخذل ويبتلى عدلا. وكلهم يتقلبون فى مشيئته بين فضله وعدله. وهو متعال عن الأضداد والأنداد لا رادّ لقضائه. ولا معقب لحكمه ولا غالب لأمره، آمنا بذٰلک كله وأيقنّا أن كلًّا من عنده.

الشرح

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالىٰ الآن يتكلم بكلام باهر قاطع عجيب عن قضاء الله وقدره ،ويرد على القدرية والمعتزلة النفاة للقدر ،وكذٰلک يرد على الجبرية النفاة لخيار العبد. وهٰذا الموضوع يعنى قدر الله وقضائه من أجلة الأمور فى أُصول الدين ،حتىٰ يكون فاصلا بين الإسلام والكفر للعبد ،وقد ضل كثير من الناس فى هٰذه المسئلة ،وصاروا خاسرين فى الدنيا والآخرة.

نحن إن شاء الله العزيز نفصل ونبين ما هو المعنى لقضاء الله تعالىٰ وقدره ،والأمور التى تتعلق بهٰذا الموضوع.

فاعلم أن قضاء الله وقدره يشمل هٰذه الأمور.

(١) الله سبحانهٗ وتعالىٰ يعلم كل شيء من الأزل إلى الأبد مما كان وما هو كائن وما هو يكون ،ولايخفى عليه أي شيء ،فيعلم بالتفصيل الكامل بالجزئيات والكليات ،فكلها على الإطلاق تحت علمه سبحانهٗ وتعالىٰ أزليا أبديا ،وهٰذا العلم حاصل لهٗ من غير تعلم والاستدلال والفكر وغيرها من الأشياء التى هي صفات المخلوقات ،والله عزوجل تعالىٰ وتقدس عنها ،وفى القرآن ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (الاعراف:٨٩) ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (النساء:٣٢) ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٩)

(٢) كل شيء مقدر مراد بإرادة الله تعالىٰ ومشيئته أزليا أبديا. والإرادة والمشيئة عبارتان

عن صفة واحدة ،فكل شيء علم أنهُ يخلقه ،فأراد كونه من الأزل. وكل شيء علم الله لايخلقه ،فلم يرد كونه. وإرادة الله أزلية كجميع صفاته ولا تبدّل في إرادته؛ لأن هذا يؤدي إلى الجهل ،والله تعالى عن ذلك؛ لأنهُ علم ما كان وما يكون وما لايكون ،ولو يكون ما لايكون فكيف يكون هو يعلم هذا كلهُ ،وعلم نفسه وعلم علمه وجميع صفاته تعالى أزليا أبديا بلا تبدل ولا تغير ولازيادة ولا نقصان؛ لأن كل هذه صفات النقص ،ولاتليق بالله تعالى. وفي القرآن ﴿مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الأنعام:٣٩) ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ (الأنعام:١٠٧) ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ (الأنعام:١١١) وفي الحديث "ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن." (سنن أبي داود، ح:٥٠٧٥)

واعلم أن الله عزوجل تنزه وتقدس عن البداءة ،وهي تكون في العلم يعني ظهر العلم لشخص الذي لم يكن عالما به، وهي تكون في الإرادة يعني بدا لشخص أن ما أراد قبلا كان خطأ ،وهي تكون في الحكم يعني بدالهُ أن ما أمر قبلا كان غلطا ،والله عزوجل تعالى وتقدس عن جميع هذه البداءات ،ومن أثبت لهُ أي نوع من البداءة فقد كفر بالله وحدهُ وبكلام الله جحد؛ لأنهُ بكل شيء عليم ،وأراد ما علم وأمر ما علم ،فلن تجدَ لسنته تبديلا ،ولن تجد لسنته تحويلا ،وأما النسخ في الأحكام ،فمعناه أن هذا الأمر كان مناسبا إلى هذا الوقت ،وبعد هذا الوقت الأمر الآخر هو المناسب، كما الطبيب يغير الدواء بتغير أحوال المريض ،وهذا ليس من البداءة، بل من الحكمة؛ لأن عنده علم فيعرف أي الدواء يناسب المريض لأي حال من الأحوال ،وكذلك النسخ هو تغير الحكم بتغير الأحوال ،ويدل على حكمة الله المطلقة ،وعلم الله المحيط الذي يعرف أي الحكم يناسب لأي نوع من الأحوال ،والطبيب قد يخطئ وقد يصيب؛ لأنهُ مخلوق ،وأما الله فلا احتمال للخطأ في حكمه ، وهذا كلهُ من فضله؛ لأنهُ لا حجر عليه لو شاء لأمرنا بالأحكام غير المناسبة ومخالف لمصالحنا ، لكن بفضل الله تعالى أمرنا بالأحكام المناسبة وبذي المصالح وهذا كلهُ فضل منه والإحسان ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة:١٠٥) ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج:٧٨) ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة:٢٨٦) ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ (النساء:٦٦) ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ (محمد:٣٦-٣٧)

(٣) والأمر الثالث المشمول في قضاء الله وقدره أن الله عزوجل كتب كل شيء ما هو كائن

إلى يوم الساعة في اللوح المحفوظ ،ومعلوم أن كتابته ليس ككتابتنا؛ لأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وهو تعالى عن الأعضاء والجوارح ،فكتابته أمر للكتابة ،وفي الحديث " إن أول ما خلق الله القلم ،فقال له أكتب. قال: يارب ! ما أكتب؟ قال: أكتب القدر وما هو كائن إلى الأبد " (سنن الترمذي، ح: ٣٣١٩) . وفي روايات أخرى إلى يوم القيامة ،فمعنى الأبد ليس إلى الأبد، بل إلى يوم القيامة كما هو مصرح في روايات أخرى ،وفي القرآن ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحج:٧٠) ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (الأنعام:٥٩) وفي الحديث "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ،قال وكان عرشه على الماء." (صحيح مسلم، ح:٢٦٥٣) ثمّ هذا كله باعتبار الكتابة التي هي مخلوقة في اللوح المحفوظ الذي هو مخلوق ،والقلم أيضًا مخلوق ،وجملة "وكان عرشه على الماء." يدل على أن الماء والعرش كانتا مخلوقتان بعد، فممكن أنهما خلقا قبل القلم ،فعلى هذا الحديث "إن أول ما خلق الله القلم" ليس على الإطلاق ،والله أعلم ،ونحن نعرف بالقطع أن الله كان وحدهٔ لا شريك له في الأزل ،ثمّ بدا الخلق ،وخلق الزمان والمكان والعرش والماء والقلم وكل شيء فالحديث يتكلم عن الكتابة التي حصلت في الزمان ،وأما علم الله المحيط وإرادة الله المحيطة لجميع المرادات ،فلا بداية لصفات الله تعالى ،ولا نهاية لها ،فكلها أزليا أبديا .[1]

(٤) والأمر الرابع هو ما أراد الله كونه في وقت ما ،فلما جاء هذا الوقت ،فالله عزوجل هو الذي يخلقه ولا شريك له فيه ،وهذا صفة التكوين الأزلية ،وفي القرآن ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ (الأنفال:١٧) ؛ لأن الله خالق أفعالهم ،وخالق كل شيء ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصافات:٩٦) ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأنعام:١٠٢) فكل شيء مخلوق له مملوك له ،وهو خالق على الإطلاق ،ولا خالق غيره ،ولا مالك غيره ،وأما إطلاق المالك على المخلوق ،فهو ليس على الحقيقة، بل على المجاز يعني الله عزوجل أعطاه هذا في هذه الدنيا للانتفاع ،والمالك الحقيقي هو الله عزوجل ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ (النحل:٥٣) وكذلك إطلاق الخلق على فعل المخلوق غاية في المجاز ،وليس على الحقيقة قطعا وبتاتا، وهو يستخدم في معنى الصنع في حق فعل المخلوق ،وليس على معنى الاختراع والإيجاد من العدم؛ لأن الإنسان يصنع شيئًا بامتزاج وتخليط الأشياء المخلوقة من قبل ،فيطلق على هذا الفعل الخلق مجازا. وأما الخالق الحقيقي فهو الله عزوجل

---

(١) وكذلك علمه وسيع لجميع المعلومات على الإطلاق ،وكذلك إرادته وسيع لجميع المرادات على الإطلاق ،وليسا فقط إلى يوم القيامة كما هو حال ما هو مكتوب في اللوح المحفوظ.

،وكذلك ما يفعل الإنسان من أفعال الصنع التي ذكرنا كلها مخلوقة لله تعالىٰ؛ لأن الإنسان وجميع أفعاله وجميع الأشياء على الإطلاق مخلوقة مربوبة لله تعالىٰ ،وفي الحديث "إن الله خالق كل صانع وصنعه ." (المستدرك للحاكم، ح:٨٦) فوجود الشيء في العالم تحت علم الله وإرادته وقدرته وكلامه وتكوينه ،فلو علم الله لشيء في الأزل أنهُ خالقه في وقت ما ،فأراد خلقه في الأزل في هذا الوقت، وقال لهُ بكلامه الأزلي في الأزل "كن" في هذا الوقت ،وكلام الله أزلي بلا حرف ولا صوت ،ونحن نتكلم عن هذا فيما بعد إن شاء الله العزيز ،وكونه في الأزل لوقت وجوده ،فإذا جاء وقت وجوده يوجد هذا الشيء بلا خلف بقدرة الله تعالىٰ الأزلية وتكوينه الأزلي. ونحن تكلمنا عن هذه الأمور سابقا ،والحمد لله. فالقضاء والقدر يشمل هذه الأمور أنهُ كل شيء بعلمه تعالىٰ وإرادته ومشيئته وكتابته وخلقه وتكوينه. وهذا هو القضاء والقدر الاتي هما صفتان لله تعالىٰ تشملان هذه الأمور ،وفي القرآن ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (البقرة:١١٧) يعني أراد شيئًا وحتّمه. ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (الفرقان:٢) أي قدّر كل شيء مماخلق بحكمته على ما أراد لا عن سهوة وغفلة. ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر:٤٩) فكل شيء بقدر الله تعالىٰ ،وفي الحديث "كل شيء بقدر حتى العجز والكيس." (صحيح مسلم، ح:٢٦٥٥) وقال القرطبي في تفسير هذه الآية "الذي عليه أهل السنة أن الله سبحانهُ وتعالىٰ قدر الأشياء أي علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها. ثمّ أوجد منها ما سبق في علمه أنهُ يوجدهُ على نحو ما سبق في علمه. فلا يحدث حدث في العالم العلوي والسفلي إلا هو صادر عن علمه تعالىٰ وقدرته وإرادته ."

فالقضاء والقدر صفتان من صفات الله ،ويأتيان تحت علمه وإرادته وقدرته وتكوينه تعالىٰ ،وبعد بيان معنى القضاء والقدر هناك أُمور كثيرة تتعلق بهذا الباب ،نذكر بعضها الآن ونتكلم عن الأخرى فيما بعد إن شاء الله العزيز. فمن هذه الأُمور إن سألتم أن كل شيء بقدر الله تعالىٰ كائنا ما كان من الهداية والضلالة والكفر والإيمان والسنة والبدعة والغلط والصواب والحسن والقبيح ،ونحن مامورون أن نكره الكفر والضلالة والبدعة والشرك والغلط والقبيح ،فكيف نكره وهي كلها من قدر الله وقضائه؟ ولا يجوز لنا أن نعترض على قضاء الله تعالىٰ وقدره ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الأنبياء:٢٣) والاعترض على الله تعالىٰ يكون كفرا بواحا ،فأخبرنا ما هو الطريق الصواب والنجاة في هذا الأمر؟!

فقلنا بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز: إن الشر الذي يشمل الكفر والبدعة وغيرهما من الشرور ليس في ذات الله تعالىٰ وصفاته ،تعالىٰ الله عن ذلك ، والشر لايكون شرا إلاإذا حكم الله عنه أنهُ شر ،ولا يفوق على الله تعالىٰ شيء حتى يحكم عليه بأي شيء ، فلهذا أفعال الله تعالىٰ حسنة

بذاتها ،ولاحجر عليه ولا منع ،وفى القرآن ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (الحج:١٤) ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ (الأنبياء:٢٣) فمهما من الأفعال يفعل الله تعالى فهو حكيم عدل فيه؛ لأن الحكمة باعتبار حصول المنفعة ودفع المضرة لاتجوز فى حق الله تعالى؛ لأنهٗ غني عن الانتفاع ودفع الضرر ،وهو الجبار القهار القادر القدير ،ولايكون شيئًا إلا بإرادته ،فلايبقى فى اعتبار الحكمة فى حقه تعالى إلا تكميل إرادته ،وهو حاصل؛ لأنهٗ يفعل ما يريد ،فلايكون فعلهٗ عبثا لنفس الوجه الذى ذكرنا ،وهو العبث بمعنى عدم الفائدة ،فهو لايجوز فى حق الله تعالى؛ لأنهٗ غني عن الفوائد ،فلايبقى إلا تكميل إرادته ،وهو حاصل ،فلايكون عبثا ،وهو يفعل ويحكم مايريد بلاحجر ولا منع ،ولايكون فعلهٗ بلا حكمة ،ولايكون عبثا ولايكون شرا، بل جميع أفعاله حسنة حكيمة فى ذاتها.

فقضاء الله وقدره حسن فى إطلاقه ،وليس لنا المخلوقين أن نعترض على الله المالك الخالق على الإطلاق ،لايسئل عما يفعل، بل الشر هو فى المقدرات والمقضيات ،فالكفر والشرك وغيرهما من الشرور كلها مقضيات مقدرات ،وليس القضاء والقدر اللذان من صفات الله عزوجل ،فقضاء الكفر وقدره شيء آخر ،والكفر شيء آخر ،فالكفر هو الشر ،وأما قضائه للكفر وقدره لهٗ فليس بشر، بل حسن لأنهما صفات الله. وصفات الله تعالى كلها حسنة ،ولا حجر عليه ولا منع ،ونحن ذكرنا أنهٗ لا معنى لجلب المنفعة ودفع المضرة فى حق الله تعالى ،فلا يبقى إلا تطبيق علمه وإرادته ،وهو حاصل ،ومع ذلك لو نغور ،فنرى المصالح الكثيرة فى خلق الشر ،وهذا كلهٗ فضل من الله تعالى والإحسان ،ونحن نتكلم عن هذا فيما بعد ،إن شاء الله عزوجل.

فحاصل الكلام نحن مأمورون بالرضا بقضاء الله تعالى ،فنرضى به ولايُسأل عما يفعل ،وأما المقضي ونحن نتكلم عن الشر الآن فنكره ونرده ،فهناك فرق بين القضاء والقدر وبين المقدور والمقضي. ثمّ نعطيك مثالا وهو فى بعض الأحيان الأمر الواحد يكون مكروها من وجه ومرضيا من وجه مثلا العدو للشخص ،الذى هو عدو لأعدائه الأُخرى أيضًا، يموت ،فهذا الموت مكروها لهذا الشخص من حيث أن عدوا لأعدائه مات؛ لأن عدوا لأعدائه يكون نافعا لهٗ وذا مصلحة من وجه ، لكن مع ذلك هذا يكون مرضيا لهٗ من حيث أنهٗ عدو لهٗ أيضًا ،وقد مات ،فإذا فهمت هذا ،فافهم أن الشر من حيث أنهٗ مقضي لهٗ من قضاء الله تعالى وقدره يكون مرضيا لنا؛ لأن هذا من الرضاء بقضاء الله تعالى وقدره ، لكن من حيث أنهٗ معصية الله تعالى يكون مكروه لنا. فافهم، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

فحاصل الكلام أن الله عزوجل تعالى وتقدس عن أن يكون الشر فيه أو فى صفاته وفى الحديث: "إن الله طيب." (صحيح مسلم، ح:١٠١٥) والحديث:"والشر ليس إليك." (صحيح

مسلم، ح: ١٧٧) وفي القرآن ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الحشر: ٢٣) فالشر ليس في قضاء الله وقدره، بل الشر في المقضيات والمقدرات ،وهو ليس في إرادة الله، بل في المرادات ،وهو ليس في تكوين الله، بل في المكونات ،ونحن ذكرنا سابقا أن أفعال الله سبحانهٗ وتعالىٰ حكيمة حسنة في ذاتها ،لا منع عليه ولا حجر ،ولايفوق عليه أحد ،فتكوين الشر من الله تعالىٰ خير حسن؛ لأنهٗ فعل الله حسن لذاته ،ولو كان الشر بنسبة كاسبه شر محض ،والكاسب هو الإنسان أو الجن ،ونحن نتكلم عن الكسب فيما بعد إن شاء الله العزيز.

فالحاصل أن الشر من مخلوقات الله تعالىٰ هو في الحقيقة الشر الإضافي ،وليس الشر الكلي؛ لأنهٗ من حيث الكسب للإنسان أو الجن شر محض؛ لأنهٗ معصية الله تعالىٰ ، لكن من حيث أنهٗ من فعل الله تعالىٰ خلقا وتكوينا ،فأفعال الله حسنة لذاتها وهو الحكيم في كل ما يفعل.

المتن

وأن محمدا صلى الله تعالىٰ عليه وسلم عبده المصطفى ونبيه المجتبى، ورسولهٗ المرتضى، وإنه خاتم الأنبياء، وإمام الأتقياء ، وسيد المرسلين، وحبيب رب العالمين، وكل دعوىٰ نبوة بعد نبوته فغيّ وهوى، وهو المبعوث إلى عامة الجن وكافة الورىٰ بالحق والهدى وبالنور والضياء.

الشرح

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالىٰ الآن يتكلم عن نبينا ورسولنا صلى الله تعالىٰ عليه وسلم أنهٗ خاتم الأنبياء والرسل وإمامهم وسيدهم وحبيب رب العالمين وخير الخلائق ،وأنهٗ من يدعى بعدهٗ بالنبوة فقد كفر وخرج من ملة الإسلام ،لاشك فيه ،وهذا الأمر من ضرورات الدين ،وعليه إجماع المسلمين ،وهو نبي رسول مرسل إلى الإنس والجن كافة بلا استثناء ،ونبوته جارية إلى يوم القيامة ،فلانبي ولا رسول بعده. فالآن نحن نتكلم عن الأنبياء عليهم الصلوات والسلام وهذا البيان يشتمل على المواضع المتعددة. فإن شاء الله بتوفيق الله تعالىٰ نتكلم عن جميعها شيئًا بعد شيء.

الإيمان بالأنبياء عليهم الصلوات والسلام من ضرورات الدين ،ولا يكون إيمانا بدون إيمان بهم ،ولو واحد يؤمن بالله ، لكن لايؤمن بالأنبياء أو حتى واحدا منهم لايكون مسلما، بل كافرا مطلقا محضا ،يقول الله تعالىٰ ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ

أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء:١٤٩-١٥٢) ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة:٢٨٥)

وإرسال الأنبياء والرسل فضل من الله تعالى وكرمه وليس واجبًا عليه؛ لأنه لا واجب عليه تعالى، وفى القرآن ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (آل عمران:١٦٤) والمنة لاتكون واجبًا؛ لأن الواجب مستحق عليه، فلا تكون منة والمنة هي الفضل والإحسان، ثم الله عزوجل أرسل الأنبياء والرسل من أنفسنا إلينا وإلى الجن وفى القرآن ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ (الحج:٧٥) فالأنبياء المرسلون إلينا وإلى الجن من الإنس؛ لأن المعلوم الملئكة لايأتون إلى عامة الناس برسالة من الله تعالى، وفى القرآن ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ (بنى إسرائيل:٩٥) ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ (الأنعام:٩) ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ (الأنعام:٨) فثابت أن الملائكة لايأتون إلينا عامة الناس برسالة من الله، فتعين الإنسان فى حقنا، لأن الله تعالى كما يقول إنه تعالى يصطفى رسلا من الملائكة ومن الناس، فتعين الناس يعنى الإنسان فى حقنا، فهم الأنبياء والرسل يأتى عليهم الوحي من عند الله تعالى وهم يبلغونه إلينا، وإن سألتم فما هو الرسل من الملائكة ؟

فقلنا بتوفيق الله تعالى: إن الله عزوجل أطلق الرسل على الملائكة فى أماكن متعددة فى القرآن، فمنها الرسول الذى يأتى الوحي من الله تعالى إلى الرسول من الإنس ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ (الشورى:٥١) وكذلك الرسل الذين يأتون بالبشرى [1] إلى الرسول من الإنس ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ﴾ (هود:٦٩) وكذلك الرسل الذين يأتون بالعذاب ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ (هود:٨١-٨٢) وكذلك من يأتون لأخذ الروح من الميت ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ (الأنعام:٦١) فالله عزوجل يصطفى من الملائكة رسلا لشؤون مختلفة (وأيضا الرسل من الملائكة يبلغون الأمر والنهي إلى عوام الملائكة وإلى أنبياء البشر) وهو يعلمها ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ (المدثر:٣١) ونحن إن شاء الله العزيز

---

(١) والبشرى أيضا نوع من الوحي

نتكلم عن الملائكة فيما بعد بالتفصيل.

فإن سألتم أن المعلوم أن الرسول محمد صلى الله تعالى عليه وسلم خاتم الأنبياء والرسل إلى العالمين ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧) فهو المرسل إلى الجن والإنس ،فهل قبله رسول أو نبي من الجن مرسل إلى الجن استدلالا بآية ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ (الأنعام:١٣٠)

قلنا بتوفيق الله عزوجل إن شاء الله العزيز: إن الآية ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾(الحج:٧٥) لايذكر رسلا من الجن ، ففيها إشارة إلى عدم النبي من الجن ، ثمّ الآية ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ (الأحقاف:٢٩-٣١) تدل أنهٔ حتى قبل نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم قوم الجن يتدينون بشريعة الأنبياء من الإنس كما يدل عليه قولهم ﴿مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾ فيعنى أن الأنبياء من الإنس مرسلون إلى الجن والإنس قبل نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم أيضًا كما هو في حق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم.

ولو قلتم عن الآية ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ (النحل:٣٦)

فقلنا الآية تقول: ﴿بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾(النحل:٣٦) لا تقول "من كل أمة رسولا." فالرسل من الإنس مبعوث إلى الجن أيضًا ،فهذا يحقق الآية ﴿بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾ (النحل:٣٦) وأما الآية التى ذكرتم فليست بصريحة ،لأنها ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ (الأنعام:١٣٠) خطاب إلى الجن والإنس ،فيكفى فيه وجود الأنبياء في الإنس مبعوثون إلى جميعهم كما في الآية ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ (الرحمن:٢٢) وإنما يخرج من الملح لاالعذب؛ لأن العرب تجمع الجنسين ،ثمّ تخبر عن احدهما. وكذلك الآية ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا﴾ (نوح:١٥-١٦) والقمر في السماء الدنيا و لكن أجمل ذكر السبع ،فكان مافي إحداهن فيهن. ثمّ وجود الأنبياء من الضرورات الدينية ،والضرورات تحتاج إلى الدلائل القطعية ،وهي مفقودة في حق وجودهم في الجن ،وجمهور الأمة لايعتقدون وجود الأنبياء في الجن ،فكيف يثبت وجودهم في الجن ،وهو يحتاج إلى القطع ،والحال أن جمهور العلماء يقولون: إن الأنبياء لم تكن من الجن، بل كان منهم نذورا ويدل عليه الآية ﴿وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ (الأحقاف:٢٩) وفي القرآن ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ (فاطر:٢٤)

وإن قلتم: إنهٔ في الحديث "كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر

وأسود." (صحيح مسلم، ح: ٥٢١) وفى رواية أخرى "وبعثت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون" (صحيح مسلم، ح:٥٢٣)

قلنا: إن بعض الناس استدلوا بهذا الحديث والآية التى ذكرتم على وجود الأنبياء من الجن قبل النبي الرسول محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الذى هو خاتم النبيين على الإطلاق والمرسل إلى الجن والإنس، ومن جحد هذا فقد كفر وخرج من ملة الإسلام، لكن جمهور العلماء لايعتقدون على وجود الأنبياء من الجن على الإطلاق، فالمسئلة فيها اختلاف من بعض الناس، لكن وجود الأنبياء كما ذكرنا من الضرورات، فعقيدة الطائفة الصغيرة لاتكفى فيها، ثمّ الحديث يقول: إن الأنبياء كانوا يبعثون إلى قومهم خاصة، فما معنى القوم؟ هل معنى القوم قبيلة وعشيرة؟ ونحن نرى سيدنا موسٰى عليه السلام أرسل إلى القبط وبنى إسرائيل، وكان هو من بنى إسرائيل فقومه الذى أرسل إليهم على الأقل بنى إسرائيل والقبط فثبت أن القوم فى الحديث لايعنى قبيلة وعشيرة.

ثمّ معنى يبعثون إلى قومهم خاصة يعنى إصالة، فعيسٰى بن مريم عليه السلام إصالة كان مبعوثا إلى بنى إسرائيل، وفى القرآن ﴿وَرَسُوْلاً إِلٰى بَنِىْ إِسْرَآئِيْلَ﴾ (آل عمران:٤٩)، لكن مع ذٰلك لو واحد من غير بنى إسرائيل لم تبلغه دعوة أي رسول من قبل عيسٰى عليه السلام، وتبلغه دعوة عيسٰى عليه السلام فى زمان عيسٰى عليه السلام قبل نبينا صلى الله تعالٰى عليه وسلم، فكان عليه أن يتقبل دعوة عيسٰى عليه السلام؛ لأنها من الله تعالٰى ولايجوز لهٗ قطعا وبتاتا رد هٰذه الدعوة، وهو يكون تحت شريعة عيسٰى عليه السلام إلا ما هو خص منها لبنى إسرائيل وأما ما عداها فجملة مستحق على هٰذا الشخص من غير بنى إسرائيل، وان كان سيدنا عيسٰى عليه السلام كان مبعوثا إصالة إلى بنى إسرائيل، لكن يجوز أن يكون غير بنى إسرائيل تحته ضمنا وتبعا.

وفى القرآن ﴿قُلْنَا اهْبِطُوْا مِنْهَا جَمِيْعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّىْ هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ وَالَّذِيْنَ كَفَرُوْا وَكَذَّبُوْا بِآيَاتِنَا أُوْلٰٓئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُوْنَ﴾ (البقرة:٣٨-٣٩) فإذا جاء الهدى إلى هٰذا الشخص استحق عليه قبولهٗ ولايسوغ لهٗ الرد وأما إذا كان شخصا من القوم الذى أرسل إليه رسول من قبل وهو يتدين بشريعته وثمّ جاء إليه خبر رسول آخر الذى أرسل إلى قوم آخر، فعليه إيمان به ولا عليه اتباع شريعته؛ لأنهٗ متدين بشريعة الرسول الذى أرسل إليهم، وكل هٰذا قبل بعثة نبينا صلى الله تعالٰى عليه وسلم؛ لأنهٗ بعد بعثه عليه السلام لانجاة إلا فى اتباعه، وفى الحديث "لو كان موسٰى حيا لما وسعه إلا اتباعى." (شعب الإيمان، ح: ١٧٤) فإذا فهمت هٰذا، فالمفهوم أن معنى القوم فى الحديث أن الأنبياء كانوا يبعثون إلى قومهم خاصة، قد يكون على معنى القوم الذى حدد الله لهٗ وعينه، فقد يشمل بعض الجن فيه، ثمّ قد يكون على معنى يبعثون

إلى قومهم إصالة، وأما الجن فى نفس المنطقة فشاملون ضمنا وتبعا. والله أعلم ،ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

فحاصل الكلام أن جميع الأنبياء والمرسلين الذين بلغوا رسالة الله تعالى إلى الجن والإنس كانوا بشرا ،وفى القرآن ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلٰكِنَّ اللّٰهَ يَمُنُّ عَلٰى مَنْ يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهٖ﴾ (ابراهيم:١١) ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُّؤْتِيَهُ اللّٰهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُوْلَ لِلنَّاسِ كُوْنُوْا عِبَادًا لِّيْ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ﴾ (آل عمران:٧٩) ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوْحٰى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَّاحِدٌ﴾ (حم سجده:٦) وهذه الدلائل القطعية مع غيرها ترد على من قال: إن نبينا ورسولنا صلى الله تعالى عليه وسلم كان من جنس النور وتكفره؛ لأن إنكار الدلائل القطعية يوجب الكفر والخروج من الملة الإسلامية ،ثمّ الآية فى سورة المائدة ﴿قَدْ جَآءَكُمْ مِّنَ اللّٰهِ نُوْرٌ وَّكِتَابٌ مُّبِيْنٌ يَّهْدِيْ بِهِ اللّٰهُ﴾ (المائدة:١٥-١٦) ففى تفسير النور فى هذه الآية أقوال ،منها أنهُ الإسلام ،ومنها أنهُ محمد عليه الصلوات والسلام ،فعلى تفسيره بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم معناه أنهُ نور ،يعنى نور الهدى يدعوا الناس إلى صراط مستقيم كما فى الآيات ﴿اللّٰهُ وَلِيُّ الَّذِيْنَ آمَنُوْا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوْرِ﴾ (البقرة:٢٥٧) ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوْرِ﴾ (ابراهيم:١) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوْسٰى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوْرِ﴾ (ابراهيم:٥) ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللّٰهِ بِإِذْنِهٖ وَسِرَاجًا مُّنِيْرًا﴾ (الأحزاب:٤٦) فمعنى النور فى هذه الآيات هداية كما معنى الظلمٰت الضلالة ،وهذا ظاهر لاخفاء فيه ،فرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نور يعنى صاحب النور يعنى صاحب الهداية، ويدعوا الناس إليها ،ثمّ هذه كلها ظاهرة لاخفاء فيها ، لكن ذكرنا؛ لأنهُ قد ظهر الناس يقولون إن الرسول عليه الصلوات والسلام كان من جنس النور ،وهذا كفر بواح؛ لأنهُ كان بشرا كما هو مصرح فى القرآن ، فمن جحد هذا فجحد القرآن ، لكن بعد تسليم أنهُ بشر يجوز أن يقال: إنهُ نور على معنى الهداية ،وليس على معنى أنهُ خلق من نور ،وأنهُ من جنس النور؛ لأن هذا جحود القرآن. ثمّ قد أرسل الله تعالى أنبياء كثيرة ،ومنهم الرسل أيضًا ،فيجب أن يعتقد أن كل من أرسل الله من الأنبياء فهو نبيه، وثمّ من منهم رسول فهو نبي ورسول ،وهذا إيمان بهم على الاجمال ،ومنهم من ذكر فى القرآن والسنة بالاسم ،فيجب اعتقادٌ عليهم بالاسم ،ومنهم آدم عليه السلام وهو أبوالبشر والبشر الأول ، وجميع نوع البشر أولاده ،فهذا أبونا ،فهو نبي ورسول ،وفى الحديث عنه "نبيا ورسولا كلم الله قبلا" وآدم عليه الصلوٰة والسلام علمه الله أسماء كل شيء [1] وهذا تعليم ما كان بواسطة إنسان آخر؛ لأنهُ ما كان ثمّ إنسانا إلا هو ،ولا حتى بواسطة ملك؛ لأن لما سأل الله عزوجل الملائكة عن أسمائها ما

---

(١) يعنى كل شيء مما يحتاج إليها الإنسان على وجه الأرض من الأجناس والأنواع ومنافعها من المأكولات والمشروبات والآلات والحيوانات وغيرها.

كانوا يعرفونها ،فهٰذا التعليم مباشرة من الله إلى آدم عليه السلام ،ثمّ آدم عليه السلام أمر ونهي من الله تعالى ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ (البقرة:٣٥) ثمّ عند ما هبط إلى الأرض قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة:٣٨-٣٩)

والمعلوم لم يكن ثمّ نبيا أرسل إلى آدم عليه السلام ابو البشر ،وثمّ معلوم أنهٗ مكلّف ،وكما قال الله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ خطابا إلى آدم عليه السلام؛ لأنهٗ نفسه نبي رسول مُعلّم من عند الله مباشرة والمامور بأوامره والمنهي بنواهيه من عند الله بلا واسطة من اي بشر آخر. ثم هو مامور أن يبلّغ هٰذه الأوامر والنواهي إلى زوجته وأولاده ،وكما في القرآن ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ (البقرة:٣٥) خطاب إلى آدم عليه السلام ،فظاهر الآية قد تدل علىٰ أن يكون آدم عليه الصلوات والسلام مامورا بإبلاغه إلى زوجته ، فجميع هٰذا كلام الله تعالىٰ ووحيه إلى آدم عليه السلام ،ثم آدم عليه الصلوات والسلام أمره الله تعالىٰ أن ينبئ بأسماء كل شيء، فكان معلما للملائكة عليهم الصلوات والسلام ،ثم امرهم أن يسجدوا لآدم فكان مسجودا لهم ،ثم هٰذه السّجدة في الحقيقة كان لله تعالىٰ وآدم عليه الصلوٰة والسلام كمثل قبلة لهم ،ويمكن نفس التفسير في قصة سيدنا يوسف عليه الصلوٰة والسلام في الآية ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ (يوسف:١٠٠) يعني أبواه وإخوته خروا لهٗ سجدا ،فهو كان كمثل قبلة لهم ،والسجدة في الحقيقة لله تعالىٰ. وإن قلتم: هٰذا لايدل على الشرف؛ لأن الكعبة قبلة النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ،والمعلوم أن الأنبياء أفضل من الكعبة ،فلما ذا لا تقولون: إن هٰذه السجدة كان حقيقة لآدم وليوسف عليه السلام ،لا علىٰ وجه العبادة التي تكون شركا جليا، بل علىٰ وجه الاحترام والتحية ،كما يقولون كثير من العلماء؟

قلنا بتوفيق الله تعالىٰ: إن الله عزوجل قال في القرآن ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (الجن:١٨) والمساجد هي الأعضاء التي تُسجد بها ،فقد خصها الله تعالىٰ لهٗ ،وقال ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ متصلا بهٰذا التخصيص ،والمعلوم أنهٗ لايجوز في أي شريعة دعاء إلى غير الله ،فهٰذا يشير أن السجدة لم تكن مشروعة لغير الله أيضًا قطعا وبتاتا ،يعني حتىٰ في الشرائع السابقة؛ لأن هٰذا الكلام كلهٗ في الشرائع السابقة ،وأما في شريعتنا فبالإجماع السجدة لاتجوز ،ولو تحية لغير الله تعالىٰ للأحاديث الواردة المشهورة في نهيها ، كما نهي رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم معاذا وسلمان الفارسي رضي الله تعالىٰ عنهما ،وحتىٰ هٰذه العلماء الذين ذكرتم الذين يأخذون سجدة الملائكة لآدم وسجدة ليوسف من أبويه وإخوته علىٰ وجه التحية والاحترام ، كلهم متفقون مع جميع

المسلمين على تحريم هذه سجدة التحية فى شريعة نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم ،فلا يجوز أي نوع من السجدة لغير الله الآن ،ومع ذلك الآية التى ذكرنا تخصص المساجد التى هي الأعضاء التى يسجد بها لله تعالى مع النهي لدعاء غير الله الذى لايجوز فى شريعة من الشرائع ،وكذلك الآية فى سورة النحل فى قصة الهدهد ،فقال عن قوم سبأ إنهم يسجدون للشمس [1] ولا يهتدون ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (النمل:٢٥) وهذه العلماء يقولون: إن سجدة الاحترام كانت جائزة إلى شريعة نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم ،ونحن نرى أن هذا الهدهد فى زمان سيدنا سليمان عليه السلام يشير باقتضاء الكلام أن السجدة لا تنبغى إلا أن يكون لله ،ولافرق بين السجدة من السجدة فيه ،فبسبب الذى ذكرنا أخذنا سجدة الملائكة وسجدة أبوى يوسف عليهما السلام وإخوته على وجه أنها كانت لله وآدم ويوسف عليهما السلام كانا كمثل الكعبة ،ثم اعتراضكم الآخر أن هذا لايدل على شرف. فقلنا بتوفيق الله عزوجل إن شاء الله العزيز: إنهٗ جعل الكعبة قبلة ليس لتشريفه على الساجدين ، ففى القرآن :﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ (البقرة:١٥٠) وهذا يدل على أنهٗ لمصلحة الاجتماع والاتحاد ولا لقصد الشرف والاحترام ، وأما شرف الكعبة على الأماكن الأخرى من الأرض ،فهو من جهة الأخرى وهي أنها القبلة ومكان الحج دون الأماكن الأخرى وليس على وجه أنهٗ أشرف من الساجدين [2] والحاجين وإلا يشبه الوثنية؛ لأن الكعبة هي البنيان والأوثان أيضًا بنيان ، لكن فى جعل آدم ويوسف قبلة ، فهذا لغاية الشرف فيدل عليه أن إبليس لم يسجد لآدم؛ لأنهٗ زعم أنهٗ خير منه ،فقال: ﴿لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ﴾ (الحجر:٣٣) ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ (الأعراف:١٢) وفى الحديث "إنه عند ما ابن آدم قرأ آية السجدة فسجد يبكى إبليس وقال: أمر ابن آدم بالسجدة ،فسجد وأمرت لسجدة وأبيت." (صحيح مسلم، ح: ٨١) والمعلوم أن ابن آدم عند ما يسجد لآية السجدة يسجد لله فإبليس يقابل سجدته بسجدة التى أمر أن يسجد وأبى أن يفعل ،وهذا يشير أنها كانت فى الحقيقة لله وآدمُ كان قبلته. ثم المعلوم أن السجدة افضل نوع العبادة وعبادة لاتجوز قطعا وبتاتا إلا لله فى شريعة من الشرائع وسجدة الاحترام لاتفارقها إلا فى النية ،فجعل سجدة الإعظام لله فى الحقيقة وجعل آدم ويوسف عليهما السلام قبلة من ناحية الاحترام أهون بأصناف من جعل هذه سجدة الإعظام فى

---

(١) اعلم أن العلماء الذين قالوا: إن سجدة التحية والاحترام كانت مشروعة قبل شريعة نبيناصلى الله تعالى عليه وسلم إنما يقولون بجواز هذه فى حق الإنسان فقط ،ولا يقولون قطعا وبتاتا أنها كانت تجوز للشمس والقمر والأفلاك وغيرها من الأشياء؛ لأن هذه من شعائر الكفر الظاهرة ولم تجز قطعا وبتاتا فى شريعة ما، بل تكون كفرا بواحا۔

(٢) وفى الحديث أن حرمة المؤمن أشرف من حرمة الكعبة۔ أو كماقال عليه السلام (سنن ابن ماجة، ح:٣٩٣٢)

الحقيقة لآدم ويوسف عليهما السلام. فافهم ،والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

فنرجع إلى كلامنا السابق أن آدم عليه السلام كان نبيا رسولا كما هو ثابت من القرآن والسنة وإجماع الأمة بالقطع ،ومن جحد هذا فقد كفر بالله وحدهٗ ،وثم ما ذكرنا يدل على أنه كان رسولا أيضًا ،وليس نبيا فقط كما قال بعض العلماء يستدلون بحديث الشفاعة إن الناس سيقولون لنوح عليه السلام "أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ." (صحيح البخاري، ح: ٣٣٤٠) فجوابه لنا بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز: إنهٗ ما ذا تعنون بأول الرسل إلى أهل الأرض ، هل تعنون أنه كان النبي الأول الذى هو صاحب الشريعة؟ فهٰذا لايجوز؛ لأنهٗ معلوم أن الإنس والجن مكلفون قبلهٗ بأي شريعة كانوا يتدينون بها؟ فالمعلوم أنهٗ لم يكن أول صاحب الشريعة، بل أول صاحب الشريعة النبي الرسول أبو البشر سيدنا آدم عليه الصلوات والسلام ،فشريعتهٗ كانت لازمة عليه وعلى زوجته، وعلى أولاده إلى سيدنا نوح عليه الصلوات والسلام.

فان سألتمونا الآن ما ذا هو المعنى "أول الرسل إلى أهل الأرض."

قلنا: هو موجود فى نفس الحديث ،وفى رواية أخرىٰ "و، لكن ائتوا نوحا ، فإنهٗ أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ." (مصنف ابن أبى شيبة، ح: ٣٥٩٣٩) فسيدنا نوح عليه السلام أول رسول ليس على الإطلاق، بل أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض وأما سيدنا آدم عليه السلام فهو أول رسول على الإطلاق من النوع الإنساني ، لكن عند ما هبط إلى الأرض هو وزوجته و إبليس ما كان على وجه الأرض إنسانا قبلا ،ثم النوع الإنساني بدأ من آدم وزوجته عليهما الصلوات والسلام وأما الجان فوالله أعلم هل هم بدأوا من إبليس بعد هبوطه إلى الأرض أو منهم من كانوا موجودين من قبل عند هبوط إبليس إلى الأرض ، والأنبياء كما قلنا من النوع الإنساني والجان أتباعهم أيضًا .

فحاصل الكلام أن آدم عليه السلام أول نبي ورسول على الإطلاق ، وشريعتهٗ مستحقة عليه وزوجته وأولاده و الجان الذين كانوا موجودين فى ذٰلك الزمان وحتىٰ وإبليس؛ لأنهٗ أيضًا مكلف. وأما سيدنا نوح عليه السلام فهو أول رسول من ناحية أن الأرض كانت معمورة من النوع الإنساني وهم خاضوا فى عبادة الأوثان ،فالله عزوجل بعثه لإبلاغ توحيده ورسالته إلى هٰؤلاء ،فأعطاه شريعة مستقلة ،فكان نبيا رسولا بعث إلى أهل الأرض.

ومن الأنبياء الذين ذكروا فى القرآن آدم ، إدريس، نوح، هود، صالح، إبراهيم، لوط، إسماعيل، إسحاق، يعقوب، شعيب، موسىٰ، هارون، داؤد، سليمان،أيوب، ذوالكفل، يونس، إلياس، اليسع، زكريا، يحيىٰ، عيسىٰ، محمد عليهم الصلوات والسلام. وفى القرآن ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ (مريم:٥٦) و ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن

نَشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ٨٣-٨٦) ثم قال الله تعالى عن جميعهم: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ (الأنعام: ٨٩) فكلهم أنبياء وبعضهم أعطى الكتاب ومن لم يعط الكتاب ،فهو متبع لمن أعطى الكتاب منهم ،فعلى هذا كلهم أعطى الكتاب. وفى القرآن : ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (الشعراء: ١٢٣-١٢٥) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (الشعراء: ١٤١-١٤٣) ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (الشعراء: ١٧٦-١٧٨) وذكر الكفل مع الأنبياء ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٥-٨٦) ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾ (الفتح: ٢٩)

ثم إن سألت الآن ما هو الفرق بين النبي والرسول ؟

قلنا بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز: إنهُ للعلماء فيه أقوال. ومنهم الذين قالوا: إن النبي الذى كان صاحب الشريعة فهو نبي رسول ،ومن كان غير صاحب الشريعة فهو نبي فقط. والمعلوم أن الوحي يأتى إلى جميع الأنبياء لأنهم كانوا مصطفين مأمورين من عند الله تعالى ،وكلهم أعطاهم الله من المعجزات ،ونحن ذكرنا سابقا الحديث "ما من نبي إلا أعطاه الله من الآيات التى آمن عليه البشر مثله. (صحيح البخاري، ح: ٤٩٨١) فهذا القدر لايجوز الخلاف فيه ،ثم الاختلاف فى من هو النبي فقط ومن هو النبي والرسول أيضًا ؛ لأن جميع الرسل أنبياء ،وليس جميع الأنبياء رسل، فالرسول أخص من النبي وأعلى مرتبة ، فكل رسول نبي ، وليس كل نبي رسول ، وقد جاء فى بعض الأحاديث عددهم ،ففى رواية مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا نبيا ، والرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جما غفيرا ، رواه أحمد. (مسند أحمد، ح: ٢١٥٥٢) وفى رواية ثلاثمائة وبضعة عشر جما غفيرا يعنى الرسل منهم ، راوه أحمد. (ح: ٢١٥٤٦) وفى رواية مائتا ألف و ألف وأربعة وعشرون ألفا. (النبراس) وفى رواية مائة ألف وعشرون ألفا ،والرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر جما غفير. (رواه ابن حبان، ح: ٣٦١)

والواجب أن لايقتصر على عدد فى التسمية فقد قال الله تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ (غافر: ٧٨) ولا يؤمن فى ذكر العدد أن يدخل فيهم من ليس منهم أو يخرج منهم من هو فيهم؛ لأن خبر الواحد لايفيد القطع ، وهذا أمر من الضرورات يحتاج إلى الدليل

القطعي ، ثم بعض الرواة مطعونة، ثم الروايات فيه متعارضة مختلفة ، ثم ظاهرها يخالف ظاهر القرآن كما ذكرنا في الآية ،فيجب أن يعتقد أن جميع من أرسل الله نبيا أنهُ نبي الله، وكذلك من منهم جعلهُ الله رسولا، فهو النبي الرسول. فالكلام في الفرق بين النبي والرسول، فنحن نرى أن سيدنا هارون عليه السلام كان على شريعة موسى عليه السلام ، لكن مع ذلك في القرآن : ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ (طه:٤٧) وهذا الأمر لسيدنا موسى وهارون عليهما السلام، فهذا لايوافق مع قول من قال: إن الرسول هو النبي الصاحب للشريعة.

ومن قال: إن النبي لإصلاح الناس ، والرسول لمقاتلة الأعداء ، فبأي دليل قال هذا القول؟لم هذا القول بلادليل نعرفه ، وهو قول غريب جدا لايصح ولا يستقيم [1] ومن قال: إن النبي الذى يأتيه الوحي ، لكن لم يؤمر بتبليغهِ ومن يؤمر بتبليغهِ ، فهو النبي والرسول. فقولهُ أن النبي الذى يأتيه الوحي هذا ثابت لايجوز الخلاف فيه ، لكن بعد ذلك الفرق بين النبي والرسول هو الذى لم يؤمر بالتبليغ والذى يؤمر بالتبليغ قول واه؛ لأن جميع ماذكرنا من الأنبياء كلهم كانوا مأمورين بتبليغ ، فعلى هذا لايكون فرقا بين النبي والرسول؛ لأن جميع الأنبياء مأمورون بابلاغ ، وفي القرآن ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (الزخرف:٦-٧) ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ (الفرقان: ٣١) وهذا يدل على أن الأنبياء كلهم مأمورون بابلاغ ، فلهذا صاروا لهم أعداء الذين يخالفون ما هم يبلّغون. وكذلك ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ (آل عمران:٧٩) ولو قلتم إن النبي والرسول عبارتان عن نفس المعنى [2] فهذا لايوافق الآية ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ﴾ (الحج:٥٢)

فإذا أنتم الآن تسألون أخبرنا ما هو الفرق بين النبي والرسول عليهم الصلوات والسلام؟

فقلنا بتوفيق الله عزوجل إن شاء الله العزيز: إنهُ قد أطلق القرآن النبي والرسول على الأنبياء عليهم الصلوات والسلام حتى من منهم النبي فقط عند هؤلاء العلماء الذين يفرقون بين النبي والرسول أطلق القرآن عليهم أنهم الرسل مثلا أنبياء بنى إسرائيل بين موسى وعيسى عليهم الصلوات والسلام ، فهؤلاء العلماء يقولون: إنهم كانوا أنبياء فقط ، لكن قد أطلق الله سبحانهُ وتعالى عليهم أنهم الأنبياء والرسل ،وفي القرآن ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا

---

(١) وفي القرآن ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ (آل عمران:١٤٦) ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ (الأنفال:٦٧)

(٢) وهذا عند بعض العلماء.

لِلَّذِيْنَ هَادُوْا﴾ (المائدة:٤٤) ﴿وَ لَقَدْ اٰتَيْنَا مُوْسَى الْكِتٰبَ وَ قَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهٖ بِالرُّسُلِ﴾ (البقرة:٨٧) وغيرها من الأمثال ، فثابت أنهٗ يطلق الرسول على النبي ،والنبي على الرسول بحسب القرآن ،فالحق أن النبي والرسول يطلق علٰى جميع الأنبياء ، ثم بعد ذٰلك فى ذكر الأنبياء قد يطلق "النبي والرسول" على النبي المعين لإظهار مرتبته علٰى من يطلق عليه فى الكتاب "النبي" فقط بدون أن يكون قصده نفي إطلاق الرسول عليه بالكلية ،فمثلا فى القرآن ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيْلَ إِنَّهٗ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ (مريم:٥٤) والمعلوم أن جميع الأنبياء صادقوا الوعد ، لكن ذكر فى حق إسماعيل بالتخصيص؛ لأنهٗ صدق وعدهٗ فى قوله ﴿سَتَجِدُنِيْ إِنْ شَآءَ اللّٰهُ مِنَ الصَّابِرِيْنَ﴾ (الصافات:١٠٢) كأنهٗ فيه نوع امتياز لهٗ بهٰذا الوصف بدون نفيه من الأنبياء الأخرى وكذٰلك ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيْمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيْمٌ﴾ (التوبة:١١٤) والمعلوم أن جميع الأنبياء متصفون بالحلم ، لكن مع ذٰلك لإبراهيم عليه السلام نوع التخصص بهٖ وكذٰلك لإسماعيل عليه السلام ﴿فَبَشَّرْنٰهُ بِغُلٰمٍ حَلِيْمٍ﴾ (الصافات:١٠١) وكذٰلك لبعض غيرهما عليه الصلٰوة والسلام ،فأيوب عليه السلام ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ (ص:٤٤) والمعلوم أن جميع الأنبياء متصفون بكمال الصبر ، لكن لأيوب عليه السلام فيه نوع التخصص ،وكذٰلك عن إبراهيم عليه السلام ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيْمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلّٰهِ حَنِيْفًا﴾ (النحل:١٢٠) والمعلوم أن جميع الأنبياء كمثل الأُمة قانتون حنفاء للّٰه ، لكن لإبراهيم عليه السلام فيه نوع التخصص ،ثم نوع التخصص قد يكون لأكثر من واحد من الأنبياء فى نفس الوصف ورسولنا ونبينا صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم كان متخصصا بكمال الصبر والحلم ،وكان أُمةً قانتا للّٰه وكان حنيفا صادق الوعد وحاملا لجميع صفات الكمال الممكنة للإنسان ،فكذٰلك ذكر الرسول والنبي ، ففى القرآن ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوْسٰى إِنَّهٗ كَانَ مُخْلَصًا وَّكَانَ رَسُوْلاً نَّبِيًّا﴾ (مريم:٥١) وعن هارون عليه السلام ﴿وَوَهَبْنَا لَهٗ مِنْ رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هٰرُوْنَ نَبِيًّا﴾ (مريم:٥٣) وهٰذا فى نفس البيان يظهر مرتبة موسٰى عليه الصلٰوة والسلام علٰى هارون عليه الصلٰوة والسلام بدون أن ينفي إطلاق الرسول علٰى هارون عليه السلام كما هو مذكور فى الآية ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُوْلَا إِنَّا رَسُوْلَا رَبِّكَ﴾(طه:٤٧) فثبت أنهٗ من قال: إن هارون عليه السلام هو النبي والرسول وموسٰى عليه السلام هو النبي والرسول ،فقولهٗ صحيح ،ثم من قال: إن موسٰى عليه السلام هو النبي والرسول وهارون عليه السلام هو النبي ،فقولهٗ صحيح أيضًا (فلهٰذا العلماء الذين يفرقون بين النبي والرسول لايقولون: إن إطلاق الرسول علٰى جميع الأنبياء غير جائز بالكلية) مادام لاينفي إطلاق الرسول علٰى هارون عليه السلام بالكلية؛ لأنهٗ مخالف للقرآن. ثم إن تسأل معنى الآية ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُوْلٍ وَّلَا نَبِيٍّ﴾ (الحج:٥٢) فظاهرها يدل علٰى فرق بينهما ،فقلنا بتوفيق اللّٰه عزوجل إن شاء اللّٰه العزيز: إنهٗ معلوم من الدين بالضرورة أن الرسول ليسوا غير الأنبياء، بل منهم ،فمن فرق بينهما ،فقال: إن الرسل

طائفة من الأنبياء بالمزية الزائدة ، فهٰذا الإلزام يعني الآية تدل على الفرق بين النبي والرسول طارئ علىٰ هٰؤلاء أيضًا الذين يفرقون بينهما؛ لأن اسم النبي كان شاملا للأنبياء والرسل ، لكن الآية تذكر كليهما ،والمعلوم أن النبي والرسول ليسا فارقا بعضهم من البعض بالكلية بالضرورة ، فلهٰذا من فرق بينهما وقال: إن الرسول نبي أيضًا ، لكن ليس كل نبي رسولا ،فهٰذا الإلزام طارئ عليه أيضا ،ثم نقول: إن القرآن يفسر بعضه بعضا وإذا نرىٰ أن القرآن أطلق الرسول على الأنبياء التي عند هٰؤلاء العلماء[1] الذين يقولون هم أنبياء فقط ،وليسوا رسلا علىٰ حسب تعريفهم للرسل ،فثبت من هٰذا أن النبي في هٰذه الآية ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ (الحج:٥٢) هو الرسول أيضًا وأما الرسول فهو النبي بالإجماع. ثم في اللغة الشرعية معنى النبي الذي يخبر أخبارا يحصل عليها من الله تعالىٰ والرسول الذي عندهُ رسالة من الله يبلغها إلى الناس ، والمعنيان كلاهما منطبقان علىٰ جميع الأنبياء عليهم الصلوات والسلام. والآية تتكلّم عن وساوس الشياطين التي يلقونها في قلوب الكفار عند تلاوة الوحي أو حديثه ، فيزيل الله تعالىٰ هٰذه الوساوس بالمحكمات ، فكأنهُ عند ما النبي يخبر وينبئ عن الوحي من عند الله تعالىٰ ،وهو رسول أيضًا ، ففي تبليغ رسالته من عند الله تعالىٰ ينبئ ويخبر عن الوحي ،فيذكر المتشابهات فيلقي الشياطين في قلوب الكفار الوساوس عن هٰذه المتشابهات ،فيزيل الله تعالىٰ هٰذه الوساوس بالمحكمات ،فمثلا قال في حق عيسىٰ عليه السلام ﴿كَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾(النساء:١٧١) [2]فيلقي الشياطين وساوسا في قلوب الكفار نحو ألوهية عيسى عليه السلام –نعوذ بالله– فيزيل الله هٰذه الوساوس بالمحكمات ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ (مريم:٣٠) ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ﴾ (الزخرف:٥٩) ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ (المائدة:٧٢) ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾ (المائدة:٧٣) ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ (مريم:٩٢) وغيرها من الآيات ،ثم كلمة "رسول" في الآية [3] قد يشير إلى الملك أيضًا الذي يأتي بالوحي من عند الله إلى الأنبياء البشر ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ (الشورى: ٥١) ثم المعلوم أن إلقاء الشياطين

---

(١) ولهٰذا هم أيضًا لاينفون إطلاق الرسل علىٰ جميع الأنبياء عليهم الصلوات والسلام بالكلية.

(٢) يعني مخلوق بكلمة الله "كن" وروح منه خلقا وملكا ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(آل عمران:٥٩) كما في الآية ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ﴾ (الجاثية:١٣) يعني خلقا وملكا.

(٣) يعني الآية ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾(الحج:٥٢)

لايكون فى الملك وإبلاغ الملك الوحي وكذلك فى النبي والرسول من البشر وفى إبلاغه الوحي. وفى القرآن ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (حم السجدة: ٤١-٤٢) ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ (النحل: ٩٨-١٠٠) ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ (الشعراء: ٢١٠-٢١٢) ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ (الجن: ٢٦-٢٨) فيكون إلقاء الشياطين إذا بلغ النبي الرسول إلى عامة الناس ،فيلقي فى قلوب الزائغين من الكفار الوساوس ،فيزيلها الله تعالٰى بالمحكمات ، فإذا فهمت هذه كلها ،فاقرأ هذه الآيات مع هذا الفهم .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ (الحج: ٥٢-٥٥)

التنبيه: تمنى معناه "تلا" أو "حدث" "فى أمنيته" معناه "عند تلاوته أو حديثه" وما ذكرت قصة الغرانيق فكلها باطلة غير صحيحة عند العلماء ،ولاتجوز قطعا وبتاتا، فأعرض وجهك عنها بالكلية وانسها كأنها لم تكن مذكورا. والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

ثم اعلم أن جميع الأنبياء عليهم الصلوات والسلام كلهم على نفس الدين ،وهو دين الإسلام ،فأصولهم واحد ،ولو اختلفت الفروعات والشرائع ،قوله تعالٰى ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[1] (الشورى: ١٣)

وأما اختلاف الشرائع فقوله تعالٰى ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة: ٤٨) فمعنى الآية شرعنا لكم ما شرعنا للأنبياء دينا واحدا فى الأصول ، وهي التوحيد والصلاة والزكوة والصيام والحج والتقرب بصالح الأعمال. فهذا كله مشروع دينا واحدا وملة متحدة لم يختلف على ألسنة الأنبياء وإن اختلف أزمنتهم . وبالجملة لا شك فى اختلاف الأديان فى الفروع. نعم لايعد اتفاقهم

(١) وفى الحديث "الأنبياء إخوة من علات ـ أمهاتهم شتى ودينهم واحد." (صحيح مسلم، ح: ٢٣٦١)

فيما هو من مكارم الأخلاق واجتناب الرذائل (منقول من روح المعانى) ثم كما ذكرنا أن دينهم كلهم الإسلام ، ففى القرآن ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَّلَا نَصْرَانِيًّا وَّلٰكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ (آل عمران:٦٧) ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وَإِلٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحٰقَ إِلٰهًا وَّاحِدًا وَّنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة:١٣٣) ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسٰى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِيْ إِلَى اللهِ ،قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:٥٢) ثم اعلم أن جميع الأنبياء عليهم الصلوات والسلام كانوا فائزين فى وظيفتهم الرسالة ولو حتى لا يؤمن أحد بنبي ما من الأنبياء عليهم الصلوات والسلام من أمته ،فهو أيضًا فائز المرام، وقوله تعالى ﴿اَللّٰهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهٗ﴾ (الأنعام:١٢٤) فالله سبحانهٗ وتعالى يصطفى الأنبياء واصطنعهم لهٗ من غير حاجة كما قال لموسى عليه السلام ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِيْ﴾ (طه:٤١) فهم كلهم قد أدوا ما وظفوا بهٖ ،ثم لو آمن بهٖ واحد أولم يؤمن ،هذا لا قدح عليهم على الإطلاق ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِيْنُ﴾ (النحل:٣٥) فكلهم فائزون وكلهم من أهل الجنة بالقطع ،هذا لاشك فيه، وهذا معلوم من الدين بالضرورة ،والقرآن يمدحهم ويثني عليهم ﴿أُولٰئِكَ الَّذِيْ هَدَى اللّٰهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (الأنعام:٩٠) وقال الله تعالى عن لوط عليه السلام ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِيْ رَحْمَتِنَا إِنَّهٗ مِنَ الصَّالِحِيْنَ﴾ (الأنبياء:٧٥) وكذلك عن إسماعيل و إدريس وذا الكفل عليهم السلام ﴿وَأَدْخَلْنٰهُمْ فِيْ رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِيْنَ﴾ (الأنبياء:٨٦)وعن يونس عليه السلام ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهٗ وَنَجَّيْنٰهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِيْنَ﴾ (الأنبياء:٨٨) وغيرها من الأمثال كثيرة ، والمعلوم أن كلهم مؤمنون، بل وهم أفضل المؤمنين وخير الخلائق حتى جميع الأولياء جمعا لايبلغون درجة واحد من النبي عليه السلام؛ لأن النبوة فضل من الله تعالى ،هي ليست كسبية ،وأما الولاية فهي كسبية كما فى الحديث "ولا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبهٗ." (صحيح ابن حبان، ح:٣٤٧) فيمكن لواحد من المؤمن بالتزام الفرائض واجتناب المحرمات والمكروهات والزيادة فى الأعمال النفلية أن يبلغ درجة الولاية ، لكن النبوة فهي فضل من الله يؤتيها من يشاء ،ثم بعد نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم قد أغلق باب النبوة بالكلية ،فهو خاتم النبيين ،فمن قال: إنهٗ يجوز لغير الأنبياء أن يبلغوا درجة النبي عليه السلام اجتماعيا أو انفراديا ،فقد كفروا بالله تعالى؛ لأن الله عزوجل قال:﴿اَللّٰهُ يَصْطَفِيْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَّمِنَ النَّاسِ﴾(الحج:٧٥) فهذه مرتبة الاصطفاء من الله تعالى ،وليس من العباد ،فمن قال: إنهٗ يمكنه أن يبلغ هذه الدرجة بنفسه ،فقد كفر بالله العظيم. ولم هذا الأمر معلوم من الدين بالضرورة ،وفى القرآن ﴿وَقَالُوْا لَوْ لَا نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْآنُ عَلٰى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيْمٍ أَهُمْ يَقْسِمُوْنَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ (الزخرف:٣١-٣٢) ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوْا لَنْ نُّؤْمِنَ حَتّٰى نُؤْتٰى مِثْلَ مَا أُوْتِيَ رُسُلُ اللّٰهِ اَللّٰهُ أَعْلَمُ حَيْثُ

يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ (الأنعام:١٢٣) فهٰؤلاء الأنبياء عليهم الصلوات والسلام هم الهاديون والمهتدون وأئمة الهدىٰ ، فلايساويهم أي واحد من غيرهم قطعا وبتاتا، ثم هم بينهم بعضهم أفضل من بعض ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (البقرة:٢٥٣) وأما الحديث "لاتفضلوا بين الأنبياء." (صحيح البخاري، ح:٣٤١٤) فهو ليس علىٰ إطلاقه وكيف إلا يكون مخالفا للقرآن ، فلهٰذا هو مؤول عند الإجماع ،فمعناه لاتفضلوا بين الأنبياء برأيكم، بل ليكن مستخرجا من القرآن والسنة وكذٰلك بعد ذٰلك لا تفضلوا الفاضل منهم فى وجه يؤدى إلى تنقيص المفضول فى وجه من الوجوه، لأن التنقيص فى شان الأنبياء كفر بواح .

فاعلم أن التنقيص فى شأن نبي من الأنبياء كفر ،وكذٰلك إيذاء هم فى وجه من الوجوه ،وليس هناك قليل وكثير فى هٰذا المجال؛ لأن جميع أنواع التنقيص ،وكذٰلك جميع أنواع الإيذاء ،وجميع أنواع التعريض بمقامهم الكريم عليهم الصلوات والسلام كلها كفر بواح ،ويكون فاعلا مستحقًاللقتل ،وفى القرآن ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (التوبة:٦١) ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ (الأحزاب:٥٣) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ (الأحزاب:٥٧) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (الحجرات:٢-٣) ثم اعلم أن الأنبياء هم مخلوقون وكل شيء سوا اللّٰه مخلوق لهٗ ،فليس للأنبياء ألوهية ولا ربوبية ولا هم يشاركون اللّٰه فى ذاته وصفاته ولا أعطاهم اللّٰه علم الغيب ولا السماعة المحيطة ولا البصارة المحيطة ، ولا يملكون النفع ولا الضرر ،ونحن قد ذكرنا سابقا بالتفصيل عن هٰذه الأشياء ،ومن أثبت شيئًا من هٰذه الأشياء للأنبياء ،فقد أشرك باللّٰه شركا جليا ،والشرك الجلي كفر بواح. ثم اعلم أن الأنبياء عليهم الصلوات والسلام متصفون بصفة العصمة ،وهٰذا من ضرورات الدين ،ولا عصمة إلا للأنبياء والملائكة عليهم الصلوات والسلام ،والقرآن مملوء بالمدح على الأنبياء والثناء عليهم ،والعصمة فى حق الأنبياء معناه الوصف الذى يمنع الأنبياء علىٰ الإقدام علىٰ الذنوب مع الاختيار ،فليس المعنى أن الذنوب خارجة عن استطاعتهم؛ لأنهٗ يبطل التكليف ولا يدل على الفضيلة؛ لأن من لايذنب لأنهٗ لايستطيع عليه لايكون مستحقاللمدح، بل من لايذنب مع الاختيار عليه يستحق المدح لأنهٗ يجتنبه بالقصد ،ثم القرآن أيضا يدل على ذٰلك. ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ (يوسف:٢٤) فمعنى أنهٗ لو لم يكن رآى برهان ربه لهم بها ، لٰكن لأنهٗ رآه فلم يهم بها كما فى الآية ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا

عَلٰى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (القصص: ١٠) فهذا يدل أن الهم كان في استطاعته، لكن لم يفعل؛ لأنه رأى برهان ربه فعصمه الله ﴿كَذٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوْءَ وَالْفَحْشَآءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِيْنَ﴾ (يوسف: ٢٤) فالمعلوم أن كل شيء من الله تعالى، وكذلك للأنبياء عليهم الصلوات والسلام فعصمتهم فضل من الله ونعمة، فحصل لسيدنا يوسف عليه السلام في هذه الحادثة بفضل من الله تعالى. ثم هذه الآية تدل على أن الأنبياء معصومون عن الصغائر والكبائر؛ لأن سيدنا يوسف عليه السلام لم يشتهيها بالقلب، وفي الحديث "والقلب يشتهي والفرج يصدقه أو يكذبه." فيعني أن سيدنا يوسف عليه السلام لم يفعل حتى لمما؛ لأن ابن عباس رضي الله تعالى عنه فسر اللمم في الآية ﴿الَّذِيْنَ يَجْتَنِبُوْنَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ (النجم: ٣٢) بالنظر إلى المرأة أو الكلام أو التمني عنها، وهذه كلها لو يقع الإنسان في هذه الأشياء بدون الدوام والمواظبة؛ لأنه لو واحد يلمن على نظر النساء والكلام معهن والتمني عنهن، فتصير هذه كلها من الكبائر وإن لم يفعل الوطي؛ لأن الإصرار على اللمم يخرجها إلى الكبيرة، وفي القرآن ﴿وَالَّذِيْنَ إِذَا فَعَلُوْا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوْآ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللّٰهَ فَاسْتَغْفَرُوْا لِذُنُوْبِهِمْ وَمَنْ يَّغْفِرُ الذُّنُوْبَ إِلَّا اللّٰهُ وَلَمْ يُصِرُّوْا عَلٰى مَا فَعَلُوْا وَهُمْ يَعْلَمُوْنَ﴾ (آل عمران: ١٣٥) ولأن من أصر فلم يتب منه، بل يُراكمه بعضا على بعض وهذا التراكم يكون في ماهيته أيضًا حتى يكون على الحال أنهُ إذا يفعلهُ يكون من الكبائر ولا الصغائر. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنه: إنهُ لا صغيرة مع الإصرار. فسيدنا يوسف عليه السلام لم يفعل التمني عنها بالقلب حتى مرة واحدة الذي هو تحت اللمم، بل عصمه الله منه بالكلية، فثبت أن الأنبياء منزهون عن الصغائر والكبائر، وكذلك الآية عن شعيب عليه السلام ﴿وَمَآ أُرِيْدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلٰى مَآ أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ (هود: ٨٨) فنفى عن نفسه حتى الإرادة أن يفعل شيئًا خلافا ما هو يدعونهم إليه، بل هو أوّلهم اتباعا لهُ وأعلاهم وأكملهم. ﴿قُلْ إِنِّيْ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّٰهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّيْنَ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُوْنَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِيْنَ﴾ (الزمر: ١١-١٢) وكذلك الآية ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيْلًا﴾ (بني إسرائيل: ٧٤) فثبت أن الله عصمهم حتى هم لايكادون يركنون إلى الفجار شيئًا قليلا. ثم الآية ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَعَلٰى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِيْنَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِيْنَ هُمْ بِهٖ مُشْرِكُوْنَ﴾ (النحل: ٩٩-١٠٠) ﴿إِنَّ عِبَادِيْ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنٌ﴾ (بني إسرائيل: ٦٥)

ومعلوم أن الأنبياء عليهم الصلوات والسلام متصفون بأكمل الإيمان والتوكل على الله تعالى، فلايكون مجالا للشيطان أن يكون لهُ سلطانا عليهم، فالصغيرة من الذنوب والكبيرة فيه سواء، فثبت أنهم منزهون عن كلها، ثم هذا يدل على أنهم منزهون عن الصغيرة والكبيرة من الذنوب قبل النبوة أيضًا؛ لأن المعلوم أنهم متصفون بالإيمان والتوكل قبل النبوة أيضًا على وجه الكمال، وهذا عليه

إجماع الأمة، وفى القرآن ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ (الأنبياء:٥١) وعن موسٰى عليه السلام ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف:٢٢) وهٰذا قبل النبوة ويدل علىٰ أنهم قبل النبوة من المحسنين، وهو كمال الإيمان، وفى الحديث "الإحسان أن تعمل لله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنهُ يراك." (صحيح البخاري، ح: ٥٠) وهو كمال مراقبة النفس وحضور القلب علىٰ أن الله عزوجل دائما يراه، فلايفعلون الذنوب، والمعلوم أن العقيدة على الحقيقة أن الله يراه دائما لايكون الشخص مؤمنا سواها، والإحسان هو هٰذه العقيدة علىٰ كيفية الكمال حتىٰ واحد ينهمك فى إطاعته، ويجتنب نواهيه، ويدل عليه قول الرسول عليه الصلوات والسلام "أن تعمل لله" وهٰذهٖ (أي صفة الإحسان) حاصلة لهم قبل النبوة علىٰ وجه الكمال، وقال اللّٰه تعالىٰ عن يحيىٰ عليه السلام: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ (مريم:١٢) وقال سيد الأنبياء نبينا ورسولنا محمد المصطفىٰ صلى الله تعالىٰ عليه وسلم: "لما نشأت بغّضت إليّ الأوثان وبغّض إليّ الشعر." (الشفا: ج: ١ ص ١٠٠) وقال اللّٰه عن موسٰى عليه السلام بعد ذكر الإنعام عليه قبل النبوة ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ (طه:٣٩) ولايعني فقط الرؤية وحسب؛ لأنهُ يرى كل شيء، فلا تكون خاصا بموسٰى عليه السلام، بل يدل علىٰ تربية خاصة وإنشاء مميز، وهٰكذا فى حق جميع الأنبياء عليهم الصلوات والسلام، ولأنهم أنبياء دائما قبل ظهور النبوة وبعدها، وفى الحديث "متىٰ وجبت لك النبوة (يارسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم) فقال عليه الصلوٰة والسلام: "وآدم بين الروح والجسد." (سنن الترمذي، ح: ٣٩٠٩) وفى القرآن عن عيسٰى عليه السلام إذا كان صبيا فى مهد أمه: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (مريم:٣٠-٣١) فظهرت نبوته، وكان فى المهد صبيا، والآخرون يظهر نبوتهم عند ما يظهر، وقبل الظهور هم أيضًا أنبياء فى علم الله تعالىٰ، لكن لم تظهر النبوة بعد، فلا يعلم حتىٰ تظهر، وفى حق عيسٰى عليه السلام معجزة ظهرت النبوة فى الصبا، ليكون دليلا قاطعا علىٰ براءة أمهٖ من الفحشاء والمنكر، ومن قال: إنهم ما كانوا أنبياء قبل ظهور نبوتهم فى علم الله، فقد جحد القرآن والسنة، وهو كفر بواح؛ لأن القرآن يخبر أن عيسٰى عليه السلام كان نبيا وهو كان فى المهد صبيا، وكذٰلك جميع الأنبياء هم أنبياء قبل ظهور نبوتهم وبعده دائما حتىٰ قبل إتيانهم فى الدنيا كما يخبر الحديث الذى ذكرنا، فإذا ثبت هٰذا وهم قبل ظهور نبوتهم أنبياء فى علم الله وهم متصفون بصفة الإحسان على الظاهر وهو كمال الإيمان، فلايبقى مجالا للشيطان أن يكون لهُ سلطانا عليهم، فيكونون منزهين من الصغائر والكبائر قبل ظهور النبوة كما بعدها. وأما قول موسٰى عليه السلام بعد قتل القبطي ﴿قَالَ

هٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ (القصص:١٥) فهو ليس المعنى أن الشيطان تسلط عليه ونعوذ بالله، بل موسٰى عليه السلام ضرب القبطي لدفع شره ولم يعلم أن وكزهٔ يؤدى إلى موته ، لكن مات القبطي من هذا الوكز من غير قصد من موسٰى عليه السلام ،فقال: إنهٔ من عمل الشيطان ،يعنى قتل من لم يؤمر بالقتل من عند الله تعالٰى من عمل الشيطان ،ووكز موسٰى أدى إليه فيشبههٔ صورة ، لكن يفارقه فى الحقيقة؛ لأن موسٰى عليه السلام لم يقصد قتلهٔ ،ولا الوكز فى العادة يؤدى إليه ، لكن حصل القتل وقتل الذى لم يؤمر بالقتل فى نفسه بغض النظر علٰى عدم قصد موسٰى عليه السلام لقتله وبغض النظر عدم إداء الوكز إلى القتل عادة وبغض النظر لمقصد موسٰى عليه السلام وهو دفع الشر الذى يجوز فى نفسه. (قتل الذى لم يؤمر بقتله من عند الله) هو من عمل الشيطان وليس عمل موسٰى عليه السلام فى نفسه يعنى دفع شر القبطي من عمل الشيطان وكذٰلك فى حق آدم عليه السلام ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ (البقرة:٣٦) ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ (الأعراف:٢٠) فلا معنى أن الشيطان تسلط عليه وهما فعلا ما فعلا علٰى قصد العصيان، لا، ونعوذ بالله، بل الشيطان خدعهما وقاسمهما، وقال ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِيْنَ﴾ (الأعراف:٢٠) فآدم عليه السلام ماكان يظن أن واحد يكون يقسم بالله كذبا هٰذا الشيء لم يكن متوقعا عنده عليه السلام ،ثم نسى آدم عليه السلام ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (طٰه:١١٥) فَنَسِيَ ﴿فَتَكُوْنَا مِنَ الظَّالِمِيْنَ﴾ يعنى فى الآية ﴿وَلَا تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُوْنَا مِنَ الظَّالِمِيْنَ﴾ (الأعراف:١٩) فذكر نفس النهي ، لكن نسي أن هٰذا النهي هو النهي للتحريم حتٰى يكون ظالما مرتكبه ،ويمكن بعد نسيان هٰذا تأول النهي على النهي للتنزيه الذى هو عبارة عن خلاف الأولٰى ،فأكلا منهما ،فأخبرهما الله تعالٰى مباشرة علٰى خطأ هما؛ لأن الأنبياء عليهم السلام عند ما يقعون فى الخطأ الاجتهادي الله عزوجل لايتركهم عليه، بل يخبرهم مباشرة حتٰى يصلحوا بالفور ،فآدم عليه السلام وزوجته تابا إلى الله ،فتاب الله عليهما ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدٰى﴾ (طٰه:١٢٢) فهٰذه كلها تؤول إلى النسيان والخطأ فى الاجتهاد ولايكون تسلطا للشيطان عليه السلام قطعاً و بتاتا.

ثم لو تسأل أن هٰذا يدل علٰى ارتكاب الذنب منهم يعنى الصغيرة؛ لأنهٔ مسلّم أنهٔ نسي فنسي إطلاق الظلم علٰى ارتكاب الأكل من الشجرة ، لكن نفس النهي موجود للأكل منها ،ثم المعلوم أن الأنبياء عليهم الصلوات والسلام لايجوز عليهم نسيان فى وجه يُخلّ فى فهم النصوص وتبليغها على الوجه الصحيح ،وهٰذا من الضروريات ،فلازم أنهم يفهمون النصوص ولا ينسون شيئًا منها ويبلغونها علٰى الفهم الصحيح ،فكيف تطابق هٰذا مع نسيان آدم عليه السلام قولهٔ تعالٰى: ﴿فَتَكُوْنَا مِنَ الظَّالِمِيْنَ﴾ (الأعراف:٢٠) حتٰى تأوّل النهي للتحريم على التنزيه ،وفى القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُوْلُ بَلِّغْ مَا

أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَّبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ (المائدة:٦٧) ﴿وَمَا كَانَ اللّٰهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتّٰى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَّا يَتَّقُوْنَ﴾ (التوبة:١١٥) ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُوْنِهٖ مُلْتَحَدًا إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللّٰهِ وَرِسَالَاتِهٖ ﴾ (الجن:٢٢-٢٣) ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلٰى غَيْبِهٖ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضٰى مِنْ رَّسُوْلٍ فَإِنَّهٗ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهٖ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوْا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصٰى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾(الجن:٢٦-٢٨) ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوٰى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُّوْحٰى﴾ (النجم:٣) وغيرها من الدلائل القطعية وكيف هٰذا يمكن إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام يكون مأمونا من نسيان علٰى وجه يؤدى إلى الخطأ فى فهم النصوص وفى القرآن ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُوْلٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّٰهِ﴾ (النساء:٦٤) ﴿وَمَنْ يُّطِعِ الرَّسُوْلَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّٰهَ﴾ (النساء:٨٠) فإطاعتهم واجبة فى كل شيء ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُوْلُ فَخُذُوْهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوْا ﴾ (الحشر:٧) فلهٰذا منكر الحديث كافر كما منكر القرآن؛ لأن القرآن اوجب الإطاعة لهم عليهم الصلوات والسلام فى كل شيء ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُوْنَ حَتّٰى يُحَكِّمُوْكَ فِيْمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوْا فِيْ أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوْا تَسْلِيْماً﴾(النساء:٦٥) وفى الحديث "الا إنى أوتيت القرآن ومثلهٗ معه." (مسند أحمد، ح:١٧١٧٤) فكيف تطابق هٰذا الأصل من أصول الدين مع نسيان آدم عليه السلام؟

قلنا بتوفيق اللّٰه تعالٰى إن شاء اللّٰه العزيز: إنهٗ عند بعض العلماء هٰذا الخطأ حصل من آدم عليه السلام قبل ظهور النبوة ،وهم استدلوا بقوله تعالٰى ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهٗ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدٰى ﴾(طٰه:١٢٢) وهٰذا بعد الخطأ ، لٰكن لو تقول إن آدم عليه السلام عُلّم من عند اللّٰه تعالٰى أسماء كل شيء مباشرة وأمر ونهي ، فكلمه اللّٰه تعالٰى قبل الخطأ ،وهٰذهٖ كلها علامات النبوة ،فيمكن لهٰذه العلماء أن يقولوا: إن حواء عليها السلام كذٰلك كلمها اللّٰه ، لكن لم تكن نبيا ،فيمكنكم أن تقولوا: إن هٰذهٖ هي المرأة ، والمرأة لاتكون نبيا عند الجمهور ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوْحِيْ إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ الْقُرٰى﴾ (يوسف:١٠٩) فلهٰذا لا نقول عن نبوتها . وأما آدم عليه السلام فهو رجل ،وثم هو نبي بلا شک و لكن الاختلاف فى وقت ظهور نبوتهٖ هل هو قبل الخطأ أو بعدهٗ ،فإذا نرٰى تكليم اللّٰه إياه ،فثبت أنهٗ كان قبل الخطأ. [1]

فقلنا بتوفيق اللّٰه تعالٰى إن شاء اللّٰه العزيز: إن كلامكم صحيح بلا شک وهو قد ظهر نبوته قبل الخطأ لتكليم اللّٰه إياه مباشرة. وثم المعلوم أنهٗ نبي ،فقلنا: إنهٗ قد ظهر نبوته قبل الخطأ ، لكن لم تظهر وظيفة نبوته بعد؛ لأنهٗ فى السماء والملأ الأعلٰى فى الجنة ،فيسكن هناک ،ولم يؤمر بالتبليغ،

(١) وثم هٰذا الجواب لا يستقيم؛ لأن بغض النظر عن وقت ظهور نبوة آدم عليه السلام هو نبي قبل ظهورها فى علم اللّٰه تعالٰى لا محالة ،وأيضًا نحن قلنا: إن الأنبياء منزهون عن الصغائر والكبائر قبل ظهور النبوة وبعده.

وهو ليس فى الدنيا بعد، التى هى دار الامتحان فى الحقيقة ،فهو فى الحقيقة فى العالم الآخر،ولايقاس هٰذا العالم بذٰلك العالم الآخر ،حتٰى الله سبحانهٗ وتعالٰى فى الظاهر لم يكلّفه بالتبليغ إلى زوجتها ما أمره اللّٰه به، بل أمرها معهٗ عليه السلام مباشرة ويدل عليه قولهٗ تعالٰى ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:٣٥) كلها بصيغة التثنية وأظهر منها ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (الأعراف:٢٢) فنبوة آدم عليه السلام قد ظهرت ، لكن وظيفتها لم تظهر بعد أو فى الوجه الآخر لم تظهر نبوتهٗ بالكمال بعد التى هي وظيفة لتبليغ الناس ما أوحى الله إليه وهدايتهم إلى صراط مستقيم. يعنى هداية الإرشاد يعنى دعاء هم إلى صراط مستقيم ،وفى القرآن ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيْ إِلٰى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى:٥٢) ﴿إِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلٰى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (المؤمنون:٧٣) وأما خلق الهداية فى قلوب الناس يعنى جعلهم علٰى صراط مستقيم ،فهو لايفعل الإنسان، بل الله تعالٰى، وفى القرآن ﴿إِنَّكَ لَاتَهْدِيْ مَنْ أَحْبَبْتَ وَلٰكِنَّ اللّٰهَ يَهْدِيْ مَنْ يَّشَآءُ﴾ (القصص:٥٦) ثم فى الحقيقة كل من عند اللّٰه؛ لأن فعل الإنسان أيضا خلق الله ﴿وَاللّٰهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُوْنَ﴾(الصافات:٩٦) ، لٰكن هداية الإرشاد ينسب إليه ،وخلق الهداية ليس من فعله على الإطلاق، فنبوة آدم عليه السلام لم تظهر بكمال بعد ،ثم الله عزوجل خلقه خليفة فى الأرض ،وليس فى الجنة، وهو لم يُرسل إلى الأرض بعد ، لكن يسكن فى الجنة ،فحصل هٰذا الخطأ منه بوجه النسيان والخطأ فى الاجتهاد حتٰى أرسل إلى الأرض خليفة لها وهٰذا قد أخبر الله تعالٰى من قبل ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَآئِكَةِ إِنِّيْ جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيْفَةً﴾ (البقرة:٣٠) فحصول هٰذا النسيان فى العالم الآخر يعنى فى الجنة التى هي فى الحقيقة ليست دار التكليف ، لكن كلف آدم عليه السلام وزوجته بنهي أكل الشجرة للحكمة فيها ،وأيضا لم تظهر نبوته بالكمال بعد ،ولم يؤمر بتبليغ ،فهٰذهٖ كلها لاتنافى ولاتعارض قطعا وبتاتا هٰذا الأصل من أصول الدين أن الأنبياء لاينسون فى وجه يُخلّ فى فهم النصوص ولايزلّون فيها؛ لأن هٰذهٖ كلها فى العالم الآخر الذى هو ليس دار التكليف فى الحقيقة ،وأيضًا لم تظهر نبوته بعد بالكمال ، ولم يؤمر بالتبليغ وثم هٰذهٖ كلها كانت للحكمة؛ لأن جميع أفعال الله للحكمة ،وكل شيء فعلهٗ خلقا وقدرا ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذٰلِكَ ظَنُّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا﴾ (ص:٢٧) حتٰى آدم عليه السلام وزوجته عليها السلام يستعدوا وينشطوا للتكليف فى دار التكليف الذى هو الدنيا بهٰذه النبذة فى دار الجزاء الذى هو الجنة ،وتكون زلّتهما عبرة وتوبتهما أسوة وحتٰى يعلم أولاده أنهٗ لا ملجأ من الله إلا إليه فكما زلتهما صارت سببا ظاهرا للخروج من الجنة ،فيكون طاعة واتباعا سببا ظاهرا لدخول الجنة ،فعند ما هبطوا إلى الأرض أمرهم الله تعالٰى ﴿قُلْنَا

اهبِطُوْا مِنهَا جَمِيعاً فَإمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوفٌ عَلَيهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُوْنَ وَالَّذِيْنَ كَفَرُوْا وَكَذَّبُوْا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُوْنَ ﴾ (البقرة:٣٨-٣٩) فحاصل الكلام أن آدم عليه السلام لم يكن مسلطا عليه الشيطان (ونعوذ بالله من ذٰلك) قطعا وبتاتا ولم يكن خطاؤه من الذنوب في الحقيقة، بل كانت زلة بسبب النسيان والخطأ الاجتهادي. وهذا يشمل الجواب لاعتراضكم الآخر وهو أنهُ إذا نسي ﴿فَتَكُوْنَا مِنَ الظَّالِمِيْنَ﴾ (الأعراف:١٩) ، لكن لم ينس نفس النهي ،فيكون جائزا عليهم الصلوات والسلام الذنوب من الصغائر [1] فجوابهُ إن شاء الله عزوجل هذا الاعتراض قد يكون سائغا إذا تقدّم على الذنب الحقيقي ، لكن إذا نسي "فتكونا من الظالمين" ومن الممكن انهُ أوّل النهي على النهي للتنزيه بسبب أن جميع الأشياء أكلها كانت جائزة لهُ في الجنة إلا هذه الشجرة ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ (البقرة:٣٥) والعقل نفسه لايرشد إلى هذا النهي حتىٰ عند الأشاعرة العقل ليس آلة مرشدة إلى الحسن والقبح ،وأما عند الماتريدية قد يرشد إليهما عند ما كان ظاهرا في وجه الكمال كما حسن شكر المنعم وقبح كفران النعمة ، لكن النهي عن أكل الشجرة ليس منه. ثم هذا الاختلاف هو في الإرشاد ،وأما الموجب فهو الله تعالىٰ بلاشك ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّٰهِ﴾ (الأنعام:٥٧) ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللّٰهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُوْنَ﴾ (المائدة:٤٤) ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوْا لَهُمْ مِنَ الدِّيْنِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللّٰهُ﴾ (الشورى:٢١) فالاختلاف هو هل الله عزوجل خلق فهماً للعقل حتىٰ يرشد إلى بعض أوامره ونواهيه تعالىٰ. فأكل الشجرة ليس من الأمور التي فيها العقل يرشد إليه بنفسه ،فالنهي بنفسه مع النسيان للفقرة ﴿فَتَكُوْنَا مِنَ الظَّالِمِيْنَ﴾ (الأعراف:١٩) مع الجواز لأكل كل شيء في الجنة غير الشجرة ،ومع خداع الشيطان حتىٰ قاسمهما أنهُ من الناصحين ،فتأول نفس النهي على التنزيه دون التحريم ،والنهي للتنزيه لايكون ذنبا، بل خلاف الأولىٰ ،وفي القرآن ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (طٰه:١١٥) يعني ما كان عازما على الذنب والعصيان، بل كله علىٰ وجه الخطأ والنسيان. وأما الآية ﴿وَعَصٰى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوٰى﴾ (طٰه:١٢١) ومعنى الغواء ليس ضلالة قطعا وبتاتا في هذه الآية، بل معناه فسد عيشهُ بنزوله إلى الدنيا والغي الفساد هكذا في التفسير يعني كان في عيش الجنة ،ففسد هذا وجاء إلى الدنيا الذى ليس كالجنة في وجه من الوجوه ، لكن

---

(١) يعني الاعتراض هو ولو نسي ﴿فَتَكُوْنَا مِنَ الظَّالِمِيْنَ﴾ (الأعراف:١٩) يعني لو أكل من الشجرة ،فيكون ارتكابا للظلم، لكن ذكر أنهُ نفس النهي موجود ولا يجوز أن يقال إنهُ نسي النهي في الكامل؛ لأن حتى الشيطان قال لهما ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُوْنَا مَلَكَيْنِ﴾ (الأعراف:٢٠) فيعني هما لم ينسا النهي في الكامل ،لكن من الممكن أنهما نسيا أن ارتكاب هذا النهي مقتضى الظلم ،فالنهي للتحريم وليس للتنزيه فقط وبعد العلم أن النهي في وجه ما موجود ولو تنزيها ،فالتقدم عليه يكون ذنبا. فما هو الجواب لهذا الاعتراض؟

رجع إليه بعد موته عليه السلام بالقطع وزوجه ايضا ،وهٰذا لاشك فيه؛ لأنهٗ كان نبيا وزوجهٗ كانت مؤمنة صالحة. وأما كلمة "عصى" فمعناه عصٰى ، لكن بدون عزم العصيان وعلٰى وجه النسيان ﴿فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهٗ عَزْمًا﴾ (طٰه:١١٥) واللّٰه عزوجل يذكر امر الأنبياء علٰى وجه التغليظ؛ لأن شان الأنبياء أعلٰى جدا حتٰى تكون زلتهم مذكورا بالتغليظ ،وهٰذا يشير إلى مكانتهم السامية وجلالتهم العظمٰى حتٰى يقال: "حسنات الأبرار سيئات المقربين." فكل ما نرٰى من أمور الأنبياء فى القرآن فى ذكر زلاتهم ،فلا تنس هٰذا الأمر أن التغليظ فى الذكر ليس لغلظة زلتهم؛ بل لعلو شأنهم حتٰى زلات منهم التى هي مغفورة فى حق غيرهم تكون سببا لنوع من العتاب من عند اللّٰه تعالٰى وكما ترٰى فى حق يونس عليه السلام ﴿وَذَا النُّوْنِ إِذْ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا [1] فَظَنَّ أَنْ لَّنْ نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادٰى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَّا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّيْ كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِيْنَ﴾ (الأنبياء:٨٧) ومعنى مغاضبا يعنى علٰى قومه لوجه اللّٰه والنبي يغضب لوجه اللّٰه ومعنى "أَنْ لَّنْ نَّقْدِرَ عَلَيْهِ" يعنى "الن نضيق عليه" كما فى الآية ﴿اَللّٰهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَّشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ (الرعد:٢٦) يعنى ظن أننا لا نؤاخذه علٰى هٰذا ،والتفصيل أنهٗ دعا قومه إلى اللّٰه تعالٰى لمدة من الزمان ،فأبوا ،فبشرهم بالعذاب وغادر بدون الأمر الصريح للذهاب ولم يظن أن اللّٰه عزوجل يؤاخذه علٰى هٰذا كما هو مفهوم من الآية ،وبعد هٰذه الآية قال اللّٰه تعالٰى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهٗ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِيْنَ﴾ (الأنبياء:٨٨) وفى مكان آخر ﴿وَإِسْمَاعِيْلَ وَالْيَسَعَ وَيُوْنُسَ وَلُوْطًا وَّكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعٰلَمِيْنَ﴾ (الأنعام:٨٦) فكشف أن يونس عليه السلام مع جميع الأنبياء وليس كغير الأنبياء ،فافهم هٰذا ،ولا تغتر. واعلم أن الأنبياء مكانتهم عظيمة جدا ،وهم منزهون عن الصغائر والكبائر قبل النبوة وبعدها ،وهم كانوا أنبياء قبل ظهور نبوتهم كما هم أنبياء بعدهٗ ،فاستمسك بهٰذا ،واللّٰه يهدينا ويهديكم إلى صراط مستقيم.

ثم لو تسأل أن الاستدلال بالآية ﴿إِنَّهٗ لَيْسَ لَهٗ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَعَلٰى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ﴾ (النحل:٩٩) يؤدى إلى العصمة فى حق غير الأنبياء يعنى الأولياء من غير الأنبياء ،فهم أيضًا يؤمنون علٰى ربهم ويتوكلون عليه . فقلنا بتوفيق اللّٰه تعالٰى إن شاء اللّٰه العزيز: إن إيمانهم ليس علٰى درجة إيمان الأنبياء عليهم الصلوات والسلام قبل ظهور النبوة وبعدهٗ حتٰى الأنبياء عليهم الصلوات والسلام مأمون العاقبة يعنى موتهم على الإيمان معلومة حتٰى فى حياتهم ؛ لأنهم مصطفون ﴿اَللّٰهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهٗ﴾ (الأنعام:١٢٣) ﴿اَللّٰهُ يَصْطَفِيْ مِنَ الْمَلٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَّمِنَ النَّاسِ﴾ (الحج:٧٥) ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِيْ﴾ (طٰه:٤١) والأولياء ليسوا كذٰلك حتٰى لانعلم بواطنهم من ظواهرهم وحتٰى

---

(١) ولايجوز قطعا وبتاتاأن يقال إنهٗ كان مغاضبا على ربه؛ لأن المغاضبة على اللّٰه تعالٰى كفر بواح ومن نسب الكفر إلى الأنبياء عليهم السلام فقد كفردونهم.

هم لايعلمون ما هي عاقبتهم ،والحديث المشهور "أن واحد يعمل بعمل أهل الجنة حتى لايكون بينه وبينها إلا ذراع ،فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ،وكذلك بالعكس." (صحيح البخاري، ح:٣٢٠٨) فكيف تثبت لهم العصمة ولا نعرف حتى عاقبتهم على سلامة الإيمان وكذلك توكلهم ليس على درجة التوكل من الأنبياء عليهم الصلوات والسلام ،فإذا كان إيمان الأنبياء والتوكل على وجه الأكمل ،فحصلت لهم العصمة الكاملة ،وإذا هذه الصفات ليست في الأولياء على هذا المنوال ،فلايكونوا معصوما، بل يكونوا محفوظا على أغلب الأحوال دون العصمة الكاملة ،كذا في حق أهل البيت ،وهم أزواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأولاده وأختانه والحسن والحسين رضي الله عنهما حفيدا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وجميع من نسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وإن كان من طريقة بنته رضي الله تعالى عنها الذين يتبعون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بوصف الإحسان ،وكانوا ما عليه هو وأصحابهٗ رضي الله تعالى عنهم؛ لأن الصحابة رضي الله عنهم على طريقة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،فمن كان من نسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لكن لايطيع الله ورسولهٗ عليه الصلوات والسلام لايستحق قطعا وبتاتاما ذكر الله تعالى عن أهل البيت ،وهو ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب:٣٣) وهذه الآية في الحقيقة تدل على عدم عصمتهم؛ لأنهٗ لو كانوا معصومين لما احتاجوا إلى الإذهاب عنهم الرجس والتطهير ؛لأنهم في هذه الحالة محفوظون منها من قبل فإذا احتاجوا إلى هذا فلم يكونوا معصومين ، لكن لأن أغلب الأحوال منهم إطاعة كاملة لله ورسوله عليه الصلوات والسلام ، فهذه تذهب السيئات عنهم الذى حصلت منهم ؛لأنهم بشر غير معصومين "كل ابن آدم خطاء وخير الخطّائين التوابون ." (سنن ابن الترمذي ، ح: ٢٤٩٩) .[1] وتطهرهم تطهيرا ،وفي القرآن ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (هود:١١٤) ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ (النساء:٣١) يعني بالحسنات كذا عند العلماء في تفسيرها.

فالحاصل أن العصمة للأنبياء والملائكة وبس. ثم اعلم أنهٗ ما ترى في القرآن من الآيات ، مثلا ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (يونس:٩٤-٩٥) ففي هذه الآيات الخطاب للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم والمراد غيره؛ لأنهٗ معلوم من الدين بالضرورة أن الأنبياء لايشكون في هذه الأشياء، بل هم على أكمل الإيمان وقال الله تعالى

---

(١) وهذا لاينافي عصمة الأنبياء؛ لأن الخطاء منهم على وجه الاجتهاد ولا على وجه الذنوب ، لكن سائغ على وجه الذنوب في حق غير الأنبياء عليهم الصلوات والسلام .

بعد هٰذه الآيات : ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (يونس:٩٦) والمعلوم أن النبي عليه الصلوات والسلام ليس منهم (ونعوذ بالله) فثبت أن الخطاب قبل هٰذه الآية فی الحقيقة لغير النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من الكفار الشاكين. وكذٰلک الحديث "نحن أحق بالشک من إبراهيم." (صحيح البخاري، ح:٣٣٧٢) يعني سيدنا إبراهيم عليه السلام لم يشک ،وفی القرآن ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ﴾ (البقرة:٢٦٠) فكيف يشک ،وقد نفى الشک عن نفسه عليه السلام ،والمعلوم أن الأنبياء لايشكون فی هٰذه الأمور؛ لأنهٗ كفر ،ومن نسب الكفر إلى الأنبياء عليهم الصلوات والسلام فقد كفر دونهم فمعنى الحديث لمّا نحن لانشک ،وهٰذا يشمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وغيره من أصحابه رضي الله عنهم ،وهم غير الأنبياء ،فإذا هم لايشكون ،فكيف بإبراهيم خليل الله عليه الصلوات والسلام ، فالحديث ينفي الشک عنه؛ لأنهٗ لو خليل الله عليه السلام يطرأ عليه الشک ،فكان أولى أن يطرأ على غيره الشک. والشاک ليس مؤمنا ،فلايبقى مؤمنا فی العالم ،فإذا غلط هٰذا بالضرورة ،فكذٰلک طرأ الشک على إبراهيم عليه السلام باطل بالضرورة ،وكذٰلک الآية ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى:٥٢) فليس معنى أنهٗ لم يكن يعلم أصل الإيمان قبل ظهور النبوة، وكيف؟ والمعلوم أنهٗ كان يعبدالله وحدهٗ ،ويجتنب الخبائث ،والمعلوم أنهٗ كان نبيا وآدم بين الروح والجسد كما فی الحديث ،فاعلم أن الإيمان يطلق على أصل الإيمان ،وأيضًا ويطلق على الصلوٰة والزكوٰة وتفاصيل الشريعة ،وفی الحديث الصحيح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هل تدرون ما الإيمان بالله وحدهٗ؟ قالوا: الله ورسولهٗ أعلم. قال : شهادة أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلوٰة، وإيتاء الزكوة، وصوم رمضان وأن تؤدوا خمسا من المغنم." (صحيح مسلم، ح:١٧) فهٰذا الإيمان الذی يشتمل على تفاصيل الشرع والأعمال التی شرعت بعد ظهور النبوة، فهٰذا هو المراد فی الآية يعني أنک لم تكن تعلم قبل الوحي هٰذه الصلوٰة ،وهٰذه الزكوة وهٰذا الصوم وهٰذا الحج وغيرها من الأمور ، ولو كنت تعبدالله وحدهٗ بطريقة صحيحة . وأما الإيمان الذی فی الحديث المشهور يعني حديث جبريل عليه السلام "أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره." (صحيح مسلم ، ح:٨) فهٰذا الإيمان حاصل لهٗ ،وكذٰلک لجميع الأنبياء عليهم الصلوات والسلام قبل ظهور النبوة وبعدها دائما ،لاينفک عنهم قطعاويقينا ،وكيف وقد قال الله تعالى عن عيسى عليه السلام وكان فی المهد صبيا: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (مريم:٣٠) فاعلم أن الله تعالى قال عن الأنبياء عليهم الصلوات والسلام ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (الأنعام:٩٠) فهم

على أكمل الإيمان هاديون مهتدون.

ثم اعلم أن جميع الأنبياء عليهم الصلوات والسلام أولو العزم من الرسل ،وكلمة "من" في الآية " ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ (الأحقاف:٣٥) فهو للتجنيس ولا للتبعيض ،وكيف وقد ذكر اللّٰه عزوجل الأنبياء عليهم الصلوات والسلام في سورة الأنعام وثم من آباء هم وذرياتهم وإخوانهم الأنبياء ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(الأنعام:٨٧) وقال ما بعد ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾(الأنعام:٩٠) كما أمره عليه الصلوات والسلام أن يصبر [1] كما صبروا ،فثبت أن كلهم أولوا العزم ،وهٰذا قول ابن عباس رضي اللّٰه تعالىٰ عنه ،كذا في تفسير القرطبي.

ثم المعلوم أنهم ذو مراتب ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾(البقرة:٢٥٣) ومن أفضلهم آدم ونوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ عليهم الصلوات والسلام ،وفي المحشر الناس يستشفعون إلى الأنبياء عليهم الصلوات والسلام لبدء الحساب ؛ لأنهم متألمون من أحوال الحشر غير مطيقين لتحملها ،فيبدء ون بسيدنا آدم عليه السلام ،وثم سيدنا نوح عليه السلام وثم سيدنا إبراهيم عليه السلام ،وثم سيدنا موسىٰ عليه السلام ،وثم سيدنا عيسىٰ عليه السلام ،كذا في الأحاديث الصحيحة حتىٰ انتهوا إلى سيد الأنبياء وأفضلهم على الإطلاق نبينا وحبيبنا ورسولنا سيدنا محمد صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم ،ولا شك أنهٗ أفضل الأنبياء ،وهٰذا من الضرورات ،وهٰذا بالإجماع ،وتدل عليه الدلائل الكثيرة ،منها الإجماع والأحاديث المتظاهرة "إن اللّٰه فضلني على الأنبياء ،وفضل أمتي على الأمم ." (سنن الترمذي، ح:١٥٥٣) "أنا سيد الناس يوم القيامة ." (صحيح البخاري، ح:٤٧١٢) "أنا أكرم الأولين والآخرين عند اللّٰه ولافخر لي." (سنن الترمذي، ح:٣٦١٦) "أنا سيد ولد آدم ولا فخر ." (سنن ابن ماجة، ح:٤٣٠٨) "بيدي لواء الحمد ولا فخر (يعني في يوم القيامة) وما من نبي يومئذ آدم ،فمن سواه إلا تحت لوائي "(سنن الترمذي، ح:٣١٤٨) وأنا أول من تنشق عنه الأرض ، فأكسى حلة من حلل الجنة ،ثم أقوم عن يمين العرش ،وليس أحد من الخلائق يقوم ذٰلك المقام غيري ." (سنن الترمذي، ح:٣٦١١) ويكون الرسول عليه الصلوات والسلام الشفيع الأول في يوم القيامة ،وهٰذا المقام المحمود الذي وعده اللّٰه سبحانهٗ وتعالىٰ ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ (بني إسرائيل:٧٩) كذا عند المفسرين ،وتدل عليه الأحاديث ،وفي البخاري "ليشفع ليقضي بين الخلق فيمشي حتىٰ يأخذ بحلقة الباب ،فيومئذ يبعثه اللّٰه مقاما محمودا، يحمدهٗ أهل الجمع كلهم." (صحيح البخاري، ح:١٤٧٥)

(١) وهٰذا أيضا من الاقتدا بهداهم فثبت أن جميع الأنبياء المذكورين في هٰذه الأيات من سورة الأنعام من أولي العزم من الرسل.

وفي حديث عن المقام المحمود "هي الشفاعة ." (سنن الترمذي، ح: ٣١٣٧) وفي الحديث "هو المقام الذي أشفع لأمتي فيه." (مسند أحمد، ح: ٩٦٨٤) وفي الحديث "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر يوم القيامة وأول شافع وأول مشفع." (صحيح مسلم، ح:٦٠٧٩) وأما الأحاديث "لاتخيروني على موسى." (صحيح البخاري، ح: ٢٤١١) وأشباهه فمعناه كما ذكرنا يعني لاتخيروا بين الأنبياء بدون علم أو على علم لكن على وجه ينقص فيه المفضول؛ لأن التفهيم في شأن نبي من الأنبياء عليهم الصلوات والسلام كفر بواح ،فيجب الابتعاد منه وأما فضيلة في الأنبياء عليهم الصلوات والسلام ،فهو معلوم بالضرورة كما ذكرنا من الأحاديث "إن الله فضلني على الأنبياء." (سنن الترمذي، ح: ١٥٥٣) وقد سبق.

ثم اعلم أن نبينا ورسولنا وحبيبنا وسيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم هو خاتم الأنبياء والمرسلين على الإطلاق ، ولايكون نبيا بعدهٗ قطعا وبتاتا في وجه من الوجوه ،وهٰذا معلوم من الضرورة ،ومن جحد هٰذا أو تأولهٗ في وجه من الوجوه فقد كفر بالله وحدهٗ ،فمن قال: إنهٗ كان نبيا أو يكون نبيا بعدهٗ ظليا أو بروزيا كما قاله الزنادقة الكفرة الفرقة القادياني والأحمدي أو في وجه من الوجوه فقد كفر بالله وحدهٗ ،ومن شك في كفره فقد كفر بالله وحدهٗ وخرج من ملة الإسلام على الإطلاق ،والدلائل كثيرة في هٰذا الباب متواترة مع الإجماع القطعي ،وفي القرآن ﴿وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ (الأحزاب:٤٠) ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة:٣) "إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي." (سنن الترمذي، ح: ٢٢٧٢) "وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون." (صحيح مسلم، ح:٥٢٣) "إني عند الله لخاتم النبيين و إن آدم لمنجدل في طينته." (المستدرك للحاكم، ح:٤١٧٥) "وأنا العاقب الذي ليس بعدهٗ نبي." (صحيح مسلم، ح: ٢٣٥٤) "أنا محمد النبي الأمي . ثلاثا. ولا نبي بعدي ." (مسند أحمد، ح: ٦٦٠٦) "مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارا فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة ،فكان من دخلها فنظر إليها ،قال: ما أحسنها إلا موضع هٰذه اللبنة ،فأنا موضع اللبنة ،ختم بي الأنبياء عليهم الصلٰوة والسلام" (مسند أبي داود الطيالسي: ح: ١٨٩٤) والأحاديث كثيرة جدا في هٰذا الباب أكثر ممايكفيه للتواتر من الأصحاب رضي الله تعالى عنهم ،وهٰذا من الضرورات ولا شك في كفر جاحده جحدا أو تأويلا.

أما نزول عيسٰى بن مريم عليه الصلٰوة والسلام في آخر الزمان بعد خروج الدجال لقتله ،فلا شك فيه ،وهو من الضرورات ثابت بالقرآن والسنة المتواترة ،وهو لايخالف كون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم آخر الأنبياء؛ لأن عيسٰى عليه السلام ظهرت نبوتهٗ قبل الرسول عليه الصلوات

والسلام، فزمان ظهور نبوة عيسٰى عليه السلام قبل الرسول عليه الصلوات والسلام ،وليس بين عيسٰى بن مريم عليه السلام وبين محمد صلى اللّٰه تعالى عليه وسلم نبي كما هو فى الحديث الصحيح ،فرفع اللّٰه تعالٰى عيسٰى بن مريم عليه السلام عند ما قصدوا قتلهٗ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللّٰهُ﴾ (النساء:١٥٧-١٥٨) فهو الآن حي يسكن فى السماء ،فسينزل قريبا من يومْ القيامة فى آخر الزمان ليقتل الدجال ،فنزولهٗ لايعارض ختم نبوة نبينا وسيدنا محمد صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم؛ لأنهٗ لايبدأ ظهورنبوته بعد نبوة نبينا صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم، بل ظهرت نبوته قبل ظهورنبوة نبينا صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم، ثم كما ذكرنا سابقا أن النبي من الأنبياء عليهم السلام يكون نبيا دائما ،فكما نبوة موسٰى عليه السلام وإبراهيم ونوح وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام لاتعارض ختم نبوة محمد صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم ،فكذٰلك نبوة عيسٰى عليه السلام ،وأما كونه فى السماء أو فى الأرض ليس لهٗ علاقة بهٰذا الشيء؛ لأن كلهم الأنبياء أين ما كانوا وظهرت نبوة كلهم قبل ظهور نبوة نبينا صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم ،وكذٰلك زمان اتباعهم كان قبل نبينا صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم ،وأما بعد نبينا صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم فلا نجاة إلا فى اتباعه عليه السلام إلى يوم القيامة ،وفى الحديث: "لو كان موسٰى حيا لما وسعه إلا اتباعي." (مصنف ابن أبى شيبة، ح:٢٦٤٢) ولهٰذا سيدنا عيسٰى عليه السلام سيتبع شريعة نبينا صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم بعد نزوله مع كونه نفسه نبي اللّٰه عليه السلام ، فلاينزل من مرتبة نبوتهٖ؛ لأن الأنبياء هم دائما أنبياء كما ذكرنا ،وأيضًا فى الحديث عن ذكر نزولهٖ رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم يذكر عيسٰى عليه السلام ويقول: "ثم يأتى نبي اللّٰه عيسٰى قوما قد عصمهم اللّٰه." (سنن ابن ماجة، ح:٤٠٧٥) "فيرغب نبي اللّٰه عيسٰى وأصحابهٗ إلى اللّٰه." (صحيح مسلم، ح:٢٩٣٧)

وهٰذا كلهٗ بعد نزوله عليه السلام ،ونحن نتكلم عن هٰذا بالتفصيل إن شاء اللّٰه فى بيان أشراط الساعة. و لٰكن هٰذا لايعارض ختم نبوة نبينا صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم لما ذكرنا ،وفى الحديث "كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم ،فأمكم منكم " يعنى "أمكم بكتاب ربكم وسنة نبيكم صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم" كما فسره راوى الحديث فى صحيح مسلم. (ح:١٥٥) وفى الحديث: "والذى نفسى بيدهٖ ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم عليه السلام حكما مقسطا ،فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتٰى لايقبلهٗ أحد." (صحيح البخاري، ح:٢٢٢٢) وهٰذا كلهٗ بمعنى وضع الجزية وغيرهٗ من الأمور كلها بشريعة نبينا صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم ،فيعنى أخبر النبي صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم أن قبول الجزية فى شريعتهٖ هو حتٰى زمان نزول عيسٰى عليه السلام وبعد نزولهٖ ينسخ قبول الجزية ،فكل هٰذه الأمور من عيسٰى عليه السلام تطبيق شريعة نبينا صلى اللّٰه تعالٰى

عليه وسلم وكيف لا؟ لأنهٗ لايسع عيسى عليه السلام أن ينزل بعد نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم ولايتبع شريعتهٗ . وفي القرآن ﴿وَ إِذْ أَخَذَ اللّٰهُ مِيْثَاقَ النَّبِيّٖنَ لَمَآ اٰتَيْتُكُمْ مِّنْ كِتٰبٍ وَّ حِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُوْلٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهٖ وَلَتَنْصُرُنَّهٗ قَالَ ءَاَقْرَرْتُمْ وَ اَخَذْتُمْ عَلٰى ذٰلِكُمْ اِصْرِيْ قَالُوْٓا اَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوْا وَ اَنَا مَعَكُمْ مِّنَ الشّٰهِدِيْنَ فَمَنْ تَوَلّٰى بَعْدَ ذٰلِكَ فَاُولٰٓئِكَ هُمُ الْفٰسِقُوْنَ﴾ (آل عمران: ٨١-٨٢)

والرسول هنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم في قول علي وابن عباس رضي الله تعالى عنهما ،فأخذ الله ميثاق النبيين اجمعين ان يؤمنوا بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم وينصروه إن أدركوه ،وأمرهم أن يأخذوا بذلك الميثاق على أممهم ، فمن تولى بعد ذلك ،وهذا لايجوز على الأنبياء عليهم الصلوات والسلام ،فبقي غير الأنبياء ،فمن تولى من أمم الأنبياء عن الإيمان ،فأولئك هم الفاسقون ،يعني الخارجون من الإيمان ،والفاسق قد يكون على معنى الكافر ،وهو المراد هنا ،وقد يكون على معنى العاصي من المسلم ،وهو المراد في الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا إِنْ جَآءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَاٍ فَتَبَيَّنُوْا﴾ (الحجرات: ٦) ثم اعلم أنهٗ من الضرورات أن يؤمن على جميع الأنبياء ،وتكذيب واحد منهم كفر بواح ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ يَكْفُرُوْنَ بِاللّٰهِ وَرُسُلِهٖ وَيُرِيْدُوْنَ أَنْ يُّفَرِّقُوْا بَيْنَ اللّٰهِ وَرُسُلِهٖ وَيَقُوْلُوْنَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَّنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَّيُرِيْدُوْنَ أَنْ يَّتَّخِذُوْا بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيْلاً . أُوْلٰٓئِكَ هُمُ الْكَافِرُوْنَ حَقًّا﴾ (النساء: ١٥٠-١٥١) وكذلك الإيمان بالله لايكون الإيمان به حتى يؤمن بجميع أنبيائه ،والآية تدل على هذا أيضًا .

ثم في تكذيب المرسَل تكذيب المرسِل ،وهذا بديهي. وثم في تكذيب الأنبياء تكذيب إخبار الله وتفويضه النبوة إليهم. ثم اعلم أن الله عزوجل بعث في كل أمة نبيا ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِيْ كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُوْلاً أَنِ اعْبُدُوْا اللّٰهَ وَاجْتَنِبُوْا الطَّاغُوْتَ﴾ (النحل: ٣٦) ونبينا صلى الله تعالى عليه وسلم آخر الأنبياء لم يكن نبيا معهٗ ولا بعدهٗ ،وهو المرسل إلى العالمين الإنس والجن. ثم اعلم أن جميع الأنبياء عليهم الصلوات كلهم الصادق الأمين ،وفي القرآن عن إسماعيل عليه السلام ﴿إِنَّهٗ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُوْلاً نَّبِيًّا﴾ (مريم: ٥٤) وهكذا جميع الأنبياء يكونون ناصحين ، وقال هود عليه السلام ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِيْنٌ﴾ (الأعراف: ٦٨) ويكونون البشراء والنذور ﴿فَقَدْ جَآءَكُمْ بَشِيْرٌ وَّنَذِيْرٌ﴾ (المائدة: ١٩) يعني نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم ،ويكونون على خلق عظيم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلٰى خُلُقٍ عَظِيْمٍ﴾ (القلم: ٤) وهذه الآية عن نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم ،وكذلك جميع الأنبياء ،ولايأخذون الأجر على تبليغهم من عند الله ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلٰى رَبِّ الْعٰلَمِيْنَ﴾ (الشعراء: ١٠٩) وهم يتلون عليهم آيات الله ويعلمونهم الكتاب أو الصحف والحكمة ويزكونهم ﴿إِذْ بَعَثَ فِيْهِمْ رَسُوْلاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوْا عَلَيْهِمْ اٰيٰتِهٖ وَيُزَكِّيْهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتٰبَ وَ الْحِكْمَةَ﴾ (آل عمران: ١٦٤) واعلم أن نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم هو آخر الأنبياء وأفضلهم ، وقد أوتي من العلم ما لم يؤت أحد من الخلائق

،وثم مع ذلک لايكون عالما بالغيب ولا مقارنة بين علمه وبين علم الله تعالىٰ ،ولم جميع علم النبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم وكذلک غيره من الخلق كلها المعطى من الله تعالىٰ ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ (الأنعام: ٥٠) واعلم أن شريعتهٔ ناسخة لجميع الشرائع كلها قبلهٔ ،وفى الحديث "ما سمع بى أحد يهودي ولا نصراني ولم يؤمن بى إلا كان من أصحاب النار." (صحيح مسلم، ح: ١٥٣) وهناک رواية هكذا عن اتباعه عليه السلام أيضًا.

المتن

وإن القرآن كلام اللّٰه. منه بدا بلا كيفية قولا. وأنزلهٔ علىٰ رسوله وحيا. وصدقه المؤمنون علىٰ ذلک حقًا وأيقنوا أنهٔ كلام اللّٰه تعالىٰ بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام اللّٰه بالبرية. فمن سمعهٔ فزعم أنهٔ كلام البشر فقد كفر. وقد ذمه اللّٰه وعابه وأوعده بسقر ،حيث قال ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ فلما أوعد اللّٰه بسقر لمن قال: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ علمنا ،وأيضًا أنهٔ قول خالق البشر ولايشبه قول البشر.

الشرح

الآن الشيخ الإمام الطحاوي رحمه اللّٰه تعالىٰ يتكلم عن القرآن الكريم ،وهٰذا البيان يتعلق ببحث فى كلام اللّٰه تعالىٰ ،فإن شاء اللّٰه العزيز الآن نتكلم عن كلام اللّٰه تعالىٰ بالتفصيل ،فاعلم أن الكلام هو معنى قائم بذات المتكلم ،وفى القرآن ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ (الشورىٰ: ٥١) فالكلام يشمل جميع هٰذه الوجوه يعنى الوحي أو من وراء حجاب أو بطريقة إرسال الرسول مع الوحي. وفى القرآن عن زكريا عليه السلام ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ (آل عمران: ٤١) فالكلام يشمل الرمز أيضًا ،والكلام بطريقة الحرف والصوت ،فهو معروف ، ولايحتاج إلى البيان ،فثبت أن الكلام قد يكون بطريقة الحرف والصوت ، وقد يكون بطريقة الرمز والوحي وإرسال الرسل أو من وراء حجاب والوسوسة كما فى الآية ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ﴾ (الأعراف: ٢٠) وقد يكون بطريقة الكتابة كما نقول نحن عن مصنف الكتاب أنهٔ يقول فى كتابه فكلها من الكلام؛ لأن الكلام هو صفة قائمة بالنفس ،وفى القرآن: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ (المجادلة: ٨) ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ

الظَّالِمُونَ﴾ (الأنبياء:٦٣) ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا﴾ (يوسف:٧٧) ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ (آل عمران:١٥٤) فاطلق كلمة "القول" يعني الكلام على جميع هذا ،وهو قول فى النفس كما هو المصرح فى الآيات ،فيعنى هو كلام النفس وكذلك قول عمر رضي الله تعالى عنه كما فى البخاري "هيّأت كلاما قد أعجبنى ." (ح:٣٦٦٨م) ولم يتلفظ بهذا الكلام بعد ، لكن هو فى نفسه ،فاطلق عليه أنهٗ الكلام ،وكذلك قول الشاعر:

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما

جعل اللسان على الفؤاد دليلا

وكذلك حديث النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "من توضأ نحو وضوئى هذا ،ثم صلى ركعتين لايحدث فيها نفسه غفر لهٗ ما تقدم من ذنبه." (صحيح البخاري، ح:١٦٤)[1] .

فإذا فهمت هذا ،فاعلم أنهٗ معلوم من الدين بالضرورة أن اللّٰه عزوجل يتكلم ،وفى القرآن ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ (النساء:١٦٤) ﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ (الأعراف:١٤٤) وثم المعلوم بالضرورة أن الله عزوجل أرسل الأنبياء وأوحى إليهم ،وهذا كلهٗ كلام منه ،وكذلك كلامه مع الملائكة ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ (البقرة:٣٠) وكلام مع آدم وحواء عليهما السلام ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ (الأعراف:٢٢) كل هذا كلام منه؛ لأنهٗ كما ذكرنا عبارة عن إلقاء المعنى فى النفس إلى المخاطب إليه ،فيدل على المعنى فى النفس وإلقاءه إلى الآخر ،وكلاهما كلام كما ذكرنا وأثبتنا. فثبت أن اللّٰه عزوجل عنده كلام النفس وكلام اللفظ؛ لأنهٗ معلوم هو يتكلم، والكلام كما

(١) التنبيه: ثم معلوم أن حديث النفس فى الصلاة الذى ممنوع عنه هو الحديث لايتعلق بالصلوة ، فكل هذه الدلائل تتكلم عن كلام النفس ،ولما ما ذكرنا قبلا من الكلام بطريقة الوحي أومن وراء حجاب أو إرسال الرسول بالوحي أو الرمز أو الوسوسة أو الكتابة فهي كلها طرائق خطابة الكلام وإلقاءه إلى المخاطب إليه ،وفى القرآن ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ (البقرة:٣٧) ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ (النمل:٦) وكذلك الحرف والصوت هما من الطرائق لخطابة الكلام وإلقاءه وهذه الطرائق تدل على ما فى نفس المتكلم يعنى كلام النفس الذى هو فى نفس المتكلم وقد أثبتناه فعند ما المتكلم يخاطب هذا المعنى الذى فى نفسه ويلقيه إلى المخاطب إليه فهذه طريقة خطاب المخاطب به أيضا كلام؛ لأنهٗ يدل على كلام النفس الذى فى نفسه كما فى الآية ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ (آل عمران:٤١) فاطلق الكلام على الكلام مع الناس؛ لأنهٗ يدل على كلام النفس ،وكذلك الآية ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ (التوبة:٦) ومعلوم أن ما يسمع المشركون من لسان النبي صلى الله عليه وسلم ليس هو كلام الله قائم بذاته تعالى الذى هو كلام النفس، بل هو الكلام يدل على كلام النفس للبارى تعالى وأطلق "الكلام" عليه. فإذا فهمت هذا فقد فهمت أن الكلام هو كلام النفس الذى يكون فى نفس المتكلم ،وقد أثبتناه أيضا ،والكلام هو الكلام المخاطب به ،وهو يقال كلام اللفظ ،وليس ضروريا أن يكون بالحرف والصوت كما أثبتناه، بل بأي طريقة من طرائق خطابة الكلام وإلقاء معناه إلى المخاطب إليه.

ذكرنا صفة قائمة بالمتكلم ،وهٰذا كلام النفس ،فثبت أن الله عزوجل له كلام النفس، والكلام أيضًا الذى يلقى إلى المخاطب إليه الذى هو كلام اللفظ ،والمعلوم أن الله عزوجل القى الكلام إلى الأنبياء وغيرهم من الملائكة والبشر المخصوصة مثلا مريم عليها السلام وأم موسٰى رضي الله عنها ،وهٰذا يثبت أن لهُ كلام اللفظ . ثم المعلوم أن الإنسان حادث ،والممكن هو يتكلم بكلام الذى موجود في نفسه ،ثم ينساه أو يغير رأيه ، لكن ما دام لانعرف أن هٰذا الإنسان لايتكلم بنفس الكلام الذى كان يتكلم بهٖ بسبب تكذيب نفسه أو تغيير رأيه أو غيرهما من الأشياء ،هٰذا الكلام الذى هو كلم بهٖ يكون منسوبا إليه ،فمثلا لو العالم من زمان الماضى قبل ألف سنة قال قولا ،فنحن نقول حتٰى الآن هٰذا قولهُ ، كما نقول في العادة. هٰذا قول أبى حنيفة، هٰذا قول الثوري، هٰذا قول الشافعي، هٰذا رأي مالك ،هٰذا كلام الأوزاعي. وهٰذهٖ كلها معروفة لاتحتاج إلى الدليل ، فهم قالوا قولا بحرف وصوت ،ونحن ذكرنا سابقا هٰذهٖ كلها من طرائق لخطابة الكلام. فالحروف والأصوات التى تلفظوا بها قد انقرضت سرعان ما انتهوا من التلفظ بها ، لكن حتٰى الآن نحن نقول: هٰذا قولهُ وهٰذا قولهُ ؛ لأن هٰذا الكلام كانت صفة قائمة بهم حتٰى ماتوا وبعد الموت والله أعلم عنهم ، فإذا عندنا أنهم ما داموا حيا في هٰذه الدنيا لم يغيروا قولهُ ،ولم ينزلوا عنه بسبب ما حتٰى ماتوا ، فنحن ننسب هٰذه الأقوال إليهم ؛لأنها عندنا صفة قائمة بهم حتٰى ماتوا. وهٰذهٖ صفة قائمة معهم كانت كلام النفس لهم ،وأما كلام اللفظ الذى يدل علٰى كلام النفس ،فانتهى سرعان ما انتهوا من التلفظ إلا نحن نعيد نفس الحروف (العبارة) التى تلفظوا بها ،مثلا أبوحنيفة كتب شيئًا في كتابهٖ "الفقه الأكبر" فلو نحن ننقل عنه من هٰذا الكتاب بعين عبارته ،فنقول هٰذا كلامه في عبارته أو في ألفاظه (يعنى هو تلفظ هٰكذا ،ونحن نعيد التلفظ بألفاظه فقط) ولو نحن ننقل عنه من كتابهٖ في ألفاظنا (عبارتنا) فنحن نقول هٰذا كلامه ولا نقول هٰذا كلامه في عبارته وألفاظه؛ لأن العبارة من عندنا. ثم المعلوم أن الإنسان حادث، فلايكون كلامه إلا حادثا؛ لأنهٗ يوجد بعد وجوده ووجوده حادث مخلوق ،وكذٰلك كلامه ، فكلام النفس للإنسان هو حادث مخلوق ،وكذٰلك جميع صفات الإنسان ، لكن الله تبارك وتعالٰى القديم الأول الأزلي ،وكذٰلك جميع صفاتهٖ ،فلايكون كلامه إلا الأزلي ،وهٰذا من الضرورات البديهية ، ونحن تكلمنا بالتفصيل من قبل من صفات الله تعالٰى أنها كلها أزلية ،وهو لاتقوم به الحوادث ، والحوادث لاتكون إلامخلوقا ،ولايقوم المخلوق بالخالق غير المخلوق. وهٰذهٖ كلها من الضرورات البديهية. ثم كما بيّنا أن الكلام الذى يكون قائما بالمتكلم هو كلام النفس ،وأما كلام اللفظ فهو يوجد عند المخاطبة ،ولايوجد دونها ،والأزلية لاتقبل هٰذا ، فلايكون قائما بالله إلا كلام النفس ،وهٰذا الذى هو صفة قائمة بالمتكلم ،فيكون قائما بالله صفة أزلية كعلمه وقدرته وسمعه وبصره وحياته وإرادته وخلقه وتكوينه ،والأزلية

لا تكون فانية، بل تكون أبدية ،فكلام الله تعالىٰ أزلى أبدى معه ،فالقرآن والتوراة والإنجيل والزبور والصحف المنزلة ،وكذٰلك جميع كلام الله تعالىٰ أزلي أبدي قائم به تعالىٰ صفة قائمة به عزوجل. وقد قال الله تعالىٰ فى القرآن: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ (البروج: ٢١-٢٢) وهٰذا فى سورة البروج التى هي سورة مكية، فقال الله تعالىٰ فى السورة المكية إن القرآن مكتوب فى لوح محفوظ ، ولم يوح جميعه بعد إلى النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم؛ لأن القرآن لم يوجد وقت نزوله إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، بل أزلي مع الله تعالىٰ ، ثم كتب فى اللوح المحفوظ .

وقال القرطبي رحمه الله تعالىٰ فى تفسير الآية: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيٓ أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ (البقرة:١٨٥) ولا خلاف أن القرآن أنزل من اللوح المحفوظ ليلة القدر علىٰ ما بيناه جملة واحدة ،فوضع فى بيت العزة فى سماء الدنيا. ثم كان جبريل عليه السلام ينزل به نجما نجما فى الأوامر والنواهي والأسباب. قاله ابن عباس رضي الله عنه ،وكذٰلك فى الحديث الصحيح سأل آدم عليه السلام موسىٰ عليه السلام "فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق" قال موسىٰ عليه السلام: "أربعين عاما" قال آدم عليه السلام "فهل وجدت فيها ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾(طٰه: ١٢١) قال: نعم. (صحيح مسلم، ح: ٢٦٥٢) فثبت بهٰذا الحديث أن التوراة كانت قبل خلق آدم عليه السلام فضلا عن موسىٰ عليه السلام؛ لأن التوراة لم توجد وقت نزولها علىٰ موسىٰ عليه السلام، بل هي أزلية قائمة بالله تعالىٰ ثم كتبت . والمعلوم أن الكتابة فى اللوح المحفوظ أو غيره كلها مخلوقة ؛لأنها حادثة، واللوح المحفوظ وغيره من ظروف الكتابة كلها مخلوقة ،وكذٰلك الكتابة فيها ، لكن كتابة القرآن والتوراة وغيرهما من كلام الله تدل علىٰ كلام النفس للبارى تعالىٰ ،وهو غير مخلوق وغير حادث. وكما ذكرنا الكتابة هي الكلام اللفظي مشتملة على العبارة ،فثبت بالقرآن والحديث أنهٗ حتىٰ الكلام اللفظي كان موجودا قبل نزوله إلى الأنبياء عليهم السلام بزمان طويل فضلا عن الكلام النفسي الذى هو أزلي صفة لله تعالىٰ.

ثم لو تسأل هل الكلام النفسي لله تعالىٰ ،هل هو يشمل على المعنى فقط أو يشمل على العبارات الدالة التى هي تدل على المعنىٰ؟

قلنا بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز: إن المعلوم أن التلفظ بالعبارات لاتقوم بالله تعالىٰ ،ولهٰذا لايقال ألفاظ الله، بل يقال كلام الله ،وهل نرىٰ فى القرآن والحديث ،يقال لكلام الله ألفاظ الله؟ ولأن التلفظ حادث ،والحادث يكون مخلوقا ،فلايقوم بالله تعالىٰ ،ونحن ذكرنا سابقا أن الكلام اللفظي لايقوم بالله تعالىٰ ،وعنينا به التلفظ بالعبارات ،فمثلا القرآن الكريم صفة قائمة بالله تعالىٰ ،فعلىٰ هٰذا غير مخلوق وغير حادث ،وهٰذا هو الكلام النفسي ،ثم أيضًا هو النظم المؤلف باللغة

العربية ،وهو العبارات ونحن نقرأ هذه العبارات بالحروف والأصوات ،فالمعلوم أنهٗ لايكون التلفظ بهٰذه العبارات بالأصوات أو الكتابة بهٰذه العبارات بالحروف قديما أزليا ،وكيف ولها بداية ونهاية وهي المؤلفة المرتبة ،فلايكون الشيء هٰكذا قديما، بل حادثا مخلوقا ،وهٰذا أمر بديهي ،فالقرآن اسم المشترك فى الحقيقة بينهما ،فيطلق على الكلام النفسي والكلام اللفظي. والدلائل كثيرة فى ذكرهما ،ونحن ذكرنا بعض الدلائل من قبل ،وفى القرآن ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (الكهف:١٠٩) فقال فى تفسير القرطبي: عنى بالكلمات الكلام القديم الذى لاغاية لهٗ ولامنتهى. وهو و إن كان واحدا فيجوز أن يعبر عنه بلفظ الجمع تفخيما. انتهى.

وأيضًا فى الحديث: كان النبي صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين : أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة: ثم يقول: كان أبوكم (إبراهيم عليه السلام) يعوذ بهما إسماعيل و إسحاق." (سنن أبى داود، ح:٤٧٣٧) والمعلوم أنهٗ لايعوذهما إلا بالله؛ لأن التعويذ بغير الله الشرك الأكبر؛ لأنهٗ لا نفع ولا ضرر إلا من عند الله وتكلمنا عن هٰذه الأمور بالتفصيل من قبل. فثبت أن كلمات الله صفته القائمة ،فالتعويذ بها فى الحقيقة التعويذ بالله تعالٰى؛ لأن صفات الله ليست غير الله تعالٰى ،وكذٰلك لايجوز أن يقال هي ذاته تعالٰى؛ لأن الصفات متعددة ،والذات واحد ،فهو ذات ذو صفات وهو متصف بها ،فلأنها صفاتهٗ لاغيره ،فلايكون تعويذا بها تعويذا بغيره تعالٰى ،وإن تقول أنهٗ لايكون تعويذا بذاته تعالٰى أيضًا؛ لأن الصفات كما ليست غير الذات ،فكذٰلك ليست عين الذات ، فقلنا بتوفيق الله تعالٰى إن شاء الله العزيز: إن هٰذا الاعتراض لايسوغ؛ لأن معنى الصفات ليست عين الذات هو أن علم الله ليس ذات الله، بل هو صفته ، وكذٰلك الصفات الأخرٰى ، لكن مع ذٰلك لايكون وجود علم الله بدون وجود العليم الذى هو ذات الله ،وكذٰلك الصفات الأخرى. فالصفات نفسها المعاني والحقائق المتعلقة بذات الله تعالٰى ، ولايكون وجودها بدون وجود البارى تعالٰى و وجود البارى تعالٰى واجب الوجود فى نفسه يعنى هو أزلي أبدي ويستحيل عدمه ،ووجود صفات البارى تعالٰى ليست واجبة فى نفسها، بل واجبة لذاته تعالٰى ، فلايكون وجود كلام الله تعالٰى إلا بوجود المتكلم الذى هو الله تعالٰى ،فإذا عوذ بكلمات الله تعالٰى ، فعوذ بالمتكلم الذى هو الله تعالٰى ضرورة [1] وكون كلام الله تعالٰى لاعين الذات ولاغيرهٗ لاينافى هٰذا ، فافهم.

(١) ثم قال فى القرآن ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس:٨٢) وفى الحديث قال الله تعالى: عطائى كلام، وعذابى كلام. (سنن الترمذي، ح:٢٤٩٥) فإعطاء الله العوذ يتعلق بكلامه تعالى كما يتعلق بقدرته وإرادته وتكوينه ومرّ الكلام فيه. والحمد لله.

ثم وصف الكلمات بالصفة التامة يعنى لا نقص فيها؛ لأن الكلمات ترجع إلى صفة واحدة هو كلام الله تعالىٰ ، وهو التام مع الله تعالىٰ أزليا أبديا ،فلايقبل الزيادة ولا النقصان. ثم المعلوم أن كلام الله تعالىٰ هو صفته ،ولاتكون صفته إلا قديمة أزلية ،ولاتكون حادثة مخلوقة ،وهو الكلام النفسي. وأما الكلام اللفظي فدلائلهٗ كثيرة أيضًا، فمنها ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُوْرِ الَّذِيْنَ أُوْتُوا الْعِلْمَ﴾ (العنكبوت:٤٩) فالمعلوم أنهٗ لاتكون فى صدور الذين أوتوا العلم الصفة الأزلية لله تعالىٰ ؛لأنها قائمة بالله تعالىٰ لاتعتزل عنه ،وأيضًا لاتكون صفة الله فى المخلوق ،هٰذاكفر بواح ،وعقيدة النصارىٰ الذين يقولون بحلول كلام الله فى عيسىٰ بن مريم عليه السلام ،وهٰذا كفر لاخفاء فيه ،وهو الشرک الأكبر ،فلايكون فى صدور الذين أوتو العلم إلا الكلام اللفظي يعنى العبارات الدالة على الكلام النفسي ،وكذٰلک ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيْدٌ فِىْ لَوْحٍ مَّحْفُوْظٍ﴾(البروج:٢١-٢٢) ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَآءَ ذَكَرَهٗ فِىْ صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِىْ سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ (عبس:١١-١٦) فالمعلوم أنهٗ لايكون فى اللوح المحفوظ ،والصحف المكرمة صفة الله تعالىٰ ،وهٰذا كفر بواح وعقيدة الحلول والتجسيم فى حق الله تعالىٰ ،والله تعالىٰ وتقدس وتنزه عن الحلول والتجسيم ،ونحن ذكرنا عن هذا بالتفصيل من قبل، فلايكون فى اللوح المحفوظ والصحف المكرمة ،وكذٰلک فى المصحف إلا الكلام اللفظي وكذٰلک ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهٗ لَحَافِظُوْنَ﴾ (الحجر:٩) فالمعلوم أن الصفة الأزلية قائمة بالله لايعتزل عنه وهو الله تعالىٰ تنزه عن الأماكن والجهات ،وثم ما هو المعنى لحفظ الصفة الأزلية؟ ؛ لأن الصفة الأزلية هي قائمة بالله أزلية أبدية لايطرأ عليها الزيادة والنقصان ،فلايبقى إلا أنهٗ ذكر عن الكلام اللفظي الذى نزل بهٖ جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم ،وهٰذا هو المعنى بنزولهٖ أنهٗ تلقاه جبريل عليه السلام فى السماء ،ثم ينزل بهٖ على النبي صلى الله عليه وسلم فى عامة الأحوال ،ثم الحفظ فالكلام اللفظي يحتاج إليه ، وقد حرّف كلامَ الله يعنى الكلام اللفظي الأممُ السابقة ،فقد وعد الله عن حفظ القرآن يعنى الكلام اللفظي. وكذٰلک ﴿فَاقْرَءُوْا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ (المزمل:٢٠) فالمعلوم أن الصفة الأزلية لله لاتحل فى لسان القارئ ولا فى قراءته ،ونعوذ بالله من ذٰلک ،فلا يبقى إلا الكلام اللفظي فقراءة القارى هي العبارات ،فهي الكلام اللفظي ،ويدل على الكلام النفسي بدون أن يكون محلاًّ لهٗ. وكذٰلک الآية ﴿حَتّٰى يَسْمَعَ كَلَامَ اللّٰهِ﴾ (التوبة:٦) يعنى هٰذا المشرک المستجير. فالمعلوم أنهٗ لايسمع صفة كلام الله وكيف وإلا يكون كليم الله كسيدنا موسىٰ عليه السلام. وهٰذا من تخصيص موسىٰ عليه السلام ﴿قَالَ يَا مُوْسٰى إِنِّىْ اصْطَفَيْتُکَ عَلَى النَّاسِ بِرِسٰلٰتِىْ وَبِكَلَامِىْ﴾ (الأعراف:١٤٤) فأين المشرک من كليم الله موسىٰ عليه السلام؟ لاحول ولا قوة إلا بالله ، هذه المقارنة لاتجوز. فهٰذا المشرک لايسمع علىٰ لسان النبي صلى الله عليه وسلم صفة كلام الله يعنى

الأزلي ،ولا تحل صفة اللّٰه علىٰ لسان النبي عليه الصلوات والسلام -ونعوذ باللّٰه- فهو في الحقيقة يسمع القراءة يعني الكلام اللفظي ،هو العبارات الدالة علىٰ صفة الكلام للّٰه تعالىٰ ،فيفهم من الكلام اللفظي الكلام النفسي. فالآيات في صدور الذين أوتوا العلم هو الكلام اللفظي ، لكن مفهومها الكلام النفسي والكتابة في المصحف هو الكلام اللفظي ، لكن المفهوم من الكتابة هو الكلام النفسي والقرائة علىٰ لسان القارى هو الكلام اللفظي ، لكن المفهوم منه الكلام النفسي ،والسامع يسمع القرائة عند قراءة القرآن التي هي الكلام اللفظي ويفهم منه الكلام النفسي ،والكلام النفسي صفة قائمة باللّٰه تعالىٰ غير معتزلة عن اللّٰه تعالىٰ ،فلايحل في الكلام اللفظي ،وأما سماعة موسىٰ عليه السلام كلام اللّٰه الذي هو صفته ،فنتكلم عنها فيما بعد إن شاء اللّٰه العزيز . الآن نرجع إلى سؤالك، وهو هل الكلام النفسي مشتمل على المعنى فقط أو على العبارات الدالة عليه أيضًا ؟

فجوابه إن شاء اللّٰه العزيز هو كما علمت أن العبارات لاتقوم باللّٰه تعالىٰ لما ذكرنا؛ لأنها حادثة ولايقوم الحادث باللّٰه تعالىٰ ،فأما ما ذكرنا من عدم لقيام الكلام اللفظي باللّٰه تعالىٰ فهو علىٰ هٰذا المعنى يعني التلفظ به ، لكن المعلوم أن اللّٰه عزوجل قد علم من الأزل هٰذه العبارات الدالة على الكلام النفسي ،وهٰذا من الضرورات؛ لأنهٗ يعلم كل شيء ،فمثلا هٰذا النظم المؤلف المرتب باللغة العربية يعني القرآن فقد علم اللّٰه هٰذا النظم المؤلف بالعلم الأزلي ،وكون النظم لهٗ بداية ونهاية لايلزم كونه في العلم هٰكذا ،وهٰذا معلوم بالضرورة؛ لأن العلم بهٰذا النظم أزلي ،ولايكون بداية ونهاية في الأزلي ،فكما هٰذا في صفة العلم ،فكذٰلك في صفة الكلام ،فيعني هٰذه العبارات شاملة في كلام النفس للّٰه تعالىٰ ،وكيف لا ،والمعلوم أن هٰذه منزلة من عند اللّٰه تعالىٰ ،ولا دخل فيها لجبريل عليه السلام ولا لمحمد صلى اللّٰه عليه وسلم ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ (يوسف:٢) ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعٰلَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلٰى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء:٩٢-٩٥) ووصفه بالعربي يكون للعبارات ،وهٰذه العبارات تنزيل رب العالمين ،وأما الروح الأمين يعني جبريل عليه السلام ،فهو نزل به فقط ،ولم يكن لهٗ دخل في تأليفه ،فنزل به علىٰ قلب رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم ،وكذٰلك التوراة والإنجيل والزبور ،وجميع الصحف كلها بعباراتها منزلة من عند اللّٰه تعالىٰ ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف:١٤٥) والمعلوم أن الكتابة تكون للعبارات ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ (الأعراف:١٥٧) والمعلوم أن الكتابة تكون للعبارات وقد ذكرنا الحديث عن كتابة التوراة قبل خلق آدم عليه السلام ،فجميع الكتب والصحف المنزلة كلها منزلة بالعبارات من عند اللّٰه تعالىٰ، ولهٰذا كان النبي عليه السلام يعالج من التنزيل شدة كما في الصحيح البخاري ،يعني في حفظه،فأنزل اللّٰه عزوجل ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (القيامة:١٦-١٧) يعني جمعه

لك في صدرك فتقرأه ،فإذا قرأ جبريل استمع النبي صلى الله عليه وسلم ،وبعد ذلك يقرأ كما قرأ جبريل عليه السلام . وهذه كلها بالإجماع ،يعني أن القرآن والتوراة والزبور والإنجيل وجميع الصحف كلها من عند الله لفظا ومعنا ومن جحد هذا فقد كفر بالله وحدهٗ لاشك فيه وأما أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم فعامتها معنا من عند الله ولفظا يمكن من عند الرسول عليه الصلوٰة والسلام إلا الأحاديث القدسية ،فإنها من عند الله لفظا ومعنا ،ولأن عامة الأحاديث ليس لفظا من عند الله جازت روايتها بالمعنى ،وثم هل ألقى الله معنى الأحاديث فقط إلى جبريل عليه السلام ،وجاء جبريل بهذا المعنى ،وأداه إلى النبي عليه السلام في ألفاظه ،والنبي عليه السلام أداه إلينا في ألفاظه أو ألقى الله معنى الأحاديث إلى جبريل عليه السلام مع إلقاء العبارات الدالة عليها ، لكن أجاز النبي عليه السلام أن يعبرها بعباراته ،فوالله أعلم عن هذه الأشياء ، لكن في الجملة عامة الأحاديث ،فمعناها من عند الله ،ولا يمكننا أن نقول عن عباراتها أنها من عند الله أيضًا . فإذا كانت العبارات للقرآن والكتب والصحف المنزلة من عند الله تعالىٰ ،وهي في الحقيقة كلام الله ،وقال تعالىٰ: ﴿حَتّٰى يَسْمَعَ كَلَامَ اللّٰهِ﴾ (التوبة:٦) وهو يسمع هذهٖ عبارات القرآن ،وقال تعالىٰ ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيْقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُوْنَ كَلَامَ اللّٰهِ ثُمَّ يُحَرِّفُوْنَهٗ﴾ (البقرة:٧٥) يعني اليهود كانوا يسمعون التوراة ويحرفونه ،والمعلوم أنهم كانوا يسمعون عبارات التوراة ،فالعبارات التي هي الكلام اللفظي أيضًا كلام الله حقيقة ،فإذا كانت هي كلام الله حقيقة ،فكيف لاتقوم بالله؟ نعم لاتقوم بالله علىٰ وجه الترتيب علىٰ وجه النظم المرتب مع البداية والنهاية؛ لأنهٗ حادث ،ولاتقوم الحوادث بذات الله تعالىٰ ،وكذلك لاتقوم علىٰ وجه التلفظ بالحروف والأصوات؛ لأن التلفظ بالحروف حادث؛ لأن تكون لهٗ البداية والنهاية كما بتلفظ بسم الله ،فيكون السين بعد الباء ،والميم بعد السين ،والتلفظ بالكلمة الأولى يعني "الباء" أيضًا حادث؛ لأن التلفظ بهٖ ينتهي مع التلفظ بكلمة بعدهٗ ،يعني "السين" والأزلي لاينتهي ،فيكون حادثا ،وكذلك لاتقوم به الأصوات ،لأنها بطبيعتها حادثة كما هي في المشاهدة؛ لأن الصوت من الأعراض ،والعرض لايكون إلا حادثا؛ لأنهٗ يبدأ وينتهي ،ولا يبقى زمانين ، لكن هو يتركب ويتألف بعضهٗ علىٰ بعض ،فهكذا يكون مداه لمدة ما ،وهذهٖ كلها أمارات الحدوث والخلق ،والمخلوق لايبقى إلا أن يبقيه الله تعالىٰ ،فإذا لايبقيه فليس لهٗ البقاء ﴿إِنَّ اللّٰهَ يُمْسِكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُوْلَا﴾ (فاطر:٤١) فلايوجد إلا بإيجادهٖ ولايبقى إلا بإبقائه. فلايقوم الكلام اللفظي علىٰ هذه الوجوه بذات الله تعالىٰ ، لكن يقوم بهٖ كما يقوم العلم بهٖ ،فالعلم بكلام اللفظ يقوم بالله تعالىٰ علىٰ وجه الأزلي بدون الترتيب والتأليف ،فكذلك يقوم الكلام اللفظي بالله تعالىٰ صفة لهٗ هكذا ،يعني بدون الترتيب والتأليف؛ لأنهٗ كلامه في الحقيقة ،يعني القرآن والكتب والصحف الأخرى المنزلة من عنده تعالىٰ ،فكلام اللفظ علىٰ هذا المنوال في الحقيقة هو كلام النفس؛ لأنهٗ ليس علىٰ وجه التلفظ الحادث، بل علىٰ وجه الصفة

الأزلية القائمة بالله تعالى ،فيكون كلام النفس شاملا له ،فمن قال من أهل السنة أن الكلام اللفظي لايقوم بالله تعالى ،فهو يقول على وجه التلفظ الحادث ،فهو على هذا لايقوم بالله ،ومن قال: إنهٗ يقوم بالله فهو يقول على وجه الكلام النفسي يعني قائما بالله تعالى كالصفة الأزلية ،وليس على وجه التلفظ الحادث . فالحق أن الكلام اللفظي هو مشمول في الكلام النفسي صفة أزلية لله تعالى ،وكيف لا ،وهو كلامه في الحقيقة ،فهو متكلم بهٖ أزليا أبديا لايعتزل عنه كما سائر صفات الله ، لكن ليس على وجه المخلوق الذى يتلفظ بالتلفظ الحادث، بل كما يليق بهٖ تعالى وكيف لا؟ وفي القرآن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١) فكيف يكون كلامه تعالى ككلام الإنسان الذى يتكلم ويتلفظ بالحروف والأصوات الحادثة، بل هو يتكلم بكلام قديم أزلي أبدي ،فلايكون التلفظ بالحرف والصوت؛ لأن الصوت حادث لايقوم بالله ،والحرف إما التلفظ بالصوت أو إما التشكل بالنقوش ،وكلها مخلوقة ،ولايقوم المخلوق بالله تعالى ،فكلامه تعالى كما يليق بشأنهٖ ،وهو كلامه الأزلي ،وهو يتكلم بهٖ أزليا أبديا ،وهو ينافي السكوت ،فالسكوت ليس من صفات الله ،ونحن لانعلم وصف الله بالسكوت في القرآن ،ولا في الحديث ،فهو متصف بالكلام ولا السكوت ،وكلامه أزلي ،والأزلي لايقبل الفناء ،فكيف يكون السكوت صفة لهٗ ،وهو ينفي الكلام ،ثم كلامه صفته ،ولايكون الفناء لهٗ ولصفاتهٖ ،فكما هو متصف بالعلم ولاالجهل ،وبالبصر ولا العمى ،وبالسمع ولا الصم، وبالحياة ولا الموت ، وبالإرادة ولا المجازفة ،وبالقوة ولا العجز ،وبالتكوين ولاالعجز عنه ،فكذلك متصف بالكلام ولا السكوت.

فجواب سؤالك أن الكلام النفسي لله تعالى هو شامل للمعنى وللعبارات ، لكن على المنوال الذى ذكرنا؛ لأن التلفظ الحادث لايقوم بالله تعالى. وقال أبوحنيفة رحمه الله: "ونحن نتكلم بالحروف والآلات ،والله تعالى يتكلم بلا آلة ولا حروف والحروف مخلوقة ،وكلام الله تعالى غير مخلوق ،والقرآن كلام الله تعالى ،فهو قديم." (الفقة الأكبر)

ثم لو تسأل أن العبارات باللغة العربية يعني عبارات القرآن واللغة العربية مخلوقة ،وكذلك جميع اللغات ،فيكف تكون عبارات القرآن صفة قديمة قائمة بالله تعالى ،قلنا بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز: إن اللغة العربية هي مخلوقة ،هٰذا صحيح ، لكن ما هي اللغة هي ليست إلا الكلمات ،نحن نتلفظها بالأصوات أو الحروف المتشكلة المنقوشة على الأوراق ،وهٰذهٖ كلها مخلوقة ،ونحن قلنا: إن هٰذه الأشياء ليست صفة لله تعالى ،ولاتقوم بهٖ تعالى ، فهٰذا الاعتراض غير سائغ؛ لأن ما قلنا هي العبارات على وجه كلام النفس كصفة العلم ،فكما اعتراضك غير سائغ على صفة العلم التى تحيط بالعبارات ،فكذلك غير سائغ على كلام النفس الذى يحيط بالعبارات أيضًا؛ لأنهٗ ليست العبارات المرتبة بالحروف والأصوات التى عليها تشتمل اللغات، بل كلام النفس الذى هو متعلق

بالعلم؛ لأن علمه تعالىٰ يحيط بكلامه تعالىٰ كما يحيط بصفة الإرادة ،فكما علم وأراد ،وكذلك علم وتكلم. ولايتقدم علمه تعالىٰ عن إرادته أو كلامه زمانا؛ لأن جميع صفاته تعالىٰ أزلية ، لكن هذا التقدم هو التقدم الرتبي. ثم كلامه تعالىٰ يتعلق بعلمه تعالىٰ ، لكن لايتعلق بإرادته قطعا وبتاتا؛ لأن الأزليات لاتتعلق بالإرادة ،لأنها موجودة أزليا ،والإرادة تكون للأشياء التى لم تكن ،فتكون الإرادة لكونها وكلام اللّٰه أزلي ،فلايأتى تحت هذه الأشياء . فاعتراضك يكون سائغا للعبارات المرتبة بالحروف والأصوات ،ونحن لانقول بها ،نحن نقول عن كلام النفس الأزلي الذى يحيط المعنى والعبارات غير المرتبة بالحروف والأصوات كعلمه تعالىٰ.

فلو تسأل الآن لما سيدنا موسىٰ عليه السلام سمع كلامه تعالىٰ ،فهل سمع الكلام النفسي الأزلي أو سمع الأصوات المخلوقة الحادثة الدالة علىٰ كلام النفس الأزلي؟

فقلنا بتوفيق اللّٰه تعالىٰ إن شاء اللّٰه العزيز: إن الحق سيدنا موسىٰ عليه السلام سمع كلام اللّٰه تعالىٰ بعينه يعنى كلام النفس الأزلي ،وهذا مذهب الشيخ أبى الحسن علىٰ بن إسماعيل الأشعري. وهذا هو الصحيح بلا شك ،وأما الشيخ أبو منصور الماتريدي رحمه اللّٰه تعالىٰ ،فعنده لايكون الكلام القديم النفسي مسموعا. فقال: إنهُ سمع سيدنا موسىٰ عليه السلام الأصوات المخلوقة الدالة على الكلام القديم ، لكن لأن هذه الأصوات لم تكن بواسطة، بل خلقها تعالىٰ مباشرة ،وسمعها موسىٰ عليه السلام فخص باسم كليم اللّٰه (وقد يقول قائل هذا القول إن موسىٰ عليه السلام حادث مخلوق ،وهو معلوم ،وكذلك سماعته حادثة مخلوقة وهو معلوم ،فلايكون الحادث يسمع الكلام الأزلي بسماعته الحادثة) وأيضًا قد يستدل بالآية ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ (التوبة:٦) والمعلوم أن هذا المشرك المستجير لايسمع الكلام القديم، بل الأصوات الدالة عليه ،وبداية الآية ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ (التوبة:٦) وقد يستدل بآية ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (القصص:٣٠) فنودي من الشجرة ،واللّٰه عزوجل لايتمكن فى مكان ولايجرى عليه زمان ،وصفاتهُ قائمة به ،فالنداء من الشجرة يعنى الأصوات المخلوقة منها.

والحق أن هذا المذهب فى غاية الخطأ؛ لأن الموقف أن الكلام النفسي لايكون مسموعا غير سائغ ،ولولا نسمع نحن فى العادة؛ لأن اللّٰه علىٰ كل شيء قدير ،فهو قادر علىٰ إسماع الكلام النفسي ،فلو واحد يسأل هل اللّٰه قادر علىٰ إسماع الكلام النفسي؟ فلا يكون جوابا لهُ حتىٰ عند الشيخ الماتريدي رحمه اللّٰه تعالىٰ إلا "نعم" وإسماع الكلام النفسي لايؤدى إلى المناقضات التى ذكرنا فى بيان قدرة اللّٰه تعالىٰ ،ثم المعلوم أن اللّٰه تعالىٰ يسمع جميع الكلام ،والمعلوم أن اللّٰه متكلم بكلام

،فالمعلوم أن الله سامع لكلام نفسه ،فهو لم يزل ولايزال سامعا لكلام نفسه ،كما رائيا لنفسه. فثبت أن الموقف أن الكلام النفسي لايكون مسموعا خطأ ،ولو يقول القائل أن الكلام النفسي لله تعالى قديم ،وسيدنا موسى عليه السلام وسماعته حادثان ،فهل الحادث يسمع الكلام القديم بسماعته الحادثة ،قلنا: نعم لاشك فيه كما المسلمون يرون الله تعالى بإجماع أهل الحق فى الآخرة ،وهم ورؤيتهم حادث ،والمرئي يعنى الله عزوجل قديم ،وأيضًا كما هم يرونه (اللّٰهم اجعلنا منهم آمين) ولا شكل لهٗ ولا صورة ولاجهة ولا مكان ولازمان ،فكذٰلك موسٰى عليه السلام سمع كلام الله النفسي القديم بلا حرف ولا صوت ،وهٰذا أيضًا دليل سماع كلام النفسي؛ لأننا نحن لانرىٰ إلا ما هو المتحيز فى الجهة فى العادة ، لٰكن كما هو لاينفى رؤية الله فى الآخرة ،وهو لا يتحيز فى الجهة والمكان ،فكذٰلك نحن فى العادة لانسمع إلا الأصوات ، لكن هٰذا لاينفى سماع الكلام النفسي بلا صوت.
ولو يقول القائل أنت ذكرت أن الله عزوجل قادر أن يسمع الكلام النفسي ،فماذا تقول مثلا عن إسماع الرائحة ؟

قلنا بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز: إن الله عزوجل قادر علىٰ إسماع الرائحة ، لكن هو فى اللغة لايقال السمع، بل الشم؛ لأن السمع هو إدراك الكلام والصوت ،والشم هو إدراك الرائحة فى اللغة ،فهٰذا يرجع إلى استخدام اللغة ،لو كان الناس فى العرف يستخدمون السمع لإدراك الرائحة ،فليقال لمن يدرك الرائحة أنهٗ سمعها، بل فى عرف الناس هم يعبرون هٰذا الإدراك بالشم ،فجواب سؤالك أن الله قادر بلاشك أن يجعل الرائحة مدركا كما نحن نرىٰ وهٰذا الإدراك لايقال سمعا فى اللغة، بل شما. ثم نحن نعرف أن الله تعالىٰ نفسه يدرك جميع الروائح ، لٰكن فى حقه لايقال: إنهٗ يشم الروائح؛ لأن هٰذا لايجوز فى حقه تعالىٰ؛ لأن الشم من اللمس؛ لأن الرائحة يلمس ويدخل أنف الشامّ ،وهٰذا من صفات الأجسام ،فلايجوز فى حق الله تعالىٰ، بل يقال: إنهٗ يعلم جميع الروائح ،ثم لوتسأل أن الأصوات تسمع بطريقة اللمس أيضًا؛ لأن تيارات الأصوات تدخل فى آذان السامع ،وهٰكذا هو يسمع الأصوات ، لكن هٰذا لايجوز فى حق الله تعالىٰ ،ومع ذٰلك هو السميع.

قلنا: هٰذا صحيح أنهٗ لايسمع بطريقة دخول تيارات الأصوات أو أشياء هٰكذا ، لكن مع هٰذا هو السميع؛ لأن القرآن والسنة يقول: إنهٗ السميع ، لكن لا نعلم فى القرآن ولا فى الحديث وصفه بالشم ،فلايجوز وصفه به. فالله يدرك جميع الروائح يعنى هو يعلم جميع الروائح ،ونحن ندرك الروائح بسبب خلق الله فينا إدراكا لها ،وهٰذا يقال فى حقنا الشم ، لكن إدراك الكلام يقال السمع فى اللغة ،والمعلوم أن الله عزوجل يستطيع أن يجعل الكلام النفسي مدركا ،فيقال: إنهٗ سمع الكلام

النفسي. وأما الاستدلال بالآية ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ (التوبة:٦) فغير سائغ؛ لأن هٰذا المشرك ،وكذٰلك نحن عند سماع القرآن نسمع صوت القارى الدال على الكلام النفسي للّٰه تعالىٰ ،فلو كان سماع موسىٰ عليه السلام أيضًا سماع الأصوات الدالة على الكلام القديم لما كان لهُ التخصص فيه ،فكيف خص باسم الكليم ،وفى القرآن ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ (النساء:١٦٤) ﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ (الأعراف:١٤٤) فهٰذا كلهُ يدل علىٰ تخصيصهٖ بكلام اللّٰه تعالىٰ ،وهٰذا عليه إجماع الأمة.

وأما جواب الشيخ الماتريدي رحمه اللّٰه تعالىٰ أنهُ إذا سمع الأصوات بلا واسطة الملك مباشرة ،فخص باسم الكليم ،فهٰذا ضعيف جدا؛ لأن فى الأخير هذه الأصوات هي مخلوقة ،وكذٰلك الأصوات التى نحن نسمع عند سماع قراءة القرآن من القارى ، ففى هٰذا يتساويان ،فكيف يكون التخصص لسيدنا موسىٰ عليه السلام ،فثبت أنهُ تخصص بسماع الكلام الذى ليس مخلوقا بل صفة اللّٰه تعالىٰ بعينهٖ دون الأصوات الدالة عليه التى نحن نسمع فى العادة ،فهٰذا هو التخصص لهُ ،وأيضًا قد قيل فى التفاسير: إنهُ سمع كلام اللّٰه بجميع جسده ،ليس فقط بأذانه، وهٰذا أيضًا يدل علىٰ سماعه للكلام النفسي القديم للّٰه تعالىٰ؛ لأن سماعه ليس كالسماع المعتاد.

وأما الاستدلال بالآية ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (القصص:٣٠) فهو أيضًا غير سائغ؛ لأنهُ معلوم أن اللّٰه عزوجل لايتمكن فى مكان ،ولايجرى عليه زمان ،هٰذا لاشک فيه، لكن الاستدلال بهٰذه الآية أن سيدنا موسىٰ عليه السلام لم يسمع الكلام القديم للّٰه تعالىٰ، بل الأصوات الدالة عليه ليس صحيحا؛ لأن المعلوم أن هذه الشجرة كانت فيها نارا الذى رأى سيدنا موسىٰ عليه السلام ﴿إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ﴾ (طٰه:١٠-١١) وهٰذه النار كانت فى هٰذه الشجرة. وقال ابن عباس رضي اللّٰه تعالىٰ عنه فلما توجه نحو النار، فإذا كانت النار فى شجرة عناب، فوقف متعجبا من حسن ذٰلك الضوء وشدة خضرة تلک الشجرة ،فلاشدة حر النارتغيّر حسن خضرة الشجرة ،ولا نعمة الخضرة تغيّرحسن ضوء النار. هٰذا من تفسير القرطبي وفيه أيضًا "فلما رأى موسى النار وقف قريبا منها ،فرأها تخرج من فرع الشجرة الخضراء شديدة الخضرة ،يقال لها العليق ، لاتزداد النار إلاعظما وتضرما ،ولاتزداد الشجرة إلا خضرة وحسنا، فعجب منها وأهوى إليها ليقتبس منها ،فمالت إليه ،فخافها ،فتاخر عنها ،ثم لم تزل تطمعه ويطمع فيها إلىٰ أن وضح أمرها أنها مأمورة لايدرى من أمرها، إلىٰ أن نودي، انتهى.

وفى القرآن ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ

لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللّٰهِ رَبِّ الْعٰلَمِينَ ﴾ (النمل:٧-٨) ﴿فَلَمَّا قَضٰى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّيٓ آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ فَلَمَّا أَتٰهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يٰمُوسٰى إِنِّيٓ أَنَا اللّٰهُ رَبُّ الْعٰلَمِينَ﴾ (القصص:٢٩-٣٠) فالنار فى الشجرة وهو نودي من الشجرة ،يعنى نودي من النار ،وفى الحديث الصحيح "حجابه النور". وفى رواية أبى بكر "النار". لو كشفهٗ لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه." (صحيح مسلم، ح: ١٧٩) فهٰذه النار فى الشجرة هو الحجاب المذكور فى الحديث ،وفى القرآن ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللّٰهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَّرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ﴾ (الشورى:٥١) فالله عزوجل يكلم البشر من وراء حجاب يعنى أن سيدنا موسٰى عليه السلام نودي من الشجرة يعنى من النار يعنى من الحجاب ،كما فى الحديث "حجابه النور أو النار." والعرب تضع أحدهما موضع الآخر يعنى "النار" "والنور" كذا فى تفسير القرطبي. فمعنى أن الله عزوجل كلم موسٰى من وراء حجاب ،ولهٰذا بعض السلف قالوا فى تفسير الآية: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾ (النمل:٨) أن معناه قدّس من فى النار وهو الله سبحانهٗ وتعالٰى عنى به نفسه تقدس وتعالٰى. وتفسير آخر أنهٗ كانت فى النار ملائكة ،فعلى التفسير الأول يكون معناه أن الله فى النار ،يعنى أنهٗ تعالٰى فى الحجاب ،وليس المعنى أنهٗ فى الحجاب بمعنى الجسم فى الظرف فى حق الله قطعا وبتاتا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى:١١) وهو لايحيط به أي شيء ولا يشبههٗ شيء ،ونحن قد فصّلنا كل هٰذا من قبل ،فمعناه أنهٗ فى الحجاب يعنى من وراء حجاب ،فالخلق لايراه تعالٰى؛ لأن فى الحقيقة المحجوب هو الخلق ،وليس الله تعالٰى؛ لأنهٗ لايحجبهٗ شيء؛ لأنهٗ لايتمكن فى مكان ،ولايحيط به أي شيء ،والمحجوب يكون متحيزا محاطا به ،ثم هو ليس من جنس الخلق والأجسام حتٰى يحجبهٗ شيء، بل تعالٰى وتقدس عن هٰذه الأشياء ،وفى القرآن عن الفجار ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ (المطففين:١٥) فهٰذا الفجار الذين محجوبون عن الله وليس الله هو المحجوب. فيكون المعنىٰ أن الله عزوجل كلم موسٰى عليه السلام من الشجرة من النار يعنى من الحجاب ،وهٰذا الحجاب فى الحقيقة يرجع إلى موسٰى عليه السلام ،فهو سمع كلام الله تعالٰى ، لكن لم يرهٗ تعالٰى وسمع كلام الله تعالٰى من حجاب ،وكلمه الله تعالٰى من وراء حجاب بدون أن يكون هو متحيزا فى جهة أو مكان ،وكذٰلك صفاتهٗ ؛لأنها قائمة به تعالٰى غير معتزلة عنه.

فعلٰى هٰذا البيان لايبقى إشكالا؛ لأنهٗ ليس المعنى أن موسٰى عليه السلام نودي من الشجرة ،فيؤدى إلى وصف الله بالتحيز -نعوذ بالله- بل معناه أنهٗ نودي من الشجرة يعنى من النار الذى هو

الحجاب ،فنودی من الحجاب ،فكلمه الله تعالىٰ من وراء حجاب. فاندفع هذا الإشكال الذی يؤدی إلى تاويل سماع موسىٰ عليه السلام أصوات مخلوقة من الشجرة، بل كان سماع موسىٰ عليه السلام لكلام الله بعينه من وراء حجاب. ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ (الشوریٰ: ۵۱)

ثم معنى الحديث "حجابه النور" أو "النار" فی رواية. وهذا الحجاب يرجع إلى الخلق دون الله تعالىٰ كما بينا "لو كشفه" يعنی لو رفع الحجاب عن أعينهم ،ولم يثبتهم لرؤيته "لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه." (صحيح مسلم، ح: ۱۷۹) يعنی جميع الخلق؛ لأن الله بكل شيء بصير ،وفی القرآن ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ (الملک: ۱۹) فبصرهٗ محيط بكل شيء ،فجميع الخلق لاحترقوا لجلاله تعالىٰ وتنزهه وتقدسه ،وما استطاعوا لرؤيته؛ لأنهٗ لم يثبتهم لها ،ولو أثبتهم كما فی الآخرة لأهل الجنة لما احترقوا، بل كانت لهم أكبر وأفضل نعمة ورحمة على الإطلاق ،اللّٰهم اجعلنا منهم ،آمين. والله أعلم ،ويهدی من يشاء إلى صراط مستقيم.

فمن هذا البيان ثبت أن المذهب الصحيح هو أن الله عزوجل كلم موسىٰ وأسمعه كلامه القديم الذی هو صفة لهٗ ،وهذا هو التخصيص لهٗ كما فی القرآن ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ (الأعراف: ۱۴۴) ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ (النساء: ۱۶۴) ثم هناک بعض الدقائق الأخرى التی تظهر عند الغور فی القرآن والحديث ،وهی قد تؤدی إلى جمع المذهبين يعنی مذهب الشيخ الأشعري ومذهب الشيخ الماتريدي رحمهما الله تعالىٰ. وهو فی الحديث الصحيح "احتج آدم وموسىٰ عليهما السلام عند ربهما ، فحج آدم موسىٰ. قال موسى: أنت آدم الذی خلقک الله بيده ونفخ فيک من روحه، وأسجد لک ملائكته، وأسكنک فی جنته، ثم أهبطت الناس بخطيئتک إلى الأرض. . قال آدم عليه السلام: أنت موسىٰ الذی اصطفاک برسالته وبكلامه ، وأعطاک الألواح تبيان كل شيء، وقربک نجيا، بكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق ،قال موسىٰ: بأربعين عاما. قال آدم: فهل وجدت فيها ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ (طٰه: ۱۲۱) قال: نعم، قال أفتلومونی على أن عملت عملا كتبه الله عليّ أن أعمله قبل أن يخلقنی بأربعين سنة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فحج آدم موسىٰ." (صحيح مسلم، ح: ۲۶۵۲)

قبل أن أتكلم عن هذا الحديث بتعلقه عن موضوعنا الآن لابد من شرحه وبيانه ،فأولا هذا الاحتجاج لم يحصل فی الدنيا؛ لأن بين آدم عليه السلام وبين موسىٰ عليه السلام زمان طويل ،وثانيا معنى "عند ربهما." يعنی هذا الاحتجاج لم يكن كما يحصل بين اثنين ،والله عزوجل يراهما ويسمعهما وهما من غير الأنبياء ، فلهٰذا لايحصلان على الوحي والحكم من عند الله مباشرة ،فقد

لايعلمان عما هو الحكم فيهما من اللّٰه حتىٰ يوم القيامة الذى هو يوم الدين ، بل سيدنا آدم وموسٰى عليهما السلام هما من الأنبياء عليهم السلام ،ومع ذٰلك هٰذا الاحتجاج لم يحصل فى هٰذه الدنيا، بل حصل غالبا فى السماء ، وهما كانا على الاتصال باللّٰه بالكلام علىٰ طريقة ما ،فاعتبر هٰذا الاحتجاج عند ربهما يعنى اللّٰه عزوجل هو يرى ويسمع كل شيء ، لكن مع ذٰلك هٰذان النبيّان كانا متصلان به عزوجل أيضًا بالكلام بطريقة ما من الطرائق ،وثالثا سيدنا موسٰى عليه السلام ما كان يقصد قطعا وبتاتا الإهانة والتنقيص فى شأن سيدنا آدم عليه السلام و كيف؟ الإهانة والتنقيص فى شأن الأنبياء كفر ، وسيدنا موسٰى عليه السلام من أجلة الأنبياء ،ولايجوز عليهم قصد الذنب الصغير فضلا عن الكفر، ونعوذ باللّٰه من ذٰلك. ثم سيدنا آدم عليه السلام أبو البشر ،فيكون أبا لموسٰى عليه السلام ،فكيف يقصد الابن الجليل كسيدنا موسٰى عليه السلام إهانة لأبيه سيدنا آدم عليه السلام ،فقصد الإهانة لايجوز قطعا وبتاتا، فما ذا كان قصده ؟ فواللّٰه أعلم ،والممكن أنهٗ كان قصدهٗ أن يبرئ سيدنا آدم عليه السلام من اعتراضات الملاحدة ،فيعطى آدم عليه السلام فرصة أن يقيم حجة قاطعة علىٰ من يفكر فى اعتراضه؛ لأن سيدنا موسٰى عليه السلام كان يعرف أن سيدنا آدم عليه السلام من الأنبياء عليهم السلام ،فكان أكلهٗ من الشجرة لم يكن علىٰ قصد المعصية، بل كان علىٰ وجه الخطأ والنسيان ،وثم هو خلق ليكون خليفة على الأرض كما أخبر اللّٰه الملائكة قبل وقوع هٰذا الخطأ من سيدنا آدم عليه السلام ،فإتيانه على الأرض لابد منه حتىٰ يكون خليفة فيها ، وحتىٰ ينفذ أوامر اللّٰه ونواهيه على الأرض ، وحتىٰ يكون التكليف الشرعي علىٰ نوع البشر ،وثم كل هٰذا بقدر اللّٰه تعالىٰ؛ لأن كل شيء بقدره تعالىٰ ، فسيدنا موسٰى عليه السلام كان يعرف كل هٰذه الأشياء ، لكن قد يكون من الناس الملاحدة الكفرة لايعتبرون تعظيم الأنبياء عليهم الصلوات والسلام ،فيطاولون عليهم لسانهم ،فقد يعترضون علىٰ سيدنا آدم عليه السلام هٰذاالاعتراض تنقيصا وإهانة ،فسيدنا موسٰى عليه السلام سأل هٰذا السؤال لا علىٰ وجه الاعتراض والتنقيص، بل علىٰ وجه إعطاء الفرصة إلى سيدنا آدم عليه السلام ليبرّئ نفسهٗ من الاعتراض والإهانة من هٰؤلاء الناس.

ورابعا: وجواب سيدنا آدم عليه السلام بالاستدلال من قدر اللّٰه تعالىٰ ،يعنى كيف تلومونى علىٰ أمر كتبه اللّٰه عليّ. ثم قبل خلق آدم عليه السلام بأربعين سنة هي لكتابة التوراة غالبا فى اللوح المحفوظ ،وثم المعلوم أن ليس المعنى "كتب اللّٰه" كما نحن نكتب بالجوارح ،و كيف ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورىٰ: ١١) فهو تعالىٰ عن الأعضاء والجوارح، بل معناه أمر أن يكتب وثم هٰذا يتعلق بالكتابة التى هي مخلوقة ،وأما التوراة علىٰ وجه صفة اللّٰه تعالىٰ ،فهي قائمة به تعالىٰ أزليا أبديا ،وثم هٰذه الكتابة التى كانت قبل أربعين سنة قبل خلق آدم عليه السلام ،وأما قدر اللّٰه تعالىٰ يعنى إرادته

،فهي أزلية أبدية قائمة بالله تعالىٰ ،فهو من الأزل أراد كل شيء الذى سيكون إلى الأبد.

فجواب سيدنا آدم عليه السلام استدلالاً بالقدر كان سائغا؛ لأنهُ أولا كان خطاه علىٰ وجه الخطأ والنسيان ،وليس بقصدالمعصية ، فكأنهُ كما نحن نقول لكل شيء يقع علىٰ وجه غير إرادتنا. "قدر الله ما شاء فعل" وهٰذا لايعني أن الأشياء غيرها لاتكون بقدر الله، بل كل من قدر الله ،فهٰكذا سيدنا آدم عليه السلام استدلّ بالقدر أن هٰذا الخطأ كان من قدر الله ،وقد تكون إشارة أنهُ لم يكن بقصده المعصية؛ لأنهُ لايسوغ لواحد أن يقصد المعصية ،وبعد فعله يبرّئ نفسه استدلالاً بالقدر؛ لأن هٰذه المعصية ولو كانت بقدر الله تعالىٰ ، لكن مع هٰذا بقصد العاصى أيضًا ،فقدر الله لايتعلق بالمعصية فقط، بل قدر الله أن يكون هٰذا العاصى يفعل المعصية بقصده ،فيكون غير مرضيا عند الله ،فكيف لايلام الذى يكون غير مرضيا عند الله تعالىٰ ،وثم هٰذا العاصى لم يكن يعرف ما قدر الله عليه فكان لايعرف أن الله قدر عليه هٰذه المعصية ففعلها علىٰ علم به ، لا، بل فعلها؛ لأنهُ كان يقصد أن يفعلها بقصده ،ولو كان هٰذهِ كلها بقدر الله تعالىٰ ، لكن العاصى لم يكن يعرف ذٰلك [1] وكان عارفا أن الله لايرضى بهٰذه المعصية؛ لأن الرضاء والقدر لايلزمان بعضه بعضا، بل القدر يتعلق بكل شيء والرضا يتعلق بطاعة فقط. فكان علىٰ هٰذا العاصى أن لايفعل هٰذه المعصية، بل يجتنبها ، لكن هو فعل هٰذه المعصية بقصده ،وليس علما بقدر الله أن الله قدر عليه هٰذه المعصية قبل وقوع المعصية ،فإذا وقعت المعصية منه كان العاصى مسؤولا مجوما فيها ،ولايجوز لهُ أن يستدلّ [2] بعد وقوع المعصية بالقدر ،وهو فعلها بقصده ،وإن كل هٰذهِ تحت قدر الله تعالىٰ ، لكن العاصى لم يكن عالما به. فإذا سيدنا آدم عليه السلام استدل بالقدر ،فقد تكون إشارة إلى أن هٰذا الخطأ ما كان على القصد ،وثانيا أنهُ تاب إلى الله ،فتاب الله عليه. ﴿ثُمَّ اجْتَبٰهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدٰى﴾ (طٰه:١٢٢) وبعد المغفرة حتىٰ العاصى بالقصد يكون غير مستحقًا لأي الملامة؛ لأن بعد المغفرة من عند الله لايجوز لأي واحد أن يلومه؛ لأن الله عزوجل قد غفر لهُ ،فصار كأنهُ بغير هٰذه المعصية الآن ،فيكون لومه مناقضا مخالفا لهٰذا ،وهٰذا لايجوز ،وهٰذا فى حق العاصى بالقصد ،فما ظنك عن سيدنا آدم عليه السلام النبي الرسول الذى لم يقصد المعصية، بل كان خطاه علىٰ وجه الخطأ والنسيان. وثالثا: لا تنسوا أن هٰذا الاحتجاج لم يحصل فى هٰذه الدنيا، بل فى العالم الآخر وهٰذا ذكرنا؛ لأن نحن فى هٰذه الدنيا الآن ،ولسنا فى العالم الذى وقع هٰذا الاحتجاج بين هٰذين النبيين عليهما السلام فيه.

فبعد شرح هٰذا الحديث نقول إن سيدنا موسىٰ عليه السلام ذكر من الأمور التى فيها مزية لآدم عليه السلام فى نوع ما علىٰ سيدنا موسىٰ عليه السلام ،وعلى الآخرين ،فذكر "أنت آدم الذى

---

(١) يعنى لم يكن يعرف أن الله قدّر عليه فعل هٰذه المعصية .

(٢) ويبرّر نفسه .

خلقك الله بيده." (صحيح مسلم، ح:٢٦٥٢) . والمعلوم أن هذا ليست على معنى الجارحة ،لكن هذا تشريف لآدم عليه السلام الذى ذكر فى القرآن ،فذكر موسى عليه السلام هذا التشريف لآدم عليه السلام وذكر "ونفخ فيك من روحه" والمعلوم أن الروح كلها مخلوقة؛ لأنهٗ جسم لطيف ،وذكر عن الروح فى الأحاديث أنهٗ يدخل فى جسد الإنسان ويخرج ويؤخذ إلى السماء أو إلى الأرض السفلىٰ وغيرها من الأمور كلها تدل على أنهٗ جسم ،فمعنى "روحه" يعنى خلقا وملكا ،وثم هذا أيضًا تشريف لآدم عليه السلام؛ لأنهٗ نسب النفخ للروح إليه تعالىٰ ، والمعلوم من الحديث أن الملك الذى ينفخ الروح فى عامة البشر عند ما كان فى الرحم ، لكن آدم عليه السلام هو أول البشر ،ولم يكن فى الرحم ولم يتطور من النطفة إلى العلقه وإلى غيرها من التطورات، بل خلق على صورته التي هي صورته فى الرجولة وهذا هو معنى الحديث "ان الله خلق آدم على صورته ." (صحيح مسلم، ح:٢٦١٢) يعنى صورته التي هي صورته عند كثير العلماء فعلى هذا "صورته" فى الحديث معناه صورة آدم عليه السلام التي هي صورته وأما الله تعالىٰ فتقدس وتنزه عن الصورة ، ففى حق آدم عليه السلام على معنى ظاهر الآية الله عزوجل أجرى الروح إلى جسده؛ لأنهٗ لايكون نفخا منسوبا إلى الله تعالىٰ كنفخنا الذى هو إخراج الريح من فمنا ،تعالى الله عن ذلك وتقدس عن اللمس الذى من صفات الأجسام ،وتنزه عن أن يكون متجزئا حتىٰ يكون جزء منه فى غيره ،وهذه كلها كفر بواح والشرك الأكبر ،فمعناه يعنى أن الله عزوجل أجرى الروح فى جسده بخلقه وأمره ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس:٨٢)﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (آل عمران:٥٩) وقد نسب الله نفخ الروح إليه فى حق عيسىٰ عليه السلام أيضًا ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ (التحريم:١٢) وهذا معناه فى تفسير أن جبريل عليه السلام نفخ فى جيب مريم رضي الله عنها روح عيسىٰ عليه السلام فحملت به ، لكن لأنهٗ فعل هذا بأمر الله تعالىٰ ،فنسب الله تعالىٰ إليه. فيكون ذكراً لهذا فى حق آدم عليه السلام ففيه نوع من المزية التى ذكرنا ،وهذا أيضًا واضح من الآية ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر:٢٨-٢٩) فذكر الله تعالىٰ عند أمره للملائكة لسجود لآدم عليه السلام أنهٗ نفخ فيه من روحه ،وهذا يدل على تشريف بسبب ذكره مع أمرهم بالسجود لهٗ عليه السلام ،والمعلوم أن الملائكة أيضًا ذو الأجسام و الأرواح ، فذكر نفخ الروح فى آدم عليه السلام عند أمرهم بالسجود لهٗ ،وهم أيضًا ذو الأرواح يدل على تخصيص آدم عليه السلام بالشرف فى هذا ،ثم موسىٰ عليه السلام ذكر "وأسجد لك ملائكة وأسكنك فى جنته." وهذا معلوم أنهٗ من خصوصية آدم عليه السلام على نوع البشر؛ لأنهٗ كان فى

الجنة ، وصار مسجودا للملائكة ونوع البشر غيره يكون فى الأرض ،ثم قد يكون فى الجنة بعد الموت لو مات على رضوان الله تعالىٰ ،وأما سجدة الملائكة لآدم عليه السلام فهي من خصوصيته ، وهٰذا معلوم لايحتاج إلى البيان ،فثبت أن موسىٰ عليه السلام ذكر الأشياء التى فيها مزية لسيدنا آدم عليه السلام ،فسيدنا آدم عليه السلام فى جوابه ذكر الأشياء التى فيها مزية لموسىٰ عليه السلام علىٰ نوع البشر فى الجملة ،فذكر "أنت موسىٰ الذى اصطفاك برسالته وبكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان لكل شيء وقربك نجيا." فأما الألواح فهي ألواح التوراة فيها تبيان لكل شيء يعنى مما يحتاج إليها فى دينه من الأحكام وتبيين الحلال والحرام ،فالمعلوم أن موسىٰ عليه السلام خص بإعطاء ألواح التوراة ،وأما اصطفاء اللّٰه لموسىٰ عليه السلام برسالته وبكلامه ،فالمعلوم أن الأنبياء كثيرة ما عدا موسىٰ عليه السلام أيضًا ، وليست الرسالة من خصوصية موسىٰ عليه السلام، بل هناك رسل كثيرة ، ومنها سيدنا آدم عليه السلام ، لكن لم يذكر سيدنا آدم عليه السلام الرسالة فقط، بل ذكر الكلام أيضًا ،فرسالة موسىٰ عليه السلام لها مزية أنهٗ خص بكلام اللّٰه تعالىٰ مباشرة ، ففى هٰذا رسالة موسىٰ عليه السلام لها مزية ،ولو تسأل هل نبينا صلى اللّٰه عليه وسلم خص بسماع كلام اللّٰه بعينه؟

فجوابه أنهٗ فيه قولان ،وفى أي حال مزية موسىٰ عليه السلام بسماع كلام اللّٰه بعينه ،هي فضيلة جزئية ،يعنى يمكن أن يكون لنبي من الأنبياء عليه السلام فضيلة فى شيء علىٰ نبينا صلى اللّٰه عليه وسلم وعلىٰ جملة الأنبياء عليهم السلام ، لكن هٰذه فضيلة جزئية خاصة بهٰذاالشيء ،فلا تنافى أن رسولنا صلى اللّٰه عليه وسلم هو أفضل الأنبياء على الإطلاق ،فلهٗ فضيلة كلية على الأنبياء على الإطلاق ،فيعنى لو نرىٰ جميع الأشياء دون شيء خاص ،فتكون فضيلة مطلقة لنبينا عليه السلام. ثم هناك مزية أخرىٰ لرسالة موسىٰ عليه السلام علىٰ رسالة آدم عليه السلام ،وهي سيدنا آدم عليه السلام هبط على الأرض ،ولم يكن فيه بشر ،فكانت رسالته إلى زوجه وأولاده وإلى الجان الموجودين فى الأرض حينئذ ، لكن رسالة موسىٰ عليه السلام فى زمان فيه قد كثر نوع البشر وانتشر ،وفضت فيه كفر وشرك ،فأرسل إلىٰ فرعون وبنى إسرائيل ومن أرسل إليهم معهم لإصلاح هٰذه الأشياء ولدعوة التوحيد ورد الكفر والشر. فهٰذه كانت مزية لرسالة موسىٰ عليه السلام التى لم تكن لرسالة آدم عليه السلام ،فذكرآدم عليه السلام رسالة موسىٰ عليه السلام يدل علىٰ مزية موسىٰ عليه السلام فيها عليه ،و إن كانا كلاهما رسولان . ثم كذٰلك ذكر آدم عليه السلام كلام اللّٰه مع موسىٰ عليه السلام يدل علىٰ مزية لموسىٰ عليه السلام فيه التى لم يكن لآدم عليه السلام ،والمعلوم أن اللّٰه تعالىٰ كلم آدم عليه السلام ﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾(البقرة:٣٥) وغيرها من الآيات وعلمه أسماء كل شيء. ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾(البقرة:٣١) وفى الحديث أن آدم عليه السلام

"كان نبيا رسولا يكلمه الله قبيلا."، لكن مع ذلك آدم عليه السلام ذكر كلام الله لموسىٰ عليه السلام كأنهٗ فيه مزية لموسىٰ عليه السلام ،فعلىٰ هٰذا أن الله عزوجل كلم موسىٰ عليه السلام بكلامه الأزلي ،فهو خص بهٖ ويمكن أنه كلم آدم عليه السلام بخلق الأصوات الدالة علىٰ كلامه النفسي كما هو مذهب الشيخ الماتريدي رحمه الله تعالىٰ ،فعلىٰ هٰذا قد اجتمعا المذهبان أنهٗ أن الله تعالىٰ خص بعض عباده لسماع كلامه بعينهٖ ،ومنهم موسىٰ عليه السلام بالقطع ،وقديكون فيه نبينا صلى الله عليه وسلم وجبريل عليه السلام علىٰ قولين ،وكلّم بعض عباده مباشرة ، لكن بطريق خلق الأصوات الدالة علىٰ كلامه الأزلي ،وقد يكون هٰذا هو الطريقة مع سيدنا آدم عليه السلام ،وفى الحديث "أنهٗ يكلمه الله قبيلا." ومع هٰذا ذكر سيدنا آدم عليه السلام كلام الله لموسىٰ عليه السلام كأنهٗ لموسىٰ عليه السلام فيه مزية علىٰ سيدنا وأبينا آدم عليه السلام.

وثم هناك طرائق أخرىٰ ،وفى القرآن ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ (الشورىٰ: ٥١) ثم هناك بعض الأحاديث التى تدل علىٰ كلام الله تعالىٰ بخلق الأصوات الذى هو مذهب الشيخ الماتريدي رحمه الله تعالىٰ. ومنها ما ذكر البخاري فى صحيحهٖ تعليقا "ويذكر عن جابر بن عبدالله عن عبدالله بن أنيس قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (يحشر الله العباد ،فيناديهم بصوت يسمعه [1] من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك، أنا الديان" وقد تُكلّم فى ثبوت هٰذا الحديث ،وهٰذا الحديث ليس فى متن البخاري، بل ذكره تعليقا. والحديث الآخر ذكره البخاري "حدثنا عمر بن حفص بن غياث حدثنا أبى حدثنا الأعمش حدثنا أبوصالح عن أبى سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم يقول الله : يآدم! فيقول: لبيك وسعديك ، فينادى بصوت، إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار ." (صحيح البخاري، ح:٧٤٨٣) وقد تكلم فى سنده أيضًا الشيخ الإمام البيهقي رحمه الله تعالىٰ؛ لأن هٰذا الحديث من سند آخر ذكره البخاري فى صحيحه ،وليس فيه "فينادى بصوت" وهو "حدثنا إسحاق بن نصر حدثنا أبو أسامة عن الأعمش حدثنا أبو صالح عن أبى سعيد الخدري رضي الله تعالىٰ عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يقول الله تعالىٰ يا آدم! فيقول: لبيك وسعديك، والخير فى يديك ،فيقول: أخرج بعث النار." (صحيح البخاري، ح:٣٣٤٨) وكذٰلك من طريق "حدثنى يوسف بن موسىٰ، حدثنا جرير عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد الخدري رضي الله عنه "(، ح: ٦٥٣٠) ليس فيه "فينادى بصوت" فجاءت هٰذه الجملة

---

(١) والمعلوم أن البعد والقرب لا يجوز فى حق الله تعالىٰ؛ لأنهٗ ليس مكانياً ولا زمانياً ،فالممكن أن البعد والقرب المراد هو من مكان مخصوص ،وليس من الله عزوجل- والله أعلم-

فى طريق عمر بن حفص بن غياث عن أبيه ،وقد كلّم الإمام البيهقي فى كتابه العزيز "الأسماء والصفات" علىٰ حفص بن غياث ،وهٰذا ممكن؛ لأن ليس كل واحد من الرواة فى البخاري قوي؛ لأن البخاري يذكر حديثا من السند المتكلم فيه ،لو نفس الحديث قد ثبت بسند صحيح لمزيد التقوية ،وهنا هٰذا الحديث ثابت صحيح بسندين آخرين ،فيمكن ذكر هٰذا الحديث بهٰذا السند المتكلم فيه للتقوية ، لكن علىٰ ثبوت كلي الحديثين مع ذكر الصوت يكون دليلا لمذهب الماتريدي رحمه الله تعالىٰ ،فيكون نداء الله بخلق الأصوات الدالة علىٰ كلامه النفسي. و إن تسأل لما ذا لاتثبتون صوتا صفة لله تعالىٰ؟

قلنا بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز: إنهٗ يحتاج إلى الدليل القطعي ،وهٰذا مفقود ،وهٰذه الأحاديث هي أخبار آحاد أولا ،وثم مع ذٰلك متكلم فيها ،وثم مع ذٰلك ليست قطعية الدلالة على الصوت صفة لله تعالىٰ ؛لأنها تقول "ينادى بصوت" "يناديهم بصوت" ،ولا تقول "بصوته" فلهٰذا دلالتها أيضًا غير صريحة ؛لأنها لاينسبه إلى الله . لو كان هناك دليل قطعي يعنى من القرآن والحديث المتواتر مع الدلالة القطعية على الصوت صفة لله تعالىٰ ،فنحن نثبته لله تعالىٰ بلاشك ولا تردد ،ونثبته كما يليق بشانه؛ لأنهٗ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهٖ شَيْءٌ﴾ (الشورىٰ: ١١) فكما ليس كلامه ككلامنا ،وكذٰلك لايكون صوته كصوتنا ،فلايكون عرضا حادثا كصوتنا، بل يكون صفة أزلية ،فصوت لا كصوت المخلوقين ، لكن لانجد الدليل القطعي، بل لا نجد الدليل الظني صحيح صريح علىٰ ذٰلك ،والصوت ليس من الصفات التى يكون الدليل العقلي القطعي دالاً علىٰ كونه صفة لله تعالىٰ؛ لأنهٗ بطبيعته حادث ،والكلام الذى هو من صفات الكمال لايكون منوطا عليه كما أثبتنا أن الكلام هو ما يكون قائما بالمتكلم ،وأيضًا ما يكون المخاطب بهٖ إلى المخاطب إليه ،والكلام القائم بالمتكلم لايكون صوتا؛ لأنهٗ كلام النفس ،والكلام المخاطب بهٖ لايلزم الصوت؛ لأنهٗ يشتمل على الطرائق التى ذكرنا ،فلا يمكن أن نثبت صوتا طريقة من هٰذه الطرائق إلا بدليل ،وهو لايوجد كما ذكرنا أنهٗ لايوجد الدليل القطعي ،ولايوجد الدليل الظني الصحيح الصريح مع الدلالة الواضحة عليه. ولايوجد الدليل فى العقل لإثباته ،فلانثبته لله تعالىٰ ،وكما ذكرنا لوهناك عليه دليل قطعي ثبوتا ودلالة لنثبته لله تعالىٰ كما يليق بشانهٗ صفة أزلية ،وليس عرضا حادثا؛ لأن نحن أهل السنة والجماعة لانتبع إلا القرآن والسنة والجماعة ،يعنى ما عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابهٗ رضي الله تعالىٰ عنهم ، لكن لايوجد دليل صحيح صريح واضح ثابت ،فلايمكننا أن نثبت لله صفة بدون دليل ثابت ،فلا نثبته لله تعالىٰ. ، لكن مع ذٰلك هٰذان الحديثان لاينزلان عن أن يكونا تقوية لمذهب الشيخ الماتريدي رحمه الله ،فيكون صوتا مخلوقا دالا على الكلام الأزلي الذى هو صفة لله تعالىٰ ،و يمكن كان سيدنا جبريل

عليه السلام يسمع صوتا مخلوقا لعبارة القرآن من عند الله تعالى فى السماء دالا على الكلام النفسي الأزلي ومع ذلك ينظر فى بيت العزة فى القرآن كما ذكرنا سابقا أن القرآن من اللوح المحفوظ نزل إلى السماء الدنيا فى بيت العزة ،وثم نجما نجما إلى نبينا صلى الله عليه وسلم ،فسمع جبريل أصوات مخلوقة دالة على الكلام النفسي لعبارات القرآن فى السماء ،ومع ذلك ينظر فى القرآن المكتوب فى بيت العزة ،ويعرف مكان هذه العبارات فى القرآن ،يعنى فى أي سورة وأي مكان ،و هذه العبارات تحتوى على سبعة أحرف؛ لأن القرآن أنزل على سبعة أحرف كما فى الحديث الصحيح ،وثم ينزل على نبينا صلى الله عليه وسلم مع القرآن، فهذه العبارات مخلوقة ؛لأنها منظمة مرتبة ، لكن قائمة بالله تعالى عبارة ومعنى صفة أزلية لله تعالى بدون التنظيم والترتيب ،وأما سيدنا موسى عليه السلام ،فكما ذكرنا سمع كلام الله النفسي مشتملا على المعنى والعبارة ، لكن بلا حرف يعنى بلا صوت ،ولهذا قيل فى التفسير أنهُ تلقى وسمع كلام الله بجميع جسده ،وليس فقط بأذانه؛ لأنهُ لم يكن سماعا لصوت حادث، بل كان سماعا للكلام الأزلي النفسي ،وهو ما وراءنا وهو بلا كيفية؛ لأنهُ لو نكيف ،نشبهه بشيء ،ولا يجوز هذا فى حق الله قطعا وبتاتا ؛لأنهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١١) ثم بعد سماع كلام الله الأزلي لو كان موسى عليه السلام يفكر عن كلام الله الذى سمع أو قرأه ،فكل هذا مخلوق؛ لأن هذا الكلام هو صفة لله قائما به ، لكن عند ما صار فى صدر موسى عليه السلام فلايكون فى صدر موسى عليه السلام إلا مخلوق ،وهذا ظاهر ،وقد ذكرنا هذا سابقا ،وكذلك ما يقرأ؛ لأن الآن صار الكلام اللفظي المخلوق [1] فيكون محفوظا فى قلوب المخلوق ، مقروء بألسنتهم ،وغيرها من الأشياء ، لكن دالا على ما هو قائم بالله تعالى أى كلام النفس عبارة ومعنى بدون صفات الحدوث . والحمد لله ،والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

فحاصل الكلام كلام الله تعالى صفة لهُ قائمة به ،وهو الكلام النفسي مشتمل على العبارة والمعنى ، لكن بدون سمات الحدوث من الحروف والأصوات والتنظيم والترتيب ،وهذا غير مخلوق ،ثم الله سبحانهُ وتعالى أنزل العبارات المنظمة المرتبة على الأنبياء عليهم الصلوات والسلام دالة على الكلام النفسي الأزلي ،فهذه العبارات المنظمة هي مخلوقة ،فتكون محفوظة فى قلوب الناس ومكتوبة فى الأوراق ومقروئة بالألسنة وغيرها من الأشياء ،وهي كلها دالة على الكلام النفسي الأزلي المشتمل على العبارة والمعنى بدون سمات الحدوث وبدون أن يكون حالا فى قلوب الناس والأوراق وألسنة المخلوق وغيرها من الأشياء؛ لأنهُ صفة أزلية أبدية قائمة بالله تعالى غير معتزلة عنها غير مخلوقة غير حادثة. والحمد لله ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

---

(١) المنظم المرتب

الحمد لله قد بينا بيانا شافيا كافيا إن شاء الله العزيز عن كلام الله تعالى. والشيخ بقوله أن القرآن كلام الله منه بدا بلا كيفية قولا أشار إلى الكلام النفسي الأزلي ،وكذلك بقوله "ليس بمخلوق ككلام البرية" وأشار إلى الكلام اللفظي بقوله "وأنزلهُ على رسوله وحيا" وثم كما ذكرنا الكلام النفسي والكلام اللفظي كلاهما كلام الله تعالى ،أما الأول منهما فهو صفة قديمة لهُ تعالى، وأما الثاني منهما فهو بالعبارات المنزلة على رسول الله صلى الله عليه وسلم من عند الله تعالى فهو ليس غير مخلوق ، لكن هو كلام الله؛ لأن الله نزلهُ على رسوله صلى الله عليه وسلم دالا على الكلام النفسي لهُ ،ثم الشيخ كفّر من قال للكلام النفسي ،وللكلام اللفظي لله تعالى أنهُ ليس كلام الله تعالى.

الحمد لله رب العالمين قد ذكرنا شرحا كافيا وافيا لمتن الشيخ الطحاوي في الأوراق السابقة عن كلام الله تعالى ، لكن قبل أن ننتقل إلى الموضوع الآخر لا بد من بيان ورد بليغ إن شاء الله عزوجل عن مذهب المبتدعة عن كلام الله تعالى ،التي قد ظهرت في هذا الزمان ،وتزعم أنها على طريقة السلف الصالح ،وفي الحقيقة أنها بعيد منها بعد المشرق من المغرب ،وهي الفرقة التي تسمي نفسها "السلفية" وقد ذكرنا عنهم كثيرا ،ورددنا عليهم في الأوراق السابقة ،وهم في الحقيقة على المذهب لابن تيمية الذى عنده ضلالات كثيرة ،وقد اعتزل عن إجماع أهل الحق في عدة من المسائل ،ومنها كلام الله تعالى ،فمذهب ابن تيمية في كلام الله تعالى أنهُ حادث ،وهذا على منهجه لأنهُ يعتقد أن الحوادث تقوم بذات الله تعالى ،وتعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا. وقد رددنا على مذهبه ردا بليغا في الأوراق السابقة ،والحمد لله. ثم مذهبه أن الله يتكلم بصوت حادث ،وتعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا. وثم مع حدوث الكلام والصوت يزعم ابن تيمية أن الكلام غير مخلوق ،وهذا من المناقضات البديهية ،ولايقبل العاقل هذه السفاهة والسخافة ،ثم عجبا على عجب لابن تيمية؛ لأنهُ يزعم أن الكلام في عينه حادث ، لكن نوعه أزلي ،وهذا على مذهبه السخيف السفيه الخبيث أن الحوادث لا أول لها ،وهي تتسلسل إلى مالا نهاية لها في الماضي ،وهذا المذهب في غاية البطلان ،وقد ذكرنا ردهُ سابقا ،فعنده كل الكلام الحادث(لله) مسبوق بالكلام الحادث إلى ما لانهاية لهُ في الماضي ،وهذا مذهب مستحيل ، لكن ابن تيمية يقول به ،وهذا يدل إما على غاية سفاهته وجهالته أو عناده ومكابرته ،وابن تيمية يشرح مذهبه في هذه الجملة أن الله عزوجل لم يزل يتكلم متى شاء ،فالقرآن والتوراة والإنجيل والزبور وجميع الصحف والكتب من عند الله تعالى كلها حادثة عند ابن تيمية ،وهو يقول إن الله عزوجل تكلم بها في زمان ما بكلام حادث وصوت حادث ،فيعني بدأها وأنهاها ،وهذا الكلام قام بذات الله تعالى عند ما تكلم به ،وعند ما انتهى منه انتهى قيامه بذات الله تعالى ، لكن مع ذلك الابتداء والانتهاء هذا الكلام غير مخلوق ،وهذا في غاية الركاكة ،ثم كلام

اللّٰه عنده يتعلق بالإرادة ،ولهٰذا قال "متى شاء" وعجبا علىٰ عجب أن عنده إرادة اللّٰه حادثة ولا أزلية، وكذٰلك كلام اللّٰه ،فعنده تعلق الحادث على الحادث ،ومع ذٰلک نوع الكلام أزلي؛ لأنهٗ يعتقد أن الحوادث لا أول لها ،وقد ذكرنا مذهبه هٰذا. وعجبا علىٰ عجب أن هٰذا المذهب مع بطلانه نقلا وعقلا قد تبعه فيه ابن أبى العز الذى كتب شرح العقيدة الطحاوية ،وقد ذكرنا عنه ،وهو ملأ شرحهٗ ببدعات ابن تيمية ،وقلّده صما وبكما وعميا ،وهٰذه الفرقة فى زماننا التى تسمى نفسها "السلفية" يتبعون ابن تيمية تقليدا عميا ،وقد تبعوه فى مسئلة كلام اللّٰه أيضًا . وهٰذا المذهب الذى لاعلاقة لهٗ بمذهب السلف الصالح، بل مستعار من المعتزلة والكرامية ،فهٰذه الفرقة يسفّهون عوام الناس ويعرضون عليهم هٰذا المذهب ،ويقولون إنهٗ مذهب أهل السنة ،وعوام الناس لايعرفون الحق من الباطل فى هٰذه المسائل ،فقد يقبلون منهم ،وفى الحقيقة هٰذا المذهب ليس مذهب أهل السنة، بل مذهب أهل البدعة ومذهب سفيه قبيح ،وهٰذا المذهب لايحتاج الردّ عند من فهم علم الكلام؛ لأنهٗ يعرف قباحة مذهب ابن تيمية فى هٰذا المجال وسفاهته وسخافته وركاكته وبطلانه ، لكن مع ذٰلک الآن نذكر ردا بليغا إن شاء اللّٰه العزيز علىٰ هٰذا المذهب ،حتىٰ تكون حجة بالغة نقلا وعقلا.

١) قد ذكرنا من قبل أن الحوادث لاتقوم باللّٰه تعالىٰ بالدلائل ،ولاحاجة إلى إعادته ،فإذا لاتقوم الحوادث بذات اللّٰه تعالىٰ ،فلايكون كلامه حادثا ،ولايتصف بصوت حادث.

٢) قد ذكرنا من قبل أن الحوادث لابد لها من البداية ومذهبه [1] أن الحوادث لا أول لها مذهب باطل بالكلّيّة ،فلايكون كلاما حادثا فى العين وأزليا فى النوع؛ لأنهٗ لو كان كلاما حادثا فيكون جميع أنواعه أيضًا حادثا؛ لأن الحوادث لا بدلها من بداية ،فتكون البداية للكلام الحادث ،فيكون حادثا فى جميع أنواعه ،فإذا كانت جميع أنواعه حادثة ،فهٰذا يعنى أن اللّٰه لم يكن متكلما فى الأزل ،ولم يكن متصفا بصفة الكلام فى الأزل ،وهٰذا كفر؛ لأن اللّٰه لو لم يكن متصفا بصفة الكلام فى الأزل ،فهٰذا يؤدى إلى أن يكون متصفا بالخرس أو السكوت فى الأزل ،والأزلي لايقبل الفناء؛ لأن الأزلي لاتقوم به الحوادث كما ذكرنا ،والفناء على الباقى من الحدوث ،والحدوث لايطرأ على الأزلي ،فلا يطرأ الفناء على الأزلي ،فيكون الأزلي أبديا بالضرورة ،فإذا كان السكوت أو الخرس أزلي ،فيكون أبديا بالضرورة ،وهٰذا يؤدى إلى إبطال صفة الكلام بالكلية ،وهٰذا كفر بواح. ثم لو كان اللّٰه لم يكن متصفا بصفة الكلام فى الأزل ،فيكون ناقصا فى الأزل ،ووصف اللّٰه بالنقص كفر. ثم لو كان اللّٰه لم يكن متصفا بصفة الكلام فى الأزل ،والمعلوم أن القرآن وغيره من الكتب المنزلة كلها كلام اللّٰه تعالىٰ فلايكون أزليا لو أن اللّٰه لم يكن متصفا بالكلام فى الأزل ،فيكون مخلوقا؛ لأنهٗ ماليس أزليا

(١) يعنى مذهب ابن تيمية .

فيكون مخلوقا؛ لأنهٗ يوجد بإيجاد اللّٰه بعد أن لم يكن ،وهٰذا معنى المخلوق بعينهٖ ،فعلٰى هٰذا يكون كلام اللّٰه مخلوقاً ،وليس صفة أزلية ،وهٰذا مذهب المعتزلة بعينهٖ ،وليس مذهب أهل السنة والجماعة ،وقد كفروا السلف الصالح المعتزلة لأجل هٰذا المذهب مع غيره من الأشياء.

٣) لو كلام اللّٰه تعالٰى يتعلق بإرادة اللّٰه تعالٰى ،وقال اللّٰه تعالٰى فى القرآن: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْـًٔا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس:٨٢) فعلٰى هٰذا إذا أراد اللّٰه شيئًا ،فيقول لهٗ "كن" الذى كلام اللّٰه وكلام اللّٰه عند ابن تيمية تحت إرادة اللّٰه أيضًا ،فعلٰى هٰذا، الكلمة "كن" تحت إرادة اللّٰه ،وإذا أراد اللّٰه شيئًا فيقول لهٗ "كن" ،فعلٰى هٰذا ،الكلمة "كن" تكون تحت كلمة "كن" [1] وثم هٰذا تحت الكلمة "كن" الأخرىٰ ،وهلم جرا تتسلسل إلى ما لانهاية لها ،وهٰذا يؤدى إلى عدم وجود كلمة "كن" بالكلية ،وكذٰلك جميع كلام اللّٰه إذا يتعلق بإرادة اللّٰه ،فيتعلق بالكلمة "كن" ،والكلمة "كن" يتعلق بالكلمة "كن" الأخرى. وهلم جرا تتسلسل إلى ما لانهاية لها ،وعلٰى هٰذا لايكون وجود لكلام اللّٰه ألبتة.

(٣) ثم إرادة اللّٰه تعالٰى أيضًا حادثة عند ابن تيمية ،وهٰذا فى غاية البطلان والسفاهة؛ لأنهٗ لو كانت إرادة اللّٰه حادثة لاحتاجت إلى الإرادة الأخرى بنفسها؛ لأن كل حادث ممكن ،وليس واجبًا وممكن قد يوجد وقد لايوجد علٰى حسب إرادة اللّٰه بوجوده أو بعدم وجوده؛ لأن الممكن فى نفسه يقبل الوجود والعدم ،والأصل فيه عدم ويحتاج إلى المخصص يخصصه بالوجود أو ببقاء عدمه ،ولهٰذا يحتاج إلى إرادة اللّٰه تعالٰى ،فإذا كان إرادة اللّٰه حادثة لاحتاجت إلى الإرادة الأخرى لوجود نفسها ،وهٰذه الإرادة الثانية تحتاج إلى الإرادة الثالثة لوجودها ،وهلم جرا تتسلسل إلى ما لانهاية لها ،هٰذا يؤدى إلى عدم وجود الإرادة ألبتة ،ثم كل حادث يوجد بإيجاد اللّٰه إياه فلو كان إرادة اللّٰه حادثة لكانت مخلوقة؛ لأنها توجد بإيجاد اللّٰه إياها ،وهٰذا بعينهٖ مخلوق ،والمخلوق لايكون صفة للّٰه تعالٰى ،فلا يكون اللّٰه مريدا ،وعلٰى هٰذا لايوجد أي ممكن لأنهٗ يحتاج إلى إرادة اللّٰه لوجوده ،وثم لو كان إرادة اللّٰه حادثة واحتاجت إلى إرادة أخرىٰ لوجودها بنفسها ،واللّٰه عزوجل يقول "كن" إذا أراد شيئًا ،فعلٰى هٰذا إرادة اللّٰه تتعلق بكلمة "كن" ،فعلٰى هٰذا الإرادة تتعلق بالكلام لوجودها ،والكلام يتعلق بالإرادة [2] لوجوده، وهٰذا يلزم الدور ،فلايكون وجوداً لأي واحد منهما.

ثم عقيدة ابن تيمية فى إرادة اللّٰه أنها حادثة تخالف القرآن والحديث . وفى الأحاديث الصحيحة أن أعمال الناس شيء قد قضى عليهم ومضى فيهم وجرت بها المقادير. وكذٰلك فى

---

(١) لأن الكلمة "كن" أيضًا تحت إرادة اللّٰه عند ابن تيمية.

(٢) لأن كلام اللّٰه تحت إرادة اللّٰه عند ابن تيمية.

القرآن ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (القمر:٤٩) فإذا ثبت بالقرآن والحديث أن الأشياء قد قضى عليها وليس معنى القضاء إلا إرادة الله ،ويدل عليه أنهٗ فى هٰذه الآية ،قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس:٨٢) وفى آية أخرىٰ قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (البقرة:١١٧) فقال "قضى" فى آية ،وقال تعالىٰ "أراد" فى آية ،فثبت أن القضاء هو الإرادة ،وإذا ثبت بالحديث أن القضاء قد قضى ،فثبت أن الإرادة قد أريد ،وأيضًا هٰذهٖ صفات الله ، وصفات اللّٰه لاتتعلق بزمان، بل تكون أزلية وإلا تكون حادثة مخلوقة ،ولاتكون صفة لله تعالىٰ، بل تحتاج نفسها إلى إرادة الله وخلقه لوجودها ،فيكون معنى الآية أن الله أراد فى الأزل جميع الأشياء ، وقال لها "كن" أيضًا فى الأزل؛ لأن الإرادة والكلام لله تعالىٰ أزليان كجميع صفاتهٖ ،وأما الأشياء فهي توجد فى زمان الذى أراد الله لها أن توجدفيها ،وقد مر الكلام فيه والحمد لله.

(٥) ابن تيمية وأتباعه يقولون إن الكلام لايكون إلا بصوت ،وقد ذكرنا بطلان هٰذا فى بياننا عن كلام اللّٰه تعالىٰ ،ولا حاجة إلى إعادته؛ لأننا قدبيّنا أن الكلام لاينوط على الصوت بالدلائل ،وقد سبق. الآن نتكلم عن استدلال ابن تيمية ،فاستدلوا بالحديث أن الرسول عليه السلام قال: "إن هٰذه الصلوٰة لايصلح فيها شيء من كلام الناس ،إنما هو التسبيح والتكبير وقراء ة القرآن." (صحيح مسلم، ح:٥٣٧) فقالوا: إن المعلوم أن الكلام فى النفس لايقطع الصلوٰة، بل الكلام الذى يتلفظ بالصوت ،فثبت أن الكلام الذى هو يتلفظ بالصوت. وهٰذا الاستدلال فى غاية العجب منهم ،ويدل علىٰ جهالتهم وسفاهتهم أو علىٰ مكابرتهم وعنادهم ،ونحن قد ذكرنا دلائلاً كثيرة من القرآن والحديث واللغة وكلام الصحابة رضي الله عنهم فى تعريف الكلام ،وأنهٗ يكون صفة قائمة بنفس المتكلم ،فلاحاجة إلى إعادتها . وأما جواب هٰذا الاستدلال لأتباع ابن تيمية ،فأولا الحديث يتكلم عن كلام الناس ،وكلام اللّٰه لايشبه كلام الناس؛ لأنهٗ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورىٰ:١١) فيكون الحديث استدلالا لنا ولاعلينا ،ويكون الحديث استدلالا عليهم ولالهم ،ثم الحديث يقول: "لا يصلح فى الصلوٰة شيء من كلام الناس." (صحيح مسلم، ح:٥٣٧) وهٰذا يشمل كلام النفس أيضًا؛ لأن الشغل بحديث النفس فى الصلوٰة للأمور لا تتعلق بالصلوٰة مكروه ،فلا يصلح للصلوة ،نعم هو غير مفسد ، لكن فيه كراهة والجملة "لايصلح" يشمل مفسدا ومكروها غير مفسد؛ لأن الكلمة الصلاح يشمل كل شيء مناسب ،وينافى كل شيء غير مناسب فينافى الكراهة أيضًا ،و إن قيل هٰذا الكلام من النبي صلى الله عليه وسلم صدر لصحابي رضي الله تعالىٰ عنه الذى تكلم فى الصلوٰة بالصوت ، قلنا نعم ، لكن مع هٰذا العبرة لعموم اللفظ لا لخصوصية السبب ،والنبي عليه السلام قد أوتى جوامع الكلم ،فحديثه كلام شامل للمعانى ،فلاينافى السبب أن يكون معنى الحديث شاملا لكلام الناس الذى هو

مفسد للصلوة ،وكلام الناس الذى هو مكروه ، لكن غير مفسد ،وهو كلام النفس ،وأيضًا يدل عليه الحديث الذى ذكرنا ،وهو "من توضأ نحو وضوئى هذا ،ثم صلى ركعتين لايحدث فيها نفسه غفرله ما تقدم من ذنبه." (صحيح البخاري، ح:١٦٤) فهٰذا الحديث ينهي عن حديث النفس ،يعنى كلام النفس فى الصلوٰة ويدل علىٰ كراهته؛ لأنهٗ يمنع أن يكون الصلوٰة كاملا علىٰ وجه الكمال الذى تأتى بهٰذه البشارة العظيمة فى الحديث. وهٰذا من دلائلنا عن كلام النفس ،وقد مر سابقا.

فحاصل الكلام أن استدلال ابن تيمية وأتباعه من هذا الحديث فى غاية الفساد ،وقد بيّنا فساد هذا الاستدلال ،ثم لو نسلم أن كلام الناس فى الحديث معناه كلام بالصوت ،فهٰذا أيضًا لاينافى كلام النفس الذى ثابت بدلائل كثيرة من القرآن والحديث واللغة والجماعة، بل يكون هذا الحديث ناهيا لهٰذا الصحابي رضي اللّٰه تعالىٰ عنه الذى تكلم فى الصلوٰة بالصوت ،وأيضًا فى الغالب كلام الناس فيما بينهم يكون بالصوت ،فالحديث يتكلم عن كلام الناس الذى هو الغالب فيما بينهم ،يعنى بالصوت ،والمعلوم أن رد السلام بالإشارة لايفسد الصلوٰة ،وفى الحديث أخرجه أبو داؤد أن النبي عليه الصلوات والسلام كان يشير فى الصلوٰة ،والإشارة من الكلام ،وفى القرآن عن زكريا عليه السلام ﴿أَن لَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ (آل عمران:٤١) فيكون الرمز من نوع الكلام ،وقد مر سابقا ، فالإشارة هي من كلام الناس ، لكن لا تفسد الصلوٰة ،فلو نسلم أن الحديث يتكلم عن كلام بالصوت فى الصلوٰة ،فيكون ذاكراً لنوع الكلام المعين ،وهو الكلام بالصوت ،ولاينافى نوع الكلام الآخر ،فلايكون منافيا لكلام النفس ،وكيف؟ ونحن قد أثبتنا بالدلائل القاطعة كلام النفس ،وأنواع كلام اللفظ ،فاستدلال ابن تيمية وأتباعه استدلال باطل، بل عاند ومكابر.

٢) وأيضًا ابن تيمية وأتباعه يستدلون بروايات التي ذكرنا من البخاري ،وهي "ويذكر عن جابر بن عبداللّٰه عن عبداللّٰه بن أنيس قال سمعت النبي صلى اللّٰه عليه وسلم يقول: "يحشراللّٰه العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك، أنا الديان ." (صحيح البخاري، ح:٧٤٨٠) وهٰذا الحديث ليس فى متن البخاري ، لكن ذكره تعليقا ،وقد تكلم الإمام البيهقي فى سنده ،وقد مر الكلام فيه ،ولا حاجة لإعادته ،وأيضًا هو غير صريح؛ لأنهٗ يقول "فيناديهم بصوت." لايقول "بصوته" ،فعلىٰ هذا يكون تقوية لمذهب الإمام الماتريدي رحمه اللّٰه تعالىٰ فى خلق الأصوات الدالة على الكلام النفسي ،ولايكون مستدلا لابن تيمية فى مذهبه فى ثبوت صفة الصوت الحادث للّٰه تعالىٰ ،وتعالىٰ اللّٰه عما يقول الظالمون علوا كبير. وقد مر الكلام فيه.

والحديث الثانى "يقول اللّٰه ياآدم! فيقول لبيك وسعديك، فينادى بصوت، إن اللّٰه يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار ." (صحيح البخاري، ح:٧٤٨٣) وقد مر الكلام عن هذا

الحديث أيضًا ،وقد تكلم فى سنده الإمام البيهقي ،وهٰذا كلهٗ فى كتابه المشهور "الأسماء والصفات" وقد تكلمنا عن هٰذا الحديث تفصيلا ،ولاحاجة لإعادة ، لكن هنا نذكر أمرا لم نذكره بعد ،وهو هٰذا الحديث يقول "فينادى بصوت: إن الله يامرك." فعلٰى هٰذا المنادى يكون غير الله يعنى ملكا؛ لأنهٗ لو كان الله مناديا فى هٰذا النداء لكان قولا "أنا آمرك" بدلا عن " إن الله يأمرك" فعلٰى هٰذا يمكن أولا يقول الله عزوجل: "ياآدم! فيقول آدم لبيك وسعديك" وثم يناديه الملك بصوت: " إن الله يامرك " أو يمكن أن القائل من البداية هو الملك ،فعلٰى هٰذا معنى القول يقول الله يعنى بواسطة الملك ، وفى القرآن ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللّٰهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَّرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُوْلاً فَيُوْحِيَ بِإِذْنِهٖ مَا يَشَآءُ﴾ (الشورى: ٥١) فهٰذا القول فى الحديث يكون من النوع الثالث فى الآية يعنى بواسطة الرسول يعنى الملك ،فمعنى الحديث يكون يقول الله بواسطة الملك ،فيقول الملك بأمر الله يا آدم! إلى آخره. فعلٰى هٰذا يكون مناديا الملك أيضًا ،فلا استدلال لابن تيمية علٰى مذهبه الباطل. ويؤيد ما قلنا إن نفس الحديث من السندين الآخرين الذين ليسا فيه "فينادى بصوت" ليس فيه "إن الله يأمرك" أيضًا، بل هو هٰكذا "يقول الله : يا آدم! فيقول: لبيك وسعديك، والخير فى يديك ،قال: يقول: أخرج بعث النار" فهنا ليس فيه "إن الله يأمرك"، بل أمر مباشرة"أخرج بعث النار" فعلٰى هٰذا المنادى هو الملك ينادى بصوت؛ لأنهٗ لمّا ذكر المنادى بصوت ذكر "إن الله يأمرك" وإذا لم يذكر المنادى بصوت لم يذكر "إن الله يأمرك"، بل أمراً مباشرة "أخرج" فيعنى الله عزوجل أمر آدم عليه السلام بواسطة الملك ،وهو ينادى هٰذا الأمر بصوت ،فعلٰى هٰذا معنى الحديث بسند آخر "يقول: أخرج بعث النار" يعنى يقول بواسطة الملك ،والله أعلم.

(٧) ولو استدلوا بالحديث "إن الله يحدث من أمره ما يشاء، وإن مما أحدث أن لا تكلموا فى الصلٰوة." وهٰذا ليس دليلا لهم، بل لنا وعليهم؛ لأنهٗ قال: يحدث من أمره." والأمر كلام الله ،ولو كان حادثا لاحتاج إلى أمر آخر ،وهٰذا يتسلسل إلى مالانهاية لهٗ ،ويؤدى إلى عدم وجود الأمر ،وقد مر الكلام فيه ،فالله عزوجل يحدث من أمره الأزلي ما يشاء؛ لأنهٗ لو كان الأمر حادثا لكان الإحداث من الحادث والحادث نفسه لا بد من الإحداث ،وهٰذا يلزم الدور ،فلايكون وجود الأمر ،ولا لإحداث منه. والجملة الأخرى"و إن مما أحدث ألا تكلموا فى الصلٰوة" . يعنى هو بأمره الأزلي أحدث فيكم الطريقة أن لا تكلموا فى الصلٰوة ،وهٰذه الطريقة يعنى المذهب والعقيدة لعدم الكلام فى الصلٰوة ،والمذهب والعقيدة من أمر الله يجب القبول ،والقبول يكون من أفعال الإنسان القلبية ،ولا بد لأفعال الإنسان من أن تكون حادثة مخلوقة ،فهم كانوا علٰى عقيدة أخرى ،وهو إجازة الكلام فى الصلٰوة ،فالآن علٰى عقيدة حادثة جديدة أن لا كلام فى الصلٰوة.

(٨) ولو استدلوا بآية ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ (الطلاق: ١) فهٰذا يكون غاية المكابرة والعناد منهم؛ لأن الأمر فى هٰذه الآية ليس الأمر الذى هو "الحكم" فيكون الكلام الذى جمعه "أوامر"، بل الأمر هنا هو الأمر الذى يكون الواقعة أو الحادثة أو الحال "الذى جمعه "أمور" وقال جميع المفسرين [1] أن الأمر هنا "الرغبة فى الرجعة بعد الطلاق" وهٰذه الآية فى سورة الطلاق ،فالأمر هنا حال قلب الرجل الطالق أن يكون فيه الرغبة فى الرجوع بعد الطلاق ،وليس أمر اللّٰه الذى هو كلامه وصفته الأزلية ،والآية يقول "أمرا" لايقول "أمره" ولا استدلال فيه لابن تيمية وأتباعه ألبتة.

(٩) ولو استدلوا بآية ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأنبياء: ٢) ولا عجب أن المعتزلة يستدلون بهٰذه الآية علىٰ مذهبهم أن القرآن محدث مخلوق ،وليس صفة اللّٰه قائمة به تعالىٰ؛ لأن مذهب ابن تيمية فى كلام اللّٰه تعالىٰ فى الحقيقة مذهب مستعار من المعتزلة والكرامية. فالمعتزلة يقولون إن القرآن حادث مخلوق ولايقوم باللّٰه تعالىٰ ،وما ذكرنا سابقا من الدلائل القاطعة تكفى فى بطلان مذهبها ،والكرامية يقولون إن القرآن وجميع كلام اللّٰه حادث ، لٰكن غير مخلوق ويقوم باللّٰه تعالىٰ ،وهٰذا عين المذهب لابن تيمية ، لكن الكرامية لايقولون إن الحوادث لا أول لها ،فتتسلسل إلى ما لانهاية لها فى الماضى ،فلايقولون إن نوع الكلام قديم ، لكن مذهب ابن تيمية فيه قد ذكر سابقا ،ونحن ذكرنا الدلائل القاطعة علىٰ بطلان مذهب الكرامية وابن تيمية ،وقد ذكرنا الدلائل القاطعة فى بطلان مذهب أن الحوادث لا أول لها وتسلسلها فى الماضى إلى ما لانهاية ،وهٰذه تكفى فى بطلان مذهب ابن تيمية . الآن نذكر عن هٰذه الآية القرآنية أنهٗ لا استدلال لابن تيمية والمعتزلة والكرامية فيها أولا علىٰ طريقة الإلزام علىٰ ابن تيمية والكرامية أنهم يقولون إن القرآن حادث ، لكن الكرامية يجتنبون فى إطلاق المحدث على القرآن ،فعلىٰ هٰذا لايكون دليلا لهم وابن تيمية أيضًا كانهٗ يتحاشى فى إطلاق المحدث على القرآن؛ لأنهٗ يقول إن الحوادث فيها مخلوق التى لاتقوم باللّٰه تعالىٰ ،وفيها غير مخلوق التى تقوم باللّٰه تعالىٰ ،ويقول إن القرآن حادث غير مخلوق يقوم بذات اللّٰه تعالىٰ عند ما تكلم به بصوت حادث ،هٰذا هو مذهبه ،وهو فى غاية السفاهة والبطلان ،وكذٰلك تفريق الحوادث فى مخلوق وغير مخلوق فى غاية السخافة والفساد ،وقد مر الكلام فيه. فلو هٰذا صحيح أن ابن تيمية يتحاشى فى إطلاق المحدث على القرآن ،فعلىٰ هٰذا لايكون دليلا لهٗ أيضًا، بل لا بد لهٗ والكرامية من بيان هٰذه الآية. ثم جواب بعض أهل السنة والجماعة لابن تيمية والكرامية والمعتزلة أن معنى الآية أن تنزيل القرآن إلينا محدث ،وليس الذكر نفسه المحدث . وهٰذا ما قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه اللّٰه تعالىٰ كما رواه عنه الإمام البيهقي فى كتابه المشهور "الأسماء والصفات" وعجبا أن بعض الناس يظنون أن ابن تيمية حنبلي ،وأنت كما ترىٰ مذهب أحمد

(١) انظر تفسير القرطبي.

بن حنبل أن القرآن قديم أزلي كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ،وقد روى الإمام الأشعري رحمه اللّٰه تعالىٰ فى كتابه المشهور "الإبانة عن أصول الديانة" عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالىٰ أن اللّٰه لم يزل بالقرآن متكلما، يعنى هو كلامه الأزلي والأبدي ،ومذهب ابن تيمية على العكس أن القرآن حادث مع البداية والنهاية ،ولا أزلي ولا أبدي؛ لأن ابن تيمية هو ليس علىٰ مذهب الإمام أحمد بن حنبل، بل علىٰ مذهب نفسه ،وهٰذا معلوم من يعرف عقيدته وأصولهٗ وفروعه. فعلىٰ هٰذا القرآن نفسه غير محدث ، لكن تنزيلهٗ يعنى إتيان جبريل عليه السلام به إلى نبينا صلى الله عليه وسلم هو محدث ،وهٰذا لاشك فيه؛ لأنهٗ فعل جبريل عليه السلام ولايكون فعل المخلوق إلا المخلوق المحدث. ، لكن نقول لاحاجة قطعا وبتاتا إلى هٰذا التأويل، بل الآية علىٰ ظاهر معناها ،وهي مستدلة لنا ،وبيانه أن الآية تتكلم عن الكلام اللفظي [1] يعنى العبارات المنزلة من عند الله ،وهٰذه العبارات التى نزل به الروح الأمين لاشك محدثة مخلوقة ؛لأنها بالنظم المرتب المؤلف ،وهي الكلام اللفظي؛ لأن الآية تتكلم عما جاء إلى الكفار ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأنبياء:٢) وفى الآية الأخرىٰ ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ (الشعراء:٥) والمعلوم أنهٗ لم تأت الكفار صفة كلام اللّٰه بعينه ،وهٰذا لايكون حتىٰ عند ابن تيمية والكرامية والمعتزلة ،فلايقول أي واحد منهم أنهٗ كلام الله الذى هو صفته بعينه جاء إلى الكفار، بل المعلوم أنهٗ جاء إليهم هٰذه العبارات المنظومة المرتبة بلسان نبينا صلى الله عليه وسلم ،وهٰذا الكلام اللفظي وهو محدث مخلوق لاشك عندنا ،وحتىٰ عند ابن تيمية والكرامية والمعتزلة. وهٰذا كما فى الآية ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتّٰى يَسْمَعَ كَلَامَ اللّٰهِ﴾ (التوبة:٦) يعنى كلام الله اللفظي المقروء بالحروف والأصوات بلسان نبينا صلى الله عليه وسلم ،وهو نفسه مخلوق محدث ، لٰكن دال علىٰ الكلام النفسي لله تعالىٰ الذى ليس بمخلوق ولا حادث ولا محدث، بل أزلي أبدي صفة للّٰه تعالىٰ. فعلىٰ هٰذا "الذكر" كلام الله اللفظي يعنى العبارات المرتبة المنزلة من عند الله التى هي دالة علىٰ كلام الله النفسي ،فثبت بهٰذا البيان أنهٗ لا دليل لابن تيمية وأتباعه والكرامية فى نفيهم كلام الله الأزلي ،وهو الكلام النفسي ،ولا دليل لهم فى هٰذه الآية فى إثبات حدوث كلام الله الذى هو صفته، وتعالىٰ الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا ،وكيف؟ ومعلوم أن صفة الله لاتكون حادثة، بل تكون أزلية أبدية بلا بداية بلا نهاية ،وابن تيمية مع اعتقاده أن القرآن صفة الله يقول إنهٗ قام بذات الله تعالىٰ حادثا ،فابتدأ وانتهى ،وهٰذه عقيدة باطلة فاسدة بدعة قبيحة فى أصول الدين ،وكذٰلك لا دليل لمعتزلة فى هٰذه الآية لنفيهم صفة الكلام ،ولقولهم أن كلام الله مخلوق؛ لأن هٰذه الآية تتكلم عن

(١) ونفس الكلام نحن نقول عن القول لو صح نسبته إلى ابن مسعود رضي الله تعالى عنه "ماخلق الله من سماء ولاأرض أعظم من آية الكرسي" أن المراد هي العبارات الدالة على الكلام النفسي.

كلام اللّٰه اللفظي ،وهو محدث مخلوق ،وليس صفة للّٰه تعالىٰ ،ولايتكلم عن حدوث كلام اللّٰه النفسي الذى هو صفته ،وهو ثابت بلا شك ،وقد ذكرنا ثبوته بالدلائل القاطعة سابقا ،وأيضًا أن المعلوم أن اللّٰه تعالىٰ يتكلم ،ولهُ كلام ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ (النساء: ١٦٣) ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى﴾ (الأعراف: ١٤٤) هٰذا يدل بالقطع علىٰ صفة الكلام القائمة باللّٰه تعالىٰ؛ لأنهُ لو لايقوم بذات اللّٰه فلايكون كلامه، بل يكون كلام من يقوم به ،والمعتزلة يقولون إن كلام اللّٰه تعالىٰ ما هو يخلق فى الإنسان أو الملك المخاطب إليه ،ولايقوم بذات اللّٰه تعالىٰ ، لكن علىٰ هٰذا هٰذا الكلام لايكون كلام اللّٰه، بل يكون كلام هٰذا الإنسان أو هٰذا الملك؛ لأنهُ يقوم بهما كما الإنسان عند ما يتكلم بكلام يقوم به وهو كلامه ، لكن لا محالة هو مخلوق اللّٰه تعالىٰ ،فكذٰلك ما يقولون المعتزلة يؤدى إلى نفي كلام اللّٰه تعالىٰ؛ لأن الكلام المخلوق فى الإنسان لايكون كلام اللّٰه، بل يكون كلام هٰذا الإنسان؛ لأنهُ صفة لهٰذا الإنسان كما لون الإنسان هو مخلوق اللّٰه فيه ،وليس لون اللّٰه –نعوذ باللّٰه– واللّٰه تعالىٰ وتقدس عن اللون، بل هو لون الإنسان؛ لأنهُ يقوم به ،فالأشياء المخلوقة فى ذات الإنسان من الكلام واللون وغيرها من الأشياء كلهم للّٰه تعالىٰ خلقا ، لكن منسوبة إلى الإنسان وصفا وصفة ،ونحن نعرف أن اللّٰه يتكلم بكلام ،فليس معناه إلا أن يكون كلاما قائما بذات اللّٰه تعالىٰ ،ونحن نعلم أن صفاتهُ لاتكون حادثة ،فعلىٰ هٰذا لايكون كلامه حادثا، بل أزليا أبديا ،ونحن نعرف أن العبارات المنظومة مع البداية والنهاية لاتكون أزلية أبدية ،فعلىٰ هٰذا هٰذه العبارات المنظومة المقروءة والمكتوبة بالحروف والأصوات ليست أزلية، بل حادثة مخلوقة ، لكن نحن نعرف أن هٰذه العبارات هي كلام اللّٰه تعالىٰ ،فعلىٰ هٰذا نحن علمنا أنهُ للّٰه تعالىٰ الكلام النفسي صفة لهُ أزلية أبدية قائمة به تعالىٰ ،ولهُ الكلام اللفظي وهي العبارات المنظومة ،وهي دالة علىٰ كلامه النفسي ، لٰكن فى نفسها مخلوقة حادثة ، لٰكن منزلة من عند اللّٰه تعالىٰ ،فهي كلام اللّٰه حقيقة كما الكلام النفسي كلام اللّٰه حقيقة ، لكن هٰذه العبارات المنظومة لاتقوم بذات اللّٰه تعالىٰ؛ لأنه لايقوم بذات اللّٰه تعالىٰ الحادث المخلوق. [1]

(١٠) ولو استدلوا أن اللّٰه تعالىٰ قال ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ (الأحزاب: ٤) أو مثلا أحاديث "إن اللّٰه يقول لأهل الجنة" وأمثالها الذى يخبر عن كلام اللّٰه تعالىٰ فى زمان معين ،فهٰذا أيضًا استدلال باطل لا دليل لهم فيها ،وأما الآية فهي فى الحقيقة دليل لنا ولا لهم؛ لأننا نقول: إن كلام

(١) ولا يقال: إن هٰذه العبارات المنظومة لاتقوم باللّٰه تعالىٰ، بل تقوم بالإنسان المتلفظ بها فتكون كلام هٰذا الإنسان وليست كلام اللّٰه ، لأن هٰذه العبارات من عند اللّٰه تعالىٰ وهي تقوم به أزليا ، لكن بدون الترتيب والتأليف والنظم التى هي سمات الحدوث والإنسان عندما يقرأها ،فهو يقرأها كلاماً للّٰه تعالىٰ ،فكما لو واحد منا يقرأ كتابا وقولا لو احد منا غيره ،فهذ لايعنى أن هٰذا الكتاب والقول كلام لهٰذا القارى، بل هو كلام للكاتب القائل ،وليس للقارى ،فكذٰلك لو نقرأ كلام اللّٰه تعالىٰ ،فهو كلامه وليس كلامنا. فافهم.

اللّٰه صفة لهٗ أزليا أبديا ،فهو يقول الحق أزليا أبديا ،فنحن نعتقد عين ما في الآية ،وأما هم فقالوا إن الكلام للّٰه حادث (ونعوذ باللّٰه) يبتدأ وينتهي ،ولا يبقى صفة للّٰه تعالٰى ،فعلٰى هٰذا اعتقاده علٰى هٰذه الآية يتعلق فقط عند ما يقع الكلام من عند اللّٰه تعالٰى؛ لأنهٗ حادث غير الباقي عندهم ،فلاتكون الآية عندهم على الاستمرار، بل فقط عند وقوع الكلام ،وعندنا كلام اللّٰه باقيا أزليا أبديا ،وهٰذا عقيدة أهل السنة ،فالآية عندنا على الاستمرار يعني هو دائما يقول الحق؛ لأن كلامه حق وهو قائم بهٖ أزليا أبديا ،فاعتقادنا على الآية أقوىٰ بأضعاف من عقيدتهم بالآية. وأما الحديث وأمثالهٗ ،فلانقول قطعا وبتاتا أن قول اللّٰه حادث [1] في زمان معين وكيف؟ والمعلوم أن اللّٰه تعالٰى تنزه وتقدس عن الزمان والمكان ،فلايحيط به الزمان ،والمعلوم أن صفاتهٗ تعالٰى قائمة بهم ،فلايحيط بها الزمان أيضًا . والمعلوم أنه مع صفاتهٖ قديم أزلي أبدي ،فالحديث يتكلم إما عن قول اللّٰه اللفظي ،وهو حادث في زمان ،ونحن قد ذكرنا عن كلام اللّٰه اللفظي ،فعلٰى هٰذا تكون أصوات مخلوقة في زمان معين الدالة علٰى كلام اللّٰه النفسي الذي هو صفته ،والمعلوم أن الكلام النفسي والكلام اللفظي كلاهما كلام اللّٰه تعالٰى مع اختلاف أحوالهما التي بينا سابقا ،وهٰذامذهب الشيخ الماتريدي رحمه اللّٰه تعالٰى ،ولو الحديث يتكلم عن قول اللّٰه الذي هو صفته يعني الكلام النفسي ،فعلٰى هٰذا معني الحديث يكون إسماع القول النفسي في زمان معين كما حصل بموسٰى عليه السلام في زمان معين وموسٰى عليه السلام سمع كلام اللّٰه النفسي في زمان معين ، لكن الكلام الذي سمعه أزلي أبدي ،فكذٰلك لو الحديث يريد سماع أهل الجنة كلام اللّٰه بعينهٖ كما حصل لموسٰى عليه السلام ،فعلٰى هٰذا يكون إسماع كلام اللّٰه إياهم من عند اللّٰه تعالٰى في زمان معين لا الكلام نفسه؛ لأنهٗ أزلي أبدي. ونحن ذكرنا دلائلاً كثيرة لكلام اللّٰه أنهٗ أزلي أبدي ،يعني الكلام النفسي ،ثم نسأل أتباع ابن تيمية ما هو المعنى للآية ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللّٰهُ الَّذِيْنَ صَدَقُوْا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِيْنَ﴾ (العنكبوت:٣) ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللّٰهُ الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنٰفِقِيْنَ﴾ (العنكبوت:١١) هل معنى هاتين الآيتين أن اللّٰه لم يعلم وسيعلم؟ ماذا تقول يا أتباع ابن تيمية؟! فالجواب معلوم أن اللّٰه تعالٰى قد علم من الأزل كل شيء على الإطلاق ،من شك هٰذا فقد كفر ،وهاتان الآيتان لاتعنيان قطعا وبتاتا أنهٗ لم يعلم وسوف يعلم، بل قد علم في الأزل ،ويعلم إلى الأبد ،فكذٰلك الأحاديث التي يقول "إن اللّٰه يقول لأهل الجنة" وأمثالهٗ لاتعني أنهٗ لم يقل فسيقول، بل هٰذا القول أزلي أبدي. وهو الكلام النفسي للّٰه تعالٰى ، لكن يكون مخاطبة لأهل الجنة في زمان معين ،والمخاطبة قدتكون الكلام اللفظي وهو حادث. ولم إلزاما نسأل أتباع ابن تيمية أن اللّٰه عزوجل يقول ﴿وَإِذْ قَالَ اللّٰهُ يَا عِيْسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُوْنِيْ وَأُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ

(١) يعني الذي هو صفته.

قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِيْ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِيْ بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِيْ نَفْسِيْ وَلَا أَعْلَمُ مَا فِيْ نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوْبِ﴾ (المائدة:١١٦) فهذه الآية تتكلم عن يوم القيامة كما هو في التفاسير ،وكما هو الظاهر عن سياق الكلام؛ لأن الله تعالىٰ يقول في سياق الكلام ﴿قَالَ اللّٰهُ هٰذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِيْنَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِيْنَ فِيْهَا أَبَداً﴾ (المائدة:١١٩) فهذه الآية وأمثالها تتكلم عن المستقبل ، لكن تقول ﴿وَإِذْ قَالَ اللّٰهُ﴾ بصيغة الماضي ،فهذا قد يكون دليلا لنا أن قول الله أزلي أبدي ،فقد عُبّرت بصيغة الماضي المخاطبة التي تكون في يوم القيامة حتىٰ قول عيسىٰ عليه السلام عبر بصيغة الماضي ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُوْنُ لِيْ﴾ (المائدة:١١٦) والمعلوم أن قول عيسىٰ عليه السلام لايكون إلا حادثا مخلوقا؛ لكن لأن وقوعهُ في المستقبل متحقق معلوم وقد أخبر الله تعالىٰ عن وقوعه ،فلا مجال لعدم وقوعه فلتحقق وقوعه في المستقبل عبر عن صيغة الماضي في الآية ، وهكذا الكلام في أمثالها ،فكأن هذه الحادثة قد وقعت ، لكن هذا تأويل وأتباع ابن تيمية ينكرون إنكارا شديدا على المتأولين ،لاسيما في مجال الأسماء والصفات لله تعالىٰ ،فعليهم جواب هذه الآية التي تعبر المخاطبة في المستقبل بصيغة الماضي ،كأنها وقعت في الماضي ،ولأنهُ مخالف لعقيدتهم أن كلام الله تعالىٰ حادث ونعوذ بالله. وفي الحقيقة أنهم يؤولون هذه الآية بنفس التأويل الذي ذكرنا ،وهو تعبير عن الماضي لتحقق وقوعه في المستقبل ،وهذا هو دأبهم كما ذكرنا أن منهجهم في غاية التناقض ،فهم يؤولون متى شاء وا و ينكرون على الآخرين على التأويل متى شاء وا ،فماذا تقول عنهم؟

هداهم الله تعالىٰ إلى صراط مستقيم الذي هدانا إليه وزادنا الله هدى وإيمانا به آمين. فكما هذه الآية عبرت المخاطبة في المستقبل بصيغة الماضي للقول ،وهذا لايعني أن المخاطبة في الماضي ،وكذلك الأحاديث مثلا "إن الله يقول لأهل الجنة" يتكلم عن المخاطبة في المستقبل بصيغة المضارع للقول ،وهذا لايعني أن القول [1] يكون حادثا في المستقبل ، ففي كلتي آيتين القول النفسي لله تعالىٰ أزلي أبدي ،وأما المخاطبة فهي في المستقبل فثابت من بياننا و كلامنا إن شاء الله العزيز أنهُ لادليل لابن تيمية وأتباعه لعقيدتهم الفاسدة في الآية أو الحديث الذي ذكرنا قبلا في بداية هذه النقطة.

(١١) وعجبا منهم هم يستدلون أيضًا بكلمة النداء لله تعالىٰ مثلا ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ (الأعراف:٢٢) ﴿فَلَمَّا أَتٰهَا نُوْدِيَ يٰمُوْسٰى﴾ (طٰه:١١) وهذا غاية الخداع منهم ؛لأنهم يقولون إن النداء هو رفع الصوت في اللغة ،فيدل "النداء" على الصوت وهذا في غاية الفساد؛ لأنهُ لاعلقة للنداء بالصوت فضلا عن رفع الصوت؛ لأن النداء في اللغة العربية يدل علىٰ استخراج الكلمات للنداء ،مثلاً

(١) يعني الذي هو الكلام النفسي.

"يا" "أيها" فيكون "يا آدم" نداء بغض النظر أن يكون بالصوت أو بدونه أو بخفضه أو برفعه حتى لو واحد كتبه في الورقة يكون نداء ،وهذا معلوم من عنده من العلم باللغة العربية ،فالنداء لاعلاقة له بالصوت في نفسه ،فقد يكون بالصوت ،وقد يكون بغيره ،وهذا لم تكن حاجة لذكرها لظاهر فساد هذا الاستدلال من أتباع ابن تيمية ، لكن قد ذكرناه ؛لأنهم يسفهون عوام الناس ويقولون إن النداء يدل على الصوت ،وهذا غاية الكذب منهم. ونحن نسألهم هل في القرآن ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (المائدة: ١) هل هذا نداء إلى جميع أهل الإيمان [1] فلا بد من نعم.

فأخبرنا كم من أهل الإيمان سمعوا صوتا من عند الله تعالى؟ فكيف تقولون إن النداء يدل على الصوت . والحق أن النداء لاعلاقة له بالصوت قطعا وبعاتالم يمكن أن النداء يكون بالصوت ،وهذا الكلام اللفظي يعني أصوات مخلوقة من عند الله يدل على النداء النفسي الذي هو أزلي أبدي صفة لله تعالى ،ولايكون حرفا ولاصوتا. فثابت من هذا البيان أنه لادليل لابن تيمية وأتباعه في هذا لعقيدتهم الفاسدة ، ثم عجبا منهم يقولون إن النداء يدل على الصوت العالي ،والله عزوجل قال عن موسى عليه السلام ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ (مريم: ٥٢) والنجي معناه الكلام السري فالله عزوجل يقول: إن النداء إلى موسى عليه السلام كان كلاما سريا ،وهم يقولون كان بالصوت العالي ،ما ذا تقول عنهم؟

(١٢) ولو استدلوا أن الله عزوجل يخبر في القرآن عن أخبار الأنبياء السابقة عليهم الصلوات والسلام والأمم السابقة بصيغة الماضي ،ولو كان القرآن كلاما أزليا لكانت هذه الأخبار إخبار عما لم تقع بعد؛ لأن الأزل لا بداية له وهذه الأخبار وقع بعد الأزل في زمان ما ،والأزل قبل الزمان ودونه ،فكيف القرآن يخبر عن هذه الأخبار بصيغة الماضي لو كان أزليا؟

فهذا الاعتراض منهم أيضا ،وقد يسفهون عوام الناس منه ،وفي الحقيقة هذا الاعتراض يندفع بالحديث الصحيح أخرجه مسلم الذي ذكرنا سابقا وهو عن محاجة آدم عليه السلام مع موسى عليه السلام ،وفيه أن ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ (طه: ١٢١) كان مكتوبا قبل خلق آدم عليه السلام فهذا جواب لهم من الحديث الصحيح أنه لم يخلق آدم عليه السلام بعد فضلا عن زلته في حق الشجرة ، لكن ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ (طه: ١٢١) كان مكتوبا في التوراة التي كتبت قبل خلق آدم عليه السلام وكذلك جميع الأخبار التي في التوراة عن نوع البشر كانت مكتوبة وفي الحقيقة لم يخلق البشر بعد ،وكذلك القرآن ،والمعلوم أنه كتب في اللوح المحفوظ قبل نزول بزمان ،ثم نزل في السماء الدنيا ،ثم نجما نجما على نبينا صلى الله عليه وسلم ،فاعتراضهم في الحقيقة اعتراضا على الحديث الصحيح . فكما عدم وقوع زلة آدم عليه السلام بعد لايخالف كون ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ (طه: ١٢١) مكتوبا في التوراة بصيغة الماضي قبل خلق آدم عليه السلام ،فكذلك عدم وقوع

(١) يعني من عند الله

هذه الأخبار[1] لايخالف كونه فى (كلام الله) القرآن بصيغة الماضى قبل وقوعها ،وهذا عن الكتابة فى اللوح المحفوظ التى هي مخلوقة ،ووقعت فى زمان ،وليست أزلية ،وأما كلام الله فهو أزلي أبدي ،فثبت أن عدم وقوع الأخبار التى فى التوراة أو القرآن أو غيرهما من كلام الله لايخالف كونها فيه قبل وقوعها أزليا أبديا كلاما لله تعالىٰ صفة لهٗ ،ولو بصيغة الماضى. وكما فى القرآن ،ونحن ذكرناه قبلا ﴿قَالَ اللّٰهُ هٰذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصّٰدِقِيْنَ صِدْقُهُمْ﴾(المائدة:١٢٠) وعن عيسىٰ عليه السلام ﴿قَالَ سُبْحٰنَكَ مَايَكُوْنُ لِيْ أَنْ أَقُوْلَ مَا لَيْسَ لِيْ بِحَقٍّ﴾(المائدة:١١٦) وهذا قول عيسى عليه السلام فى يوم القيامة ، لٰكن لايخالف كونه فى يوم القيامة كون الإخبار عنه فى القرآن قبل يوم القيامة بصيغة الماضى. وهٰذا جواب كافى فى إبطال استدلالهم الفاسد إن شاء الله العزيز. ومزيد علىٰ هٰذا أن الأخبار فى القرآن للأمم السابقة بصيغة الماضى باعتبار وقت نزوله علىٰ سيدنا ونبينا صلى الله عليه وسلم ، فمثلا لو واحد يكتب رسالة إلى واحد آخر فى بلد آخر ويأخذ عاديا شهرا للرسالة أن تبلغ إلى المرسل إليه فكاتب هٰذه الرسالة يكتب فى الرسالة الأشياء التى يريد ويعزم أن يفعلها بصيغة الماضى ، لكن هو لم يفعل بعد هٰذه الأفعال ، لكن هو يكتبه باعتبار الوقت الذى فيه يقرأ هٰذه الرسالة المرسل إليه ، فمثلا يكتب وقت كتابة الرسالة "إنا قد أرسلت إليك مائة دينار" ، لكن لم يرسلها بعد فى وقت كتابة الرسالة، بل أرسلها مثلا بعد يومين من يوم كتابة الرسالة ، لكن لأن الرسالة تأخذ زمانا حتىٰ تبلغ إلى المرسل إليه ،فيقرأها ،فباعتبار هٰذا وقت القرأة إرسال مائة دينار قد حصل ،فإذا فهمت هٰذا فافهم أن الأخبار عن الأمم السابقة فى القرآن بصيغة الماضى يقوم بذات الله تعالىٰ كلاما نفسيا أزليا ،وهٰذه الأخبار لم تقع بعد باعتبار الأزل ، لكن باعتبار المخاطب[2] وهو نبينا وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يعنى عند ما هو سمعهٗ وتلقاه هٰذه الأخبار قد حصلت ووقعت. فافهم ،والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

الحمد لله رب العالمين قد استوعبنا جميع الاستدلال الباطل تقريبا من جهة ابن تيمية وأتباعه علىٰ عقيدتهم الفاسدة ،وكما ترىٰ أن ليس لهم دليل ألبتة ،وكل ما يستدلون ويعرضون من الدلائل كلها استدلال فاسد ومشوب بالخدع والشر لعوام الناس ،ثم اعلموا! أن عادتهم أن يزعموا ويدّعوا أن مسلكهم مسلك السلف الصالح ،وهٰذا خداع منهم كبيرا جليا ،والحق أن مسلكهم ليس مسلك السلف الصالح قطعا وبتاتا ،وخذحذرا منهم حذرا شديدا. ومسلك السلف الصالح هو أن كلام الله أزلي صفة لله تعالىٰ وهو غير حادث وغير مخلوق كلاما نفسيا أزليا أبديا يقوم بالله تعالىٰ وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالىٰ والمعلوم أنهٗ من السلف الصالح فى كتابه الفقه الأكبر

---

(١) التى فى القرآن. (٢) والمرسل إليه.

"والقرآن كلام اللّٰه تعالٰى فهو قديم، وقد كان اللّٰه تعالٰى متكلما ولم يكن كلم موسٰى عليه السلام، فلما كلم اللّٰه موسٰى كلمه بكلامه الذى هو لهٗ صفة فى الأزل وصفاتهٗ كلها بخلاف صفات المخلوقين." وهٰذا يعنى أن اللّٰه عزوجل كان متكلما من الأزل بكلام الذى كلم موسٰى عليه السلام وهو صفة لهٗ فى الأزل؛ لأنهٗ كلام النفس لهٗ يقوم بهٖ أزليا أبديا ثم قول أبى حنيفة رحمه اللّٰه تعالٰى أن اللّٰه كلم موسٰى عليه السلام بكلامه الذى هو صفة لهٗ فى الأزل يدل أن أباحنيفة رحمه اللّٰه تعالٰى يعتقد أن موسٰى عليه السلام سمع كلام النفس للّٰه تعالٰى بعينهٖ كماهو مذهب الشيخ الأشعري ونحن معهٗ؛ لأنهٗ حق وليس فقط أصواتا مخلوقة دالة على الكلام النفسي . وهٰذا كلهٗ بيان لكلام النفس وكما ترٰى أن أباحنيفة الذى هو من السلف لامحالة يعتقد علٰى أزلية كلام اللّٰه تعالٰى وقد صرح أن القرآن قديم. وكذٰلك الإمام أحمد رحمه اللّٰه تعالٰى كما ذكرنا سابقا عنه أنهٗ قال: إن تنزيل القرآن إلينا محدث وليس القرآن نفسه محدث وكذٰلك قال: إن اللّٰه عزوجل لم يزل بالقرآن متكلما وكذٰلك الإمام وكيع رحمه اللّٰه رواه عنه الإمام البيهقي رحمه اللّٰه فى كتابهٖ "الأسماء والصفات" أنهٗ "من قال: إن القرآن محدث فقد كفر" وذكر البيهقي رحمه اللّٰه تعالٰى عن أئمة أخرٰى أن القرآن ليس بحادث ولا مخلوق فى نفس الكتاب. ومن العجب حتٰى الشوكاني وهو واحد علماء أتباع ابن تيمية قال فى تفسيره "فتح القدير" فى تفسير الآية ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾(الأنبياء:٢) فى سورة الأنبياء أن السلف الصالح أجمعوا علٰى أن القرآن ليس بحادث وكفّروا من قال بحدوثه. ويا عجب من أتباع ابن تيمية حتٰى بعض علماء هم يعترفون أن القرآن أزلي ،وحتٰى صرح الشوكاني فى نفس المكان أنهٗ أزلي باعتبار كلام النفس ،ويعترفون أن السلف الصالح متفقون علٰى هٰذا ويكفّرون من قال: إنهٗ حادث. وهٰذا الكلام كلهٗ عن كلام النفس. وأما الكلام اللفظي يعنى العبارات المؤلفة ،فالسلف الصالح كانوا يعتقدون أنها محدثة مخلوقة؛ لأنها لاتكون العبارات المؤلفة بالحروف والأصوات أزلية ،فإذا لاتكون أزلية ،فتكون حادثة مخلوقة ،ولم يقل أي واحد من السلف الهذيان الذى قال ابن تيمية أنهٗ يكون من الحوادث مخلوق وغير مخلوق ،وهٰذا التفريق الذى فعل ابن تيمية فاسد باطل، بل هذيان ولم يقل أي أحد من السلف الصالح بهٰذا الهذيان وكيف؟ لأنهٗ معلوم أنهٗ لايكون مخلوقا، بل ما لم يوجد ،فأوجده اللّٰه وهٰذا هو بعينهٖ الحادث؛ لأنهٗ أيضًا لم يوجد ،فأوجده اللّٰه فكيف يكونا فرقا بينهما؟ وهٰذا لايجوز قطعا وبتاتا. وقال أبوحنيفة رحمه اللّٰه تعالٰى عن الكلام اللفظي "والقرآن كلام اللّٰه تعالٰى فى المصاحف مكتوب ،وفى القلوب محفوظ، وعلى الألسن مقروء وعلى النبي عليه الصلوٰة والسلام منزل. ولفظنا بالقرآن مخلوق ،وكتابتنا لهٗ مخلوقة ،وقراءتنا لهٗ مخلوقة ،والقرآن غير مخلوق." وهٰذا يعنى كتابتنا وقراءتنا وغيرها من الأفعال تتعلق بالعبارات المؤلفة ،وهي

مخلوقة ،وهو الكلام اللفظي للّٰه تعالىٰ ، لكن هو دال على الكلام النفسي للّٰه تعالىٰ ،وهو غير مخلوق. وقال الإمام أبوحنيفة رحمه اللّٰه تعالىٰ أيضًا "ونحن نتكلم بالآلات والحروف واللّٰه تعالىٰ يتكلم بلا آلة ولا حروف والحروف مخلوقة وكلام اللّٰه تعالىٰ غير مخلوق." وهذا يعنى نحن نقرأ بالحروف التى تتعلق بالعبارات المؤلفة ،وهو الكلام اللفظي للّٰه تعالىٰ ، لكن اللّٰه عزوجل لايتكلم بالحروف ،فلايقوم به الكلام اللفظي ،ولهذا هو ليس صفته الأزلية ، لكن هو منزل من عنده فهو كلامه حقيقة ، لكن هو حادث مخلوق ،وليس صفة لهٗ وما هو صفة لهٗ فهو غير مخلوق ،وهو كلام اللّٰه النفسي الأزلي قائم به تعالىٰ ،والكلام اللفظي دال عليه ،فكلاهما كلامه ،فواحد منه صفته ،والآخر منزل من عنده دال على هذه الصفة.

الحمد للّٰه قد ذكرنا بيانا شافيا إن شاء اللّٰه تعالىٰ عن صفة الكلام للّٰه تعالىٰ ،ودمغنا الآراء الباطلة عنها من المبتدعة بالرد الشديد البليغ ،وهذا كلهٗ بحمد اللّٰه تعالىٰ ،واللّٰه يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

والشيخ الإمام الطحاوي فى المتن يقول "و إن القرآن كلام اللّٰه منه بدا بلا كيفية قولا." ولم يقل بدأ، بل قال بدا؛ لأن الشيخ الآن يتكلم عن قول النفس يعنى كلام النفس ،وهو بلا كيفية ،وهذا رد علىٰ من قال من المبتدعة: إنهٗ بالصوت والحروف لا!، بل هو بلا كيفية كما جميع صفاته، ثم قال: "وأنزلهٗ علىٰ رسوله وحيا." وهذا الكلام اللفظي دال على الكلام النفسي . وصدقه المؤمنون علىٰ ذلك حقا. وأيقنوا أنهٗ كلام اللّٰه تعالىٰ بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية، هذا يعنى صدق المؤمنون النبي عليه الصلوٰة والسلام فى تلقيه القرآن من عند اللّٰه تعالىٰ ، وأيقنوا أنهٗ كلام اللّٰه ،وليس بمخلوق يعنى هذه عبارات القرآن تدل علىٰ كلام النفس للّٰه تعالىٰ الذى ليس بمخلوق ،ثم قولهٗ "فمن سمعه فزعم أنهٗ كلام البشر ،فقد كفر إلى آخره." كلهٗ يشمل الكلام اللفظي وما هو مفهوم منه يعنى الكلام النفسي؛ لأن القرآن هو كلام اللّٰه حقيقة باعتبار الكلام اللفظي والكلام النفسي ،ومن جحد هذا فقد كفر.

ثم اعلم أن العقيدة الطحاوية كلها علىٰ عقيدة أبى حنيفة رحمه اللّٰه تعالىٰ كما صرح الإمام الطحاوي فى البداية أنها عقيدة أبى حنفية رحمه اللّٰه تعالىٰ وصاحبيه ، فلهذا ما هو المبهم فى العقيدة الطحاوية ،فيفسّرهُ بما هو فى الفقه الأكبر والوصية تفصيلا. لأنهما كتابان لأبى حنيفة رحمه اللّٰه تعالىٰ فى العقيدة ، ونحن قد بينا بيانا شافيا من الفقه الأكبر عن كلام اللّٰه تعالىٰ ،وفسرنا هذا المتن من الإمام الطحاوي تحت ضوء ما هو فى الفقه الأكبر لأبى حنيفة رحمه اللّٰه تعالىٰ؛ لأنهٗ كلهٗ يتكلم عن عقيدة نفس الرجال من أهل السنة والجماعة.

المتن

والرؤية حق لأهل الجنة بغير إحاطة ولا كيفية كما نطق به كتاب ربنا ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٢-٢٣) سورة القيامة، وتفسيره علىٰ ما أراده الله تعالىٰ وعلمه ،وكل ما جاء فى الحديث الصحيح عن الرسول صلى الله عليه وسلم ،فهو كما قال ،ومعناه علىٰ ماأراد لاندخل فى ذلك متأولين بآرائنا. ولا متوهمين بأهوائنا. فإنهٔ ما سلم فى دينه إلا من سلم لله عزوجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم . وردّ علم مااشتبه عليه إلى عالمه. ولا تثبت قدم فى الإسلام إلا علىٰ ظهر التسليم والاستسلام . فمن رام علم ماحجز عنه علمه، ولم يقنع بالتسليم فهمه. حجبه مرامه عن خالص التوحيد وصافى المعرفة وصحيح الإيمان. فيتذبذب بين الكفر والإيمان، والتصديق والتكذيب ، والإقرار والإنكار، موسوسا تائها شاكا زائغا، لامؤمنا مصدقا ولاجاحدا مكذبا، ولايصح الإيمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها منهم بوهم أوتأولها بفهم. إذا كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية بترك التأويل ولزوم التسليم، وعليه دين المسلمين. ومن لم يتوق النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه، فإن ربنا جل وعلا موصوف بصفات الوحدانية، منعوت بنعوت الفردانية، ليس فى معناه أحد من البرية، وتعالىٰ عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات، لاتحويه الجهات الست كسائر المبتدعات.

الشرح

والشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالىٰ الآن يدخل فى بيان رؤية الله تعالىٰ ،وهٰذا يحتوى على البحوث ،وأولا نشرح كلام الشيخ رحمه الله تعالىٰ ملخصا ، فالشيخ يقول: إن رؤية الله تعالىٰ فى الآخرة هي حق ثابتة فى القيامة وفى الجنة كما يدل عليه القرآن والحديث المتواتر، بلا إحاطة؛ لأن الله عزوجل غير محدود وغير متناهي، بلا كيفية، فلايكون الله فى مكان أوجهة أو بالمسافة من الرائي ولايكون هٰذه الرؤية باتصال الشعاع كما فى رؤية المخلوق؛ لأن هٰذه كلها لاتجوز فى حق الله تعالىٰ، بلا تأويل ولاتوهم يعنى لا تنكر الرؤية بالتأويل ولاتتوهمه؛ لأن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورىٰ: ١١) فهو متعال عن أفكارنا وتوهمنا ،ونسلمْ ما فى القرآن والحديث الصحيح ونقتنع بها ،

ولانكون كالذى يجرى وراء ما هو لايستطيع ،وهو المحاولة أن يتوهم كنه هٰذه الرؤية وفهمها وغيرها من الحقائق عن ذات اللّٰه وصفاته بدون أن يسلمها ويعتقد عليها من غير هٰذه المحاولات ، فيتردد ويتذبذب بين التصديق والتكذيب فيكونا شاكا والشاك لايكون مسلما، بل يكون كافرا كما يكون الجاحد كافرا. والحق أن الإيمان عن ذات اللّٰه وصفاته هو التسليم الكامل إلى ما هو فى القرآن والأحاديث الصحيحة وإجماع المسلمين من غير تعرض بالتأويل ،وعليه دين المسلمين ،فمن أبطل الحقيقة من الحقائق عن ذات اللّٰه تعالىٰ وصفاته التى عليها أجمع الصحابه رضي اللّٰه تعالىٰ عنهم ومن تبعهم بإحسان فقد ضل وغوى. فيبدو بهٰذا أن التأويلات فى الصفات المتشابهات التى وردت من الصحابة والتابعين ليست منها، [1] هٰذه الصفات بإجماع المسلمين ليست علىٰ ظاهرها؛ لأنها فى الظاهر تؤول إلى وصف اللّٰه تعالىٰ بالنقائص من خصوصيات الأجسام، وهٰذه سمات الحدوث ،فاللّٰه تعالىٰ وتقدس عن ذٰلک ، وقد ذكرنا عنها بالتفصيل فى السابق ،فلا حاجة لإعادة ،ولهٰذا الشيخ الإمام الطحاوي رحمه اللّٰه تعالىٰ بعد بيان قبول ما ورد عن اللّٰه تعالىٰ فى القرآن والسنة الصحيحة دخل فى الكلام عن التنزيه عن اللّٰه تعالىٰ ،فقال: إنهٗ من لايجتنب النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه؛ لأن الإيمان هو بين النفي والتشبيه؛ لأنهٗ قبول مع التنزيه ،فمن نفى عن اللّٰه تعالىٰ ما ثبت فى القرآن والحديث والإجماع فقد كفر ،ومن شبه اللّٰه تعالىٰ بغيره فقد كفر؛ لأنهٗ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورىٰ: ١١) فهو موصوف بصفات الوحدانية منعوت بنعوت الفردانية ،ليس فى معناه أحد من البرية. ثم اعلم أنهٗ قد ذكرنا سابقا أنهٗ قد وردت التأويلات من الصحابة رضي اللّٰه تعالىٰ عنهم أو التابعين فى بعض الصفات التى لايمكن أخذها علىٰ ظاهرها فى حق اللّٰه تعالىٰ ،وهٰذا ليس من النفي لأنهم لايتعاطون إلى نفيها، بل إلى تفسيرها مما يليق باللّٰه تعالىٰ ،ثم لايفسرونها علىٰ وجه القطع إلا لوسمعه من النبي صلى اللّٰه عليه وسلم ، بل علىٰ وجه غلبة الظن ،وهٰذا ليس نفيا؛ لأن هٰذه الصفات ليست علىٰ ظاهرها بإجماع المسلمين ،فإما أخذها كما يليق باللّٰه تعالىٰ بدون التفسير لو كان لاحاجة لهٗ أو إما تفسيرها بقواعد التفسير ،وهو بالقرآن ثم بالسنة ثم الإجماع وآراء الصحابة رضي اللّٰه عنهم أو علىٰ قواعد اللغة العربية لاسيما لو كان الحاجة تدعوا لهٗ ، لكن فى كلتى الطريقتين يجب اعتقاد التنزيه الكامل فى حق اللّٰه تعالىٰ ،والشيخ الإمام الطحاوي ذكر التنزيه فى حق اللّٰه تعالىٰ فى الجملة الواحدة القاطعة الباهرة الدامغة للمشبهة بالشدة الشديدة ،فقال رحمه اللّٰه تعالى: وتعالىٰ عن الحدود والغايات ،فلايتمكن فى مكان ،ولايجرى عليه زمان ،وتعالىٰ عن الأركان والأعضاء والأدوات ،فليس جسما ولا لهٗ الأجزاء ولا لهٗ الأعضاء والجوارح ولا لهٗ التركيب، بل تعالىٰ وتقدس

(١) يعنى ليست من إبطال الصفة، بل هى من إثباتها علىٰ وجه صحيح.

عن كل هٰذه الأشياء ،ونحن ذكرنا عن هٰذا البيان بالتفصيل سابقا.

ثم قال: "لاتحويه الجهات الست كسائر المبتدعات ،فلايكون لهُ الفوق ولا تحت ولا أمام ولاخلف ولايمين ولا شمال؛ لأنهُ تعالىٰ وتقدس عن أن يكون في الجهة أو الجهات، بل هو متعالي متقدس منزه عن هٰذه الأشياء ،وهٰذا رد شديد على المشبهة ،ومنهم ابن تيمية وأتباعه و ابن أبي العز أيضًا منهم الذين يثبتون للّٰه جهة ،وهٰذا يؤدي إلىٰ إثبات المكان لهُ ،وكل هٰذه الأشياء منتفية عن اللّٰه تعالىٰ ،وكذٰلك المشبهة ،ومنهم بعض أتباع ابن تيمية يثبتون للّٰه أعضاء وجوارحا ،وهٰذا لايجوز في حق اللّٰه تعالىٰ قطعا وبتاتا فالشيخ الإمام الطحاوي رحمه اللّٰه رد علىٰ جميع هؤلاء ،ونحن ذكرنا عن ابن أبي العز ،وهو قد كتب الشرح على العقيدة الطحاوية ،وقد ذكرنا عنه أنهُ من أتباع ابن تيمية ،وليس حنفيا في الحقيقة كما هو المظنون ،وقد ملأ الشرح للعقيدة الطحاوية بآراء فاسدة وعقائد باطلة مستعارة من كتب ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ،ومنها إثبات الجهة للّٰه تعالىٰ وأنت ترىٰ أن الشيخ الإمام الطحاوي رحمه اللّٰه تعالىٰ ينكر أن يكون اللّٰه تعالىٰ في الجهة بالإنكار الشديد ،وقال لاتحويه الجهات الست ،ثم قال كسائر المبتدعات يعني إثبات الجهة للّٰه تعالىٰ هو التشبيه بالمبتدعات يعني بخلقهٖ ،وهٰذا لايجوز قطعا وبتاتا ؛لأنهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورىٰ:١١) ثم الشيخ الإمام الطحاوي رحمه اللّٰه تعالىٰ يذكر التنزيه مع بيان رؤية اللّٰه تعالىٰ لكى يثبت أن الرؤية للّٰه تعالىٰ لاتكون كرؤية المخلوق ،فهو يُرىٰ في الآخرة بدون أن يكون في الجهة والمكان وبدون أن يكون جسما ومرتبا ومركبا ومحدودا وغيرها من سمات الحدوث. وهٰذا هو عقيدة أهل الحق فاستمسك بها وعض عليها بالنواجذ ،ثم هناك بحوث نذكرها الآن إن شاء اللّٰه العزيز.

(١) رؤية اللّٰه تعالىٰ ثابتة بالقرآن والأحاديث المتواترة والإجماع ، ففي القرآن ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة:٢٢-٢٣) وهٰذا دليل قطعي يخبر عن رؤية اللّٰه تعالىٰ في يوم القيامة ؛لأنها في سورة القيامة ،وهٰذه الآية تتكلم عن يوم القيامة. وكذٰلك الأحاديث في هٰذا الباب كثيرة جدا ،ومنها: "إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، لاتضامون في رؤيته." (صحيح البخاري، ح:٥٥٤) وقد ذكر في شرح العقائد النسفية أن هٰذا الحديث رواه أحد وعشرون من أكابر الصحابة رضوان اللّٰه تعالىٰ عليهم أجمعين. وهٰذا يبلغ مبلغ التواتر لامحالة ،ثم ليس المعنى أن رؤية اللّٰه تعالىٰ تكون كما رؤية القمر؛ لأنهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورىٰ:١١) ولا يتصف بالمكان والجهة بخلاف القمر، بل المعنى كما ترون القمر بلا مشكلة ولاتضامون في رؤيته ،فكذٰلك ترون ربكم بلا مشكلة ولاتضامون في رؤيته ،يعني لايكون أنهُ بعض منكم يرونه دون البعض منكم، بل كل واحد

من المؤمنين الصالحين يرونه. وهٰذا عن يوم القيامة ،وثم وردت الأخبار الصحيحة المشهورة فى رؤية أهل الجنة ،ومنها عن صهيب عن النبي صلى اللّٰه عليه وسلم "إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال يقول اللّٰه تبارك وتعالىٰ: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عزوجل. ." (صحيح مسلم، ح: ١٨١) قد ذكرنا سابقا أن الحجاب راجع إلى المخلوق وليس إلى اللّٰه تعالىٰ؛ لأنهٗ غير محدود ،فلايكون محجوبا بالحجاب كما فى القرآن عن الفجار ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٍ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ (المطففين:١٥) فالفجار محجوب عن اللّٰه وليس اللّٰه محجوبا بالحجاب فالحجاب راجع إليهم دونه تعالىٰ ،ثم إن ذكرت حالة الفجار يعنى كونهم محجوب عن اللّٰه ،فثبت أن الأبرار لايكونون محجوبين عنه فى يوم القيامة؛ لأن الآية تتكلم عن يوم القيامة. فهٰذه الآية أيضًا دليل على رؤية اللّٰه تعالىٰ ،ومن الأحاديث عن عبداللّٰه بن قيس عن النبي صلى اللّٰه عليه وسلم "جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما. وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء علىٰ وجهه فى جنة عدن." (صحيح البخاري، ح:٤٨٧٨)

وليس معنى الرداء الرداء المعهود وهٰذا معلوم، بل هٰذه استعارة كما فى الحديث "الكبرياء ردائى والعظمة إزارى. فمن ينازعنى فى واحد منهما عذبته." (سنن أبى داود، ح: ٤٠٩٠) أو كما قال عليه الصلوات والسلام ،والمعلوم أن اللّٰه عزوجل تعالىٰ وتقدس عن لبس الثياب ، فلهٰذا هٰذه استعارات ،وهٰذا أيضا دليل علىٰ ابن تيمية وأتباعه ؛ لأنهم أيضًا يعترفون أن هٰذه استعارات فى هٰذا الحديث ،وثم ينكرون علىٰ أهل السنة لتأويل بعض الأحاديث علىٰ هٰذا المنوال ،فكيف أنفسهم يؤولون فى الأحيان وينكرون علينا فى الأحيان ،وهٰذا فى غاية التناقض ،فرداء الكبرياء معنى الكبرياء نفسه ، لٰكن عبر عن الرداء ،واللّٰه أعلم ،إشارة إلى الحجاب الذى يرجع إلى الخلق ،ومعنى "علىٰ وجهه" يعني "علىٰ ذاته" فيكون معنى الحديث واللّٰه أعلم أن اللّٰه تعالىٰ الذى هو متصف بالصفات العلىٰ والكمال والكبرياء والعظمة خالق الكل والقادر المطلق حتىٰ لايجترأ ولايستطيع غيره أن يراه لكبريائه وعظمته ،فيكون الخلق محجوبا عنه ، لكن لما شاء بفضله وبرحمته ينعم ويحسن علىٰ أهل الجنة حتىٰ يرفع الحجاب عنهم ،فيرونه تعالىٰ متصفا بالكبرياء والعظمة والجلال ، لكن بدون أن تكون مانعة لرؤيتهم اللّٰه تعالىٰ ،وهٰذا فضل وإنعام ورحمة عظيمة ،اللّٰهم اجعلنا منهم آمين يارب العالمين.

وفيها عن ابن عمر عن النبي صلى اللّٰه عليه وسلم "إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة ،وأكرمهم على اللّٰه من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية."

(سنن الترمذي، ح:٢٥٥٣) ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة:٢٢-٢٣) والأحاديث في هذا الباب كثيرة جدا والرؤية ثابتة لاشك وهي في يوم القيامة وفي الجنة للمؤمنين ولاحظَّ فيها للكافرين والمنافقين والمشركين ألبتة وهؤلاء أهل النار خالدا مخلدا فيها أبدا. وقد أجمع المسلمون على رؤية الله تعالى في الآخرة في القيامة وفي الجنة ،ومن جحد هذا فهو الضال المبتدع ويلمس حدود الكفر ،وقد جحد هذا المعتزلة والرافضة ،وهؤلاء ليس لهم نصيب من هذه النعمة الجليلة والفضل العظيم.

وهؤلاء المبتدعة ليس عندهم أي شيء في إنكارهم رؤية لله تعالى إلا المكابرة والعناد والجحود للأحاديث المتواترة وتأويل القرآن بتاويلات فاسدة وهم أنكروها لأن عندهم في زعمهم لاتمكن رؤية من لايتمكن في مكان ولايكون في جهة ،وهذا في غاية الفساد والبطلان؛ لأنهُ أي شيء يمنع الله تعالى أن يخلق فينا رؤية للذى لايتمكن في مكان ولا جهة . والمعلوم أن الله على كل شيء قدير ،ومن جحد هذا فقد كفر بالله وحدهُ ،وهذا من الضرورات الدينية أن الله عزوجل هو القادر المطلق لايخرج من قدرته أي شيء ،وقد تكلمنا في هذه المسئلة بالتفصيل ،وأيضًا بيّنّا على الأمور التي يناقض بعضه بعضا والسؤال عن القدرة على هذه الأمور [1] سؤال باطل ذو تناقض ، لكن رؤية الله تعالى ليست منها ألبتة وهذا معلوم لأنها لاتؤدى إلى المناقضة. ونحن نرى في هذا العالم الأشياء الكثيرة ،ولانرى هذه الأشياء إلا لأن الله تعالى يخلق فينا رؤية لهذه الأشياء ،فلانراها لأي الخصوصية التي في هذه الأشياء ولانراها لأي الخصوصية التي فيناء بل نراها؛ لأن الله عزوجل يخلق فينا رؤية لها وفي القرآن ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل:٧٨) ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة:٢٠) ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ (يس:٦٦) وهذا لاخفاء فيه ،وهذا من المعلوم بالضرورة من الدين ونحن نرى الأعمى لايبصر ،ونرى الأصم لايسمع؛ لأن الله عزوجل لايخلق لهم رؤية وسمعا ، فإذا علم هذا،فكون الأشياء في مقابلتنا ومواجهتنا أم لا، فلا علاقة لهُ لتحقق الرؤية ،فالأعمىٰ لايرى الأشياء التي تواجهه ،ورسول الله صلى الله عليه وسلم رأى بيت المقدس ،وكان في المكة كما ثبت بالحديث الصحيح ،وكذلك رأى الجنة والنار ،وكان في الأرض (والله أعلم ممكن في المدينة) في صلوٰة الكسوف حتى رأى في النار صاحب المحجن يجر قصبه في النار، كان يسرق الحاج بمحجنه. فإن فطن قال: إنما تعلق بمحجني، و إن غفل عنه ذهب به وحتى رأى صاحبة الهرة التي ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض، حتى

(١) يعني التي تناقض بعضها بعضاً

ماتت جوعاء ورأى الجنة ، وحتى تقدم لكى يتناول منها من ثمرها ثم بدا لهٗ أن لايفعلهٗ ورأى هٰذہ كلها وأكثر منها ،ولم تكن الجنة والنار فى الأرض وكيف؟

والمعلوم أن الجنة أوسع من الدنيا بأضعاف لانعرف إحصاء ها ،وكذٰلك لم يكن البيت المقدس فى المكة ،وكان البيت المقدس مع من فيها فى مكانه ، لكن رآہ رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم وهو فى مكة ،وهٰذه لامحالة بدون مواجهة البيت المقدس ،وكذٰلك رأى الجنة والنار وثمار الجنة وأهل النار والجنة فى مكانها مع أثمارها والنار فى مكانها مع سكانها ،فلم يكونوا علٰى مواجهة النبي صلى اللّٰه عليه وسلم ،وأيضًا لم يروهم الصحابة رضي اللّٰه تعالٰى عنهم الذين كانوا يأتمون بصلٰوة النبي صلى اللّٰه عليه وسلم فى صلوة الكسوف ؛لأنها بالجماعة؛ لأن اللّٰه عزوجل خلق لنبيه وحبيبه صلى اللّٰه عليه وسلم رؤية لهٰذه الأشياء ولم يخلقها للصحابه رضي اللّٰه عنهم ،ولو قيل إن هٰؤلاء المبتدعة لايقبلون كثير أو أكثر الأحاديث ،فيمكن لايقبلون هٰذه الأحاديث أيضًا ،قلنا هٰذا فعلهم وهٰذا الشيء لايبرّئهم؛ لأن الإنكار للأحاديث المتواترة كفر ،فإنكارهم للأحاديث المتواترة المستفيضة كفر ،وإنكار الأحاديث الآحاد فسوق ،ففعلهم كفر وفسوق ،وليس براءة وتبريرا لهم ، فهٰذا كما نستدل بالقرآن ،ولو قيل: إن الكفار لايقبلون القرآن فقلنا : فلهٰذا هم الكفار ونحن مسلمون ،والكفار يخلد فى النار ،والمسلم يخلد فى الجنة ،فهٰؤلاء المبتدعة هم المبتدعة الضالة، بل الكفرة لأجل إنكارهم الأحاديث المستفيضة ،ولأجل تأويلهم القرآن بالتاويلات الفاسدة ،ولأجل جحود إجماع أهل الحق. ثم قد استدللنا بالقرآن ،وهو أن اللّٰه علٰى كل شيء قدير ،فهو قدير علٰى أن يُرى المؤمنين إياه فى الآخرة مع كونه غير متمكن فى المكان والجهة ،ثم نستدل عليهم بالمشاهدات البديهية ،وهو الرؤيا ،ونحن نرى فى الرؤيا أشياء كثيرة ،وهٰذه الأشياء لاتكون علٰى مواجهتنا وأيضًا هٰذا يدفع الاعتراض الآخر من المبتدعة ،وهو أن الرؤية فى هٰذا العالم تكون باتصال الشعاع منه بالمرئي حتٰى ينعكس عكس المرئي فى عينى رائى ،والمعلوم أن هٰذه الأشياء كلها لاتجوز فى حق اللّٰه تعالٰى؛ لأنهٗ لايحل فى المخلوق ولايلمسه المخلوق ،فلايتصل به الشعاع ولاينعكس فى عينى رائى ،وهٰذا معلوم من الدين بالضرورة؛ لأنهٗ ليس كمثلهٖ شيء وهو السميع البصير. فليس جسما حتٰى ينعكس عكسه ويتصل به الشعاع ،فالرؤية فى الرؤيا تدفع كل هٰذه الاعتراضات ،وأيضًا تدفع الاعتراض عن المسافة ،وهو فى هٰذا العالم نحن نرى أشياء التى تكون علٰى المسافة بيننا وبينها، فهٰذہ كلها تندفع بالرؤية فى الرؤيا ،فنحن نرى فى الرؤيا أشياء كثيرة ،وأعيننا مغلقة ،فلا مواجهة ولا اتصال الشعاع ولا مسافة بين أعيننا والأشياء ؛لأنها مغلقة ،ونحن نرى أشياء كثيرة فى الرؤيا حتٰى فى بعض الأحيان أشكل علينا بعض الأشياء نراها فى الرؤيا ، ونحن نتردد

هل نحن رأيناها فى الرؤيا أوفى اليقظة ،وهذه كلها بديهية لامجال للإنكار ،ونطلق على هذه الرؤية الرؤية ،وفى القرآن ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَّالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِيْ سَاجِدِيْنَ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوْا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (يوسف:٤-٥) فالرؤية حاصلة بدون المواجهة واتصال الشعاع والمسافة؛ لأن الأعين مغلقة ،فلا اعتبار للمسافة حتى لو يرى الرائى أمه وأباه فى الرؤيا ،وهم موجودون فى الدنيا على مسافة معينة منه ، لكن لا اعتبار لها؛ لأنهٗ لا علاقة لهذه المسافة بالرؤيا ،ولو قيل إنهٗ ثابت من الصحابة رضي اللّٰه تعالى عنهم فى تفسير الآية ﴿اللّٰهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِيْنَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِيْ قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (الزمر:٤٢) أن أرواح الأموات والأحياء تتلقى فى المنام فتتعارف ما شاء اللّٰه منها فإذاأراد جميعها الرجوع إلى الأجساد أمسك اللّٰه أرواح الأموات عنده، وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها. فممكن أن روح هذا النائم الرائى لأبيه وأمه تلتقى مع روحى أمه وأبيه فتكون مسافة معينة بين هذه الأرواح والنائم يرى برؤية روحه قلنا أما التقاء الأرواح فى المنام فالصحيح ، لكن الرؤية ليست محددة به؛ لأنهٗ قد يرى النائم أباه وأمه فى الرؤيا وهما يقظان وليسا نائمان فروحهما لم يتو فهما اللّٰه فهم ليسا على حالة التقاء الأرواح التى ذكرنا.

ولو قيل إنهٗ ممكن أن روحه يرى أباه وأمه وهمايقظان قلنا هذا يحتاج إلى دليل أولا وثم هذا مندفع بأنهٗ يرى أباه وأمه فى حالة التى هما ليسا فيها حتى يمكن أنهٗ يراهما فى بيته وهما حينئذ فى بيتهما. وفى القرآن ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّيْ أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ (الصافات:١٠٢) وهذا منام سيدنا إبراهيم عليه السلام عن ابنه سيدنا إسماعيل عليه السلام ، لكن سيدنا إسماعيل عليه السلام لم يعرف عن هذا حتى إعلام إبراهيم عليه السلام إياه عنه. و كذلك ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللّٰهُ رَسُوْلَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَآءَ اللّٰهُ آمِنِيْنَ مُحَلِّقِيْنَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِيْنَ لَا تَخَافُوْنَ﴾ (الفتح:٢٧) وهذا رؤيا سيدنا ونبينا محمدصلى اللّٰه عليه وسلم أنهٗ رأى أنهٗ دخل مكة وطاف بالبيت وتحقق هذا الرؤيا فى المستقبل يعنى فى عمرة القضاء فإذا فهمت هذا كلهٗ لتفهمت أن النائم فى الرؤيا قد يرى أشياء ولاتكون أي علاقة لهذه الرؤيا بالمسافة. فالنائم يرى فى المنام والرؤية حاصلة بدون المواجهة واتصال الشعاع والمسافة؛ لأن اللّٰه عزوجل يخلق هذه الرؤية لهٗ وهو غير محتاج إلى أي سبب من الأسباب . وإذا قيل أننا نحن الآن نتكلم عن الرؤيا بالأعين والرؤية فى المنام لاتقال الرؤية بالأعين . قلنا بتوفيق اللّٰه عزوجل إن شاء اللّٰه العزيز: إننا قلنا أكثر من مرة أن الرؤية تكون حاصلة بخلق اللّٰه وبس وليس بالأعين وبغيرها ، فإذا كانت هي حاصلة فى المنام

بدون المواجهة واتصال الشعاع والمسافة وجميع هذه الأشياء التى لاتليق بالله عزوجل ؛لأنها بخلق الله وبس ؛فإذا هو يخلقها فى المنام ،فهو القادر المطلق يقدر على أن يخلقها فى اليقظة فى الأعين ،وبغير هذه الأشياء التى لاتليق بالله عزوجل؛ لأن الله عزوجل على كل شيء قدير. فأيها الضال المبتدع الذى ما قدر الله حق قدره ،اعلم أن الله هو القادر المطلق ،فإذا أراد شيئًا أن يقول لهُ كن فيكون. وكلامه وإرادته أزلية أبدية قائمة بذاته تعالى . ثم سيدناموسى عليه السلام سأل رؤية الله تعالى ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ (الأعراف:١٤٣) فإذا كانت رؤية الله مستحيلة ،فلماذا سأل كليم الله عليه السلام لها ، وهذا أمر بديهي ،ثم قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَن تَرَانِى﴾ (الأعراف:١٤٣) يعنى فى هذه الدنيا ،وفى الحديث الصحيح: "اعلم أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا." والكلمة "لن" لاتدل على التابيد كما فى الآية عن اليهود فى تمنى الموت ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ (البقرة:٩٥) وهذا عن الدنيا؛ لأن المعلوم هم فى جهنم مع الكفار الآخرين يتمنون الموت ﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ (الزخرف:٧٧) ثم قال الله تعالى لموسى عليه السلام ﴿وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى﴾ (الأعراف:١٤٣) فعلق الله الرؤية بالأمر الممكن ،وهو استقرار الجبل ،وهو ممكن ،فإذا كان هو ممكنا ،فأيضًا ممكن ما هو المعلق عليه وهي الرؤية ، لكن استقرار الجبل ممكن بإرادة الله تعالى ،ولم تكن إرادته لهُ فى هذا الدنيا ،فلم يستقر الجبل ولم تحصل الرؤية، لكن هو أمر ممكن فى نفسه ، ففى الآخرة قد أراد الله أن تكون رؤية لهُ كما هو فى القرآن والأحاديث المتواترة ،فتكون الرؤية فى الآخرة ،وهي غير مستحيلة. ولو قالوا إن الله عزوجل قال ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام:١٠٣) قلنا بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز: إن عدم الإدراك لايدل على عدم الرؤية كما فى القرآن ﴿فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ (الشعراء:٦١-٦٢) فهم رأو بعضهم بعضا، لكن مع هذا سيدنا موسى عليه السلام نفى الإدراك؛ لأن لما قال أصحابهُ "إِنَّا لَمُدْرَكُونَ" قال عليه السلام "كَلَّا" فنفى الإدراك مع وجود الرؤية ،فثبت أن نفي الإدراك لايدل على نفي الرؤية ، ثم فى الآية معنى الإدراك عند العلماء هي الإحاطة ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ (الأنعام:١٠٣) يعنى لاتحيط به ،وهذا معلوم من الدين بالضرورة أن الله عزوجل لايحيط به أي شيء ،وقد فصلنا عن هذا سابقا ، وهو لايتمكن فى مكان ،ولايجرى عليه زمان. فحاصل الكلام أن الرؤية بخلق الله تعالى ، ففى هذا العالم ما نرى من الأجسام والأعراض وما شاء الله نراها بخلق الله تعالى لنا رؤية لها وبس ،وهو لايحتاج ألبتة إلى الشعاع والضوء وأن تكون المرئيات فى المقابلة وغيرها من الأشياء قطعا وبتاتا، فإذا ثبت هذا فالمؤمنون يرون الله عزوجل فى القيامة وفى الجنة بخلق الله تعالى رؤية لهم بدون مواجهة

واتصال الشعاع وأن يكون بينهم وبين الله مسافة؛ لأن الله عزوجل تعالىٰ وتقدس وتنزه عن أن يكون فى جهة ومكان وأن تتصل به الشعاع والمخلوقات غيره وأن يكون علىٰ مسافة من غيره؛ لأنهٗ يؤدى كونه فى مكان ،وهو تعالىٰ عن ذٰلک. فالمؤمنون يعنى الرائيون حادثون ورؤيتهم تكون حادثة مخلوقة ، والمرئي يعنى الله عزوجل فهو الأزلي الأبدي الخالق وغير المخلوق كما إن الله عزوجل يرانا وهو أزلي فرؤيتهٗ وجميع صفاته أزلية أبدية غير حادثة غير مخلوقة ،والمرئيون يعنى نحن فحادثون ومخلوقون .

اللّٰهم اجعلنا من المؤمنين الذين ينظرون إلى وجهک الكريم فى جنات النعيم . آمين يارب العالمين!

قد ذكرنا المبتدعة الذين أنكروا رؤية الله تعالىٰ ورددنا عليهم ردا بليغا شديدا والحمد لله . الآن نذكر المبتدعة الذين أثبتوا الرؤية ، لكن مع التشبيه ،وهم الذين ابن تيمية وأتباعه وابن أبى العز الذى كتب الشرح على العقيدة الطحاوية شرحا باطلا أيضًا منهم؛ لأنهٗ فى الحقيقة من أتباع ابن تيمية ،وهؤلاء يقولون: إن الله يُرى فى الآخرة فى الجهة ،ونعوذ بالله من هٰذا القول الذى يؤدى إلى كون اللّٰه محدودا محاطا به ،وهٰذا ينافى القرآن ﴿أَلَا إِنَّهٗ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾(حم سجدة: ٥٤) وقد ذكرنا سابقا أن اللّٰه عزوجل لايحيط به أي شيء وهو يحيط بكل شيء كما فى القرآن الكريم. وإحاطته ليست كإحاطة المخلوقين كإحاطة الغرفة بسكانها؛ لأنهٗ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهٖ شَيْءٌ﴾ (الشورىٰ: ١١) فإحاطته كما تليق به تعالىٰ وهو غير محدود وغير محاط به ،فكيف يكون فى الجهة ،وقد رددنا سابقا هٰذه البدعة ،فلاحاجة لإعادة ،وأما قولهم أنهٗ لايُرى إلا مَن فى جهة التى تواجه الرائى ،فهٰذا قولهم مردود بدلائل التى ذكرنا سابقا من الأحاديث أن النبي عليه الصلوٰة والسلام رأى البيت المقدس ،وكان فى مكة ،ورأى الجنة والنار وكان على الأرض ،فلم يكن فى مكان يواجه هٰذه الأماكن ، لكن مع هٰذا رأى هٰذه الأماكنة ،وكذٰلک فى القرآن ﴿وَهُوَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ﴾ (الملک: ١) فلاعجز لله ألبتة ،وكذٰلک استدلالنا بالرؤيا ،فكل ما ذكرنا من الدلائل سابقا كلها مطردة فى هٰذا البيان فى رد هؤلاء المبتدعة المشبهة أيضًا ،فلاحاجة لإعادة ،ثم اعلم أن عقيدة أهل السنة والجماعة أن الله تعالىٰ يُرى لا فى جهة وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالىٰ فى كتابه الوصية :أن الله يُرى فى الآخرة لا فى الجهة ،وقال رحمه اللّٰه تعالىٰ فى الفقه الأكبر :والله تعالىٰ يُرى فى الآخرة ويراه المؤمنون وهم فى الجنة بأعين رؤوسهم بلا تشبيه ولا كيفية ،ولا تكون بينه وبين خلقه مسافة. وأنت قد قرأت ما قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالىٰ: إنهٗ لاتحويه الجهات الست يعنى الفوق والتحت والأمام والخلف واليمين والشمال ،فهو تعالىٰ وتقدس عن أن يكون فى جهة أو مكان ،فهو يُرى فى الآخرة بدون أن يكون فى

مكان أو جهة أواتصال شعاع أو أن تكون لهٗ أشكالا أو صورة أو لونا أو غيرها من صفات الأجسام من المقادير وغيرها من الأشياء؛ لأنهٗ تعالٰى وتقدس وتنزه عن هٰذہٖ كلها ثم كما ذكرنا من الحديث أنهٗ " لن تروا ربكم حتى تموتوا" فرؤية اللّٰه تعالٰى فى الدنيا ممتنعة شرعا ، لكن ليست مستحيلة لأن اللّٰه علٰى كل شيء قدير ، لكن لايجوز وقوعها فى الدنيا للحديث الذى ذكرنا وكذٰلک سيدنا موسٰى عليه السلام لم تقع لهٗ الرؤية فى هٰذه الدنيا وهو كليم اللّٰه تعالٰى ،فماظنک عن غير الأنبياء ،فمن يدعى رؤية اللّٰه تعالٰى فهو زنديق ،وليس من أهل الحق ،وكذاب فى قوله ،وهٰذا على العموم ،ثم قد اختلف فى حق نبينا صلى اللّٰه عليه وسلم هل حصلت لهٗ الرؤية فى المعراج أم لا ؟ وقد ذكرنا سابقا عنه ،وإن شاء اللّٰه العزيز نتكلم عنها مزيدا فيما بعد ، لكن هٰذا فى حقه يعنى من خصوصيته ،ولا نعلم عن أي نبي من الأنبياء عليهم السلام غير نبينا صلى اللّٰه عليه وسلم أنهٗ وقعت لهٗ الرؤية ،ونعرف أن سيدنا موسٰى عليه السلام مع كونه كليم اللّٰه لم تقع لهٗ رؤية ،فالظاهر نفيه فى حق الأنبياء عليهم الصلوات والسلام غيره أيضًا سوا نبينا صلى اللّٰه عليه وسلم الذى قد اختلف فى حقه عن الرؤية ،ثم هٰذہٖ لم تكن فى الأرض ، لكن فى العالم الأعلٰى. وأما غير الأنبياء فلاتجوز فى حقهم الرؤية فى الدنيا كما ذكرنا من الحديث ،وعليه إجماع المسلمين ،فمن أنكر هٰذا فهو ضال مبتدع . وأما رؤية اللّٰه تعالٰى فى المنام وقد ذكرت هٰذه فى الحديث ، وفى ثبوتہٖ نظر ،كما قال الإمام البيهقي رحمه اللّٰه تعالٰى فى كتابہٖ "الأسماء والصفات" "إنى نعست فاستقلت نوما ، فرأيت ربى فى أحسن صورة" و فى ثبوت هٰذا الحديث نظر ،ثم "فى أحسن صورة" لايعنى صورة اللّٰه نعوذ باللّٰه؛ لأن اللّٰه عزوجل تعالٰى وتقدس عن الصور والأشكال ،وذو صورة يحتاج إلى من يصوره ويخصصه بصورة دون صورة وشكل دون شكل ،تعالٰى اللّٰه عن ذٰلک ،فمعنى الحديث لو ثبت يعنى رأى النبي صلى اللّٰه عليه وسلم ربه فى أحسن الوجه يعنى أنهٗ تعالٰى كان راضيا رحيما كريما على النبي صلى اللّٰه عليه وسلم وكيف لا؟ وهو حبيب اللّٰه وخير الخلائق ،وهٰذا هو المعنى إن شاء اللّٰه العزيز ،واللّٰه أعلم. وثم رؤية اللّٰه فى المنام جائزة عند أهل السنة والجماعة لغير الأنبياء عليهم الصلوات والسلام أيضًا ، لكن منام الأنبياء عليهم الصلوات والسلام وحي ،فهو الرؤيا الحق ،وأما رؤيا غير الأنبياء فلايكون قطعيا ،وقد ورد فى الحديث الصحيح أنهٗ من رأى نبينا صلى اللّٰه عليه وسلم فى الرؤيا فقد رآه؛ لأن ليس للشيطان أن يتمثل لهٗ .(صحيح البخاري، ح:١١٠) فعلٰى هٰذا من يرى فى المنام نبينا صلى اللّٰه عليه وسلم يعنى صراحة أنهٗ يراه فى المنام يقول: إنهٗ نبينا صلى اللّٰه عليه وسلم أو يراه كما هو يعنى علٰى صورته وخلقته أو يعرف صورته وخلقته ،فهٰذا الرؤيا الحق ،وهو قد يراه صلى اللّٰه عليه وسلم فى المنام ،ونحن لا ندرى كيف؟ ممكن أن روحه يلتقى روح النبي صلى اللّٰه عليه وسلم أو واللّٰه أعلم كيف؟

فلانخوض نحن فى هٰذا ، لكن نقول ما هو فى الحديث يعنى أنهٗ يراه صلى اللّٰه عليه وسلم ، لكن هل هٰذا مطرد فى حق اللّٰه تعالٰى يعنى الشيطان ليس لهٗ أن يأتي فى منام واحد ويضلهٗ أنهٗ الحق سبحانهٗ وتعالٰى ،ونعوذ باللّٰه ،فنحن لانعلم؛ لأننا لانعرف دليلا ينفى هٰذا ،ونعرف من الأحاديث أن اللّٰه عزوجل سيدع [1] الدجال أن يدعى أنهٗ اللّٰه عزوجل ونعوذباللّٰه ،واللّٰه يُرِىُ علٰى يده بعض الأشياء الخارقة للعادة [2] وثم فى المآل سيقتلهٗ سيدنا عيسى عليه السلام ، لكن اللّٰه سبحانهٗ وتعالٰى لايظهر علٰى يد من يدعى كذبا أنهٗ نبي أشياء خارقة للعادة ، فالفرق أن الأنبياء مخلوقة ،فظاهر أحواله يعنى أمارات الحدوث لاتنافى كونهم نبيًا ،فإذا ادعى كاذب أنهٗ نبي ،فظاهر أحواله لاينافى هٰذا الدعوىٰ ، لكن اللّٰه عزوجل يعطى المعجزات إلى الأنبياء الصادقة لإثبات نبوتهم ،فإذا ادعى كاذب فلايعطيه اللّٰه المعجزة ،فيظهر كذبه ، لكن لو واحد يدعى أنهٗ اللّٰه عزوجل فظاهر أحواله يعنى أمارات الحدوث وثم عجزه ومحدوديته ونقص صفاته كلها تدل علٰى كذبه فلو يعطيه اللّٰه الأشياء الخارقة للعادة ،فهٰذه لاتفيده ولاتنزع عنه أمارات الحدوث والخلق ،فلايضل ولايغتر بها الناس يعنى لايسوغ لهم؛ لأن أمارات الحدوث والخلق فى المدعى ظاهرة ،فيجب النظر إليها ولايغتر بالأشياء الخارقة للعادة علٰى يده ، ويعلم أنهٗ ليس اللّٰه عزوجل؛ لأن اللّٰه عزوجل تعالٰى وتقدس عن أمارات الحدوث والخلق وصفات الأجسام ،فإذا فهمت هٰذا ،فلايكون عدم استطاعة الشيطٰن أن يتمثل بالرسول صلى اللّٰه عليه وسلم دليلا علٰى أنهٗ ليس لهٗ أن يأتي فى منام واحد ،فيُضل أنهٗ الحق سبحانهٗ وتعالٰى ونعوذ باللّٰه ،فواللّٰه أعلم ،هل اللّٰه عزوجل يدع الشيطان أن يأتي فى منام واحد هٰكذا أم لا ؟ [3] وقلنا: إن رؤية اللّٰه تعالٰى جائزة فى المنام لغير الأنبياء عليهم الصلوات والسلام ،وقد ورد تحققه فى حق بعض السلف ،ومنهم الإمام أبوحنيفة رحمه اللّٰه وأحمد بن حنبل رحمه اللّٰه تعالٰى ،وهٰذه الرؤية ليست قطعية [4] وليست رؤية العين، بل رؤية فى المنام ،وثم هٰذا بلاكيف [5] اللّٰه عزوجل ليس لهٗ كيفية ولا ماهية؛ لأنهٗ ﴿لَيۡسَ

---

(١) وهٰذا كله بقدره وقضائه.

(٢) يعنى العادة العامة الجارية فتخرق بالعادة الخاصة المستثناة من العادة العامة.

(٣) يعنى ويدعى ويضل أنهٗ الحق سبحانهٗ وتعالٰى (ونعوذباللّٰه) .

(٤) يعنى قد يخطئى غير النبي ويظن أنهٗ حصلت لهٗ الرؤية والحقيقة خلاف ذلك وقد بيّنّاه.

(٥) وهٰذا يبيّن ويشرح قول الإمام أبو منصور الماتريدي رحمه اللّٰه تعالٰى فى ردّ علٰى من زعم أنهٗ يرى اللّٰه سبحانهٗ وتعالٰى فى المنام وهو محمول لو هو يرى أشكالاً وصورا ويزعم أنهٗ هو اللّٰه سبحانهٗ وتعالٰى (ونعوذ باللّٰه) وهٰذا تجسيم وكفر لامحالة وكذلك لو يستطيع أن يكيّف ويتخيّل ما قد راى؛ لأن هٰذا أيضًا تجسيم ـ ،لكن لو هو يرى بلا كيف ولا تخيل ولا شكل ولا صورة فهٰذا هو رؤية اللّٰه تعالٰى فى المنام .

كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١) وعند ما فرعون سأل عن الماهية، فقال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: ٢٣) وهذا سؤال غلط منه؛ لأن الله عزوجل تعالى وتقدس عن الجنس والمجانسة والماهية وسؤال عن من أي جنس هو، والله تعالى الواحد الأحد الصمد [1] ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١١) فموسى عليه السلام لم يجب هذا السؤال، بل تكلم عن ربوبيته ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ (الشعراء: ٢٤) فتعالى وتقدس عن الماهية والكيفية.

(٢) هذا بيان بعض الأمور التى تتعلق بهذا الباب فى وجه، ومنها أولا أننا نحن ذكرنا الرؤيا ودلالته على الرؤية بدون المواجهة والمقابلة وغيرها من الأشياء. ثم الرؤيا أيضًا يدل على سمع الكلام النفسي؛ لأن النائم فى المنام يسمع أشياء حتى يقول النائم عند ما يستيقظ أنهُ سمع فى المنام كذا وكذا، لكن ليس هناك صوتاً على الإطلاق، وهذا معلوم، فالنائم قد يرى فى منامه أباه وأمه يتكلمان معهُ فى بيته، وهو يسمعهما، وحينئذ أبوه وأمه موجودان فى بيتهما، وكل واحد منهما فى شغل على حدة، فالنائم يسمع الكلام فى الرؤيا ويفهمه ولا صوت، فهذا أيضًا دليل قاطع بالمشاهدة على سمع الكلام دون صوت، فيكون دليلا لنا على ما ذكرنا سابقا في باب الكلام على ابن تيمية وأتباعه، وأيضًا على الشيخ أبو منصور الماتريدي رحمه الله تعالى. وقد فصلنا هذا البيان قبلا فلاحاجة لإعادة.

وثانيا أننا نحن ذكرنا تفصيلا أن الله عزوجل تعالى وتقدس عن الجهات والأماكن، ورددنا ابن تيمية وأتباعه فى إثباتهم الجهة لله تعالى، وأجبنا بالأجوبة القاطعة ما استدلوا بالدلائل باطلا، والآن فى هذا الباب عن رؤية الله تعالى قد ذكرنا عن نفي الجهة لله عزوجل أيضًا، وقد جاء فى خاطر العبد الضعيف غفر الله لهُ الحديث الذى ابن تيمية وأتباعه يستدلون منه أيضًا، وقد أجبناهم بالأجوبة القاطعة عن استدلالاتهم الأكثر، فلماذا لا نجيبهم على هذا الاستدلال أيضًا لتكون عليهم الحجة الكاملة، فالحديث رواه البخاري وهو قول أم المؤمنين زينب رضي الله تعالى عنها كانت تفخر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم تقول: "زوجكن أهاليكن وزوجنى الله تعالى من فوق سبع سمٰوات." (صحيح البخاري، ح: ٧٤٢٠). وأيضًا عنها كانت تقول: "إن الله أنكحنى فى السماء." (صحيح البخاري، ح: ٧٤٢١) وهذا استدلال عجيب منهم ويدل على قصور فهمهم؛ لأنهم قد اقتصروا على ظاهر الكلمات ولم يلفوا على معانيها، وغايتها، ونحن قد ذكرنا الدلائل القاطعة فى رد إثبات الجهة لله تعالى وأنهُ تعالى وتقدس عن أن يكون فى جهة، وأيضًا قد ذكرنا أن السلف الصالح اتفقوا على نفي الحدود والغاية عن الله عزوجل، وهذا لايكون إلا أن يكون متعاليا عن الجهات؛ لأنهُ

(١) الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن لهُ كفوا أحد

من فى جهة مخصوصة فلا بد لهٗ من أن يكون محدودا ،وتعالىٰ اللّٰه عن ذٰلک ،وأنت كما ترىٰ الإمام الطحاوي رحمه اللّٰه تعالىٰ يقول "لاتحويه الجهات الست". الآن نفسر الحديث ،والحديث ليس فيه أي دليل لابن تيمية وأتباعه قطعا وبتاتا لعقيدتهم الفاسدة ،فما هو معنى الحديث؟ فنحن نرىٰ أنها تفخر علىٰ أزواج النبي عليه السلام علىٰ أن تزويجه من اللّٰه تعالىٰ ،وما معنى التزويج فى الحديث؟ فلايمكن أن يقال: إن معناه خلق التزويج؛ لأن علىٰ هٰذا لاتكون لها مزية لأن اللّٰه تعالىٰ يخلق الزواج كلها ،فإذا الولى يزوج المرأة تحتها ،فاللّٰه عزوجل خالق أفعاله كلها ،فهو خالق الزواج كلها ،فعلىٰ هٰذا لاتكون لها أي مزية حتىٰ تفخر على الأزواج الأخرى للنبي صلى اللّٰه عليه وسلم ،فهٰذا الشيء هو الشيء الذى هي تختصّ به ،وهو قول اللّٰه عزوجل فى سورة الأحزاب عنها رضي اللّٰه عنها ﴿زَوَّجْنٰكَهَا﴾ (الأحزاب:٣٧) يعنى أيها النبي عليه الصلوٰة والسلام نحن زوجناک بها ،وهٰذا هو الاختصاص تختص بها على الأزواج الأخرى للنبي عليه السلام ،ثم المعلوم أن جبريل عليه الصلوٰة والسلام كان يتلقى القرآن من اللّٰه تعالىٰ فى السماء ،وينزل على النبي عليه الصلوٰة والسلام به ﴿وَإِنَّهٗ لَتَنْزِيْلُ رَبِّ الْعٰلَمِيْنَ نَزَلَ بِهِ الرُّوْحُ الْأَمِيْنُ عَلٰى قَلْبِكَ لِتَكُوْنَ مِنَ الْمُنْذِرِيْنَ﴾ (الشعراء:١٩٢-١٩٤) وهٰكذا نزل عامة القرآن ،فيشمل ﴿زَوَّجْنٰكَهَا﴾ (الأحزاب:٣٧) فقالت هي رضي اللّٰه تعالىٰ عنها إن اللّٰه عزوجل زوجها وأنكحها فى السماء من فوق سبع سمٰوات؛ لأن جبريل عليه السلام تلقى هٰذا ﴿زَوَّجْنٰكَهَا﴾(الأحزاب:٣٧) فى السماء عند العرش ،واللّٰه عزوجل مستوى علىٰ عرشه كما يليق بشانه ،فالملائكة يتلقون الخطاب من اللّٰه تعالىٰ فى السماء عند العرش وكما سيدنا موسىٰ عليه السلام يكلم اللّٰه ويكلمه اللّٰه على الطور ،وهٰذالايعنى أنهٗ متحيز فى جهة الطور ،فكذٰلک الملائكة يكلمهم اللّٰه عزوجل ،وهٰذا لايعنى أنهٗ متحيز فى جهة العرش ،وكما قال سيدنا موسىٰ عليه السلام للّٰه عزوجل على الطور ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضٰى﴾ (طٰه:٨٤) وهٰذا؛ لأنهٗ يكلم اللّٰه وهو يعنى سيدنا موسىٰ عليه السلام على الطور ،فإذا نقول أنه عليه السلام سمع قول اللّٰه عزوجل على الطور ،فلاتعنى أن اللّٰه متمكن على الطور ،فكذٰلک لأن جبريل عليه السلام تلقى هٰذا القول ﴿زَوَّجْنٰكَهَا﴾(الأحزاب:٣٧) عند العرش فى السماء وينزل به على النبي عليه السلام ،فقالت هي رضي اللّٰه تعالىٰ عنها: إن اللّٰه تعالىٰ زوجها فى السماء من فوق سبع سمٰوات ،ولاتعنى أن اللّٰه متمكن فى السماء فوق سبع سمٰوات ،وهٰذا لايجوز فى حق اللّٰه تعالىٰ قطعا وبتاتا وثم نحن قد بينا أنهٗ "فى السماء" معناه علوه وارتفاعه ولا من حيث المكان والجهة، بل كما يليق بشانه . ، فافهم، واللّٰه يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم. وثالثا: أننا ذكرنا الحديث "إنى نعست ،فاستثقلت نوما ،فرأيت ربى فى أحسن صورة ." (سنن الترمذي، ح:٣٢٣٤) إلى آخرها ،وهٰذا الحديث فى ثبوته نظر ، لكن الآن

نذكر هذا الحديث؛ لأننا نريد أن نفسر بعض الأمر فيه ،وقد رواه الحديث الترمذي بروايات باختلاف قليل ،فنذكره فهو عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه قال: احتبس عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات غداة من صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى عين الشمس ،فخرج سريعا ،فثوّب بالصلوة فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وتجوز فى صلاته. فلما سلم دعا بصوته ،فقال لنا "على مصافكم كما أنتم" ثم انفتل إلينا ، ثم قال: "أما إنى سأحدثكم ما حبسنى عنكم الغداة، إنى قمت من الليل ،فتوضأت فصليت ما قدر لى ،فنعست فى صلاتى فاستثقلت ،فإذا أنا بربى تبارك وتعالى فى أحسن صورة ،فقال: يا محمد! قلت: رب لبيك رب ،قال فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت: لا أدرى رب ،قالها ثلاثا ،قال: فرأيته ووضع كفه بين كتفى. قد وجدت برد أنامله بين ثديّ ،فتجلى لى كل شيء وعرفت ،فقال: يا محمد! قلت لبيك رب ،قال: فيم يختصم الملأ الاعلى؟ قلت: فى الكفارات، قال ما هن: قلت مشي الأقدام إلى الجماعات والجلوس فى المساجد بعد الصلوة وإسباغ الوضوء فى المكروهات ،قال ثم فيم؟ قلت: إطعام الطعام ولين الكلام، والصلوة بالليل والناس نيام. قال: سل. قلت : اللهم إنى أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لى وترحمنى، وإذا أردت فتنة فى قوم ، فتوفنى غير مفتون. وأسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقرب إلى حبك." قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إنها حق فادرسوها ثم تعلموها." (سنن الترمذي ، ح:٣٢٣٥) وفى رواية "فوضع يده بين كتفى حتى وجدت بردها بين ثديّ. أوقال. فى نحرى . فعلمت ما فى السماوات وما فى الأرض." (سنن الترمذي ، ح:٣٢٣٣) وفى رواية "فوضع يده بين كتفى حتى وجدت بردها بين ثديّ ، فعلمت ما بين المشرق والمغرب" (سنن الترمذي، ح: ٣٢٣٤) هذا الحديث كما ذكرنا أنهٔ قال الإمام البيهقي رحمه الله تعالى: إنهٔ فى ثبوته نظر ، لكن مع تسليم ثبوته هو خبر واحد ،وظاهره يناقض أصول الدين القاطعة المعلومة من القرآن والسنة المتواترة والإجماع.

والمعلوم أن لو خبرا واحدا يناقض أصول الدين ،فلا بد من إما رد الحديث بالكلية أو إما تأويلهٔ فى وجه يلائم أصول الدين ولايناقضه ،فبعد هذا التمهيد نقول: لو نسلم الحديث ولانرده ،فلا بد من تأويله ،ونحن ذكرنا تاويلا للقول "فى أحسن صورة" فلاحاجة لإعادته. الأن نتكلم عما بقي وهو القول "فرأيته ووضع كفه بين كتفى." وفى رواية "فوضع يده بين كتفى" وهذا القول ظاهره قطعا وبتاتا لايجوز فى حق الله تعالى بإجماع المسلمين؛ لأنهٔ يؤدى إلى الاتحاد بين الخالق والمخلوق ،وهذا كفر بواح ،وابن تيمية وأتباعه يكفّرون من قال بالتحاد بين الخالق والمخلوق ،فعليهم أن لايتخذوا هذا القول على معنى اللمس كما نحن لانتخذه على معنى اللمس؛ لأنهٔ الاتحاد

بين اللّٰه وغيره. وثم اللمس يكون من الجسم ،ونحن قد ذكرنا الدلائل القاطعة أن اللّٰه ليس بجسم ،وهٰذا بإجماع المسلمين ،ومن قال: إنهٗ جسم فقد كفر باللّٰه وحدهٗ ،وأيضًا هٰذا كلهٗ ذكر عن المنام ،فقولهٗ صلى اللّٰه عليه وسلم "فوضع يده بين كتفيّ" إن صح وثبت ، ذكر عن المنام ،فإذا علم أنهٗ ليس علٰى معنى اللمس ،والمعلوم أن اللّٰه عزوجل ليس بذى أعضاء وجوارح كما ذكرنا بالتفصيل بالدلائل القاطعة ،فمعنى "فوضع يده بين كتفيّ." واللّٰه أعلم قد يكون خلق نعمته بين كتفيّ ،واليد فى اللغة العربية تجوز أن تكون علٰى معنى النعمة ،ثم القول "قد وجدت برد أنامله بين ثدييّ" وفى رواية "حتٰى وجدت بردها بين ثدييّ." وأما ذِكر النحر فالغالب أنهٗ خطأ من الراوى؛ لأن الروايات الأخرى تقول "بين ثدييّ" وأما ذكر الأنامل فليس إلا فى رواية واحدة التى ذكرنا وأما ما عداه فمعناه قد يكون واللّٰه أعلم حتٰى وجد برد هٰذه النعمة بين ثديى يعنى فى القلب. ولو نسلم ذكر الأنامل الذى فى رواية ،فواللّٰه أعلم قد يكون معناه انطباع هٰذه النعمة كما الأنامل تطبع خطوطه علٰى شيء ،فانطبع هٰذه النعمة على القلب هٰكذا.

ثم قولهٗ صلى اللّٰه عليه وسلم لو صح وثبت الحديث "فتجلى لى كل شيء وقد عرفت." وفى رواية "فعلمت ما فى السمٰوات وما فى الأرض" وفى رواية "فعلمت ما بين المشرق والمغرب." ومعناه يعنى هٰذه النعمة التى وجدتها فى القلب كانت عليّ علما عما سألنى اللّٰه عزوجل كما فى الحديث "فتجلّٰى لى كل شيء" عن هٰذا السؤال ،وعلمت كل شيء فى السمٰوات والأرض، ما بين المشرق والمغرب، الذى يتعلق بجواب هٰذا السؤال ،وثم أجاب رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم عن هٰذا السؤال. فقول "فتجلى لى كل شيء من قبيل كما فى القرآن ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ (الأحقاف:٢٥) والمعلوم أن هٰذا الريح الذى أرسل إلى عاد لم تدمّر كل شيء على الإطلاق، بل معناه يعنى كل شيء يعنى عاد وأشياء هم حتٰى لايرىٰ إلا مساكنهم ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ (الأحقاف:٢٥) وكذٰلك عن الملكة لسبأ ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ (النمل:٢٣) والمعلوم أنها لم تعط من كل شيء ،فمثلاً لم تعط من ما هي خصوصيّات الرجال ؛لأنها كانت امرأة ،وكذٰلك أشياء لانستطيع إحصائها لم تعطها ،فمعنى يعنى أوتيت من جميع الأشياء التى تعطى منها ملكة ما فى العرف. فكذٰلك معنى الحديث "فتجلى لى كل شيء" لايعنى كل شيء على الإطلاق البتة ؛ لأنهٗ معلوم أن الرسول عليه الصلوات والسلام وكذٰلك الخلق كله لايعرف أي واحد منهم كل شيء، بل هٰذا من صفات اللّٰه تعالٰى ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (الإخلاص:٤) لا فى ذاته ولا فى صفاته ،وكما فى الحديث عن سيدنا موسٰى عليه السلام وسيدنا الخضر عليه السلام أنهٗ قال الخضر عليه السلام لموسٰى عليه السلام "واللّٰه ما علمى وما علمك فى جنب اللّٰه إلا كما أخذ هٰذا الطائر بمنقاره

من البحر." (صحيح البخاري، ح:٤٧٢٦) وثم هذا فقط على وجه التمثيل وإلا ما أخذ الطائر بمنقاره من البحر لهٗ مقارنة بما فى البحر فى وجه ما ، لكن ليس هناك مقارنة لعلم الخلق بعلم الخالق؛ لأن علم الخالق غير محدود ،وعلم الخلق محدود ،ولا مقارنة لمحدود بما ليس بمحدود. ثم فى القرآن ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ (يس:٦٩) وفى القرآن ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ (التوبة:١٠١) وفى القرآن ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ (الأنعام:٥٠) وفى القرآن ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ (الأعراف:١٨٩) وفى القرآن ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾(الأنعام:٥٩) وفى القرآن ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (النمل:٦٥)وفى القرآن ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ (الأعراف:١٨٧) وفى القرآن ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (التوبة:٤٣) وهذا فى الذين قالوا: نستأذن فى الجلوس عن الجهاد ،فإن أذن لنا جلسنا وإن لم يؤذن لنا جلسنا وهم المنافقون ،فقال الله تعالىٰ لنبيه صلى الله عليه وسلم مع لطفه ورحمته عليه أنهٗ لما أذن لهم؛ لأنهٗ لو لم يأذن لهم لجلسوا عن الجهاد بدون الإذن ،فينكشف نفاقهم؛ لأن الرسول عليه الصلوٰة والسلام لايعرف أحوال قلوبهم، بل بما أظهروا من أحوالهم ،وكذٰلك فى الحديث قد ذكرنا سابقا أنهٗ يكون الناس يأتون إلى حوض النبي صلى الله عليه وسلم والرسول عليه الصلوات والسلام يعرفهم ؛لأنهم آمنوا فى حياته عليه الصلوات والسلام فى هٰذه الدنيا ، لكن ثم ارتدوا ،فجاهدهم الصحابة رضي الله عنهم فى خلافة الصديق رضي الله تعالىٰ عنه كما هو معروف ،فإذا يأتون إلى الحوض فى المحشر منعوا منه ،ويقول الرسول عليه الصلوات والسلام "هؤلاء أصحابى" فيقال لهٗ: "إنك لاتدرى ما أحدثوا بعدك" وفى رواية سيقول الرسول عليه الصلوات والسلام: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾.(المائدة:١١٧) (صحيح البخاري، ح:٤٦٢٥) والقرآن والحديث مملوء بهٰذا ،وهٰذا معلوم من الدين بالضرورة لاخفاء فيه أن الرسول عليه الصلوات والسلام لم يعط علم كل شيء ألبتة ، بل يعط من علم حظ وافر ، لكن علمه بنسبة علم الله تعالىٰ لاشيء ألبتة ؛ لأنهٗ لا مقارنة بين علم الله وما يعطى منه غيره ،فلايمكن أن يؤخذ "فتجلى لى كل شيء" على معنى الإطلاق؛ لأنهٗ يخالف أصول الدين الثابتة بالقرآن والسنة المتواترة والإجماع وثم يخالف سياق نفس الحديث؛ لأنهٗ بحسب اللغة "كل شيء" فى سياق الحديث لايعنى على الإطلاق لبتة ، بل بمايتعلق السؤال الذى فى نفس الحديث ،وكذٰلك "فعلمت ما فى السمٰوات والأرض" "فعلمت ما بين المشرق والمغرب." هٰذه كلها علىٰ نفس المعنى يعنى بما يتعلق السؤال وإلا يخالف أصول الدين ،فيكون الحديث مردودا بالكلية ،وهو خبر الواحد ،وثم فى ثبوته نظر أيضًا ،وأيضًا سياق

الحديث يدل على أن معنى هذه العبارات هو ما يتعلق به السؤال ،وأيضًا ما بين المشرق والمغرب في الأرض يشمل من الفحشاء والمنكرات ،فكيف يليق للنبي الكريم عليه الصلوات والسلام العلم والتجلي عن هذه الأشياء ،وهذا لايقول المسلم ،وثم كما أثبتنا من القرآن أن الرسول عليه الصلوات والسلام لم يكن يعرف ما في المدينة إلا أن يشاهده بنفسه أو أعلمه إنسان آخر أو أعلمه الله تعالى بالوحي ،وكما ترى أنهٗ لم يكن يعرف المنافقين في المدينة ،وحتى في البخاري أنهٗ عليه الصلوٰة والسلام صلى بأصحابه رضي الله عنهم مرة ،وقال عند ما رفع رأسه من الركوع "سمع الله لمن حمده" قال رجل : "ربنا لك الحمد حمداً كثيراً طيّباً مباركاً فيه"، فلما انصرف قال : من المتكلم، قال: أنا. قال: رأيت بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرونها: أيهم يكتبها الأول. (صحيح البخاري، ح: ٧٩٩) وهذا المتكلم المصلي خلف النبي عليه الصلوات والسلام ولم يعرف أنهٗ هو المتكلم بهذه العبارة ،فما ظنك عن الآخرين؟ فأخذ هذا يعني "فعلمت ما في السمٰوات والأرض" على الإطلاق يخالف النصوص القطعية ،وهذا يجعل هذا الحديث واجب الرد إلا يمكننا أن نأخذه على المعنى الصحيح ،وهو أن معناه ما يتعلق بالسؤال في الحديث ،وهو "فيم يختصم الملأ الأعلى"؛ لأن النصوص القطعية تصرح أن الرسول عليه الصلوات والسلام لم يعرف كل شيء ما في السمٰوات والأرض لا في حياته عليه الصلوٰة والسلام ولا بعدهٗ ، فإنهٗ عليه الصلوات والسلام كما ذكرنا من الحديث عن الحوض في المحشر ،وهذا الحديث عن هذه الحادثة في المحشر متواتر مشهور ،ونحن قد فصلنا عن هذا سابقا ،فلم تكن حاجة لإعادة ، لكن ذكرنا هذا البيان مزيدا عليه؛ لأنهٗ هناك المشركون كثيرة كمثل الطائفة البريلوية ،وهؤلاء هم المشركون يزعمون أنهم مسلمون ولاعلاقة لهم مع الإسلام ،فيشركون بالله في ذاته وصفاته ،فيصفون غير الله بصفات الله تعالى ،ومنها علمه تعالى ،فذكرنا هذا مزيدا ردا عليهم بليغا شديدا. وهذا كما في الحديث في الصحيح المسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما، ما ترك شيئًا يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدّث به، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه. قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء قد نسيته فأراه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه ." (صحيح مسلم، ح: ٢٨٩١) وهذا الحديث مراده الفتن يعني الرسول عليه الصلوات والسلام أخبر عن الفتن [1] إلى أن

---

(١) التنبيه: وهذا لايلزم جميع الفتن بالتفصيل، بل هذا ليس بمراد؛ لأن كما ترى أن الرسول عليه الصلوات والسلام في الحديث عن الحوض في المحشر يخبر عن بعض الناس أنهم ارتدوا على أدبارهم وأحدثوا أشياء التي ليست من الإسلام ،فثبت أنهٗ لم يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جميع الفتن بالتفصيل، بل مراد الحديث والله أعلم الفتن المعيّنات الذي أخبر عنها الرسول عليه الصلوات والسلام على قدر ما أخبر منها إجمالا أو تفصيلاً ،ولاشك أن الله عزوجل قد أعطاه من العلم ما لم يعط أحدا من العالمين ،لكن مع هذا لانسبة لعلمه بعلم الله المحيط ،فلايعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بما في السمٰوات والأرض ،ولايعرف الغيب.

تقوم الساعة وليس المراد كل شيء ،ولهذا سيدنا حذيفة رضي الله تعالى عنه قال : إنهٔ يرى من هذه الفتن شيئاً ،فيذكر أن النبي عليه الصلوات والسلام قد أخبر عنه وهذا ظاهر من يقرأ الحديث ويفهمه ،ولهذا في رواية أخرى صرّح به حذيفة رضي الله عنه ،فقال: والله! إني لأعلم الناس بكل فتنة هي كائنة، فيما بيني وبين الساعة، وما بي إلا أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم أسرّ إليَّ في ذلك شيئا ،لم يحدثه غيري، و لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يحدّث مجلساً أنا فيه عن الفتن ،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يعدّ الفتن "منهن ثلاث لايكون يذرن شيئا، ومنهن فتن كرياح الصيف، منها صغار ومنها كبار، قال حذيفة رضي الله عنه فذهب أولئك الرهط كلهم غيري" في صحيح مسلم. (ح: ٢٨٩١) هٰذا؛ لأن في العرف يفهم الكلام من سياقه ،فإذا قال واحد "كل شيء" فيفهم من سياقه ما ذا مراده ،فيحمل عليه والصحابي حذيفة رضي الله عنه عند ما قال : ما ترك شيئًا إلا حدث به. فالسامعون يفهمون أنهٔ يتكلم عن الفتن ولم تكن حاجة لنا أن نتكلم عن هذه الأمور ؛ لأنها ظاهرة لاخفاء فيها ، لكن قد ظهر المشركون ،فهم يحرّفون الأحاديث مثل هذه ، فلهذا ذكرنا وبيّنا عنها وأنت كما ترى هذا الصحابي نفسه رضي الله عنه بيّن أن مراده هي الفتن في حديثه الآخر، وكذلك الحديث عن رؤية الله تعالى في المنام وكلامه مع النبي صلى الله عليه وسلم ،مراده مفهوم من سياقه ،وهو أن الله عزوجل سألهٔ عليه الصلوات والسلام عما يختصم الملأ الأعلى فيه؟ ولم يعرف النبي صلى الله عليه وسلم جوابه ،فأعطاه الله علماً عن هذا ،فعرفه وأجاب . والمعلوم أن سؤال الله تعالى ليس لاستخبار؛ لأنهٔ يعلم كل شيء أزليا أبديا، بل لكي يعرف نبيه صلى الله عليه وسلم ويبلّغه إلى أمته صلى الله عليه وسلم . وهذا هو معنى الحديث ،وما بقي من الحديث فهو ظاهر ما فيه إشكال ،ولايجوز التحوّل من هذا المعنى وإلا الحديث يكون واجب الرد بالكلية لمخالفته أصول الدين الثابتة القاطعة ،، فافهم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

ورابعاً: نريد أن نفسر بعضا من الحديثين اللذين يتكلمان عن رؤية الله تعالى ،فنريد أن نشرح منهما ما يتعلق بالرؤية ،فهما مرويان عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه وأبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه. ونحن نذكرهما ،فنذكر ما يتعلق بالرؤية. "عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن أناسا قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يارسول الله! هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تضارّون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يارسول الله! قال : هل تضارّون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يارسول الله! قال: فإنكم ترونه كذلك، يجمع الله الناس يوم القيامة. فيقول: من يعبد شيئًا فليتبعه، فيتبع من يعبد الشمس الشمس ،ويتبع من يعبد القمر القمر، ويتبع من يعبد الطواغيت الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله في صورة غير صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم ،فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا

ربنـا، فإذا جـاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله فى صورته التى يعرفون، فيقول: أنا ربكم فيقولون: أنت ربنا إلى آخر." (صحيح البخاري، ح: ٦٠٨٠)

وعن أبى سعيد الخدري رضي الله تعالىٰ عنه "..............حتىٰ إذا لم يبق إلا من كان يعبد اللّٰـه تعالىٰ من برّ وفاجر، أتاهم رب العالمين فى أدنى صورة من التى رأوه فيها ،قال: فماذا تنتظرون؟ تتبع كـل أمة مـا كانت تعبد، قالوا: فارقنا الناس فى الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم ونحن ننتظر ربنا الذى كنا نعبد، فيقول: أنا ربكم. فيقولون: نعوذ باللّٰه منك، لانشرك باللّٰه شيئا مرتين أو ثلاثا. حتىٰ إن بعضهم ليكاد أن ينقلب، فيقول: هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها؟ فيقولون: نعم فيكشف عن ساق، فلا يبقى من كان يسجد للّٰه من تلقاء نفسه إلا أذن اللّٰه له بالسجود ، ولايبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل اللّٰه ظهره طبقة واحدة، كلما أراد أن يسجد خرّ على قفاه، ثم يرفعون رؤوسهم، وقد تحول فى صورته التى رأوه فيها أول مرة. فقال: أنا ربكم فيقولون: أنت ربنا... إلى آخر." (صحيح البخاري، ح: ٤٥٨١)

بعد ذكر من الحديثين ما يتعلق بالرؤية ندخل فى تفسير هذا الحديث وشرحه ،ونسأل اللّٰه تعالىٰ هداية والثبات على الصراط المستقيم والتفسير الذى هو الحق والصواب.

قول الرسول عليه الصلوات والسلام "فإنكم ترونه كذلك." لايعنى التشبيه بين رؤية الشمس والقمر ورؤية اللّٰه تعالىٰ قطعا وبتاتا لأنهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورىٰ: ١١) بل معناه فقط كما هو ظاهر من سياق الحديث أنكم كما لا تضارّون فى رؤية الشمس ليس دونها سحاب ورؤية القمر ليلة البدر ،فكذلك لا تضارّون فى رؤية اللّٰه تعالىٰ ،وهكذا جاء فى الحديث عن أبى سعيد الخدري رضي اللّٰـه تعالىٰ عنه "ما تضارّون فى رؤية اللّٰه تبارك وتعالىٰ يوم القيامة إلا كما تضارّون فى رؤية أحدهما." والمعنى لايضر بعضكم بعضا فى رؤية اللّٰه ،فالكل من الذين يختارهم اللّٰه للرؤية يراه بدون أن يخل برؤية آخر منهم ،وهذا لأن اللّٰه عزوجل تعالىٰ وتقدس عن الجهات والأماكن ،فكل واحد من هؤلاء يروه بدون أن يخل ويضر رؤية آخر منهم ،فهذا هو المعنى وأما الرؤية نفسها ،فلا تشبيه برؤية اللّٰه تعالىٰ برؤية الشمس والقمر؛ لأنهُ لا تشبيه بين الخالق والمخلوق ،فالشمس والقمر يُران بالمواجهة واتصال الشعاع ،ويكون بينهما وبين الرائى المسافة ،واللّٰه عزوجل يُرى بلامواجهة واتصال الشعاع ،ولايكون بينه وبين خلقه مسافة ،وقد بيّنا هذا قبلا.

قول الرسول عليه الصلوات والسلام "وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ،فيأتيهم اللّٰه تبارك وتعالىٰ." لايعنى أن المنافقون يرونه تعالىٰ أيضا يوم القيامة ؛ لأن فى الحديث عن أبى سعيد الخدري رضي اللّٰه تعالىٰ عنه هكذا "حتىٰ إذا لم يبق إلا من كان يعبداللّٰه تعالىٰ من برّ وفاجر." فالمنافق عبر عن

الفاجر فى الحديث عن أبى سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه ،والمنافق هم من الفجار ،هذا معلوم ضرورة لايحتاج إلى دليل فى أيّ حال ،وفى القرآن ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ "إلى" كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾(المطففين:٧-١٥) فبيّن أن الفجار فى يوم القيامة ليكونوا محجوبين عن الله عزوجل ،وهذا نص قطعي ،فلا بد من حمل الحديثين على ما يوافق الآية ،فيكون المنافقون موجودين مع المسلمين ،فيريهم الله نفسه ،فالمسلون يرونه ،والمنافقون الفاجرون يكونون محجوبين عن هذه الرؤية.

قول الرسول عليه الصلوات والسلام "فيأتيهم الله تبارک وتعالى فى صورة غير صورته التى يعرفون ،فيقول: أنا ربكم ،فيقولون: نعوذ بالله منک، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه." وفى حديث أبى سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه "أتاهم رب العالمين (سبحانهٗ وتعالى) فى أدنى صورة من التى رأوه فيها ،قال: فماذا تنتظرون؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد، قالوا: ياربنا فارقنا الناس فى الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منک لانشرک بالله شيئًا مرتين أو ثلاثا حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب."

ففى حديث أبى سعيد الخدري رضي الله تعالى عنهم "أتاهم رب العالمين (سبحانهٗ وتعالى) فى أدنى صورة من التى رأوه فيها." (صحيح البخاري، ح: ٤٥٨١) والمعلوم أنهم لم يرو سبحانهٗ وتعالى قبل يوم القيامة ،فما ذا معناه؟ فالجواب إن شاء الله العزيز أنهٗ يفسره ما فى حديث أبى هريرة رضي الله تعالى عنه وهو "فيأتيهم الله تبارک وتعالى فى صورة غير صورته التى يعرفون." (صحيح مسلم، ح: ١٨٢) فمعنى "من التى رأوه فيها" يعنى المعرفة كما فى حديث أبى هريرة رضي الله تعالى عنه ،ثم يقول الحديث: "فيقول: أنا ربكم." فيقولون: نعوذ بالله منک، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، وفى حديث أبى سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه: "فيقولون: نعوذ بالله منک لانشرک بالله شيئا." فههنا أمور لابد من ملاحظتها أولا: ما هو المعنى فيأتيهم الله تعالى ،والمعلوم أن الله عزوجل لايتمكن فى مكان ،فلايمكن حمله على الانتقال ،فماذا معناه؟ ثانياً : "فى صورة غير صورته التى يعرفون." والمعلوم أن الله عزوجل تعالى وتقدس عن الصور والأشكال ؛لأنها من سمات الحدوث ،فماذا معنى الصورة فى الحديث؟ ثم ما هو المعنى "غير صورته التى يعرفون" حتى هم ينكرون ويجحدون عندما يسمع ممن لهٗ هذه الصورة يقول "أنا ربكم." فيقولون: "نعوذ بالله منک"

فالجواب بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز أنهٗ معلوم أن الله عزوجل تعالى وتقدس عن أن يكون فى مكان ، وكذلک الانتقال والحركة ،فلايجوز حمل الإتيان على هذه المعانى ،فعندما نحن نرى فى القرآن عن إتيان الله عزوجل فمثلاً فى سورة الحشر ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ

الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (الحشر: ٢) وهٰذه الآية تتكلم عن اليهود ،والمعلوم أنهُ لايعنى "فأتٰهم الله من حيث لم يحتسبوا." على الظاهر ،وهٰذا معلوم لايخالف فيه ،فهومحمول علٰى أمره وعذابه ،وثم المعلوم أنهُ يكون معنى إتيان الأمر والعذاب أن الله عزوجل عذبهم مباشرة أو بأيدى المسلمين بأمره وبفعله الأزلي. وكذٰلك النظر فى قوله تعالٰى فى سورة المؤمنون ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ (المؤمنون: ٧١) والذكر هو القرآن ،والمعلوم أن القرآن لم يعطوه مباشرة من عند الله تعالٰى، بل بواسطة نبينا صلى الله عليه وسلم ،وهو الذى أتاهم بالقرآن ، لكن الله عزوجل نسبه إلى نفسه ،فقال ﴿أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾؛ لأن النبي عليه الصلوات والسلام يبلغهم القرآن بأمر الله ومن عنده. فثبت أن الإتيان فى حق الله تعالٰى يجوز أن يحمل علٰى فعل [1] من أفعاله كما نرى فى حق اليهود عبر تعذيبهم بأمره عن ﴿فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ (الحشر: ٢) وكذٰلك يجوز أن يحمل علٰى أن الإتيان فى الحقيقة من غيره ، لكن نسب إليه؛ لأنهُ بأمره كما نسب إتيانهم النبي عليه السلام بالقرآن إلى نفسه تعالٰى ،وثم كل هٰذا يكون معلوما بالغور علٰى سياق الكلام ،فإذا فهمت هٰذا فنرجع إلى الحديث ،فالحديث يتكلم عن إتيان الله فى صورة غير صورته التى يعرفون. ونحن نعلم أن المسلمون يعرفون ربهم أنهُ واحد لاشريك له، ونحن نعرف أنهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾(الشورى: ١١) فنعرف أنهُ لايشابه شيئًا ولايشابهه شيء ،ونعرف أنهُ تعالٰى وتقدس عن أمارات الحدوث ،فليس جسما ولا عرضا ،ولاتقوم به الحوادث ،وليس لهُ الأعضاء والأجزاء والجوارح ،ولايتمكن فى المكان والجهة ،ولايحيط به شيء ،فهو الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ،ولم يكن لهُ كفوا أحد. فنحن نعرف كل هٰذا عن ربنا تعالٰى وتقدس ،فالمعنى "غير صورته التى يعرفون." يعنى علٰى غير هٰذه الصفات الكمالية التى ذكرنا ،ولهٰذا عند ما يرونه ينكرون أنهُ الله عزوجل ،وهٰذا يثبت على القطع أنهُ لم يكن الله عزوجل؛ لأن الله عزوجل هو المتصف أزليا أبديا بالصفات الكمالية والمتقدس والمتنزه عن سمات الحدوث أزليا أبديا ،والقديم الأزلي لايتغير ،فالمستحيل أن يكون هٰذا الله عزوجل؛ لأنهُ يخالف كونه متصفا بالصفات الكمالية ومتقدسا عن أمارات الخلق والحدوث وهٰذا محال ،ومن الأمور التى يناقض بعضه بعضا كما بيّناسابقا؛ لأنهُ يناقض كونه أزليا أبديا متصفا بصفات الكمال وفى الحقيقة هو الأزلي الأبدي المتصفبالصفات الكمالية المتقدس عن أمارات الخلق والحدوث ،فلا بد من أنهُ ليس الله عزوجل .

(١) يعنى بأمره وتكوينه على حسب ما يدل عليه سياق الكلام.

فإذا ثبت أنهٗ ليس اللّٰه عزوجل ،فيكون معنى الإتيان فى الحديث تعبير عن فعل من أفعاله بأمره، فهو اللّٰه عزوجل أمر واحدا من خلقهٖ أن يأتيهم أو خلق واحدا وأرسلهٗ إليهم. . فعبر هذا عن إتيان اللّٰه فى صورة ،فالصورة يكون معناها الحال والمنوال كما يقال المسئلة فى هذه الصورة يعنى فى هذا الحال والمنوال . وثم المعلوم أن هذا الخلق ليس متصفا بصفات الكمال ،وأمارات الحدوث تكون ظاهرة عليه ،فعبر عن "غير صورته التى يعرفون" يعنى غير حال الذى يعنى الصفات التى يعرفون . فكما عبر إتيان عذاب اللّٰه يعنى تعذيب اليهود بإتيانهم اللّٰه تعالىٰ فى القرآن وكما عبر إتيان النبي عليه الصلوات والسلام بالقرآن إليهم بإتيانهم اللّٰه تعالىٰ بالقرآن الكريم ،فكذٰلك عبر إتيان خلق اللّٰه تعالىٰ من خلقه إليهم بأمره تعالىٰ بإتيانهم اللّٰه تعالىٰ فى صورة يعنى أتاهم اللّٰه تعالىٰ فى حال يعنى بطريقة أنهٗ أرسل إليهم خلقا من خلقهٖ ،فالإتيان فى الحقيقة فعل هذا الخلق ونسب إليه تعالىٰ؛ لأنهٗ بأمره ،وقد ذكرنا مثالهٗ من القرآن ، ثم هذا الخلق كما ذكرنا لا يكون متصفا بصفات الخالق؛ لأنهٗ لايجوز؛ لأنهٗ مخلوق ،فالمسلمون يرون ويلاحظون هذا ،واللّٰه عزوجل يخلق فى هذا الخلق كلاما ،فيقول "أنا ربكم." فالمسلمون يجحدونه وينكرون عليه ؛لأنهم يرون فيه أمارات الحدوث ،ويقولون عند ما نرى ربنا نعرفه؛ لأننا نعرف أنهٗ المتصف بالصفات الكمالية والمتقدس عن أمارات الحدوث. وان سألتم أنهٗ كيف يقول هذا الخلق إنهٗ ربهم ،وهو ليس اللّٰه عزوجل ،والمرسل من عنده ،فكيف من أرسل من عند اللّٰه تعالىٰ يقول: إنهٗ الرب ،وهذا القول كفربواح من الخلق؟

قلنا بتوفيق اللّٰه تعالىٰ إن شاء اللّٰه العزيز: إن اللّٰه عزوجل يرسل هذا الخلق إليهم ،ويكون هذا نوع من الامتحان لهم ،فاللّٰه عزوجل نفسه يخلق هذا الكلام فى هذا الخلق بدون أن يكون كسبا للخلق ،فالخلق هو محل الكلام فالكلام منسوب إليه ، لكن ليس هو كاسبا لهذا الكلام ،فلم يكن كلامه بإرادته ،فيكون هذا الكلام مخلوقا للّٰه تعالىٰ ،ولايكون كسباللمحل لهٗ ،فنسبته إليه تعالىٰ تكون بالكلية ،وعلىٰ هذا قول "أنا ربكم" [1] باعتبارنسبته إليه تعالىٰ كلاما صحيحا ، لكن مع هذا؛ لأن هذا الكلام يكون فى هذا الخلق عرضا ،فيكون مخلوقا ،فلايكون صفة للّٰه تعالىٰ والمسلمون فى المحشر يأخذونه علىٰ أنهٗ كلام للمحل لهٗ ،وهو هذا الخلق ،فينكرون عليه ،وكل هذا من عند اللّٰه تعالىٰ امتحانا لهم، واللّٰه يفعل مايشاء ،لايسئل عما يفعل وهم يسئلون.

ثم فى حديث أبى سعيد الخدري رضي اللّٰه تعالىٰ عنه قول هؤلاء القوم بعد إتيانهم اللّٰه فى صورة غير صورة التى يعرفون "نحن ننتظر ربنا الذى كنا نعبد" أيضًا يدل علىٰ أنهم بعد هذا الإتيان لايظنون أنهٗ هو اللّٰه عزوجل حتىٰ هم ينتظرونه؛ لأن كما ذكرنا وبيّنا أن معناه أن اللّٰه عزوجل يرسل

---

(١) يعنى : "أنا (خالق هذا الكلام) ربكم" فافهم .

إليهم خلقا من خلقه امتحانا لهم ،وهم يلاحظون أمارات الحدوث عليه ،فينكرون أنه هو الله عزوجل، وعبّر هذا الإرسال من عند الله بإتيانهم الله تعالىٰ. والله أعلم ،ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

وقول الرسول عليه الصلوات والسلام في حديث أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه "فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم. فيقولون: أنت ربنا". " وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالىٰ عنه: فيقول : هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها؟ فيقولون: نعم، فيكشف عن ساق، فلايبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود، ولايبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة، كلما أراد أن يسجد خر على قفاه، ثم يرفعون رؤسهم ، وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة، فقال: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا." فالقول "فيقول: هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها؟ فيقولون: نعم." فوالله أعلم هذا القول في الظاهر يأتي من جهة هذا الخلق ،فوالله عزوجل يخلق كلاما في هذا الخلق ،ويمكن أن يكون هذا الخلق كاسبا [1] لهذا القول ،ويمكن لايكون كاسبا لهذا القول كما في الكلام السابق ، لكن يكون محلا لهذا القول ،فالمسلمون يأخذون هذا الكلام على أنه كلام لهذا الخلق ،فيسألهم "هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها؟ فيقولون: نعم." فالآية والله أعلم أنهم أهل التوحيد ،فيعرفون أن الله عزوجل لا شبيه له ،ويؤيد هذا التفسير ما جاء في بعض الرواية ،والله أعلم بصحتها.

قال:" وتعرفونه إذا رأيتموه، فيقولون: نعم، فيقال: فكيف تعرفونه ولم تروه، قالوا: إنه لاشبيه له." فهذه الرواية أخرجه القرطبي في تفسير الآية ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ (القلم:٤٢) ولو صحّ (وهذه الرواية في ثبوتها نظر؛ لأن بعض ظاهرها يخالف القرآن ، لكن ما ذكرنا منه هو ليس هو) هذه الرواية ،فهذا هو التفسير ،وإلا هذا التفسير يؤيده الدراية والنظر؛ لأن الآية الكبرىٰ لأهل التوحيد التي هم يعرفون عن الله عزوجل أنه واحد لاشريك له ولا شبيه له ولا مثل له ولا كفو له ،وهو المتصف بصفات الكمال المتقدس عن أمارات الحدوث والخلق. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(الشورى: ١١) ثم القول "فيكشف عن ساق فلايبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن له بالسجود ،ولايبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة، كلما أراد أن يسجد خر على قفاه." فالقول: "فيكشف عن ساق" فهذا في القرآن ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ (القلم:٤٢) وهذا فسره ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنه "عن كرب وشدة." ومجاهد "شدة الأمر وجده." وقال مجاهد: "قال ابن عباسؓ هي أشد ساعة في يوم القيامة." فقال أبوعبيدة : "إذا اشتد الحرب والأمر قيل: كشف الأمر عن ساقه" وهذا منقول من تفسير القرطبي ،ثم قال القرطبي: والأصل فيه أن من وقع

(١) كاسبا يعني بإرادته، غير كاسب يعني بدون إرادته.

فى شيء يحتاج فيه إلى الجدّ شمر عن ساقه: فاستعير الساق والكشف عنها فى موضع الشدة . وقيل: ساق الشيء أصله الذى به قوامه. كساق الشجرة وساق الإنسان. أي يوم يكشف عن أصل الأمر ،فتظهر حقائق الأمور وأصلها. فأما ماروي أن الله يكشف عن ساق ، فإنهٗ عزوجل تعالىٰ عن الأعضاء والتبعيض وأن يكشف ويتغطى . ومعناه أن يكشف عن العظيم من أمره. انتهى كلام القرطبي.

فأما ما قال القرطبي رحمه الله تعالىٰ أن الله عزوجل تعالىٰ عن الأعضاء والتبعيض وأن يكشف ويتغطى ،فهٰذا حق ثابت لاخفاء فيه ،ولاخلاف ولايجوز فيه الخلاف؛ لأنهٗ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورىٰ:١١) فلايحجبه ولايغطيه أي شيء حتىٰ يكشف عنه ،وقد ذكرنا سابقا أنهٗ هو المخلوق الذى فى الحجاب عن البارى تعالىٰ ،وليس البارى تعالىٰ نفسه كما فى القرآن ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ (المطففين:١٥) ثم بعد النظر فى جميع الأقوال فى تفسير الآية ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ (القلم:٤٢) وانطباقها على الحديث الذى نحن فيه ،فوالله أعلم يكون معنى الحديث أن الله عزوجل يكشف عن العظيم من أمره الذى يكون فى غاية الجد والشدة ،وتظهر عند ذٰلك حقائق الأمور وأصلها ،وبيانه أن الله عزوجل يتجلى لهم ،فجميع أهل التوحيد المخلصون لهٗ الذين يخرون لهٗ ساجدين بإذنه تعالىٰ ،والمنافقون الفاجرون فيكونون محجوبين عن الله تعالىٰ ،كما فى القرآن ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ (المطففين:١٥)ثم نظرا إلى أهل التوحيد يريدون أن يسجدوا اتقاء ورياء كما كانوا يفعلون فى الدنيا ،فيجعل الله تعالىٰ ظهورهم طبقة واحدة ،فلايستطيعون السجود كما فى القرآن ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَّيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُوْدِ فَلَا يَسْتَطِيْعُوْنَ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوْا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُوْدِ وَهُمْ سَالِمُوْنَ﴾ (القلم:٤٢-٤٣) فالمنافقون الذين كانوا يدعون فى الدنيا أن يسجدوا لله تعالىٰ ،وهم كانوا سالمين ، لكن لم يسجدوا لله تعالىٰ، بل سجدوا رياء واتقاء ، ففى الآخرة لما يكشف عن ساق ،فتظهر حقيقتهم أنهم منافقون ،فلايستطيعون السجدة ،وهٰذا هؤلاء ،فما ظنك عن الكافرين المعلنين فى الدنيا ،فكلهم يكونون محجوبين عن الله عزوجل ،وكلهم الفجار وكلهم لايستطيعون السجود فى الآخرة ،وهم يدعون إلى السجود فيها ،والله أعلم بالأحوال ،فالله تعالىٰ يتجلى للمؤمنين ،والمؤمنون كلهم ساجدون له. والممكن أن معنى "يُدعون" أنهم يُدعون بطريقة الكلام قد يكون من الملك أو من الله عزوجل ،والله أعلم ، لٰكن هم لاينظرون إلى الله تعالىٰ كما فى القرآن ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾(المطففين:١٥) ولا يستطيعون السجود كما فى القرآن ،فالكشف عن ساق عبارة عن كشف هٰذه الأمور التى فى غاية الجد والشدة من أن الله يتجلى للمؤمنين ،وهم يخرّون لهٗ ساجدين. والمنافقون يكونون محجوبين عنه تعالىٰ ،ولايستطيعون السجود ،فتظهر حقيقة الأمر فى من كان

يعبد اللّٰه خالصاً ومن كان منافقاً؛ لأن كما في الحديث أنهٔ يبقى المؤمنون يعنى أهل التوحيد، لكن فيهم منافقون، فهٰذا الامتحان يفرق بين المؤمن والمنافق. ثم قولهٔ عليه الصلوات والسلام "ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحوّل فى صورته التى رأوه فيها أول مرّة. فقال: أنا ربكم. فيقولون. أنت ربنا" وفى حديث أبى هريرة رضي اللّٰه تعالىٰ عنه "فيأتيهم اللّٰه فى صورة التى يعرفون" فالمعلوم إتيان اللّٰه عزوجل ليس علىٰ معنى الانتقال من مكان إلى مكان؛ لأنهٔ لايتمكن فى مكان ولايجرى عليه زمان ،فيكون دالا علىٰ فعل من أفعاله الأزلية ،ويكون معلوما بسياق الكلام ،وسياق الكلام يدل علىٰ أنهٔ فعل التجلى يعنى يكشف ويرفع الحجاب الذى علىٰ أهل التوحيد عنه؛ لأن المخلوق هو المحجوب عن الخالق ،وأما الخالق سبحانهٔ وتعالىٰ فتعالىٰ عن أن يحجبه شيء؛ لأنهٔ من صفات الأجسام والنقص؛ لأن الحاجب يكون غالبا مستعليا على المحجوب ،وتعالىٰ اللّٰه عن ذٰلك. فيتجلى اللّٰه تعالىٰ للمؤمنين "فى صورته التى يعرفون" واللّٰه عزوجل ليس بذى صورة ،فمعناه يعنى فى حال ،والصورة قد يكون علىٰ معنى الحال ،وقد ذكرنا سابقا ،فيكون المعنى يتجلى لهم كما هم يعرفونه يعنى تجلى لهم نفسه ،وهو المتصف بصفات الكمال المتقدس عن أمارات الحدوث والخلق. وهم يعرفون ذٰلك ،فتجلى لهم نفسه المتصف بصفات الكمال ،فهم يعرفونه ،فيقول: أنا ربكم ،فيقولون: أنت ربنا ، وفى حديث أبى سعيد الخدري رضي اللّٰه تعالىٰ عنه "ثم يرفعون رؤوسهم ،وقد تحوّل فى صورته التى رأوه فيها أوّل مرّة " فإمعانا على الحديث ،واللّٰه أعلم، يكون المعنى إذا تجلى لهم اللّٰه عزوجل يعنى لأهل التوحيد ،فهم يرونه ، لكن لساعة قليلة جدا ،لأنهم يخرون لهٔ ساجدين، وفى حالة السجدة يصيرون فى الحجاب مرّة أُخرى ،فإذا يرفعون رؤوسهم ،فيرفع عنهم الحجاب ،فيكونون ناظرين إلى اللّٰه عزوجل ،كما فى القرآن ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٢-٢٣) وما حصل لهم من الرؤية قبل السجدة كأنهٔ لقلتها لهم بمنزلة تمهيد هٰذه الرؤية الحاصلة بعد السجدة ،فتكون معتدة فيها. والقول "وقد تحول فى صورته التى رأوه فيها أول مرة " والمعلوم أنهٔ هٰذهٖ هي المرة الأولىٰ ،فمعنى الحديث كما فى حديث أبى هريرة رضي اللّٰه تعالىٰ عنه "فيأتيهم اللّٰه فى صورته التى يعرفون. " فعلىٰ هٰذا "فى صورته التى رأوه فيها أول مرة" يعنى كما يعرفونه من البداية والسابق أنهٔ واحد لاشريك لهٔ ولا شبيه لهٔ ،وهو المتصف بصفات الكمال ،ومعنى "وقد تحول" يعنى قبلا اللّٰه عزوجل أرسل إليهم خلقا من خلقهٖ امتحانا لهم ،وعُبر هٰذا فى الحديث عن إتيان اللّٰه عزوجل فى صورة غير صورته التى يعرفون، وقد شرحناه ،فلاحاجة لإعادة ،فتحوّل عن هٰذه الصورة يعنى عن هٰذا الحال والمنوال إلى أنهٔ تجلى لهم نفسه. فيكون معنى الحديث كما هو معنى الحديث لأبى هريرة رضي اللّٰه تعالىٰ عنه أن اللّٰه عزوجل يتجلى لهم نفسه"فقال: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا." ويكونون

هؤلاء القائلين هم أهل التوحيد المخلصين لله الدين دون المنافقين الذين كانوا مختلطين معهم ،لكن بعد امتحان السجدة ظهرت أحوالهم ،فتفرقوا عن المسلمين المخلصين ،وإنما هؤلاء هم الذين يرون الله عزوجل في يوم القيامة ،وثم في الجنة ،وهم الذين يقولون لله عزوجل "أنت ربنا" وهؤلاء يعني المسلمين المخلصين. وأما الأقوال قبل امتحان السجدة وقبل الكشف عن الساق يعني مثلاً "فيأتيهم الله تبارك وتعالى في صورة غير صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه." ومثلاً: "قالوا: فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم، ونحن ننتظر ربنا الذي كنا نعبد، فيقول: أنا ربكم، فيقولون، نعوذ بالله منك لانشرك بالله شيئا" فظاهر الحديثين أن المنافقين يشاركون في هذه الأقوال مع المسلمين المخلصين كما كانوا يفعلون في الدنيا ،يعني يوافقون أهل الإسلام على اللسان ،ويكفرون في القلب ،وهذا المنافق وكما جاء في الحديث أن "الله عزوجل يسأل للكافر الجاهر يوم القيامة: أفظننت أنك ملاقيّ؟ فيقول: لا، لكن لما يسأل المنافق ،فيقول المنافق: يارب! آمنت بك وبكتابك وبرسلك ،وصليت ،وصمت ،وتصدقت ، ويثني بخير ما استطاع، فيقول: ههنا إذا، ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك ويتفكر في نفسه: من ذا الذي يشهد عليّ؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه، انطقي، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليعذر من نفسه ،وذلك المنافق. وذلك الذي يسخط الله عليه." وهذا الحديث أخرجه مسلم (ح:٢٩٦٨) وهو أيضًا يتكلم عن الرؤية في البداية للمؤمنين؛ لأنه في جواب بعض الصحابة رضي الله تعالى عنهم ،وبعد ذلك يتكلم عن الكافر والمنافق كما ذكرنا من الحديث ،وهم يكونون محجوبين عن رؤية الله تعالى كما في القرآن ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ (المطففين:١٥) فكما ترى المنافق هو يظهر النفاق حتى في الآخرة ،فالمنافقون يشاركون في هذه الأقوال التي في الحديثين اللذين نحن فيهما حتى يكشف عن ساق ويمتنعون من السجود ،وثم تظهر أحوالهم ،وبعد ذلك يتفرقون عن المسلمين المخلصين ،ولايشاركون معهم ،والله أعلم ،ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وهذا إن شاء الله تمام هذا البيان ،وثم جميع ما ذكرنا بكلمات "وقول الرسول عليه الصلوات والسلام أو قوله عليه الصلوات والسلام أو هكذا" فهي كلها كما وردت في الحديث إما في البخاري أو إما في المسلم ،وهي كما وردت في روايتهما أو كما قال عليه الصلوات والسلام وأيضًا جميع ما ذكرنا من التأويل الذي هو الظاهر الثابت المؤيد من القرآن والسنة ،فهي مقبولة بالقطع ،وما ذكرنا من اجتهادنا في التأويل ،فهو من القرآن والسنة بطريقة الاجتهاد ،فهو على الظن ،ونرجوا إن شاء الله أن يكون صحيحا ، لكن لم ننحرف في تأويلنا قطعا وبتاتا عن أصول الدين وعن

مذهب أهل السنة والجماعة ،وإن شاء الله على هذا تم البيان عن رؤية الله تعالى ،وحاصل البيان أنها ثابتة للمؤمنين في يوم القيامة وفي الجنة ،وهذه من أصول الدين وأيضا من أصول الدين أن الرؤية لاتكون بالمواجهة ولا باتصال الشعاع ولا بالانعكاس في عيني الرائي ،ولايكون بين الله وبين الرائي المسافة؛ لأن الله عزوجل لايتمكن في مكان ولايجرى عليه زمان ،ولاتحويه الجهات الست وليس جسما ولاعرضا ولا بذى أعضاء وجوارح ولابذى صورة وشكل؛ لانه﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١) وهو الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ،ولم يكن له كفوا أحد. والحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وعلى آلهم وأصحابهم أجمعين.

المتن:

والمعراج حق، وقد أسري بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعرج بشخصه في اليقظة إلى السماء، ثم إلى حيث شاء الله من العلى، وأكرمه الله بما شاء، وأوحىٰ إليه ما أوحى ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ فصلى الله عليه وسلم في الآخرة والأولى.

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى الأن يتكلم عن معراج الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ،وقد اكتفى بذكر المعراج إلى السماء ،وحقيقة الأمر أن المعراج وقع في نفس الليلة ونفس السفر الذى وقع فيه الإسراء ،وهو سفر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من المكة إلى بيت المقدس ،ثم عرج به من بيت المقدس إلى السماء ، وظاهر السبب باكتفاء الذكر للمعراج هو أن الإسراء معلوم من القرآن ،فهو ثابت منه ،وأما المعراج يعنى من بيت المقدس إلى السماء ،فتفاصيله من الأحاديث المشهورة المستفيضة المتواترة ،ثم بعض آيات القرآن يتكلم عن بعض حوادث المعراج ، لكن أكثر تفاصيله ،فهي من الأحاديث المشهورة ،والقرآن لايخالفون في ثبوته أهل البدعة ،وأما الأحاديث فأهل البدعة ينكرون كثيرا منها حتى مع تواترها واستفاضتها ،فذكر المعراج ردا عليهم، لكن مع ذلك أشار إلى الإسراء إلى بيت المقدس من قوله "وقد أسري بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم" ثم تكلم عن المعراج ،فقال: وعرج بشخصه في اليقظة إلى السماء ، فقال بشخصه يعنى ليس بروحه فقط، بل بجسده وروحه، وقال: "في اليقظة" يعنى ليس في المنام، بل يقظةً. ثم قال "ثم إلى حيث شاء الله من العلى." وهذا يشمل المستوى الذى فيه سمع صريف الأقلام والجنة وسدرة

المنتهى ،ثم ما شاء الله من العلى. وقال "وأوحى الله إليه ما أوحى." هذا يشمل خمس صلوات التي فرضت في هذه الحادثة، وذكر الآية ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ (النجم: ١١) هذا رؤية النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لجبريل عليه السلام كما ثبت بالحديث المرفوع ،وسنذكره إن شاء الله العزيز ،وكل هذه الحادثة يعني الذهاب من مكة إلى بيت المقدس ،وثم إلى السماء وما شاء الله من العلى يقال "الإسراء والمعراج" فيقال "الإسراء"؛ لأن معناه سار ليلاً وثم يتعدى بكلمة "ب" كما في القرآن ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ (الشعراء: ٥٢) يعني أسر بهم في الليل ،وكذلك في القرآن ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ (بني إسرائيل: ١) يعني سار به ،وثم معناه في حق الله تعالى أنه تعالى جعل البراق يسير بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليلا مع جبريل عليه الصلوة والسلام ،وسنذكر بالتفصيل إن شاء الله تعالى ،ويقال "المعراج"؛ لأن معناه ما عُرج به ،والرسول عليه الصلوات والسلام قد عُرج به إلى السماء والعلى ، وكل هذا على البُراق ،فلهذه النسبة يقال: "المعراج" ثم الإسراء والمعراج على الأقل حدثت مرة واحدة ،وقلنا على الأقل لتمكن الإمكان أنه وقع أكثر من مرة ،فممكن وقع مرة في المنام أو بالروح ،ووقع مرة في اليقظة ،فهذا ممكن ، لكن على الأقل بلاشك أنه وقع مرة واحدة بالجسد والروح في اليقظة. وقد اختلف في تاريخ وقوعه ، لكن كأنهم اتفقوا على أنه وقع قبل الهجرة وبعد وفاة سيدنا أُم المؤمنين خديجة رضي الله تعالى عنها ،والمعلوم أن الهجرة وقعت في العام الثالث والعشرة من النبوية ،وتوفيت خديجة رضي الله تعالى عنها على حسب رواية عائشة رضي الله عنها قبل الهجرة بثلث سنوات ،وفي رواية قبل فرضية خمس صلوات ،فعلى هذا وقع الإسراء والمعراج في ثلث سنوات قبل الهجرة ،وعلى قول الراجح في شهر الرجب ويوم السابع والعشرين. والله أعلم.

واقعة الإسراء والمعراج

نذكر إن شاء الله هذه الواقعة العظيمة مع التفصيل ،أكثره الواردة في البخاري والمسلم ، فنذكرها بعد الجمع والتوفيق بين الروايات إن شاء الله العزيز أن الرسول عليه الصلوات والسلام كان في بيته ،ففرج سقف بيته وهو بمكة ،فنزل جبريل عليه السلام ،فانطلق به إلى بيت الله ،فاضطجع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في الحطيم ،فأتاه جبريل عليه السلام ،ففرج صدره ثم غسله من ماء زمزم ،ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانا ،فأفرغها في صدره ،ثم أطبقه ،ثم أتي بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه ،فركب النبي عليه الصلوات والسلام البراق حتى أتى بيت المقدس ،وصلى فيه ركعتين ،ثم أتى بإنائين إناء

من خمر (غير مسكر) وإناء من لبن ،فاختار اللبن ،فقال جبريل عليه السلام: اخترت الفطرة ،ثم عرج بهٖ إلى السماء الدنيا ،وهٰذه السماء الأولٰى ،فاستفتح جبريل ففتح؛ لأن الرسول عليه الصلوات والسلام مأذون لهٗ بالدخول فى السماء ،فلقي النبي عليه السلام آدم عليه السلام فى السماء الأولٰى ،ثم عرج بهٖ إلى السماء الثانية ،فلقي عيسٰى بن مريم عليه السلام ويحيٰى بن زكريا عليهما السلام ،ثم فى السماء الثالثة يوسف عليه السلام ،وفى السماء الرابعة إدريس عليه السلام ،وفى السماء الخامسة هٰرون عليه السلام ،وفى السماء السادسة موسٰى عليه السلام ،وفى السماء السابعة إبراهيم عليه السلام مستندا ظهره إلى البيت المعمور الذى يدخل فيه كل يوم سبعون ألف من الملائكة للعبادة إذا خرجوا منه لم يعودوا فيه آخر ما عليهم ،ثم ذهب بهٖ إلى السدرة المنتهى ،فإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال. قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشي ،تغيرت ،فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها عن حسنها. وسمع النبي صلى الله عليه وسلم صريف الأقلام وهٰذا والله أعلم بيان عن نقل الملائكة واستنساخهم من اللوح المحفوظ إلى دفاترهم ،فأوحى الله تعالٰى إلى نبيه صلى الله تعالٰى عليه وسلم ما أوحى ،ومنها فرضية خمس صلوات ،ثم أدخل الجنة ،فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ ،وإذا ترابها المسك، ولم إلٰى ما شاء الله ،ثم رجع إلى بيت المقدس ،ودخل المسجد الأقصى مرة أخرى ،فقام يصلى ،فإذا النبيون أجمعون يصلون معهٗ اقتداء بهٖ ،وفى الأخير رجع إلى المسجد الحرام يعنى إلى بلده مكة، ثم هناك أمور لا بد من بيانها وتحقيقها.

(١) الإسراء وهو من المسجد الحرام إلى بيت المقدس قطعي ثابت بالكتاب يعنى القرآن الكريم ،فمن أنكر هٰذا فقد كفر ،والمعراج من الأرض إلى السماء ثبت بالأحاديث المشهورة المتواترة المستفيضة ،فالعلماء لم يكفروا من أنكر المعراج إلى السماء ، لكن بدّعوه وضلّلوه. وقال أبوحنيفة رحمه الله تعالٰى فى الفقه الأكبر: "وخبر المعراج حق ،ومن ردّه فهو مبتدع ضالّ ، لكن هٰذا يتعلق بقصة المعراج إلى السماء بالتفاصيل التى ثبتت بالأحاديث المشهورة المروية من عدّة الصحابة يبلغ عددهم [1] خمسة وأربعين على ما قال الزرقاني المحدث المشهور. وأما ما ثبت من القرآن من بعض الواقعات من المعراج ،فهي قطعية ،ويكون جاحده كافرا ،وهٰذا ما فى سورة النجم: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرٰى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهٰى عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوٰى إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشٰى مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغٰى لَقَدْ رَأٰى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرٰى﴾ (النجم:١٣-١٨) ونحن نذكر تفسيرهٗ فيما بعد إن شاء الله العزيز.

---

(١) [illegible] ولا [illegible] أن هٰذا العدد يبلغ مبلغ التواتر وإنكار الخبر المتواتر كفر ،فكان العلماء لم يكفّروا من أنكر بعض تفاصيل المعراج وأما ما ثبت منه [illegible] فى [illegible] المشترك فلاشك فى تكفير جاحده.

(٢) الإسراء والمعراج كانت هٰذه الواقعة فى نفس الليلة ونفس السير كما ثبت من الحديث فى صحيح مسلم ،وقد ذكرنا منه فى تفصيل هٰذه الواقعة ،وهٰذه الواقعة حدثت بالجسد والروح فى اليقظة ،وهٰذا لاشك فيه ،ولايجوز التحوُّل عن هٰذا ولاالعدول. وأما ما روي عن عائشة صديقة رضي اللّٰه عنها وأمير معاوية رضي اللّٰه تعالىٰ عنه ،فروايات مجروحة منقطعة ،وهٰذه الروايات ليست فى كتب الأحاديث، بل فى سيرة ابن اسحاق ،فرواية عائشة رضي اللّٰه تعالىٰ عنها ،فقال ابن اسحاق: "حدثنى بعض آل أبى بكر" فعلىٰ هٰذا يكون مجهولا ،فتكون الرواية منقطعة ،ثم الرواية غير مقبولة دراية؛ لأنهٗ فى بعضها "ما فقدت جسد رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم." (سيرة ابن هشام: ج:٢ ص:٢٤٥) والمعلوم أن عائشة رضي اللّٰه عنها لم تكن زوجة النبي صلى اللّٰه عليه وسلم حينئذ ؛لأنها صارت زوجته بعد الهجرة ،فكيف يصح هٰذا القول أنها لم تفقد جسد رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم ،فتكون هٰذه الرواية غير مقبولة رواية ودراية. وأما رواية عن أمير معاوية رضي اللّٰه تعالىٰ عنه فهي أيضًا رواية فى سيرة ابن إسحاق ،رواه عن يعقوب بن عتبة بن مغيرة بن الأخنس الذى لم يجد زمان معاوية رضي اللّٰه تعالىٰ عنه باتفاق المحدثين ،فتكون الرواية منقطعة ،فلا اعتبار لها. وهاتان روايتان هما مبلغ الحجة ومنتهاها للذين يزعمون أن الإسراء والمعراج كان روحانيا مناميا. وهم يستدلون بهاتين الروايتين رواية عائشة رضي اللّٰه عنها التى فيها "ما فقدت جسد رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم." ورواية أمير معاوية رضي اللّٰه تعالىٰ عنها التى فيها "كانت رؤيا من اللّٰه صادقة." (سيرة ابن هشام: ج:٢ ص:٢٤٥) وأنت كما ترىٰ أن هاتان روايتان لاتبلغان درجة الصحة ،فلا قيمة لهٰذا القول من هٰؤلاء الزاعمين ،ثم هٰذا القول يخالف ما عليه الجمهور من السلف والخلف من المسلمين الذين قد اتفقوا علىٰ أن الإسراء والمعراج كانا بالجسد والروح فى اليقظة. وفى القرآن ﴿سُبْحَانَ الَّذِىْ أَسْرٰى بِعَبْدِهٖ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصٰى الَّذِىْ بَارَكْنَا حَوْلَهٗ لِنُرِيَهٗ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهٗ هُوَ السَّمِيْعُ الْبَصِيْرُ﴾ (بنى إسرائيل: ١) فكما معنى الإسراء فى الآية ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلٰى مُوْسٰى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىْ﴾ (الشعراء: ٥٢) الإسراء بالجسد والروح ،وكذٰلك فى الآية ﴿سُبْحَانَ الَّذِىْ أَسْرٰى بِعَبْدِهٖ﴾ (بنى إسرائيل: ١) معناه الإسراء بالجسد والروح ،وأما الآية ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِىْ أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ (بنى إسرائيل: ٦٠) فعلىٰ وجه التسليم أن الرؤيا فى هٰذه الآية إشارة إلى واقعة الإسراء والمعراج.

نجيب بتوفيق اللّٰه تعالىٰ إن شاء اللّٰه العزيز أن كلمة الرؤيا تطلق أيضًا على المشاهدة فى اليقظة كما فى لسان العرب : وقد جاءت الرؤيا فى اليقظة كما فى قول الشاعر:

فكبر لرؤياه هش فؤاده
وبشر نفسا كان نفسا يلومها

وكذلك قول ابن عباس رضي الله تعالى عنه إمام لغة العربية وإمام تفسير القرآن الكريم في صحيح البخاري. "رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم." (صحيح البخاري، ح:٣٨٨٨) وأجيب عن هذه الآية بجواب آخر أيضًا أنهٔ هذه الرؤيا في الآية إشارة إلى هزيمة الكفار في غزوة بدر أو شيء آخر.

وأجيب عن رواية معاوية رضي الله تعالى عنه مع مجروحيتها بجواب آخر أيضًا أنهٔ لم يحضر زمن المعراج، بل أسلم بعدهٔ بزمان ، فحديث الحاضرين وأقوالهم أرجح كعمر بن الخطاب وعبدالله بن مسعود، وأجيب عن رواية عائشة رضي الله تعالى عنها مع مجروحيتها بجواب آخر أيضًا ،وهو أن المعراج وقع أكثر من مرة ، مرة بشخصه ، مرة بروحه، وقول عائشة رضي الله تعالى عنها حكاية عن الثاني.

ثم الآية تقول ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ يعني امتحاناً للناس كما شجرة الزقوم في الآية ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾(بني إسرائيل:٦٠) فكما الشجرة الملعونة يعني شجرة الزقوم تكون في نار جهنم ،ولاتحترق فيها ،فكما في إيمان بها اختبار للناس ،هل هم يؤمنون بها؛ لأن الله تعالى على كل شيء قدير ،فقادر على إنبات الشجرة في النار أو هم يجحدونها ؛لأنهم لا يشاهدونها في الدنيا ،فكذلك هذه الرؤيا في الإسراء والمعراج كانت اختبارا للناس ،فهل هم يؤمنون بها؛ لأن الله على كل شيء قدير ،فقادر على أن يسري بعبدهٖ ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ،وثم إلى السماء والعلى أو هم يجحدونها ،وهذا الاختبار مع مناسبة الاختبار بالشجرة الملعونة في النار لايكون إلا أن يكون الإسراء والمعراج بالجسد والروح في اليقظة ،فافهم [1]، فالإسراء والمعراج حق ثابت بالجسد والروح في اليقظة ،كما قال القاضي العياض رحمه الله تعالى في كتابه المشهور العزيز "الشفاء" وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أن الإسراء بالجسد في اليقظة ،وهو الحق ،وهذا قول ابن عباس وجابر وأنس وحذيفة وأبي هريرة ومالك بن صعصعة وأبي حية البدري وابن مسعود وضحاك وسعيد بن جبير وقتادة وابن المسيب وابن شهاب وابن زيد والحسن وإبراهيم ومسروق ومجاهد وعكرمة وابن جريج ،وهو دليل قول عائشةؓ ،وهو قول الطبراني وابن حنبل وجماعة عظيمة من المسلمين ،وهو قول أكثر المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين.

وأنت كما ترى أن القاضي العياض ردّ ما نسب إلى سيدتنا عائشة رضي الله تعالى عنها أن

١) لأن إيمان بالرؤيا في المنام ليس شيئاً كبيراً ،لكن في الإيمان بالإسراء والمعراج حقيقةً جسداً من الاختبار لايخفى۔

المعراج كان روحانياً؛ لأنهٗ لم يثبت بطريقة صحيحة ،فأشمل اسمها مع الجمهور الذين يعتقدون أن المعراج كان بالجسد والروح فى اليقظة. وأما ما جاء فى بعض الروايات فى البخاري والمسلم وهو رواية عن مالک بن صعصعة رضي اللّٰه تعالٰى عنه ،وفيه "بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان." (صحيح البخاري، ح:٣٢٠٧ ،صحيح مسلم، ح:١٦٤) فمعناه كما جاء فى رواية أخرى عن نفس الصحابي رضي اللّٰه عنه "بينا أنا فى الحطيم ،وربما قال فى الحجر مضطجعا." (صحيح البخاري، ح:٣٨٨٧) ولأن المضطجع لايكون نائماً ، وكذٰلک لايشبه اليقظان من كل وجه؛ لأن اليقظان فى العادة والعرف يكون قائماً جالسا متحركا ،والمضطجع لايكون هٰكذا، بل يكون علٰى شاطئ الوادى من النوم ، لٰكن لايكون نائما أيضًا ،فيكون بين النوم واليقظة الكاملة ،فلا دليل فيه لمن زعم أن المعراج كان روحانيا مناميا ،ثم هٰذا الحال يعنى الاضطجاع وبين النوم واليقظة هو حال إذا جاءهٗ جبريل عليه السلام وفرج صدره وغسلهٗ بماء زمزم ،ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً ، فأفرغه فى صدره ،ثم أتى بالبراق وبدأ السير ،وهٰذا كلهٗ فى اليقظة الكاملة كما هو الظاهر ،فحال الاضطجاع بين النوم واليقظة فى البداية ،ثم صارا قائما مستيقظا كاملا ،ووقع الإسراء والمعراج فى اليقظة الكاملة. نحن قد ذكرنا تفصيل هٰذه الواقعة قبلا فلاحاجة لإعادة. وأما رواية شريک عن أنس بن مالک رضي اللّٰه تعالٰى عنه فى البخاري والمسلم ،فهي رواية ساقطة الاعتبار ،وشريک هو منكر الحديث عند المحدثين ،وقد جاء بأخطاء كثيرة فاحشة فى رواية ،فلا اعتماد عليه ، فلهٰذا العلماء ردّوا هٰذه الرواية ،ومنهم الإمام النووي ، الخطابي، القاضى عياض، والحافظ عبدالحق رحمهم اللّٰه تعالٰى ،ونحن قد ذكرنا قبلا عن رواية شريک أنها ساقطة الاعتبار ،وفيها غرابة ونكارة ،فلا حاجة لذكرها مع مجروحيتها.

(٣) ومن الأمور المهمة التى تتعلق بالإسراء والمعراج هو هل رأى النبي صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم ربه تعالٰى فى المعراج؟ وقد اختلف فيه السلف والخلف على الأقوال ، لكن هذ الاختلاف راجع إلى تفسير بعض الآيات من سورة النجم ،فلو نتمكن علٰى ما هو التفسير الصحيح الثابت لهٰذه الآيات ،انكشفت الحقيقة ، والحمد للّٰه قد ثبت تفسير هٰذه الآيات من النبي عليه الصلوات والسلام بطريقة صحيحة ،وسنذكره ،فيكون إن شاء اللّٰه قاطعاً لهٰذا الاختلاف و كاشفا لحقيقة الأمر. فالآيات من سورة النجم ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوٰى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوٰى وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوٰى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُّوْحٰى عَلَّمَهٗ شَدِيْدُ الْقُوٰى ذُوْ مِرَّةٍ فَاسْتَوٰى وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلٰى ثُمَّ دَنَا فَتَدَلّٰى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنٰى فَأَوْحٰى إِلٰى عَبْدِهٖ مَا أَوْحٰى مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأٰى أَفَتُمَارُوْنَهٗ عَلٰى مَا يَرٰى وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرٰى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهٰى عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوٰى إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشٰى مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغٰى لَقَدْ رَأٰى مِنْ آيَاتِ

رَبِّهِ الْكُبْرٰى﴾ (النجم: ١-١٨)

فإذا نعرف بالثبت من هو المراد بالقول ﴿عَلَّمَهُ شَدِيْدُ الْقُوٰى﴾ (النجم: ٥) من هو شديد القوىٰ الذی ﴿ذُوْ مِرَّةٍ فَاسْتَوٰى وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلٰى ثُمَّ دَنَا فَتَدَلّٰى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنٰى﴾ (النجم: ٦-٩) وكذٰلك هو نفس الذی مراد فی الآیات ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرٰى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهٰى﴾ (النجم: ١٣-١٤) فعلمنا أن من رآه النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم نزلة أخرىٰ، فهو الذی رآه فی الأفق الأعلىٰ. ولهٰذا قال ﴿نَزْلَةً أُخْرٰى﴾ أي كانت هٰذه مرة أخرى، فمرة فی الأفق الأعلیٰ، ومرة فی نزلة أخرىٰ عند سدرة المنتهى. ولقد ثبت بالحديث الصحيح أن المراد فی الآية ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرٰى﴾ (النجم: ١٣) هو جبريل عليه السلام علىٰ ما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها فی قوله تعالىٰ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِيْنِ﴾ (التكوير: ٢٣) ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرٰى﴾ (النجم: ١٣) أنها قالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذٰلك رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم. فقال: إنما هو جبريل عليه السلام لم أره علىٰ صورته التی خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطا من السماء سادا عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض" انتهىٰ. (صحيح مسلم، ح: ١٧٧) وهٰذا قد صرّحت عائشة رضي الله عنها فيه أنها سمعت هٰذا من النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم، فلا التفات إلى غيره ولايجوز. فإذا ثبت من النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم أن من رآه فی نزلة أخرى هو سيدنا جبريل عليه السلام، فعُلم أنهُ هو الذی كان بالأفق الأعلىٰ، ثم دنا فتدلىٰ، فكان قاب قوسين أو أدنىٰ؛ لأن كل الكلام عن نفس الذات كما هو ظاهر من سياق الآيات، وأيضًا هو ثابت فی نفس حديث عائشة رضي الله عنها؛ لأنها قالت عن الآية فی سورة التكوير ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِيْنِ﴾ (التكوير: ٢٣) أنهُ أيضًا جبريل عليه السلام، وهو الذی مذكور فی الآية فی سورة النجم ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلٰى﴾ (النجم: ٧) وكذٰلك أخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها فی قوله تعالىٰ ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلّٰى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنٰى فَأَوْحٰى إِلٰى عَبْدِهٖ مَا أَوْحٰى﴾ (النجم: ٨-١٠) قالت: إنما ذاك جبريل عليه الصلوٰة والسلام كان يأتيه فی صورة الرجال، وإنه أتاه فی هٰذه المرة فی صورته التی هي صورته فسد أفق السماء. انتهىٰ. (صحيح مسلم، ح: ١٧٧) ونحن ذكرنا سابقا فی رواية عنها رضي الله عنها أنها أخذت هٰذا التفسير من النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم، فعلىٰ هٰذا أن الرسول عليه الصلوٰة والسلام رأىٰ جبريل عليه السلام فی صورته التي هي صورته مرتين كما هو المذكور فی سورة النجم، وأيضًا قد ثبت عن عائشة رضي الله عنها فی قوله تعالىٰ ﴿لَقَدْ رَأٰى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرٰى﴾ (النجم: ١٨) علىٰ ما أخرجه الترمذي عنها، فقالت: إنما هو جبريل عليه الصلوٰة والسلام. (سنن الترمذي، ح: ٣٢٧٨) ولبت قبلا كما ذكرنا عنها أنها سمعت تفسير هٰذه الآيات فی سورة النجم من النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم، فإذا ثبت تفسير هذه الآيات عن

النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم انها تتكلم عن جبريل عليه السلام ،فثبت انهٗ لادليل فى هٰذه الآيات لرؤية النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم لربهٖ تعالىٰ.

ولو سألتم أنهٗ قد ثبت من النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم أن مراد الآيات ﴿عَلَّمَهٗ شَدِيْدُ الْقُوٰى ذُوْ مِرَّةٍ فَاسْتَوٰى وَهُوَ بِالْاُفُقِ الْاَعْلٰى ثُمَّ دَنَا فَتَدَلّٰى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ اَوْ اَدْنٰى﴾ (النجم:٥-٩) هو جبريل عليه السلام ،فما هو معنى الآية بعدها ﴿فَاَوْحٰى اِلٰى عَبْدِهٖ مَا اَوْحٰى مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَاٰى اَفَتُمٰرُوْنَهٗ عَلٰى مَا يَرٰى﴾ (النجم:١٠-١٢) فجوابه إن شاء الله العزيز بتوفيق الله تعالىٰ أنهٗ بدء الكلام ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوٰى اِنْ هُوَ اِلَّا وَحْيٌ يُّوْحٰى﴾ (النجم:٣-٤) ثم يكون كلاما عمن يأتى بالوحي ،وهو جبريل عليه السلام ﴿عَلَّمَهٗ شَدِيْدُ الْقُوٰى﴾ (النجم:٥) ثم يكون كلاما ﴿فَاَوْحٰى اِلٰى عَبْدِهٖ مَا اَوْحٰى﴾ (النجم:١٠) يعني هٰذا الرسول عليه الصلوٰة والسلام لاينطق عن الهوى، بل هو وحي من عند الله يأتى بهٰذا الوحي جبريل عليه السلام الذى هو شديد القوىٰ ذو مرة فاستوىٰ، وهو بالأفق الأعلىٰ ثم دنا فتدلىٰ ، فكان قاب قوسين او ادنىٰ يعنى جبريل عليه السلام من محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ،فأوحى الله تعالىٰ إلىٰ عبده محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ما أوحى بواسطة جبريل عليه السلام ،ويدل عليه ما قاله الربيع والحسن وابن زيد وقتادة فى تفسير هٰذه الآية " فأوحىٰ جبريل إلى عبدالله محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ما أوحىٰ إليه ربه."

ثم المعلوم أن جبريل عليه السلام أيضًا عبدالله وخلقه، ومعنى الآية ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَاٰى﴾ (النجم:١١) يعني قلب محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم لم يكذب فى رؤيته لجبريل عليه السلام وكما أثبتنا سابقا أن هٰذه الآيات تتكلم عن رؤية النبي عليه الصلوات والسلام لجبريل عليه السلام مرّتين ،كما ثبت عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً ،وأيضًا قد ثبت عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه فى قولهٖ تعالىٰ ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَاٰى﴾ (النجم:١١) أخرجه مسلم عنه أنهٗ قال رضي الله عنه فى تفسير هٰذه الآية "رأىٰ (النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم) جبريل عليه السلام لهٗ ست مائة جناح." (صحيح مسلم، ح:١٧٤) وبعد العلم أن المراد فى هٰذه الآيات هو رؤية جبريل عليه السلام ،وأيضًا أن هٰذه الآيات التى بسبب اختلاف فى تفسير مرادها ،قد وقع الاختلاف فى هل رأى النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ربه فى المعراج أم لا؟ فبعد علم المراد أنهٗ رؤية جبريل عليه السلام فى هٰذه الآيات نصل إلى النتيجة أن الرسول عليه الصلوات والسلام لم ير ربهٗ تعالىٰ فى المعراج ،ويؤيده ما قال الرسول عليه الصلوات والسلام كما أخرجه مسلم عن ابى ذر رضي الله تعالىٰ عنه أنهٗ سأل النبي عليه الصلوات والسلام "هل رأيت ربك؟" فقال عليه الصلوات والسلام: "رأيت نورا." (صحيح مسلم، ح:١٧٨) وفى رواية "نور أنى أراه؟." (سنن الترمذي، ح: ٣٢٨٢) فيكون والله أعلم

معناه على ما فسرها العلماء رحمهم الله تعالى أنهٔ رأى نورا ،وهذا النور منعه من رؤية الله تعالى ، فلهذا قال "نور" يعني رأيت نورا ، كما في رواية اخرىٰ ،ثم قال أنى أراه يعني كيف لي برؤيته تعالى ،وقد منعني نور من رؤيته تعالى ،ويؤيده ما في الحديث الآخر "أن حجابه (تعالى) نور" وفي رواية أبى بكر "النار ." (صحيح مسلم، ح:١٧٩) وقد ذكرنا أن الحجاب مرجوع إلى الخلق دون الله تعالى؛ لأنهٔ تنزه وتقدس عن أن يحجبه شيء؛ لأنهٔ من صفات الأجسام ويلزم الحدود والغاية ،والله تعالى وتقدس وتنزه عن هذه كلها، فكما سيدنا موسى عليه السلام لما كلمه الله تعالى كان رأى نارا ،فكلمه الله من وراء حجاب كما في الحديث " حجابه النور أو النار." (صحيح مسلم، ح:١٧٩) ؛ فكذلك أوحى الله تعالى ما أوحى النبي عليه الصلوات والسلام في المعراج من وراء حجاب ،فرأى النبي عليه الصلوات والسلام نورا ،وهو حجاب ،كما في الحديث، فكل هذا يدل على أن الرسول عليه الصلوات والسلام لم ير ربهٔ تعالى في المعراج لو كان رأى ربهٔ تعالى لكان جوابا لسؤال أبى ذر رضي الله عنه إياه أنهٔ "نعم! قد رأيت ربي" ، لكن ما أجاب بهذا، بل قال عليه الصلوات والسلام: "نور أنى أراه" وهذا ينزل منزلة النفي للسؤال عن رؤية الله تعالى ،والله أعلم ،ثم قد ورد في الحديث لو صح أن الرسول عليه الصلوٰة والسلام قد رأى ربه في المنام ،وقد سبق ذكر هذا الحديث مع شرحه.

الآن نذكر بعض الأمور عن تفسير هذه الآيات من سورة النجم ،فأولاً هو كما ذكرنا أن هذه الآيات من سورة النجم تتكلم عن رؤية جبريل عليه السلام مرّتين ،فكانتا لما سأله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يريه نفسه التي خلقها الله عليها ، فأراه نفسه مرّتين مرّة في الأرض ومرّة في السماء ،فأما في الأرض ، ففي الأفق الأعلى ،وكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بحراء، فطلع لهٔ جبريل منهبطا من السماء في الأفق المبين ،ولهٔ ست مائة جناح سادّا عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض ،ثم دنا جبريل بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض ،فتدلى ،فنزل على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،وقد ردّه الله إلى صورة آدمي حين قرب من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومرة في السماء عند سدرة المنتهىٰ ،وهي على ما رواه مسلم عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه موقوفا في السماء السادسة (صحيح مسلم، ح:١٧٣) ، لكن الحديث المرفوع عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم برواية أنس رضي الله عنه يدل على أنها في السماء السابعة (صحيح مسلم، ح:١٦٢) فممكن أن أصلها في السماء السادسة ،وأعلاها في السماء السابعة ،وممكن ثم علت فوق ذلك حتى جاوزت رؤوس حملة العرش ،كما هو قول كعب رحمه الله تعالى ،والله أعلم. فهاتان مرّتان لرؤية النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لجبريل عليه السلام. ثانيا: كما ذكرنا عن سدرة المنتهى أنها في السماء السادسة والسابعة ،وهي شجر النبق ،وثبت في الحديث الصحيح أن ورقها كآذان الفيلة ،وثمرها كالقلال

،ومعنى الآية ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ (النجم:١٦) تفخيم وتعظيم ما يغشها كما قال ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ (النجم:١٠) وقد ثبت في الحديث الصحيح أن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم قال: "فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها" (صحيح مسلم، ح:١٦٢) وفي رواية أخرى "فغشيها ألوان لا أدرى ما هي" (صحيح البخاري، ح:٣٣٤٢) فثبت بهذين الحديثين أنهُ ما غشيها كان مخلوقا ،ولهذا قال عليه الصلوة والسلام: "غشيها من أمر الله" وأمر الله كلامه وهو صفته القديمة ،وهو يشمل أمره "كن" كما في الآية ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس:٨٢) وقد ذكرنا عن هذا تفصيلاً سابقاً ،فما غشي السدرة لم يكن أمر الله، بل من أمر الله: وأمر الله "كن" وما منه "فيكون" وهو المخلوق ،وأيضًا يدل عليه الكلمة "تغيرت" وهذه من صفات الحدوث وغشيان السدرة نفسه من الحدوث ،ويدل عليه أيضًا "فغشيها الألوان" ومعلوم أن الألوان لاتكون إلا مخلوقا ؛لأنها أعراض ،والأعراض لاتكون إلا حادثا ،ولأن ليس لها بقاء إلا أبقاه الله تعالى ،وثم اللون على قول أهل العلوم يكون من الضوء حتى قالوا: لو ليس هناك الضوء لاتكون هناك [1] الألوان فعلى هذا الله عزوجل يخلق الألوان مع خلق الضوء ،وكلاهما مخلوق ،والله عزوجل تعالى وتقدس عن أن يكون متمكنا في مكان أو يجرى عليه زمان ،وتعالى وتقدس عن الألوان والتغيرات والحدوث وعن أن يغشى على شيء أو يغشاه الشيء ؛لأنها كلها من صفات الأجسام والحدوث ،وهو تعالى عن ذلك ،وهو الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ،ولم يكن لهُ كفوا أحد. فثبت من الحديث أنهُ كان يغشى السدرة الألوان من أمر الله ،فتغيرت ،فليس أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها ،ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: إنهُ لايدرى ما هي الألوان. ثم قد جاء من ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما أنهُ كان يغشها فراش من ذهب ،ومثل هذا لايكون معلوما إلا من النبي عليه الصلوات والسلام ،فممكن أن يقال: إنهُ كان غشيها الألوان ولم يدر النبي عليه الصلوات والسلام ما هي ،وغشيها فراش من ذهب. وكان كل من أمر الله ،فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، والله أعلم. ثالثاً : ما هي وجه التسمية لسدرة المنتهى؟ فعلى تفسير ابن مسعود رضي الله عنه كما أخرجه مسلم "إليها ينتهى ما يعرج بهِ من الأرض ،فيقبض منها ،وإليها ينتهى ما يهبط بهِ من فوقها ،فيقبض منها ." (صحيح مسلم، ح:١٧٣) وهذه إشارة إلى الأشياء المعنوية أو الحسية ، فيهبط بها أو يعرج بها ،وأما الله عزوجل فهو لاتحويه الجهة من الجهات فوقا أو تحتا أو أي ما منها. وروي عن علي رضي الله عنه وأبى هريرة رضي الله عنه أن هذه السدرة ينتهى إليها كل أحد خلا من أمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم على

[1] يعني عادة اللّهم إلا أن الله يخلقها بدونه .

سننه ومنهاجه. (مسند البزار، ح:٩٥١٨) وهٰذه إشارة إلى حينما الملائكة يقبضون روح المؤمن، فيصعدون به إلى السماء.

رابعاً: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾(النجم:١٧) قال ابن عباس رضي الله عنه: أي ما عدل يمينا ولا شمالا وما تجاوز الحد الذى رأى ،انتهى. وما جاوز ما أمر به ولم يمدّ بصرهُ إلى غير ما رأى من الآيات. وهٰذا وصف أدب للنبي صلى الله تعالٰى عليه وسلم فى ذٰلک المقام. وهٰذه صفة عظيمة فى الثبات والطاعة ،فإنهٗ ما فعل إلا ما أمر به وما سأل فوق ما أعطى، والحمد لله رب العالمين.

المتن:

"والحوض الذى أكرمه الله تعالٰى به غياثا لأمته حق. "

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله الآن يتكلم عن الحوض ،وهو ما أعطاه الله نبينا صلى الله تعالٰى عليه وسلم فى المحشر ،وهو ثابت حق من القرآن والسنة المتواترة ،فيجب اعتقاده ،ولايجوز إنكارهٗ ألبتة ولا تأويله، واسمه الكوثر كما ثبت من القرآن والسنة ،وسنذكر إن شاء الله عزوجل. ثم هٰذا الحوض اسمه "الكوثر" يكون فى المحشر ويمدّانه ميزابان من الجنة من نهرها الذى اسمه أيضًا "الكوثر" كما ثبت فى الحديث ،وسنذكره إن شاء الله العزيز ،وهٰذا النهر أيضًا ما أعطاه الله نبينا صلى الله تعالٰى عليه وسلم. وما ورد فى القرآن فى سورة الكوثر ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ (الكوثر:١) يتكلم عن هٰذا الحوض وهٰذا النهر ويطلق "الكوثر" علٰى كليهما ، ولأن هٰذا ثابت من الحديث ،وأيضًا كما ذكرنا أن منبع الحوض هو هٰذا النهر. وقد وردت أحاديث كثيرة عن هٰذا الحوض والنهر فى تفاصيلها.

والرسول صلى الله تعالٰى عليه وسلم فى المحشر سيسقى المؤمنين المسلمين من أمته من هٰذا الحوض ،ومن شرب منه لايظمأ أبدا. وقد ثبت فى الحديث المشهور المتواتر أنهٗ سيكون الناس يأتون إلى الحوض ، لكن يمنعون منه ،والرسول عليه الصلوات والسلام سيقول: إنهم أصحابهٗ ،فيقال لهٗ: هٰؤلاء ارتدوا علٰى أعقابهم بعدک. (صحيح البخاري، ح:٨٥٦٥) وهٰذه إشارة إلى المرتدين من جزيرة العرب الذين ارتدوا بعد وفات الرسول صلى الله تعالٰى عليه وسلم ،وقد جاهدهم أبوبكر الصديق رضي الله تعالٰى عنه مع المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم، وهٰذا كلهٗ مشهور فى التاريخ. ثم قد ثبت فى الأحاديث أنهٗ يقال لرسول الله صلى الله تعالٰى عليه وسلم عن هٰؤلاء الممنوعين من الحوض أن الرسول صلى الله عليه وسلم لايدرى ما أحدثوا هٰؤلاء بعده. وقد جاء فى رواية صحيحة

أنهم صاحبوه وأنهم أصحابهٔ ، فلهٰذا تعين أن هؤلاء مرتدون من قبائل العرب الذين أسلموا في زمان النبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم كما يدل عليه قول الرسول صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم عنهم أنهم صاحبوه وأصحابهٔ . [1] وجاهدهم أبوبكر مع المهاجرين والأنصار رضي اللّٰه تعالىٰ عنهم ، لكن مع ذٰلک هٰذا الحديث قد يشمل كل الفرق المبتدعة الضالة الذين أحدثوا بعد النبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم البدعات المحدثات في الإسلام. ثم لو تسأل كيف رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم يعرف أمته من جميع الأمم ،ولم يرهم إلا الذين كانوا منهم في زمانه في الدنيا . فالجواب في الحديث، قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم: " فإنهم يأتون يوم القيامة غرّا محجلين من أثر الوضوء." (صحيح مسلم، ح: ٢٤٦) وفي رواية أخرىٰ "أن هٰذا ليست إلا لأمته صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم." (سنن ابن ماجة، ح: ٤٢٨٢) والغر هو بياض الجبهة والوجه. والمحجل هو بياض القدمين. وقد ذكرنا أن الأحاديث في هٰذا الباب كثيرة من عدة الصحابة رضي اللّٰه تعالىٰ عنهم ،ونحن نذكر بعضا منها مع القرآن . أخرجه أبوداؤد عن أنس رضي اللّٰه عنه يقول: أغفى رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم إغفاءة ، فرفع رأسه متبسما ،فإما قال لهم وإما قالوا له: يارسول اللّٰه! لم ضحكت ؟ فقال: إنه أنزلت عليَّ آنفا سورة ،فقرأ بسم اللّٰه الرحمٰن الرحيم : ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ (الكوثر: ١) حتى ختمها، فلما قرأها قال: "هل تدرون ما الكوثر؟ قالوا: اللّٰه ورسولهٔ أعلم. قال: فإنهٔ نهر وعدنيه ربي عزوجل في الجنة ،وعليه خير كثير ، عليه حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيتهٔ عدد الكواكب" انتهىٰ (سنن أبي داود، ح:٤٧٤٧) هٰذا الحديث يذكر أن الكوثر في القرآن هو نهر في الجنة ،ثم يقول: وعليه حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة ،وهٰذا واللّٰه أعلم كما ذكرنا سابقا أن منبع هٰذا الحوض هو هٰذا النهر والحوض في المحشر ،ولهٰذا قال: "ترد عليه أمتي يوم القيامة" والنهر في الجنة ،وكلاهما "الكوثر" وهٰذا الحديث أخرجه مسلم أيضًا . (ح: ٤٠٠)

(٢) عن ابن عمر رضي اللّٰه تعالىٰ عنه قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم: "الكوثر نهر في الجنة ،حافتاه من ذهب ومجراه على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسک وماؤهٔ أحلى من العسل وأبيض من الثلج" هٰذا حديث حسن صحيح. أخرجه الترمذي (ح: ٣٣٦١) والبخاري. (من حديث أنس، ح: ٤٩٦١)

(٣) عن عبداللّٰه بن عمرو عن النبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم: "حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، ريحه أطيب من المسک، وكيزانه كنجوم السماء ، من شرب منه فلا يظمأ أبدا. أخرجه البخاري. (ح: ٦٥٧٩) وأيضًا في البخاري "وإني واللّٰه لأنظر إلى حوضي الآن." (ح: ٢٦٢٤)

---

(١) ثم ارتدوا (ونعوذ باللّٰه) بعد وفاته عليه الصلوات والسلام.

فعلى هذا هو موجود في الآن، وسيوضع في المحشر

(٣) وفي صحيح مسلم عن الحوض "يشخب فيه ميزابان من الجنة." (ح: ٢٣٠٠) وهذا الحديث مع الحديث الأول الذي ذكرنا جمعا يدلان على أن الحوض يشخب فيه ميزابان من النهر الكوثر من الجنة، كما ذكرنا سابقا. وأيضًا في مسلم: "ليردن على الحوض رجال ممن صاحبني، حتى إذا رأيتهم ورفعوا إلىّ، اختلجوا دوني، فلأقولن: أي رب! أصحابي، أصحابي، أصحابي. فليقالن لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك." (صحيح مسلم، ح: ٢٣٠٤) وقد تكلمنا في هذا الحديث سابقا. وأيضًا في مسلم: "ألا إني فرط لكم على الحوض، وإن بعد ما بين طرفيه كما بين صنعاء وأيلة كأن الأباريق فيه النجوم." (صحيح مسلم، ح: ٢٣٠٥)

(٥) أخرجه أبوداؤد عن زيد بن أرقم رضي الله عنه أنه قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لهم وهم كانوا سبع مائة أو ثمانية مائة: "ما أنتم جزء من مائة ألف جزء ممن يرد على الحوض." (سنن أبي داود، ح: ٤٧٤٦)

والأخبار في هذا الباب كثيرة جدًا، وهذا مما أعطى نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم وأخبر عنه، وقد ثبتت الأخبار عنه صلى الله تعالى عليه وسلم عن النهر الكوثر والحوض الكوثر، فيجب الاعتقاد بهما، ثم كما ذكرنا من الحديث أنهُ من يشرب من الحوض لايظمأ أبدا، فيكون الشرب بعدهٗ في الجنة للذة والتمتع وليس من العطش. ثم قد جاء في الحديث أنهُ يكون لكل نبي عليه الصلوٰة والسلام حوض لأمته في المحشر، وحوض نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم أكبرها وأكثرها واردا. (سنن الترمذي، ح: ٢٤٤٣). ثم الظاهر أن الحوض قبل الصراط، وهو الجسر الممدود على جهنم، لابد من المرور عليه حتى يبلغ الجنة، والكفار والعصاة لايستطيعون المرور عليه، ويقعون في جهنم، وسنتكلم عنه فيما بعد إن شاء الله العزيز. فإذا ثبت في الحديث أنهُ سيكون الناس الذين أحدثوا وتغيروا وارتدوا على أعقابهم بعد النبي عليه السلام يأتون إلى الحوض، فهٰذا يدل على القطع أن الحوض قبل الصراط وليس بعدهٗ؛ لأن هؤلاء سيقعون في جهنم كما هو ظاهر من منعهم من شرب من الحوض. وأيضًا لو مرّوا على الصراط سالما، فيكونوا من أهل الجنة، فكيف بعد هذا يمنعون من الحوض؟ فثبت أن الحوض قبل الصراط. ثم ظاهر الأحاديث يدل على أنهُ قبل الحساب، ونفس الحديث عن هؤلاء المرتدين يدل عليه؛ لأن بعد الحساب وإعطاء الكتاب في اليد اليمنى أو اليسرى تنكشف الحقائق، ويتميز أهل الجنة من أهل النار، فكيف هؤلاء أهل النار يردون على الحوض، والرسول عليه الصلوات والسلام لايعرف أنهم أهل النار حتى يقال له: إنك لاتدري ما أحدثوا بعدك" وأيضًا يدل عليه ظاهر هذه الأحاديث "أنا فرطكم على الحوض." "إني على الحوض أنتظر

من يرد علىّ منكم" "إن امامكم حوضا" فظاهر هذا الكلام يدل على أن الحوض يكون من اول المراحل في المحشر والله أعلم. ومع هذا يمكن أن بعض الناس يردون عليه بعد الحساب. والله أعلم ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم. اللّهم أعطنا شربا من الحوض الكوثر بيد نبيك صلى الله تعالى عليه وسلم. آمين يارب العالمين.

المتن:

"والشفاعة التى ادّخرها لهم حق، كما روى فى الأخبار."

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى الآن يتكلم عن الشفاعة التى تكون لرسول الله صلى اللّه تعالى عليه وسلم يوم القيامة كما فى الحديث الصحيح: "لكل نبي دعوة دعا بها فى أمته ،فاستجيب له، وإنى أريد إن شاء الله أن ادخر دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة." (صحيح البخاري، ح:٦٣٠٥) وهذا هو أشار الشيخ إليه فى قوله "ادخرها لهم" ثم هذا لايعنى قطعا وبتاتا أنه لاتكون شفاعة للأنبياء غيره، بل قد ثبت فى الأحاديث الصحيحة أنهٗ تكون شفاعة لجميعهم ،وفى الحديث "فيقول اللّه تعالىٰ: شفعت الملائكة وشفع النبييون وشفع المؤمنون." (صحيح مسلم، ح:١٨٣) يعنى يوم القيامة ،فمعنى الحديث الأول شفاعة خاصة التى ادخرها لأمته يوم القيامة بدلا عن الدعوة المستجابة التى تعجل بها الأنبياء عليهم الصلوات والسلام قبلهٗ لأمتهم ،وهو عليه الصلوٰة والسلام يؤخرها لأمته ليوم القيامة ،وهذا لا ينفى شفاعة للأنبياء عليهم الصلوات والسلام غيره على الإطلاق ؛لأنها ثابتة بالنقل الصحيح المشهور. ثم معنى الشفاعة فى اللغة "المعونة" وفى الاصطلاح: سؤال لرفع العقوبة والعذاب عن غيره أو سؤال لرفع درجات غيره. وسميت الشفاعة كأن المشفوع لهٗ فردا ،فجعله الشفيع زوجا بالانضمام إليه ،والشفع ضد الفرد.

الآن نذكر أمور مهمة تتعلق بموضوع الشفاعة.

(١) الشفاعة التى نحن فيها هو السؤال من اللّه تعالىٰ لرفع العقوبة عن المشفوع لهٗ ،والمعلوم أن الله عزوجل لاضغطة عليه من غيره على الإطلاق ،فلا معنى الشفاعة عند الله تعالىٰ أن الشافع يحملهٗ علىٰ فعل ما ،هذا لايكون على الإطلاق ،ولايليق بالله تعالىٰ ولايجترأ احد من خلقه علىٰ هذا ،ولا يقدر عليه ،فمن اعتقد الشفاعة علىٰ هذا المنوال ،فقد كفر بالله وحده، بل لا تكون الشفاعة عنده إلا لمن أذن لهٗ ،فالشافع لايشفع عنده إلا بإذنه ولايشفع لأحد إلا لمن أذن هو لهٗ بالشفاعة ،وفى القرآن ﴿مَن ذَا الَّذِىْ يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (البقرة:٢٥٥) ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا

لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾(سبا:٢٣) ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ (یونس:٣) ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ (طٰه:١٠٩) ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمٰوٰتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللّٰهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضٰى﴾ (النجم:٢٦) وهٰذه الآيات تثبت قطعا وبتاتا أن الشفاعة عند الله لا تكون إلا من هو أذن له للشفاعة ولا تكون إلا لمن أذن هو له بالشفاعة ،وأيضًا تثبت أن الشفاعة بإذن اللّٰه ثابتة حق ،وإلا لا تكون فائدة للاستثناء لما هي بإذنه؛ لأنهٗ لو لا تكون الشفاعة عنده على الإطلاق لكان كافيا أن يقال ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ﴾ (سبا:٢٣) ، لٰكن لما لم يكتف بهٰذا، بل قال ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾(سبا:٢٣) وفی آية ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ (طٰه:١٠٩) وفی آية ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللّٰهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضٰى﴾(النجم:٢٦) فثبت أن الشفاعة حق ثابتة بإذن اللّٰه ولمن أذن هو له. فعلٰی هٰذا علمنا أن معنى الآيات ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَّلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَّ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَّ لَا هُمْ يُنْصَرُوْنَ﴾ (البقرة:٤٨) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا أَنْفِقُوْا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيْهِ وَلَا خُلَّةٌ وَّلَا شَفَاعَةٌ وَّالْكَافِرُوْنَ هُمُ الظّٰلِمُوْنَ﴾ (البقرة:٢٥٤) هي الشفاعة بدون إذن اللّٰه تعالٰی؛ لأن القرآن يفسر بعضهٗ بعضا ،فإذا ثبت الشفاعة بإذنه تعالٰی فی الآيات الأخرى ،فتعين معنى نفي الشفاعة فی الآيتين هي الشفاعة بدون إذنه تعالٰی. وهٰذا هو المعنى فی الآية ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ دُوْنِهِ مِنْ وَّلِيٍّ وَّلَا شَفِيْعٍ﴾ (الم السجدة:٤) فلا ولی لخلقه سواه ولا شفاعة إلا بإذنه ،ولمن أذن هو له.

فإن سأل سائل أنهٗ معلوم نقلا وعقلا أن الشفاعة عند اللّٰه لا تكون إلا بإذنه ولمن أذن هو لهٗ كما هو ثابت بالقرآن ،وأيضًا أن اللّٰه عزوجل تعالٰی وتنزه عن أن يكون عليه ضغطة من غيره ،فأخبرنا ما هي حاجة الشفاعة؟ لأن اللّٰه عزوجل قادر علٰی ما يفعل ويفعل ما يريد ،فإذا رضي للعبد الشفاعة، فلا يحتاج إلى الشفاعة لكي يغفره ويدخله الجنة، بل هو القادر على الإطلاق أن يغفره ويدخله الجنة بلا شفاعة مطلقا.

فنجيب بتوفيق اللّٰه تعالٰی إن شاء اللّٰه العزيز أنهٗ لا شک أن اللّٰه عزوجل هو القادر المطلق الفعال لما يريد ،فإذا أراد شيئاً فلا مانع لهٗ قطعا وبتاتا ،والإرادة لهٗ صفة أزلية ،ومع هٰذا أن اللّٰه عزوجل قد ربط الأشياء فی الجملة بالأسباب بدون أن يحتاج إلى الأسباب ،فمثلاً هو يأمرنا أن ندعوه ونسألهٗ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُوْنِيْ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(غافر:٦٠) ومع ذٰلک هو لايحتاج إلى دعاء نا، بل يعلم ما نحتاج منه ويعلم ما هو يعطينا ،وقادر عليه بدون سؤالنا لها إياه ،فمن هٰذه الناحية لا نفهم حكمة دعاء نا لهٗ ، لٰكن من ناحية أخرى أنهٗ فی دعاء نالهٗ اعترافنا لعجزنا فی حضرته واحتياجنا لهٗ وذكرنا لهٗ ومحبتنا لهٗ وشوقنا لهٗ وطاعتنا لهٗ لأنهٗ أمرنا بالدعاء إليه تعالٰی ،فكذٰلک فی الشفاعة بإذن اللّٰه تعالٰی ،لانفهم حكمتها من ناحية ما ذكر فی هٰذا السؤال ، لٰكن من ناحية أخرى أنهٗ إذا يستأذن الشافع عنده للشفاعة

لمن هو يأذن لهٗ بالشفاعة ، ففى هٰذا إظهار غاية الاحتياج للخلق إلى اللّٰه تعالٰى وأنهٗ هو المالك القادر الغني ،ونحن الفقراء ،ومع ذٰلک إظهار الشرف والكرامة للشفيع أن رب العالمين يتقبل سؤاله للشفاعة ويُشفّعه فيمن أذن لهم بالشفاعة ،وهٰذا غاية الشرف لعبداللّٰه تعالٰى ،ولهٰذا خص نبينا صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم للحظ الأكبر من الشفاعة ،والمقام المحمود الذى وعده اللّٰه تعالٰى إياه هو هٰذه الشفاعة. وقال الرسول عليه الصلوٰة والسلام فى قوله تعالٰى: ﴿عَسٰى أَنْ يَّبْعَثَکَ رَبُّکَ مَقَامًا مَّحْمُوْدًا﴾ (بنى إسرائيل:٧٩) قال: "هو المقام الذى أشفع لأمتى فيه." (مسند أحمد، ح:٩٦٨٣) وهو أول شافع وأول مُشفّع كما ثبت فى الحديث.

(٢) اعلم أن الشفاعة ليست إلا للمؤمنين المسلمين ،وأما الكفار والمشركين والمنافقين ،فلا شفاعة لهم؛ لأن المعلوم بالضرورة أنهم سيخلدون فى النار ،فلا تنفعهم الشفاعة ولا شفاعة لهم ولايؤذن لهم بالشفاعة ،وفى القرآن ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِيْنِ فِيْ جَنّٰتٍ يَّتَسَآءَلُوْنَ عَنِ الْمُجْرِمِيْنَ مَا سَلَكَكُمْ فِيْ سَقَرَ قَالُوْا لَمْ نَکُ مِنَ الْمُصَلِّيْنَ وَلَمْ نَکُ نُطْعِمُ الْمِسْكِيْنَ وَكُنَّا نَخُوْضُ مَعَ الْخَائِضِيْنَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّيْنِ حَتّٰى أَتَانَا الْيَقِيْنُ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِيْنَ﴾ (المدثر:٣٨-٤٨) ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيْمُ لِلْغَاوِيْنَ وَقِيْلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ هَلْ يَنْصُرُوْنَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُوْنَ فَكُبْكِبُوْا فِيْهَا هُمْ وَالْغَاوُوْنَ وَجُنُوْدُ إِبْلِيْسَ أَجْمَعُوْنَ قَالُوْا وَهُمْ فِيْهَا يَخْتَصِمُوْنَ تَاللّٰهِ إِنْ كُنَّا لَفِيْ ضَلَالٍ مُّبِيْنٍ إِذْ نُسَوِّيْكُمْ بِرَبِّ الْعٰلَمِيْنَ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُوْنَ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِيْنَ وَلَا صَدِيْقٍ حَمِيْمٍ﴾ (الشعراء:٩١-١٠١) ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوْبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِيْنَ مَا لِلظَّالِمِيْنَ مِنْ حَمِيْمٍ وَّلَا شَفِيْعٍ يُّطَاعُ﴾ (المؤمن:١٨) فثبت أنهٗ لا شفيع للكافرين المشركين الظالمين يوم القيامة ،وهم يكونون خالدين فى نار جهنم إلى الأبد. أعاذنا اللّٰه منه ،آمين.

اللّٰهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام ،ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان ،وارزقنا شفاعة نبيک صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم حتٰى ندخل الجنة بالسلام يارب العالمين ويا أرحم الراحمين ،آمين آمين.

(٣) اعلم أن للشفاعة أنواع يوم القيامة ، فالأول هي الشفاعة الكبرٰى ،وهٰذه خاصة لرسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم ،وهٰذه الشفاعة تكون لأهل المحشر يعنى لجميع الناس فى المحشر للشروع فى الحساب والقضاء ؛لأنهم يكونون فى شدة المحشر ويتألمون بها غاية الألم ،فلايستطيعون التحمل فيستشفعون إلٰى آدم عليه السلام أن يشفع إلى اللّٰه عزوجل ليريحهم من مكان المحشر ،فيرسلهم سيدنا آدم عليه السلام إلى نوح عليهم السلام ،وهو إلى إبراهيم عليه السلام وهو إلى موسٰى عليه السلام وهو إلى عيسٰى عليه السلام وهو إلى سيدنا ونبينا محمد صلى اللّٰه

تعالٰى عليه وسلم ،فيؤذن لهٗ بالشفاعة ،فيشفع ليقضي بين الخلق ،فيمشى حتٰى يأخذ بحلقة الباب ،فيومئذ يبعثه اللّٰه مقاما محمودا يحمدهٗ أهل الجمع كلهم صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم تسليما كثيرا كثيرا. صلو علٰى نبيک (صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم) يأيها القارئون! وهٰذه شفاعة عامة وخاصة لرسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم وهٰذا كلهٗ مأخوذ من البخاري والمسلم.

الثانى: إدخال قوم من أمته فى الجنة بغير حساب ،وهٰذا أيضًا خاصة لنبينا صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم كما يدل عليه الحديث عن أبى هريرة رضي اللّٰه عنه أخرجه مسلم ،فيقال: يا محمد! أدخل الجنة من أمتک من لا حساب عليه، من باب الأيمن من أبواب الجنة ،وهم شركاء الناس فيما سوى ذٰلک من الأبواب." (صحيح البخاري، ح:٤٧١٢)

الثالث: فتح الجنة نفسها للمؤمنين ، فإنهم يأتون سيدنا آدم عليه السلام ،فيسألونه أن يستفتح لهم الجنة ،فيرسلهٗ إلى إبراهيم عليه السلام ،وهو إلى موسٰى عليه السلام وهو إلى عيسٰى عليه السلام وهو إلى نبينا صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم ،فيقوم نبينا صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم ويؤذن لهٗ ،وهٰذا كلهٗ فى الحديث عن حذيفة رضي اللّٰه عنه ،أخرجه مسلم. (صحيح مسلم، ح:١٩٥) وفى الحديث عن أنس رضي اللّٰه عنه أخرجه مسلم أيضًا ، قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم: "آتى باب الجنة يوم القيامة، فأستفتح، فيقول الخازن : من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول : بک أمرت لا افتح لأحد قبلک." (صحيح مسلم، ح:١٩٧) وهٰذا غاية الشرف والعزة لرسولنا صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم : اللّٰهم ارزقنا شفاعة نبيک صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم حتٰى يدخلنا فى الجنة بغير حساب (اٰمين يارب العالمين وأرحم الراحمين)

الرابع: الشفاعة فى حق القوم من المؤمنين المسلمين الذين يكونون فى الأعراف ،وهٰذا المكان يكون فيه الناس من المسلمين الذين استوت حسناتهم وسيأتهم ،فلا يدخلون النار ولايؤذن لهم بعد فى دخول الجنة ،فيتوقفون فى الأعراف ،فيشفع لهم نبينا صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم ومن شاء اللّٰه أن يشفع من غير نبينا صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم ،فيدخلون هؤلاء من أهل الأعراف الجنة.

الخامس: الشفاعة فى حق القوم من المؤمنين المسلمين الذين استوجبوا النار بذنوبهم ،فيشفع فيهم نبينا صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم ومن شاء اللّٰه تعالٰى أن يشفع من غير نبينا صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم ،فيدخلون هؤلاء الجنة من غير دخول فى النار ،وفى الحديث أخرجه ابن ماجة عن أنس رضي اللّٰه تعالٰى عنه قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم: "يصف أهل النار ،فيمربهم الرجل من أهل الجنة ،فيقول الرجل منهم: يافلان! أما تعرفنى أنا الذى سقيتک شربة ،وقال بعضهم أنا الذى وهبت لک مآء وضوء، فيشفع لهٗ فيدخلهٗ الجنة." (شرح السنة للبغوى، ح:٤٣٥٣) وفى الحديث

"شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي." (سنن أبي داود، ح:٤٧٣٩) وفي الحديث: "إن من أمتي من يشفع للفئام من الناس ،منهم من يشفع للقبيلة ،ومنهم من يشفع للعصبة ،ومنهم من يشفع للرجل حتى يدخل الجنة." (سنن الترمذي، ح:٢٤٤٠)

السادس: شفاعة نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم لمن قد دخلوا النار من أمته من المسلمين ،فيشفع لهم نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم ،فيدخلهم الجنة فرقة فرقة! هذه شفاعة لايبتدأبها حتى بدأ بها نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم ،وهذه تكون غاية الشرف والعظمة لنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم ،ويدل عليه الحديث عن أنس رضي الله تعالى عنه في الشفاعة ،أخرجه مسلم ،ثم يشاركه فيها الملائكة والنبيون الباقيون والمؤمنون ،فيخرجون من النار فرقة فرقة من المسلمين الذى قد دخلوا النار لذنوبهم ،ويدل عليه الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أخرجه مسلم حتى لايبقىٰ من المسلمين في النار إلا من عندهم الكلمة التوحيد فقط ،وليس عندهم الأعمال الصالحة، وهؤلاء القوم من المسلمين لايأذن الله فيهم الشفاعة حتى نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم فضلا عن غيره، بل أخرجهم الله تعالى بدون الشفاعة إظهاراً لغاية رحمته وغنائه ،وهذا فيه غاية الحكمة نبين منها إن شاء الله العزيز ،وهذا كلهُ في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه مع تفسير بعضه من حديث أنس رضي الله تعالى عنه ،أخرجه مسلم أيضًا ،وفيه "(يعني نبينا صلى الله عليه وسلم يقول) فأقول: يارب ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله ،قال ليس ذلك لك أو قال ليس ذاك إليك و لكن وعزتي وكبريائي وعظمتي وجبريائي لأخرجن من قال لا إله إلا الله." (صحيح مسلم، ح:١٩٣) وهذا كما ذكرنا فيه غاية الحكمة وهي كما ذكرنا سابقا أن المعلوم أن الله عزوجل لاضغطة عليه من غيره ،فلايستطيع أحد أن يحملهُ على شيء ما ،فالشفاعة عند الله ليست من هذه الناحية، بل من ناحية أنهُ فيها إظهار لغاية الاحتياج للخلق إلى الله تعالى ،وأنهُ هو المالك والقادر والغنى ونحن الفقرآء ،فنسألهم ويسأله الشفيع شفاعة للآخرين ،وأيضًا إظهارا لكرامة والشرف للشفيع أن رب العالمين يأذن لهُ بالشفاعة ويتقبل شفاعته من غير إكراه عليه مطلقا، بل فضلا وإحسانا وإظهارا لكرامته وشرفه ليس عليه؛ لأنهُ لا مقارنة بين الخالق القادر والمخلوق العاجز، بل على الخلق الآخر ،وثم المعلوم أن من في غاية الاحتياج للشفاعة هو المسلم الذى ليس عنده إلا كلمة التوحيد (أى الإيمان بما يتعلق به) ،وليس عنده الأعمال الصالحة ،وأما الكافر فلاشفاعة لهُ مطلقا للخروج من النار، بل هو خالد مخلد فيها ، لكن المسلمين لايخلدون في النار؛ لأنهُ ثابت من القرآن والسنة أنهُ من مات على الإيمان لايخلد في النار ،وفي الحديث "من مات وهو يعلم أنهُ لا إله إلا الله دخل الجنة." (صحيح البخاري، ح:٤٤٩٧) والدلائل في هذا الباب كثيرة ، فهؤلاء المسلمون لايخلدون في النار ،وهم في أشد

الاحتياج للشفاعة ، لكن الله عزوجل لايأذن لهم بالشفاعة أحدا، بل يخرجهم بلا شفاعة؛ لأنهُ لايُبقى فى النار أبدا إلا الكافرين المشركين . فيظهر أن الله عزوجل لايحتاج إلى الشفاعة ،ولاإكراه عليه على الإطلاق حتى لو لا يأذن بالشفاعة ،فلايجترأ عليها أحد عنده ،ولوفى الذين هم فى أشد الاحتياج لها وأن رحمتهٗ أوسع على الإطلاق ،وغنائه أوسع على الإطلاق ،فيقول الله لنبينا صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فضلا عن غيره ليس ذٰلک لک أو إليک و لٰکن وعزتی وکبريائی وعظمتی وجبريائی لأخرجن من قال لا إلٰه إلا الله.

والسابع: وهٰذه الشفاعة لزيادة الدرجات فى الجنة لأهلها وترفيعها ،فيعنى يشفع لأهل الجنة من درجة ما أن يُعطى أرفع من هٰذه الدرجة ،فيشفع فيهم نبينا صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ومن شاء الله من غيره أن يشفع فيهم.

الثامن: وهٰذه الشفاعة خاصة لها نوع من الاستثناء تكون لنبينا صلى الله تعالىٰ عليه وسلم لعمه أبى طالب الذى مات على الكفر ، لكن فى حياته كان يحوط وينصر نبينا صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ،فسأل العباس رضي الله تعالىٰ عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم "يا رسول الله! إن أبا طالب كان يحوطک وينصرک ويغضب لک ،فهل نفعه ذٰلک ،فقال نبينا صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ،نعم وجدته فى غمرات من النار ،فأخرجته إلى ضحضاح ،ولولا أنا لكان فى الدرک الأسفل من النار ." (المستدرک للحاكم، ح:٨٧٣٥) وفى الحديث الآخر "لعلهٗ تنفعه شفاعتى يوم القيامة ،فيجعل فى ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلى منها دماغه ." (صحيح البخاري، ح:٣٨٨٥) وهو مع ذٰلک يرى أنهٗ أشد الناس عذابًا فى النار كما يدل عليه الحديث الآخر ،فهٰذه شفاعة خاصة لأبى طالب من نبينا صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ،فإن قيل فقد قال الله تعالىٰ: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشّٰفِعِيْنَ﴾ (المدثر:٤٨) يعنى الكفار قيل لهٗ لاتنفع فى الخروج من النار كعصاة الموحدين الذين يخرجون منها ويدخلون الجنة ،وثم هٰذه الشفاعة لايجوز تعدّيها إلى غير أبى طالب؛ لأن الحديث قد ورد عنها فنقول بها ، لأن هٰذه الشفاعة كما قلنا لها نوع من الاستثناء ، فتكون خلاف القياس فتقتصر علىٰ موردها.

المتن:

"والميثاق الذى أخذه الله تعالىٰ من آدم وذريته حق."

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالىٰ الأن يتكلم عن الميثاق الذى أخذه الله من سيدنا آدم عليه السلام وذريته ،وقد جاء هٰذا فى القرآن والأحاديث والآثار. وقد عبر عنه أبو حنيفة رحمه

اللّٰه تعالٰى في الفقه الأكبر هكذا "أخرج ذريته من صلبه علٰى صور الذر ،فجعلهم عقلاء ،فخاطبهم وأمرهم بالإيمان ونهاهم عن الكفر. فكان ذٰلك منهم إيمانا ،فهم يولدون علٰى تلك الفطرة [1] ومن كفر بعد ذٰلك فقد بدّل وغيّر ومن اٰمن وصدّق ،فقد ثبت عليه وداوم. ولم يجبر أحدا من خلقه على الكفر ولا على الإيمان ولاخلقهم مؤمنا ولا كافرا، لكن خلقهم أشخاصا ،والإيمان والكفر فعل العباد" انتهىٰ. وهٰذا الإيمان الكسبي ،فبنسبة هٰذا خلقهم لامؤمنا ولا كافرا ،فلاينازع ما قال سابقا "فكان ذٰلك منهم إيمانا وهم يولدون علٰى تلك الفطرة" لأن هٰذا كما قلنا: الإيمان الموهوب خلقهم اللّٰه عليه عند ما يولدون وكما جاء في الحديث "كل مولود يولد على الفطرة." (صحيح البخاري، ح:١٣٨٥) يعني هٰذا الإيمان السابق منهم ، لكن هو ليس الإيمان الكسبي يكسبونه في الدنيا ،فهم مكلفون في الدنيا للإيمان الكسبي يكسبونه لأنفسهم دون الإيمان الذي هي الفطرة التي يولدون عليها ،فافهم.

فالأن نحن نذكر هٰذه الواقعة واقعة الميثاق جمعا بين الآثار التي أكثرها موقوفا ، لكن مع ذٰلك في حكم المرفوع إن شاء اللّٰه؛ لأن الصحابة رضي اللّٰه تعالٰى عنهم لايستطيعون أن يطلعوا علٰى هٰذه المعلومات بدون واسطة النبي صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم ،ونحن قلنا: إن القرآن أيضًا يدل علٰى هٰذا الميثاق ،وبيانه في هٰذه الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيْ آدَمَ مِنْ ظُهُوْرِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلٰى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوْا بَلٰى شَهِدْنَا أَنْ تَقُوْلُوْا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هٰذَا غَافِلِيْنَ أَوْ تَقُوْلُوْا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُوْنَ وَكَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُوْنَ﴾ (الأعراف:١٧٢-١٧٤) وهٰذا هو الميثاق ،والآية تتكلم عن إخراج الذرية من ظهور بني آدم استغناء عن ذكر سيدنا آدم عليه السلام وإخراج ذريته من ظهره؛ لأن لما ذكر بني آدم ،والمعلوم أنهم من صلب آدم عليه السلام كان دلالة لذكر سيدنا آدم عليه السلام و إخراج ذريته من ظهره ،فعلٰى هٰذا أخرج ذرية آدم عليه السلام من ظهره ،وثم من ظهورهم ذريتهم ،وهلم جرا علٰى هٰذا المنوال ،فكان ظهر آدم عليه السلام أصلا لجميعهم.

الأن نذكر واقعة الميثاق من الآثار: لما خلق اللّٰه آدم عليه السلام مسح ظهره (وهٰذا لايكون كمسحنا الذي يكون باللمس والجارحة؛ لأن اللّٰه تعالٰى عن ذٰلك ،فيكون من المتشابهات التي ظاهرها غير مراد ،فيكون كما يليق بشأنهٖ تعالٰى) فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة أمثال الذر، ثم جعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصا من نور ،ثم عرضهم علٰى آدم ،فقال: من هؤلاء يارب! قال: هٰؤلاء ذريتك ،فجمعهم له جميعا ماهو كائن إلى يوم القيامة ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيْ

---

(١) وهٰذا الإيمان الوهبي يعني اللّٰه عزوجل خلقهم مع ذٰلك الإيمان السابق بدون الكسب منهم في الدنيا.

آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ (الأعراف:١٧٢) فجعلهم أرواحا ،ثم صورهم كماذكرنا أمثال الذر ،واستنطقهم ،فتكلموا ،وأخذ عليهم العهد والميثاق ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾(الأعراف:١٧٢) قال فإنى أشهد عليكم السموات لسبع والأرضين السبع ،وأشهد عليكم أباكم آدم ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف:١٧٢) فلا تشركوا بى شيئًا ،فانى أرسل إليكم رسلى يذكرونكم عهدى وميثاقى ،وانزل عليكم كتبى ،فقالوا: نشهد أنك ربنا وإلهنا ،لارب لنا غيرك ،ورفع لهم أبوهم آدم ،فرأى فيهم الغني والفقير وحسن الصورة وغيرذلك [1] فقال آدم عليه السلام: " رب لو سويت بين عبادك" يعنى سؤالا وتمنيا ،فقال الله تعالىٰ: "إنى أحب أن أشكر." (المستدرك للحاكم، ح:٣٢٥٥) (هذا من الحكم لرب العالمين ،ولايسأل عما يفعل وهو يمتحن عبادهٔ بالسراء والضراء ،وفى القرآن ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ (الأنبياء:٣٥) ورأى آدم عليه السلام فيهم الأنبيآء مثل السرج ،وخص الأنبيآء عليهم الصلوات والسلام بميثاق آخر بالرسالة والنبوة ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (الأحزاب:٧) يعنى عهدا وثيقا عظيما على الوفاء بما حملوا من تبليغ الرسالة وأن يصدق بعضهم بعضا) .

وهذا الميثاق كما جاء فى أثر ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما كان ببطن نعمان واد إلى جنب عرفة. ثم سيدنا آدم عليه السلام أيضًا مشارك فى هذا العهد والميثاق كما هو ظاهر؛ لأنهٔ مكلف ،وثم أيضًا مشارك فى العهد الذى أخذ من الأنبيآء؛ لأنهٔ أيضًا نبي رسول ولكونه أول البشر ،وأبوالبشر والنبي والرسول ،فهو ميّز وخصّ بأن كان مشاركا فى هذا الميثاق ، لكن مع هذا أشهده الله على هذا العهد والميثاق ،وأراه الله ذريته حتىٰ لاحظ الأشياء التى ذكرنا، ذلك فضل الله يؤتيه من يشآء ،وهذا هو العهد والميثاق ،وكما قال أبوحنيفة رحمه الله تعالىٰ: إن الإنسان يولد علىٰ هذا العهد الذى كان إيمانا منه كما فى الحديث " إنى خلقت عبادى حنفآء ،فجاء تهم الشياطين ،فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم ." (صحيح مسلم، ح:٢٨٦٥) لكن كما ذكرنا هذا الإيمان ليس بالكسب ،فهم مكلفون أن يؤمنوا بالله وبما أنزل علىٰ رسوله عليه الصلوٰة والسلام كسبا منهم ،ولو لم يفعلوا هذا فقد غيروا وبدلوا كما ذكرالشيخ الإمام أبوحنيفة رحمه الله تعالىٰ

---

(١) وهذا فى أثر أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه ،وفى حديث أبى هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعا نعم كانوا أمثال الذر كما ذكرنا سابقا ،فالجمع (ويحتمل أن معنى أمثال الذر يعنى حجما ،وليس صورة ،فعلى هذا لايحتاج إلى هذا الجمع الذى ذكرنا ،الأنهم على هذا كانوا على صورتهم من البداية ، لكن حجمهم كان صغيرا كمثل الذر ،والله أعلم) إن شاء الله أنهم كانوا أمثال الذر حين أخذ عليهم الميثاق ،فلما رفع آدم عليه السلام جعلهم على الهيئة أمكن آدم عليه السلام أن يلاحظ هذه الاختلافات فيهم.

،وهٰذا هو الشرح لهٰذا الموضوع ،ثم هناك أمور أخرىٰ تتعلق بهٰذا الموضوع ، نذكرها إن شاء الله تعالىٰ.

(١) الآية والآثار تتكلم عن النوع الإنساني فى حق هٰذا العهد والميثاق ، لكن قياسا؛ لأن الجآنّ أيضًا من المكلفين فهم أيضًا كانوا مشاركين فى هٰذا العهد والميثاق ،وهم كما هو ظاهر تبعا لبني آدم فى هٰذه الأمور حتىٰ الأنبياء من بنى آدم أنبياء هم أيضا ،فهم أيضًا كانوا تابعين فى هٰذا العهد والميثاق لبنى آدم ،وهٰذا هو القياس الصحيح إن شاء الله العزيز.

(٢) أنهُ قد ثبت أن الصبي يولد على الفطرة يعنى يولد على الإسلام ،وهو الإيمان السابق من هٰذا الميثاق الذى ذكرنا ،فعلىٰ هٰذا أطفال الكفار أيضًا يولدون علىٰ هٰذا الإيمان والفطرة كما يدل عليه الحديث أيضًا " كل مولود يولد على الفطرة ،وفى رواية علىٰ هٰذه الملة ،فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه." (البخاري، ح:١٣٨٥ والمسلم، ح:٢٦٥٨) فعلىٰ هٰذا ماهو الحكم لهم لو ماتوا قبل أن يبلغوا العمر الذى فيه يمكنهم أن يكسبوا إيمانا أو كفرا من أفعالهم؟ وماهو الحكم لهم فى أحكام الدنيا؟ فالجواب إن شاء الله العزيز بتوفيق الله تعالىٰ أنهُ إذا نغور فى القرآن والأحاديث ،نحن نصل إلى النتيجة أنهُ هناك فرق بين الصبي العاقل المميز والصبي غير العاقل غير المميز ،وفى القرآن ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِيْنَ يَعْلَمُوْنَ وَالَّذِيْنَ لَا يَعْلَمُوْنَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوْا الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر:٩) وقبل تحريم الخمر على الإطلاق قال الله تعالىٰ فى القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا لَا تَقْرَبُوْا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارىٰ حَتّٰى تَعْلَمُوْا مَا تَقُوْلُوْنَ﴾ (النساء:٤٣) قال القرطبي رحمه الله تعالىٰ فى تفسير هٰذه الآية: وقال قوم (الأصوليون) السكر محرم فى العقل وما أبيح فى شيء من الأديان (يعنى لم يكن حلالا فى شريعة من الشرائع للأنبياء عليهم الصلوٰة والسلام) فأما ما يزيل العقل فما أبيح قصدهُ، بل لو اتفق من غير قصد ،فيكون مرفوعا عن صاحبه (يعنى قبل تحريم الخمر على الإطلاق شرب الخمر ولو كان مباحا ، لكن قصد السكران به حتىٰ لايعقل خطابات الشريعة لم يكن جائزا قط فى شريعة من الشرائع؛ لأن الشرائع مصالح العباد لامفاسدهم ،وأصل المصالح العقل كما أن أصل المفاسد ذهابه ،فيجب المنع من كل مايذهبه أو يشوشه ، لكن لو كان بشرب الخمر حصل السكران من غير قصد كان مرفوعا عن صاحبه؛ لأنهُ حصل بالاتفاق وليس بالقصد) ثم هٰذا كلهُ بيان عما كان قبل تحريم الخمر مطلقا ،وأما بعد تحريمه على الإطلاق ،فحتىٰ قطرة منه حرام على القطع ،وفى القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوْهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ﴾ (المائدة:٩٠) ونحن ذكرنا هٰذه الآيات استشهادا علىٰ أن القرآن يفرّق بين من يعلم وبين من لايعلم ،والمعلوم أنهُ لايعقل إلا من يعلم ،كما قال الله تعالىٰ فى القرآن عن الأمثال التى ذكر الله تعالىٰ فى القرآن

:﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُوْنَ﴾ (العنكبوت:٤٣) وهٰذا تمهيد لبياننا ،والدليل المباشر علٰى أنهٗ هناك فرق بين الصبي العاقل وغير العاقل ،فهو حديث فى صحيح البخاري عن أنس رضي اللّٰه تعالٰى عنه أنهٗ كان غلام يهودي يخدم النبي صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم ،فمرض ،فأتاه النبي صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم يعوده فقعد عند راسه ،فقال لهٗ: "أسلم" فنظر إلى أبيه وهو عنده ،فقال لهٗ أطع أبا القاسم! فاسلم ،فخرج النبي صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم ،وهو يقول: "الحمد للّٰه الذى أنقذه من النار ." (صحيح البخاري، ح:١٣٥٦) وثم إسلام سيدنا علي رضي اللّٰه تعالٰى عنه فى صباه يعنى قبل بلوغه مشهور معروف ، وكذٰلك ابن عباس رضي اللّٰه تعالٰى عنهما قال: إنهٗ وأمه كانا من المستضعفين (يعنى الذين لايستطيعون الهجرة؛ لأنهٗ لاحيلة لهم ولاسبيل ،والهجرة يعنى إلى المدينة كانت فريضة علٰى كل مسلم ،وهؤلاء المستضعفون الذين لم تكن لهم حيلة ، ولاسبيل للهجرة، فذكرهم اللّٰه تعالٰى فى القرآن : ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِيْنَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيْعُوْنَ حِيْلَةً وَّلَا يَهْتَدُوْنَ سَبِيْلاً فَأُوْلٰئِكَ عَسَى اللّٰهُ أَنْ يَّعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّٰهُ عَفُوًّا غَفُوْراً﴾ (النساء:٩٨-٩٩) وكان من الولدان ، وكذٰلك ثابت من الحديث الصحيح أن الرسول عليه الصلوات والسلام قال لابن صياد (هٰذا هو الذى كان مشكوكا عند النبي صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم بأن يكون هو المسيح الدجال ،ولاشك أنهٗ دجال من الدجاجلة ،ولهٰذا قال نفسه: أنهٗ لو عرض عليه أن يكون المسيح الدجال لما كرهه ،وهٰذا يدل علٰى كفره بلا شك ، لكن حديث تميم الداري رضي اللّٰه تعالٰى عنه فى قصة الجساسة فى صحيح مسلم يخبر أن المسيح الدجال مقيد فى الجزيرة حين مغرب الشمس ، وقد أعجب الرسول عليه الصلوات والسلام حديث تميم الداري رضي اللّٰه تعالٰى عنه لما أخبره عما حصل بهم فى هٰذه الحادثة ،وأنهٗ لعب بهم الموج فى البحر شهرا حتٰى انتهوا إلى الجزيرة التى فيها رأوا المسيح الدجال موثوقا عليه بالحديد. وقال الرسول عليه الصلٰوة والسلام أنهٗ من قبل المشرق وأومأ بيدهٖ إلى المشرق.(صحيح مسلم، ح:٢٩٤٢) فهٰذا الحديث يدل علٰى أن ابن صياد لم يكن المسيح الدجال ، لكن كان كافرا دجالا من الدجاجلة ،واللّٰه أعلم): "أتشهد أنى رسول اللّٰه؟ وقد قارب البلوغ ، لكن لم يكن بالغا بعد ،فكل هٰذا يدل مع ما ذكرنا من الآيات القرآنية أن الصبي الذى يعقل ويعلم ماهو الإسلام وما هو الكفر ،فإسلامه إسلام وكفره كفر حتٰى لو قبل الإسلام صارمسلما ولو كان أبويه كافرين فينزع منهما حتٰى لايؤثرا فى دينه ،ويترتب عليه أحكام الإسلام ، وكذٰلك لو كفر صار كافرا ويستحق خلوداً فى النار فى الآخرة كمثل البالغ ،ويدل عليه ماقال الرسول عليه الصلٰوة والسلام عن الغلام الذى كان يهوديا بعد ما أسلم "الحمد للّٰه الذى أنقذه من النار" فثبت أنهٗ لومات من مثل هٰذا الغلام (الصبي العاقل) على الكفر لدخل النار ،ولاينفعه الإيمان والفطرة الذى كان

يولد عليه ،وهذا ولو كانا أبويه مسلمين؛ لأنهٗ لو كان إسلامه وكفره تبعا لأبويه لكان عرض الإسلام من النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم علىٰ هذا الغلام (الذى كان يهوديا) عبثا؛ لأنهٗ من أهل اليهود ، لكن الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم جعل إسلامه مستقلا عن دين أبويه ، وكذٰلك فعل بعلي رضي الله تعالىٰ عنه فثبت أن الصبي العاقل مستقل فى دينه عن دين أبويه ،فإذا كان إسلامه إسلاما ،فكذٰلك كفره كفر (ونعوذبالله) وكذٰلك ردته ردة (ونعوذبالله) يعنى لو كان أبويه مسلما ،فكان مسلما تبعا لهما ، لكن بعد ما عقل الإسلام والكفر كفر صار مرتدا ونعوذبالله فيجبر على الإسلام ، وتترتب عليه أحكام الكفر حتىٰ يسلم ،ولو مات على الردة لا يصلى عليه (ونعوذبالله) وأيضًا الحديث يدل علىٰ أن هٰذا الغلام لو لم يسلم لكان من أهل النار ،ولايكون على الفطرة التى ولد عليها ،فثبت أن كفره بكسبه ،فإذا كان كفره كفرا ،فلو كان أبويه أيضًا كافرين لكان كافرا تبعا لهما قبل سن التمييز ،فإذا بلغ سن التمييز وعقل دين أبويه واستقرعليه ،فيكون هٰذا كفر منه كسبا ،وليس تبعا فقط ،فكذٰلك لو كان أبويه مسلمين قبل سن التمييز لهٗ لكان مسلما تبعا لهما ،فإذا بلغ سن التمييز وعقل دين أبويه وأنكره (نعوذبالله) فيكون هٰذا كفر منه كسبا ،فيكون ردّة فى حقه؛ لأنهٗ كان مسلما تبعا لأبويه. ولو سألتم أنهٗ كيف يكون كافرا تبعا لأبويه قبل سن التمييز ،والحديث يقول إنهٗ ولد على الفطرة وملة الإسلام ،فقلنا بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز: إنهٗ فى حق أحكام الدنيا كافر حتىٰ يرث من الكافر ويرث منه الكافر من أقاربه ولايصلى عليه إن مات وكذا فى غيرها من أحكام الدنيا ،فيجعل كافرا تبعا لأبويه؛ لأنهٗ لم يبلغ عقلا وتمييزا حتىٰ يختار من نفسه ،وولد فى بيت الكافر ،فيحسب منهم، وفى الحديث عن الصعب بن جثامة فى كتاب الجهاد لصحيح مسلم "قلت: يا رسول الله! إنا نصيب فى البيات من ذرارى المشركين ،قال صلى الله تعالىٰ عليه وسلم هم منهم." (صحيح مسلم، ح:١٧٤٥) وكذٰلك عن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها أنها سأل رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم عن ذرارى الكفار ،فقال صلى الله تعالىٰ عليه وسلم: "هم تبع لآبائهم"أخرجه أحمد وأبوداؤد. (ح:٤٧١٣) وأما فى الآخرة ،فنتكلم عنهم فى قليل إن شاء الله العزيز. ولو سألتم كيف تطابقون ما تقولون فى الصبي العاقل المميز أن كفره كفر حتىٰ يستحق بهٖ خلوداً فى النار مع الحديث "رفع القلم عن ثلاث عن الصبي حتىٰ يبلغ ،وعن النائم حتىٰ يستيقظ ،وعن المجنون حتىٰ يفيق ." (سنن النسائي، ح:٣٤٣٢) قلنا بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز: إنهٗ قد ثبت بالأحاديث الصحيحة إسلام الصبي العاقل ، وكذٰلك كفره حتىٰ الرسول عليه الصلوات والسلام قال عن الغلام الذى أسلم: "الحمد لله الذى أنقذه من النار" فيعنى كفره كان يجعلهٗ مستحقًاللنار ،فإذا ثبت هذا بالأحاديث الصحيحة ،فيكون مخصصا لهٰذا الحديث عن رفع القلم عن الصبي. ثم هناك الروايات التى بسببها قال قوم :إن أطفال

الكفار يكونون في النار مع آباء هم ،ومن هذه الروايات أخرجه أبو يعلى الموصلي عن البراء بن عازب رضي اللّٰه تعالىٰ عنه قال: سئل رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم عن أولاد المشركين ،فقال: "هم مع آبائهم" فقيل: يا رسول اللّٰه! ما يعملون؟ قال: "اللّٰه أعلم بهم" وسئل عن أطفال المسلمين ،قال "هم مع آبائهم." وكذٰلك عن عائشة رضي اللّٰه تعالىٰ عنها أخرجه أحمد (ح:٢٤٥٤٥) وأبوداؤد (ح:٤٧١٣) وكذٰلك أخرجه أحمد عن سلمة بن قيس الأشجعي رضي اللّٰه تعالىٰ عنه قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم: "الوائدة والموؤودة في النار إلا أن تدرك الوائدة الإسلام ،فتسلم." (مسند أحمد، ح:١٥٩٢٣) فهٰذا القوم بسبب هذه الروايات قالوا: إن أطفال الكافرين في النار مع آباء هم ،فهم جعلوا كفر آباء هم كفرهم (يعني كالكفر الكسبي) حتىٰ قالوا: إنهم في النار معهم ،ونحن لانقول بهٰذا؛ لأن الروايات الأخرىٰ تخالف هٰذه الروايات ، فلهٰذا قلنا: إنهم مع آباء هم في أحكام الدنيا إلا لو الصبي العاقل يسلم ،فيكون مسلما ، وتترتب عليه أحكام الإسلام في الدنيا فنأخذ الحديث "هم مع آبائهم" تأويلا علىٰ أحكام الدنيا حتىٰ توافق مع الروايات الأخرىٰ التي سنذكرها ،والحديث عن كون الموؤودة في النار يخالفه حديث آخر ،أخرجه أحمد "النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة، والوئيد في الجنة ." (مسندأحمد، ح:٢٠٥٨٣) والوئيد هي الموؤودة، فسقط الاحتجاج بالحديث عن كونها في النار لوجود المعارض ،فنحن لانقول بقول هٰذا القوم ، لٰكن ذكرنا هٰذا القول لإظهار أن هٰذه المسئلة عن أطفال المشركين والإيمان والكفر بنسبة الصبي غير البالغ هي مسئلة خاصة مخصصة من عموم المعنىٰ للحديث عن رفع القلم حتىٰ ترىٰ أن الروايات الأخرىٰ في هٰذه المسئلة تخصص عمومية الحديث عن رفع القلم حتىٰ في الحديث الصحيح ،أخرجه البخاري قالوا: يا رسول اللّٰه! أفرأيت من يموت وهو صغير "قال: اللّٰه أعلم بما كانوا عاملين." (ح:١٣٨٤) انتهى. ولم يقل رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم: إنهٗ رفع عنهم القلم، بل قال "اللّٰه أعلم بما كانوا عاملين" يعني لو بلغوا؛ لأن اللّٰه عزوجل يعلم ماكان وما يكون ،وما لايكون لو يكون كيف يكون ،فهو يعلم لو بلغوا هٰؤلاء الأطفال ماذا فعلوا إسلاما أو كفرا؟ ،فهٰذا هو معنى الحديث إن شاء اللّٰه العزيز ،وهٰذا أيضًا يدل علىٰ تخصيص هٰذه المسئلة من الحديث عن رفع القلم، ثم عمومية السؤال "أفرايت من يموت وهو صغير" والجواب "اللّٰه أعلم بما كانوا عاملين" يشمل أطفال المسلمين أيضًا ، لكن يجب استثنائهم؛ لأن أهل السنة قد اتفقوا أن أطفال المسلمين (مادام لايرتد عن دين أبويه بعد أن يبلغ سن التمييز والعقل) في الجنة ،لأنهم في أحكام الدنيا تبع لآباء هم حتىٰ يصلي عليهم إذا ماتوا ، كما هو معلوم من الدين ضرورة ،فهٰذا كافي في ثبوت أنهم من أهل الجنة ،ثم الأحاديث كثيرة في هٰذا الباب ،ومنها "من مات لهٗ ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث كان لهٗ

حجابا من النار أو دخل الجنة ." (صحيح مسلم، ح: ٢٦٣٢) وفي رواية "مامن الناس مسلم يموت لهٗ ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا أدخلهُ اللّٰه الجنة بفضل رحمته إياهم." (صحيح البخاري، ح: ١٢٤٨) وهٰذا كلهٗ في مسلم ،فإذا أولاده يكونون سببا لدخوله الجنة ،فكيف هم أنفسهم لايكونون من أهل الجنة ؟ فهم من أهل الجنة ، وكذٰلك قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم لما توفي ابنه إبراهيم رضي اللّٰه تعالىٰ عنه صغيرا " إن لهٗ مرضعا في الجنة ." (صحيح البخاري، ح: ١٣٨٢) الأن لو تسأل أنك قد وعدت أنك تتكلم عما يكون في الآخرة لصبي غير العاقل الكافر [1] فبيّنه لنا الأن.

فقلنا بتوفيق اللّٰه تعالىٰ إن شاء اللّٰه العزيز: إنهٗ قد ثبت في الأحاديث أن الهالك في الفترة (الذى لم تبلغه دعوة نبي ما عليه السلام) والمعتوه (الذى لايعقل خيرا ولا شرا) ،والمولود [2] سيمتحنهم اللّٰه تعالىٰ يوم القيامة ،فيقوم هٰذا الامتحان مقام الامتحان في الدنيا لو كانوا عاقلا بالغا بلغتهم الدعوة ،فترفع لهم نار ،فيقول اللّٰه تعالىٰ أن يدخلوا فيها ،فيدخل فيها منهم من علم اللّٰه تعالىٰ أنهٗ يكون سعيدا في الدنيا لو كان عاقلا بالغا مبلغا بالدعوة ،فلاتضره النار، بل تكون عليه بردا وسلاما ،وهٰؤلاء يكونون من أهل الجنة ،ويمسك منها منهم من علم اللّٰه تعالىٰ أن يكون شقيا في الدنيا لو كان عاقلا بالغا مبلّغا بالدعوة فلايدخل فيها ،ويكونون هٰؤلاء من أهل النار ،وفي رواية اللّٰه عزوجل يقول لهم: "إني كنت أبعث إلى عبادى رسلا من أنفسهم وإني رسول نفسي إليكم أدخلوا هٰذهٖ (النار) " فيدخلها السعيد ويمسك عنها الشقي ،فيقول اللّٰه تعالىٰ للأشقياء "أنتم لرسلي أشد تكذيبا ومعصية ." (مسند أبي يعلى، ح: ٤٢٢٤) هٰذا الامتحان يكون لهم بعد الهالك في الفترة يقول: "لم يأتني كتاب" والمعتوه يقول: "رب لم تجعل لى عقلا أعقل بهٖ خيرا ولاشرا" ويقول المولود: "رب لم أدرك العقل" ثم يكون لهم هٰذا الامتحان ،وهو من أشد الامتحان ؛لأنهم يؤمرون أن يدخلوا النار ، لٰكن الإيمان بالغيب الذى في الدنيا هو الامتحان الأعلىٰ من هٰذا؛ لأنهٗ بالغيب ،وهٰذا الامتحان يكون في يوم القيامة ،فلايكون إيمانا بالغيب ،فيكون أشداً من ناحية أخرىٰ ،وهو تكليف بإطاعة الأمر الصعب ،وهو الدخول في النار حتىٰ يستدرك بعض ما فات منه من كونه لايكون إيمانا بالغيب ،فافهم! ثم في هٰذا الحديث يقول المولود: "رب لم أدرك العقل" فلايشمل الصبي العاقل الذى قلنا عنه إنهٗ مستقل في إيمانه وكفره ،فيكون كمثل البالغ (يعني الصبي العاقل) في هٰذا الموضوع ،ولونسلم أن المعنى "رب لم أدرك العقل" البلوغ ،فعلى هٰذا الصبي العاقل أيضًا يمتحن في يوم القيامة ، لٰكن لاينجح في هٰذا الامتحان؛ لأنهٗ لوكان مسلما في الدنيا ،فلايكون لهٗ هٰذا الامتحان في

(١) تبعا لأبويه الكافرين.

(٢) يعني الطفل الصغير غير العاقل.

الآخرة؛ لأن هٰذا الامتحان يكون لأطفال الكافرين الذين كانوا غير عاقلين في الدنيا ،ومع ذٰلك علٰى وجه التسليم أنهٗ معنى "لم أدرك العقل" في الحديث هو البلوغ ،يكون هٰذا الامتحان أيضًا للصبي العاقل الكافر في الدنيا بغض النظر عن كون أبويه كافرين أو مسلمين في الدنيا ،ولايكون هٰذا الامتحان لأطفال المسلمين غير عاقلين ؛لأنهم من أهل الجنة ولا للصبي العاقل المسلم الذي مات في صباه بغض النظر عن كون أبويه مسلمين أو كافرين في الدنيا ،فلو الصبي العاقل الكافر الذي مات في صباه يمتحن بهٰذا الامتحان أيضًا ،فلايكون ناجحا فيه؛ لأنهٗ قد اختار الكفر كسبا في الدنيا ،وقد ثبت بالحديث أن كفره كفر حتٰى يجعلهٗ مستحقًا للنار ،فإما يدخل النار بدون الامتحان أوإما يدخل النار بعد هٰذا الامتحان؛ لأنهٗ لايكون ناجحا فيه؛ لأن الدلائل قد ثبتت أنهٗ من أهل النار وعلٰى وجه أنهٗ يمتحن أيضًا وثم يدخل النار؛ لأنهٗ لايتمكن أن ينجح فيه لاينتهض الاعتراض من ناحية الحديث عن رفع القلم؛ لأنهٗ في هٰذه الصورة السبب المباشر لدخوله في النار هو خسرانه في هٰذا الامتحان في الآخرة ، لكن سبب خسرانه في الامتحان هو كفره في الدنيا ،فافهم! وأما الصبي غير العاقل(يعني الذي أبواه كافران) الذي مات في هٰذه الحالة ،فيكون ممتحنا لابد، وثم اللّٰه أعلم بما كان يعمل لويبلغ العقل في الدنيا ،وعلٰى حسب هٰذا ينجح أو يخسر في هٰذا الامتحان يوم القيامة ،ويكون من أهل الجنة أومن أهل النار ،وعلٰى هٰذا يجمع إن شاء اللّٰه العزيز الروايات المختلفة في هٰذا البيان ،وهؤلاء هم الذين عنهم قد جاء في رواية أخرجه أبوداؤد الطيالسي عن أنس رضي اللّٰه تعالٰى عنه قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم في أطفال المشركين (غير عاقلين) "لم يكن لهم سيئات فيعذبوا بها ،فيكونوا من أهل النار ،ولم يكن لهم حسنات ،فيجازوا بها ،فيكونوا من أهل الجنة." (مسند أبي داود، ح:٢٢٢٥) وهٰؤلاء الذين ذكروا في حديث رؤيا رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم ،وفيه أنهٗ رأى في هٰذا الرؤيا إبراهيم عليه السلام في روضة ،وحوله الولدان ،وهو كل مولود مات على الفطرة ،ويشمل أولاد المشركين كما في الحديث بالصراحة ،فهؤلاء أولاد المشركين الذين ماتوا على الفطرة ،فلايشمل الصبي العاقل الكافر؛ لأنهٗ كفر بكسبه كما ثبت سابقا ،فأولاد المشركين غير العاقلين في البرزخ ،من منهم يكون سعيداحسبما في علم اللّٰه تعالٰى في امتحان الآخرة لهم ،هم مع أولاد المسلمين في البرزخ في هٰذه الروضة ،وأما من منهم يكون شقيا حسبما في علم اللّٰه تعالٰى في امتحان الآخرة لهم فيحتمل هم أيضًا في هٰذه الروضة في مدة البرزخ؛ لأنه لم تظهر شقاوتهم بعد ،وهم ماتوا من الدنيا صغارا (ويدل عليه ما في بيان هٰؤلاء الولدان في الروضة في الحديث "كل مولود مات على الفطرة" فقال بعض المسلمين يا رسول اللّٰه! وأولاد المشركين ؟ فقال صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم "وأولاد المشركين ." (صحيح البخاري، ح:٧٠٤٧) بلااستثناء أو يحتمل يكونون في مكان

آخر فى مدة البرزخ ،والله أعلم ،وهذا البيان كلهُ عن أرواحهم ،وأما الأجساد فحيثما يضعونها أهل الميت وتبلى منه ما شاء الله إلى أن تبعث يوم القيامة ،ثم يؤيد ماقلنا قصة قتل خضر عليه السلام غلاما ،كما فى القرآن ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ (الكهف:٧٤) ولفظ الغلام للذى من الرجال الذى لم يبلغ بعد ،وثم كلمة "زكية" أيضًا يدل عليه ،وجاء فى تفسيره عن ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنه "الذى لم تعمل بالحنث" والحنث معناه "إثم" ويقال بلغ الغلام الحنث يعنى صار بالغا ،فكل هذا يدل علىٰ أنهُ كان غير بالغ ، لكن مع هذا قد جاء عن هذا الغلام عن سعيد عن ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنه أنهُ كان كافرا ،رواه البخاري ، وكذٰلك فى قراءة شاذة لابن عباس رضي الله تعالىٰ عنه كما رواه البخاري "وأما الغلام فكان كافرا." (صحيح البخاري، ح: ٣٤٠١) وهذا مع كون أبويه مؤمنين كما فى القرآن ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ (الكهف:٨٠) وقد جاء فى الحديث المرفوع الصحيح "إن الغلام الذى قتله الخضر طبع كافرا ،ولو عاش لأرهق أبويه طغيانا وكفرا." (صحيح مسلم، ح: ٢٦٦١) فهذا الغلام الذى لم يكن بالغا ، لكن كان غلاما عاقلا ،وكان كافرا مع كون أبويه مؤمنين ،فثبت أن الصبي العاقل مستقل فى دينه عن دين أبويه إسلاما وكفرا.

فحاصل الكلام فى الصبيأن

(١) الصبي غير العاقل للمسلم يكون فى الجنة.

(٢) الصبي غير العاقل للكافرين يكون ممتحنا فى الآخرة وثم من أهل الجنة أو أهل النار علىٰ حسب نجاحته أو خسرانه فى الامتحان.

(٣) الصبي العاقل هو مستقل فى دينه عن أبويه ،فلو يكون مسلما يدخل الجنة ،ولويكون كافرا يدخل النار إما بدون الامتحان الذى يكون للصبي غير العاقل للكافرين فى الآخرة ،أو إما بعد الامتحان؛ لأنه لايتمكن أن ينجح فيه.

(٤) الصبي غير العاقل للمسلم مسلم فى أحكام الدنيا.

(٥) الصبي غير العاقل للكافرين كافر تبعا لهما فى أحكام الدنيا.

(٦) الصبي العاقل مستقل فى دينه عن دين أبويه فى أحكام الدنيا.

(٧) الصبي غير العاقل يكون مسلما لوواحد أبويه مسلم؛ لأن الإسلام يعلو ولايعلىٰ ، فمثلا لو أمه نصرانية وأبوه مسلم يكون مسلما تبعا لأبيه ، وكذٰلك الصبي العاقل إلا أن يختار كفرا بنفسه ،فيكون مرتدا حينئذٍ. (والعياذ بالله تعالى)

ومن الأمور التى تتعلق بهذا البيان للميثاق الذى نحن فيه هو خلق الأرواح قبل الأجساد

،وكما تدل عليه قصة الميثاق أن الأرواح خلقت قبل الأجساد بزمان ،وهٰذه الأرواح كأمثال الذر التى أخذ عليهم الميثاق فى زمان سيدنا آدم عليه السلام ،فهٰذا دليل ظاهر علىٰ خلقها قبل الأجساد ،وهٰذا حق لا شک فيه ،والدلائل فى هٰذا الباب كثيرة ،ومنها هٰذه القصة قصة الميثاق ،ومنها حديث الإسراء أن الرسول عليه الصلوات والسلام يرىٰ سيدنا آدم عليه السلام فى السماء الأولىٰ ،وكان فى يمينه نسمة أهل الجنة وفى شماله نسمة أهل النار وكان عليه السلام يضحک لما يرىٰ فى يمينه ويبکى لما يرى فى شماله. (صحيح البخاري، ح: ٣٤٩) والمعلوم أن الأرواح للكفار لا تتمكن أن يدخل فى السماء بعد موتهم من هٰذا الدنيا ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾(الأعراف:٤٠) فلا بد من أن يكون هٰذه النسم نسم أهل النار الذين لم يولدوا بعد ،ولم يوجد تكذيبهم بعد فى دار الامتحان يعنى فى الدنيا ، لٰكن لأنهم فى علم الله تعالىٰ وقدره متعين أنهم من أهل النار ،فكان يبکى عليهم سيدنا آدم عليه السلام أسفا.

ومنها الحديث المعروف "الأرواح جنود مجندة ،فما تعارف منها ائتلف ،وما تناكر منها اختلف" أخرجه مسلم.(صحيح البخاري: ح٣٣٣٦) وقد جاء هٰذا الحديث فى بعض الروايات ،والله أعلم بصحته عن عمرو بن عنبسة رضي الله تعالىٰ عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم يقول: "إن الله خلق أرواح العباد قبل العباد بألفى عام ،فما تعارف منها ائتلف ،وما تناكر منها اختلف." (شرح الصدور: ص:٣١٥) ، لٰكن أصل هٰذا الحديث ثابت فى الصحيح كما ذكرنا أنها جنود مجندة ،فكانوا قبل الأجساد ،والذين تعارفوا منهم بعضهم بعضا (يعنى قبل إتيانهم الدنيا) يأتلفون فى الدنيا بعضهمْ بعضا ،والذين تناكروا منهم بعضهم بعضا (يعنى قبل إتيانهم الدنيا) يختلفون فى الدنيا بعضهم بعضا (والله أعلم بمراد الحديث ،هٰذا هو ما بدا لى وأرجو أن يكون صحيحا إن شاء الله تعالىٰ) فدلالة هٰذا الحديث علىٰ خلق الأرواح قبل الأجساد ظاهر علىٰ ماذكرنا (والله أعلم) لاسيما مع تأييد الرواية الأخرىٰ التى ذكرنا شرطا علىٰ ثبوته، ومنها الآية ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة:٢٨) والمعلوم أن الموت هو اعتزال الروح من البدن ،وقد قال الله تعالىٰ فى القرآن: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾(النحل:٢٠-٢١) فقال عن الذين كانوا فى حياة الدنيا ،ولم ماتوا أنهم أموات ،ولا يشعرون متىٰ يبعثون ،والمعلوم أنهم إذا ماتوا خرجت أرواحهم من أبدانهم ،وأبدانهم قد بليت [1]، وفى الحديث "ليس شيء من الإنسان إلا يبلىٰ إلا عظما واحدا ،وهو

(١) الأنبياء ومن شاء الله معهم مستثنون من هٰذه القاعدة ،وإن شاء الله نتكلم عنها فى مكانها.

عجب الذنب، منه يركب الخلق يوم القيامة "فالحالة التى فيها قد بليت الأبدان ، لكن الأرواح موجودة حالة الموت ،فإذا قال الله تعالىٰ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُوْنَ بِاللّٰهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ (البقرة:٢٨) يعنى أرواحا بدون الأبدان ،فأحياكم يعنى خلق الأبدان ،وجعل فيها الأرواح " ثُمَّ يُمِيْتُكُمْ " أخرج الأرواح من الأبدان "ثُمَّ يُحْيِيْكُمْ " أرجع الأبدان وأرجع الأرواح فيها "ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُوْنَ" يعنى فى المحشر ،وإن قيل كيف يكون معنى "وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا " الأرواح بدون الأبدان والآية متوجهة إلى الكفار ،وقد ينكرون وجود الأرواح قبل الأبدان ،فكيف تنتهض هٰذه الآية حجة عليهم ،فقلنا بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز لو الكافر ينكروجود الأرواح قبل الأبدان ، لكن لابد لهُ من أن يقرّ أننا كنا معدوما [1] قبلا ،وهٰذا لاشک فيه ،فهو يأخذ هٰذه الآية "وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا" يعنى معدوما ﴿فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيْتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيْكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُوْنَ﴾ (البقرة:٢٨) فتكون حجة عليه ،ولو يقرهٰذا الكافر أن الأرواح قد خلقت قبل الأبدان ،فهو يأخذ هٰذه الآية على الوجه الذى ذكرنا ،فتكون حجة عليه ،فلا فرار لهٰذا الكافر فى الوجهين ،ثم المعلوم أن الكفار من العرب لم يكونوا كافرين بوجود الله ، لكن كانوا يشركون بالله ،وينكرون بالبعث ،فيستبعدون إحياء الأجساد التى قد بليت ﴿وَقَالُوْا ءَ إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَّرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوْثُوْنَ خَلْقًا جَدِيْدًا﴾ (بنى إسرائيل: ٤٩) فهٰذه الآية على الوجه الذى ذكرنا تكون حجة قاطعة عليهم ،وبيانه أنهُ كيف تكفرون بالله أنهُ سيبعثكم بعد الموت ،وكنتم أرواحا بدون الأبدان ،فخلق أبدانكم ،وجعل فيها أرواحكم ،وثم أخرج أرواحكم من أبدانكم ،وأبدانكم ستبلى ،فكيف تكفرون بقدرته علىٰ إرجاع أبدانكم وإرجاع أرواحكم فيها فى البعث ،وهو الذى خلق أبدانكم أول مرة وجعل فيها أرواحكم ،فهٰذا ليس إلا عنادا عظيماً ،فهٰذه الآية أيضًا حجة علىٰ أن الأرواح خلقت قبل الأجساد ،فهٰذا ثابت لاشک فيه ،وهو أيضًا ظاهر من قصة الميثاق التى فيه "فسقط من ظهره (يعنى آدم عليه السلام) كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة" والنسمة يعنى الروح ،فالمعنى جميع الأرواح.

ولئن سألتم ماهو المعنى "هو خالقها إلى يوم القيامة" وقد خلقها لأنها سقطت من ظهر آدم عليه السلام؟ فقلنا بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز: إنهُ فى رواية أخرىٰ جاء هٰكذا "جميعا ماهو كائن إلى يوم القيامة." (صحيح ابن حبان، ح: ٣٢٥٥) فيكون معناه إن شاء الله العزيز أن جميع الأرواح التى يخلق لها أبداناً فى الدنيا ويجعلها فى هٰذه الأبدان ،فتكون كائنا فى الدنيا جيلا بعد جيل إلى يوم القيامة ،والله أعلم،ونكتفى بهٰذه الدلائل التى ذكرنا لهٰذا البيان ،والحمدلله.

فالحق الذى لاشک فيه أن الأرواح خلقت قبل الأبدان بزمان ،والله أعلم ويهدى من يشاء

---

(١) وهٰذا لا محال للإنكار ،وثم الأرواح أيضًا حادثة مخلوقة ولو كانت خلقها قبل الأبدان ، لكن مع ذٰلك الأرواح والعالم كلهٗ مخلوقة حادثة ،وكان الله ولم يكن شيء غيره ،وهو خالق الزمان والمكان ،والكل بعد أن لم يكونوا.

إلى صراط مستقيم.

المتن:

وقد علم اللّٰه تعالىٰ فيما لم يزل عدد من يدخل الجنة وعدد من يدخل النار جملة واحدة ،فلايزاد في ذٰلک العدد ولاينقص منه ، وكذٰلک أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوه ،وكل ميسر لما خلق له، والأعمال بالخواتيم، والسعيد من سعد بقضاء اللّٰه تعالى، والشقي من شقي بقضاء اللّٰه تعالىٰ.

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه اللّٰه تعالىٰ الأن يدخل في موضوع القضاء والقدر ،وقد ذكر منه قبلا ،ونحن شرحنا عليه سابقا ،وبقي بعض المجالات من هذا الموضوع التي سنذكرها شيئًا لشيئًا إن شاء اللّٰه تعالىٰ ،والقضاء والقدر في هذا الموضوع عبارة عن معنى واحد ،وهي الإرادة الأزلية المتعلقة بالموجودات الكائنة كماهي عليه فيما لايزال ،وفي القرآن ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس:٨٢) وفي آية أخرى ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (البقرة:١١٧) فثبت أن المعنى "وَإِذَا قَضَىٰ" يعني إذا أردناه ،فالقضاء هي الإرادة الأزلية ، وكذٰلک القدر ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ (الأحزاب:٣٨) "أَمْرُهُ" يعني ما شاء اللّٰه من الحوادث أن توجد "قدرا مقدورا" يعني كان حتما مقضيا من قبل ، وكذٰلک في الآية ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾(القمر:٤٩) يعني ما سبق من القضاء لهُ ،وثم كلاهما يعني القضاء والقدر يشمل كما ذكرنا سابقا علمهُ تعالىٰ وإرادته و كتابتهُ في اللوح المحفوظ ،ثم خلقه وتكوينه علىٰ وفق علمه وإرادته وكتابته ،وهذا هو المعنى للقضاء والقدر.

فالشيخ رحمه اللّٰه تعالىٰ يذكر علمه تعالىٰ الأزلي ،ويقول إنهُ كما علم كل شيء من الأزل فعلم أهل الجنة وأهل النار وأفعالهم من الأزل ،وهٰذا كائن كما هو يعلمه ،وثم يقول "وكل ميسر لما خلق له" ومعناه أنهُ من خلق اللّٰه للجنة ،فهو يعمل أعمال أهل الجنة ،ويسر لهُ ذٰلک حتىٰ مات عليه ويدخلها ومن خلق اللّٰه تعالىٰ للنار ،فهو يعمل أعمال أهل النار ،ويسر لهُ ذٰلک حتىٰ مات عليه ويدخلها ،ثم الشيخ يقول "والأعمال بالخواتيم" يعني إنما العبرة لما مات عليها العبد ، فمثلا يكون العبد مسلما طول حياته ، لكن يموت على الكفر ،فيكون كافرا ويدخل النار خالدا فيها ،ويكون العبد كافرا طول حياته ، لكن أسلم قبل أن يموت ،فيموت على الإسلام ،فيكون مسلما ويدخل الجنة ، فالعبرة للخواتيم ،وكل هذا من قضاء اللّٰه تعالىٰ وقدره ،فالسعيد يعني أهل الجنة من سعد بقضاء اللّٰه

تعالىٰ وقدره يعنى علم الله أنهٗ يجعلهٗ سعيداً ،فأراد سعادته وكتبه سعيدا فى اللوح المحفوظ ،وخلقه سعيدا يعنى أماته على الإسلام ، وكذٰلك الشقي من شقي بقضاء اللّٰه تعالىٰ يعنى علم الله تعالىٰ أنهٗ يجعلهٗ شقيا ،فأراد شقاوته وكتبه شقيا فى اللوح المحفوظ ،وخلقه شقيا يعنى أماته على الكفر ،فكل بقضاء اللّٰه تعالىٰ وقدره ،وكل ماذكر الشيخ رحمه اللّٰه تعالىٰ فهو موجود فى القرآن والحديث ،وفى الحديث الصحيح "إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتىٰ مايكون بينه وبينها إلا ذراع ،فيسبق عليه كتاب ،فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ،فيسبق عليه الكتاب ،فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها." (صحيح البخاري، ح: ٤٤٥٤) "من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة" "اعملوا فكل ميسر، أما أهل السعادة ،فييسرون لعمل أهل السعادة ،وأما أهل الشقاوة ،فييسرون لعمل أهل الشقاوة، فكل ميسر لما خلق له ." (صحيح البخاري، ح: ٤٩٤٩) وقال صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم عن أعمال الناس أنها بل شيء قضى عليهم ومضىٰ فيهم ،وتصديق ذٰلك فى كتاب اللّٰه تعالىٰ ﴿وَنَفْسٍ وَّمَا سَوّٰاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُوْرَهَا وَتَقْوٰاهَا﴾ (الشمس:٧-٨) وقال صلى الله تعالىٰ عليه وسلم: "اعملوا فكل ميسر لما خلق له" وثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطٰى وَاتَّقٰى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنٰى فَسَنُيَسِّرُهٗ لِلْيُسْرٰى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنٰى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنٰى فَسَنُيَسِّرُهٗ لِلْعُسْرٰى﴾ (الليل:٥-١٠) (صحيح مسلم، ح:٢٦٤٧) وفى الحديث "كتب اللّٰه مقادير الخلائق قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة." (صحيح مسلم، ح:٢٦٥٣) وقد مر أن كتابته ليس ككتابتنا ،بل معناه أنهٗ خلق المكتوب ،وثم قبل خلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة باعتبار الكتابة ،وأما علمه وإرادته فأزليان ،كجميع صفاته تعالىٰ ،وفى الحديث أن الرسول عليه الصلوات والسلام خرج وفى يده كتابان ،فقال للذى فى يده اليمنىٰ "هٰذا كتاب من رب العالمين ،فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آباء هم وقبائلهم ،ثم أجمل علىٰ آخرهم ،فلايزاد فيهم ولاينقص منهم أبدا ،ثم قال للذى فى شماله ،هٰذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار وأسماء آباء هم وقبائلهم ،ثم أجمل علىٰ آخرهم ،فلا يزاد فيهم ولاينقص منهم أبدا." (سنن الترمذي، ح: ٢١٤١)

المتن:

وأصل القدر سرالله تعالىٰ فى خلقه لم يطلع علىٰ ذٰلك ملك مقرب ولانبي مرسل ،والتعمق والنظر فى ذٰلك ذريعة الخذلان وسلم الحرمان ودرجة الطغيان ،فالحذر كل الحذر من ذٰلك نظرا وفكرا ووسوسة ،فإن الله

تعالٰى طوى علم القدر عن أنامه ونهاهم عن مرامه ،كما قال تعالٰى فى كتابه :﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾(الأنبياء:٢٣) فمن سأل لم فعل؟ فقد رد حكم الكتاب، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين. فهٰذه جملة ما يحتاج إليه من هو منور قلبه من أولياء اللّٰه تعالٰى ،وهي درجة الراسخين فى العلم؛ لأن العلم علمان، علم فى الخلق موجود ،وعلم فى الخلق مفقود ،فإنكار العلم الموجود كفر ،وادعاء العلم المفقود كفر ،ولايثبت الإيمان إلا بقبول العلم الموجود وترك طلب العلم المفقود.

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه اللّٰه تعالٰى يستمر فى كلامه عن القضاء والقدر ،فيقول: إن القدر سر اللّٰه تعالٰى فى خلقه ،وهٰذا قد اتفق أهل الحق عليه أن القدر سر اللّٰه تعالٰى فى خلقه ،ولايعرفه ملك مقرب ولانبي مرسل ،ومعناه يرجع إلى إدراك كنهه بالكمال ،وهٰذا غير حاصل لأحد من خلقه ،وقد جاء النهي الشديد فى الغور فى مسئلة القدر ،وفى الحديث "وإذا ذكر القدر فأمسكوا ." (المعجم الكبير، ح:١٤٢٧) وقد جاء فى الحديث أخرجه الترمذي أنهٗ خرج رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم ،وبعض الصحابة رضي اللّٰه تعالٰى عنهم يتنازعون فى القدر ،فغضب رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم حتٰى احمر وجهه حتٰى كأنما فقئ فى وجنتيه الرمان ،فقال: "أبهٰذا أمرتم أم بهٰذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا فى هٰذا الأمر ،عزمت عليكم عزمت عليكم الا تنازعوا فيه." (سنن الترمذي، ح:٢١٣٣) وفى الحديث "من تكلم فى شيء من القدر سئل عنه يوم القيامة ،ومن لم يتكلم فيه لم يسئل عنه." (سنن ابن ماجة، ح:٨٤) وفى الحديث اعتبر رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم الاختصام فى القدر ،كضرب القرآن بعضه ببعض ،وهٰذا كلهٗ؛ لأن مسئلة القدر بكنهها تماما لانستطيع أن ندركها ،فالغور فى هٰذه المسئلة يؤدى إلى التنازع والخصومة ،فلذٰلك الشيخ يقول: إن التعمق والنظر فى هٰذه المسئلة ذريعة الخذلان وسلم الحرمان ودرجة الطغيان ،فالحذر كل الحذر من ذٰلك نظرا وفكرا ووسوسة ،فإن اللّٰه تعالٰى طوىٰ علم القدر عن أنامه ،ونهاهم عن مرامه . فإذا يغور فى مسئلة القدر ،وهٰذا يؤدىٰ إلى ضرب القرآن بعضه ببعض كما فى الحديث؛ لأن القرآن يخبرنا أن كل شيء حسنا أو قبيحا من قدرا للّٰه تعالٰى ،ومع ذٰلك يخبرنا القرآن أن الانسان والجن مكلفون مسؤولون عن أعمالهم ،فكلا الشيئان صحيحان فى مكانهما ،فوجب الإيمان بهما كاملا بدون الجحد أو الشك ،ولولا يستطيع أن يدرك هٰذين الشيئين مجتمعا بالتمام

لقصور عقله ، لكن واجب عليه أن يعتقد عليهما بالتمام ،فإذا لايفعل هٰذا، بل يريد أن يغور فى هذه المسئلة ،فهٰذا قد يؤدى إلى أن يكذب بعض القرآن ويصدق بعضه ،وهٰذا كفر بواح ،وفى القرآن ﴿أَفَتُؤْمِنُوْنَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُوْنَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَّفْعَلُ ذٰلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّوْنَ إِلٰى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّٰهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُوْنَ﴾ (البقرة:٨٥) وقد يؤديه إلى إنكار الآية ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُوْنَ﴾ (الأنبياء:٢٣) وهٰذا ما ذكره الشيخ رحمه اللّٰه تعالىٰ ،فقال: إنهٗ من سأل لم فعل؟ فقد رد حكم الكتاب ،ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين ،وهٰذا لأن من يغور فى مسئلة القدر قد يسأل لماذا يعذبنا اللّٰه علىٰ سيآتنا ،وقد قدّرها علينا؟ " وهٰذا اعتراض على اللّٰه تعالىٰ ،وهو كفر؛ لأن اللّٰه لايسأل عما يفعل وهم يسئلون ،يعنى الخلق الذى يسأله اللّٰه تعالىٰ ،وأما اللّٰه فهو المالك الخالق على الإطلاق ،فيفعل فى خلقه ما يشاء ،لاحجر عليه ولا منع ،فأولياء اللّٰه تعالىٰ يعرفون هٰذا ،فهم يعتقدون علىٰ قدر اللّٰه تعالىٰ ويرضون به ، وكذٰلك يعتقدون ويعترفون أننا مكلفون بأعمالنا ،ولايغورون فى هٰذه المسئلة إلا مابيّن اللّٰه بواسطة رسوله صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم ،فهم يعتقدون عليه بدون التعمق والغور من أنفسهم؛ لأن الاعتقاد علىٰ ما كلفه اللّٰه علينا واجب ،والسعي إلى معرفة ما طوى اللّٰه عنا حرام؛ لأنهٗ يدل علىٰ عدم اعترافنا أن معرفته ما طوى اللّٰه عنا ،فالشيخ يذكر هٰذا ،ويقول: إن هٰذهٖ جملة ما يحتاج إليه من هو منور قلبه من أولياء اللّٰه تعالىٰ ،يعنى هم يقتصرون علىٰ ما أخبر اللّٰه عن القدر ،والاعتقاد عليه بالجزم بدون الشك والغور فى هٰذه المسئلة ،وهي درجة الراسخين فى العلم؛ لأن العلم علمان، علم فى الخلق موجود، وعلم فى الخلق مفقود ،فإنكار علم الموجود كفر ،وادعاء العلم المفقود كفر ،ولايثبت الإيمان إلابقبول العلم الموجود وترك طلب علم المفقود.

فحاصل الكلام أن ماخفي من علم القدر هو إدراك كنهه بكمال ،وهٰذا هو الذى الغور والتعمق فيه يؤدى إلى تكذيب القرآن واعتراض على اللّٰه تعالىٰ. وأما لو واحد يقول: إنهٗ يعلم ماهو القدر وبيّنه أنهٗ كل شيء بعلم اللّٰه تعالىٰ وإرادته ومشيئته ،فهٰذا الإسلام بعينهٖ ،وليس كفراً البتة ، بل إنكار هٰذا كفر ،وهٰذا هو ما قال الشيخ عند ماقال: "فإنكار العلم الموجود كفر" فعلىٰ هٰذا مسئلة القدر من ناحية السعي فى إدراك كنهها والتعمق والغورفيها حرام ،وهو يؤدى إلى تكذيب القرآن واعتراض على اللّٰه ،وهو كفر، ، لكن مسئلة القدر من ناحية ماهو معناها وكيف يعتقد عليها وبيانها ،فهٰذهٖ كلها قد بيّن اللّٰه تعالىٰ بواسطة رسوله صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم وهٰذهٖ علمه بها ،واعتقاد عليها عين الإسلام ،وجحدها كفر. فالأول هو العلم المفقود ،فيمسكون عنه أولياء اللّٰه تعالىٰ ،والثانى هو العلم الموجود ،فيعرفونه ويعتقدون عليه أولياء اللّٰه تعالىٰ.

المتن:

ونؤمن باللوح والقلم وبجميع ما فيه قد رقم ،فلو اجتمع الخلق كلهم علىٰ شيء كتبه اللّٰه تعالىٰ فيه أنهُ كائن ليجعلوه غير كائن لم يقدروا عليه، ولو اجتمعوا كلهم علىٰ شيء لم يكتبه اللّٰه تعالىٰ فيه ليجعلوه كائنا لم يقدروا عليه، جف القلم بماهو كائن إلى يوم القيامة ،وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه، وماأصابهُ لم يكن ليخطئه.

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه اللّٰه تعالىٰ يستمرّ فى كلامه عن القدر ويتكلم عن اللوح والقلم وقد ذكرنا سابقا عنهما فى بيان القدر أنهُ قد كتب اللّٰه تعالىٰ كل شيء إلى يوم القيامة فى اللوح المحفوظ ،فلا تبدل فيه ولا تغير ،وفى الحديث الذى ذكرنا "إن أول ما خلق اللّٰه القلم ،فقال لهُ: "اكتب ماهو كائن إلى يوم القيامة ." (سنن الترمذي، ح:٢١٥٥) وهٰذا القلم جرى على اللوح المحفوظ ،وفى القرآن ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَّكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾(القمر:٥٣) وفى القرآن ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَّبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِىْ كِتَابٍ مُّبِيْنٍ﴾ (يونس:٦١) يعنى فى اللوح المحفوظ ﴿وَ كُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنٰهُ فِىْٓ إِمَامٍ مُّبِيْنٍ﴾ (يس:١٢) يعنى فى اللوح المحفوظ ، وكذٰلك الكتب المنزلة كلها فى اللوح المحفوظ، قال اللّٰه تعالىٰ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيْدٌ فِىْ لَوْحٍ مَّحْفُوْظٍ﴾(البروج:٢١-٢٢) وكذٰلك جميع الكتب ،وقد ثبت فى الحديث الصحيح أن التوراة كانت مكتوبة قبل خلق آدم عليه السلام بأربعين سنة ، وكذٰلك جميع كتب اللّٰه تعالىٰ محفوظة مكتوبة فى اللوح المحفوظ. ثم المعلوم أن القلم واللوح كلاهما مخلوقان ،واللّٰه يعلم عن عظمتهما وهيئتهما ، ونحن نؤمن بهما ،وقد ثبت فى الحديث أنهُ "رفعت الأقلام وجفت الصحف ." (سنن الترمذي، ح:٢٥١٦) فعلىٰ هٰذا ثبت أنهُ لاتبديل ولاتغير فيما كتب فى اللوح المحفوظ ،وهٰذا هو أشار إليه الشيخ عندما قال: "جف القلم بماهو كائن إلى يوم القيامة" ، وكذٰلك ثبت فى الحديث أنهُ "ما اصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطاك لم يكن ليصيبك." (سنن أبى داود، ح:٤٧٠٠) وقد أشار إليه الشيخ أيضًا ، وكذٰلك ثبت فى الحديث "أنهُ يكتب الملك عن الجنين فى بطن أمه شقاوته أو سعادته، عمله، اثره، واجلهُ و رزقه وذكر أو انثى ،ثم تطوى الصحف ،فلا يزاد فيها ولاينقص." (صحيح البخاري، ح:٣٢٠٨) وهٰذه الصحف الأخرى دون اللوح المحفوظ؛ لأنهُ قد كتب كل هٰذا فى اللوح المحفوظ قبل خلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة كما ثبت فى الحديث ،

وكذٰلك ثبت في الحديث أن الآجال مضروبة وآثار موطوءة وأرزاق مقسومة ،لن يعجل اللّٰه شيئا منها قبل حله ،ولايؤخر شيئًا منها بعد حله ،وفي القرآن ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (الأعراف:٣٤) ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ (المنافقون:١١) فما ذكرنا يدل على عدم تغيّر فيما كتب في اللوح المحفوظ ، وكذٰلك ما كتب في الصحف عن الجنين عند ما هو في بطن أمّه ،وقد ذكرنا أن هٰذه الصحف غير اللوح المحفوظ. ونحن نعرف أنهٗ يستحيل التغير في علم اللّٰه وإرادته ،فما علم اللّٰه وأراده أزليا ،فهٰذا كما علمه وأراده لاتغير فيه؛ لأنهٗ يؤدى إلى الجهل والغفلة في ذات اللّٰه تعالىٰ ،وهٰذا محال لايليق بهٖ تعالىٰ. ومن قال بهٰذا فقد كفر باللّٰه وحدهٗ ،ثم اللّوح المحفوظ ماكتب فيه هو من علم اللّٰه تعالىٰ ،وقد سبق من الحديث أنّه كتب فيه ما هو كائن إلى يوم الساعة ،وهٰذا لابدّ من علم اللّٰه تعالىٰ يعني اللّٰه عزوجل جعل القلم كاتبا في اللوح المحفوظ ما علمها أنها كائنة إلى يوم الساعة ،والمعلوم أنهٗ لا تغيّر في علم اللّٰه ،فكذٰلك لاتغيّر في اللوح المحفوظ ، وكذٰلك ما كتب في الصحف الأخرى غير اللوح المحفوظ ،مثلاً الصحف عن الجنين كما في الحديث ،فهٰذهٖ كلها أيضًا يكتب فيها ما علمه اللّٰه تعالىٰ ،وقد جاء في الحديث أن الملك يكتب كل هٰذهٖ من إخبار اللّٰه تعالىٰ إياه عن الجنين ،فكما لاتغير في علم اللّٰه ،فكذٰلك لاتغيّر في هٰذه الصحف ، وكذٰلك جاء في الحديث أخرجه الترمذي أنهٗ هناك كتابان ، كتاب فيه أسماء أهل الجنة ،وكتاب فيه أسماء أهل النار ،ولا يزاد فيهما ولاينقص منهما أبدا ؛لأنهما أيضًا كتب فيهما من علم اللّٰه تعالىٰ ،فإذا كل هٰذا ثابت ،ولو تسأل ما هو المعنى للحديث "من سرّهٗ أن يبسط لهٗ في رزقهٖ وينسألهٗ في أثره ،فليصل رحمه." وهٰذا حديث رواه البخاري. والحديث "لايزيد في العمر إلا البرّ ولايردّ القدر إلا الدعاء، وإن الرجل ليحرم الرزق بخطيئة يعملها" وهٰذا الحديث رواه ابن ماجة، واللّٰه أعلم بصحته. والآية ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الرعد:٣٩) والآية ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (فاطر:١١)

فقلنا بتوفيق اللّٰه تعالىٰ إن شاء اللّٰه العزيز: إنّه معلوم أنهٗ لا تغيّر في صفات اللّٰه تعالىٰ ،فاللّٰه عزوجل علم كل شيء من الأزل ،ولا جهل فيه ولا خطأ ،وهٰذا معلوم من الدّين بالضرورة ،وإنكاره كفر لا محالة ،فما علمه اللّٰه أراده ،فلا خطأ في إرادته ،وهٰذا أيضًا معلوم من الدين بالضرورة ،فالقضاء والقدر اللذان من صفات اللّٰه يعني علمه وإرادتهٖ وخلقهٖ ،فمستحيل أن يكون التغيّر فيهما لما ذكرنا أنهٗ يؤدّى إلى نقص في ذات اللّٰه تعالىٰ ،وهٰذا غير ممكن واعتقادهٗ كفر ،فما بقي إلا ما هو المكتوب في اللّوح المحفوظ والصحف الأخرى ، لكن كما ذكرنا من الأحاديث أنهٗ ما هو مكتوب فيها هو من علم اللّٰه تعالىٰ فجف القلم عليه ،فلا زيادة ولا نقصان، فكل شيء الأرزاق والآجال وغيرها

من الأشياء جميعها مكتوبة من علم الله تعالىٰ ،فلا تقبل نقصانا ولا زيادة ،وكما ذكرناه من الحديث أيضًا .

فعلىٰ هٰذا نقول: إن معنى ما ذكرتم من الحديثين مفسر بما جاء من الحديث الآخر أخرجه الترمذي "أنهٗ أتى النبيّ صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ،فقال: يارسول الله! (صلى الله تعالىٰ عليه وسلم) أرأيت رُقى نسترقيها ودواءِ نتداوى بهٖ وتقاة نتقيها ،هل تردّ من قدر الله شيئًا؟ قال: (صلى الله عليه وسلم) : هي من قدر الله. ." (سنن الترمذي، ح:٢٠٦٥) معناه قدر الله تعالىٰ لايحتوى على النتائج فقط، بل الأسباب الظاهرة [1] أيضًا فمثلاً واحدا يأخذ الدواءِ ويبرأ ،فقدر الله تعالىٰ فيه أنهٗ هٰذا الشخص سوف يأخذ الدواءِ ويبرأ ،وخالق فعل هٰذا الشخص فى أخذه الدواء هو الله تعالىٰ ،وكذا هو خالق البراءة ،وهٰذا هو معنى الحديث ،فانطباق هٰذا الحديث على الحديثين الّذين ذكرنا ،هو لو واحد يصل رحمه ،فهٰذا ينسألهٗ فى أثره يعنى يزاد فى عمرهٖ ويبسط لهٗ فى رزقه حتىٰ عمره بعد الزيادة يبلغ ما هو أجله الذى هو واحد ،ولايتغير ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللّٰهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ (المنافقون: ١١) ورزقه بعد البسط يبلغ ما هو رزقه المعيّن الذى لايتغيّر ،وكل هٰذا من قدر الله ،ومكتوب فى اللوح المحفوظ والصُّحف الأخرىٰ ، وكذٰلك لو واحد يعمل البرّ ،فهٰذا يزيده فى عمرهٖ حتىٰ يبلغ ما هو عمره وأجله الذى لايتغير ،أو لو واحد يعمل الخطيئة ،فيحرم الرّزق حتىٰ يبلغ رزقه [2] ما هو رزقه الذى لايتغير. وهٰذهٖ كلّها من قدر الله ،ومكتوبة فى اللوح المحفوظِ والصحف الأخرىٰ ، وكذٰلك لو واحد فى مصية ما ،والمعلوم أنّها من قدر الله ،فيدعوا الله تعالىٰ أن يفرّج عنه ،فيفرّج عنه ،وهٰذا هو المعنى "لايرد القدر إلا الدُّعاء."

يعنى هٰذه المصيبة كانت من قدر الله ، والله عزوجل استجاب دعائه للفرج وكشف عنه هٰذه المصيبة ،وكل هٰذهٖ أيضًا من قدر الله يعنى يكون قدر الله فى هٰذا أن هٰذا الشخص يكون فى مصيبة ،فيدعوا الله تعالىٰ ،فيكشف الله عنه.

فحاصل الكلام أن كل شيءٍ متعين فى قدر الله تعالىٰ والمكتوب فى اللوح المحفوظ والصحف الأخرىٰ ،فمثلاً واحد عمرهٗ مكتوب ثمانون سنة ،فهٰذا هو أجلهٗ ،وهو يبلغ هٰذا الأجل لامحالة ، وكذٰلك مكتوب عنه أنهٗ كيف يبلغ هٰذا الأجل مثلاً؛ لأنهٗ وصل رحمه أوعمل البرّ أو بدون هٰذه الأشياءِ ، وكذٰلك رزقه وغيرها من الأشياء ،كلها متعيّنة مكتوبة بالتفصيل، وتدلّ عليها أيضًا

---

(١) الأسباب الظاهرة؛ لأن الحقيقي هو الخالق الحقيقي هو الله تعالىٰ الّذى هو الفاعل الحقيقي لكل شيء ؛ لأنها كلّها بقدرهٖ وخلقهٖ وتكوينهٖ.

(٢) بعد الحرمان .

الآية ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾(فاطر: ١١) يعنى فى اللوح المحفوظ يعنى كل ما حصل من المدّ والنقصان فى عمره بسبب طاعته أو معصيته ،هو مكتوب فى كتاب حتى يبلغ ما هو عمره الحقيقي ،وهو أجله الذى لايتغير ،وهذا أيضًا مكتوب فى اللوح المحفوظ ،وهذا على وجه التّسليم أن هذا هو التفسير للآية؛ لأنهٗ ما ذكرنا هو تفسير من التّفاسير للآية؛ لأن الآية تُفسّر أيضًا أن وما يعمّر من معمّر إلّا كتب عمره، كم هو سنة ،كم هو شهرا ،كم هو يوما ،كم هو ساعة، لم يكتب فى كتاب آخر: نقص من عمره يوم، نقص شهر، نقص سنة، حتى يستوفي أجلهٗ ،وهذا ﴿ولاينقص من عمره إلّا فى كتاب﴾(فاطر: ١١) وهذا تفسير مأثور عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه ، وكذلك الآية ﴿يَمْحُوا اللّٰهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهٗٓ أُمُّ الْكِتٰبِ﴾ (الرعد: ٣٩) قد جآء ت فى تفسير هذه الآية أقوال كثيرة ،ومنها أنّها تتكلم عن الناسخ والمنسوخ فى القرآن ﴿يَمْحُوا اللّٰهُ مَا يَشَآءُ﴾(الرعد: ٣٩) يبدل الله ما يشاء من القرآن ،فينسخه ﴿وَيُثْبِتُ﴾ ما يشاء ،فلا يبدلهٗ ﴿وَعِنْدَهٗ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الرعد: ٣٩) جملة ذلك الناسخ والمنسوخ عندهٗ فى أم الكتاب ، وكذلك الأقوال الأخرى الّتى لاتتعلق بهذا الموضوع الذى نحن فيه ،وعلى وجه التّسليم أن هذه الآية تتكلم عن نفس الموضوع الذى نحن فيه ،وهو أيضًا جآء تفسيرا من تفاسيرها ،فمعناه إن شاء الله العزيز أنهٗ ما يحصل من المحو والإثبات ،فكلها أيضًا مكتوب فى اللوح المحفوظ يعنى لو مُحِي شيئاً من اللوح المحفوظ ،فكان مكتوبا أنهٗ مكتوب إلى هذه المدّة ،ثم يمحى. وأمّا الإثبات فهو إثبات ما فيه ،وهو عدم التغيّر ، وكذلك فى الصحف الأخرى ،فعلى هذا لازيادة ولا نقصان فى الحقيقة ،فلايعارض ما جآء فى الحديث "رفعت الأقلام وجفت الصحف." (سنن الترمذي، ح: ٢٥١٦)

فالحمد لله هذا إن شاء الله يكون جوابا شافيا كافيا لما ذكرت من الأحاديث والآيات. والحمد لله، والله أعلم ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

المتن:

وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمهٗ فى كل كائن من خلقه، فقدّر ذلك تقديراً محكما مبرمًا، ليس فيه ناقض، ولامعقّب ، ولا مزيل، ولامغيّر، ولا محوّل، ولاناقص، ولا زائد من خلقه فى سمٰواته وأرضه.

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى يستمرّ فى بيانه عن القدر ،ويقول: عن علم الله تعالى: إنهٗ أزليّ ،وقد مرّ ذلك مرارا سابقاً ،فعلم الله أزلي عن كل شيء إلى الأبد ،فالله عزوجل قدّر

الخلق على حسب علمه ،يعنى أراده على حسب علمه كل شيء عنه كيفية كمية هيئة وغيرها جميع الأشياء عنه تقديرًا محكمًا مبرما ،لاتغير فيها على الإطلاق ،وهذا هو معنى ما قاله الشيخ رحمه الله تعالى.

فاعلم أن قدر الله تعالى مبرم محكم ،وليس معلّق على الإطلاق ،فما يفصلون بين القدر المبرم والمعلّق ،فهو ليس فى المعنى الحقيقي؛ لأن كل ما علم الله وأراده لايمكن التغيّر فيه ،وهذا معلوم من الدّين بالضرورة، بل هذا الفرق هو على المعنى الذى ذكرناه قبل هذا البيان ،وهو مثلاً الشخص فى المصيبة فيدعوا الله تعالى فيكشف عنه ،وهذا عبّر فى الحديث "ولايرد القدر إلا الدعاء." (المستدرك للحاكم، ح:١٨١٤) وقد بيّنا معناه ،وهو كانت هذه المصيبة من قدر الله تعالى ،ومع ذلك كان مقدّرًا له أنهٗ سيدعوا ويتخلص من هذه المصيبة ،فكل ذلك فى القدر يعنى المصيبة وكشفها ،والمصيبة مقدورة ،وكشفها مقدور ،ودعاء لكشفها أيضًا مقدور ، فإذا تغيّر المقدورة (المصيبة) بالمقدور (كشفها) بالوسيلة الظاهرة المقدورة (الدعاء) فعبّر هذا بردّ القدر ،وهو فى الحقيقة ردّ المقدور إلى المقدور يعنى تغيير المصيبة إلى عدمها ،وعبّر هذا بالقدر المعلّق ،وهو فى الحقيقة المقدور المعلّق ،وأما قدر الله فلا تغيّر فيه على الإطلاق .

فحاصل الكلام أن القدر المعلّق هو فى الحقيقة المقدور المعلّق ،ويكون فى المثال المذكور المصيبة ،فكانت مقدورة معلّقة فى قدر الله أن الشخص الذى فيها سيدعو الله فى هذا الوقت ،ويستجيب الله دعائه ،فيكشفها عنه ،فعلى هذا وجود المصيبة كان معلقا ما دام لايدعوا المصاب بهذا الدعاء ، فإذا دعا بهذا الدعاء يكشفها الله عنه ،فانعدمت المصيبة وكله بقدر الله ، وهذا عبّر عنه بردّ القدر فى الحديث ،والقدر المعلّق فى الاصطلاح ،وهو فى الحقيقة المقدور المعلّق، وأمّا قدر الله تعالى فكلهٗ مبرم محكم لازيادة فيه ولا نقصان ولا تغيّر فيه على الاطلاق.

المتن:

> وذلك من عقد الإيمان، وأصول المعرفة، والاعتراف بتوحيد الله تعالى وربوبيّته، كما قال تعالى فى كتابه ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾(الفرقان:٢) وقال تعالى ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾(الأحزاب:٣٨) فويل لمن صار لله تعالى فى القدر خصيما، وأحضر للنظر فيه قلبا سقيما، لقد التمس بوهمه فى فحص الغيب سرّا كتيما ،وعاد بما قال فيه أفاكا أثيما.

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى يستمرّ فى بيان القدر ،ويقول: إن الإيمان بالقدر



يعنى كل شيء بعلمهِ تعالٰى وبمشيئته (إرادته) وهو خالق كلّ شيء ،فهٰذا الإيمان من عقد الإيمان ،وهو من أركانه ،وقد ثبت فى الحديث أن الرسول عليه الصلوات والسلام شرح الإيمان "أن تؤمن باللّٰه وملائكتهِ وكتبهِ ورسلهِ واليوم الآخر والقدر خيرهِ وشرّه." (سنن النسائي، ح: ٤٩٩٠) وكذٰلك ثبت فى الحديث أنهُ من مات بدون الإيمان بالقدر لدخل النار ولايقبل اللّٰه منه لو أنفق مثل أحد ذهبا فى سبيل اللّٰه، فالإيمان بالقدر هو من أركان الإيمان الذى بدونه لا إيمان ،وقد قال اللّٰه تعالٰى فى كتابهِ ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ﴾ (النساء:٧٨) فكل يعنى الحسن والقبح من قدر اللّٰه ،فمن أنكر هٰذا ،فقد جحد القرآن ،وصار من الكافرين ،فالإيمان بالقدر هو معلوم من الدّين بالضّرورة ،فمن لا يؤمن بقدر اللّٰه أنهُ كل شيء من علمه وإرادتهِ وخلقهِ ،فقد كفر باللّٰه وحدهُ ،ولم يعرف اللّٰه ربّهُ؛ لأن الإيمان بالقدر من أصول المعرفة والاعتراف بتوحيد اللّٰه تعالٰى ،فمن قال: إنهُ ليس كل شيء من قدر اللّٰه، بل بعضها فقد أشرك مع اللّٰه فى البعض الباقى ونقض إيمانه بالتوحيد. وقد قال اللّٰه تعالٰى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾(الفرقان:٢) يعنى كل شيء بتقديرهِ وخلقهِ، وقال تعالٰى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللّٰهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾(الأحزاب:٣٨) فأمور اللّٰه تعالٰى قدر مقدورا يعنى قضاء مقضيا بهِ حتما مراداً من الأزل.

ثم الشّيخ يتكلّم عن منكرى القدر أنهم صاروا خصماء للّٰه تعالٰى ،ونعوذ باللّٰه ،ومعناه صورة ،واللّٰه عزوجل لايستطيع أن يبلغه أي واحد من خلقهِ ،فهم صورة خصماء للّٰه تعالٰى ،ونحن نذكر أنواع خصمهم فى قليل ،وهم عندهم قلب سقيم؛ لأن لو عندهم قلب سليم لسلّموا ما ذكر اللّٰه تعالٰى فى القرآن عن القدر ورسوله صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم فى الأحاديث عنه بالتسليم الكامل ، لكن هم لم يتقنّعوا بهٰذا، بل أرادوا أن يُدخلوا آراء هم ونظرياتهم الفاسدة فى هٰذا المجال ،وأرادوا أن يَفهموا القدر بعقلهم الناقص ،وقد ذكرنا أن كنه مسئلة القدر ما وراء عقول الخلق ،فصاروا بهٰذا المجهود القبيح أفّاكا أثيمًا ؛ لأنهم بلغوا مبلغا صاروا فيه مكذّبين بالقدر ،وقد جاء فى الأحاديث ردّ بليغ ووعيد شديد عن مكذّبين بالقدر .

ففى الحديث "لاتجالسوا أهل القدر ولا تفاتحوهم." (سنن أبى داود، ح: ٤٧١٠) وفى الحديث: "صنفان من أمّتى ليس لهما فى الإسلام نصيب: المرجئة والقدرية." (سنن الترمذي، ح: ٢١٤٩) وفى الحديث "فى هٰذه الأمّة أو فى أمّتى خسف أو مسخ أو قذف فى أهل القدر." (سنن الترمذي، ح: ٢١٥٢) وفى الحديث "ستّة لعنتهم ولعنهم اللّٰه وكل نبيّ كان: الزائد [1] فى كتاب اللّٰه والمكذّب بقدر اللّٰه والمتسلط بالجبروت ليعزّ [2] بذٰلك من أذلّ اللّٰه ويذلّ من أعزّ اللّٰه والمستحل

(١) وهٰذا يكون فى الكتب قبل القرآن ،وأما القرآن فقد وعد اللّٰه عن حفظه ،فلا يأتيه نقصان ولا زيادة.

(٢) معناه ليعزّ من أمر اللّٰه بإذلاله ويذلّ من أمر اللّٰه بإعزازه.

لحرم الله، المستحل من عترتی ما حرّم الله والتارک لسنّتی." (سنن الترمذي، ح: ٢١٥٤) وفی الحديث: "إن مجوس هٰذه الأمّة المكذّبون بأقدار الله ، إن مرضوا فلاتعودوهم، وإن ماتوا فلاتشهدوهم ، وإن لقيتموهم فلاتسلّموا عليهم ." (سنن ابن ماجة، ح: ٩٢) ومعنى "أهل القدر، "القدرية" فی الأحاديث المذكورة من يثبتون لأنفسهم القدر بدلا عن الله تعالٰی كما يقال أهل الإسلام ،يعنی من يثبتون لأنفسهم الإسلام أي يقولون : إنهم مسلمون ،فأهل القدر والقدرية الذين يقولون: إن ليس كل شيء من قدر الله، بل بعضها منه ،والبعض الباقی وهو أفعالهم وأعمالهم فيقولون: إنّها من قدرهم يعنی إرادتهم المستقلّة ،وليس من قدر الله ونعوذ بالله من ذٰلک ،فهم أشركوا أنفسهم مع الله تعالٰی ،ولاحول ولا قوة إلا بالله. وكما فی الحديث ليس لهم فی الإسلام نصيب ؛ لأنهم الكفرة الظلمة.

ولهٰذا الحديث يقول: إنهم مجوس؛ لأن كما المجوس يؤمنون علٰی خالقَين خالق النور وخالق الظلمة فهؤلاء المكذبون بقدر الله يؤمنون علٰی آلاف آلاف وأكثر منها خالقين ؛لأنهم يؤمنون أن بعض الأشياء من إرادة الله تعالٰی وخلقه ،وبعض الباقی من إرادتهم وخلقهم ،ولاحول ولا قوة إلا بالله ،وهٰذا شرک بالله ،وهٰذا ظلم عظيم. نحن ذكرنا سابقا أننا نذكر أنواع الخصومات التی يخاصمون الله بها أهل القدر صورة ،فالأن إن شاء الله العزيز نذكرها.

اعلم أنهٔ قد بدأت البدعة فی مسئلة القدر منذ زمان الصحابة رضي الله تعالٰی عنهم ،وقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التّنازع فی هٰذه المسئلة ،وقال: إنما هلک من كان قبلكم حين تنازعوا فی هٰذا الأمر ، لكن قد ظهر الناس منذ زمان الصحابة رضي الله تعالٰی عنهم من غيرهم الذين تنازعوا فی هٰذا الأمر. فقالوا: لو كل شيء بقدر الله تعالٰی ،فكيف نحن مكلّفون مسئولون بأعمالنا؟ وكيف نحن نعاقب علٰی أعمالنا القبيحة ،وكانت مقدورة علينا؟ كيف يقال: إننا نختار الحسن أو القبح من أعمالنا ،لوكانت الحقيقة أنها كلّها مقضيا بها علينا؟ كيف نؤمر بالإيمان والأعمال الصالحة ونُنهي عن الكفر والأعمال القبيحة ،لوكانت الحقيقة أن إيماننا وأعمالنا وكذٰلک السعادة أو الشقاوة كلها مقدّرة للعباد من الأزل؟ كيف كان الكفر من جملة قدر الله ،وهو لايرضى به ، وكذٰلک السيّاٰت الأخرٰی؟ كيف يأمر واحدا بالإيمان والأعمال الصالحة ،وهو قدّر من الأزل عليه ضد هٰذه الأشياء قدرا مبرما؟ لو كل شيء من قدر الله ،فلماذا إنسان يكسب ويجهد لماذا لايجلس اتكاء علٰی ما هو قدّر له؟

وهٰذه الأمثال الّتی الناس الذين فی قلوبهم زيغ خاضوا فيها ،وهٰذه نعوذ بالله خصوماتهم ضدالله صورة نعوذ بالله فی عبارة الإمام الطحاوي رحمه الله تعالٰی ؛ لأنهم فی هٰذه الاعتراضات

والأسئلة يعترضون على الله تعالىٰ ،وكأنهم يقولون: كيف يسوغ له أن يفعل كذا وكذا ،وهو قدّر كل شيء علينا من الأزل؟ وفعلهم هٰذا كفر بواح؛ لأن الاعتراض على الله تعالىٰ كفر ،وكيف يسوغ للخلق المربوب المملوك أن يعترض على الله تعالىٰ ،وهو الخالق المالك على الإطلاق ،وكل شيء مملوكه ومخلوقه على الإطلاق ،فيتصرف فيها ما يشاء كيف يشاء ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾(الأنبياء:٢٣) ولهٰذا الإمام رحمه الله تعالىٰ قال: من سأل لم فعل؟ فقد ردّ حكم الكتاب وصار من الكافرين ،ولهٰذا عند ما ابن الديلمى سأل الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم فى مسئلة القدر ،فهم قالوا موقوفا ومرفوعا لوأنّ الله تعالىٰ عذّب أهل سمٰواته وأهل عرضه عذّبهم وهو غير ظالم لهم ،ولو رحمهم كانت رحمتهُ خيرًا لهم من أعمالهم ،وهٰذا الجواب جواب قاطع ،وبيانه أن الله تعالىٰ يفعل ما يشاء كل شيء خلقه ،فيتصرف فيها مايشاء كيف يشاء ،لا اعتراض عليه ولا حجر ولا منع ولا ظلم ؛لأنها كلّها تحت مِلكه ، فإذا كلّفهم بأعمالهم ويعاقبهم عليها و أمرهم ونهاهم ،ومع ذٰلك قدّر كلها عليهم ،فلا حجر عليه ولا منع ولاظلم فيما فعلها بهم؛ لأن كلهم تحت ملكه فيفعل بهم ما يشاء كيف يشاء ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الأنبياء:٢٣) وهٰذا جواب شافى كافى قاطع على الزائغين فى مسئلة القدر. وبعد هٰذا التّمهيد القاطع نذكر بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز الأجوبة المزيدة مستدلّة مفهومة من القرآن والسنة لتكون الحجة المزيدة على الزائغين.

اعلم أن الزائغين فى مسئلة القدر افترقوا فرقتين ،فقال واحد منهم: إنهٗ لمّا كل شيء بقدر الله كما فى القرآن والسنّة ،فنحن مجبورون محض ،وليس لنا كسبا ولا خيارا ،ونحن كمثل جريان الماء وهبوب الريح ،وكما واحد يرمى الحجارة فالحجارة تندفع من مكان إلى مكان ،ونحن هٰكذا مجبور مقهور محض ،وثم النّاس من هٰؤلاء كانوا يخوضون فى الآثام ،ويقولون: إنها كلها من قدر الله ،وليس لنا دخل فيها على الإطلاق. وهٰؤلاء سمّوا الجبرية ،وهم ليسوا "القدرية وأهل القدر" لأنهم لم ينفوا قدر الله، بل ينفوا الخيار والكسب للعبد على الإطلاق ،وهم أيضًا ضلّوا وأضلّوا فى مسئلة القدر ، لكن من ناحية أخرى الّتى ذكرنا ،فسمّوا الجبرية لعقيدتهم أن الإنسان مجبور مطلق.

والفرقة الأخرىٰ وهم أهل القدر والقدريّة ،وهٰؤلاء أخبث من الفرقة الأولىٰ فى هٰذه المسئلة بأضعاف ؛لأنهم نفوا قدر الله فى كل شيء ونعوذ بالله ،وقالوا لأننا مكلفون بأعمالنا ونعاقب عليها، فلنا الخيار والكسب المستقل يعنى حرّا خارجا عن قدر الله ،فقالوا: إنهم هم الذين يختارون أعمالهم بإرادتهم المستقلة ،ولم يردها الله عليهم أزليا ،وثمّ بعض منهم اقتصروا علىٰ نفي دخل إرادة الله فى أعمالهم ،وبعضهم تقدّموا عليه ،وقالوا حتىٰ بنفي علم الله عن أعمالهم حتىٰ هم يعملونها (ولا حول ولا قوة إلا بالله) وهٰؤلاء هم أهل القدر المجوس ،وهٰؤلاء كفرة لنفي العلم والإرادة أولنفي الإرادة لله

تعالى لأعمالهم ،وأيضًا لإنساب خلق أعمالهم إليهم دون الله ،لأنهم يقولون: إن الله تعالى قد أعطاهم قوّة لخلق أعمالهم ،وثم هم يستقلون بهذه القوة في خلق أعمالهم ،وهذا عين ما يعتقدونه المشركون أن الله عزوجل قد أعطى لآلهتهم قوة في دائرة معينة ،فهم يتصرفون في هذه الدائرة بالاستقلال ونحن نتكلم في موضوع خلق الأعمال بالتفصيل فيمابعد إن شاء الله العزيز ، لكن الآن نذكر ما هو الضروري منه ،وهو أن أعمالنا ليس لنا دخل فيها في خلقها على الإطلاق ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُوْنَ﴾(الصافات:٩٦) وفي الحديث الصحيح "إن الله صانع كل شيء وصنعته ." (شعب الإيمان، ح:١٨٧) فليس لنا قوّة مستقلة قطعا و بتاتا ،ولايمكن للخلق أن يستقل عن الله طرفة عين ،ومن زعم هذا فقد كفر، بل الخلق دائما محتاج إليه في بقائه ، و كذلك جميع صفاته محتاجة إليه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُوْلَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ﴾ (فاطر:٤١) فكيف تكون له قوة باقية مستقلة عن الله، هذا لايمكن ، فإذا استقلاله بالقوة لايمكن ،فكيف يمكنه أن يستخدمها لخلق الشيء؟ فهو لايخلق شيئًا، بل الله تعالى يخلق فعله ، لكن مع هذا يخلق فيه قوّة على هذا الفعل ،وهكذا ينسب فعله إليه ،ويفترق بهذا فعله من فعله الجبريّ ،مثلاً إذا يتحرّك بخياره ،فالله عزّوجل هو الذى خالق هذه الحركة ،وخالق فيه معها قدرة على هذه الحركة ، لكن إذا يتحرك بسبب الارتعاش ،فالله عزوجل هو الذى خالق هذه الحركة ، لكن لم يخلق فيه قدرة على هذه الحركة معها ،فيشعر فرقا بين حركته الاختياري وحركته الارتعاشي ،فافهم.

الآن نرجع إلى بياننا عن مسئلة القدر.

فنقول للفرقة الأولى: إن الله عزوجل قد وضع التكليف علينا حسب ما في القرآن ،وفي السنّة ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة:٢٨٦) ﴿لا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ (النساء:٨٤) ﴿لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾(البقرة:٢٣٣) وهذا يدل على أن للعبد الكسب ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ (البقرة:١٣٤) فلو قلتم: إن ليس للعبد التكليف ولا كسب لأعمالهم ،فقد كفرتم بالقرآن ،ولو قلتم: إنكم لاتنكرون التكليف ولاالكسب، بل تنكرون الخيار والمشيئة. فقلنا: إن الله عزوجل قد قال في القرآن إن للعبد مشيئة وهو خيار ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف:٢٩) ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ (المدثر:٥٤-٥٥) ﴿إِنَّ هٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيْلًا﴾ (الدهر:٢٩) وقال عن أهل الجنّة: وهم مخلوق أيضًا ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُوْنَ﴾ (الواقعة:٢٠) فثبت أن لنا المشيئة والخيار في أعمالنا ،فلو انكرتم ،فقد كفرتم بالقرآن ، و كذلك الله عزوجل اخبرنا أنه من آمن وعمل صالحاً ،فله الجنّة ومن كفر فله النار. ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِيْنَ فِيْ نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِيْنَ فِيْهَا أُولٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ إِنَّ الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَعَمِلُوْا الصَّالِحَاتِ أُولٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ

رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ (البينة:٦-٨) فثبت منها أن على العبد التكليف فهو مسئول ،وله الخيار والمشيئة ،وله الثواب أو العذاب علیٰ حسب أعمالهم ،وكل ذلك فی القرآن ،فلو أنكرتم واحدا منها ،فقد أنكرتم القرآن ،وصرتم من الكافرين ،فلو قلتم: إنكم لاتنكرون شيئًا مما ذكرنا ، لكن الله عزوجل قال فی القرآن :﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ (المدثر:٥٤-٥٦) وقال الله تعالیٰ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ (الدهر:٢٩-٣٠) فثبت أن مشيّتنا تحت مشيّة الله ،فنحن نشاء ما شاء الله لنا أن نشاء ، فلهٰذا أنتم تقولون: إننا نحن مجبورون محض؛ لأن خيارنا ومشيتنا تحت مشية الله ،فصارت مقهورة مجبورة.

قلنا بتوفيق الله تعالیٰ إن شاء الله العزيز: إنهٗ لاشكّ أن خيارنا ومشيتنا تحت مشية الله ، لٰكن مع هٰذا لانُعتبر مجبورا مقهورا غير كاسبًا لأعمالنا. وهٰذهٖ هي المسئلة التی فيها أنتم صرتم الجبرية والقدرية صارت القدرية ،فنحن نذكر إن شاء الله العزيز أموراً تكون حجة علیٰ كلتی فرقتين إن شاء اللّٰه العزيز. ونحن الحمد لله قد ذكرنا جوابا لبعض أسئلتهم عند ما أثبتنا من القرآن أننا مكلّفون ،ولنا الخيار فی أعمالنا ،ولنا الثواب أو العذاب علیٰ حسب أعمالنا ،فنحن الأن نذكر جوابا لما قالوا: إننا مجبورون محض؛ لأن مشيّتنا تحت مشية الله تعالیٰ ،وهٰذا قول الجبرية . ومع هٰذا هٰذا الجواب يكون جوابا للقدرية الذين يقولون؛ لأننا لنا الخيار فی أعمالنا ،فأعمالنا بمشيتنا ،فهي ليست تحت مشية اللّٰه (نعوذ باللّٰه) وبيان هٰذا الجواب أنهٗ يكفی لعدم الجبر وجود الخيار ،ولايشترط قطعًا وبتاتا أن الخيار يكون مستقلا لعدم الجبر ، فإذا ثبت لنا الخيار ،فصرنا غير مجبورين ،ولو الخيار تحت مشيئة اللّٰه ،ولأن الخيار المستقل لايمكن أن يكون للخلق؛ لأنهٗ لايمكن أن يكون فی العالم شيء إلا ماعلمه اللّٰه وأراده ،وبدون هٰذا لايمكن أن يوجد شيء ما ،فكيف يكون الخيار المستقل للعبد حتیٰ هو يختار مستقلا عن إرادة الله وعلمه؟ هٰذا محال قطعا وبتاتا ، فإذا يستحيل هٰذا ،فلايبقی إلا أن يكون للعبد نوع من الخيار ليجعلهٗ مختارا كاسبًا فی أعماله ،وهٰذا حاصل ،وبهٰذا خرج من أن يكون مجبوراً ،وخرج من أن يكون لهٗ خيارا مستقلا ،ونحن نعلم ضرورة من القرآن والسنة بالقطع ، وكذٰلك من الدلائل العقلية القاطعة أن اللّٰه عزوجل يعلم كل شيء من الأزل ،فما قالوا بعض المعتزلة والرافضة: إنّه لايعلم أعمالنا حتیٰ نعملها ،وهو كفر بواح لاشک فی تكفير قائله؛ لأن هٰذا يقتضی إنكار الدلائل القاطعة [1] نقلاً وعقلاً ،فالمعلوم من الدين بالضرورة أن الله عزوجل علم كل شيء من الأزل ،فعلم ما أراد من الأزل ،وأراد ما علم من الأزل ،وإرادته شاملة لكل ما سواه وصفاتهٗ

(١) وقد مرّ الدلائل لعلم اللّٰه فی بيان صفات اللّٰه فی السابق.

وعلمه وإرادته كلاهما أزليان كجميع صفاته ،ونحن ذكرنا سابقا أن جميع صفاته أزلية ،فعلم كل ما يريد كونه ،وأراد كونه ،وهٰذا لايعنى أن إرادته تتاخر من علمه زمانا، بل كما نقول: إن اليد تتحرك ،فيتحرّك القلم الذى فيها ،وهٰذا لا يعنى تاخر حركة القلم عن حركة اليد ، لكن لحركة اليد نوع من التقدم رتبة من حركة القلم ، لكن ليس من حيث الزّمان ،فعلم اللّٰه تعالٰى لايتقدّم زمانًا من إرادته ، لكن لهٗ نوع من التقدم رتبة ،ولهٰذا نقول: علم فأراد ما علم ،ثم قد ذكرنا عن صفة التكوين أنها أزلية أيضًا ،فكوّن ما أراد أزليا لا من حيث أن وجود المكوَّن يكون معهٗ فى الأزل؛ لأنهٗ من المحال وجود المكوَّن فى الأزل؛ لأن الأزلي لايكون مكوَّنا، بل من حيث يكون وجودهٗ فى وقت وجودهٖ ،فعلٰى هٰذا علم ما هو كائن ،فأراد ما هو كائن ،فكوَّن ما هو كائن ليكون فى وقت وجودهٖ وعلمه وإرادته وتكوينه أزلية كجميع صفاته ،ومكوّن حادث مخلوق ،وللعلم تقدم على الإرادة ،وللإرادة تقدم على التكوين لا من حيث الزمان، بل من حيث الرتبة .

فإذا أراد العبد أن يفعل شيئًا ،فهٰذا العبد لم يرد هٰذا الفعل؛ لأنهٗ كان يعلم أن اللّٰه عزوجل قدّر عليه إرادة هٰذا الفعل؛ لأنهٗ لا يعلم ذٰلك ، فإذا أراد هٰذا الفعل من غير أن يعلم من سابق ما هو قدّر لهٗ ،فأراد هٰذه الإرادة بإرادته ،ثم إذا فعل هٰذا الفعل فهو لم يفعل هٰذا الفعل؛ لأنهٗ علم أن اللّٰه قدّر عليه فعل هٰذا الفعل، بل فعلهٗ بفعله من غير علم بما ذكرنا. فالفعل فعلهٗ والإرادة إرادتهٗ ، وكذٰلك إذا فعل هٰذا الفعل كان يشعر أنهٗ فاعلهٗ ،ولم يشعر أنهٗ اضطرّ عليه وهٰذهٖ مشاهدة؛ لأن العبد يشعر إذا فعل شيئًا بخيارهٖ ،وإذا اضطرّ إليه بالفرق بين الحركة الاختياري والحركة الاضطراري ،فالفعل فعلهٗ والإرادة إرادته ،وهو يشعر أنهٗ فاعل هٰذا الفعل بخيارهٖ ،فكيف يكون مجبوراً ،فهٰذا هو الشيء الذى يخرج العبد من كونه مجبوراً ،وما ذكرنا لايتناقض بسبب أن اللّٰه عزوجل قد قدّر عليه إرادة هٰذا الفعل وفعل هٰذا الفعل وأن اللّٰه عزوجل فى الحقيقة خالق هٰذا الفعل؛ لأن العبد ما كان لهٗ علم بهٰذه الأشياء[1] قبل فعل هٰذا الفعل، بل هو أراده وفعلهٗ بإرادته وفعله. فياقوم الجبرية! ما أنتم تقولون فهو خلاف المشاهدة فهو المكابرة والعناد ؛لأنكم تحسّون الفرق بين أفعالكم الاختيارية وأفعالكم الاضطرارية كحركتكم فى الارتعاش ،فما تقولون هو باطل محض ، نعم أن اللّٰه عزوجل قدّر علينا كل شيء ، لكن هٰذا لايجعلنا مجبوراً محضاً، بل لنا الخيار، وهٰذا يكفى لعدم كوننا مجبوراً ،وهٰذا الخيار تحت مشية اللّٰه ،وبدونها لايقع شيء.

وياقوم القدرية! أنتم مشركون تُشركون أنفسكم مع اللّٰه تعالٰى. أنتم تقولون: إن اللّٰه لم يرد

---

(١) يعنى أن اللّٰه قدّر عليه هٰذه الأشياء.

شيئا من القبائح من أعمال العبد ، لكن العبد يفعلها ،فأنتم تقولون: إنهٔ يوجد فى العالم أشياء كثيرة التى لم يرد اللّٰه تعالىٰ كونها فى العالم ،وهٰذا عجز وضعف لايليق باللّٰه تعالىٰ ،فكيف يكون إلٰها ربًا الذى توجد فى خلقه أشياء الّتى هو لايريد كونها ،اللّٰه أكبر ،هٰذا لايليق باللّٰه تعالىٰ، بل اللّٰه عزوجل القهار الجبار العزيز المالك على الإطلاق الذى لايوجد فى خلقه شيء الذى لم يرد كونه "ما شاء اللّٰه كان وما لم يشأ لم يكن." وهٰذا هو عقيدة أهل الحق ،وقد قال اللّٰه تعالىٰ فى القرآن ﴿وَلَوْ شَآءَ اللّٰهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَّاحِدَةً وَّلٰكِنْ يُّضِلُّ مَنْ يَّشَآءُ وَيَهْدِى مَنْ يَّشَآءُ﴾ (النحل:٩٣) فالهداية والضلالة كلها تحت مشيئته ،وهو ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُوْنَ﴾ (الأنبياء:٢٣)

فالنوروالظلمة والخير والشر والهداية والضلالة والحسن والقبح والرطب واليابس كل شيء من علمه وإرادته ،وإن قلتم: فلما ذا يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر ،وكل من قدره تعالىٰ ؟ قلنا بتوفيق اللّٰه تعالىٰ إن شاء اللّٰه العزيز: إنهٔ كما ذكرنا العبد عند ما يمتثل أمره أو يفعل ما ينهاه عنه ،فهو لايفعل هٰذا علىٰ علم أنهٔ قد قدّر اللّٰه عليه امتثال أمره أو فعل ما نهاه عنه، بل فعلهٔ بإرادته وفعلهٔ ،فعلىٰ هٰذا حصل تكليف العبد الذى عليه يترتب الثواب أو العذاب ،والثانى أنهٔ ليس من ضروري أن واحدا يأمر بالشيء الذى يريد وقوعه ،وقد يأمر بالشيء ولايريد وقوعه .

والعبد الضعيف غفر اللّٰه لهٔ الذى الأن فى السجن جالس فى الزنزانة المغلقة يكتب هٰذه السطور يقول: إننا قد نرىٰ فى السجن أن المسمّى به الشرطي فى السجن قد يأمر واحدا مسجونا أن يفعل شيئًا ، لٰكن يريد فى قلبه أن هٰذا المسجون لايمتثل بأمره حتىٰ الشرطي يدخلهٔ فى الزنزانة الإنفراديّة المغلقة بدلا عن أن يكون فى السجن الجماعيّ ،وهٰذهٖ كلها مشاهدة فى العالم ،فالأمر بالشيء لايستلزم إرادة وقوعه ،فأمر اللّٰه تعالىٰ كافرا بالإيمان ، لكن لم يرده منه وقدّر عليه الموت علىٰ الكفر. وإن قلتم: إن اللّٰه عزوجل يقول فى القرآن ﴿وَلَا يَرْضٰى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ (الزمر:٧) فكيف أراد ما لايرضى به؟

قلنا بتوفيق اللّٰه تعالىٰ إن شاء اللّٰه العزيز: إنهٔ كما قلنا: إن الأمر بالشيء لايستلزم إرادته ، وكذٰلك إرادة الشيء لاتستلزم الرضا بهٖ ،ونحن نسأل القدرية المعتزلة ،والمعلوم أنهم يبنون عقيدتهم علىٰ منهج الفلاسفة الملاحدة ،فنسألهم ما ذا يعنى برضاء اللّٰه تعالىٰ؟ هل يعنى أنهٔ ينتفع بهٖ و يحس الراحة والطمأنينة ويتمتع به؟ فلا بد من أن يكون جوابا أنهٔ لا ،و نحن موافقون معهم فى هٰذا الشيء؛ لأن اللّٰه عزوجل تعالىٰ وتقدّس عن النفع والضرر والراحة والإزعاج والطمأنينة والتمتع وكل هٰذه الأشياء؛ لأنهٔ الغني ،وهٰذه الأشياء تدل على الضرورة والاحتياج والعجز والضعف ، وكذٰلك تدل علىٰ الحدوث ،لأنها حادثة ،فلاتقوم إلا بالحادث ،ولايبقى إلا أن يقال: إن رضاء اللّٰه كما يليق

به، وهو يدل علىٰ إنعام المرضيّ به وإعطائه الثواب وإقرار أعمال المرضي به أنها علىٰ حسب أوامره.
ولهٰذا قال: ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ (الزمر:٧) وقد أمرنا بالشكر ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (البقرة:١٥٢) فالأمر يستلزم الرضاء ، لكن لايستلزم الإرادة كما ذكرنا ،فكذٰلك الرضا لايستلزم الإرادة ،فهو يرضى من عباده الإسلام ، لكن لم يرد لجميعه ،وهو لايرضى لعباده الكفر ، لكن الكفر من عباده من إرادته؛ لأنهُ أمر بالإسلام ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:١٠٢) وينهي عن الكفر ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (البقرة:١٥٢) فيرضى بالإسلام؛ لأن الرضا بالعبد كما ذكرنا إقرار أعمال العبد أنها علىٰ حسب أمره ولايرضى بالكفر؛ لأن الكفر علىٰ خلاف أمره ،وأما الإرادة فهي غير الرضا ، فهي صفة تتعلق بجميع ما هو كائن لكونه؛ لأن بدون إرادته لايكون كائنا.

ولو قلتم: لو كل شيء بقدر اللّٰه ،فلما ذا نعمل الأعمال؟ لما ذا لانجلس اتكاء علىٰ ما قدّر لنا؟

قلنا بتوفيق اللّٰه تعالىٰ: إن الرسول عليه الصلوات والسلام قد أجاب عن هٰذا ،فقال عند ما قال رجل: يارسول اللّٰه! أفلا نمكث علىٰ كتابنا وندع العمل؟ فقال: من كان من أهل السعادة فسيصير إلىٰ عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة، فقال: اعملوا فكل ميسر، أمّا أهل السعادة فسييسرون لعمل أهل السعادة، وأمّا أهل الشقاوة فسييسرون لعمل أهل الشقاوة ،ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ (الليل:٥-١٠) وقال "كل ميسر لما خلق له" "اعملوا فكل ميسّر".

فعلىٰ هٰذا من يجلس ولايعمل الأعمال الصالحة ، فكأنهُ خلق للنار ،ولهٰذا لم ييسّر لهُ عمل الأعمال الصالحة ،وأمّا من خلق للجنة ،فهو يؤمن ويعتقد علىٰ ما جاء به الرسول عليه الصلوات والسلام ويمتثل أوامر اللّٰه تعالىٰ ويجتنب نواهيه بدون أن يفكر في مسئلة القدر ، لكن مع العقيدة الجازم عليه كما ينبغي. ونحن قد ذكرنا أن القدر يحتوى على الأسباب والنتائج ،فمن من أهل الجنة بقدر اللّٰه تعالىٰ ،فهو منهم لأعماله الّتي أيضًا من القدر ،فلا بد لهُ من أن يعمل هٰذه الأعمال ،وأمّا من من أهل النار بقدر ،فهو منهم لأعماله الّتي أيضًا من القدر ،فأيها العبد أنت لا تعرف ماذا قُدّر لک شقاوة أو سعادة ،ولا طريقة لمعرفتها ، لكن أنت تعرف أوامر اللّٰه ونواهيه ،وتعرف أن الطاعة لهُ إلى الجنة والمعصية إلى النار ،فلما ذا لا تخوض في طاعته وتجتنب معصيتهٔ بدون أن تصرف وقتک وجهدک وطاقتک في غور في مسئلة القدر ،وأنت لا تقدر أن تعلم ما قدّر لک ،ولا وسيلة إلى علمه. فعليک يا عبدا! أن لا تترک طاعة اللّٰه علىٰ حيلة أنک تمكث علىٰ ماقد قدّر لک؛ لأن ترک

طاعة الله إلى النار ،فتركک لها يدل علىٰ أنک تظن أنک من أهل النار؛ لأن هٰذا يؤدى إليه ،فلما ذا لاترجو أنک من أهل الجنة إن شاء الله ،وتعمل أعمال أهل الجنة ؛لأنک فی الأخير لاتعلم أنک من أهل الجنة أو النار ، لكن تعلم أن طاعة الله إلى الجنة وتركها إلى النار ،فاعمل طاعة الله ،واصرف جهدک وطاقتک فيها ،ولاتخض فی مسئلة القدر ولا تنازع فيها، بل اعتقد عليها كما هو مذكور فی القرآن ،والسنة ونحن قد بيّناها، وكذٰلک إن سألتم عن الحاجة لاتخاذ الأسباب لأي شيء هٰذه الحاجة لهٗ لو كل شيء بقدر الله؟

فقلنا: قد أجاب رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم عن هٰذا أيضًا لو صح الحديث أخرجه الترمذي أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم ،فقال يارسول الله! أرأيت رقى نسترقيها ودواء نتداوى بهٖ وتقاة نتقيها هل تردّ من قدر الله شيئا؟ قال: "هي من قدر الله ." (سنن الترمذي، ح:٢٠٦٥) وهٰذا الجواب يجيب هٰذا السؤال الذى سألتم بغض النظرعن صحة الحديث ،ونحن قد ذكرنا سابقا أن القدر يحتوى علىٰ كل شيء بالتفصيل ، فإذا مثلاً مرض الشخص ،فينبغى لهٗ أن يتداوى لهٰذا المرض؛ لأنهٗ يحتمل كل الاحتمال أنّه قد قدّر لهٗ أن يبرأ بعد العلاج ،ولو لا قدّر لهٗ أن يبرأ لايبرأ لامحالة ، لكن بسبب الاحتمال أنهٗ يبرأ بعد التداوى ينبغى لهٗ أن يتداوى كمثل العطشان ،فعليه أن يشرب الماء؛ لأن الله عزوجل يدفع العطش بشرب الماء عادة ،فعليه أن يشرب الماء ، لكن مع هٰذا عليه أن يعرف لو أن الله تعالىٰ لايدفع العطش ،فلايندفع العطش منه حتىٰ بعد شرب الماء ، لٰكن بسبب أن الله جرى العادة أن بعد شرب الماء هو يرفع العطش ،فعلى العطشان أن يأخذ بهٰذا السبب العاديّ لدفع عطشه وحفظ نفسه حتىٰ لو لايشرب الماء ،ومات فى العطش قد أثم إثما كبيرا.

فكذٰلک فی أخذ الدواء ، لٰكن الفرق بين شرب الماء للعطشان وأخذ الدواء للمريض هو أن الله عزوجل يدفع العطش بعد شرب الماء عادة ،فحصول اندفاع العطش بسببه متيقن تقريباً إلا لو أن الله يكسر هٰذه العادة الجارية بالأمر الخاص ،فيكون من قبيل الأمور الاستثنائية و لكن الدواء قد يدفع الله المرض بسببه ،وقد لا ،كما هي المشاهدة ، لكن لأنهٗ أيضًا من الأسباب الجائزة ،فينبغى أخذها للمريض ،وهٰكذا فی العالم أن قدر الله لايمنعنا من أخذ الأسباب، بل الله عزوجل أمرنا بأخذ الأسباب ،وقد أمرنا بالأكل والشرب واللباس ،وهٰذهٖ كلها أسباب لحفظ النفس والأمور المتعلقة بها.

فحاصل الكلام أن العطشان عند مايشرب الماء فيندفع عطشه ،فقدر الله ليس فقط متعلق باندفاع عطشه، بل بشربه الماء والدفاع عطشه فيما بعد ،فعلىٰ هٰذا لايجوز ترک الأسباب ؛لأنها مشمولة فی قدر الله تعالىٰ ،ولأن الله تعالىٰ امرنا بأخذ الأسباب بدون التفكير فيما قدّر لنا فی المستقبل ،وهٰذا لاوسيلة لنا لعلمه ،فنحن نأخذ الأسباب امتثالا لأمر الله تعالىٰ ،وهٰذا أخذنا بها من

قدر الله ،ثم ما يأتی من النتائج بعدهٗ أيضًا من قدر الله.

فحاصل الكلام أيها العبدا لاتفكر فی مسئلة القدر، بل اعتقد عليها كما جاء ت فی القرآن والسنة ،وكما يعتقدون عليها أهل السنّة والجماعة واصرف جهدک ووقتک فی طاعة الله ورسوله صلی الله تعالیٰ عليه وسلم ،ولاتقل أنک تترک العمل علی الدين اتكاء علیٰ ما قدّر لک كما أنت لاتترک الطعام عند ما أنت جائع ،وكما أنت لاتترک الشغل للدنيا لكسب المال ،ولاتظن أنک أنت مستقل فی أعمالک؛ لأنهٗ شرک وكفر، بل أنت وإرادتک وأفعالک كلها من علم الله تعالیٰ وإرادته وتكوينه ،وكما لونک من علم الله وإرادته وتكوينه ، لكن هٰذا لاينافی كونه أنهٗ لونک؛ لأنهٗ فی محلّ الذی هو أنت ،فكذٰلک إرادتک وأعمالک وأفعالک كلها من علم الله وإرادته وتكوينه ، لٰكن هٰذا لاينافی كونها أنها إرادتک وأعمالک وأفعالک ؛لأنها فی محلّ الذی هوأنت ؛ لأن الصفات والأفعال تنسب إلی محلّها ،فكما أن الله عزوجل خالق لونک ، لكن هو لونک ،وأما الله عزوجل ،فلا لون لهٗ صفةً ووصفا ،فكذٰلک أن الله عزوجل خالق إرادتک وأفعالک ، لكن هو إرادتک وأفعالک ،وعليها يترتب تكليفک ،وعليه عذاب أو ثواب ، فافهم، والله يهدی من يشاء إلیٰ صراط مستقيم. إن شاء الله العزيز نتكلم مزيدا فی هٰذا فيما بعد.

المتن:

> **والعرش والكرسيّ حق، وهو مستغن عن العرش وما دونه، محيط بكل شيء وفوقه (أو بما هو فوقه) وقد أعجز عن الإحاطة خلقه.**

الشرح:

هٰذه الجملة قد جاء فيها اختلاف الروايات ،فرواية منها هي "محيط بكل شيء وفوقه" وفی رواية منها "محيط بكل شيء فوقه" بدون الواو ،ورواية منها "محيط بكل شيء وبما هو فوقه" فنحن نذكر إن شاء الله وجه لكل رواية. الآن نتكلم عن العرش والكرسي ،وقد مرّ الكلام عن العرش فی بيان استواء علی العرش. فالعرش أجسم المخلوقات ،وهو فوق السماء السابعة وفوق الجنة الفردوس كمثل القبة كما جاء فی الحديث ،وإيمان بهٖ فرض ،وإنكاره كفر ،والكرسي تحت العرش ،وفی القرآن ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ﴾ (البقرة:٢٥٥) وفی الحديث"ما السمٰوات السبع فی جنب الكرسيّ إلا كحلقة فی أرض فلاة، وفضل العرش علی الكرسيّ كفضل الفلاة علی الحلقة" فعلیٰ هٰذا ظهر عظمة جسامة الكرسيّ علی السمٰوات وعلی الأرض من باب الأولیٰ وعظمة جسامة العرش علی الكرسيّ وما وسعه من السمٰوات والأرض ،والعرش فوقها كلها كما فی الحديث.

والكرسيّ إن الإيمان به واجب ،وإنكاره كفر. وفي القرآن ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ﴾(البقرة:٢٥٥) وأخذه على ظاهره لايناقض أصلا من أصول الدّين ، فتعين الظاهر ، وعلى هذا الكرسيّ عين موجود ، وفي القرآن ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ (الواقعة:١٧) وهذا يخبرعن العرش أنهٗ عين موجود ،ويحمله الملائكة "الثمانية" أي من الملائكة ،فقال الإمام الطحاوي رحمه الله "والعرشي والكرسي حق" يعني أنهما موجودان ثابتان لايجوز إنكارهما. وهو مستغن عن العرش وما دونه . وهذا ظاهر لاخفاء فيه أن الله عزوجل غني عن العالمين ﴿وَاللّٰهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيْدُ﴾ (فاطر:١٥) فالعالم يحتاجه في وجوده وبقائه. ﴿وَاللّٰهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَآءُ﴾ (محمد:٣٨) وهو لايحتاج شيئًا ، محيط بكل شيء وفوقه، وقد ذكرنا سابقا أن هذا فيه اختلاف الروايات ،فعلى هذه الرواية معناه أن الله عزوجل محيط بكل شيء ،وقد مرّ الكلام عنه سابقا أن إحاطة الله ليس كإحاطة الغرفة لسكّانها ،ونعوذ بالله؛ لأنهٗ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهٖ شَيْءٌ﴾(الشورى:١١) بل إحاطته لخلقه كما يليق بشانه ،التي لاعلاقة لها بالمكان والزمان؛ لأنهٗ غنيّ عنهما ،فهو يعلم ويسمع ويرى كل شيء "وفوقه" قد يعني فوق كل شيء وقد يعني فوق العرش ،وكلاهما صحيحان؛ لأن الله عزوجل فوق كل شيء وهو فوق عرشه، وقد مرّ الكلام عن هذا أيضًا أن الله عزّوجل لايتمكّن في مكان ،ولايجرى عليه زمان ،وهو﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهٖ شَيْءٌ ﴾ (الشورى:١١) ففوقيته لاتشبه فوقية الخلق؛ لأنهٗ لو تشبه فتعارض ما قال عن نفسه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهٖ شَيْءٌ﴾(الشورى:١١) فثبت أن ليست فوقيتهٗ كفوقية السقف للبيت على أرضه ،ونعوذ بالله لأنها تتعلق بالمكان ،والله تعالى لايتمكن في مكان ولا جهة ،وقد فصّلنا الكلام في هذا الموضوع سابقا ،ففوقيتهٗ كما يليق بشأنهٗ ،وقد جآء في الحديث "أنت الأول ،فليس قبلك شيء ،وأنت الآخر ليس بعدك شيء ،وأنت الظاهر ،فليس فوقك شيء ،وأنت الباطن ،فليس دونك شيء ." (صحيح مسلم، ح:٢٧١٣) فهو فوق كل شيء وقد جآء في الحديث "إن الله فوق عرشه وعرشهٗ فوق سمواته." أخرجه أبوداؤد (سنن أبي داود، ح:٤٧٢٦) والله أعلم عن صحته ،وفي الحديث الآخر أن فوق السماء السابعة بحر وفوق ذلك ثمانية [1] أوعال وعلى ظهورهم العرش ،والله فوق ذلك. (سنن أبي داود، ح:٤٧٢٣) وهذا أيضًا أخرجه أبوداؤد ،والله أعلم عن صحته ، لكن هذا كلهٗ يرجع إلى ما في القرآن ﴿الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوٰى﴾ (طٰه:٥) وقد ذكرنا بالتفصيل عن الاستواء على العرش ،وهذا من المتشابهات .

فحاصل الكلام أن الله فوق كل شيء ،وفوق العرش استواء عليه ،وهذا كلهٗ كما يليق بجلاله ،ولايشبه فوقية الخلق ،ولا استواءه يشبه استواء الخلق؛ لأنهٗ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهٖ شَيْءٌ وَّهُوَ السَّمِيْعُ

(١) ثمانية أملاك على صورة الأوعال.

الْبَصِيرُ﴾ (الشورى:١١) ،وهو مع ذلک قريب مجيب ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة:١٨٦) فهو فوق كل شيء وقريب بكل شيء وكما قربته لاعلاقة لها بالقربة الجسمانية المكانية ،فكذلک فوقيته ،فهو قريب فی علوّه ،وعليّ فی دنوّه ،كما يليق بجلاله ،فهو لايتمكن فی مكان ،ولايجرى عليه زمان ،وكما قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالیٰ. وقد مرّ بيانه "وتعالیٰ عن الحدود والغايات والأعضاء والأركان والأدوات، لاتحويه الجهات الستّ كسائر المبتدعات" لأنهٔ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَّهُوَ السَّمِيْعُ الْبَصِيْرُ﴾(الشورى:١١)

وأما وجه الروايتين الآخرين وهما "محيط بكل شيء فوقه" "محيط بكل شيء وبما هو فوقه" وكلاهما راجعان إلى أن الله تعالیٰ محيط بما هو فوق العرش كما هو محيط بكل شيء تحته ،وقد مرّمعنى الإحاطة فی حق الله تعالیٰ ،وهي ليست كإحاطة المخلوقين ،وقد جآء فی الحديث" أن اللّٰه تعالیٰ لما خلق الخلق كتب فی كتابه، فهو عنده فوق العرش: "إن رحمتی غلبت غضبی" أخرجه مسلم.(ح: ٦٩٦٩) وهٰذا الحديث يدل علىٰ وجود الخلق فوق العرش؛ لأنهٔ معلوم أن هٰذا الكتاب ليس إلا من الخلق. فالشيخ رحمه الله تعالیٰ يقول أن الله تعالیٰ محيط بكل شيء ما هو فوق العرش وما هو تحته؛ لأنهٔ محيط بكل شيء على الإطلاق ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيْطٌ﴾(حم سجدة:٥٤) وقد مرّ الكلام عن هٰذا الحديث أيضًا وأن كتابة الله ليست ككتابتنا ،وهو تعالیٰ عن الأعضاء والجوارح ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَّقُوْلَ لَهُ كُنْ فَيَكُوْنُ﴾ (يس:٨٢) فكتابتهٔ عبارة عن خلق المكتوب فی حق اللّٰه تعالیٰ ،ومعنى "عنده فوق العرش" كما يقول واحد:"عندى خمسة كتب" ، لكن ليست هي معهٔ[1] لكن لأنها تحت ملكيته وتصرفه ،فقال: إنها عندهٔ ،فكذلک "عنده فوق العرش" يعنى أن هٰذا الكتاب فوق العرش وهو تحت ملكية الله وتصرفه كما كل شيء تحت ملكيته تصرفته ،ولا معنى من حيث القربة الجسمانية والمكانية؛ لأن الله عزوجل تعالیٰ وتقدس عن هٰذه الأشياء كما ذكرنا مرّات سابقا.

ثم قال الشيخ رحمه الله تعالیٰ: وقد أعجز عن الإحاطة خلقهٔ يعنى أعجز خلقه عن الإحاطة ،وهٰذه جملة فيها بحر من العلوم ؛لأنها تدل علىٰ جمع من الأشياء ،فقد أعجز اللّٰه تعالیٰ الخلق عن أن يكون لهم علم محيط وإرادة محيطة وقدرة محيطة ،ولا شريک لهٔ فی هٰذه الأشياء ،ومن المحال أن يكون للخلق علم محيط وقدرة محيطة وإرادة محيطة ،فلا علم للمخلوق إلا ما أعطاه اللّٰه إياه ،وهو لاشيء بنسبة علم اللّٰه ولا إرادة للخلق إلا ما خلق اللّٰه فيه ،وهي لا شيء بنسبة إرادة اللّٰه تعالیٰ ، وكذٰلک قد اعجز الخلق عن أن يكون لهٔ سمع محيط وبصر محيط وقدرة محيطة مؤثرة ،فالخلق

(١) يعنى من حيث الجسمية والمكانية.

لايسمع ولايرىٰ إلا ما يُسمعه اللّٰه تعالىٰ ويُريه اللّٰه تعالىٰ ،وهو لاشيء بنسبة البصر المحيط والسمع المحيط للّٰه تعالىٰ، وكذٰلك قد أعجز الخلق أن يحيطهٗ ،فلا يحيطه مكان ولا زمان ،وهٰذه الجملة فيها ردّ بليغ على المشبّهة ،ومنها بعض أتباع ابن تيمية ،فقد قال الشيخ الطحاوي رحمه اللّٰه تعالىٰ: إنهٗ قد أعجز الخلق عن الإحاطة ،فقد أعجزهم عن إحاطته ،وهٰذا بكونه متعاليا عن الحدود والغايات ،فلايحويه مكان ولايجرى عليه زمان ، وكذٰلك لاتحويه الجهات الست كسائر المبتدعات ،وهٰذا كلهٗ ذكر الشيخ رحمه اللّٰه تعالىٰ قبلا وقد مر بيانه ، وكذٰلك أعجز الخلق عن إحاطته علما ورؤية ، ففى القرآن ﴿لَاتُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾(الأنعام:١٠٣) وقد مرّ فى بيان رؤية اللّٰه تعالىٰ أنها تكون بدون الإحاطة؛ لأن اللّٰه تعالىٰ تنزه عن المكان والزمان والحدود والغايات ،فلاتمكن للأبصار أن تحيط به ،وهٰذا هو تفسير من التفاسير لهٰذه الآية ، فإذا لاتمكن إحاطته بالرؤية ،فلاتمكن إحاطته بالعلم؛ لأن العلم قد يكون بدون الرؤية ،وقد يكون مع الرؤية ،وما يكون مع الرؤية أكبر درجة مما يكون بدونها؛ لأن الخبر ليس كالمعاينة ، فإذا لم تمكن إحاطته بالرؤية ،فلاتمكن إحاطته بالعلم المعلّق بها ، فقد أعجز الخلق عن إحاطته ، وهٰذا بكونه﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهٖ شَيْءٌ وَّهُوَ السَّمِيْعُ الْبَصِيْرُ ﴾(الشورىٰ:١١)

المتن:

ونقول: إن اللّٰه اتخذ إبراهيم خليلا، وكلّم اللّٰه موسىٰ تكليماً ، إيماناً وتصديقاً وتسليماً.

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه اللّٰه تعالىٰ الآن يقول: إن اللّٰه اتخذ إبراهيم خليلا وكلّم اللّٰه موسىٰ تكليماً ،ونحن نؤمن به ،وهٰذا لاخفاء فيه ،ولايحتاج إلى الشرح ، لكن ذكره ردّا على أهل الهواء والبدعة ،وقد قال اللّٰه تعالىٰ: ﴿وَاتَّخَذَ اللّٰهُ إِبْرَاهِيْمَ خَلِيْلاً ﴾ (النساء:١٢٥) وماهو الخليل؟ وقد جآء فى القرآن: ﴿وَإِنْ كَادُوْا لَيَفْتِنُوْنَكَ عَنِ الَّذِیْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهٗ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوْكَ خَلِيْلاً ﴾ (بنى إسرائيل:٧٣) وفى مكان آخر ﴿يَا وَيْلَتٰى لَيْتَنِیْ لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيْلًا﴾ (الفرقان:٢٨) وفى مكان آخر ﴿اَلْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِيْنَ ﴾(الزخرف:٦٧) وفى مكان آخر ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا أَنْفِقُوْا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَّأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيْهِ وَلَا خُلَّةٌ وَّلَا شَفَاعَةٌ ﴾ (البقرة:٢٥٤) فالظاهر أن معنى الخليل يرجع إلى الحبيب ،فلايستطيع أحد أن يشتري نفسه بالبيع ،ويتخلص من الحساب يوم القيامة ،ولايكون لهٗ خليل الذى يستطيع أن يخلصه إلا بطريقة الشفاعة ، لكن لاتكون الشفاعة إلا بإذن اللّٰه ولمن يرضى لهٗ بها ،وهٰذا قد مرّ فى بيان الشفاعة .

الآية : ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف:٦٧) فالمتقون يكونون الأخلاء بعضهم بعضا يوم القيامة حتى يشفع بعضهم لبعض. وأما الحديث "ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبابكر خليلا و لكن أخوّة الإسلام." (صحيح البخاري، ح:٤٦٦) وفي رواية "و لكن ودّ وإخاء الإيمان، ألا وإن صاحبكم خليل الله." (صحيح مسلم، ح:٨٣٥٣) يعني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هو خليل الله، فوالله أعلم بمعنى هذا الحديث حسب ما أراه في تفسير القرطبي، وقيل: الخليل من الاختصاص ،فالله عزوجل اختص إبراهيم في وقته للرسالة ،واختار هذا النحاس ،قال: والدليل على هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم "وقد اتخذ الله صاحبكم خليلا" يعني نفسه (وهذا ظاهر ،وقد اختص الله تعالى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأشياء كثيرة على العالمين) وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبابكر خليلا." وفي هذا رد على من زعم أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اختص بعض أصحابه بشيء من الدين ، انتهى[1]

وفي رواية "ولكن ودّ وإخاء الإيمان و إن صاحبكم لخليل الله" فوالله أعلم معنى كل ذلك مع الآية ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف:٦٧) ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ (التوبة:٧١) أن النبي عليه الصلوات والسلام لم يختص أحدا من الصحابة بشيء من الدين دون بعض كما مرّ من تفسير القرطبي ،فمن هذه الناحية "أبرء إلى كل خليل من خلّة" "ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبابكر" ، لكن الخلّة من ناحية الودّ والولاء والأخوّة للإيمان ،فهي موجودة لامحالة ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف:٦٧) " ، "وإن صاحبكم لخليل الله" فقد مرّ معنى هذا، لأنهُ حبيب الله و وليّ الله ،وقد اختصه الله على العالمين بفضله ورحمته وإنعامه وفضله. وفي الحديث أيضًا "الرجل على دين خليله ،فلينظر أحدكم من يخالل." (سنن الترمذي، ح:٢٣٧٨) وهذا أيضًا يرجع إلى معنى الولي الحبيب، فملاحظة جميع ما ذكرنا من الآيات والأحاديث يكون معنى الآية ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (النساء:١٢٥) أن الله تعالى اتخذهُ وليًا لهُ ،فهو وليّ الله ،وقد قال الله تعالى عن أوليائه ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (يونس:٦٢) أي من تولاه الله تعالى وتولى حفظه وحياطته ورضي عنه ،فلايخاف يوم القيامة ولايحزن ،وهذا كلهُ حاصل لسيدنا إبراهيم عليه السلام ، وكذلك الخليل يشمل معنى الاختصاص ،ولقد اختص الله سيدنا إبراهيم عليه السلام بأشياء لم يعطها أحدا من العالمين في زمانه ،و في البعض مطلقا ،وفي القرآن ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾

---

(١) وهذا تفسير لهذا الحديث مع الحديث "أبرأ إلى كل خليل من خلّة ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت ابن أبي قحافة خليلا (يعني أبابكر رضي الله عنه)" (السنن الكبرى للنسائي، ح:٨٠٥١)

(البقرة:١٢٤) ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ (البقرة:١٢٥) ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (البقرة:١٣٠) ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (آل عمران:٩٥) ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل:١٢٠-١٢٣) ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (العنكبوت:٢٧) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ (الحديد:٢٦) فسيدنا إبراهيم عليه السلام هو خليل الله لاشك فيه ،والمعلوم أن كونه خليل الله لايعني أنهٗ يشاركهٗ في ألوهيته أو ربوبيته أو أسمائه وصفاته ،وهٰذا ظاهر لايحتاج إلى الذكر ، وكذٰلك لايعني أنهٗ خليل الله فقط، بل كما ثبت في الحديث أن الرسول عليه الصلوات والسلام أيضًا خليل الله، بل هو أفضل خليل الله؛ لأنهٗ أفضل الخلق ، وكذٰلك جميع الأنبياء عليهم الصلوات والسلام هم خليل الله؛ لأن كلهم أولياء الله وأحبّاءه وقد خصهم الله بالنبوة على الآخرين ،وعلىٰ هٰذا قديقال: إن المؤمنون المحسنون أيضًا أخلاء الله من جهة ؛ لأنهم أولياء الله ،وفي القرآن ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (يونس:٦٢-٦٣) وأحبّاءه ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران:١٣٤) وقد خصصهم الله بالإيمان ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ (البقرة:١٠٥) فأخلاء الله على الدرجات ،فأفضلهم نبينا صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ،ولا اختلاف أنهٗ أفضل الأنبياء ،وثم سيدنا إبراهيم عليه الصلوات والسلام علىٰ اختلاف الأقوال ، وكذٰلك جميع الأنبياء أخلاء الله ،وثم الأمثل فالأمثل.

وأما معنى ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ (النساء:١٦٤) فقد مرّ بيانه بالتفصيل ،وأنهٗ كليم الله تعالىٰ ،وقد كلّم الله إياه بكلامه الأزلي.

المتن:

"ونؤمن بالملائكة والنبيين والكتب المنزّلة على المرسلين ونشهد أنهم كانوا على الحق المبين."

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالىٰ الأن يدخل في كلام عن بعض أركان الإيمان التي قد جآء في الحديث المشهور أن الرسول عليه الصلوٰة والسلام قال: "الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته

وكتبه واليوم الآخر والقدر خيره وشره." (صحيح ابن حبان، ح:١٦٨) فالشيخ الآن يتكلم عن إيمان بالملائكة وبالكتب وبالأنبياء ،ولقد مرّ الكلام عن التفصيل عن إيمان بالله وبالأنبياء عليهم الصلوات والسلام. ونحن نشهد أنهم كانوا على الحق المبين ،وهٰذا ظاهر لايحتاج إلى الشرح ؛لأنهم أنبياء الله عليهم الصلوات والسلام ،فيستحيل أن يكونوا علىٰ غير الحق ،وقد مرّ الكلام عنهم عليهم الصلوات والسلام بالتفصيل. الآن نتكلم عن الملائكة عليهم الصلوات والسلام.

(١) الإيمان بالملائكة فرض ،وجحودهم كفر ،وهٰذا ظاهر لاخفاء فيه ،وفى القرآن ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَٰئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ (البقرة:٢٨٥) ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ (البقرة:١٧٧) ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَٰئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (النساء:١٣٦)

(٢) خلقهم الله من نور ،وفى الحديث الصحيح "خلقت الملائكة من نور وخلق الجن من مارج من نار ،وخلق آدم مما وصف لكم" رواه مسلم. (ح:٢٩٩٦) والمراد بالنور مادة نورانية ألطف وأشرف من النار، فهم أجسام لطيفة نورانية. ثم فى القرآن ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء:٣٠) وفى الحديث "كل شيء خلق من الماء." (صحيح ابن حبان، ح:٢٥٥٩) . فعلىٰ هٰذا النور والنار والتراب ،أصل جميعها من الماء.

(٣) الملائكة لايوصفون بالذكورة ولاأنوثة ، ففى القرآن ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَٰئِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (الصافات:١٥٠-١٥٢) ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَٰئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ (الزخرف:١٩) فإذا ردّ الله تعالىٰ عليهم علىٰ وصفهم الملائكة بالأنوثة ،فثبت بالدلالة أنهٗ لاذكورة فيهم ولا أنوثة؛ لأنهٗ لما نفيت الأنوثة عنهم ،فهٰذا يقتضى نفي الذكورة؛ لأنهٗ لا ذكورة إلا أن يكون بإزائها أنوثة ،فثبت أنهم لايوصفون بهما ،فإذا لايوصفون بهما ،فثبت أنهٗ لاتوالد ولا تناسل بينهم.

(٤) نحن لانراهم فى العادة ،وهٰذا ظاهر لاخفاء فيه؛ لأن الإيمان بهم من باب إيمان بالغيب ، لٰكن من الممكن رؤيتهم ؛ لأنهٗ يمكن رؤية كل موجود ،فالأنبياء عليهم الصلوات والسلام يرونهم ، وهم يستطيعون بإذن الله علىٰ أن يظهروا فى صور مختلفة ويستطيعون بإذن الله على الأفعال الشاقة ليظهرون للأنبياء إما فى صورتهم أو فى صور أخرىٰ كما سيدنا جبريل عليه السلام ظهر لنبينا صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فى صورته التى هي صورته مرّتين ،وكان يأتى إليه فى صورة الآدمي أيضًا . فأما ظهورهٗ فى صورته مرّتين ،فبيانه فى ابتداء سورة النجم ،وأما إتيانهٗ فى صورة الآدمي ،فحديث جبريل

عليه السلام عن سؤال الإسلام والإيمان والإحسان شاهد ،ثم بعض الأحيان إتيان الملائكة فى صورة الآدمي يمكّن حتى غير الأنبياء أن يرونه ،ونفس حديث جبريل شاهدلهٗ ، وكذٰلك إتيان الملك إلى مريم رضي الله عنها كما فى القرآن شاهد لهٗ ، وكذٰلك الحديث الذى أخرجه مسلم عن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمىٰ (صحيح مسلم، ح: ۲۹۶۴) شاهد لهٗ ، وكذٰلك الحديث عن الرجل الذى زار أخا لهٗ فى قرية أخرىٰ بسبب حبّهٖ لهٗ فى الله تعالىٰ شاهد له. وأما عدم رؤية غير الأنبياء للملائكة فى العادة ،فهي المشاهدة ،ثم حديث عائشة رضي الله عنها أن الرسول عليه الصلوات والسلام قال لهٗ :"يا عائشة! هٰذا جبريل ،وهو يقرأ عليك السلام ،قالت: قلت وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ترىٰ ما لانرى." هٰذا حديث حسن صحيح أخرجه الترمذي (ح: ۳۸۸۱) فالأصل عدم رؤيتنا لهم حتىٰ يكون إيماننا بهم بالغيب إلا أن يُظهرهم الله تعالىٰ لنا ،فنراه ،وهٰذا استثناء ،وأما الأنبياء عليهم الصلوات والسلام ،فهم يرونهم ، لكن شأنهم غير شأننا ،هم واسطة بيننا وبين مايغيب عنا حتىٰ يأتينا بأخبارها ،فتكون امتحانا لنا فى إيماننا. وأما استطاعتهم علىٰ أعمال الشاقة ،فهٰذا ظاهر من القرآن والسنة ،لاخفاء فيه ،وقد قال الله تعالىٰ عن جبريل عليه السلام : ﴿عَلَّمَهٗ شَدِيْدُ الْقُوٰى ۝ ذُوْ مِرَّةٍ فَاسْتَوٰى﴾ (النجم:٥-٦) وفى تفسير : وكان من شدّته أنهٗ اقتلع مدائن قوم لوط عليه السلام من الأرض السفلى ،فحملها علىٰ جناحه حتىٰ رفعها إلى السماء حتىٰ سمع أهل السماء نبع كلابهم وصياح ديكتهم ،ثم قلبها ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ مَّنْضُوْدٍ﴾(هود:٨٢) وكان من شدته صيحته بثمود فى عددهم وكثرتهم ،فأصبحوا جاثمين خامدين ﴿وَأَخَذَ الَّذِيْنَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوْا فِيْ دِيَارِهِمْ جَاثِمِيْنَ﴾ (هود:٦٧) ومن شدته أيضًا سرعان سيره من السماء إلى الأرض ومن الأرض إلى السماء ،ويدل عليه حديث الإسراء والمعراج.

(٥) والمعلوم أن الملائكة لايملكون ضرّا ولا نفعا، بل كلهم محتاجون إلى الله تعالىٰ. وفى القرآن :﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا [1] سُبْحَانَهٗ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُوْنَ لَا يَسْبِقُوْنَهٗ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهٖ يَعْمَلُوْنَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيْهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُوْنَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضٰى وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهٖ مُشْفِقُوْنَ وَمَنْ يَّقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيْ إِلٰهٌ مِّنْ دُوْنِهٖ فَذٰلِكَ نَجْزِيْهِ جَهَنَّمَ كَذٰلِكَ نَجْزِي الظّٰلِمِيْنَ﴾ (الأنبياء:٢٦-٢٩) ﴿وَكَمْ مِّنْ مَّلَكٍ فِي السَّمٰوٰتِ لَا تُغْنِيْ شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَّأْذَنَ اللّٰهُ لِمَنْ يَّشَآءُ وَيَرْضٰى﴾(النجم:٢٦) ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهٗ مَا بَيْنَ أَيْدِيْنَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (مريم:٦٤)

(٦) وفى الملائكة مراتب ،فبعضهم أفضل من بعض ،والأربعة منهم أفضل من غيره. (١)

(١) يعني من الملائكة كما يزعمون أن الملائكة بنات الله (و نعوذ بالله).

سيدنا جبريل عليه الصلوات والسلام وهو أفضل الملائكة وقد وصفه القرآن بالأوصاف العظيمة وهو كان يأتى بالوحي إلى الأنبياء عليهم الصلوات والسلام ،وفى القرآن ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُوْلٍ كَرِيْمٍ ذِىْ قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ مَكِيْنٍ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِيْنٍ﴾ (التكوير:١٩-٢١) ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيْلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلٰى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّٰهِ﴾ (البقرة:٩٧) ﴿عَلَّمَهُ شَدِيْدُ الْقُوٰى ذُوْ مِرَّةٍ فَاسْتَوٰى﴾ (النجم:٥-٦) وفى الحديث "ألا أخبركم بأفضل الملائكة جبريل." (المعجم الكبير، ح: ١١٣٦١)

(٢) سيدنا ميكائيل عليه السلام وهو موكّل بالمطر والأرزاق بإذن الله يعنى هو أمير الملائكة الذين فى أمور التى تتعلق بالأمطار والأرزاق ،وفى القرآن ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّلّٰهِ وَمَلٰٓئِكَتِهٖ وَرُسُلِهٖ وَجِبْرِيْلَ وَمِيْكَالَ فَإِنَّ اللّٰهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِيْنَ﴾ (البقرة:٩٨)

(٣) سيدنا إسرافيل عليه السلام وهو موكّل بالصور ،فينفخ فيه يوم القيامة ،فيفنى كل شيء. ثم ينفخ فيه أخرى بعد زمان ،فيبعث الله الأموات للحشر والحساب. وفى الحديث "عن أبى هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن طرف صاحب الصور منذ وكل به مستعد ينظر حول العرش مخافة أن يؤمر بالصيحة قبل أن يرتد إليه طرفه كأن عينيه كوكبان دريان." (مستدرک للحاكم) . (ح: ٨٦٧٦)

(٤) سيدنا عزرائيل عليه السلام وهو موكّل بقبض الأرواح ،فيقبض أرواح الخلق حين موتهم ،ولايعلم وقت موتهم إلا بعد أن يؤمر بقبض الأرواح ،ومعناه هو أمير الملائكة التى على هٰذا الأمر بقبض الأرواح ،وفى القرآن ﴿قُلْ يَتَوَفّٰكُمْ مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِىْ وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلٰى رَبِّكُمْ تُرْجَعُوْنَ﴾ (الم سجدة:١١) وفى آية أخرى ﴿حَتّٰى إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ (الأنعام:٦١) فثبت أنهٗ أمير وتحته الملائكة يساعدونهٗ فى هٰذا الأمر.

(٧) لايعلم عدد الملائكة إلا الله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُوْدَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ (المدثر:٣١) وما ورد فى القرآن والسنة الصحيحة من الملائكة بالتعيين مثلاً كجبريل وميكال وملك الموت وصاحب الصور ومالك ، وكذٰلک بالنوع مثلاً حملة العرش، والحفظة، وكراما كاتبين، فيجب الإيمان بهم على التفصيل ،وأما البقية فيجب الإيمان بهم إجمالا.

(٨) وأنهم معصومون منزهون عن الكبائر والصغائر لايعصون الله فى شيء ما ،وفى القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا قُوْا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيْكُمْ نَارًا وَّقُوْدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُوْنَ اللّٰهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُوْنَ مَا يُؤْمَرُوْنَ﴾ (التحريم:٦) ﴿وَلِلّٰهِ يَسْجُدُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ مِنْ دَآبَّةٍ وَّالْمَلٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُوْنَ يَخَافُوْنَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُوْنَ مَا يُؤْمَرُوْنَ﴾ (النحل:٤٩-٥٠) والمعنى أنهم مجبولون على طاعة الله ،فهم من أنفسهم لايعصون الله، بل يطيعونه ،وليس المعنى أنهم

مضطرون إليها، حتى صاروا كمثل الجماد، ويدل على ما قلنا الآية ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء:٢٩) ولو كانوا مضطرين غير متعبدين ،فلايبقى لهذه الآية معنى؛ لأن فى هذه الصورة لاخيار لهم مطلقا، بل كانوا كمثل الجماد ،فلايتصور منهم ما فى الآية والجزاء عليه وإطلاق الظالمين عليه ، فإذا أطلق عليهم هذه الأشياء ،فثبت أنهم متعبدون غير مضطرون ،وثبت من الآيات الأخرى أنهم لايعصون الله مطلقاً، بل يطيعونه كاملا ،و ثم فى الاضطرار لا وجه للمدح؛ لأن المضطرّ لايفعلهُ بطيب نفسه لعدم الخيار ، فإذا مُدحوا الملائكة فى عدم عصيانهم للّه تعالى ،فثبت أنهم يفعلونه بالخيار ،وليس بالاضطرار ، لكن مع ذلك ما رُكّبت عليهم الشهوات كمثلنا ،فهم لاياكلون ولايشربون كما ثبت فى قصة إبراهيم عليه السلام معهم ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ (هود:٦٩-٧٠) وكذلك ليس عندهم الشهوة الجنسية لما ذكرنا أنهم لايتوالدون ولايوصفون بالذكورة ولا أنوثة ، لكن الأنبياء عليهم الصلوات والسلام مع أنهم يأكلون ويشربون ويتوالدون ،فعندهم من الحوائج البشرية ،ومع ذلك لايعصون الله ويفعلون ما يؤمرون ،فهذا بنفسه دليل ظاهر على أفضلية الأنبياء عليهم الصلوات والسلام على الملائكة عليهم الصلوات والسلام، فافهم.

ثم اعلم أنهُ ما ذكر فى قصة هاروت وماروت وزهرة ،فكل هذا كما قالوا المحققون من العلماء آثار موضوعة واهية أو منقولة من مفتريات اليهود ،فلا التفات إليه. وقد قال الله تعالى فى القرآن: ﴿وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ (البقرة:١٠٢) وذلك؛ لأن الحق سبحانهُ وتعالى أنزلهما امتحانا للعباد. وكانا يزجران الناس عن السحر ،ومن تبرأ من الإيمان علّماه السحر بعد النهي والزجر. فهذا العمل طاعة منهم على وفق أمر الله سبحانهُ لا معصية. وأما إبليس فهو من الجن كما فى القرآن ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ (الكهف:٥٠) وأما استثنائه من الملائكة فى أمر السجدة لآدم عليه السلام كما فى القرآن ﴿فَسَجَدَ الْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ (الحجر:٣٠-٣١) فلأنهُ كان فى صف الملائكة فى باب العبادة ورفعة الدرجة وكان جنيا واحدا مشمولاً فيما بينهم، فصح استثنائهُ منهم تغليباً.

والحاصل أنهُ كان مأمورا مع الملائكة، ، لكن عبّر عن المجموع بالملائكة،؛ لأن التغليب باب شائع فى العرب كالقمرين والعمرين ،أو الاستثناء ليس الاستثناء المتصل، بل المنقطع ،فعلى هذا لايكون المستثنىٰ من قبيل المستثنىٰ منه، ونحن نتكلم إن شاء الله عن الجن فيما بعد.

(٩) وقد قالوا العلماء، (أظن)، من تتبع القرآن والسنة أن الله تعالٰى كلما أعطى ملكا ما الصورة الآدمية كانت هي صورة الرجل ،ولم يُظهره فى صورة المرأة قط.

(١٠) والملائكة يسبحون الله تعالٰى دائما لايشغلهم شيء عن هٰذا ،وفى القرآن ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ (الأنبياء:١٩-٢٠) ومعنى عنده يعنى الملائكة ،وهٰذا علٰى جهة التشريف لهم ،وأنهم بالمكان المكرم، فهو عبارة عن قربهم فى الكرامة لافى المسافة كما قال سبحانهٗ وتعالٰى عن سيدنا جبريل عليه السلام ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ (التكوير:١٩-٢٠) رسول كريم يعنى جبريل عليه السلام نقلا عن الله تعالٰى القرآن إلى سيدنا ونبيّنا محمّد صلى الله تعالٰى عليه وسلم. ﴿عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ (التكوير:٢١) يعنى صاحب قدر ومكان رفيع وشرف عند ذى العرش يعنى الله سبحانهٗ وتعالٰى. فثبت من الآيات السابقة أن الملائكة دائما فى عبادة الله ويسبحونه دائما لايشغلهٗ شيء من التسبيح ؛لأنهم يلهمون التسبيح كما تُلهم النفس ،فكما لايشغلنا شيء عن النفس، وكذٰلك لايشغلهم شيء من التسبيح ،وقد جآء فى الحديث عن أهل الجنة (اللّٰهم اجعلنا منهم ،آمين) أنهم يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس ،فيصيرون بمنزلة الملائكة فى هٰذا الشأن.

(١١) وقد ذكرنا سابقا أن الله عزوجل فقط يعرف عدد الملائكة ،وقد جآء ذكر بعض منهم فى القرآن والسنة ،فالملائكة هم متقررون من عند الله لشؤون مختلفة ،فهم مشغولون فيها ،فبعض منها يكتبون أعمال المكلّفين كما فى القرآن ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (الانفطار:١٠-١٢) ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلٰى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ (الزخرف:٨٠) إن سألتم كيف يعرفون عن الأعمال القلبية؟

قلنا بتوفيق الله تعالٰى : إنهم مطّلعون علٰى هٰذا من عند الله تعالٰى ،وكما ثبت فى الحديث الصحيح أنهم يخاطبون الله ويخاطبهم. وقال رسول الله صلى الله تعالٰى عليه وسلم: "قالت الملائكة: ربّ ذاك عبدك يريد أن يعمل سيّئة وهو أبصر به ،فقال: ارقبوه ،فإن عملها فاكتبوها لهٗ بمثلها ،وإن تركها فاكتبوها لهٗ حسنة. إنما تركها من جرّآئي." (صحيح مسلم، ح: ١٢٩) فكذٰلك إعلام الله إياهم عن الأعمال القلبية لمن عيّنوا عليه لكتابة أعماله. وهم أربعة أملاك لكل مكلّف ،اثنان منهم بالليل ،واثنان بالنهار ،وفى القرآن ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق:١٧-١٨) وقد جآء فى الحديث "كاتب الحسنات علٰى يمين الرجل وكاتب السيئات علٰى يساره ،وكاتب الحسنات أمين علٰى كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة

كتبها صاحب اليمين عشرا ،وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: دعه سبع ساعات لعلهٗ يسبح أو يستغفر." (مسند الروياني، ح: ١٢١٥) وفى الحديث: "يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ." (صحيح البخاري، ح: ٥٥٥) وبعض منها يحفظون الإنسان ،وفى القرآن ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (الرعد:١١) ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ (الأنعام:٦١) وهم أيضًا أربعة أملاك ،اثنان منهم للّيل ،واثنان للنهار يحفظون الإنسان من الوحوش والهوام والجن والأشياء المضرّة بإذن الله وقدرهٖ ، فإذا قُدِّر للإنسان أن يُضرّ ويُوذٰى من هٰذه الأشياء ،فلايستطيعون ردّ ما قدّر الله لهٗ ،فكأنهم خلّوا بينه وبينه.

وبعض منها حملة العرش ،وفى القرآن ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ (الواقعة:١٧) ، وكذٰلك جآء فى الحديث أن الأن العرش فوق ظهور ثمانية أوعال (يعنى أملاك على صورة الأوعال) بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء ،أخرجه أبوداؤد. وقد جآء فى بعض الحديث ،والله أعلم عن صحته عن النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "أن حملة العرش اليوم أربعة ، فإذا كان يوم القيامة أيّدهم الله تعالىٰ بأربع آخرين ،فكانوا ثمانية." (تفسير الماوردي: ج:٦ص:٨٢) وعن ابن عباس رضي اللّٰه عنه فى تفسير الآية ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ (الواقعة:١٧) ثمانية صفوف من الملائكة لايعلم عددهم إلا الله، والله أعلم.

وفى الحديث أخرجهٗ أبوداؤد عن جابر بن عبدالله عن رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "أذن لى أن أحدّث عن ملك من ملائكة الله تعالىٰ من حملة العرش، إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبع مائة عام." (سنن أبى داود، ح:٤٧٢٧) بعض منها خزنة الجنة وبعض منها خزنة النار [1]، وفى القرآن ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (الزمر: ٧١-٧٣) وبعض منها حافين حول العرش ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ [2] حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الزمر:٧٥)

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ (غافر:٧) وبعض منها يطوفون بالبيت المعمور ،وفى الحديث عن الإسراء "ثم رفع لي البيت المعمور ." (وهو فى السماء السابعة) فقلت: ياجبريل ما هٰذا؟ قال: هٰذا البيت المعمور يدخلهٗ كل

---

(١) وبعض منها خزنة السماء ويدل عليه الحديث عن الإسراء والمعراج.

(٢) وترى يعنى يا محمد ترى الملائكة يوم القيامة حافّين من حول العرش.

يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا منه لم يعودوا فيه آخر ما عليهم" (صحيح البخاري، ح:٣٨٨٧) وبعض منها يبلّغون الصلوات والسلام منّا إلى الأنبياء عليهم الصلوات والسلام "إنّ للّٰه ملائكة سيّاحين فى الأرض يبلغونى من أمتى السلام." (سنن النسائي، ح: ١٢٨٢) وبعض منها يأتون فى القبر للأسئلة من الميّت كما ثبت فى الأحاديث الصحيحة "عن أبى هريرة رضي اللّٰه تعالىٰ عنه قال: قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم: إذا أقبر الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان ،يقال لأحدهما منكر ولآخر نكير ." (جامع ترمذى) (ح: ١٠٧١) وبعض منها لهٗ جناحين ،وبعض لهٗ ثلاثة أجنحة ،وبعض لهٗ أربعة أجنحة ،وبعض لهٗ أكثر منها حتىٰ جآء فى الحديث الصحيح أن لجبريل عليه السلام ست مائة جناح ،وجاء فى الحديث ،واللّٰه أعلم عن صحته أن جبريل عليه السلام قال لرسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم: "يا محمدا لو رأيت إسرافيل إن لهٗ لاثنى عشر ألف جناح ،منها جناح بالمشرق وجناح بالمغرب ،وإن العرش لعلىٰ كاهله ،وإنه فى الأحايين ليتضاء ل لعظمة اللّٰه حتىٰ يعود مثل الوصع – والوصع العصفور الصغير – حتىٰ ما يحمل عرش ربّک إلا عظمته ." (كتاب الزهد لابن المبارك، ح:٢٥٥٣) وفى القرآن ﴿اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ فَاطِرِ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ جَاعِلِ الْمَلٰٓئِكَةِ رُسُلًا اُولِيْٓ اَجْنِحَةٍ مَّثْنٰى وَثُلٰثَ وَرُبٰعَ يَزِيْدُ فِى الْخَلْقِ مَا يَشَآءُ اِنَّ اللّٰهَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ﴾ (فاطر: ١) وبعض منها يؤمّنون علىٰ أدعية المسلمين ،وفى الحديث "قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم: إذا أمّن الإمام فأمّنوا، فإنهٗ من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر لهٗ ما تقدم من ذنبه ." (صحيح البخاري، ح:٧٨٠) "دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة. عند رأسه ملك مؤكّل، كلما دعا لأخيه بخير، قال الملک الموكّل به آمين ولک بمثل." وبعض منها ينزلون لمساعدة المسلمين كما حصل فى غزوة البدر وغيره ﴿اِذْ تَقُوْلُ لِلْمُؤْمِنِيْنَ اَلَنْ يَّكْفِيَكُمْ اَنْ يُّمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلٰثَةِ اٰلٰفٍ مِّنَ الْمَلٰٓئِكَةِ مُنْزَلِيْنَ بَلٰٓى اِنْ تَصْبِرُوْا وَتَتَّقُوْا وَيَاْتُوْكُمْ مِّنْ فَوْرِهِمْ هٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ اٰلٰفٍ مِّنَ الْمَلٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِيْنَ﴾ (آل عمران:١٢٤–١٢٥) وبعض منها ينزلون بالعذاب (ونعوذ باللّٰه) كما فى قصة قوم لوط عليه السلام ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ اَيُّهَا الْمُرْسَلُوْنَ قَالُوْٓا اِنَّآ اُرْسِلْنَآ اِلٰى قَوْمٍ مُّجْرِمِيْنَ اِلَّآ اٰلَ لُوْطٍ اِنَّا لَمُنَجُّوْهُمْ اَجْمَعِيْنَ اِلَّا امْرَاَتَهٗ قَدَّرْنَآ اِنَّهَا لَمِنَ الْغٰبِرِيْنَ﴾ (الحجر:٥٧–٦٠) وبعض منها لتعذيب أهل النار وإيقادها ،ويدل عليه حديث الرؤيا للنبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم الذى فيه رأىٰ أنواعا من التعذيب منها للرجل يأخذ القرآن ،فيرفضه وينام عن الصلاة المكتوبة ،فهو الذى يثلغ رأسه الآخر بالحجر وهيره من العذاب ،وهو حديث (صحيح البخاري، ح:٧٠٤٧) فليراجع. ورأىٰ فيه مالكا خازن [1]

(١) والقرآن يقول: إنهم خزنة بالجمع فعلى هذا ،واللّٰه أعلم يكون مالكا أميرهم ،وقد جآء فى القرآن عنه أيضًا، ﴿وَنَادَوْا يٰمٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ اِنَّكُمْ مّٰكِثُوْنَ﴾ (الزخرف:٧٧)

النار ويسعى حولها. وفى القرآن ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ (الحاقة:٣٠-٣٤) ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ (الدخان:٤٧-٤٨) وهؤلاء ملائكة لتعذيب أهل النار أعلاهم تسعة عشر ملكا ،وفى القرآن ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ (المدثر:٣٠) وهم الرؤساء والنقباء ،وهم خزنة جهنم ومالك منهم ،وهو أعلاهم ،وتحت هؤلاء كثيرون من الملائكة ،والله أعلم عن عددهم ،وقد ثبت فى الحديث: "يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرّونها ." (صحيح مسلم، ح: ٢٨٤٢) وبعض منها يكونون فى خدمة أهل الجنة ،فيدخلون عليهم بالهدايا والتحف من عند الله تكرمة لهم. ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (الرعد:٢٣-٢٤) وبعض منها سيّاحون فى الأرض يبحثون عن أقوام الذين يذكرون الله ، ففى الحديث "إن لله ملائكة سيّاحين فى الأرض فضلا عن كتّاب الناس ، فإذا وجدوا أقواما يذكرون الله تنادوا هلمّوا إلى بغيتكم ،فيجيئون ،فيحفون بهم إلى السماء الدنيا...." (سنن الترمذي، ح:٣٦٠٠) وغيرها من الأمور التى ذكرت فى القرآن والسنة.

١٢ : وقد ثبت فى القرآن أن الملائكة هم عباد مكرمون ،لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ،وأنهم دائما فى عبادة الله وتسبيحه ،فمن عرّض بمكانتهم الكريمة فى وجه ما ،فقد كفر بالنصوص القطعية الواردة عنهم ،فصار من الكافرين ،فالتعريض والإهانة والتنقيص بمكانتهم كفر بواح ،وفى القرآن ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾(البقرة:٩٨)

(١٣) فإذا ذكرنا الملائكة فنوسب أن نذكر الجن أيضًا؛ لأن الملائكة كما أنهم مخلوق غيرنا ،فكذا الجن ،وأيضًا قد جآء فى الحديث ذكر تخليقنا وتخليق الجن وتخليق الملائكة ،وهو "خلقت الملائكة من نور ،وخلق الجن من مارج من نار ،وخلق آدم مما وصف لكم." (صحيح مسلم، ح:٢٩٩٦) فالجن ثبوتهم من القرآن والسنة بالقطع ،فمن أنكر وجودهم فقد كفر ،وهم خلق من خلق الله ،وكانوا موجودين قبل خلق الإنسان ، ففى القرآن ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ (الحجر:٢٦-٢٧) ومعنى "نار السموم" كما جاء فى تفسير عن ابن عباس رضي الله عنه "أنها نار لادخان لها" وفى الآية ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ (الرحمن:١٥) مارج:" لهب صاف لادخان فيه" قال الجوهري فى الصحاح : نار لادخان لها خلق منها الجان. وقد جآء فى التفسير عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أن الجن كانوا فى الأرض (قبل خلق

آدم عليه السلام) وقاتلتهم الملائكة (قد يكون بسبب طغيانهم وتمردهم وفسادهم) فسبوا إبليسا صغيرا وتعبد مع الملائكة حتى خوطب معهم بالسجود لآدم عليه السلام ،وقد مرّ ذكر هذا قبلا ، فإبليس ليس أبوالجن، لكن هو منهم ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ (الكهف:٥٠)

(١٣) وهم موجودون الأن ،وهذا لاشك فيه ،والمعلوم أن إبليس من الجن ،وقد أمهل إلى يوم القيامة ليكون امتحاناً للمكلفين ،فهووذريته يوسوسون فى صدور المكلفين الشر والباطل ، ففى القرآن ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ (الحجر:٣٦-٣٨) ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ (الكهف:٥٠) ، فإذا ثبت وجوده وذريته وهم الجآن إلى يوم القيامة ،فثبت أنهم موجودون الأن ، وكذلك فى القرآن ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦) والتعوّذ من شياطين الجن والإنس ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ (الناس:٦) والقرآن لهذه الأمة جميعا ،وهذه الأمّة إلى يوم القيامة ، فإذا أخبرنا فى القرآن أن الجنة مكلفون بالعبادة ،وعلّمنا التعوذ من الشياطين التى تكون من الجنة والناس ،فثبت أنهم موجودون إلى يوم القيامة؛ لأن هذه الأمّة التى كلّفت باتباع القرآن إلى يوم القيامة ، ثم مشاهدات كثيرة تدل بالقطع على وجودهم الأن؛ لأن من الناس الذين قد رأوهم فى أشكال مختلفة وكلّموهم. والجن لايُرون ، ففى القرآن ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ (الأعراف:٢٧) إنه يعنى إبليس وقبيلهٗ يعنى الجن والشياطين .

والمعنى عند العلماء أنهم لايُرون فى الصورة التى خلقهم الله عليها ؛لأنهم أجسام لطيفة ، وهذا لايعنى أنهٗ لاتمكن رؤيتهم فى هذه الصورة؛ لأن كل موجود ممكن رؤيته لو أراد الله ، لكن هذا الكلام على جري العادة أنهم لايُرون فى صورتهم ، لكن الله عزوجل قد أعطاهم الاستطاعة فى أن يتشكلوا بأشكال مختلفة ،ودليل هذا فى القرآن والسنة ، فإذا تشكلوا بالأشكال غير الصورة التى خلقوا عليها ،فلا منع لرؤيتهم فى هذه الحالة مثلاً فى صورة الرجل أو حيّة أو هرة أوكلب. وقد جآء فى القرآن ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الأنفال:٤٨) ففى تفسير هذه الآية أن إبليس جاء فى جند من الشياطين ،ومعه رأيهٗ فى صورة الرجال من بنى مدلج ،والشيطان فى صورة سراقة بن مالك ،فقال الشيطان للمشركين ما فى الآية وهذا فى واقعة بدر. وكذلك جاء فى الحديث أن الكلب الأسود شيطان ، وكذلك جاء فى الحديث أن الحيّات من البيوت لاتقتل حتى تؤذن ثلاثة أيام مخافة أنهم الجان المسلمون. (صحيح مسلم، ح :٢٢٣٦)

(٣) والجن يستطيعون على بعض الأشياء التى لايستطيع عليها الإنسان ،ومنها أنهم يطيرون كما فى القرآن أنهم يستطيعون أن يذهبوا إلى السماء ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيْدًا وَّشُهُبًا﴾ (الجن:٨) ومنها أنهم يقطعون المسافة الطويلة فى مدة يسيرة جدا وأنهم يستطيعون أن يحملوا وينقلوا أجساما ثقيلة جدًا ويدل عليه ما فى القرآن عن العفريت وهو من الجن ﴿قَالَ عِفْرِيْتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيْكَ بِهٖ قَبْلَ أَنْ تَقُوْمَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّيْ عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِيْنٌ﴾ (النمل:٣٩) وهذا عن عرش بلقيس ملكة السبأ كان باليمن وسليمان عليه السلام بالشام ، وكذلك ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيْحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَّرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَّعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهٖ وَمَنْ يَّزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيْرِ يَعْمَلُوْنَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِنْ مَّحَارِيْبَ وَتَمَاثِيْلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُوْرٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوْا آلَ دَاوُوْدَ شُكْرًا وَّقَلِيْلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُوْرُ﴾ (السبأ:١٢-١٣) لكن بالاعتبار المجموعي الإنسان أقوى منهم من نواحي أخرى باعتبار أن الخلافة الأرضية تعطى إلى الإنسان ،فقال الله تعالى عن آدم عليه السلام: ﴿إِنِّيْ جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيْفَةً﴾ (البقرة:٣٠) وباعتبار أن الأنبياء عليهم الصلوات والسلام منهم كما مرّ سابقا وباعتبار القوة الإيمانية والاستعداد لها من حيث نحن نرى ظاهرا أن فى القرآن والسنة يخاطب الإنسان مباشرة والجان ضمنا وتبعاً مرّات مرّات ،وقد ثبت فى الحديث أن الرسول عليه الصلوة والسلام قال:"إن عفريتا الجن جعل يفتك عليّ البارحة ليقطع عليّ الصلاة ، وإن الله امكننى منه فدعته. (صحيح مسلم، ح: ٥٤١) وكذلك ثبت فى الحديث أن أبا أيوب أنصاري رضي الله تعالى عنه قد مكّنه الله على الغول ،وهي من الجن حتى جعلها أسيرا حتى أخبرتها عن آية الكرسي أنهٔ يقرأها لايقربه الشيطان ولاغيره ،وهذا لمّا علمه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يقول لها: "بسم الله أجيبى رسول الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) ، فإذا قال هذا أبوأيوب أنصارى رضي الله عنه عليها أخذها أسيرا. (سنن الترمذي، ح: ٢٨٨٠) وهذا لأنها كانت تأخذ من تمرة التى كانت فى سهوة له. وكذلك ثبت فى الحديث أن الله مكّن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على العفريت الذى أراد أن يقطع عليه صلاته ،فأراد النبي صلى الله عليه وسلم ربطهٔ ،ثم تذكر قول أخيه سليمان عليه السلام "رب اغفرلى وهب لى ملكا لاينبغى لأحد من بعدى" فردّه خاسئا. (صحيح البخاري، ح: ٤٦١) وقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: "والله لو لا دعوة أخى سليمان لأصبح موثقا يلعب به ولدان أهل المدينة." (صحيح مسلم، ح: ٥٤٢) وكذلك تمكين سليمان عليه السلام على الجن من عند الله معروف مشهور كما فى القرآن ،وقد ذكرنا منه ، وكذلك فى القرآن ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيْمِ إِنَّهٗ لَيْسَ لَهٗ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَعَلٰى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ إِنَّمَا سُلْطَانُهٗ عَلَى الَّذِيْنَ يَتَوَلَّوْنَهٗ وَالَّذِيْنَ هُمْ بِهٖ مُشْرِكُوْنَ﴾

(النحل:٩٨-١٠٠) وفى الحديث "إن الشيطان إذا سمع النداء بالصلاة أدبر له ضراط، حتى لايسمع صوته ، فإذا سكت رجع ،فوسوس، ، فإذا سمع الإقامة ذهب حتى لايسمع صوته ، فإذا سكت رجع ،فوسوس ." (صحيح مسلم، ح:٣٨٩) وكل هذا يدل على قوة الإنسان من الاعتبارات المذكورة ،فالإنسان المطيع الذاكر لله تعالى لامجال للشيطان عليه ،وهو اقوى من الجن كما فى القرآن أنه لما عفريت قال لسليمان عليه السلام انهٔ يأتى بعرش بلقيس قبل أن يقوم من مقامه ،قال آصف بن برخيا كما فى التفسير ،وكان مستجاب الدعوة ،وكان يعرف اسم الله الأعظم ﴿قَالَ الَّذِىْ عِنْدَهٗ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيْكَ بِهٖ قَبْلَ أَنْ يَّرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ (النمل:٤٠) فدعا الله تعالى ،فحضر الله العرش. وهذا هو الإنسان يعنى المطيع الذاكر لله تعالى الذى شيطان يفرّ منه ويخافه كما فى الحديث "أن الشيطان ما كان يسلك الطريق يسلك فيه عمر رضي الله تعالى عنه." (صحيح البخاري، ح:٣٦٨٣) ولقد جآء فى الحديث " إن الشيطان يجرى من بنى آدم مجرى الدم ." (صحيح البخاري، ح: ٧١٧١) وهذا لمن يطيعه ويسمعه ،وهذا هو الذى يجد الجن يسيرا سهلا أن يحل فى جسدهٖ ويعيش فيه ،وهذا ثابت لاشك فيه أن الجن بعض الأحيان يدخل فى جسد الإنسان ،ويدل عليه الحديث الذى ذكرنا ،وكذلك الحديث الذى فيه ذُكر أن الرسول عليه الصلوٰة والسلام أخرج بإذن الله الجن الذى كان فى جسد بعض الإنسان. والجن الذى يفعل هذا الشيء لابد من أن يكون شريرا لتقدمه على فعل الحرام ،وهو العيش والسكونة فى جسد الآخر؛ لأنهٗ ظلم عليه ،فهذا الجن لايجد هذا الفعل سهلا إلا لمن لا يذكر الله تعالى ،وأما من يطيعه ويذكره ،فهذا الجن يخاف منه ويفرّ منه ،كما ثبت من الحديث [1] فراره عند الأذان وإضرار الجن الإنسان أيضًا يثبت من الآية ﴿الَّذِيْنَ يَأْكُلُوْنَ الرِّبَا لَا يَقُوْمُوْنَ إِلَّا كَمَا يَقُوْمُ الَّذِىْ يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ (البقرة:٢٧٥) وكل هذا ما ذكرنا حاصلهٗ أن الإنسان باعتبارات التى ذكرنا أفضل وأقوىٰ من الجن بأضعاف كثيرة ، لكن من لايدخل منهم تحت هذه الاعتبارات ،فهو كمثل الشاة الضعيفة أمام الجن والشيطان. ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِىْ أَحْسَنِ تَقْوِيْمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِيْنَ إِلَّا الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَعَمِلُوْا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُوْنٍ﴾ (التين:٤-٦) (٤) قال العلماء: إن الجان عمرهم طويلة جدا حتى يحتوي على قرون ،وأيضا يدل عليه عمر إبليس كما ذكرنا من القرآن وأنهٗ أنظر إلى يوم القيامة.

(٥) وهم ذوو عقول ؛ لأنهم مكلفون ويدل عليه قولهٗ تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُوْنِ﴾ (الذاريات:٥٦) ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّوْنَ عَلَيْكُمْ آيَاتِىْ

---

(١) وفى الحديث "إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم ، فإذا ذكر الله خنس، واذا نسي الله التقم قلبه فوسوس. (شعب الإيمان، ح:٥٣٦) تفسير القرطبي ،والله أعلم عن صحة الحديث .

وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا﴾ (الأنعام: ١٣٠) وقد ذكرنا سابقا أنهم مكلفون باتباع الأنبياء من البشر ولا يكون الأنبياء من أنفسهم، فهم اليوم مكلفون باتباع نبينا صلى الله تعالىٰ عليه وسلم، وفى القرآن ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الأحقاف: ٢٩-٣١)

(٦) وهم أصناف وفرق كمثل الإنسان، منهم كافر، منهم مسلم، منهم مبتدع، منهم فاسق، وفى القرآن ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ (الجن: ١١) ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ (الجن: ١٤-١٥) قال سعيد بن المسيب: معنى الآية "كنا المسلمين ويهود ونصارى ومجوس." قال الحسن "الجن أمثالكم، فمنهم قدرية ومرجئة ورافضة وشيعة."

(٧) وهم يتوالدون ويتناسلون، ففيهم ذكور وفيهم أنثى، وفى القرآن عن الحور ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ (الرحمٰن: ٥٦) وهٰذا دليل أنهم يطمثون وفى القرآن عن إبليس ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ (الكهف: ٥٠) وفى القرآن ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ (الجن: ٦) فثبت أن منهم رجال، وهٰذا يدل أنهم ذكور وأنثى، وهٰذا دليل أنهم يتوالدون ويتناسلون.

(٨) المتمرد الشرير من الجن يقال الشيطٰن، ونحن نعرف أن إبليس هو الشيطان، وكذٰلك ذريته ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ٢٧) والمعلوم أن إبليس من الجن ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ (الكهف: ٥٠) فثبت أن الشرير منهم يقال الشيطان، وكذٰلك الشرير المتمرد من الإنس يقال الشيطان. ﴿وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (الأنعام: ١١٢)

(٩) وهم يأكلون ويشربون، وفى الحديث "لكم (للجن) كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر مايكون لحما، وكل بعرة علف لدوابكم" فقال رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم (يعنى للانسان) فلاتستنجوا بهما، فإنهما طعام إخوانكم الجن." (صحيح مسلم، ح: ٤٥٠) وفى البخاري من حديث أبى هريرةؓ قال: قلت ما بال العظم والروثة؟ فقال صلى الله تعالىٰ عليه وسلم: "هما من طعام الجن، وإنه أتانى وفد جن نصيبين ونعم الجن، فسألونى الزاد، فدعوت الله تعالىٰ ألا

يمروا بعظم ولا روثة إلا وجدوا عليها طعاما ." (صحيح البخاري، ح: ٣٨٦٠) وهذا أيضًا دليل على أن منهم أصحاب رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم؛ لأن هذا الوفد من نصيبين اتبعوا نبينا صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم ،وسمعوا منه القرآن.

(١٠) ومن أفعال الشرك فی الجاهلية قبل الإسلام أن المشركين من الإنس كانوا يعوذون بالجن ،فكانوا يقولون لما ينزلوا فی الغابة أعوذ بعظيم هذا الوادی من الجن. وهذا شرک مع اللّٰه فی السمع والبصر والقدرة؛ لأنهٗ إنما هو الذی يسمع ويریٰ كل شيء ويقدر علىٰ كل شيء ،ولايحتاج الأسباب ،وفی القرآن ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ (الجن:٦) يعنی زاد الجن الإنس خطيئة وإثما ؛لأنهم كانوا سببا لها ،وهذا تفسير ،والتفسير الآخر أن الإنس زادوا الجن طغيانا بهٰذا التعوذ. ولاخفاء أن الاستعاذة بالجن دون الاستعاذة باللّٰه كفر وشرک ،فلايجوز هذا الفعل قطعا وبتاتا.

(١١) والمؤمنون منهم يدخلون الجنة إما بداية أو إما بعد التطهير من ذنوبهم بالعقوبة فی النار، والكافرون منهم يخلدون فی النار ،وفی القرآن ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ (الجن:١٤-١٥) وأما دليل إدخالهم الجنة فهو سورة الرحمٰن ،وهذا خطاب للإنس والجن كما هو ثابت فی التفسير ،وكذٰلک يدل عليه ما فی السورة ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمٰن:٤٦-٤٧) إلى آخر السورة ،وكذٰلک الحديث أخرجه الترمذي ،واللّٰه أعلم عن صحته عن جابر رضي اللّٰه تعالىٰ عنه قال: خرج رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم علىٰ أصحابه ،فقرأ عليهم سورة الرحمٰن من أولها إلى آخرها، فسكتوا فقال: لقد قرأتها على الجن ليلة الجن ،فكانوا أحسن مردودا منكم، كنت كلما أتيت علىٰ قوله ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمٰن:١٦) قالوا: لابشيء من نعمک ربنا نكذب ،فلک الحمد." (سنن الترمذي، ح: ٣٢٩١)

وبغض النظر عن صحة الحديث ما ذكرنا من الآيات ،وكذٰلک التفسير الثابت فيها كلها شاهدة علىٰ أن هذا الخطاب للإنس والجن ،وثم هذا الحديث يؤيده مع ما قلنا عن ثبوته ، فإذا ثبت أن هذا الخطاب للإنس والجن ، فإذا قال اللّٰه تعالىٰ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمٰن:٤٦-٤٧) إلىٰ آخر السورة ،فثبت أن هٰذه النعم للإنس والجن ،وهذا نص صريح ثابت ،لاشک فيه ،فلا إلتفات إلىٰ من يشک فی دخول الجن الجنة مع أنهٗ يعرف بالقطع أن الكافر منهم يخلدون فی النار ،والعاصی منهم قد يدخل فيه للمدة المعينة، فشكه فی دخولهم الجنة مردود باطل يخالف ما أثبتنا من القرآن ،فالحق أن المؤمنون منهم يدخلون الجنة كما الكافرون يدخلون النار

،والعاصى المؤمن قد يدخل النار لتطهير وثم يدخل الجنة ،وهٰذا كلهٗ كمثلنا؛ لأن لما هو ثابت أنهم مكلفون كمثلنا ، فإذا أعطانا اللّٰه الجنة علىٰ طاعتنا وإيماننا ،فهٰذا يثبت أنهم أيضًا هٰكذا فى هٰذا الشان كما أنهم كمثلنا فى التكليف ،وكذٰلك إذا ثبت أن الجن يعذبون بالنار للأبد بسبب الكفر ،وكذٰلك قد يعذبون للمدة بسبب العصيان مع الإسلام ،فهٰذا يثبت أنهم يثابون بالجنة بسبب الطاعة والإيمان.

(١٢) قد ثبت فى القرآن أن الجن كانوا يذهبون إلى قريب السماء الدنيا ويسمعون ما يتكلمون الملائكة بعضهم بعضا فى الأمور ،فيسترقون السمع وثم يوحونه إلى الكهّان ،فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم ، وهٰذه مسئلة نحن نبيّنها إن شاء اللّٰه بالتفصيل ،فأوّلاً نذكر الآيات والأحاديث فى هٰذا الباب ،ثم إن شاء اللّٰه العزيز بتوفيق اللّٰه تعالىٰ نصل إلى الغاية الصحيحة فى الموضوع.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى السَّمَاءِ بُرُوْجًا وَّزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِيْنَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيْمٍ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهٗ شِهَابٌ مُّبِيْنٌ﴾ (الحجر:١٦-١٨)

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِيْنُ وَمَا يَنْبَغِىْ لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيْعُوْنَ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُوْلُوْنَ﴾ (الشعراء:٢١٠-٢١٢)

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِيْنَةِ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ لَا يَسَّمَّعُوْنَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلٰى وَيُقْذَفُوْنَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُوْرًا وَّلَهُمْ عَذَابٌ وَّاصِبٌ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهٗ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ (الصافات:٦-١٠)

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَّسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهٗ شِهَابًا رَّصَدًا وَأَنَّا لَا نَدْرِىْ أَشَرٌّ أُرِيْدَ بِمَنْ فِى الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ (الجن:٩-١٠)

الآيات من سورة الشعراء تثبت أن الشياطين معزولون عن سمع الوحي يعنى الذى يأتى إلى الأنبياء عليهم الصلوات والسلام ، ففى هٰذا الباب هم لايستطيعون سمعا على الإطلاق ،فلا ينبغى لهم ولايستطيعون أن يخطفوا شيئًا من القرآن من قريب السماء ، ﴿لَا يَأْتِيْهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهٖ تَنْزِيْلٌ مِّنْ حَكِيْمٍ حَمِيْدٍ﴾(حم السجدة:٤٢) وكذٰلك جميع الوحي ، فبقيت أمور أخرىٰ غير الوحي ،فهٰذه الأمور الباقية التى فيها هم كانوا يختطفون السمع ،ثم المعلوم أنهم لايستطيعون أن يدخلوا فى السماء الدنيا فضلا عن السمٰوات الأخرىٰ بسبب الباب المغلق عليها كما ثبت فى الحديث عن المعراج ،فلايدخلها واحد بدون إذن ،ولا إذن لهم ،فهم لايدخلون فى السماء، بل كما جآء فى الحديث "أن الملائكة تنزل فى العنان ،وهو السحاب، فتذكر الأمور قضي فى السماء

فتسترق الشياطين السمع فتسمعه، فتوحيه إلى الكهّان، فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم ." (صحيح البخاري، ح:٣٢١٠) وهٰكذا كان الأمر قبل بعثة نبينا صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم كما يدل عليه الآيات من سورة الجن التى ذكرنا أن الجن كانوا يقعدون المقاعد ، لكن بعد بعثة نبينا صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم لو استمعوا يجدوا لهم شهابا رصدا.

وقد جآء فى الحديث "أن الشياطين رجعوا إلى قومهم ،وقالوا: إنهُ حيل بينهم وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب ،فضربوا مشارق الأرض ومغاربها ؛لأنهم ظنوا أنهُ لم يحصل هٰذا إلا بحدث حدث فى الأرض ،فوجدوا بعضهم رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم يصلى بأصحابهٖ صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا ،فقالوا: هٰذا واللّٰه الذى حال بينكم وبين خبر السماء." اخرجه الترمذي عن ابن عباسؓ موقوفا ،وقال حسن صحيح. (ح:٣٣٢٣) فبعد بعثة نبينا صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم حيل بينهم وبين خبر السماء ،وأرسلت عليهم الشهب ،فهم لايستطيعون مطلقا علىٰ استراق السمع من كلام الملائكة بعد بعثة نبينا صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم إلا لو خطف الخطفة ويلقيه إلى صاحبه قبل يحرقه شهاب ثاقب ،وتدل عليه الآيات من سورة الحجر وسورة الصافات التى ذكرنا ،وكذٰلك بيانه فى الحديث ، ففى صحيح البخاري "إذا قضى اللّٰه الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كالسلسلة [1] علىٰ صفوان ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ما ذا قال ربكم؟ قالوا للذى قال الحق ،وهو العلى الكبير. فيسمعها مسترقوا السمع ومسترقوا السمع هٰكذا واحد فوق آخر ،فربّما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمي بها إلى صاحبهٖ فيحرقه، وربّما لم يدركه حتىٰ يرمي بها إلى الذى يليه إلى الذى هو أسفل منه حتىٰ يلقوها إلى الأرض، فتُلقىٰ علىٰ فم الساحر ،فيكذب معها مائة كذبة" فيصدق (يعنى فيما عدا مائة كذبة) فيقولون: ألم يخبرنا يوم كذا وكذا ،يكون كذا وكذا؟ فوجدناه حقا للكلمة التى سمعت من السماء." (ح: ٤٧٠١) وفى صحيح مسلم أن عبداللّٰه بن عباس رضي اللّٰه تعالىٰ عنه قال: أخبرنى رجل من أصحاب النبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم من الأنصار أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم رُمِي بنجم فاستنار ، فقال لهم رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم: "ما ذا كنتم تقولون فى الجاهلية إذ رمي بمثل هٰذا؟ " قالوا: اللّٰه ورسولهُ أعلم، كنا نقول ولد الليلة رجل عظيم ، ومات رجل عظيم، فقال رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم " فإنها لايرمى بها لموت أحد ولا لحياته، و، لكن ربّنا تبارك وتعالىٰ اسمه إذا قضى [2] أمراً سبّح حملة العرش، ثم سبّح أهل السماء الذين يلونهم، حتىٰ يبلغ التسبيح

---

(١) "كالسلسلة على صفوان" راجعة إلى ضرب الملائكة بأجنحتها .

(٢) معنى "قضى أمرا "إعلامه للملائكة؛ لأن القضاء والقدر فهو من الأزل من علم اللّٰه وإرادتهٖ .

أهل هٰذه السماء الدنيا، ثم قال الذين يلون لحملة العرش: ماذا قال ربّكم؟ فيخبرونهم ما ذا قال، قال: فيستخبر بعض أهل السمٰوات بعضا، حتٰى يبلغ الخبر هٰذه السماء الدنيا ،فتخطف الجن السمع ،فيقذفون إلٰى أولياء هم. ويرمون به، فما جاء وا به علٰى وجهه فهو حق ولٰكنهم يقرفون فيه ويزيدون." (ح: ٢٢٢٩) والمعنى "ما ذا كنتم تقولون فى الجاهلية إذا رمي بمثل هٰذا؟ ليس الزمان قبل بعثة النبي صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم؛ لأنهٗ علٰى هٰذا المعنى يؤدى إلى رمي النجوم إلى الشياطين قبل بعثة النبي صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم ،وهٰذا يخالف ما ذكرنا من سورة الجن وتفسيره بحديث حسن صحيح عن ابن عباس رضي اللّٰه تعالٰى عنه الذى هو راوى لهٰذا الحديث من صحيح مسلم أيضًا ،وكذٰلك ثبت عن ابن عباس رضي اللّٰه تعالٰى عنه موقوفا فى حديث آخر سوا هٰذين الحديثين أنهٗ لم تكن النجوم يرمى بها قبل بعثة النبي صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم. وهٰذا الحديث أيضًا أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح(ح: ٣٣٢٤) ، لٰكن فى هٰذا الحديث نظر دراية ، لكن هو فى الأمر الآخر الذى فى الحديث[1] ،فنحن ذكرناهٰذه الحصّة منه للتأييد وإلا ما ذكرنا هو ثابت بدون تأييد من هٰذا الحديث أيضًا وهو ما ذكرناه من سورة الجن وتفسيره، فمعنى الجاهلية فى الحديث ليس الزمان قبل بعثة النبي صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم، بل الزمان قبل إسلام هٰؤلاء الصحابة رضي اللّٰه تعالٰى عنهم ،فعلٰى هٰذا "ما ذا كنتم تقولون فى الجاهلية." يعنى ما ذا كنتم تقولون قبل أن تسلموا إذ رمي بمثل هٰذا (النجم) فعلٰى هٰذا لايلزم كونه قبل بعثة النبي صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم، بل يكون بعدها ، لكن قبل إسلام هٰؤلاء الصحابة رضي اللّٰه تعالٰى عنهم المخاطبين. ويمكن أن يقال: إنهٗ ليس المعنى الأظهر للحديث قلنا بتوفيق اللّٰه إن شاء اللّٰه العزيز: إنهٗ نعم! لكن يتحملهٗ ألفاظ الحديث ويحتاج إلى هٰذا التأويل حتٰى لايخالف ظاهر القرآن فى سورة الجن وروايات أخرى صحيحة موقوفة من نفس الراوى يعنى عبداللّٰه بن عباس رضي اللّٰه تعالٰى عنه.

ثم هٰذا الحديث مع الحديث الذى أخرجه مسلم أيضًا عن عائشة رضي اللّٰه تعالٰى عنها أنها قالت: سأل أناس رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم عن الكهّان؟ فقال لهم رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم: "ليسوا بشيء" قالوا: يارسول اللّٰه! فانهم يحدثون أحيانا الشيء يكون حقا، قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم: "تلك الكلمة من الجن يخطفها الجنيّ، فيقرها فى أذن وليه قرّ الدجاجة، فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة ." (ح:٢٢٢٨) ومع الحديث عن البخاري الذى ذكرنا يدل أن الجن حتٰى بعد بعثة النبي صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم لما حيل بينهم وبين خبر السماء وأرسلت إليهم الشهب ،هوفى بعض الأحيان يفوز علٰى خطف الكلمة ويلقيه إلى صاحبه قبل يحرقه

(١) لكن فى هٰذا الحديث نظر دراية ،لكن هٰذا لايناقض ما ذكرنا من سورة الجن وتفسيره.

الشهاب ،وهذه الكلمة تبلغ الأرض إلى الكهّان. وهذا كما أثبتنا سابقا كلام من غير الوحي من الأمور الاخرى الكائنة فى الأرض.

فحاصل الكلام أن الجن قبل بعثة النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم كانوا يذهبون إلى السماء يعنى إلى الجهة العلو حتىٰ يقرب من العنان يعنى السحاب والملائكة بعد ما علموا من أخبار معيّنة عن الأمور الكائنة فى الأرض فى السماء لما ينزلون فى العنان ويذكرون هذه الأمور، فالجن كانوا يقعدون مقاعد السمع فيسترقونه حتىٰ علموا بعض هذه الأخبار وثم كانوا ينزلون إلى الكهّان، ويلقون إليهم هذه الأخبار مع كذبة كثيرة كما جاء عن ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنه [1] بسند صحيح " لإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعا، فأما الكلمة فتكون حقا، وأما ما زاد فيكون باطلا ." (سنن الترمذي، ح:٣٣٢٤) ثم الكهّان يخبرون الناس مع مائة كذبة من أنفسهم كما ذكرنا من الحديث من البخاري.

ثم بعد بعثة النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم هم صاروا كما فى القرآن ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ (الصافات:٦-١٠) فحيل بينهم وبين خبر السماء ،فلايستطيعون السمع إلا من خطف الخطفة منهم (قبل أن يحرقه الشهاب) ويلقيه إلى صاحبه قبل أن يحرقه الشهاب ،ويدل عليه ما ذكرنا من الأحاديث ،وهذه كلمة ثم تبلغ الأرض مع الكذب من الجنّ والكهّان، وهذا هو ما سنح لى بعد ملاحظة الآيات القرآنية والأحاديث الواردة فى هذا الشان. والله أعلم ،ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

ثم اعلم أن الله تعالىٰ يقول فى سورة الملك :﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ (الملك:٥) ففى تفسير القرطبي لهذه الآية: مصابيح جمع مصباح وهو السراج ،وتسمّى الكواكب مصابيح لإضاءتها وجعلناها رجوما أي جعلنا شهبها، فحذف المضاف، دليله ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ (الصافات:١٠) وعلىٰ هذا فالمصابيح لاتزول ولايرجم بها (يعنى لاترجم بعينها بتمامها، بل الشهب منها يرجم بها) انتهى كلام القرطبي. ثم لو تسأل ولماذا لم يُمنع الجن مطلقا علىٰ وجه حتىٰ لايستطيع علىٰ خطف الكلمة أيضا، بل كما هم معزولون عن استماع الوحي ،فصاروا معزولون عن استماع أي شيء من أخبار السماء.

فالجواب بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز أن الله لايسأل عما يفعل وهم يسألون، وكل شيء يفعلهُ هو الحكيم فيه؛ لأنهُ الحكيم على الإطلاق وبعد ذٰلك التمهيد نقول عما نرىٰ ونفهم من بعض الحكم فى إبقاء هذا القدر من الاستماع ،وهو امتحان لنا فى عدم إتيان الكهانة ،وكذٰلك

(١) هذا نفس الحديث الذى ذكرنا الذى أخرجه الترمذي بوعنه قلنا إن فيه نظرا باعتبار الدراية لبعض الأمور المذكورة فيها.

اعتقادنا الجازم أنهُ لايعرف الغيب إلا اللّٰه تعالىٰ. فاعلم أن إتيان الكهّان حرام لحديث الصريح "فلا تأتوا الكهّان" وكذٰلک "من أتى عرّافا فسألهُ عن شيء لم تقبل لهُ صلاة أربعين ليلة." (صحيح مسلم، ح: ٢٢٣٠) وكذٰلک تصديقهم حرام؛ لأنهُ التصديق للكذب لما ذكرنا من الأحاديث أنهم يزيدون ويقرفون ،فجلّة أخبارهم الكذب. ولايُعرف الكذب من الكلمة التى خطفها الجني وتلقيها إليه ،فكيف يتمكن بتصديقهٖ ،فلايجوز.

ثم اعلم أن الكاهن يخبر عن الأخبار ،ووقع بعضها كما أخبر عنها ،فلو واحد قال: إن هٰذا الكاهن علم هٰذا الخبر بواسطة الجن الذين تلقوه بعضهم من بعض بسبب الخطفة من أخبار السماء ،فعلىٰ هٰذا هو صحيح كما جآء فى الأحاديث والقرآن ، لكن لو واحد قال: إن هٰذا الكاهن علم هٰذا الخبر؛ لأنهُ يعرف الغيب فقد كفر قائل هٰذا القول ،وكذٰلک لو قال: إن هٰذا الكاهن يعرف بعض أخبار الغيب ، لكن بدون السبب والواسطة والوسيلة فقد كفر قائل هٰذا القول؛ لأنهُ اعتقد أن الكاهن يقدر على الاطلاع على بعض الغيب بدون الأسباب ،وهٰذا لايليق إلا باللّٰه تعالىٰ؛ لأنهُ هو الذى يعلم الغيب ويعلم كل شيء أزليا ،ولايحتاج إلى الأسباب. وكذٰلک الشأن فى الكاهن لو ادعى علم الغيب أو الاستطاعة على الاطلاع علىٰ أخبار الغيب بدون الأسباب فقد كفر ، لكن لو قال: إن الجن يخبرونه بأشياء التى تختطف من السماء ،فعلىٰ هٰذا لاشک أنهُ جرام؛ لأنهُ مشارک مع الجن فى فعلهم الخبيث من استراق الكلمة بالخطفة ،ولاشک هٰذا حرام. وفى الحديث "من استمع إلى قوم وهم يكرهون صُب فى أُذنه الأنک يوم القيامة.(سنن الدارمى، ح: ٢٧٥٠) وثم لأنهُ يوقع الناس فى الخطر للاحتمال أن بعض الناس يضلون بسبب أخباره ،فيكفرون بالاعتقاد أنهُ يعلم الغيب وهٰذا لو لا يقصد هٰذا الشيء نفسه وإلا لو يقصد هو نفسه أن الناس يضلون ويكفرون بسبب العقيدة عن علمه الغيب ،فلا شک ثم أن هٰذا الكاهن يكفر؛ لأنهُ رضي وقصد كفر الآخرين. ولو لايقصده بنفسه ،فلا شک أن فعلهُ حرام لما ذكرنا من الأسباب ،وهو المشاركة فى عمل الحرام وإيقاع الناس فى الكفر والضلال بدون القصد (وبالقصد يكون كفراً كما ذكرنا) ففى هٰذا الحالة يعنى بدون القصد للكفر والضلال للآخرين وبدون اعتقاد علم الغيب لنفسهٖ أو للجن الذين يخبرونه هٰذه الأخبار يكون فعلهُ حراما لما ذكرنا ،وأما الكفر فواللّٰه أعلم ،فنفوّض هٰذا إلى العلماء. ثم لو هٰذا الكاهن يفعل أشياء من الشرک الجلي أو غيره من الكفر ليُفرح وليرضى الشياطين حتىٰ يأتون إليه بالأخبار المخطفة من السماء ،فلاشک فى هٰذه الصورة فى كفر هٰذا الكاهن بسبب الشرک الجلي أو غيره من الكفر الذى فعلهُ هو نفسه.

واعلم أنهُ لايعلم الغيب إلا اللّٰه ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾(الأنعام:٥٩) ﴿قُل لَّا

يَعْلَمُ مَن فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللّٰهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (النمل:٦٥) وهذا إن شاء الله العزيز تتمة بيان الجن والحمد لله، والله يهدي من يشآء إلى صراط مستقيم.

الكتب المنزلة

والشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالىٰ ذكر الكتب المنزلة وهي من أركان الإيمان كما ذكرنا من حديث جبريل عليه الصلوٰة والسلام. والله سبحانهٗ وتعالىٰ أنزل الكتب علىٰ أنبيائه عليهم الصلوات والسلام وبيّن فيها أمره ونهيه ووعده ووعيده، وكذٰلك ذكر فيها أخبار كثيرة تتعلق بهداية الناس، وقد جآء في بعض الروايات عددها، فذكر أبو معين النسفي في عقائده نزل علىٰ شيث بن آدم خمسون صحيفة وعلىٰ إدريس ثلاثون، وعلىٰ إبراهيم عشرا، وعلىٰ موسىٰ قبل غرق فرعون عشرا، ثم أنزل عليه التوراة، وعلىٰ عيسىٰ الإنجيل وعلىٰ داود الزبور، وعلىٰ نبينا صلى الله تعالىٰ عليه وسلم الفرقان، وذكر بعضهم علىٰ آدم عشرا بدل عشر موسىٰ، وقال وهب بن منبه علىٰ إبراهيم عشرين، ولم يذكر عشر موسىٰ، وعدد الكتاب على الروايات مائة أربع، و لكن الأفضل أن لايحصر العدد، كما في الأنبياء؛ لأن هٰذه الروايات ليس لها سند قوي، انتهى.

قلت: هٰذا ليس فقط أفضل، بل هٰذا هو واجب أن لايحصر العدد؛ لأن الروايات ليست قوية، ونحن نحتاج في مثل هٰذا إلى الدليل القطعي، وهو المفقود حتىٰ لايوجد الدليل الظني الصحيح القابل للاعتبار بسبب عدم قوة الروايات والتناقض فيها أيضًا كما ترىٰ بعضهم يقولون إن عشرا منها لموسىٰ سوى التوراة، وبعضهم قالوا لآدم بدل موسىٰ، وبعضهم قالوا لإبراهيم عشرين، ولم يذكروا عشر موسىٰ، والعقائد لاتبنىٰ بمثل هٰذا، فالواجب غير حصر في العدد، فما ثبت بالدليل القطعي نؤمن بها بالقطع، وما عدا ذٰلك فنقول أننا نحن نؤمن بجميع الكتب والصحف المنزلة من عند الله على الأنبياء بدون حصر عدد الكتب والصحف وبدون حصر عدد الأنبياء التي أنزلت عليهم الكتب والصحف. وإنكار [1] واحد من الكتب المنزلة والصحف المنزلة التي ثبت بالدليل القطعي بالتعيين كفر، وكذٰلك إنكار واحد من جميع الكتب المنزلة والصحف المنزلة إجماليا كفر أيضًا كما يقول واحد أنهٗ لايؤمن واحدا من جملة الكتب المنزلة والصحف المنزلة فقد كفر، ولو يؤمن بجميع ما ذُكرت في النصوص بالتعيين؛ لأنهٗ أنكر بعض كلام الله المنزلة وهو كفر. فاعلم أن جميع الكتب المنزلة والصحف المنزلة كلام الله تعالىٰ وقد فصّلنا في كلام الله تعالىٰ سابقا فهي يعني الكتب

---

(١) ﴿يٰأَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا اٰمِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُوْلِهٖ وَالْكِتٰبِ الَّذِيْ نَزَّلَ عَلٰى رَسُوْلِهٖ وَالْكِتٰبِ الَّذِيْ أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَّكْفُرْ بِاللّٰهِ وَمَلٰٓئِكَتِهٖ وَكُتُبِهٖ وَرُسُلِهٖ وَالْيَوْمِ الْاٰخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلٰلًا بَعِيْدًا﴾ (النساء:١٣٦)

المنزلة والصحف المنزلة كلام الله اللفظي دال على كلام الله النفسي ،والكلام النفسي لله تعالى صفة لهٗ ،وهو قديم وهو واحد كما علمه واحد ،وإرادته واحدة ،فكذٰلك كلامه؛ لأنهٗ صفة قديمة قائمة بهٖ ،ولا تعدد في صفة الكلام وهٰذا معلوم؛ لأنهٗ صفة واحدة ،وقد قال الله تعالى في القرآن: ﴿يٰمُوسٰى إِنِّيْ اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسٰلٰتِيْ وَبِكَلَامِيْ﴾ (الأعراف:١٤٤) ﴿أَفَتَطْمَعُوْنَ أَنْ يُؤْمِنُوْا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيْقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُوْنَ كَلَامَ اللّٰهِ ثُمَّ يُحَرِّفُوْنَهٗ [1] مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوْهُ وَهُمْ يَعْلَمُوْنَ﴾ (البقرة:٧٥) ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِيْنَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتّٰى يَسْمَعَ كَلَامَ اللّٰهِ﴾ [2] (التوبة:٦)

فبحيث أنهٗ كلام الله النفسي أنهٗ واحد؛ لأنهٗ قديم كلهٗ ،ولا تقدم فيه ولا تأخر ،فكيف يكون فيه التعدد من حيث هٰذا؟ فالكلام النفسي هو واحد ،والتعدد والتفاوت إنما هو في الكلام اللفظي.

واعلم أيضًا أن الكتب المنزلة والصحف المنزلة كلام الله لفظاً ومعنىً ،وما سوىٰ ذٰلك من الوحي من الأحاديث فهو كلام الله معنى ،وليس لفظا إلا الأحاديث القدسية ،فإنها لفظاً ومعنى من الله تعالى؛ لأن نسبته إلى الله تعالى مباشرة.

(٣) الله تبارك وتعالى نزّل القرآن على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿هُوَ الَّذِيْ أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ (آل عمران:٧) ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هٰذَا الْقُرْآنَ﴾ (يوسف:٣) ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهٗ عَلَى النَّاسِ عَلٰى مُكْثٍ وَّنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيْلاً﴾ (بني إسرائيل:١٠٦) وأنزل التوراة على موسى عليه السلام ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيْهَا هُدًى وَّنُوْرٌ﴾ (المائدة:٤٤) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوْسَى الْكِتَابَ﴾ (هود:١١٠)

وفي الحديث الصحيح قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لواحد من اليهود "انشدك بالله الذى أنزل التوراة على موسى." (صحيح مسلم، ح: ٢٧٠٠) وأنزل الزبور على داؤد عليه السلام ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوْرًا﴾ (النساء:١٦٣) وأنزل الإنجيل على عيسى عليه السلام ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيْلَ﴾ (الحديد:٢٧) وذكر صحف موسى وإبراهيم عليهما السلام في القرآن التى أعطاهما الله تعالى ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيْمَ وَمُوْسٰى﴾ (الأعلى:١٩) وذكر في القرآن (الوحي) ﴿قُوْلُوْا آمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلٰى إِبْرَاهِيْمَ وَإِسْمَاعِيْلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوْبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوْتِيَ مُوْسٰى وَعِيْسٰى وَمَا أُوْتِيَ النَّبِيُّوْنَ مِنْ رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهٗ مُسْلِمُوْنَ﴾ (البقرة:١٣٦) فجميع الأنبياء قد أوحي إليهم ،وهٰذا معلوم بالضرورة وتدل عليه الآية أيضًا وهٰذا وما ذكرنا فوقا من الكتب والصحف كلها معلوم بالقطع ،فنحن نؤمن بكلها ،ومن جحد شيئاً من هٰذا فقد كفر. فالكتب

---

(١) يعنى التوراة ،كذا فى التفسير.

(٢) يعنى القرآن

والصحف لفظاً ومعنىً من عند الله فيبلغها الأنبياء كما جاء ت إليهم ،والوحي مما عدا ذلك ممكن أن يبلغه الأنبياء في ألفاظهم كما ذكرنا سابقا عن الأحاديث.

(٣) والكتب السابقة والصحف السابقة وكذلك ما عداها من الوحي السابق قبل القرآن كلها صادقة معتبرة من عند الله حينما جاء ت إلى الأنبياء عليهم الصلوات والسلام ،وهذا ظاهر لاخفاء فيه ،وفي القرآن ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾(الجن:٢٦-٢٨) فهذه كلها محفوظة لما جاء ت إلى الأنبياء عليهم الصلوات والسلام، لكن الناس بعد النبي الذي أوحي إليه حرّفوا وحيه وكتابهُ ،فمثلاً اليهود حرّفوا التوراة بعد سيدنا موسى عليه الصلوة والسلام ،والنصارىٰ حرّفوا الإنجيل بعد سيدنا عيسى عليه السلام ،وكذلك الزبور وغيرها من (الكتب والصحف) الوحي حرّفوا كلها اليهود والنصارىٰ (وغيرهم من الأمم) .

فجميع الكتب السابقة والصحف والوحي إما أن تكون محرّفة أو معدومة إلا ما ذكر الله سبحانهٗ وتعالىٰ ورسولهٗ صلى الله عليه وسلم في القرآن والحديث ناقلا عنها كما في القرآن ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء:١٠٥) ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ.....﴾ (النجم:٣٦-٣٨...) وهذا كل ما ذكرنا ثابت من القرآن والسنة ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران:٧٨) ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(البقرة:٧٥) ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ (المائدة:١٣) ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ[1] أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾(النساء:١٧١)[2] واليهود قد أعطاهم الله التوراة بيد موسىٰ عليه السلام فهم حرّفوا فيها؛ لأن كثيرا منهم كانوا أخبث الناس ، والله سبحانهٗ وتعالىٰ أرسل نبيّا كثيرا منهم بعد موسىٰ عليه السلام لإصلاحهم ،وهذه الأنبياء كما هو الظاهر كانوا يوبّخونهم علىٰ تحريفهم كلام الله مع غيره من الأشياء ،فهؤلاء اليهود في غاية خباثتهم وكفرهم اجترء وا علىٰ قتلهم. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾(البقرة:٨٧) وفي

---

(١) يعني خلق من كلمة "كن" ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾(آل عمران:٥٩)

(٢) يعني روح منه خلقا وملكا. ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾(الجاثية:١٣) أي خلقا وملكاً.

الأخير اللّٰه عزوجل أرسل إليهم سيدنا عيسىٰ عليه السلام كما فى القرآن عنه ﴿وَرَسُوْلاً إِلٰى بَنِيْ إِسْرَائِيْلَ﴾ (آل عمران:٤٩) فهم أرادوا قتلهٗ أيضًا ، لكن اللّٰه سبحانهٗ وتعالىٰ رفعهٗ إليه وحفظهٗ منهم ﴿وَمَا قَتَلُوْهُ وَمَا صَلَبُوْهُ وَلٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِيْنَ اخْتَلَفُوْا فِيْهِ لَفِيْ شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهٖ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوْهُ يَقِيْنًا بَلْ رَّفَعَهُ اللّٰهُ إِلَيْهِ﴾(النساء:١٥٧-١٥٨) وثم هو يعنى سيدنا عيسىٰ عليه السلام ينزل من السماء فى آخر الزمان ويتبع شريعة نبينا ﷺ ويكون أمير المسلمين فيقاتل و يقاتل المسلمون معهٗ ضد الدجال وأتباعه ،وهٰذا كلهٗ ثابت فى الأحاديث المشهورة.

فاليهود أرادوا قتلهٗ ، لكن بعض منه اٰمنوا بعيسىٰ عليه السلام ،وكذٰلک كثير من غير اليهود اٰمنوا بعيسىٰ عليه السلام ، لكن قليل منهم اٰمنوا بهٖ كما هو يعنى نبي اللّٰه ورسوله وعبده والباقى حرّفوا الكتاب الذى أعطيه ،وزعموا أنهٗ هو اللّٰه وابنه ،ونعوذ باللّٰه من ذٰلک حتىٰ لايبقى من التوراة ولا الإنجيل ولا الزبور ولا الوحي الأخرىٰ والصحف الأخرى إلا أن يكون محرّفا أو معدوما بالكلية ،وهٰكذا كان حتىٰ أرسل اللّٰه إمام الأنبياء وسيد العالم وخير الخلق والسراج المنير وخاتم النبين وحبيبه المجتبىٰ المصطفىٰ سيدنا محمد صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم وأعطاه النور المبين والكتاب الحكيم والحجة القاطعة والفرقان بين الحق والباطل وهو القرآن الكريم ،ووعد اللّٰه أنهٗ هو حافظه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهٗ لَحَافِظُوْنَ﴾(الحجر:٩) ﴿وَإِنَّهٗ لَكِتَابٌ عَزِيْزٌ لَا يَأْتِيْهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهٖ تَنْزِيْلٌ مِّنْ حَكِيْمٍ حَمِيْدٍ﴾ (حم السجدة:٤١-٤٢)وإذا وعد أنهٗ حافظه ولايمكن حفظه إلا أن يحفظ تفسيره وتأويلهٗ ومعانيه ،وهٰذهٖ كلها فى الأحاديث ،وكذٰلک فى حفظ اللغة العربية التى فيها أنزل القرآن ،فثبت أن اللّٰه عزوجل يحفظ القرآن والسنة واللغة العربية نفسه والتاريخ شاهد ،والحمد للّٰه أن القرآن كلهٗ متواتر جيلا بعد جيل ،ويكون هٰكذا إلى يوم القيامة [1] وكذٰلک نحن نتمكن الحمد للّٰه أن نعرف الأحاديث الصحيحة من الضعيفة ومن الموضوعة ،وكذٰلک الآحاد من المتواترة ،وكذٰلک اللغة العربية محفوظة حتىٰ نتمكن أن نعرف معنى الكلمات القديمة والحديثة بطريقة إحاطة معانيها ،وهٰذهٖ كلها من حفاظة القرآن ،واللّٰه عزوجل لم يعد للكتب السابقة والصحف وغيرها من الوحي هٰكذا لحفظها كما فعل للقرآن، بل الأمم التى أعطيت هٰذه الكتب والصحف

---

(١) ولقد جاء فى الحديث عن حذيفة رضي اللّٰه تعالى عنه قال: قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالى عليه وسلم "يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب۔ حتى لايدرى ما صيام ولا صلاة ولانسك ولا صدقة۔ وليسرى على كتاب اللّٰه، عزوجل فى ليلة فلايبقى فى الأرض منه اية۔ وتبقى طوائف من الناس ، الشيخ الكبير والعجوز۔ يقولون: أدركنا اباء نا على هٰذه الكلمة : لا إله إلا اللّٰه فنحن نقولها۔ فقال لهٗ صلة: ما تغنى عنهم لاإله إلا اللّٰه، وهم لايدرون ما صلاة ولاصيام ولا نسك ولا صدقة؟ فاعرض عنه حذيفة ثم ردّها عليه ثلاثا۔ كل ذٰلك يُعرض عنه حذيفة۔ ثم أقبل عليه فى الثالثة۔ فقال "ياصلة: تنجيهم من النار ثلاثا" أخرجه ابن ماجة۔ (ح:٤٠٤٩)

وغيرها من الوحي أعطوا هذه العهدة لحفظها يعنى الأحبار والربانيون منهم ،وهم خسروا فى هذه العهدة حتى يكونوا هم الذين حرّفوا كتاب الله. ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ (المائدة:٤٤)

(٤) الله عزوجل أنزل الكتب السابقة والصحف فى لسان الذين أعطوها ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ (ابراهيم:٤) فأنزل القرآن فى اللغة العربية؛ لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان عربيًّا وأوّل من خاطبهم كانوا عربيًّا ، لكن الرسول عليه الصلوٰة والسلام أرسل إلى العالمين الجن والإنس كافة ،فكذٰلك القرآن ، لكن نزل باللغة العربية على حسب من نزل عليه عليه الصلوٰة والسلام وأوّل مخاطبيه ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف:٢) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (سبا:٢٨) ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ (حم سجدة:٤٤)

يعنى لقالوا أقرآن عجمي والرسول عربي؟ هٰذا لاينبغى.

(٥) الله عزوجل ذكر أسماء كثيرة حميدة للقرآن فى القرآن مثلا ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ (البروج:٢١) ﴿يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ (يس:١-٢) ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ (الواقعة:٧٧) ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (يوسف:١) ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف:٢) ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ (الفرقان:١) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (النساء:١٧٤) ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء:٨٢) ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة:٢) ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (الحاقة:٤٨) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (يوسف:١٠٤)

(٦) القرآن كما ذكرنا ، وكذٰلك جميع الكتب والصحف لفظا ومعنى كلام الله ،وثم ذكرنا سابقًا فى كلام الله تعالى عن الكلام النفسي والكلام اللفظي ،وذكرنا أن الكلام النفسي يحتوى على اللفظ والمعنى ، لٰكن بطريقة كلام النفس ،وهٰذا هو صفة الله قديمة والكلام اللفظي وهو العبارات المنظومة المنزلة من عند الله الدالة على كلامه النفسي وهو الحادث ،وليس صفته القائمة به،والقرآن كما ذكرنا أنهٗ فى اللغة العربية ،فتلاوته تعبديا لاتكون إلا بالعربية. وكذٰلك فى الصلاة لايجوز إلا بالعربية ،وكذٰلك لاتجوز كتابة ترجمة معانيه فى اللغة الأخرىٰ بدون القرآن الذى هو عربيّ.

قال فى شرح الفقه الأكبر: وقال لو قرأ بغير العربية فإما أن يكون مجنونا فيداوى أو زنديقا

فيقتل؛ لأن اللّٰه تكلم بهٰذه اللغة : يعنى أنزل فى هٰذه اللغة ،فيكون كلامه اللفظي فى هٰذه اللغة ،وكذٰلک كلامه النفسي يتضمن الكلام اللفظي ، لكن بطريقة كلام النفس لا بطريقة العبارات المنظومة التى لاتكون إلا حادثة بطبيعتها ، وقد مرّ سابقا. وفى فتح القدير : أما لو اعتاد قراءة القرآن أو كتابة المصحف بالفارسية يمنع منه أشد المنع، لأن القرآن ليس إلا بالعربية

(٧) والقرآن الكريم فى المصحف ليس مرتبا على الترتيب الذى نزل فيه؛ لأن أوّل ما جاء من القرآن ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّکَ الَّذِیْ خَلَقَ﴾ (علق:١) وهو فى المصحف فى الجزء الثلاثين ، لكن الترتيب الذى فى المصحف توقيفي بلاشک يعنى هو علىٰ إرشاد رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم وفى القرآن ﴿لاَتُحَرِّکْ بِهٖ لِسَانَکَ لِتَعْجَلَ بِهٖ اِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهٗ وَ قُرْاٰنَهٗ فَاِذَا قَرَاْنٰهُ فَاتَّبِعْ قُرْاٰنَهٗ ثُمَّ اِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهٗ﴾ (القيامة:١٦-١٩) وفى الحديث عن ابن عباس رضي اللّٰه تعالىٰ عنه قال: قلت لعثمان بن عفّان : ما حملكم أن عمدتم إلى "الأنفال" وهي من المثانى. وإلى "براءة" وهي من المئين، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر "بسم اللّٰه الرحمٰن الرحيم." ووضعتموها فى السبع الطوال، ما حملكم علىٰ ذٰلک؟ فقال عثمان: كان رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم مما يأتى عليه زمان وهو يُنزل عليه السُوَر ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب، فيقول: ضعوا هٰؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا، ، فإذا نزلت عليه الآية فيقول: ضعوا هٰذه الآية فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا. وكانت الأنفال من أوائل ما نزلت بالمدينة. وكانت براءة من آخر القرآن، وكانت قصتها شبيها بقصتها، فظننت أنها منها، فقبض رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذٰلک قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر بسم اللّٰه الرحمٰن الرحيم، ووضعتهما فى السبع الطوال(سنن الترمذي، ح:٣٠٨٦) وفى القرآن ﴿بَلْ هُوَ قُرْاٰنٌ مَّجِيْدٌ فِیْ لَوْحٍ مَّحْفُوْظٍ﴾ (البروج:٢١-٢٢) وقد ذكرنا سابقا أن اللّٰه عزوجل وعد بحفظ القرآن وهو لايمكن إلا أن يحفظ تأليفه وترتيبه كما هو المثبت فى اللوح المحفوظ ،فالمصحف الذى عندنا فهو على التأليف والنظم المثبت فى اللوح المحفوظ ، وهٰذا ظاهر لاشک فيه ولاخفاء؛ لأنهٗ من حفاظة القرآن، ثم الآية التى ذكرنا من سورة القيامة ﴿اِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهٗ وَقُرْاٰنَهٗ﴾ (القيامة:١٧) ولو فسّره ابن عباس رضي اللّٰه تعالىٰ عنه علىٰ جمعه فى صدر رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم فيقراه ، لكن الآية أيضًا تدل علىٰ أن اللّٰه تعالىٰ أخذ علىٰ نفسه جمع القرآن على الترتيب الذى هو يرضى به وهو الترتيب الذى فيه هو مثبت فى اللوح المحفوظ وابتدائه من صدر رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم ، فإذا ثبت هٰذا فظهر أن عدم بيان رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم عن سورة الأنفال

والتوبة (براءة) أيضًا من عند الله تعالىٰ؛ لأنهٗ هو مكلّف [1] بتبليغ كل ما كلّف بتبليغه، والمعلوم أن الأنبياء كلهم يبلغون كلما كلفوا بتبليغها، وهٰذا معلوم من الدين بالضرورة لاخفاء فيه وإلا يكون نقصا (نعوذ بالله) فى علم الله أنهٗ اصطفىٰ [2] واحدا لتبليغ رسالته الذى هو غير قابل لهٗ (الله أكبر) هذا لايجوز، ولهٰذا الأنبياء كلهم معصومون، وأيضًا المعلوم أن كل شيء من عند الله علما وإرادة وخلقا، فهو اختار الأنبياء وجعلهم معصومين. وهٰكذا حصلت الحجة القاطعة على الأمم ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (النساء:١٦٥)، فإذا رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم لم يبين عن سورة الأنفال وبراءة أنها منها وهو علىٰ إرشاد من عند الله حتىٰ الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم قرنوا بينهما ولم يكتبوا بينهما بسم الله الرحمٰن الرحيم حتىٰ يكون جمع القرآن على الأرض علىٰ وفق جمع القرآن فى السماء فى اللوح المحفوظ؛ لأنهٗ هٰكذا فى اللوح المحفوظ بدون بسم الله الرحمٰن الرحيم بين الأنفال وبراءة، ولايقال: إنهٗ من فعل الصحابة رضي الله عنهم؛ لأنهٗ ليس فعل الصحابي فقط، بل فعل الصحابة رضي الله عنهم قاطبتهم، وعلىٰ هٰذا يدل على القطع، حتىٰ أجمعوا الأمة فى كل زمان علىٰ تأليف المصحف العثماني، وأمة محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم لاتجتمع على الضلالة وما يستحسن المسلمون، فهو عند الله حسن، فجميع القرآن اليوم على التأليف التوقيفي يعنى علىٰ إرشاد النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم. وفى الإتقان "انزل القرآن أوّلا جملة واحدة (فى ليلة القدر) من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرقا علىٰ حسب المصالح، ثم أثبت فى المصاحف على التأليف والنظم المثبت فى اللوح المحفوظ." (الإتقان)

(٨) الكتب السابقة والصحف السابقة كانت معجزات من حيث مضامينها حتىٰ لايقدر اي واحد أن يأتي ما فيها من أخبار الغيب والهداية والإرشاد للحياة، والقرآن معجز من حيث المضامين وألفاظه يعنى عباراته العربية حتىٰ لايقدر أي واحد أن يأتي ما فيها من أخبار الغيب والهداية والإرشاد، ولايقدر أن يؤلف عبارة مثل عبارة القرآن فى الفصاحة والبلاغة والجزالة والحسن والجمال والحلو والقوة والبيان والأثر. والقرآن أعظم المعجزة للنبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وهو معجزة باقية لهٗ، والدليل القاطع الباقي علىٰ حقانية الإسلام، وقد أعطى النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم المعجزات كثيرة جدا سوا القرآن وهو أعظمها وأجلّها، وفى القرآن ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا

---

(١) يٰأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ. (المائدة:٦٧)

(٢) اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ. (الحج:٧٥)

نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَ كُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة:٢٣) ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (بنى إسرائيل:٨٨) وفى الحديث "ما من الأنبياء نبيّ إلا أعطى من الآيات ما مثلهُ امن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحيًا أوحا اللّٰه إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة." (صحيح البخاري، ح:٤٩٨١)

شرح عقيدة سفارينية: " بل هو آية ومعجزة ظاهرة ودلالة باهرة وحجة قاهرة من وجوه متعددة من جهة اللفظ ومن جهة النظم ومن جهة البلاغة فى دلالة للفظ على المعنى ومن جهة معانيه التى أمر بها ومعانيه التى أخبربها عن اللّٰه تعالىٰ وأسمائه وصفاته وملائكته وغير ذٰلك ومن جهة معانيه التى أخبر بها عن الغيب الماضى والغيب والمستقبل" "والإعجاز حصل بنظمه ومعناه شرح الفقه الأكبر، فهو معجز بنفسه وليس فى وسع البشر الإتيان بسورة من مثله" شرح عقيدة سفارينية.

(٩) والكتب السابقة والصحف السابقة كانت لزمان مقدر معين، والقرآن إلى يوم القيامة وهو بمنزلة الناسخ لجميع الكتب و الصحف السابقة إلا ما أقرّه منها ،فصار كائنةً من القرآن ،فيكون مشروعا علينا. وفى القرآن ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ (المائدة:٤٨) أي رقيبا أو شاهدا علىٰ ما سبقه من الكتب، يقرّ الحق ويظهر الباطل ما حرّفوه ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ (البقرة:١٠٦) وفى الحديث "لو كان موسٰى حيا ما وسعه إلا اتباعى." (شعب الإيمان، ح:٥٢٠٥) وفى الحديث "والذى نفسى بيده لو أتاكم يوسف وأنا فيكم فاتبعتموه وتركتمونى لضللتم." (مسند أحمد، ح:٢٦٤٢١) ولهٰذا سيدنا عيسٰى عليه السلام لما يأتى فى آخر الزمان لايتبع ولايحكم بالإنجيل، بل يتبع ويحكم بالقرآن ،وفى الحديث "كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم فأمّكم منكم؟." قال ابن أبى ذئب: (أحد الرواة للحديث) تدرى ما أمّكم منكم؟ قلت: تخبرنى ،قال: فأمّكم بكتاب ربّكم عزوجل وسنة نبيكم صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم. (القرآن والسنة) (صحيح مسلم، ح:١٥٥)

(١٠) الكتب السابقة والصحف السابقة نزلت جملة واحدة ، والقرآن نزل مفرقا علىٰ حسب المصالح فى ثلث وعشرين سنة ،وفى القرآن ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ (بنى إسرائيل:١٠٦) ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران:٣) وفى تفسير القرطبي: والقرآن نزل نجومًا شيئًا بعد شيء ،فلذٰلك قال: "نزّل" والتنزيل مرّة بعد مرّة، والتوراة والإنجيل نزلا دفعة واحدة ،فلذٰلك قال "وأنزل" انتهى. ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ (الدهر:٢٣)

(١١) المزعومة من الكتب السابقة الموجودة اليوم ليست هي التوراة والزبور والإنجيل وغيرها من الوحي الأصلي المنزل من عند الله تعالىٰ بعينها، بل هذه كلها إما محرفة إما موضوعة مختلقة. والاعتقاد أنها التوراة أو الإنجيل أو الزبور الأصلي المنزل من عند الله تعالىٰ كفر ،وفي القرآن ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(البقرة:٧٥) ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (البقرة:٧٩) ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران:٧٨) أخرجه البخاري أن ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما قال: "كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذى أنزل علىٰ رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم أحدث (باعتبار النزول وإلا كان في اللوح المحفوظ مع الكتب الأخرى في السماء ،وأما باعتبار الكلام النفسي لله فهو كلهٗ قديم ولا تقدم ولا تأخر في قديم) تقرؤنه محضاً لم يشب، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيّروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب ،وقالوا: هو من عند الله، ليشتروا به ثمنا قليلا، ألا ينهاكم ما جاء كم من العلم عن مسألتهم ، لا والله! مارأينا منهم رجلا يسألكم عن الذى أنزل عليكم." (صحيح البخاري: ح:٢٦٨٥)

قد ثبت في التاريخ أنهم غيّروا كتاب الله وليس عندهم السند المتصل لأي كتاب من كتبهم فضلا عن أن يكون متواترا ،ومضامينه يناقض بعضه بعضا ،وكثير منها لايليق بالله وأنبياء هم ،ومن اطلع علىٰ كتبهم عرف أنهٗ محرّفة وموضوعة فيها. قال العبد الحقير غفر الله لهٗ إنهٗ وجد في بعض الكتب الاتّهام علىٰ ابن تيمية أنهٗ يقول: إن التوراة والإنجيل لم يحرّفا من حيث الكلمات، بل من حيث التأويل والتفسير فقط ،وهذا القول كفر بواح يخالف ما ذكرنا من الآيات القرآنية والحديث وأيضًا مضامين هذه الكتب التى يزعمون أهل الكتاب أنها التوراة والإنجيل والزبور تخالف كثيراً منها ما في القرآن والسنة ،فتخالف أصول الدين فتخالف توحيد الله تعالىٰ وعصمة الأنبياء وغيرها من الأشياء من أصول الدين ،فكيف واحد يجترأ علىٰ هذا القول الخبيث المنسوبة إلى ابن تيمية ،وأنا القول المنسوبة إليه لأنني نفسي لم أثبت هذا القول من كتبه ،فوالله أعلم هو قال هذا القول أو لم يقل، هذا القول كفر باطل محض علىٰ أي حال.

وقد ذكرنا سابقا أن كلام الله تعالىٰ واحد يعنى الكلام النفسي لله تعالىٰ ،فمن هذا الاعتبار لاتفاوت ولاتعدد في كلام الله تعالىٰ ،فجميع القرآن والتوراة والإنجيل والزبور وغيرها من كلام الله تعالىٰ لاتفاوت فيها من حيث أنها كلام الله تعالىٰ وصفته القديمة القائمة به تعالىٰ ، لكن باعتبار الكلام اللفظي ،وهو العبارات الدالة على الكلام النفسي القرآن أفضل؛ لأنهٗ معجز من حيث كلماته ونظمه

أيضًا بخلاف الكتب السابقة التى هي معجزة باعتبار مضامينها فقط. وأيضًا تلاوة القرآن مشروعة معتبرة بها إلى يوم القيامة بخلاف تلاوة الكتب السابقة التى منسوخة وهذه على فرض وجودها وإلا كما ذكرنا لاوجود لها اليوم كما هي أنزلت بعينها، بل كلها محرّفة. والقرآن أفضل أيضًا باعتبار أن الله تعالى حافظه من التحريف بخلاف الكتب السابقة، ومن زعم بتحريف القرآن فقد كفر ،وفى القرآن ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(الحجر:٩) والقرآن أفضل باعتبار أنهٗ لايمكن نسخه بخلاف الكتب السابقة التى هي منسوخة التلاوة والكتابة ،وأيضًا بعض أحكامها بالقرآن. والقرآن أفضل باعتبار أنهٗ أعطي إلى أفضل الأنبياء عليهم الصلوات والسلام، وأفضل باعتبار انه أعطي إلى أفضل الأمة ،وفى القرآن ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران:١١٠) وفى الحديث "أنتم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها عند الله." (سنن الترمذي، ح:٣٠٠١) ثم قد جاء فى الأحاديث الفضلية بعض القرآن على بعض ،فجاء عن سورة الفاتحة "والذى نفسى بيدهٖ ما أنزلت فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور ولا فى الفرقان مثلها، وإنها سبع من المثانى، والقرآن العظيم الذى أعطيته." (سنن الترمذي، ح:٢٨٧٥) "أعظم آية فى كتاب الله آية الكرسى." (مصنف عبد الرزاق، ح:٦٠٠٢) "قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن." (صحيح مسلم، ح:٨١١) فهٰذه كلها أيضًا يحول إلى الاعتبارات غير الاعتبار أن كلها كلام الله تعالى، فمثلا سورة الفاتحة لم تنزل مثلها فى التوراة والإنجيل والزبور والقرآن ،فإنها سورة التى هي كلام الله أكثر قراءة (والله أعلم) لأنها تقرأ فى كل صلاة ،وأيضًا أنها نصفت بين الله وبين عبدهٖ نصفين كما جاء فى الحديث ،فنصفه ذكر الله تعالى ونصفه الباقى الدعاء من العبد لله الذى يتضمن خير الدنيا والآخرة الذى لو استجيب يكون فلاحا للعبد فى الدنيا والآخرة. وثم هي تضمنت توحيد الله تعالى والاعتراف بحمدهٖ وبألوهيتهٖ وبربوبيتهٖ وأنهٗ هو الخالق المالك وكذٰلك الاعتراف بالآخرة وغيرها من الأمور ،ولهٰذا سمّي "بأم القرآن" وكذٰلك آية الكرسي تضمنت ذكر الله تعالى وصفاته الحميدة وأنهٗ هو الخالق الرازق المالك ،هو لايحتاج إلى أي شيء ،وكل شيء محتاج إليه وأن علمه المحيط ،والخلق عاجز محض لايستطيع على أي شيء ،وكذٰلك تدبير الله واستعلاءه وغيرها من الأمور العظيمة ،وكذٰلك سورة الاخلاص تضمنت ذكر الله تعالى ووحدانيته وأحديته وصمديته ،وهٰذه الأمور تدل على كونه غير جسم وغير ذى أعضاء وجوارح؛ لأن الأحد لاينقسم وذو أعضاء وجوارح ينقسم ،وكذٰلك الجسم ينقسم، وكذٰلك السورة تدل على قدمه وأنهٗ ليس محلا للحوادث؛ لأنهٗ لم يلد ولم يولد ،وكذٰلك تدل على أنهٗ لانظير لهٗ ولاشبيه ،وهي السورة كما قال واحد من الصحابة رضي الله عنهم صفة الرحمن وأقره عليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،وأيضًا قد يتضمن الحديث عن سورة الإخلاص أن قرائتها

تعدل ثواب قراءة ثلث القرآن ،وجاء فى الحديث عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم "أيعجز أحدكم أن يقرأ فى ليلة ثلث القرآن ،قالوا: و كيف يقرأ ثلث القرآن ،قال: "قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ" يعدل ثلث القرآن." (صحيح البخاري، ح: ٥٠٥١) فحاصل الكلام أن من حيث كلام الله لاتفاوت ولاتعدد يعنى باعتبار الصفة القديمة القائمة بذات الله تعالى ، لكن بحيث النظم المقروء وبحيث ماذكرنا فى افضلية القرآن على غيره من كتب الله تعالى وبحيث المضامين المذكورة وبحيث زيادة الثواب وغيرها من الأمور يكون التفاوت بين كتب الله تعالى وبين بعض نفس كتاب الله على بعضه والله أعلم ،ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم. ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذهديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

المتن:

ونسمّى أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ، ماداموا بما جاء به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم معترفين، ولهُ بكل ما قالهُ وأخبر مصدقين غير منكرين.

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى الأن يتكلم عن أهل القبلة ،ويقول إننا لانكفّرهم كالخوارج ولانخرجهم من الإيمان كالمعتزلة ،ولم شرح من هو أهل القبلة الذى يصدقون بكل ما جاء به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم غير منكرين واحدا منها. فاعلم أن اصطلاح أهل القبلة ليس على ظاهر معناه. وبيانه أن المعلوم أن القبلة هي الكعبة كما هو معلوم من الدين بالضرورة ،وفى الحديث أن الرسول عليه الصلوات والسلام ركع ركعتين فى قبل الكعبة ،وقال "هذه القبلة." وثم المسجد الحرام يقوم مقامها لمن هو خارج من المسجد الحرام ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ (البقرة: ١٥٠) فظاهر المعنى لاصطلاح أهل القبلة هو من يصلى إلى المسجد الحرام إلى الكعبة ، لكن هذا ظاهر غير مراد؛ لأنهُ كم من الناس يصلون إلى القبلة ، لكن عقائدهم كفر ،فلايكونون من أهل القبلة ،فلا تغتر أن معنى أهل القبلة من يصلى إلى القبلة، بل هذا الاصطلاح لهُ معنى خاص ،وأشار إليه الشيخ رحمه الله تعالى عند ما قال: إنهُ مادام مصدق بكل ما جآء به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم غير منكر لشيء منها ،وهذا هو المعنى لهذا الاصطلاح ،وإن قلتم لما ذا يستخدمون هذا الاصطلاح لهذا المعنى ؟

فالجواب والله أعلم أن هذا الاصطلاح قد يكون أصلهُ من الحديث الصحيح أخرجه البخاري "من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا ،فذلك المسلم الذى لهُ ذمّة الله وذمّة



رسوله، فلا تخفروا الله في ذمته." (ح: ٣٩١) "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإن قالوها وصلّوا صلاتنا، واستقبلوا قبلتنا وذبحوا ذبيحتنا ،فقد حرُمت علينا دماء هم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ." (مسند أحمد، ح: ١٣٦٥٠) يعني هذه الأمارات تدل على إسلام الشخص، فالاصطلاح" أهل القبلة" أيضًا يعني عند ما نحن نرى الأمارات الظاهرة تدل على إسلام الشخص يعني هو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ويصلي إلى قبلتنا ويصوم ويقول إنهُ مسلم وغيرها من الأمارات ،فهو مسلم ويحرم تكفيره وقتلهُ، بل لهُ حرمة المسلم؛ لأنهُ مسلم؛ لأننا نحن نحكم بالظاهر ،والله يتولى السرائر ، لكن لو هو نفسه يظهر كفرا من الكفريات فيصير كافرا ولا تمنع كونه كافرا صلاته إلى القبلة ولا تلفظ بالتشهد ولا غيره من الأشياء؛ لأن الكفر والإيمان لا يجتمعان ، فإذا كفر كفرا ما يخرج من الإيمان إلى الكفر ، ففي القرآن ﴿هُوَ الَّذِىْ خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَّمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ﴾ (التغابن:٢) يعني ليس هناك منزل بين المنزلتين إما أن يكون مؤمنا إما أن يكون كافرا ، فإذا كفر ولو مرة واحدة ،فصار كافرا فلا يكون مؤمنا ، ففي القرآن ﴿أَفَتُؤْمِنُوْنَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُوْنَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَّفْعَلُ ذٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّوْنَ إِلٰى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّٰهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُوْنَ أُوْلٰٓئِكَ الَّذِيْنَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُوْنَ﴾ (البقرة:٨٥-٨٦) ، فإذا ثبت هذا ،فاعلم أن من أنكر شيئًا من ضرورات الدين وهي ما هي ثابت من القرآن والسنة المتواترة مثلاً إيمان بالله وبصفاته مثلاً علمه وإرادته وقدرته وكلامه وسمعه وبصره وحياته وخلقه وتكوينه وكذلك تنزهه عن سمات الحدوث ،وأنهُ ليس كمثله شيء وَهُوَ السَّمِيْعُ الْبَصِيْرُ ،فليس هو جسم ولا عرض ولا يحيط به مكان ولا يجري عليه زمان وليس مركبا حتى يكون ذي الأعضاء والجوارح ،وإيمان برسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله تعالى، والبعث بعد الموت والحشر، والسؤال ، والميزان والكتاب، والجنة والنار وكذلك الصلوٰة والصوم والزكوٰة والحج والجهاد وكذلك تحريم الربا والزنا والسرقة والغصب وعمل قوم لوط عليه السلام والخمر ،وهذا ما ذكرنا فقط أمثلة من الأمثلة الكثيرة ،فنحن ذكرنا أمثلة من باب أركان الإيمان وأركان الإسلام ،وكذلك من الحلال والحرام ،وغايتنا أن ما هو معلوم من الدين ضرورة لا خفاء فيه ،وهي القطعيات المعلومة من القرآن والسنة. وأجمع عليه أهل الحق وتعظيم الصحابة رضي الله تعالى عنهم أيضًا منها؛ لأنهُ معلوم من القرآن والسنة ،وكذلك عذاب القبر والصراط والحوض والنهر الكوثر كلها منها ،فمن أنكر شيئًا من ضرورات الدين فقد كفر وخرج من أن يكون من أهل القبلة ،وحاصلهُ أن كل ما ثبت بالقطع أنهُ من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فإنكاره كفر ،والقطع إما أن يكون من القرآن أو إما أن يكون من السنة المتواترة أو

إما أن يكون من الإجماع القطعي ،يعنى الذى أجمع عليه الصحابة رضي الله تعالى عنهم معلوما أو إما أن يكون قياسا جليّا إجماعيًا ،وهٰذهٖ كلها تدل علىٰ كون الشيء من القطعيات ،فيوجب تكفير من انكره ،ثم هل هٰذا مشهور بين المسلمين كأمثال أركان الإيمان والإسلام ،وكأمثال ما ذكرنا من المحرّمات أو هو من الأشياء التى لم تشتهر بين المسلمين ، فإذا يكون من الأشياء التى اشتهرت بين المسلمين ،فإنكاره يكون كفرا بدون أن يسمع منه لو قال: إنهٗ أنكره جهلا؛ لأنه لايسعه الجهل فى هٰذه الأشياء لكونها من الأشياء التى ظهرت واشتهرت بين المسلمين ولأنهٗ مكلف لتعلم هٰذه الأشياء فاعتذاره بالجهل لايكون مقبولا ولا مسموعا ، لكن عليه أن يصلح ويقبل ما أنكر من ضرورات الدين ويتشهد ويجدد إيمانه فيكون مسلما . ولو هٰذا الشيء من الأشياء التى لم تشتهر[1] بين المسلمين ،فهٰذا والله أعلم نفوّض هٰذا الأمر إلى العلماء يعنى لو أنكره ،وثم قال: إنهٗ أنكره جهلا هل يكون كافرا ، لكن لاشك بعد ما أُخبر وعرضت عليه الدلائل انهٗ ما انكره معلوم بالقطع أنهٗ ثابت من النبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم وثم أصرّ علىٰ إنكاره ،فلا عذر لهٗ بعد هٰذا ،فيصير كافرا ،وهٰذا لاشك فيه ، لكن هل يكون كافرا قبل عرض الدلائل عليه لو أنكره ادّعاءً بالجهل في الأمور التى غير مشهورة بين المسلمين ،فهٰذا الأمر نفوضه إلى العلماء. وفى النبراس : "أهل القبلة معناه اللغو ي، من يصلى إلى الكعبة، أو يعتقدها قبلة، وفى اصطلاح المتكلمين: من يصدق بضروريات الدين، أي الأمور التى علم ثبوتها فى الشرع واشتهر، فمن أنكر شيئًا من الضروريات، كحدوث العالم وحشر الأجساد وعلم اللّٰه سبحانهٗ وتعالىٰ بالجزئيات وفرضية الصلوٰة والصوم لم يكن من أهل القبلة، ولو كان مجاهدا فى الطاعات، وكذٰلك من باشر شيئًا من أمارات التكذيب، كسجود الصنم والإهانة بأمر شرعي، والاستهزاء عليه (والاستخفاف عليه) فليس من أهل القبلة، ومعنى عدم تكفير أهل القبلة، أن لايكفر بارتكاب المعاصى، ولا بإنكار الأمور غير المشهورة، هٰذا ما حققه المحققون

---

(۱) وقد جاء فى الحديث أن عمر فاروق رضي الله تعالى عنه أنكر على هشام بن حكيم رضي الله تعالى عنه فى قراءة سورة الفرقان التى هو كان يقرأها على حروف غير التى يعرفها عمر رضي الله تعالى عنه ،وكلاهما تعلما هٰذه السورة من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى عمر رضي الله عنه أخذ هشام بن حكيم رضي الله عنه إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أقرّ هشام فى قراءته سورة الفرقان وأقرّ عمر فى قراءته سورة الفرقان ،وقال "إن هٰذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه." (صحيح البخاري، ح:٤٩٩٢) ولايقول الحديث أنهٗ قال لعمر رضي الله تعالى عنه أنهٗ كفر (نعوذ بالله) بسبب إنكاره ما هو القرآن؛ لأن عمر رضي الله عنه فعل ما فعل على غير علم، وقراءة هشام سورة الفرقان على الحروف التى قرأها لم تشتهر بين المسلمين حتى ما علمه الصحابي الجليل عمر فاروق رضي الله عنه ،فكان فعلهٗ بسبب الجهل فى الأمر لم يكن مشهورا بين المسلمين ولم يكفر بفعله ولا يسعه إنكاره بعد علم به .

فاحفظه." وهٰذا ما ذكرنا هو التفصيل لما ذكر الشيخ رحمه الله تعالىٰ فى تفسير أهل القبلة أنهم مصدقون بكل ما جاء به الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ،فمن قال بنفسه أنهُ لايصدق بكل ما جاء به النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فلايكون مسلما ،فلايكون من أهل القبلة ،وهٰذا القول لايسمع فيه ادّعاء الجهل ولاغيره من الأشياء ؛ لأنهُ كذّب ،[1] ولوقال هذا هازلا،يكفر ،وهٰذا الاستهزاء واستخفاف بالدين وكلاهما كفر ، فإذا ثبت هٰذا ،فاعلم أنهُ من اعتقد وسلّم وصدّق بكل ما جآء به النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ولم ينكر شيئًا مماثبت أنهُ من رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وأقر بلسانه وصدّق بقلبه وأسلم إسلاما وآمن إيماناً فهو مسلم ولايجوز تكفيره من أجل ارتكاب المعاصى (غير الكفر والشرك) ولايجوز إخراجه من الإيمان من أجلها .

وهٰذا ردّ على الخوارج والمعتزلة ، فالخوارج هم يكفّرون من أجل المعاصى، ولو المعاصى لاتكون كفرا بنفسها ،والمعتزلة لايقولون إنهُ كافر ، لكن مع هٰذا لايقولون إنهُ مؤمن، بل يقولون إنهُ بمنزل بين المنزلتين وثم يتفقون مع الخوارج فى قولهم أنهُ يخلد فى النار لو مات غير تائب. ونحن أهل السنة والجماعة نقول: إن مرتكب المعاصى (غير الكفر والشرك) ليس كافرا، بل مؤمن ولايخلد فى النار، بل لو أدخل فى النار للعقوبة سيخرج منها بعدها ويدخل الجنة ما دام هو مؤمن مصدق بكل ما جآء به النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فلايستحل المعاصى ولايستخفها ولايستهزء بالدين ، لٰكن من أجل ضعفه (فى الإيمان) وغلبة الشهوة النفسانية وقع فى المعاصى ، لكن مع هٰذا يخاف الله تعالىٰ ويرجوا منه المغفرة ويعزم على التوبة ،فلايرضى عن نفسه كونها تقع فى المعاصى، بل يريد خروجا منها. وهٰذا الكلام كلهُ فى المعاصى دون المعاصى التى هي كفر وشرك فى نفسها ،والكفر يشمل أيضًا ما جعله الشارع أمارة للتكذيب وعلم كونه كذٰلك بالأدلة الشرعية كسجود الصنم وإلقاء المصحف فى القاذورات، والتلفظ بكلمات الكفر، ونحو ذٰلك مما ثبت بالأدلة أنهُ كفر . أما السجدة للصنم فهو معلوم من الدين بالضرورة أنهُ كفر ،ولا فرق بين كونها عبادةً أو تعظيماً أو علىٰ أي وجه من الوجوه؛ لأن السجدة لنفسها لاتجوز إلا للّٰه تعالىٰ ؛لأنها تدل علىٰ غاية انخفاض النفس وانتهاء وضعها إلى المسجود لهُ حتىٰ تدل علىٰ كونه ربا وكون الساجد مربوباً وما جآء فى القرآن فى سجدة الملائكة لآدم عليه السلام ،وكذٰلك سجدة أبوى يوسف وإخوته لهُ ،فكانت إما سجدة للّٰه تعالىٰ وآدم ويوسف عليهما السلام بمنزلة القبلة لهم أو إما كانت سجدة لهما علىٰ وجه التحية ،وكانت جائزة حينئذ [2] فتكون مستثناة مماذكرنا من السجدة ودلالتها ،فتتقدر بقدرها ، لكن

---

(١) يعنى كذّب بما جآء به محمد صلى الله عليه وسلم صراحة أو دلالة يعنى لو يقول ما عنيته فى الحقيقة، بل كنت هازلا ، ففى أي حال يكون كافرا .

(٢) لأن السجدة على جميع الوجوه غير جائزة فى شريعة نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم ،وهذا ثابت من النصوص.

السجدة للصنم (لاحول ولاقوة إلا بالله) فهي من شعائر الكفار من البداية حتى كانت الأنبياء عليهم الصلوات والسلام أرسل لهدم هذا الشيء ،فما ذكرنا من السجدة ودلالتها منطبقة بتمامها عليها فتكون كفرا بواحا [1] بدون المبالاة لنوع من وجوهها وكذلك إلقاء المصحف في القاذورات يدل على إهانة الشرع والقرآن ،وهذا كفرلا شك فيه ،وكذلك التلفظ بكلمة الكفر ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ (التوبة:٧٤) وكل هذا معلومة ضرورة أنها كفر ،وكذلك ما ذكرنا من الاستخفاف والاستحلال لأي نوع من المعاصي [2] الذي ثبت بالدليل القطعي ،ومعناه بوجه يدل على أنه يعتقدها حلالا أو خفيفا، كذا فسرهما المحققون،؛ لأن الاستحلال أو الاستخفاف إن حملا على ظاهرهما فهما عين الكذب (وهو كفر) والكلام في أماراته (وهي تدل على الكفر) وهي كفر ، أما الاستحلال فظاهر، وأما الاستخفاف فهو كفر بظاهر الشرع،؛ لأن من اعترف بحقية الشرع، كيف يستخف ما يوجب العقوبة ؟ ويجوز أن يراد من الاستخفاف استخفاف الشريعة فكفره أيضًا ظاهر، ثم اعلم أن استخفاف المعصية إذا وقع في الصغيرة وكان باعثا على اقترافها، يلزم أن يكون كفرا بمقتضى هذا البيان، فيلزم أن يكون الإصرار على الصغيرة بهذا الكيف كفرا. فالاستخفاف بالصغيرة كفر أيضا.

ثم بعد هذا البيان إن سألت عن الدلائل لموضوعنا وهو عدم إخراج أهل القبلة من الإسلام للمعاصي (دون ما ذكرنا سابقا مما يوجب التكفير) ؟ فالجواب بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز أنها كثيرة جدا كقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ (البقرة:١٧٨)، وجه الاستدلال أن القاتل الذي كتب عليه القصاص هو قاتل نفس بغير حق ،فيكون صاحب كبيرة ،ومع ذلك خوطب بالإيمان وقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ (التحريم:٨) التوبة في الشرع الرجوع عن المعصية إلى الطاعة ،فيكون خطابا لأهل المعاصي أن يتوبوا إلى الله ومع ذلك خوطبوا بالإيمان وقوله تعالى ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ (الحجرات:٩) فسمّي كليهما مؤمنين مع أن واحد منهما على الأقل عاصية. وفي الحديث "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبمحمد رسولا وبالإسلام دينا." (صحيح مسلم، ح:٣٤)

وكذلك الحديث أن الإيمان "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ." (سنن الترمذي، ح:٢٦١٠) فثبت من هذه الأحاديث أنه من آمن أن الله ربه ومحمدا

---

(١) يعني السجدة للصنم أو أمثالها كفر في جميع الشرائع ولو كانت تحية .

(٢) يعني الاستحلال والاستخفاف كفر بعينهما وكذلك الأمارات التي تدل عليهما كفر.

رسولهٗ صلى الله تعالٰى عليه وسلم والإسلام دينه ،وهٰذا يقتضي أنهٗ يصدق ويؤمن بكل ما جاء به محمد صلى الله تعالٰى عليه وسلم ،فيكون مؤمنا ،ولايزول عنه هٰذا الاسم؛ لأنهٗ قد ذاق طعمه ،فحصل لهٗ أصلهٗ ،وكذٰلک الحديث أخرجه أبو داؤد "ثلاث من أصل الإيمان الكف عن من قال لا إلٰه إلا الله ولاتكفره بذنب ولاتخرجه من الإسلام بعمل [1] والجهاد ماض منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال لايبطلهٗ جور جائر ولا عدل عادل، والإيمان بالأقدار ." (ح: ٢٥٣٢) وكذٰلک الدلائل كثيرة في هٰذا الباب ،ومنها إجماع الأمة من عصر النبي صلى الله تعالٰى عليه وسلم إلى يومنا هٰذا بالصلاة علٰى من مات من أهل القبلة من غير توبة، والدعاء والاستغفار لهم مع العلم بارتكابهم الكبائر [2] بعد الاتفاق علٰى ذٰلک أنهٗ لايجوز لغير المؤمن ،وفي الحديث أخرجه أبو داؤد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله تعالٰى عليه وسلم: "الجهاد واجب عليكم مع كل أمير برّا كان أو فاجرا، والصلاة واجبة عليكم خلف كل مسلم برّا كان أو فاجراً وإن عمل الكبائر ، والصلاة واجبة علٰى كل مسلم برّا كان أو فاجرا وإن عمل الكبائر ." (ح:٢٥٣٣) الأن نذكر ما قال المعتزلة من الدلائل الواهية وجوابها إن شاء الله العزيز. والمعتزلة يقولون: إن مرتكب الكبائر بمنزلة بين المؤمن والكافر ويخلد في النار لو مات بغير التوبة .

ودلائلهم: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا﴾ (الم سجدة:١٨) جعل المؤمن مقابلا للفاسق فيكون مغايرا له.

الجواب: الفاسق معناه الخارج وقد يكون بمعنى العاصي غير الكافر؛ لأنهٗ خرج عن بعض الطاعات إلى المعاصي وقد يكون بمعنى الكافر؛ لأنهٗ خرج من الإيمان ،والآية تتكلم عن الفاسق بمعنى الكافر؛ لأن ما بعد الآية يدل علٰى ذٰلک ،وهو قولهٗ تعالٰى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُوْنَ أَمَّا الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَعَمِلُوْا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوٰى نُزُلاً بِمَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ وَأَمَّا الَّذِيْنَ فَسَقُوْا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوْا أَنْ يَّخْرُجُوْا مِنْهَا أُعِيْدُوْا فِيْهَا وَقِيْلَ لَهُمْ ذُوْقُوْا عَذَابَ النَّارِ الَّذِيْ كُنْتُمْ بِهٖ تُكَذِّبُوْنَ﴾ (الم سجدة:١٨-٢٠) فإن المكذب بالعذاب هو الكافر. وأيضًا سبب نزول الآية يدل عليه وهو أن الوليد بن عقبة فاخر عليا رضي الله تعالٰى عنه يوم بدر، فقال علي رضي الله عنه أسكت فإنک فاسق فنزلت

(٢) قولهٗ صلى الله تعالٰى عليه وسلم "لايزني الزاني وهو مؤمن ." (صحيح ابن حبان، ح: ٥١٧٢) "لاإيمان لمن لاأمانة له." (صحيح ابن حبان، ح: ١٩٤) فظاهر هٰذين الحديثين

---

(١) يعني العمل الذي لايقتضي بنفسه كفرا .

(٢) يعني الكبائر من الذنوب مثلاً الزناء وشرب الخمر دون الشرك والكفر .

واشباههما ينفى الإيمان عن هؤلاء ومع ذلك الأمة لايجرون عليهم أحكام المرتدين ويدفنونهم فى مقابر المسلمين ،فقال المعتزلة: هم ليسوا مؤمنين ولا كافرين، بل بينهم.

الجواب: الحديث وارد على سبيل التغليظ والمبالغة فى الزجر عن المعاصى على معنى أن هذه الأفعال ليست من شأن المؤمن كأنها تنافى الإيمان ولاتجامعه ولاينبغى أن يصدر مثلهُ ممن تصف بالإيمان أو هو محمول على الإيمان الكامل، أي لايزنى الزانى مع كمال الإيمان، ولا إيمان كاملا لمن لا أمانة له. وأيضًا وجه آخر هو الحديث جاء هكذا "لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن." (صحيح البخاري، ح: ٢٤٧٥) يعنى حين يزنى فظاهر فعلهُ يدل على أنهُ لايؤمن على تحريم الزناء؛ لأنهُ لو كان يؤمن على تحريمه لما كان يتصور منه الإقدام على هذا؛ لأن أحوال المؤمن تحمل على الصلاح ،فيتوقع منه امتثال الأوامر واجتناب النواهي ، لكن لمّا تقدم على الزنا ،فكسر بفعله ما يتوقع منه وزال منه ما كان تحمل أحواله على الصلاح كأحوال المؤمن ووقع فى الشيء الذى لم يكن يتصور منه وقوعه فيه لكونه مؤمنا ،فظاهر فعله يزيل منه كل هذا ،فاعتبر هذا فى الحديث كزوال الاسم المؤمن عنه على وجه التغليظ ولم يكن زال عنه هذا الاسم بالكلية لوجود فيه أصل التصديق؛ لأنهُ لم يزنى على وجه الاستحلال أو الاستخفاف، بل وقع فيه بسبب غلبة الشهوة والضعف فى معيار الإيمان ،والوجه الآخر لحديث الثانى هو لا إيمان لمن لا أمانة لهُ ،والمؤمن ولو كان خائنا فى المعاملات مع الناس مثلاً ، لكن هو أمين فى إيمانه غير خائن فيه؛ لأنهُ لو كان خائنا فى إيمانه لكان كافرا مفترأ فيه ،فعند ما يقول: إنهُ مؤمن مسلم يؤمن بكل ما جآء بهٖ محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فهو فى هذا القول أمين ولايغدر الإسلام والمسلمين فى هذا ،فعلى هذا "لا أمانة له" غير صادق عليه؛ لأنهُ أمين فيما ذكرنا ،ولو كان خائنا فى أشياء أخرىٰ ، لكن لا أمانة لهُ معنى نفيه على الإطلاق وهذا لاينطبق على المؤمن ،فيكون حديثا على ظاهره يعنى لا إيمان لمن لا أمانة لهُ؛ لأن من لا أمانة لهُ حتى فى إيمانه لايكون مؤمنا ولاإيمان لهُ ،فعلى هذا لايكون مستدلا للمعتزلة فى إزالة الإيمان من المؤمن بارتكاب الكبائر دون الكفر والشرك. والله أعلم. ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

فحاصل الكلام أن الأحاديث هكذا مؤوّلة بسبب الآيات والأحاديث الدالة على أن الفاسق مؤمن ومنها ما ذكرناها ،ومنها أيضًا "شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى." (سنن أبى داود، ح: ٤٧٣٩) ومعلوم لاشفاعة إلا للمؤمن فى خروج من النار ،والحديث "أتانى آت من ربى فخيّرنى بين أن يدخل نصف أمتى الجنة وبين الشفاعة ،فاخترت الشفاعة وهي لمن مات لايشرك بالله شيئا." (سنن الترمذي، ح: ٢٤٤١)

والحديث المشهور فى الشفاعة أن الرسول عليه الصلوٰة والسلام يخرج المسلمين من أمته

الـذيـن قد دخلوا النار طائفة بعد طائفة ،فيدخلهم الجنة بالشفاعة بإذن الـلّٰه ،ويكون فيهم أهل الكبائر كـمـا يـدل عـليه سياق الحديث أن منهم مع أدنى أدنى أدنى من مثقال حبّة من خردل من إيمان ،وهذا يـدل عـلٰى ضعف معيار إيمانه بسبب الآثام ، لكن لأن أصل التصديق الجازم والإقرار باللسان موجود ،فلايـزول عـنهم اسم الإيمان ولايكون حالهم كحال الكفار في خلود في النار. والحديث عن أبي ذر رضـي الـلّٰه تعالٰى عنه عن رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم "ما من عبد قال: لاإله إلا اللّٰه ،ثم مات علٰى ذٰلك إلا دخل الجنة [1] قـلـت: وإن زنى وإن سرق؛ قال:وإن زنى وإن سرق، قلت: وإن زنى وإن سرق قال: وإن زنى وإن سرق علٰى رغم أنف أبي ذر." (صحيح البخاري، ح:٥٨٢٧)

وأما الـخـوارج وهم الذين يكفّرون مرتكب الكبيرة يعني حتٰى ما دون الشرك والكفر، بل مرتكب الصغيرة أيضًا ،فالآن نذكر مااستدلوا بها باطلا إن شاء اللّٰه العزيز.

(١) ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللّٰهُ فَأُوْلٰٓئِكَ هُمُ الْكَافِرُوْنَ﴾ (المائدة:٤٤) ووجه استـدلالهم أن عـدم الـحـكـم عـدم الـعـمل. وجواب هٰذا أن هٰذه الآية نزلت في الكفار كما ثبت في حـديـث الـبـراء بـن عازب رضي اللّٰه تعالٰى عنه عن رجم رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم يهوديًا أخرجه صحيح مسلم،(ح:١٦٩٩) وثـم ابـن عـبـاس رضـي الـلّٰه عنه فسّر هٰذه الآيات علٰى معنى ردًا لـلقرآن وجحودا لقول رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم ،وهٰذا كفر لاشك ،وفسره ابن مسعود رضـي الـلّٰه تعالٰى عنه علٰى معنى الاستحلال ،وهٰذا كفر أيضًا ،وأيضًا فسّرت علٰى معنى كفر دون كفر يعني ليس الكفر المخرج عن الملّة، بل كفر بمعنى المعاصي دون الكفر.

قال العبدالحقير غفر اللّٰه لهٗ قد بدا لي وجه آخر لهٰذه الآية ، لكن لا أذكرهٗ تفسيرا لهٰذه الآية لـحـديـث الـنـهي عـن تـفسير القرآن بالرأي، بل أكتبهٗ فقط عرضا على العلماء حتٰى يروا فيه ،وهو أن المعلوم أن ما أنزل اللّٰه تعالٰى ،فقبولها فرض وإنكارها كفر ،فعلٰى هٰذا لو واحد يحكم أن الزنا حلال أو الـخـمـر حـلال أو الإبـل حرام أو البقر حرام ،فمعلوم أنهٗ قد كفر ،فعلٰى هٰذا ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللّٰهُ﴾ (المائدة:٤٤) يعني يعطي الأشياء حكما خلاف ما أنزل اللّٰه فيحل ما حرم اللّٰه ويحرم ما أحل اللّٰه ،فـأولـئـك هـم الـكافرون. وهٰذا ظاهر لاخفاء فيه ،وهٰذا الذي ذكرت فالآية تحوي هٰذا المعنى أيضًا ،ثم الـذي مـا ذكـرت مـن الـحـديـث مـن صـحيح المسلم هو التفسير الأصلي للآية لكونه مؤيدا من الحديث الصحيح.

فـحـاصـل الـكـلام أنهٗ لا استـدلال لـلخوارج في هٰذه الآية؛ لأن الآية علٰى تفسير ما ذكرناه

---

(١) يعني في المآل ولو دخل النار بسبب الآثام ،لكن لا يخلد فيها ،ومعنى "من قال لا إله إلا اللّٰه" يعني أنهٗ أسلم؛ لأن من يسلم يتشهد بهٰذه الكلمة ومعنى أنهٗ "أسلم" يعني آمن بكل ما جاء به النبي صلى اللّٰه عليه وسلم.

ويكون على تفسير الخوارج مناقضة للآيات الأخرى والأحاديث المشهورة المتواترة، والمناقضة فى النصوص لاتكون ،فثبت أن تفسير الخوارج باطل.

(٢) ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُوْنَ﴾ (النور:٥٥) وجه استدلالهم أن ضمير الفصل يقصر الخبر على المبتدأ ،فيفيد أنهٗ لا فاسق سوى الكافر أي كل فاسق كافر. الجواب : الآية بتمامها ﴿وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِيْنَ آمَنُوْا مِنْكُمْ وَعَمِلُوْا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِيْنَهُمُ الَّذِىْ ارْتَضٰى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُوْنَنِىْ لَا يُشْرِكُوْنَ بِىْ شَيْئًا وَّمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُوْنَ﴾ (النور:٥٥) وتفسيره أن اللّٰه سبحانهٗ وتعالٰى وعد الصحابة رضي اللّٰه تعالٰى عنهم أن يجعلهم خلفاء الأرض كما جعل بنى إسرائيل ، وأن يثبت دينهم الذى اختاره لهم، ولم بعد ذٰلک من كفر فأولئک هم الفاسقون ،فعلٰى هٰذا نقول لو أن الحصر كان حقيقيا لايكون فاسقا إلا من كفر بعد الإيمان يعنى المرتد ،ومن لم يؤمن قط من الكافر فلايكون فاسقا وهٰذا خلاف الإجماع ،وحتٰى الخوارج لايقولون به ،فثبت أن الحصر للمبالغة ،فعلٰى هٰذا قد يكون الفاسق من الكافر وهو من يكفر ،وقد يكون الفاسق غير الكافر وهو من لم يكفر ، لكن خاض فى المعاصى دون الشرک والكفر أو معنى الكفر فى الآية كفران النعمة .

قال العبد الحقير غفر اللّٰه لهٗ قد بدا لى وجه آخر لهٰذه الآية أذكره لا من حيث التفسير، بل عرضا على العلماء حتٰى يروا فيه وهو أن المعلوم أن معنى الفاسق هو الخروج فى اللغة العربية ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهٖ﴾ (الكهف:٥٠) أي خرج عنه ،فعلٰى هٰذا معنى الآية ،ومن كفر بعد ذٰلک فأولئک هم الذين خارجون عن طاعة اللّٰه التي هم كانوا عليها دون غيرهم الذين ثبتوا علٰى طاعة اللّٰه ورسوله صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم ولم يتغيروا ،فعلٰى هٰذا يشمل قبائل العرب الذين ارتدوا بعد النبي صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم ،وكذٰلک كل من بعد الصحابة رضي اللّٰه عنهم الذين تغيروا وتبدلوا كمثل قتلة عثمان قاتلهم اللّٰه تعالٰى الذين تبدلوا وتغيروا بعد إيمانهم وإسلامهم ،وثم علٰى حسب كيفما تبدّلوا وتغيّروا قد يكون معنى الكفر فى الآية كفران النعمة أو قديكون علٰى معنى الكفر الحقيقي ،وكذٰلک معنى الفاسقون قد يكون علٰى معنى غير الكافر ،وقد يكون علٰى معنى الكافر. واللّٰه أعلم . فحاصل الكلام لا استدلال للخوارج فيها ولم علٰى تفسير الخوارج تكون الآية مناقضة للآيات أخرى والأحاديث وهٰذه لاتجوز.

(٣) الأحاديث التى تطلق اسم كفر على المعاصى مثلاً "لاترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض." (صحيح البخاري، ح:١٢١) "اثنتان فى الناس ،هما بهم كفر : الطعن فى النسب والنياحة على الميت." "سباب المسلم فسوق وقتالهٗ كفر." (صحيح البخاري، ح:٤٨) "إن

بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلٰوة." (صحيح مسلم، ح: ٨٢) وغيرها. والجواب أنها ليست علٰى معنى الكفر الحقيقي بسبب الآيات والأحاديث الأخرى التى تبيّن أن المؤمن لايكون كافرا بسبب ارتكاب المعاصى، فمثلاً قال فى الحديث: "سباب المسلم فسوق وقتالهٗ كفر." وقال فى القرآن ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ اقْتَتَلُوْا﴾ (الحجرات: ٩) فأطلق اسم المؤمنين عليهما اللذين اقتتلوا ،فثبت أن الحديث ليس علٰى معنى الكفر الحقيقي أو محمول علٰى أنهٗ قاتلهٗ علٰى أنهٗ مسلم ،فهٰذا كفر لاشك؛ لأنهٗ لو قاتلهٗ لأنهٗ مسلم فيعنى هو يضاد الإسلام ومضادة الإسلام كفر ، لكن لو قاتلهٗ لأسباب أخرىٰ بسبب الغضب أو شيء هٰكذا ،فلايكون كافرا ، فلهٰذا أطلق اسم المؤمنين علٰى كلتيهما فى الأية ،ثم يكون فاسقا لو كان علٰى غير الحق فى قتاله ،وكذٰلك الأحاديث الأخرىٰ التى يستدلون الخوارج بها ،فمثلاً الحديث "إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلٰوة" فهٰذا الحديث الكفر والشرك فيه معرف باللام ، لكن مع ذٰلك لايفيد علٰى مدعاء هم؛ لأن لو واحد يقول إن بين زيد وعمرو خالد، فلامعنى لويتحرك خالد عن مكانه أن زيدا وعمروا يجتمعان لامحالة ،فالصلٰوة حائلة بين الرجل وبين الشرك والكفر ، فإذا تركها فزال الحائل ،فمعنى أنهٗ الأن علٰى خطر الوقوع فى الشرك والكفر ،ولايعنى أنهٗ قد وقع فيهما لابد ،وهٰذا؛ لأن الصلٰوة من أعظم أركان الإسلام وتركها من أشد الفسوق. فحاصل الكلام أنهٗ لا استدلال للخوارج فى ماذكروا؛ لأن هٰذه الأحاديث مصروفة عن ظاهرها حتٰى توافق مع الآيات الأخرىٰ والأحاديث وإلا تكون مناقضة ،وهي لاتجوز. وكذٰلك ما ذكروا من الدلائل الأخرىٰ كلها استدلال باطل؛ لأن ما استدلوا بها علٰى وجه استدلالهم تخالف النصوص الأخرىٰ ،وهٰذا لايجوز ،وهي النصوص القاطعة أن مرتكب الكبيرة ليس بكافر ،والإجماع منعقد علٰى ذٰلك ،والخوارج خوارج عما انعقد عليه الإجماع ،فلا اعتداد بهم ،وقد أخبر النبي صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم عنهم وأنكر عليهم من أشد الإنكار كما جآء فى الأحاديث الصحيحة "يخرج فى هٰذه الأمة قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم ،يقرؤن القرآن لايجاوز حلوقهم أو حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرّميّة." (صحيح البخاري، ح: ٦٩٣١) وفى رواية "فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن قتلهم أجرا لمن قتلهم يوم القيامة." (صحيح البخاري، ح: ٥٠٥٧)

المتن:

"ولانخوض فى اللّٰه ، ولانمارى فى دين اللّٰه ."

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه اللّٰه تعالٰى الأن يقول: إننا نحن أهل السنة والجماعة لانخوض

فى الله؛ لأن الله سبحانهٗ وتعالىٰ ﴿لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام:١٠٣) يعنى لاتحيط به الأبصار ،ولأن الله سبحانهٗ وتعالىٰ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(الشورىٰ:١١) ونحن لانستطيع أن نفكر عن ذاته تعالىٰ ونتصوره؛ لأنهٗ يؤدى إلى التشبيه؛ لأننا نتصور الأجسام والاعراض ،والله تعالىٰ وتقدس عن صفات الأجسام واعراضها ،فتصوره والتفكير عنه يؤدى إلى الكفر؛ لأنهٗ إما يعطّلهٗ أو يشبهه ،وكلاهما كفر ،فنحن نؤمن بالله تعالىٰ كما هو أخبر عن نفسه واخبر رسولهٗ صلى الله تعالىٰ عليه وسلم عنه بدون التعطيل والتشبيه؛ لأننا أُمرنا من القرآن والسنة أن نؤمن بهٖ كذا ،ونحن قد تكلمنا عن الله سبحانهٗ وتعالىٰ وصفاتهٖ بالتفصيل ،وهٰذا كلهٗ مأخوذ من القرآن والسنة ،وهٰذا هو نؤمن به ولانتجاوزه كما تجاوزت عنه الفرق الباطلة كالمعتزلة والجهمية والجسمية والمشبهة. فاعلم أن الله عزوجل لايمكن إدراكه ولا تصوره لما ذكرنا ،ولأن إدراكنا وتصورنا مخلوق ،والله عزوجل لايكون فى المخلوق، بل هو الغني عنه ،وهو يحيط بكل شيء كما يليق بشأنهٖ ،فلايحيطه أي شيء ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ (حم سجدة:٥٤)

وقد فصلنا عنه قبلا، ولا مناقضة بما ذكرنا مع رؤية الله تعالىٰ فى الآخرة؛ لأنهٗ رؤية لذات الله تعالىٰ بعينهٖ ،وهٰذهٖ رؤية غير محيطة بهٖ ،ولايكون بالانعكاس فى الأعين ولا باتصال الشعاع بها منه؛ لأن هٰذا كل محال فى حق الله تعالىٰ ،ولايليق بهٖ ،فلا يؤدى كون الله فى خلقه بخلاف التصور والتفكر عنه؛ لأن التصور والتفكر لايكون بعينهٖ، بل الإنسان يشكل ويصور ما يتصوره فى قلبه ودماغه ،وهٰذا لايكون إلا مخلوقا ،والله عزوجل ليس مخلوقا ،ولايكون فى المخلوق ،ولهٰذا أهل الجنة لمّا يرون الله تعالىٰ (اللّهم اجعلنا منهم) يرونه ولايشغلهم شيء ما عن رؤيته ،وإذا لايرونه لايستطيعون أن يتصوره لما ذكرنا . وهٰذا أيضًا لايناقض رؤية الله تعالىٰ فى المنام؛ لأنها غير التصور والتفكر ، ولاتكون بفعل الإنسان، بل الله تعالىٰ يريه هذه الرؤية من غير فعل منه ،وهٰذهٖ نوع المشاهدة القلبي ،وليست الرؤية البصريّة التى لاتكون[1] فى هذه الدنيا.

فحاصل الكلام أننا لانخوض فى التفكر والتصور ،والكلام بغير الدليل فى حق الله تعالىٰ، بل نحن نفكر فى خلق الله تعالىٰ ،وفى القرآن ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَاٰيٰتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ . الَّذِيْنَ يَذْكُرُوْنَ اللّٰهَ قِيَامًا وَّقُعُوْدًا وَّعَلٰى جُنُوْبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُوْنَ فِيْ خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران:١٩٠-١٩١) وقال ابن عباس رضى الله تعالىٰ عنه رواه عنه الإمام البيهقي بسند جيد "تفكروا فى خلق الله ولاتفكروا فى ذات الله." (الأسماء والصفات، ح:٦١٨) فاعلم ياقارى أن غاية المعرفة بالله الإيقان بوجود الله تعالىٰ

(١) والاختلاف مشهور عن وقوعها للنبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فى المعراج ،لكن هو نقط فى حقه وبس.

بلاكيف ولامكان ،وقد قال الإمام أبوحنيفة رحمه الله تعالىٰ ،وكذلك ذوالنون المصري رحمه الله تعالىٰ "مهما تصورّت ببالك ،فالله بخلاف ذٰلك." لأن الله عزوجل تعالىٰ وتقدس عن سمات الحدوث والتحيز في الأماكن ،ولاتحيط به الجهات ولا الأقطار ، وتعالىٰ عن الحدود والغايات والأعضاء والأركان والأدوات لاتحويه الجهات الست كسائر المبتدعات. فلايتمكن في مكان ولايجرى عليه زمان، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَّهُوَ السَّمِيْعُ الْبَصِيْرُ﴾(الشورىٰ:١١)

والشيخ رحمه الله تعالىٰ يقول: إننا لانمارى في دين الله تعالىٰ يعني لانخوض في النقاش والجدال عن الإسلام بالباطل، بل دين الله الإسلام وهو الحق ،ونحن مسلمون فنتقبّل كل ما يقول الإسلام ﴿إِنَّ الدِّيْنَ عِنْدَ اللّٰهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران:١٩) ﴿وَمَنْ يَّبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيْنًا فَلَنْ يُّقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْاٰخِرَةِ مِنَ الْخٰسِرِيْنَ﴾ (آل عمران:٨٥) ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُوْنَ حَتّٰى يُحَكِّمُوْكَ فِيْمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوْا فِيْٓ أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوْا تَسْلِيْماً﴾(النساء:٦٥) ونحن نسلّم تسليما كل ما جاء به محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم من عند الله تعالىٰ ولانمارى في دين الله تعالىٰ من أجل النقاش والجدال، بل لو نناقش ونجادل، فنناقش ونجادل لدين الله تعالىٰ وبه وعلىٰ علم ولإزالة الباطل ،ولاننافش علىٰ جهل ولا لباطل ولا به.

المتن:

> ولانجادل في القرآن ،ونشهد أنهٗ كلام ربّ العلمين ،نزل به الروح الأمين (سيدنا جبريل عليه السلام) فعلمه سيّد المرسلين محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وهو كلام الله تعالىٰ، لايساوى شيئاً من كلام المخلوقين ولانقول بخلقه ولانخالف جماعة المسلمين.

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالىٰ يتكلم عن القرآن مرّة أخرىٰ وهذا لأهميّة هذا الموضوع (يعني لأن كثيرا من الناس ضلوا وأضلوا في هذه المسئلة فيذكره مرارا لإظهار الحق) وقد ذكرنا نحن هذا الموضوع بالتفصيل ،وفصلنا عن الكلام النفسي والكلام اللفظي ، الروح الأمين هو جبريل عليه السلام وهو الذى كان ينزل بالوحي على الأنبياء عليهم الصلوات والسلام ،ثم الشيخ استخدم كلمة التعليم ،فقال "وعلّمه سيد المرسلين صلى الله تعالىٰ عليه وسلم" ،وليس هذا تفضيل جبريل عليه السلام علىٰ سيد الكونين صلى الله تعالىٰ عليه وسلم، بل معناه كما ذكرنا أنهٗ كان ينزل بالقرآن عليه صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ،وكان بمنزلة الرسول بين الله وبين نبيه صلى الله تعالىٰ عليه

وسلم ،والمعلم الحقيقي هو اللّٰه تعالىٰ ،فلايكون سيدنا جبريل عليه السلام أفضل من النبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم على الإطلاق، بل الفضيلة الكلية لنبينا صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم، فكان جبريل عليه السلام يتلقى القرآن من اللّٰه تعالىٰ سمعا وأيضًا أخذا من بيت العزة الذى هو فى السماء الدنيا حتىٰ يعرف موضعهٗ علىٰ ترتيب القرآن فى المصاحف الذى هو نفس الترتيب فى بيت العزة ،وفى اللوح المحفوظ ،وثم ينزل مع كل هٰذا إلىٰ نبينا صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم فيقرأه عليه ويخبره عن موضعه فى القرآن فى المصحف. القرآن هو كلام اللّٰه تعالىٰ فلايشبه كلام الناس ،وهو الظاهر بنسبة الكلام النفسي ،وكذٰلك بنسبة الكلام اللفظي؛ لأنهٗ معجز ،ولايستطيع البشر أن يأتي بمثله ،وكذٰلك الكتب السماوية كلها معجزة ، لكن باعتبار الأخبار الغيبية وباعتبار الهداية والرشاد فيها ،والقرآن معجز باعتبارها كلها ،ومع ذٰلك باعتبار عباراته التى نُظم عليها فى غاية الفصاحة والبلاغة والحلاوة. وفى الحديث: "يقول الربّ تبارك وتعالىٰ: من شغله القرآن عن ذكرى، ومسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ،وفضل كلام اللّٰه علىٰ سائر الكلام كفضل اللّٰه علىٰ خلقه ." (سنن الترمذي، ح:٢٩٢٦) ومعنى "عن ذكرى" واللّٰه أعلم أنواع الذكر الأخرى غير القرآن؛ لأن القرآن نفسه ذكر اللّٰه كما هو الظاهر؛ لأن من يقرأ القرآن يذكر اللّٰه لامحالة. ولا نقول: إن القرآن حادث مخلوق ،ولانفارق الجماعة فى هٰذا الشأن كالمعتزلة الذين يقولون بخلقه وحدوثه ،وكالكرامية وابن تيمية وأتباعه فيه الذين يقولون بحدوثه ،وثم هٰذا كلهٗ يرجع إلى كلام اللّٰه الذى هو الصفة القائمة به ،وهو الكلام النفسي ،وقدبيّنا كل هٰذا قبلا ،وفى الحديث "لايجمع اللّٰه أمة محمّد علىٰ ضلالة." أخرجه الحاكم. (المستدرك، ح:٣٩٣) ونحن لانفارق الجماعة ومعناه إجماع أهل الحق .

المتن:

ولانكفّر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله، ولانقول لايضر مع الإيمان ذنب لمن عمله.

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه اللّٰه تعالىٰ الأن يتكلم ويرد على الخوارج والمرجئة ،فقال أوّلاً "ولانكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله" كما يفعلون الخوارج ،وقد مر الذكر لهٰذا الشأن ،وفصّلنا فيه ،فالأن نتكلم عن القول الثانى ،وهو يتعلق بالمرجئة وهو: ولا نقول لايضر مع الإيمان ذنب لمن عمله: وهٰذا ردّ على المرجئة الذين يقولون: إنهٗ لايضر الذنب مع الإيمان ،فما دام واحد مؤمنا فهو يدخل الجنة بغير عذاب ما ،وهٰذا قول المرجئة من أعظم الفساد وأشد الخلاف لأصول

الدين القاطعة ،وهو هجوم علیٰ أساس الشريعة حتیٰ لايبقی من الشريعة إلا التصديق والإقرار ،وزال منها كل ما يتعلق بالأعمال من الجوارح ،فلاحلال ولاحرام إلا ما يتعلق بالتصديق بالقلب والإقرار باللسان ،وهٰذا هدم الشريعة ،ولهٰذا هٰذا القول كفر بواح بلاخلاف ،ولاشک ،ويلزم إنكار الدلائل القاطعة والنصوص الثابتة من القرآن والسنة والإجماع أن المؤمن عليه اتباع الشريعة فی جميع ما يتعلق بحياته ، وأن يراعی الحلال والحرام وإلا يستحق العذاب والعقوبة ،ولو فی الأخير بعد عذابه يدخل الجنة بسبب إيمانه ،وهٰذا كلہ ثابت ،والمرجئة بقولهم أنكروا جميع هٰذه النصوص القاطعة الثابتة ،وهٰذا يلزم الكفر ،ولا حاجة لذكر هٰذه الدلائل لاشتهارها وظهورها فی القرآن والسنة ،وهو معلوم من الدين بالضرورة بين المسلمين ، لكن مع هٰذا نذكر بعضها.

(١) فی القرآن :﴿وَمَن يَعْصِ اللّٰهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (النساء:١٤) فثبت أن عصيان اللّٰه ورسوله والتعدی من حدوده يستدعی دخولا فی النار ،ثم لو هٰذا العصيان يشمل الكفر والشرک ،فالخلود فی النار علیٰ ظاهره ،ولو لايشتمل علی الكفر والشرک، بل يشتمل علیٰ ما دونهما ،فالخلود متأوّل بمدة طويلة دون الأبد ضرورة لموافقته مع الآيات الأخری والأحاديث الصحيحة التی تثبت أن المؤمن لايخلد فی النار أبدا.

(٢) ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ (النساء:٩٣) فثبت أن من قتل مؤمنا فجزائه ما ذكر اللّٰه فی هٰذه الآية ،وقد يكون قاتلہ أيضًا مؤمنا ،فلہ كل ما ذكر اللّٰه فی الآية ،ثم لو كان علیٰ وجه الاستحلال أو لو كان قتلہ لأنہ مؤمن وهٰذا كفر يلزم الخلود فی النار أبدا ،وإن كان مؤمنا قتل مؤمنا لاعلیٰ وجه الاستحلال والاستخفاف ولا لأنہ مؤمن لأن هٰذا يلزم معاداة الإسلام وهو كفر ،فيكون الخلود متأول بمدة طويلة ضرورة لموافقة مع النصوص الأخری كما بيّنا.

(٣) الأحاديث الكثيرة فی هٰذه الباب ، وهي المتواترة فی قدر المشترک بلاشک ،وهو أن المؤمن يستحق العذاب والعقوبة مع إيمانه.

١) "ماأسفل من الكعبين من الإزار فی النار." (صحيح البخاري، ح:٥٧٨٧)

٢) "لعن اللّٰه الواصلة والمستوصلة، والواشمة والمستوشمة ." (صحيح البخاري، ح:٥٩٣٣)

٣) "إن أشد الناس عذابًا عند اللّٰه يوم القيامة المصورون." (صحيح البخاري، ح: ٥٩٥٠)

٤) "لايدخل الجنة قاطع." (صحيح البخاري، ح:٥٩٨٤)

٥) "الرحم شجنة من الرحمٰن، فقال اللّٰه من وصلک وصلته، ومن قطعک قطعته."

(صحيح البخاري، ح:٥٩٨٨)

٦) "اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن لم يكن فبكلمة طيّبة." (صحيح البخاري، ح:٦٠٢٣)

٧) "إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره ." (صحيح البخاري: ح:٦٠٣٢)

٨) ومن قتل نفسه بشيء فى الدنيا عذب به يوم القيامة." (المعجم الكبير، ح:١٣٢٨)

٩) "لايدخل الجنة قتات." (صحيح البخاري، ح:٦٠٥٦)

١٠) تجد من شرار الناس يوم القيامة عند الله، ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه." (مسند أحمد، ح: ٩١٧١)

١١) وفى القرآن ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّيْنَ الَّذِيْنَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُوْنَ الَّذِيْنَ هُمْ يُرَاءُوْنَ وَيَمْنَعُوْنَ الْمَاعُوْنَ﴾ (الماعون:٣-٧)

١٢) ﴿وَالَّذِيْنَ يَكْنِزُوْنَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُوْنَهَا فِيْ سَبِيْلِ اللّٰهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيْمٍ﴾ (التوبة:٣٤)

والدلائل فى هذا الباب كثيرة جدا وليس عند المرجئة إلا الإنكار أو التأويلات الباطلة ،والتأويل الباطل فى ضرورات الدين لايغنى شيئًا ،فعقيد تهم الكفر لامحالة ،ثم ما ذكرنا من الدلائل فى حق المؤمن أنها علىٰ معنى أنهٗ لو لم يحصل على العفو من عند الله فيدخل النار ،ولايدخل الجنة فى أول الوهلة من البداية بدون العذاب، بل يدخل النار وقد يكون أشد الناس عذابًا ، لكن ليس على الإطلاق، بل علىٰ وجه دون وجه؛ لأن أشد الناس عذابًا على الإطلاق هم الكفار الذين يخلدون فيه أبدا ،وثم المؤمن بعد المدّة فى العقوبة والعذاب ينجو منها ويدخل الجنة فى الأخير. وهذا عقيدة أهل الحق ،وعليها تجتمع النصوص بدون الإبطال والإنكار ،وهو مُعلَّم من رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ،فعليها إجماع الصحابة رضي الله عنهم ،فمأخوذة منهم جيلا بعد جيلا إلينا ،فهو الحق لامحالة. ولاحاجة لذكر ما استدلوا بها المرجئة؛ لأن ما استدلوا بها مفسّرة مؤوّلة حتىٰ توافق مع النصوص التى ذكرنا ، لكن نذكرها وجوابها إن شاء الله العزيز.

(١) ﴿أَنَّ الْعَذَابَ عَلٰى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلّٰى﴾ (طٰه:٤٨) وجه الاستدلال أن تعريف المسند إليه يحصره على المسند. والجواب : أن المعلوم أنهٗ لايجوز قطعا وبتاتا الحصر الذى ذكروا؛ لأن فيه إبطال الآيات الأخرى والأحاديث المتواترة ،فلايجوز ما قالوا ،وبعد هذا التمهيد الجواب لهم هو سياق الآية بنفسه ،وهذه الآية فى سورة طٰه يتكلم عن كلام سيدنا موسىٰ وهارون عليهما السلام مع فرعون ،فقالوا ﴿إِنَّا قَدْ أُوْحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلٰى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلّٰى﴾ (طٰه:٤٨) فهو الكلام فى سياق

الدعوة إلی فرعون للإسلام ولطاعة الله ورسوليه عليهما الصلوٰة والسلام ،فقالوا ﴿وَالسَّلَامُ عَلٰى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلٰى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلّٰى﴾ (طٰه:٤٧-٤٨) يعنی يا فرعون لو أنت تتبع الهدیٰ الذی نحن جئناک به ،فأنت فی السلام وإلا لو تكذّب آيات الله وتتولی عن الهدی والرشاد الذی جئناک به ،فلاتطيع الله ورسوليه ،فأنت فی العذاب ،فبعد النظر فی هٰذه الآية مع سياقها أين المجال للمرجئة للاستدلال بها ،فثبت أن هٰذا الاستدلال واهي وباطل.

(٢) ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظّٰى لَا يَصْلٰهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِيْ كَذَّبَ وَتَوَلّٰى﴾ (الليل:١٤-١٦)

والجواب : فنقول مرّة أخری أنهٗ لايجوز أخذ هٰذه الآيات علٰی حصر التعذيب بالكفار والمشرک؛ لأنهٗ يناقض النصوص القاطعة الأخریٰ ،وهٰذا لايمكن ،وبعد هٰذا التمهيد الجواب لهم أن هٰذه بضوء الآيات فی سورة الليل ،وهي تتكلم عن الشخصين ،فواحد منهم التقیّ المؤمن المنفق فی سبيل اللّٰه تعالٰی والآخر المكذّب البخيل ، ففی هٰذا السياق السورة تقول ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظّٰى لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِيْ كَذَّبَ وَتَوَلّٰى وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِيْ يُؤْتِي مَالَهٗ يَتَزَكّٰى﴾(الليل:١٤-١٨)فوالله أعلم قد يكون المعنی أننا ذكرنا شخصين مختلفين ،فمنهما لايصلی فی النار المتلظی إلا الأشقی الذی كذّب وتولّٰی ،وهو هٰذا المكذب البخيل ،ومنهما الأتقی الذی يؤتی ما لهٗ يتزكی ،فسيجنبها يعنی النار المتلظی. وهٰذه الآية تكون دليلا علی المرجئة ،لأنها تقول إن الأتقی ﴿الَّذِيْ يُؤْتِي مَالَهٗ يَتَزَكّٰى وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهٗ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزٰى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلٰى﴾ (الليل:١٨-١٩)فهو الذی سيجنب النار المتلظی وكم من مؤمن متصفون بهٰذه الصفات ،والمرجئة يقولون إن جميع المؤمن يجتنب النار ،فتكون هٰذه الآيات دليلا عليهم. وأما ما ذكرنا من التأويل فهو مع النظر فی سياق السورة ،ومع ذلک يوافق مع النصوص القاطعة الأخری حتٰی لايبطل أصلا من أصول الدين. ويكون المعنی علٰی هٰذا التأويل أن ما ذكرا من الشخصين فی السورة ،فواحد منهما يصلی النار المتلظی ،وهو المكذب البخيل ،والآخر يتجنبها ،وهو المؤمن التقي الكريم ،وأما ما عداهما فالحكم معلوم من النصوص الأخری ،وهو كل الكافر والمشرک مخلّد فی النار ،والمسلم المؤمن يدخل الجنة ويخلد فيها ،إما من البداية بفضل اللّٰه ورحمته وأيضًا بعفوه لو كان له المعاصی تستلزم دخولا فی النار أو إما بعد العقوبة والعذاب فی النار فی الأخير إما بشفاعة النبي صلی الله عليه وسلم والآخرين كما تدل عليه الأحاديث الصحيحة المتواترة ،وهي أيضًا حجة لنا علی المرجئة فی دخول المؤمنين النار لمدة مادون الأبد أو بفضل اللّٰه خالصا كمايدل عليه الحديث الصحيح أيضًا . وثم ما ذكرنا لانريد به تفسير القرآن بالرأي الذی قد ثبت فی الحديث النهي لهٗ ،ولهٰذا ما ذكرنا هو عرض علی العلماء حتٰی يروا فيه. وأجيب بوجه آخر أيضًا : وهو أن هٰذه الآيات تتكلم بالنار الخاص ،فلايصلی هٰذه النار إلا

الذى كذّب وتولّٰى ولأهل النار منازل ،فلا تستلزم عدم دخول المؤمنين النار على الإطلاق. وهٰذا فى تفسير القرطبي نقلا عن أبى اسحاق الزجاج، انتهى.

(٣) ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (النحل:٢٧) وجه الاستدلال: أن الآية حصرت الخزي والعذاب فى الكفار. والجواب: بعد نفس التمهيد الذى ذكرنا سابقا وأيضا أن المفرد المحلى باللام لاعموم لهٗ عند علماء البيان والأصول ،فلايلزم انحصار الخزي مطلقا فى الكفر ،ولو قالوا: أن الله عزوجل يقول: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى اللّٰهُ النَّبِيَّ وَالَّذِيْنَ آمَنُوْا مَعَهٗ﴾ (التحريم:٨) وقال فى مقام آخر عن المؤمنين ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهٗ وَمَا لِلظّٰلِمِيْنَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (آل عمران:١٩٢) الاستدلال نفي الخزي عن الذين اٰمنوا مع النبي صلى الله تعالٰى عليه وسلم، ومن دخل النار فقد أخزاه الله كما فى الآية الأخرٰى، فلايدخل النار المؤمنون حتٰى لايُخزوْن.

والجواب: الآية تتكلم عن الذين امنوا مع النبي صلى الله تعالٰى عليه وسلم ،فقد تكون إشارة إلى الصحابة رضي الله عنهم والصحابة رضي الله عنهم فى الجملة [1] لايدخلون النار مطلقا ،فلايكون استدلالا للمرجئة فيها. وسياق الآية يدل علٰى أنها قد تكون للذين تابوا وغُفروا. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا تُوْبُوْا إِلَى اللّٰهِ تَوْبَةً نَّصُوْحًا عَسٰى رَبُّكُمْ أَنْ يُّكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِىْ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِى اللّٰهُ النَّبِيَّ وَالَّذِيْنَ آمَنُوْا مَعَهٗ نُوْرُهُمْ يَسْعٰى بَيْنَ أَيْدِيْهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُوْلُوْنَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُوْرَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ﴾ (التحريم:٨) والآية تأمر بالتوبة فأي حاجة للتوبة بعد الإيمان لو كان الإيمان بنفسه كافيا أن يخلصه صاحبه من النار بالكلية ،فهٰذه الآية دليل على المرجئة ،لأنها تأمر أهل الإيمان بالتوبة ،فثبت أن الإيمان لاينجى صاحبه من النار بالكلية بنفسه، بل لابد من امتثال الأوامر واجتناب النواهي. وثم على التوبة من المعاصى تأتى الآية بالبشارة بتكفير السيأت وإدخال الجنة يوم لايخزى الله النبي والذين امنوا معهٗ ،فيكون هٰؤلاء الذين اٰمنوا معهٗ هم الذين تابوا من المعاصى توبة نصوحا وامتثلوا بأوامر الله واجتنبوا نواهيه (والله أعلم) فعلٰى هٰذا أيضًا لا استدلال للمرجئة ،وثم الخزي المنفي عن المؤمنين هو الخزي الكامل ،وهٰذا هو الخزي الذى يكون على الكافرين كما قال ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوْءَ عَلَى الْكَافِرِيْنَ﴾ (النحل:٢٧) والمؤمنون ، ففى حقهم

(١)فى الجملة بمعنى جميع الصحابة رضي الله عنهم ،المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، وقلنا فى الجملة؛ لأنهٗ كما جاء فى الحديث الصحيح عن رجل يقال له: كركرة كان على ثقل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، فمات، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: هو فى النار: فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عباءة قد غلّها. (صحيح البخاري، ح:٣٠٧٤) ـ والظاهر أنهٗ كان صحابيا رضي الله عنه ،لكن استحق دخولا فى النار بسبب الغلول فلم يكن من الذين دخلوا الجنة من البداية ، لكن داخلها لا محالة إن كان صحابيا رضي الله عنه ـ ،لكن هٰذا ليس الكلام فى أجلة الصحابة رضي الله عنهم (لا سيما المهاجرين والأنصار)، بل الكلام عن رجل كان مسلما ورأى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم.

الخزی و العذاب یعقبه عزة ونعیم للأبد فهٰذا الخز ي كالعدم بنسبة خز ي الكافرين. فعلٰى هٰذا يكون معنى الآية : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾(آل عمران:١٩٢) إما من تخلد فی النار كما قالهٗ أنس بن مالک وقتادة وسعيد بن المسيب أو قد تكون على المعنى أنهٗ من يدخل النار فقد أخزاه اللّٰه ،فيكون مخزيًا ، لكن فی حق الكافرين هٰذا علٰى وجه الكمال وللأبد ، لكن فی حق المؤمنين ،فلاعلٰى وجه الكمال، بل علٰى وجه دون وجه وليس للأبد، بل لمدة ما لتطهير من الأثام والذنوب حتٰى ينجوا منها ويدخلون الجنة التی هي دارالسلام والعزة والنعمة ،فيكون هٰذا الخزي كالعدم بنسبة خزي الكافرين. واللّٰه أعلم ،ويهدى من يشآء إلى صراط مستقيم.

فحاصل الكلام أنهٗ لا استدلال للمرجئة فی أي من هٰذه الآيات ،وثم كما ذكرنا سابقا أن قولهم وعقيدتهم الباطلة يخالف الآيات القرآنية والأحاديث المتواترة ،فيكون كفرا وأيضًا يخالف ضرورات الدين المشتهرة بين المسلمين ،فلاشک فی كفرهم.

اعلم ياقاری! هدا نی وهداک اللّٰه. يجوز العقاب على الصغيرة ،وهٰذا سواء اجتنب مرتكبها الكبيرة أم لا ،ولو ارتكبها هل تاب منها أم لا لدخولها تحت قوله تعالٰى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ (النساء:٤٨) ووجه الاستدلال من هٰذه الآية هو أنهٗ حصر مغفرة ما دون الشرک (والكفر) علٰى "لمن يشاء" ، فيفهم من ذٰلک الجواز أن يكون بعضا من مرتكبی ما دون الشرک و الكفر غير مغفور ومعاقباً ، ويجوز أن تكون تلک المعصية صغيرة، فيقتضی جواز العقاب على الصغيرة ،وهي كلها تحت مشية اللّٰه كما فی الآية ،فاجتناب الكبائر موجود أم لا ،الجواز للعقاب على الصغيرة موجود لابد، وهٰذا مذهبنا أهل السنة والجماعة ،ولهٗ دلائل كثيرة سنذكر مزيدا منها، وخلاف ذٰلک مذهب المعتزلة الذين يقولون :إنهٗ لايجوز العقاب على الصغيرة لو اجتنب الكبيرة ،لولايجتنب الكبيرة ووقع فی واحد منها استحق العقاب للكل ،وهو عندهم خلود فی النار ،وهٰذا لو مات بغير التوبة. هٰذا هو مذهبهم مخلّصاً فی هٰذا الشأن. ونحن إن شاء اللّٰه نذكر أدلتنا ،والجواب لدلائلهم إن شاء اللّٰه العزيز وقبل أن نذكر هٰذا ،اعلم أنهٗ ما دام الكلام من حيث قدرة اللّٰه تعالٰى ،فالمعتزلة لايقولون إنهٗ تعالٰى غير قادر على العقوبة على الصغيرة ،ولو لم يرتكب الكبيرة، بل هم يقولون هٰذا القول من حيث أن اللّٰه عزوجل لايفعلهٗ للدليل السمعي كماهم يزعمون مع القدرة عليه. كما نحن نعرف أن اللّٰه عزوجل قادر علٰى أن لايعذب الكفار والمشركين ويدخلهم الجنة ، لكن نحن نعرف قطعا بسبب الأدلة القاطعة من القرآن والسنة أن اللّٰه عزوجل لايفعل هٰذا، بل يعذبهم فی النار إلى الأبد مع القدرة علٰى عدم تعذيبهم ، فالمعتزلة يقولون ما ذكرنا عنهم من هٰذا الحيث ،والدليل السمعي الذی هم يستدلون بهٖ كماهو زعمهم هو الآية ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ

عَنْكُمْ سَيِّاٰتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُّدْخَلاً كَرِيْمًا﴾ (النساء: ٣١) فهم يقولون على تقدير الاجتناب من الكبائر يحصل تكفير السيأت يعنى الصغائر ،فلاعقاب على الصغيرة مع اجتناب الكبيرة.

والجواب بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز هو لو كان معنى الآية كما أنتم تزعمون يا معتزلة! فعلى هذا التقدير يلزم أن لاتكون الصغائر من الأثام وتصير بمنزلة المباح مادام واحد يجتنب الكبائر. وهذا يلزم الفساد غايته التي لا تخفى ،حتى يكون المحرّمات محصورة فى الكبائر ،وقولكم يؤدى إلى هذا الباطل ،فالناس مادام يجتنبون الكبائر ،لايبالون عن الصغائر مطلقا ،وهذا لايجوز قطعا بتاتا كما هو الظاهر، بل هذا الشيء يؤدى إلى الكفر؛ لأن كما ذكرنا سابقا الاستخفاف بالمعصية كفر ،فالناس عند ما لايبالون عن المعاصى التى هي الصغائر ،فيستخفون بها فيكفرون؛ لأن المعصية لله مهما كانت ليست شيئًا خفيفا ،ولم قد جاء ت فى القرآن الآيات: ﴿لا يُغَادِرُ صَغِيْرَةً وَّلَا كَبِيْرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ (الكهف: ٤٩) والإحصاء إنما يكون للسؤال والمجازاة، وكذلك ﴿وَمَنْ يَّعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَّرَهُ﴾ (زلزال: ٨) وكذلك ﴿مَنْ يَّعْمَلْ سُوْءً يُّجْزَ بِهٖ﴾ (النساء: ١٢٣) وكذلك ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِيْ صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمٰوٰتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللّٰهُ﴾ (لقمان: ١٦) وكذلك الأحاديث فى هذا الباب أيضًا كثيرة مثلاً "عن امرأة من بنى إسرائيل تعذب فى هرّة لها، ربطتها فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض." (صحيح البخاري، ح: ٣٣١٨) "ما أسفل من الكعبين من الإزار فى النار." (صحيح البخاري، ح: ٥٧٨٧) "لعن الله الواصلة والمستوصلة، والواشمة والمستوشمة." (صحيح البخاري، ح: ٥٩٣٣) واللعن يستلزم العقوبة كما هو الظاهر "إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة ،يقال لهم أحيوا ما خلقتم." (صحيح البخاري، ح: ٥٩٥١). "والحديث فى عذاب القبر فيمن كان لايستتر من البول" و "الذى يشرب فى آنية الفضة، إنما يجرجر فى بطنه نار جهنم." (صحيح البخاري، ح: ٥٦٣٤) صنفان من أهل النار لم أرهما. قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ،ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة. لايدخلن الجنة ولايجدون ريحها ،وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا." (صحيح مسلم، ح: ٢١٢٨) "إذا استعطرت المرأة فمرّت على القوم ليجدوا ريحها، فهي كذا وكذا قال قولاً شديداً." (سنن أبى داود، ح: ٤١٧٣) "ويل للذى يحدث فيكذب ليضحك به القوم، ويل لهُ ويل لهُ." (سنن الترمذي، ح: ٤٤٩١) "لايدخل الجنة الجوّاظ ولا الجعظري." (مسند أحمد، ح: ١٧٩٩٣)

وكذلك الأحاديث الأخرى ،وغاية ذكرها أنهُ قد جاء الوعيد الشديد فى هذه الأعمال التى هي فى هذه الأحاديث ،فما يقولون عنها المعتزلة؟ لو قالوا: إنها الكبائر قلنا لهم: بيّنوا لنا ماذا

تعتبرون الصغائر وما ذا تعتبرون الكبائر؟ لأن لو كل ما نذكر الحديث عن الوعيد الشديد فى عمل من الأعمال ،وأنتم تقولون إنهٗ كبيرة ،فعلٰى هٰذا كأنهٗ لاوجود لصغيرة؛ لأن ما ذكرنا من الأحاديث تحوى اعمالا مختلفة وقياسا عليها من اعتبار خباثتها وفسادها نحكم الأعمال الأخرىٰ ،فقد نصل إلى النتيجة أنهٗ لا إثم من الأثام الذى هو صغيرة، بل كلها كبيرة ،فعلٰى هٰذا التقدير يبطل ما تدّعون ويثبت ما نقول: إنهٗ يجوز العقاب على الصغيرة ولو مع اجتناب الكبيرة ، لكن من جهة أخرى ،وهي أنهٗ لا وجود للصغيرة ،وكل منها الكبيرة وإلا لوقلتم إن الكبيرة هي الشرك وقتل النفس بغير حق وقذف المحصنة والزنا والفرار من الزحف والسحر وأكل مال اليتيم وعقوق الوالدين المسلمين والإلحاد فى الحرم وأكل الربا، والسرقة، وشرب الخمر، وكل ما كان مفسدته مثل مفسدة شيء مما ذكرنا أو أكثر منه ،فعلٰى هٰذا التقدير يثبت ما نقول من الأحاديث التى ذكرنا ،وكذٰلك من الآيات القرآنية التى هي الدلائل القطعية أنهٗ كل صغيرة وكبيرة من الخير والشر يراه الإنسان فى الآخرة ،وقد أحصى كلها لهٗ ولايكون هٰذا إلا للسؤال والمجازاة ،وثم اعلم ما ذكرنا من الأحاديث فهي ردّ على المعتزلة وإلا قد يكون بعضاً منها من الكبائر ، لكن هٰذا لا يؤثر علٰى ما ذكرنا من الدلائل من حيث أنها رادّة علٰى موقف المعتزلة ،ثم بقي تفسير صحيح للآية التى استدل بها المعتزلة علٰى موقفهم الباطل . وما ذكرنا من الدلائل ثبت منها أن تأويل المعتزلة للآية غير صحيح وهو يناقض أصول الدين والنصوص الأخرى القاطعة ،فلا بد من تفسير آخر الذى يوافق أصول الدين والنصوص الأخرىٰ بلا مناقضة.

فقلنا إن التفسير للآية ثابت من الأحاديث الصحيحة وكذٰلك من القرآن ، ففى القرآن: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (هود:١١٤) وفى الحديث: "الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنب الكبائر." (صحيح مسلم، ح:٢٣٣) "ما من امرئ مسلم يحضره صلوة مكتوبة، يحسن وضوء ها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم تؤت كبيرة." (صحيح مسلم، ح:٢٢٨) وعن ابن مسعود رضي اللّٰه تعالىٰ عنه أن رجلا أصاب من امرأة قبلة ،فأتى النبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم فاخبره، فانزل اللّٰه تعالىٰ ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (هود:١١٤)فقال الرجل: يارسول اللّٰه أ لي هٰذا؟ قال: لجميع أمتى كلهم." (صحيح البخاري، ح:٥٢٦) فيكون المعنى ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ (النساء:٣١) يعنى بالحسنات كما فى الحديث مع اجتناب الكبائر، ثم لايعنى أنهٗ لو واحد يجتنب الكبائر ويفعل الحسنات صارت صغائره كلها مكفّرة باليقين؛ لأن هٰذا محمول علٰى قبول الحسنات مثلاً الصلوات الخمس علٰى وجه ينبغى أن تكون هي عليها هل هٰذا سهل؟ نحن نصلى الصلوات الخمس الحمد للّٰه ، لكن هل نحن نصلى بتمام الخشوع والخضوع

كما ينبغي ،فعلى هذا يجوز أن التكفير يحصل فى بعض الصغائر دون البعض لنقصان فى الحسنات وثم إصرار [1] على الصغيرة يكون الكبيرة ،وهذا يُخرجه من هذه البشارة التى فى الحديث بالكلية، لأنها مشروطة على اجتناب الكبائر ،وأيضًا لو يقارن الصغائر الاستخفاف ،فهذا يخرجه من الإسلام بالكلية والكافر عقوبته الحاصلة كما تدل عليه الدلائل السمعية من القرآن والسنة هي الخلود فى النار إلى الأبد ،فحاصل الكلام أن من يجتنب الكبائر ويفعل الحسنات ولايصر على الصغائر ولايستخفها فنرجوا عليه تكفير الصغائر بسبب حسناته بدون الجزم لما ذكرنا [2] وأما الإصرار والاستخفاف فقد بينا عنه ، فالجواز للعقاب على الصغيرة موجود بلا شك مع اجتناب الكبائر أو بدونها كما أثبتنا من الدلائل ،واستدلال المعتزلة باطل لما بينا ،وقد ذكرنا تأويل الآية التى استدلوا بها المعتزلة وهذا تأويل مؤيد من الأحاديث الصحيحة ولايناقض أصلا من أصول الدين والنصوص الأخرى وقد أثبتنا أن المعصية لله ليست بشيء خفيف ولا معنى أن الواحد يجتنب الكبائر فيفعل ما يشاء ،هذا لايجوز، بل هذا كفر؛ لأنهُ إجازة للمعصية وهذه كفر، بل عليه اجتناب الكبائر والصغائر وامتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه بالكلية. ولو وقع فى المعاصى فعليه التوبة والاستغفار. والله عزوجل لايغفر الكافر والمشرك يوم القيامة، بل يعذبهما فى النار أبدا. أما المؤمن العاصى (بدون الاستحلال والاستخفاف) [3] فهو إما يغفر الله لهُ لو شاء إما يعذبه للمدة وفى الأخير يدخله الجنة. وعلى هذا تحمل الأحاديث التى تذكر عدم دخول الجنة للعاصى غير الكافر والمشرك يعنى المؤمن ،فيعنى لايدخل الجنة إلا بعد عفو الله بدون العقوبة أو بعد رحمته بعد العقوبة ولا يعنى عدم دخولها بالكلية؛ لأن المؤمن كائنا من كان يدخل الجنة فى الأخير خلاف الكافر والمشرك : اللّهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام والإيمان ومن توفيته منا فتوفه على الإسلام والإيمان. وكذلك اعلم أنهُ يجوز العفو عن الكبيرة [4] يعنى بالتوبة وبدونها؛ لأن الله تعالى فعال لما يريد. لايسأل عما يفعل وهم يسئلون. وهو شامل فى هذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (النساء:٤٨) بخلاف المعتزلة الذين يقولون إنهُ لايجوز العفو عن الكبيرة، بل واجب على الله

---

(١) ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران:١٣٥) وقال سعيد بن جبير : قال رجل لابن عباس رضي الله تعالى عنه الكبائر سبع؟ قال: هي إلى سبعمائة أقرب منها إلى السبع، غير أنهُ لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع اصرار.

(٢) يعنى النقصان فى الحسنات وغيره من الأشياء.

(٣) لأنهما كفر

(٤) يعنى ما دون الشرك والكفر.

تعالٰى عقابه ،وهٰذا شيء قبيح الذى هم يقولون؛ لأن المعلوم أنهُ لا واجب على الله قطعا وبتاتا ، والمعتزلة قد ضلوا ضلالا بعيدا، بل كفروا وطغوا فى عقيدتهم عن الحسن والقبح حتٰى جعلوا قانونا ،وقالوا لايجوز لله أن يعدل عن هٰذا القانون ،وهٰذا اجتراء عظيم على الله تعالٰى ،ونحن أهل الحق (الحمد لله) نقول أنهُ لا واجب على الله البتة ، بل هو يفعل ما يشاء ويحكم مايريد ،ولايقبح من الله شيء، بل كل مايريد أن يفعل لهُ أن يفعل لاحجر عليه ولا منع ،وهو الحكيم على الإطلاق ،فكل شيء يفعل فهو الحسن والحكمة ،ونحن قد بينا عنه فى السابق ،وثم قولهم فى الكبيرة يخالف ما ذكرنا من الآية.

ثم لو قلتم: إنكم تقولون إنهُ لا واجب على الله شيء ،وكل شيء يفعل لهُ أن يفعل ،فعلٰى هذا ينبغى أن يجوز العفو عن الشرك والكفر ،ولو مات بدون التوبة ،قلنا: نعم من هٰذا الحيث الذى ذكرتم لاحجر على الله ولا منع ،فيجوز من هٰذا الحيث ، لكن لايجوز من حيث الآخر ،وهو الدلائل السمعية القاطعة من القرآن والسنة أن الكافر والمشرك لايخرجون من النار ويخلدون فيها. ومنها ما ذكرنا من الآية والدلائل الكثيرة الأخرى لاخفاء فيها ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (الم سجدة:١٩-٢٠). وهٰذا ما ذكرنا من الكبيرة ما دون الكفر والشرك ،هو لو كانت علٰى وجه عدم الاستحلال والاستخفاف وغير ذلك من أمارات التكذيب ،وقد بينا عنه فى السابق. والاستحلال تأويل من التأويلات للنصوص الدالة علٰى تخليد العصاة (أي العصاة من المؤمنين) فى النار أو علٰى سلب اسم الإيمان منهم. مثالها ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ (النساء:٩٣) والحديث "لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن." (صحيح البخاري، ح:٢٤٧٥) يعنى لو فعل هٰذه الأشياء علٰى وجه الاستحلال.

التنبيه: ولقد اتُّهِم ابن تيمية باتّباع أصول المعتزلة فى الحسن والقبح والمطابقة على الله تعالٰى (نعوذ بالله) وهٰذا الاتهام صحيح علٰى ابن تيمية ،وبناء عليه قال شيئًا عن جهنم فى الآخرة الذى يخالف النصوص القاطعة من القرآن والسنة ،ويكون كفرا لمخالفتها ،ونحن نذكر هٰذا إن شاء الله فيما بعد فى بيان الجنة والنار.

المتن:

نرجوا للمحسنين من المؤمنين أن يعفو عنهم ويدخلهم الجنة برحمته، ولانأمن عليهم ، ولانشهد لهم بالجنة، ونستغفر لمسيئهم، ونخاف عليهم ، ولانقنطهم.

الشرح:

هذا بيان مزيد لما سبق من الكلام فى نفس الموضوع ،ومعناه أننا لانجزم لأحد من المؤمنين الجنة إلا لمن ثبت من القرآن والسنة وهم الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم [1] السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ومن اتبعهم بإحسان ،فيشمل بالخصوص الخلفاء الأربعة وما عداهم من العشرة المبشرة وأهل البدر والأحد وبيعة الرضوان ،وفى القرآن ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة:١٠٠) ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ (الحديد:١٠) وقال فى مقام آخر ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ (الأنبياء:١٠١) يعنى عن النار، فالذين دونهم عما ذكرنا من المؤمنين المحسنين ،فنحن نرجوا خيرا لهم ، لكن لانجزم عنهم أي شيء؛ لأن قد ثبت فى الحديث "إنما الأعمال بالخواتيم ." (صحيح ابن حبان، ح:٣٤٠) وأيضًا "إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدوا للناس وهو من أهل النار ،وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدوا للناس وهو من أهل الجنة." (صحيح البخاري، ح:٤٢٠٧) وأيضًا "فو الله إن أحدكم أو الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ،فيسبق عليه الكتاب ،فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ." (صحيح البخاري، ح: ٣٣٣٢) فلا نعلم عنهم ما هي خاتمتهم وثم إذا ماتوا على الإيمان لانعلم أنهم يدخلون الجنة فى أول الوهلة أو بعد عقاب ما ،وهذا الكلام أيضًا فى غير الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم؛ لأن الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم فى الجملة ،فقد ثبت عنهم فى القرآن والسنة أنهم لايدخلون النار البتة ،فيدخلون الجنة فى أول الوهلة ، لكن فى غيرهم من المؤمنين [2] نحن نرجوا لهم العفو ودخولهم الجنة فى أول الوهلة ، لكن لانجزم هذا لما ذكرنا من الجواز فى العقاب فى الصغيرة (وفى الكبيرة من باب الأولى) وكل ابن آدم خطاء كما جاء فى الحديث "كل ابن آدم [3] خطاء وخير الخطائين التوّابون ." (سنن الترمذي، ح: ٢٤٩٩) فلما ذكرنا لانستطيع الجزم ،والدليل لهذا قد سبق فى البيان قبل هذا البيان. لكن نجزم قطعا أن المؤمنين

---

(١) ولا حاجة لذكر الأنبياء عليهم الصلوات والسلام؛ لأن المعلوم هم أفضل أهل الجنة.

(٢) أي الذين ماتوا على الإيمان.

(٣) غير الأنبياء عليهم الصلوات والسلام.

يدخلون الجنة فی الأخير بدون العقاب أو بعدهٗ؛ لأنهٗ ثابت من القرآن والسنة، وكذٰلك المسيئون من المؤمنين نحن نستغفر لهم؛ لأن الاستغفار مشروع إلا للكفار والمشركين؛ لأنهٗ ممنوع ولاينفعهم أيضًا بسبب الكفر والشرك المستلزم للخلود فی النار، وفی القرآن ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِيْنَ آمَنُوْا أَنْ يَّسْتَغْفِرُوْا لِلْمُشْرِكِيْنَ وَلَوْ كَانُوْا أُوْلِيْ قُرْبٰى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيْمِ﴾ (التوبة:١١٣) وقال عن المنافقين ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلٰى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَّلَا تَقُمْ عَلٰى قَبْرِهٖ إِنَّهُمْ كَفَرُوْا بِاللّٰهِ وَرَسُوْلِهٖ وَمَاتُوْا وَهُمْ فَاسِقُوْنَ﴾ (التوبة:٨٣) ويجوز للكفار والمشركين الدعاء للهداية إلى الإسلام والمغفرة بعد الإسلام ما داموا أحياء؛ لأنهٗ ممكن الوقوع، لكن لايجوز شيء منه بعد ما ماتوا لانقطاع عمله وامتناع الوقوع للإيمان والإسلام منهم، ، لكن المؤمن ولو كان مسيئا ليس كذٰلك، فنستغفر لهم فی الحياة فی الدنيا وبعدها، ونخاف عليهم لسيأتهم، وفی القرآن ﴿مَنْ يَّعْمَلْ سُوْءً يُّجْزَ بِهٖ﴾ (النساء:١٢٣) ﴿وَمَنْ يَّعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَّرَهٗ﴾ (زلزال:٨) لٰكن لا نترك الرجاء فيهم للجواز للمغفرة ﴿إِنَّ اللّٰهَ لَايَغْفِرُ أَنْ يُّشْرَكَ بِهٖ وَيَغْفِرُ مَا دُوْنَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَّشَآءُ﴾ (النساء:٤٨) ولو عذبهم اللّٰه لسيأتهم وأثامهم ليكون تطهيرا لهم، حتٰى يدخلون الجنة فی الأخير كما هو ثابت من القرآن والسنة بخلاف الكفار والمشركين الخالدين فی النار أبدا.

الكلام فی الصغيرة والكبيرة

قال أبو سيف اللّٰه غفر اللّٰه له: الأن أذكر بعض ما ذكروا العلماء فی بيانهم فی الصغائر والكبائر. قال صاحب الكفاية: الحق أنهما اسمان إضافيان، لايعرّفان بذاتيهما، فكل معصية أضيفت إلى ما فوقها فهي صغيرة، وإن أضيفت إلى مادونها فهي كبيرة. والكبيرة المطلقة هي الكفر (والشرك) إذ لا ذنب أكبر منه، لكن هذا القول لايلائم ولايبين ما قالوا الفقهاء فی فرق بين الصغيرة والكبيرة حتٰى الكبيرة تسقط العدالة فی الشهادة دون الصغيرة إلا أن يكون مصرا عليها، وكذٰلك أئمة الحديث فرقوا بينهما بأن الصغيرة يكفر بالحسنات دون الكبيرة كما ورد فی الحديث "إن الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر"، (مسند أحمد، ح:٩١٩٧) وحملوا عليه قولهٗ تعالٰى ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّاٰتِ﴾ (هود:١١٤) فثبت أنهٗ هناك فرق بين الكبائر والصغائر وقد جآء عن ابن عباس رضي اللّٰه تعالٰى عنه أنهٗ "لاكبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار ." (شعب الإيمان، ح:٦٨٨٢) ومعناه واللّٰه أعلم أنهٗ لو تاب توبة نصوحا عن الكبيرة، فصار كأنهٗ لم يفعل؛ لأن التوبة من الذنب كمن لا ذنب لهٗ ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّٰهِ لِلَّذِيْنَ يَعْمَلُوْنَ السُّوْءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوْبُوْنَ مِنْ قَرِيْبٍ فَأُوْلٰٓئِكَ يَتُوْبُ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ

﴿وَكَانَ اللّٰهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ (النساء:١٧) والمعنى "على الله" يعنى على فضل الله ورحمته بعباده، وليس واجبًا على الله شيء؛ لأن من شرط الواجب أن يكون ممن هو أعلى رتبة من الموجب عليه، وهذا محال فى حق الله تعالى، بل معناه أنهٗ وعده بفضله ورحمته وهو لايخلف وعده. ﴿إِنَّ اللّٰهَ لَايُخْلِفُ الْمِيْعَادَ﴾ (آل عمران:٩) ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّٰهِ قِيْلاً﴾ (النساء:١٢٢) ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّٰهِ حَدِيْثًا﴾(النساء:٨٧) والشروط للتوبة النصوحة: الندم بالقلب وترك المعصية فى الحال والعزم أن لايعود إلى مثلها وأن يكون ذٰلك حياء من الله (يعنى يستحيى انهٗ عصى الله (نعوذ بالله) وهذا يكون لوجه الله) لا من غيره، ، فإذا اختل شرط من هذه الشروط لم تصح التوبة، وأيضًا الاعتراف بالذنب وكثرة الاستغفار، فمن فعل التوبة الصحيح، فصار كمن لاذنب لهٗ، فلاكبيرة مع الاستغفار، وبالعكس من يفعل صغيرة ويصر عليها ولايتوب، فهذه الصغيرة لا تبقى صغيرة، بل صارت كبيرة، وقد تصير كفرا لوتقارن الاستخفاف، وقد بيناه سابقا، اعلم أن فى بيان الصغائر والكبائر قالوا العلماء: أنهٗ ما جاء فى القرآن والحديث من الوعيد أو اللعنة أو الحد الشرعي أو إطلاق اسم الفاسق والفاجر على مرتكبه فى ذنب من الذنوب فهو كبيرة، وكذٰلك قالوا: إن الذنب الذى يكون مقصودا بذاته ولايكون من الذرائع والوسائل، فهو أيضًا كبيرة، والمعنى(والله أعلم) الزنا هو كبيرة؛ لأنهٗ الذنب المقصود بالذات، والنظرة والفكر من الذرائع والوسائل لهٗ، وكذٰلك قالوا الصغيرة الذى تُفعل مع الإصرار تكون كبيرة، وبعد هذا التمهيد قالوا كل ا لإثم الذى مفسده يساوى مفسد الكبائر المنصوصة عليها فى القرآن والسنة أو يزيد مفسدته عليها تكون كبيرة أيضًا ومن أمثالها:

(١) الشرك بالله (وهو كفر) (٢) الإصرار على المعصية (٣) القنوط من رحمة الله (وهو كفر) (٤) الأمن من مكره (وهو كفر) (٥) شهادة الزور (٦) قذف المحصنة (٧) اليمين الغموس (٨) السحر (٩) شرب الخمر (١٠) أكل مال اليتيم ظلما (١١) وأكل الربا (١٢) الزنا (١٣) اللواطة (١٤) القتل (١٥) السرقة (١٦) الفرار عن الزحف (١٧) عقوق الوالدين وغيرها من أمثالها. وفى القرآن: ﴿وَلِلّٰهِ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِيْنَ أَسَاءُوْا بِمَا عَمِلُوْا وَيَجْزِيَ الَّذِيْنَ أَحْسَنُوْا بِالْحُسْنَى الَّذِيْنَ يَجْتَنِبُوْنَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُوْنِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقٰى﴾ (النجم:٣١-٣٢) وفى صحيح البخاري والمسلم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه قال: ما رأيت شيئًا أشبه باللمم مما قال أبوهريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال: "إن الله كتب على ابن آدم (المراد هو غير الأنبياء عليهم الصلوات والسلام) حظه من الزنى أدرك ذٰلك لامحالة، فزنى العينين النظر، وزنى اللسان النطق، والنفس تتمنى وتشتهى، والفرج يصدق ذٰلك أو

يكذبه." (صحيح البخاري: ح: ٦٦١٢) والمعنى أنهٔ لو نظر ونطق وتمنى، لكن قبل الوقوع فى الزنا بالفرج تاب وترك النظر والنطق والتمنى، فهٰذه الصغائر تكون مغفورة إن شاء الله بتوبته أو بحسناته ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (هود:١١٤) ولو يبقى منها شيء فهو بسبب نقصان فى التوبة أو الحسنات، وقد بيناه سابقا، لكن لو لا يزنى بالفرج، لكن يُصر ويستمر فى النظر والنطق والتمنى والفكر، فهٰذه الصغائر تكون فى نفسها كبائراً بالإصرار؛ لأنهٔ لا صغيرة مع الإصرار؛ لأنهٔ لايترك ولايتوقف من معصية الله تعالىٰ، بل يُصر فيها ولايستغفر، وهٰذا الأمر قد يؤدى من الكبيرة دون الكفر إلى أكبر الكبيرة، وهو الكفر؛ لأنهٔ بالإصرار يكون علىٰ حالة لايندم ولايستحيى من الله تعالىٰ ولايبالى (ولايستغفر) وهٰذهٖ أمارات الاستخفاف، وهو الكفر، فالحذر الحذر، ولاتغتر بمعنى لهٰذا الحديث، ونحن قد بيّنا المعنى لهٰذا الحديث. والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

المتن:

والأمن والاياس ينقلان عن ملة الإسلام وسبيل الحق بينهما لأهل القبلة.

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالىٰ يتكلم الأن عن الأمن واليأس، ومعناهما الأمن من مكر الله، ومكر الله أن يأخذ المجرم بالعذاب البغتة بعد إمهاله ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأعراف:٩٧-٩٩) واليأس من رحمة الله ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف:٨٧) ولا فرق بين الحوائج الدنيوية والأخروية. أما الحوائج الأخروية فهو ظاهر؛ لأن الآخرة حياة أبدية والعيش الأصلى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ وفى الحديث "اللّٰهم إن العيش عيش الآخرة، فاغفر الأنصار والمهاجرة." (صحيح البخاري، ح:٢٨٣٤) وفى الحديث "إن الله تعالىٰ خلق يوم خلق السمٰوات مائة رحمة، كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض، فجعل منها فى الأرض رحمة، فيها تعطف الوالدة علىٰ ولدها. والوحش والطير بعضها علىٰ بعض، ، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهٰذه الرحمة." (صحيح مسلم، ح:٢٧٥٣) فهي دار الرحمة للمؤمنين التى فيها أكمل مائة رحمة واليأس منها داخل فى إطلاق الكفر عليه لامحالة، ثم الآية فى إطلاقها تشمل الكل، وأما الحوائج الدنيوية فهو ظاهر من سياق الآية، وهو

سيدنا يعقوب عليه السلام يقول لبنيه أن يتحسسوا ليوسف (عليه السلام) وأخيه ،وهي الحاجة في هذه الدنيا؛ لأن التحسس عن يوسف عليه السلام لايكون في الآخرة، بل هو وأبوه عليهما السلام سيكونا فائزين مجتمعين في الجنة، ففي هذه الحاجة قال عليه السلام ﴿ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُوْنَ﴾ (يوسف:٨٧) وحاجة الآخرة من باب الأولى شاملة فيها ،فثبت أنهُ لا فرق بين اليأس في الحوائج الدنيوية والأخروية وأنهُ كفر في حالتهما ،وأيضًا في القرآن ﴿وَمَنْ يَّقْنَطُ مِنْ رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّآلُّوْنَ﴾ (الحجر:٥٦) فالشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى يقول: إن اليأس من رحمة الله تعالى والأمن من عذابه ينقلان عن ملة الإسلام يعني من يفعل واحدا منهما يخرج من ملة الإسلام، ويكون من الكافرين، ونحن قد أثبتنا هذا من الدلائل من القرآن . ثم في هذا الأمر بحث يعني في كفر من يأمن من عذاب الله أو ييئس من رحمة الله . ففي بعض الوجوه يكون كفرا كما يقول الشيخ رحمه الله تعالى استدلالا من الآيات التي ذكرنا، والآية أيضًا تتعلق بهذه الوجوه ،وهو اليأس والأمن في الحقيقة، ثم هناك بعض الوجوه التي في عرف الناس يعتبر اليأس والأمن لصورتها الظاهرة ، لكن ليست منهما في الحقيقة، وفاعلهما فاسق دون كافر، وبعد هذا التمهيد نبين لك إن شاء الله العزيز بتوفيقه تعالى ما ذكرنا.

(١) فأما ما هو الكفر وهو اليأس من رحمة الله تعالى الحقيقي، وهو يشمل تكذيباً لنصوص الوعد وهو واحد ييئس من رحمة الله تعالى ويتيقن أنهُ يكون معذوبا عندهُ تعالى وإن يتوب ويستغفر، وفيه كما ذكرنا تكذيب بنصوص الوعد، ومنها ﴿وَإِنِّيْ لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدٰى﴾ (طه:٨٢) ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِيْنَ أَسْرَفُوْا عَلٰى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوْا مِنْ رَّحْمَةِ اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ يَغْفِرُ الذُّنُوْبَ جَمِيْعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُوْرُ الرَّحِيْمُ﴾ (الزمر:٥٣) ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّٰهِ لِلَّذِيْنَ يَعْمَلُوْنَ السُّوْءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوْبُوْنَ مِنْ قَرِيْبٍ فَأُولٰئِكَ يَتُوْبُ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّٰهُ عَلِيْماً حَكِيْماً﴾(النساء:١٧) ﴿إِنَّ اللّٰهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُّشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُوْنَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَّشَاءُ﴾ (النساء:٤٨) وتكذيب أي نص من النصوص القطعية كفر، وأيضًا في اليأس الحقيقي إنكار قدرة الله تعالى على الإحسان؛ لأنهُ لو يعتقد أن الله تعالى قادر على أن يقبل توبتهُ إن تاب ويقدر على أن يعفو عنه في الآخرة إن لم يتب فلايتيقن بعذابه لهُ لامحالة، ولاييئس من رحمة الله تعالى ولايورد عليه أن الكفار والمشركين لاعفو لهم إن لم يتوبوا في الدنيا؛ لأنهُ ليس بسبب عدم القدرة، بل بسبب الوعيد الذى سبق من الله تعالى أنهُ لايغفر لهما، بل يعذبهما أبدا، والإيمان بالنصوص فرض بغض النظر أنها تتعلق بالوعد أو الوعيد ،لافرق بينهما، وهذا هو اليأس الحقيقي، وما ذكرنا من إنكار القدرة فيه ظاهر في الحوائج الدنيوية؛ لأن لو يقول القائل الله لانص في أن هذه الحاجة لي من الحوائج الدنيوية تكون مقضية بها ،وأما الدعاء فهو في مشيئة الله تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّٰهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللّٰهِ تَدْعُوْنَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ بَلْ إِيَّاهُ

تَدْعُوْنَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُوْنَ إِلَيْهِ إِنْ شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُوْنَ﴾ (الأنعام:٤٠-٤١) والحديث "قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم "لايقولن أحدكم اللّٰهم اغفر لى إن شئت، اللّٰهم ارحمنى إن شئت ليعزم فى الدعاء، فإن اللّٰه صانع ما شاء لا مكره له." (صحيح مسلم، ح: ٢٦٧٩) وأيضًا "ما من أحد يدعو بدعاء إلا آتاه اللّٰه ما سأل أو كف عنه من سوء مثله، ما لم يدع بإثم أو قطعية رحم." (سنن الترمذى، ح: ٣٣٨١) فعلىٰ هٰذا ليس بضروري أن الداعي يحصل علىٰ نفس ما دعاله، وهٰذه كلها تفسر الآية ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِىْ عَنِّىْ فَإِنِّىْ قَرِيْبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيْبُوْا لِىْ وَلْيُؤْمِنُوْا بِىْ لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُوْنَ﴾ (البقرة:١٨٦) يعنى لو يدعوا اللّٰه مع الالتزام لشرائط قبولية الدعاء، فاللّٰه عزوجل لو شاء يعطيه نفس ما دعا لهٗ أو كف عنه من سوء مثله، فإذا يكون هٰكذا، فلا نص أن هٰذه الحاجة من الحوائج الدنيوية تكون مقضية بها، فلو واحد ييئس من روح اللّٰه فى حاجة من الحوائج الدنيوية، فلا يستلزم رد النصوص بالوعد إذ تكون الحاجة من الحوائج التى لانص فيها لتكون مقضية بها. فالجواب هو ما ذكرنا من الدليل الآخر وهو إنكار قدرة اللّٰه تعالىٰ؛ لأنهٗ لو يعتقد أن اللّٰه قادر علىٰ أن يقضي هٰذه الحاجة، فلا ييئس ولايتيقن أن هٰذه الحاجة لاتكون مقضية بها كأنهٗ يعتقد أن هٰذا غير ممكن، وأيضًا فيه ادعاء علم بالغيب؛ لأنهٗ لو يتيقن أن هٰذه الحاجة لاتكون مقضية بها، فأنى لهٗ هٰذا العلم؛ لأن هٰذا أمر فى المستقبل وهو من الغيب، فتيقنه ادّعاء بعلم الغيب، وهٰذا أيضًا كفر؛ لأن اللّٰه تعالىٰ يقول: ﴿قُلْ لَّا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللّٰهُ﴾(النمل:٦٥) ﴿وَمَا تَدْرِىْ نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ (لقمان:٣٤) ففيه إنكار هٰذه النصوص وهو الكفر، فافهم، واللّٰه يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم. وهٰذا بيان اليأس الحقيقي من رحمة اللّٰه تعالىٰ وهو الكفر. وكذٰلك الأمن من مكر اللّٰه تعالىٰ وعذابه، وهو الكفر، ويرجع هٰذا الكفر إلى الحقيقي منه، وهو تكذيب بنصوص الوعيد حتىٰ يتيقن أنهٗ لايعذبه اللّٰه تعالىٰ علىٰ معاصيه، وأيضًا هٰذا يؤدى إلى الاستخفاف للمعاصى أيضًا، وهو كفر أيضًا، واعتقاده أن اللّٰه لايعذبه تكذيب للنصوص القاطعة من القرآن والحديث فى تعذيب العاصى، وقد ذكرنا منها كثير مثلاً ﴿وَمَنْ يَّعْمَلْ سُوْءً يُّجْزَ بِهٖ﴾ (النساء:١٢٣) ﴿وَمَنْ يَّعْصِ اللّٰهَ وَرَسُوْلَهٗ وَيَتَعَدَّ حُدُوْدَهٗ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيْهَا [1] وَلَهٗ عَذَابٌ مُّهِيْنٌ﴾ (النساء:١٤) والنصوص الكثيرة الأخرى وتكذيب واحد من النصوس القطعية كفر، وأيضًا الأمن ينكر قدرة اللّٰه تعالىٰ على البطش؛ لأنهٗ لو يعتقد أن اللّٰه قادر علىٰ أن يعذبه لايأمن من عذابه، وإنكار قدرة اللّٰه تعالىٰ علىٰ شيء كفر أيضًا، وأيضًا فيه إخبار بالتيقن عن المستقبل بدون الحصول عليها من القرآن والسنة [2] وهو إدعاء بعلم الغيب، وهو كفر أيضًا، وهٰذا الأمن الحقيقي من عذاب اللّٰه ومكره، وهو الكفر.

---

(١) وهو محمول على المدة الطويلة دون الأبد فى حق المؤمن وقد ذكرنا سابقا.

(٢) لأن فيهما كثير من أخبار الغيب وقد مر الفرق بين علم الغيب الذى هو صفة اللّٰه تعالى الخاصة وأخبار الغيب التى يعطى بعضها اللّٰه تعالى من يشاء من الأنبياء

(٢) وأما وجوه اليأس والأمن التي لاتكون كفرا وهي كما ذكرنا بحسب صورتها، وليس اليأس والأمن فى الحقيقة وبيانها أن واحدا بسبب الذنوب[1] الكثيرة غير متوبة عنها بتوبة نصوحة يظن ظنا غالبا أن الله عزوجل سيعذبه ولايعفو عنه فيعاقبه عليها قبل إدخاله الجنة بسبب إيمانه وإسلامه ،وهٰذا علىٰ وجه الظن الغالب نظراً إلى ذنوبه والوعيد عنها فى القرآن والسنة ،وليس علىٰ وجه التيقن حتىٰ يستلزم إدعاء علم الغيب وإنكار الآية ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَّشَآءُ﴾ (النساء:٣٨) فهٰذا ليس كفرا ، لكن من الكبائر بسبب مشاكلته باليأس من روح الله الذى ذكرنا سابقا فهٰذا الفعل أيضًا يأتى تحت اليأس ، لكن فى صورة مختلفة كما بيّنا الفرق ببيانه وبيان ما سبق قبلا فهو إثم كبير دون الكفر؛ لأنهٗ عليه أن يرجوا رحمة الله تعالىٰ دائما مع الخوف من عذابه تعالىٰ وفى القرآن ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِيْنَ أَسْرَفُوْا عَلٰى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوْا مِنْ رَحْمَةِ اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيْعًا إِنَّهٗ هُوَ الْغَفُوْرُ الرَّحِيْمُ﴾ (الزمر:٥٣)

وأيضًا مع هٰذا الرجاء يتوب إليه بالتوبة الصالح. ﴿وَإِنِّيْ لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (طٰه:٨٢) فبسبب أنهٗ اليأس الصورى يكون فعلهٗ إثما كبيرا ، لكن بسبب أنهٗ ليس على الوجه يستلزم الإنكار بنصوص الوعد؛ لأنهٗ لايقول لو أنهٗ يتوب أن الله عزوجل لايقبل توبته ولايقول بالتيقن أن اللّٰه يعذبه فى الآخرة بدون الاحتمال للعفو والمغفرة ولاينكر قدرة الله تعالىٰ عنهما ولايقول ما يقول بالتأكد أنهٗ سيكون هٰكذا، بل هو يقول ما يقول علىٰ وجه غلبة الظن نظرا إلى ذنوبه وإلى الوعيد عنها فى النصوص فلايستلزم فعلهٗ ما استلزم ما ذكرنا فى البيان السابق فلا يكون كفرا

ويدل عليه الحديث أخرجه البخاري عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم قال: "كان رجل ممن كان قبلكم يسيء الظن بعمله فقال لأهله إذا أنا متّ فخذونى فذرّونى فى البحر فى يوم صائف ففعلوا به، فجمعه الله تعالىٰ ثم قال : ما حملك على الذى صنعت؟ قال: ما حملنى عليه إلا مخافتك، فغفر له." (صحيح البخاري، ح: ٣٤٨٠) وهٰذاالحديث فى تفسيره كلام كثير ولويشاء اللّٰه سنتكلم عنه فيما بعد وهٰذه الرواية عن حذيفة رضي الله عنه فى البخاري فهٰذا الشخص كان يسئى الظن يعنى ظن الظن الغالب أن الله تعالىٰ سيعذبه بسبب ذنوبه وكان خائفا من عذاب الله فقال ما قال لأهله مخافة عذاب الله تعالىٰ كما فى الحديث فيعنى (والله أعلم) أنهٗ كان خائفا من عقوبة الله وعذابه إلى حد أنهٗ تمنى أن يكون نسيا منسيًا حتىٰ لايلاقى عقوبته وعذابه فقال لأهله ما قال تقدما إلى ما يكون مثلهٗ نسيا منسيّا عند الناس يعنى لو واحد أخذ شيئًا وكسّره وفتّته حتىٰ يجعلهٗ مسحوقا وثم يذرّه فى البحر فى يوم صائف فباعتبار عرف الإنسان هٰذا

(١) دون الكفر والشرك

الشيء صار نسيا منسيا لعدم طاقة الإنسان أن يعود به فهٰذا الشخص أراد أن يُفعل به نفس الشيء تمنيًا أن يكون نسيا منسيًا قبل أن يلاقی عقوبة اللّٰه وعذابه مخافة بعذابه وعقوبته وهو يظن أنهٔ يلاقيه بسبب ذنوبه وليس اعتقادا ان اللّٰه عزوجل لايقدر أن يجمعه ولا اعتقاداً أن اللّٰه لايبعثه بعد الموت، لأن هٰذه الأشياء من الضرورات وهٰذا الشخص كان يعرف الخير من الشر فی الأعمال ولذٰلک علم انهٔ أذنب كثيرا وكان يظن أنهٔ يلاقی العقوبة فی الآخرة وأيضًا هٰذا يدل علٰی أنهٔ يعتقد علی الآخرة والبعث والسؤال والمجازاة ودلالة اعتقاده بكل هٰذه الأشياء ظاهرة فی متن الحديث وسياقه ففعلهٔ ليس علٰی وجه الكفر من إنكار قدرة اللّٰه علٰی جمعه أو عدم بعثه لوفُعل به ما قال لأهله؛ لأنهٔ لو كان علٰی وجه الكفر فلا مغفرة لهٔ؛ لأن الكافر يخلد فی النار أبدا وهٰذا الأمر من البداية حتٰی قال اللّٰه تعالٰی لأبی البشر سيدنا آدم عليه السلام ﴿قُلْنَا اهْبِطُوْا مِنْهَا جَمِيْعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّی هُدًی فَمَنْ تَبِعَ هُدَایَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُوْنَ وَالَّذِيْنَ كَفَرُوْا وَكَذَّبُوْا بِآيَاتِنَا أُوْلٰٓئِکَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُوْنَ﴾ (البقرة:٣٨-٣٩) وهٰذا الشخص غفر اللّٰه تعالٰی لهٔ فثبت أنهٔ ليس علٰی وجه كفر ما وأيضًا يدل عليه متن الحديث وهو لما سُئل من اللّٰه تعالٰی: ما حملک علی الذی صنعت؟ فلم يجب أنهٔ قد ظن لو فعل به ما فعل لما يكون اللّٰه قادرا علٰی جمعه(نعوذ باللّٰه) أو لما يجمعه اللّٰه تعالٰی البتة مع القدرة علٰی جمعه، بل يتركه ذرات منتشرة، بل قال: إنهٔ صنع ما صنع مخافة اللّٰه تعالٰی وأقرّه اللّٰه تعالٰی علٰی هٰذا الجواب كما فی الحديث من عدم اعتراض علٰی هٰذا الجواب فثبت أنهٔ فعل مخافة عقوبة اللّٰه وعذابه حتٰی كان متمنيا أن يكون نسيا منسيا مخافة عذاب اللّٰه وليس اعتقادا أنهٔ سيكون هٰكذا فی الحقيقة ويفرّ من الحساب هٰكذا فيكون من قبيل (واللّٰه أعلم) كما جآء فی الحديث مرفوعا وموقوفا عن أبی ذر رضي اللّٰه تعالٰی عنه "لوددت أنی كنت شجرة تعضد ." (سنن الترمذي، ح: ٢٣١٢) يعنی مخافة الحساب وليس اعتقادا علٰی عدم الحساب. وهٰذا ما ذكرنا بيان شافی الحمد للّٰه وإن شاء اللّٰه تعالٰی لهٰذا الحديث وهٰذا رواية حذيفة رضي اللّٰه تعالٰی عنه وكذٰلک رواية أبی سعيد الخدري رضي اللّٰه تعالٰی عنه عن نفس الحديث وتفسيرنا لهٔ ينطبق عليه أيضًا والحمد للّٰه وهٰذه روايات البخاري للحديث وهي أولٰی من رواية أبی هريرة رضي اللّٰه تعالٰی عنه عن نفس الحديث الذی هو فی صحيح المسلم بسبب مناقضتها مع أصول الدين ، لكن رواية أبی هريرة رضي اللّٰه تعالٰی عنه أيضًا مع التفسير الصحيح الذی يوافق أصول الدين واللغة العربية تكون مقبولة بلا مشكلة والفرق فی رواية أبی هريرة رضي اللّٰه تعالٰی عنه أنهٔ قد جآء فيه أن هٰذا الشخص فی الحديث يقول: "فواللّٰه لئن قدر علیّ ربّی ليعذبنی عذابًا ما عذّبه أحدا." (مسند أحمد ، ح:٧٦٤٧)

وهٰذا كلام ظاهره كفر بواح لامحالة ولم يخالف سياق الحديث؛ لأن الباقی فی رواية أبی

هريرة رضي الله تعالیٰ عنه كمثل حديث حذيفة و أبی سعيد الخدري رضي الله تعالیٰ عنهما ففيه لما سئل عن السبب لصنعه فقال : "خشيتک يارب" ولم يقل "فرارا منک ظنًا أنک لاتقدر علی أن تجمعنی" وهٰذه الجملة [1] التی ظاهرها كفر ليست فی روايات البخاري فليست فی رواية حذيفة وأبی سعيد الخدري رضي الله تعالیٰ عنهما، بل فی رواية أبی سعيد الخدري رضي الله تعالیٰ عنه من صحيح المسلم فيه :

"وإن الله يقدر علیّ أن يعذبنی ." (ح:٢٧٥٦) وهو يخالف تماما مما فی رواية أبی هريرة رضي الله تعالیٰ عنه فيحتمل كل الاحتمال أن الخطأ قد حصل فی رواية أبی هريرة رضي الله تعالیٰ عنه ، لٰكن نحن نستطيع أن نؤوّل رواية أبی هريرة رضي الله تعالیٰ عنه حتیٰ توافق مع أصول الدين القاطعة (لأن مخالفتها لاتجوز، بل ستجعل الرواية مردودة) وتوافق الروايات الأخرىٰ من البخاري والمسلم التی هي الأولی لا محالة وهو أن المعنی "فوالله لئن قدر علیّ ربّی" يعنی لئن يضيّق علیّ ربیّ كما فی الآية ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ (الأنبياء:٨٧) يعنی سيدنا يونس عليه السلام مغاضبا علیٰ قومه بسبب عصيان الله تعالیٰ يذهب بدون الأمر الصريح للذهاب منهم وظن أن الله تعالیٰ لن يضيق عليه علیٰ هٰذا يعنی ظن أنهٗ لا يؤاخذ عليه علیٰ هٰذا الأمر ولا يؤدبّه، بل ظن أنهٗ لاتكون اي معاتبة من الله فی هٰذا الأمر وأيضًا الآية ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ (الرعد:٢٦) ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ (الطلاق:٧) والمعنی فی هٰذه الآيات للقدرهو التضييق؛ لأن سيدنا يونس عليه السلام نبي من أنبياء الله تعالیٰ المعصوم فيستحيل أن يظن أن الله غير قادر عليه؛ لأنهٗ كفر ومن نسب الكفر إلی الأنبياء عليهم الصلوات والسلام فقد كفر دونهم فمعناه كما ذكرنا التضييق وهو بحسب اللغة العربية كما ذكرنا من الآيات الأخرىٰ أيضًا فنفس المعنی فی هٰذاالحديث فالمعنی "فوالله لئن يضيق علیّ ربّی فيؤاخذنی ليعذبنی بعذاب ما عذّبه أحدا." فعلیٰ هٰذا لاإشكال ويوافق أصوال الدين القاطعة والروايات الأخرىٰ واللغة العربية ولايجوز أخذ هٰذه الرواية علی المعنی أنهٗ جهل أن الله قادر علیٰ جمعه؛ لأن هٰذا من الضرورات القاطعة ولايسع فيه الجهل البتة ؛ لأنهٗ من جهل قدرة الله فقد جهل الله تعالیٰ؛ لأن بدون القدرة كيف يعتبره خالق العالم فجهل بقدرته جهل به والعلم بالله وبصفاته الكمالية من الضرورات وهٰذا الشخص كما يدل عليه الحديث يعرف الحلال والحرام من الأعمال ولهٰذا عرف أن لهٗ اٰثام كثيرة فكيف يعرفها ولايعرف صفات الله الكمالية وأيضًا فی الحديث أن الله غفر لهٗ والمعلوم أنهٗ لا مغفرة للكافر والجهل بقدرة الله تعالیٰ من الكفر ولم هٰذا الشخص ليس من أهل الفترة حتیٰ يكون لهٗ امتحانا مستقلا فی الآخرة، بل قد بلغته الشريعة من نبي

---

(١) يعنی الجملة التی ذُكرت سابقاً "فوالله لئن قدر..."

من الأنبياء عليهم الصلوات والسلام كما يدل عليه الحديث من ذكر علمه عن ذنوبه وعذاب الله والأشياء الأخرى، ولهذا لا يكون له امتحانا في الآخرة، بل غفر الله ذنوبه لأنها دون الكفر والشرك فالله عزوجل أمنه مما خاف منه وهو عذابه وعقوبته وهذا برحمته وهذا لأنه كان مؤمنا مؤحدا وليس كافرا ومشركا حتى يجهل صفات الله الكمالية والجهل بصفات الله الكمالية كفر بواح.

الآن نرجع إلى موضوعنا فحاصل الكلام أن هذا الشخص ظن ظنا غالبا أن الله يعذبه عذابا شديدا نظرا إلى آثامه، لكن ليس على وجه الذي يستلزم كفرا الذي ذكرنا سابقا فظنه هكذا ولوبأتى تحت اليأس في صورة ما، لكن ليس كفرا، لكن إثما كبيرا. والله أعلم ويهدي من يشآء إلى صراط مستقيم.

وكذلك الأمن الصوري وهو الذي لايدخل تحت حكم الكفر وهو أن واحدا يخوض في المعاصي ويرجوا رحمة الله تعالى معها، لكن لا من حيث الإنكار لنصوص الوعيد ولا من حيث إنكار قدرة الله تعالى على عقوبته وعذابه، بل هو يعرف ويصدق نصوص الوعيد ويصدق قدرة الله تعالى على إعمالها عليه، لكن اتكاء على قوله تعالى ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَآءُ﴾ (النساء:٤٨) ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر:٥٣) يخوض في المعاصي رجاء لرحمة الله تعالى وقد ذكرنا الحديث أن الله خلق مائة رحمة فجعل منها في الأرض رحمة، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة (يعني إكمال مائة رحمة) وهذا الشخص يعرف ويصدق أن ليس معنى الآية ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر:٥٣) الإجازة والرخصة لخوض في المعاصي (العياذ بالله تعالى)، بل معناها الحض والحث على التوبة من المعاصي المتقدمة والرجوع إلى الله تعالى فتركها ما مضى منها والتوبة منها والإصلاح للحال وعزمه للمستقبل، لكن نظرا إلى قوله تعالى ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَآءُ﴾ (النساء:٤٨) يخوض في المعاصي يعني ما دون الشرك والكفر ويرجوا أن الله يغفرها له يوم القيامة فهذا الأمن هو إثم كبير دون الكفر؛ لأن ليس فيه تكذيب النصوص والقدرة فليس الأمن الحقيقي؛ لأنه يعرف ويصدق أن الله لويشاء (من الأزل) يعذبه ويقدر عليه تصديقا بنصوص الوعيد وقدرة الله تعالى، لكن خوضه في المعاصي ورجائه برحمة الله تعالى معها في الصورة كأنه يُحسّ الأمن من مكر الله وعذابه ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأعراف:٩٩) فهذا فعله إثم كبير ومعه المعاصي المزيدة عليها التي هويخوض فيها لم ماذكرنا هو فقط للبيان وأما في الحقيقة فهذا الشخص قد يقع في الكفر ولم يعرف به وهو الاستهانة والاستخفاف؛ لأن الخوض في المعاصي يؤدي إلى عدم اعتبارها كأنها لاشيء فهذا الشخص يخوض

فيها ويستخفها ويستهينها وهذا كفر؛ لأنهٔ من أمارات التكذيب وإهانة الشريعة وإهانة ما أمر اللّٰه تعالٰى ونهاه عنه والاستخفاف والاستهانة كفر. فالحذر الحذر وفى الحديث "الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنىّ على اللّٰه ." (سنن الترمذي، ح: ٢٤٥٩) ومعنى قوله عليه الصلٰوة والسلام "دان نفسه" يحاسب نفسه فى الدنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة. الترمذي.

(٣) . اعلم هدانى وهداك اللّٰه: أن ما ذكرنا كان بيان اليأس من رحمة اللّٰه تعالٰى والأمن من عذابه وأما اليأس من الخلق بعد التجربة فهو جائز ومعناه أن واحدا مثلاً يرجوا شيئاً من واحد آخر وهذا الآخر يماطلهٔ حتٰى الأول منهما يبلغ إلى حد أنهٔ ييئس من صاحبه فيحس فى نفسه بطريقة الظن الغالب بسبب الممارسة أن صاحبه لايريد أن يفعل هٰذا الشيء لهٔ وهٰذا الشيء لاشيء فيه وهٰذا هو كما فى الآية ﴿حَتّٰى إِذَا اسْتَيْـَٔسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوْا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوْا جَآءَ هُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَآءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِيْنَ﴾ (يوسف:١١٠) ومعناه أن الرسل استيئسوا من كفار قومهم في إيمانهم وهٰذا بعد طويل الممارسة بلغوا الحد حصلوا على الظن الغالب أنهم لايؤمنون وهٰذا اليأس من إيمانهم وظنوا يعنى الكفار من قومهم أنهم قد كذبوا من جهة الأنبياء عليهم الصلوات والسلام فى تهديد العذاب والعقوبة وهٰذا؛ لأن طال عليهم الزمان ولم يأتهم العذاب وهٰذا ينسجم ويربط مع الأيتين التين قبلها بايٰتين وهما ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُوْنَ أَفَأَمِنُوْا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللّٰهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَّهُمْ لا يَشْعُرُوْنَ﴾ (يوسف:١٠٦-١٠٧) فالرسل عليهم الصلوات والسلام يئسوا من إيمانهم والكفار ظنوا أن الرسل عليهم الصلوات والسلام كذبوهم فى الوعيد والتهديد للعذاب فى التكذيب والكفر ولايقال: إن هٰؤلاء الكفار هم كانوا مكذّبين للأنبياء عليهم الصلوات والسلام من قبل فلم يصدقوهم فى الوعيد والتهديد فما معنى أنهم ظنوا كذب الأنبياء عليهم الصلوات والسلام فى إخبار الوعيد والحال أنهم لم يصدقوهم قط؟ لأن مثلا لو واحد يقول لواحد آخر لاتسلك هٰذا الطريق؛ لأنهٔ غير امن ويحصل فيه قطع الطريق كثيرا. فهٰذا الآخر لايصدقه فيه، بل يكذبه ، لٰكن مع هٰذا يدخل فى قلبه نوع من الخوف الطبيعي الذى لايتمكن من إزالته ، لكن هو لايترك السلك فى هٰذا الطريق والحال أنهٔ لايقطع به فيها فبعد مدة الممارسة يزول هٰذا الخوف الطبيعي منه فكذٰلك هؤلاء الكفار ،نعم، لم يصدقوا الأنبياء عليهم الصلوات والسلام، بل كذبوهم وهٰذا التكذيب يشمل الوعيد والتهديد منهم لهم على الإنكار والكفر ولكن هٰذا لايمنع دخول نوع من الخوف فى قلوبهم للعذاب وهٰذا لايغنى عنهم شيئًا لأنهم لم يؤمنوا ولم يصدقوا وهٰذا الخوف هو الطبيعي لم يتمكنوا إزالته. وهٰذا الوعيد للعذاب فى الدنيا كان بدون إعلامهم بوقته المعيّن فالحال أنهٔ طال عليهم الزمان ولم يأت وقت العذاب بعد ،فهؤلاء الكفار ظنوا علٰى وجه (والظن قد يأتى فى معنى

اليقين مثلا: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة:٤٥-٤٦) يعني يتيقنون به) حتى لايبقى معهم هذا الخوف الطبيعي، بل زال فى مرور المدة الطويلة وهم تيقنوا أن الأنبياء عليهم الصلوات والسلام كانوا يكذبونهم (معاذ الله فى تهديدهم العذاب والعقوبة. والأنبياء عليهم الصلوات والسلام ايسون من إيمان هؤلاء الكفار وقد طال الزمان وهم فى طول البلاء حتى الأنبياء عليهم الصلوات والسلام والذين امنوا معهم صاروا يدعون الله ويستغيثون به للنفس فى الحال ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ (البقرة:٢١٤) يعنى دعاء واستغاثة وسؤالا والدعاء مخ العبادة والدعاء هو العبادة. وليس ارتياباً وشكاً (معاذ الله) ؛ لأنهُ كفر والأنبياء منزهون منه، فإذا الحال بلغ هذا ﴿أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة:٢١٤) ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (يوسف:١١٠) فجاء الأنبياء عليهم الصلوات والسلام والذين امنوا معهم نصرنا وجاء الكفار العذاب والعقوبة ولايُدفع عذاب الله عن القوم المجرمين. والله أعلم ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

المتن:

ولايخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخلهُ فيه والإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان، وجميع ما صح عن رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم من الشرع والبيان كلهُ حق، والإيمان واحد وأهلهُ فى أصله سواء، والتفاضل بينهم بالخشية والتقى، ومخالفة الهوىٰ، وملازمة الأولى، والمؤمنون كلهم أولياء الرحمٰن، وأكرمهم عند الله أطوعهم وأتبعهم للقرآن، والإيمان هو الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الأخر، والقدر خيره وشره وحلوه ومرّه من الله تعالىٰ، ونحن مؤمنون بذٰلك كله لانفرق بين أحد من رسله، ونصدقهم كلهم علىٰ ماجاء وا به.

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالىٰ الآن يتكلم عن الإيمان والتكذيب، فيقول إن العبد لايخرج من الإيمان إلا بجحود يعنى التكذيب ما أدخلهُ فيه وهذا يشمل الجحود الصريح وكذلك أماراته فمن أنكر شيئًا من ضرورات الدين وهي ما ثبت كونها من النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فقد كفر ولو يجتهد فى العبادات وقد ذكرنا أمثالها سابقا ومنها مثلاً حشر الأجساد فمن أنكره فقد كفر وكذٰلك من قذف عائشة رضي الله تعالىٰ عنها بالزنا فقد كفر؛ لأنهُ قد نزلت فى عصمتها الآيات فى

أول سورة النور ومن قذف أي زوجة من أزواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم دون عائشة رضي الله تعالى عنها فقد خيف عليه الكفر لقوله تعالى ﴿يَعِظُكُمُ اللّٰهُ أَنْ تَعُوْدُوْا لِمِثْلِهٖ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ﴾ (النور:١٧) فقد علق الله الإيمان على عدم العود لمثله فيشمل عائشة ومن دونها من أزواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وثم من ناحية أخرى هو كفر بدون الشك وهو التنقيص فى حضرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم واستحلال المعصية صغيرة كانت أو كبيرة إذا ثبتت بالدليل القطعي كفر. والاستهانة بها يعنى الاستخفاف بالمعصية كفر وقد مرّ سابقاً. والاستهزاء على الشريعة كفر؛ لأن ذلك من أمارات التكذيب، فمن استهزأ مثلاً بسنة من سنن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقد كفر وكذلك من يستهينها. فاعلم أن ما ذكرنا من التكذيب وأماراتها والإنكار مائبت بالقطع تشمل الفرائض والواجبات والسنن. فمثلاً الوتر من سنة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عند البعض والواجب عند البعض، لكن ليس فرضا بالاتفاق، لكن إنكاره بالكلية يلزم الكفر؛ لأنهٗ قد ثبت من الأحاديث الكثيرة المتواترة، فمن أنكر وجوبه فهو محل للاجتهاد، لكن من أنكر وجوده فقد أنكر مائبت من القطع. فحاصل الكلام أنهٗ لا فرق بين الفرائض والسنن والواجبات فمن أنكر شيئًا من الدين الذى ثبت بالدليل القطعي فقد كفر فما ذكرنا من التكذيب وأماراتها تنطبق عليه كلها، من اعتقد الحرام الذى ثبت بالدليل القطعي حلالا فقد كفر وكذلك من اعتقد الحلال الذى ثبت بالدليل القطعي حراما فقد كفر. ومن وصف الله تعالى بما لايليق به بالضرورة الدينية أو العقلية كالجهل، والظلم، والكذب، والفقر، والزوجة أو الولد وغيرها من أمثالها فقد كفر.

ومن قال: إنهٗ مثل الخلق فقد كفر؛ لأنهٗ جحد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهٖ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيْعُ الْبَصِيْرُ﴾ (الشورى:١١) ومن وصفه بصفات الأجسام التى تؤدى إلى الفقر والحدوث مثلاً التمكن فى المكان والمحدودية فى الجهة والأعضاء والجوارح فقد كفر لأنها تلزم الفقر والاحتياج والحدوث وقد فصّلنا عنها سابقا ومن سخر بالله تعالى أو باسم من أسمائه أو بأمر من أوامره أو أنكر وعده أو وعيده فقد كفر وكذلك من سخر بالأنبياء عليهم الصلوات والسلام أو الملائكة عليهم الصلوات والسلام؛ لأن كلها من الاستخفاف بالدين والاستهانة ما وجب إعزازه وإكرامه وفى القرآن ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيْلَ فَإِنَّهٗ نَزَّلَهٗ عَلٰى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّٰهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرٰى لِلْمُؤْمِنِيْنَ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلّٰهِ وَمَلٰئِكَتِهٖ وَرُسُلِهٖ وَجِبْرِيْلَ وَمِيْكَالَ فَإِنَّ اللّٰهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِيْنَ﴾ (البقرة:٩٧-٩٨) وكذلك كفر لو تمنى واحد عن النبي من الأنبياء أن لايكون (هو النبى) نبيًا لما ذكرنا وكذلك لو تمنى أن لايكون الأنبياء على الإطلاق لما ذكرنا وفيه التنقيص والتعريض فى مقامهم الكريم عليهم الصلوات والسلام وهو كفر وكذلك الكلام عن الملائكة عليهم الصلوات والسلام لما ذكرنا وقد قال الله

تعالى عنهم ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ (الأنبياء:٢٦) وكذلك لو ضحك على وجه الرضا ممن تكلم بالكفر؛ لأن الرضا بالكفر إقراره وهو كفر. وكذا لوجلس على مكان مرتفع، وحوله جماعة يسألونه المسائل، ويضحكونه، ويضربونه بالوسائد يكفرون جميعا لاستخفافهم الشرع واستهزاء هم به، وكذلك الذين يفعلون أمثال هذا الفعل، وكذا لو أمر رجلا أن يكفر بالله أو عزم أن يأمره بالكفر فقد كفر وهذا ظاهر لاخفاء فيه؛ لأن الرضا بالكفر هو الكفر وكذا لو يامر الكافر أو يشير عليه أن لايسلم أو أن يبقىٰ على الكفر وهذا ظاهر أيضًا ، وكذا لو أفتى لامرأة بالكفر لتبين من زوجها وذلك بان يقول القاضي أو المفتي للمرأة المطلقة بالثلاثة مثلا: ما حكم الإسلام؟ فيسألها السؤال غير المبيّن؛ لأن السؤال ما حكم الإسلام في نفسه يحتوي على الاحتمالات؛ لأن السائل لم يبين عمّا ذا يسألها حكم الإسلام عنه. فهي لاتفهم فتقول : لاادرى: وهذا مع لو قيل لها؛ كيف واحد يسلم؟ فتقول: بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . وكذلك تعرف أركان الإسلام والإيمان ، فإذا قيل لها. لو واحد يسلم هل يجوز قتلهٗ واخذ ماله، فتقول، لا . ، لكن هذا القاضي أو المفتي احتيالا لإفساد نكاحها الأوّل يسألها السؤال الذي هي لاتفهمه لعدم بيانه فتقول، لاأعرف. فيكفّرها القاضي أو المفتي ويقول إن النكاح كان فاسدا. فحكم القاضي والمفتي والمستفتي والمستقضي وكذلك من رضي بهٰذه الحيلة أنهم كفروا لأنهم رضوا بكفر هذه المرأة يعني لم يرضوا كونها مسلمة، بل أرادوا واشتهوا كونها كافرة حتىٰ يصير النكاح الأول فاسدا وكذلك لأنهم كفّروا مسلمة لما بيّنا أنها تعرف الإسلام ويعتقد عليها فهي مسلمة وعدم فهم السؤال من القاضي لعدم بيان السؤال وليس للكفر في المرأة ومن كفّر مسلما فقد باء الكفر دونه لما في الحديث "فقد باء به أحدهما." (صحيح البخاري، ح:٦١٠٣)

وكذا لو قال عند شرب الخمر أو الزنا "بسم الله" لاستخفافه باسم الله سبحانهٗ وتعالىٰ وكذلك لدلالة الاستحالة ما هو الحرام وكذاإذا صلى بغير القبلة أو بغير الطهارة متعمدا يكفر لاستخفاف الشريعة وإن وافق ذلك قبلة وهو لايعلم؛ لأن الاستخفاف منه لايرفع به وكذا لو أطلق كلمة الكفر استخفافا أي على أن التكلم بها سهل، ولا بأس به ولو فعلهٗ اعتقادا فكفره أظهر، ومن تكلم به ولم يعلم أنهٗ كلمة الكفر فقال عامة المشائخ يكفر ولايعذر بالجهل ومن قصد التكلم بغيرها، فجرت علىٰ لسانه بلا قصد كما أراد أن يقول: أكلت فقالت : كفرت فالصحيح أنهٗ لايكفر ويدل عليه الحديث عن الشخص الذي أراد أن يقول "اللّٰهم انت ربي وانا عبدك." ، لكن خرج من لسانه: اللّٰهم أناربك وأنت عبدي" أو كما قال عليه الصلوٰة والسلام ثم قالوا: القاضي لايصدّقه في ذلك فيعني يؤمر بتجديد الإيمان والنكاح وغيرهما من الأشياء. وكذا لو يقرأ من القرآن على سبيل الكلام العادي مزاحا مثلاً يأتي بكاس الماء ويقول ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ (النبأ:٣٤) ولو يأتي بكاس الخمر ويقول

هذا فالكفر أظهر ، ففى الأول للاستخفاف والاستهزاء بالقرآن وفى الثانى لدلالة على الاستحلال مع الاستهزاء والاستخفاف وكذلك الإهانة فى الثانى؛ لأن الخمر حرام وهو يأتى به يقرأ من القرآن ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ (النبا:٣٤) إشارة إليه وهذه إهانة بينة وكلها كفر وكذا لو قال لواحد اسمه يحيٰى ﴿يٰيَحْيٰى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَّاٰتَيْنٰهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ (مريم:١٢) مزاحا لما ذكرنا وكذا لو جمع بعض الناس ويقول ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (الكهف:٤٧) لما ذكرنا وهذا كلهُ الاستخفاف والاستهانة بالقرآن كلام اللّٰه وكذلك السخر باللّٰه؛ لأن اللّٰه هو الذى قال ليحيٰ عليه السلام هذا القول وهو الذى يحشر إلى الموقف يوم القيامة ولايغادر منهم أحدا والسخر باللّٰه كفر أيضًا وكذاغيرها من امثالها. وكذلك من فضل القوانين غير الإسلامية على القوانين الإسلامية فلاشك فى كفره وهو ظاهر وكذلك من يساوى بينهما وهو ظاهر أيضًا وكذلك من يقول بأفضلية القوانين الإسلامية ، لكن لايرى بأسا فى القوانين غير الإسلامية أيضًا للاستحلال وكل هذا كفر لاخفاء فيه ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللّٰهُ فَأُولٰٓئِكَ هُمُ الْكَافِرُوْنَ﴾ (المائدة:٤٤) ﴿وَمَنْ يَّبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيْنًا فَلَنْ يُّقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْاٰخِرَةِ مِنَ الْخٰسِرِيْنَ﴾ (آل عمران:٨٥)

اعلم أن الكفر هو ضد الإسلام والإيمان ومعناه اللغوى الستر وعدم الشكر ومعناه الشرعي: الإنكار والتكذيب لما ثبت فى الدين من الضرورة. والعلماء قد ذكروا أقسام الكفر وكلها يرجع إلى نقض الإيمان والخروج من ملة الإسلام.

(١) الكفر بالإنكار. وهو أن ينكر (نعوذ باللّٰه) شيئًا من ضرورات الدين بالقلب واللسان وهو كفر عامة الكفار ﴿وَالَّذِيْنَ كَفَرُوْا عَمَّا أُنْذِرُوْا مُعْرِضُوْنَ﴾ (الأحقاف:٣)

(٢) الكفر بالجحود: وهو أن يعرف صدق الإسلام فى القلب ، لكن لايقبلهُ وهو كفر إبليس واليهود (المراد هو اليهود فى زمان النبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم) ؛ لأن إبليس يعرف ما هو الحق ، لكن لايقبلهُ ﴿وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوْا لِاٰدَمَ فَسَجَدُوْٓا إِلَّآ إِبْلِيْسَ أَبٰى وَ اسْتَكْبَرَ وَ كَانَ مِنَ الْكٰفِرِيْنَ﴾ (البقرة:٣٤) وكذلك اليهود فى زمان النبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم يعرفون صدق النبي صلى اللّٰه عليه وسلم ، لكن لم يقبلوه ﴿اَلَّذِيْنَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُوْنَهٗ كَمَا يَعْرِفُوْنَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ (البقرة:١٤٦) وكذلك فرعون ﴿وَجَحَدُوْا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَّعُلُوًّا﴾ (النمل:١٤)

(٣) الكفر بالعناد: يصدق بالإسلام ويؤمن به قلبا ولسانا ، لكن لايبرأ عن الأديان الأخرىٰ مثلاً من يؤمن بالإسلام و، لكن يعتبر اليهودية والنصرانية حقًّا أيضًا وهو الكفر أيضًا والمراد ليس شريعة موسىٰ عليه السلام فى زمانه؛ لأنهُ كان حقا[1] ولا شريعة عيسىٰ عليه السلام فى زمانه؛ لأنهُ

(١) كان إسلاما حقًا ؛ لأن الإسلام دين جميع الأنبياء عليهم الصلوات والسلام .

كان حقابل المراد باليهودية هو ملهبهم بعد التحريف منهم لكتاب الله التوراة و كذلك تكذيبهم لسيدنا عيسى عليه السلام ومحمد صلى الله تعالى عليه وسلم و كذلك عدم قبولهم شريعة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الإسلام و كذلك النصرانية هو ملهبهم بعد تحريف الإنجيل والتوراة وعقيدتهم لألوهية عيسى عليه السلام وروح القدس جبريل عليه السلام وعبادتهم لمريم رضي الله عنها وتكذيبهم بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم وشريعته الإسلام. فاعتبارهم الحق كفر لاخفاء فيه واعلم أن الله تعالى لن يقبل من أي واحد بعد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم إلا اتباعه. و كذلك كفر بالعناد هو كفر من يعرف بقلبه ويقر بلسانه حقيّة الإسلام ، لكن لايقبل ولايتدين به. ككفر أبي طالب.

(٤) الكفر بالنفاق: وهو ينكر الإسلام فى القلب ، لكن لمصلحة ما يقر بلسانه أنهٔ مسلم فهٰذا هو المنافق ﴿إِذَا جَآءَكَ الْمُنَافِقُوْنَ قَالُوْا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُوْلُ اللّٰهِ﴾ (المنافقون: ١) يعنى فقط باللسان ولهٰذا قال الله تعالى عنهم ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِيْنَ فِى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ (النساء: ١٤٥)

(٥) الكفر بالزندقة والإلحاد: وهٰذا من يصدق ويؤمن ويسلّم ضرورات الدين بالتمام على الظاهر ويشبه مسلما فى ظاهر الحال ، لكن يؤول بعض الضرورات الدينية على غير ما عليه الأمة المسلمة فيكون غير مراد الله و رسوله عليه السلام خلافا لأصول الدين القاطعة مثلاً القادياني [1] وهو أيضًا لا شك فى كفرهم. ﴿أَفَتُؤْمِنُوْنَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُوْنَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَّفْعَلُ ذٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّوْنَ إِلٰى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ (البقرة: ٨٥) فمن يعترف به [2] ظاهرا و باطنا لكنه يفسر بعض ما ثبت من الدين ضرورة بخلاف ما فسره الصحابة رضي الله تعالى عنهم والتابعون رحمهم الله تعالى فهو الزنديق كما إذا اعترف بأن القرآن حق، وما فيه من ذكر الجنة والنار حق ، لكن المراد بالجنة الابتهاج الذى يحصل بسبب الملكات المحمودة والمراد بالنار هي الندامة التى يحصل بسبب الملكات المذمومة وليس فى الخارج الجنة والنار وهٰذا كفر لاشك فيه وهو من قبيل الكفر بالزندقة. فما ذكرنا الآن يشير إلى الحجيّة القاطعية للإجماع وهى أيضًا مستدلة من قوله تعالى ﴿وَمَنْ يُّشَاقِقِ الرَّسُوْلَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدٰى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيْلِ الْمُؤْمِنِيْنَ نُوَلِّهٖ مَا تَوَلّٰى وَنُصْلِهٖ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيْرًا﴾ (النساء: ١١٥)

قال العلماء: الإجماع على المراتب، فالأقوى إجماع الصحابة رضي الله تعالى عنهم

(١) وكذلك من منهم يسمّون أنفسهم "الأحمدية."

(٢) يعنى الإسلام

مع تصريحهم [1] بـالـحـكم المجمع عليه، وهو قطعي كالآية والخبر المتواتر.،ويكفر منكره، ثم الذى صرح به بعض الصحابة وسكت الباقون. ثم إجماع من بعد الصحابة علىٰ حكم لم يظهر فيه خلاف ممن سبقهم وهما كالحديث المشهور ويضلل منكرهما ويفسق ويكون خارجا من طريقة أهل السنة والجماعة. ثم إجماعهم علىٰ قول سبقهم مخالف وهو كخبر الواحد يأثم منكره.

فالإجماع الأول قطعي والبواقى ظنية. واعلم أن المعنى عدم تكفير المؤوّل وأهل القبلة هو من يعتبر مسلما فى الظاهر يعتبر مسلما مادام لاينكر شيئًا من ضرورات الدين، ولو ينكر شيئًا منها فلا يكون من أهل القبلة ويكون كافرا. وكذٰلك المراد بالمؤوّل الذى لاينبغى أن يكفّر هو من يثبت غلطا بالدليل الغلط ، لكن على الشرط أنهٗ لايؤثر تأويلهٗ علىٰ ضرورات الدين وأصول الدين القاطعة والأمور المسلمة فى الدين وهٰذا هو المؤوّل الذى لايُكفَّر ، لكن لو ينكر شيئًا مما ذكرنا يعنى القطعيات الضرورة بتأويله فهٰذا المؤوّل يكون كافرا بلاشك وتأويلهٗ لايحفظه منه. واعلم أن ما يقولون الفقهاء أن الشخص [2] لو كان فى قوله تسعة وتسعين احتمالا للكفر وواحداً للإيمان فلا ينبغى تكفيره حتىٰ يتبيّن مراده وبعد البيان لوثبت أنهٗ أنكر شيئًا من ضرورات الدين بالصراحة أو بأماراته فيُكفَّر ولو ثبت بعد البيان أنهٗ أراد احتمالا الذى لايوجب الكفر فلايُكفَّر ولو مات قبل البيان لايقال كافرا لغير العلم عنه وهٰذا قول الفقهاء لمن حياته توافق العقائد الإسلامية وليس هناك شيء مامنه فى تأييد قرائن الكفر وإنكار الشىء من ضرورات الدين وتكذيبها صراحة أو أمارة وإلا فلا شك فى كفره. ثم ما ذكرنا هو فقط للفتوىٰ وإلا ما بينه وبين الله ، فالله لايحتاج إلى البيان ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (طه:٧)، فإذا قال قولا مبهما حاملا للاحتمالات من الكفر والإسلام فالله يعلم مراده فيكون عنده ما أراد لو أراد احتمال الكفر فيكون عنده كافرا لو أراد احتمالا لايوجب الكفر فلايكون كافرا عنده.

التنبيه: قال العلماء، المراد من الضرورة [3] ما يعرف كونها من دين النبي صلى الله تعالىٰ

---

(١) يعنى معلوم بالقطع أنهم أجمعوا عليه بدون الخلاف من قولهم أو عملهم أو غيرها فيدل بالقطع مثلاً المصحف العثماني ولاشك أنهم قد أجمعوا عليه بلاخلاف فمن شك فيه فقد كفر.

(٢) الذى هو مسلم فى ظاهر الحال ويقول هٰذا القول المبهم الذى قديكون كافرا به قد يكون لا

(٣) ثم اعلم هٰذا الكلام يعنى ما ذكرناعن ضرورات الدين وأن إنكارها يلزم الكفر بحسب أنهٗ لايسع المسلم جهلها فلايسمع منه دعوة الجهل وإلا لو واحد علم شيئًا ثابتا قطعا من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وثم ينكره يكفر ولو هٰذا الشيء لم يشتهر بين العوام مثلا لو واحد يعرف عن الآية قراءة متواترة وثم ينكرها يكفر ولو هٰذه القراءة لم تشتهر بين العوام؛ لأنهٗ عرف ثبوتها من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وثم ينكر فيكفر وقد بيّنا سابقا من حديث عمر رضي الله عنه

عليه وسلم بأن تواتر عنه واستفاض حتى وصل إلى دائرة العوام وعلمه الكواف منهم لا أن كلا منهم يعلمه وإن لم يرفع لتعلم الدين رأسا فإن جهلهُ لعدم رغبته فى تعلّم الدين وعلمته العامّة فهو ضرورى كالوحدانية والنبوة وختمها بخاتم الأنبياء عليهم السلام وانقطاعها بعدهُ والبعث والجزاء وعذاب القبر والجنة والنار وخلودهما وغيرها من أمثالها.

ثم الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى يتكلم عن الإيمان فيقول الإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان، وهو يحتوى على جميع ماصح عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من الشرع والبيان أن كلهُ حق وهذا هو أصل الإيمان ولايمكن التفاوت فيه فلايقبل الزيادة ولانقصان؛ لأن الزيادة فيه لاتكون إلا بالزيادة على الشرع وهو كفر؛ لأنهُ ما لم يثبت كونه من الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فاعتباره من الإسلام يؤدّى إلى تحريم الحلال؛ لأن إذا ليس من عند الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فيكون عدم الإيمان به [1] حلال ومن يعتبره من الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فهو يقول إن عدم الإيمان به حرام وكذلك يكون تشريعا مما لم يأذن به الله وكذلك يكون إبطالا لأكملية الإسلام وكذلك يكون كذبا على الله تعالى؛ لأنهُ ليس من عند الله وهذا يعتبره من عند الله. وفى القرآن ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النحل:١١٦-١١٧) ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة:٣) ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ (الشورى:٢١) ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ (الزمر:٣٢) ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (البقرة:٧٩)

وكذلك النقصان لايكون فيه (فى أصل الإيمان) إلا بتكذيب بعضه وهو كفر لاشك فيه. ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ (البقرة:٨٥) فلذلك عن هذا الإيمان يقول الشيخ رحمه الله تعالى: إنهُ واحد وأهلهُ فى أصله سواء والتفاضل بينهم بالخشية والتقى ومخالفة الهوى وملازمة

---

(١) الكلام فى اعتبار ماجاء من عند الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فلايخلط مع أمور الدنيا يعنى واحد ذهب إلى العين ويقول لواحد آخر عنه فلايحل للآخر مع العلم تكذيبه فيه؛ لأنهُ يكون كذبا، لكن هذه أمور أخرى و كلامنا لسنا فيه. ولما البدعات فلو قالوا جزما أنها من القرآن والسنة وإنكارها حرام، ولاوجود لها فيهما يعنى مع التأويلات الباطلة منهم فتكون كفرا لما ذكرنا من الدلائل ولو هذه البدعة فى نفسها لاتوجب الكفر لعدم تكذيب ضرورات الدين، لكن تكون كفرا من ناحية أخرى التى ذكرنا.

الأولى فمن هٰذه الجهات يكون الإيمان يزداد وينقص وهو ليس الزيادة والنقصان فى أصل الإيمان، بل فى نوره وكماله. وأصل الإيمان هو الذى ينجى صاحبه من خلود فى النار فبسببه يخرج من النار إن دخل فيها بسبب الأثام ولايخلد فيها ويدخل الجنّة فى الأخير ومن هٰذه الحيثية يقول الشيخ رحمه اللّٰه تعالىٰ أن المؤمنون كلهم أولياء الرحمٰن يعنى كلهم تحت حفظه فلايعذب أي واحد منهم كعذاب الكفار الذى يكون أشدامنه بأضعاف لاتُحصى وكذٰلك يكون للتأبيد فالمؤمنون تحت ولاية اللّٰه تعالىٰ أن يحفظ جميعهم من هٰذا النوع من العذاب ، فإذا عذّبوابسبب الأثام يتخلصون منه فى النهاية ويدخل الجنة للأبد بسبب الإيمان فثبت أنهم درجات فبعض منهم يدخلون الجنة بغير حساب وبعضهم بعد الحساب وبعضهم بعد الحساب والعذاب ولذٰلك قال رحمه اللّٰه تعالىٰ أن أكرمهم عند اللّٰه أطوعهم وأتبعهم للقرآن ومن هٰذه الحيثية تكون الدرجات التى ذكرنا فيهم. ثم الشيخ رحمه اللّٰه تعالىٰ يفسر ما هو يعنى بأصل الإيمان فيقول إنهُ الإيمان باللّٰه، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره وحلوه ومرّه من اللّٰه تعالىٰ ونحن مؤمنون بذٰلك كله لانفرّق بين أحد من رسله ونصدقهم كلهم علىٰ ما جاء وا به. يعنى الإيمان بكل ما جاء به الرسل (عليهم الصلوات والسلام) من عند اللّٰه تعالىٰ فهٰذا هو أصل الإيمان الذى لايقبل الزيادة والنقصان.

ثم هٰذا الشرح الإجمالي بيانه أن الإيمان فى اللغة معناه التصديق وفى القرآن ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِيْنَ﴾ (يوسف:١٧) وفى الشرع معناه التصديق بما علم مجيء النبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم به قطعاً فتفصيلا فيما علم تفصيلا وإجمالا فيما علم إجمالا. ومعلوم أن التصديق محله القلب وفى القرآن ﴿أُولٰٓئِكَ كَتَبَ فِيْ قُلُوْبِهِمُ الإِيْمَانَ﴾ (المجادلة:٢٢) ﴿وَقَلْبُهٗ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيْمَانِ﴾ (النحل:١٠٦) ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيْمَانُ فِيْ قُلُوْبِكُمْ﴾ (الحجرات:١٤) والقلب هو رئيس الأعضاء وفى الحديث "إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلهُ وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب." (صحيح مسلم، ح:١٥٩٩) وفى الحديث "اللّٰهم ثبت قلبى علىٰ دينک." (سنن ابن ماجة، ح:٢٢٧٧) وقال النبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم لأسامة رضي اللّٰه تعالىٰ عنه حين قتل من قال لا إلٰه إلا اللّٰه، "هلا شققت قلبه."[1] فثابت أن التصديق محله القلب ، فإذا لايوجد فى القلب التصديق فلاإيمان على الإطلاق، والتصديق ليس معناه علم بصدق المخبر فقط؛ لأننا نقول : أن هٰذا يعرف أنني صادق ، لكن لايصدّقنى، بل يكذّبنى. وكذٰلک ما ذكرنا من الكفر بالجحود من مثال اليهود فى زمان النبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم عرفوا صدقه عليه السلام ، لكن لم يصدّقوه. ﴿الَّذِيْنَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُوْنَهٗ كَمَا يَعْرِفُوْنَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ (البقرة:١٤٦) ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللّٰهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوْا

(١) قتله الصحابي أسامة رضي اللّٰه تعالى عنه على الظن أنهٗ قال "لا إلٰه إلا اللّٰه" نفاقا وتقية من السيف وليس إيمانا وتصديقاً

﴿مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:٨٩) فثبت أن التصديق ليس علماً فقط ، لكن العلم ركن من أركانه؛ لأنهٗ لاتصديق بدون العلم، لأنهٗ لو واحد يصدق الآخر ، لكن يقول إنهٗ لايعلم أنهٗ صادق أم لا فهٰذا لايكون تصديقا فى الحقيقة، لأن هٰذا محمول على الظن وليس على العلم وقال الله تعالىٰ عن اتباع الظن ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (النجم:٢٨) وقال تعالىٰ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (الحجرات:١٢) وقال تعالىٰ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ (الجاثية:٣١-٣٢) وأيضًا؛ لأن كلام هٰذا الشخص يناقض بعضه بعضا؛ لأنهٗ من جهة يصدق ومن جهة يشك والشك فى التصديق الشرعي عدم التصديق الشرعي فلو قال واحد أنهٗ يصدّق النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ، لكن لايعرف أنهٗ صادق أم لا فلا شك أنهٗ كافر بالإجماع وهٰذا من الضرورات الدينية وقال تعالىٰ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا....﴾ (الحجرات:١٥) ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (البقرة:٣) ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (محمد:١٩) ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة:٢٤) ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (الأنعام:٧٥) والإيقان من اليقين وهٰذا لايكون إلا مع العلم ولهٰذا الكفار فى يوم القيامة لما قد شاهدوا الحقيقة يقولون ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (السجدة:١٢) فالتصديق الشرعي هو الإيقان كأنهٗ قد شاهد الحقيقة بدون المشاهدة بالسمع والبصر وإنما هٰذا هو الإيمان المعتبر فى الشريعة، فثابت أن العلم ركن من أركان التصديق ، لٰكن ليس كلهٗ كما بيّنا من الدلائل حتىٰ يقرّ ولهٰذا اليهود كفروا مع علم بصدق القرآن والنبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم لأنهم لم يقرّوا، بل كذّبوه وكفروا بهٖ كما ذكرنا وكذٰلك فرعون ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (النمل:١٤) فثبت أن الإقرار أيضًا ركن من أركان التصديق ، لٰكن العلم والإقرار لايكفيان حتى القبول والاعتناق وهٰذا كما ذكرنا قبلا عن كفر أبى طالب فى كفر العناد أنهٗ يعرف بقلبه ويقر بلسانه ، لكن لايقبل ولايتدين بهٖ وكذٰلك ما جاء فى تفسير الآية ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة:٤٤) قال ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنه كان يهود المدينة يقول الرجل منهم لصهره ولذى قرابته ولمن بينه وبينه رضاع من المسلمين " أثبت على الذى أنت عليه وما يأمرك بهٖ هٰذا الرجل. (يريدون محمدا صلى الله تعالىٰ عليه وسلم) فإن أمره حق" فكانوا يأمرون الناس بذٰلك ولايفعلونه. انتهى. فعرفوا بقلبه وأقروا بلسانه أن النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم حق ، لكن لم يقبلوه فلايفيدهم. فالتصديق هو

العلم والإقرار والقبول ومعنى العلم يعنى هو يصدقه على علم ويقين بدون الشك ولا الظن ، فإذا قيل هل تعرف أن الآخرة حق ، فقال نعم بلا تردد؛ لأن تصديقه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولما جاء به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مبني على اليقين فيفيد العلم ومع ذلك يقرّ به ولايجحده ومع ذلك يسلمه ويقبلهُ ويعتقه ويتدين به ، فإذا قيل لهُ : هل أنت مسلم . فقال نعم بلا تردد. وإذا قيل لهُ : هل أنت على دين محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : نعم بلا تردد.

وهذا ما ذكرنا عليه إجماع الأمة فلايكون مسلما بالإجماع إلا إذا فعل ما ذكرنا ثم بعد ذلك هناك الاختلاف فى لو يؤمن ويوقن بالإسلام ويقرُّ به ويتدين به ولايكذّبه ولايجحده ولايفعل شيئًا من أمارات التكذيب ولايقول إنهُ ليس مسلما أو لا يؤمن بالإسلام يعنى لايكذّب ولاينكر ، لكن لم يتلفظ بإقراره بعد يعنى يقرّ لكن لم يتلفظ به بعد فمن العلماء وهم جمهور المحققون منهم الشيخ أبو منصور الماتريدي وقيل: منهم الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى فانهم قالوا إن هذا الشخص مؤمن عند الله[1] ، لكن لأنهُ لم يتلفظ بإقراره بعد فيكون كافرا فى أحكام الدنيا فهم قالوا إن التلفظ بالإقرار شرط لإجراء أحكام الإسلام فى الدنيا حتى يكون مؤمنا فى أحكام الدنيا ، فإذا فات عنه هذا فهو مؤمن عند الله ولو لم يكن مؤمنا عند الناس. ودلائلهم ما ذكرنا من الآيات والأحاديث الدالة على أن الإيمان محله القلب وهو حاصل لهذا الشخص فلايكون كافرا عند الله عندهم. وهذا ما دام لاينكر ولايكذّب ولايفعل شيئًا من أمارات التكذيب . ومن العلماء ومنهم شمس الأئمة السرخسي رحمه الله تعالى وفخر الإسلام البزدوى رحمه الله تعالى قالوا إن التلفظ بالإقرار ركن الإيمان حتى لايصح الإيمان بدونه ، فإذا لم يتلفظ فلايكون مؤمنا عند الله وهذا ما دام يستطيع على التلفظ وإلا لو منعه آفة كالخرس ويقصد التلفظ بالإقرار يكون مؤمنا بالإجماع. قال العبدالحقير غفر الله له: الاختلاف بين هذين المذهبين فى التلفظ بالإقرار كأنهُ فقط بنسبة النظرية؛ لأنهُ كما ذكرنا سابقا أن الاستخفاف من أمارات التكذيب فمن يستخف الشريعة فلايكون مسلما؛ لأنهُ لم يهتم بها واعتبرها شيئًا حقيرا خفيفا وهذا لاشك فى كفره فمن صدّق بقلبه ويوقن ويؤمن بالإسلام ويقبلهُ ويتدين به ، لكن لايتلفظ بإقراره بدون العذر حتى لو قيل لهُ أ أنت مسلم لايجيب[2] فهذا لايفعل المسلم الذى يهتم بالإسلام ويستعظم الشريعة حق تعظيمها، بل هذا فعل من لايهتم بالشريعة ويستخف بها فكيف يكون مسلما مع هذا الأسلوب، ثم هذا الشخص لايحضر الجماعة للصلوات الخمسة ولا للجمعة ولايفعل شيئًا بين يدى الناس الذى يدل على إسلامه فمن كان هذه الحالة هل هو يليق بأن يكون مسلما وهذه كلها

(١) ويكون فاسقا لترك التلفظ بالإقرار

(٢) لو قال "لا" يكون كافرا بالإجماع للتكذيب

بلاعذر فثبت أن التلفظ بالأقرار مهما كائن إما ركن أصل الإيمان أو إمّا فقط شرط لإجراء أحكام الإسلام فى الدنيا ، لٰكن من يتركه لايكون مسلما لاستحقاره واستخفافه بالإسلام ، فافهم، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

ثم اعلم أن الأعمال [1] ليست داخلة فى أصل الإيمان الذى بينّا بإجماع أهل السنة والجماعة خلافا للخوارج والمعتزلة ولهٰذا الخوارج والمعتزلة يخرجون تارك العمل من الإيمان ويزيلون عنه اسم الإيمان ، والعمل المراد منه الطاعات دون ما ذكرنا من التصديق والإقرار بما جآء به نبينا صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم من الصلوٰة والزكوٰة والحج والجهاد وترك الزنا وترك الكذب وترك اللواط وغيرها من أمثالها ونحن قدرددنا على الخوارج والمعتزلة سابقا فى إخراجهم العاصى من الإيمان ونقول مزيدا ردا عليهم أن الأعمال أي الطاعات غير داخلة فى أصل الإيمان ودليلهٗ ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا وَعَمِلُوا الصّٰلِحٰتِ﴾ (البينة:٧) مع القطع بأن العطف يقتضى المغايرة فثبت أن الإيمان غير الأعمال الصالحة لعدم دخول المعطوف فى المعطوف عليه وأيضًا ﴿وَمَنْ يَّعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثٰى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ (النساء:١٢٤) فجعل الإيمان شرطا لصحة الأعمال والمشروط لايدخل فى الشرط لامتناع اشتراط الشيء لنفسه، وكذٰلك إطلاق المؤمن علىٰ من ترك بعض الأعمال. ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ اقْتَتَلُوْا فَأَصْلِحُوْا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرٰى فَقَاتِلُوا الَّتِيْ تَبْغِيْ حَتّٰى تَفِيْءَ إِلٰى أَمْرِ اللّٰهِ﴾ (الحجرات:٩) فأطلق المؤمن عليهما مع أن واحدا منهما المعتدية وكذٰلك ﴿هُوَ الَّذِيْ خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ (التغابن:٢) وهٰذه حجة على المعتزلة لأنهم يجعلون المؤمن التارك للعمل خارجا من الإيمان ، لكن غير داخل فى الكفر والآية تنفى هٰذه المنزلة بين الإسلام والكفر ، فإذا لم يكفّروه المعتزلة فلايبقى إلا أن يكون مؤمنا وكذٰلك حديث جبريل عليه السلام المشهور وفيه تعريف الإيمان "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ." (سنن الترمذي، ح:٢٦١٠) فلم يشمل النبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم الأعمال فيه وكذٰلك الحديث "ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبمحمد رسولا (صلى الله عليه وسلم) وبالإسلام دينا ." (صحيح مسلم، ح:٣٤) والدلائل كثيرة فى هٰذا الباب فثبت أن الأعمال ليست فى أصل الإيمان عند إجماع أهل السنة والجماعة لما ذكرنا من الدلائل ولهٰذا تارك العمل لايزول عنه اسم الإيمان بإجماعهم ولوكانت الأعمال عندهم أو عند بعضهم داخلة فى أصل الإيمان لكان عند هٰؤلاء تارك العمل غير مؤمن فيكون كافرا وهٰذه النظرية باطلة قطعا وبتاتا تخالف القرآن والسنة

---

(١) قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: ثم العمل غير الإيمان والإيمان غير العمل بدليل أن كثيرا من الأوقات يرتفع العمل من المؤمن ولايجوز أن يقال يرتفع عنه الإيمان فإن الحائض ترفع عنها الصلوة ولايجوز أن يقال يرتفع عنها الإيمان أو أمر لها بترك الإيمان.

وهي بدعة قبيحة فی أصول الدين وهي عقيدة الخوارج وعنهم جآء فی الحديث "يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة." (صحيح البخاري: ح:٣٦١٠)، بل هٰذه عقيدة كفرية لما فيه من إبطال النصوص القاطعة، وبعد هٰذا التمهيد بيانه أن المعلوم أن التصديق لو واحد يترک فيه شيئًا منه يكون كافرا مثلاً لو واحد يقول إنهٔ يصدق ببعض ما جآء به النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ولايصدق ببعض فهٰذا كافر بالإجماع ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذٰلِکَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ (البقرة:٨٥) ﴿فَلَا وَرَبِّکَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾(النساء:٦٥) ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب:٣٦) لأن التصديق أصل الإيمان وهٰذا لايقبل النقصان ولاالزيادة كما ذكرنا سابقا فترک حتىٰ نقطة منه يوجب الكفر والخروج من الإسلام، لكن لو واحد يصدق بكل ما جآء به النبي صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم ويقر بلسانه ويقبل الإسلام ويتدين به، لكن يُقصّر فی الأعمال وهٰذا ليس بكافر بإجماع أهل السنة والجماعة قاطبة الفقهاء والمحدثين والمتكلمين منهم كلهم فثبت أن الأعمال ليست كالتصديق حتىٰ تكون داخلة فی أصل الإيمان الذی لايقبل الزيادة والنقصان وهٰذا هو الإيمان الذی قال عنه أبوحنيفة رحمه الله تعالىٰ أن هٰذا الإيمان لايقبل الزيادة والنقصان وأن الأعمال ليست داخلة فيه وكما قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالىٰ أيضًا كما ذكرنا ولأنهٔ كان حنفيًا وهٰذا حقيقة الإيمان وأصلهٔ وأئمة المحدثين أيضًا لايقولون بالزيادة والنقصان فيه؛ لأن التصديق الشرعي لايكون إلا بالكل وإلا لايكون البتة وهٰذا من ضرورات الدين المسلّمة، وكذٰلک أئمة المحدثين لايعتبرون الأعمال داخلة فی هٰذا الإيمان الذی هو أصلهٔ لما ذكرنا إجماع أهل الحق علىٰ عدم تكفير تارک العمل ولهٰذاالإمام البخاري رحمه الله تعالىٰ قال فی شرح الحديث "لايزنی الزانی حين يزنی وهو مؤمن." (صحيح البخاري، ح:٢٤٧٥) "لايكون مؤمنا تاما ولايكون لهٔ نور الإيمان" فلم يُزل عنه اسم الإيمان بالكلية ولم يأخذ الحديث علىٰ ظاهره وهٰذا لما ذكرنا عدم اعتبار أهل الحق الأعمال الصالحة من أصل الإيمان وكذٰلک الإمام مسلم رحمه الله تعالىٰ ضرب بابا مستقلا فی كتابه: "الدليل علىٰ أن من رضی بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم رسولا، فهو مؤمن. وإن ارتكب المعاصی الكبائر". وأخرج فی هٰذا الباب هٰذاالحديث "ذاق طعم الإيمان من رضی بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد (صلى الله عليه وسلم) رسولا." (صحيح مسلم، ح:٣٤) فثابت أن الأعمال ليست داخلة فی أصل الإيمان وأصل الإيمان لايقبل الزيادة والنقصان وهو التصديق.

وبعد هذاالبيان اعلم أن مذهب جمهور المحدثين والفقهاء (سوى الحنفية) أن الإيمان تصديق بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان وهٰكذا هم فسّروا الإيمان وهٰذا مع ما ذكرنا من عدم اعتبارهم الأعمال بالأركان يعنى بالجوارح من أصل الإيمان لأنهم لايُزيلون اسم الإيمان عن تارك العمل، لكن لاتناقض فيه لأنهم لايعتبرون الأعمال بالأركان من أصل الإيمان، لكن من كمال الإيمان حتٰى لايلزم من ترك الأعمال انعدام الإيمان بالكلية، لٰكن انعدام كماله مع وجود أصله وهو التصديق فالتصديق كمثل ساق الشجرة والأعمال مثل الأوراق والأغصان لها، فذهاب الأوراق والأغصان يذهب كمال الشجرة، لكن لا نفس الشجرة مادام الساق باقيا، لكن ذهاب الساق ذهاب الشجرة بالكلية ولاتغنى عنها الأوراق والأغصان فى هٰذه الحالة وأصل الإيمان وهو التصديق مع الإقرار وهو أساس النجاة عن العذاب المخلد كما ثبت فى النصوص القاطعة أن المؤمن لايخلد فى النار ولو دخل فيها سيخرج منها فى زمان ما، وكمال الإيمان وهو التصديق والإقرار والعمل وهوأساس النجاة من العذاب بالكلية.

وبعد هٰذا البيان اعلم أن الإيمان عند الإطلاق عند أبى حنيفة رحمه اللّٰه تعالٰى ومذهب الحنفية وجمهور المتكلمين من أهل السنة ينصرف إلى أصل الإيمان وعند الفقهاء الأخرىٰ وأئمة المحدثين إلى كمال الإيمان ولهٰذا السبب قد حصل النزاع فى الظاهر حتٰى اشتهر أن أباحنيفة رحمه اللّٰه تعالٰى والمتكلمين من أهل السنة يختلفون من جمهور الفقهاء والمحدثين فى تعريف الإيمان وحتٰى بعض المحدثين قد أخطأوا وطعنوا علٰى أبى حنيفة رحمه اللّٰه فيه وأتباع ابن تيمية أيضًا يغلّطون أباحنيفة فى هٰذا ويعتبرونه علٰى خطأ فى هٰذا الأمر وهٰذا كلهٗ لقصور الفهم والعلم وعدم قراءة الكتب دون كتبهم لاسيّما فى العقيدة والتقليد الأعمٰى وعدم تفتيش حقيقة الحال وتثبته ومع ذٰلك ليس عندهم دقة النظر وكمال التحقيق والتعمق والفقه وإلا كما ذكرنا أنهٗ لانزاع بينهم فى الحقيقة فى هٰذه المسئلة؛ لأن أباحنيفة رحمه اللّٰه تعالٰى يتكلم عن أصل الإيمان وهو التصديق والإقرار وهٰذا صحيح عند المحدثين أيضًا كما بيّنا والمحدثون والفقهاء الأخرى يتكلمون عن كمال الإيمان فيشملون الأعمال فيها والحنفية أيضًا يعتبرون الأعمال من كمال الإيمان حتٰى كما ذكرنا أن أصلهٗ فقط لايضمن النجاة من العذاب بالكلية [1]، لكن كما لهٗ بالكمال يضمنه وهٰذا عند جميعهم الحنفية والأخرين كلهم فثبت أنهٗ لانزاع فى الحقيقة. ونحن قد ذكرنا حديث جبريل عليه السلام الذى فيه تعريف الإيمان بالإيمان باللّٰه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الأخر والقدر خيره وشره وهٰذا كلهٗ يجمع فى إيمان بما جآء به النبي صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم كلهٗ؛ لأن الإيمان بالرسل لايكون إلا

(١) ،لكن يضمن النجاة من العذاب المخلد

بإيمان بما جآء وا به كله وهٰذا هو أصل الإيمان ، لكن فى حديث آخر قال رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "هل تدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا: الله ورسولهُ أعلم. قال صلى الله تعالىٰ عليه وسلم : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلٰوة ، وإيتاء الزكوة، وصوم رمضان، وأن تؤدّوا خمسا من المغنم." (صحيح مسلم، ح:١٧) فشمل فى الإيمان بالله وحدهُ الأعمال من الصلٰوة والزكوة والصوم والخمس من المغنم لأنها من كماله .[1]

وإن قلتم إن الحديث الأوّل يقول إن الإيمان هو الإيمان بالله وملائكته إلى آخر وهٰذا هو أصل الإيمان كما قلتم ، لكن هٰذا أصل الإيمان يشتمل على الإيمان بالله والحديث الآخر يفسر الإيمان بالله وحدهُ علىٰ أنهُ يشتمل علىٰ إقام الصلٰوة وإيتاء الزكوة والصوم والخمس فلما ذا تقولون إن الحديث الآخر يتكلم عن كماله؟ لأن الجائز أن تقول أنهُ يفسر الإيمان بالله الذى هو الركن الأعظم من أركان الإيمان الأصلى فعلىٰ هٰذا تكون هٰذه الأعمال أجزاء للإيمان الأصلي دون أن تكون من كماله.

فالجواب بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز هو أن فى نفس الحديث يعنى حديث جبريل عليه السلام، الرسول عليه الصلوات والسلام عرّف الإسلام بأنهُ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول اللّٰه (صلى الله تعالىٰ عليه وسلم) وإقامة الصلٰوة وإيتاء الزكوة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلا ." (سنن الترمذي، ح:٢٦١٠) فإن كانت هٰذه الأعمال شاملة فى تعريفه للإيمان فى نفس الواقعة (فى حديث جبريل عليه السلام) فهٰذا يلزم الإعادة، فثبت أن تعريف الإيمان بالإيمان بالله إلى آخر فى هٰذا الحديث هو فى معنى التصديق والإقرار فلهٰذا ذكر صلى الله تعالىٰ عليه وسلم الأعمال فى هٰذا الحديث فى تعريف الإسلام وفى حديث آخر الإيمان بالله وحدهُ هو علىٰ معنى الإسلام؛ لأن تعريفه فى الحديث قريب من تعريف الذى هو للإسلام فى الحديث الأوّل، وهٰذا أيضًا يأتى بنا فى باب آخر لنفس الموضوع وهو بيان الإيمان والإسلام ،وإن شاء الله نتكلم عنهما قريبا فالأن ينبغى الملاحظة أنهما قد استعمل فى نفس المعنى فى النصوص كما هو ظاهر من ملاحظة هٰذين الحديثين، وثم ما ذكرنا من الدلائل القاطعة وإجماع أهل الحق أن الأعمال ليست داخلة فى أصل الإيمان أيضًا يوجب حمل هٰذا الحديث الآخر علىٰ كمال الإيمان دون أصل الإيمان الذى هو التصديق والإقرار. وفى تفسير القرطبي فى تفسير الآية ٣،٢ لسورة الأنفال، سأل رجل الحسن فقال: يا أباسعيد، أمؤمن أنت؟ فقال له: الإيمان إيمانان، فإن كنت تسألنى عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه

---

(١) الحديث "الإيمان بضع وسبعون بابا فأعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق." (سنن الترمذي، ح:٢٦١٤) أيضًا يتكلم عن كمال الإيمان

ورسله والجنة والنار والبعث والحساب فأنا مؤمن به، وإن كنت تسألني عن قول الله تبارك وتعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (الأنفال: ٢) إلى قوله ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ (الأنفال: ٤)فوالله ما أدري أنا منهم أم لا . انتهى.

فإذا كان الإيمان المطلق ينصرف إلى أصل الإيمان عند أبي حنيفة رحمه الله وفقهاء الأحناف والمتكلمين من أهل السنة فلذلك قالوا إن الإيمان لايزيد ولاينقص يعني باعتبار جهة المؤمن بالإيمانيات؛ لأن الزيادة فيه افتراء على الله كذبا والنسبة للشيء أنهُ من عنده وما هو من عنده والنقصان هو تكذيب ببعضه وكلاهما كفر فلايكون إيمانا البتة وقد بيّناه سابقا ، لكن لأن الإيمان المطلق ينصرف إلى كمال الإيمان عند الفقهاء الأخرى والمحدثين رحمهم الله تعالى فقالوا أنهُ يزيد وينقص بسبب الأعمال والتحقيق أن عندهم الإيمان (المطلق) فيه بعض (وهو الجزء الأصلي التصديق والإقرار) وهو لايزيد ولاينقص. وفيه بعض (وهو الجزء العرضي لايلزم من عدمه عدمه وهو الأعمال وهي تزيد وتنقص، والحنفية أيضًا يعتبرون النقصان والزيادة في الأعمال؛ لأنهُ من البداهة ، لكن لايعتبرونه من الإيمان؛ لأن الإيمان المطلق عندهم الإيمان الأصلي وهو لايقبل الزيادة والنقصان بالإجماع، فعلى هذا انكشف الغطاء أن كلهم متفقون على نفس الشيء والفرق هو الفرق الاصطلاحيّ وبس. ثم ما بقي هي الآيات القرآنية التي تتكلم عن زيادة الإيمان يعني تفسيرها ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ (الفتح: ٤) ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ (الأنفال: ٢) ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ (المدثر: ٣١) فيحتمل أن يقال: إن المحدثين والفقهاء الذين عندهم الإيمان المطلق ينصرف إلى كمال الإيمان فيزيد وينقص بسبب الطاعات فلا يلزمهم تفسير هذه الآيات لأنهم يقولون بزيادته ونقصانه ، لكن هذا غير صحيح؛ لأن بعد الغور في هذه الآيات قد بدا وظهر أن تفسير هذه الآيات يلزمهم أيضًا لأنهم يقولون بزيادة الإيمان بسبب الطاعات والأعمال المكسوبة ، لكن الآية الأولى التي ذكرنا تتكلم عن إنزال السكينة وزيادة الإيمان في قلوب المؤمنين بها وإنزال السكينة ليس من الأعمال المكسوبة، بل هو فضل من الله فلاتطرّد الآية على مذهب هؤلاء الفقهاء والمحدثين فيلزمهم بيان هذه الآية وكذلك الآية الأخيرة من سورة المدثر ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (المدثر: ٣١) تتكلم عن زيادة الإيمان بسبب عدد الملائكة الموكلين بالنار وخزنتها وليس هذا من الأعمال المكسوبة وكذلك الآية ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: ١٧٣) ففي هذه الآية زيادة الإيمان بسبب هذا قول

الناس لهم الذى فى الآية وليس هٰذا من الأعمال المكسوبة لهم، والآية الثانية التى ذكرنا ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾ (الأنفال: ٢) فقد يقال: إن سماع الآيات من الأعمال المكسوبة فزيادة الإيمان بهٰذا العمل، لكن ما ذا يقال فى هٰذه الآية حينئذ. ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هٰذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٤) ففى هٰذه الآية زيادة الإيمان بنزول السورة وليس هٰذا من الأعمال المكسوبة لهم. وهٰذا ما يلزم الفقهاء والمحدثين الذين عندهم الإيمان المطلق ينصرف إلى الإيمان الكامل المشتمل على الأعمال وأما الأحناف فيلزمهم بيان هٰذه الآيات من باب الأولىٰ؛ لأن الإيمان المطلق ينصرف عندهم إلىٰ أصل الإيمان الذى لايتصور فيه الزيادة والنقصان ،فعلىٰ ما روي عن أبى حنيفة رحمه الله تعالىٰ: إنهُ قال: إن معنى أنهم (الصحابة رضي الله عنهم) كانوا امنوا فى الجملة يعنى امنوا بكل ما يجيء به النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم، لٰكن الوحي كان لايزال يأتى لأنهم كانوا مع النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فكلما يأتى الوحي فهم كانوا يؤمنون بهٖ بالتفصيل وبالاستقلال بعد أنهم يؤمنون بطريقة الإجمال وهو ما يجيء به النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم هم امنون بهٖ . فالتفصيل يترتب علىٰ هٰذا الإجمال وحيا فوحيا ولاخفاء أن التفصيل أزيد، بل أكمل وهٰذا لايتصور فى غير عصر النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ،؛ لأن الوحي قد كمل فى عصره عليه فلا وحي بعدهٗ ، لكن فيه شيء وهو هٰذا لايتصور بعد النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم على المنوال الذى ذكرنا عن أبى حنيفة رحمه الله تعالىٰ ، لكن يمكن على المنوال الآخر وهو إذا واحد من الكفار يسلم فيؤمن إجمالا بكل الإسلام يعنى عند ما يدخل فيه وثم يتعلم تفصيلا شيئًا فشيئًا فعلىٰ هٰذا يزيد إيمانه بسبب الترقي من الإجمال إلى التفصيل؛ لأن الإيمان واجب إجمالا فيما علم إجمالا وتفصيلا فيما علم تفصيلا فهٰذا المسلم الجديد يتعلم التفاصيل التى وجبت عليه أن يعلم ويترقى إيمانه وثم هٰذا التفسير لايجيب عن الآيات الأخرى. ﴿هُوَ الَّذِيْ أَنْزَلَ السَّكِيْنَةَ فِيْ قُلُوْبِ الْمُؤْمِنِيْنَ لِيَزْدَادُوْا إِيْمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ (الفتح: ٤) وأشباهها التى فيها زيادة الإيمان بأسباب غير نزول الآيات وتلاوتها وغير الأعمال المكسوبة من المزدادين فى الإيمان فيلزم بيان هٰذا على الأحناف وكذٰلك الفقهاء الأخرى والمحدثين رحمهم الله تعالىٰ. فالتحقيق إنشاء الله العزيز بتوفيق الله تعالىٰ أن الإيمان هو التصديق وهٰذاأعظم ركن الإيمان والإقرار. والتصديق محله القلب كما ذكرنا سابقا. والتصديق فى أصله لايتفاوت؛ لأن الزيادة والنقصان فيه لايتصور؛ لأن الزيادة فيه إما يكون بزيادة النصوص (وقد ذكرنا فوقا عنها أنها بهٰذا التفسير لاتجيب عن الآيات الأخرى ولهٰذا إن شاء الله نبيّن الآيات الأخرى بهٰذا التحقيق) وهو محال(شرعا) بعد النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم أو يكون بسبب النقصان فى السابق والنقصان فى التصديق هو الشك والظن دون اليقين وهٰذا ينافى تصديقا

فلايكون تصديقا البتة فعلىٰ هٰذا لم يكن مصدقا فى السابق البتة ، بل الأن بعد ذهاب الشک والظن صار مصدقا فعلىٰ هٰذا لاتكون الزيادة، بل يكون وجودهٗ بعد عدمه وكذٰلک النقصان إما يكون بسبب تكذيب بعض النصوص وهو كفر فلايكون تصديقا البتة أو إما يكون بدخول الشک والظن دون اليقين وهٰذا ينافى تصديقا فلايكون مصدقا، بل كافرا ، لكن مع هٰذا نعرف بالقطع أن إيماننا ليس كإيمان النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم والأنبياء الأخرى عليهم الصلوات والسلام يعنى باعتبار أصله وكماله والتحقيق أن أصل الإيمان لايتفاوت باعتبار المؤمن بالإيمانيات ، لكن يتفاوت باعتبار التأثيرات وبيانه أن إيماننا يشبه إيمان الأنبياء عليهم الصلوات والسلام باعتبار أنهم يصدقون بكل ما أنزل اللّٰه تعالىٰ علىٰ رسله عليهم الصلوات والسلام بلاشک ونحن كذٰلک بلا شک ، لكن اثر إيمانهم فى حياتهم علىٰ وجه حتىٰ أنهم أسوة كاملة حسنة للآخرين والخوف والخشية للّٰه تعالىٰ والتقوىٰ وإمتثال أوامره وإجتناب نواهيه فى حياتهم على المراتب لايمكن لنا حصولها؛ لأن اللّٰه تعالىٰ يعصمهم بعصمة كاملة فيخلق فيهم الكمالات مع إيمانهم التى لايمكن حصولها لنا على الوجه الذى حصل لهم وهٰذا فى عالم الأسباب تعتبر أثرات الإيمان. ومع ذٰلک أصل الإيمان ولو لا يتفاوت باعتبار المؤمن بالإيمانيات ، لكن يتفاوت باعتبار الجهات علىٰ حصوله ، فإذا تعدد ت الجهات علىٰ حصوله يكون أقوى مِمَّن لو حصل عليه بجهة واحدة فقط و بيانه أن واحدا يرى الدخان فى الفوق ويسمع من الناس تواترا أن هناک نار فيحصل لهٗ علم اليقين بالنار أنهٗ هناک وثم يذهب هناک ويراه بعينيه فيحصل لهٗ عين اليقين بالنار ثم لو يمسها بيدهٖ فيحترق يده يحصل لهٗ حق اليقين بالنار فأما نفس اليقين فكان حاصلا عند ما يرى دخانا وسمع تواترا عن النار ، لكن بالذهاب إليها ومسّها حصل لهٗ اليقين من الجهات الأخرى فيزداد جهة اليقين علىٰ جهة اليقين ولاخفاء أن حق اليقين لهٗ فوقية علىٰ عين اليقين وكذٰلک عين اليقين لهٗ فوقية علىٰ علم اليقين ،؛ لأن علم اليقين جهة واحدة وعين اليقين جهتان؛ لأنهٗ شامل لعلم اليقين وحق اليقين شامل لكل وهٰذا هو المعنى فى قصة إبراهيم عليه السلام فكان عنده علم اليقين فاليقين حاصل بلا شک ولهٰذا قال﴿بَلٰى وَ لٰكِنۡ لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِىۡ﴾ (البقرة:٢٦٠) فاليقين حاصل لهٗ؛ لأن الأنبياء منزهون عن الشک فى هٰذه الأمور؛ لأنهٗ كفر ومن نسب الكفر إلى نبي من الأنبياء عليهم الصلوات والسلام فهو كافر دونه. وقصة إبراهيم عليه السلام فى القرآن ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرٰهِيۡمُ رَبِّ أَرِنِىۡ كَيۡفَ تُحۡىِ الۡمَوۡتٰى﴾ (البقرة:٢٦٠)

فالسؤال عن الكيفية وليس عن القدرة؛ لأنهٗ يعرف أن اللّٰه قادر علىٰ إحياء الموتىٰ ويوقن به وهٰذا علم اليقين وهو يريد عين اليقين لكى يزداد فى الجهات فى هٰذا الشان فيسأل عن كيفية إحياء الموتىٰ واللّٰه عزوجل يعلم؛ لأنهٗ عالم بكل شىء أن سيدنا إبراهيم عليه السلام لايسأل هٰذا بسبب

الشک، بل؛ لأنهٗ يريد عين اليقين ، لكن يمكن أن الملاحدة يطعنون فيه فنوسب تبرئته من الشک بالبيان فقال عزوجل ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ (البقرة:٢٦٠) وهو يعلم أنهٗ يؤمن ، لكن حتى يقول بلسانه أنهٗ يؤمن فيزيل طعن الملاحدة فقال إبراهيم عليه السلام ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة:٢٦٠) يعني أنا مؤمن بلا شک ، لكن أريد عين اليقين فهٰذا التمنى فى قلبي فأرنى حتى يطمئن قلبى(وفى تفسير هٰذه الآية أقوال ونحن نفسرها هٰكذا والله أعلم بتفسيرها على وجه القطع ، لكن المعلوم بالقطع أن إبراهيم لم يشک فى قدرة الله (معاذ الله) و هٰذا لايجوز على الأنبياء ومن قال هٰذا فقد كفر؛ لأنهٗ تنقيص فى شأن الأنبياء عليهم الصلوات والسلام) فالحاصل أن أصل الإيمان يتفاوت من حيث التأثيرات ومن حيث الجهات على حصوله فإذا فهمت هٰذا فإن شاء الله الأن نتكلم عن هٰذه الآيات الذاكرة عن زيادة الإيمان.

(١) ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾ (الأنفال:٢) ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة:١٢٤-١٢٥)فمعناها والله أعلم يعنى إذا أنزلت سورة وتليت عليهم فهم يؤمنون بها فهٰذا زيادة الإيمان بحيث أنهم كانوا يؤمنون بها على الإجمال وهو مهما ينزل على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فهم كانوا آمنين بها ثم كلما ينزل شيء هم آمنون به على الاستقلال والتفصيل بعد الإيمان الإجمالي به فيترقون من الإجمال إلى التفصيل شيئًا فشيئًا وعلى هٰذا الذين فى قلوبهم مرض كلما ينزل شيء على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فهم يكفرون به على الاستقلال والتفصيل بعد ما يكفرون به على طريقة الإجمال لأنهم يكفرون بما جاء به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالجملة فيترقون رجسا إلى رجسهم وهٰذا على وجه ما ذكره أبوحنيفة رحمه الله تعالى وأيضًا العلماء الأخرى الذين معهٗ فى هٰذا التفسير ونحن قد ذكرنا هٰذا التفسير قبلا وهٰذا التفسير يجوز فى حق المسلم الجديد يتعلم شيئًا فشيئًا من تفاصيل الإيمانيات ويترقى من الإجمال إلى التفصيل فيزداد إيمانا بالترقى من الإجمال إلى التفصيل وهٰذا بديهي والأحناف لاينكرون زيادة الإيمان على هٰذا المنوال؛ لأنهٗ لامجال للإنكار ، لكن الإشكال أنهٗ على هٰذا التفسير يكون معنى الآية ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ﴾ (الأنفال:٢) يعنى فى المرة الأولى والسماع الأولى وبعد هٰذا حصل الإيمان بالتفصيل على هٰذه الآيات ولو تليت نفس الآيات مرة أخرى لايزيدهم إيمانا على هٰذا المنوال الذى فى هٰذا التفسير؛ لأن الإيمان بها حاصل من قبل وهٰذا إقصار معنى الآية بلادليل وثم المسلمون يعرفون أن قراءة القرآن تؤثر فى قلوب المؤمنين وفى التأثيرات للإيمان ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ

جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ (الزمر:٢٣) فعلى هذا نقول والله أعلم أن معنى الآية ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ (الأنفال:٢) أي هم ينتفعون بها (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) ويزدادون فى الخوف والخشية والتقوىٰ واستعداد للأعمال الصالحة واجتناب النواهي وتأتي الآيات بالأشياء فى نفوسهم من السكينة والشوق إلى الله ودار السلام ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ (بنى إسرائيل:١٠٧-١٠٩) ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (المائدة:٨٣) وإلى هذا أشار الشيخ الطحاوي رحمه الله تعالىٰ فقال "والإيمان واحد وأهلهُ فى أصله سوآء والتفاضل بينهم بالخشية والتقى ومخالفة الهوىٰ وملازمة الأولىٰ" وهٰذهٖ كلها تأثيرات الإيمان بخلق الله تعالىٰ فإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا يعنى زادت إيمانهم تأثيرا؛ لأن الخوف والخشية والتقوىٰ أساسه الإيمان؛ لأنهٗ إذا يصدّق ويعلم الله تعالىٰ وصفاتهٗ وجزائه وعقابه فلابدمن الخوف والتقوىٰ و هٰذه الأشياء حاصلة لجميع المؤمنين؛ لأن حتّى العاصى يقول إنهٗ يخاف الله (ولو قال: إنهٗ لايخاف يكفر) ويخشى عذابه ، فلهٰذا امن وأسلم ، لٰكن فى العاصى هٰذه الأشياء ضعيفة ولهٰذا لايمتثل أوامر الله كلها ويقع فى المعاصى مع امتثال أمر اللّٰه بالإيمان و هٰذا ضعف الإيمان باعتبار آثارهٖ وإذا قوي الإيمان باعتبار آثارهٖ يزداد خوفا وتقوى و امتثالا بأوامر اللّٰه و اجتنابا لنواهيه . وهٰذا هو زيادة الإيمان الذى لاينكر أبوحنيفة رحمه الله تعالىٰ وفقهاء الأحناف والمتكلمون من أهل السنة وكذٰلک الفقهاء الأخرىٰ والمحدثون من أهل السنة يقبلون زيادة الإيمان بهٰذا الاعتبار مع باعتبار كمية الأعمال علىٰ مذهبهم خلافا للأحناف والمتكلمين من أهل السنة رحمهم الله تعالىٰ وكذٰلک النقصان من هٰذه الجهة يكون باعتبار نقصان آثاره بسبب اتباع الشهوات ، لكن نفس التصديق لايتفاوت الذى هو أصله الجوهر وقد بينا سابقا.

(٢) وكذٰلک الآيات ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ (الفتح:٤) يعنى اللّٰه سبحانهٗ وتعالىٰ أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين كما فعل فى معركة الحنين ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (التوبة:٢٦) وهٰذا فى يوم الحنين عند ما حصل التولى فى بعض المسلمين تأديبا لهم من الله لما قالوا بعضهم "لن نغلب اليوم عن قلة" وماكان هٰذا القول إنكارا لمشيئة الله وأن الفتح والهزيمة من عنده ، لكن ظاهره يحتمل هٰذا المعنى فحصل التولى فى البداية تأديبا لهم فى بعض المسلمين ، لكن الرسول عليه الصلوٰة والسلام فداه نفسى وأبى وأمى أشجع الناس ثبت مثل

الجبل، بل الأثبت منه، فكان يركض بغلته قِبل الكفار فنزل ودعا واستنصر وهو يقول "أنا النبي لاكذب أنا ابن عبد المطلب وهكذا الأنبياء عليهم الصلوات والسلام ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ (الأحزاب:٣٩) فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين فالمؤمنون ازدادوا إيمانا مع إيمانهم يعنى باعتبار آثاره فحصل فيهم من الشجاعة والجرأة والجسارة والقوة ورباط القلب والتوكل على الله تعالى فهم بدأوا يرجعون إلى المعركة فما لبث أن الكفار انهزموا وتولوا مدبرين وهذا كما حصل بهم فى الآية ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ (آل عمران:١٧٣) يعنى هذا القول من الناس لم يأت بالخوف فيهم، بل ازدادوا جرأة وشجاعة وثباتا وصبرا واستقامة وتوكلا على الله تعالى واستغاثة به وخشية له دون غيره وهذه كلها زيادة الإيمان باعتبار آثاره.

وأما الآية ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ (المدثر:٣١) فأحد الوجه فيه أن المؤمنين إذا صدّقوا بعدد أصحاب النار يعنى خزنة جهنم فيزدادون تصديقا على التصديق السابق فيكون من قبيل الترقى من الإيمان الإجمالي به يعنى شاملا فى التصديق بما يجيء به محمد صلى الله تعالى عليه وسلم إلى الإيمان التفصيلي به بعد أن علموا من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عنه كما ذكرنا هذا الوجه سابقا قال العبد الحقير غفر الله له قد بدا لى وجه آخر ، لكن لم أره فى التفسير ، أذكره حتى يروا فيه العلماء وهو أن فى الآية ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ (المدثر:٣١) وتفسيره كما فى كتب التفاسير ليستيقن الذين أوتوا الكتاب اليهود والنصرى صدق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى كون عدد خزنة جهنم تسعة عشر موافقا لما ورد فى كتبهم وجاء فى الترمذي أن اليهود سألوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن عددهم فقال صلى الله تعالى عليه وسلم "هكذا وهكذا" فى مرة عشرة وفى مرة تسعة يعنى تسعة عشر فقالوا نعم، وثم يقول الله ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ (المدثر:٣١) فيحتمل أن المعنى يكون أن الصحابة رضي الله عنهم لما رأوا اليهود يقرّون ما فى القرآن عن عدد جهنم بسبب أنهُ موافق لما فى كتبهم فحصل للصحابة رضي الله تعالى عنهم زيادة الإيمان بسبب تعدد الجهات وقد بينا سابقا زيادة الإيمان بسبب تعدد الجهات على حصوله فالصحابة رضي الله تعالى عنهم كانوا مصدقين جازما بلاشك ماقال القرآن عن عدد خزنة جهنم وثم يأتى إقرار اليهود عليه مع عنادهم وتمردهم وتكذيبهم فيزدادوا إيمانا مع إيمانهم على حقّية القرآن والله أعلم ويهدى من يشآء إلى صراط مستقيم.

فاعلم أن إيمان الأنبياء ليس كمثل إيماننا باعتبار آثاره وباعتبار تعدد الجهات؛ لأن عندهم

حق اليقين الشامل لعين اليقين وعلم اليقين بسبب أنهم يشاهدون (حتى لما كانوا فى الدنيا) العالم الأعلى من الملائكة ونزول الوحي وظهور المعجزات على أيديهم وغيرها من الأشياء الكثيرة والأحناف والمتكلمون من أهل السنة يعترفون بهٰذا وهم لايقولون إن إيماننا كمثل إيمان الأنبياء على الإطلاق، بل يعترفون فضيلة إيمان الأنبياء على إيماننا بأضعاف لاتحصى ، لكن أصل التصديق لاتفاوت فيه لما بينا سابقا والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

الاستثناء فى الإيمان: وهو أن يقال "أنا مؤمن إن شاء الله" فاعلم أن الاستثناء فى الإيمان لاينبغي؛ لأنهُ إن كان للشك فى إيمانه فهو كافر بالإجماع لامحالة وإن كان بمعنى العاقبة والمآل يعنى أنا مؤمن (أموت على الإيمان) إن شاء الله فتركه أولىٰ؛ لأنهُ يوهم الشك ، لكن ليس حراما فى هٰذا المعنى لأن العاقبة غير معلومة لنا ، فبمعنى العاقبة يجب تعليق بمشيئة الله تعالى ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ (الكهف: ٢٣) لٰكن الجملة "أنا مؤمن" ظاهره عن الحال وليس المآل فلا ينبغي الاستثناء وأما فى معنى العاقبة فهو مبنى على النية فيكون الاستثناء صرفا عن ظاهر الكلام ولهٰذا ذكر فى الفتوىٰ "أن القائل أنا مؤمن إن شاء الله يكفر؛ لأن ظاهر الكلام يلزم الشك" إلا أن يؤول كما ذكرنا ولايقال لأن كل شيء بمشيئة الله تعالى فكونه المؤمن فى الحال أيضا بمشيئة الله تعالى فينبغي أن يستثنى لأن الاستثناء تعليق الأمر الممكن الذى لايوجد بعد بمشيئة الله تعالى كأنهُ يقول لو شاء الله يكون وإلا لايكون وإيمان المؤمن فى الحال قد وجد بمشيئة الله تعالى، فالاستثناء يكون بمعنى أنهُ لايوجد بعد ولو شاء الله يوجد وإلا لا، وهٰذا شك والشك فى الإيمان كفر لامحالة إلا كما ذكرنا أنهُ يؤول فى معنى العاقبة والخاتمة "إنما الأعمال بالخواتيم"، لٰكن هٰذا صرف عن ظاهر الكلام فلاينبغي وهٰذا مذهب الأحناف وهو أقوى من مذهب الشافعية القائلين باستحباب الاستثناء فى معنى المآل والعاقبة وكلا المذهبان مرويان عن السلف ودليلنا الأحناف [1] فى ترك الاستثناء.

(١) الاستثناء يبطل العقود فكذا الإيمان.

(٢) عن عطاء رحمه الله تعالى قال "أدركت الصحابة رضي الله تعالى عنهم يقولون نحن المسلمون المؤمنون ،وقال رجل أنا مؤمن إن شاء الله تعالى قال ابن عباس رضي الله عنهما أتؤمن بالله ورسوله قال نعم! قال قل أنا مؤمن حقًا،ثم قرأ قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَاهَدُوا۟ فِى

(١) روي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنهُ أخرج شاة ليذبح فمرّ رجل فقال أمؤمن أنت قال نعم إن شاء الله تعالى قال لايذبح من يشك فى إيمانه ثم مر به رجل آخر فقال مؤمن أنت قال نعم فأمره بذبح شاة فصرف ظاهر الاستثناء إلى الشك ولم يجعل قائلهُ مؤمنا كما ترى والله أعلم عن صحة هٰذه الرواية

سَبِيلِ اللّٰهِ وَالَّذِيْنَ آوَوْا وَّنَصَرُوْا أُوْلٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُوْنَ حَقًّا﴾ (الأنفال:٧٤)

(٣) سأل الإمام أبوحنيفة رحمه الله تعالىٰ رجلا عن دليل الاستثناء قال أتبع إبراهيم عليه السلام فى قوله ﴿وَالَّذِیْ أَطْمَعُ أَنْ يَّغْفِرَ لِی خَطِيْئَتِی يَوْمَ الدِّيْنِ﴾ (الشعراء:٨٢) قال أبوحنيفة رحمه الله تعالىٰ هل اتبعته فى قوله ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلٰى﴾ (البقرة:٢٦٠) والله أعلم ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

التنبيه: لايجوز أن يقال "أنا مؤمن كامل نا ج حقا" لأن النجاة فى الآخرة منوطة على العالٰ والعاقبة على الإيمان وهو غير معلوم(فيلزمه الاستثناء) لنا(اللّٰهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان) . وكذٰلك كمال الإيمان منوطة علىٰ جميع امتثال أوامر الله تعالىٰ واجتناب نواهيه فهٰذا يكون تزكية نفسه والإعجاب بحاله وهٰذا لايجوز ﴿فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقٰى﴾ (النجم:٣٢)

الإسلام والإيمان: اعلم أن الإسلام والإيمان واحد ونعنى بهما الإسلام الشرعي والإيمان الشرعي لأن معنى الإسلام الشرعي هو الخضوع والانقياد لله تعالىٰ ﴿إِذْ قَالَ لَهٗ رَبُّهٗ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعٰلَمِيْنَ﴾ (البقرة:١٣١) فإذا انقاد إلى الله تعالىٰ فصار متقبلا وممتثلا و مذعنا إلى أوامره والتصديق مع الإقرار الذى هو أصل الإيمان أعظم أوامر الله تعالىٰ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا آمِنُوْا بِاللّٰهِ وَرَسُوْلِهٖ وَالْكِتَابِ الَّذِیْ نَزَّلَ عَلٰى رَسُوْلِهٖ وَالْكِتَابِ الَّذِیْ أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ (النساء:١٣٦) ﴿فَآمِنُوْا بِاللّٰهِ وَرَسُوْلِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِیْ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَكَلِمَاتِهٖ وَاتَّبِعُوْهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُوْنَ﴾ (الأعراف:١٥٨) فصار الإسلام مشتملا على الإيمان. وإن قيل فعلىٰ هٰذا يلزم الفرق وهو أن الإسلام أعم حتىٰ يشمل الإيمان وهو التصديق والإقرار ومع ذٰلك الأوامر الأخرىٰ لله تعالىٰ من الأعمال الصالحة؟ . فالجواب أن بسبب هٰذا بعض الناس ذهبوا إلى أن كل مسلم مؤمن وليس كل مؤمن مسلما وهٰذا باطل بالكلية لأننا نسألهم لو ليس كل مؤمن مسلما والله عزوجل يقول فى القرآن ﴿إِنَّ الدِّيْنَ عِنْدَ اللّٰهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران:١٩) ﴿وَمَنْ يَّبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيْنًا فَلَنْ يُّقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِی الْآخِرَةِ مِنَ الْخٰسِرِيْنَ﴾ (آل عمران:٨٥) والمسلم من الإسلام كما هو الظاهر فالمؤمن يعنى المصدق المقر المتقبل بكل ماجاء به النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وهو الإسلام ولوهو ليس مسلما فمن هو؟ هل هو على الدين غير الإسلام الذى لايقبل الله غيره فيكون من الخسرين فى الآخرة؟ والخسارة فى هٰذه الآية هي التأبيد فى جهنم بالإجماع كما هو الظاهر والمعلوم أن المؤمن لايخسر فى الآخرة فى معنى التأبيد فى جهنم ولاهو علىٰ دين غير دين الإسلام فهٰؤلاء الناس الذين ذهبوا إلى هٰذا القول يلزمهم ما ذكرنا وهو باطل بالإجماع كما هو الظاهر حتىٰ عندهم، بل كل مؤمن مسلم وكل مسلم مؤمن وتحقيقه أن ماذكرنا من

الإيمـان أنهٔ التصديق والإقرار هو أصل الإيمان وإلا كمال الإيمان لا يخلو من امتثال جميع أوامر الله تـعالىٰ وكذٰلك الإسلام الذى يشمل التصديق والإقرار والعمل هو الإسلام الكامل لأن أصل الإسلام ثابت بالتصديق والإقرار حتىٰ لو الكافر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله (صلى الله تعالىٰ عليـه وسـلـم) ويـصـدق ويـقـر ويـقبـل بـكل ماجاء به النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم يصير مسلما بـالإجـمـاع ولو لم يحصل منه أعمال غير هٰذا وكذٰلک يصير مؤمنا بالإجماع لأن التصديق والإقرار والقبول هو أصل الإيمان فصار حاصلا لهٔ وفى القرآن ﴿هُوَ الَّذِىْ خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ (التغابن: ٢) وهٰذا ليس كافرا بالإجماع فيكون مؤمنا مسلما بالإجماع.

فـحاصل الكلام أن الإسلام والإيمان واحد وهو التصديق والإقرار والعمل فى معنى الكمال، فـمهـمـا يـكـون ناقصا فى العمل يكون ناقصا فى كمال الإسلام والإيمان و أصل الإسلام والإيمان هو التـصـديق والإقـرار حتىٰ يكون بهما مسلما مؤمنا كما بينا ويؤيده قولهٔ تعالىٰ ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ﴾ (الذاريات: ٣٥-٣٦) وبالغور وبالإمعان يبدو وجه الاستـدلال من هٰذه الآية وهو أن المعلوم أن هٰذه الآية عن سيدنا لوط عليه السلام وقومه والمعلوم أن قبل عذاب قومه، الله عزوجل أرسل الملائكة إلى سيدنا لوط عليه السلام فأمروه أن يخرجوا من قرى هٰـذا القوم ﴿قَالُوْا يَا لُوْطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّکَ لَنْ يَّصِلُوْا إِلَيْکَ فَأَسْرِ بِأَهْلِکَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ الخ﴾ (هود: ٨١) فـالـلّٰـه عـزوجـل يقول ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ﴾ (الذاريات: ٣٥)، وهٰـذا بأمره للوط عليه السـلام لـلخروج بواسطة الملائكة فالحكم للملائكة بإخراج المؤمنين وهو لا يمكن حتىٰ يوجد فيها (مـدائـن قـوم لـوط عليه السلام) المؤمنون، والله أعلم بكل شيء، فللملائكة أن يجدوا المؤمنين فى الـمـدائـن وأن يـأمـروهم بالخروج منها ،فقال الله تعالىٰ: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ﴾ (الذاريات: ٣٦) يـعـنـى لم تجد الملائكة بيتا للمسلمين إلا بيتا فيعنى هم قصدوا وجدان بيت المسلمين مـع الأمر لوجدان المؤمنين وإخراجهم منها فثبت أن المسلمين والمؤمنين شيء واحد وهم لم يجدوا بيت الـمـسـلـمـيـن المؤمنين إلا بيت ال لوط عليه السلام ولهٰذا قالوا لإبراهيم عليه السلام ﴿قَالُوْا إِنَّا أُرْسِلْنَـا إِلَـى قَـوْمٍ مُـجْـرِمِيْـنَ إِلَّا آلَ لُـوْطٍ إِنَّـا لَـمُـنَـجُّـوْهُـمْ أَجْـمَـعِيْـنَ إِلَّا امْـرَأَتَـهٗ قَدَّرْنَـا إِنَّهَـا لَمِنَ الْـغَابِرِيْنَ﴾ (الحجر: ٥٨-٦٠) فـحـاصـل الـكلام أن هتين الأيتين تؤيدان ما قلنا عن الوحدة بين الإسلام والإيـمـان ولـو كـان الـمـسلم أعـم أو أخص لكان قصد الوجدان لم يكن لبيت المسلمين، بل لبيت المؤمنين لكون الحكم لإخراج المؤمنين من القرىٰ لقوم لوط عليه السلام وهٰذا كما يدل علىٰ أن كل مؤمن مسلم يدل أيضا علىٰ أن كل مسلم مؤمن خلافا للذين قالوا من العلماء أن كل مؤمن مسلم، لكن لـيـس كـل مـسـلـم مؤمنا وهٰذا أيضا باطل كما تدل عليه هٰذه الآية وكذٰلک ما ذكرنا من الدلائل قبلا

ومنها أن من من الكافرين يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويسلم ويقبل ويتدين بالإسلام يكون مسلما مؤمنا بالإجماع وأيضا معلوم أن المسلم ليس كافرا والكافر ليس مسلما وفى القرآن ﴿هُوَ الَّذِىْ خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ (التغابن:٢) والمسلم ليس كافرا كما هو معلوم من الدين بالضرورة فيكون مؤمنا لامحالة وأيضا أن المعلوم من حديث جبريل عليه السلام أن الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره والمعلوم أنهٔ لايكون مسلما إلا أن يؤمن بهٰذا كله ، فإذا يكون مسلما يكون متصفا بالإيمان لامحالة وهو إيمان بكل ماجاء به النبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم فيكون مؤمنا لامحالة والدلائل فى هٰذا الباب كثيرة فلاشک أن الإسلام لاينفک من الإيمان ولا کذٰلک بالعکس فالأن بقى بيان النصوص التى يستدل بها من قال أن ليس كل مسلم مؤمنا أو أن ليس كل مؤمن مسلما فإن شاء الله العزيز نتكلم عنها الأن .

(١) حديث جبريل عليه السلام فيه تعريف الإسلام "أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلوٰة وتؤتى الزكوة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا" وتعريف الإيمان "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ." (سنن أبى داود، ح:٤٦٩٥) فاستدلوا بهٰذا الحديث أن الإسلام والإيمان متغايران، ثم بعضهم قالوا أن كل مسلم مؤمن ، لٰكن لابالعكس بسبب احتواء الإسلام على الإيمان والأعمال فيكون التشهد عبارة عن الإيمان والأعمال الأخرىٰ عبارة عن الأعمال فى تعريف الإسلام فى الحديث فيما بدا لى من وجه قولهم وبعضهم قالوا أن كل مؤمن مسلم ، لكن لابالعكس بناء علىٰ أن الإسلام هو الأعمال الظاهرة من التلفظ بالشهادة وغيره من الأعمال لا التصديق القلبى والإيمان هو التصديق بما جآء به النبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم، وأعظمها ما ورد فى هٰذا الحديث، والأعمال لما ورد فى الحديث الأخر فى تعريف الإيمان بالله وحده .

والجواب بتوفيق اللّٰه تعالىٰ إن شاء الله العزيز إلى من قال أن جميع المسلم مؤمن ، لكن لابالعكس أننا أثبتنا سابقا بطلان قولكم من الدلائل وأيضا أن هٰذا الحديث(حديث جبريل) على الظاهر لايطرد مع قولكم بسبب أن التلفظ بالشهادة لايلزم التصديق القلبى كما هو حال المنافق فحمل الشهادة عبارة عن الإيمان القلبىٰ غير لازم فلايطرد علىٰ قولكم أن كل مسلم مؤمن لابالعكس لاحتمال التلفظ بالشهادة وفعل هٰذه الأعمال بدون الإيمان القلبى الذى هو لازم لكى يكون مؤمنا وقلنا إلى من قال أن جميع المؤمن مسلم لابالعكس أننا أثبتنا بطلان قولكم وأيضا هٰذا الحديث لايطرد علىٰ قولكم فى الظاهر لأن الإيمان فى هٰذا الحديث هو الإيمان بالإيمانيات ولاذكر للأعمال التى هى فى تعريف الإسلام فى الحديث من الصلوٰة والصوم والزكوة والحج وأيضا لاذكر لتلفظ

الشهادة إلا نفهم ضرورة من معنى الإيمان بالإيمانيات ، لكن هذا غير ظاهر فى معنى الحديث.

فبعد هذا التمهيد بقى التفسير لهذا الحديث؛ لأنهٗ فى الظاهر يدل على مغايرة الإسلام والإيمان فقلنا بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز هو هذا الحديث فى آخره يقول الرسول عليه الصلوات والسلام "فإنهٗ جبريل أتاكم يعلمكم دينكم." (سنن أبى داود، ح: ٤٦٩٥) فأطلق الدين علىٰ تعريف الإسلام والإيمان والإحسان الذى فى الحديث والدين معلوم أنهٗ الإسلام ﴿إِنَّ الدِّيْنَ عِندَ اللّٰهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران:١٩) فثبت أن الإسلام يشمل الجميع وهو الإسلام الشرعي يعنى الذى هو الدين عند الله تعالىٰ فدين الإسلام يشمل الإسلام الذى تعريفه فى الحديث من الشهادة والأعمال الأخرىٰ والإيمان والإحسان كما تعريفهما فى الحديث. فلو قلتم فهذا يقتضى أن الإسلام إسلامان فواحد منهما هو دين الإسلام الذى عند الله هو الدين وهو يشمل الإيمان والإحسان والإسلام وواحد آخر الذى يحتوى على التلفظ بالشهادة والأعمال الأخرىٰ التى فى الحديث. قلنا نعم وهو أن الإسلام الشرعي المقبول عند الله تعالىٰ لايكون بدون الإيمان فيشمل الإسلام والإيمان والإحسان ، لكن الإسلام الظاهرى الذى يحرّم علينا دم صاحبه فى الدنيا هو التلفظ بالشهادة والأعمال الظاهرة ، لكن غير مقبول عند الله تعالىٰ لفقد الإيمان وهذا هو حال المنافق ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِيْنَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ (النساء:١٤٥)وأيضا كما فى سورة الحجرات ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَّمْ تُؤْمِنُوْا وَلٰكِنْ قُوْلُوْا أَسْلَمْنَا﴾ (الحجرات:١٤) يعنى فى الظاهر فهم انقادوا فى الظاهر مخافة القتل والسبى بدون الإيمان فى القلب وكلامنا ليس عن الإسلام الظاهرى، بل الإسلام الشرعي وهو الدين المقبول عند الله الإسلام وهذا لايكون بدون الإيمان كما أطلق فى الحديث الدين علىٰ جميع من الإسلام والإيمان والإحسان(والإحسان أن تعبد كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنهٗ يراك، وأصلهٗ ثابت لكل المسلم المؤمن؛ لأنهٗ لابد من التصديق والإقرار أن الله يرانا وكمالهٗ حتىٰ يمنعه هذا التصديق والإقرار من المعاصى وكمالهٗ من كمال الإسلام والإيمان) .

فالأن لو قلتم أن ماقلتم يدل علىٰ عمومية الإسلام الشرعي من شمولية الإيمان والإحسان ، لكن لايدل علىٰ شمولية الإيمان للإسلام. فقلنا بتوفيق الله تعالىٰ إنهٗ قد جاء فى الحديث الآخر أن الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم قال لقوم وفدوا عليه "أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ فقالوا الله ورسولهٗ أعلم، قال صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلٰوة، وإيتاء الزكوة، وصيام رمضان،وأن تؤتوا من المغنم الخمس." (صحيح البخاري، ح: ٥٣) ففى هذا الحديث فى تعريف إيمان بالله وحدهٗ يشمل التلفظ بالشهادة والأعمال الظاهرة.[1]

---

(١) وكذلك لحديث "الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق(صحيح ابن حبان، ح:١٦٦)

فالتحقيق وهو ما قلنا سابقا أنهٔ هناک أصل الإسلام والإيمان وهناک كمال الإسلام والإيمان وأصل الإيمان ما ذكر فى حديث جبرئيل عليه السلام وهو الإيمان بالإيمانيات وأعظمها ما ذكر في الحديث فيكون تصديقا(بالقلب واللسان) وإقرارا (بالقلب واللسان) وقبولا بكل ماجاء به النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم والتدين بها كما فصّلنا سابقا في بيان الإيمان وهٰذا هو أصل الإسلام أيضا لأن المعلوم عندما الكافر يقبل هٰذا يصير مسلما مؤمنا بالإجماع، فالإسلام الشرعي (الذى يحتوى على الإسلام والإيمان والإحسان) والإيمان الشرعي (الذى يحتوى على الإيمان والأعمال الظاهرة فيكون محتويا ما يحتوى بها الإسلام الشرعي) أصلهما ثابت من هٰذا القدر وأما كمالهما فيشمل جميع الأعمال القلبية والجوارحية الظاهرة والباطنة وعلىٰ هٰذا التوجيه تجمع النصوص كلها إن شاء الله العزيز وأما الآية ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِيْنَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ (الأحزاب:٣٥) فلو كان العطف فيها للمغايرة للزم أن جميع المذكور فى الآية يغاير بعضهم بعضافالآية ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِيْنَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِيْنَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِيْنَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِيْنَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِيْنَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِيْنَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِيْنَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِيْنَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِيْنَ اللّٰهَ كَثِيْرًا وَّالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللّٰهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَّأَجْرًا عَظِيْمًا﴾ (الأحزاب:٣٥) فيكون القانتين غير المؤمنين المسلمين وكذٰلک جميع المذكور فى الآية وهٰذا باطل بالإجماع، بل بالضرورة، فمعنى الآية أنهٔ قدجاء فى سبب نزولها رواه الترمذي "عن أم عمارة الأنصارية رضي الله تعالىٰ عنها أنها أتت النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فقالت ماأرىٰ كل شيء إلا للرجال وما أرىٰ النساء يُذكرن بشيء فنزلت هٰذه الآية"، ففى هٰذه الآية الجامعة اللهعزوجل يذكر صفات الرجال والنساء المتدينون بدين الإسلام فكل هٰذه الصفات المذكورة فى الآية تكون لهم فبدأ بالإسلام والإيمان لأن بدونهما لايحصل علىٰ شيء من هٰذه الصفات فى المعنى الذى يكون مفيدا عند (مما ذكر فى الآية من المغفرة والأجر العظيم) الله فى الآخرة ﴿وَمَنْ يَّكْفُرْ بِالْإِيْمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِى الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِيْنَ﴾ (المائدة:٥) وثم بعد ذكر الإسلام والإيمان ذكر كل هٰذه الصفات فيمكن أن الإسلام والإيمٰن فى الآية علىٰ تعريف جبريل عليه السلام ، لكن نفس الحديث يخبر أن دين الإسلام المقبول عند الله تعالىٰ هو الشامل للإسلام والإيمان والإحسان فحاصل الكلام أن الآية لاتدل علىٰ مغايرة الإسلام الشرعي والإيمان الشرعي (كما بينا معناهما سابقا) الحمد لله والله يهدى من يشآء إلى صراط مستقيم.

المتن:

وأهل الكبائر من أمة محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فى النار لايخلدون إذا ماتوا وهم موحدون وإن لم يكونوا تائبين بعد أن لقوا الله

عارفين مؤمنين وهم فى مشيئته وحكمه إن شاء الله غفرلهم وعفاعنهم بفضله كما ذكر عزوجل فى كتابه "ويغفرما دون ذلك لمن يشآء" وإن شاء عذبهم فى النار بعدله ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته ثم يبعثهم إلى جنته وذلك بأن الله تعالىٰ تولى أهل معرفته ولم يجعلهم فى الدارين كأهل نكرته الذين خابوا من هدايته ولم ينالوا من ولايته اللهم يا ولى الإسلام وأهلهٔ ثبتنا على الإسلام حتىٰ نلقاك.

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالىٰ الأن يتكلم عن أهل الكبائر من أمة محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم أنهم لايخلدون فى النار، بل لو دخلوا فيها سيخرجون منها فى الأخير ويدخلون الجنة والكفار والمشركون يخلدون فى النار خالدا مخلدا فيها أبدا وليس لهم خروجا منها أبدا على الإطلاق وقد بينا عن هذا الموضوع سابقا وهذا عقيدة أهل الحق أهل السنة والجماعة خلافا للمعتزلة والخوارج من أهل الكفر والضلال فأهل السنة يقولون أن أصحاب الكبائر من المسلمين المؤمنين الذين ماتوا بدون توبة من الكبائر ، لكن ماتوا على الإسلام وليس على الكفر والشرك فهم فى مشيئة الله تعالىٰ إما يغفرلهم من البداية ويدخلهم الجنة أو لو يعذبهم فى النار يعذبهم للمدة ثم يغفرلهم ويدخلهم الجنة إما بالشفاعة (كما مر فى بابها) أو إما بدونها كما يشاء ، لكن لايبقيهم فى النار لأبدالأبدين كمثل الكفرة والمشركين والدلائل فى هذا الباب كثيرة جدا وقد مر الكلام فيه ونقول مزيدا أن الله تعالىٰ قال فى القرآن ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه﴾ (زلزال:٧) ونفس الإيمان خير ولا يكون أن يرى جزائه قبل دخول النار ثم يدخل النار؛ لأنهٔ باطل بالإجماع؛ لأنهٔ لو يدخل الجنة قبل دخول النار لايخرج من الجنة لأنها دار الخلود بالإجماع فلايدخل النار على الإطلاق فتعين أن يكون بعد دخول النار علىٰ تقدير أنهٔ يدخل فيها للعقوبة يعنى المسلم المؤمن الأثم، فتعين الخروج منها لهٔ بعد دخولها حتىٰ يرى جزاء خيره وهو أعظم الخير وهو إيمانه فيدخل الجنة فى جزائه وأيضا قال الله تعالىٰ: ﴿وَعَدَ اللّٰهُ الْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ (التوبة: ٧٢) بلا قيد أن يكون من غير أهل الكبائر فثبت أن أهل الكبائر من المؤمنين سيدخلون الجنة إما بغير العقوبة أو إما بعدها وقد يكون بعضا منهم بدون العقوبة وبعضا بعدها والله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لاحجر عليه ولا منع وكذلك الأحاديث كثيرة فى هذا الباب ومنها أحاديث عن الشفاعة وقد مرت ذكرها ومنها "من مات وهو يعلم أنهٔ لا إله إلا الله دخل الجنة." (صحيح ابن حبان، ح: ٢٠١) ومعناه أنهٔ مات على الإسلام والإيمان "من مات لايشرك بالله شيئًا دخل الجنة." (صحيح البخاري، ح:١٢٣٧) "أتانى جبريل عليه السلام فبشرنى أنهٔ من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة قلت وإن زنىٰ

وإن سرق قال وإن زنىٰ وسرق." (صحيح البخاري، ح:٥٨٢٧) والدلائل كثيرة فى هٰذا الباب وأيضا بطريقة الإلزام على المعتزلة القائلين بالحسن والقبح العقلي حتىٰ يجعلونهما قانونا منطبقا على الله تعالىٰ (ونعوذبالله من ذٰلك) وأما عندنا أهل الحق فلاحجر على الله تعالىٰ ولامنع ولا قانون منطبق عليه ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الأنبياء:٢٣) فهو يفعل ما يفعل لهٗ أن يفعل، لكن علىٰ أصول المعتزلة نقول لهم علىٰ وجه الإلزام وهو أن الخلود فى النار من أعظم العقوبات فيكون للكفر والشرك الذى هو أعظم الجنايات وأما الكبائر دونهما فهي بالإجماع دونهما فلا يصح أن يكون لها أعظم العقوبات، بل دونه فلايكون خلودا فى النار لهم وأما الجواب للاستدلال الباطل من المعتزلة والخوارج فهم استدلوا بهٰذه الآية ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا﴾ (النساء:٩٣) والجواب أولا أنها لاتدل علىٰ ما قالوا قطعا لأنها تذكر عن قاتل المؤمن ولاتذكر عن أهل الكبيرة غيره وثانيا معنى الآية أنهٗ قتل مؤمنا لكونه مؤمنا وهٰذا كفر؛ لأنهٗ مبنى علىٰ عداوة الإيمان وهو كفر والكفار يخلدون فى النار لامحالة وثالثا أو محمول على الاستحلال واستحلال قتل المؤمن بدون حقه كفر؛ لأنهٗ استحلال الحرام القطعي. حاصل الكلام أنهٗ لا استدلال للمعتزلة فيها بسبب أنها محمولة على الوجوه التى ذكرنا وهناک بعض الوجوه أخرىٰ أيضا وكلها تعود إلى أنها ليست علىٰ ظاهرها فى حق المؤمن يقتل مؤمنا بالأسباب غير الأسباب التى توجب الكفر وهٰذه كلها يعني التأويلات ضرورية بسبب النصوص القاطعة الأخرىٰ التى تستلزم عدم خلودفى النار للمؤمن فلابد من التأويلات حتىٰ توافق النصوص لأن المعارضة فيها مستحيلة ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾ (النساء:٨٢) واستدلوا بهٰذه الآية ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا﴾ (النساء:١٤) والجواب أنهٗ لا استدلال لهم فيه لأن المعنى من تعدى جميع حدوده وهٰذا يلزم الكفر لأن أعظم حدوده الإيمان بالله ورسوله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ومما يدل عليه هو ما قيل فى التفسير عنها أنها نزلت حين أنكر عيينة بن حصن الفزارى ما قسم الله تعالىٰ من المواريث وقال "لاوارث عليّ إلا من قاتل علىٰ ظهر الخيل" وأحرم النسآء والولدان وهٰذا يلزم الكفر لأن إنكار ما وجب الله كفر؛ لأنهٗ من قبيل التكذيب واستدلوا بهٰذه الآية ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة:٨١) والجواب أنهٗ لا استدلال لهم فى هٰذه الآية أيضا لأن المعنى من أحاطت بهٖ خطيئته وشملته من كل جانب فتعم الخطيئة ظاهره وباطنه فحينئذٍ لا يبقى فى قلبه التصديق ولافى لسانه إقرار وهٰذا لا يكون إلا فى الكافر ولم كلها علىٰ تفسير المعتزلة تعارض النصوص القاطعة الأخرى فلا بد من إبطال تفسيرهم وتفسيرها بالتفاسير الصحيحة التى توافق مع النصوص الأخرىٰ كما ذكرنا منها.

فحاصل الكلام أن ما يقولون المعتزلة والخوارج من خلود المؤمن ذى الكبائر فى النار باطل قطعا وبتاتا، بل كفر لإبطال النصوص القاطعة والحق هو مذهب أهل السنة الذى ذكر الشيخ

الطحاوي رحمه الله تعالىٰ والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

المتن:

ونرىٰ الصلوٰة خلف كل بر وفاجر من أهل القبلة وعلىٰ من مات منهم.

الشرح:

والشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالىٰ الأن يذكر الأمور التى يتميز بها أهل السنة عن غيرهم ولهٰذا لو قيل أن هٰذه المسئلة من فروع الفقه فلماذا أورد فى كتاب العقيدة ،لو أورد فيه لاعتقاد حقية ذٰلك فكل شيء جآء به النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم كذٰلك ، لكن فى مباحث العقائد تبحث عن أصول العقيدة وأصول الكلام دون كل ما يجب الاعتقاد بحقيته فالجواب هو ما ذكرنا أنهٗ بسبب أنهٗ وجدت هناك المسائل التى يمتاز بها أهل السنة عن غيرهم من الفرق الضالة والمبتدعة كالمعتزلة والرافضة والفلاسفة والملاحدة وغيرهم من أهل البدع والأهواء فالعلماء يذكرون هذه المسائل فى علم الكلام سواء كانت من فروع الفقه أو من الجزئيات المتعلقة بالعقائد الأصولية وهٰذه المسائل كثيرة مثلا وجوب غسل الرجلين وحرمة نكاح المتعة وحرمة أدبار الزوجة والمسح على الخفين وغيرها من المسائل إن شاء الله سنذكرها.

فالصلوٰة خلف كل بر وفاجر وعليهما من هٰذه المسائل خلافا للرافضة والشيخ رحمه الله تعالىٰ يقول أن الصلوٰة خلف كل بر وفاجر لقوله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "صلوا خلف كل بر وفاجر." (سنن الدارقطنى، ح:١٧٦٨) والبر من يعمل بالطاعات ويجتنب الكبيرة ويجتنب الإصرار على الصغيرة والفاجر ضده ولأن علماء الأمة كانوا يصلون خلف الفسقة وأهل الأهواء والبدع من غير نكير وهٰذا إذا لم يؤد الفسق أو البدعة إلى حد الكفر وهٰذا أصل مهم لأننا عندما نتكلم عن أهل الهواء والبدع فلازم أن يلاحظ أن الكفر فيهم كثير فلووجد الكفر فلا يجوز الصلوٰة خلفه البتة وإلا لو كان مسلما فاسقا بسبب ما من البدعات أو غيرها فتجوز الصلوٰة خلفه لما ذكرنا من الدلائل وهٰذا هو مذهب أهل السنة وما نقل عن بعض السلف المنع عن الصلوٰة خلف المبتدع فهو محمول (والله أعلم) على البدعة الكفرية أو على الكراهة إذ لا كلام فى كراهة الصلوٰة خلف الفاسق والمبتدع ولهٰذا لا يجوز تقديمه للإمامة ولأن فيه صورة تعظيمه وتعظيم الفاسق والمبتدع لايجوز وفى الحديث "من وقر صاحب بدعة فقد أعان علىٰ هدم الإسلام." (شعب الإيمان، ح:٩٠١٨) وكذٰلك تعظيم الفاسق لايجوز؛ لأنهٗ يعصى الله ورسولهٗ صلى الله تعالىٰ عليه وسلم، بل المعنى أنهٗ إذا لايجد البد من هٰذا فيصلى خلفه وإلا لو يجد البد فلا يصلى خلفه لما ذكرنا وكذٰلك يصلى علىٰ كل بر و فاجر إذا مات على الإيمان احترازا عن الذين فسقوهم أو بدعتهم يلزم الكفر وهٰذا أصل مهم لا بد من ملاحظته فى هٰذا الباب فما دام على الإيمان والإسلام فالصلوٰة واجب عليه للإجماع ولقوله صلى الله تعالىٰ

علیه وسلم "لا تدعوا الصلٰوة علٰی من مات من اهل القبلة." (سنن الدارقطنی، ح:١٧٦٥) و "الجهاد واجب علیکم مع کل أمیر برا کان أو فاجرا والصلٰوة واجبة علیکم خلف کل مسلم برا کان أو فاجرا وإن عمل الکبائر والصلٰوة واجبة علٰی کل مسلم برا کان أو فاجرا وإن عمل الکبائر." (سنن أبی داود، ح:٢٥٣٣)

المتن:

ولاننزل أحدا منهم جنة ولا نارا ولانشهد علیهم بکفر ولابشرک ولابنفاق ما لم یظهر منهم شيء من ذٰلک ونذر سرائرهم إلی الله تعالیٰ.

الشرح:

والشیخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالیٰ الآن یتکلم ویقول أننا لانحکم علٰی أی واحد من المسلمین أنهم فی الجنة أو النار وهٰذا لا یقتصر فی حق المسلمین فقط، بل حتٰی فی حق الکافرین ماداموا هم أحیاء بسبب إنما الأعمال بالخواتیم فنحن لانعرف علٰی ما سیموت فقد یکون کافرا الآن لٰکن یسلم فی المستقبل ویموت علیه وقد یکون مسلما الآن ، لکن یکفر (نعوذبالله) فی المستقبل ویموت علیه (معاذالله) وأما فی الأموات فالذین ماتوا علی الکفر فهم نحن نتیقن عنهم أنهم یکونون فی النار خالدا مخلدا فیها أبدا وأما الذین ماتوا علی الإسلام فی ظاهر الحال بین أیدینا فنحن لا نقول أنهم ماتوا علی الکفر أو النفاق لأننا نحکم بالظاهر والله یتولی السرائر ، لکن مع هٰذا لانقول بالقطع أنهم فی الجنة بسبب أن سرائرهم معلومة عند الله تعالیٰ وقد تکون خلاف ما ظهرت علینا ، لکن نرجوا لهم الجنة وندعوا لهم ولا نقول أنهم فی النار لأنهم ماتوا علی الإسلام فی الظاهر فنحن لا ننسب الکفر والشرک والنفاق إلی أی واحد من المسلمین أحیاء کانوا أو أمواتا لأننا نحکم علیهم بالظاهر کما ذکرنا إلا لو ظهر شيء منها منهم فنحکم علیهم کما ظهر وهٰذا کلهٗ ما ذکرنا فی حق الناس الذین لم یخبر القرآن والحدیث عن عاقبتهم بالتعیین وأما الذین أخبر القرآن والحدیث عن عاقبتهم بالتعیین کمثل أبی لهب ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ (لهب:٣) وأبو لهب کان حیا حین نزول هٰذه الآیة فصار معلوما عند المسلمین أنهٗ یموت علی الکفر و یکون فی النار فیجب اعتقاده وکذٰلک من شهد النبي صلی الله تعالیٰ علیه وسلم عنهم بالجنة من أصحابه رضي الله تعالیٰ عنهم فهم فی الجنة بالقطع ویجب اعتقاده بسبب أنهٗ ثبت بالنصوص.

المتن:

ولا نریٰ السیف علٰی أحد من أمة محمد صلی الله تعالیٰ علیه وسلم إلا من وجب علیه السیف.

الشرح:

وهٰذا الظاهر لا خفاء فیه ، لٰکن الشیخ رحمه الله تعالیٰ ذکر هٰذا ردا علی الخوارج

المستحلين دمآء المسلمين بغير حق ومكفريهم ولا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى الثلاث (١) الثيب الزانى (٢) والنفس بالنفس (٣) والتارك لدينه المفارق للجماعة، وذكر الفقهاء بعض الأسباب الأخرىٰ كما يجوز لخليفة المسلمين أن يقاتل الفئة الباغية كما فعل سيدنا الإمام على رضي الله عنه ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (الحجرات:٩) وكذٰلك المحاربين على التفصيل الذى جآء فى فروع الفقه ودم بعض غيرهم والتفصيل لهٰذه الأشياء فى الفروعات الفقهية وما عدا ذٰلك فلايحل دم امرئ مسلم قطعاوبتاتا.

المتن:

ولا نرىٰ الخروج علىٰ أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا ولا ندعوا عليهم ولا ننزع يدا من طاعتهم ونرىٰ طاعتهم من طاعة الله عزوجل فريضة ما لم يأمروا بمعصية وندعوا لهم بالصلاح والمعافاة.

الشرح:

الشيخ الطحاوي رحمه الله تعالىٰ الآن يتكلم عن الإمام يعنى الأمير وهٰذا باب مهم جدا وتتعلق به مباحث كثيرة سنذكرها منها إن شاء الله العزيز والشيخ هو يتكلم عن عدم الخروج عليهم وعدم نزع اليد من طاعتهم ما لم يأمروا بمعصية وهٰذا أيضا من مباحثه، لكن قبل أن نتكلم عن مباحث أخرىٰ لابد من ذكره لأهمية الباب فنذكره من شرح العقائد النسفية الذى هو كتاب مشهور عزيز مقبول فى عقيدة أهل السنة والجماعة فنذكرهٔ منه ملخصا فهو أن مذهب أهل السنة والجماعة أن نصب الإمام يجب على الخلق سمعا يعنى بالدليل السمعية لقوله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "من مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية" ولأن الأمة قد جعلوا أهم المهمات بعد وفاة النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم نصب الإمام حتىٰ قدّموه على الدفن وكذا بعد موت كل إمام ولأن كثيرا من الواجبات الشرعية يتوقف عليه كما أشار إليه (الإمام النسفى رحمه الله تعالى) بقوله "والمسلمون لابد لهم من إمام يقوم بتنفيذ أحكامهم وإقامة حدودهم وسدّ ثغورهم وتجهيز جيوشهم وأخذ صدقاتهم وقهر المتغلبة (الظالمة) والمتلصصة وقطاع الطريق وإقامة الجمع والأعياد وقطع المنازعات الواقعة بين العباد وقبول الشهادات القائمة على الحقوق وتزويج الصغار والصغائر الذين لاأوليآء لهم وقسمة الغنائم ونحو ذٰلك من الأمور التى لا يتولٰها آحاد الأمة."، وتجب الرياسة العامة يعنى الإمامة العامة فى جميع بلاد الإسلام لأن الافتراق فى أمة المسلمة لايجوزويؤدى إلى منازعات ومخاصمات مفضية إلى اختلال أمر الدين والدنيا كما نشاهد فى زماننا هٰذا وقد قال الله تعالىٰ فى القرآن: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران:١٠٣) ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا﴾ (الأنفال:٤٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (الأنعام:١٥٩) وفى الحديث "إذا

بويع للخليفتين فاقتلوا الأخر منهما." (صحيح مسلم، ح: ١٨٥٣) "إنه ستكون هنات و هنات فمن أراد أن يفرّق أمر هٰذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائنا من كان." (صحيح مسلم، ح: ١٨٥٢) "من أتاكم وأمركم جميع علىٰ رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه." (صحيح مسلم، ح: ١٨٥٢) ثم الإمام يجب أن يكون من قريش ولايجوز من غيرهم لقوله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "الأئمة من قريش." (مسند البزار، ح: ٦١٨١) وهٰذا حديث مشهور على الأقل رواه نحو أربعين صحابيا كما فى الصواعق وأيضا لما رواه أبوبكر رضي الله تعالىٰ عنه محتجا به على الأنصار لم ينكره أحد فصار مجمعا عليه وهٰذا ما عليه إجماع أهل السنة والجماعة وفى الحديث "إن هٰذا الأمر فى قريش لايعاديهم أحد إلا كبه الله فى النار علىٰ وجهه ما أقاموا الدين." (صحيح البخاري، ح: ٧١٣٩) "لايزال هٰذا الأمر فى قريش ما بقى من الناس اثنان." (صحيح البخاري، ح: ٣٥٠١) ولوقيل أنهُ لم توجد بعد الخلفآء العباسية الرياسة العامة للقريش ونصب غير القريشي لا يجوز فيلزم أن تعصى الأمة كلها بترك نصب الإمام وأجيب بأنهم لم يتركوه عن إختيار، بل عن إضطرار والوعيد على الترك الإختيارى. (النبراس) وهٰذهٖ مسئلة مهمة إن شاء الله نتكلم عنها قريبا ولايشترط أن يكون الإمام معصوما وهٰذا ظاهر لاخفاء فيه لأن لاعصمة كاملة إلا للملائكة والأنبياء عليهم الصلوات والسلام وقد ذكرنا عنها سابقا ويشترط أن يكون من أهل الولاية المطلقة الكاملة أى مسلما وهٰذا لاخفاء فيه ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللّٰهُ لِلْكَافِرِيْنَ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ سَبِيْلًا﴾ (النساء: ١٤١) ولهٰذا لايجوز حتىٰ نصب العمال من أهل الذمة و يشترط أن يكون حرا لأن العبد مشغول بخدمة المولىٰ ،وذكرا لأن النساء ناقصات عقل ودين كما فى الحديث وأيضا فى الحديث "لن يفلح قوم ولوا عليهم إمرأة." (صحيح البخاري، ح: ٤٤٢٥) وأيضا هي مأمورة بالتستر وترك الخروج إلى مجامع الرجال وأيضا قد أجمع الأمة علىٰ عدم نصبها حتىٰ فى الإمامة الصغرىٰ، وبالغا عاقلا لأن الصبي والمجنون قاصران عن تدبير الأمور والتصرف فى مصالح الجمهور وأيضا ليس لهم الولاية علىٰ أنفسهما فكيف يتصور ولايتهما علىٰ كافة الناس، وأن يكون سائسا أى مالكا للتصرف فى أمور المسلمين بقوة رأيه ومعونة بأسه و شوكته قادرا بعلمه يعنى بأحكام الشرع علىٰ فصل الخصومات، وشرط الجمهور أن يكون بالغادرجة الاجتهاد فى الأحكام الاعتقادية والفرعية ولم يشترط بعضهم وهو الأشبه (النبراس) ومعنى عدم إشتراطه من بعضهم يعنى فى المسائل الفرعية وأما الاعتقاد فيجب أن يكون سليم الاعتقاد، بل هو الشرط الأعظم بعد أن يكون مسلما؛ لأنهُ لايجوز قطعا وبتاتا أن يكون مبتدعا ولايجوز نصب المبتدع ،وأن يكون عادلا منصفا صاحب العدالة والكفاية مصيب الرأى (أى باعتبار صلاحية الإنسان فلا يناقض أن الإنسان قد يخطئ) فى المعاملات، وأن يكون شجاعا لأن من الركن الأعظم فى السلطنة الحرب وحتىٰ ينفذ الأحكام والحدود والتعزيرات ويحفظ حدود دار الإسلام ويفتح دار الحرب ويأخذ الظالم للمظلوم.

فحاصل الكلام أن شروط الإمامة تسعة (١) الحرية (٢) والذكورة (٣) العقل (٤) البلوغ (٥) العدل (٦) القريشية، وهٰذهٖ مجمع عليها والباقى(٧) الشجاعة (٨) الاجتهاد فى المسائل (٩)

التدبير المصيب وهٰذه الثلاثة شرطها الجمهور ونفاها بعضهم شرطيتها مستدلا بأنها لا توجد مجتمعة فی شخص واحد إلا نادرا جدا وفی النائبين الموصوفين بها كفاية يعنی الإمام يستفيد ويتأيد من النائبين الموصوفين بهٰذه الثلاثة لقضاء الضرورة وللكفاية.

ثم اعلم أنہٗ لا يشترط للإمام أن يكون أفضل من أهل زمانه لأن المساوی فی الفضيلة، بل المفضول الأقل علما وعملا ربما كان أعرف بمصالح الإمامة ومقاصدها وأقدر علی القيام بمواجبها خصوصا إذا كان نصب المفضول أدفع للشر وأبعد عن إثارة الفتنة ويدل عليه فعل عمر رضي اللّٰه تعالٰی عنہ أنہٗ جعل الإمامة الشوریٰ بين الستة يعنی أن يختاروا واحدا منهم والمعلوم أن بعضهم كعثمان وعلي رضي اللّٰه عنهما كانا أفضل من الآخرين رضي اللّٰه عنهم.

ثم اعلم أن طرق ثبوت الإمامة أربعة الأول: نص الشارع وهٰذا بالإجماع من الفرق، وهل وقع نص فی ملتنا علٰی خلافة أحد؟ قال بعض أهل السنة لأبی بكر رضي اللّٰه تعالٰی عنه وقال جمهورهم لم ينص علٰی خلافة أحد وعن محمد بن الزبير رضي اللّٰه تعالٰی عنهما قال قلت للحسن البصری اشفينی مما اختلف فيه الناس هل كان رسول اللّٰه صلی اللّٰه تعالٰی عليه وسلم استخلف أبی بكر رضي اللّٰه تعالٰی عنه؟ قال أو فی ذٰلک شک؟ واللّٰه الذی لا إله إلاهو لقد استخلفه (رواه ابن عساكر) وعن علي رضي اللّٰه تعالٰی عنه قيل لہٗ ألاتستخلف؟ فقال مااستخلف رسول اللّٰه صلی اللّٰه تعالٰی عليه وسلم فأستخلف. رواه الحاكم وصححه

الجمع: أنہٗ توجد فی الأحاديث تصريحات وإشارات كثيرة فی نص خلافة أبی بكر رضي اللّٰه تعالٰی عنه ولكن النبي صلی اللّٰه تعالٰی عليه وسلم لم يحمل الناس علٰی بيعته كما حملهم أبوبكر رضي اللّٰه تعالٰی عنه علٰی بيعة عمر رضي اللّٰه تعالٰی عنه فاعتمد المثبتون الأول ونظر النفاة إلی الثانی و لٰكن لايخفی أن تلک التصريحات أدلة صحيحة كافية علٰی نص خلافتہٖ رضي اللّٰه تعالٰی عنه وأيضا قد نص علٰی خلافة مهدی رحمه اللّٰه تعالٰی وسيدنا عيسٰی عليه السلام كما ثبت فی الأحاديث الصحيحة.

الطريق الثانی: نص الإمام السابق وهٰذا بإجماع أهل السنة كما نص أبوبكر علٰی خلافة عمر رضي اللّٰه تعالٰی عنهما.

الطريق الثالث: بيعة أهل الحل والعقد وهٰذا أيضا بإجماع أهل السنة وبيعتهم تكون لازمة علٰی جميع المسلمين إذا لم يكن الإمام معلنا بالفسق والفساد لأنها دعوة محيطة بهم تجب إجابتها ولايسع أحد التخلف عنها لما فی إقامة إمامين من اختلاف الكلمة وفساد ذات البين قال رسول اللّٰه صلی اللّٰه تعالٰی عليه وسلم "ثلاث لايغل عليهن قلب مؤمن إخلاص العمل للّٰه ولزوم الجماعة ومناصحة ولاة الأمر فإن دعوة المسلمين من وراء هم محيطة." (سنن الترمذي، ح: ٢٦٥٨) فإن عقدها واحد من أهل الحل والعقد فذٰلک ثابت ويلزم الغير فعلہٗ كما فعل عمر رضي اللّٰه تعالٰی عنه بأبی بكر رضي اللّٰه تعالٰی عنه ولايجوز خلعه من غير حدث وتغير أمره وهٰذا كما ذكرنا لو كان غير

معلنا بالفسق والفساد.

الطريق الرابع: لقد قيل أن من له أهلية الإمامة لو تغلّب وأخذها بالقهر والغلبة فقد قيل أن ذلك يكون طريقا رابعا قال ابن خويزمنداد "لووثب على الأمر من يصلح له من غير مشورة ولااختيار وبايع له الناس تمت له البيعة. والله أعلم. نعم يكون غاصبا فاسقا فى عمله. اللّهم إلا أن تكون ضرورة و مصلحة فى تغلبه مثلا لا يكون اخرا أهلا للأمر فتكون مقاصد الإمامة فائتة بدون تغلبه، ولا سبيل له أن يأتى للأمر إلا بالتغلب.

فالأن نرجع إلى ماقال الشيخ رحمه الله تعالى وهو عدم خروج على الإمام وإن جاروا وهذه مسئلة عدم انعزال الإمام بالفسق وقد اختلف العلماء فى هذه المسئلة.

فاعلم هذه مسئلة هي ليست لعقد الإمام لأن عقد الإمامة للفاسق لايجوز بالإجماع ولهذا لو عُقد له من بعض الناس لايكون لازما لأنه العقد غير الجائز فلاينعقد حتى يكون لازما وهذا إذا من عقد له الإمامة ليس ذات الشوكة والقهر والغلبة وإلا كما خلفاء بنى أمية وبنى عبّاس كانوا يخلفون بعضهم بعضا وكانت منهم أئمة الجور كما هو المعلوم من التاريخ لكنهم كانوا قاهرين وغالبين على الأمر والناس فى نطاقهم كانوا يبايعون لهم ونحن ذكرنا هذا فوقا فى الطريق الرابع ، لكن منهم الذين كانوا غير الأهل والصلاح للإمامة والطريق الرابع يتكلم عمن هو أهل للإمامة ، لكن مع ذلك لو قهر وغلب على الإمامة ومن الناس من يبايعون له فالخروج عليه يؤدى إلى تفرقة المسلمين وضعفهم وقد يكون أمرا سوءًا مما كان واعتبار رعاية المفاسد والمصالح من أمور الدين حتى يؤخذ ماهو أهون البليتين فإذا ظهر وقهر على الإمامة وهو غيرأهل لها ، لكن الخروج عليه أعظم مفسدة، فنحن نرى السلف كانوا ينقادون لهم وكذلك الكلام من عقد له الإمامة وهو أهل له وثم ظهر الفسق والجور منه لأن إذا عقد له الإمامة اعتبارا بأهليته واستقر الأمر له ثم ظهر الفسق والجور منه فالأن الخروج عليه يؤدى إلى الفتنة والاضطراب كما فى الذى قهر وغلب على الرياسة وهو غيرأهل(ومعنى غير أهل له يعنى هو فاسق وجائر أما إذا يكون كافرا بسبب الكفر الظاهر أو البدعة المكفرة أو الزندقة فلايكون إماما قطعا وبتاتا ويجب الخروج عليه) له ، لكن الخروج عليه يؤدى إلى الفتنة والاضطراب فالسلف كانوا ينقادون إلى أئمة الجور والفسق أخذا بأهون البليتين واعتبارا للمفاسد والمصالح ، نعما إن أمكن خلعه بدون الخروج وجب خلعه لأنه فاسق ولا يجوز تعظيم الفاسق. لكن منع الخروج لا يعنى منع الدفاع، بل يجوز للمظلوم دفاع نفسه وماله و أهله بل واجب وفى الحديث "من قاتل دون ماله فهو شهيد، من قاتل دون دمه فهو شهيد، من قاتل دون أهله فهو شهيد." (النسائى، ح: ٤٠٩٩). وفى الحديث عمن يريد أن يغصب مالك "فاستعن عليه من حولك من المسلمين" ثم "فاستعن عليه السلطان" ثم "قاتل دون مالك حتى تكون من شهداء الأخرة أو تمنع مالك " ، فإذا كان السلطان نفسه جائرا ظالما فالقتال ضده دفاعا و على المسلمين الأخرين إعانته كما فى الحديث

"فاستعن عليه من حولک من المسلمين"، و أيضا فی القران: ﴿وَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوٰى﴾ (سورة المائدة: ٢) وهٰذا إذا كان الظلم واضحا غير مشتبه، وإذا كان الظلم غير واضح والأمر مشتبه مثلا هو يأخذ من أموال العوام و فيه شبهة الجواز أنه يأخذه لضرورة دار الإسلام، ففی هذه الحالة لايجوز قتاله، لأن الحرام لا يحلّ بالمشكوک (اليقين لا يزول بالشک) وعلى هذا يحمل الحديث عن عبادة بن صامت رضي اللّٰه تعالٰی عنه "دعانا رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالٰی عليه وسلم فبايعناه فكان فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة فی منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وأن لاننازع الأمر أهلهٗ" قال "إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من اللّٰه فيه برهان." (صحيح مسلم، ح: ١٧٠٩) وعن حذيفة رضي اللّٰه تعالٰی عنه "تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرک وأخذ مالک فاسمع وأطع." (شعب الإيمان، ح: ٧٥٠١)، والمعنى "إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من اللّٰه فيه برهان." ليس كفرا بواحا لأنه لو يكفر الأمير، لا يبقٰى أميرا بالإجماع، هذا معلوم من الدين بالضرورة، ﴿وَ لَنْ يَّجْعَلَ اللّٰهُ لِلْكٰفِرِيْنَ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ سَبِيْلًا﴾ (النساء: ١٤١)، فما هو المعنٰى للمنازعة معه؟ وهو ليس الأمير بل كافر مرتد واجب القتل "من بدّل دينه فاقتلوه" (النسائي، ح: ٤٠٦٣)، بل المعنٰى "معصية بواحا" كما هو فی نفس الحديث عن عباده بن الصامت رضى اللّٰه عنه روايةً عن حيان أبی النضر ففيه "ما لم يأمروک بإثم بواحا" (مسند أحمد، ح ٢٢٧٣٦) فعلٰى هذا تجتمع النصوص والحمد للّٰه، فإذا كان الظلم بواحا فالدفاع بالقتال وإلا لا، نعم! إن أمكن خلعه بدون القتال يجوز خلعه. وهذا مسئلة الدفاع وأما الخروج فكما ذكرنا أن فی المسئلة اختلاف العلماء وفی شرح العقائد النسفية "ولاينعزل الإمام بالفسق والجور؛ لأنهٗ قد ظهر الفسق وانتشر الجور من الأئمة والأمراء بعد الخلفاء الراشدين والسلف كانوا ينقادون لهم فكانت بمنزلة الإجماع منهم على صحة إمامة أهل الجور والفسق ويقيمون الجمع والأعياد بإذنهم ولايرون الخروج عليهم وعن الشافعي رحمه اللّٰه تعالٰی أن الإمام ينعزل بالفسق والجور والمسطور فی كتب الشافعية أن القاضى ينعزل بالفسق بخلاف الإمام والفرق أن فی انعزاله ووجوب نصب غيره إثارة الفتنة لما لهٗ من الشوكة بخلاف القاضى."

واعلم أن فی عزل الإمام الفاسق مذاهب: الأول أنهٗ لاينعزل ولايجوز عزلهٗ وهو المشهور، والثانی أنهٗ لاينعزل بنفسه و، لكن يجوز عزلهٗ وهو لبعض الحنفية قال الإمام الصابونی فی "البداية" "لو ارتكب الإمام الكبيرة يستحق العزل عندنا وينعزل عند الشافعي رحمه اللّٰه تعالٰی" والثالث أنهٗ يجب الخروج إن فحش فسقه، فمن قال بانعزاله قال لأنهٗ قد ثبت أن الإمام إنما يقام لإقامة الحدود واستيفاء الحقوق وحفظ أموال الأيتام والمجانين والنظر فی أمورهم إلى غير ذٰلک من الأمور وما فيه من الفسق يقعده عن القيام بهٰذه الأمور والنهوض بها فلوجوّزنا أن يكون فاسقا أدى إبطال ما أقيم لأجله. ومن قالوا بعدم انعزاله استدلوا بهٰذه الأحاديث منها عن عبادة بن صامت رضي اللّٰه تعالٰی عنه وعن حذيفة رضي اللّٰه تعالٰی عنه وقد ذكرنا وجههما و عن أم سلمة رضي اللّٰه تعالٰی عنها قال رسول

الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم: "ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون فمن عرف برئ ومن أنكر سلم و، لٰكن من رضى وتابع قالوا: أفلا نقاتلهم قال لا، ما صلوا." (صحيح مسلم، ح:١٨٥٤) وعن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله تعالىٰ عنه "سمعت رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم يقول "خيار كم أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم وشرائمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم" قال قالوا يارسول الله! أفلا ننابذهم بالسيف؟ قال لا لا ماأقاموا فيكم الصلوٰة قال لا ما أقاموا فيكم الصلوٰة الا من ولى عليه وال فرأه يأتى شيئًا من معصية الله فليكره ما يأتى من معصية الله ولا ينزعن يدا من طاعة." (صحيح مسلم، ح:١٨٥٥) والطاعة إنما فى المعروف وفى الحديث عن ابن عمر رضي الله تعالىٰ عنه عن النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلاسمع ولا طاعة." (صحيح البخاري، ح:٢٩٥٥) وهٰذه الأحاديث تدل علىٰ وجوب السمع والطاعة مادام فى المعروف وإن يكون أميرا جائرا يضرب ظهرنا ويأخذ أموالنا ونلعنه ونبغضه، لكن مع الكراهة والإنكار علىٰ جوره وفسقه ،وهٰذا كلهٗ مادام لايكون كافرا ولاتاركا للصلوة ولا تاركا لإقامة الصلوٰة فى بلاد المسلمين كما يدل عليه الحديث "ماأقاموا فيكم الصلوٰة." (صحيح مسلم، ح:١٨٥٥) وأيضا مادام نافذا لقوانين الإسلام فى البلاد وهٰذا ظاهر لاخفاء فيه ونحن قد بيّنّاه سابقا فى التوحيد فى الحاكمية؛ لأنهٗ لو لا ينفذ قوانين الإسلام أو ترك شيئًا منها فإن يفعله بسبب اعتقاد ترجيح القوانين الأخرىٰ على القوانين الإسلامية أو باعتبار المساواة بينهما أو باعتبار أنهٗ لا بأس فى القوانين الأخرىٰ ولو يعتقد علىٰ أفضلية القوانين الإسلامية فهٰذا كلهٗ كفر بواح وكذٰلك من اعتبر أواعترف (من العوام أو الأمراء)أن البرلمان أو الجمعية أوالجمهورأوأى غيرالله لهم الحق أن يشرعوا القوانين من أنفسهم فهٰذا كلهٗ كفر بواح أيضًا، والخروج على الكافر فرض عين؛ لأنهٗ استحسن أو استحل القوانين الأخرىٰ واستحلال الحرام كفر فضلا عن استحسانه فكلاهما كفر لأن الله عزوجل يقول﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللّٰهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُوْنَ﴾ (المائدة:٤٤) والكافر فى هٰذه الآية فى معنى الاستحلال علىٰ ظاهره كما فى التفسير وثم كون الاستحلال للمعصية كفرا معلوم من أصول الدين الضرورى فلاخفاء فيه وإن ينفذ القوانين الأخرىٰ أو شيئًا منها مع اعتقاد حرمته وانه واجب عليه تطبيق القوانين الإسلامية بالكلية فوالله أعلم عنه نرجع مسئلة التكفير عنه إلى العلماء، لكن ينعزل إمامته ويجب عزلهٗ والإتيان بمن يطبّق الشريعة بالكلية لأن الكلام في انعزال الإمام بالفسق والجور هو الكلام عن الإمام الذى يفسق فى أمور حياته ويجور علىٰ عباد الله فى بلاده، لكن يعتبر القوانين الإسلامية وينفذها فى البلاد، لأن عدم تنفيذ القوانين الإسلامية فى البلاد يجعل البلاد بلاد الحرب لأن دار الإسلام الذى ينفذ فيه الإسلام وإلا قد يكون المسلمون المستأمنون ساكنين فى بلاد الحرب، فدار الإسلام يفرق من دارالحرب بسبب تطبيق دين الله الإسلام فيه ولو رفع هذا فصار البلد

دار الحرب ولو كان السكان فيه المسلمين ودار الحرب يجب عليه الخروج ونحن قد ذكرنا الحديث "ما أقاموا فيكم الصلوٰة." (صحيح مسلم، ح:١٨٥٥) والصلوٰة من أعظم فرائض الإسلام وشعاره فإقامتهم الصلوٰة خلال البلاد تشير إلى اهتمامهم بتطبيق قوانين الإسلام فإذا هم يقيمون الصلوٰة في خلال البلاد وهي خمسة مرات في يوم وليلة فتطبيق القوانين الأخرىٰ منهم يكون أولىٰ وأحرىٰ من حيث الوقوع، وقد قال عمر رضى الله تعالىٰ عنه "إن عمر بن الخطاب كتب إلىٰ عماله إن أهم أمركم عندى الصلوٰة فمن حفظها و حافظ عليها حفظ دينه ومن ضيّعها فهو لما سواها أضيع" (موطا إمام مالك ح: ٥). وفى الحديث قال رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "إن أمّر عليكم عبد مجدع حبشي يقودكم بكتاب الله فاسمعوا لهٗ وأطيعوا." (مسند أحمد، ح:٢٧٢٦٠) فثبت أن قيادتهم بكتاب الله شرط وإن لايكون إماما للمسلمين وكيف يكون إماما للمسلمين لو يطبق القوانين غير الإسلامية وفى الحديث "مامن نبي بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان لهٗ من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون مالايفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدهم بيدهٖ فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذٰلك من الإيمان حبة خردل." (صحيح مسلم، ح:٥٠) وأيضا ذكرنا الحديث وفيه "ما لم يأمروك بإثم بواحا" (مسند أحمد، ح ٢٢٧٣٦)، وأيضا عن نفس الصحابى عبادة بن صامت رضي الله تعالىٰ عنه "إنه سيلى أموركم بعدى رجال يعرفونكم ما تنكرون، و ينكرون عليكم ما تعرفون ، فلا طاعة لمن عصى الله فلا تعتلوا بربكم" (مسند أحمد، ح: ٢٢٧٧٠). وذكر فى أحكام القران للجصاص فى تفسير الأية ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى الظّٰلِمِيْنَ﴾ (البقرة:١٢٤) : "فثبت بدلالة هذه الأية بطلان إمامة الفاسق وأنه لا يكون خليفة، وأن من نصب نفسه فى هذا المنصب و هو فاسق لم يلزم الناس اتباعه ولا طاعته............ولا فرق عند أبى حنيفة بين القاضى وبين الخليفة فى أن شرط كل واحد منهما العدالة، و أن الفاسق لا يكون خليفة ولا يكون حاكما.............وكان مذهبه مشهورا فى قتال الظلمة وأئمة الجور......وكان من قوله وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض بالقول، فإن لم يؤتمر له فبالسيف".

فياأخى المسلم إذا تفهم هٰذا، فافهم! أن اليوم المسلمون فى من أسوء الحال فى التاريخ وليس عندنا الخلافة الإسلامية ولاعندنا البلد من البلاد الذى تطبق فيه القوانين الإسلامية بالكلية، بل الأمراء علىٰ بلاد المسلمين ينفذون القوانين غير الإسلامية فى البلاد فهم الطواغيت يريدون طاعة أنفسهم دون طاعة الله تعالىٰ وهٰذا هو حالة جلة بلاد المسلمين، بل كلهم إلا ماشاء الله وهم يوالون مع الكفار ويريدون رضاء هم دون رضاء الله تعالىٰ ويخافونهم دون الله تعالىٰ ويحبون منهجم دون منهج الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم والله عزوجل قد أمرنا كيف نتعامل مع الطواغيت وهم كل من يعبد من دون الله، والإطاعة عبادة ،فإذا هم يريدون إطاعة أنفسهم دون المبالاة بما أمر الله

عزوجل ونهي عنه وهم يرضون لأنفسهم إطاعة مطلقة هكذا ،فلاشك أنهم يريدون عبادتهم دون عبادة الله تعالى ، فلهذا هم الكفرة والطواغيت والله عزوجل يامرنا ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾(الزمر:١٧) ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل:٣٦) ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾ (النساء:٧٦) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً﴾ (النساء:٦٠) فالفرض قتال هؤلاء الطواغيت ونزعهم من الرياسة والإتيان بمن يطبق الشريعة الإسلامية حتى تكون البلاد البلاد الإسلامية دون البلاد الحربية وإن سألتم أن القرشية شرط وفى هذا الزمان الصعب جدا وجدان القرشى مع جميع شرائط الإمامة ومع ذلك عازم على المقاتلة ونزع الأمراء الطواغيت لاسيما فى بلاد المسلمين الأعاجم مثلا فما ذا نفعل؟ نحن قد ذكرنا سابقا أننا نتكلم عن هذا الموضوع فقلنا بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز أن الله عزوجل يقول ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾(البقرة:٢٨٦) فنحن مكلفون حسب وسعنا وثم كما نقلنا الحديث عن "العبد الحبشى المجدع لو يقودكم بكتاب الله فاسمعوا وأطيعوا" ولاإنكار أن القرشية من شروط الإمامة ، لكن على تقدير عدم وجدان القرشى مع شرائط الإمامة الضرورية من العدل والبلوغ والعقل والحرية والذكورة ومع العزم على القتال والجهاد ضد هؤلاء الطواغيت وهذا لا يكون إلا ذو الإيمان القوى واليقين المستحكم والمتوكل على الله والتقىّ فى الظاهر والباطن والمستعد لفداء نفسه وماله والمتحمل للمشقات الشديدة وهذا صعب جدا أن يوجد لاسيما فى بلاد المسلمين الأعاجم فعليهم ما فى وسعهم وهو نصب الواحد منهم أميرا من اختيار أهل الحل والعقد منهم الذى عنده شرائط الإمامة أزيد ما يكون فيهم والجمع تحت لوائه والقتال معهُ ضد هؤلاء الطواغيت الأعداء للقوانين الإسلامية وعلى عامة المسلمين نصرهم حتى ينزعون الطواغيت ويأتون بالقوانين الإسلامية وتطبيقها فى البلاد ثم إذا استقر الأمر ونفذت القوانين الإسلامية وصارت البلاد بلد الإسلام دون الحرب لو يمكن أن يوجد القرشى مع شرائط الإمامة وعلى شرط أنهُ يكون ذو صلاحية للإمامة ويعتبر القوانين الإسلامية وينفذها ولا يفسق ولايجور، بل يكون عادلا منصفا تقيا فى الظاهر والباطن شديدا على الكفار رحيما على المسلمين مجاهدا ومقاتلا فى سبيل الله دافعا لبلد الإسلام فاتحا لبلد الحرب فسلم هذا الأمير الأمر إلى هذا القرشى لأن القرشية من شرط الإمامة ولاتجوز المنازعة معهم فى هذا الأمر وهذا كلهُ على شرط أن لايكون فتنة واضطرابا لأن اعتبار المصالح والمفاسد وأخذ أهون البليتين من الأصول المسلمات الإسلامية فعلى هذا يستمر هذا الأمير فى إمارته حتى يكون زمانا يمكن التسليم إلى القرشى (مع شروط التى ذكرنا) بدون الفتنة والاضطراب وكذلك يستمر هذا الأمير لولا يوجد القرشى مع

الصفات التى ذكرنا.

وإن سألتم أن هٰؤلاء الأمراء الطواغيت علىٰ بلاد المسلمين وهم فيه ماهم فيه حتىٰ البلد بسبب ذٰلک بلد الحرب دون بلد الإسلام وهم لايريدون شريعة الإسلام، بل يريدون قوانين الكفرة ونظامهم ولهٰذا هم أنفسهم كفرة فإذا يكون هٰكذا والمعلوم أن فى جميع بلاد المسلمين يشتغل كثير من العوام فى المصطلحات والمحكمات التى تتعلق بحكومة البلاد مثلا مصطلحة الشرطة وفيها أناس كثير وكذٰلک القوات لهٰذه البلاد وكذٰلک المحكمات الأخرىٰ فإذا كانت هٰذه الحكومة حكومة كافرة فيلزم أن كل هٰؤلاء المشتغلون يكونوا كفرة، بل العوام الذين يصوّتون لهٰذه الحكومات يعنى الفرق السياسية التى تسابق بعضها بعضا للرياسة لاسيما فى البلاد التى فيها نظام الديمقراطية فيلزم أن كلهم يكونوا كفرة وعلىٰ هٰذا يلزم التكفير لجم غفير من المسلمين الذين يصدّقون بالإسلام ويقرون به فماذا تقول فى هٰذا الشأن؟ قلنا بتوفيق اللّٰه تعالىٰ إن شاء اللّٰه العزيز أننا ذكرنا سابقا أننا نفوض أمر من ينفذ القوانين غير الإسلامية مع اعتقاد حرمته وأنه يجب عليه تطبيق الشريعة الإسلامية بالكلية وأنه أى قانون سوا القوانين الإسلامية يكون باطلا حراما فذكرنا سابقا عنه أننا نفوض أمر التكفير عنه إلى العلماء غير أنهٗ يجب الخروج عليه لأن البلد بلد الحرب بسبب عدم تطبيق القوانين الشريعة الإسلامية فيجب الخروج حتىٰ نأتى بالشريعة الإسلامية على البلاد فإذا ذكرنا هٰذا عن المنفذ للقوانين غير الإسلامية مع اعتقاد حرمته ومع ما ذكرنا فناهيک من يشتغل له فإذاهناک مصطلحة الشرطة فيحتمل كل الاحتمال أن الطاقم فى هٰذه المصطلحة أو منه من لايوافق مطلقا مع الحكومة فى عدم تطبيق الشريعة الإسلامية بالكلية ولايرضى بالقوانين غير الإسلامية، لكن مع هٰذا يشتغلون فى المصطلحة المتعلقة بالحكومة، لكن مع اعتقاد حرمة الإعانة لهٰذه الحكومة وكذٰلک القوّات فيحتمل كل الاحتمال أن منهم الذين يريدون الشريعة الإسلامية ولا يرضون بالحكومة الوقتية، لكن يشتغلون فى القوات لا لإعانة الحكومة، بل لدفاع البلد المملوء بالمسلمين من هجوم الكفار وكذٰلک العوام فيحتمل كل الاحتمال أن منهم لا يحبون الحكومة الوقتية مطلقا ولا يرضون إلا بتحكيم الشريعة الإسلامية، لكن يصوّتون نظرة أن ليس لهم الخيار إلا فى هٰذه الفرق وواحد منهم يستولى فى العادة فإما يتركون الأمر بالكلية ويجئ من هٰذه الفرق من يجئ لاستيلاء الرياسة وربما يكون أكثر هم ضررا وفسادا أو يصوّتون لواحدمنهم الذى يظنون أنهٗ أقلهم ضررا وفسادا إتقاء للفساد الأكثر وللضرر الأكثر فيكون من باب الأخذ بأهون البليتين ،فمع هٰذا التاويل، يكون باب التكفير عن جميعهم مرجعا إلى العلماء. نعم! يقال لماذا يأخذون بأهون البليتين وعليهم الخروج علىٰ هٰذه الحكومة؟ فقلنا نعم، لكن هم يفعلون هٰذا لأنهم يعتبرون أنفسهم الضعفاء وبدون الإعداد ويعتبرون الحكومة أقوىٰ منهم بأضعاف مع جميع أنواع السلاح فلا يعتبرون أن عندهم وسعة للخروج ولو يظنون أن عندهم وسعة للخروج فيحتمل كل الاحتمال أنهم يعتقدون أنهم يرتكبون

حراما فى عدم الخروج وفى الأخذ بأهون البليتين، والقصد أن باب التكفير ليس بابا سهلا ولايجوز تكفير المسلم حتى يكون كفرا معلوما، وكثير الأحيان هناك افعال قد يكون مكفرة وقديكون لا بسبب الاحتمالات والتأويلات التى تحوى هذه الأفعال، ونحن قد ذكرنا نبذة منها ومعها يكون باب التكفير مرجعا للنظر إلى العلماء وهذا هو الجواب منا لهذا السؤال والله أعلم ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

المتن:

ونتبع السنة والجماعة ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة.

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى الآن يتكلم عن أهل السنة والجماعة، و قد ذكرنا أهل السنة والجماعة وعنهم فى خلال الكتاب حتى هذا الكتاب هو تعبير لعقيدة ولمنهج أهل السنة والجماعة وأهل السنة والجماعة عبروا فى الحديث أنهم على "ما أنا عليه وأصحابى." (سنن الترمذي، ح: ٢٦٤١) يعنى هم على منهج الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم كما يتبعوه أصحابه رضي الله تعالى عنهم وفى الحديث عن معاوية بن أبى سفيان رضي الله تعالى عنهما قال قام فينا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال "ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة وهي الجماعة." (سنن أبى داود، ح:٤٥٩٧) "وإنه سيخرج فى أمتى أقوام يتجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لايبقىٰ منه عرق ولا مفصل إلا دخله." (سنن أبى داود، ح:٤٥٩٧) وعن عائشة رضي الله تعالى عنها عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم "من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد." (صحيح البخاري، ح:٢٦٩٧) وفى الحديث "أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبدا حبشيا ، فإنه من يعش منكم بعدى فسيرىٰ اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة." (سنن الترمذي، ح:٢٦٧٦) وفى الحديث "أوصيكم بأصحابى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل ولايستحلف ويشهد الشاهد ولا يستشهد ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الإثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فيلزم الجماعة، من سرته حسنته وساء ته سيئته فذلكم المؤمن." (سنن الترمذي، ح:٢١٦٥) وفى الحديث "إن الله لايجمع أمتى أو قال أمة(محمد صلى الله تعالى عليه وسلم) على ضلالة ويد الله(يد الله يعنى تأييده ونصرته) على الجماعة ومن شذ شذ إلى النار." (سنن الترمذي، ح:٢١٦٧) وفى القرآن ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران:١٠٣) وحبل الله هو القرآن والقرآن يوجب إطاعة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فحبل

اللّٰه هو القرآن والسنة وفى الحديث "ليأتين علىٰ أمتى ما أتى علىٰ بنى إسرائيل حذوا النعل بالنعل حتى لو كان منهم من يأتى أمه علانية لكان من أمتى من يصنع ذٰلك وإن بنى إسرائيل تفرقت اثنين وسبعين ملة وتفترق أمتى علىٰ ثلاث وسبعين ملة كلهم فى النار إلا ملة واحدة قالوا من هي يا رسول اللّٰه! قال "ما أنا عليه وأصحابى." (سنن الترمذي، ح: ٢٦٤١) فالشيخ رحمه اللّٰه تعالىٰ يقول إننا أهل السنة والجماعة نتبع الرسول صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم كما اتبعه أصحابه رضي اللّٰه تعالىٰ عنهم وأتباعه وأتباع أتباعه وهٰذا هو خير القرون وفى الحديث "خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم." (صحيح البخاري، ح: ٢٦٥٢) وفى القرآن ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (التوبة: ١٠٠) ونلتزم بالجماعة يعنى أهل السنة والجماعة وهى السواد الأعظم وفى الحديث "إن اللّٰه لا يجمع أمتى علىٰ ضلالة فلو ترىٰ اختلافا فعليكم بالسواد الأعظم." (سنن ابن ماجة، ح: ٣٩٥٠) والسواد الأعظم كما هو المعلوم هم أصحاب المذاهب الأربعة وهم الأحناف وهم الأكثرون والشوافع والمالكية والحنابلة دون من الحنابلة الذين اتبعوا مذهب الجسمية (نعوذباللّٰه) فى حق اللّٰه سبحانهٗ وتعالىٰ فهؤلاء المذاهب الأربعة وهم فى العقيدة علىٰ منهج الإمام أبو الحسن الأشعرى رحمه اللّٰه تعالىٰ والإمام أبو منصور الماتريدي رحمه اللّٰه تعالىٰ وآخرهما يوافق الإمام أبو جعفر الطحاوي رحمه اللّٰه تعالىٰ وهو شيخنا المصنف لهٰذا الكتاب الذى نحن نشرحهٗ بإذن اللّٰه وتوفيقه فهؤلاء هم أهل السنة والجماعة علىٰ منهج السلف الصالح من خير القرون وهؤلاء كما ترىٰ يعظمون أصحاب محمد صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم حق تعظيمهم وبخلاف أهل البدعة والأهواء الذين يحملون على الصحابة رضي اللّٰه تعالىٰ عنهم أولا يعظّمونهم حق التعظيم كأهل الظاهر من ابن حزم وابن تيمية وأتباعه كلهم معلومة معروفة بالأراء الشاذة الكثيرة وفى الحديث "من شذّ شذّ إلى النار." (سنن الترمذي، ح: ٢١٦٧) فهؤلاء ليسوا من أهل السنة والجماعة، بل من أهل الشذوذ والخلاف حتىٰ يخالفون إجماع الصحابة رضي اللّٰه تعالىٰ عنهم فى بعض المسائل ولا يعتبرون أفعال الصحابة رضي اللّٰه تعالىٰ عنهم حجة بعد القرآن والسنة ويشذون فى باب الأصول والفروع فى العقيدة والأعمال ونحن أهل السنة والجماعة نجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة لأن الفرقة لاتكون إلا بالشذوذ من أهل السنة والجماعة وبالكون من أهل الأهواء كما يقول الحديث الذى ذكرناعن الأقوام التى يتجارى بهم تلك الأهواء فنحن نجتنب هؤلاء كلهم ونتبع السنة والجماعة ونلتزم بالقرآن والسنة والإجماع والقياس الصحيح وغيرها من أدلة الشرع وهٰذا كلهٗ علىٰ منهج الصحابة رضي اللّٰه تعالىٰ عنهم ومن تبعهم بإحسان رضي اللّٰه عنهم ونجتنب الإفراط والتفريط ونعتقد كل ما يعتقد عليها الصحابة رضي اللّٰه تعالىٰ عنهم فلا نعبد إلا اللّٰه ولا ندعوا إلا هو ولانستعين إلا به ولا ننذر إلا للّٰه تعالىٰ ولانذبح إلا للّٰه تعالىٰ ونعتقد لزوم السنة فى العبادات والمعاملات ووظائف الحياة ولزوم اجتناب البدعات والخرافات ونعتبر الملائكة عليهم الصلوات والسلام والأنبياء عليهم الصلوات والسلام معصومين وفى الحديث "المعصوم من عصمه

الـلّـه." (صحيح البخاري، ح: ٦٦١١) والعصمة ملكة من اللّٰه تعالىٰ فإذا يخلقها اللّٰه تعالىٰ فى العبد فيعنى أنهٗ لا يخلق ذنبا فيه وهي عصمة من اللّٰه تعالىٰ والحفظ وهي للملائكة عليهم الصلوات والسلام وللأنبياء عليهم الصلوات والسلام ، لكن العبد غير المعصوم لايلزم أن يكون مذنبا لأن ولو يحصل من هٰذه العبد "اللمم" كما فى الآية ﴿الَّذِيْنَ يَجْتَنِبُوْنَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ (النجم:٣٢) فتكون ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوْا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ (النساء:٣١) يعنى بالحسنات ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (هود:١١٤) فهٰذه اللمم كلها قد تكون مغفورة لهٗ بسبب الحسنات.

ونحن قد ذكرنا هٰذا؛ لأنهٗ لا يعني عندما نحن نقول أن ابابكر وعمر وعثمان وعلى وغيرهم من الصحابة رضي اللّٰه تعالىٰ عنهم اجمعين غير معصومين انهم نعوذباللّٰه مذنبون وهٰذا كلمة سب والعياذ باللّٰه وهو لايجوز وفى الحديث "لاتسبوا أصحابى." (صحيح مسلم، ح: ٢٥٤٠) ، بل معنى أن عندهم ليس ملكة العصمة المخصوصة بالملائكة والأنبياء عليهم الصلوات والسلام (وهٰذا لا يلزم كونهم مذنبين) فلانعتبر غير الأنبياء والملائكة عليهم الصلوٰة والسلام معصوما ولانعتبر أقوال غير الأنبياء عليهم الصلوات والسلام من اجتهادهم صوابًا قطعا بدون احتمال الخطأ ونحترم جميع الصحابة رضي اللّٰه تعالىٰ عنهم وأهل البيت رضي اللّٰه تعالىٰ عنهم وأولياء اللّٰه رحمهم اللّٰه تعالىٰ وأئمة المجتهدين رحمهم اللّٰه تعالىٰ ونعتقد وجوب التقليد علىٰ غير المجتهد ونأمر بالمعروف وننهىٰ عن المنكر ونلتزم بالسنة والجماعة ونجتنب البدعات والخرافات والشذوذ والفرقة والخلاف. واللّٰه يهدى من يشآء إلى صراط مستقيم

المتن:

ونحب أهل العدل والأمانة ونبغض أهل الجور والخيانة.

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه اللّٰه تعالىٰ ذكر هٰذه الجملة مستقلا وإن كان ما يذكره من البديهيات التى يعرف جميع المسلمون والسبب لهٰذا واللّٰه أعلم هو عند ما ذكر فى السابق عدم خروج على الأئمة وولاة الأمور وإن جاروا، ذكر هنا أن عدم الخروج لا يعنى أننا نقرهم عليه، بل لا نقرهم عليه ونبغض ما يفعلون من الجور والظلم وننهاهم عنها لأننا نحن أهل العدل والأمانة ونبغض أهل الجور والخيانة لأن اللّٰه تعالىٰ أمرنا بالعدل والأمانة ونهانا عن الجور والخيانة وفى القرآن ﴿إِنَّ اللّٰهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسَانِ وَ إِيْتَآءِ ذِى الْقُرْبٰى وَ يَنْهٰى عَنِ الْفَحْشَآءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ الْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُوْنَ﴾ (النحل:٩٠) وايضا ﴿يٰاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا أَوْفُوْا بِالْعُقُوْدِ﴾ (المائدة:١) وايضا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا لَا تَخُوْنُوا اللّٰهَ وَالرَّسُوْلَ وَتَخُوْنُوْا أَمٰنٰتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ﴾ (الأنفال:٢٧) وايضا ﴿إِنَّ اللّٰهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوْا

الْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ (النساء:٥٨) وأيضا ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران:٥٧) ثم إن كان أهل العدل والأمانة من المسلمين فحبهٔ ظاهر لاخفاء فيه بغض النظر يكون من عامة الناس أومن ولاة الأمور وإن كان هناك كافرا يتعامل مع الناس بالعدل والأمانة فأولا هٰذا لايجعلهٔ من أهل العدل والأمانة؛ لأنهٔ طاغى فى حق الله عزوجل ونبيه صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ودينه بسبب كفره، بل أيضا طاغى فى حق المسلمين؛ لأنهٔ لا يكون مؤمنا ولايواليهم وأيضا نفسه الكافر وفعله الكفر يكون مضلا للناس فى الجملة ،داعيا لهم إلى الكفر (ونعوذبالله) وثانيا: الكافر لايؤذن لهٔ أن يكون من ولاة الأمور، بل ينزع منه حتى ننفذ قوانين الله عزوجل شريعة الإسلام على الأرض، بغض النظر إلى معاملته مع الناس وثالثا: مع جميع ما سبق ،الكافرالذى يتعامل مع الناس بالعدل والأمانة ، ففى هٰذا الحال نحن نقبل من أفعال هٰذا الكافر التى توافق مع شريعة الإسلام ، لكن نكرهه ونبغضه بسبب كفره، وكذٰلك أهل الجور والخيانة إن كان كافرا فبغضه ظاهر لا خفاء فيه؛ لأنهٔ محلّ للبغض لا محالة بسبب كفره وإن كان مسلما ، ففى هٰذا الحال نحبه بسبب إسلامه وإيمانه ونبغضه بسبب الجور والخيانة

المتن:

ونقول الله أعلم فيما اشتبه علينا علمه.

الشرح:

وهٰذه الجملة من الشيخ رحمه الله تعالىٰ عن الأمور المشتبهة كما قال نفسه رحمه الله تعالىٰ فيشمل المتشابهات فى القرآن كمثل "آلٓم، المصٓ" وكمثل الصفات المتشابهات من الاستواء على العرش والنزول إلى السماء الدنيا واليدين والعين والوجه وغيرها من أمثالهافكل نحن نفوض علمها إلى الله تعالىٰ وفى القرآن ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (ص:٨٦) وقال عبد الله بن مسعود رضي الله تعالىٰ عنه "يأيها الناس من علم شيئًا فليقل به ومن لم يعلم فليقل الله أعلم، فإن من العلم أن يقول الرجل لما لايعلم الله أعلم قال الله تعالىٰ لنبيه صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾." (ص:٨٦) (صحيح البخاري، ح: ٤٨٠٩) وهٰذا لا يشمل قطعا و بتاتا ضرورات الدين الظاهرة وما ثبت قطعاومفصّلا من النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ولأنها الأمور التى قد أخبر الله تعالىٰ عنها علىٰ لسان نبيه صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وفرض علينا الإيمان بها، فادّعاء عدم فهمها وتفويض حقيقة هٰذه الأمور إلى علم الله تعالىٰ (وهو أعلم) يكون إنكارا بهاوهو كفر، بل يجب الإيمان بها كما أخبر عنها النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم، بل الأمور الأخرىٰ التى ثبت من الدلائل الظنية أيضا يجب الاعتقاد بها كما ثبت وإنكارها أو شك [1] فيها كما

(١) يعنى واحد يقول إنهٔ لا يعرف ما هو معناها وحقيقتها؛ لأن هٰذه الأشياء على ظاهرها

فى تفويضها إلى علم اللّٰه تعالىٰ يكون فسقا وضلالا.

المتن:

ونرىٰ المسح على الخفين فى السفر والحضر كما جاء فى الأثر.

الشرح:

والشيخ الإمام رحمه اللّٰه تعالىٰ ذكر هٰذه المسئلة فى باب العقيدة وهي من الفروعات الفقهية بسبب الذى ذكرنا سابقا وهو إنكارها من بعض أهل البدعة والأهواء حتىٰ تكون واحدة من علامات المميزة لأهل السنة وهٰذه المسئلة يعنى المسح على الخفين ثابت بخبر مشهور مستفيض فى حيز التواتر، بل صرح جمع من الحفاظ بتواتره وجمع بعضهم رواته فجاوزوا ثمانين منهم العشرة المبشرة. انتهىٰ

ولهٰذا قال القاضى أبو يوسف رحمه اللّٰه تعالىٰ أن منكره يكفر، وقال الكرخى رحمه اللّٰه تعالىٰ أخاف الكفر علىٰ من لايرىٰ المسح على الخفين لأن الأثار التى جاء ت فيه فى حيز التواتر وبالجملة من لا يرى المسح على الخفين فهو من أهل البدعة إجماعا من أهل السنة إلا أنها بدعة فسق عند بعضهم وبدعة كفر عند بعضهم وقد سئل أنس بن مالك رضي اللّٰه تعالىٰ عنه عن السنة والجماعة فقال "أن تحب الشيخين ولاتطعن فى الختنين وتمسح على الخفين." (مرقاة المفاتيح: ج: ٢ ص: ٢٧٢) وهٰذا اهتمام بالأمور الثلاثة وإلا فليست علامات السنة والجماعة محصورة فيها ولعل اختصاصها بالذكر لقصور المعاصرين أو الحاضرين فيها، نحن نذكر رواية من الروايات عن المسح وهو سئل علىٰ بن أبى طالب رضي اللّٰه تعالىٰ عنه عن المسح على الخفين فقال "جعل رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم ثلاثة أيام ولياليها للمسافر ويوما وليلة للمقيم." (صحيح مسلم، ح: ٢٧٦)

المتن:

والحج والجهاد ماضيان مع أولى الأمر من المسلمين برهم وفاجرهم إلى قيام الساعة لا يبطلهما شيء ولا ينقضهما.

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه اللّٰه تعالىٰ يتكلم الأن عن الحج والجهاد أنهما ماضيان إلى قيام الساعة والمراد قربها لأن الساعة لا تقوم إلا علىٰ شرار الخلق (الكفرة) كما فى الحديث وقال الشيخ

رحمه الله تعالى أنهما ماضيان مع أولى الأمر من المسلمين برهم وفاجرهم فأما الحج فلا خفاء فيه؛ لأنهٔ عمل ليس فيه القتل والغارة، بل هو طواف بيت الله ووقوف العرفة وغيرها من الأمور المعلومة وحتى كل واحد يفعلهٔ بنفسهٖ على حدة، وأما الجهاد فهو فی عامة الأحوال العمل الاجتماعی الذی يكون معهٔ شوكة ومنعة وفيه القتل والغارة والاستيلاء على البلاد فالشيخ رحمه الله تعالى يقول إنه ماض تحت راية جميع ولاة الأمور من المسلمين برا كانوا أو فاجرا وفی الحديث الذی ذكرنا سابقا "الجهاد واجب عليكم مع كل أمير برا كان أو فاجرا." (سنن أبی داود، ح:٢٥٣٣) وأيضا "لاتزال طائفة من أمتی يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناواهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال" (سنن أبی داود، ح:٢٤٨٤) وأيضا "أصل الإسلام ثلاثة الكف عمن قال لا إله إلا الله أن تكفروه بذنب ولا تخرجوه من الإسلام بعمل، والجهاد ماض منذ بعثنی الله حتى يقاتل آخر عصابة من أمتی الدجال، والإيمان بالأقدار كلها." (سنن أبی داود، ح:٢٥٢٣) وكذلك الآثار المروية عن الصحابة رضي الله تعالى عنهم مثلا "عن مجاهد قال قلت لابن عمر رضي الله تعالى عنهما ما تقول فی الغزو فقد صنع الأمراء ما قد رأيت قال أرى تغزو، فإنهٔ ليس عليك مما أحدثوا شیء." (مصنف ابن أبی شيبة، ح:٣٣٣٨٢) وعن سليمان بن قيس قال قلت لجابر رضي الله تعالى عنه أرأيت إن كان علیّ إماما جائرا أقاتل معهٔ أهل الضلالة والشرك قال نعم، عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا." (مصنف ابن أبی شيبة، ح:٣٣٣٧٨) يعنی الطاعة فی المعروف والكلام فی الأمراء الجائرة لكن ينفذون الشريعة الإسلامية فی البلاد فالجهاد واجب تحت رايتهم مع أهل الضلالة والشرك، وإن كانوا لا ينفذون قوانين الإسلام فی البلاد فيكون الحرب واجبًا ضدهم دون تحت رايتهم لأنهم صيّروا البلد بلد الحرب بسبب تنفيذ القوانين غير الإسلامية فيُغزَون حتى نأتی بالإسلام فی البلد قانونا نافذا عليه وقد بينّا سابقا والحمد لله والله يهدی من يشاء إلى صراط مستقيم.

المتن:

ونؤمن بالكرام الكاتبين فإن الله قد جعلهم علينا حافظين ونؤمن بملك الموت الموكل بقبض أرواح العالمين.

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى الآن يتكلم عن بعض أنواع الملائكة وقد مر الكلام بالتفصيل عنهم فالآن نتكلم ما يتكلم عنهم الشيخ رحمه الله تعالى منهم فأوّلا يتكلم عن الكرام الكاتبين وهم الذين يكتبون أعمالنا وفی القرآن ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا

تَفْعَلُونَ ﴾ (الانفطار: ١٠-١٢) وفى الحديث "أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى حالتين الجنابة والغائط فإذا اغتسل أحدكم فليستتر بجرم حائط أو بغيره أوليستره أخوه." (مسند البزار، ح: ٤٧٩٩) وفى القرآن ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق:١٧-١٨) لا يترك كلمة ولا حركة ثم أقرّ منها ماكان خيرا أو شرا ومُحى عنها ما كان من المباحات هكذا يجتمع الأقوال فى تفسير هاتين الأيتين وقال الحسن البصرى رحمه الله تعالى "يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك وأما الذى عن يسارك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ماشئت أقلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك وجعلت فى عنقك معك فى قبرك حتى تخرج يوم القيامة تلقاه منشورا. إقرأ كتابك كفىٰ بنفسك اليوم عليك حسيبا ،قد عدل والله عليك من جعلك حسيب نفسك ." (تفسير الطبرى: ج: ٢١،ص: ٤٢٥) فصاحب اليمين يكتب الحسنات وصاحب الشمال يكتب السيئات وصاحب اليمين أمير علىٰ صاحب الشمال وهٰذا ثابت فى الآثار وعليه الإجماع وهٰذان ملكان ، لكن للنهار غير ماهو لليل فجميع الكرام الكاتبين أربعة املاك مع كل مكلف من الجن والإنس لأن الجن أيضا مكلفون فيكتب أعمالهم وفى القرآن ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾ (الذاريات:٥٦) فهٰذه أربعة أملاك ملكان لليل وملكان للنهار وثم أربعة أملاك يحفظونه ويحرسونه اثنان للّيل واثنان للنهار وفى القرآن ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ (الرعد: ١١) من أمر الله أى بأمر الله وفى الحديث الصحيح "يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلوة الصبح وصلوة العصر فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم، كيف تركتم عبادى؟ فيقولون أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون." (صحيح البخاري: ح:٥٥٥)

وإن سألت كيف الكرام الكاتبين يعرفون إذا هم العبد بالحسنة أو السيئة وكذٰلك كيف يعرفون الأعمال للعبد عند المفارقة فى الجماع والغائط وغيرها؟ فالجواب الله عزوجل جعل لهم من الوسائل التى بها يعرفون كل هٰذه الأشياء والمعلوم أنهم بالاتصال مع الله عزوجل لأنهم ملائكة وقد جاء فى الحديث أخرجه مسلم "قال رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم قالت الملائكة رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال ارقبوه فإن عملها فاكتبوه لهُ بمثلها وإن تركها فاكتبوها لهُ حسنة إنما تركها من جرّائى." (صحيح مسلم، ح: ١٢٩) فالله عزوجل يخبرهم بأى طريقة أو وسيلة شاء عن همّ العبد وكذٰلك الأشياء غيره وقد أعطانا الله عزوجل من الوسائل التى بسببها نحن نعرف بعض أخبار العالم فى بيوتنا مثلا المذياع وكذٰلك أخبرهم الله عزوجل هٰذه الأشياء حتىٰ

يحفظوها ويكتبوها والمعلوم أن جميع هٰذه الأشياء ،الله عزوجل لايحتاجها قطعا وبتاتا؛ لأنهٗ العليم البصير السميع وهو خالق العبد وأعماله ، لكن هٰذهٖ كلها بإرادته ومشيئته وأمره يعني كتابة الأعمال وغيرها من الأشياء وهو الحكيم فى هٰذهٖ كلها؛ لأنهٗ يفعل ما يشاء ويحكم مايريد.

ثم الشيخ رحمه الله تعالىٰ يتكلم عن ملك الموت وقد ذكرنا عنه واسمه عزرائيل كما جاء فى بعض الآثار وهو المشهور وفى القرآن ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِىْ وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُوْنَ﴾ (الم سجدة: ١١) والمعنىٰ عزرائيل "عبدالله" وهو الملك الموكل بقبض أرواح العالمين يعني الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات، وملائكة العذاب وملائكة الرحمة يساعدونه فى وظيفته وفى القرآن ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِيْنَ كَفَرُوْا الْمَلٰٓئِكَةُ يَضْرِبُوْنَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوْا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (الأنفال: ٥٠) ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهٖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتّٰى إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُوْنَ﴾ (الأنعام: ٦١) ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظّٰلِمُوْنَ فِىْ غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلٰٓئِكَةُ بَاسِطُوْا أَيْدِيْهِمْ أَخْرِجُوْا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُوْنِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُوْلُوْنَ عَلَى اللّٰهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهٖ تَسْتَكْبِرُوْنَ﴾ (الأنعام: ٩٣) ﴿حَتّٰى إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوْا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ قَالُوْا ضَلُّوْا عَنَّا وَشَهِدُوْا عَلٰى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوْا كَافِرِيْنَ﴾ (الأعراف: ٣٧) وهٰذه الآيات القرآنية تثبت بالقطع أن الذين يباشرون عمل قبض الأرواح هم الملائكة التى هي أعوان ملك الموت لأنهم هم الذين القائلون "أَخْرِجُوْا أَنْفُسَكُمْ" الباسطون أيديهم ، لكن لأن ملك الموت أميرهم فهم كمثل الأعضاء والجوارح لهٗ وهم يعملون بأمره وتحت إرادته فنسب الفعل إليه أيضا كما فى الآية "قُلْ يَتَوَفّٰكُمْ مَّلَكُ الْمَوْتِ" وثم ملك الموت وأعوانه لايفعلون شيئًا من حيث إيجاد الفعل ، بل الله خالقهم وخالق أفعالهم فهو الفاعل الحقيقي لكل شيء ، فلهٰذا قال الله تعالىٰ: ﴿اللّٰهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِيْنَ مَوْتِهَا وَالَّتِىْ لَمْ تَمُتْ فِىْ مَنَامِهَا﴾ (الزمر: ٤٢) فنسبها إلى نفسه تعالىٰ؛ لأنهٗ هو الفاعل الحقيقي والمؤثر الحقيقي وكذٰلك فى الأحاديث منها ماأخرجه الإمام أحمد رحمه الله تعالىٰ عن أبى هريرة رضي الله تعالىٰ عنه عن النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم قال "إن الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قالوا أخرجى أيتها النفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب أخرجى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب غيرغضبان قال فلايزال يقال لها حتىٰ تخرج ثم يعرج بها إلى السماء،،،،، وإن كان الرجل السوء قالوا أخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث أخرجى ذميمة وأبشرى بحميم وغساق وآخرمن شكله أزواج فلايزال يقال لها ذٰلك حتىٰ تخرج ثم يعرج بها إلى السماء." (مسند أحمد، ح: ٨٧٦٩) ومنها ما أخرجه ابن حبان عن أبى هريرة رضي الله تعالىٰ عنه عن النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم قال " إن المؤمن إذا قبض أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء ،فيقولون أخرجى إلى روح الله ،فتخرج كأطيب ريح المسك حتىٰ إنه ليناولهٗ بعضهم بعضا

يشمونه حتى يأتوا به باب السماء .... وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمسح فيقولون اخرجي إلى غضب الله فتخرج كأنتن ريح جيفة فيذهب به إلى باب الأرض." (ح:٣٠١٤) وأخرجه النسائي أيضا(ح:١٨٣٣) وهذه الأحاديث متنها يوافق الآيات القرآنية التى هي قطعية من جهة الثبوت والدلالة أن المباشرون لقبض الأنفس (الأرواح) هم الملائكة، وملك الموت يعنى سيدنا عزراليل عليه السلام ذات واحد معين فتكون هذه الملائكة أعوان لهٗ ونحن ذكرنا أنهم لهٗ مثل الأعضاء والجوارح فيكون الفعل لقبض الروح منسوبا إليهم وإليه وهٰذا ما ذكرنا تدل عليه النصوص القاطعة التى ذكرنا فعلى هٰذا ما جاء فى حديث البراء بن عازب رضي الله تعالىٰ عنه الذى أخرجه الإمام أحمد عنه عن النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وفيه "إن العبد المؤمن إذاكان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الأخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه ،كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتىٰ يجلسوا منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتىٰ يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الطيبة أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوانه قال فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يدهٖ طرفة عين حتىٰ يأخذوها فيجعلوها فى ذٰلك الكفن وفى ذٰلك الحنوط ..... وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء سود الوجوه معهم المسوح ،فجلسوا منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت عند رأسه فيقول أيتها النفس الخبيثة أخرجي إلى سخط من الله وغضب ، قال فتفرق فى جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يدهٖ طرفة عين حتىٰ يجعلوها فى تلك المسوح فيخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت علىٰ وجه الأرض الخ ،(مسند أحمد، ح:١٨٥٣٤) فهٰذا الحديث يكون مؤولا حتىٰ يوافق مع النصوص القاطعة التى ذكرنا وهو أن ملك الموت فى هٰذا الحديث (والله أعلم) يكون علىٰ معنى أعوان ملك الموت [1] وهو هٰذهٖ ملائكة العذاب والرحمة التى تحضر الميت فواحد منهم يتقدم حتىٰ يجلس عند رأسه ثم كلهم يقولون إما أخرجى إلى روح الله أو أخرجى إلى غضب الله فكلهم يشاركون [2] فى التوفى ليخرج الروح فيأخذها هٰذا المتقدم [3] والباقى معهم فى الأخذ ،فأخذوها كما جاء فى الحديث الآخر

---

(١) ونحن ذكرنا أن الملائكة الأعوان بمثل الأعضاء والجوارح للملك الموت الذى هو أميرهم فعلى هٰذا يصح إطلاق ملك الموت عليهم والمتقدم منهم أيضا يتقدم لأن أمره ملك الموت وعيّنه لهٰذا فتقدمه كتقدم ملك الموت وهٰذا كلهٗ لكى يوافق هٰذا الحديث النصوص القرآنية والأحاديث الأخرىٰ القاطعة

(٢) وكذٰلك كلهم يشاركون فى الانتزاع فى حق الكافر فتأمل حديث البَراء مع الآية ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (الأنفال:٥٠)

(٣) وكلهم باسطون أيديهم فكلهم يشاركون فى التوفى فعندما يخرج فكلهم يشاركون فى أخذها والمتقدم سابقهم فيه.

أنهم يتناولونه بعضهم بعضا وثم ملكان (كما جاء فى الحديث أخرجه مسلم عن أبى هريرة رضي الله تعالىٰ عنه قال إذا خرجت روح العبد المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها الخ) (صحيح مسلم، ح: ٢٨٧٢) منهم يتلقانها ويصعدان بها والباقى منهم معهما والروح للمؤمن يفتح لهٗ أبواب السماء والروح للكافر لايفتح لهٗ أبواب السماء فيذهب بهٖ إلى الأرض السفلى فى السجين وهٰذا كلهٗ ثابت فى الأحاديث ونحن نذكر كل هٰذا إن شاء الله بالتفصيل فى بيان عذاب وثواب القبر فما ذكرنا من البيان يجمع النصوص كلها إن شاء الله العزيز فتأمل علىٰ هٰذه النصوص ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾ (الأنفال:٥٠) ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ (الأنعام: ٦١) ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ (الأنعام:٩٣) ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ (الأعراف:٣٧) والأحاديث "تحضره الملائكة" .... قالوا أخرجى أيتها النفس الخ" "أتته ملائكة الرحمة .... فيقولون أخرجى إلى روح الله .... وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمسح فيقولون أخرجى إلى غضب الله"، "إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها" وكل هٰذه النصوص القاطعة مع الحديث عن البراء بن عازب رضي الله تعالىٰ عنه الذى ذكرنا فلابد من تأويله ونحن ذكرنا تأويلهٗ ويكون إن شاء الله العزيز صحيحا وعلىٰ نفس التأويل قول مجاهد وهو روى عن النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم مرسلا أن ملك الموت حويت لهٗ الأرض فجعلت مثل الطست يتناول منها متى يشاء وتأويلهٗ يعنى الأرض لهٗ مثل الطست وهو يتناول منها يعنى من الأرواح متى يشاء يعنى فى وقت أمره الله لقبضها من وسيلة أعضائه وجوارحه وهم أعوانه حتىٰ يوافق النصوص التى ذكرنا.

ثم اعلم أن الروح الله أعلم بحقيقتها ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (بنى إسرائيل:٨٥) ومع هٰذا ماجاء فى القرآن والسنة يخبرنا ببعض صفاتها التى تدل علىٰ ماهيتها وهو أن المعلوم أنها تُؤخذ وتُرسل وتُمسك ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (الزمر:٤٢) وتخرج وتُعرج بها وتُصعد بها وتُذهب بها كما جاء فى الأحاديث التى ذكرنا وتُناول فى الأيدى وتُجعل فى الحنوط والكفن أو فى المسوح وتخرج منها رائحة طيبة أو كريهة وتتفرق فى الجسد وتنتزع منه وهٰذا كلهٗ يدل علىٰ أن الروح ليس عرضا قطعا وبتاتا ومن قال أنهٗ عرض فقد كفر وضل وغوىٰ لأن النصوص القاطعة ترد كونها عرضا لأن العرض عوارض تطرأعلى الأجسام كمثل الحركة والسكون وغيرهما منها ولاتخرج من الجسم ولاتنتقل منه ولا تؤخذ ولاتُلفّ فى الكفن وغيرها من الأشياء التى ذكرنا ، هٰذه الصفات يعنى الخروج والانتقال وأخذها وإرسالها ولفّها وغيرها من الأشياء صفات الأجسام كما هو المعلوم من عنده علم من علم الكلام فثبت أن الروح هو جسم

أيضا ولم حقيقته غير معلومة عندنا وهذا الجسم يدخل الجسم الذى هو مركب من الجلد واللحم والعظم كما هو معلوم وكذلك يخرج منه والعادة جارية من عند الله تعالىٰ أنهٗ يخلق الحياة فى الجسم عندما تدخل الروح فيه والحياة عرض لأنها تطرأعلى الجسم عند دخول الروح فيه على حسب العادة من الله تعالىٰ أنهٗ يخلقها فيه عند دخول الروح فيه وعندما يخرج الروح من الجسد لايخلق الله الحياة فى الجسد وفى القرآن ﴿الَّذِىْ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الملك: ٢) ومعنى خلق الموت هو فعل إخراج الروح منه لأن الله تعالىٰ هو خالق الملائكة وأفعالها فيشمل ملائكة الموت وقبضها الأرواح وهذا خلق الموت؛ لأنهٗ عند ما يخلق فعل قبض الروح فيفارق الروح البدن ولايخلق الله تعالىٰ عرض الحياة فى البدن فيموت البدن فالحياة غير الروح والروح مخلوق أيضا وكل الأرواح مخلوقة والله عزوجل خالقها كلهاوهي ليست من صفاته ونعوذبالله ومن قال أنها من صفاته فقد كفر وصفات الروح التى ذكرنا لاتليق بالله عزوجل قطعاوبتاتا وهو المعلوم من عنده علم عن ربه تعالىٰ وتقدس وتنزه ، ففى القرآن ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهٗ وَنَفَخْتُ فِيْهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوْا لَهٗ سَاجِدِيْنَ﴾ (الحجر: ٢٩) ومعنى النفخ يعنى إجراءه فيه وليس نفخ الله كنفخ المخلوق تعالىٰ الله عن ذٰلك؛ لأنهٗ ليس كمثله شيء، بل المعنى إجراء الروح فيه بخلقه وقدرته تعالىٰ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهٗٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَّقُوْلَ لَهٗ كُنْ فَيَكُوْنُ﴾ (يس: ٨٢) ومعنى "روحى" إضافته إليه تعالىٰ لتشريف آدم عليه السلام كما قال صالح عليه السلام "ناقة الله" لشرفها وإن كان جميع الأرواح والنوق لله تعالىٰ خلقا وملكا وكذٰلك الناقة التى كانت معجزة لصالح عليه السلام وكذٰلك روح آدم عليه السلام لله تعالىٰ خلقا وملكا وإضافتهما إلى الله تعالىٰ لشرفهما كروح آدم عليه السلام على الملائكة وكالناقة المعجزة لصالح عليه السلام على البهائم الأخرىٰ. فإذا علم أن الروح مخلوق والمخلوق لايقدر على شيء فكيف يأتى بالحياة للبدن، بل هو نفسه محتاج إلى الله تعالىٰ فى خلقه ووجوده وبقائه وحياته فهو ليس حياة بنفسه، بل الحياة خلق من خلق الله تعالىٰ الآخر التى توجد فى البدن عند وجود الروح فيه والله تعالىٰ قادر على أن يخلق الحياة فى البدن بدون الروح ، لكن العادة الجارية من عنده هو خلقها عند اتصال الروح بالبدن، وأيضا لو كان الروح نفس الحياة والروح نفسه محتاج إلى الحياة لأن الروح جسم غير معلوم الحقيقة لنا وهو يتكلم ويتفرق ويخرج ويسمع كما تدل عليه النصوص فهو ليس بجماد، بل حيّ نفسه فلو كانت الحياة نفس الروح والروح أيضا حي فيحتاج إلى الروح الآخر للحياة وهذا يتسلسل إلى مالا نهاية لهٗ وهو باطل فثبت أن الروح غير الحياة فالروح جسم يدخل فى البدن ويخرج منه والحياة عرض تقوم بالبدن عند خلق الله تعالىٰ فيه وإذا لا يخلقها الله تعالىٰ فيه فيموت البدن والحمد لله تعالىٰ والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

ثم اعلم أن روح الإنسان ونفسه نفس الشيء، والأن نحن نذكر اقتباسا مفيدا جميلا من تفسير القرطبي رحمه الله تعالىٰ فقال فى الروح والنفس أنهما شيء واحد "وهو الذى تدل عليه الآثار الصحاح علىٰ مانذكره فى هٰذا الباب من ذٰلك حديث أم سلمة رضي الله تعالىٰ عنها قالت دخل رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم علىٰ أبى سلمة وقد شق بصره فأغمضه ثم قال "إن الروح إذا قبض تبعه البصر." (صحيح مسلم، ح: ٩٢٠) وحديث أبى هريرة رضي الله تعالىٰ عنه قال قال رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "ألم تروا الإنسان إذا مات شخص بصره قال فذٰلك حين يتبع بصره نفسه" أخرجهما مسلم (ح: ٩٢١) (فعبر فى هٰذا الحديث الروح الذى ذكر فى حديث أم سلمة رضي الله تعالىٰ عنها بالنفس) وعن أبى هريرة رضي الله تعالىٰ عنه عن النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم قال "تحضر الملائكة فإذا كان الرجل صالحا قالوا أخرجى أيتها النفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب أخرجى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب راض غير غضبان ولايزال يقال لها ذٰلك حتىٰ تخرج ثم يعرج بها إلى السماء." (مسند البزار، ح: ٨٢١٩) وذكر الحديث وإسناده صحيح أخرجه ابن ماجة(ح: ٤٢٦٢) وقد ذكرنا فى "التذكرة" وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضي الله تعالىٰ عنه قال" إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها" وذكر الحديث(صحيح مسلم، ح: 2872) (ففى هٰذا الحديث "خرجت روح المؤمن" وفى الذى قبلهٗ "أخرجى أيتها النفس الطيبة" فثبت أنهما نفس الشيء) وقال بلال رضي الله تعالىٰ عنه فى حديث الوادى "أخذ بنفسى يا رسول الله الذى أخذ بنفسک وقال رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم مقابلا لهٗ فى حديث زيد بن أسلم فى حديث الوادى "ياأيها الناس إن الله قبض أرواحنا ولو شاء ردها إلينا فى حين غير هٰذا." (موطا إمام مالک، ح: ٢٦) (فعبر الروح بالنفس فى هٰذين الحديثين الآخرين) والصحيح فيه أنهٗ جسم لطيف مشابک للأجسام المحسوسة يجذب ويخرج وفى أكفانه يلف ويدرج وبه إلى السماء يعرج لا يموت ولا يفنى وهو ممالهٗ أول وليس لهٗ آخر وهو بعينين ويدين وأنه ذوريح طيبة وخبيثة كما فى حديث أبى هريرة رضي الله تعالىٰ عنه وهٰذهٖ صفة الأجسام لا صفة الأعراض وقد ذكرنا الأخبار بهٰذا كله فى كتاب "التذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة" وقال تعالىٰ ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ (الواقعة: ٨٣) يعنى النفس إلى خروجها من الجسد وهٰذهٖ صفة الجسم والله أعلم. انتهىٰ كلام القرطبي(ج: ١٥،ص ٢٦٢)

والمعنى أنهٗ لا يموت [1] ولايفنى وهو ممالهٗ أول وليس لهٗ آخر يعنى الله عزوجل خلقه ويبقيه

(١) يعنى الروح بعينه لا يموت و إلا موته إذا يخرج من البدن فى وقت الموت وحينئذ يجوز إطلاق الميت على الروح أيضًا وهو مفارقته من البدن حين الموت ولأن الشخص الذى هو مجموعة البدن والروح يكون ميتا عند مفارقة روحه من بدنه فإطلاق الميت على روحه حين هذه المفارقة يكون من باب الأولىٰ.

فلايميته ولايفنيه، فلهٰذا قال أن لهٗ أول يعنى عند ما خلقه اللّٰه تعالىٰ وليس لهٗ آخر لأن اللّٰه تعالىٰ يبقيه ولوشاء اللّٰه فناء ہ فلا لهٗ بقاء قطعاوبتاتا كما فى حق أرواح البهائم فإنها تحشر يوم القيامة للمقاصّة بينها ثم تصير ترابا فأرواحها أيضا تفنىٰ إما باستحالتها إلى شيء آخر أوبانعدامها بالكلية واللّٰه علىٰ كل شيء قدير وأما الأرواح الإنسانى فاللّٰه عزوجل يبقيها لأنهم مكلفون وكذٰلك أرواح الجن والملائكة لأن الجن مكلفون والملائكة أيضا مكلفون بما أمرهم اللّٰه تعالىٰ بها وهم لا يعصونه، والجنة والنار للإنس والجن وأما الملائكة فلايحتاجون دخول الجنة جزاء لطاعتهم ، بل هم يُجزون و يُثابون بفضل اللّٰه تعالىٰ علىٰ حسب شأنهم (بدون احتياج دخول الجنة له) فأرواحهم أيضا يبقيها اللّٰه تعالىٰ (واعلم أن الجن والملائكة أيضا جسم وروح ، لكن ليس كمثلنا) فاللّٰه عزوجل يبقى أرواح هٰؤلاء إرادة واختيارا وليس عجزا وقهرا ونعوذباللّٰه فعند ما البدن يموت بسبب مفارقة الروح [1] إياه ،الروح يصير إلى عالم البرزخ وهو أول منزل الآخرة ويبدأ فيه ثوابه أو عقابه والبدن ولو يكون ميتا ، لٰكن لهٗ نوع من اتصال بروحه حتىٰ يشاركه فى هٰذا الثواب أو العقاب ونحن إن شاء اللّٰه نتكلم عنه بالتفصيل قريبا فى بيان عذاب القبر وثوابه.

فحاصل الكلام الروح يبقىٰ ولايموت بعينه فهو ينتقل من عالم إلى عالم فكانت فى عالم الأرواح قبل خلق الأبدان ثم تنتقل إلى (بطن الأم و) هٰذا العالم فتكون فى هٰذه الأبدان ثم تنتقل إلى عالم البرزخ وثم إلى المحشر وثم إلى الجنة أو النار ، لكن بين النفخين يعنى النفخة الأولىٰ والثانية ليوم القيامة اللّٰه أعلم عن كيفية الأرواح فيه (واللّٰه أعلم) قد جاء فى بعض الآثار (لو أنا لا أخطىء فى ذكره) أنها تكون مغشية عليها بين النفخين والمعلوم أنها لا تكون حية صاحية فإما أن تكون ميتة أو تكون مغشية عليها وهٰذا الأخير مؤيّد ببعض الآثار وهو الصحيح إن شاء اللّٰه العزيز وفى الحديث " . نسمة المؤمن فى شجر الجنة حتىٰ يرجعه اللّٰه إلى جسده يوم يبعثه." (سنن النسائي، ح:٢٠٧٣) ولم يذكر الموت بين كونه طائرا فى عالم البرزخ وبين كونه راجعا إلى جسده فتأمل واللّٰه يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

المتن:

و(نؤمن) بعذاب القبر لمن كان لهٗ أهلا وسؤال منكر ونكير فى قبره عن ربه ودينه ونبيه علىٰ ما جاء ت به الأخبار عن رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم وعن الصحابة رضوان اللّٰه تعالىٰ عليهم والقبر روضة من رياض

---

(١) وهٰذا يعتبر موت الروح أيضًا يعنى المفارقة وأما الروح بعينه فهو لايموت

الجنة أو حفرة من حفر النيران.

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالىٰ الأن يتكلم ويفتح الباب العظيم وهو البرزخ ومعناه مابين شيئين وفي الصحاح الحاجز بين الشيئين والبرزخ مابين الدنيا والآخرة قبل الحشر من وقت الموت إلى البعث فمن مات فقد دخل البرزخ وقال الفراء البرزخ من يوم يموت إلى يوم يبعث وفي القرآن ﴿حَتّٰى إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُوْنِ لَعَلِّيْ أَعْمَلُ صَالِحًا فِيْمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِنْ وَّرَآئِهِمْ بَرْزَخٌ إِلٰى يَوْمِ يُبْعَثُوْنَ﴾ (المؤمنون:٩٩-١٠٠) سورة المؤمنون. فالبرزخ مابين الموت والبعث وقيل للشعبي مات فلان! قال ليس هو في الدنيا ولافي الآخرة هو في برزخ (تذكرة للقرطبي) ثم المعنى أن البرزخ مابين الدنياوالآخرة هي الآخرة في معنى من البعث وما بعدهٗ وإلافي معنى الآخرة تشمل البرزخ أيضًا والبرزخ هو أول منزل من منازل الآخرة كما الحديث يدل علىٰ من مات قامت عليه ساعته أخرجه مسلم وأيضا في الحديث "إن القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه فما بعدهٗ أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعدهٗ أشدمنه." (سنن الترمذي، ح:٢٣٠٨) وأيضا قال رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "ما رأيت منظرا قط إلا والقبر أفظع منه." (سنن الترمذي، ح:٢٣٠٨) والقبر في الحديث هو البرزخ ولأن من يموت يدفن في القبر في الغالب فيشيع استخدام كلمة القبر في معنى البرزخ تغليبا وإلا فكل ميت قبر أولم يقبر ولو صلب أو غرق في البحر أو احترق وذرى في الريح أو أكلته الوحوش أو أي شيء فأينما كان كيفما كان حيثما كان فهو قبره ولومعنى القبر لغة هي حفرة في الأرض، لٰكن مجازا وتوسعا حيثما يكون الميت وكيفما يكون مجتمعا أجزاءه أو متفرقا، متمزقا، متشتتا يكون هو قبره والبرزخ له.

فإذا علمت هذا فالشيخ رحمه الله تعالىٰ يقول أننا أهل السنة والجماعة نؤمن بعذاب القبر وهو يكون للكافرين ولبعض عصاة المؤمنين ولهٰذا قال لمن كان لهٗ أهلا فأما الكافرفأهليته ظاهرة وأما عصاة المؤمنين فهم يستحقون العقوبة، لكن الله سبحانهٗ وتعالىٰ يغفرما دون الكفر والشرك لمن يشاء، فلهٰذا لو غفر لهٗ فبها ونعمت وإلا يكون معذبا في القبر وكذٰلك نؤمن بسؤال منكر ونكير وهما ملكان يأتيان في القبر فيسأل الميت عن ربه ودينه ونبيه صلى الله تعالىٰ عليه وسلم والقبر روضة من رياض الجنة أوحفرة من حفر النيران فنؤمن علىٰ عذاب القبر وثوابه.

اعلم أن عذاب القبر وثوابه حق ثابت بالقرآن والسنة والإجماع والأحاديث في بابه متواتر المعنى فيكون إنكار عذاب القبر كفر بواح واعتقاد به واجب لازم وأنكر بعض المعتزلة والروافض

عذاب القبر وثوابه وليس عندهم شيئا إلا إنكارماهو ثبت ضرورة فيكون إنكاره كفرا ونحن إن شاء الله نذكر الأن أمورا يتعلق بالباب بالتفصيل.

اعلم أن عذاب القبر دلائلهٔ موجودة فى القرآن منها عن قوم نوح عليه السلام ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ (نوح:٢٥) وجه الاستدلال أنهٔ قال انهم أغرقوا فأدخلوا نارا فالفاء تدل على أن إدخال النار عقيب الإغراق متحقق بلا مهلة والمعلوم أن عذاب القيامة متراخ عنهم زمانا طويلا فقد ثبت العذاب بعد الموت قبل عذاب القيامة وهو المراد بعذاب القبر وأيضا أن لفظ الماضى يدل على سبق الإدخال على نزول الآية. والآية عن فرعون وآله ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (المؤمن:٣٦) فهم يعرضون على النار قبل يوم القيامة وذٰلک فى القبر (البرزخ) وذٰلک لأن حرف العطف وهو فى ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ (المؤمن:٣٦) يدل على المغايرة فيكون بعده لامحالة. وهنا نذكر تحقيقا لتبيين الإشكال وإزالته الذى حصل بسبب الاضطراب فى متن بعض الحديث أخرجه الإمام أحمد رحمه الله تعالى وهو عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت لها اليهودية "وقاک الله عذاب القبر." () فذكرت لرسول الله صلى الله تعالى عليه سلم سائلة عنه فقال صلى الله تعالى عليه وسلم "لا عذاب دون يوم القيامة" وثم مكث ماشاء الله أن يمكث فخرج ذات يوم فقال صلى الله تعالى عليه وسلم "فإن عذاب القبرحق." (مسند أحمد، ح: ٢٤٥٢٠) والإشكال أن هاتين الأيتين مكّيّتين فلو تثبتا عذاب القبر فكيف أنكره رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى هٰذا الحديث الذى يكون فى المدينة لامحالة لأن اليهود كانت ثمة والجواب بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز أن هٰذا الحديث قد غلط فى متنه لأن البخاري أخرج نفس الحديث عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن يهودية دخلت عليها فقالت "نعوذبالله من عذاب القبر" فسألت عائشة رضي الله تعالى عنها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال صلى الله تعالى عليه وسلم "نعم عذاب القبر حق" فبادر صلى الله تعالى عليه وسلم إلى تصديق اليهودية من غير توقف وهٰذا الحديث هو عن مسروق عن عائشة رضي الله تعالى عنها وأخرج النسائي نفس الحديث عن مسروق عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت دخل عليّ عجوزتان من عجز يهود المدينة فقالتا إن أهل القبور يعذبون فى قبورهم فكذبتهما ولم أنعم أن أصدقهما فخرجتا ودخل عليّ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقالت لهٗ سائلة عنه فقال صلى الله تعالى عليه وسلم "صدقتا إنهم يعذبون عذابًا تسمعه البهائم كلها" فما رأيته صلى صلاة إلا تعوّذ من عذاب القبر انتهى(ح: ٢٠٦٧) فهٰذه هى الواقعة فى الحقيقة ولا يقال أنهما حادثتان لأن هٰذا لا يجوز؛ لأنهٔ لو كان الحديث عن مسروق عن عائشة رضي الله تعالى عنها أول وقوعا فلا يجوز وقوع

الحادثة فى الحديث عن الإمام أحمد الذى هو عن سعيد بن العاص عن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها وأيضا مع الاختلاف اليسير عن عروة عن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها لأنه ﷺ قد قال سابقا أن عذاب القبر حق فمحال أن ينكر بعدهٗ ولو الحديث عن الإمام أحمد رحمه الله تعالىٰ أول وقوعا فلا يجوز إنكار عائشة رضي الله تعالىٰ عنها فى الحديث عن مسروق عنها رضي الله تعالىٰ عنها لأنها قالت فى الحديث عن الإمام أحمد عنها أن الرسول عليه الصلوات والسلام بعد المكث أخبرهم أن عذاب القبر حق فلا يجوز إنكار عائشة رضي الله تعالىٰ عنها (بعد سمع من رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم أن عذاب القبر حق) فى الحديث عن مسروق عن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها. فثبت التعذر عن حملهما على الحادثتين المختلفتين، بل هي الحادثة الواحدة وهي كما أخرجها شيخ المحدثين الإمام البخاري رحمه الله تعالىٰ وفيها أن الرسول عليه الصلوات والسلام بادر تصديق اليهودية من غير التوقف وكيف لا! والآيات القرآنية المكّيّة قد ثبتت عذاب القبر قبل الحادثة لا محالة وأما الحديث عن الإمام أحمد رحمه الله تعالىٰ عن سعيد بن العاص عن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها فهو قد غلط فى متنه وهو فى الحقيقة الحديث عن الفتنة فى القبر وليس عن عذاب القبر، والفتنة معناها هنا الابتلاء وفى القرآن ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ (الأنبياء:٣٥) والابتلاء فى القبر سؤال منكر ونكير.

وتحقيقه أن نفس الحديث عن الإمام أحمد عن عروة عن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها أن اليهودية قالت لها وقاك الله من عذاب القبر فأنكرتها فسألت (يعنى عن عذاب القبر) رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فقال "لا" وثم قال لهم رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم بعد ذٰلك "وإنه أوحى إلىّ أنكم تفتنون فى قبوركم." (مسند أحمد، ح:٢٦٠٠٨) فآخر هٰذا الحديث يدل علىٰ أنهٗ عن فتنة القبر وليس عن عذابه وأبين منه ما أخرجه النسائي نفس الحديث عن عروة عن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها قالت دخل علىّ رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وعندى إمرأة من اليهود وهي تقول إنكم تفتنون فى القبور فارتاع رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وقال "إنما تفتن اليهود" وقالت عائشة رضي الله تعالىٰ عنها فلبثنا ليالى ثم قال رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "إنه أوحى إلىّ أنكم تفتنون فى القبور." (ح:٢٠٦٣) انتهىٰ.

وظهر أن هٰذه الحادثة هي عن فتنة القبر ورسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم كان يعلم عن عذاب القبر وثوابه ولم يعلم عن فتنة القبر التى يبتلىٰ بها المسلمون فى القبر حتىٰ أوحى إليه عنها فإذا قالت اليهودية أنكم يعنى المسلمون يفتنون فى القبر فقال صلى الله تعالىٰ عليه وسلم أنهٗ إنما اليهود يفتنون ولأنه من الجهة أن المسلم الذى يموت مسلما يعرف باليقين أن الله ربه والإسلام دينه ومحمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم نبيه وإنما الكافر الذى ينكر هذه الأشياء فيُسأل عنها ويُعذّب على

جحوده ، لكن الله عزوجل هو الحكيم فى كل شيء يفعل، وله الحكمة الكاملة فى تقرير هذا الابتلاء فى حق المسلمين أيضا ، لكن لم يوح إلى نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم عنه بعد ،فأوحى الله تعالى إلى نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم عنه فقال صلى الله تعالى عليه وسلم "قد أوحى إليّ أنكم تفتنون فى القبور قريبا من فتنة الدجال ." (سنن النسائي، ح: ٢٠٦٢) كما فى الحديث الآخر والله أعلم ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

ومن الآيات القرآنية عن عذاب القبر ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَٰئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾(الأنفال: ٥٠-٥١) ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَٰئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ (محمد:٢٧) ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَٰئِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (الأنعام:٩٣) ووجه الاستدلال بيّن وهو أن الكفار إذا احتضر وهم فى غمرا ت الموت بشرتهم الملائكة بالعذاب والنكال والأغلال والسلاسل والجحيم والحميم وغضب الرحمٰن الرحيم فتتفرق روحه فى جسده وتعصى وتأبىٰ الخروج والملائكة باسطوا أيديهم بالضرب والعذاب فيضربون وجوههم وأدبارهم حتىٰ تخرج أرواحهم من أجسادهم وهٰذا كلهٗ بمنزلة التمهيد لما وراء هم من عذاب البرزخ ويقول الملائكة لهم ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (الأنفال:٥٠) ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ (الأنعام:٩٣) وهٰذا كلهٗ يدل علىٰ عذاب البرزخ لأنهم يبشرونه بهٰذا العذاب فى نفس الوقت واليوم فيكون شروعه قبل يوم القيامة لا محالة.

التنبيه: الآية تتكلم عن غمرات الموت وهو سكراته وكرباته وفى القرآن ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (ق:١٩) أى غمرته وشدته وهي مايلاقى العبد عند الموت من شدته ويعالجها وطفق يعاين الملائكة ويكشف عنه غطائه عنده وسكرات الموت حق ثابت من القرآن والسنة والفرض اعتقادها وفى الحديث الصحيح عن عائشة رضي الله تعالىٰ عنهاأن رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم كانت بين يديه ركوة أو علبة فيها ماء فجعل يدخل يديه فى الماء فيمسح بها وجهه ويقول "لا إله إلا الله إن للموت سكرات" ثم نصب يده فجعل يقول "فى الرفيق الأعلى" حتىٰ قبض ومالت يده خرجه البخاري(ح:٦٥١٠) وأيضا قالت رضي الله تعالىٰ عنها "مات النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وإنه لبين حاقنتى وذاقنتى فلا أكره شدة الموت لأحد أبدا بعد النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم" خرجه البخاري(ح:٤٤٣٨) وأيضا قالت رضي الله تعالىٰ عنها "مارأيت أحدا أشد عليه الوجع من رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم." (صحيح البخاري، ح: ٥٦٤٦)

وهذا كلهٔ خير لحبيبنا ونبينا ورسولنا الذي فداء عليه انفسنا وأهلنا الذى هو خير الخلائق وإمام الأنبياء وسيد الكونين وزيادة فى أعظم اجره عند الله تعالى، فسكرات الموت حق ولا فرق بين مسلم وغيره فيها ولا منافاة بين هذا وبين ما ذكرنا من حديث البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه عن كيفية قبض روح المسلم "فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فىّ السقاء فيأخذها . . . ." (مسند أحمد، ح:١٨٥٣٤) لأن سكراة الموت هي شدتها التى تكون عند إياس من الحياة وحضرة الموت ومعاينة الملك ، لكن لم يبدأ القبض بعد فللمسلم هذه السكرات تكون كفارة لبعض سياته أو رفعا لدرجاته حتى إذا يبدأون القبض لروحه من جسده يصير الأمر سهلا لهٔ وما بعدهٔ أسهل وأما الكافر فهو يعالج سكراة الموت ولا يصير سهلا لهٔ عند قبض الروح، بل يكون أشدا لهٔ وما بعدهٔ أشد والله أعلم ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

ثم نحن قد ذكرنا الآيات القرآنية فى إثبات عذاب القبر والأحاديث كثيرة جدا فى هذا الباب متواترة المعنىٰ ونحن نذكر بعضا منها فمنها ماروى النسائي عن البراء رضي الله تعالى عنه قال ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ (ابراهيم:٢٧) نزلت فى عذاب القبر يقال من ربك؟ فيقول ربى الله وديني دين محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فذلك قولهٔ ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ (ابراهيم:٢٧) (سنن النسائي، ح:٢٠٥٧) وقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم "مارأيت منظرا قط إلا والقبر أفظع منه." (سنن الترمذي، ح:٢٣٠٨) وأيضا "إذامات أحدكم عرض علىٰ مقعده بالغداة والعشى (سنن النسائي، ح:٢٠٧٠) وفى رواية عرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار يقال هذا مقعدك حتىٰ تبعث يوم القيامة ." (سنن النسائي، ح:٢٠٧٢) ومنها "لولا أن تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم عذاب القبر ." (سنن النسائي، ح:٢٠٥٨) ومنها أن الرسول عليه الصلوات والسلام كان يعلم الاستعاذة من عذاب القبر ومنها " استنزهوا عن البول فإن عامة عذاب القبر منه ." (سنن الدارقطني، ح:٤٧٤) ومنها "إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفرة من حفر النار ." (سنن الترمذي، ح:٢٤٦٠) وغيرها كثيرة جدا فى هذا الباب تكفى لإثبات القطع لعذاب القبر وثوابه، والإجماع منعقد علىٰ هذا فلا يجحده إلا كافر.

ثم هناك بحوث التى لابد من بيانها وهي تشتمل على الأمور منها بيان منكر ونكير ،وإعادة الروح إلى الجسد لسؤال فى القبر، ومكان (يعنى المكان المستقل) روح المسلم والكافر فى البرزخ واتصالها مع الأبدان وضغطة القبر وكيفية المؤمن والكافر فى البرزخ ثوابا وعقابا.

منكر ونكير: فهؤلاء ملكان كما جاء فى الحديث أخرجه الترمذي قال رسول الله صلى الله

تعالى عليه وسلم "إذا قبر الميت أو قال أحدكم أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر والآخر نكير فيقولان ماكنت تقول فى هذا الرجل فيقول ماكان يقول هو عبد الله ورسولهٔ أشهد أن لا إله إلا اللّه وأشهد أن محمدا عبده ورسولهٔ. . . . . وإن كان منافقا قال سمعت الناس يقولون فقلت مثلهم لا أدرى." (سنن الترمذي، ح: ١٠٧١) وهل هذان ملكان شخصان معينان يأتيان إلى جميع الأموات أو نوع من الملائكة فيجيئان اثنان منهما إلى ميت مامن الأموات ويقال لأحدهما منكر والآخر نكير كما فى الكرام الكاتبين أنهٔ نوع من الملائكة واثنان منهم لكل عبد للنهار واثنان لليل كما ذكرناه سابقا فوالله أعلم الأحاديث تشير على أنهٔ نوع من الملائكة فيأتيان اثنان منهم إلى ميت ما فيقال لأحدهما منكر والآخر نكير لأن الأحاديث الأخرىٰ تتكلم عنهما بالنكرة ، ففى الحديث عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم "فيأتيه (إلى العبد المؤمن) ملكان فيجلسانه فيقولان لهٔ من ربك؟ فيقول ربى الله فيقولان لهٔ ما دينك؟ فيقول ديني الإسلام فيقولان لهٔ ماهذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول هو رسول الله فيقولان وما علمك؟ فيقول قرأت كتاب الله فآمنت بهٖ وصدقت . . . . ." (سنن أبى داود، ح: ٤٧٥٣) ثم نفس الحديث فى بيان الكافر يتكلم عن المنكر والنكير بصيغة النكرة "ويأتيه ملكان (إلى العبد الكافر) ويقولان لهٔ من ربك؟ فيقول هاه هاه لا أدرى فيقولان لهٔ ما دينك؟ فيقول هاه هاه لاأدرى فيقولان لهٔ ماهذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول هاه هاه لا أدرى. . . . . ." وفى رواية عن أنس رضي الله تعالى عنه "فيأتيه ملكان. . . . ." (صحيح مسلم، ح: ٢٨٧٠) وفى رواية عن جابر رضي الله تعالى عنه "جاءه ملك شديد الانتهار." (المعجم الاوسط، ح: ٩٠٧٦) وفى رواية عن أبى سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه "جاءه ملك. . . . . . ." (مسند أحمد، ح: ١١٠٠٠) وملك يرجع إلى ملكان كما فى الروايات الأخرىٰ لأن كلمة "ملك" يدل على الجنس ولا ينافى اثنين منهم وغايتنا هو أن الأحاديث فى الأكثر تتكلم عنهما بصيغة النكرة وتقتضى من مفهومها أنهٔ نوع من الملك فيأتيان اثنان منهم إلى كل ميت دون أن يكون شخصان معينان يسألان جميع الأموات نفسا ،فالمنكر والنكير نوع من الملائكة ويأتى من كلٍّ نوعين واحد إلى الميت فيسألانه عن ربه ودينه ونبيه عليه الصلوات والسلام وهذا ابتلاء هو فتنة القبر التى قد ذكرنا عنها سابقا وهذهٖ لا تختص بهذه الأمة، بل لها ولسائر الأمم الماضية فهم كانوا يُسألون عن أنبياء هم فى زمان شريعتهم ولهذا اليهود علموا بها من الكتب التى عندهم (وإن كانت محرفة) لأنهم ما كانوا مسلمين حتى علموا من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم واعتقدوا بها، وذكر هذهٖ فى كتبهم يدل على وجود فتنة القبر فى الأمم الماضية. ثم قد جاء فى الأحاديث استثناء بعض المسلمين من هذهٖ فمنها "من رابط فى سبيل الله امنه الله فتنة

القبر" رواه الطبراني(المعجم الكبير، ح: ٧٣٨٠) "مامن مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله من فتنة القبر." (سنن الترمذي، ح: ١٠٧٤) "قيل يا رسول الله! مابال المؤمنين يفتنون فى قبورهم إلا الشهيد؟ قال كفىٰ ببارقة السيوف علىٰ رأسه فتنة." (سنن النسائي، ح: ٢٠٥٣) فإذا لا يسئل هؤلاء فالأنبياء عليهم الصلوات والسلام من باب الأولىٰ ولأن السؤال هو عنهم أيضا "ماهٰذا الرجل الذى بعث فيكم؟." (سنن أبى داود، ح: ٤٧٥٣) فكيف يُسالون هٰذا السؤال؟ والصبيان غير المميزون فقد رفع عنهم القلم وهم غير مكلفون فلا يسالون وأما المميزون منهم فقد حققنا عنهم صحة إسلامهم وكفرهم وارتدادهم فلا بد من سؤالهم.

وأما المسئلة الثانية وهي إعادة الروح إلى الجسد: فهي ثابتة بلا شك وقال الإمام أبوحنيفة رحمه اللّٰه تعالىٰ فى كتابه المشهور الفقه الأكبر "وسؤال منكر ونكير حق كائن فى القبر وإعادة الروح إلىٰ جسد العبد فى قبره حق" وقدجاء ت فى هٰذه الأحاديث، منها الحديث عن البراء بن عازب رضي اللّٰه تعالىٰ عنه وفيه "أن الملائكة يصعدون بروح العبد المؤمن فيصعدون بها فلا يمرون بها يعنى علىٰ ملأ من الملائكة إلا قالوا ماهٰذه الروح الطيبة(لأنه يخرج منه كاطيب نفحة مسك وجدت علىٰ وجه الأرض) فيقولون فلان بن فلان بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا حتىٰ ينتهوا به إلى السماء الدنيا فيستفتحون لهٗ فيفتح لهٗ فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها حتىٰ ينتهي بها إلى السماء السابعة، فيقول الله اكتبوا كتاب عبدى فى عليين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرىٰ قال فتعاد روحه فى جسده فيأتيه ملكان." (مسند أحمد، ح: ١٨٥٣٤) (وعن الكافر) فيصعدون بها فلا يمرون بها علىٰ ملأ من الملائكة إلا قالوا ماهٰذه الروح الخبيثة (لأن يخرج منه كانتن ريح جيفة وجدت علىٰ وجه الأرض) فيقولون فلان بن فلان بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا حتىٰ ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيستفتح لهٗ فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ (الأعراف: ٤٠) فيقول اللّٰه اكتبوا كتابهٗ فى سجين فى الأرض السفلى فتطرح روحه ثم قرأ ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحج: ٣١) فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان(للسؤال) (مسند أحمد ح: ١٨٥٣٤)، لكن قبل هٰذه الإعادة الروح تؤخذ إلىٰ مكانها المستقل الذى ستبقى فيه إلى البعث (ونحن إن شاء الله سنذكر) ويدل عليه الحديث عن أبى هريرة رضي الله تعالىٰ عن رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم قال "إن المؤمن إذا قبض أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون أخرجى إلى روح الله، فتخرج كاطيب ريح مسك حتىٰ إنه ليناولهٗ بعضهم بعضا يشمونه حتىٰ يأتوا به باب السماء، فيقولون ماهٰذه

الريح الطيبة التى جاءت من قبل الأرض ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك حتى يأتوا به أرواح المؤمنين، فهم أشد فرحا به من أهل الغائب بغائبهم، فيقولون ما فعل فلان؟ فيقولون دعوه حتى يستريح ، فإنهٗ كان فى غم، فيقول قد مات أما أتاكم؟ فيقولون ذُهب به إلى أمه الهاوية (لأنه إذا لم يأتهم فلا يبقى إلا أنهٗ من أهل النار) وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمسح فيقولون أخرجى إلى غضب اللّٰه فتخرج كأنتن ريح جيفة فيذهب به إلى باب الأرض وفى رواية فتقول خزنة الأرض ماوجدنا ريحا أنتن من هذه فيبلغ بها الأرض السفلى وفى رواية حتى يأتون به أرواح الكافر." (صحيح ابن حبان، ح:٣٠١٤) فثبت من هذين الحديثين أن أرواح المؤمنين مجتمعة فى مكان وهو فى السماء وأرواح الكفار مجتمعة فى مكان وهو فى الأرض السفلى وهو الهاوية كما قال فى الحديث "ذهب به إلى أمه الهاوية ." (صحيح ابن حبان، ح:٣٠١٤) وأيضا أن روح العبد المؤمن تلتقى مع أرواح المؤمنين فى مكانها المستقل بين الموت والبعث أولا بعد قبضها من الجسد فتحصل على الكرامة والإعزاز وثم تعاد إلى جسدها فى القبر للسؤال جمعا بين الحديثين وروح العبد الكافر تؤخذ إلى أرواح الكفار فى مكانها المستقل بين الموت والبعث أولا بعد قبضها من الجسد فتحصل على الذلة والهوان وثم تعاد إلى جسدها فى القبر للسؤال جمعا بين الحديثين. ثم العبد المؤمن، ففى الحديث عن البراء بن عازب رضي اللّٰه تعالىٰ عنه "فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان لهٗ من ربك؟ فيقول ربى اللّٰه، فيقولان لهٗ مادينك؟ فيقول ديني الإسلام، فيقولان لهٗ ماهذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول هو رسول اللّٰه، فيقولان لهٗ وما علمك؟ فيقول قرأت كتاب اللّٰه فاٰمنت به وصدقت، فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا لهٗ بابا إلى الجنة، قال فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح لهٗ فى قبره مد بصره ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول أبشر بالذى يسرك هذا يومك الذى كنت توعد، فيقول لهٗ من أنت فوجهك الوجه الذى يأتى بالخير؟ فيقول أنا عملك الصالح، فيقول رب أقم الساعة رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى ." (مسند أحمد ، ح:١٨٥٣٤) وفى رواية عن جابر رضي اللّٰه تعالىٰ عنه عن رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم "فيقول لهٗ الملك أنظر إلى مقعدك الذى كان لك فى النار قد أنجاك اللّٰه منه وأبدلك بمقعدك الذى ترىٰ من النار مقعدك الذى ترىٰ من الجنة فيراهما كليهما فيقول المؤمن دعونى أبشر أهلى فيقال لهٗ أسكن." (مسند أحمد، ح:١٤٧٢٢) وفى رواية عن أبى هريرة رضي اللّٰه تعالىٰ عنه عن النبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم "ثم يفسح لهٗ فى قبره سبعون ذراعا فى سبعين وينور لهٗ فيه ثم يقال لهٗ نم ،فيقول أرجع إلى أهلى فأخبرهم ، فيقولون نم نومة العروس (يعنى هم ينومون باعتبار أحوال الدنيا وأرواحهم يتمتعون فى الجنة ويشاركون معها أبدانها فى الأرض مجتمعة

كانت أو متجزئة ، لكن مع ذلك عند ما يزورهم الزائر من أقاربهم عند قبورهم فيُسَلِّمون عليهم فيسمعون السلام ويردون عليه لأن أرواحهم فى الجنة متصلة مع أبدانها فى الأرض كما الشمس فى السماء وشعاعها فى الأرض وكل بخلق الله تعالىٰ وتكوينه. فافهم) الذى لا يوقظه إلا أحب أهلهٖ إليه حتىٰ يبعثه الله من مضجعه ذلك." (صحيح ابن حبان، ح:٣٠١٤) وفى رواية أخرىٰ عن أبى هريرة رضي الله تعالىٰ عنه عن النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "ويفتح لهٗ باب إلى الجنة فيقال لهٗ أنظر إلى ما أعد الله لك فيها ،فيزداد غبطة وسرورا ، ثم تجعل نسمته فى النسم الطيب (يعنى روحه مع الأرواح الطيبة) وهي طير خضر تعلق بشجرة الجنة ويعاد الجسد إلى ما بدئ من التراب وذٰلك قول الله تعالىٰ ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ (ابراهيم:٢٧) ." (صحيح ابن حبان، ح:٣١١٣) فمن هٰذه الروايات علمنا أن روح العبد المؤمن بعد الأسئلة التى هو يجيبها صحيحا يحصل من الكرامة والثواب والنعم التى جاء ت فى الأحاديث وروحه يجعل فى شكل الطائر مع أرواح المؤمنين وهي تعلق بشجر الجنة وقد جاء فى الحديث الآخر عن كعب بن مالك رضي الله تعالىٰ عنه عن رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم قال "إنما نسمة المؤمن طائر فى شجر الجنة حتىٰ يبعثه الله عزوجل إلى جسده يوم القيامة ." (سنن النسائي، ح:٢٠٧٣) ويعاد الجسد إلى ما بدئ من التراب إلا عجب الذنب كما جاء فى الحديث "ليس شيء من الإنسان إلا يبلىٰ إلا عظما واحدا وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة ." (صحيح البخاري، ح:٤٩٣٥) ، لكن يبقى تعلق الروح مع البدن وهٰذا ثابت فروح العبد المؤمن فى الجنة تعلق بشجرها مع أرواح المؤمنين الأخرىٰ وهو العليين كما جاء فى تفسير الآية ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ (المطففين:١٨) عن ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنه يعنى الجنة وعن كعب هي السماء السابعة وفيها أرواح المؤمنين والجنة فى السماء السابعة ﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ (النجم:١٤-١٥) وفى الحديث عن جنة الفردوس "وفوقها عرش الرحمٰن." (صحيح البخاري، ح:٢٧٩٠) والعرش فوق السماء السابعة وتتعلق مع بدنها فى الأرض مجتمعا كان أو متفرقا متشتتا ولهٰذا يشارك البدن مع الروح فى الثواب والنعم ولهٰذا إذاجاء واحد إلىٰ قبره ويُسَلِّم عليه فهويسمع سلامه كما ذكرنا سابقا فى بيان سماع الموتىٰ وكما يدل عليه الحديث الذى ذكرناه قريبا وفيه "نم نومة العروس الذى لايوقظه إلا أحب أهلهٖ إليه ." (مصنف عبد الرزاق، ح:٦٧٠٣) يعنى إذاجاءه يقرأ عليه السلام وهي عقيدة أهل السنة والجماعة قاطبة ونحن منهم الحمد لله أن الثواب والعقاب فى البرزخ يتعلق بالروح والبدن وليس فقط للروح وثم فى حق الأنبياء عليهم الصلوات والسلام هٰذا التعلق فى أقوىٰ أنواعه حتىٰ أجسادهم المباركة لا تأكلها الأرض فهي تبقىٰ كما هي كما جاء فى الحديث "إن الله حرم على الأرض أن تأكل

اجساد الأنبياء فنبي الله حي يرزق." (سنن ابن ماجة، ح ١٦٣٧) وأرواح الأنبياء عليهم الصلوات والسلام فى الجنة ويدل عليه الحديث (وأيضا يدل عليه الحديث عن رؤيا النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وفيه "فإذا فوقى مثل السحاب قالا جبريل وميكائيل عليهما السلام هذا منزلک إنه بقى لک عمر لم تستكمله فلو استكملت أتيت منزلک." (أخرجه البخاري، ح:١٣١٦)) "إنه لم يقبض نبي قط حتىٰ يرىٰ مقعده من الجنة ثم يخيّر." (صحيح البخاري، ح:٤٤٣٧) وهم فى الجنة فى الرفيق الأعلىٰ كما جاء فى الحديث (يعنى قال صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فى مرضه) "اللّهم فى الرفيق الأعلىٰ." (صحيح البخاري، ح:٤٤٣٧)

وفى رواية قال صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "مع الذين أنعم الله عليهم." (صحيح البخاري، ح:٤٤٣٥) وأرواحهم فى صورتهم التى هي صورتهم ويدل عليه حديث المعراج الذى ذكرناه سابقا والرسول عليه الصلوات والسلام يراهم فى صورتهم وأيضا حديث المعراج يدل علىٰ أن الأنبياء ولو كان مسكنهم فى الجنة، لكن بإجازة الله تعالىٰ يكونون فى أماكن أخرىٰ أيضا كما الرسول عليه الصلوات والسلام التقىٰ الأنبياء المختلفة عليهم الصلوات والسلام فى السمٰوات المختلفة وأيضا كما صلّى بهم فى بيت المقدس وهٰذا ثابت ولاينافى الحديث الذى فيه "فقال الرب تبارک وتعالىٰ إنه قد سبق منى أنهم إليها (إلى الدنيا) لايرجعون." (سنن الترمذي، ح:٣٠١٠) أولا لأنها قاعدة عامة فاستثنىٰ منه ماثبت بالنصوص كصاحب البقرة فى سورة البقرة ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادّٰرَءْتُمْ فِيْهَا وَاللّٰهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُوْنَ فَقُلْنَا اضْرِبُوْهُ بِبَعْضِهَا كَذٰلِكَ يُحْيِ اللّٰهُ الْمَوْتٰى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُوْنَ﴾ (البقرة:٧٢-٧٣) فليراجع التفسير وأيضا ترجع هٰذه القاعدة أن الميت لا يحصل على الفرصة الأخرىٰ أن يرجع إلى الدنيا مرة ثانية، فيؤمن ويعمل عملا صالحا، كلا! هٰذا لايكون، بل انقطعت عملهٗ بعد الموت وأيضا الرجوع إلى وجه الأرض لا يلزم الرجوع إلى الدنيا يعنى إلى أحكامه فالأنبياء عليهم الصلوات والسلام اجتمعوا فى بيت المقدس وصلوا وراء الإمام الرسول النبي محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم مع كونهم فى البرزخ لأن كونهم علىٰ وجه الأرض لا يلزم كونهم فى أحكام الدنيا يعنى كونهم فى دار الامتحان وهم قد رحلوا من دار الامتحان بالفوز والفلاح إلى دار الثواب إلا سيدنا عيسىٰ عليه السلام؛ لأنهٗ لم يتوف بعد وهو الأن فى السماء ويرجع إلى الدنيا ويقتل الدجال ويتبع ويحكم بشريعة نبينا صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وثم يتوفى ونحن نذكر عنه إن شاء الله فى المستقبل عليه الصلوات والسلام وبسبب ما ذكرنا لا بُعد أن الحديث الذى فى صحيح مسلم معناه أن الأنبياء عليهم الصلوات والسلام أرواحهم يحجون ويعتمرون؛ لأنهٗ كما ذكرنا لا يلزم الرجوع إلى الدنيا وهو هٰذا الحديث الذى أخرجه مسلم عن ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنه قال "سرنا مع رسول الله

صلى الله تعالىٰ عليه وسلم بين مكة ومدينة فمررنا بواد فقال اي واد هذا؟ فقالوا وادى الأزرق فقال كأنى أنظر إلى موسىٰ (فذكر من لونه وشعره شيئًا لم يحفظه داؤد (أحد الرواة)) واضعا اصبعيه فى أذنيه لهُ جؤار إلى الله بالتلبية ،مارا بهٰذا الوادى قال ثم سرنا حتىٰ أتينا علىٰ ثنية فقال أى ثنية هذهٖ قالوا هرشى أو لفت فقال كأنى أنظر إلى يونس علىٰ ناقة حمراء عليه جبة صوف خطام ناقته ليف خلبة مارا بهٰذا الوادى ملبيا ." (صحيح مسلم، ح:١٦٦) وقد ثبت فى الحديث أن الأنبياء عليهم الصلوات والسلام يصلون فى قبورهم "مررت ليلة أسرى بى علىٰ موسىٰ عليه السلام قائما يصلى فى قبرهٖ." (مسند أحمد، ح:١٢٢١٠) وهٰذا كل يدل علىٰ حيات الأنبياء عليهم الصلوات والسلام فى قبورهم وهو أقوىٰ أنواع حياة البرزخ وأعلٰها وقد جاء فى الحديث عن عامة المؤمنين "أنهم إذا يجلسون للسؤال مثلت لهم الشمس قد دنت للغروب فيقول دعونى أصلى فيقال لهٗ إنك ستفعل." (مصنف عبد الرزاق، ح:٦٧٠٣) وهٰذا يدل أن عامة المؤمنين أيضا يصلون فى البرزخ ، لكن والله أعلم أرواحهم يصلون وأبدانهم قد بلوا وتفرقوا أجزاء هم فيشاركون مع أرواحهم ، لكن ليس كما فى الدنيا بخلاف الأنبياء عليهم الصلوات والسلام الذين أجسادهم [1] المباركة محفوظة وثم الصلوات والعبادات فى البرزخ ليس امتحانا وتكليفا لأن دار التكليف هي الدنيا، والبرزخ أول منزل الآخرة التى هي دار الجزاء، بل هم يعبدون ربهم لأنها نعمة لهم وراحة والحمد لله رب العالمين.

وكذٰلك الشهداء نص عليهم العلماء أن أجسادهم لاتأكلها الأرض وقد يستدل لهٰذا من القرآن ﴿وَلَاتَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ قُتِلُوْا فِيْ سَبِيْلِ اللّٰهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَرَبِّهِمْ يُرْزَقُوْنَ﴾ (آل عمران:١٦٩) وقد جاء فى الحديث "إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء فنبى الله حيّ يرزق ." (سنن ابن ماجة، ح:١٦٣٧) فقال فى الحديث صلى الله تعالىٰ عليه وسلم يفهم منه أن الأنبياء عليهم الصلوات والسلام أحياء يُرزقون فلا تأكل أجسادهم الأرض ، فإذا ثبت نفس الشيء للشهداء أنهم أحياء يرزقون فثبت اقتضاء أن أجسادهم أيضا لا تأكلها الأرض والحياة للأنبياء أقوى من حياة الشهداء لا محالة لأن النبي من الأنبياء أفضل من جميع غير الأنبياء مجتمعا ، لكن للشهداء أيضا حياة قوية فى البرزخ حتىٰ لا تأكل الأرض أجسادهم فللأنبياء وللشهداء حياة برزخية فى البرزخ وكذٰلك لجميع المؤمنين علىٰ حسب درجاتهم ولاتيقن لحفظ أجسادهم يعنى لغير الأنبياء والشهداء فقد تبلىٰ ماتبلىٰ منها إلا عجب الذنب وقد يحفظ منها ما شاء الله من أن تبلى لفضيلة صاحبها من حيث العلم والتقوىٰ، وكذٰلك لجميع الكفار حياة برزخية فى البرزخ وهم معذبون وكذٰلك بعض عصاة المؤمنين يعذبون والصالحون منهم يثابون ينعمون وأجسادالكفار أيضا تبلىٰ إلا عجب الذنب ثم نحن ذكرنا أن نسمة

(١) فأجسادهم يشاركون الأرواح فى الصلوة علىٰ منوال كما كان فى الدنيا۔

المؤمن (الصالح) طائر تعلق فى شجر الجنة وللشهداء حياة أفضل منه وهو كما جاء فى الحديث فى تفسير الآية عن ﴿الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (آل عمران ١٦٩) التى ذكرناها فوقا وهو "أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاء ت ثم تأوى إلى تلك القناديل فاطلع (طبعا ليس على ظاهره لأن الله تعالى دائما يرى كل شيء فلا يكون اطلاعا منه فى ظاهر المعنى، بل والله أعلم معناه قصد إليهم للكلام معهم بكلامه الأزلي وقد بيّنا سابقا) إليهم ربهم اطلاعة فقال هل تشتهون شيئا؟ فقالوا أى شيء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا ،قالوا يا رب نريد أن ترد أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى فلما [1] رأى أن ليس لهم حاجة تركوا." (صحيح مسلم، ح:١٨٨٧) وفى رواية عن شهداء أحد أن أرواحهم فى جوف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش((سنن أبى داود، ح: ٢٥٢٠) وهذه قناديل لايلزم أنها خارج الجنة لأن العرش فوق الجنة كما جاء فى الحديث عن جنة الفردوس "وفوقها عرش الرحمن." (صحيح البخاري، ح: ٢٧٩٠) فهذه القناديل المعلقة بالعرش تكون فى الجنة فهؤلاء الأرواح تسرح من الجنة وتأكل من ثمارها وثم تأوى إلى هذه القناديل وهذا هو المعنى أنهم يرزقون وكذلك فى الحديث عن الأنبياء أنهم يرزقون وكيفية رزقهم معلومة عند الله تعالى فالفرق بين غير الشهداء من المؤمنين أن أرواحهم طائر تعلق (يعنى تأكل) فى شجر الجنة وأما الشهداء فأرواحهم فى جوف طير خضر فى الجنة، ترد أنهارها وتأكل من ثمارها وتسرح منها حيث تشاء وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش ،فلهم من الكرامة المزية على عامة المؤمنين.

ولو يقال أن هذا يشبه التناسخ وهو انتقال الروح من جسم إلى جسم آخر فالجواب بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز هو أولا هذا لايشبه التناسخ لأن أهل التناسخ لا يؤمنون بالآخرة، بل يؤمنون أن الأرواح تعود فى الدنيافى الأجسام الأخرى حياة جديدة وكون أرواح الشهداء فى جوف طير خضر فى عالم البرزخ إلى يوم البعث لا يشبه شيئا من التناسخ لا سيما إذاكانت أرواحهم متصلة بأبدانهم فى قبورهم وليست متعلقة حقيقة بأجسام هذه الطيور الخضراء فيشبه كون أرواحهم فيها كمثل كون الروح فى القناديل المعلقة بالعرش والقناديل جسم لا محالة وكون الأرواح تأوى إليها لا يكون تناسخا لأنها فى الحقيقة متصلة بأبدانها فى الأرض حتى الأبدان تشارك معها فى النعم والسرور فهكذا مثل هؤلاء الطيور الخضراء التى فى جوفها تكون أرواح الشهداء وهذا يدل على

---

(١) وهذا أيضًا ليس على الظاهر؛ لأنه يعلم كل شيء من الأزل وكذلك خالق كل شيء شاملا للشهداء وكلامهم وتمنيهم وكل شيء. فغاية هذا الحديث بيان أن كيف الله عزوجل يعطى اعزازا وكرامة للشهداء. فهو الله عزوجل يسألهم عمّا يشتهون مع علم بجوابهم.

كرامتهم وإعزازهم كأنهم جواهر فتحرز وتحفظ. وأيضا هذه الطيور كمثل المراكب والأرواح كالراكبة.

فحاصل الكلام أن الأرواح للمؤمنين فى الجنة علىٰ فرق المراتب ولها اتصال مع أبدانها محفوظة كانت أو غيرها ،فتشارك مع الأرواح فى الثواب والسرور والنعم التى تحصل عليها فى الجنة وهي أيضا تعبد اللّٰه تعالىٰ راحة وسرورا وليس امتحانا وعامة المؤمنين قد تبلى أجسادهم ولو أرواحهم تعلقون فى شجر الجنة ، لكن مع ذٰلک يسمعون السلام من يسلم عليهم عند قبورهم كماجاء فى الحديث "مامن أحد يمر بقبر أخيه المسلم كان يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه إلا ردالله عليه روحه حتىٰ يرد عليه السلام ." (تاريخ ابن عساكر، ح: ۲۵۹۱) معنى ردالله عليه روحه هو كما ذكرنا أن الأرواح متصلة بأبدانها فى الأرض فبهٰذا الاتصال تتعلق الروح إلى بدنها الذى قد سلّم عليه زائره فتسمع الروح هٰذا السلام وترد عليه السلام وعبّر هٰذا برد الروح علىٰ بدنها وهٰذا التأويل لكى يجمع ويوافق هٰذا الحديث مع الحديث أن روح المؤمن (نسمة) فى الجنة حتىٰ يبعثه اللّٰه فى جسده يوم القيامة فثبت أنها لا تبعث فى جسده إلى يوم القيامة، فرد الروح للسؤال علىٰ وجه الذى بيّنّا قبلا، فرد الروح بعده علىٰ وجه الذى ذكرنا الآن، والشهداء لا تبلى أجسادهم والأنبياء أقوىٰ حياة فى البرزخ حتىٰ لما أرواحهم يصلون فترىٰ أجسادهم المباركة يصلون فى قبورهم كما ذكرناه من الحديث الحمد لله والله يهدى من يشاء إلىٰ صراط مستقيم.

وأما الكفار (يعنى كما ذكرنا سابقا أن روحه تؤخذ إلى أرواح الكفار فى الأرض السفلى وثم تعاد إلى جسده للسؤال فبعده. . . . .) فقدجاء فى الحديث عن البراء بن عازب رضي اللّٰه تعالىٰ عنه عن النبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم "فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان لهٗ من ربک فيقول هاه هاه لا أدرى، فيقولان لهٗ مادينک؟ فيقول هاه هاه لاأدرى، فيقولان لهٗ ماهٰذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول هاه هاه لا أدرى ، فينادى مناد من السماء أن كذب عبدى (معناه لأنهٗ كان مكذّبا فى الدنيا فلم يستطع أن يجيب سؤال المنكر والنكير ، والله أعلم) فأفرشوه من النار وافتحوا لهٗ باباً إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتىٰ تختلف فيه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه،قبيح الثياب،منتن الريح، فيقول أبشر بالذى يسوءک ،هٰذا يومک الذى كنت توعد ،فيقول ومن أنت فوجهک الوجه يجىء بالشر؟ فيقول أنا عملک الخبيث ، فيقول رب لا تقم الساعة." (مسند أحمد، ح: ۱۸۵۳۴) وفى رواية أخرىٰ عن البراء بن عازب رضي اللّٰه تعالىٰ عنه لنفس الحديث وفيه "ثم يقيض لهٗ أعمىٰ ،أصم ،أبكم وفى يدهٖ مرزبة لو ضرب بها جبل لكان ترابا، فيضربه ضربة فيصير ترابا ثم يعيده اللّٰه عزوجل كما كان، فيضربه ضربة أخرىٰ فيصيح صيحة

يسمعها كل شيء إلا الثقلين." (مسند أحمد، ح: ١٨٦١٤) يعني مما يليه كماجاء مصرحا في رواية أنس بن مالك رضي الله تعالىٰ عنه عن رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وفي رواية أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه "فيقال لا دريت، فيفتح لهٗ باب إلى جهنم ثم يضرب ضربة تسمعها كل دابة (ممن يليه) إلا الثقلين (الجن والإنس) ثم يقال لهٗ نم كما ينام المنهوش، قيل لأبى هريرة رضي الله تعالىٰ عنه ما المنهوش قال رضي الله تعالىٰ عنه الذى تنهشه الدواب والحيات، ثم يضيق عليه قبره" أخرجه البزار (ح: ٩٧٦٠) وفى رواية الترمذي عن أبى هريرة رضي الله تعالىٰ عنه عن النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وإن كان منافقا قال سمعت الناس يقولون فقلت مثلهم لا أدرى فيقولان قد كنا نعلم أنك تقول هٰذا فيقال للأرض التئمي عليه فتلتئم عليه حتىٰ تختلف أضلاعه فلا يزال فيها معذبا حتىٰ يبعثه الله من مضجعه ذٰلك." (سنن الترمذي، ح: ١٠٧١) وفى رواية عن أبى سعيد الخدري رضي الله تعالىٰ عنه عن رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "فيقول (الملك) لا دريت ولا تليت ولا اهتديت، ثم يفتح لهٗ بابا إلى الجنة فيقول لهٗ هٰذا منزلك لو امنت بربك، فأما إذ كفرت به فإن الله عزوجل أبدلك به هٰذا فيفتح لهٗ بابا إلى النار ثم يقمعه قمعة بالمطراق، فيصيح صيحة يسمعها خلق الله عزوجل كلهم (ممن يليه) غير الثقلين." (مسند أحمد: ١١٠٠٠) فالأن إن شاء الله نلاحظ جميع هٰذه الروايات مجتمعة حتىٰ إن شاء الله العزيز نصل إلى نتيجة صحيحة فنحن علمنا من الحديث الذى ذكرنا سابقا أن أرواح الكفار فى الأرض السفلى فأولا بعد قبض الروح روح الكافر تؤخذ إلى هٰذا المكان وثم تعاد إلى جسده فعند ما الحديث يخبر أنها تؤخذ إلى أرواح الكفار فى الأرض السفلى علمنا أن هٰذا هو مكانها إلى يوم البعث ،فبعد إعادة الروح إلى الجسد فى القبر وبعد السؤال الذى فيه يخسر الكافر روح الكافر تؤخذ إلى الأرض السفلى وتبقى هناك معذبا إلى يوم القيامة وهٰذا المكان هو الهاوية كما جاء فى نفس الحديث أن أرواح المؤمنين قالوا عن روح الميت التى لم يؤت بها إليهم "ذهب به إلى أمه الهاوية." (سنن النسائي، ح:١٨٣٣) والهاوية اسم لجهنم كما جاء فى تفسير الآية ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ (القارعة:٨-١١) وأيضا عن ال فرعون ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَّعَشِيًّا وَّيَوْمَ تَقُوْمُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوْا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (المؤمن:٤٦) فثبت أنهٗ كما أرواح المؤمنين تكون فى الجنة فى عالم البرزخ فأرواح الكفار تكون فى جهنم فى عالم البرزخ وهو أيضا سجين كما جاء فى تفسير الآية فى الأثر الذى، والله أعلم بصحته ،روي عن أبى هريرة رضي الله تعالىٰ عنه عن النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "سجين جب فى جهنم وهو مفتوح." (تفسير القرطبي: ج: ١٩،ص:٢٥٨) وعن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم "سجين أسفل الأرض السابعة." (تفسير القرطبي: ج: ١٩،ص: ٢٥٨) وروي عن ابن عباس

رضي الله تعالى عنه عن روح الكافر "ثم هبطوا به إلى الأرض السابعة وهي سجين." (تفسير قرطبي: ج: ۱۹، ص: ۲۵۷) وروى هذا عن كعب الأحبار هكذا أيضا كلهٔ فى تفسير الآية ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ (المطففين: ٧) وإن قيل أن الآيات ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ (المطففين: ٨-٩) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ (المطففين: ١٩-٢٠) تدل على أن السجين والعليين كتاب مرقوم وأنت تقول أنهما إسم لمكان أرواح المؤمنين والكفار، قلنا بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز أولا لا منع فى اشتراک الاسم وثانيا جاء فى تفسير أن "كتاب مرقوم" ليس تفسيرا لقوله تعالى "وما أدراک ما سجين" "وما ادراک ماعليون"، بل هاتان جملتان لتفخيم أمرهما واهميتهما و"كتاب مرقوم" هو تفسير لما كتب لهم من المصير إلى سجين أو عليين أى مرقوم مكتوب مفروغ منه لا يزاد فيه أحد ولا ينقص منه أحد قالهٔ محمد بن كعب القرظي ويدل عليه أيضا الحديث عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وفيه عن روح الكافر "فيقول الله أكتبوا كتابهٔ فى سجين فى الأرض السفلى." (مسند أحمد، ح: ١٨٥٣٤) ومع هذا يبقى اتصال الروح مع بدن الكافر الذى فى قبره وقد ذكر العلماء أن روح الكافر فى جوف طير سود تحت الأرض السابعة يعنى فى جهنم وهي متصلة بأجسادها فى الأرض، وهذا قدجاء فى الأثر عن عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه "أن أرواح ال فرعون (وفرعون) فى أجواف طيور سود تغدو على جهنم وتروح عليها فذلک عرضها." (تفسير القرطبي: ج: ١٥، ص: ٣١٩) يعنى هم يعرضون على النار غدوا وعشياوهذا ليس مقصورا فيهم، بل قدجاء فى الحديث "إن أحدكم إذامات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النارفيقال هذا مقعدک حتى يبعثک الله عزوجل إليه يوم القيامة." (صحيح ابن حبان، ح: ٣١٣٠) وفى رواية "إذامات أحدكم عرض على مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار يقال هذا مقعدک حتى يبعثک الله يوم القيامة." (سنن النسائي: ٢٠٧٢) والجمع بين اختلاف العبارة بين الحديثين هو (والله أعلم) أن الحديث الأول يتكلم بيان ما يكون على البدن فى القبر، فلهذا قال "عرض عليه مقعده. . . ." وأيضا "حتى يبعثک الله إليه يوم القيامة" وهذا يحصل للبدن لما روحه عرضت على مقعده وبيانه فى حديث الثانى، فلهذا قال فيه: "عرض على مقعده" يعنى الروح التى إما فى الجنة أو إما فى النار ولهذا قال فى آخره: "حتى يبعثک الله عزوجل يوم القيامة" يعنى حتى يوم البعث يكون هذا مقعده يعنى الجنة أو النار، والأرواح فى واحد منهما فى عالم البرزخ فتعرض على مقعدها فى واحد منهما الذى هي فيه، ولهذا قال "هذا مقعدک حتى يبعثک الله يوم القيامة" لأنها عينها موجودة فى الجنة أو فى النار من

قبل ومع ذلك تعرض على مقعدها في الجنة أو في النار غدوا وعشيا وهذا الحديث يدل على كون الأرواح في الجنة أو في النار وعرضها على مقعدها بالغداة والعشي واتصالها مع أبدانها في هذا الأرض حتى يشارك البدن مع روحه في هذا العرض في الوجه المذكور في الحديثين والله أعلم ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. ثم هذا العرض مع أنواع العذاب أوالثواب الأخرى التي ذكرت في النصوص وقد مر بيان الثواب وأما العذاب فنحن قد ذكرنا الأحاديث وفيها أنه يضيق عليه قبره وتلتئم عليه الأرض حتى تختلف أضلاعه وتنهشه الدواب والحيات وأفرش له من النار وفتح له بابا إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها وغيرها من أنواع العذاب ونحن إن شاء الله نذكر كيفيتها في قريب وجميع هذا العذاب يكون على الروح والجسد كما الثواب يكون على الروح والجسد وهذا كما ذكرنا أنه بعد السؤال، روح المؤمن يكون في الجنة وروح العبد الكافر يكون في النار (جهنم) و لكن تتصل الأرواح مع أبدانها كما الشمس في السماء وشعاعها في الأرض فتتاب الأرواح أو تعذب وتتألم الأجساد منه وتشاركها في العذاب أو الثواب كما يدل عليه الأحاديث ونحن ذكرنا نبذة منها وسنذكره مزيدا إن شاء الله العزيز ، الآن لو تسأل أن القرآن الكريم يقول ﴿كَيْفَ تَكْفُرُوْنَ بِاللّٰهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُوْنَ﴾ (البقرة:٢٨) و ﴿قَالُوْا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلٰى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيْلٍ﴾ (المؤمن:١١) وتفسير هاتين الآيتين كما جاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه أنكم كنتم ترابا قبل أن يخلقكم فهذه ميتة ثم أحياكم فخلقكم فهذه حياة ثم يميتكم فترجعون إلى القبور فهذه مِيتَة أخرى ، ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة أخرى فهاتان ميتتان وحياتان، انتهى. وأنتم تقولون أن الروح تعاد في الجسد بعد الموت من هذه الحيوة الدنيا للسؤال في القبر وثم تخرج وتوضع في الجنة أو النار فعلى هذا، هذه تكون حياة ثالثة وميتة ثالثة فتناقض هاتين الآيتين اللتين تدلان أنه لا حياة بعد الموت من الحياة الدنيا إلى أن يبعثون ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُوْنَ﴾ (البقرة:٢٨) فكيف تطابقون إعادة الروح في الجسد للسؤال مع هاتين الآيتين؟ فقلنا أن الجواب بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز هو أن القرآن أيضا يقول ﴿اَللّٰهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِيْنَ مَوْتِهَا وَالَّتِيْ لَمْ تَمُتْ فِيْ مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِيْ قَضٰى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرٰى إِلٰى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ (الزمر:٤٢) فإذا كان إخراج النفس (الروح) من البدن وإدخالها فيه هو الإحياء والإماتة المذكورة في الآيتين التي ذكرتا فعلى هذا تكون للإنسان آلاف من الحيوة والموت؛ لأنه ينام ويستيقظ كل يوم وهذه الآية التي ذكرنا تخبر أن الله يأخذ أرواح النائمين وثم يرسلها يعني عند الاستيقاظ فما جوابكم لهذا؟ فنقول كما إدخال الروح عند الاستيقاظ وإخراجها عند النوم لا يستلزم الإحياء والإماتة، بل النائم والمستيقظ يعتبر كائنا في نفس الحيوة الدنيوية التي هي واحدة؛ لأن أخذ الروح في النوم

وإرسالها عند الاستيقاظ ليس على وجه الذى هو في الإحياء والإماتة ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ (الزمر: ٤٢) فيعنى هو أخذ الروح، لكن ليس على وجه الإماتة فكذلك إدخال الروح فى الجسد فى القبر للسؤال وإخراجها بعدهُ لا يعتبر الإماتة والإحياء لأنهما ليسا على وجههما، بل يعتبر هذا الميت المسئول ميتا وفى نفس الموت الذى بين الحيوٰة الدنيا إلى البعث فعلى هذا لامنافاة بين إعادة الروح فى الجسد لأجل السؤال وبين هاتين الأيتين المذكورتين فى اعتراضكم، فافهم، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

وأما ضغطة القبر فقد مر ذكرها وهو كما ذكرنا من الأحاديث عن عذاب القبر من التئام الأرض عليه واختلاف أضلاعه وفى رواية أن القبر "فيلتئم عليه حتى يلتقى عليه وتختلف أضلاعه قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بأصابعه فأدخل بعضها فى جوف بعض" أخرجه الترمذي عن أبى سعيد عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم انتهى. (ح: ٢٤٦٠) وقال أبوحنيفة رحمه الله تعالى "وضغطة القبر وعذابه حق كائن للكفار كلهم ولبعض عصاة المؤمنين" الفقه الأكبر. وقد جاء فى الحديث أن الرسول عليه الصلوات والسلام قال عن المؤمن "إن للقبر ضغطة [1] لو نجا منها أحد لنجا منها سعد بن معاذ". (مسند أحمد، ح: ٢٤٢٨٣) "هذا [2] الذى تحرك لهُ العرش وفتحت لهُ أبواب السماء وشهده سبعون ألفا من الملائكة لقد ضم ضمة ثم فرج عنه." (سنن النسائي، ح: ٢٠٥٥) والله أعلم عن هذه الضمة (ولا تؤخذ هذه الضمة كمثل مافى حق الكافر من التئام الأرض عليه واختلاف أضلاعه بسببه قطعا و بتاتا وكيف؟ هذا كافر وهذا العبد المؤمن من أعلى الدرجات كما يدل عليه الحديث وفى القرآن ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (الجاثية: ٢١)، وهذا أيضا لا ينقص من شأنه الذى حاصل لهُ كما يدل عليه الحديث بتحرك العرش لهُ وفتح أبواب السماء وشهوده سبعون ألفا من الملائكة فكأنهُ هذه الضمة لوقت قليل كفارة لجميع زلاته فى الحيوٰة الدنيا ولم تبق إلا الكرامة والإعزاز والنعم والثواب لهُ رضى لله تعالى عنه وما ذكرنا من الفقه الأكبر عن ضغطة القبر وعذابه لبعض عصاة المؤمنين يأتى بنا فى كلام عن عصاة المؤمنين فى حق البرزخ فعصاة المؤمنين فى البرزخ لا يكون حالهم كحال الكفار لأنهم مسلمون مؤمنون ولا يكون حالهم كصالحين من المؤمنين لأنهم العصاة والفساق فعلى هذا يكون حالهم بين بين، فأولا لو كان المؤمن

---

(١) وظاهر الحديث يقتضى أن تكون هذه لجميع المؤمنين (والله أعلم عن الأنبياء عليهم الصلوات والسلام) ولهذا قال بعض العلماء أن هذه الضغطة فى حق المؤمن الصالح كمثل المعانقة للأم بأولادها فرحا.

(٢) يعنى سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه

العاصي يغفر لهٗ من عند اللّٰه لأن مادون الكفر والشرك فاللّٰه عزوجل يغفرها لمن يشاء ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (النساء:٤٨) فلو غفر لهٗ يلتحق حالهٗ بالمؤمنين غير العصاة وإلا كما ذكرنا يكون حالهٗ بين المؤمن الصالح والكافر الفاجر ونحن نرىٰ فى الأحاديث أنها تقارن حال المؤمن مع حال الكافر أو المنافق وتأتى فى بعض الروايات الكلمات مثل "الرجل السوء" و "الفاجر" ، لٰكن كلها راجعة إلى الكافر أو المنافق الذى هو أيضا كافر ،لأن الأحاديث الأخرىٰ والروايات الأخرىٰ المستفيضة تفسرها وأيضا لأن هٰذا الرجل السوء والفاجر لا يستطيع أن يجيب السؤال فى القبر عن اللّٰه تعالىٰ ومحمد صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم والإسلام وهٰذا لا يتصور من المؤمن ونو كان عاصيا لأن عدم الإدراك والعلم عن هٰذه الأسئلة يوجب الكفر لا محالة وأما المؤمن فى هٰذه الأحاديث فهو المؤمن الصالح لا محالة لما ذكرت هٰذه الأحاديث من الإنعام والثواب والكرامة لهٰذا المؤمن الذى لا يكون للمؤمن العاصى حتىٰ يطهر من ذنوبه بالعقوبة أو بالمغفرة، ولهٰذا قد جاء فى الأحاديث تعذيب الميت بالأسباب دون الكفروالشرك فمنها "استنزهوا من البول فإن عامة عذاب القبر منه" رواه الدارقطنى(ح: ٤٦٤) وفى الحديث أن الرسول عليه الصلوات والسلام مربقبرين فقال "إنهما يعذبان، وما يعذبان فى كبير" ثم قال "بلى (واللّٰه أعلم وقد يكون معنى الحديث أنهما لا يعذبان فى الأشياء التى هي كبيرة كمثل الشرك والكفر، لكن هي كبيرة باعتبار قسمين للإثم صغيرة وكبيرة أو على الوجه الآخر ليست كبيرة كمثل الزنا وشرب الخمر، بل هي من الأشياء التى قد يقع فيها الشخص الذى يعتبر صالحا فى ظاهر الحال ، لكن هي كبيرة فى نفسها) أما أحدهما فكان يسعى بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله ." (سنن الترمذي: ح: ٧٠) وأيضا الحديث الطويل الذى أخرجه البخاري عن رؤيا النبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم وفيه "الرجل الذى يثلغ رأسه بالحجر وهو الرجل يأخذ القرآن ويرفضه(صحيح البخاري، ح:٧٠٤٧) (وإن قيل أن رفض القرآن كفر فلا يكون هٰذا "المؤمن العاصى"، بل "الكافر" ،قلنا قد يكون رفض القرآن فى الحديث على المعنى عدم امتثال أوامره مع الإيمان به ويدل عليه ألفاظ الحديث "يأخذ القرآن" وأيضا "ينام عن الصلوٰة المكتوبة" لأن الكافر لا يأخذ القرآن ولا يؤمن بالصلوات على الإطلاق فلا يلائم هٰذا البيان عنه والكافر يعذب علىٰ عدم الاعتقاد وعدم الاعتبار وعدم الامتثال بالإسلام بالكلية ويدل عليه رواية أخرىٰ عن نفس الحديث وفيه "فرجل علمه اللّٰه القرآن فنام عنه [1] بالليل ولم يعمل فيه بالنهار والرجل الذى يشرشر شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه ، فإنهٗ الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الأفاق وأما الرجال والنساء العراة الذى

(١) ومعناه ينام عن الصلوٰة المكتوبة كما فى الرواية الأخرى واللّٰه أعلم ـ

فى مثل بناء التنور فهم الزناة والزوانى والرجل يسبح فى النهر ويلقم الحجارة ، فإنهٔ آكل الربا." (صحيح بخارى: ح:٧٠٤٧) ومنها الحديث عن صلاة الكسوف وفيه "عرضت عليّ النار ،فرأيت فيها إمرأة من بنى إسرائيل تعذب فى هرة لها ،ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض وحتٰى رأيت فيها صاحب المحجن يجرّ قصبه فى النار، كان يسرق الحاج بمحجنه فإن فطن لهٔ قال إنما تعلق بمحجنى وإن غفل عنه ذهب به(صحيح مسلم: ح ٩٠٤) فعلمنا من هٰذه الأحاديث أن الناس يعذبون فى البرزخ فى النار (جهنم) فى الأثام التى هي دون الكفر والشرك كما الكفار يعذبون فى جهنم ،فعلمنا أن أرواح عصاة المؤمنين تكون فى الأرض السفلى فى الهاوية التى هي جهنم وسجين و يعذبون هناك وهٰذا لا بعد فيه قطعا لأن المعلوم أن فى الآخرة بعد الحساب تكون [1] عصاة المؤمنين فى جهنم لمدة ما لتطهيرهم من الأثام والذنوب ولعقوبتهم عليها حتٰى يطهرون وثم يدخلون الجنة فلا بعد كونهم فى جهنم للتعذيب فى الحياة البرزخية فعلٰى هٰذا لا يفتح لهم باب السماء فى أول الوهلة بعد قبض الروح كما لا يفتح للكفار ، لكن للكفار لا يفتح لهم أبدا ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (الأعراف:٤٠-٤١) ، لٰكن لعصاة المؤمنين سيفتح لهم أبواب السماء فى يوم من الأيام إما بعد التعذيب فى البرزخ حتٰى يطهروا وينقطع عنهم العذاب برحمة اللّٰه فيجعل روحهم مع المؤمنين الصالحين فى الجنة وكذٰلك إما بعد عذاب ما، يغفر اللّٰه لهم ويدخل روحهم فى الجنة التى فى السماء ويدل عليه نفس الحديث عن الرؤيا للنبي صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم وفيه "فانتهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة فأتينا، باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا فدخلناها فتلقانا فيها رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء وشطر كأقبح ما أنت راء قال قالا لهم اذهبوا افقعوا فى ذٰلك النهر قال فإذا نهر معترض يجرى كأن ماء ه المحض من البياض فذهبوا فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذٰلك السوء عنهم فصاروا فى أحسن صورة وهؤلاء خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا تجاوز اللّٰه عنهم ." (صحيح البخاري، ح: ٤٦٧٤) أو بعضهم يعذبون فى البرزخ إلى يوم القيامة وثم يدخلون الجنة فى الآخرة بعد الحساب أو حتٰى بعد الحساب يعذبون فى جهنم لمدة وثم فى الأخير يدخلون الجنة ففتح باب السماء يحصل لهم قطعا فى يوم ما بخلاف الكفار الذين ليس لهم فتح باب السماء إلى أبد الأبدين.

وأما السؤال فى القبر يعنى كيف إجابتهم له فهو كما ذكرنا أنهٔ لا يتصور من المؤمن ولو كان

(١) الا من غفر اللّٰه منهم

عاصيا أن يغلط فى جواب هٰذه الأسئلة التى هي من الضرورات الدينية ولا يكون مسلم مسلما إلا بهٰذا فالمؤمن العاصى يجيب هٰذه الأسئلة صحيحا حتىٰ يفرق من الكفار والمنافقين وحتىٰ يتبين أنهٗ مؤمن وكيف لا؟ والمعلوم أن المؤمن العاصى يدخل الجنة برحمة اللّٰه فى الأخير لأبد الأبدين وأيضا لو لا يجيب هٰذه الأسئلة صحيحا فكيف يبقى مؤمنا بعدهٗ؟ ولو قال أنهٗ لا يدرى أو أنهٗ قال شيئًا فى الدنيا فقط حكاية للناس وليس على اليقين فكيف يكون مؤمنا؟، بل هٰذا الأمر يليق بالكفار والمنافقين فقط ويشمل من كان مؤمنا على الظاهر فى الدنيا ، لكن كان كافرا فى الحقيقة بسبب الاستهزاء أو الاستخفاف لدين اللّٰه تعالىٰ الذى لم يعرفه الناس منه أو بسبب إنكار ماهو معلوم من الدين ضرورة أو ما ثبت قطعا من النبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم وهو أنكره بعد الاطلاع علىٰ ثبوته بالقطع والناس لم يكونوا يعرفون هٰذا منه فكانوا يأخذونه مسلما وهو عند اللّٰه كان كافرا فهؤلاء الذين لا يثبتهم اللّٰه عند هٰذا السؤال ويسلب منهم الاستطاعة أن يجيب صحيحا كما للمنافقين وكذٰلك من كانوا مؤمنين فى ظاهر الأحوال عند الناس وحتىٰ عند أنفسهم لأنهم مع الاستخفاف بالدين الإسلام كانوا يعتبرون أنفسهم مؤمنين ، لٰكن هٰذا لا يفيدهم كما لا يفيد من أنكر شيئًا معلوما من الدين ومع ذٰلك يعتبر نفسه مؤمنا كما قال اللّٰه تعالىٰ فى القرآن ﴿فَرِيْقًا هَدٰى وَفَرِيْقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوْا الشَّيٰطِيْنَ أَوْلِيَآءَ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ وَيَحْسَبُوْنَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُوْنَ﴾ (الأعراف:٣٠) وأيضا ﴿اَلَّذِيْنَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُوْنَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُوْنَ صُنْعًا أُولٰئِكَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهٖ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيْمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ (الكهف:١٠٤-١٠٥) فهؤلاء الناس فى الحيوٰة الدنيا كانوا يستطيعون أن يجيبوا هٰذه الأسئلة فى الحيوٰة الدنيا صحيحا علىٰ وجه النفاق أو علىٰ وجه أنهم يعتقدون بهٰذا ، لكن لم يفدهم بسبب إنكارهم بعض ماهو معلوما من الدين أو استخفافه، فلا يفيدهم زعمهم أنهم يتدينون بدين الإسلام مع جحود بعضه عنادا أو تأويلا أو استخفافا، ففى القبر لا يثبتهم اللّٰه ويسلب منهم الاستطاعة حتىٰ يظهر كفرهم علانية كان أو نفاقا أو زندقة وتأويلا كلها سواء فى نفس الكفر وأما من كان مؤمنا صحيحا حقيقة ولو عاصيا ومات على الإيمان فيجيب هٰذا السؤال فى القبر صحيحا ضرورة حتىٰ يظهر إيمانه وأنه ليس كافرا ، لكن مع ذٰلك لا يكون حالهٗ كحال المؤمن الصالح، بل لا بد من العقوبة إن لم يغفر اللّٰه ذنوبه فهو واللّٰه أعلم يُخبر أنهٗ يكون فى الجنة فى الأخير ويُعرض عليه مقعده منها ، لكن مع ذٰلك يُعرض عليه مقعده من النار الذى يصير إليه بعد الحساب فى الآخرة للعقوبة المزيدة قبل دخول الجنة وهٰذا علىٰ تقدير أن العقوبة فى البرزخ لا تُطهره من ذنوبه بالكلية وإلا لا حاجة لهٰذا؛ لأنهٗ سيطهر بالعقوبة البرزخية فيدخل الجنة بعد الحساب يوم القيامة بدون الدخول فى النار وروحه كما ذكرنا تُعذب فى الهاوية التى هي جهنم ويُفتح لهٗ فى قبره

باب منها فيُعذب الروح والجسم معها فيكون حالهٗ كما ذكرنا بين الكفار والمنافق وبين المؤمن الصالح وهٰذا لا نعنى به أنهٗ بمنزلة بين المنزلتين كما يقول المعتزلة الذين يعتقدون أن العاصى غير الكافر ليس مؤمنا بل بين المؤمن والكافر ويخلد فى النار، نحن لا نقول بهٰذا القول الباطل وقد بيّنا بطلانه، بل هٰذا العاصى غير الكافر فهو مؤمن وليس بين المؤمن والكافر، لكن هو عاصى فيُعذب فيكون حالهٗ فى تعذيبه بين المؤمن الصالح وبين الكافر حتٰى يطهر ويكون مع المؤمن الصالح فى الجنة والله أعلم ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

وأما كيفية العذاب والثواب فى البرزخ فما ذكرنا من الأحاديث فيها بيانها فلا حاجة لإعادتها إلا بقى شرح بعض الأمور فأوّلا أنهٗ قد جاء فى الحديث أن العبد الكافر بعد ما خسر فى السؤال فى القبر "ثم يقيض لهٗ أعمىٰ، أصم، أبكم وفى يدهٖ مرزبة لو ضرب بها جبل لكان ترابا فيضربه ضربة فيصير ترابا ثم يعيده الله عزوجل كما كان فيضربه ضربة أخرىٰ فيصيح صيحة يسمعها كل شيء (مما يليه كما فى رواية أخرىٰ) إلا الثقلين (الجن والإنس) (مسند أحمد، ح: ١٨٦١٤) انتهى.

فوالله أعلم جمعا بين هٰذا الحديث والحديث الذى يخبر أن أرواح الكفار فى الهاوية هوأن بعد إعادة روح الكافر فى الجسد للسؤال فى القبر الذى هو يخسر فيه يُضرب الضربة الأولىٰ من هٰذا الملك وعندها تخرج روحه وتصير جسده ترابا (إلا عجب الذنب كما فى رواية أخرىٰ التى ذكرنا قبلا) وثم هٰذا الروح تجعل مع أرواح الكفار فى الأرض السفلى فى الهاوية ويدل عليه الحديث الذى فيه "ثم يضرب ضربة (و هٰذهٖ ضربة أولىٰ) تسمعها كل دابة إلا الثقلين ثم يقال لهٗ نم كما ينام المنهوش (الذى تنهشه الدواب والحيات) ثم يضيق عليه قبره" وهٰذا الحديث يدل أنهٗ بعد الضربة الأولىٰ يصير نائما معذبا فيعنى روحه تجعل مع أرواح الكفار وتعذب ويبقى اتصالها مع بدنها فيعذب معها فعلىٰ هٰذا ماجاء فى رواية أنه بعد الضربة الأولىٰ يصير ترابا وثم تعاد فيه الروح، يكون المعنى لهٰذه الإعادة الثانية اتصالها مع البدن وليس دخولها فيه جمعا بين الأحاديث كما ذكرنا نفس التأويل فى حق روح المؤمن وردها إلى بدنه عند ما يزوره الزائر عند قبرهٖ ويسلّم عليه وقد مرّ بيان هٰذا. فجمعا بين الأحاديث نقول بعد الضربة الأولىٰ تجعل روح الكافر فى جهنم معذبا متصلا مع بدنها وهٰذا هو الإعادة للروح فيه بعد صيرورته ترابا فتعذب الروح وتضرب فى الهاوية متصلا مع بدنها فى القبر فيعذبان معا ومعنى الجملة "فيضربه ضربة فيصير ترابا ثم يعيده الله عزوجل كما كان" والله أعلم هو أن الجسد يصير ترابا عند ما ضُرب فى المرة الأولىٰ مع الروح فيه وبعدها لما ضرب بسبب اتصاله مع روحه التى تضرب فى الهاوية فالروح تعذب فى الهاوية ويتأثر الجسد فى القبر.

لو تسأل أنك قلت إن الجسد يصير ترابا لتأثره بضرب روحه فما هو حال الروح؟ (يعنى

المعلوم أنها تتألم ، لكن هل تجرح أو شيء هكذا؟ قلنا بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز أن الحديث عن رؤيا النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم الذى رأى فيه عذاب البرزخ وفيه أنهم يعذبون مثلا الرجل الذى يُثلغ رأسه بالحجر فبعد الثلغ يصح رأسه كما كان فيُثلغ مرة ثانية وكذلك إلى يوم القيامة وهذا كله فى الحديث والمعلوم أن الجسد فى القبر يبلى إلا ماهو المستثنىٰ منه حسب النصوص فلا بُعد أن هذه المشاهدة لتعذيب هؤلاء فى حديث الرؤيا للنبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم كانت للأرواح فعلىٰ هذا نقول أن الروح بالتعذيب والضرب أيضا تجرح وتصير مفتتا كالتراب ، لكن ليس كما يفعل الجسد، بل بكيفية يعلمها الله تعالىٰ ولأن الجسد أصلهٗ تراب وأما الروح فحقيقتها معلومة عند الله ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (بنى إسرائيل:٨٥) ، لكن كما ذكرنا سابقا أن النصوص تدل علىٰ أنها ذوصفات الأجسام فهي جسم لطيف عند أهل السنة والجماعة ولأيضا أحوال البرزخ هى بالعكس علىٰ أحوال الدنيا ، ففى الحيٰوة الدنيا الجسد يُضرب مباشرة وتتألم الروح بسببه وأحوال البرزخ تكون مباشرة على الروح والجسد يتبعها فيها ومعنى جملة الحديث "ثم يعيده الله عزوجل كما كان" وهو كما فى حديث الرؤيا أنهٗ يصح رأسه ويثلغ مرة أخرىٰ وهلم جرا فالروح تصح وتعود إلى حالتها وتُعذب مرة أخرىٰ والجسد يعاد كما هو بعد ما بلى ما قد بلى منه ويعذب مرة بعد مرة مع روحه المعذبة وهذه الجملة (والله أعلم) قد تخبر عن الأشياء الأخرىٰ وهو كما نرىٰ من الحديث أن الجسد يعذب ويعاد إلى حاله الذى هو فيه بعد البلى فعلىٰ هذا لو واحد ينبش قبر هذا المعذب فيحتمل أن الله عزوجل يعيده إلى حاله المعتاد الذى يكون الجسد فيه بعد ما بلى منه ما قد بلى وما بقي منه ما قد بقي حتىٰ لا يتأثر تكليفه علينا بالإيمان بالغيب كما هو الله عزوجل لا يُسمعنا (الإنس والجن) من عذاب القبر والخلق الأخرى تسمعه لأنها غير مكلفة وكل هذا يحتمل والله علىٰ كل شيء قدير وأيضا هو القادر علىٰ أن النابش يرىٰ الجسد المعذب علىٰ وجه المعتاد ، لكن فى الحقيقة هو تحت التعذيب ويصير ترابا ويعاد ويستمر علىٰ هذا لأن رؤيتنا بخلق الله تعالىٰ فما هو يخلق فى أبصارنا نحن نراه فهو القادر أن يخلق فى عين النابش رؤية الجسد المعتاد والحقيقة هي شيء أخرىٰ كما فى القرآن ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (الأنفال:٤٤) وهذا فى غزوة البدر والله علىٰ كل شيء قدير وهذا ما ذكرنا يجيب خرافات المعتزلة والرافضة الذين منهم ينكرون عذاب القبر بسبب عدم مشاهدته فقط ويقولون أننا نرىٰ المصلوب فى الهواء أو الجسد غير المقبور ولا يُفعل به أى شيء وهذا منهم سفاهة عظيمة أليس نحن لا نرىٰ الملائكة والجان؟ ، لكن المعلوم من الدين بالضرورة أنهما موجودان ونحن لا نراهما لأن الله لم يخلق لنا رؤيتهما وعذاب القبر أيضا معلوم من

الدين بالضرورة ونحن لا نشاهده لأن اللّٰه تعالىٰ لم يخلق لنا مشاهدته كما هو أرى المسلمين عدد الكافرين علىٰ خلاف الحقيقة وكما هو لايخلق لنا سماع عذاب القبر خلاف الخلق الأخرىٰ فالمصلوب فى الهواء والجسد غير المقبور كلهم يعاد إليهم الروح للسؤال ويسألون ويثابون أو يعاقبون ونحن لا نرىٰ هذه الأشياء لأن اللّٰه تعالىٰ لايخلق لنا رؤيتها ولأننا مكلفون بالإيمان بالغيب ولو تظهر لنا كل هٰذه الحقائق لقد انكشف عن الغطاء ولا يبقى الإيمان بالغيب وعلىٰ هٰذا لو الجسد يؤكل من السباع أو يحرق ويذرى رماده فى الهواء كلهم يُسألون ويثابون أو يعاقبون وأيضا قد يخبر هٰذا الحديث عن أحوال هؤلاء وهو عن الرجل من الأمم الماضية كان لم يبتئر عند اللّٰه خيرا فلما حضر قال لبنيه "إذا مت فأحرقونى حتىٰ إذا صرت فحما فاسحقونى أو قال فاسهكونى ثم إذا كان ريح عاصف فأذرونى فيها"وهو فعل هٰذا؛ لأنهٗ كان يظن ظنا غالبا أن اللّٰه يعذبه ففعل ما فعل من شدة الخوف [1] من اللّٰه تعالىٰ فبنوه فعلوا بهٖ بعد موته كما قال لهم أن يفعلوا بهٖ فجمعه اللّٰه تعالىٰ فأمر البر فجمع ما فيه وأمر البحر فجمع ما فيه ثم قال لم فعلت هٰذا؟ قال من خشيتك يارب وأنت أعلم فغفر اللّٰه لهٗ انتهىٰ. (صحيح مسلم: ٢٧٥٦) فقد يدل هٰذا الحديث أن الجسد المأكول من السباع أو المذرى فى الهواء، اللّٰه عزوجل يجمعه ويعيد فيه الروح للسؤال فى أى مكان يشاء وثم يعاد الروح إلى الجنة أو النار ويعاد الجسد كما هو كان يعنى المأكول فى بطن السبع أو المذرى فى الهواء ويبقى تعلق الروح مع هٰذه الأجزاء فتشارك مع الروح فى الثواب أو العقاب حتىٰ يجمعه اللّٰه ويبعثه يوم القيامة أو يبقى الجسد فى البطن مأكولا وكذٰلك المذرى فى الهواء مذريًا ومع ذٰلك يعاد فيه الروح ويسأل ويثاب أو يعاقب بكيفية يعلمها اللّٰه تعالىٰ وكل ذٰلك ممكن فى قدرة اللّٰه تعالىٰ؛ لأنهٗ علىٰ كل شيء قدير ونحن نؤمن بكل ماجاء فى القرآن والسنة علىٰ وجه يؤمنون بهٖ أهل الإسلام أهل السنة والجماعة ونحن منهم والحمد للّٰه! واللّٰه يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

وفى الأخير لو تسأل أن فى القرآن ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ (يٰس: ٥١-٥٢) فهٰذه الآية تدل علىٰ أنهم كانوا فى المراقد لا يحسون شيئًا فكيف توافق هٰذا مع عذاب القبر؟ قلنا بتوفيق اللّٰه تعالىٰ إن شاء اللّٰه العزيز أن الجواب هو كما جاء فى تفسير هٰذه الآية وماجاء فى بعض الآثار وهو أن

(١) وقد مر شرح هذا الحديث والحمد للّٰه وهو الشخص فعل ما فعل مع الاعتقاد أنهٗ لا يغنى عن شيء؛ لأنهٗ كان مؤمنا كما هو الظاهر وكما يدل عليه مغفرته من عند اللّٰه تعالى والكافر لا يغفر كما هو معلوم من الدين ضرورة وهذا الشخص كان يعرف ويعتقد أن اللّٰه هو القادر على إعادته رجلا وأنه لا بد من الجزاء فى الآخرة فعرف أن فعلهٗ لا يفيد شيئًا للخلاص منها ، لكن قد يفعل الرجل تحت شدة الخوف أشياء اتقاء مما يخاف منه مثلا الأذى مع العلم أن هذه الأشياء لا تفيد شيئا.

الأرواح بين النفختين تكون مغشية عليها وهو لأربعين سنة وقال أبى بن كعب رضي الله تعالىٰ عنه ومجاهد والحسن وقتادة أنهم ينامون نومة قبل البعث يعنى بين النفخين ، ففى هٰذه الحالة كأن العذاب رفع عنهم لهٰذه المدة يعنى بين النفختين فهم لا يريدون انتهاء هٰذه المدة لما يعلمون أن انتهاء هٰذه المدة بداية العذاب الأشد من الأولىٰ فيقولون ما فى الآية حسرة وهو ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ (يٰس:٥٢) فأجابهم المؤمنون ﴿هٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُوْنَ﴾ (يٰس:٥٢) فلا منافاة بين هٰذه الآية وبين عذاب القبر وهناك وجه آخر فى تفسير هٰذه الآية عن أهل المعانى فقالوا إن الكفار إذا عاينوا جهنم وما فيها من أنواع العذاب صار ما عذبوا به فى قبورهم إلى جنب عذابها كالنوم والتفسير الأول أولىٰ لأن فى النفخة الأولىٰ تنهدم الأرض والسماء ويموت الخلق حتىٰ الملائكة فيدل علىٰ أن بين النفختين كأنهٗ يرفع العذاب عن أهل القبور المعذبين لمدة أربعين سنة ولأنه قدجاء فى بعض الأثر أن الأرواح بين هٰذه المدة تكون مغشية عليها والله أعلم ويهدى من يشاء إلىٰ صراط مستقيم.

المتن:

ونؤمن بالبعث وجزاء الأعمال يوم القيامة والعرض والحساب وقرائة الكتاب والثواب والعقاب والصراط والميزان.

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالىٰ الأن يدخل فى المواضيع التى تتعلق بأحوال الآخرة وقد ذكر عن البرزخ الذى هو أول منازلها فالأن يتكلم عن الأمور التى هي فى عين الآخرة بخلاف البرزخ الذى هو أوّل منازلها ، لكن ليس بانتهاء الدنيا، بل هو فى وسط الدنيا والآخرة تابع للآخرة وأما الأمور التى يذكرها الشيخ رحمه الله تعالىٰ الأن هي فى عين الآخرة بعد انتهاء الدنيا والشيخ يبدأها من البعث ويذكر الأحوال ما بعد البعث وهٰذا لا يعنى أن انتهاء الدنيا من البعث، بل انتهاء الدنيا من بدأة القيامة وهو نفخ الصور الأول. ويوم القيامة يبدأ من نفخ الصور الأوّل إلى دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار و هٰذا كلهٗ يعتبر يوم القيامة وهو كلهٗ فى الآخرة فانتهاء الدنيا وبدء الآخرة للكل من بدء يوم القيامة ومعنى للكل لأن الحياة البرزخية فى حق من يموت من أهل الدنيا فى خلال الدنيا تعتبر بدأة الآخرة فى حق هٰذا الميت ، لكن عندما ينفخ فى الصور النفخ الأول سيموتون جميع الخلق (وفيه بعض البحث سنذكره إن شاء الله العزيز فيما بعد) فيكون بدأة الآخرة للكل ولو قيل أنهٗ فى القرآن يقول الله عزوجل ﴿حَتّٰى إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُوْنِ لَعَلِّيْ أَعْمَلُ صَالِحًا فِيْمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَّرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلٰى يَوْمِ يُبْعَثُوْنَ﴾ (المؤمنون: ٩٩-١٠٠) فاعتبر كلها

البرزخ إلى البعث فعلى هذا الحياة البرزخية إلى البعث قلنا بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز انا ذكرنا أن الحياة البرزخية من الآخرة وأول منازلها فعلى هذا من النفخ الأول إلى النفخ الثانى الذى هو للبعث تكون الحياة البرزخية للجميع ، لكن هذا لا ينافى كونها فى الآخرة لأنها منها والثانى هذه الآية تقول "إلى يوم يبعثون" ويوم البعث هو نفس اليوم الذى فيه النفخ الأول كما ذكرنا أن يوم القيامة يمد من النفخ الأول إلى دخول الجنة أو النار (وأعاذنا الله من النار) فعلى أى حال النفخ الأول هو بدا الآخرة وانتهاء الدنيا فى حق الجميع .

فالبعث وهو إحياة الأموات وهو أن الله يبعث الموتى من القبور أو من حيثما هي بأن يجمع أجزاء هم الأصلية ويعيد الأرواح إلى أجسادها وهو حق كائن ومن جحد هذا ولو تأويلا فقد كفر بالله وحدهٔ وفى القرآن ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون:١٦) و﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِىٓ أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (يٰس:٧٩) و﴿وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِى السَّمٰوٰتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَآءَ اللّٰهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرٰى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُوْنَ﴾ (الزمر:٦٨) و ﴿وَنُفِخَ فِى الصُّوْرِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلٰى رَبِّهِمْ يَنْسِلُوْنَ﴾ (يٰس: ٥١) و﴿وَإِذَا الْقُبُوْرُ بُعْثِرَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ (الانفطار:٤-٥) و ﴿هٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِيْنَ﴾ (المرسلات:٣٨) وهذا البعث يكون بعد النفخ الثانى، وبين النفخ الأول الذى فيه يموتون الخلق وتنهدم السماء والأرض وبين النفخ الثانى أربعون سنة كما جاء فى الروايات منها روى ابن مبارك عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم "بين النفختين أربعون سنة الأولىٰ يميت الله بها كل حيّ والآخر يحى الله بها كل ميت." (تفسير قرطبى: ج:١٣،ص: ٢٤٠) وقال الحليمى "اتفقت الروايات على أن بين النفختين أربعين سنة." (التذكرة للقرطبى) وقد جاء فى رواية مسلم عن أبى هريرة رضي الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم "مابين النفختين أربعون قالوا يا أبا هريرة أربعين يوما؟ قال أبيت قالوا أربعين شهرا؟ قال أبيت قالوا أربعين سنة؟ قال أبيت ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل." (صحيح مسلم، ح:٢٩٥٥)

وهذا لا ينافى ما ذكرنا من الروايات الأخرىٰ التى تجزم أنهٔ أربعين سنة ويحتمل أن أبا هريرة رضي الله تعالى عنه نسى عن أربعين ماهو فلم يجبهم عند ما سألوه عنه. والبعث يكون بجمع الأجزاء المبلية من الأجساد وتركيبها عليها كما جاء فى الحديث "كل شيء من ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب ومنه يركب الخلق." (المعجم الاوسط، ح:٧٨٣) وأيضا يدل عليه ما فى القرآن ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَّنَسِيَ خَلْقَهٗ قَالَ مَنْ يُّحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيْمٌ قُلْ يُحْيِيْهَا الَّذِىٓ أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَّهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيْمٌ﴾ (يٰس:٧٨-٧٩) وأيضا ﴿وَقَالُوٓا ءَ إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَّرُفَاتًا ءَ إِنَّا لَمَبْعُوْثُوْنَ خَلْقًا جَدِيْدًا قُلْ كُوْنُوْا حِجَارَةً أَوْ حَدِيْدًا أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِىْ صُدُوْرِكُمْ فَسَيَقُوْلُوْنَ مَنْ يُّعِيْدُنَا قُلِ الَّذِىْ فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ

فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ (بني إسرائيل: ٤٩-٥١) وأيضا قصة إبراهيم عليه السلام ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ[1] وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٠) وهذا كيفية إحياء الموتى بجمع أجزاءها وتركيب أجسادها عليها وأيضا قصة المار على القرية الهالكة ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ[2] يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٥٩) وأيضا ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾ (فاطر: ٩) وهذه الآيات كلها تدل على القطع أن البعث والنشور يكون بجمع أجزاء الميت المبلية من جسده وغير المبلى منه وهو عجب الذنب فيركب الجسد عليها ويدل عليه أيضا أن الأجساد المباركة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام وللشهداء لا تأكلها الأرض وهي حرام عليها فهي تبقى كما هي وتعاد الأرواح إليها وكل هذا الكلام لرد من زعم أن الأجساد تفنى بتمامها و تنعدم وثم تكون إعادتها في البعث بعد الانعدام وهذا القول يخالف ما ذكرنا من النصوص القاطعة في كيفية البعث والنشور ولا نعني أن إعادة المعدوم محال كما يقول الفلاسفة الزنادقة الكفرة المنكرين لحشر الأجساد لأن الله على كل شيء قدير ومن رد هذا فقد كفر ،فالله عزوجل هو القادر المطلق فقادر على إعادة المعدوم (جوهرا كان أو عرضا)وهذا

---

(١) واعلم أن سوال إبراهيم عليه السلام كان عن رؤية كيفية إحياء الموتى وليس عن ثبوت إحياء الموتى الذي كان عليه السلام مومنا متيقنا به بلا شك قطعا وبتاتا ولا يجوز الشك في هذه الأمور على النبي من الأنبياء عليهم الصلوات والسلام ومن قال أنهٗ شك في ثبوت إحياء الموتى أو في قدرة الله عليها فقد كفر ولقد برّأه الله من هذا عند ما سألهٗ "قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن" مع علمه تعالى أنهٗ إبراهيم عليه السلام مؤمن متيقن به ، لكن حتى قال عليه السلام في جوابه "قَالَ بَلَىٰ" لكي لا يترك مجالا للملحد الزنديق الكافر أن يقول أنهٗ عليه السلام كان شاكا (ونعوذ بالله) في هذا الأمر، ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة: ٢٦٠) والله أعلم يحتمل معناه أن في قلبي اشتهاء أن أرى كيفية هذا الأمر الجليل المدلّ على قدرتك المطلقة غير المحدودة فأرني حتى يستقر ويطمئن قلبي بسبب حصول هذا التمنى منه .

(٢) وهذا أيضا ليس على الشك، بل على وجه أنني أعرف أن الله على كل شيء قدير ولهذا قال في الأخير "قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" ولم يقل علمت، بل قال أعلم الذي يدل على استمرار هذا العلم من قبل فكان عالما مؤمنا متيقنا بقدرة الله تعالى من قبل ، لكن عند ما مر على هذه القرية الخاوية على عروشها ارتفع في قلبه التمني أنهٗ لو يعلم كيف الله عزوجل يحي هذه بعد موتها التي في ظاهر الأحوال عند من لا يؤمن على قدرة الله تعالى بعيد جدا ، لكن أنا أعلم وأؤمن على قدرة الله تعالى المطلقة غير المحدودة وأن هذه الإحياء ليست بعزيزة عليه ، لكن لو أعرف كيف تكون هذه وثم عند ما عرف كيفيتها "فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" يعني أعلم قدرته تعالى عليها وقد أردت تفاصيل كيفيتها وبس .

السؤال يعنى هل يمكن إعادة المعدوم ليس من الأسئلة التى تناقض بعضها بعضا كما ذكرنا سابقا عنها فهو ليس كمثل السؤال هل يمكن ان يكون معدوما موجودا؟ لأن هذا السؤال يناقض بعضه بعضا فهو سؤال باطل ، لكن لو ينعدم الموجود وثم هل يمكن إعادته إلى الوجود؟ فهذا السؤال لا يناقض بعضه بعضا فهو سؤال صحيح وجوابه أن الله على كل شيء قدير فهو القادر على إعادة المعدوم. وأنت لو تغور وتمعن أن الخلق كله كما وجودهم من عند الله تعالى فكذلك بقاء هم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (فاطر: ٤١) والبقاء هو استمرار الوجود ، ففى كل آن الخلق يحتاج إلى الله تعالى لوجوده فكأنهُ فى كل آنٍ وجوده وجود جديد بإبقاء الله تعالى لهُ وإلا يفنى فى الآن الذى لا يبقى الله إياه فيه بعدم وهبه الوجود لهُ ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ إلى ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (البقرة:٢٥٥) ووهبه الوجود لهُ ليس إلا خلق الوجود لهُ فكأن الخلق دائما تحت خلق الله تعالى الجديد ، لكن لأن هذا ليس بينه خلال، بل هو بالاستمرار ، ففى مشاهدتنا نحن لا نرىٰ فى أنفسنا خلقا جديدا، بل استمرار نفس الخلق ، لكن فى الحقيقة هذا استمرار نفس الخلق ليس إلا باستمرار خلق الوجود الذى هو البقاء فيه والمعلوم أن الأجساد مركبة بالجواهر والجوهر لا يخلوا من أنواع الأعراض والبقاء أيضا عرض يقوم به والأعراض لا تبقى زمانين لأن البقاء نفسه عرض والعرض لا يقوم بالأعراض وإلا لزم التسلسل وهو باطل لأن على هذا عرض البقاء نفسه يقوم به البقاء الآخر وهلم جرا إلى ما لا نهاية لهُ وهذا فاسد ،فالأعراض تنعدم بعدم وجودها فى الزمان الثانى والجوهر لا يخلو منها فينعدم بانعدامها فيه فالأعراض تنعدم وتوجد فى كل آن بخلق الله تعالى إياها فى الجوهر فعلى هذا كأن الجوهر ينعدم ويعاد فى كل آن ، ففى كل آن إعادته، فأيها الفلاسفة الزنادقة كيف تنكر قدرة الله تعالى على إعادة المعدوم ولا فرق أن هذه الإعادة تكون فى نفس آن العدم الذى هو استمرار وجوده أو أنها بعد مدة ما بعد عدمه لأن الإعادة هي الإعادة ولو قيل كيف يمكن العدم والإعادة فى نفس الآن الذى عبرته باستمرار الوجود لأن هذا يؤدى إلى عدمه ووجوده فى نفس الآن وهو متناقض؟ قلنا بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز أننا تكلمنا عن العدم والإيجاد للأعراض فى الجوهر ومنها البقاء ،فالبقاء (كما بيّنّا) لا يبقى زمانين، فالبقاء فى زمان ما ينعدم فى الثانى منه ولو الله عزوجل يخلق فى الزمان الثانى البقاء، فهذا ليس العدم والوجود للبقاء فى نفس الزمان، بل إعدامه فى زمان وإيجاده فى زمان ثانى منه، وفى استمرار هذا فى الجوهر يستمر وجود الجوهر بعينه؛ لأننا ذكرنا من قبل أنهُ لا بقاء للخلق جوهرا أو عرضا إلا أن يبقى الله تعالى إياه واستمرار وجود الجوهر باستمرار خلق الأعراض فيه[1] و لا يعتبرون

(١) متجددا فى كل آن

بسببه الفلاسفة الزنادقة أن وجود الجوهر فى الزمان ليس عين وجود الجوهر فى الزمان الثانى منه، فيلزمهم أن يسلموا لو الله عزوجل لا يخلق عرض البقاء فى هذا الجوهر فينعدم وثم بعد مدة ما يخلق البقاء فيه فيعيده موجودا، فهذه إعادة لنفس الجوهر والأعراض بعينه. ومع ذلك لأن استمرار وجود الجوهر بخلق الأعراض فيه متجددا مستمرا لا يكون بين هذا الاستمرار لوجوده خلال فلا يُعتبر هذا خلقا جديدا على الإطلاق لهذا الجوهر، بل نفس الخلق وبقاءه وفى القرآن ﴿اَللّٰهُ الَّذِىْ خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ (الروم:٤٠) فذكر الإماتة بعد الخلق والرزق وأيضا ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَّإِلَيْهِ تُرْجَعُوْنَ﴾ (حم سجدة:٢١) وأيضا ﴿اَللّٰهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهٗ﴾(الروم:١١) وهذه الإعادة فى البعث وأيضا ﴿قُلْ سِيْرُوْا فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوْا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللّٰهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللّٰهَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ﴾(العنكبوت:٢٠) وهذه النشأة الآخرة تكون يوم البعث فالقصد أن استمرار وجود الأجساد لا يعتبر إعادتها [1] فى كل حين ولو استمرارها معلقة على إبقاء الله تعالى إياها ومع ما ذكرنا من الآيات الله عزوجل أيضا يذكر الأطوار التى يكون الجسد فيها واعتبر هذه كلها كأنها خلق جديد، ففى القرآن ﴿اَللّٰهُ الَّذِىْ خَلَقَكُمْ مِنْ ضُعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضُعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضُعْفًا وَّشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ الْعَلِيْمُ الْقَدِيْرُ﴾ (الروم:٥٤) وأيضا ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِيْنٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِىْ قَرَارٍ مَكِيْنٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللّٰهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِيْنَ﴾ (المؤمنون:١٢-١٤) ﴿يَخْلُقُكُمْ فِىْ بُطُوْنِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِىْ ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ (الزمر:٦) وأيضا ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ (نوح:١٤)، لكن مع ذلك ما ذكرنا استمرار وجود الخلق لا يعتبر إعادته فى كل حين، بل الإعادة هي تعتبر مابعد إفناءه بنقض استمرار وجوده والله تعالى القادر المطلق قادر عليه، لكن بسبب النصوص من القرآن والسنة التى ذكرنا التى تدل أن الأجساد لا تنعدم بالكلية، بل تبلى وثم إعادتها هي جمع أجزاء ها المبلية وتركيب الخلق الجديدة عليها، لكن مع هذا نجزم باليقين أن الله تعالى هو القادر على إعادة المعدوم بخلاف الفلاسفة الزنادقة، وما ذكرنا من البيان فى الفوق فى إعادة المعدوم كان ردا على الفلاسفة الزنادقة فى طريقة محاجاتهم وإلا حسبنا القرآن والسنة والفطرة السليمة ،وكلها تشهد أن الله على كل شيء قدير، لكن مع هذا نحن نخالف من قال أن الأجساد تنعدم بالكلية وتعاد بعد العدم فى البعث وهذا بسبب النصوص التى ذكرنا مع اليقين أن الله هو القادر على إعادة المنعدم والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم (اللّٰهم اهدنا الصراط

(١) لكن الاستمرار هو بخلق الأعراض فيه مستمرا متجددا، فإذايكون هكذا ولايقول الفلاسفة الزنادقة أن الجوهر فى الزمان ليس عين الجوهر فى الزمان الثانى، فإذا لايخلق الله تعالى الأعراض فى الجوهر فى الزمان والجوهر ينعدم وثم بعد مدة ما يخلق الله تعالى الأعراض فيه فيوجد فهذا أيضًا وجود نفس الجوهر بإعادته.

المستقيم) .

فالأن نذكر الدلائل التى يستدلون بها الذين قالوا أن الأجساد تنعدم بالكلية وثم تعاد وجوابها إن شاء العزيز: فمنها ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (الرحمن:٢٦-٢٧) والاستدلال من هذه الآية هو أنه لو بقيت الأجزاء لم يصدق الفناء بالكلية ، لكن نقول بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز أن الفناء أيضًا ينطبق على الهلاك حتىٰ يقال للشيخ العجوز "الشيخ الفانى"؛ لأنهٗ قد بلغ العمر الذى يموت فيه الإنسان عادة ويقال "تفانى القوم" يعنى يهلك بعضه بعضا فإذا الفناء قد يكون علىٰ معنى الهلاك وقد يكون علىٰ معنى الانعدام فالآيات الأخرىٰ التى هي مستدلتنا تُعيّن معنى الفناء فى هٰذه الآية فى معنى الهلاك فلا يلزم الانعدام والآية ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (القصص:٨٨) يعنى إلا إياه فهٰذا أيضا مستدلهم ، لكن أولا هٰذا الهلاك لا يستلزم الانعدام كما فى الآية ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ (النمل:٤٩) ولا يعنى الانعدام، بل الموت وكذٰلك يقال "أهلك ماله" والمعنى أضاعه ولا معنى إعدامه وهو خارج عن استطاعة البشر[1] وثم هٰذه الآية علىٰ إطلاقها تدل علىٰ هلاك جميع العالم ، لكن قد جاء الاختلاف فى مثلا الجنة والنار وغيرهما من الأشياء هل هى تهلكان تصديقا للآية لمدة ما وثم تعادان أم لا؟ لأنهما دار الخلد والبقاء فعلىٰ هٰذا ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (القصص:٨٨)قد يكون "كل شيء" فى الآية ليس على الإطلاق كما فى الآية ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأحقاف:٢٥) أو ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ (النمل:٢٣) ومعلوم أن ملكة السبا لم تؤت من كل شيء على الإطلاق، بل قد يقال "كل شيء" ومعناه من حيث الإضافة يعنى كل شيء فى مجال معين أو يحتمل ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (القصص:٨٨) معناه أن كل ممكن فهو هالك فى حد ذاته بمعنى أن الوجود الإمكانى بالنظر إلى الوجود الواجبى بمنزلة العدم لأن الوجود الإمكانى فى حد ذاته لا يوجد ولا يبقى، بل يحتاج إلى الوجود الواجبى وهو الله عزوجل لوجوده وبقاء ه فهو هالك فى حد ذاته إلا أن يعطيه الله الوجود والبقاء ويستدلون أيضا من الآية ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ (الحديد:٣) ووجه الاستدلال لو بقيت الأجزاء لم يكن آخر كل شيء ولأنه ينبغى أن تكون الآخرية كالأولية والجواب أنهٗ قد جاء معنى الأول والآخر فى الحديث الصحيح وهو "أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن ليس دونك شيء" فعلىٰ هٰذا ولو نسلم أن الآخرية التي معناها فى الحديث "الذى ليس بعدهٗ شيء" معناه انعدام الأجساد ، لكن هٰذا أيضا لا يجعل الآخرية كالأولية لأن الله كان وحدهٗ ولم

---

(١) ؛ لأن البشر لايستطيع أن يعدم شيئًا حتى هو لايكون فى العالم فى أي صورة، بل هو يفنيه فى معنى أنهٗ يحيلهٗ فى شيء آخر لا فى معنى أنهٗ يعدمه بالكلية.

يكن معهٗ شيء ثم خلق العالم ، لكن الأن الأجساد للمكلف ليست وحدها في العالم حتى انعدامها يجعل كما كان فى الأزل يعنى "كان الله ولم يكن شيء غيره" ولو هم يقولون بانعدام جميع العالم فقلنا إن هٰذا يحتاج إلى الدليل القطعي المجمع عليه وثم انعدام جميع العالم وإعادته لا ينطبق على الحديث فى تفسير الآخرية" الذى ليس بعدهٗ شيء "لأن ولو ينعدم العالم . لكن المعلوم أنهٗ يعاد والآخرية معناه "ليس بعدهٗ شيء"، فكيف تفسر الآية حتى يجتمع القرآن وهٰذا الحديث الصحيح؟ فنقول بتوفيق الله تعالى أن هٰذا الحديث هو حجة [1] فى إثبات تنزه الله تعالى من الزمان والمكان وهو أن الله الأول والآخر الذى ليس قبلهٗ شيء ولا بعدهٗ شيء ومن ليس قبلهٗ شيء ولا بعدهٗ شيء يعنى؛ لأنهٗ خارج من الزمان، والزمان لا يجرى عليه حتى يكون قبلهٗ شيء وبعدهٗ شيء؛ لأنهٗ الأزلي الأبدى والزمان حادث مخلوق من عنده فلا يحيط به ولهٰذا لا يقال أننا بعدهٗ زمانا؛ لأنهٗ خارج الزمان، والقبل والبعد من الزمان، بل يقال أنهٗ كان دائما أزليا من غير البداية وأنه يكون دائما أبدا من غير نهاية وأنه كان ولم يكن شيء معهٗ فخلق المكان والزمان والعالم كلهٗ بعد أن لم يكن فالكل حادث مخلوق إلا هو وكذٰلك هو الظاهر الباطن الذى ليس فوقه شيء ولا دونه شيء فيعنى أنهٗ تنزه وتقدس عن المكان؛ لأنهٗ إذا ليس فوقه شيء ولا دونه (يعنى تحته شيء) فليس فى مكان، والدون لا يمكن أن يكون فى معنى الغير؛ لأنهٗ هناك المخلوق غير الله فلا يكون صحيحا أن يقال ليس غيره شيء ولا الأشياء الأخرى لعدم الربط والسياق فيبقى معنى "التحت" كما يقال "دون قدمك بساط" لربطه مع الفوق فى معنى الظاهر فإذا ليس فوقه شيء ولا تحته فليس فى مكان ،واستدلوا أيضا بالآية ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ (الحج:١٠٤) ووجه الاستدلال أنهٗ كما كان الإبداء من العدم فكذٰلك الإعادة ، لكن هٰذا غير لازم؛ لأنهٗ يمكن أن يقال كما كان الإبداء من الأرض فكذٰلك الإعادة وتدل عليه الآية ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ (طه:٥٥) أى من الأرض فإن أباكم آدم عليه الصلوٰة والسلام مخلوق من تراب من أديم الأرض وفيها نعيدكم أى وإليها تصيرون إذا متم ومنها نخرجكم تارة أخرى وأيضا قد جاء فى الحديث "أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين. . . . ." (صحيح مسلم، ح:٢٨٦٠) وهٰذا أيضا ظاهره يدل على أن معنى الإعادة كالإبداء هو كونهم حفاة عراة غرلا فالمعنى أنهٗ كما كان الإبداء من الأرض وهٰذا ليس فقط فى آدم عليه السلام، بل جاء فى الأثر عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أن الملك الموكل بالرحم يأخذ التراب الذى يدفن فى بقعته (الإنسان) ويعجن به نطفته وثم النطفة أيضا أصلهٗ من الأرض لأن الغذاء ينبت فى الأرض الذى يأكله الإنسان وكذٰلك البهائم

(١) مع الحجج الأخرى القاطعة النقلية والعقلية

،غذاء ما ينبت فى الأرض ،التى يأكلها الإنسان فالإبداء من الأرض والإتيان فى هذا الدنيا حفاة، عراة، غرلا وكذلك الإعادة وفى القرآن ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون:١٢-١٦) فحاصل الكلام أنما يستدلون بها ليست قاطعة فى انعدام الأجساد وما ذكرنا من الدلائل هي قاطعة فى جمع الأجزاء وتركيب الخلق عليها ، لكن هؤلاء الناس لا ينكرون هذا وكيف؟ وإلا يكون كفرا وفى القرآن ﴿قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (يٰس:٧٨-٧٩) ومعلوم أن الرم ليس الانعدام فهم لا ينكرون إحياء هذه العظام الرميمة، بل يقولون أن الله عزوجل يعدمها كلية وثم يعيدها وثم يجمع هذه العظام ويحييها ، لكن ما ذكروا من الدلائل لا تثبت هذا بالقطع، بل الدلائل تؤيد ما قلنا أنها لا تنعدم كما فى الحديث "ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظم واحد وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة ." (سنن ابن ماجة، ح:٤٢٦٦) والله أعلم ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

فالأن نحن نذكر أحوال يوم القيامة من النفخة الأولىٰ فصاعدا ،اعلم أن جميع المؤمنون يموتون قبل الساعة والساعة تقوم علىٰ شرار الناس عند ما لا يكون فى الأرض من يقول "الله،الله" كما فى الأحاديث الصحيحة فهم يكونون من أشد الكفار؛ لأن حتىٰ من الكفار من يقول "الله، الله" وهم يكونون أشر منهم حتىٰ لا يقولون "الله، الله" فالساعة تقوم فجاة عليهم ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ (الأعراف:١٨٧) وفى الحديث "لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لوحته فلا يطعمه ولتقومن الساعة وهو يلوط حوضه فلا يسقى فيه ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها ." (صحيح البخاري، ح:٦٥٠٦) والساعة تقوم بالنفخة فى الصور من الملك المشهور اسمه إسرافيل عليه السلام وفى الحديث أن الصور هو قرن ينفخ فيه وفى القرآن ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ (الزمر:٦٨) فالأول هو نفخة الصعق وجاء فى الحديث الضعيف عن أبى هريرة رضي الله تعالىٰ عنه عن النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "إن الله لما فرغ[1] من خلق السمٰوات خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه علىٰ فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر بالنفخة ." (مسند اسحاق بن راهويه، ح:١٠) وفى حديث حسن أخرجه الترمذي مرفوعا

---

(١) وليس معنى الفراغ فى حق الله كما فى حقنا؛ لأنه لا يشغله شيء ولا يشغله شأن عن شأن، بل ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (يٰس:٨٢) ، بل معناه بعد خلق السموات.

قال رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "وكيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن واستمع الأذن متى يؤمر بالنفخ فينفخ." فكان ذٰلك ثقل علىٰ أصحاب النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فقال لهم (صلى الله تعالىٰ عليه وسلم) "قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل" (سنن الترمذي، ح: ٢٤٣١) ،فإذا ينفخ فى الصور فيموتون جميع الخلق وفى الحديث "ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا." (صحيح مسلم، ح: ٢٩٤٠) وفى القرآن ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص:٨٨) وتنفطر السماء وترجف الأرض وانخسف الشمس والقمر وانتثرت النجوم وفى القرآن ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ (القيامة:٧-٩) أى جمعا فى ذهاب ضوء هما وأيضا ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ (الانفطار: ١-٣) وأيضاً ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ (التكوير: ١-٧) وأيضا ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ (النازعات:٦) قال الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب قال ست آيات قبل يوم القيامة[1] بين الناس فى أسواقهم إذا ذهب ضوء الشمس فبينماهم كذٰلك إذا تناثرت النجوم فبينما هم كذٰلك إذا وقعت الجبال علىٰ وجه الأرض فتحركت واضطربت واختلطت ففزعت الجن إلى الإنس والإنس إلى الجن واختلطت الدواب والطير والوحوش فما جوا بعضهم فى بعض ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ (التكوير:٥) ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ (التكوير:٤)قال أهملها أهلها ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾(التكوير:٦) قال قالت الجن[2] نحن نأتيكم بالخبر قال فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تتأجج قال فبينما هم كذٰلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى وإلى السماء السابعة العليا قال فبينماهم كذٰلك إذ جاء تهم الريح فأماتتهم وهٰكذا قال مجاهد والربيع بن خيثم والحسن البصرى وأبو صالح وحماد بن أبى سليمان والضحاك فى قوله تعالىٰ ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ (التكوير:٢) والله أعلم و يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

وأما الاستثناء المذكور فى الآية ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ (الزمر:٦٨) ففيه أقوال منها أنهم طوائف من الملائكة أو هم الشهداء أو الأنبياء أو

---

(١) ليس معنى قبل يوم القيامة قبل المدة منه، بل هي هناك معهٗ متصلة به كأنهٗ منه كما هو ظاهر من البيان.

(٢) ولا ينافى ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ (الأعراف:٢٧) لأن فى اليواقيت والجواهر معناه والله أعلم من حيث لا ترونهم فى الصورة التى خلقهم الله عليها وأما رؤيتهم إذا تشكلوا فى غير صورهم من كلب وهر فلا منع، بل هو واقع كثير انتهىٰ، وقد يكون فى صورة الإنسان كما فعل الشيطان فى صورة سراقة بن مالك مع كفار مكة وأيضا لو الله تعالىٰ أراد أن يظهر هم فى الصورة الأصلية فيجوز بلا شك لأن الله على كل شيء قدير، لكن هو يستر هم عن أعيننا عادة.

حملة العرش أو جبريل أو ميكائيل أو ملك الموت وقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه والله أعلم بسند هٰذا الحديث وهو حديث أخرجه البيهقي(شعب الإيمان، ح:٣٤٧) وابن أبي الدنيا (الأهوال، ح:٥٥) والطبرى أن الاستثناء يرجع إلى حملة العرش وجبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت وثم هم أيضا كلهم يموتون ويبقى الله تعالىٰ وحدهٔ فيقول "أنا الجبار" "لمن الملك ليوم" فلم يجبه أحد فيقول جل ثناء ه وتقدست أسماء ه "لله الواحد القهار" انتهىٰ. وقد جاء في رواية والله أعلم عن صحتها أنهم الشهداء متقلدون أسيافهم حول العرش، ثم أنهٔ قد اختلف عن الجنة والنار يعني هل يأتي عليهما الفناء وثم تعادان أم لا يأتي؟ وكذٰلك ماهو الحكم للعرش والكرسي هل يأتي عليهما الفناء وثم تعادان أم لا يأتي؟ والله أعلم وقد جاء في الرواية الصحيحة أن الرسول عليه الصلوات والسلام قال "لا تفضلوا [1] بين الأنبياء، فإنهٔ ينفخ في الصور فيصعق من في السمٰوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم ينفخ فيه أخرىٰ فأكون أول من بعث فإذا موسىٰ اٰخذ بالعرش فلا أدرى أحوسب بصعقة يوم الطور أم بعث قبلي" رواه البخاري (ح:٣٤١٤)، وتحقيق هٰذه المسئلة إن شاء الله العزيز بتوفيق الله تعالىٰ هو معلوم أن كل ذي نفس يموت ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (آل عمران:١٨٥) والملائكة عليهم الصلوات والسلام أيضا ذوى الأجسام والأرواح فلا بد لهم من الموت فيحتمل كما في حديث أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه أن حملة العرش وجبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت يبقون بعد النفخة الأولى وثم يموتون بين النفخة الأولى والثانية(كما في نفس الحديث) وأما الشهداء فهم قد ذاقوا الموت شهادة في سبيل الله، لٰكن منع أن يطلق عليهم اسم الأموات إكراما لهم لما جادوا أنفسهم في سبيل الله تعالىٰ فهم لا يموتون [2] في النفخة الأولىٰ لأنهم قد مروا علىٰ منيتهم وهم في البرزخ ،نعم! أرواحهم في جوف طير خضر تأوى إلى القناديل المعلقة بالعرش وتأكل من ثمار الجنة، لٰكن هٰذا العالم، والله أعلم، فوق السمٰوات لأن العرش فوق السمٰوات كما هو معلوم من النصوص والجنة تحت العرش، والعرش سقفها كما هو في الحديث عن الجنة الفردوس وهي أعلى الجنة وفوقها عرش الرحمٰن، وفي القرآن ﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾(النجم:١٤-١٥) وهٰذه السدرة أصلها في السماء السادسة وأعلٰها في السماء السابعة وفوقها فعلىٰ هٰذا أرواح الشهداء تكون خارجة من بين السمٰوات والأرض والآية تتكلم عن الصعق في حق من في السمٰوات ومن في الأرض وعلىٰ هٰذا الجنة تكون أيضا خارجة من مراد الآية والنار وقد جاء

---

(١) معناه بدون العلم وبطريقة أن يكون ازدراء في حق نبي ما عليه الصلوات والسلام وهٰذا كفر وإلا التفضيل نفسه ثابت ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (البقرة:٢٥٣) ونبينا صلى الله تعالى عليه وسلم أفضل الأنبياء بالإجماع

(٢) لأنهم قد حصلوا علىٰ الموت من قبل

في رواية والله أعلم عن صحتها أنها تحت الأرضين السبع وقد جاء في الحديث عن السجين أنه تحت الأرضين السبع فعلى هذا النار أيضا تكون خارجة من مراد الآية لأنها تحت الأرضين وليست فيها والله أعلم. والعرش والكرسي وهما فوق السموات أيضا ، لكن الآية ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (القصص:٨٨) يعني "إياه" تقتضي على ظاهرها وعمومها الهلاك لكل شيء وإلا أن تؤول، والحديث عن سيدنا موسى عليه السلام الذي ذكرنا ،والكلام فيه أنه معلوم أن سيدنا موسى عليه السلام قد مات كما هو ثابت من النصوص فجسده في الأرض وروحه في الرفيق الأعلى مع أرواح النبيين ولقد رآه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في المعراج في السماء السادسة ومستقرأرواح الأنبياء في البرزخ في أعلى الجنة كما في الحديث أن الأنبياء عليهم الصلوات والسلام عرض عليهم مكانهم من الجنة قبل الموت وثم يخيرون ،وهذا لموسى عليه السلام وكذلك لنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم وجميع الأنبياء عليهم الصلوات والسلام فإذا قال الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أنه يصعق من في السموات ومن في الأرض عند النفخة (الأولى) وثم هو صلى الله عليه وسلم أول من بُعث وفي رواية أول من يفيق وفي رواية أول من تنشق عنه الأرض فهذا يدل على أن الأرواح تصعق عند النفخة الأولى ولو كانت في الرفيق الأعلى وفي الجنة [1] لأن المعلوم أن الأنبياء عليهم الصلوات والسلام كلهم قد ماتوا إلا سيدنا عيسى عليه السلام وهو أيضا يتوفى قبل يوم القيامة كما هو المنصوص فإذا تكون النفخة الأولى فهؤلاء يصعقون والرسول عليه الصلوات والسلام يصعق كما يدل عليه هذا الحديث وهم حينئذ يكونون في عالم البرزخ الذي هم فيه أحياء بالحياة البرزخية بأجسادهم في الأرض المتصلة بالاتصال القوية مع أرواحها التي في الرفيق الأعلى فالصعق في هذه الحالة يكون الصعق لأرواحهم؛ لأنه لا معنى لصعق الأجساد وقد جاء في الرواية ولو كانت ضعيفة أن الأرواح تكون مغشية عليها بين النفختين فهذا الصعق ، كيفما هو ،يكون بمنزلة الهلاك في حق الأرواح حتى تثبت عليها الآية ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (القصص:٨٨) وسيدنا موسى عليه السلام فقد طرأ عليه هذا الصعق عند التجلي لربه تعالى للجبل، فجعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحنك تبت إليك وأنا أول المؤمنين، وثم بعد هذه الحادثة بمدة توفي عليه الصلوات والسلام فو الله أعلم قد ثبتت عليه الآية ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (القصص:٨٨) روحا وجسدا (في الدنيا) فلا يبقى معنى للإعادة ، فرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عند النفخة الثانية تفيق روحه

---

(١) ولا يقال: إن الجنة خارجة مما في السموات والأرض فالأرواح في الجنة لا تشملها الآية ﴿فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ (الزمر:٦٨)؛ لأن الحديث يفسر الآية أنها تشمل الأرواح في الجنة؛ لأنه يقول "فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بعث." وفي رواية "أول من يفيق" وهذا الصعق والإفاقة لايكون للجسد فقط كما هو الظاهر.

المباركة وتعاد إلى جسده فيكون أولا من تنشق عنه الأرض فيبعث روحا وجسدا فحينئذ ينفتح له باب إلى السماء بحيال رأسه حتى ينظر إلى العرش كما جاء فى الرواية الضعيفة ، لكن هذا القدر منها يؤيده الحديث الصحيح الذى نحن فيه؛ لأنه يظهر لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم العرش حتى يرى سيدنا موسى عليه السلام اخذا بالعرش وهذا والله أعلم رؤية لروح سيدنا موسى عليه السلام لأن جسده المبارك فى الأرض وأول من تنشق عنه الأرض هو نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم كما هو المنصوص فهذه الرؤية والله أعلم لروح سيدنا موسى عليه السلام فى الرفيق الأعلى وقال الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أنه لايدرى هل صعق موسى عليه السلام (يعنى روحه والله أعلم، والأجساد تابعة لها) عند النفخة الأولى وثم أفاق روحه قبل سيدنا ونبينا صلى الله تعالى عليه وسلم أم لم يصعق وجوزى بصعقة الطور فكانت حسبا فى حقه لانطباق الآية ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾(القصص:٨٨) عليه فلم يصعق مرة ثانية ونحن أيضا لا ندرى هذا من باب الأولى فهذا الحديث يثبت أن الأرواح التى هي فى الجنة وفى الرفيق الأعلى فوق السموات ، لكن هي مصداق الآية ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ (الزمر:٦٨) لأن و لو هي فوق السموات ، لكن متصلة بأجسادها فى الأرض فيكون صعقا لها مؤثراً فى الأجساد فى الأرض وأيضا يكون مصداقا للآية ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾(القصص:٨٨) فإذا ثبت أن الأرواح فى الجنة تصعق ، كيفما هى، وليس إعداما لها ونحن قلنا أن الأجساد لاتنعدم فالأرواح أولى والمعلوم أن الجنة هي للمكلفين يعنى هذه الأرواح فإذا الأصل يعنى المكلفون يصعقون فلا بُعد أن الأتباع يعنى الحور والولدان والخدام يصعقون لأنهم خلقوا ثوابا للأصل وأيضا مصداقا للآية ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾(القصص:٨٨) وكذلك الأشياء كلها فى الجنة يطرأ عليها الهلاك مصداقا لنفس الآية ولا يلزم من الهلاك الانعدام الكلى لأن الهلاك قد يكون على معنى خروجها من الاستعداد للانتفاع والتمتع بها كما يقال "هلك الطعام" إذا لم يصلح للأكل وبفساده مع بقاء أصله [1] حتى لا ينافى الآيات مثلا ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ (الرعد:٣٥) وأيضا ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ (الفرقان:١٥) مع أن المتقين يدخلون الجنة خالدا دائما بعد الحساب يوم القيامة وهوبعد النفختين وحينئذ الجنة قد أعيدت إلى الحالة السابقة التى كانت قبل النفخة الأولى ولا هلاك بعده فيكون ظلها وأكلها دائم فى حقهم لا محالة وإلا المعلوم أن سيدنا آدم وحواء عليهما الصلوات والسلام كانا فى الجنة ، لكن لم يبقوا فيها خالدا، بل خرجوا منها والرسول عليه الصلوات والسلام

(١) وكونه أكلا حتى البهائم أو الحشرات تأكله ولولا يأكل الإنسان فى العادة



أيضا دخل الجنة فى المعراج وثم خرج منها وجميع أرواح المؤمنين يكونون فى الجنة فى عالم البرزخ وثم يخرجون منها للحساب يوم القيامة وهٰذا كلهٗ لا ينافى كون الجنة جنة الخلد لأن كل هؤلاء يعودون فى الجنة بعد يوم القيامة ويكونون خالدا فيها دائما أبدا.

وما ذكرنا فى حق الجنة ينطبق على النار أيضا، ولو قيل أن الجنة والنار تتجدد فيهما النعم (فى الجنة) والعذاب (فى النار) ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ (النساء:٥٦) وكذٰلك النعم فى الجنة كما جاء فى الرواية "إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرىٰ." (المعجم الكبير، ح:١٤٤٩) فما ذا تقولون فى حق هٰذه كلها فى ضوء الآية ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (القصص:٨٨). قلنا بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز أولا أنك قلت أن هٰذه المتجددات فكل تهلك وتتجدد فلا ينافى الآية وثانيا الآية تقول ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص:٨٨) "وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" يعنى يوم معادكم فيجزيكم بأعمالكم إن خيرا فخير وإن شرا فشر وهٰذه النعم والعذاب المتجددة بعد يوم المعاد.

فحاصل الكلام أنهٗ يمكن والله أعلم أن كل شيء يهلك عند النفخة الأولىٰ وما بقى من الملائكة فبعدها وقبل النفخة الثانية ويطرأ على الجنة والنار والعرش والكرسي الهلاك فى وجه ما وكذٰلك الشهداء لأن لو ثبت أن الأنبياء عليهم الصلوات والسلام يصعقون وهم فوقهم فلا بُعد للشهداء من باب الأولىٰ والرواية التى ذكرنا عن استثناء هم ضعيفة لأن فيه رجل غير معروف وكذٰلك جميع الأشياء (إلاما ذكرنا عن سيدنا موسىٰ عليه السلام وهو لا ينافى الآية كل شيء هالك إلا وجهه لما ذكرنا) فيبقى الله وحدهٗ لا شريك لهٗ ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (المؤمن:١٦) والله أعلم ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم. وبين النفختين أربعون سنة وقال الحلبى إتفقت الروايات علىٰ أن بين النفختين أربعون سنة (التذكرة للقرطبى) ثم ينزل الله من السماء ماء كأنهٗ الطل فتنبت منه أجساد الناس كما جاء فى الحديث وفى الحديث "وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظما واحدا." (صحيح البخاري، ح:٤٩٣٥) وفى رواية "لا تأكله الأرض أبدا." (صحيح مسلم، ح:٢٩٥٥) وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة وفى "التذكرة للقرطبى" وقال الحليمى اتفقت الروايات علىٰ أن بين النفختين أربعون سنة وذٰلك بعد أن يجمع الله تعالىٰ ما تفرق من أجساد الناس من بطون السباع وحيوانات الماء وبطن الأرض وما أصاب النيران منها بالحرق والمياه بالغرق وما أبلته الشمس وذرته الرياح فإذا جمعها وأكمل كل بدن منها ولم يبق إلا الأرواح جمع الأرواح فى الصور وأمر إسرافيل عليه السلام فأرسلها بنفخة من ثقب الصور فيرجع كل روح إلى جسده بإذنه تعالىٰ وجاء فى بعض الأخبار ما يبين أن من أكله طائر أو سبع حشر من جوفه وهو

ماروآه الزهرى عن أنس رضي الله تعالى عنه قال مر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بحمزة يوم أحد وقد جزع ومثل به فقال "لولا أن تجد صفية فى نفسها لتركته حتى يحشره الله من بطون السباع والطير." (مسند أبى يعلى، ح:٣٥٦٨) (التنبيه: الصور بالصاد قرن تنفخ فيه النفخة الأولى للفناء وهي نفخة الصعق ويكون معها نقر لقوله تعالى ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ (المدثر:٨) أى فى الصور فإذا نفخ فيه للإصعاق جمع بين النقر والنفخ لتكون الصيحة أشد وأعظم) وقال فى مكان آخر ثم يمكث الناس أربعين عاما ثم ينزل الله ماء كمني الرجال على ماتقدم فتكون منه الأجساد بقدرة الله تعالى حتى يجعلهم بشرا ، كما روى فى قصة الذين يخرجون من النار قد صاروا حمما إنهم يغتسلون من نهر بباب الجنة (فينبتون نبات الحبة فى حميل السيل (يعنى به عصاة المؤمنين)) وعن ذلك عبر فى حديث أبى هريرة رضي الله تعالى عنه فى صحيح مسلم وغيره "فينبتون نبات البقل." (ح:٢٩٥٥) فإذا تهيأت الأجساد وكملت نفخ فى الصور نفخة البعث (المراد إرسال الأرواح من ثقب الصور إلى أجسادها لا تنقيرها من أجسادها فالنفخة الأولى للتنقير وهي نظير صوت الرعد الذى قد يقوى فيمات منه ونظير الصيحة[1] الشديدة التى يصيحها الرجل بصبى فيفزع منه فيموت فإذا نفخ للبعث من غير نقر كما ذكرنا) خرجت الأرواح من المجال الذي هي فيه فتأتى كل روح إلى جسدها فيحييها الله كل ذلك فى لحظة كما قال تعالى ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ (الزمر:٦٨) ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (لقمان:٢٨) وعند أهل السنة أن تلك الأجساد الدنيوية تعاد بأعيانها وأعراضها بلاخلاف بينهم انتهى. قلت ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ (المدثر:٨) قد فسرت بالنفخة الأولى والثانية وظاهر القرآن يقتضى الثانية فيكون النقر[2] فى النفختين والله أعلم وفى رواية أبى هريرة رضي الله تعالى عنه أن الله تعالى يحيى جبريل وميكائيل وإسرافيل فيأمر الله إسرافيل فيأخذ الصور ثم يدعوا الله تعالى الأرواح فيؤتى بها، تتوهج أرواح المسلمين نورا والأخرى مظلمة فيأخذها الله[3] فيلقيها فى الصور ثم يقول لإسرافيل عليه السلام انفخ نفخة البعث فينفخ فتخرج الأرواح كلها كأمثال النحل قد ملأت مابين السماء والأرض فيقول الله عزوجل وعزتى وجلالى ليرجع كل روح إلى جسده فتدخل الأرواح فى الأرض إلى الأجساد......ثم تدخل فى الخياشيم فتمشى فى

(١) لا يعنى أن النفخة الثانية ليست بصيحة

(٢) لأن النقر هو صوت وقدجاء فى القرآن عن النفخة الأولى ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ (يس:٤٩) وجاء عن النفخة الثانية ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (يس:٥٣) فكلاهما صيحة وهو صوت فكلاهما نقر

(٣) وليس أخذه كأخذنا وهو تعالى عن الأعضاء والجوارح ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس:٨٢)

الأجساد مشى السم فى اللديغ ثم تنشق الأرض عنكم ." (شعب الإيمان، ح:٣٤٦) وفى القرآن ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللّٰهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ (الزمر:٦٨) وأيضا ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ (يٰس:٥١) وأيضا ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ (الانفطار:٤-٥) وأيضا ﴿هٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ (المرسلات:٣٨) وأيضا ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (يٰس:٥٣) ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ (ق:٤٢-٤٤) ونحن قد ذكرنا فى النفخة الأولى تكوير الشمس وذهاب ضوئها والقمر وانكدار النجوم وتسيير الجبال فإزالتها عن مواضعها (وإيقاعها على الأرض كما روي عن أبى بن كعب رضي الله تعالىٰ عنه) ورجف الأرض وتعطيل العشار وحشر الوحوش وتسجير البحار وانفطار السماء وغيرها من الأمور فالأن فى النفخة الثانية مد الأرض مديدا وفى القرآن ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ (الانشقاق:٣-٥) والجبال فقد قال اللّٰه تعالىٰ فى القرآن: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾ (المزمل:١٤) وأيضا ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ (طٰه:١٠٥-١٠٧) ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (الكهف:٤٧) أى تصير ككثبان الرمل بعد ما كانت حجارة صماء ثم إنها تنسف نسفا فلا يبقىٰ منها شيء إلا ذهب حتىٰ تصير الأرض قاعا صفصفا لا ترىٰ فيها عوجا أى واديا ولا أمتا أى رابية ومعناه لا شيء ينخفض ولا شيء يرتفع وهٰذه هي النفخة الفزع كما فى القرآن ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللّٰهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللّٰهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ (النمل:٨٧-٨٩) وهي النفخة الثانية وعند البعض نفخة الفزع هي النفخة الأولىٰ وظاهر القرآن يردهم كما هو ظاهر من هٰذه الآيات والاستثناء من الفزع هو أيضا ظاهر يعنى من جاء بالحسنة وأيضا فى القرآن ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلٰئِكَةُ هٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (الأنبياء:١٠١-١٠٣) وفى الحديث "يحشر الناس يوم القيامة علىٰ أرض بيضاء عفراء كقرصة النقىّ ليس فيه علم لأحد(صحيح مسلم، ح:٢٧٩٠) وهٰذه هي الساهرة ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ (النازعات:١٣-١٤) وتعاد الجنة والنار والعرش والكرسي والسماء إلى هيئتها الأولىٰ وتكون الشمس قريبة حتىٰ تكون

منهم قدر ميل كما جاء فى الحديث والناس يحشرون إلى أرض المحشر وقد جاء فى تفسير الآية ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ (ق: ٤١) أن ملكا ينادى على صخرة بيت المقدس "أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة إن الله تعالى يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء"، ويحشرون الناس إلى المحشر مشاة وركبانا وعلى وجوههم يعرضون على الله تعالى وعلى أفواههم الفدام [1] كما جاء فى الحديث فى مسند أحمد(ح: ٢٠٠٢٢) وفى القرآن ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (الكهف: ٤٧) والحشر معناه الجمع وهم أجوع ما كانوا قط وأظمأ ما كانوا قط كما جاء فى الأثر وهم حفاة، عراة، غرلا كما جاء فى الحديث(صحيح مسلم، ح: ٢٨٦٠) وفى القرآن ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (عبس: ٣٧) وقد جاء فى الرواية الضعيفة أنهم يقومون فى المحشر مقدار سبعين عاما [2] فيضجون وحينئذ يطلبون الشفاعة لفصل القضاء، وهم فى العرق على قدر أعمالهم فمنهم من يكون إلى كعبيه ومنهم من يكون إلى حقويه ومنهم من يلجمه العرق إلجاما وأشار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى فيه كما جاء فى الحديث الصحيح وانشقت السماء وينزل الملائكة منها وفى القرآن ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ (الانشقاق: ١-٢) وأيضا ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ (المزمل: ١٨) وأيضا ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ (المعارج: ٨-١٠) وأيضا ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن: ٣٧-٣٨) وأيضا ﴿وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ [3] وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ (الواقعة: ١٧) وأيضا ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ (النبأ: ١٩-٢٠) ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ (الفرقان: ٢٥-٢٦) فانشقت السماء

---

(١) يعنى أنهم منعوا من الكلام وفى الحديث إن أول ما يعرب عن أحدكم فخذه يعنى فى يوم القيامة

(٢) ولو قيل أنك قلت أن يوم القيامة من النفخة الأولى إلى دخول الجنة أو النار فكيف يصح مقدار سبعين عاما انتظارًا لبدء القضاء وأربعين عاما بين النفختين؟ فالجواب بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز هو يوم القيامة مقداره خمسين ألف سنة كما جاء فى الحديث "حتى يحكم الله بين عباده فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة." (صحيح مسلم، ح: ٩٨٧) ومقدار سبعين عاما أو أربعين عاما لا شيء بنسبته ومع ذلك يخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من الصلوة المكتوبة يصليها فى الدنيا كما جاء فى الحديث.

(٣) وهذا انشقاق السماء غير الانفطار الذى فى النفخة الأولى، هذا الانشقاق يكون أشدا بأضعاف حتى تكون السماء واهية وثم بعدها أزيلت وبدلت بالسماء الأخرى وسيأتى ذكرها إن شاء الله تعالى ويقال: الحائط واهية إذا كان على شرف السقوط بسبب الانشقاق والسماء تكون على شرف الإزالة والتبدل والله أعلم.

فتكون على شرف الزوال وتكون كمثل الدهان والمهل وتكون ذو أبواب وطرق وتنزل الملائكة تنزيلا من سماء بعد سماء حتىٰ من سبعها كلها فيحيطون بالناس فى المحشر كما جاء فى الأثر وتنزل حملة العرش (ويكون العرش علىٰ ظهورهم) والكروبيون. وحملة العرش ثمانية كما فى القرآن ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ (الواقعة:١٧) وفى بعض الروايات "أن حملة العرش اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله تعالىٰ بأربعة (تفسير الطبرى: ج:٢٣،ص: ٢٢٩) أخرى فكانوا ثمانية وفى بعض الرواية أنها ثمانية الأن مثل يوم القيامة فى صور الأوعال بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين السماء إلى السماء وهو واحد أو ثنتان أو ثلاث وسبعون سنة وعلىٰ ظهورهم العرش والله أعلم

وأوّل من يكسى يوم القيامة فإبراهيم عليه الصلوات والسلام قبطيتين وهذه فضيلة عظيمة لخليل الله عليه الصلوات والسلام ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (النحل:١٢٠-١٢١) وثم يكسى النبي الأعظم نبينا محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم حلة عن يمين العرش وهذه فضيلة جزئية لسيدنا إبراهيم عليه السلام ولا ينافى أفضلية نبينا صلى الله تعالىٰ عليه وسلم من حيث الجملة.

التنبيه: ونحن ذكرنا فوقا نزول الملائكة عليهم الصلوات والسلام ،وفيه ذكرنا نزول حملة العرش والعرش يكون فوقهم. واعلم أن الاستواء على العرش صفة لله تعالىٰ وهو لا يتعلق بالمكان والزمان فالعرش ليس مكان الله تعالىٰ (معاذ الله تعالىٰ) فنزول العرش من مكانه الأعلىٰ إلى التحت ليس لهٗ علاقة باستواء الله تعالىٰ عليه؛ لأنهٗ ليس علىٰ معنى الاستقرار والمكان ونحن قد فصلنا فيه سابقا والله عزوجل لا يتمكن فى مكان ولا يجرى عليه زمان ولا يشغلهٗ شأن عن شأن فالاستواء قائم بالعرش مع نزول العرش من مكانه. ونحن ذكرنا هذا تمهيدا لذكر مجيئ الله سبحانهٗ وتعالىٰ كما يليق بشأنه فى ظلل من الغمام وفى القرآن ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (الفجر:٢٢) وصفا صفا صفة للملائكة وأما مجيئ الله سبحانهٗ وتعالىٰ فقد قال الله عزوجل فى القرآن ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (البقرة:٢١٠) والمعلوم أن الله عزوجل تعالىٰ وتنزه من الانتقال من مكان إلىٰ مكان وكذلك تقدس عن أن يكون فى ظلة من شيء وذلك؛ لأنهٗ تعالىٰ عن المكان والزمان وأيضا الكون فى الظل من الشيء لمن يمسه ضوء الشيء كما نحن نكون فى ظل الشجرة حتىٰ نتقى من مس ضوء الشمس الحار والله عزوجل تنزه عن هذه كلها لأن المماسة والاتحاد من صفات الأجسام والله عز وجل تعالىٰ عن ذلك وأما الملائكة فهم خلقوا من نور وهم ذووالأجسام والأرواح، والمماسة من صفاتهم كما هى ثابتة من النصوص فى ذكر الأعمال التى يفعلونها وكذلك هم يتمكنون فى المكان ويجرى عليهم الزمان كما قال الله

تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَٰوَاتِ﴾ (النجم:٢٦) فكونهم فى ظلل من الغمام على حقيقته؛ لأنهُ لا استحالة فيه فلو تسأل ما هو المعنى لإتيان الله سبحانهُ وتعالى فى ظلل من الغمام لفصل القضاء؟ فقلنا بتوفيق الله تعالى أن هٰذه الآية من المتشابهات، والراسخون فى العلم يقولون آمنا بهِ كل من عند ربنا فيجب الإيمان بها بدون التشبيه والتجسيم كما يليق بالله تعالى مع القطع أن كون الله فى المكان او انتقاله من مكان إلى مكان غير مراد وهٰذا كافى والحمد لله ولا يمكن لنا ولا يجوز أن نقطع على التأويل من التأويلات لهٰذه الآية لأن سبيله التوقيف فإذا لا نطلع عليه توقيفا فلا يجوز لنا أن نعين تأويلا من التأويلات فبدون القطع نقول بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز هو نحن ذكرنا قبلاً نزول العرش مع صفة الاستواء قائمة بهِ لأن الله عزوجل استواءه لا يتعلق بالمكان ولا يشغلهُ شأن عن شأن، وإنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول لهُ كن فيكون ،ونحن نعرف أن الملائكة ميقاتهم الذى يتكلمون عنده ويتصلون بالله تعالى هو عند العرش وكذٰلك سيدنا موسٰى عليه السلام كان ميقاته ،الذى تكلم مع الله عزوجل عليه، على الطور وهو الشجرة التى عليها حجاب من النار ونحن قد ذكرنا هٰذا قبلا وقد جاء فى الآثار سبعون ألف حجاب فوق السمٰوات فوق العرش والحديث الصحيح يقول أن حجابه النور أو النار وقدجاء فى الآثار أن حجابه النور والظلمة والماء والمعلوم أن الله عزوجل لا يحجبه شيء، بل الحجاب يرجع إلى الخلق فعند ما الملائكة يتكلمون مع الله عزوجل عند العرش فهم يواجهون هٰذه الحجب كما سيدنا موسٰى عليه السلام كان يواجه النار عند الكلام مع الله عزوجل فهٰذه الحجب ترجع إلى الخلق والله عزوجل تعالى وتقدس عن الحجاب لا يغلبه شيء ولا يكتنفه وهو الغالب القهار المتنزه عن الزمان والمكان وكذٰلك قدجاء فى الآثار أنهُ تعالى وتقدس يوم القيامة يهبط(ليس على ظاهر المعنى) لما يهبط وبينه وبين خلقه سبعون ألف حجاب فالأن عند ما نجمع كل هٰذا فوالله أعلم عند ما تنزل حملة العرش ويكون العرش على ظهورهم وتكون سبعون ألف حجاب فوق العرش وهٰذه الحجب نفس الحجب التى هي الأن فوق العرش فعندما ينزل العرش فتنزل الحجب كما جاء فى الآثار التى ذكرنا والمعنى بينه وبين خلقه يعنى الله عزوجل يتكلم مع الخلق وهم يواجهون هٰذه الحجب ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (الشورى: ٥١) يعنى الحجب التي ترجع إلى الخلق والله تعالى وتنزه عن أن يحجبه شيء أو يحيطه؛ لأنهُ بكل شيء محيط كما يليق بشأنه ولا يحيطه اى شيء.

وهٰذا إلا فى بعض المواضع فى عرصات يوم القيامة يعنى لما يتجلى الله عزوجل للمؤمنين وهم ينظرون إليه تعالى كما جاء فى الأحاديث فحينئذ لا يكون عليهم الحجاب فوالله أعلم معنى الآية ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾

(البقرة:٢١٠) والآية ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (الفجر:٢٢) هو أن الملائكة ينزلون من السماء صفا صفا حتى الكروبيون وحملة العرش ينزلون فى آخرهم ويكون العرش على ظهور حملة العرش وتكون فوق العرش سبعون ألف حجاب كما جاء فى الأثر من النور والظلمة والماء وكل هذا يعنى الكروبيون وحملة العرش والعرش والحجاب فى ظلل من الغمام، وكما سيدنا موسى عليه الصلوات والسلام قال ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ (طه:٨٤) وهذا إذا جاء إلى الشجرة التى فيها حجاب الله "النار" فعبر الإتيان إلى الحجاب الإتيان إلى الله ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ (طه:٨٤) فعبر إتيان الحجاب إتيان الله عزوجل فى ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ (البقرة:٢١٠) وكما سيدنا موسى عليه السلام كان يواجه الحجاب وهو لا يتعلق بذات الله وصفاته فكذلك الخلق يوم القيامة يواجهون الحجاب وهو لا يتعلق بذات الله وصفاته لأن الله عزوجل هو تعالى وتقدس عن الحلول والاتحاد والتجسم والتشبه والمماسة والتمكن وأن يكون فى الزمان كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (النحل:٢٦) وكما قال ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ (الحشر:٢) والمعلوم ليس المعنى فى هاتين الأيتين للإتيان على الانتقال من مكان إلى مكان، بل عبر هدم القواعد وسقوط السقف من فوقهم بالإتيان على البنيان وعبر العذاب بقتل سيدهم (اليهود) كعب بن الأشرف بالإتيان من حيث لم يحتسبوا كذا فى التفسير فكذلك عبر نزول عرشه وحجابه فى ظلل من الغمام بإتيانه تعالى وتقدس وهبوطه.

ولو قيل أن الملائكة للسموات والكروبيين وحملة العرش مع الخلق للأرض كيف تسع الأرض لكلهم؟ قلنا بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز أنه قد جاء فى الأثر الصحيح عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه قال "إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مدالأديم وزيد فى سعتها كذا وكذا"؟ (مسند الحارث، ح: ١١٢٢) فالأن نذكر الآية ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا﴾ (الفرقان:٢٥-٢٦) فهذه الآية على جميع ما ذكرنا مع ما جاء فى الآثار فى تفسير هذه الآية يكون معناها أن السماء يعنى الجنس فكلها تنشق واحد بعد واحد مع نزول ملائكتها حتى تنشق السماء السابعة عن الغمام مع نزول ملائكتها فينزل الكروبيون وحملة العرش وفوقهم العرش وفوقه الحجاب فى ظلل من هذا الغمام والله أعلم يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

وفى القرآن ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ (الزمر:٦٩) ومعناه فى التفسير عن الحسن وغيره "بعدل ربها" وعن الضحاك "بحكم ربها" وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنه "نور يخلقه الله فيضيء به الأرض" والمعلوم أن النور فى معنى الحقيقة لا يمكن إطلاقه على الله تعالى لأن النور وهو

الضوء هو جسم حتى المعروف أن الملائكة خلقوا منه والله تعالىٰ وتقدس منتزه عن هذه الأمور، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، ولهذا فسروا كما ذكرنا بالحكم أو بالعدل أو بالنور المخلوق وهذا الأخير الذى روي عن ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنه، يحتمل أن يقال أن الحجاب فى يوم القيامة على الخلق من الله عزوجل يعنى الحجاب النورىّ والمعلوم أن هذه الحجب كلها مخلوقة تكون مضيئة للأرض فقال "بنور ربها" يعنى حجابه النور، والله أعلم ،ونحن قد ذكرنا أن الشمس تكون علىٰ قدر ميل والناس فى العرق علىٰ قدر أعمالهم، ويومئذ لا ظل إلا ظل الله يعنى ظل عرشه كما جاء مفسرا فى الحديث والله عزوجل تعالىٰ وتنزه عن أن يكون لهٗ ظل؛ لأنهٗ من صفات الأجسام والله عزوجل يظل من يشاء من عباده فى ظل عرشه يومئذ برحمتهٖ ثوابا لأعمالهم وطاعتهم.

ثم هٰذه السمٰوات المتشققة والأرضون فالله عزوجل يقبض الله الأرض ويطوى السمٰوات بيمينه ثم يقول أنا الملك، أين الملوك، أين ملوك الأرض كما جاء فى الحديث الصحيح وفى رواية جاء يهودى إلى النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فقال يا محمد إن الله يمسك السمٰوات علىٰ إصبع والأرضين علىٰ إصبع والجبال علىٰ إصبع والشجر علىٰ إصبع والخلائق علىٰ إصبع ثم يقول أنا الملك فضحك رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم حتىٰ بدت نواجذهٖ ثم قرأ ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ (الزمر:٦٧) (صحيح البخاري، ح: ٤٨١١) وفى القرآن ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(الزمر:٦٧) وأيضا ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٤) وفى الحديث عن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها أن الناس حينئذ على الصراط(الترمذى ح: ٣٢٤٢)، وهٰذا حين تبدل الأرض غير الأرض والسمٰوات ،وهٰذا لأن فى الحديث أخرجه مسلم الناس على الصراط "يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات." (صحيح مسلم، ح: ٦٧٩١) وكذٰلك ذكرنا من الحديث (الترمذى ح: ٣٢٤٢)أن الناس على الصراط حين ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾(الزمر:٦٧) فهو ذكر عن نفس الحادثة فهٰذه الأرضون تكون مقبوضة والسمٰوات مطويات وتبدل الأرض والسمٰوات والخلق حينئذ على الصراط وهو الجسر علىٰ جهنم وما فضل منهم يكون فى الظلمة دون الجسر كما فى الحديث الآخر أخرجه مسلم(ح:٣١٥) فتبدل الأرض بالأرض من فضة بيضاء لم تعمل عليها خطيئة كما جاء فى الآثار والسماء بالسماء من ذهب كما جاء فى الآثار وهم يحاسبون علىٰ هٰذه الأرض البيضاء والكلام فى الآية والحديث وهو أنهٗ من المتشابهات لأن ظاهرهٗ لا يجوز فى حق الله تعالىٰ؛ لأنهٗ يوجب الاتحاد والمماسة والأعضاء والجوارح والله تعالىٰ وتقدس عن هٰذهٖ كلها ولا نستطيع أن

نقطع تأويلا من التأويلات بدون التوقيف فنقول بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز فى وجه الاحتمال هو ان الله تعالىٰ يقول ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس:٨٢) والمعلوم أن طي السمٰوات وقبض الأرض لا يكون إلا بإرادة الله الأزلية ونحن قد فصلنا فى هٰذا المجال سابقا أن الله عزوجل افعالهٔ يكون بتكوينه وبكلامه وبإرادته وقدرته الأزلية، والمفعولات مخلوقة حادثة، فإذا جاء الوقت لكون هٰذه الحادثة من طي السمٰوات وقبض الأرض فالسمٰوات تكون مطويات بتكوينه وإرادته وكلامه وقدرته الأزلية ويشير إليه "بيمنيه" لأن اليمين فى اللغة العربية قد يكون علىٰ معنى القدرة والملك كما فى ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ (النساء:٣) يريد بها الملك وأيضا ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ (الحاقة:٤٥) أى بالقوة والقدرة أى أخذناه بالقوة هٰكذا فسر من ابن عباس ومجاهد ومنه قول الشماخ:

إذ مارايةٌ رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

أى بالقوة وعرابة اسم رجل من الأنصار من الأوس وكذٰلك الأرض تكون مقبوضة وفى رواية "يأخذ الله سماواته وأرضه بيديه." (صحيح ابن حبان، ح:٧٣٢٤) وفى حديث "كلتا يديه يمين." (صحيح مسلم، ح:١٨٢٧) فحاصل أن الأرض تكون مقبوضة بيمينه فيرجع إلى ما قلنا من تكوينه وقدرته وكلامه وإرادته الأزلية، فالسمٰوات تكون مطويات وهٰذا أيضا كما فى القرآن ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ (التكوير:١١) أى تنزع من مكانها فقلعت وطويت وأيضا ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ (الطور:٩) قد يكون عند طيها؛ لأنهٔ قدجاء فى تفسير هٰذه الآية تحرك والاضطراب والموج بعضها فى بعض فممكن هو عند طيها والأرض تكون مقبوضة وثم يفعل الله بها ما شاء الله أن يفعل ويجعل مكانها السمٰوات والأرضون الأخرىٰ كما ذكرنا.

وأما حديث اليهود فاعلم انهٔ ليس فيه صراحة لوصف الله بالأصابع؛ لأنهٔ لا يقول "علىٰ اصبعه"، بل يقول "علىٰ إصبع" ثم لا يجوز حمل الأصابع فى معنى الجارحة كما هو المعلوم وكما يقول الله تعالىٰ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (فاطر:٤١) وليس معناها إمساك بالجوارح كما هو المعلوم، بل معناه أن السمٰوات والأرض ممسكة بقدرة الله تعالىٰ كما لا يخفى وكما قال تعالىٰ ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ (النحل:٧٩) وكما قال تعالىٰ ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (الحج:٦٥) وكل يرجع إلى قدرة الله تعالىٰ الكاملة كما لا يخفى ولا يتعلق قطعا وبتاتا بالأعضاء والجوارح وهٰذا معلوم ضرورة فكذٰلك انظر إلى هٰذا الحديث "إن الله يمسك السمٰوات علىٰ

إصبع والأرضين على إصبع ." (صحيح البخاري: ح: ٤٨١١) فكل يرجع إلى قدرة الله تعالى المطلقة وسيطرته الكاملة ومعنى "على إصبع" مع الملاحظة أنه ليس "على إصبعه" وأنه لا يجوز فى معنى الجارحة فالمعنى على "إصبع" على وجه الاحتمال هو كناية عن يسار هذه الأمور فى حق الله تعالى لأن الله تعالى لا يعجزه شيء وهو القادر المقتدر وليس عليه شيء بعزيز.

ثم قراءة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم للآية ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الزمر:٦٧) تدل على أن ما قال اليهود تشير إليه هذه الآية ونحن قد ذكرنا من الحديث أن الناس حينئذ على الصراط فما معنى كونهم على إصبع، وأما الجبال فقد قال الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ (طه:١٠٥-١٠٧) فما معنى كونها على إصبع؟ وكذلك ما معنى كون الشجر على إصبع والأرض تكون قاعا صفصفا وغايتنا بهذا البيان هو بطلان قول المجسمة ومنها المصرحة وهم يكفرون بالله بعقيدتهم الفاسدة ومنها غير المصرحة كمثل ابن تيمية وأتباعه الذين يأخذون كل هذا على ظاهرها وثم يستترون بالقول أنه بلا تشبيه ولو تفتش عن أحوالهم لتجد أن كثيرا منهم يأخذون هذه النصوص على المعنى الجسمية وأنت ترىٰ أن الناس على الصراط ويعتبر كونهم على إصبع. وأما الجبال فقد قال الله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا﴾ (الواقعة:٦) وكذلك الأشجار تقلع وتزال عن مكانها لتكون الأرض ليس فيها عوجا ولا أمتا وهذا قبل قبض الأرض وطى السموات فى نفس اليوم، فوالله أعلم المعنى أن الأرض تكون مقبوضة مع الهباء المنبث من الجبال وما بقيت من الأشجار، والسموات تكون مطويات كلها بقدرة الله تعالى ،والله أعلم ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

وأما الناس فيكون على الصراط ،وما فضل منهم يكون فى الظلمة دون الجسر، ممسكة بقدرة الله تعالى عليه ثم يحول إلى الأرض الجديدة من فضة بيضاء للحساب ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (ابراهيم:٤٨)

٭التنبيه: قد جاء فى القرآن ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ (ص:٧٥) وفى هذا، المعلوم أن اليدين لا يجوز على معنى الجارحة فى حق الله تعالى ولا خلقه بيديه على معنى الاتحاد والمماسة وفى القرآن ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (آل عمران:٥٩) ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس:٨٢) ولأن الجارحة والمماسة والاتحاد من صفات الأجسام والله تعالى ليس كمثله شيء وهو

السميع البصير ومع ذٰلك لا نؤول صفة اليدين، بل نثبتهما كما جاء ت توقيفا صفتين من صفات اللّٰه كما هو مسلك السلف الصالح فى هاتين الصفتين، وكلتا يديه يمين كما فى الحديث وهٰذا مع القطع بنفى الأعضاء والجوارح فى حق اللّٰه تعالىٰ لما بيّنا واللّٰه الموفّق.

ثم هٰذه الأرض الجديدة من الفضة البيضاء تكون خبزا لأهل الجنة يأكلون منها فى المحشر وفى الحديث "تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة [1] نزلا لأهل الجنة." (صحيح البخاري، ح:٦٥٢٠) واللّٰه أعلم ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم. ونحن قد ذكرنا أن أهل المحشر يكونون فى أحوال شديدة إلا من رحم اللّٰه ثم هم يبحثون عن الشفاعة لفصل القضاء وبدأ الحساب، فيذهبون إلى سيدنا آدم عليه السلام وهو يرسلهم إلى سيدنا نوح عليه السلام وهو يرسلهم إلىٰ سيدنا إبراهيم عليه السلام وهو يرسلهم إلى سيدنا موسىٰ عليه السلام وهو يرسلهم إلى سيدنا عيسىٰ عليه السلام وهو يرسلهم إلى سيدنا ونبينا خاتم الأنبياء محمد صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم فهو يتقدم لهٰذه الشفاعة العظمىٰ وهٰذه الشفاعة لهٗ خاصة وهٰذا لابتداء الحساب فيشفعه اللّٰه ويبدأ الحساب ونحن قد ذكرنا عن الشفاعة بالتفصيل سابقا وهٰذا ما ذكرنا كلهٗ ثابت فى الأحاديث الصحيحة.

العرض:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه اللّٰه تعالىٰ ذكر "العرض" وهو يرجع إلى معنى أكثر من واحد فمنها ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ (الكهف:٤٨) يعنى فى يوم القيامة للحساب وقد جاء فى الحديث أخرجه الترمذي (ح:٢٤٢٥) وأحمد (ح:١٩٧١٥) ،واللّٰه أعلم عن صحته وقد تكلم فى سنده، عن النبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم "يعرض الناس يوم القيامة ثلا ث عرضات فأما عرضتان فجدال ومعاذير وأما الثالثة فتطاير الكتب يمينا وشمالا" فعلىٰ أى حال أن المعلوم أنهٗ يكون الحساب والمحاسبة وهٰذا من ضرورات الدين ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن

---

(١) "يتكفوها الجبار بيده كما يكفو أحدكم خبزته فى السفر نزلا لأهل الجنة" واللّٰه أعلم يحتمل معناه أن أهل الجنة لما يأخذون من تحتهم من الأرض من الفضة البيضاء يجدونها خبزة واللّٰه عزوجل يكفأ هذه الحصة منها بقدرته كما يكفو أحدنا خبزته فى السفر فتكون خبزة لأهل الجنة أكلا لهم فى المحشر واللّٰه رؤوف بالعباد أو التأويل الأظهر أن هذه الإشارة لما تبدل الأرض وتؤتى بالأرض الجديدة مكانها وحينئذ يكون الناس على الصراط أو فى الظلمة دون الجسر فهٰذه الأرض الجديدة قبل أن يوضع عليها الناس يكفوها الجبار بقدرته والمعلوم ليس كفوه بالجوارح كما ليس إمساكه بالجوارح كما ذكرنا؛ لأنهٗ تعالى عن ذلك ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فينقلب الأرض ظهرا وبطنا كمثل الخبز واعتباره بالخبز؛ لأنهٗ تكون خبزة لأهل الجنة يوم القيامة حتى يقر اللّٰه على مكانها واللّٰه أعلم

يَشَآءُ﴾ (البقرة:٢٨٤) ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ (الغاشية:٢٥-٢٦) ويؤتى بالشهداء مثلا كراما كاتبين والأنبياء عليهم الصلوات والسلام والأعضاء والجوارح للمكلف والأرض وما شاء الله وفي القرآن ﴿وَجِايْٓءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ (الزمر:٦٩) ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ (النساء:٤١) ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النور:٢٤) ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (يٰس:٦٥) ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ (ق:٢١) وفي الحديث "قرأ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم " يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا" قال أتدرون ما أخبارها؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها أن تقول عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا فهذه أخبارها" ثم قال الترمذي هذا حديث صحيح غريب(ح: ٢٤٢٩) وفي القرآن ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِ مَسْرُورًا وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَآءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ (الانشقاق:٧-١٢) ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَآؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ (الحاقة:١٨-٢٧) والآية ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (الانشقاق:٧) تدل بالقطع على الحساب بعد إيتاء الكتاب في اليمين ثم الحديث الصحيح "يدنى [1] الله العبد يوم القيامة فيقرره بذنوبه كلها حتى إذا رأى أنه قد هلك قال الله تعالى: إني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد ﴿هَٰٓؤُلَآءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (هود:١٨) " وكذلك ما ذكرنا الحديث سابقا عن ثلاث عرضات ظاهرها يخالف الآية، لكن لا تعارض لأن ولو السؤال وتمهيد المحاسبة يبدأ قبل إيتاء الكتاب، لكن المحاسبة الكاملة تكون بعد إيتاء الكتاب، وهذا ما ذكرنا سابقا أن العرض الذى ذكره الشيخ الطحاوي رحمه الله تعالى يأتي على معنى أكثر من واحد فنحن ذكرنا واحدا منها وثانيا وهو تفسير الحساب اليسير كما جاء في الحديث عن عائشة رضي الله تعالى عنها عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم "من نوقش الحساب عذب، قالت أليس قال الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (الانشقاق:٧) قال ليس ذاك بالحساب و، لكن ذلك "العرض" من نوقش الحساب يوم القيامة عذب." (صحيح مسلم، ح:٢٨٧٦) وهذا المعنى الآخر للعرض وهو الحساب اليسير والحساب اليسير يوم القيامة

(١) ليس حسيا ومسافة تعالى الله عن ذلك، بل كما يليق بشأن الله عزوجل

الذی هو یوم الحساب کما هو ظاهر تقدیر اعمال العباد وتحقیقها علیه والمحاسبة علیها والسؤال عنها و المجازاة علیها بالمغفرة وهذا هو العرض الذی هو الحساب الیسیر کما جاء تفسیرا فی الحدیث وهناک حدیث آخر فی تفسیره وهو أیضا عن عائشة رضي الله تعالٰی عنها عن النبي صلی اللّٰه تعالٰی علیه وسلم قال "أن ینظر فی کتابه فیتجاوزلهٗ عنه إنه من نوقش الحساب یا عائشة یومئذ هلک" صحیح علٰی شرط مسلم(صحیح ابن خزیمة، ح: ٨٤٩) وهذا هو یکون بعد إیتاء الکتاب وأما التحقیق والسؤال والتقریر فیبدأ قبلهٗ وهذا ما ذکرنا إن شاء الله یکون جوابا لبعض الأسئلة فی هذا الموضوع وسنذکره إن شاء الله العزیز.

والسؤال حق یوم القیامة وإنکاره کفر وفی القرآن ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِيْنَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِيْنَ﴾ (الأعراف:٦) ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُوْلُوْنَ﴾ (الصافات:٢٤) ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيْمِ﴾ (التکاثر:٨) ﴿فَوَرَبِّکَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ عَمَّا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ﴾ (الحجر:٩٢-٩٣) ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَکَ بِهٖ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولٰئِکَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ (بنی إسرائیل:٣٦) وفی الحدیث الصحیح قال رسول الله صلی الله تعالٰی علیه وسلم "لا تزول قدما عبد یوم القیامة حتٰی یسأل عن خمس، عن عمره فیما أفناه؟ وعن جسده فیما أبلاه؟ وعن علمه ما عمل فیه؟ وعن ماله من أین اکتسبه؟ وفیما أنفقه؟ ." (سنن الترمذي، ح:٢٤١٧) ولا ینافی ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهٖ إِنْسٌ وَّلَا جَآنٌّ﴾ (الرحمٰن:٣٩) و ﴿وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوْبِهِمُ الْمُجْرِمُوْنَ﴾ (القصص:٧٨) لأنهٗ إما محمول علٰی بعد ما تم السؤال والحساب وأمر المجرمین بإدخال النار أو أنهم لا یسألون عن ذنوبهم ،لأن الله یعلمها، سؤال الاستخبار، بل یسئلون "لما عملتموها؟" سؤال توبیخ هکذا فسرت وأیضا أن القیامة مواطن لطول ذٰلک الیوم فیکون شیئًا فی مواطن دون مواطن فمثلا،حال البعث من القبور یکونون الجمیع کامل الحواس والجوارح لقول الله تعالٰی ﴿يَتَعَارَفُوْنَ بَيْنَهُمْ﴾ (یونس :٤٥) وقولهٗ ﴿يَتَخَافَتُوْنَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ (طٰه:١٠٣) وقولهٗ ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَّنْظُرُوْنَ﴾ (الزمر:٦٨) وقولهٗ تعالٰی ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِيْنَ﴾ إلٰی قوله ﴿تُرْجَعُوْنَ﴾ (المؤمنون :١١٢- ١١٥)

والحالة الثانية وهم یکونون کامل الحواس وهي حال السوق إلی موضع الحساب وهم أیضا فی هذه الحالة بحواس تامة لقوله عزوجل ﴿احْشُرُوا الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوْا يَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللهِ فَاهْدُوْهُمْ إِلٰى صِرَاطِ الْجَحِيْمِ وَقِفُوْهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُوْلُوْنَ﴾ (الصافات:٢٢-٢٤)

والحالة الثالثة وهي حالة المحاسبة وهم یکونون فیها أیضا کاملی الحواس لیسمعوا ما یقال لهم ویقرأوا کتبهم الناطقة بأعمالهم وتشهد علیهم جوارحهم بسیئاتهم فیسمعونها وقد أخبر الله تعالٰی أنهم یقولون ﴿مَالِ هٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيْرَةً وَّلَا كَبِيْرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ (الکهف:٤٩) وأنهم

يقولون لجلودهم ﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ (حم السجدة: ٢١) وليشاهدوا أحوال القيامة وما كانوا مكذبين فى الدنيا به من شدتها وتصرف الأحوال بالناس فيها.

والحالة الرابعة وهي السوق إلى جهنم فإنهم يسلبون فيها أسماعهم وأبصارهم وألسنتهم لقوله تعالى ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ (بنى إسرائيل:٩٧) ويحتمل أن يكون قوله تعالى ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ (الرحمن:٤١) إشارة إلى ما يشعرون به من سلب الأبصار والأسماع والمنطق.

والحالة الخامسة حال الإقامة فى النار وهذه الحالة تنقسم إلى بدو ومآل، فبدء ها أنهم إذا قطعوا المسافة التى بين موقف الحساب وشفير جهنم عميا وبكما وصما إذلالا لهم تمييزا عن غيرهم، ثم ردت الحواس إليهم ليشاهدوا النار وما أعد الله لهم فيها من العذاب ويعاينوا ملائكة العذاب وكل ما كانوا به مكذبين فيستقرون فى النار ناطقين سامعين مبصرين ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ (الشورى:٤٥) وقال ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنعام:٢٧) وقال ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ﴾ إلى قوله ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ......﴾ (الأعراف:٣٨-٣٩) وقال ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الملك:٨-٩) وأخبر تعالى أنهم ينادون أهل الجنة فيقولون ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ (الأعراف:٥٠) وأن أهل الجنة ينادونهم ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ (الأعراف:٤٤) وأنهم يقولون ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ (الزخرف:٧٧) فيقول لهم ﴿إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ (الزخرف:٧٧) وأنهم يقولون لخزنة جهنم ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ (المؤمن:٥٠) فيقولون لهم ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (المؤمن:٥١) وأما العقبى والمآل فإنهم إذا قالوا ﴿أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ (المؤمنون:١٠٧) فقال الله تعالى: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ (المؤمنون:١٠٨) وكتب عليهم الخلود بالمثل الذى يضرب لهم وهو أن يؤتى بكبش أملح ويسمى الموت ثم يذبح على الصراط بين الجنة والنار وينادوا يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت، سلبوا فى ذلك الوقت أسماعهم ويجوز أن يسلبوا الأبصار والكلام، لكن سلب السمع باليقين لأن الله تعالى يقول ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ (الأنبياء:١٠٠) فإذا سلبوا الأسماع صاروا إلى الزفير والشهيق، ويحتمل أن تكون الحكمة فى سلب الأسماع أنهم سمعوا نداء الرب سبحانهُ على ألسنة رسله فلم يجيبوه، بل جحدوه

وكذبوا به بعد قيام الحجة عليهم بصحته فلما كانت حجة الله عليهم فی الدنيا الاستماع ،عاقبهم علیٰ كفرهم فی الأخریٰ بسلب الأسماع، يبين ذٰلک أنهم كانوا يقولون للنبي صلی الله تعالیٰ عليه وسلم ﴿وَفِیْ اٰذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِکَ حِجَابٌ﴾ (حم سجدة:٥) وقالوا ﴿لَا تَسْمَعُوْا لِهٰذَا الْقُرْاٰنِ وَالْغَوْا فِيْهِ﴾ (حم سجدة:٢٦) وإن قوم نوح عليه الصلوات والسلام كانوا يستغشون ثيابهم تستروا منه لئلا يروه ولا يسمعوا كلامه وقد أخبر الله تعالیٰ عن الكفار فی وقت نبينا محمد صلی الله تعالیٰ عليه وسلم مثلهٗ فقال ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُوْنَ صُدُوْرَهُمْ لِيَسْتَخْفُوْا مِنْهُ أَلَا حِيْنَ يَسْتَغْشُوْنَ ثِيَابَهُمْ﴾ (هود:٥) وإن سلبت أبصارهم فلأنهم أبصروا الغير فلم يعتبروا والنطق فلأنهم أوتوه فكفروا فهٰذا وجه الجمع بين الآيات علیٰ ما قالهٗ علماء نا (وهٰذا كلهٗ ماخوذ من التذكرة للقرطبی يعنی هٰذا الجمع بين الآيات عن أحوال المحشر) .

واعلم أن العلماء قالوا أن الأنبياء عليهم الصلوات والسلام والذين يدخلون الجنة بغير حساب لا يأخذون صحفا، فأما الأنبياء عليهم الصلوات والسلام فهو ظاهر أنهم من أهل الجنة الأعلیٰ بلا شک، وأما الذين غيرهم الذين يدخلون الجنة بغير حساب فهٰذا أيضا ثابت لا شک فيه كما ثبت فی الأحاديث الصحيحة وفی الحديث "فيقال يا محمد أدخل الجنة من أمتک من لا حساب عليه ." (صحيح مسلم، ح:١٩٤) وأيضا "ليدخلن الجنة من أمتی سبعون ألفا مع كل ألف سبعون ألفا ،ليس عليهم حساب" (مسند أحمد، ح:٢٢٣٣٦) قال العبد الحقير غفر الله لهٗ يدل عليه ما فی سورة الواقعة ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلٰثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُوْنَ السَّابِقُوْنَ أُولٰئِکَ الْمُقَرَّبُوْنَ فِیْ جَنَّاتِ النَّعِيْمِ﴾ (الواقعة:٧-١٢) فأصحاب الميمنة هم الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم وهم جمهور أهل الجنة وأصحب المشئمة هم الذين يؤتون كتبهم بشمالهم وهم أهل النار والسٰبقون السٰبقون وهم ما بقی من أصحب الميمنة من أهل الجنة وهم المقربون لا حساب عليهم، بل يسبقون إلی الجنة بغير حساب والله أعلم.

وإن سألت فما بال العاصين من المؤمنين الذين يدخلون النار لتطهير من ذنوبهم قبل دخولهم الجنة ، ففی أی يد تعطی كتبهم؟ قلنا بتوفيق الله تعالیٰ إن شاء الله العزيز انهٗ لا يمكن التقدير أن تعطی كتبهم فی اليد الشمال لأن الله تعالیٰ قال عنهم ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ فِیْ سَمُوْمٍ وَحَمِيْمٍ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُوْمٍ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيْمٍ إِنَّهُمْ كَانُوْا قَبْلَ ذٰلِکَ مُتْرَفِيْنَ وَكَانُوْا يُصِرُّوْنَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيْمِ وَكَانُوْا يَقُوْلُوْنَ ءَ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا ءَ إِنَّا لَمَبْعُوْثُوْنَ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُوْنَ﴾ (الواقعة:٤١-٤٨) وهٰذا نص أنهم كفار وكذٰلک ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِیَ كِتَابَهٗ وَرَاءَ ظَهْرِهٖ فَسَوْفَ يَدْعُوْ ثُبُوْرًا وَيَصْلٰی سَعِيْرًا إِنَّهٗ كَانَ فِیْ أَهْلِهٖ مَسْرُوْرًا إِنَّهٗ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُوْرَ﴾ (الانشقاق:١٠-١٤) يعنی ظن الله لن يبعث ومعنی وراء

ظهره بمعنى أصحاب الشمال؛ لأنه يأخذ كتابه من شماله من وراء ظهره كذا قال ابن عباس رضي الله تعالى عنه وقد جاء في التفسير أنه يفك ألواح صدره وعظامه ثم تدخل يده (الشمال) وتخرج من ظهره فيأخذ كتابه كذلك فهذه الآيات نص أن أصحاب الشمال هم الكفرة لأنهم يكذبون البعث ،ولا يتقيد بإنكار البعث، بل جملة الكفرة من أصحاب الشمال ولو كانوا يؤمنون في البعث في وجه ما مثلا اليهود والنصارى فهم الكفرة لكفرهم في نبوة عيسى عليه السلام وعدم اتباعه في زمانه ولكفرهم بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم وعدم اتباعه الآن وهذا في قضية اليهود وفي النصارى لكفرهم عقيدة الوهية عيسى عليه السلام ونعوذ بالله وإنكارهم نبوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وعدم اتباعه فهم من أصحاب الشمال ولو يؤمنون بالبعث في وجه ما ولأن الإيمان بالبعث غير مقبول إلا أن يكون على منوال بما أنزل الله تعالى وهذا غير حاصل لجملة الكفرة لأن اليهود والنصارى يزعمون أنهم ينجحون في الآخرة يوم البعث مع كفرهم المتعدد ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ١١١) ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٨٠) ولقد نفى الله سبحانه وتعالى عن أهل الكتاب الإيمان بالله واليوم الآخر وهم يعني أهل الكتاب اليهود والنصارى يدعون الإيمان بالله واليوم الآخر وهذا لأن إيمانهم ليس على وجه بما أمر الله عزوجل فنفاه عنه، فقال سبحانه وتعالى ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (التوبة: ٢٩) فحاصل الكلام لا يمكن أن يكون العاصين من المؤمنين من أصحاب الشمال لأنهم ليسوا كفرة فلم يكذبوا البعث وكذلك ما جاء عن أصحاب اليمين لا ينطبق عليهم وهو ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ‎إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ (الحاقة: ١٩-٢٢) وأيضا ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (الانشقاق: ٧) وهذا لا ينطبق عليه؛ لأنه يحاسب حسابا شديدا ويدخل في جهنم للعقوبة على ذنوبه ومعصيته، فنقول بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز أنه لا يحصل على كتابه حتى بعد العقوبة فيحاسب ويجازى ويعاقب ويطهر من ذنوبهم ثم يخرج من النار من أجل إيمانه وهو معلوم أنه لا يخلد في النار كالكفرة ولم يعطى كتابه في يمينه فيحاسب حسابا يسيرا الذي فسر بحسب الحديث الصحيح بالعرض وهو ليس الحساب حقيقة[1] كما في الحديث وهو أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه كما في الحديث ولأن المعلوم أنه لا يدخل الجنة أحد بسبب أعماله وفي الحديث

---

(١) ومع ذلك ليس لا حساب مطلقا أيضا حتى لا يكون كمثل الذين يدخلون الجنة بغير حساب لأنهم ليسوا منهم.

الصحيح قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم "لا يدخل أحدا منكم عمله الجنة ولا يجيره من النار ولا أنا إلا برحمة من الله." (صحيح مسلم، ح:٢٨١٧) وأن العبد لا يستطيع أن يقضي حق الله عليه؛ لأنهٔ لا يستطيع أن يعبده لساعة إلا بتوفيقه فكيف يقضي حقه تعالىٰ وهٰذا مستحيل فالمؤمن العاصي حتىٰ بعد عقوبة ما لذنوبه لا يستحق (من الله تعالىٰ) الخروج من النار ولا الدخول في الجنة ولله أن يفعل ما يشاء ،لهٗ ما في السمٰوات والأرض وما فوقها وما تحتها، فلا بد من رحمته تعالىٰ لخروج هٰذا المؤمن من النار ودخوله الجنة ، فهٰذا يكون بإيتاء الكتاب في يمينه بعد العقوبة وإيتاء الكتاب في اليمين علامة لحساب اليسير وهو العرض الجميل والعفو والمجاوزة فيتجاوز عنه ويؤذن لهٗ بالدخول في الجنة والله أعلم ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

والميزان حق ويكون بعد المحاسبة، قال العلماء: وإذا انقضى الحساب كان بعدهٗ وزن الأعمال لأن الوزن للجزاء فينبغي أن يكون بعد المحاسبة فإن المحاسبة لتقدير الأعمال والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ (الأنبياء:٤٧) التذكرة للقرطبي، وأيضا الوزن لمقارنة الحسنات بالسيئات والطاعات بالمعصيات حتىٰ جاء في الحديث وهو ضعيف ، لكن يؤيد معناه بالأثر الضعيف عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالىٰ عنه وهو "توضع الموازين يوم القيامة فتوزن السيئات والحسنات فمن رجحت حسناته علىٰ سيئاته مثقال صؤابة دخل الجنة، ومن رجحت سيئاته علىٰ حسناته مثقال صؤابة دخل النار،قيل لهٗ يا رسول الله فمن استوت حسناته وسيئاته، قال أولٰئك أصحاب الأعرف لم يدخلوها وهم يطمعون." (الزهد لابن المبارك، ح: ٤١١) وتفسيرأصحاب الأعراف بالذين استوت حسناتهم وسيئاتهم مروي عن غير واحد من السلف والخلف رحمهم الله تعالىٰ وهو المشهور وقالوا أن الأعراف حجاب بين الجنة والنار، سور بينهما، فوقفوا هناك على السور حتىٰ يقضي الله فيهم وهٰذا جمع ما قالوا في تفسير الأعراف، وهناك أقوال أخرىٰ في تفسيره والمشهور ما ذكرنا وهو قول جمهور المفسرين نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود رضي الله تعالىٰ عنهم.

فحاصل الكلام أن الوزن لإظهار مقادير الأعمال والمقارنة بين حسنها وقبحها والجزاء يكون مترتبا عليها فمن ثقلت موازينه فأولٰئك هم المفلحون، ومن خفت موازينه فأولٰئك هم الخسرون. والميزان واحد عند الجمهور والجمع يعني "الموازين" للتعظيم أو هو جمع موزون لا ميزان فالجمع باعتبار تعدد الأعمال أو الأشخاص وعليه تؤول الآية مثلا ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (الأنبياء:٤٧) وقال البعض أن الأظهر إثبات موازين يوم القيامة لا ميزان واحد للآية التي ذكرنا وقوله تعالىٰ ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ (الأعراف:٨) فقيل إنه لكل أمة ميزان وقيل إن لكل واحد من

المكلفين ميزان وقيل لا يبعد أن يكون لأفعال القلوب ميزان ولأفعال الجوارح ميزان ولما يتعلق بالقول ميزان والمشهور وعليه الجمهور هو أن الميزان إنما هو واحد والكثرة باعتبار من يوزن له به والله أعلم. وقد ثبت عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه بسند صحيح "أنه توزن الحسنات والسيئات فى ميزان له لسان وكفتان." (شعب الإيمان: ح:٢٧٧) وهذا لا يعلم بالقياس فهو حكما مرفوع وإنكار الميزان كفر؛ لأنه ثابت بالنصوص القطعية وفى القرآن ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ (الأنبياء:٤٧) ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ (القارعة:٦-٩) وأيضا ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ (الأعراف:٨-٩) وأيضا ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (المؤمنون:١٠٢-١٠٥) وهذه النصوص القاطعة فى إثبات الميزان وهو كما هو الظاهر للمؤمنين والكفار وأما الآيات ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ (الكهف:١٠٢-١٠٥) فمعناه كما قالوا العلماء أنه لا ثواب لهم مقابلة بالعذاب فلا حسنة لهم توزن فى موازين يوم القيامة ومن لا حسنة له فهو فى النار .فحاصل الكلام أنه ليس المعنى أن لا يكون لهم الميزان، بل معناه أن لا يكون لهم الخير يثقل كفة الحسنات، بل يكون لهم المعاصى والكفر فى كفة وتكون الكفة الأخرىٰ فاضية خفيفة فارغة لأن ما فعلوها زعما أنهم يحسنون صنعا لا وزن لها بسبب كفرهم الذى يرجح عليها كلها وفى القرآن ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الأنبياء:٤٧) وكذلك ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (زلزال:٧-٨) وهذا يدل على أن كل شيء بغير التخصيص يؤتى به، فالكافر يؤتى بجميع أعماله وهذا يدل على أنهم مخاطبون بأصول الدين وفروعه محاسبة يوم القيامة ومجازاة عليها ولقد قال الله عزوجل ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (حم سجدة:٦-٧) وأخبر عن المجرمين أنهم يقال لهم ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ (المدثر:٤٢-٤٤) وهذا كله النص القطعي على مجازاتهم على ترك الفروعات وإتيان جميع أعمالهم يدل على إتيان ما فعلوها من الأشياء التى لو فعلها المسلم تكون من القربات

والطاعات من صلة الأرحام ومؤاسات الناس وعتق المملوك فيؤتى بهٰذه الأشياء لهٗ وتوضع فى كفته الحسنات وهٰذه الخيرات الصورية تقارن وتقابل مع السيئات فى الجانب الآخر غير الكفر والشرك فتكون نافعة لتخفيف من هٰذه السيئات (دون الكفر والشرك) مقارنة ومقابلة ومجاراة ، لكن الكفر والشرك لا يمكن مجاراتهما ولا تستطيع هٰذه الخيرات الصورية أن تمسهما مسا فلا يقام لهم وزنا [1] فى كفة الحسنات بسبب مجاراتها الكفر والشرك ،ومن جهة التخفيف من السيئات (دون الكفر والشرك) بسبب الخيرات الصورية يكون لهم تخفيفا ما من العذاب كما ثبت لأبى طالب فى الحديث الصحيح ، لكن لا خروج لهم من النار ولا دخول فى الجنة، بل يكون خالدا مخلدا فى النار لأبد الأبدين، أعاذنا اللّٰه منها ، اللّٰهم أجرنا من النار وادخلنا الجنة مع الأبرار.

وإن تسئل عن كيفية الوزن وماذا توزن فيه وكيف توزن فيه الأعمال؟ قلنا بتوفيق اللّٰه تعالٰى إن شاء اللّٰه العزيز هو أن بعض أهل السنة قالوا أن الأعمال تتجسد بإذن اللّٰه تعالٰى فتوزن وروى هٰذا المعنى عن ابن عباس رضي اللّٰه تعالٰى عنه ، لكن أنهٗ قدجاء فى الحديث الصحيح مرفوعا عن النبي صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم أنهٗ يكون رجلا من أمته فتكون لهٗ تسعة وتسعين سجلا كل سجل مد البصر وتوزن هٰذهٖ كلها فى كفة وكذٰلك بطاقة حسنته فى كفة أخرىٰ.(صحيح ابن حبان، ح:٢٢٥) ونحن نذكر إن شاء اللّٰه هٰذا الحديث بالكلية قريبا وذكرنا الأن للاستشهاد أنما هي كتب الأعمال التى توزن كما فى هٰذا الحديث بالصراحة وهٰذه الكتب هي أجسام فيوافق ما روي عن ابن عباس رضي اللّٰه تعالٰى عنه ولو صح من هٰذه الجهة فما روى أن الحسنات والسيئات توزن فيفسره هٰذا الحديث الصريح بالسند الحسن الذى ذكرنا علٰى معناه أن صحائف الأعمال [2] هي التى توزن وقد جاء فى القرآن عن هٰذا الكتاب ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (بنى إسرائيل:١٣-١٤) ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (الكهف:٤٩)فيوضع ما فى هٰذا الكتاب من صحائف الحسنات فى كفة وما فيه من صحائف السيئات فى كفة فتوزن وهٰذا هو ثابت منَ الحديث وهو قول جماعة من أهل السنة ويرجح؛ لأنهٗ مؤيد بالحديث الحسن الذى ذكرنا ثم لو تسئل أنهٗ قدجاء فى الحديث الصحيح أخرجه البخاري عن أبى هريرة رضي اللّٰه تعالٰى عنه عن النبي صلى اللّٰه تعالٰى عليه

(١) فيعنى هٰذه الخيرات الصوريّة ليس لها وزنا بسبب كفر فاعلها وشركه، لكن قد تخفف هٰذه الخيرات الصوريّة من عذاب السيئات الأخرى.

(٢) المشتملة على الحسنات والسيئات التى مكتوبة فيها

وسلم قال "إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة واقرءوا إن شئتم ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ (الكهف:١٠٥) ." (صحيح مسلم، ح:٢٧٨٥)

فظاهره أن المكلف نفسه يوزن فماذا تقول فى هذا؟ قلنا بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز أن استشهاد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بهذه الآية ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ (الكهف:١٠٥) يكشف معنى الحديث إن شاء الله العزيز ، فالآية بإطلاقها هذا ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ (الكهف:١٠٥) فقوله تعالى عزوجل ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ (الكهف:١٠٣-١٠٥) يشير أن الكلام يرجع إلى الأعمال فمعنى الحديث يعنى هذا الرجل العظيم السمين لا يكون له وزنا جناح بعوضة عند الله تعالى يعنى أعماله كما تشير إليه الآية المستشهد بحصتها الأخيرة فى الحديث، ووزن الأعمال يرجع إلى وزن كتب الأعمال كما بيّنا من الحديث سابقا والحمد لله رب العالمين. ونقول بهذا القول وهو قول جماعة من أهل السنة لرجحانه من حيث الدلائل وإلا لا شك قطعا وبتاتا أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يجسد الأعمال فيزنها أو يزنها بعينها وهي الأعراض؛ لأنه على كل شيء قدير وكل شيء تحت قدرته يسير ونحن نرى فى هذا الزمان للاكتشافات العلمية، وقد أوجد الله سبحانه وتعالى فى يد الإنسان الآلات التى يزن[1] الحرارة والبرودة وهي الأعراض ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم وكذلك الله سبحانه وتعالى هو القادر المطلق فقادر على إعادة الأعراض (الأعمال) لكى توزن وكيف لا؟ ونعوذ بالله! وهو على كل شيء قدير وما من شيء عليه بعزيز ونحن نرى فى هذا الزمان للاكتشافات العلمية ،وقد أوجد الله سبحانه وتعالى فى يد الإنسان الآلات التى تحفظ الأصوات والحركات وهي الأعراض ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم، فافهم يا أخى المسلم فلا يكون فى قلبك شكا فى قدرة الله المطلقة فتكون من الخسرين، والله غنى عن العالمين.

وإن تسئل انك قلت أن الأنبياء عليهم الصلوات والسلام والذين يدخلون الجنة بغير حساب لا يأخذون صحفا على ما قال العلماء فماذا تقول فى وزن أعمالهم؟ قلنا بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز هو أن هذه العلماء قالوا بنفى ميزان أعمالهم أيضا؛ لأنه لا حساب لهم وهم السابقون إلى الجنة. قال العبد الحقير غفر الله له أن الله عزوجل قال فى القرآن ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف:٨) هذا الجملة ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف:٨) فيه تأكيد وهو أن المفلحون معرف باللام وكما فى الآية ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الحديد:٣) وكما فى الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (الذاريات:٥٨) بيان لإطلاق هذه

---

(١) يعنى تظهر درجاتها

الصفات في إطلاقها على الله عزوجل دون غيره وكذلك ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف:٨) يفيد إطلاق الفلاح في إطلاقها على من ثقلت موازينه دون غيره نعما وقد يقال أن الأنبياء عليهم الصلوات والسلام والذين يدخلون الجنة بغير حساب هم المعلومون بالقطع أنهم ممن ثقلت موازينه والأنبياء عليهم الصلوات والسلام لا ذنوب لهم لأنهم معصومون فلا حاجة للوزن، قلنا نعما هذا صحيح ، لكن هذا صحيح في حق كل واحد من يدخل الجنة ،فاما عندالله تعالى فهو يعلم أزليا كل من ثقلت موازينه وأما عند أهل المحشر فلا سيما بعد تلقى الكتاب في اليد اليمنى، والميزان يكون بعدهٔ كما هو المعلوم ، لكن مع ذلك يكون لهم وزنا لإظهار تقدير أعمالهم ولمقارنة الحسنات بالسيئات وللمجازاة عليها فكما يكون للكافر الفاجر الفاضي من جميع الخيرات وزنا وتكون ذلة وهوانا عليه تبكيعا له وإظهاراً لشقاوته وشره وحسرة وندامة عليه فيحتمل أن يكون لهؤلاء المقربين السابقين إلى جميع الخيرات الحبيبين لخالق الكائنات الأنبياء والمرسلين عليهم الصلوات والسلام ومن تحتهم من أتباعه الذين لا حساب لهم وزن أعمالهم لإظهار كرامتهم وشرافتهم وعبوديتهم الكاملة وطاعتهم العليا فتكون في حق الأنبياء والمرسلين عليهم الصلوات والسلام كفة السيئات فاضية خالية (كماهو معلوم) ويكون هذا إظهارا كاملا في أعين أهل المحشر أن هؤلاء ليسوا كأحد من العباد، بل العباد الخاص والمعلوم أن العبودية الكاملة هي التى أشرف الكرامة ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ الخ﴾ (بنى إسرائيل:١) ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ الخ﴾ (١٧٢) وقال عن الملائكة ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ (الأنبياء:٢٦) وهذا أيضا إظهار لفضيلتهم على الملائكة عليهم الصلوات والسلام وهو أن الملائكة عليهم الصلوات والسلام مجبول على الطاعة ولا تركب عليهم الشهوات الإنسانية كمثل الإنسان فهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، لكن الأنبياء عليهم الصلوات والسلام من البشر فعندهم الطبائع البشرية ، لكن مع هذا تكون كفة السيئات فاضية خالية على الإطلاق فيكونون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون مع الطبائع البشرية وهذه فضيلة عظيمة باهرة ظاهرة لهم فيكون إظهارالفضيلتهم على الملائكة عليهم الصلوات والسلام أيضا والله أعلم ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم وأيضا تكون عبرة للمكذبين لهم في الدنيا وللقائلين لهم بالألقاب فتكون لهم ندامة وحسرة ، لكن لا فائدة لهم في يوم الحساب.

وإن تسأل أنك قلت عن عصاة المؤمنين أنهم يتلقون كتبهم في الأيدى اليمنى بعد العقوبة التى تكون لهم تطهيرا من ذنوبهم فماذا تقولون فيهم في وزن الأعمال؟ قلنا بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز أن المعلوم أن من ثقلت موازينه يدخل في الجنة وأن من خفت موازينه يخلد في النار ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ

خَالِدُونَ﴾ (المؤمنون:١٠٢-١٠٣) فلا يمكن جعلهم ممن خفت موازينهم لأن عصاة المؤمنين لا يخلدون في النار وهذا معلوم بالضرورة من دين الإسلام وكذلك المعلوم أنهم (الذين لا يغفرلهم فيدخلون النار للعقوبة) لا يدخلون الجنة مباشرة، بل يدخلون النار لمدة ما للعقوبة على أعمالهم السيئة فلا يمكن جعلهم ممن ثقلت موازينه من البداية لأن من ثقلت موازينه لا يدخل النار البتة ، فمن العلماء قالوا: إن الوزن يكون مرتين ، فالمرة منها يكون لتمييز بين المؤمن والكافر ، ففي هذا الإيمان المجرد يكفي لثقل ميزانه وإن لم يكن لهُ الإيمان (ونعوذبالله) فيخف ميزانه ثم يكون الوزن للمسلمين فمن منهم ثقلت موازين حسناته يدخل الجنة ومن منهم خفت موازين حسناته يدخل النار للعقوبة وثم يدخل الجنة في الأخير ، لكن انطباق هذا القول على الآيات التي ذكرنا فلو الآيات تشير إلى الوزن الأول فعلى هذا جميع المؤمنين يكون ميزانهم الحسانات ثقيلة فيلزم بحسب الآيات أن يفلحوا فلا يدخلوا النار البتة ولو قلنا أن المراد في الآيات هو الوزن الثاني فهو ليس للكافر، بل للمؤمنين فقط فعلى هذا يلزم بحسب الآية أن من خفت موازينهم منهم يخلدون في النار وهذا باطل لأن المعلوم أن المؤمن لا يخلد في النار فنقول بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز أن الجواب هو في الحديث الذى جاء بالسند الحسن خرجه الترمذي وابن ماجة وأحمد ونحن ذكرنا بعضه سابقا فالأن نذكره بالكلية عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الله يستخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل مثل مد البصر ثم يقول أتنكر من هذا شيئا، أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لايارَبّ . فيقول : أفلك عذر؟ فقال: لا ياربّ فيقول:، بل إن لك عندنا حسنة ، فإنهُ لا ظلم عليك اليوم فتخرج لهُ بطاقة فيها أشهد أن لا إلهَ إلا الله وأن محمّدا عبده ورسولهُ فيقول احضر وزنك فيقول: ياربّ ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لاتظلم. قال فتوضع السجلات في كفّة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلايثقل مع اسم الله شيء ." (سنن الترمذي، ح: ٢٦٣٩ ،و مسند أحمد، ح: ٦٩٩٤ و ابن ماجة، ح: ٤٣٠٠) ونحن نترك تفسير هذا الحديث بعينه للعلماء فالأن نستشهد من هذا الحديث على الأمور فهو أن الإيمان بالشهادة لاتستطيع السيئات (دون الكفر والشرك؛ لأنهُ لايكون الإيمان معهما) أن ترجحه "فلايثقل مع اسم الله شيء" فنقول إن المؤمن العاصي يوضع لهُ الميزان يوم القيامة ، لكن لايوضع فيه إيمانه؛ لأن هو يرجح السيئات لامحالة فيثقل ميزانه فلايدخل النار، فأول: ا توضع في الميزان حسناته دون الإيمان وسيئاته فخفت ميزانه بسبب كثرة سيأته التي ترجح حسناته فخفت كفة الحسنات ، لكن ليس إطلاقا؛ لأنهُ يبقى لهُ الإيمان بعد فلايدخل في الآية ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ

خَالِدُونَ﴾(المؤمنون:١٠٣) فى الحقيقة؛ لأن ميزانه لم يكمل بعد فهو يدخل النار للأن لعقوبته على سيئاته ثم يخرج بعد العقوبة فيعطى كتابهُ فى اليمين فالأن يوضع الإيمان فى كفة الحسنات مع الحسنات الأخرى فلا مجاراة لسيئاته (التى ليس الكفر والشرك) مع إيمانه فيثقل ميزانه فيدخل الجنة. فإن قيل إن بعد العقوبة لاتكون لهُ السيئات؛ لأنهُ قد عوقب عليها فحينئذ لا موازنة لهذه السيئات مع الإيمان مطلقاً لأنها تكفّر بالعقوبة فما ذاتعنى بالمجاراة لهذه السيئات مع إيمانه والحقيقة أنها لاتوجد حينئذ وأيضًا الحديث يتكلم عن تسعة وتسعين سجلا للسيئات وهذا يلزم أن هذه الحادثة قبل العقوبة؛ لأن بعد العقوبة هذه السيئات تكون مكفّرة بالعذاب فيطهر صاحب هذه السيئات؟

قلنا بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز: إننا قلنا أوّلا :أننا لانفسر هذا الحديث، بل نستشهد منه على بعض الأمور فأما الشرح لهذا الحديث بعينه فليراجع شروح الأحاديث لكلام العلماء على هذا الحديث . ثانياً: حتى بعد العقوبة لايستحق هذا المؤمن أن يخرج من النار ويدخل الجنة بعمله فقط كما دلّلنا عليه بالحديث الصحيح " لايدخل أحدا منكم عمله الجنة ولاينجيه من النار ولا أنا إلا برحمة من الله ." (صحيح مسلم، ح:٢٨١٧) والمعلوم أيضًا أن لله تعالى أن يعاقبه أكثر مما عاقبه وعذّبه، فإذا أخرجه من النار بعد عقوبة ما فيؤتى به إلى ميزانه وفيه حسناته وسيئاته كالسابق فلا بُعد؛ لأن لله كما قلنا يعذّبه أكثر مما يعذّبه، لكن الله عزوجل قد أخبرنا أنهُ لايبقى المؤمنين فى النار للخلود وهو لايخلف وعده ،فيخرجه وميزانه موجود مع حسناته وسيئاته مع كفة السيات راجحة كالسابق فيخرج بإيمانه ويوضع فى كفة الحسنات فلايثقل مع اسم الله شيء ،فترجح كفة الحسنات وطاشت كفة السيئات فيدخل الجنة مع المفلحين، وهذا برحمة الله تعالى التى لابد منها للنجاة من النار والدخول فى الجنة . وثالثاً: أن الممكن أن الله عزوجل يعذّبه على بعض سيئاته فمثلاً لهُ خمسمائة سجلا من السيئات فيعذبه على مائتين منه وثم يخرجه من النار برحمته؛ لأنهُ يُخرج جميع المؤمنين من النار برحمته ويبقى الكافرين والمشركين فيها بعدله. فعلى هذا تبقى لهُ ثلاثمائة سجلا من السيئات وهي ترجح الحسنات فغفر الله لهُ ورحمه فيضع إيمانه فى كفة الحسنات فترجح السيئات فيدخل الجنة.

رابعاً: قد ثبت فى الأحاديث أن الله تعالى يخرج بالشفاعة كثيرا من عصاة المؤمنين برحمته وثم بعد الشفاعة يخرج من بقى من المؤمنين الذين لاخير عندهم إلا الإيمان برحمته فقط فهذا كلهُ برحمته تعالى ولهُ أن يعذبهم أكثر منه ، لكن هو الغفور الرحيم فى حق المؤمنين، فهؤلاء يخرجون من النار بعد عذاب ما بسبب إيمانهم برحمة الله تعالى فتعطى كتبهم فى أيديهم اليمنى وموازينهم التى

كانت خفيفة بعد، لكن تبقى لهم الحسنة العظيمة التي لامجاراة بها لسيأتهم فتوضع لهم هذه في موازينهم فتثقل موازينهم فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . والله أعلم ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

والصراط حق وهو جسر ممدود على متن جهنم، أدق من الشعر واحدّ من السيف يعبره كل المكلّف فأهل الجنة يعبرونه وأهل النار تزل به أقدامهم فيسقطون في جهنم وهو كما هو الظاهر بعد الميزان والحساب؛ لأن الحساب والميزان لتعيين من هو أهل الجنة ومن هو أهل النار، فبعد التعين يأتون على الصراط فأهل الجنة يعبرونه وأهل النار وهم الكفرة وكذلك عصاة المؤمنين الذين يدخلون النار لمدة ما للعقوبة قبل دخولهم الجنة فهؤلاء كلهم يسقطون منها. وكذلك الصراط بعد الحوض الكوثر والمراد به الحوض الذي يكون في المحشر ،وأما نهر الكوثر الذي هو في الجنة فمعلوم هو بعد الصراط؛ لأن أهل الجنة لابدلهم من عبور الصراط فبعد عبور الصراط يكونون على طريق الجنة فيدخلها ، لكن الحوض ،الذي يكون في المحشر، قبل الصراط لحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه "أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: "بينا أنا قائم على الحوض إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال: هلم فقلت إلى أين؟ فقال: إلى النار والله قلت ما شأنهم فقال إنهم قد ارتدوا على أدبارهم القهقرى ثم إذا زمرة أخرى حتى إذا عرفتهم خرج من بيني وبينهم رجل فقال لهم: هلم فقلت إلى أين؟ قال: إلى النار والله. قلت ما شأنهم قال إنهم ارتدوا على أدبارهم فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم." (صحيح البخاري، ح:٦٥٨٧)

والمعلوم لو أن الحوض كان بعد الصراط لما تجيء زمرة من أهل النار إليه لسقوطهم في النار من قبل وهذا الحديث أيضًا يدل على أن الحوض بعد الميزان؛ لأن هؤلاء الناس قيل لهم : "هلمّ إلى النار ." فالظاهر أنهم قد حوسبوا وحكموا عليهم بالنار. وهو قول جماعة من أهل السنة والحديث يؤيده . فالحمد لله. ثم الدلائل كثيرة في إثبات الصراط فهو من الأمور القطعية ويتكلم عنه القرآن والأحاديث المتواترة ، ففي القرآن ﴿وَإِنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ (مريم: ٧١) يعني جهنم وجاء في تفسير هذه الآية عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أن الورود المرور على الصراط. وهذا سند صحيح وكذلك روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه وكعب الأحبار وأيضًا عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه مرفوعا. وقد جاء في روايات أخرى أن الورود هو الدخول فمنها ما روي عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم "الورود الدخول لايبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين بردا وسلاما كما كانت على إبراهيم (عليه السلام) ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ (مريم: ٧٢)(مسند أحمد، ح: ١٤٥٢٠) وكذلك روي عن ابن مسعود

وابن عباس أيضًا وخالد بن معدان وابن جريج وغيرهم أن الورود هو الدخول .

وفى الحديث الصحيح "لايموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار إلا تحلة القسم"، قال أبوعبدالله ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ (مريم: ٧١)" (صحيح البخاري، ح: ١٢٥١) ومع هذا يلاحظ ما فى القرآن ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ (الأنبياء:٩٨-١٠٢) وإن تسأل الآن أنك ذكرت الأمور فما وجه التطبيق بينها؟ فقلنا بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز: إن المعنى ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ (الأنبياء: ١٠١-١٠٢) هو إما أنهم مبعدون ولايسمعون حسيسها؛ لأن النار تكون لهم بردا وسلاما فالورود لهم عليها والممرّ لاينافى كونهم بعيدا عنها لأنهم إذا لايحسّونها فكأنهم مبعدون عنها أوهذا البيان لزمان بعد دخولهم الجنة ويدل عليه قولهٔ تعالٰى ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ (الأنبياء:١٠٢) يعنى فى الجنة فبعد كونهم فيها فالمعلوم أنهم مبعدون عن النار ولايسمعون حسيسها. وأما الورود فهل هو الممرّ على الصراط علٰى متن جهنم أوهل هو الدخول فى النار مع كونها بردا وسلاما لأهل الجنة. فالجواب بتوفيق الله تعالٰى إن شاء الله العزيز هو أنهٔ لا منافاة بين القولين؛ لأن الورود فى معنى الدخول مراده فى حق أهل الجنة المرور على الصراط وتدل عليه الأمور. أوّلاً أنهٔ روي عن ابن عباس رضي الله تعالٰى عنه أن الورود هو "المرور على الصراط" وروي عنه" الدخول" فثبت أن مراده بالدخول فى النار هو دخول أهل النار فيها والمرور أهل الجنة علٰى متنها بالصراط وكذٰلك عن ابن مسعود رضي الله تعالٰى عنه؛ لأنهٔ روى عنه القولين. وكذٰلك الحديث المرفوع فعن ابن مسعود رضي الله تعالٰى عنه عن النبي صلى الله تعالٰى عليه وسلم فالورود فى معنى المرور على الصراط (شعب الإيمان، ح:٣٦٧) وعن جابر بن عبدالله رضي الله تعالٰى عنه عن النبي صلى الله تعالٰى عليه وسلم "الورود هو الدخول لايبقى بر ولا فاجر إلا دخلها ." (مسند أحمد، ح: ١٤٥٢٠) فالدخول فى حق أهل النار هو السقوط من الصراط فيها وفى حق أهل الجنة هو المرور علٰى متنها بالصراط. وثانياً: لو نقول إن هٰذين القولين يخالف بعضه بعضا فإمّا السبيل أن نرجّح واحدا منهما ونترك الآخر أو إما نقول بهما وهٰذا يلزم أن الورود يكون مرّتين فأوّلا يكون الممرّ على الصراط فأهل النار يسقطون فيها وأهل الجنة يعبرون الصراط وثم فى الثانى يرجع أهل الجنة فيدخلون النار ويمرون بها فيها وهي برد وسلام عليهم وأهل النار فهم فيها من قبل ،فأنّى لهم الورود؟ وهم فيها موجود أو بالعكس فيكون الورود بالدخول أوّلا فعلٰى هٰذا أهل النار يدخلونها ويبقون فيها وأهل الجنة يدخلونها مع كونها بردا وسلاما عليهم

ويخرجون منها ثم يمرّون على الصراط فيعبرونه وأهل النار أيضًا يخرجون من النار وثم يمرّون على الصراط فيزلّون أقدامهم فيسقطون فى النار وهٰذا كلهٗ باطل. ؛ لأن المعلوم أن أهل الجنة بعد المرور على الصراط لايرجعون إلى النار للورود الثانى فى معنى الدخول ولهٰذا ماسمعت به على الإطلاق وهو يخالف القرآن ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ (مريم: ٧١-٧٢) وهٰذا نص أن أهل الجنة بعد الورود ينجون منها فلا ثَمّ الورود الثانى ولأن أهل النار بعد السقوط فى النار كيف لهم الورود الثانى وهم موجودون فيها من قبل؛ لأن الورود هو الإتيان والبلوغ فأنّى لهم هٰذا؟ لأنهٗ يؤدى إلى حصول الحاصل.

ولأن فى الترتيب العكس يلزم أن أهل النار بعد الدخول فى النار يخرجون منها لسقوطهم فيها من الصراط فى الورود الثانى وهٰذا باطل يخالف القرآن ﴿وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ (مريم: ٧٢) وهٰذا نص أن أهل النار بعد الورود لايخرجون منها حتىٰ يكون لهم الورود الثانى على الصراط وهٰذا فى حق الكفرة وأما عصاة المؤمنين الذين يدخلون النار للعقوبة فهم يخرجون منها لا للورود الثانى، بل لدخول الجنة وهم شاملون فى حصة هٰذه الآية ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ (مريم: ٧٢) ، لكن لأن التقوىٰ ما كانت كاملة من حيث الأعمال فلم ينجوا من البداية، بل بعد العقوبة بسبب وجود الإيمان الأصلى بلا نقص. وأيضًا هٰذا يلزم أن أهل الجنة بعد الورود الأوّل فى معنى الدخول يكون لهم الورود الثانى فى معنى المرور على الصراط والقرآن يصرّح علىٰ ورود واحد، وثم النجاة منها، فحاصل الكلام أن القول بالورودين باطل فلايبقى أن نرجّح واحدا من القول على الآخر وهٰذا يلزم ترك واحد منهما، والتطبيق والموافقة بين القولين لازم مهما كان ممكنا. وهو ما فعلناه كما بيّناه سابقا أنهٗ لامنافاة بين القولين فعلىٰ هٰذا لاترك لواحد منهما وهو لازم مادام يكون ممكنا.

التنبيه : وأيضًا لايمكن ترك قول الممرّ على الصراط؛ لأنهٗ ثابت بالدليل القطعي وإنكار الدليل القطعي يكون كفرا. قال العبد الحقير غفر اللّٰه تعالىٰ له: أنهٗ قد بدا لى وجه آخر وهو أن الثابت أن الورود هو واحد فأهل النار يسقطون من الصراط فى النار فحصل لهم الورود الشامل للكون على الصراط والدخول فى النار وأهل الجنة فهم يعبرونه يعنى الصراط فيحتمل بعد المرور على الصراط، ففى نهاية جهنم من الجانب الآخر الذى يكون مخرجا لهم من العبور عليها. فيوضعون فى هٰذه النهاية فى النار وهي عليهم بردا وسلاما وثم يخرجون فيكون هٰذا الدخول فيها تابعا للمرور على الصراط فيكون منه، فالورود لهم يشمل المرور على الصراط وفى النهاية فى الجانب المخرج الدخول فيها وهي خامدة وثم الخروج منها مطلقا وعلىٰ هٰذا تجتمع الأقوال إن شاء اللّٰه العزيز وأيضًا يشير إليه حديث أبى سعيد الخدري رضي اللّٰه تعالىٰ عنه مرفوعا "فيمرّ المؤمنون (على الصراط) كطرف العين وكالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب، فناج مسلّم ومخدوش مرسل ومكدوس فى نار

جهنم حتٰی إذا خلص المؤمنون من النار." (صحيح مسلم، ح:١٨٣) هٰذه الجملة "حتٰی إذا خلص المؤمنون من النار." ظاهر سياقه أن الإشارة إلى المرور على الصراط، لكن لو نقول ما قلنا لاجتماع الأقوال فی الورود فعلٰی هٰذا يكون أنهم يمرّون على الصراط بالكيفيات المختلفة وثم فی الأخير يدخلون النار وهي برد وسلام عليهم حتٰی يخلصون منها، والحقيقة أن ظاهر الحديث لايشير إلى ما قلنا، فلانقول إن هٰذا هو معنى الحديث، بل نقول إن ما قلنا فی حق الورود شاملا وجامعا لمعنى المرور والدخول فی ورود واحد ،فعلٰی هٰذا التأويل يكون تأويل هٰذا الحديث كما قلنا. والله أعلم ويهدی من يشاء إلى صراط مستقيم.

والأحاديث أيضًا كثيرة متواترة فی باب الصراط فمنها ما خرّجه مسلم وفيه "ويضرب الصراط بين ظهری جهنم فأكون أنا وأمتی أوّل من يجوز ولايتكلم يومئذ إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللّٰهم سلّم سلّم. وفی جهنم كلاليب مثل شوك سعدان . هل رأيتم السعدان؟ قالوا نعم يارسول اللّٰه. قال فإنها مثل شوك السعدان غير أنهٗ لايعلم قدر عظمها إلا اللّٰه تخطف الناس بأعمالهم. فمنهم الموبق بعمله، ومنهم المجازی حتٰی ينجی. (صحيح مسلم، ح:١٨٢) وفی رواية خرّجها مسلم "ثم يضرب الجسر علٰی جهنم وتحل الشفاعة ويقولون: اللّٰهم سلم سلم." قيل يارسول اللّٰه، وما الجسر؟ قال : "دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسكة تكون بنجد فيها شوكة يقال لها السعدان. فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكردس فی نارجهنم." (صحيح مسلم، ح:١٨٣) وقال أبوسعيد الخدري رضي اللّٰه تعالٰی عنه "بلغنی أن الجسر أدقّ من الشعر وأحدّ من السيف." (صحيح مسلم، ح:١٨٣) وفی رواية أخرٰی "أرق من الشعر" رواها مسلم. (صحيح مسلم، ح:١٨٣) وقد روی مرفوعا "ثم ينصب الصراط مجازا علٰی متن جهنم أعاذنا اللّٰه منها أرق من الشعر وأحد من الموسی." (صحيح ابن حبان، ح: ٨٧٣٩) واللّٰه أعلم بسند هٰذا. وغيرها من الأحاديث والآثار الكثيرة المتواترة فی هٰذا الباب.

وإن تسأل أنهٗ فی رواية "وفی جهنم كلاليب مثل شوك سعدان ." (صحيح البخاري، ح:٦٠٨٠) وفی رواية (الجسر) دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسكة تكون بنجد فيها شوكة يقال لها السعدان." (صحيح مسلم، ح:١٨٣) فما وجه التطبيق بينهما؟ قلنا بتوفيق اللّٰه تعالٰی: إنهٗ لا منافاة بين الروايتين؛ لأن الجسر هو علٰی متن جهنم فكونها فی الجسر لاينافی كونها فی جهنم وأيضًا يحتمل أنها [1] تكون في جهنم تحت الجسر ، لكن لأنها تخطف وتخدش من على الجسر فتعتبر أيضًا أنها فی الجسر واللّٰه أعلم. وكون الصراط أدق من الشعر وأحد من السيف ثابت صحيح

---

(١) وفی رواية من مسلم "وفی حافتی الصراط كلاليب معلّقة مأمورة تأخذ من أمرت به. فمخدوش ناج ومكدوس فی النار" والذی نفس أبی هريرة بيده إن قعر جهنم لسبعين خريفا. (صحيح مسلم، ح:١٩٥) فعلٰی هٰذا الكلاليب معلقة على حافتی الصراط وتحت الصراط جهنم فتكون الكلاليب فی جهنم معلقة بالصراط ، وهٰذا يجمع الروايات. واللّٰه أعلم ويهدی من يشاء إلى صراط مستقيم

لايجوزإنكاره؛ لأن قد جاء تك فيه الآثار وهذا لادخل فيه للقياس فيكون مرفوعا حكما. والناس يعبرونه علىٰ حسب أعمالهم فمنهم ينجون وثم يكون على الطريق إلى الجنة ومنهم يسقطون فى النار وفى أثر عبدالله بن مسعود رضي الله تعالىٰ عنه والله أعلم عن سنده "يأمر الله بالصراط فيضرب علىٰ جهنم فيمر الناس علىٰ قدر أعمالهم أولهم كلمح البرق ثم كمر الريح ثم كأسرع البهائم ثم كذلك حتىٰ يمر الرجل سعيا وحتىٰ يمرّ الرجل ماشيا. ثم يكون آخرهم يتلبط علىٰ بطنه." (مصنف ابن أبى شيبة، ح:٣٧٦٣٧) وقد روى أن مسافته ألف سنة صعودا وألف سنة هبوطا وألف سنة استواء. وهذا إن يصح فمعناه علىٰ سرعة سير الإنسان فمن يجوزه كالبرق فمعلوم لايأخذه من وقت إلا قليلا.

ثم اعلم رحمني ورحمك الله! أن أهل الجنة بعد العبور بالصراط علىٰ متن جهنم يحبسون على القنطرة الثانية بين الجنة والنار كما فى الحديث الصحيح قال رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "يخلص المؤمنون من النار فيحبسون علىٰ قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتىٰ إذا هذبوا ونقّوا أذن لهم فى دخول الجنة، فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزله كان لهٗ فى الدنيا ." (صحيح البخاري، ح:٦٥٣٥) وهذا فى حق أهل الجنة الذين لايجعلهم هذا القصاص بينهم من أهل العقوبة يعنى لايجعلهم من أهل الموازين من المؤمنين الذين يدخلون النار للعقوبة قبل دخول الجنة؛ لأن هؤلاء لايعبرون الصراط علىٰ متن جهنم، بل يسقطون فيها للعقوبة ثم يخرجون منها لأنهم مؤمنون، بل هذا الحبس على القنطرة الثانية المذكورة لأهل الجنة الذين قدعبروا الصراط علىٰ متن جهنم فخلصوا منه فالأن يكون هذا القصاص بينهم للتهذيب والتنقيه ، لكن حتىٰ بعد هذا القصاص هم لايزال يكون ممن ثقلت موازينه من غير عقوبة ما فى النار فهم يدخلون الجنة بعد هذا القصاص . والله أعلم ويهدى من يشاء إلىٰ صراط مستقيم.

ولئن تسأل الأن عن زلزلة الساعة فى الآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (الحج: ١-٢) فمتى تكون هذه الزلزلة؟

قلنا بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز: قد اختلف المفسرون فى تعيين هذه الزلزلة فقد قال بعض السلف أنها قبل الساعة من أشراطها، وقال الآخرون أنها فى المحشر بعد البعث فى عرصات القيامة وهذا هو القول الذى مؤيد بالأحاديث الصحيحة فلا مجال للقول الآخر بعد الحديث الصحيح وهو عن أبى سعيد الخدري رضي الله تعالىٰ عنه عن النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "يقول الله تعالىٰ يوم القيامة، ياآدم ، فيقول: لبيّک وسعديک، والخير فى يديک، فيقول:

اخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فعنده يشيب الصغير ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (الحج:٢) والمعلوم أن هذا بعد يوم البعث عند الحساب؛ لأن هذا هو الوقت لإخراج بعث النار إلى النار والحديث يقول إن عند هذه الحادثة يشيب الصغير، وهو الإشارة إلى قوله تعالى ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ (المزمل:١٧) ،﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (الحج:٢) فهو إشارة إلى الآية الكريمة التى نحن فيها. فهذا الحديث يبين أن هذه الأحوال تكون فى عرصات القيامة بعد البعث فعلى هذا الزلزلة تكون بعد البعث فى عرصات القيامة وروى الإمام أحمد والترمذي عن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال لما نزلت ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ إلى قوله. ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (الحج:١-٢) نزلت هذه الآية وهو فى سفر فقال "أتدرون أي يوم ذلک؟ قالوا : الله ورسولهٗ أعلم قال: ذلک يوم يقول الله لأدم: ابعث بعث النار قال: يارب وما بعث النار؟ قال: تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة ." (صحيح البخاري، ح:٣٣٤٨)

فحاصل الكلام أن الزلزلة فى هذه الآية الكريمة ترجع إلى هول وفزع وزلزال وبلبال يوم القيامة كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا [1] هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ (الأحزاب:١١) أي بالخوف كذا فى التفسير. فشدة أهوال القيامة تكون زلزلة تزلزل القلوب ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ (ابراهيم:٤٢) ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ (عبس:٣٣-٤٢) حتى هذه الزلزلة تذهل المرضعة عمّا أرضعت فرضيعها يرضع لديها وهي غافلة عنه وفى الحديث "إنكم تحشرون إلى الله يوم القيامة حفاة عراة غرلا" قالت عائشة رضي الله عنها: يارسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض. قال: ياعائشة إن الأمر أشد من أن يهمهم ذاک ." (صحيح البخاري، ح:٦٥٢٧) ثم من هذه الزلزلة هذه الحادثة التى ذكر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن إخراج بعث النار، وعندها يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن

(١) قال الحسن: ظن المنافقون أن المسلمين يستأصلون وظن المؤمنون أنهم ينصرون كذا فى تفسير القرطبي

عذاب الله شديد. وهٰذه الواقعة هي من هٰذه الزلزلة المديدة المشتملة علىٰ أهوال القيامة. وأنت ترىٰ أن هٰذا الحديث لم يذكر ذهول المرضعة عن رضيعها فيعنى هٰذه الحادثة من الزلزلة يكون عندها وضع الحمل وسكر الناس وأما ذهول المرضعة عن رضيعها فهو ،والله اعلم، من قبل هٰذه الحادثة من بداية البعث؛ لأن كل واحد لهٗ شأن يغنيه عن الآخر وكل واحد مشغول بنفسهٖ وما يكون بهٖ ،وزلزلة الساعة كما قلنا مشتملة علىٰ جميع أهوال القيامة وهٰذا ما قلنا قد يجمع بين القولين فى تفسير هٰذه الآية يعنى القول الأوّل وهو أن الزلزلة من أشراط الساعة وهي فى الدنيا ومن مقدماتها والقول الثانى أنها فى المحشر فى عرصات القيامة؛ لأننا لو نقول أنها مشتملة علىٰ جميع أهوال القيامة فتكون شاملا لما قبل النفخة الأولىٰ من مقدمات الساعة إلىٰ ما يكون فى المحشر فى عرصات القيامة وقد جاء فى الحديث عن أبى هريرة رضي الله تعالىٰ عنه وهو حديث الصور وهو حديث مشهور ، لكن سندا ضعيف وفيه أن هٰذه الزلزلة تكون قبل نفخة الصعق قريب منها متصل بها وهٰذا حديث ضعيف، لٰكن القول إن هٰذه الزلزلة من مقدمات نفخة الصعق هو من جماعة من أهل السنة فجمعا بين القولين من أهل السنة لو نقول إن هٰذه الزلزلة مشتملة علىٰ جميع أهوال القيامة من مقدّمات الساعة إلى بعد البعث ومنها التى عندها تذهل كل مرضعة عمّا أرضعت وهو ،والله أعلم، يكون فى مقدّمات الساعة لمّا ذهب ضوء الشمس والقمر وتناثرت النجوم ووقعت الجبال على الأرض فتحركت واضطربت وتصدعت صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلىٰ وإلى السماء السابعة العليا وهٰذهٖ مقدّمات الساعة يعنى بدايتها [1] وعندها ينفخ فى الصور والخلق يموتون فذهول المرضعة عن رضيعها من بداية الساعة إلى بعد الحساب؛ لأن هٰذه الأحوال تشغلها عن رضيعها وأيضًا فى الآيات الأخرى التى ذكرنا ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (عبس: ٣٤-٣٧) وأيضًا الحديث عن بعث النار لايذكر ذهول المرضعة عن رضيعها [2] ،فوالله أعلم، يكون إشارة إلى أن هٰذا الذهول حاصل من قبل وأمّا وضع كل ذات حمل حملها وسكران الناس وهم ليسوا بسكارىٰ فهو عند الواقعة عن إخراج بعث النار وهٰذه الواقعة مشمولة فى زلزلة الساعة التى هي مشتملة علىٰ جميع أهوال القيامة وهٰذا ما ذكرنا يجمع بين الأحاديث لأبى هريرة رضي الله تعالىٰ عنه وهو حديث مشهور بحديث الصور ولو ضعيف سندا وحديث أبى سعيد الخدري وعمران بن حصين رضي الله تعالىٰ عنهما وكذٰلك يجمع التفسيرين المرويين فى هٰذه الآية ولأن الآية تقول ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا

---

(١) وفى الحديث من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (التكوير: ١) ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ (الانفطار: ١) ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ (الانشقاق: ١) (سنن الترمذي، ح: ٣٣٣٣)

(٢) يعنى عند إخراج بعث النار

رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ (الحج: ١-٢) وهٰذه الآية نزلت في زمان النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وهم كلهم في البرزخ الآن فلو اقتصرنا علىٰ أن الزلزلة عند النفخة الأولىٰ فكيف هؤلاء الناس المخاطبون الأوّل للآية ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ (الحج: ٢) يرونها لأنهم قد ذهبوا من هٰذه الدنيا إلى البرزخ قبل الزمان وكذٰلك كل من يغادر هٰذه الدنيا قبل النفخة الأولىٰ لايرون هٰذه الزلزلة والحديث الصحيح يخبرنا أن شرار الناس يبقون في آخر الزمان قبل الساعة وعليهم تقوم الساعة، فالاقتصار علىٰ أن الزلزلة عند النفخة الأولىٰ من مقدمات الساعة يقصر رؤية هٰذه الزلزلة علىٰ من عليه تقوم الساعة والآية تقتضي عموميتها حتىٰ الناس كلهم يرونها. فالقول بالاقتصار للزلزلة علىٰ مقدّمات الساعة ليس فقط يخالف الأحاديث الصحيحة، بل اقتضاء الآية نفسها وما قلنا بالعكس يراعي لحاظ جميع هٰذه الأشياء. فلو تسأل عن المرضعة التي ماتت قبل النفخة الأولىٰ فمتىٰ تكون ذهولها عن رضيعها؟

قلنا بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز: فما قلنا قد اندرج فيه جواب هٰذا السؤال وهوأنه لاتكون هٰذه المرضعة حيّة عند النفخة الأولىٰ، لكن لما تحييٰ في يوم البعث تكون مذهلة عما أرضعت كما المرضعة التي تكون حيّة عند النفخة الأولىٰ وثم تموت عندها وذهولها عن رضيعها لاينتهي بل يستمر في يوم البعث، ونحن قلنا إن الزلزلة تشتمل علىٰ جميع أهوال القيامة. فلو تسأل عن بيان وضع كل ذات حمل حملها في يوم البعث؟ فقلنا بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيزأن من ماتت من ذوات حمل عند النفخة الأولىٰ أو قبلها تبعث حاملا وثم إما حملها قد كان ينفخ فيه الروح في الدنيا أم لا، فلو كان ينفخ فيه الروح في الدنيا فهٰذا الحمل عند هٰذه الواقعة لإخراج بعث النار يضع من أمها وينفصل عنها حيّا؛ لأنهٗ كان حيّا في الدنيا وثم مات بموت أمّها فالأن في يوم البعث يبعث حيّا ،وأما الحمل الذي لم ينفخ فيه الروح في الدنيا فهو عند هٰذه الواقعة لإخراج بعث النار يضع وينفصل عن أمّها ميّتا؛ لأنهٗ لم يكن حيّا في الدنيا حتىٰ يبعث في يوم البعث فيكون بمنزلة الجماد فيصير ترابا كما الوحوش. وقد جاء في الأحاديث وجود الولدان في يوم القيامة فمنها "ما من مسلم يموت لهٗ ثلاثة من الولد، لم يبلغوا الحنث، إلا تلقوه من أبواب الجنة الثمانية من أيّها شاء دخل." (سنن ابن ماجة، ح: ١٦٠٤) والذي نفسي بيده إن السقط ليجرّ أمّه بسرره إلى الجنة، إذا احتسبته." (سنن ابن ماجة، ح: ١٦٠٩) "لسقط أقدمه بين يديّ أحبّ إليّ من فارس أخلّفه خلفي." (سنن ابن ماجة، ح:١٦٠٧) وهٰذا كلهٗ في المنفوخ بالروح؛ لأن بدونه لايكون حيّا في هٰذه الدنيا حتىٰ يبعث في يوم البعث، بل يكون بمنزلة الجماد. والله أعلم ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

ولو تسأل عن حشر الوحوش هل هي تبعث يوم القيامة؟

فقلنا بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز: إنه نعم! بلاشك للأحاديث الصحيحة فيه وكذلك ظاهر القرآن. ﴿وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنعام:٣٨) وقد اختلف فى معنى الحشر فى هذه الآية وقد جآء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه "موت البهائم حشرها." ، لكن الحشر فى الظاهر لايكون على معنى الموت فعلى التفسير الآخر أن حشرها بعثها يوم القيامة وهذا تفسير ثابت ومؤيد بالأحاديث الصحيحة فمنها عن أبى ذر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم رأى شاتين تنتطحان، فقال: يأباذر هل تدرى فيم تنتطحان؟ قال: ، لكن الله يدرى وسيقضى بينهما." (مسند أحمد، ح:٢١٤٣٨) وفى الحديث الآخر عن عثمان رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال: "إن الجماء لتقتص من القرناء يوم القيامة." (مسند أحمد، ح:٥٢٠) . وعن أبى هريرة رضي الله تعالى عنه موقوفا فى تفسير هذه الآية "يحشر الخلق كلهم يوم القيامة." (المستدرک للحاکم، ح: ٣٢٣١) البهائم والدواب والطير وكل شيء فيبلغ من عدل الله يومئذ، أن يأخذ للجماء من القرناء ، ثم يقول (يعنى للبهائم) كونى ترابا. فلذلک يقول الكافر: ﴿يَا لَيْتَنِى كُنْتُ تُرَابًا﴾ (النبا:٤٠) وقد روى هذا مرفوعا فى حديث الصور. فالبهائم تبعث يوم القيامة وتكون بينهاالقصاص ولايقال إنها غير مكلفة فما معنى القصاص؟ لأن هذا القصاص يكون قصاص المقارنة ولايتعلق بالتكليف ولأن منها من الم الأخرى بدون الاستحقاق فلأنها تؤلم من جهتها مقارنة معادلة. وهذا القول فى تفسير هذه الآية قول أبى هريرة وأبى ذر وغيرهم وهو صحيح للأحاديث الصحيحة مؤيدة له. وقال عطاء "، فإذا رأوا بنى آدم وما هم عليه من الجزع قلن: الحمد لله الذى لم يجعلنا مثلكم، فلاجنة نرجو ولانار نخاف، فيقول الله تعالى لهن كن ترابا" فحينئذ يتمنى الكافر أن يكون ترابا. والله أعلم ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

ولو تسأل عن المحشر، أين يكون هو فى الأرض؟ قلنا بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز: إنا ذكرنا أن الأرض تبدّل غير الأرض والسموات ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوٰتُ وَبَرَزُوا لِلّٰهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (ابراهيم:٤٨) ونحن ذكرنا أن هذا التبدّل يكون فى يوم البعث بعد تشقق السماء ونزول الملائكة والناس عند هذا التبدل يكون على الصراط أو فى الظلمة دونه كما جاء فى الأحاديث فالأرض تبدّل بأرض الفضة والسماء بسماء الذهب فالناس يكون على هذا الأرض الجديدة فتكون محشرة لهم وهذا بعد التبديل وأما قبله و ذلک حين يخرجون من قبورهم ويبعثون أحياء فإلى أين يحشرون بعد البعث؟ فالجواب فى الحديث خرّجه الترمذي عن معاوية بن حيدة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث ذكره، قال "وأشار بيده إلى الشام فقال:

من هاهنا إلى هاهنا تحشرون ركبانا ومشاة وتجرّون على وجوهكم (كل واحد حسب عمله) يوم القيامة على أفواهكم الفدام توفون سبعين أمّة أنتم خيرهم (إشارة إلى المؤمنين) وأكرمهم على الله وإنّ أوّل ما يعرب عن أحدكم فخذه." (مسند أحمد، ح: ٢٠٠٢٢) وفي رواية أخرى: فخذه وكفه." وقد جاء في تفسير الآية ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ (ق: ٤١-٤٤)أن هذه المناداة تكون من الملك واقفا على صخرة بيت المقدس وهي في الشام. وإن قيل إنهّ قد جاء في الأثر الصحيح عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه: "إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مد الأديم وزيد في سعتها كذا وكذا." (مسند الحارث، ح: ١١٢٢) وكذلك في تفسير الآية ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ (النازعات: ١٣-١٤) وقد جاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه: يعني عند النفخة الثانية التي هي نفسها نفخة واحدة، "فإذا هم" يعني الخلائق أجمعون "بالساهرة" يعني على وجه الأرض بعد ما كانوا في بطنها. فقال ابن عباس رضي الله تعالى عنه وسعيد بن جبير و قتادة وأبو صالح: الساهرة "الأرض كلها"، وقال عكرمة والحسن والضحاك وابن زيد: الساهرة وجه الأرض. وقال مجاهد: كانوا بأسفلها فأخرجوا إلى أعلاها، وهذه كلها تدل على أن الأرض كلها تكون المحشر فكيف تجمع بينها وبين الحديث الذي ذكرتم؟

قلنا بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز: إن الحديث يقول: إنكم تحشرون من ههنا إلى ههنا إشارة إلى أرض الشام فهكذا يكون أن الحشر وهو الجمع يكون إلى الشام فيحشرون إليه فصاعداً فلو في إثناء هذا الحشر يملأ أرض الشام والناس لايزال يحشرون إليه حتى هم يكونون خارجين منها متصلين بالجمع الذي فيها وهكذا حتى تملأ الأرض كلها وما زيد في وسعتها فهذا كلهّ لاينافي كون الحشر إلى أرض الشام لما بيّنا. والله أعلم ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

المتن:

> والجنة والنار مخلوقتان، لاتفنيان أبدا ولاتبيدان، وإن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق، وخلق لهم أهلا، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلا منه، ومن شاء منهم إلى النار عدلا منه. وكل يعمل لما قد فرغ له، وصائر إلى ما خلق له.

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى الآن يذكر الجنة والنار فيقول إنهما مخلوقتان الآن وهما لاتفنيان أبدا. وخلق لهما أهلا وهم صائرون إلى ما خلق لهم، فنحن الآن إن شاء الله العزيز

نذكر أحوال وبيان الجنة والنار بالتفصيل ابتداء بالجنة لأنها رحمة الله ومسكن الأنبياء والأبرار (فلها فوقية وفضيلة) وثم نذكر عن النار.

الجنة:

ــــ وهي حق وإيمان بها فرض وهي مكان حسية حقيقة ثابتة لاتخيّل ولا مجاز عن السرور واللذة الحاصلة للروح ولا مجاز عن ترقيات الدرجات الروحانية ولا هي فقط مسكن للروح، بل للروح مع الجسد، وكل شيء فى كتاب الله تعالىٰ وسنة رسوله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم المستفيضة عنها على الحقيقة وعلىٰ ظاهر المعنى فمن أنكر شيئًا مما ذكرنا فى هذا البيان فقد خرج من الإسلام وصار من الكافرين ولأن كلما ذكرنا من الضرورات الدينية وإنكار بها ولو تأويلا كفر بالله وحدهٗ كما لايخفىٰ.

ــــ وفى القرآن ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران:١٣٣) واختلف العلماء فى تأويله: فقال ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنه: تقرن السمٰوات والأرض بعضها إلى بعض كما تبسط الثياب ويوصل بعضها ببعض فذٰلك عرض الجنة ولايعلم طولها إلا الله. وهٰذا قول الجمهور. وقال قوم: الكلام جار علىٰ مقطع العرب من الاستعارة فلما كانت الجنة من الاتساع والانفساخ فى غاية قصوىٰ حسنت العبارة عنها بعرض السمٰوات والأرض. كما تقول للرجل" هٰذا بحر" ولشخص كبير من الحيوان " هٰذا جبل " ولم تقصد الآية تحديد العرض ولٰكن أراد بذٰلك أنها أوسع شيء رأيتموه (وهٰذا [1] فيه نظر؛ لأننا نرىٰ الأرض والسماء الدنيا، لانرىٰ السمٰوات الباقية) وهٰذا كلهٗ من تفسير القرطبي.

ــــ وهي مخلوقة الآن وموجودة للنصوص القطعية من القرآن والسنة فمنها ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران:١٣٣) بصيغة الماضى والآية علىٰ ظاهرها؛ لأنهٗ الأصل ولاضرورة لصرفها عنه وكذٰلك قصة آدم وحواء عليهما السلام وإسكانهما الجنة وهي فى القرآن مشهورة ومعروفة وكذٰلك الأحاديث الكثيرة فى هٰذا الباب ومنها حديث الإسراء ودخول النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم الجنة ومنها رؤيته الجنة فى صلوٰة خسوف الشمس، ومنها الحديث عن أرواح الشهداء أنها تسرح فى الجنة وأرواح المؤمنين تعلق فى شجر الجنة ومنها عرض المقعد من الجنة على المؤمن فى البرزخ ومنها حديث جبريل عليه السلام عن زيارته الجنة وأنها قد حفت بالمكاره وكذٰلك كثيرة فى هٰذا الباب تبلغ التواتر وعلىٰ هٰذا يعنى أنها مخلوقة موجودة الآن إجماعاً من أهل السنة وكيف لا؟ وقد رأيت أن النصوص القاطعة تخبربها.

---

(١) هٰذا ما بين القوسين من العبد الحقير غفر الله له

وإن قيل: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص:٨٣) وفيها "نجعلها" فما ذا تقول فيها؟ قلنا بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز: إن هٰذه الآية لاتكون إلا مؤيدا مزيدا للنصوص الأخرىٰ عن وجود الجنة الأن وهو أن الآية تقول ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ (القصص:٨٣) يعنى الجنة وهٰذا تقتضى وجودها وثم تقول "نجعلها" يعنى "نملّكها ونعطيها ونرزقها للذين لايريدون علوّا فى الأرض ولافسادا" كما فى القرآن ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف:٤٣) ولامعنى "نجعلها" يعنى "نخلقها"؛ لأن أوّلاً: لو واحد يقول إن هٰذه البقرة نجعلها لمن يفعل هٰذا ،فمعلوم أن البقرة موجودة والمعنى أنهٗ يعطيها لمن يفعل هٰذا الفعل المراد فكذٰلك ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ ...﴾ (القصص:٨٣) معناها أنها موجودة ويعطيها لمن يفعل ما فى الآية وثانيا: علىٰ معنى الخلق تكون الآية مخالفا للنصوص القطعية الأخرىٰ وهٰذا محال فلا بد من المعنى الذى ذكرنا وهو معنى صحيح لايخالف اللغة ويوافق النصوص الأخرىٰ فلامحيص عنه.

وإن قيل : لو كانت موجودة الأن لما جاز هلاك أكل الجنة لقوله تعالىٰ ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾ (الرعد:٣٥) وقال الله تعالىٰ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (القصص:٨٨) وهٰذا يقتضى علىٰ ظاهرها الهلاك على الجنة وهو ممتنع؛ لأن ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾ (الرعد:٣٥) فما ذا تقولون فى هٰذا؟ قلنا بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز: إن العلماء اختلفوا فى فناء الجنة والنار عند النفخة الأولىٰ يعنى عند فناء الخلق فقال قوم: لايجوز عليهما الفناء البتة وإنهما باقيتان بابقاء الله سبحانهٗ وتعالىٰ وأما الآية ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (القصص:٨٨) يجوز أن يكون معناها. "كل ممكن فهو هالك فى حد ذاتهٖ" وإن لم يطرأ عليه الهلاك فعلا يعنى الجنة والنار فى حدّ ذاتيهما هالكتان؛ لأن لاقرار لهما إلا بخلق الله وإبقاءه إيّاهما وهٰذا صادق فى كل ممكن يعنى كل ما هو غير الله فعلىٰ هٰذا التأويل لايلزم فناء الجنة فلاينافى ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ (الرعد:٣٥)لأنها موجودة الأن إلى الأبد بدون الفناء على الإطلاق. وقال قوم: أنهٗ يأتى عليهما الفناء (فلايبقى إلا الله عزوجل) مصداقا لقوله تعالىٰ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (القصص:٨٨) علىٰ ظاهر المعنى وثم تُعادان فعلىٰ هٰذا القول ،الجواب هو أوّلا: نحن قد كلّمنا فيه سابقا وقلنا إن الهلاك قد يكون علىٰ معنى الخروج عن الانتفاع ولايلزم الانعدام فعلىٰ هٰذا أكل الجنة هلاكه بمعنى فساده علىٰ وجه الخروج عن الانتفاع المعتاد بهٖ وليس انعداما فلاينافى ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾ (الرعد:٣٥) لأنهٗ لايزال يكون موجودا ويكون أكلا ، لكن ليس معتادا به من حيث الانتفاع بس.

وثانيا: الآية بكمالها ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ

وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ (الرعد:٣٥) والمعلوم أن المتقون بعد الحساب إذا يدخلون الجنة فلا فناء للجنة بعدها على الإطلاق، لأن ولو ناخذ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (القصص:٨٨) على ظاهرها فهي في النفخة الأولى ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص:٨٨) وبعد النفخة الأولى تعاد إلى كما كانت وثم لا فناء مطلقا كما هو المعلوم ، فإذا المتقون يدخلونها روحا وجسدا بعد الحساب فيكون آكلها وظلها دائم لهم لامحالة فلاينافى ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ (الرعد:٣٥) فحاصل الكلام أن الجنة موجودة مخلوقة الأن وكذلك النار للنصوص القاطعة ولا يجعل كونها الموجودة الأن ينافى الآية ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾ (الرعد:٣٥) مع ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (القصص:٨٨) .

ـــــ والدخول في الجنة روحا وجسدا بعد الحساب يوم القيامة وهذا ظاهر لاخفاء فيه ونحن ذكرنا أن أرواح المؤمنين تكون في الجنة في البرزخ ، ففي يوم البعث تعاد إلى أجسادها وثم الحشر والحساب وثم دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار روحا وجسدا وهذا على العموم واستثنى منه سكون آدم وحوّاء عليهما السلام في الجنة قبل هبوط إلى الأرض كما هو المعلوم وكذلك دخول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الجنة للزيارة في الإسراء والمعراج كما هو في الأحاديث الصحيحة ، لكن هذا خاص. وأما الدخول فيها للخلود فهو كما ذكرنا بعد الحساب ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ (هود:١٠٣-١٠٨)

ـــــ وهي دائمة خالدة لأبدالأبدين وكذلك أهلها فمن دخلها لايخرج منها، بل يخلد فيها خالدا مخلدا أبدا وهذا معلوم من الدين بالضرورة والنصوص قاطعة فيها ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة:٨٢) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ (النساء:١٢٢) ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ (التوبة:١٠٠) والحديث المشهور المعروف قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم "إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يجآء يوم القيامة بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال ياأهل الجنة! هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ، فيقولون:

نعم! هذا الموت. قال ثم يقال: يا أهل النار! هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ، فيقولون نعم! هذا الموت، قال فيؤمر به فيذبح، قال ثم يقال: ياأهل الجنة خلود فلاموت، ويا أهل النار خلود فلاموت فيها، ثم قرأ رسول الله صلى الله تعالیٰ علیه وسلم ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (مريم:٣٩) وأشار بيده إلى الدنيا." (مسند أحمد، ح:١١٠٦٦)

وفی الجملة دوام الجنة والنار من الضرورات الدينية فمن جحده فقد كفر وخرج من ملّة الإسلام. وقد أجمع الأمة علىٰ دوام الجنة والنار. وأما الآية ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾(هود:١٠٦-١٠٨) فالجملة ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ وقد جاء ت فی تفسیر هذه أقوال كلها تجمع على القدر المشترک وهو دوام الجنة والنار يعنی ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ لا منافاة بينه وبين دوامية الجنة والنار. ونحن نذكر الأن بيان القول الذی هو المعنی المتبادر للآية وهو علّق الله سبحانهٗ وتعالیٰ الأمر علىٰ مشيئته والمعلوم أن الكل بمشيئة اللّٰه تعالیٰ ومشيئته فی هذا الأمر قد بيّنت فی النصوص القطعية أنهٗ علىٰ دوامية الجنة والنار كما ذكرنا من بعضها فالأمر علىٰ أن الجنة والنار دائمتان أبدان.

ولو قيل:إنهٗ سبحانهٗ وتعالیٰ قد بيّن فی النصوص الأخرىٰ دوامية الجنة والنار فما هي حكمة بيان الأمر فی هذه الآيات على الوجه المختلف من النصوص الأخرىٰ؟

قلنا بتوفيق اللّٰه إن شاء اللّٰه العزيز: إننا لانستطيع أن نحصی حِكم اللّٰه عزوجل، ومع هذا نقول ما هو البديهي وهو أن المعلوم أن اللّٰه عزوجل هو الخالق المالک الأول والآخر والظاهر الباطن الأزلیّ الأبدیّ وكل ما سواه مخلوق حادث محدث ويحتاج إليه تعالیٰ فی خلقه وبقائه ونحن فی هذا الدنيا سيطرا علينا الهلاک ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾(الرحمن:٢٦-٢٧) ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص:٨٨) وهو الأمر الشاهد علىٰ أننا نحتاج إلى اللّٰه تعالیٰ فی خلقنا وبقائنا، وفی الآخرة فی الجنة ،اللّٰه عزوجل يعطينا الدوام والخلود وكذٰلک لأهل النار (أعاذنا اللّٰه تعالیٰ منها) فقد بيّن اللّٰه سبحانهٗ وتعالیٰ فی هذه الآية؛ لأننا لانغتر بدوام الآخرة، بل الأمر كلهٗ بمشئية اللّٰه تعالیٰ وهي لخلودها ودوامها فنحن نفهم ونعقل فرق أبدية اللّٰه سبحانهٗ وتعالیٰ وأبديتنا وهو أن اللّٰه سبحانهٗ وتعالیٰ قائم بذاته الأزلي الأبدي بذاته ونحن لسنا أزليا، بل مخلوق حادث وإن كنا أبديًا ، لكن ليس بذواتنا، بل بمشيئة اللّٰه تعالیٰ وبابقاء ه إيّانا وهذا فی الآخرة فی الجنة الفردوس وكذٰلک لأهل النار أعاذنا اللّٰه منها. واللّٰه أعلم ويهدی من يشاء إلى صراط مستقيم.

— والجنة لأهل الإيمان يعنى الذين ماتوا عليه ولو كانوا عصاة فيدخلون النار لمدة ما للعقوبة ثم يخرجون منها فيدخلون الجنة وبعد دخولها لاخروج منها. ونحن قد بيّنا هذا الأمر سابقا وفى القرآن ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (الحجر:٤٥-٤٨) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ (الأعراف:٤٠) وفى الحديث عن أبى ذر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم " ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة قلت وإن زنىٰ وإن سرق، قال وإن زنى وإن سرق،قلت وإن زنىٰ وإن سرق، قال وإن زنى وإن سرق،قلت وإن زنىٰ وإن سرق، قال وإن زنى وإن سرق، وإن رغم أنف أبى ذر." (صحيح مسلم، ح:٩٤)

وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال:أتى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رجل فقال يارسول الله ما الموجبتان؟ قال: من مات لايشرك بالله شيئًا دخل الجنة ومن مات يشرك بالله شيئًا دخل النار." (صحيح مسلم، ح:٩٣) وكل هذه النصوص ترجع إلى من مات على الإسلام والإيمان سيدخل الجنة إما فى أول الوهلة إما بعد عقوبة ما وعلى العكس من مات على الشرك والكفر سيدخل النار فى أول الوهلة ويخلد فيها خالدا أبدا . وقد فصّلنا الكلام فى هذا الموضوع سابقا وفى القرآن ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ (البينة:٦-٨)

— ودخول أهل الإيمان فى الجنة فضل من الله عزوجل وليس واجبًا عليه شيء وكيف؟ هو الله الخالق المالك للكل ،لو عذب أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم لكانت رحمتهٔ خير من أعمالهم وهو ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الأنبياء:٢٣) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "سددوا وقاربوا وأبشروا، فإنهٔ لن يدخل الجنة أحداعمله، قالوا ولا أنت يارسول الله! قال: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله منه برحمة (صحيح مسلم، ح:٢٨١٨)

——— وهي حرام على الكافر والمشرك والمنافق (وهو كافر أيضا) وفى القرآن ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ (المائدة:٧٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا

عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾(الأعراف:٤٠) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ (فاطر:٣٦)

☆ وما جاءت في النصوص القطعية في العيش والتمتع والإنعام والإحسان في الجنة فكلها على ظاهرها ومن جحد شيئًا منها أو صرفها عن ظاهرها فقد كفر وخرج من ملّة الإسلام. والنصوص القطعية هي القرآن والسنة المتواترة والإجماع القطعي. فمن هذه النصوص في عيش الجنة ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (الزخرف:٧٠) ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ (الفرقان:١٥) ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ (الأنبياء:١٠٢) ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ (التوبة:٢١) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة:٢٢-٢٣) ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ (يونس:٢٦) ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ (ق:٣٥) ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ (ص:٥٠) ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾(الزمر:٧٣) ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ (محمد:١٥) ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ (آل عمران:١٨٥) ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ (الأعراف:٤٣) ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (الحجر:٤٧) ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ. قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ (الحاقة:٢٢-٢٣) ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ (الرحمن:٥٤) ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ (الإنسان:١٤) ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (الحج:٢٣) ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ (الكهف:٣١) ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ (الرحمن:٦٨) ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (المؤمنون:١٩) ﴿وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾ (الواقعة:٢٩) ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ (الدخان:٥٥) ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ (الواقعة:٣٦-٣٨) ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ (الرحمن:٧٢) ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ (الدخان:٥٥) ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ (الواقعة:٢١-٢٣) ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾ (الواقعة:٣٠-٣١) ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ (الإنسان:٦) وغيرها من النصوص الكثيرة القاطعة فمن جحد واحدا منها أو صرفها عن ظاهرها فقد كفر بالله تعالى وصار من أهل الكفر ووجب قتاله. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

☆ وكذلك يجب الإيمان بما ثبت من النعمة والعيش في الجنة من النصوص الظنية وهي

أخبار الآحاد فمن أنكر شيئًا منها فقد ضل وغوى، وإن لم يكفر.

النار:

☆ وهي جهنم وهي حق ثابتة مكان عذاب الله تعالىٰ وإيمان بها فرض وجحودها كفر. فهي مكان حسية حقيقة ثابتة لاتخيل ولامجاز عن الألم والمشقة الحاصلة للروح ولامجاز عن الدرجات السفلية لها ولاهي فقط مسكن للروح، بل للروح مع الجسد وكل شيء فى كتاب الله تعالىٰ وسنة رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم المستفيضة عنها على الحقيقة وعلىٰ ظاهر المعنى. فمن أنكر شيئًا مما ذكرنا فى هٰذه النقطة فقد خرج من الإسلام وصار من الكفرين ولأن كلما ذكرنا ثابت من الضرورات الدينية وإنكار بها ولو تاويلا كفر بالله وحدهٗ كما لايخفى. وفى القرآن ﴿فَأَمَّا الَّذِيْنَ شَقُوْا فَفِى النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيْرٌ وَّ شَهِيْقٌ﴾ (هود:١٠٦) ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيْمُ لِلْغَاوِيْنَ﴾ (الشعراء:٩١) ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِىْ جَحِيْمٍ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّيْنِ وَمَاهُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِيْنَ﴾ (الانفطار:١٤-١٥-١٦) والجحيم والنار وجهنم كلها يعود إلى المكان الواحد وهو جهنم وفى القرآن ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِيْنَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ (الحجر:٤٣-٤٤) فقد جآء فى التفسير أن الأبواب هي الأطباق بعضها فوق بعض فأعلاها جهنم وثم لظى وثم الحطمة وثم سعير وثم سقر وثم الجحيم وثم الهاوية، ففى الدرك الأعلىٰ عصاة المسلمين وثم يخرجون منها فيدخلون الجنة وما أسفل منها من الطبقات فهي للكافرين للخلود والمنافقون يكونون فى أسفلها. ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِيْنَ فِى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ (النساء:١٤٥) وهٰذا بيان الطبقات لاينافى إشارة إلىٰ جميع هٰذه الطبقات باسم جهنم والجحيم والنار وغيرها من الأسامى كما فى هٰذه الآية التى ذكرنا أشار بجهنم إلى جميع هٰذه الطبقات.

☆ وهي مخلوقة موجودة الأن وفى القرآن ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِىْ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِيْنَ﴾ (آل عمران:١٣١) ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِىْ وَقُوْدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِيْنَ﴾ (البقرة:٢٤) وقد مر الكلام فى فناء ها عند النفخة الأولىٰ وإعادتها وبيان الآية ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهٗ﴾ (القصص:٨٨) وأن الهلاك لايلزم الانعدام، بل قد يكون علىٰ معنى الفساد والخروج عن وجه المعتاد به الذى هو له.

☆ الكفار والمشركون والمنافقون يخلدون في نار جهنم دائما أبدا وعصاة المؤمنين لو دخلوا فيها سيخرجون منها فى يوم ما ويدخلون الجنة فى الأخير وقد مرّ الكلام فيه وقد جآء عن الكافرين والمشركين والمنافقين وكلهم كفار ﴿يُرِيْدُوْنَ أَنْ يَّخْرُجُوْا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِيْنَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيْمٌ﴾ (المائدة:٣٧) فعلىٰ هٰذا يمكن لواحد أن يدخل النار وثم يخرج منها وهم عصاة المؤمنين كما ثبت فى النصوص القاطعة وقد مرّ الكلام فيه وعلى العكس من يدخل الجنة، ولايدخلها

إلا مؤمن كما ثبت فى النصوص القاطعة فلايخرج منها أبدا وفى القرآن ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (الحجر:٤٥-٤٨)

☆ وجهنم على الإصالة للكافرين يعنى الكفار والمشركين والمنافقين وجملة أنواع الكفرة وفى القرآن ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:٢٤) والمسلم لو دخلها سيخرج منها كما ثبت فى النصوص وفى الحديث عن أنس رضي الله تعالىٰ عنه عن النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "أخرجوا من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن شعيرة، أخرجوا من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه ما يزن بُرة، أخرجوا من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه ما يزن ذرة." (سنن الترمذي، ح:٢٥٩٣) وهٰذافى يوم القيامة ومعنى من قال:" لا إله إلا الله" يعنى تقبّل الإسلام وتديّن به؛ لأن من يُسلم يتشهد به.

☆ وهي دائمة يعنى جهنم دائمة أبدىً ولا انقطاع لها ولا انعدام ويخلد فيها جميع أنواع الكفرة إلى الأبد وهٰذا من ضرورات الدين فمن جحده ولو تأويلا فقد كفر بالله وحده؛ لأن النصوص واردة فيه قاطعةً من القرآن والسنة المتواترة فمنها: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام:١٢٨) ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ (البقرة:٨٦) ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (الزمر:٧٢) ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ (المائدة:٣٧) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة:٢٥٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (آل عمران:١١٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (النساء:١٦٨-١٦٩) ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (الأعراف:٣٦) ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ (بنى إسرائيل:٩٧) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (العنكبوت:٢٣) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ (الأعراف:٤٠) ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة:٢١٧)

والآيات الأخرىٰ كثيرة جدًا فى هٰذا الباب وفى الجملة هٰذا الأمر معلوم من الدين بالضرورة



فالأمة سلفا وخلفا مجتمعة عليه بالاتفاق والإجماع لاخلاف فيهم وهذا الأمر كما ذكرنا من ضرورات الدين حتى لو تسأل عوام المسلمين فهم يعرفون أن الكفار والمشركين يخلدون في النار أبدا وجميع أنواع الكفرة يخلدون فيها خالدا أبدا والأحاديث متظاهرة كثيرة مستفيضة متواترة في هذا الباب ومنها ما ذكرنا الحديث المشهور عن ذبح الموت وخلود الدارين يعني أهل الجنة وأهل النار وحديث الشفاعة يعني لاشفاعة لجميع أنواع الكفرة وهم يخلدون في النار وبالعكس عصاة المؤمنين يخرجون منها بالشفاعة وبرحمة الله تعالى وكذلك الأحاديث كثيرة في خلود النار وهذا الأمر يعني خلود الكفرة مجمع عليه في جميع شرائع الأنبياء عليهم الصلوات والسلام؛ لأن الله تعالى قد بيّن للإنسان الأوّل يعني آدم عليه الصلوات والسلام ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة:٣٨-٣٩) فبيّن من البداية أن الكفرة خالدون في النار أبدا. فحاصل الكلام أن خلود الكفرة في النار واليأس لهم من رحمة الله تعالى في الآخرة أمر من الضرورات البديهية في الدين وجاحده يكون كافرا لامحالة ومنه ابن تيمية فهو على العكس كل ما ذكرنا قال بفناء النار وخروج الكفرة منها وحتى أشار في كلامه أنهم يخرجون من النار إلى رحمة الله تعالى وهل هذا إلا كفر بواح؟

ولقد ذكر ابن القيم في كتابه "حادي الأرواح" نقلا عن شيخه ابن تيمية القول بفناء النار وبقاء الجنة وأطال في هذا الكلام ناقلا عنه ولم يردّ عليه وهذا يشير إلى اعتداده بقول شيخه ابن تيمية ونقل هذا القول ابن أبي العز في شرحه لهذا الكتاب "العقيدة الطحاوية" ونحن قد ذكرنا في بداية كتابنا هذا أن ابن أبي العز كان من أتباع ابن تيمية متعصبا له ونقل آرائه كثيرة في شرحه للعقيدة الطحاوية فملأه بالباطل والضلال، بل الكفر كما في هذه المسئلة أيضا. وابن أبي العز في شرحه كما ذكرنا ذكر كثيرا من كتب ابن تيمية وابن القيم ، لكن بدون إحالة عليهما وهذا؛ لأن ابن تيمية وابن القيم مواقفهما كانت محذورا والعلماء في عصره ردّوا عليهما ردا شديدا في آرائهما الكثيرة منها هذا الراي في فناء جهنم وحتى كفّروا ابن تيمية بسبب هذا الرأي فاعلم ياأخي المسلم! ابن تيمية ما كانت مواقفه مقبولة في بين علماء عصره، بل العلماء الكثيرة في زمانه وبعدهٗ ردّوا عليه في أشياء كثيرة ومنهج ابن تيمية صار مشهورا في المشرق الوسطى بعد سيطرة آل سعود على جزيرة العرب وقصتهم موجودة في التاريخ، وهؤلاء خرجوا على الناس في جزيرة العرب تحت إشراف ابن عبدالوهاب وقاتلوا وقتلوا وكفّروا الناس الذين يقولون:" لاإله إلا الله محمد رسول الله(صلى الله عليه وسلم) " متهميهم بالشرك الأكبر، والله أعلم، عن قصتهم وهو الحاكم عليهم ولمن قتلوه من

الناس ،وأيضًا هم قاموا ضد الخلافة العثمانية زاعمين عليهم أنهم بنفس التهمة ولأن العثمانيّون هم المتصوفة والحركة النجدية يعنى جماعة ابن عبدالوهاب كانت ضد الصوفياء زاعمين أنهم مشركون وهٰذا الاتهام علىٰ وجه الإطلاق غلط كذب ؛ لأن من الصوفياء الذين هم مشركون ، لكن منهم من هم المسلمون، بل أهل السنة والجماعة. وياحيرة على الحركة النجدية أنها قاتلت ضد هؤلاء الناس، فى زمان الذى فيه الكفار الطواغيت من أوروبا يأخذون علىٰ بلاد المسلمين واحدا بعد آخر يسيطرون عليها ،لكن لم تقاتل ضد هؤلاء الكفار، وعلى العكس هؤلاء المتصوفة فى بلاد المسلمين قاتلوا ضد هؤلاء الكفار الطواغيت وقاوموا ضدهم، والحركة النجدية قاتلوا ضد هؤلاء المتصوفة مكفّريها، واليوم نحن نرىٰ ال سعود وهم أبناء الحركة النجدية قد سمحوا لجيش الطواغيت الكفرة أن يدخلوا فى جزيرة العرب ويبنوا قاعدة فيهاوهم اليوم موجودون ساكنون فى جزيرة العرب ،وهؤلاء يعنى الحركة النجدية قد نشروا منهج ابن تيمية صارفين أموالاً كثيرة لهٰذا المقصد، فاليوم أنت ترىٰ الناس يزعمون أنهم الجماعة السلفيّة فهم هؤلاء الناس وهم فى الحقيقة أتباع ابن تيمية زاعمين أنهم أتباع السلف الصالح وليس لهم مسكة من اتباعهم. فراجعا إلى كلامنا وهو كنا نقول إن ابن تيمية قال بقول فناء النار وهو كفر كما ترىٰ من النصوص القاطعة التى ذكرنا والمعلوم أن إنكار النص القطعي ولو واحد يوجب الكفر فناهيك عن النصوص القاطعة الكثيرة وهٰذا الأمريعنى دوام النار هو كما ذكرنا مجمع عليه عند المسلمين ومن قال خلاف هٰذا فقد أعظم الفرية، وابن تيمية كما أشرنا إليه سابقا كان فى مسئلة الحسن والقبح اتّبع منهج المعتزلة فمبنيا عليه خلافا للنصوص القاطعة من القرآن والسنة قال: إنهُ لاحكمة فى دوام النار، بل الحكمة تقتضى أن حتىٰ الكفار لايدخلون النار إلا لكى يُطَهّروا من دنس الكفر وثم يخرجوا منها ويُرحموا من عند اللّٰه، بل يدخلوا الجنة ولأن اللّٰه تعالىٰ لايُعذب للتشفّى من الغضب[1] كما قد يكون فينا، فلا نقطة فى تعذيب الكفار للدوام وهو ينافى الحكمة فيلزم خروجهم من النار إلى رحمة اللّٰه تعالىٰ. وهٰذا هو بيانه فى الجملة فى عقيدته فى فناء النار ويا تف عليه! أنكر وأعرض مما قال اللّٰه سبحانهُ وتعالىٰ ورسولهُ صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم وبنىٰ

---

(١) الإلزام :؛ لأنهُ متعال عن هٰذا وطاعة الخلق هو لاينتفع به بوجه ما ومعصية الخلق هو لايتضرر به فى وجه ما وليس رضاه وغضبه كرضائنا وغضبنا الذى هو عبارة عن الانفعال والتأثرالعطفى والتغير النفسي، بل رضائه وغضبه يتعالان عن هٰذه الكيفيات ولهٰذا العلماء قالوا رضاءه عبارة عن الإنعام وإعطاء الثواب وغضبه عبارة عن التعذيب والانتقام ، ، لكن هٰذا كلهُ ما ذكرنا صحيح عندنا أهل السنة والجماعة ونحن نعرف ونعتقد أن اللّٰه تعالى لايعذب للتشفّى من الغضب كما هو حالنا؛ لأن غضبه ليس كغضبنا ثم التشفّى من الغضب يدل على الاحتياج واللّٰه تعالى الغنى الحميد ، لكن السوال هو أن ابن تيمية أصلهُ أن اللّٰه تعالى تقوم به الحوادث والتغيرونعوذ باللّٰه فصفة الرضاء والغضب عنده التغيرات والحوادث التى يقوم باللّٰه تعالى ونعوذ باللّٰه تعالى فعلى هٰذا كيف هو يقول عدم التعذيب للتشفى من الغضب وغضب اللّٰه تعالى عنده كغضبنا ولوليس مطلقا؟ ، لكن على الأقل أنهُ التغير فى الذات فى الحقيقة فتأمل.

عقيدته على فهمه الباطل الكافر. وقدّمه على النقل المتواتر القطعي في الثبوت والدلالة، وفي القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (الحجرات: ١) ومن هو ابن تيمية حتى يحكم ما هي الحكمة وما هي ليست بحكمة؟ هل هو يريد أن يحكم على الله ما هو ينبغي أن يفعل وما لا؟ وهل هٰذا إلا كفر بواح؟ الله عزوجل لايُسئل عما يفعل وهم يُسئلون. ، فإذا ذكر الله عزوجل دوام النار وخلود الكفار فيها فهٰذا هو الحكمة؛ لأن الله عزوجل هو الحكيم فى كل شيء يفعلهٗ فأفعالهٗ حكيمة بنفسها فما هو يفعل فهو حكيم فيه وليس هناك القانون يحكم عليه ونعوذ بالله، بل لهٗ أن يفعل ما يفعل لاحجر عليه وما قال ابن تيمية هو منهج المعتزلة الزنادقة وهو أنهم يحكمون على الله بقانون معيّن الذى خرقوه أنفسهم وهل هٰذا إلا كفر بواح؟ والله عزوجل كيف يكون الله عزوجل لو كان تحت القوانين؟ وهل هٰذا إلا كذب مفترى؟، بل هو الله عزوجل الغنى الحميد المتعال الكبير ذو الجلال والإكرام يحكم ولايُحكم عليه فعال لما يريد يحكم ما يشآء ويفعل مايريد.

ولايقال: إن رحمة الله تعالىٰ واسعة لكل شيء وهي تسبق غضبه فهٰذا يقتضى إخراج الكفار والمشركين عن جهنم أيضًا؛ لأن الله عزوجل قد بيّن حينما قال: إن رحمتهٗ وسعت كل شيء أنها مكتوبة لمن يتقى وأيضًا بيّن فى مكان آخر أن الكفار قد يئسوا من رحمتهٖ فقال الله عزوجل ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٦) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (العنكبوت: ٢٣) وأيضًا المعلوم أن الله عزوجل لهٗ صفات الرحمة وصفات العدل فالآخرة داران دار رحمة لايشو بها شيء وهي الجنة. ودار عذاب (وعذابه عدل) [1] لايشوبه شيء وهي النار فرحمة الله تعالىٰ ظاهرة فى الجنة وعدلهٗ ظاهر فى النار فهناك مظهر لصفاتهٖ الرحمة والعدل. ولايقال: إن الكافر يكفر فى حياته الدنيوية التى هي قليلة، بل كالعدم بنسبة الحياة الأخروية فكيف يُعذب للدوام للكفر فى الحياة الدنيوية المحدودة القليلة؟ لأن الكافر نيته أن يكفر استمراراً فلو أعطى لهٗ الحياة الطويلة تكون نيته أن يكفر فى جميعها ولو أعطى لهٗ الحياة الدائمة فى الدنيا تكون نيته أن يكفر فى جميعها والمعلوم أن الأعمال بالنّيات وثم لا علاقة بين مدة العقوبة ومدة الجرم، بل العلاقة هي بين ماهية الجرم وماهية العقوبة وهٰذا ظاهر والكفر والشرك أكبر الجرم فعقوبتهما أكبر العقوبة وقد قال الله تعالىٰ فى القرآن: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

(١) ونحن نعرف أن الله عزوجل يثيب على الحسنٰت بالأضعاف، لكن عذابه على السيئات كمثل السيئات فعلى هذا أيضًا رحمتهٗ تسبق غضبه لامحالة مع دوامية النار.

(الأنعام:٢٧-٢٨) فالكافر حتىٰ لو يُردّ إلى الحياة الدنيوية من الآخرة لرجع إلى الكفر والشرك؛ لأن هٰؤلاء هم الأشقياء فى قضاء الله تعالىٰ فالكافر والمشرك ماهية جرمه كبرىٰ ،ونيته الاستمرار فيه للدوام فعقوبته استمرار كونه فى جهنم للدوام. وفى الأخير كما ذكرنا أن الله عزوجل قد بيّن أن الكافر والمشرك يخلد فى النار أبدا فلاحاجة للكلام بعد هٰذا وهٰذه المسئلة يعنى دوام الكفار والمشركين فى جهنم من الضرورات الدينية وقد قال عبدالقاهر البغدادى فى كتابه "أصول الدين" "اجمع أهل السنة من سلف من أخيار الأمة علىٰ دوام بقاء الجنة والنار وعلىٰ دوام نعيم أهل الجنة ودوام عذاب الكفرة فى النار" والدلائل فى هٰذا الباب كثيرة قاطعة ولذٰلک أجمع المسلمون علىٰ اعتقاد ذٰلک وتلقوه خلفا عن سلف عن نبيهم صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وهو مركوز فى فطرة المسلمين معلوم من الدين بالضرورة فمن ردّ ذٰلک فهو كافر ومن تأوّلهٗ فهو كمن يؤوّل الآيات الواردة فى البعث الجسمانى وهو كافر أيضًا بمقتضى العلم. وفى شرح المقاصد : "أجمع المسلمون علىٰ خلود أهل الجنة فى الجنة وخلود الكفار فى النار" قال شيخنا أبوحنيفة رحمه الله تعالىٰ فى كتابه "الوصية" "والجنة والنار.......... ولا فناء لهما."

☆ وجميع ما جآء ت فى القرآن والأخبار المتواترة عن جهنم وكيفيتها وكيفية عذابها فالإيمان بها واجب فرض ويكفر جاحدها ولوكان متاوّلا مثلا ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِيْنَ﴾ (آل عمران:١٣١) ﴿وَالَّذِيْنَ كَفَرُوْا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضٰى عَلَيْهِمْ فَيَمُوْتُوْا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذٰلِکَ نَجْزِى كُلَّ كَفُوْرٍ﴾ (فاطر:٣٦) ﴿هٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوْا فِىْ رَبِّهِمْ فَالَّذِيْنَ كَفَرُوْا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُ وْسِهِمُ الْحَمِيْمُ يُصْهَرُ بِهٖ مَا فِىْ بُطُوْنِهِمْ وَالْجُلُوْدُ وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيْدٍ كُلَّمَا أَرَادُوْا أَنْ يَّخْرُجُوْا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيْدُوْا فِيْهَا وَذُوْقُوْا عَذَابَ الْحَرِيْقِ﴾ (الحج:١٩-٢٢) ﴿وَإِذَا أُلْقُوْا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِيْنَ دَعَوْا هُنَالِکَ ثُبُوْرًا لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوْرًا وَّاحِدًا وَّادْعُوْا ثُبُوْرًا كَثِيْرًا﴾ (الفرقان:١٣-١٤) ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِکُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّکَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُوْنَ﴾ (الزخرف:٧٧) ﴿يَتَجَرَّعُهٗ وَلَا يَكَادُ يُسِيْغُهٗ وَيَأْتِيْهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَّمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَّمِنْ وَّرَائِهٖ عَذَابٌ غَلِيْظٌ﴾ (ابراهيم:١٧) ﴿ثُمَّ لَايَمُوْتُ فِيْهَا وَلَايَحْيٰى﴾ (الأعلىٰ:١٣) ﴿هٰذَا فَلْيَذُوْقُوْهُ حَمِيْمٌ وَّغَسَّاقٌ﴾ (ص:٥٧) ﴿مِنْ وَّرَائِهٖ جَهَنَّمُ وَيُسْقٰى مِنْ مَّاءٍ صَدِيْدٍ يَتَجَرَّعُهٗ وَلَا يَكَادُ يُسِيْغُهٗ﴾ (ابراهيم:١٦-١٧) ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَّبِّكُمْ فَمَنْ شَآءَ فَلْيُؤْمِنْ وَّمَنْ شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِيْنَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَّسْتَغِيْثُوْا يُغَاثُوْا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوْهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَآءَ تْ مُرْتَفَقًا﴾ (الكهف:٢٩) ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِىْ أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُوْنَ﴾ (المؤمن:٧١) ﴿خُذُوْهُ فَغُلُّوْهُ ثُمَّ الْجَحِيْمَ صَلُّوْهُ ثُمَّ فِىْ سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُوْنَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوْهُ﴾ (الحاقة:٣٠-٣٢) ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِيْنٍ لَايَأْكُلُهٗ إِلَّا الْخَاطِئُوْنَ﴾ (الحاقة:٣٦-٣٧) ﴿يَوْمَ

تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ (الأحزاب:٦٦) ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ (القمر:٤٨) ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ (المؤمنون:١٠٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ (النساء:١٤٠) ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (التوبة:٣٥) ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (التوبة:٨١) ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (الم سجدة:١٣) ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الفرقان:٣٤) ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (الرعد:١٨) ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر:٦٠) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (بنى إسرائيل:١٨) ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ (الزمر:٧١) ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ (الحجر:٤٤) ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ (بنى إسرائيل:٩٧) ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا﴾ (طه:٧٤) ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ (الشعراء:٩١-٩٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ (آل عمران:١٠) ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:٢٤) ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ (الأنبياء:٩٨) ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ (النساء:١٤٥) ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (النساء:١٣٨) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ (هود:١٠٦) ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ (الفرقان:١٢) ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ﴾ (ابراهيم:٥٠) ﴿يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ (العنكبوت:٥٥) ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ (الدخان:٤٥-٤٦) ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ (محمد:١٥) ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ (الهمزة:٦-٧) ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ (الدخان:٤٣-٤٦)

فهذه كلها وكذلك غيرها ما جاء ت فى القرآن والأحاديث المتواترة كلها حق ثابتة ويكفر جاحدها ويخرج من ملة الإسلام وما ثبت عن جهنم فى أخبار الآحاد فهي أيضًا واجبة الإيمان ، لكن لايكفر جاحدها، بل يفسق ويضل وفى شرح عقيدة سفارينية : "ولايكفر منكر خبر الآحاد فى الأصح."

☆ لقد ذكرنا أن لجهنم سبعة أطباق كما فى الآية ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ

أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴾ (الحجر:٤٣-٤٤) اي سبعة أطباق . طبق فوق طبق كذا فى التفسير وأيضًا مروي عن سيدنا علىّ رضي الله تعالىٰ عنه. والذى عليه الأكثر من العلماء أن هذه سبعة أطباق أعلاها جهنم ،ثم لظى ، ثم الحطمة، ثم سعير، ثم سقر، ثم الجحيم. ثم الهاوية. ، لكن كما ذكرنا هذه القسمة لاتمنع أن يُطلق علىٰ جميع هذه الطبقات باسم جهنم كما فى الآية التى ذكرنا أنها تقول إن لجهنم سبعة أبواب أي أطباق. فأطلق اسم جهنم علىٰ جميع هذه الأطباق ، ، فإذا فهمت هذا فلا تشكل عليك فهم هذه الآيات ﴿هٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِىْ يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُوْنَ يَطُوفُوْنَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيْمٍ آنٍ ﴾ (الرحمٰن:٤٣-٤٤) ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِىْ أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُوْنَ فِى الْحَمِيْمِ ثُمَّ فِى النَّارِ يُسْجَرُوْنَ﴾ (المؤمن: ٧١-٧٢) ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيْمٍ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيْمِ ﴾ (الصافات:٦٧-٦٨)

فلايفهم من هذه الآيات أن الحميم خارج من جهنم. لا، بل هو منها وفيها ، لكن اسم جهنم قد يُطلق علىٰ جهنم بجميعها وقد يُطلق علىٰ طبقة أو حصة منها ، ففى سورة الرحمٰن يقول الله تعالىٰ ﴿هٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِىْ يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُوْنَ﴾ (الرحمٰن:٤٣)يعنى هذه النار [1] كما فى سورة غافر ﴿ثُمَّ فِى النَّارِ يُسْجَرُوْنَ﴾ (المؤمن:٧٢) بعد أن يسحبوا فى الحميم كما فى الآية ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِىْ أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُوْنَ فِى الْحَمِيْمِ﴾ (المؤمن: ٧١-٧٢)

وكذٰلك فى سورة الصّٰفّٰت ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيْمِ ﴾ (الصافات:٦٨)يعنى إلى النار وهذا بعد ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيْمٍ﴾ (الصافات:٦٧)فغاية الكلام أن أهل النار يطوفون بين النار وبين الحميم فيعذّبون بهٰذه وبهٰذا، وهٰذا كله فى جهنم؛ لأن كما ذكرنا أن اسم جهنم قد يطلق علىٰ حصة من جهنم كما أطلق على النار وهي عذاب معيّن وحصة من جهنم ، لكن هٰذا لايمنع أن اسم جهنم هو لجهنم بجميع أنواع عذابها وحصصها واطباقها. وكذٰلك هٰذه الآيات ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا لِلطَّاغِيْنَ مَآبًا لَابِثِيْنَ فِيْهَا أَحْقَابًا لَا يَذُوْقُوْنَ فِيْهَا بَرْدًا وَّلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيْمًا وَّغَسَّاقًا جَزَاءً وِّفَاقًا إِنَّهُمْ كَانُوْا لَا يَرْجُوْنَ حِسَابًا وَّكَذَّبُوْا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا فَذُوْقُوْا فَلَنْ نَّزِيْدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ (النبأ:٢١-٣٠) فوالله أعلم تفسير هٰذه الآيات فى ضوء الآيات الأخرى التى ذكرنا من سورة غافر والرحمٰن والصّٰفّٰت هو أن جهنم يعنى أن النار هي بالمرصاد للطاغين وتكون مآبًا لهم وهم يعنى الطاغون وهم الكفرة والمشركون والمنافقون يكونون لابثين فى النار أحقابا ولايذوقون فى النار بردا ولا شرابا إلا عند ما يعذّبون بالحميم والغسّاق، والحميم: الماء البالغ نهاية الحرارة. والغسّاق: قدجاء فى تفسيره أنه الزمهرير فهو برد شديد يعذبّون أهل جهنم به وقد جآء فى الحديث "إن شدّة ما تجدون

(١) وهي فى حصة من جهنم

(فى الدنيا) من البرد هي من زمهرير النار (جهنم) وشدّة ماتجدون من الحرّ فى الصيف من سمومها."
(سنن ابن ماجة، ح: ٤٣١٩) وقال ابن مسعود رضي الله تعالىٰ عنه : هو (الزمهرير) لون من العذاب، وهو البرد الشديد، حتىٰ إن أهل النار إذا ألقوا فيه سألوا الله عزوجل أن يعذبهم بالنار ألف سنة أهون عليهم من عذاب الزمهرير يوما واحدا كذا فى التفسير للقرطبى.

فغاية الكلام أن أهل النار يعذبون فى النار ولا يذوقون فيها بردا ولاشرابا. ويكونون لابثين فيها أحقابا. فيجىء الحقب بعد الحقب بدون الانقطاع إلا عند ما يعذبون بالحميم ويُسقون منه كما فى القرآن ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ (الأنعام:٧٠) وعندما يعذبون بالغساق وهو الزمهرير ، ففى هذه الحالة يكونون خارجين من النار إلى الحميم والغساق وخارجين من عدم ذوق البرد والشراب إلى شراب الحميم وبرد الغسّاق فهٰذا نوع آخر من عذاب من أنواع عذاب جهنم الذى يكون لهم وثم بعد الحميم والغسّاق يكون مرجعهم إلى النار كما قال تعالىٰ ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ (النبا:٣٠) وفى مكان آخر ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ (الصافات:٦٨) يعنى النار . ، فإذا فهمت هذا الكلام فتأمل فى دقة القرآن ولطافته أنهٗ بدلا أن يقول لابثين فيها دائما فى هذا المكان قال ﴿لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ (النبا:٢٣) بنسبة لبثهم فى النار وفى استخدام كلمة "الأحقاب" إشارة لطيفة إلى أنهٗ لأهل النار يكون العذاب الآخر أيضًا من الأنواع الأخرىٰ من الحميم والغسّاق فهم يكونون فى النار للحقب بعد الحقب بدون الانقطاع إلا إذا يخرجوا منها إلى الحميم والغسّاق وثم يكون مرجعهم إلى النار للحقب بعد الحقب حتىٰ إذا يخرجوا منها إلى الحميم والغسّاق وهٰكذا لأبدالأبدين كما بيّن القرآن فى الأماكن الأخرىٰ أنهم يخلدون فيها خالدا مخلدا أبدا وكل هذه الأنواع من العذاب فى جهنم؛ لأن كما ذكرنا اسم جهنم وكذٰلك اسم النار يطلقان علىٰ جميع جهنم كما يُطلقان علىٰ حصة منها. والله أعلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وإن سألتم كيف تطبّقون هٰذه الآيات التى فيها ذكر التعذيب بالنار وبغير النار من الحميم والغسّاق مع الآية ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ (المائدة:٣٧)

فقلنا بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز: إن التطبيق من وجهين الأولىٰ: أن تعذيب أهل النار بغير النار لايعتبر خروجا من النار؛ لأن مرجعهم لإلى الجحيم أي النار فهٰذا الخروج لايعتد به؛ لأن هٰذا الخروج ليس الخروج الذى ليس بعدهٗ العودة، بل هٰذا الخروج لكى يُعذبوا بالحميم والزمهرير وثم الرجوع إلى النار فلايعتبر هٰذا الخروج خروجا لأنهم للدوام يعذبون بالنار ولوفى الوقفات فى خلال بينه يعذبون بغير النار أيضًا .

والوجه الثانية هي كما ذكرنا أن النار قد تطلق علىٰ جميع جهنم مع جميع أنواع عذابها كما

فى الحديث " اشتكت النار إلى ربها عزوجل قالت: يارب أكل بعضى بعضا. فجعل لها نفسين نفسا فى الشتاء ونفسا فى الصيف، فشدّة ما تجدون من البرد من زمهريرها. وشدّة ما تجدون من الحرّ فى الصيف من سمومها." (سنن ابن ماجة، ح: ٤٣١٩) ففى هذا الحديث جعل الزمهرير من النار كما أشار بقوله "فشدة ما تجدون من البرد من زمهريرها(أى زمهرير النار)" الزمهرير هو البرد الشديد وقد ذكرنا أن الغسّاق قد فسّر بالزمهرير على اختلاف الأقوال فعلى هذا يكون الغسّاق من النار أيضًا، فغاية الكلام هي كما ذكرنا أن النار قد تُطلق على النار فى المعنى المعروف وقد تطلق على جميع جهنم وأيضًا لاتقاس نار جهنم بنار الدنيا وأنت ترى أن الزمهرير من نار جهنم كما فى الحديث والزمهرير هو البرد الشديد ونار الدنيا ليس كذلك. فعلى هذا الحميم والغسّاق أيضًا من النار لأنها تشمل جميع أنواع عذاب جهنم لأنها قد تُطلق عليها بجميعها وكما نقول أهل الجنة وأهل النار يعنى أهل جهنم فى هذا السياق؛ لأننا عند ما نقول أهل النار لانعنى أنهم يعذبون بالنار المعروف وبس لا، بل نعنى أنهم أهل النار معذبون بأنواع العذاب فيها. فعلى هذا ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ (المائدة:٣٧) يعنى من جهنم بجميع عذابها فتشمل النار المعروف والحميم والغسّاق وأنواع العذاب الأخرى. والله أعلم ويهدى من يشآء إلى صراط مستقيم.

ودخول أهل النار النار عدل من الله تعالى؛ لأن أوّلا وصف الله تعالى بالظلم محال؛ لأن كل شيء لهٗ ﴿لِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (النجم: ٣١) فلهٗ أن يتصرف فى خلقه كيف يشاء وجميع غيره خلقه وفى الحديث "لو أن عذب الله أهل سمواته وأهل ارضه عذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم لكانت رحمتهٗ خيرا لهم من أعمالهم." (سنن أبى داود، ح: ٤٦٩٩) فلهٗ إدخال النار من يشاء ولايكون ظلما، بل يكون عدلا وحكمة؛ لأن أفعالهٗ كلها حكيمة بنفسها؛ لأن الحكمة فى معنى جلب المنفعة ودفع المضرّة لاينطبق على الله تعالى؛ لأنهٗ يتعالى عن هذه الأشياء فبقى حصول المشيئة والإرادة والله عزوجل أفعالهٗ كلها بمشيئته وإرادته فلو يُدخل النار واحداً ليكون حصولاً لمشيئته وإرادته فيكون حكمة ويكون تصرفاً فى خلقه كيف يشاء فيكون عدلا. ومع ذلك الله سبحانهٗ وتعالى بفضله ورحمته لايعذب أحدا فى نار جهنم إلا بسبب أعماله، الله سبحانهٗ وتعالى قد أعطانا العقل الذى لو استخدم صحيحا يدل على توحيد الله تعالى وكمال صفاته وأيضًا أرسل الرسل ليهدينا إلى صراطه المسقيم وقد قال الله تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِيْنَ وَمُنذِرِيْنَ لِأَنْ لَا يَكُوْنَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّٰهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (النساء:١٦٥) وفى الحديث الصحيح "ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين" وفى القرآن ﴿مَا يَفْعَلُ اللّٰهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللّٰهُ شَاكِراً عَلِيْماً﴾ (النساء:١٤٧) وفى الحديث الصحيح "يقول الله عزوجل ياعبادى إلى

حرّمت الظلم علىٰ نفسى، وجعلته بينكم محرّما فلاتظالموا، ياعبادى! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم ايّاها، فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذٰلك فلايلومنّ إلا نفسه." (صحيح مسلم، ح:٢٥٧٧) ومعنى تحريم الله الظلم علىٰ نفسه هو، والله أعلم، أنهٗ بفضله ورحمته أخذ علىٰ نفسه أن لايرمى أحدا فى جهنم إلا بسبب أعماله؛ لأن الظلم فى المعنى الحقيقي لايمكن أن يُنسب إلى الله تعالىٰ كما بيّنا فلا يبقى إلا ما ذكرنا وهو أن الله تعالىٰ بفضله ورحمته لايعذب أحدا فى النار إلا بسبب أعماله وأيضًا يشير إلى هٰذا المعنى سياق الحديث؛ لأنهٗ فيه أن هٰذه الأعمال التى لكم هي سبب الجزاء أو العقوبة لكم فمن وجد جزاء خيرا فليحمد الله؛ لأنهٗ حصل عليه بتوفيق الله تعالىٰ إياه للإيمان والأعمال الصالحة ومن وجد غير ذٰلك يعني العقوبة فلايلومن إلا نفسه؛ لأن الله قد أعطاه العقل وأرسل إليه رسالته بواسطة الأنبياء عليهم السلام، لكن هو لم يسمع، بل عصىٰ وطغىٰ فهٰذه العقوبة جزاء عدل لهٗ من الله تعالىٰ ولايُقال: إن عصيانه وطغيانه بقدر الله أيضًا؛ لأن قدر الله تعالىٰ لاينزع المسئولية من المكلّف؛ لأنهٗ يفعل ما يفعل باختياره ولوكان اختياره بقدر الله أيضا، لكن هٰذا لايجعلهٗ بريئا من مسئولية أعماله. فحاصل الكلام أن دخول أهل النار النار هو عدل من الله تعالىٰ وحكمته كما دخول أهل الجنة الجنة فضل من الله تعالىٰ ورحمته وحكمته. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ثم قال الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالىٰ: وكل يعمل لما قد فرغ لهٗ وصائر إلىٰ ما خلق له. وهٰذا يتعلق بمسئلة القدر ونحن قد بيّنا منه وإن شاء الله العزيز نتكلم عنه بتفصيل مزيد؛ لأن الأن الشيخ رحمه الله تعالىٰ يدخل فى مسئلة القدر والاستطاعة فنحن إن شاء الله تعالىٰ نبيّن كل هٰذا قريبا.

المتن:

وكل يعمل لما قد فرغ له، وصائر إلىٰ ما خُلق له. والخير والشر مقدّران علىٰ العباد. والاستطاعة التى يجب بها الفعل من نحو التوفيق الذى لايجوز أن يوصف المخلوق به فهي مع الفعل. وأما الاستطاعة من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الألات، فهي قبل الفعل، وبها يتعلق الخطاب وهي كما قال تعالىٰ ﴿لَايُكَلِّفُ اللّٰهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وأفعال العباد خلق الله وكسب من العباد.

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالىٰ الأن يتكلم عن مسئلة القدر وقد مرّ بعض الكلام فيه

سابقا فالأن الشيخ رحمه الله تعالىٰ يتكلم عن هٰذه المسئلة من نوائح [1] أخرىٰ. فالشيخ يقول : كل يعمل لما قد فرغ له، وصائر إلى ما خلق لهٗ والخير والشر مقدّران على العباد . وتفسير هٰذا الكلام هو أن كل مكلّف يعمل الأعمال التى تقتضى ماله المقدّرله. فالسعيد يعمل أعمال السعداء والشقى يعمل أعمال الأشقياء.

وهٰذه الأعمال يعنى الخير والشر جميعها مقدّرة على العباد فالمكلّف يعمل الأعمال التى قد قدّرت عليه وبسبب هٰذه الأعمال يصير إلى ما خلق لهٗ يعنى إما الجنة أو إما النار فلو خُلق للجنة وقدّر لها فيعمل أعمال الجنة حتّٰى ختم لهٗ عليها فى الدنيا ولو خُلق للنار وقدّر لها فيعمل أعمال النار حتّٰى خُتم لهٗ عليها فى الدنيا وفى الحديث "إن الله تعالىٰ إذا خلق العبد للجنة استعملهٗ بعمل أهل الجنة حتّٰى يموت علىٰ عمل من أعمال أهل الجنة فيدخلهٗ به الجنة. وإذا خلق العبد للنار استعملهٗ بعمل أهل النار حتّٰى يموت علىٰ عمل من أعمال أهل النار فيدخلهٗ به النار ." (سنن الترمذي، ح:٣٠٧٥) وفى الحديث الآخر "إن أهل الجنة ميسّرون لعمل أهل الجنة وإن أهل النار ميسّرون لعمل أهل النار ." (مسند الشاميين، ح:١٨٥٣) وفى الحديث الآخر "اعملوا فكل ميسّر، أمّا أهل (الجنة) السعادة فييسرون للسعادة، وأما أهل الشقوة فييسرون للشقوة ثم قال نبي الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ." (صحيح مسلم، ح:٢٦٤٧) وفى الحديث "كل ميسر لما خُلق له ." (صحيح مسلم، ح: ٢٦٤٩)

ثم الاعتبار بما خُتم لهٗ عليها فى الدنيا ، ففى الحديث" إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة، ثم يختم لهٗ عملهٗ بعمل أهل النار، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار، ثم يختم لهٗ عملهٗ بعمل أهل الجنة ." (صحيح مسلم، ح: ٢٦٥١) وفى الحديث الآخر "وإنما الأعمال بالخواتيم ." (صحيح ابن حبان، ح: ٣٤٠) وفى الحديث الآخر "فوالله إن أحدكم أو الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتّٰى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتّٰى مايكون بينه وبينها غير ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها." (سنن ابن ماجة، ح: ٧٦)

ومعنى "فيسبق عليه الكتاب" هو ما قد كُتب لهٗ وهو ما قدّر الله تعالىٰ عليه من الأزل وهٰذا تفصيل ما أجمل الشيخ رحمه الله تعالىٰ من مسئلة القدر فى هٰذا المقام.

وقد بيّنا كل هٰذا سابقا بالتفصيل وفصلنا فى مسئلة القدر فهٰذه كانت إعادة ما بيّناه سابقا ،

(١) وهي مسئلة الاستطاعة وستأتى قريبا إن شاء الله عزوجل

لكن هنا الشيخ رحمه الله تعالىٰ يدخل فى مسئلة الاستطاعة من باب القدر وهٰذه المسئلة التى نحن ذكرنا عنها سابقا بالإجمال فسنفصل هٰذه المسئلة إن شاء الله تعالىٰ بالتفصيل ، لكن قبل هٰذا نريد أن نذكر بعض الأمور من باب القدر التى لم نذكرها سابقا وثم إن شاء الله العزيز ندخل فى مسئلة الاستطاعة.

فنقول بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز: إن الحقير قد اطلع علىٰ بعض الأمور فى باب القدر فى أتباع ابن تيمية التى تخالف القرآن والسنة اللذان عليهما أهل السنة والجماعة فمنها أن أتباع ابن تيمية (وظني أنهم أخذوا هٰذا من ابن تيمية) يقولون إن الإثم يكون العقوبة للإثم الآخر الذى سبق قبل هٰذا الإثم وهٰذا هم يقولون محاولة للجواب لمن يسألهم : لماذا الله سبحانهٗ وتعالىٰ قدّر الأثام علىٰ العبد وثم يعاقبه علىٰ ما قَدَّر عليه من الأثام؟ فهم يجيبونه أن هٰذه الأثام ولو كانت قدّرت عليه ، لكن مع هٰذا كانت عقوبة لما فعل وبيانه أن هٰذا الأثِم إذا يأثم إثما عوقب بأن يخوض فى إثم آخر وهلمّ جرّا ولو سُئل فكيف أثم المرّة الأولىٰ والحال الإثم الأوّل ليس عقوبة للإثم السابق؛ لأنهٗ أوّل إثمه علىٰ الإطلاق فهم يجيبون أن المرّة الأولىٰ هو أثِم؛ لأن اللّٰه تعالىٰ لم يهده إلى أن لايأثم، ولوسئل فلما ذا لم يهده الله تعالىٰ؟ فهم يجيبونه أن الهداية نعمة الله وهو ينعم من يشاء ولاينعم من يشآء، لااعتراض عليه فى عدم إنعام الشيء الذى هو لهٗ علىٰ الإطلاق ، فإذا لم يهده فى المرّة الأولىٰ فالعبد يأثم وثم يأثم عقوبة للإثم السابق وهلمّ جرّا وهٰذا بيان أتباع ابن تيمية لمسئلة القدروالجواب لأهل القدر وابن أبى العز هو من أتباع ابن تيمية كما لايخفى علىٰ أهل العلم فهو فى شرحهٖ علىٰ هٰذا الكتاب يبيّن مسئلة القدر علىٰ نفس المنوال ونحن قد ذكرنا أنهٗ قد ملأ شرحهٗ بالأشياء الباطلة الفاسدة ولايخفى علىٰ أهل العلم أن هٰذا البيان لمسئلة القدر فى غاية الفساد والبطلان ويخالف القرآن والسنة ومن أين أخذوا هٰذا البيان ؟ونحن لم نجد فى القرآن هٰذا البيان ونحن لم نجد هٰذا البيان فى الأحاديث حسب علمنا ،والبيان الذى موجود فى القرآن والسنة يخالف هٰذا البيان وهٰذا كلهٗ لايخفى علىٰ أهل العلم ونحن نذكر الأشياء التى تكفى فى بيان بطلان هٰذا البيان لأتباع ابن تيمية فى مسئلة القدر.

فنقول بتوفيق اللّٰه تعالىٰ إن شاء الله العزيز: إن الشيء الأوّل أنهم من أين أخذوا أن الإثم يُعاقب بالخوض فى إثم آخر؟ فأىّ جواب عندهم لهٰذا؟، فنحن نسألهم لو الرجل يأثم إثما واحدا فهو عوقب عليه بإثم آخر وهلم جرّا حتىٰ تكون لهٗ آثام فى الأسبوع فهو قد عوقب علىٰ جميع الأثام إلا الإثم الأخير الذى لم يعاقب بعد عليه بالخوض فى إثم آخر ، ففى الآخرة لايبقى لهٗ إثما غير معاقب عليه إلا إثما واحدا؛ لأن فى الحديث "من أصاب فى الدنيا ذنبا فعوقب به، فالله أعدل من أن يثنّى

عقوبته على عبده. ومن أذنب ذنبا في الدنيا فستره الله عليه، فالله أكرم من أن يعود في شيء قد عفا عنه." (سنن ابن ماجة، ح: ٢٦٠٤) فهذا الرجل قد عوقب على جميع الأثام بالخوض في إثم آخر إلا الإثم الأخير فأنتم يا أتباع ابن تيمية قولكم يؤدى إلى أن الرجل يأثم جميع حياته ويلقى الله وليس له إثما إلا واحدا، وأف لبطلان هذا القول والبيان! أنتم يا أتباع ابن تيمية! تعلمون أنفسكم أن هذا فاسد وباطل أن الرجل يأثم جميع حياته ويلقى الله تعالى بإثم واحد وكيف يخفى عليكم بطلان بيانكم لمسئلة القدر؟ وثم وجهكم للإثم الأوّل وهو ان الله تعالى لم يهده إلى أن لايفعل هذا الإثم الأوّل، فنحن نسألكم أن الله تعالى لم يهده إلى أن لايفعل هذا الإثم، والهداية نعمة فهو ينعم من يشآء ولاينعم من يشآء ، لكن أخبرنا من الذى قدّر عليه أن يفعل هذا الإثم ؟فلا بد من الجواب أن يكون "الله" فالله قدّر عليه أن يفعل هذا الإثم، فأنتم الأن رجعتم إلى ما بدأتم منه. وهو السؤال "لما ذا الله سبحانهٗ وتعالٰى يعاقب العبد على ما قدقدّر عليه نفسه؟ ففى الحقيقة بيانكم بيان باطل وفاسد وجوابكم ليس جوابا فى الحقيقة. وهذا القدر يكفى فى بيان بطلان أتباع ابن تيمية فى هذا. فأيها القارى لو تسأل الأن فماذا جوابكم لهذا السؤال من أهل القدر: لماذا الله سبحانهٗ وتعالٰى يعاقب العبد على ماقد قدّر عليه؟

فقلنا بتوفيق الله إن شاء الله العزيز جوابنا القرآن والسنة ، ففى القرآن ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الأنبياء:٢٣) فالله سبحانهٗ وتعالٰى لايُعترض عليه فى ما يفعل فيهدى من يشآء ويضل من يشآء وفى الحديث "لو أن الله تعالى عذّب أهل سمواته وأهل أرضه عذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم كانت رحمتهٗ خيرا لهم من أعمالهم." فلله أن يعذب خلقه بدون الأثام فالأولٰى أن يكون له أن يعذب بسبب الأثام التى قد قدّرها هو عليهم، فهكذا يبين القرآن والسنة مسئلة القدر ومن يحيد عنه فقد ضل وغوى كما حصل فى حق أتباع ابن تيمية وثم نحن قد بيّنا مسئلة القدر سابقا بالتفصيل وهو أن العبد إذا يذنب لم يذنب على علم أن هذا الذنب قد قدّر عليه، بل أذنب بكسبه واختياره فهو مكلف بسببهما ولو كانت كسبه واختياره وأفعاله كلها بقدر الله تعالٰى؛ لأن هذا لاينافى كونه مكلفا مسئولاعلى أفعاله وقد بيّنا كل هذا بالتفصيل والحمد لله .

ومن الأمور التى فيها يزيغ أتباع ابن تيمية من مسئلة القدر هي مسئلة الاستطاعة فأوّلا نتكلم عن مسئلة الاستطاعة ونبين ما فى القرآن والسنة اللذان عليهما أهل السنة والجماعة وثم نتكلم عن فساد موقف أتباع ابن تيمية فى هذا الشأن.

فالشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالٰى يقول إن الاستطاعة التى يجب بها الفعل من نحو التوفيق الذى لايجوز أن يوصف المخلوق به فهي مع الفعل وبيانه أن الاستطاعة التى تتعلّق بوجود

الفعل حقيقة هي لا تتعلق بالمخلوق، بل الله سبحانهٗ وتعالیٰ هو الذی يخلق ويُوجد جميع الأفعال بقدرته الكاملة بالاستقلال وهٰذه القدرة التی يعبّرها الإمام بالاستطاعة هي مع الفعل وبيانه أن هٰذه الاستطاعة لا توجد فی العبد قبل الفعل؛ لأن العبد لايوصف بها، بل لمّا العبد يباشر الفعل (أی يعزم عليه) فالله سبحانهٗ وتعالیٰ يُوجد الفعل حينئذ بقدرته الكاملة الأزلية الأبدية. ولو قيل فكيف يشعر العبد الفرق المبيّن بين أفعاله التی يفعلها باختياره وإرادته وبين الأفعال التی لايفعل بهما مثلاً العبد يشعر الفرق الظاهر بين حركته الاختيارية وبين الارتعاش الذی ليس باختياره .

فالجواب بتوفيق الله تعالیٰ إن شاء الله العزيز أن الفرق بين الارتعاش والحركة الاختيارية هو كما قلتم أنفسكم يعنی الاختيار والإرادة فهما يفرقان بين حركة العبد الاختيارية وبين الارتعاش. نحن نعلم بالضرورة الدينية أن الله تعالیٰ هو الخالق الوحيد ولا خالق غيره ، ففی القرآن ﴿وَاللّٰهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُوْنَ﴾ (الصافات:٩٦) فالله عزوجل هو خالقنا وخالق أفعالنا علی الاطلاق. وقال الله تعالیٰ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَیْءٍ﴾(الفرقان:٢) ﴿خَالِقُ كُلِّ شَیْءٍ﴾ (الأنعام:١٠٢) ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ (الأعراف:٥٤) وقد بيّن الله سبحانهٗ وتعالیٰ الفرق بين الإلٰه وغير الإلٰه فقال عزوجل ﴿أَفَمَنْ يَّخْلُقُ كَمَنْ لَّايَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُوْنَ﴾ (النحل:١٧) والآيات فی هٰذا الباب كثيرة وفی الحديث الصحيح "إن الله خالق كل صانع وصنعته." (صحيح ابن حبان، ح:٨٥) ولايقال: إن الله تبارك وتعالیٰ قال ﴿فَتَبَارَكَ اللّٰهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِيْنَ﴾ (المؤمنون:١٤) فالعبارة ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِيْنَ﴾ يجوّز فی الظاهر إسناد الخلق إلی غير الله تعالیٰ؛ لأن فی هٰذه الآية الخلق فی معنی الصنع ويجوز استخدام الكلمة الصنع مجازاً للعبد وبيانه أن الخلق فی معنی الاختراع والإيجاد من العدم لايجوز لغير الله كما لايخفیٰ ، لكن قد تستعمل الكلمة الخلق فی معنی الصنع للعبد يعنی العبد يأخذ الأشياء من خلق الله تعالیٰ ويعمل مجهوده عليها بالعقل الذی أعطاه الله سبحانهٗ وتعالیٰ ويصنع الأشياء من هٰذه الأشياء كما نشاهد نحن علی الظاهر كما نُسب الخلق إلی عيسیٰ عليه السلام فقال الله عزوجل ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِیْ فَتَنْفُخُ فِيْهَا فَتَكُوْنُ طَيْرًا بِإِذْنِیْ﴾ (المائدة:١١٠) فعيسیٰ عليه السلام كان يصنع من الطين الذی هو خلق الله كهيئة الطير بإذن الله وثم كان ينفخ فيها فكانت تصير طيرا بإذن الله فهٰذا الصنع من الطين كهيئة الطير عبّر بالكلمة الخلق وثم بيّن الله سبحانهٗ وتعالیٰ أن هٰذا الخلق (يعنی فی معنی الصنع) هو أيضًا بإذن الله تعالیٰ فالعبد مهما يخلق يعنی يصنع فهو وكل أفعاله التی يفعلها فی هٰذا الفعل للصنع وكذٰلك ما يصنعه كل هٰذه خلق الله تعالیٰ ﴿وَاللّٰهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُوْنَ﴾(الصافات:٩٦) والحديث "إن الله صانع كل صانع وصنعته ." (صحيح ابن حبان، ح:٨٥) ففی الحقيقة لاخالق إلا الله تعالیٰ فهٰذا البيان يبيّن تفسير الآية ﴿فَتَبَارَكَ اللّٰهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِيْنَ﴾ (المؤمنون:١٤) ولأن هٰذه الآية تتكلم عن خلق

الإنسان فى أطوار. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون:١٢-١٤) فالله عزوجل صنع الإنسان من سلٰلة من طين ثم جعلهُ نطفة فى قرار مكين ثم يصنع النطفة علقة ثم مضغة ثم عظاما فيكسوا العظام لحما وثم يضع فيه روحا وهٰذهٖ أطوار صنعة الله فى الإنسان وهناك الفروق العظيمة بين صنعة الله وصنعة العبد فالأوّل الله سبحانهُ وتعالٰى يصنع الأشياء من الأشياء التى لهُ والعبد يصنع الأشياء من الأشياء التى هي خلق الله وليست للعبد والثانى الله سبحانهُ وتعالٰى يصنع حقيقة واستقلالاً فهو يصنع النطفة علقة بقدرته المستقلّة والعبد يصنع مجازيا؛ لأن فى الحقيقة الله سبحانهُ وتعالٰى هو خالق العبد وفعل صنعه وصنعته والثالث ما صنع الله فهو كامل ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ (الم سجدة:٧) ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (النمل:٨٨) فكل شيء يصنعه فهو يأتى كما أراده وصنع العبد ناقص فقد يأتى حسب إرادته وقد لايأتى؛ لأن لايحصل ما يريد العبد، بل يكون ما يريد الله عزوجل الواحد القهار والرابع ما يصنع العبد فهو يجهد لهُ والله عزوجل ما أراد صنعه يُوجد فى وقتِ الذى أراد صنعه فيه بدون التأخير ولا منع بقدرته الكاملة ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس:٨٢) وقد مرّ الكلام فى بيان هٰذه الآية الكريمة فالله سبحانهُ وتعالٰى هو أتقن الصانعين [1] وأحسن الخالقين.

فغاية الكلام أن الله عزوجل هو الخالق الوحيد ولاخالق غيره فالعبد لايخلق ولايستطيع أن يخلق وهٰذهٖ استطاعة للخلق لاتوجد فى العبد، قال الله تعالٰى فى القرآن ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ (الكهف:١٠٠-١٠١) فنفى الاستطاعة للسمع من الكافرين والمعنى من السمع [2] هنا هو السمع الذى يؤدى إلى الفهم والعقل والانتفاع، فهٰذا السمع لايستطيع الكافرون مع أن لهم آلة السمع والفهم وهي الأذان والقلوب؛ لأن هذا السمع(أو أى سمع) لايستطيع عليه العبد، بل الله تعالٰى يخلق فيه أولا يخلق فيه وفى آية أخرىٰ ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ (هود:٢٠) وفى آية أخرىٰ ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ (الفرقان:٩) ففى كل هٰذه الآية المراد من الاستطاعة هي الاستطاعة التى لايوصف بهاالعبد ولهٰذا انتفت هٰذه الاستطاعة من العبد وهو فى معنى التوفيق كما قال الشيخ رحمه الله تعالٰى وهٰذه الاستطاعة هي مع الفعل ولاتكون قبل الفعل وقد

---

(١) وأما الخلق فى معنى الإيجاد من العدم فلاهو إلا لله تعالٰى لا فى معنى الحقيقة ولا فى معنى المجاز.

(٢) وهٰذا هو المراد فى الآية وإلاالسماع المطلق أيضًا لا يستطيع الإنسان ولو كان عنده الأذان التى هي آلة السمع حتى يخلق الله تعالٰى هذا السمع فيه فيسمع حينئذ.

تأتى الكلمة الاستطاعة فى معنى سلامة الأسباب والآلات والجوارح وهي الاستطاعة تكون قبل الفعل والعبد يكون متصفا بها، لٰكن هٰذه الاستطاعة أيضًا خلق الله تعالىٰ وهٰذه الاستطاعة يتعلق بها الخطاب كما قال الله تعالىٰ: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة:٢٨٦) وكما قال تعالىٰ ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ (آل عمران:٩٧) ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ (الأنفال:٦٠) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ (التغابن :١٦) والنصوص فى هٰذا الباب كثيرة وهٰذه الاستطاعة ترجع إلى سلامة الأعضاء والجوارح والصحة وعدم الموانع فى العبد ولهٰذا العبد ذو الأعضاء السليمة يكلف بإقامة الصلوات فى وقتها قائما ، لٰكن من لهٗ مرض فى رجليه يمنعه أن يقوم لايكلف بإقامة الصلوات قائما، بل جالسا ويقاس علىٰ هٰذا المنوال ، لٰكن كونه ذى الأعضاء السليمة قبل فعل الصلاة لايوجد الصلٰوة، بل الصلٰوة توجد لما يختار العبد ويريد أن يصلى ويعزم إلى الصلاة فاللّٰه عزوجل حينئذ يوجد الصلٰوة فى المحل الذى هو هٰذا العبد فهٰذه القدرة التى توجد الصلٰوة لايكون فى العبد مطلقا، بل هي قدرة اللّٰه تعالىٰ الأزلية.

ولهٰذا قال الإمام رحمه اللّٰه أنها لاتجوز أن يوصف المخلوق بها. فلو قيل أنكم قلتم إن الفرق بين الحركة الاختيارية والارتعاش هو إرادة العبد واختياره فلو العبد يريد أن يرتعش نفسه وثم يحصل الارتعاش فيه اتفاقيا (بقدرة اللّٰه تعالىٰ) فهٰذا لايمنع أنهٗ يشعر الفرق بين حركته الاختيارية والارتعاش وهو كان يريد نفسه أن يرتعش فهٰذا يظهر أنهٗ هناك فرق آخرما سوا الإرادة والاختيار بين حركته الاختيارية والارتعاش. فالجواب بتوفيق اللّٰه تعالىٰ إن شاء اللّٰه العزيز هو أن إرادة هٰذا العبد أن يرتعش لاتكون متعلقا بالارتعاش؛ لأن الارتعاش ماوراء اختياره ، لٰكن إرادته تتعلق بحركته الاختيارية ولهٰذا يشعر الفرق بينهما وهٰذا يعنى تعلق إرادته واختياره بالفعل ،هو الذى بسببه يكون العبد فاعلا لهٰذا الفعل فى معنى التكليف والمسئولية عند اللّٰه تعالىٰ.

المتكلمون من أهل السنة والجماعة يقولون إذا يفعل العبد فعلاء فاللّٰه عزوجل يخلق فى هٰذا العبد قدرة لهٰذا الفعل مع خلق الفعل فيه فكلاهما يوجدان فى نفس الزمان وهٰكذا يشعر العبد الفرق بين أفعاله الاختيارية وأفعاله الجبرية مثلاً الحركة الاختيارية والارتعاش، وهم يقولون إن هٰذه القدرة التى يوجد اللّٰه تعالىٰ فى العبد عند فعل الفعل ليس لها تأثيرا فى إيجاد الفعل البتة ، بل هٰذه القدرة يخلقها اللّٰه تعالىٰ فى العبد ويخلق الفعل فى نفس الزمان فى العبد بقدرته الأزلية المستقلّة، فالفعل فى الحقيقة يتعلق بقدرة اللّٰه تعالىٰ بالكامل وتعلقه بقدرة العبد المخلوقة فى نفس الزمان الذى يُوجَد الفعل فيه [1] هو من ناحية أن العبد عنده إرادة وعزم لهٰذا الفعل ولهٰذا الفعل يكون منسوبا إليه من ناحية

(١) بقدرة اللّٰه تعالىٰ المطلقة

التكليف والمسئولية عند الله تعالىٰ.

وهٰذا الكلام جميل مع أن العبد الحقير غفر الله لهٗ يقول إن وجود هٰذه القدرة المخلوقة وعدمها سواء؛ لأن الفعل في الحقيقة لايتعلق بها (باتفاق أهل السنة والجماعة) ، بل بقدرة الله تعالىٰ الأزلية؛ لأن العبد في وجوده وبقائه محتاج إلى الله تعالىٰ ولايمكن أن يكون مستقلا عنه تعالىٰ لأنهٗ محال ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ (فاطر: ٤١) وكذٰلك صفاتهٗ فقدرته المخلوقة لاتكون مستقلة عن الله تعالىٰ ولهٰذا لاتستطيع أن توجد شيئاً وكيف؟ وهي محتاجة إلى الله تعالىٰ في بقائها في زمان الذي يُوجد فعل ما فيه، فكيف نفسها توجد الفعل؟ وهٰذه كلها متفقة عند أهل السنة والجماعة ،فالعبد الحقير غفر الله لهٗ يقول: لو هٰذه القدرة المخلوقة غير المؤثرة لايمكن لها أن تكون مستقلّة فلا تعتبر هٰذه القدرة قدرة في الحقيقة؛ لأن القدرة عبارة عن الاستطاعة علىٰ شيء ما وهٰذه القدرة لايمكن أن تستقل ولايمكن أن توجد وتبقى إلا بإذن الله تعالىٰ ، ففي كل آن هٰذه القدرة محتاجة إلى الله عزوجل في وجودها وبقائها فكيف تقدر هٰذه القدرة أن تستطيع علىٰ شيء ما، هٰذا لايمكن لها فلا تعتبر هٰذه القدرة قدرة ،ولهٰذا نحن قلنا سابقا أن نسبة الفعل إلى العبد بسبب وجود إرادته واختياره المتعلقان بالفعل ولم نذكر هٰذه القدرة غير المستقلة التي ذكر المتكلمون من أهل السنة؛ لأن وجودها وعدمها سواء، وهي في الحقيقة ليست قدرة على الإطلاق ونحن نرى الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالىٰ لم يذكر هٰذه القدرة غير المستقلة أيضًا، بل ذكر الاستطاعة من نحو التوفيق وهي لايوصف المخلوق بها وهٰذه قدرة الله تعالىٰ وذكر الاستطاعة في معنى سلامة الأسباب والآلات والجوارح وهي منسوبة إلى العبد من جهة أنهٗ محلّه ومنسوبة إلى الله تعالىٰ من جهة أنهٗ خالقه، لٰكن هٰذه الاستطاعة لاعلاقة لها في إيجاد فعل ما لأنها عبارة عن سلامة الأسباب والجوارح وهي في نفسها لاتفعل شيئًا، بل الله تعالىٰ يخلق الفعل في العبد بقدرته المستقلة . فهٰذا هو بيان الاستطاعة الذي عليه أهل السنة والجماعة.

ثم اعلم أن إرادة العبد واختياره أيضًا خلق اللّٰه تعالىٰ فهما منسوبان إلى العبد من جهة الكسب وإلى اللّٰه تعالىٰ من جهة الخلق وكذٰلك أفعال العبد منسوبة إلى العبد من جهة الكسب ومنسوبة إلى الله من جهة الخلق ونحن نذكر مزيدا في بيان الكسب قريبا إن شاء الله عزوجل. ولو قيل كيف يكون العبد مكلفا ومسئولا لأفعاله التي منسوبة إليه بسبب إرادته واختياره المتعلقان بها والحقيقة أن إرادته واختياره مخلوقان لله تعالىٰ؟

فنقول بإذن اللّٰه تعالىٰ أن المعلوم أن العبد وصفاتهٗ لايمكن أن يوجدوا إلا أن يخلقهم الله تعالىٰ فإرادته واختياره لايمكن أن يوجدا إلا أن يخلقهما الله تعالىٰ فكما يخلق الله تعالىٰ لونًا في العبد

والعبد يكون متصفا به فكذلك يخلق الله تعالى في العبد الإرادة والاختيار فلا بد له من أن يكون متصفا بهما لكما كون لونه مخلوق الله تعالى لايمنع للون أن يكون لونه فكذلك كون إرادته واختياره مخلوقان لله تعالى لايمنع لهما أن يكونا إرادته واختياره ، فإذا كانا له فهو مسئول لهما وبهما والمسئولية من عند الله تعالى فقد قال الله تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة:٢٨٦) ﴿لاتُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ (النساء:٨٤) وكذلك نسبة إرادة العبد إلى العبد من عند الله تعالى ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف:٢٩) [1] ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ﴾ (المدثر:٥٤-٥٥) ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (الدهر:٢٩) فقد بيّن أن للعبد مشيئة وهي الإرادة والاختيار وهو مسئول بسببهما ومع ذلك بيّن ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَآءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ (المدثر:٥٦) ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّا أَن يَشَآءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (الدهر:٣٠)

فمشيئة العبد ليست مستقلة، بل تابعة لمشيئة الله الأزلية ،فالله عزوجل يخلق مشيئة العبد يعني إرادته واختياره بمشيئته وقدرته الأزلية ، لكن هذا لاينافي كون العبد مختارا ومريدا لفعله كما يخلق الله فعل العبد بمشيئته وقدرته الأزلية وهذا لاينافي كون العبدفاعلا لفعله ،فكما يخلق وجود العبد بمشيئته وقدرته الأزلية وهذا لا ينافي كون العبد موجودا، ولأن لايمكن أن يكون العبد مكلفا بأفعاله إلا بهذه الطريقة؛ لأنهٔ لايمكن أن يستقل العبد عن الله تعالىٰ؛ لأنهٔ محال وهذا معلوم شرعا وعقلا فلايبقى لهٔ أن يكون مكلفا بأفعاله الابطريقة الكسب والله خالق أفعاله وإرادته واختياره بالاستقلال. ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (الدهر:٣) فالكسب هو ما ذكرنا يعني كون العبد كاسبا مكلفا لأفعاله وهو بطريقة كما ذكرناها وهذه الكلمة أخذ علماء أهل السنة والجماعة من القرآن ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة:٢٨٦) فأفعال العبد للعبد من ناحية الكسب ولله تعالى من ناحية الخلق وكذلك إرادة العبد واختياره للعبد من ناحية الكسب ولله تعالى من ناحية الخلق وقد بيّنا كل هذا وكيفية كون العبد مكلفا مسئولا لأفعاله وإرادته واختياره فلا ضرورة لإعادة. فماذكرنا يفسر كلام الشيخ رحمه الله تعالى وهو : وأفعال العبد خلق الله وكسب من العباد.

فالأن نذكر ما أشرنا إليه قبلا وهو زيغ أتباع ابن تيمية في مسئلة الاستطاعة، والعبد الحقير غفر الله له اطلع عليه من بعض كتب أتباع ابن تيمية ويظن الحقير غفر الله له أن هذا مأخوذ من ابن تيمية؛ لأن أتباع ابن تيمية يقلّدون ابن تيمية في كل شيء تقريبا. وزيغهم في هذه المسئلة يشابه زيغ المعتزلة يعني من يمعن ويغور في عقيدتهم وعقيدة المعتزلة في مسئلة الاستطاعة يصل إلى النتيجة أن

(١) ليس هذه إجازة للكفر، بل هذا وعيد وتهديد أي إن كفرتم فقد أعدلكم النار، وإن امنتم فلكم الجنة فليراجع كتب التفسير.

الفرق بينهم والمعتزلة هو فقط فى المصطلحات، وأما نفس العقيدة بعينها فهي نفس الشيء فيهم وفيهم ،وبيانه أن المعتزلة يعتقدون أن الله تعالىٰ قد أعطى الإنسان القدرة المستقلّة فهم يفعلون افعالهم بهٰذه القدرة ولهٰذا هم يقولون إن الإنسان خالق أفعاله بالقدرة المستقلة التى أعطاها الله إياه، وهٰذه العقيدة فى غاية الضلال وتخالف القرآن والسنة، بل هي الشرک الأكبر والكفر بسبب مخالفة النصوص القطعية أن الله خالق كل شيء ولاخالق سواه وأن الإنسان لايكون مستقلا عنه تعالىٰ لطرفة عين ولأن هٰذا يؤدى إلى ربوبية الإنسان فى النطاق المعيّن والمعلوم أن الله هو رب العالمين ولارب سواه ولهٰذا السبب المعتزلة الذين هم القدرية يعتبرون مجوس هذه الأمّة.

وفى الحديث "لكل أمة مجوس ومجوس هٰذه الأمّة الذين يقولون لاقدر " (سنن أبى داود، ح: ٤٦٩٢) من مات منهم فلا تشهدوا جنازته ومن مرض منهم فلا تعودوهم وهم شيعة الدجّال وحق[1] على الله أن يلحقهم بالدّجّال." (أبى داود: ٤٦٩٢) "لاتجالسوا أهل القدر ولاتفاتحوهم ." (سنن أبى داود، ح: ٤٧١٠) وهم مجوس هٰذه الأمّة؛ لأن المجوس يعتقدون علىٰ إلٰهين خالق الخير وخالق الشر والمعتزلة يعتقدون علىٰ نفس المنوال فيعتقدون أن الإنسان هو خالق أفعاله والله عزوجل لم يقدّر عليه أفعاله ولايخلقها، بل الإنسان يختارها ويخلقها بالاختيار المستقل والاستطاعة المستقلة وهما قد أعطاهما الله تعالىٰ إياه فبهٰذه المشابهة بينهم والمجوس يعتبر المعتزلة مجوس هٰذه الأمّة ولأن هٰذه العقيدة هي الشرک[2] الأكبر فلذٰلک هم كفروا بسبب هٰذه العقيدة ،أوّلا: لأنهم ينفون قدر الله وقضائه يعنى اللّٰه عزوجل لم يرد عليهم أفعالهم فهٰذه خارجة عن إرادته تعالىٰ فعلىٰ هٰذا الاف الاف وأكثر من الأشياء فى كل وقت تحصل فى العالم بدون إرادة الله تعالىٰ وهل هٰذا إلا كفر بواح؟ لأن المعلوم من الدين بالضرورة أن ما شآء الله كان وما لم يشألم يكن ،وقد مر الكلام فى هٰذا تفصيلا.

وثانيا: عقيدة استقلال الإنسان عن الله عزوجل وخلقه أفعالهُ وهٰذا كلهُ كفر بواح والمعلوم أن المشركين يعتقدون على الله عزوجل وأنهُ الرب الحقيقي والمالک الحقيقي كما المشركون فى الجاهلية كانوا يقولون فى تلبيتهم : "لبيک اللّٰهم لبيک لبيک لاشريک لک لبيک إن الحمد والنعمة لک والملک لاشريک لک إلا شريكا هو لک تملكه وما ملک" فهم يعتقدون أن المالک الحقيقي هو الله والشركاء مملوكة لهُ فالمشركين يعتقدون هٰكذا ومع ذٰلک يشركون مع اللّٰه غيره اعتقادا أن الله عزوجل قد أعطاهم من القدرة فى النطاق المعين فيستقلون فى هٰذا النطاق

(١) ليس فى معنى أن هٰذا واجب على الله تعالىٰ، بل الحديث يخبر عنهم بقوة الأداء أن الله ليفعلن هٰذا معهم بإرادته الأزلية المستقلة المطلقة الحرّة(لا بسبب الضغط من غيره)

(٢) ففى الحديث "صنفان من أمتى ليس لهما فى الإسلام نصيب: المرجئة والقدرية." (سنن الترمذي ، ح:٢١٤٩)

فيدعونهم لحاجاتهم فى هذا النطاق وهذا لايخرجهم من كونهم مشركين، بل هم المشركون حقًا وهذا معلوم من الدين ضرورة وكذلك المعتزلة يعتقدون أن الله عزوجل قد أعطى الإنسان القدرة المستقلة فى مجال معين فيستقل فى هذا المجال وهذا نفس الشيء يعنى الشرك الأكبر فالمعتزلة بسبب هذه العقيدة فى باب القدر قد جمعوا أنواع الكفر ونعوذبالله. وأما أتباع ابن تيمية فهم يعتقدون (والحمد لله) على قدر الله تعالى فى المجال أن الله عزوجل قد قدّر كل شيء فيشمل أفعال الإنسان أيضًا ،فأفعالهُ ليس خارجة عن إرادة الله تعالى، بل ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، لكن فى مسئلة الاستطاعة هم تبعوا نفس المنهج يعنى منهج القدرية المعتزلة ، لكن بالخداع حتى لايظهر إلا بالإمعان أنهم خالفوا أهل السنة والجماعة الذين هم على القرآن والسنة ، فهم لم يقولوا جهرا معلنا أن الإنسان خالق أفعاله، بل قالوا إن الله تعالى خالق أفعال الإنسان ، لكن اعتقادهم فى خلق الله أفعال الإنسان هو أن الله تعالى قد أعطى القدرة للإنسان فالإنسان يستخدم هذه القدرة لإيجاد أفعاله (قدرة و تأثيرا)، لكن لأن هذه القدرة التى يستخدم الإنسان لإيجاد أفعاله هي موهوبة من عند الله تعالى إلى الإنسان ، ففى هذه الطريقة الله عزوجل هو خالق أفعال الإنسان حقيقة وليس الإنسان نفسه، وهذه العقيدة هي نفس العقيدة التى عليها المعتزلة القدرية فى مسئلة الاستطاعة ، لكن هم أظهروا معلنا أن الإنسان هو خالق أفعاله وأتباع ابن تيمية لم يُظهروه جهرا ومعلنا، بل خدعوا ومكروا وحاولوا أن يظهروا الموافقة مع أهل السنة والجماعة فى هذه المسئلة مع مخالفتهم إياهم فى الحقيقة. وأهل العلم والألباب يعرفون بعد اطلاعهم على عقيدة أتباع ابن تيمية فى هذه المسئلة أنهم قد زاغوا وضلوا فى هذه المسئلة أيضًا وعقيدتهم تؤدى إلى نفس النتيجة التى تؤدى إليها عقيدة المعتزلة فى باب الاستطاعة وهي الشرك الأكبر بسبب هم أيضًا يعتقدون أن الإنسان يستقل فى إيجاد أفعاله بالقدرة الموهوبة من عند الله تعالى ولولم يقولوا أنهُ خالق أفعاله (وسيأتى قول الإمام الطحاوى: ومن زعم أنهُ استغنى عن الله طرفة عين فقد كفر وصار من أهل الحين.) ، بل قالوا إن الله خالق أفعاله لأن هذه القدرة موهوبة من عنده تعالى. وهذا كافى فى بيان زيغ المعتزلة وأتباع ابن تيمية فى مسئلة الاستطاعة وقد بيّنا ما هو من القرآن والسنة فى هذا الباب واللذان عليهما أهل الحق وهم أهل السنة والجماعة.

المتن:

ولم يكلفهم الله تعالى إلا ما يطيقون، ولايطيقون إلا ما يكلفهم، وهو تفسير لاحول ولا قوّة إلا بالله . نقول: لاحيلة لأحد ولاحركة لأحد،

ولاتحوّل لأحد عن معصية الله إلا بمعونة الله، ولا قوّة لأحد علىٰ إقامة طاعة الله والثبات عليها إلا بتوفيق الله.

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالىٰ الآن يتكلم عن أمور التكليف وهي أيضًا من باب القدر ولهٰذا نُوسب أن يكون ذكرها مع ذكره. فالشيخ رحمه الله تعالىٰ يقول إن الله عزوجل لم يكلّف العبد فوق طاقته وهٰذا ثابت من النصوص القطعية ، ففى القرآن ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾(البقرة:٢٨٦) ولايقال: إن الاستطاعة التى توجد الفعل يعنى قدرة الله عزوجل فهي ليس مع الإنسان والجن. وهما لايكلّفان فوق طاقتهما فعلىٰ هٰذا لايكلّفان بشيء ما.

فالجواب لهٰذا بتوفيق الله عزوجل إن شاء الله العزيز هو أننا قلنا إن الخطاب والتكليف يتعلقان بالاستطاعة التى من جهة الصحة وسلامة الآلات والأسباب وهي موجودة فى الإنسان قبل الفعل وهي أيضًا من خلق الله تعالىٰ ، لكن الإنسان والجن يوصفان بها كما نحن نرىٰ فى هذه الآية ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾(البقرة:٢٨٦) فنسب الوسع إلى النفس المكلف وهو الإنسان والجن وكذٰلک فى الآية ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ (آل عمران:٩٧) فنسب الاستطاعة إلى المكلّف ونحن قد أتينا مثالا لها وهو صلاة المكلف قائما ،أو جالسا إذا فى رجليه مرض يمنعه من القيام، فلا حاجة للإعادة .

وإن قيل إن الله عزوجل قد كلّف أبالهب بالإيمان بالإسلام فيشمل سورة اللهب وفيها ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِيْ جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ (لهب:١-٥) وهٰذه السورة تخبر عن كفره، فعلىٰ هٰذا أبولهب كلّف بالإيمان، ومع ذٰلک كلف بالإيمان أنهٔ ليس عنده الإيمان (يعنى هو على الكفر) وهٰذا يقتضى أنهٔ كلّف بالإيمان بالشيء، ومع ذٰلک كلف بالإيمان أنهٔ لايؤمن بهٰذا الشيء، وهٰذا يؤدى إلى التناقض المستحيل فهو كلّف بما ليس فى وسع العبد .

فالجواب لهٰذابتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز هو كما فى الحديث "إنما الأعمال بالخواتيم." (صحيح ابن حبان، ح:٣٤٠) فابو لهب كلّف بأن يؤمن انهٔ سيموت على الكفر فعلىٰ هٰذا لاتناقض؛ لأنهٔ فى الحال كلّف بالإيمان بالإسلام فيشمل سورة اللهب وفيه أنهٔ يؤمن انهٔ سيموت على الكفر وهو فى المستقبل بنسبة الحال فلايكلّف بالتناقض المستحيل.[1]

---

(١) والجواب الآخر أن أبالهب كلّف بالإيمان بالإسلام وهٰذا لايقتصر على إيمان بسورة اللهب فالممكن أنهٔ يؤمن بسورة اللهب التى يخبره بكفره بسبب الكفريات الأخرى التى لاتتعلق بالإيمان بسورة اللهب مثلا إنكار سورة الإخلاص.

ثم اعلم أن التكليف ما وراء الوسع لايكلف الله العبد به وهذا معلوم من الشريعة ، لكن هذا من فضل الله تعالىٰ وإلا لا منع على الله تعالىٰ ان يكلف العبد ما وراء طاقته ،فالتكليف فوق الطاقة جائز عقلا؛ لأنهُ لاحجر على الله تعالىٰ ولا منع . وإن قيل إن بعض المتكلمون يقولون إن التكليف فوق الطاقة ليس بجائز عقلا أيضًا فبيّن لنا ما يعنون به؟

فالعبد الحقير غفره الله تعالىٰ يقول: إن الاختلاف فى المسئلة هو بين فريقين من أهل السنة والجماعة، الأشاعرة والماتريدية، فالشيخ أبوالحسن الأشعري يقول "لايقبح من الله شيء" فهو يقول علىٰ هٰذا الأصل بجواز التكليف ما وراء الوسع عقلياً وليس شرعياً . والشيخ أبو منصور الماتريدي أصلهُ "لا يجوز من الله شيء الذى يستقبحه العقل جدا" لا على المعنى أنهُ واجب على الله أن لايفعلهُ (نعوذ بالله) ، بل على المعنى أن الله لا يفعلهُ اختياريا فعنده لايجوز التكليف ما وراء الوسع عقليا كما هو شرعيا؛ لأن العقل يستقبح تكليف العبد ما وراء الوسع.

فان سألتم الأن أرشدنا إلى ما هو الحق فى هٰذا المجال.

فقلنا بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز: إن الحق هو ما قلنا سابقا وهو أن التكليف فوق الطاقة جائز عقلا ولو لا يقع شرعا؛ لأن الحديث الصحيح يبين لنا أن التكليف فوق الطاقة سيكون للبعض فى الآخرة ، ففى الحديث الصحيح عن الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "من صوّر صورة (يعنى ذا روح) فى الدنيا كلّف أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة، وليس بنافخ." ففى هٰذا الحديث التكليف لما هو فوق الوسعة وارد ،فعلمنا أن التكليف يعنى تحميل ما هو فوق الطاقة جائز عقلا و إلا لا يكون فى الآخرة أيضاً ولايقال: إن هٰذا الحديث ينافى ﴿لا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ (البقرة:٢٨٦) ؛ لأن هٰذا فى دار التكليف يعنى الدنيا والحديث يتكلم عن دار الجزاء وهو ليس بدار التكليف فيكون هٰذا التكليف تعذيباً لهم وليس تكليفا شرعيا.

ثم الشيخ رحمه الله تعالىٰ يقول: ولايطيقون إلا ما يكلفهم: يعنى العبد لايحمّل عليه إلاما كلّفه الله به فالعبد الذى لايستطيع أن يصلى قائما بسبب ما فهو مكلّف من عند الله أن يصلى جالسا فلايكلّف أن يصلى قائما وكذٰلك الفقير لايكلف أن يعطى الزكوة من جهة الإمام؛ لأنهُ ليس بصاحب النصاب وكذٰلك المعذور لايكلّف للجهاد من جهة الإمام؛ لأنهُ معذور فالله عزّوجل كلّف العبد بحسب طاقته فلايكلّف فوق طاقته.

ثم الشيخ رحمه الله تعالىٰ يقول "وهو تفسير لاحول ولا قوة إلا بالله" فلاتحوّل لأحد عن معصية الله إلا بمعونة الله ولا قوّة لأحد علىٰ طاعة الله إلا بتوفيق الله" فالكلام "وهو تفسير" يعنى ما قال الشيخ فى باب الاستطاعة التى يجب بها الفعل من نحو التوفيق. فالشيخ يقول هٰذه الاستطاعة هي

تفسير "لاحول ولا قوّة إلا بالله." يعني العبد لايستطيع أن يطيعه ويتحول عن معصيته إلى طاعته إلا بقدرة اللّٰه تعالىٰ وخلقه وقد بيّنا بالتفصيل هٰذا البيان يعني أن العبد وأفعاله واختياره كلها بخلق اللّٰه تعالىٰ بقدرته بالاستقلال والكسب للعبد فلاحاجة لإعادة. والمعنى الذى ذكر الشيخ رحمه اللّٰه تعالىٰ للجملة "لاحول ولا قوة إلا بالله" مأخوذ من الحديث ، ففى الحديث أخرجه أبويعلىٰ "لاحول عن معصية اللّٰه إلا بعصمة اللّٰه، ولا قوّة علىٰ طاعة اللّٰه إلا بعون اللّٰه." (شعب الإيمان، ح:٢٥٥)

ثم إن قيل إن التحول لأحد عن طاعة اللّٰه يعني خوضه فى معصية اللّٰه أيضًا من قدر اللّٰه وخلقه فلما ذا خصص ذكر طاعة اللّٰه علىٰ معصية اللّٰه؟ فقلنا بتوفيق اللّٰه تعالىٰ إن شاء اللّٰه العزيز: إن كلامكم أن المعصية أيضًا من قدر اللّٰه تعالىٰ وخلقه كلام صحيح ، ففى القرآن ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ﴾ (النساء:٧٨) فالخير والشر كل من قدر اللّٰه تعالىٰ وخلقه وهٰذا من ضرورات الدين وفى حديث جبريل عليه السلام، تفسير الإيمان "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره ." (صحيح مسلم، ح:٨) . وقد مرّ الكلام فيه فلاحاجة لإعادة. ، لكن مع ذٰلك نحن نرىٰ فى القرآن والسنة الأدب مع اللّٰه تعالىٰ فنحن نرىٰ ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ﴾ (النساء:٧٨) ومع ذٰلك نرىٰ ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّٰهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ (النساء:٧٩) ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم:٤١) ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورىٰ:٣٠) ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ (الجن:١٠) ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللّٰهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (الصف:٥) ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ (الأعراف:١٧٥-١٧٦) ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء:١١٥) ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللّٰهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللّٰهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ (النحل:٣٦) ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ (الأعراف:٣٠)

وفى الحديث الصحيح "والخير كلهُ فى يديك[1] والشر ليس إليك ." (سنن الترمذي، ح:٣٤٢٢) ففى هٰذه النصوص نحن نرىٰ أن السيئة والمصيبة نسبا إلى كسب الإنسان كما فى الآية

(١) ليستا جارحتين وقد مرّ الكلام فيه

﴿وَمَا أَصَابَكُم...﴾ (الشورى:٣٠) ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ....﴾ (الروم:٤١) ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ (النساء:٧٩) وكذلك المعصية والشر نسبا إلى اختيار الإنسان وكسبه كما فى الآية ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (الصف:٥) ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ....﴾ (الأعراف:١٧٥-١٧٦) ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ...﴾(النساء:١١٥) أو ذكر الشر فى صيغة المجهول كما فى الآية ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي....﴾ (الجن:١٠) ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ (النحل:٣٦) ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ (الأعراف:٣٠) وفى الآية التى ذكرنا قبلا يعنى الآية ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ (النساء:٧٨) ذكرت السيئة مع الحسنة فى الجملة بكلمة الكل ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ (النساء:٧٨) وفى الحديث انتفى نسبة الشر إلى الله تعالى بالكلية "والشر ليس إليك" ففى هذه الأنواع كلها نوع من الأدب مع الله تعالى الذى نذكره قريباً ، لكن الأن لو قلتم إن القرآن الكريم أيضا يقول ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النحل:٩٣) ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الأعراف:١٨٦) ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأعراف:١٧٨) ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ (الأنعام:١٢٥) ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر:٢٣) ففى جميع هذه الآيات نسب الله تعالى الاضلال إلى نفسه تعالى وثم الآيات مثلاً ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ (البقرة:٧) ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ (التوبة:١٢٧) ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ (بنى إسرائيل:٤٥) وغيرها من الآيات وفيها الله عزوجل نسب الختم على القلوب والسمع والصرف للقلوب وجعل الحجاب والأكنة إلى نفسه تعالى فكيف توافق هذه الآيات مع الآيات التى ذكرتم فى بيان الأدب مع الله عزوجل؟

فالجواب إن شاء الله تعالى بتوفيقه هو أن المعلوم أن الله عزوجل حكيم عليم ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ وكلامه أيضا حكيم ﴿يس. وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ (يس:١-٢) فجميع الآيات التى سبقت انفا لكل منها حكمة واسعة وفى بيان الذى نحن فيه كل واحد من هذه الآيات تدل على شيء ما مما ذكرنا.

فالآيات مثلاً ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ (الأعراف:١٨٦) ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأعراف:١٧٨) ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ﴾ (الأنعام:١٢٥) ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ (النحل:٩٣) وأمثالها تعلّمنا أن العبد لايستطيع أن يهتدى ولا أن يضل، بل لايستطيع أن يفعل شيئاً إلا بقدر الله وخلقه فالله عزوجل هو خالق كل شيء فهو

خالق الهداية والضلالة وكل شيء بقدره تعالىٰ ولايكون شيئًا فى العالم خيرا أو شرا إلا بإرادته ومشيته وخلقه وتكوينه تعالىٰ وهٰذا كلهٗ كمال، بل من الصفات اللازمة للأله الحق.

فهٰذه الآيات تعلّمنا أننا إذا نتكلم عن صفات الكمال اللازمة للّٰه تعالىٰ ، ففى بيان هٰذا نصرّح بالصراحة نسبة الخلق لكل شيء وتكوينه وتقديره وتدبيره خيرا كان أو شرا إلى اللّٰه عزوجل وأنهٗ هو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء ومن يهده فلامضل لهٗ ومن يضلله فلا هادى له. والهداية منه نعمة والضلالة منه عدلا؛ لأنهٗ حينئذ يكون عين الأدب مع حضرة البارى سبحانهٗ وتعالىٰ؛ لأن هٰذا ليس نسبة الشر إلى البارى عزوجل، بل نسبة صفات الكمال اللازمة إليه تعالىٰ؛ لأن كون الشيء بدون خلقه وتقديره وتدبيره وإرادته فى العالم نقص محال فى حضرة البارى عزوجل وقد بيّنا هٰذا سابقا ولايجوز هٰذا النقص فى الإلٰه الحقيقي والرب الحقيقى، بل من الواجب اللازم أن لايكون شيئًا فى العالم خيرا كان أو شرا، بل بخلقه تعالىٰ وقدره وإرادته وهٰذا الكمال لازم للإلٰه الحقيقي وهو اللّٰه عزوجل. وهٰذا أيضًا يجيب السؤال الذى ينتهض من القدرية وهو أن من الواجب الرضا بقضاء اللّٰه تعالىٰ؛ لأنهٗ ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الأنبياء:٢٣) واعتراض على اللّٰه عزوجل كفر، فلوكان الشر بقضاء اللّٰه تعالىٰ للزم الرضا بالشر وهو أيضًا كفر؛ لأن من الواجب كراهية الشر فكيف توافق بين هٰذا وهٰذا؟

فالجواب أن كراهية الشر من حيث أن اللّٰه عزوجل ينهاه ولايرضى بهٖ ولايحبّه ويهدد التعذيب عليه كما فى القرآن ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ (النحل:٩٠) ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ (الزمر:٧) ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ (البقرة:٢٠٥) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (ص:٢٦) ،والرضا بهٖ هو من حيث أن اللّٰه تعالىٰ قد قدّره وخلقه فهو من قدره وإرادته وخلقه وتكوينه تعالىٰ فالكراهة لهٗ من جهة، والرضا بهٖ من جهة فلا تناقض لاختلاف الجهتين كما واحد يرضى بموت عدوه الذى هو أيضًا عدو عدوّه الآخر؛ لأنهٗ عدوه ، لكن يكره من جهة أنهٗ عدو عدوّه أيضًا فهٰذا العدو الثانى قد يُخفف عليه بموت هٰذا العدو الأوّل. فافهم وتأمل واللّٰه يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم واللّٰه أعلم.

وأما الآية ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ (النساء:٧٨) فتعلّمنا أن من الأدب بحضرة اللّٰه عزوجل أن تجعل نسبة السيئة إليه خلقا وتكوينا وتقديرا من حيث الجملة بدون صراحة الذكر فقلنا إن الكل من عند اللّٰه تعالىٰ بدون أن نصرح بذكر السيئة والفرق بين هٰذا وبين ما سبق انفا هو من حيث الحاجة فلو هناك حاجة أن نصرّح بذكر الشر فنصرح بهٖ فنقول أنهٗ خالق الهداية [1] والضلالة ومقدّرهما لكى لايكون

---

(١) وهنا نقطة أخرى حتى مع الصراحة بذكر الشر مع الخير يعنى هو خالق الخير والشر ومقدّرهما وهٰذا أيضًا من الأدب فلايذكر الشر فقط يعنى هو خالق الشر ومقدره ولو كان صحيحا ، لكن من الأدب أنهٗ لما يصرّح بذكر الشر يقرنه مع ذكر الخير

التباسا فى القلوب ولو ليست هناك حاجة، بل هو المفهوم ولا موقع للالتباس. فلايصرّح بذكر الشر، بل يذكر من حيث الجملة فنقول انهٔ خالق الكل ومقدّرها.

وأما الآيات ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ (النساء:٧٩) ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ (الروم: ٤١) ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ (الشورى: ٣٠) فتعلّمنا أن الفضل والنعمة من الله تعالىٰ فضلا منه والمصيبة فهي عدلا منه تعالىٰ بسبب ما كسبت أيدى الناس ولو يقال: إن من المصائب التى تأتى على الصبيان والمجانين وكذٰلك من أحوال المشقة التى تأتى على الأنبياء والأولياء فالجواب أن ما تأتى على الأنبياء عليهم الصلوات والسلام والأولياء رحمهم الله تعالىٰ فهي ليست المصائب فى الحقيقة، بل هي رافعة لدرجاتهم عند الله تعالىٰ وما تأتى علىٰ غير المكلفين فالله أعلم بما كانوا عاملين وبيانه من منهم يموتون على الإسلام بعد أن يصيروا مكلّفا فهٰذه المصائب التى أصابتهم فى حالتهم التى هم فيها غير مكلفون تكون ثوابا لهم عند الله تعالىٰ فلا تكون مصائبا فى الحقيقة، ومن منهم يموتون على الكفر بعد أن يصيروا مكلفا فالمصائب التى أصابتهم هي بما كسبت أيديهم لو كانوا مكلفين يعنى الكفر وهٰذا مأخوذ من الحديث الصحيح عن صبيان الكفار يعنى "الله أعلم بما كانوا عاملين." ومن منهم يموتون غير المكلفين فيكون لهم امتحانا فى الآخرة كما بيّنا سابقا وثم إما السعادة أو الشقاوة فيكون كلاما عنهم نفس الكلام الذى ذكرناه آنفا عن الذين صاروا المكلفين بعد كونهم غير المكلفين عند إصابة المصائب.

وأما الآية ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ (الجن: ١٠) فتعلّمنا أن الخير ينسب إلى الله تعالىٰ بالصراحة كما فى ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ (الجن: ١٠) والشر يُذكر بصيغة المجهول كما فى ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ (الجن: ١٠) أدبا بحضرة البارى سبحانهٔ وتعالىٰ لاسيّما إذ ليس هناك موقع الالتباس كما ذكرنا حيثما المعلوم والمفهوم أن الخير والشر كل بقدر اللّٰه تعالىٰ وخلقه. وأما الآيات ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (الصف:٥) ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء: ١١٥) فتعلمنا أن الإنسان كاسب فعله والفعل منسوب إليه كسبا والله عزوجل خالق فعله والفعل منسوب إليه خلقا، فالإنسان يختار ويفعل كسبا ﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾ والله عزوجل يخلق اختياره وفعلهٔ ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (الصف:٥) وأيضا ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾ وأيضا تعلمنا هٰذه الآيات أن اللّٰه عزوجل لايُجبر العباد كما هو ظاهر فى الآيتين ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (الصف:٥) ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾ (النساء: ١١٥) فالعبد يختار افعالهٔ ولايجبر عليها وهٰذا كلهٔ مع أن الله

عزوجل قد قدّر عليه أزليا بإرادته الأزلية الفعالة، لكن هذا لايلزم الجبر؛ لأنهٔ تعالیٰ قد قدّر علیه الفعالة مع اختیاره یعنی قدقدّر علیه أنهٔ یختار ان یفعل کذا و کذا فاختیاره موجود وهذا یکفی لانتفاء الجبر کما قال تعالیٰ ﴿فَمَنْ شَآءَ فَلْيُؤْمِنْ وَّمَنْ شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[1] (الکهف:٢٩) فنسب الإیمان والکفر إلی مشیئة العبد ومع ذلک قال ﴿وَمَا تَشَآءُوْنَ إِلَّا أَنْ يَّشَآءَ اللّٰهُ﴾ (الدهر:٣٠) فمشیئة العبد تحت مشیئة الله عزوجل فیختار ما قدّره الله علیه، والخروج من قدر الله محال وکذلک وقوع شيء ما بدون قدر الله مستحیل وقد بیّنا کل هذا سابقا والحمد لله رب العالمین.

وأما الآية ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيْ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِيْنَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ (الأعراف:١٧٥-١٧٦) فتعلمنا أن الله عزوجل قد بیّن الرشد من الغيّ بآیاته، فالعبد إما یختار أن یهتدی أو یختار أن ینسلخ منها یعنی یخرج منها ولایقبلها فیلحق به الشیطان وهذا العبد من الغاوین. کما قال الله عزوجل ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيْلَ إِمَّا شَاكِرًا وَّإِمَّا كَفُوْرًا﴾ (الدهر:٣) ﴿وَهَدَيْنٰهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد:١٠) ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّيْنِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة:٢٥٦) ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَّيَحْيٰى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ (الأنفال:٤٢) ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدٰى فَإِنَّمَا يَهْتَدِيْ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيْلٍ﴾ (یونس:١٠٨) فالعبد إذا یضل عن سبیل الله فلایلومن إلا نفسه، إن الله عزوجل قد بیّن لهٔ طریقة الهدی وهو اختار طریقة الغيّ والضلالة فلیس لهٔ حجة علی الله عزوجل ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِيْنَ وَمُنْذِرِيْنَ لِئَلَّا يَكُوْنَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّٰهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (النساء:١٦٥) وهذا لیس لأنهٔ واجب علی الله تعالیٰ أن یبین طریقة الهدیٰ ویرسل الرسل لا، بل هو فضل منه تعالیٰ ﴿لَقَدْ مَنَّ اللّٰهُ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ إِذْ بَعَثَ فِيْهِمْ رَسُوْلًا﴾ (آل عمران:١٦٤) والمنّة لاتکون واجبًا، بل فضلا ولو یعذب عباده بدون إرسال الرسل وتبیین الهدیٰ کان لهٔ أن یفعلهٔ، لکن هذا فضلهٔ ورحمتهٔ أنهٔ یرسل الرسل ویبین الهدیٰ ﴿وَمَا كَانَ اللّٰهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتّٰى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُوْنَ﴾ (التوبة:١١٥) فالعبد لو لا یهتدی ویضل عن سبیل الله تعالیٰ فهو مسئول ومستحق للعقوبة وهذا مع أن ضلالة هذا العبد بقدر الله تعالیٰ وخلقه، لکن هذا لاینافی کسبه لضلالته وغوایته وقد بیّنا هذا سابقا والحمد لله رب العالمین ولهذا قد ردّ الله عزوجل هذا العذر ﴿وَاتَّبِعُوْا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَّبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَّأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَّأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُوْنَ أَنْ تَقُوْلَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلٰى مَا فَرَّطْتُ فِيْ جَنْبِ اللّٰهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِيْنَ أَوْ تَقُوْلَ لَوْ أَنَّ اللّٰهَ هَدَانِيْ لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِيْنَ أَوْ تَقُوْلَ حِيْنَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِيْ كَرَّةً فَأَكُوْنَ مِنَ الْمُحْسِنِيْنَ بَلٰى قَدْ جَآءَتْكَ آيَاتِيْ فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِيْنَ﴾ (الزمر:٥٥-٥٩) فلایکون هذا العذر

(١) لایعنی إجازة الکفر، بل هو التهدید یعنی لو یکفر فیضر نفسه ولیس الله عزوجل.

مقبولا يعني لو أن الله هداني لكنت مهتديا ولا ضالّا؛ لأنهُ كسب الضلالة ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾(البقرة:٢٨٦) والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

وأما الآية ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾ (النحل:٣٦) فتعلمنا أن ضلالة الضّال يحقّ عليه والكلمة "حق يحق" معناه الثبوت والحقيقة والمناسبة فهذه الكلمة الحكيمة من القرآن الحكيم تخبر أن ضلالة الضال حقيقة ثابتة لهُ ومع ذلك تناسبه وبيان ذلك أن تقدير الله تعالى بضلالة الضالّ حق ثابت ومناسب والضال يستحقه [1] من جهة كسبه، والله عزوجل قد بيّن الرشد من الغي، والضال اختار الغي وعمل المعصية ،والله عزوجل خالق ومقدّر لاختياره وعمله ، لكن خلقه وتقديره للغي والمعصية لهذا الضال مناسب صحيح (لا اعتراض على الله تعالى) وليس بشر ولو الغي والمعصية في نفسهما شر من جهة الكسب لهذا الضال . فحاصل الكلام أن ضلالة الضال باستحقاق الضال وهي حقيقة ثابتة مناسبة من جهة خلق الله وتقديره والكل يعني استحقاق الضال ضلالته واختياره وعملهُ بها من خلق الله وتقديره وهذا لاينافي مسئولية الضال.

وأما الحديث "والخير كلهُ في يديك والشر ليس إليك." (سنن الترمذي، ح:٣٤٢٢) فيخبرنا أن الشر غير منسوب إلى الله تعالى وبيانه كما ذكرنا أن خلق الله وتقديره للشر ليس بشر؛ لأن الله عزوجل لايُسئل عمّا يفعل وهم يُسئلون فلا اعتراض عليه ولاحجر ولا منع ولايفوقه أي شيء، بل هو القاهر الغالب على كل شيء وكل شيء لهُ ،فلهُ أن يفعل ما يشاء، ولأن الشر هو ما نهاه الله عنه والخير هو ما أمره به فالشر هو المنهي عنه من الله تعالى وإلا لايكون شرا فالله عزوجل هو الذي يقرر الخير والشر ولا مقرّر بأي شيء عليه لشيء ما؛ لأنهُ هو الله الواحد القهار وكل غيره تحته خلقا وتدبيرا وتقديرا وملكا، وأيضًا في خلق الله وقدره للشر حكمة بالغة واسعة وهي الخير وبيان الحكمة بنسبة الله تعالى قد مرّت وهي أنها ليست بمعنى الجلب للمنفعة والدفع للمضرّة؛ لأن الله تعالى هو الغني المتعال عن هذه الأشياء، فلايبقى إلا حصول إرادته ومشيئته وهو حاصل فالشر ليس منسوبا إلى ذاته وصفاته تعالى فلايكون منسوبا إلى صفاته الخلق والتدبير والتقدير ، لكن هو ما يحدث في العالم [2] مثلاً الكفر من جهة الله تعالى الذى هو يوجده بصفاته الخلق والتقدير مع أنهُ لايرضى به

(١) لا يعني الاستحقاق في معنى أن الله عزوجل مدين إليه في خلق الضلالة فيه؛ لأنهُ لا واجب على الله عزوجل فلا يكون مدينا إلى شيء ما ، لكن في معنى أن خلق الله الضلالة فيه مناسب وحق ولا جبر؛ لأن العبد اختاره و كسبه ولو اختياره وكسبه من قدر الله تعالى وخلقه.

(٢) والله عزوجل وصفاتهُ ليس من العالم، بل هو خالقه ومقدّره ومدبره

ولايحبه، بل يعذب عليه ويعاقبه [1].

فحاصل الكلام أن ملاحظة الأدب بالله عزوجل موجود وهو لازم واجب ،فالشر ليس منسوبا إلى الله تعالى وصفاته العليا وأما ذكر خالقيته ومقدّريّته لهٗ فإمّا ذُكر من حيث الجملة أنهٗ خالق كل شيء ومقدّره أو إما ذكر من حيث المجهول يعنى أن الشر قدّر على فاعل الشر وكاسب لهٗ أو ذكر بنسبة كسب الكاسب يعنى أن الله عزوجل قد بيّن الرشد من الغى فالعبد لو يختار الشر فهو عليه ولو الله عزوجل خالقه وجميع أفعاله وكذلك الفساد فى البر والبحر نُسب إلى كسب العبد ولو الله عزوجل خالق لجميع الأشياء وكذلك الشر أيضًا ينسب إلى استحقاق فاعله يعنى العبد يختار الشر ويكسبه فهو يستحق أن تكون نسبة الشر إليه. ولو ذُكر الشر بالصراحة خلقا وتقديرا من جهة الله تعالى فعلى هٰذا ذُكر من حيث ربوبيّة الله وكمال صفاتهٖ وقدرته وملكوته وجبروته يعنى لايكون فى العالم خيرا أو شرا إلا بخلق الله وتقديره وتدبيره ومع ذلك ذكر مقرونا مع الخير ولايُذكر فردا أدبا مع الله تعالى. وعلى هٰذا يُقاس.

فالجواب لسؤالكم أنهٗ فى "لاحول ولا قوّة إلا بالله" لما ذا فسّر أنهٗ لاتحوّل عن معصية الله إلا بمعونة الله ولاقوّة لطاعة الله إلا بتوفيق الله تعالى مع أن الشر والخير كلاهما بقدر الله تعالى وخلقه؟ فالجواب أدبا بحضرة الله عزوجل فخُصّ ذكر الخير كما فى القرآن ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ (آل عمران:٢٦) ولم يُذكر الشر؛ لأن الشر ولو يُذكر من جهة خلقه لهٗ وتقديره من الله تعالى فيُذكر مع ملاحظة الأدب ، ففى تفسير "لاحول ولا قوّة إلا بالله" لم يُذكر الشر مطلقا، بل ذُكر الخير أدبا مع الله عزوجل؛ لأن كون الشر مخلوقا ومقدّرا من جهة الله تعالى معلوم من قبل فلا احتمال للالتباس ،ففسر بذكر الخير ملاحظة للأدب بحضرة البارى سبحانهٗ وتعالى.

المتن:

وكل شيء يجرى بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدره. غلبت مشيئته المشيئات كلها وغلب قضائه الحيل كلها. يفعل ما يشاء . وهو غير ظالم أبدا. تقدّس عن كل سوء وحَين. وتنزه عن كل عيب وشين ﴿لَايُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُوْنَ﴾

---

(١) فالكفر شر فهو يوصف بالشر وكذلك الكافر الكاسب للكفر يوصف بكسب الشر. فالشر منسوب إلى الكفر الذى هو من المحدثات المخلوقات المقضيات وليس صفة الخلق والإحداث والقضاء لله تعالى، بل هو ما يحدث من جهتها فى العالم ، فالشر وكاسب الشر مخلوق والله عزوجل هو خالق كل شيء ولايوصف بالشر.

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالىٰ يعيد إجمالا كل شيء قد ذكر في باب القضاء والقدر ونحن قد بيّنا كل هذا سابقا فالآن نذكر الكل مخلّصا مجملا كما ذكر الشيخ رحمه الله تعالىٰ. اعلم أن القضاء والقدر معناهما في باب القضاء والقدر لله تعالىٰ هو يرجع إلى علمه بما هو خالق وإرادته وخلقه بحسب علمه وإرادته وأيضا إثبات هذا في اللوح المحفوظ وقد مر بالتفصيل.

فالشيخ رحمه الله تعالىٰ يقول إن كل شيء يعنى ما سوا الله وصفاته بمشيئته وعلمه وقضائه وقدره. ومشيئته غلبت المشيئات كلها وقضائه غلب الحيل كلها يعني مشيئة لجميع غير الله أيضا تحت مشيئة الله تعالىٰ فهم يشاء ون ما شاء الله عليهم أن يشاء. ﴿وَمَا تَشَآءُوْنَ إِلَّآ اَنْ يَّشَآءَ اللّٰهُ رَبُّ الْعٰلَمِيْنَ﴾ (التكوير: ٢٩) وكذٰلك ما يفعلون من الأفعال من الحيل وغيرها فكلها بقضاء الله تعالىٰ يعني بعلمه وإرادته وخلقه والله يفعل ما يشاء. ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيْدُ﴾ (البروج: ١٦) ولهٗ أن يفعل ما يفعل لاحجر عليه ولا منع ولايكون ظالما في أفعاله، كل شيء لهٗ فلهٗ أن يتصرف فيه بما يشاء ﴿قُلْ فَمَنْ يَّمْلِكُ مِنَ اللّٰهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُّهْلِكَ الْمَسِيْحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهٗ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيْعًا وَلِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَاللّٰهُ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ﴾ (المائدة: ١٧) وفي الحديث "لو أن الله تعالىٰ عذّب أهل سمواته وأهل أرضه عذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم كانت رحمتهٗ خيرا لهم من أعمالهم." (سنن أبي داود، ح: ٤٧٠١) فالظلم لايمكن أن ينسب إليه تعالىٰ في الحقيقة ومع ذٰلك ،الله عزوجل قد أرسل الرسل وبين الرشد من الغي وهٰذا فضلهٗ تعالىٰ وليس بواجب عليه فمن لايهتدى، بل يضل عن سبيل الله تعالىٰ فلايلومن إلا نفسه وفي الحديث القدسي "يقول الله عزوجل: ياعبادى، إني حرّمت الظلم علىٰ نفسي. وجعلته بينكم محرّما فلاتظالموا يا عبادى: إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذٰلك فلايلومن إلا نفسه." (صحيح مسلم، ح: ٢٥٧٧) وفي القرآن الكريم ﴿وَمَا اللّٰهُ يُرِيْدُ ظُلْمًا لِّلْعٰلَمِيْنَ﴾ (آل عمران: ١٠٨) ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّٰهُ وَلٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُوْنَ﴾ (آل عمران: ١١٧) ﴿اَلْيَوْمَ تُجْزٰى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللّٰهَ سَرِيْعُ الْحِسَابِ﴾ (المؤمن: ١٧) ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللّٰهُ قَوْلَ الَّذِيْنَ قَالُوْٓا إِنَّ اللّٰهَ فَقِيْرٌ وَّ نَحْنُ اَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوْا وَقَتْلَهُمُ الْاَنْبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَّ نَقُوْلُ ذُوْقُوْا عَذَابَ الْحَرِيْقِ ذٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ اَيْدِيْكُمْ وَ اَنَّ اللّٰهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيْدِ﴾ (آل عمران: ١٨١) ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهٖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيْدِ﴾ (فصلت: ٤٦) والمعنى لكل هٰذه النصوص ترجع إلى أن الله عزوجل حرّم على نفسه [1] يعني أخذ علىٰ نفسه فضلا ورحمة وليس وجوبا أنهٗ لايعذب أحدا إلا بسوء أعمالهم فالعباد المعذّبون لايلوموا إلا

(١) وهٰذا معنى "إني حرمت الظلم على نفسي" وأما الظلم في المعنى الحقيقي فمستحيل نسبته إلى الله عزوجل؛ لأن كل ما سواه فهو مخلوق مملوك لهٗ فلهٗ أن يفعل به ما يشاء.

انفسهم: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ (النساء:١٤٧) ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (بنى إسرائيل:١٥)

ثم الشيخ رحمه الله تعالىٰ يقول: إن الله عزوجل ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ (الأنبياء:٢٣) فلا اعتراض عليه ولاحجر ولا منع، فمن يعترض على الله عزوجل فقد كفر؛ لأنهٗ هو الله الواحد القهار رب العالمين، ولهٗ كل شيء، فلهٗ أن يفعل ما يفعل ،فلاشين ولاعيب ولاسوء ولا حين، بل فعّال لما يريد، لايحكم عليه دستور، ولايجرى عليه قانون وقد بيّنا كل هذا سابقا فالحمد لله رب العالمين والصلوٰة والسلام علىٰ جميع المرسلين.

المتن:

وفى دعاء الأحياء وصدقاتهم منفعة للأموات، والله عزوجل تعالىٰ يستجيب الدعوات ويقضى الحاجات.

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالىٰ الأن يدخل فى موضوع انتفاع الأموات بدعاء الأحياء وصدقاتهم وهٰذهٖ مسئلة تتعلق بمسئلة إيصال الثواب إلى الآخرين وفى الجميلة أهل السنة والجماعة متفقون بجوازه وحصوله مع اختلاف فى بعض التفاصيل والشيخ رحمه الله تعالىٰ ذكر هٰذه المسئلة مباشرة بعد الكلام عن مسئلة القدر ويمكن وجهه هو تعلق الدعاء مع القدر يعنى الدعاء لاينافى القدر، بل هو منهٗ فلا ينبغى لواحد أن يقول لما ذا أدعوا وكل شيء مقدّر فيكون ما يكون، هٰذا الإشكال غير وارد؛ لأن دعائه أيضًا من قدر الله تعالىٰ فواحد يدعوا الله للفرج والله يفرّج عنه فهٰذهٖ كلها مقضية فى قدر الله عزوجل انهٗ هٰذا الشخص يدعوا والله عزوجل يقبل دعاءه وعلىٰ نفس المنوال جميع الأسباب فكلام الشيخ رحمه الله تعالىٰ عن الدعاء والصدقات واستجابة الدعوات وقضاء الحاجات كلها تتعلق بقدر الله تعالىٰ لأنها منها فواحد يتصدق ويكون لهٗ اجرا فى الآخرة أو يهب الأجر إلى المسلم الآخر فينتفع بهٖ هٰذا المسلم الآخر فهٰذا كله بقدر الله تعالىٰ.

ثم اعلم أن أهل السنة والجماعة أجمعوا أن الميّت المسلم ينتفع بالحسنات التى تَسبّب اليها فى حياته كما فى الحديث "إذا مات الإنسان انقطع عنه عملهٗ إلا من ثلاث . صدقة جارية أو علم ينتفع بهٖ أو ولد صالح يدعوا له ." (صحيح مسلم، ح: ١٦٣١) "وإنما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علما علّمه ونشره أو ولدا صالحا تركه أو مصحفا ورّثه أو مسجدا بناه أو بيتا لابن السبيل بناه أو نهرا أكراه أو صدقة أخرجها من ماله فى صحته وحياته تلحقه من بعد موته ." (سنن ابن

ماجة، ح: ٢٤٢) فهٰذه كلها هي من الأعمال أو الأشياء التى تسبّب إليها الميّت مثلا العلم النافع الذى ينتفعون به الآخرون بعد موته فيلحقه ثواب نفع الآخرين الجارى بعد موته وولد صالح الذى تربّى بتربيّة صالحة من قبل ابيه، فالأعمال الصالحة التي يفعل هٰذا الولد يلحق ثواب هٰذا إلى أبيه الميّت بدون أن ينقص من ثواب الولد كما فى الحديث " من سنّ فى الإسلام سنة حسنة فلهٗ أجرها وأجر من عمل بها من بعدهٗ من غير أن ينقص من أجورهم شيء. ومن سنّ فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعدهٗ من غير أن ينقص من أوزارهم شيء." (صحيح مسلم، ح:١٠١٧) "الدّال على الخير كفاعله." (سنن الترمذي، ح: ٢٦٧٠)وأما ما لم يتسبب إليها فأجمعوا أهل السنة والجماعة أن الميّت ينتفع بدعاء المسلمين لهٗ واستغفارهم لهٗ والصدقة وكذٰلك الحج واختلفوا فى الحج هل يصل الميّت ثواب العمل أو ثواب الإنفاق ونحن نذكر الدلائل لهٰذه كلها قريباً إن شاء اللّٰه العزيز.

وأما العبادة البدنية كالصوم والصلاة وقراءة القرآن فالجمهور علىٰ جواز وصولها إلى الميّت وهو مذهب الحنفية والحنابلة وجمهور السلف وأما الشافعية والمالكية فقالوا بعدم جواز وصولها والحق هو الجواز وسنثبت إن شاء اللّٰه العزيز. والشيخ الإمام الطحاوي رحمه اللّٰه تعالىٰ اكتفى بذكر الدعاء والصدقات المجمع عليها عند أهل السنة والجماعة ولم يذكر المسائل المختلفة فيهاممكناً لأن هٰذا بيان العقيدة لأهل السنة والجماعة فذكر ما اتفقوا فيها دون ما اختلفوا فيها فى هٰذه المسئلة. فأما الدلائل لايصال الثواب إلى الميّت فكثيرة جدا فنحن نذكر نبذة منها لنثبت عقيدة أهل السنة والجماعة المجمع عليها وثم نثبت موقف الجمهور الصحيح فيما اختلفوا فيها عن هٰذه المسئلة وثم نتكلم موقف أهل البدعة عن هٰذه المسئلة والرد عليه إن شاء اللّٰه عزوجل.

فالدليل لانتفاع الميّت بالدعاء ، ففى القرآن ﴿وَالَّذِيْنَ جَآءُوْا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُوْلُوْنَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِيْنَ سَبَقُوْنَا بِالْإِيْمَانِ﴾ (الحشر:١٠) وفى الحديث "إذا صلّيتم على الميّت فأخلصوا لهٗ الدعاء." (سنن ابن ماجة، ح:١٤٩٧) الرسول صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم دعا علىٰ جنازة "اللّٰهم اغفر لهٗ وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزلهٗ وأوسع مدخلهٗ واغسله بالماء والثلج والبرد ونقه من ا!خطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس وأبدله دارا خيرا من داره وأهلا خيرا من أهله وزوجا خيرا من زوجه وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر وعذاب النار." (صحيح مسلم، ح:٩٦٣) وكذٰلك أحاديث كثيرة فى هٰذا الباب وهٰذه موروثة عند المسلمين فهو معلوم من الدين بالضرورة يعنى الدعاء للأموات فما معنى لهٰذا لو هم لاينتفعون به؟ هٰذا لايقول عاقل، بل سفيه ملحد جاهل!

والدّليل لثواب الصدقة فمنها "أن رجلا أتى النبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم فقال يارسول

اللّٰہ إن أمّی افتلتت نفسها ولم توص وأظنها لو تكلمت تصدقت أفلها أجر إن تصدقت عنها؟ قال نعم." (صحيح البخاري، ح:١٣٨٨).

وأما الحج "قالت امرأة (يعنى لرسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم) عن أمّها أنها لم تحج قط أفاحج عنها؟ فقال صلى الله تعالىٰ عليه وسلم حجى عنها." (سنن الترمذي، ح: ٩٢٩)

فهٰذا القدر يكفى لإثبات انتفاع الميّت بدعاء الأحياء وصدقاتهم وكذٰلک الحج وأيضًا "حجى عنها" فى الحديث يدل علىٰ وصول ثواب الحج إلىٰ الميّت وليس فقط ثواب الإنفاق [1] فيه الذى هو التحكم بلا دليل، بل إسناد الحديث للحج إلى الميّت عند ما قال "عنها" يدل أن الحج نفسه عن الميّت فظاهر أن الثواب لعمل الحج يكون للميّت هبة من بنتها.

ثم لإثبات مسلک الجمهور من أهل السنة والجماعة وهوأن العبادة البدنية مثلا الصوم والصلاة أيضًا يجوز إيصال ثوابها إلى الميّت، فالدلائل لها أيضًا كثيرة.

فمنها ما رواه الإمام أحمد "أن عمرا سأل النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم عن ذٰلک فقال صلى اللّٰہ عليه وسلم أما أبوک فلو أقرّ بالتوحيد فصمت وتصدقت عنه نفعه ذٰلک." (مسند أحمد: ح:٦٧٠٤) ففى هٰذا الحديث دلالة علىٰ أن العبادة البدنية كالصوم والعبادة المالية كالصدقة يجوز إيصال ثواب كلتيهما إلى الميّت؛ لأن الحديث يقول إنهٗ لو كان أبوعمر مؤمنا مؤحّدا لنفعته العبادة المالية والبدنية، لكن لأنهٗ لما لم يكن مؤمنا فلامجال لإنفاعه بصورة ما؛ لأنهٗ لا بد من الإيمان وهٰذا ظاهر لاخفاء فيه ولقد نهي الله عزوجل أن يُستغفر ويُصلى على الكافر فضلا عن إيصال ثواب العبادات إليه فقال الله عزوجل ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِيْنَ آمَنُوْا أَنْ يَّسْتَغْفِرُوْا لِلْمُشْرِكِيْنَ وَلَوْ كَانُوْا أُوْلِى قُرْبٰى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيْمِ﴾ (التوبة:١١٣) وقال عزوجل ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلٰى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَّلَا تَقُمْ عَلٰى قَبْرِهٖ إِنَّهُمْ كَفَرُوْا بِاللّٰهِ وَرَسُوْلِهٖ وَمَاتُوْا وَهُمْ فَاسِقُوْنَ﴾ (التوبة:٨٣) وهٰذا إذا ماتوا على الكفر؛ لأنهٗ بعد موتهم على الكفر تبين أنهم أصحاب الجحيم.

وأما الأحياء من الكفار فيجوز استغفارا لهم علىٰ تقدير أن الله يهديهم للإيمان فغُفروا لما سبق منهم من الكفر والمعاصى؛ لأن ما داموا هم أحياء فاحتمال إسلامهم وإيمانهم موجود وعلىٰ هٰذا يُحمل دعاء إبراهيم عليه السلام ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيْمَ لِأَبِيْهِ إِلَّا عَنْ مَّوْعِدَةٍ وَّعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهٗ أَنَّهٗ عَدُوٌّ لِّلّٰهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيْمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيْمٌ﴾ (التوبة:١١٤) يعنى بعد موت أبيه على الكفر تبيّن أنهٗ سيبقى عدوالله دائما ولا إمكان بقى لإيمانه حتىٰ يتحول من العداوة إلى القبول والرضا، فإذا تبين أنهٗ عدواللّٰہ بدون إمكان التغير تبرّأ منه وكذٰلک دعاءه عليه السلام ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيْمُ رَبِّ اجْعَلْ هٰذَا

(١) يعنى ما أنفق من ماله فى فعل الحج، ففى هٰذا القول الثواب يتعلق بما صرف من المال فقط.

الْبَلَدَ آمِناً وَّاجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَنْ نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ﴾ (ابراهيم:٣٦) يعنى إنك تستطيع أن تهديهم فلايعصونني، بل يتبعونى فيغفر ما سبق منهم من العصيان. فالله عزوجل قد نهي أن يُستغفر ويُصلى علىٰ أمواتِ الكفار فلايجوز لهم الدعاء ولا الاستغفار ولا إيصال للثواب لأي نوع من العبادة ولأن أمرنا بترك الموالاة معهم ولكن الأشداء والأعزة عليهم وليجدوا هم فينا غلظة لهم وهذا كلهٗ ظاهر ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُوْلُ اللّٰهِ وَالَّذِيْنَ مَعَهٗ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح:٢٩) ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِيْنَ﴾ (المائدة:٥٤) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِيْنَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ (التوبة:٧٣) ﴿وَلْيَجِدُوْا فِيْكُمْ غِلْظَةً﴾ (التوبة:١٢٣) وأيضا هم خالدون مخلدون فى العذاب فلامحيص لهم منه ولا فرار فالدعاء والاستغفار وإيصال الثواب لايحفظهم من ذٰلك البتة ولايجوز لهم ولاينفعهم، بل هم مخلّدون فى العذاب. ونسأل الله العفو والعافية.

فحاصل الكلام الحديث الذى ذكرنا يدل علىٰ جواز إيصال ثواب الصوم الذى هو العبادة البدنية للميت المسلم. وحديث آخر عن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها أن رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم قال "من مات وعليه صيام صام عنه وليه." (صحيح البخاري، ح:١٩٥٢) والحديث عن ابن عبّاس رضي الله تعالىٰ عنه "جاء ت امرأة إلى النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فقالت: يارسول الله! إن أختى ماتت وعليها صيام شهرين متتابعين. قال: أرأيت لو كان علىٰ أختك دَين أكنت تقضينه؟ قالت: بلىٰ، قال: صلى الله عليه وسلم "فحق الله أحق." (سنن النسائي، ح:٢٤١٦) والحديث عن بريدة رضي الله تعالىٰ عنه قال:" جاء ت امرأة إلى النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فقالت: يارسول الله! إن أمّي ماتت وعليها صوم. أفأصوم عنها؟ قال: نعم." (سنن ابن ماجة، ح:١٧٥٩)

والحديث عن ابن عباس رضي الله عنه قال: "ركبت إمرأة البحر فنذرت أن تصوم شهرا، فماتت قبل أن تصوم فأتت أختها النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فذكرت ذٰلك لهٗ فأمرها أن تصوم عنها." (مسند أحمد، ح:٣١٣٨) وهٰذه الأحاديث كلها يدل بصوم الصيام عن الغير التي قد وجبت عليه الصيام فما ظنّك بصوم الصيام النافلة عن الغير يعنى إهداء الثواب إليه فلا بد من الجواز وإن قيل إنهٗ قد جاء عن ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنه "لايصلى احد عن أحد ولا يصوم أحد عن أحد ولٰكن يطعم عنه مكان كل يوم مدا من حنطة." (السنن الكبرى للنسائى، ح:٢٩٣٠) وكذٰلك ما جاء عن ابن عمر رضي الله تعالىٰ عنه موقوفا ومرفوعا "من مات وعليه صيام شهر فليطعم عنه لكل يوم مسكين." (سنن ابن ماجة، ح:١٧٥٧)

فقلنا بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز: إن هٰذا لايؤثر علىٰ موضوعنا وهو إثبات جواز

إيصال الثواب للعبادة البدنية إلى الميت؛ لأن ذلك هو فى الصيام المفروضة فقد جآء فى الحديث الصحيح جواز الصيام عن الآخر الذى قد فرضت عليه الصيام ولم يصم ومات وقد جآء فى الروايات عدم الجواز له، بل جواز الإطعام عنه ولهذا اختلف الفقهاء فى جوازه فالإمام أحمد رحمه الله تعالى يحمل الأحاديث للجواز فى صيام النذور ويحمل الروايات لعدم الجواز لصيام رمضان وهذا جمع جيّد جدا وهو قريب من الأحاديث وقد جآء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه قال: "إذا مرض الرجل فى رمضان ولم يصم أطعم عنه ولم يكن عنه قضاء وإن نذر قضى عنه وليه." (سنن أبى داود، ح: ٢٤٠١) وهذا يعنى إذا مات ولم يصم ما فرض عليه من صيام رمضان.

وأما الأحناف فهم يقولون بإطعام عنه فى صيام النذور وصيام رمضان فعندهم لايصوم أحد عن أحد كما لايصلى أحد عن أحد. وهذا يعنى فى الصلوٰة هذا الأمر متفق عليه فكما يطعم عنه لكل صلوة وكذلك يطعم عنه لكل صوم وهذه مسئلة النيابة وفى الجملة :النيابة جائزة فى العبادة المالية فلو واحد يعطى الزكوة عن الآخر فهذا يُجزئُ هذا الآخر يعنى حتى فى حياته ولايجوز النيابة فى العبادة البدنية فلايصلى أحد عن أحد ولايصوم أحد عن أحد فى حياته وبعد مماته مع اختلاف قليل فى صيام النذور بعد مماته من الحنابلة وأما العبادة التى هي مخلوطة من المال والبدن مثلا الحج فيجوز النيابة عند العجز فلو يعجز من فرض عليه الحج بسبب غير العارضى فليُحج عنه وهذا يجزئه ولايجوز أن يُحج عن الآخر فى فريضة الحج إلا عند العجز غير العارضى. وقد جآء فى الحديث عن الزكوة والله أعلم عن صحته "أن الرسول عليه الصلوٰة والسلام أخذ علىٰ نفسه زكوة عمّه عباس رضي الله تعالىٰ عنه وقال: إن العمّ صنو الأب." (السنن الكبرى للبيهقي، ح:١١٩١٥) وأما الحج فقد جآء فى الحديث "أن امرأة من خثعم قالت: يارسول الله إن أبى أدركته فريضة الله فى الحج وهو شيخ كبير لايستطيع أن يستوى علىٰ ظهر البعير: قال صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "حجى عنه." (سنن الترمذي، ح:٩٢٨) وهذه مسئلة النيابة وموضع تفصيلها فى الفقه فليراجع كتب الفقه لها.

وأما الذى نحن فيها الأن فهي ليست مسئلة النيابة، بل هي مسئلة إيصال الثواب للعبادة البدنية إلى الميّت ،فيكفينا ما ذكرنا من الأحاديث فى الجملة لعمل العبادة البدنية عن أموات المسلمين بغض النظر إلى اختلاف الفقهاء فى هذه المسئلة؛ لأن هذا هو فى مسئلة النيابة، والنيابة فى الجملة لايسوغ فى العبادة البدنية ، لكن جمهور الفقهاء ومنهم الحنابلة والأحناف يجوّزون إيصال ثواب العبادة البدنية إلى الميّت إهداءً إليه، وإن لم يجوّزوا فى الجملة نيابة العبادة البدنية عنه التى قد فرضت عليه ولم يفعلها ومات ، ففى هذا الحال يُطعم عنه الفدية وتفصيلهٔ فى الفقه، فنحن ذكرنا عدة من الأحاديث للاستشهاد لإيصال الثواب للعبادة البدنية، ويكفينا منها ما ذكرنا أوّلا وهو

الحديث أن لو كان أبو عمر مؤمنا لنفعه ما يصوم ويتصدق عمر رضي الله عنه ويُوصل ثوابها إليه وهٰذا يكفى للاستشهاد علىٰ جواز إيصال ثواب للعبادة البدنية مثلاً الصوم إلى أموات المسلمين ولم ما ذكرنا من الأحاديث فكلها تقوّى وتؤيد الجواز فى الجملة لعمل العبادة البدنية وإيصال ثوابها إلى أموات المسلمين؛ لأنه إذا كانت هناك الأحاديث الصحيحة تجوّز نيابة صيام النذر (التى هي من العبادة البدنية) عن أموات المسلمين بغض النظر إلى اختلاف الفقهاء فيها فعمل العبادة البدنية فى الجملة التى ليس بواجب على الميت وإيصال ثوابها إليه إهداء لهٗ أولى واحرى وأسهل للجواز. فتأمل والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

ولهٰذا حتىٰ الأحناف ،الذين لم يجوزوا نيابة الصيام عن الميت مطلقا، قد جوزوا إيصال ثواب العبادة البدنية إلى الميّت المسلم. فحاصل الكلام أن مسلك الجمهور وهو جواز إيصال ثواب العبادة المالية والبدنية هو مسلك حق صحيح مؤيّد بالأحاديث الصحيحة ولايجوز التحول عنه إلى المسالك الأخرى.

وبعد ما ذكرنا من الدلائل لانتصار مذهب الجمهور فى جواز إيصال ثواب العبادة البدنية إلى الميّت المسلم نذكر مزيدا من الدلائل التى يمكن لاتكون مستدلّة لهٰذه المسئلة مباشرة ، لكن قد تكون مؤيدة بلمّحة إليها فمنها ما جآء فى الحديث أن الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم أمر بقراء ة فاتحة الكتاب علىٰ الجنازة وهٰذا الأمر قد يشير إلىٰ جواز انتفاع الميت بقراء ة القرآن فليلمّح إلى جواز إيصال ثواب قراء ة القرآن إليه الذى هو مسلك الجمهور ومنها ما جآء فى الحديث أن الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم أخذ جريدة رطبة فشقها بنصفين ثم غرز فى كل قبر واحدة وقال صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "لعلهٗ أن يخفف عنهما ما لم ييبسا." (صحيح البخاري، ح: ١٣٦١) ؛ لأن صاحبى هٰذين القبرين كانا معذبان فواحد منه كان لايستتر من البول والآخر كان يمشى بالنميمة. ونحن لاندخل فى الحكمة لوضع كسرة من الجريدة على القبرين والرجاء به لتخفيف العذاب ما لم ييبساء الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فعل هٰذا الفعل وهو حكيم عالم بما فعلهٗ ولما فعلهٗ، نحن نعتقد فعلهٗ وقولهٗ"لعلهٗ أن يخفف عنهما مالم ييبسا" كما نحن نعتقد فى جميع أفعاله وأقواله عليه الصلوات والسلام. النقطة التى نحن نجعل الآن هو أن الرسول عليه الصلوات والسلام عمل عملا وفعل فعلا [1] مع الرجاء بالتخفيف ما لم ييبسا فبغض النظر علىٰ اطلاع حكمة هٰذا الفعل، إن الشيء الذى نحن نعلم أنهٗ فعل فعلا، فقد يشير هٰذا الفعل أن العبادة البدنية (من الأحياء) التى أيضًا هي أفعال

---

(١) يعنى فعلاً بدنيا وهو أخذ الجريدة وكسرها بكسرتين والوضع كسرة منهما على القبرين وان كان هٰذا الفعل مخصوص ﷺ صلى الله على هو سلم ولم تكن سنة لغيره .

البدن يجوز انتفاع الميت بها كما حصل الرجاء بتخفيف العذاب لهما بفعل الرسول عليه السلام .

فتامل والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

فالأن نحن نذكر ما ذكروا أهل البدعة من المعتزلة وكذلك من اتباع ابن تيمية[1] الذين ينكرون إيصال ثواب العبادة مالية كانت أو بدنية إلى أموات المسلمين. فنذكر ما يستدلون بها وثم الرد عليهم؛ لأن استدلالهم كلها ضعيفة، بل واهية وكثير منها لاتليق أن تُذكر ويُضاع فيه الوقت لركاكتها، فنحن نذكر منها فقط مايأتى بالإشكال على الظاهر فى هذه المسئلة والباقى منها فالمطلع عليها يستطيع بنفسه أن يتعرف أنها لاشيء فى الحقيقة، فمنها ما فى القرآن ﴿لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَاسَعَىٰ﴾ (النجم:٣٩) ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة:٢٨٦) وفى الحديث "إذا مات العبد انقطع عملهُ إلا من ثلاث، صدقة جارية عليه، أو ولدصالح يدعو لهُ أو علم ينتفع بهِ من بعد." (سنن الترمذي، ح:١٦٧٦)

فالجواب بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز أن الآية ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة:٢٨٦) و ﴿لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَاسَعَىٰ﴾ (النجم: ٣٩) لاينافى بإيصال الثواب إلى أموات المسلمين قطعا وبتاتا؛ لأن لو واحد مستاجر يستأجر الناس للعمل فيقول لهم أن كل واحد منكم لايحصل على أجر ما إلا ما هو سعى لهُ بنفسهٖ فى العمل فلهُ ما كسب بنفسهٖ وكذلك عليه ما اكتسب بنفسهٖ لو يفعل شيئًا يخسر العمل فى صورة ما، فهل هناك أي واحد فى العالم يفهم من هذا الكلام أن الأجراء بعد مايكسبون ويحصلون على أجرهم لايستطيعون على أن يدفعوا ما يشاء ون منه إلى الآخرين؟ فما ذا تقولون أيها المنكرون لإهداء الثواب إلى أموات المسلمين؟ فالعاقل لايفهم من هذا الكلام عدم استطاعة الأجراء على أن يدفعوا ما يشاؤون من أجورهم إلى الآخرين بعد أن يحصلوا عليها، بل معنى الكلام هو فقط أن المستأجر يعطى كل واحد من الأجراء حسب عملهٖ ،فلا يحصل على أجر الآخر ولا على وزر الآخر ، لكن الأجير بعد أن يحصل على أجره فما هو يفعل بهٖ فلايتعلق ما قال المستاجر بهذا الشيء فى صورة ما ، فإذا فهمت هذا فمعنى الأيتين هو أن الإنسان يحصل على ما يسعىٰ فلهُ ما كسب وعليه ما اكتسب ، لكن ما يفعل الإنسان بما حصل عليه بعد أن يُعطى الأجر والثواب من عنده تعالى برحمة منه وفضل فهذا لا تتعلقان به الأيتان، بل هي مسئلة أخرى فهل هو يجوز[2] أم لايجوز،

(١) فاعلم أن ابن تيمية وابن القيم يعتقدون على إيصال الثواب إلى أموات المسلمين ، لكن فى عصرنا هذا قد بدا من أتباعهم أو على الأقل من بعض أتباعهم إنكار إيصال الثواب إلى أموات المسلمين فهم خرجوا من إجماع أهل الحق فيه مع أنهم أهل الباطل فى الأشياء غيره أيضًا

(٢) يعنى إهداء ثوابه إلى الآخر بعد حصوله عليه .

فنحن عرفنا من النصوص أنهٔ يجوز كما ذكرنا من الأحاديث الصحيحة ، لكن هو يجوز فقط مع الشروط كما لمّحت إليها النصوص، وهو أن المُهدى والمُهداء إليه كلاهما مسلمان؛ لأن الكفر جزاء ه خلود فى النار والعمل معهٔ لاينفع العامل فى الخروج من النار والنصوص لجواز إهداء الثواب فقط فى المسلمين دون الكافرين. وهو يجوز فقط فى الثواب وليس فى العقاب والوزر فلايجوز أن المسلم يعمل المعصية ويريد أن يحوّلها إلى غيره ولو كان هذا الغير متقبلا لها، هذا لايجوز قطعا للنصوص القاطعة "﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ (فاطر:١٨) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (العنكبوت:١٢) فلايجوز قطعا و بتاتا فى الوزر ، لكن يجوز فى الأجر والثواب لأجل النصوص القاطعة فيها، والجواب للحديث الذى ذكر المانعون هو موجود فى الحديث ،فالحديث يقول "إذا مات العبد انقطع عمله." (سنن الترمذي، ح:١٣٧٦) فالمنقطع هو عملهٔ إلا المستثنيات ، لكن نحن لانذكر عن عمل الميّت، بل نذكر ما يعمل الآخر ويهدى ثوابه إليه فهو جارى ولا مانع لهٔ كما هو ثابت من النصوص الصحيحة. وياعجب من أتباع ابن تيمية[1] اليوم خالفوا مشائخهم فى هذه المسئلة وأنكروا إيصال ثواب العبادات إلى الغير على الرغم الأحاديث الصحيحة الثابتة فيها واستدلوا بنفس الدلائل التى استدلوا بها المعتزلة ونحن قد رددناهم والحمد لله رب العالمين وقالوا أيضًا أن أحاديث إيصال الثواب تتكلم عن أولاد الأموات يُهدون ثواب العبادات إليهم فبسبب أن هذه الأموات علّموا وربّوا أولادهم بالتعليم الصالح والتربية الصحيحة فكأن هذه الأموات سبب لما يفعلون الأولاد من العبادة ،فإهداء الأولاد ثواب العبادة إليهم جائز بحسب هذه الأحاديث من ناحية "الدّال على الخير كفاعله ." (سنن الترمذي: ح:٢٦٧٠) وليس مطلقا إيصال الثواب إليهم بل لأن هذه الأموات سبب ودالّ للأعمال الصالحة من أولادهم فلهم أجر بغض النظر لإهداء الثواب من أولادهم إليهم وبدون أن ينقص من أجور الأولاد شيئًا كما فى الحديث "من سنّ فى الإسلام سنة حسنة فلهٔ أجرها وأجر من عمل بها من بعدهٔ من غير أن ينقص من أجورهم شيء." (صحيح مسلم، ح:١٠١٧)

ولايخفى على المسلم العاقل ركاكة هذا الكلام، بل الإلحاد فى هذه المسئلة بهذا الكلام الركيك،. وليس أي واحد من أهل الحق إلا وفهموا من هذه الأحاديث جواز إهداء الثواب إلى أموات المسلمين من أولادهم وغيرهم وأتباع ابن تيمية اليوم فهموا شيئًا غيره ويا أسفاه عليهم! ثم ما قالوا فكلهٔ منقوض بالأحاديث الثابتة فى غير الأولاد فمنها "من مات وعليه صيام صام عنه وليّه."

---

(١) أتباع ابن تيمية أو بعضهم اليوم ينكرون إيصال الثواب إلى الآخرين ، لكن هم يعتقدون على انتفاع الأموات بدعاء المسلمين.

(صحيح مسلم، ح:١١٤٧) "جاء ت إمرأة إلى النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فقالت يارسول الله! إن أختي ماتت وعليها صيام شهرين متتابعين" قال أرأيت لو كان علىٰ أختک دين، أكنت تقضينه؟ قالت: بلىٰ، قال صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "فحق الله أحق." (سنن الترمذي، ح:٧١٦) "ركبت امرأة البحر فنذرت أن تصوم شهرا، فماتت قبل أن تصوم، فأتت أختها النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فذكرت ذٰلک له، فأمرها أن تصوم عنها." (سنن النسائي، ح:٣٨١٦) وكذٰلک الحديث أن الرسول عليه الصلوات والسلام ضحّى بكبش وقال "بسم الله، اللّٰهم تقبل من محمد وال محمد ومن امّة محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم." (صحيح مسلم، ح:١٩٦٧) وفی الحديث الآخر أنهٗ ذبح كبشين أقرنين أملحين موجئين فلما وجههما قال "إني وجهت وجهي للذی فطر السمٰوات والأرض علىٰ ملة إبراهيم حنيفا وما أنا من المشركين إن صلاتی ونسكی ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريک لهٗ وبذٰلک أمرت وأنا من المسلمين، اللّٰهم منک ولک عن محمد وأمته بسم الله والله أكبر" ثم ذبح. (سنن أبی داود، ح:٢٧٩٥) وفی الحديث الآخر أنهٗ ذبح بكبش بيدهٖ يوم الأضحىٰ وقال: "بسم اللّٰه واللّٰه أكبر هٰذا عنّی وعمّن لم يضحّ من أمّتی." (سنن الترمذي، ح: ١٥٢١) وفی الحديث الآخر أن رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم كان إذا أراد أن يضحیّ، اشترىٰ كبشين عظيمين سمينين أقرنين أملحين موجئين فذبح أحدهما عن امّته، لمن شهد لله بالتوحيد وشهد لهٗ بالبلاغ، وذبح الآخر عن محمّد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وعن ال محمّد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم. (سنن ابن ماجة، ح:٣١٢٢)

وهٰذه الأحاديث من أجل الدلائل وأصرحها فی إثبات إيصال الثواب إلى الآخرين وهٰذا سيدنا ورسولنا ونبينا فداه نفسی وأبی وامّی صلى الله تعالىٰ عليه وسلم الذی هو السبب لهدايتنا إلى طريق اللّٰه المستقيم يذبح عن امّته الإجابة يعنی المسلمين والمعلوم أن كبشا واحدا لايجزئ عن الكثير من ناحية التضحية حتىٰ الإبل والبقر لايجزئان إلا عن سبعة على الأكثر وفی الحديث عن جابر رضي الله تعالىٰ عنه "نحرنا مع النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم بالحديبية البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة." (سنن الترمذي، ح:٩٠٤) وهٰذا فی الإبل والبقرة وأما الشاة ، ففی الحديث عن ابن عباس رضي اللّٰه تعالىٰ عنه أن النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم أتاه رجل فقال: إن علیّ بدنة وأنا موسر بها، ولاأجدها فاشتريها، فامره النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم أن يبتاع سبع شياه فيذبحهن." (سنن ابن ماجة، ح:٣١٣٦) والكبش ليس بأجسم من الغنم ، لكن مع هٰذا الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم شارک أمته المسلمة فی ثواب الأضاحی وجزاه الله تعالىٰ عنّا بما هو أهلهٗ عليه الصلوات والسلام وهٰذا مع أنهٗ هو الذی هادينا ﴿وَإِنَّکَ لَتَهْدِیٓ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورىٰ:٥٢) من ناحية الإرشاد

والإبلاغ ونحن لانستطيع أبدا أن نكافئه عليه الصلوات والسلام لما هو فعل لنا والله هو الوحيد الذى يعطى أجره بما هو أهلة عليه الصلوات والسلام. فيا أتباع ابن تيمية لما ذا تضل الناس فى مسئلة إيصال الثواب المجمع عليه فى أهل السنة والجماعة وتذكر الأحاديث عن الأولاد والوالدين فقط بين يدى عوام الناس لإضلالهم وتترك وتتغافل وتتعامى عن الأحاديث الصحيحة عن غير الأولاد والأبوين فى هذه المسئلة وهذا من دأبكم يا أتباع ابن تيمية أنكم أنتم تذكرون بما يلائم مواقفكم بين يدى عوام الناس وتعرضون عما لايلائم مواقفكم، وعوام الناس لايعرفون فهم يضلّون بسببكم وعليهم أن يتبعوا أهل السنة والجماعة، لكن منهم الذين يتبعونكم وأنتم تضلونهم فيضلون. اتركوا هذا السبيل! لأنهُ إلى النار وأتوا والحقوا من أهل السنة والجماعة وهم أصحاب المذاهب الأربعة من الأشاعرة والماتريدية المتمسكون بالكتاب والسنة وهما ما عليه الرسول عليه الصلوات والسلام وأصحابهٔ رضوان الله تعالىٰ عليهم أجمعين.

وهذا الحديث عن الأضاحي يدل علىٰ جواز إيصال الثواب للأحياء أيضًا؛ لأن أمّة الرسول عليه الصلوات والسلام تشمل الأحياء والأموات وكذٰلك كلامه "عمّن لم يضحّ من أمّتي." يشمل الأحياء الذين لم يضحّوا من أجل الفقر فإيصال الثواب جائز للأحيآء والأموت من المسلمين وهو عقيدة أهل السنة والجماعة. ولو تسأل أن هٰذه كلها فى العبادات من التطوع فهل يجوز إيصال الثواب للعبادات الواجبة كالصلوات الخمس فقلنا بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز: إنهٔ لم نطّلع علىٰ أي النص يجوّزه وأيضًا المسلم يحتاج إلى ثواب عباداته نفسه أيضًا للنجاة فى الآخرة فلازم عليه أن يحتفظ بثواب العبادات الواجبة وكذٰلك حظ المعتدّبه من العبادات النفلية ثم بعد ذٰلك يوصل الثواب للعبادات النافلة إلى الآخرين وفى القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾(التحريم:٦) فقدّم الله عزوجل ذكر أنفسهم قبل ذكر أهلهم فعليه أن يحتفظ بالعبادات الواجبة يعنى لثوابها والحظ الوافر من العبادات النافلة ثم يعمل إيصال الثواب نفعاً للآخرين. والله أعلم ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

ثم الشيخ رحمه الله تعالىٰ يقول: والله تعالىٰ يستجيب الدعوات ويقضى الحاجات: ومعناه ظاهر معلوم لايحتاج إلى الشرح. وهو معلوم من الدين ضرورة والمسلمون كلهم يعرفون أن الله تعالىٰ سميع الدعآء والمستجيب لهٔ وهو الوحيد الذى يدعىٰ إليه بالدعاء وقد فصلنا فى ذكر التوحيد فى بداية الكتاب. والله عزوجل يقول ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر:٦٠) وقدجآء فى شرحه الحديث "إن الدعآء هو العبادة." (سنن ابن ماجة، ح:٣٨٢٨) وهذا الحصر للمبالغة وفى الحديث الآخر "الدعاء مخ العبادة." (سنن

الترمذي، ح:٣٣٧١) يعنى الدعاء الذى هو العبادة؛ لأنهٔ مخها وجوهرها وأساسها؛ لأن الدعاء فى الحقيقة يدل على الحقائق من اعتراف العبد عبوديته وعجزه وخوفه ورجائه وتضرعه وخشوعه وأنهٔ يعترف أنهٔ لاشيء فى الحقيقة وأنهٔ محتاج فى وجوده وبقائه وفى كل شيء إلى من هو ربّه تعالىٰ الخالق البارئ المصور القادر القاهر المقتدر السميع البصير الرحمٰن الرحيم وهٰذا فقط نبذة من دلالة الدعاء علىٰ أعظم الحقائق وهو فى الحقيقة أساس العبادة كلها كأنهٔ هو العبادة؛ لأن جميع العبادات مبنية على الحقائق التى تشتمل عليهاالدعاء فى الجملة. وفى الحديث "يستجاب الدعاء للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم مالم يستعجل." قيل يارسول اللّٰه! ماالاستعجال؟ قال يقول: قد دعوت، وقد دعوت، فلم أريستجيب لى،فيستحسر عند ذٰلک، ويدع الدعاء." (صحيح ابن حبان، ح:٩٧٦) . وفى الحديث "إن ربكم حيى كريم، يستحيى من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صِفرا." (سنن أبى داود، ح:١٤٨٨)

ومعنى الاستحياء فى حق اللّٰه عزوجل ليس علىٰ معنى كما فى حق المخلوق وكيف؟ وهو ليس كمثله شيء وهو السميع البصير وهو المتعالىٰ عن الانفعال والتأثر والأعراض والحوادث وأيضًا هو الذى قدّر على العبد الداعى أن يدعوا وهو الذى يخلق فعل دعاء العبد وهو الذى قدّر أنهٔ يقبل هٰذا الدعاء أم لا يقبل فكل شيء فى الحقيقة من عنده تعالىٰ وهو عليم مريد به فكيف يتأثر وينفعل من الأشياء التى فى الحقيقة من عنده تعالىٰ قدرا وخلقا وعلما هٰذا لايقول إلا جاهل ملحد بصفات اللّٰه تعالىٰ المشبّه فى ذات اللّٰه تعالىٰ وصفاتہٖ بذوات المخلوقين وصفاتہٖ، بل معنى الاستحياء كما يليق بشأنہٖ تعالىٰ المتعالى عن الانفعال والتأثر والأعراض الحادثة أنهٔ لايرد دعاء العبد كمالايرد المستحيى إذا سئل من أجل الحياء فاللّٰه عزوجل لايرددعاء العبد بفضله ورحمتہٖ تعالىٰ وليس من أجل الانفعال والتأثر كائنا فى صورة الحياء أو غيره؛ لأنهٔ لو ينفعل من العوارض فى صورة الحياء أو غيره لايكون هو اللّٰه ونعوذ باللّٰه؛ لأن اللّٰه تعالىٰ هو القادر المطلق الإلٰه الواحد القهار الفعّال لما يريد لايؤثر عليه شيء كان فى صورة الحياء أو غيره، فافهم هٰذا الكلام ولاتكن من الذين يلحدون فى أسماء اللّٰه وصفاتہٖ من أتباع ابن تيمية أو غيرهم ويصفونه بالنقائص التى لاتليق بہٖ تعالىٰ وسبحان اللّٰه عمّا يصفون ويزعمون أنهم يتبعون السلف الصالح ويصفونه تعالىٰ بما وصف نفسه تعالىٰ ورسولهٔ صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم، وهٰذا افتراء على اللّٰه عزوجل ورسوله صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم ولم يصف اللّٰه عزوجل نفسه تعالىٰ ولا رسولهٔ صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم بالنقائص التى لاتليق بالإلٰه الواحد الحق والتى تناقض بصفاتہٖ تعالىٰ العليا من القدرة المطلقة والعلم المطلق والإرادة المطلقة وأنهٔ لاحجر عليه ولا منع وأنهٔ يفعل ما يفعل بدون الأثر الخارجىّ، فافهم هٰذا الكلام وهدانى وهداک اللّٰه عزوجل امين.

فإن قيل : فما للداعى قد يدعوا فلايُجاب؟ فالجواب بتوفيق اللّٰه تعالىٰ إن شاء اللّٰه العزيز

أوّلا أن هذه الآية ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر:٦٠) مطلق يقيّده هذه الآية ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام:٤٠-٤١) وإن قلتم إن هاتين الآيتين فى المشركين ونحن لانتكلم عنهم، بل نحن نتكلم عن المسلم الموفى لشروط قبول الدعاء [1] ، لكن مع ذلك لايحصل على ما يدعوا له فقلنا بتوفيق الله إن شاء الله العزيز: إنهٔ قد جآء فى الحديث أن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم سأل الله عزوجل لثلاث خصال فأعطاه ثنتين ومنعه واحدة سأل الله عزوجل الا يهلكنا بما أهلك به الأمم فأعطاه وسأل ربه عزوجل الا يظهر علينا عدوا من غيرنا فأعطاه وسأل ربّه عزوجل ألا يلبسنا شيعا فمنعه." (صحيح ابن حبان، ح:٧٢٣٦)

فهٰذا الحديث يدل على أن الاستثناء فى استجابة الدعاء يشمل المشركين والمسلمين؛ لأن الرسول عليه الصلوات والسلام أعظم المسلمين وأوفاهم لشروط قبول الدعاء ومنع له هذا الدعآء بعينه. ثانيا: أن لقبول الدعآء شروط : التضرع، والخوف. ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (الأعراف:٥٥) فثبتم اعتداء فى الدعاء أيضًا من شروط القبول فلايدعوا للأشياء المستحيلة نعوذ بالله عقلا أو شرعا وكذٰلك عدم اعتداء فى الأعمال فى الجملة أيضًا من شروط قبول الدعاء فيجتنب من الذنوب والمعاصى، وكذٰلك الرجاء والمداومة كما ذكرنا من الحديث فى عدم الاستعجال فى الدعاء وكذٰلك أكل الحلال وقد جآء فى الحديث "الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمدّ يديه إلى السماء يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذٰلك ." (صحيح مسلم، ح:١٠١٥) وكذٰلك من شروط قبول الدعآء ألا يدعو لأشياء محرّمة ونعوذ بالله كما ذكرنا من الحديث "ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ." (صحيح مسلم، ح:٢٧٣٥)

وكذٰلك بالإيمان واليقين أن الله عزوجل هو القادر المطلق وكل شيء فى قدرته ومسخر بتسخيره وقبول دعائه أسهل من سهل لربه تعالى وهٰذا كلهٔ معلوم من ضرورات الدين وكذٰلك عدم الإعراض عن الدعاء، بل يدعوه تعالى دائما ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر:٦٠) وأيضًا الإعراض عن الدعاء استكبارا واستغناءً ا كفر بواح وكذٰلك حضور القلب والنيّة وفى الحديث "ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لايستجيب الدعاء من قلب غافل لاه." (سنن الترمذي، ح: ٣٤٧٩) وكذٰلك العزم فى المسئلة وفى الحديث "إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة ولايقولنّ اللّٰهم إن شئت فأعطنى ، فإنهٔ لامستكره له ."

(١) ستأتى بيانها قريبا.

(صحيح البخاري، ح:٦٣٣٨) ؛ لأن المؤمن ينبغي له أن يدعوا ويجتهد في الدعاء بالاضطرار والالحاح [1] والتضرع وبالرجاء ولايقل "إن شئت "لأن الله يفعل ما يشاء لامحالة وانه لا مستكره له فلا يبقى إلا أن الداعي يشير نوعا من الاستغناء فيقول"إن شئت " كقول القائل: إن شئت أن تعطيني كذا فافعل وإلا لاحاجة لي به، وهذا لايجوز مع الله عزوجل ﴿وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ (محمد:٣٨) فليعزم المسئلة وكذلك كما هو يريد من الله ان يجيب دعوته فعليه أن يفعل ما أمره الله ويجتنب مما نهاه عنه ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة:١٨٦) فمعنى "فليستجيبوا لي" يعني فليجيبوا إليّ فيما دعوتهم إليه من الإيمان، أي الطاعة والعمل.

فهذه في الجملة شروط في قبول الدعاء ونحن نعرف أن الرسول عليه الصلوات والسلام هو أكمل الناس في إيفاء هذه الشروط ، لكن مع هذا لايعطى عين ما سأل في واحدٍ من دعائه؛ لأن في الحديث "ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث إمّا أن يعجل له دعوته وإمّا أن يدّخر له [2] وإمّا أن يكف عنه من السوء بمثلها قالوا: إذن نكثر قال . "الله أكثر." (المستدرك للحاكم، ح:١٨١٦) فعلمنا أن الإجابة للدعاء تكون بمعنى الأشياء الثلاثة المذكورة فالرسول عليه الصلوات والسلام لم يعط ما سأل بعينه في واحد من دعائه ، لكن دعائه هذا مقبول لامحالة في واحد من الصورتين الأخريين. فحاصل الكلام أن الدعاء مع وجود شروط القبول مقبول ومستجاب كما في الآية ﴿أُدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(غافر:٦٠) ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾(البقرة:١٨٦)

والأحاديث "لايزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل." (صحيح مسلم: ح:٢٧٣٥) "من فتح له في الدعاء فتحت له أبواب الإجابة." (المستدرك للحاكم، ح:١٨٣٣) "ادعوا الله وأنتم موقنون با لإجابة." (سنن الترمذي، ح: ٣٤٧٩) ، لكن الإجابة في صورة إحدى الثلاث المذكورة في الحديث الذي ذكرناه قريبا. وأما الأيتان اللتان ذكرنا من سورة الأنعام ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾(الأنعام: ٤٠-٤١) فأولاً هاتان الأيتان تتكلمان عن المشركين الفاقدين لشروط قبول الدعاء بالكامل.

ثانياً ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ (الأنعام: ٤١) يعلّمنا ما هو معلوم بالضرورة من الدين

---

(١) بالمداومة والقرار (٢) يعني للآخرة

وهو كل شيء تحت مشيئة الله تعالى فقبول الدعاء أيضًا تحتها فلو شاء فيعطي المشرك ما يسأله مع الفقدان لشروط القبول؛ لأن شروط القبول ليست حاكمة على الله عزوجل البتة ونعوذ بالله هذا لايليق بالله عزوجل وهو معلوم من ضرورات الدين فهو يعطي الكافر إن شاء ما يسأله ولا مانع عليه ولاحجر وكذلك لو لايعطي المسلم الموفي لشروط القبول فلا مانع عليه ولا حجر ولاتبعة؛ لأنه يفعل ما يشاء ويحكم مايريد ،لكن هو أخبرنا عن مشيئته فى الدعاء بواسطة القرآن وسنة نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم أنهٗ يستجيب دعاء العبد الذى يوفي الشروط لقبول الدعاء فى صورة إحدى الثلاث المذكورة فى الحديث وهو الصادق فى قوله ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (النساء:٨٧) ، لكن هذا كلهٗ بمشيئته المطلقة وليس بسبب الضغطة الخارجية؛ لأنهٗ الواحد القهار الكبير المتعال. ثم لو تسأل أن الآية ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَآءَ﴾ (الأنعام: ٤١) يدل على إعطاء هم ما يسألون مع أنهم كفار فهل يجوز أن يقال: يستجاب دعاء الكافر؟ فالجواب بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز أن العلماء قد اختلفوا فى هذه المسئلة أوّلا! هذه الآية ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَآءَ﴾ (الأنعام: ٤١) لاتتكلم عن الاستجابة مباشرة ظاهرة، بل الآية تقول لو الله عزوجل شاء فيكشف ما يدعون إليه فممكن أن يقال هو ليس من باب الاستجابة، بل هذا ما شاء الله أن يفعل ففعل. ولايتعلق هذا باستجابة دعاء هم وهناك آيات أخرى ﴿فَلَمَّا [1] تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٩-١٩٠) ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (يونس: ٢٢-٢٣) ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ٦٥-٦٦) ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ (لقمن: ٣٢) وقولهٗ تعالى حكاية عن إبليس ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ (الحجر: ٣٦-٣٨)

ولأجل هذه الآيات جوّزوا بعض المشائخ رحمهم الله تعالى القول "يستجاب دعاء الكافر" وفيه نظر؛ لأن ماهى حكاية عن إبليس وقولهٗ تعالى لهٗ ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (الحجر: ٣٧) ليس إجابة

(١) هذه الآية راجع إلى جنس الآدميين والبيان عن حال المشركين من ذريّة آدم عليه السلام. فقولهٗ تعالى جعلالهٗ شركاء: يعني الذكر والأنثى الكافرين ويعنى به الجنسين ودل على هذا قولهٗ تعالى فتعالى الله عما يشركون. ولم يقل يشركان ،فلا تغتر بالتفاسير الأخرى مملوءة بالخرافات والمحالات الشرعية

بما سال ودعا له؛ لأنهٔ دعاء للإنظار إلى يوم البعث والله عزوجل أنظره إلى النفخة الأولى وهو الوقت المعلوم فلم يعط بما دعا له، وأما الآيات الأخرى فلا تتكلم بالصراحة أن النجاة من عند الله تعالى وكذلك إيتاء الذريّة الصالحة كانت استجابة لدعاء هم فكما الآية من سورة الأنعام تقول ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُوْنَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُوْنَ إِلَيْهِ إِنْ شَآءَ﴾ (الأنعام: ٤١) أنهٔ يكشف بما تدعون إليه إن شاء ويعنى إن شاء لايكشف بدون ذكر الاستجابة على الإطلاق، ففى هذه الآيات النجاة وإيتاء الذريّة الصالحة قد يقال عنها أنها ما شاء الله لهم بدون استجابة لدعاء هم [1]. ولو نسلّم أنهٔ استجابة لدعاء هم، لكن لم يذكر الله عزوجل ولم يصرّح كما ذكر فى هذه الآيات لعباده الأحياء عليهم الصلوات والسلام، ففى القرآن ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُوْنَ﴾ (الصافات: ٧٥) ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ (الأنبياء: ٧٦) ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِيْنَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ (الأنبياء: ٨٣) ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِيْنَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ (الأنبياء: ٨٩) فصرّح الاستجابة لهم ولم يصرّح فى الآيات التى ذكرنا عن الكفار فكيف نحن نصرّح لهم بها وإن قيل إن الآيتان ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة: ١٨٦) ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُوْنِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦٠) على الإطلاق فما وجه إخراج الكافر منهما؟ قلنا بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز أوّلا ما يحملك على قولك أنهما على الإطلاق والآية الأولى تقول: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُوْنَ﴾ (البقرة: ١٨٦) والكافر هو غير المستجيب لربّه فى الإيمان والطاعة فكيف يكون مشمولا بما قبلهٔ فى الآية ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾؟ والآية الأخرى تقول ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُوْنِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِيْنَ يَسْتَكْبِرُوْنَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُوْنَ جَهَنَّمَ دَاخِرِيْنَ﴾ (غافر: ٦٠) والكافر المستكبر عن عبادة الله عزوجل كيف يكون مشمولا بما قبلهٔ فى الآية ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُوْنِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦٠)؟ ثانيا: الآيتان تقولان ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة: ١٨٦) يعنى "إذا دعان" و ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُوْنِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦٠) يعنى "ادعونى" والكافر فى الحقيقة لايدعو الله عزوجل؛ لأنهٔ لايعرفه ولو أقرّ به، لكن بسبب وصفه بما لايليق به أو كفر برسله أو بشيء ما مما أنزلها عليهم تكون معرفته به تعالى ناقصا؛ لأنهٔ مثلاً إذا لايؤمن برسالة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم مع الزعم أنهٔ يؤمن بالله فهو يؤمن بالإله فى زعمه الذى محمد ليس رسولهٔ والله ليس هو؛ لأنهٔ هو الذى محمد صلى الله تعالى عليه

(١) والمعلوم أن استجابة الدعاء أيضًا تحت مشيئة الله تعالى يعنى أراد الله لهذا العبد أن يدعوه فيستجيب دعائه، لكن لو أراد الله للعبد الكافر أن يدعو الدعاء وأراد أيضًا أن يعطيه عين ما يدعو لهٔ هذا الكافر، لكن ليست استجابة لدعائه، بل مطلقا من عنده تعالى وهذه النقطة التى نحن نذكر الأن

وسلم رسولهُ فنقص إيمانه بالله أيضًا ، فإذا يدعو الله فهو فى الحقيقة لايدعوه ولهذا النفى عن أهل الكتاب إيمان بالله ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (التوبة:٢٩) بسبب ما ذكرنا ، فإذا الكافر لايدعو الله فى الحقيقة. فانتفى آليًا من الآيتين اللتين نحن فى بيانهما والحمد لله رب العالمين.

فالأن لو تسأل اذكر لنا الدلائل التى بسببها أنتم تمنعون من القول: "يستجاب دعاء الكافر." فنقول بتوفيق اللّٰه تعالىٰ إن شاء الله العزيز أوّلا: هذا القول يدل علىٰ نوع من الكرامة والكافر لايستحقها فى صورة ما البتة ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (المنافقون:٨) ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ (التوبة:٢) ونحن نرىٰ فى الآيات التى ذكرنا عن الكفار أن الله عزوجل لم يكرمه فيقول إنهُ استجاب دعائه كما أكرم الأنبياء عليهم الصلوات والسلام والمؤمنين فى الجملة والمعلوم أن ليس معنى الإكرام الإكرام على الله ونعوذ بالله ، لأنه لا تكون المقارنة بين الخالق والمخلوق البتة ، بل الإكرام علىٰ غيرهم من المخلوقين فالمؤمن يُكرم باستجابة الدعاء علىٰ غيره والكافر ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ (التوبة:٢) ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (الحج:٩)

ثانيا: كما ذكرنا أن الكافر لايدعو الله فى الحقيقة والله هو الذى المستجيب للدعاء فكيف يقال: إنهُ يستجاب دعاء الكافر وهم لم يدعو اللّٰه .

ثالثا: وفى القرآن عن سيدنا يونس عليه السلام ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنبياء:٨٨) فذكر تعالىٰ المؤمنين دون الكافرين فخصهم تعالىٰ بالنجاة من حيث استجابة للدعاء دون الكافرين وإذا ذكر الله تعالىٰ إنجاء الكافرين إلى البر لم يذكر تعالىٰ استجابة قط فعلمنا أنهم غير مستحقون بذكر الاستجابة.

رابعا: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (الشورى:٢٥) فخص الله عزوجل الذين امنوا وعملوا الصالحات بالاستجابة وأما الكافرون فلهم عذاب شديد.

خامسا: لقوله تعالىٰ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (المؤمن:٥٠-٥١) فأخبرنا اللّٰه عزوجل أن دعاء هم فى ضلال يعنى فى ضياع وأما قيل إنهُ مخصوص بالآخرة فتحكم بلا دليل قاطع.

وهذه الدلائل القويّة على المسلك الصحيح وهو عدم جواز القول: أن الكافر يستجاب

دعائه وهو مسلك الجمهور.

وإن قيل إن فى الآية ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت:٦٥-٦٦) فذكر ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ يدل على استجابة دعاء هم وثم كفرانهم بهذه النعمة بسبب الشرك بالله وحدهٗ. قلنا بتوفيق الله تعالٰى: إنهٗ يدل على كفران النعمة والكافر أيضًا يتمتع بآلآء الله عزوجل كما فى قوله تعالٰى حكاية عن قول سيدنا نوح عليه السلام لقومه الكفار ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف:٦٩) وكذلك قوله تعالٰى ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النحل:١٨) على العموم وهو الملعون مع تمتعهٖ بنعم الله التى يكفر بها فالنجاة إلى البرّ من نعمة الله تعالٰى لامحالة، لٰكن هل كانت نعمة مطلقة من الله تعالٰى إلى هؤلاء الكفار كمثل النعم الكثيرة الأخرى أم كانت استجابة لدعاء هم فذكر هذا فى الآية غير مصرّح بهٖ كما ذكرناه سابقا. وأما الحديث "اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافرا، فإنهٗ ليس دونها حجاب." (مسند أحمد، ح: ١٢٥٤٩) فالجمهور المانعون لجواز القول باستجابة دعاء الكافر حملوا هذا الحديث أن كافرا فى الحديث هو المؤمن الفاسق القاصر فى شكر النعم يعنى هم حملوا هذا الحديث أن كافرا هنا هو المؤمن العاصى؛ لأن المؤمن العاصى يكفر بنعم الله بسبب معاصيه، لكن لايكفر بها كما الكافر الحقيقي يكفر بها بسبب أنهٗ (المؤمن العاصى) يؤمن بالله تعالٰى ويسلم لهٗ ويقبل دينه الإسلام ويؤمن بهٖ، لٰكن مع ذٰلك يخوض فى المعصية، لكن لايستحلها ولايستخفها فكفره بنعم الله دون كفر الكافر الحقيقي ولذٰلك لايزول عنه اسم الإيمان ولايكون مخلدا فى النار فى الآخرة فعلٰى هٰذا التأويل لايكون الحديث مستدلًا لجواز القول باستجابة دعاء الكافر وعلٰى وجه التسليم أن الحديث يتكلم عن الكافر الحقيقي فممكن أن يقال: إن غاية الحديث ذكر شناعة وقباحة الظلم والتأكيد الشديد علٰى وجوب الاجتناب منه فيقول إن دعاء المظلوم ليس دونه حجاب فاتقوا منه وإن كان هذا المظلوم كافرا؛ لأن ولو كان الكافر غير مستجاب فى دعائه، لكن من حيث أنهٗ مظلوم فالله تبارك وتعالٰى الذى حرّم الظلم سينصره ضد ظلم الظالم مع كون هٰذا الكافر ليس لهٗ كرامة عند الله تعالٰى قدر جناح بعوضة، لكن الله عزوجل لايحب الظلم والظالمين.

فحاصل الكلام أنهٗ لايجوز القول باستجابة دعاء الكافر كما هو مسلك الجمهور كما نحن شرحناه تفصيلا بالدلائل من القرآن والقرآن قطعي فيناسب تأويل خبر الواحد [1] كما أوّلنا انفا وهٰذا هو مسلك صحيح بلاشك إن شاء الله العزيز والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم. فالأن لو

(١) المعارض للدلائل التى ذكرناها من القرآن

تسال استطرادا عن الآية ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة:١٨٦) التى ذكرناها فى بيان السابق، فلو تسال عن معنى ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ فى الآية مع المعلوم أن الله تعالى هو المتنزه عن الزمان والمكان فقلنا بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز: إن هذه الآية هي أيضًا من أجلّة الأدلة على ابن تيمية وأتباعه وغيرهم من أشباههم الذين يصفون الله بالمكان، وتعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا. وبيانه أن فى هذه الآية بيان سؤال عباد ربّهم تعالى عن ربّهم تعالى والجواب من ربهم تعالى إليهم، فقد جآء فى تفسير هذه الآية سبب نزولها أنهٔ سئل عن الله عزوجل أين هو؟ وفى رواية أخرى هل قريب هو فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ وكان السائلون عن هذا السؤال من الأعراب كما فى واحد من الرواية الذين لم يتحققوا ولم يستخدموا عقولهم إلى المبلغ ولم يتدبروا ولم يدققوا حتى يعرفوا من أنفسهم أن الله تعالى لايتمكن فى مكان ولايجرى عليه زمان فرفعوا هذا السؤال إلى النبي الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم للبيان وهو النبي عليه السلام ولايليق لأي بشر آخر أن يُسئل عن الله تعالى ونبى الله صلى الله تعالى عليه وسلم موجود فيهم فاستفسروه عليه السلام حتى يكون إيمانهم بربهم تعالى على الوجه الصحيح المصيب فما ذا قال الله عزوجل؟ ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ فنحن نسأل الأن أتباع ابن تيمية أنهٔ سئل عن الله عزوجل أين هو؟ والجواب "فإنى قريب" أى إنه قريب، فلما ذا لم يكن جوابا كما أنتم تجيبون من يسألكم "أين الله" "أنهٔ على العرش بذاته وعلى غير العرش بصفاته فقط"؟ فما ذا الجواب عندكم لسؤالنا، فممكن الأن أنتم تذكرون الحديث أن النبي الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم سأل الجارية "أين الله" فقالت "فى السماء" ثم قال صلى الله تعالى عليه وسلم "من أنا" قالت: "أنت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم" فقال صلى الله تعالى عليه وسلم "أعتقها فإنها مؤمنة." (صحيح مسلم، ح:٥٣٧) فقلنا بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز: إن الحديث على رأس أعيننا، لكن هذا ليس بجواب لما سألناكم وقد مرّ شرح هذا الحديث ولاحاجة لإعادة وفى الاختصار معنى الحديث هو وصف الله بالعلو والارتفاع وليس علوّه وارتفاعه فى معنى التحيز فى الجهة والارتفاع الجسميّ تعالى الله عن ذلك، بل هو علوّه وعظمته كما يليق بشأنهٔ وهذا هو ملخّص فى شرح الحديث وقد مر تحقيقه بالتفصيل ثم ينبغى أن يذكر أن القصة فى الحديث، قد جاء ت قصتان أخريان اللتان تشبهانها، ففى أبوداؤد عن جارية سوداء نوبية سألها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم "من ربّك" فقالت: الله، قال: "من أنا" قالت: "رسول الله" فقال صلى الله تعالى عليه وسلم "أعتقها فإنها مؤمنة." (سنن أبى داود، ح:٣٢٨٣) وفى الحديث الآخر عن جارية سوداء قال لها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم "اين الله" فاشارت إلى السماء باصبعها، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم لها "فمن أنا" فأشارت إلى النبي صلى الله تعالى

عليه وسلم وإلى السماء، يعنى أنت رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم. فقال صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "أعتقها فإنها مؤمنة." (سنن أبى داود، ح: ٣٢٨٤) فكان كل واحد من هٰذه الأحاديث الثلاثة يتكلم عن القصة غير القصتين الأخريين ورسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم كان يحب التيسير ولا التعسير، "يسّروا ولا تعسّروا." (صحيح مسلم، ح: ١٧٣٤) ففى كل واحد من هٰذه القصص رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم يتثبت إيمان الجارية بطريقة بسيطة سهلة، ففى واحد منها يسأل "من ربّك" و"من أنا" وفى الأخريين يسأل "أين اللّٰه" و"من أنا" فقالت فى واحدة "فى السماء" وفى أخرىٰ أشارت إلى السماء ورسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم الميسّر يقبل منها الأجوبة البسيطة ويشهد عن إيمانها فى كل واحدة من هٰذه القصص فكما يقبل منها "فى السماء" فى القصة يقبل منها إشارة إلى السماء فى الأخرىٰ والمعلوم أن فى الكرّة الأرضية الإشارة إلى السماء مختلفة الجهات، ففى جزيرة العرب تكون إشارتها إلى السماء فى جهة مختلفة بالتمام من إشارة من فى ناحية أخرىٰ من الكرة الأرضية حتىٰ تكون جهة الفوق بنسبة هٰذه تكون جهة السفل بنسبة هٰذه وبالعكس كذا، لٰكن مع هٰذا الإشارة إلى السماء تقبل من كلتيهما فى تحقق إيمانهما لما ذا؟ لو كانت الإشارة إلى السماء علىٰ الوجه الحسّية فهٰذهِ تؤدى إلى كون الله فى جميع الجهات بنسبة الكرّة الأرضية؛ لأن لو كل واحد من جميع الأماكن من الكرّة الأرضية يشير إلى السماء فتكون هٰذه الإشارات إلى جميع الجهات المحيطة بالكرّة الأرضية ويؤدى كون الله فى جميع الجهات المحيطة بالكرّة الأرضية والأرض فى اللّٰه وتعالىٰ الله عمّا يقول الظالمون علوّا كبيرا، هٰذا قول كفر بواح يؤدى إلى كونُ المخلوق فى الخالق ويؤدى إلى جسميّة الخالق وهي نظرية من أسوء القبح والبطلان والمعلوم أن اللّٰه تعالىٰ ليس بجسم ولاهو فى غيره ولاغيره فيه وأيضًا لايوصف بالداخل والخارج حتىٰ يقال عنه بكلمة "فيه"، بل هو الأحد الذى لايتجزأ وهو الصمد الذى لاجوف لهٗ كما هو فى التفسير. فالأن لو تسأل فما هي الحكمة والسبب أن الإشارة إلى السماء، بغض النظر أين المشير من الأماكن فى الكرّة الأرضية ،تقبل عنه فى تحقق إيمانه فقلنا بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز: إننا قد علمنا أنهاليست إشارة حسية تتعلق بالجهات كما بيّناها أنفا فما بقي إلا أنها إشارة إلى علوّه تعالىٰ وعظمته وكبريائه وقهاريّته وجبروته وملكوته وأن جميع الأشياء تحته في قدرته وهي لاتتعلق بالجهات الحسيّة، بل تتعلق بصفاته العليا التى لاحاجة لها بالجهات ولا تتعلق بها ولأن الأماكن والجهات مخلوقة والله عزوجل كان متصفا بالعلوّ والعظمة قبل خلق الأماكن والجهات وهو تعالىٰ وتنزه عن أن يكون فى الأماكن والجهات وخلق الله الجهات والأمكنة والأزمنة وكان هو قبلها دونها وهو الأن دونها إلى أبد الأبدين.

فبعد شرح الحديث الذى ذكرتم ،نقول :يا أتباع ابن تيمية أنعم لم تجيبوا بما نسألكم عن الآية فممكن تقولون الأن أن الله قريب بعلمه فنحن نقول هذا تأويل ومن اين لكم هذا التأويل وأنتم تشدّدون على الظواهر هل عندكم حديث صحيح أن الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم أوّل الآية هكذا أو عندكم أقوال الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم بالأسانيد الصحيحة أنهم أوّلوا هكذا . فمن أين لكم أن تزيدوا من أنفسكم "بعلمه" وكذٰلك من اين لكم أن تزيدوا "بذاته" فى الآية ﴿الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوٰى﴾ (طٰه:٥) من أين لكم أن تزيدوا هٰذه الأشياء بدون الحديث الصحيح أو الآثار الصحيحة وأنتم تهجمون الآخرين الذين يؤوّلون فى مجال الأسماء والصفات وأنتم تفعلون نفس الشيء وهل هٰذا إلا نفاق بيّن؟ ففى الحقيقة ليس عندكم جواب وأنتم تريدون الفرار بدون الإقرار فنحن نبيّن لكم الأن إن شاء الله العزيز بتوفيق الله تعالىٰ أن الله تعالىٰ كما متصف بالعلوّ والعظمة كما يعلّمنا القرآن والسنة، وذكرنا الأحاديث التى تتكلم عنه فأيضًا يعلّمنا القرآن والسنة أنّهٗ قريب فكماهو متصف بالعلوّ فكذٰلك متصف بالقربة. ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلٰكِنْ لَّا تُبْصِرُوْنَ﴾ (الواقعة:٨٥) ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيْدِ﴾ (ق:١٦) ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيْبٌ﴾ (البقرة:١٨٦) وكذٰلك يعلمنا أنهٗ علىٰ كل شيء شهيد ﴿وَاللّٰهُ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيْدٌ﴾ (البروج:٩) وهو قريب فى علوّه، عليّ فى دنوّه، فهو فوق العرش، بل فوق كل شيء بفوقية لاتزيده قربا من العرش ولابُعدا من الأرض وهو أقرب إلينا من حبل الوريد وهو علىٰ كل شيء شهيد. ؛ لأن علوّه ليس علوّا يتعلق بالجهات والأماكن ولاقربه يتعلق بالمسافة والفواصل ولا شهادته تتعلق بالمماسة والتواصل، بل تعالىٰ وتنزه عن هٰذه الصفات الجسميّة؛ لأنهٗ ليس كمثلهٖ شيء وهو السميع البصير.

وكما فى الحديث جآء فى تفسير الآية ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ﴾ (الحديد:٣) "والذى نفس محمد بيدهٖ لو أنكم دليتم حبلا إلى الأرض السفلى لهبط على الله." (سنن الترمذي: ح:٣٢٩٨) ، وفى حديث آخر "أنت الأوّل فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن ليس دونك شيء." (صحيح مسلم، ح:٢٧١٣) . وفى حديث "أنهٗ فوق العرش" رواه أبوداؤد(ح:٢٦٤٧) . فهو فوق العرش استوىٰ ومع ذٰلك لو دلى حبل إلى الأرض السفلىٰ (الأرض السابعة) لهبط عليه تعالىٰ وهو الظاهر الذى ليس فوقه شيء ومع ذٰلك هو الباطن الذى ليس دونه (تحته شيء) وهو عليّ فى دنوّهٖ قريب فى علوّهٖ وفوقيته لاتتعلق بالجهات والأماكن ولا قربه يتعلق بها فهو فوق العرش استوىٰ ومع ذٰلك يحيط بكل شيء والأقرب من حبل الوريد وعلىٰ كل شيء شهيد وكما إحاطته ليس كإحاطة الغرفة بسكانها وكذٰلك فوقيته ليس كفوقية السقف بنسبة فرشه، بل هو ليس كمثلهٖ شيء وهو السميع البصير

وهو الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن لهٗ كفوا أحدا. والحمد للّٰه رب العالمين.

المتن:

ويملك كل شيء ولايملكه شيء. ولاغنىٰ عن اللّٰه تعالىٰ طرفة عين.
ومن زعم أنهٗ استغنى عن اللّٰه طرفة عين فقد كفر وصار من أهل الحين.

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه اللّٰه تعالىٰ الأن يعيد مرّة أخرى جملةً ما فصّل عليها سابقا من باب القدر. وهٰذا آخر الكلام فى باب القدر فى هٰذا الكتاب "العقيدة الطحاوية" فيذكر خلاصة الأمور ولبابها ويضرب ضربة شديدة يدمغ الباطل من أساسهٖ ونحن فصلّنا وبيّنا كل ما ذكر الأن تفصيلا فلاحاجة لإعادة إلا أننا أيضًا نلخص لباب أمور القدر وأساسهٗ بيانا وشرحا لما قال الشيخ الأن رحمه اللّٰه تعالىٰ فيقول الشيخ رحمه اللّٰه تعالىٰ أن اللّٰه تعالىٰ هو يملك كل شيء ولايملكه شيء وهٰذا من ضرورات الدين لايحتاج إلى أي شرح. وعلاقته من باب القدر هو أن اللّٰه تعالىٰ دائما مالك على الإطلاق لكل شيء ولاملك لأي واحد غيره تعالىٰ فلايملك الإنسان على الأقوال والأفعال بتاتا ردًا على القدرية الملاحدة، بل اللّٰه هو الذى يخلق الأقوال والأفعال للإنسان ويملكها ويملك عليها وقد مرّ بيان هٰذا بالتفصيل ولايملكه شيء وعلاقته من باب القدر هو العبد لايملك على اللّٰه شيئًا، بل كل شيء بقدر اللّٰه تعالىٰ وإرادته وعلمه فما شاء اللّٰه كان ومالم يشأ لم يكن ،فالعبد لايمكنه أن يفعل غيرما أراد اللّٰه تعالىٰ ردًا على القدرية الملاحدة، بل كل شيء خيرا كان أو شرا بإرادة اللّٰه تعالىٰ ، لٰكن هو يحب ويرضىٰ بالخير ويكره ويغضب على الشر ، لكن كل بإرادة اللّٰه تعالىٰ فالعبد لايملك على اللّٰه أن يخرج مما أراد اللّٰه وقدّرها التى تحوى جميع الممكنات وقد مرّ بيان هٰذا بالتفصيل.

ثم الشيخ رحمه اللّٰه تعالىٰ يقول إنهٗ لاغنى عن اللّٰه تعالىٰ طرفة عين. وفيه ردّ بليغ على القدرية الملاحدة وعلىٰ أتباع ابن تيمية وبيانه قد مرّ فى بيان الاستطاعة بالتفصيل وما قلناه هناك يقوله الشيخ رحمه اللّٰه تعالىٰ هنا فيقول ردًا على القدرية الملاحدة وعلىٰ أتباع ابن تيمية الملاحدة فى باب القدر وغيره من القضايا أن العبد لايستطيع أن يوجد الأفعال بنفسهٖ استقلالا عن اللّٰه تعالىٰ. القدرية يعتقدون أن اللّٰه تعالىٰ يعطى الاستطاعة إلى العبد والعبد يستخدم هٰذه الاستطاعة لإيجاد الفعل من نفسه استقلالا واستغناء عن اللّٰه تعالىٰ وعلىٰ هٰذا المعنى يعتبرون العبد موجد أفعالٍ نفسه وأتباع ابن تيمية فهم يقولون نفس الشيء (وإن هم لا يستخدمون الكلمات "استقلالا واستغناء عن

اللّه تعالىٰ" لكن المفهوم منهم نفس الشيء، والله أعلم)، لكن يستترون ويخدعون الناس في رداء المصطلاحات فيقولون إن الله تعالىٰ يعطي الاستطاعة إلى العبد والعبد يستخدم هذه الاستطاعة لإيجاد الفعل (قدرة عليه و تأثيرا)، لكن لأن إيجاد الفعل باستطاعة التي قد أعطاها الله تعالىٰ إياه فعلى هذا يُعتبر أن الله تعالىٰ موجد أفعال العبد وليس العبد نفسه وهذا كما لايخفى خداع بحت ومحاولة إلحاق بأهل السنة والجماعة في باب القدر وبيان كل هذا قدمرّ.

فالشيخ رحمه الله تعالىٰ يقول إنهٗ لاغنى عن الله تعالىٰ طرفة عين وهو محال عقلاً وشرعاً. فالعبد لايستطيع في زمان ما أن يوجد شيئًا ويستحيل للعبد أن يستغني عن الله تعالىٰ فهو مع صفاته دائماً محتاج إلى اللّه تعالىٰ في وجوده وبقائه فكيف لهٗ أن يستغني عنه ويستقل في الأمور كما يزعمون القدرية وأتباع ابن تيمية ،فأهل السنة والجماعة يعتقدون ويعلمون أن العبد دائما محتاج إلى ربّه الكريم فلا وجود لهٗ ولا بقاء إلا باستمرار هبة الوجود لهٗ والبقاء من عند ربّه الكريم فلا إمكان لهٗ عقلا وشرعا أن يستقلّ في إيجاد أفعاله ، بل لما يعزم على الفعل (وعزمه وإرادته أيضًا مخلوقان لله تعالىٰ) الله عزوجل يخلق الفعل فيه بقدرته المطلقة ولا استطاعة للعبد في الحقيقة وبيان كل هذا قد مرّ والحمد لله رب العالمين.

ثم الشيخ رحمه الله يقول إن من زعم أنهٗ استغنى عن الله طرفة عين فقد كفروصار من أهل الحين. وهذا كما هو البيّن رد شديد على القدرية الملاحدة وعلى أتباع ابن تيمية فقال الشيخ أن القائلون أن العبد يستقل في إيجاد أفعاله ويستغني عن الله عزوجل حينئذ كما يزعمون القدرية و أتباع ابن تيمية أن العبد بعد الحصول على الاستطاعة من عند الله تعالىٰ يستغني عنه ويستخدم هذه الاستطاعة استقلالا في إيجاد أفعاله، فهؤلاء الناس كفروا وصاروا من أهل الحين ومعنى الحين "الهلاكة" فهم هالكون ووجه كفرهم لايخفى على المسلم لأنهم إذا يعتبرون العبد مستغنيا عن الله تعالىٰ ولو بطرفة عين، فلايخفى أنهٗ كفر بواح وفي القرآن ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (فاطر: ٤١) فكل واحد في العالم يحتاج إلى الربّ تعالىٰ في وجوده وبقائه دائما مستمرا ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ (محمد: ٣٨) فالله هو الغني وأما غير اللّه فهو محتاج إليه دائما مستمرا وهذا من ضرورات الدين وهذا لايحتاج إلى بيان الدليل. المسلمون كلهم يعرفون أن الخلق دائما مستمرا فقراء إلى الله تعالىٰ وهذا يزعم أنهٗ يستغنى عنه في إيجاد أفعاله وأيضًا من ضرورات الدين أن الله خالق كل شيء ، ففي القرآن ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (الفرقان: ٢)

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ١٧) ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ (الأعراف: ٥٤)

﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ (فاطر: ٣) وهو الله تعالى المنفرد بخلق كل شيء فلايد لغيره فيه. . ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ (سبا: ٢٢) ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ (الكهف: ٥١) وفي تفسير الآية "لم أشاورهم في خلق السموات والأرض ولاخلق أنفسهم، بل خلقتهم على ما أردت" وهذا صحيح ، لكن تفسير الآية هكذا فيه بُعد؛ لأن معنى الإشهاد هو ليست المشاورة، بل الإشهاد هو الإحضار للمعاينة فقد يكون المعنى أنهم لم يكونوا موجودين حين خلق السموات والأرض وكذلك لم يكونوا فاهمين معاينين عند خلق أنفسهم في الرحم وهذا معلوم؛ لأن العبد لايعرف كيف كان خلقه فيه وكذلك بعد أن خلقهم الله تعالى ،الله عزوجل لم يُشهدهم فيما قد أزليا علم وأراد وتعلّق تكوينه بها [1] من جميع الممكنات، بل هو يخلق ويكوّن على علمه وإرادته وتكوينه الأزلية وصفاتهُ أزلية أبدية لاتغير فيها ولا تبدّل ولا نقص ولازيادة؛ لأنها من النقائص لاتليق برب العلمين فلا استشارة ولا استفسار ولا استعانة ولا تغير البتة ، بل يوجد كل شيء في زمان الذي أراده الله تعالى لإيجاده أن يوجد فيه بدون التأخير بخلقهِ وقدرتهِ وإرادتهِ وعلمه الأزلية فلاحاجة للإشهاد ، ففي التفسير الذي ذكرنا يذكر المشاورة وهي ليست بعينها الإشهاد ، لكن الإشهاد يكون لحاجة ما وهي معدومة في حق الله تعالى ، فمعنى التفسير يعنى لم يشهدهم لكى يستشير منهم أو أي شيء آخر، بل كان الأمر مقضيا محتمّا من عند الله تعالى أزليا خلقا وتكوينا، والمخلوقات المكوّنات توجد فتوجد حسب هذا الخلق والتكوين ، وآخر الآية ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ (الكهف: ٥١) قلنا: إن الله تعالى لايستعين بأي شيء، و هنا خص المضلين بالذكر ذما و توبيخا والمعلوم أنه ليس له عضدا من المضلين ولا من الصلحين ،كلاا بل الاستعانه في حقه محال، بل هو الذى الفاعل الحقيقي خلقا وتكوينا لكل شيء ، فإذا لايحتاج إلى أي شيء ، فلماذا يكون الإشهاد؟ ثم الخلق منه تعالى حتما مقضيا فلا إشهاد وبعد خلقهم أيضًا لا إشهاد؛ لأن ما هو المحتم المقضي من عندهِ تعالى أزليا خلقا وتكوينا ، فلا تغير فيه ، فلأي شيء يكون الإشهاد؟ فلا إشهاد البتة ، وأما إعلام رب العالمين لبعض عباده المصطفى عن بعض ما يكوّن في المستقبل فهو إعلام منه تعالى وليس الإشهاد ، وأيضًا هو إعلام منه تعالى لبعض ما يكوّن في المستقبل بتكوينهِ تعالى ، وليس الإشهاد على تكوينهِ تعالى بنفسه الحاصل من الأزل . فتأمل، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

---

(١) يعني من ناحية الصفات الأزلية بدون أن توجد السموات والأرض وغيرها من الأشياء في الأزل، بل توجد هذه الأشياء في الزمان الذي أراده الله تعالى لايجادها أن توجد فيه .

فغاية الكلام هى ما هو من ضرورات الدين أن الله تعالىٰ هو المنفرد بخلق جميع الأشياء الأجسام والأعراض ، والعبد لايستطيع علىٰ أي شيء ، ولا غنى لهُ من الله طرفة عين ، فمن زعم كما يزعمون القدرية الملاحدة و اتباع ابن تيمية أن العبد يستقل فى إيجاد أفعاله فهو يزعم فى الحقيقة استغنائهُ من الله تعالىٰ وهو كفر بواح وإلى الحين والهلاك. والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

المتن:

" والله يغضب ويرضى لا كأحد من الورىٰ. "

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالىٰ الأن يتكلم عن غضب الله ورضائه وتعلق بيان هٰذا بما سبق هو ظاهر؛ لأن لمّا كل شيء بقدر الله تعالىٰ وإرادته وبيان هٰذا فيما سبق فلا تغترّوا بهٰذا؛ لأن ليس معنى أن كل شيء بإرادته أنهُ يرضى بكل شيء أيضًا ، لا! والمعلوم ضرورة من الدين أن الله تعالىٰ لايرضىٰ [1] بالشر ويرضىٰ بالخير. ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ (الزمر:٧) ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (التوبة:١٠٠) بيد أن الخير والشر بقدره تعالىٰ فلا تلازم بين القدر والإرادة والرضاء والغضب ، فتعلق بيان الرضاء والغضب ببيان قدر الله تعالىٰ ظاهر ، لاخفاء فيه.

فالشيخ رحمه الله تعالىٰ يقول: إن الله تعالىٰ يغضب ويرضى لا كأحد من الورىٰ يعني المخلوق ، وفى هٰذا مع ردّ على القدرية الملاحدة فى باب القدر ،فيه أيضًا ردّ على المشبهة المجسّمة من أتباع ابن تيمية وغيرهم ، وكذٰلك فيه ردّ على الجبرية وفيه بيان عقيدة أهل السنة والجماعة فى باب الأسماء والصفات وفى باب القدر ، وتفصيلهُ أن الشيخ رحمه الله تعالىٰ يردّ الاعتراض من جهة القدرية وهو لو أن الله تعالىٰ أراد وقدّر كل شيء خيرا كان أو شراء فهٰذا يؤدى كون الشر مرضيًا عندهُ تعالىٰ؛ لأنهُ من جملة ما أرادها.

فالجواب بتوفيق الله إن شاء الله العزيز أنهُ لا تلازم بين الإرادة والرضاء فى حق الله تعالىٰ فكل شيء بإرادته تعالىٰ ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (النحل:٩٣) ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ (النساء:٧٨) ، لكن هو

---

(١) بل يغضب عليه﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (الفتح:٦)

لايرضى بالشر ويرضى بالخير كما ذكرنا من الدلائل. وإن قيل من جهة القدرية الملاحدة اننا لو نريد شيئًا نحن نرضى به وإلا لا نريده ، فأجاب الشيخ رحمه الله تعالىٰ انهٗ تعالىٰ لايغضب ولايرضى كأحد من الورىٰ فقياس ما فى حق اللّٰه تعالىٰ بما فى حق العبد قياس باطل؛ لأنهٗ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، ففى حق اللّٰه تعالىٰ الإرادة غير الرضاء وبيانه أننا نرضى بالشيء وهو عبارة عن حصول السرور والفرح والاطمئنان بحصول هٰذا الشيء أو على الأقل إزالة الهمّ والإزعاج والتكدّر .

فيعنى إما جلب المنفعة أو دفع المضرة أو كلاهما والمعلوم هٰذه كلها منتفية عن اللّٰه تعالىٰ بالكامل فرضاء ه ليس حصولا على الشيء المقنع، تعالىٰ اللّٰه عن هٰذه الأشياء، لأنها تؤدى إلى كون اللّٰه محتاجاً معاذ اللّٰه ،حاشا للّٰه، وتعالىٰ اللّٰه عمّا يقول الظالمون علوّا كبيرا. فالمعلوم أن رضاء اللّٰه تعالىٰ ليس كرضاء العبد فلايقاس الواحد القهار بالعبد المقهور،بل رضاء ه وغضبه بلا كيفية ورضاء ه يعبّر عن أنهٗ تعالىٰ أمر بهٰذا الشيء ويثيب عليه وغضبه يعبّر عن أنهٗ تعالىٰ نهي عن هٰذا الشيء ويعذب عليه.[1]

فإن قيل: أننا فهمنا أن رضاء اللّٰه تعالىٰ ليس كرضاء الورىٰ ، لكن رضاء اللّٰه تعالىٰ هو بالأمور التى هو أمر بها أن تُفعل ،فكيف يقال: إنهٗ أمر العبد بالشيء ، لكن أراد عليه الآخر فيعنى أمر العبد الكافر بالإيمان ، لٰكن أراد عليه أن يكفر بكسبه؟ فقلنا بتوفيق اللّٰه تعالىٰ إن شاء اللّٰه العزيز: إنهٗ لا تلازم بين الأمر بالشيء وبين إرادته أو عدمها فنحن نرىٰ فى العالم أنهٗ من المحتملات أن الشرطى يأمر شخصا بالشيء ، لكن هو يريد منه غيره حتىٰ يحصل على المخالفة منه فيعتقلهٗ ويضعه فى السجن وغايتنا هي فقط بيان عدم تلازم بين الأمر بالشيء وإرادته أو عدمها وإلا لاتشبّه بين الخالق والمخلوق فاللّٰه عزوجل هو أمر العبد الكافر أن يؤمن وقدّر عليه أنهٗ يكسب الكفر ويكون معذّبا بسببه فى جهنم خالدا مخلدا فيها. وهٰذا بيان ردّ على القدرية الملاحدة.

وأمّارد على المشبهة من أتباع ابن تيمية وغيرهم فهو كما ذكرنا من كلام الشيخ رحمه اللّٰه تعالىٰ أن غضب اللّٰه تعالىٰ ورضاء ه ليس كأحد من الورىٰ. ويا أسفاه علىٰ ابن تيمية وأتباعه المشبّهين أنهم استدلوا بغضب اللّٰه تعالىٰ أنهٗ تقوم به الحوادث ونعوذ باللّٰه ،وتعالىٰ عما يقول الظالمون علوّا كبيرا، فعندهم الغضب والرضاء من الحوادث تقوم باللّٰه تعالىٰ ونعوذ باللّٰه وهٰذا غاية فى التشبيه والشيخ رحمه اللّٰه تعالىٰ يردّهم فالغضب والرضاء للّٰه تعالىٰ صفتان لهٗ عندهم علىٰ كيفية المخلوقين ،ونعوذ باللّٰه ،يعنى العوارض والحوادث تقوم به، تعالىٰ اللّٰه عما يقول الظالمون علوّا كبيرا ونحن قد

---

(١) ثم هناك أمور كثيرة مباحة لايقال عنها أن اللّٰه يثيب عليها ولايقال إنهٗ يعذب عليها فهي فى الجملة لاتتعلق بالغضب والرضاء، بل إنها أمور أباحها اللّٰه فى الجملة وأقرّها للعبد بدون النكير

رددنا على ابن تيمية ردا بليغا مقنعا (والحمد لله) على رد عقيدته في قيام الحوادث بالله تعالى فلاحاجة لإعادته الأن نحن نسأل أتباع ابن تيمية، يا أتباع ابن تيمية! أخبرنا عن العبد الذي يشكر الله تعالى ،مَنِ الذي أراد وقدّر على هذا العبد أن يشكر؟ فلا بد من الجواب أن يكون "الله تعالى" لم نقول اخبرنا عن العبد الذي يكفر بالله (ونعوذبالله) ،مَنِ الذي أراد وقدر على هذا العبد أن يكفر بكسبه؟ فلا بد من الجواب أن يكون "الله تعالى" ،فيا أف لكم يا أتباع ابن تيمية اهل انتم تقولون إن الله تعالى تمرّ عليه التغيرات والعوارض من الرضاء والفرح والغضب بالأشياء التي هي كلها بقدر الله تعالى وإرادته وخلقه وتكوينه ؟ هل أنتم تقولون إنهٔ يغضب على الأشياء التي هو خالقها ومقدّرها نفسه في معنى الانفعال والانزعاج؟ هل أنتم تقولون إنهٔ يرضى بالأشياء التي هو خالقها ومقدّرها نفسه في معنى عرض الفرح [1] والسرور ؟ هل أنتم تقولون إن الأشياء في العالم (وكل شيء غير الله هو العالم) المخلوق يؤثر على الله تعالى فهو يتأثر بها فينفعل وينزعج أو يبتهج ويفرح [2] هل هذا إلا كفر بواح؟

والجواب نعم أنهٔ كفر بواح؛ لأن عقيدة التأثر والانفعال في حق الله تعالى تستلزم مفعوليته ومغلوبيته وهذا نقص عظيم يستلزم كفرا بالله تعالى، وكذلك عقيدة التغيرات القائمة في حق الله تعالى تستلزم نقصا عظيما في حق الله تعالى؛ لأنهٔ إما كان كاملا قبل التغير فتغير من الكمال أو كان ناقصا قبل التغير فاحتاج إلى التغير وكل هذا كفر بالله تعالى، وكذلك حصول على الرضاء والغضب في معنى عرض الفرح [3] والانزعاج يستلزم جلب المنفعة ودفع المضرّة في حق الله تعالى وهو نقص عظيم يستلزم كونه محتاجا مغلوبا وهو كفر بواح. والشيخ رحمة الله تعالى ردّ على المشبهة ردّا بليغا بقوله "لا كالورئ" وابن تيمية وأتباعه من المشبهة، وثم أتباع ابن تيمية في أصناف شتى فتجد بعضهم يشبّهون أكثر من بعض ،والتشبيه في حق الله تعالى كفر به؛ لأنهٔ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وأما رد على الجبرية القائلين أن العبد مجبور محض ولا خيار لهٔ على الإطلاق فردّ عليه الشيخ رحمه الله تعالى أن الله تعالى يرضى بالخير من العبد ويغضب على الشر من العبد فعلمنا أن العبد له الكسب للخير وللشر وإلا فما معنى الرضى به على الخير والغضب عليه على الشر؟ ؛ لأن لما ليس له الخيار على الإطلاق فهو كمثل الجماد لافرق بينه وبينه وهل يقال: إن الله تعالى يرضى بالجماد على شيء أو يغضب عليه على شيء؟ والمعلوم أن الجواب هو لا! ، لكن يقال هذا في حق

---

(١) يعنى في معنى العوارض والحوادث

(٢) أي في معنى العوارض والحوادث

(٣) أي في معنى العوارض والحوادث

الإنسان فعلمنا أن قول الجبرية أنه لاخيار للانسان، بل هو كمثل الجماد قول باطل، بل للإنسان وللجن خيار ثابت وبه يكسبون الخير والشر وخياره وكسبه بمشيئة الله تعالى ، لكن بهذا لاينعدم خياره وكسبه بالكلية وقد بينا كل هذا سابقا فلا حاجة للإعادة.

فحاصل الكلام أن الشيخ رحمه الله تعالى يرد بقوله على القدرية الملاحدة والمشبهة الزنادقة والجبرية الزائغة ويقرر أن الله تعالى يغضب ويرضى ، لكن ليس على كيفية العباد وهي محالة في حقه تعالى ولأن الله تعالى هو الذى الفاعل الحقيقي لجميع الأشياء خلقا وتكوينا وتدبيرا وتقديرا وإيجادًا وإبقاء فكيف يقال عنه أنهُ يغضب في معنى الانفعال أو يرضى في معنى السرور والابتهاج على ما هو فاعله الحقيقي، وأيضًا هذه الأشياء كلها محتاجة إليه تعالى في إيجادها وإبقاء ها وليس لله منفعة فيها ولا إزالة الضرر بسببها وأيضًا هو على الكمال على الإطلاق أزليا أبديا فلايحتاج إلى ما يُكملهُ وكل هذا[1] نقص في حقه تعالى وهو كفر بواح وقد بيّنا كلهُ والحمد لله رب العالمين .

المتن :

ونحب أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولانفرط في حبّ أحد منهم، ولانتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان.

الشرح:

الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى الأن يدخل في مجال الصحابة رضي الله تعالى عنهم ولايخفى على مسلم أن موضوع الصحابة رضي الله تعالى عنهم من أجلّة المواضيع في أصول الدين ويكفيهم أنهم حوامل الشريعة وذرائع بيننا وبين سيّدنا ورسولنا صلى الله تعالى عليه وسلم ،فالهجوم عليهم في الحقيقة هجوم على شريعة الإسلام فلا عجب أن لهم مكانة عالية وحظ وافر في باب العقيدة الإسلامية وأصولها وأيضًا قد ذكروا في القرآن والأحاديث ذكرا وافرا قاطعا، فالنصوص القاطعة تحملهم على الفضيلة والدرجة الرفيعة التى ليست لغيرهم من أمّة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، بل من سائر أمم الأنبياء عليهم الصلوات والسلام، فاعتبارهم فرض واحترامهم لازم لا بد منه وأيضًا أن الرسول عليه الصلوات والسلام أخبرنا عن الفرقة الناجية أنها على ما هو عليه وأصحابهُ رضي الله تعالى عنهم أجمعين. فمن العلامات الكبرى للفرق الضالّة أنهم على غيرما عليه الصحابة

---

(١) يعني الاحتياج وجلب المنفعة ودفع المضرة والتغير وقيام العوارض به تعالى والعاطفة والتأثر والانفعال وغيرها من سمات الحدوث

رضي الله تعالىٰ عنهم فهم لايعتبرونهم فإمّا يهجمون عليهم باللسان ونعوذبالله كالرافضة الكفرة أو إما لايتبعونهم ولايعتبرونهم حجة فى الشريعة ويزدرون برتبهم كالفرق الضالّة الكثيرة ومنهم أتباع ابن تيمية وأهل الظاهر المزدرون برتب الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم وغير معتبرى أفعالهم حجة. فحاصل الكلام أن الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم لهم مكانة معتبرة فى شريعة الإسلام والازدراء برتبهم فى صورة ما إلى الضلال والطغيان وقد يكون كفرا نظرا إلى صورة الازدراء. والنصوص فيه كثيرة وسنذكر منها إن شاء الله العزيز قريبا.

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالىٰ يقول إننا نحبّ أصحاب رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وفى الحديث "أكرموا أصحابى فإنهم خياركم." "الله الله فى أصحابى لا تتخذوهم غرضا (هدفا لكلامكم) من بعدى، فمن احبّهم فبحبى احبّهم، ومن ابغضهم فببغضى أبغضهم، ومن اذاهم فقد اذانى، ومن اذانى فقد اذى الله تعالىٰ، ومن اذى الله تعالىٰ فيوشك أن يأخذه." (سنن الترمذي، ح: ٣٨٦٢) و "إذا ذكر أصحابى فأمسكوا." (تاريخ دمشق، ح: ١٠٤٨٣) "أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم." (جامع بيان العلم، ح: ١٦٨٤) "لاتسبوا أحدا من أصحابى فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولانصيفه." (صحيح مسلم، ح: ٢٥٤١) "إن الله اختار أصحابى على الثقلين سوى النبيين والمرسلين." (مجمع الزوائد، ح: ١٦٣٨٣) . وقال ابن عمر رضي الله تعالىٰ عنه "ولا تسبوا أصحاب محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فلمقام أحدهم ساعة يعنى مع النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم خير من عمل أحدكم أربعين سنة." (فضائل صحابة للإمام أحمد، ح: ٢٠)

وهٰذه نبذة من الأحاديث فى فضيلة الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم ولايخفى أنها يوجب علينا موالاتهم ومحبتهم وحبّ من هو مقبول عند الله تعالىٰ من الواجبات الضرورية فى الدين وأيضًا فى القرآن ﴿وَالسَّابِقُوْنَ الْأَوَّلُوْنَ مِنَ الْمُهَاجِرِيْنَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِيْنَ اتَّبَعُوْهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمْ وَرَضُوْا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِيْنَ فِيْهَا أَبَداً ذٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيْمُ﴾ (التوبة: ١٠٠) ﴿وَالَّذِيْنَ آمَنُوْا وَهَاجَرُوْا وَجَاهَدُوْا فِيْ سَبِيْلِ اللّٰهِ وَالَّذِيْنَ آوَوا وَنَصَرُوْا أُولٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُوْنَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيْمٌ﴾ (الأنفال: ٧٤) ﴿لا يَسْتَوِى مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِيْنَ أَنْفَقُوْا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوْا وَكُلًّا وَّعَدَ اللّٰهُ الْحُسْنٰى﴾ (الحديد: ١٠) ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللّٰهُ عَنِ الْمُؤْمِنِيْنَ إِذْ يُبَايِعُوْنَكَ تَحْتَ[1] الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِيْ قُلُوْبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِيْنَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيْبًا﴾ (الفتح: ١٨)

(١) إشارة إلى بيعة الرضوان فى واقعة الحديبية عند ما ذهبوا الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم مع أصحابهم رضي الله عنهم للعمرة فمنعوهم المشركون من مكة وحُبس عثمان رضي الله تعالىٰ عنه قاصد رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فى مكة فبايع رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم أصحابهٗ رضي الله تعالىٰ عنهم على الجهادأنهم لايفرّون حينما جاءه خبر غير صحيح أن الكفار قد قتلوا عثمان رضي الله تعالىٰ عنه ـ

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر:٨-٩) ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح:٢٩) وأيضا أن القرآن جعل إيمانهم مقياسا معتبرا لإيمان الآخرين فقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ (أى للمنافقين) آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ (يعنى الصحابة رضي الله تعالى عنهم) قَالُوا (يعنى المنافقون) أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ (يعنى المنافقون) هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:١٣) وأيضا ﴿فَإِنْ آمَنُوا (يعنى أهل الكتاب) بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ (يعنى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه رضي الله تعالى عنهم) فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ (البقرة:١٣٧) وأيضا ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التحريم:٨)

والصحابة رضي الله تعالى عنهم وهم الذين رأوا النبي صلى الله تعالى عليهم وسلم أو راهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على حالة إيمانهم بالإسلام وثم ماتوا على الإسلام وهذا هو ما عليه أهل الحديث والفقهاء ويدل عليه قولهٗ تعالى ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ (الفتح:٢٩) (يعنى بالإيمان وهذا بديهى) وهذهٖ معية بالإيمان مطلقة طالت أم لا وكذلك ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ (التحريم:٨) وهذهٖ معيّة بالإيمان مطلقة طالت أم لا وكذلك ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾(التوبة:١٠٠) فشمل السابقين وغيرهم الذين اتبعوهم وكذلك ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ [1] وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ (الحديد:١٠) فوعد الله الحسنىٰ مع الذين أنفقوا وقاتلوا قبل الفتح (يعنى فتح مكة) وكذلك من فعل هذا بعد الفتح وكذلك الحديث "يأتى على الناس زمان يغزوا فئام من الناس فيقال لهم، فيكم من رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيقولون: نعم، فيفتح لهم إلى الآخر." (صحيح مسلم، ح:٢٥٣٢) فشمل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كل من راٰه من المؤمنين وجعلهم قرناواحدا كما فى الحديث الآخر "خير أمّتى القرن الذى بعثت فيهم ثم الذين يلونهم." (سنن أبى داود، ح:٤٦٥٧) ولايخفى هذا يشمل كل من آمن بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وراٰه عليه السلام وهم قرن واحد وخير أمّة محمد صلى الله تعالى

(١) يعنى فتح مكة

عليه وسلم . وهذه كلها تدل على ما عليه الفقهاء والمحدثين من تعريف الصحابة رضي الله عنهم الذى ذكرناه وأيضًا ما ذكرنا من النصوص القاطعة تدل أن الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم هم المؤمنون حقًا وأهل الجنة والموعود بالحسنىٰ والمعيار للإيمان والحق وهم الصادقون الصالحون يبتغون فضلا من الله ورضوانا وقد رضي الله عنهم ورضوا عنه ومن حمل عليهم فهو يؤذى الله وهو المجاز أنهٔ يفعل ما نهاه الله عنه (والله هو المتعال عن أن يؤذى فى الحقيقة) ويؤذى النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم، فلو أعلم الله نبيّه عليه السلام به يتاذى من هذا؛ لأن أصحابهم رضي الله تعالىٰ عنهم من أحباء ه عليه الصلوات والسلام وفى الجملة حمل على الصحابة رضي الله عنهم يعنى معاذ اللّٰه تفسيقهم أو تبديعهم أو تكفيرهم وكذٰلك سبّ عليهم وشتمهم وإهانتهم كل هذا كما قال الشيخ رحمه اللّٰه تعالىٰ كفر وضلال وطغيان وهذا ظاهر لاخفاء فيه بعد اطلاع النصوص عنهم فالنصوص القاطعة تدل علىٰ إيمانهم وتقواهم وصداقتهم وصلاحتهم ورضوان الله عليهم فنيل من أعراضهم المباركة يستلزم إنكار هٰذه النصوص القاطعة وإنكار النص القطعي ولو واحدا كفربواح وعلى العكس حبّهم واحترامهم وإكرامهم وموالاتهم دين وإيمان وإحسان وهذا أيضًا ظاهر لأنها تستلزم إيمان بالنصوص القاطعة عن ذكرهم وحبّ من أحبهم الله تعالىٰ ورسولهٔ صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ورضى عنهم ،وامتثال أمرهما عن إكرام الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم إيمان ودين وإحسان.

ثم ما ذكرنا من الدلائل تدل علىٰ أفضلية جميع الصحابة رضي الله عنهم علىٰ من بعدهم وهذا هو مسلک أهل السنة والجماعة إجماعيًا ومن شذ عن هذا فهو شذ عن الحق فى المسئلة كابن عبدالبرّ ونحن إن شاء الله العزيز نذكر هٰذه المسئلة بالتفصيل ورداً بليغا عليه إن شاء الله العزيز.

ونحن ذكرنا الدلائل فى فضيلة الصحابة رضي الله عنهم التى جملة ليس لأحد من المؤمنين الذين أتوا بعدهم وهذه النصوص جملة تدل علىٰ أفضليتهم علىٰ من بعدهم من المؤمنين فالأن نرى ما استدل به ابن عبدالبرّ القائل أنهٔ قد يكون فيمن يأتى بعد الصحابة أفضل ممن كان فى جملة الصحابة رضي الله عنهم واستدلّ بالأحاديث "طوبىٰ لمن رأنى وآمن بى وطوبىٰ سبع مرّات لمن لم يرنى وآمن بى." (صحيح ابن حبان، ح: ٧٢٣٢) "أتدرون أي الخلق أفضل إيمانا، قلنا: الملائكة قال[1] "وحق لهم، بل غيرهم " قلنا: "الأنبياء" قال "وحق لهم، بل غيرهم" ثم قال رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "أفضل الخلق إيماناقوم فى أصلاب الرجال يؤمنون بى ولم يرونى يجدون ورقا فيعملون بما فيها فهم أفضل الخلق إيمانا ".(مسند أبى يعلى ، ح: ١٦٠)

وعن أبى جمعة "قلنا: يارسول الله هل أحد خير منا قال نعم قوم يجيئون من بعدكم فيجدون

(١) أى رسول الله صلى الله عليه وسلم

كتابا بين لوحين فيؤمنون بما فيه ويؤمنون بى ولم يرونى." (مسند أبى يعلى، ح: ١٥٥٩) والحديث "إن امامكم أياما الصابر فيها على دينه كالقابض على الجمر للعامل فيها أجر خمسين رجلا يعمل مثل عمله' قيل يارسول الله: منهم قال، بل منكم." (سنن الترمذي، ح: ٢٢٦٠) (البدع لابن وضاح١٩٢) والحديث "أمّتى كالمطر لايدرى أوّلهٗ خير أم آخره ." (سنن الترمذي، ح: ٢٨٦٩) والحديث "خير الناس من طال عمره وحسن عملهٗ وشر الناس من طال عمره وساء عمله ." (سنن الترمذى، ح: ٢٣٣٠)

وهٰذه الدلائل جملة التى ذكرها ابن عبدالبرّ فى تأييد قوله وينبغى أن يلاحظ أنهٗ لايقول عن أفضلية غير الصحابة من امّة محمد صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم على السابقين الأوّلين من الصحابة رضي اللّٰه تعالٰى عنهم فهو يقرر أن أهل البدر والأحد وبيعة الرضوان أفضل ممن بعدهم على الإطلاق ، لٰكن هو يقول إنهٗ يمكن أن يكون غير الصحابي أفضل من الصحابة الذين ليسوا من أهل البدر والأحد وبيعة الرضوان والدلائل التى هو يستدلّ بها فى زعمه قد ذكرناها، فالأن نأتى الاستدلال تحت الفحص والتحقيق والاستخبار. وفى الحقيقة استدلالهٗ باطل فى غاية البطلان، بل عجبا وأسفا عليه أنهٗ استدلّ بالدلائل لاتداعم موقفه فى صورةما ،فالأحاديث الثلاثة الأولٰى التى ذكرناها من دلائله لو كانت علٰى معنى أفضلية إيمان من لم يرى النبي صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم فامن به ،لكان هٰذا المؤمن أفضل إيمانا من السابقين الأوّلين من الصحابة رضي اللّٰه عنهم وهٰذا باطل بالإجماع، بل لكان أفضل إيمانا من جملة الملائكة والمعلوم [1] أن رسل الملائكة أفضل منهم؛ لأن اللّٰه تعالٰى اصطفاهم من الملائكة لتبليغ رسالته والقول إن هٰذا المؤمن أفضل من رسل الملائكة كفر وضلا ل وأيضًا لكان هٰذا المؤمن أفضل إيمانا من الأنبياء عليهم الصلوات والسلام وهٰذا كفر بواح.

فكيف يستدل بهٰذه الأحاديث على الأفضلية؟ لأن هٰذا الاستدلال يؤدى إلى كفر وضلال، بل غاية هٰذه الأحاديث لو صحّت هى بيان فضيلة إيمانهم وليست الأفضلية أن هٰؤلاء الناس الذين سيأتون بعدا و يؤمنون به ليسوا شيئا صغيرا، بل مع أنهم ليسوا كمثل الأنبياء عليهم الصلوات والسلام؛ لأن غير النبي لايساوى النبي البتة فى صورة ما ولا كمثل الصحابة رضي اللّٰه عنهم؛ لأن لهم أفضلية الصحبة ، لكن لهم فضيلة أخرى والصحابة مع أنهم أفضل لايشاركونهم فى هٰذه الفضيلة الجزئية وهو إيمانهم بدون رؤية النبي صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم ومشاهدة أنواره وبركاته علٰى وجه الكل فمن هٰذا الحيث لهم المزية التى ليست للصحابة رضي اللّٰه عنهم ، لكن هٰذه فضيلة جزئية وليست أفضلية على الإطلاق وإلا كما نرىٰ يؤدى إلى النتائج الكفرية والضلالية.

---

(١) رسل البشر أفضل من رسل الملائكة ورسل الملائكة أفضل من عامّة المؤمنين وعامّة المؤمنين أفضل من عامّة الملائكة.

وأما الحديث الرابع فهٰذا الحديث أيضًا لو أخذ علىٰ معنى الأفضلية سيؤدى إلى أن الصابر علىٰ دين الإسلام فى هٰذه الأيام الشديدة أفضل من أبى بكر وعمر رضي الله عنهما لأنهما أيضًا من جملة الصحابة رضي اللّٰه عنهم وتحديد الجملة "بل منكم" علىٰ غير أهل البدر والأحد وبيعة الرضوان سيكون تحكمًا بلادليل وجميع هٰذا الفساديستلزمه لو أخذ هٰذا الحديث علىٰ معنى الأفضلية، وهٰذا الفساد هو باطل بالإجماع فلايجوز أن يكون معنى هٰذا الحديث على الأفضلية، بل يؤوّل الحديث حتىٰ يوافق القواعد الشرعية المسلّمة المجمع عليها فقد يكون معنى الحديث أن الصابر العامل فى الأيام الشديدة على دين الإسلام لهٗ أجر خمسين رجلا من الصحابة رضي اللّٰه عنهم يعمل مثل عمل العامل لو كان خمسون من الصحابة مع تقواهم وخشيتهم وتشبثهم بسنن النبي الكريم صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم فى أعمالهم يعمل مثل عمل العامل ، فيكون أجر هٰذا العامل الصابر علىٰ دينه فى الأيام الشديدة كمثل أجر هٰؤلاء الخمسين فهٰذا باعتبار التقوى والخشية والتمسك بالسنن ، لكن بدون اعتبار صحبة بالنبي الكريم صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم التى بسببها كل واحد من هٰؤلاء الخمسين أفضل بأضعاف من هٰذا العامل الصابر علىٰ دينه على الأيام الشديدة. واللّٰه أعلم.

ونحن أوّلنا هٰذا الحديث ،لو صحّ، علىٰ هٰذا التأويل الاحتمالى وقد تكون هناك التأويلات الأخرىٰ والغاية هي موافقة معنى الحديث بالقواعد المسلّمة فى شريعة الإسلام. فعلىٰ هٰذا التأويل لا مسّ علىٰ أفضلية الصحبة بالنبي الكريم صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم علىٰ من ليس هٰذه لهٗ والكلام هو فيها وبسببها تكون أعمالهٗ أفضل بأضعاف من أعمال الآخرين من هٰذا العامل وغيره كما فى الحديث "لا تسبوا أحدا من أصحابى فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه ." (صحيح مسلم، ح: ٢٥٤١)

وأما الحديث الخامس "أمّتى كالمطر لايدرى أوّلهٗ خير أم آخره ." (سنن الترمذي، ح: ٢٨٦٩) . فليس علىٰ معنى المساواة بين أوّل قرنها وآخر قرنها؛ لأن علىٰ هٰذا المعنى يكون مخالفا للحديث المشهور "خير أمّتى قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ." (سنن أبى داود، ح:٤٦٥٧) وهٰذا الحديث مشهور معروف ومصرّح أن خير الأمّة هو القرن الأوّل منها. فيؤوّل ذٰلك الحديث ،فقد يكون معناه أن أمّة محمّد صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم لايزال فيها خير موجود إلى قرب الساعة وكما فى الحديث "لاتزال من أمّتى أمّة قائمة بأمر اللّٰه لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتىٰ يأتيهم أمر اللّٰه وهم علىٰ ذٰلك." (مسند بى يعلىٰ ، ح: ٧٣٨٣)

فأى مسلم من أمّة محمد صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم فى أي زمان لها لايجوز لهٗ أن ييأس ويظن أنهٗ أحرم الخير بسبب الزمان والقرن الذى وُلد فيه، بل الخير موجود فى كل قرن من القرون

من أمّة محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم إلى قرب الساعة فمن يريد الخير فيمكنه الحصول عليه فلا عذر ولا يأس. والله أعلم وهٰذا تأويل احتماليّ وقد تكون هناك التأويلات الأخرى والغاية موافقة هٰذا الحديث بالحديث المشهور المعروف وأيضًا بالقواعد المسلّمة في الشريعة وهو أن قرن محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم هو أفضل القرن من حيث الجملة على الإطلاق وبالإجماع حتىٰ عند ابن عبدالبرّ؛ لأن هٰذا القرن يتمتع ويسعد بحضرة النبي الكريم صلى الله تعالىٰ عليه وسلم في الدنيا ونزول الوحي والمعجزات والأنوار والبركات والفيض النبويّة والسابقين الأوّلين من المهاجرين والأنصار وهٰذه كلها يجعلها أفضل القرن على الإطلاق من حيث الجملة وهٰذا لااختلاف فيه ولاخلاف. فحاصل الكلام أن الحديث مؤوّل إلى موافقة النصوص الأخرى وعلىٰ هٰذا لايدل علىٰ ما قال ابن عبدالبرّ عن إمكان الأفضلية لمن بعد الصحابة علىٰ بعض منهم في صورة ما.

وأما الحديث السادس "خير الناس من طال عمره وحسن عملهُ وشر الناس من طال عمره وساء عمله." (سنن الترمذی، ح: ٢٣٣٠) فلو أخذ على الإطلاق سيؤدى إلى النتائج الباطلة؛ لأن علىٰ هٰذا سيدنا نوح عليه السلام يكون أفضلا من سيدنا ونبينا صلى الله تعالىٰ عليه وسلم؛ لأنهُ أطول عمرا بأضعاف كثيرة من نبيّنا ورسولنا صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وكلاهما نبيّان ، لكن المعلوم أن رسولنا صلى الله تعالىٰ عليه وسلم هو أفضل الأنبياء بالإجماع وهٰذا من القواعد المسلّمة في الشريعة، بل يكفرواحد لو يأخذ الحديث على الظاهر المطلقة فيقول لأفضلية غير النبي على النبي عليه السلام بسبب أنهُ أطول عمرا ولبث عمره في الحسنات وهٰذا كفر وكذٰلك المعلوم أن أبابكر رضي الله تعالىٰ عنه أفضل الناس بعد الأنبياء عليهم الصلوات والسلام وهٰذا من القواعد المسلّمة في الشريعة فهل يكون واحد غيره من أمّة محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم خيرا منه؛ لأنهُ أطول عمرا ولبث عمره في الحسنات كلا! فعلمنا بالقطع أن هٰذا الحديث ليس علىٰ ظاهره ولا علىٰ إطلاقه فيؤوّل الحديث حتىٰ لايخالف معناه بالقواعد المسلّمة في الشريعة الإسلامية فنقول إن معنى الحديث قد يكون أنهُ يبيّن أن طول العمر قد يكون سببا للخير الكثير كما قد يكون سببا للشر الكثير.

فالمؤمن ينتهز من عمره مهما كان طولهُ ويدّخر من الخيرات الحسنات للآخرة فعمره لو طال يكون سببا للمزيد من الفيض والنفع الذى هو غير حاصل للمؤمن الذى أيضًا ينتهز من عمره ويدّخر من الحسنات للآخرة ، لكن عمره لم يطل فالأول منهما يدخر أكثر من الآخر بسبب أنهُ أطول عمرا فالموازنة هو بين المؤمنين المتساويين في جميع الأشياء إلا طول العمر وقصره فمن أطول عمرا يستغل من عمره أكثر من الآخر لأنهما متساويان في أشياء أخرىٰ ولو كانا غير متساويان في الأشياء الأخرىٰ فعلىٰ هٰذا تكون الموازنة غير سائغة مثلا في حق سيدنا نوح عليه السلام وسيدنا

ونبينـا ورسـولنـا صـلـى الـلّه عليه وسلم؛ لأن ولو سيدنا نوح عليه السلام أطول عمرا ، لكن لرسولنا وسيـدنـا صـلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم أفضليات كثيرة أخرىٰ التى بسببه هو أفضل الأنبياء كلهم شاملا لنـوح عليـه الـسـلام وكـذٰلک الصحابة رضي اللّٰه تعالىٰ عنهم لهم فضيلة الصحبة وبسببها لو واحد بعـدهـم يتـصـدق مثل أحد ذهبا لايبلغ مدّ احدهم ولا نصيفه، فمن أجل فضيلة الصحبة بالنبي الكريم صـلـى الـلّٰـه تعالىٰ عليه وسلم لايبلغ من بعدهم مقامهم ولو كان أطول عمرا وينتهز من عمره للآخرة؛ لأن الموازنة غير سائغة من أجل الأفضليات الأخرىٰ.

وكذٰلک الكلام فى الشر أن الموازنة تكون بين الناس الذين هم متساويون فى الشر، فواحد أطول عـمـرا مـن الآخـر فيكـسـب شراً أكثر من الآخر فهو أشر منه ، لكن لو الآخر شره أكبر من شر الأوّل مـنهـمـا حتّٰى شـر الآخـر أوزن شـرا من جميع الشرور التى للأوّل منهما كمثل المؤمن الفاجر والـكـافـر، فـلـو كان الكافر يكفر لساعة ويموت عليه والمؤمن الفاجر يكسب شرا كثيرا دون الكفر والـشـرک فـى حيـاتـه الـطـويـلة لايبلغ جميع شروره إلى شر كفر الكافر وهٰذا ظاهر، فالموازنة ليس مطلقة، بل فى الأشياء دون الأشياء فافهم، وهٰذا تأويل احتمالىّ وقد تكون التأويلات أخرىٰ والغاية أن الحديث ليس علىٰ ظاهره ولا علىٰ إطلاقه فاستدلال ابن عبدالبرّ منه لقوله الباطل غير سائغ.

فـحـاصل الكلام أن جميع استدلال ابن عبدالبرّ باطل واهي لامساغ لهٗ وعجبا منه أنهٗ استدل بهـٰذه الأحاديث التى لا تدل علىٰ قوله فى صورة ما. ولو قال ما ذا تقولون فى أهل الكبائر من الصحابة رضـي الـلّٰـه تعالىٰ عنهم هل هم أفضل ممن بعدهم الذين يجتنبون من الكبائر؟ قلنا بتوفيقِ اللّٰه تعالىٰ إن شـاء الـلّٰـه الـعـزيز: إنک لم تخف عذاب اللّٰه عزوجل حينما تطلق لسانک على الصحابة رضي اللّٰه تـعـالىٰ عنهم علىٰ هٰذا المنوال. كيف تتهمهم بالكبائر بدون الدليل؟ [1] هٰذا لايجوز لأي مسلم فضلا عـن الـمـسلمين الصحابة رضي اللّٰه تعالىٰ عنهم الذين يشهد عن إيمانهم وتقواهم القرآن والسنة ،ولو يقول فيهم من حُدّوا بالحدود ،قلنا نعم فحدوا وتابوا والتائب من الذنب كمن لاذنب لهٗ فكيف يكون من أهـل الـكـبـائـر؟ وقد قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم عن الصحابيّة رضي اللّٰه عنها التى حـدّت لـلـزنا "والذى نفسى بيدهٖ لقد تابت توبة لو قسّمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم وهل وجـدت أفضل من أن جادت بنفسها." (صحيح مسلم، ح: ١٦٩٦) وقـال للآخر الذى لم يصرّح بما فـعـل أن الـلّٰـه عفا عنه لصلاته مع النبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم وكذٰلک قال عن الرجل الذى حدّ بـالـرجـم لـلـزنا. لقد تاب توبة لو تابها أهل المدينة لقبل منهم،(سنن الترمذي، ح: ١٤٣٥) وكـذٰلـک قـال لـلـذى حـدّ لـلسرقة" استغفر اللّٰه وتب إليه" فقال الرجل: أستغفر اللّٰه وأتوب إليه فقال صلى اللّٰه

(١) وفى القرآن فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند اللّٰه هم الكذبون

تعالىٰ عليه وسلم "اللّٰهم تب عليه ثلاثا." (سنن أبى داود، ح: ۴۳۸۰) واصرح من هذا هو الرجل كما فى صحيح مسلم حديث صحيح أنهٔ هاجر إلى النبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم، فمرض فجزع فأخذ المشاقص له، فقطع بها براجمه، فشخبت يداه حتىٰ مات، فرأه الصحابي المشهور الطفيل بن عمرو رضي اللّٰه عنه فى منامه، فرأه وهيئته حسنة، وراٰه مغطيا يديه ، فقال له: ما صنع بک ربّک فقال: غفر لى بهجرتى إلى نبيّه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم فقال له: مالى أراک مغطّيا يديک، قال قيل لى: لن[1] نصلح منک ما أفسدت، فقصها الطفيل علىٰ رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم فقال رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم: "اللّٰهم وليديه فاغفر." (صحيح مسلم، ح:١١٦) والمعلوم أن قتل واحد لنفسه من أكبر الكبائر ، لكن غفر لهٔ بسبب هجرته إلى نبي اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم ودعا لهٔ رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم ليديه والحق ﴿إِنَّ الْحَسَنٰتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (هود:١١٤) فكيف أنت تتهمهم بالكون من أهل الكبائر وحسناتهم وتوبتهم وتطبيق الحدود عليهم [2] كلها يزيل عنهم الأثام ويطهرهم تطهيرا وما ذكرنا من الدلائل تدل أن الصحابة رضي اللّٰه عنهم كلهم بريئون من دخول النار وهم أهل الجنة وكيف لا ! وقد وعدهم اللّٰه الحسنىٰ ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِيْنَ أَنْفَقُوْا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوْا وَكُلًّا وَّعَدَ اللّٰهُ الْحُسْنٰى﴾ (الحديد:١٠) وقال فى مكان آخر أن من سبق لهٔ الحسنىٰ يكون بعيدا عن النار ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُوْنَ لَوْ كَانَ هٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوْهَا وَكُلٌّ فِيْهَا خَالِدُوْنَ لَهُمْ فِيْهَا زَفِيْرٌ وَهُمْ فِيْهَا لَا يَسْمَعُوْنَ إِنَّ الَّذِيْنَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنٰى أُولٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُوْنَ لَا يَسْمَعُوْنَ حَسِيْسَهَا وَهُمْ فِيْ مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُوْنَ﴾ (الأنبياء:٩٨-١٠٢) وأيضًا ما ذكرنا من الآية من سورة الحديد تقول إن الصحابة رضي اللّٰه تعالىٰ عنهم الذين أنفقوا وقاتلوا قبل فتح مكة أفضل ممن أنفقوا وقاتلوا بعدهٔ فهٰذا يدل بالقطع أن الذين أنفقوا وقاتلوا من جميع أمّة محمد صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم بعد الفتح لايكونون أفضلا على الإطلاق ممن أنفقوا وقاتلوا قبلهٔ ،ويدل علىٰ أن الصحابة رضي اللّٰه تعالىٰ عنهم كلهم الذين أنفقوا وقاتلوا بعد الفتح أو قبل الفتح موعودون بالحسنىٰ فهم مبعدون من النار . وأيضًا يدل علىٰ أن جميعا من أمّة محمد صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم الذين ينفقون ويقاتلون فى سبيل اللّٰه موعودون بالحسنىٰ؛ لأن زمان بعد الفتح يشمل كلهم فى الجملة واللّٰه أعلم.

وعدم الدخول فى النار للصحابة رضي اللّٰه عنهم قد جاء فى الحديث أيضًا "لاتمس النار مسلما رانى أو راى من رانى." (سنن الترمذي، ح:٣٨٥٨) فالصحابة رضي اللّٰه تعالىٰ عنهم كلهم

(١) اعلم أن كلمة "لن" فى لغة العربية لاتدل على النفى بالتأبيد فلامعنىٰ أن اللّٰه لن يصلح يديه أبدا

(٢) وكذلك دعاء الرسول صلى اللّٰه تعالى عليه وسلم لهم

من أهل الجنة وبريئون من دخول النار .

فحاصل الكلام أن استدلال ابن عبدالبرّ استدلال باطل، هو استدلّ بالدلائل التي لاتدل على موقفه في وجه ما، والنصوص من القرآن والسنة تخبرنا بأفضلية الصحابة رضي الله عنهم في الجملة على من بعدهم مثلاً "خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم يلونهم ." (سنن الترمذي، ح: ٢٢٢١) فالجملة "خير الناس" يعني "أفضل الناس" وسياق هذا الحديث يخبرنا أن المقارنة بين الناس من قرون مختلفة من أمّة محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وأفضلها هو قرن محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وهم الصحابة رضي الله عنهم لامحالة. وكذٰلك القرآن يخبر عن رضوان الله تعالىٰ على السابقين الأوّلين ومن تبعهم بإحسان وهٰذا يشمل جملة الصحابة رضي الله عنهم ، نعم! قد يقال: إنهٗ يشمل كل من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين فيشمل غير الصحابة رضي الله عنهم أيضًا ، لكن جميع الصحابة رضي الله عنهم هم أوّل مصداق هٰذه الآية لامحالة، ثم أجمع الأمة المسلمة أن الصحابة رضي الله عنهم كلهم عدول كما عليه الفقهاء والمحدّثين فهم أفضل أمّة محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم لامحالة وهٰذا مذهب ما عليه أهل السنة والجماعة،

ثم لو قيل إن الحديث "خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ." (سنن الترمذي، ح: ٢٢٢١) يدل على أن التابعين وهم الذين رأوا الصحابة رضي الله عنهم في حالة الإيمان وما توا عليه أفضل أمّة محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ممن بعدهم وأتباع التابعين وهم الذين رأوا التابعين على حالة الإيمان وما توا عليه أفضل أمة محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ممن بعدهم فماذا تقولون في هٰذا؟ قلنا بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز هٰذا ليس مطلقا؛ لأن المعلوم أنهٗ قد جآء ت بعد النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم خصوصا من زمان خلافة عثمان رضي الله عنه فصاعدا فتن كثيرة ذاهبة إلى زمان التابعين وأتباع التابعين ومن بعدهم وفيهم الفساق والفجار والمبتدعة والكفرة فمعنى الحديث ليس مطلقا، بل معناه "خير الناس قرني." يعني الصحابة رضي الله عنهم هم أفضل أمتي "ثم الذين يلونهم "ثم الذين يلونهم اتصالا دينيا وزمانيا فالذين تعلّموا الدين من الصحابة رضي الله عنهم واستنّوا بطريقتهم الهدى فهم أفضل أمّة محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم بعد الصحابة رضي الله عنهم "ثم الذين يلونهم" يعني ثم الذين يلون التابعين اتصالا دينيا زمانيا فتعلموا الدين منهم واستنّوا بطريقتهم الهدى يعني تمسكهم بالقرآن والسنة فهم أفضل أمّة محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم بعد الصحابة والتابعين. وعلى هٰذا يحمل الحديث "لاتمس النار مسلما رأني أو رأى من رأني" يعني الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان من التابعين. والآية ﴿وَالسَّابِقُوْنَ الْأَوَّلُوْنَ مِنَ الْمُهَاجِرِيْنَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِيْنَ اتَّبَعُوْهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمْ وَرَضُوْا عَنْهُ﴾(التوبة: ١٠٠) تدل على تأويلنا ولأنهٗ

ضروری؛ لأن المعلوم من التاريخ ظهور الفسوق والبدعات فی ذٰلک الزمان.

ثم اعلم أن ما حصلت بين الصحابة رضي الله عنهم من المشاجرات والاختلافات فهي علیٰ اختلاف اجتهادهم لما هو الصواب وليس اتباعا للهوی ونعوذ بالله فلايجوز الطعن علیٰ واحد منهم وكلهم كانوا متصفين بالتقویٰ والديانة والأمانة والخشية لله تعالیٰ فما حصل بين سيدنا علي رضي الله عنه وبين عائشة رضي الله عنها وطلحة وزبير رضي الله عنهما فكل علیٰ صدق النية وصالحها وثم القتال فی حرب الجمل بدأ بخداع بعض الناس الفتّانين الذين كانوا فی طائفتين والصحابة رضي الله عنهم بريئون من بداية الحرب من أنفسهم، وهٰذا معروف عند من يطّلع علیٰ تاريخ الإسلام وما حصل بين سيدنا علي رضي الله عنه وبين سيدنا معاوية رضي الله عنه فلا خلاف أن سيدنا علي رضي الله عنه كان على الحق وكان خليفة حقا ومع ذٰلک سيدنا معاوية رضي الله عنه فعل ما فعل علیٰ وجه التأويل والاجتهاد الخاطئ فلايجوز الطعن عليه مع الجزم أنهٗ كان علیٰ غير الصواب فی حربه مع سيدنا علي رضي الله عنه، وقد قال سيدنا علي رضي الله عنه عنهم "إخواننا بغوا علينا" وقد وصف رسول الله صلی الله تعالیٰ عليه وسلم طائفة معاوية رضي الله عنه "الفئة الباغية" كما فی حديث صحيح ومع هٰذا وصفهم بالإسلام لما قال رسول الله صلى الله تعالیٰ عليه وسلم عن سيدنا حسن رضي الله عنه "ابنی هٰذا سيّد ولعلّ الله أن يصلح بهٖ بين فئتين من المسلمين ." (صحيح البخاري، ح:٢٧٠٤) وهٰذهٖ إشارة إلی فئة حسن رضي الله عنه وفئة معاوية رضي الله عنه، وسيدنا حسن رضي الله عنه صالح مع سيدنا معاوية رضي الله عنه وانسحب عن استدعاء الخلافة وصلحه مع معاوية رضي الله تعالیٰ عنه يدل بنفسهٖ أن سيدنا ابن بنت رسول الله صلى الله تعالیٰ عليه وسلم وحبيبنا حسن رضي الله تعالیٰ عنه لم يفسّق معاوية رضي الله عنه، بل اعتبره مسلما صالحا عدولا وإلا كيف ينسحب عن استدعاء الخلافة ويترک لمعاوية رضي الله عنه.

فحاصل الكلام أنهٗ لاخلاف أن معاوية رضي الله عنه وفئته فی خلاف علي رضي الله عنه أمير المؤمنين كانت فئة باغية مخطئة ، لكن لأن هٰذه البغاوة علیٰ وجه الخطأ فی التأويل والاجتهاد فلايجوز تفسيقهم وطعن عليهم مع الجزم أنهم كانوا مخطئين. وما جآء فی بعض الروايات التی تنسب الأعمال القبيحة مثلا إلی معاوية رضي الله عنه وغيره فهٰذه الروايات أوّلا ليست صحيحة ولو صحّ البعض منها فلها محامل وتأويلات ،اعلم أن ما ورد فی مناقب الصحابة رضي الله عنهم فی الجملة فقطعية فلاتقبل الروايات المظنونة فی مقارنتها ، ففی التاريخ روايات صحيحة وسقيمة وغثة وسمينة ولايجوز طعن المسلم العادی علیٰ حسب الظن فضلا عن المسلم الصحابي رضي الله تعالیٰ عنه فلا وجود للروايات القطعية فی نسبة القبح إلی الصحابة رضي الله عنهم إلا ولها تأويل صحيح

مقبول موجود وهٰذا القدر حسبنا وبس.

فلايجوز الطعن علىٰ أي واحد منهم. وقد جآء ت فى مناقب معاوية رضي الله عنه أحاديث بالخصوص ، ففى الحديث "اللّٰهم اجعله هاديا مهديا." (سنن الترمذى، ح: ٣٨٤٢) "اللّٰهم علّم معاوية الحساب والكتاب وقه العذاب ." (مسند البزر، ح: ٤٢٠٢) وقد قال ابن عباس رضي الله عنه عن معاوية رضي الله عنه " فإنهٗ فقيه صحب رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ." (مسند البزر، ح: ٤٢٠٢) وهٰذا فى مسئلة الوتر. وقد جلد عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالىٰ رجلا سبّه رضي الله تعالىٰ عنه، وسئل الإمام الجليل عبدالله بن المبارک رحمه الله : أمعاوية أفضل أم عمر بن عبدالعزيز؟ فقال: غبار فرس معاوية رضي الله تعالىٰ عنه إذا غزا مع رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم أفضل من عمر بن عبدالعزيز.

ثم اعلم أن المسلمون قد أجمعوا أن سيدنا عثمان رضي الله عنه كان خليفة حقّاوقُتل مظلوما وهو شهيد صديق صالح فى الجنة رضي الله تعالىٰ عنه فمن استحل قتلهٗ فهو كلفر بالإجماع ومن قتلهٗ أو شارک فيه بدون الاستحلال فهو فاسق فاجر شديد أشد بالإجماع. وكذٰلک سيدنا علي رضي اللّٰه تعالىٰ عنه كان خليفة حقّافمن قتلهٗ مستحلا فهو كافر بالإجماع ومن شارک فيه بدون الاستحلال فهو فاسق فاجر شديد أشد بالإجماع.[1]

ثم اعلم أن المهاجرين والأنصار رضي الله تعالىٰ عنهم بريئون من فتنة الارتداد ومنع الزكوة بالكلية التى حصل فى زمان أمير المؤمنين خليفة الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم سيدنا أبوبكر رضي اللّٰه تعالىٰ عنه، بل هم الذين قاتلوا ضد هٰذه الفتنة حتىٰ أخمدوها بالكلية وكل بنصرة الله رب العالمين.

ثم اعلم أن الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالىٰ لمّا يقول "ولا نفرط فى حبّ أحد منهم." فهٰذا ردّ بليغ على الرافضة الذين غلوا فى حبّ سيدنا علي رضي الله تعالىٰ عنه حتىٰ بعضهم قالوا بألوهيته وهٰذا كفر بواح كما هو الظاهر أظهر من الشمس وكذٰلک القول بنبوته أو أنهٗ أولى بالنبوة من سيدنا ونبينا صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وهٰذا أيضًا كفر بواح أظهر من الشمس ولايحتاج إلى أي ردّ؛ لأن مردوديته معلومة من ضرورات الدين، نبينا ورسولنا صلى الله تعالىٰ عليه وسلم خاتم

---

(١) وإن قيل: أن سيدنا معاوية رضي الله تعالى عنه والصحابة الأخرى رضي الله تعالى عنهم قاتلوا سيدنا عليًا رضي الله تعالى عنه على وجه التأويل الخاطئ فما بالهم؟ فالجواب بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز أن غايتهم ليست قتل علي رضي الله تعالى عنه ألبتة ومعاذ اللّٰه، بل هم كانوا يريدون قصاص عثمان رضي الله عنه وظنوا صحيحا أو خطأ أن قاتلي عثمان رضي الله عنه خلطوا أنفسهم فى جيش علي رضي الله عنه فغايتهم إياهم

النبيين والرسل وهٰذه معلومة من الدين بالضرورة والله عزوجل لايخطئ فى اصطفاء أنبيائه وأيضًا هو يفعل ما يفعل فيختار لنبوته من يشاء لا اعتراض عليه البتة ومن اعترض عليه وقال: إن الأولٰى أن يجعل غير من اصطفاه نبيا فقد كفر وهٰذا كلهٗ ظاهر لاخفاء فيه فهٰذهٖ كلها إفراط فى حبّه الذى يستلزم كفرا بواحا وهناك إفراط أخرى الذى يستلزم على الأقل بدعة وفسقا وهو القول إن سيدنا علي رضي الله تعالٰى عنه أفضل من أبى بكر وعمر رضي الله تعالٰى عنهما وهٰذا القول مردود وهو بدعة قبيحة وهٰذا بسبب أن تتبع النصوص يستدعى أفضلية أبى بكر وعمر رضي الله عنهما.

وإن شاء الله العزيز نتكلم عن الأفضلية مزيدا قريباً.

فغاية الكلام أننا لانفرط فى حب أحد من الصحابة رضي الله عنهم، بل نضعهم فى المراتب المتعينة لهم فلا إفراط ولا تفريط فنجتنب بالكامل من الكفر والبدعة وكذٰلك لانفرط فى واحد منهم على المنوال يلزم التفريط فى الآخر؛ لأن هٰذهٖ بدعة أيضًا وهو خلاف ما عليه أهل السنة والجماعة؛ لأن الإفراط والتفريط فى أي واحد منهم خروج من النصوص القرآنية والأحاديث ويقتضى إحداث فى الدين وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار.

وقول الشيخ رحمه الله تعالٰى " ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم" وهٰذا ظاهر لايحتاج إلى الشرح لاسيّما بعد ذكر كثير من الدلائل فى فضائلهم وموالاتهم والرسول صلى الله تعالٰى عليه وسلم اعتبر بغضهم بغضاهٗ عليه السلام ونعوذ بالله والقرآن والأحاديث يذكرهم بذكر جميل فمن أساء فى ذكرهم فقد خالف القرآن والسنة وبغضه واجب وكذٰلك نحن مأمور بحب جميع المسلمين ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ (التوبة: ٧١) ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّٰهُ وَرَسُوْلُهٗ وَالَّذِيْنَ اٰمَنُوْا﴾ (المائدة: ٥٥) ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُوْنَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠) والحديث "لاتدخلوا الجنة حتٰى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتٰى تحابّوا، الا أدلكم علٰى شيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم." (صحيح مسلم، ح: ٥٤) . " لا تباغضوا ، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخوانا." (صحيح البخاري، ح: ٦٠٦٥) والصحابة رضي الله عنهم أفضل المسلمين فحبّهم من أشد الوجوب فمن أبغضهم ونعوذ بالله ويذكرهم بالسوء فبغضهم واجب من أشد الوجوب وأيضًا من أبغض الصحابة رضي الله عنهم فقد كفر؛ لأنهٗ ردّ النصوص القطعية التى تذكرهم بالثناء والجمال. وبغض الكافر من أصول الإيمان.

وقول الشيخ رحمه الله تعالٰى " ولا نذكرهم إلا بخير" فبيانه قد مرّ وهو ماذكرنا أن الصحابة رضي الله عنهم لايجوز الطعن عليهم ولوجاء خبر ينسب القبح إليهم فمردود ولوصحّ فيؤوّل وأيضًا

لايؤخذ أخبار الآحاد المبنيّة على الظن من التاريخ ويبنى الطعن بسببها على الصحابي رضي الله عنه؛ لأن ما جاء ت فى فضائلهم فى الجملة فقطعية ولا مقارنة بين الظن والقطع. واختلافهم ومشاجراتهم محمولة علىٰ اختلاف فى الاجتهاد والتأويل فنحن وإن علمنا الخطأ من بعضهم فى الاجتهاد لانطلق ألسنتنا طعنا عليهم، بل نذكرهم بخير مع التخطئة فى الاجتهاد الذى علمنا. والله أعلم ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

ثم اعلم أن الصحابة رضي الله عنهم كما هم افضل امّة محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فهم أيضًا أفضل من الأمم السابقة وفى الحديث رواه الحاتم وابن عدى والخطيب عن أبى هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "ابوبكر وعمر خير الأوّلين والآخرين، وخير أهل السموات، وخير أهل الأرضين إلا النبيين والمرسلين ." (سنن ابن ماجة، ح:٩٥) (يشمل رسل البشر ورسل الملائكة)

وفى القرآن ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران:١١٠) وفى الحديث فى شرح هٰذه الآية "أنتم تتمون سبعين أمّة أنتم خيرها وأكرمها عند الله." (المستدرک للحاكم، ح:٦٩٨٧) وإن قيل إن معنى الآية هو أفضلية الأمّة بجملتها فلايدل علىٰ أفضلية جميع أفرادها علىٰ جميع الأفراد الأمم السابقة وإلا يستلزم أن الفاسق من أمّة محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم أفضل من الصدّيق الصالح من الأمم السابقة وهٰذا باطل ضرورة وبديهيًا وأما الحديث عن أبى بكر وعمر رضي الله عنهما فلايشمل الصحابة الأخرىٰ رضي الله عنهم وهم ليسوا بنفس المستوى مع أبى بكر وعمر رضي الله عنهما حتىٰ يكونوا مشمولا بدلالة الاقتضاء. وأما فضيلة الصحبة فما ذا تقولون عن الذين من الأمم السابقة الذين كانت لهم فضيلة الصحبة مع أنبياء هم عليهم الصلوات والسلام؟ فماذا تقولون مثلاً عن المسلم من الأمم السابقة الذى كان عنده فضيلة الصحبة مع نبيّه عليه السلام؟ بل عنده فضيلة نصرته والجهاد معهٔ والجهد فى الطاعة والحظ الوافر من العبادات الأخرىٰ والاجتناب من الآثام والسيئات والورع والزهد والتقوىٰ، فما ذا تقولون فى مقارنة هٰذا المسلم الصحابي لنبيّه عليه السلام من الأمم السابقة مع الصحابي لنبينا صلى الله تعالىٰ عليه وسلم الذى ليس من السابقين الأوّلين وليس لهٔ حظ من الجهاد والنصرة والزهد والتقوىٰ والعبادات الذى يوازى بحظ هٰذا المسلم من الأمم السابقة ولايقرب منه فمن الأفضل منهما وعند كل واحد منهما فضيلة الصحبة بالنبي من الأنبياء عليهم الصلوات والسلام ؟

فالجواب بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز: لو الكلام عن الفضائل التى ذكرتم من الجهاد



والنصرة للدين والتقوىٰ والورع والزهد فظاهر أن هٰذا المسلم الصحابي لنبي من الأنبياء السابقة عليهم الصلوات والسلام أفضل؛ لأن عنده منها التي ليست عند هٰذا الصحابي من أمة محمد صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم ، لكن الكلام هو ليس من حيث كثرة الأعمال والأفعال، بل من حيث حسن القبول وكثرة الثواب ونحن قد ذكرنا الحديث "لاتسبوا أحدا من أصحابى فإن احدكم لو انفق مثل احد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولانصيفه ." (صحيح مسلم، ح: ٢٥٤١) والمعلوم أن الإنفاق مثل احد ذهبا عمل أكبر بأضعاف من إنفاق المدّ أونصيفه ، لكن للصحابة رضي اللّٰه عنهم حسن القبول بأضعاف حتىٰ مد أحدهم أفضل من مثل أحد ذهبامنا. فغاية الكلام أن الأفضلية هي فضل من اللّٰه تعالىٰ فى الحقيقة كما الرسول صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم أفضل الأنبياء علىٰ الإطلاق مع أن زمان تبليغ رسالته أقل بأضعاف من زمان تبليغ رسالة سيدنا نوح عليه السلام ، لكن لاخلاف أن سيّدنا ونبيّنا صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم أفضل ،فالصحابة رضي اللّٰه عنهم من السابقين الأوّلين وغيرهم أفضل من أصحاب الأنبياء السابقة عليهم الصلوات والسلام بفضل من اللّٰه تعالىٰ مع الجواز أن يكونوا من أصحاب الأنبياء السابقة عليهم الصلوات والسلام الذين عندهم نصيب من الطاعات الذى ليس عند جميع أصحاب نبينا صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم لاسيّما غير السابقين الأوّلين منهم.

والدليل لهٰذا الحديث "إن اللّٰه اختار أصحابى على الثقلين سوى النبيين والمرسلين." (كنز العمال، ح: ٣٣٠٩٤) (مجمع الزوائد) والحديث "مثلكم ومثل اليهود والنصارىٰ كمثل رجل استعمل عمالا فقال من يعمل لى من صلاة الصبح إلى نصف النهار علىٰ قيراط قيراط؟ ألا فعملت اليهود [1] ثم قال من يعمل لى من صلاة الظهر إلى صلوة العصر علىٰ قيراط قيراط؟ ألا فعملت النصارى [2] ثم قال من يعمل لى من صلاة العصر إلى غروب الشمس علىٰ قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذين عملتم. فغضب [3] النصارىٰ واليهود وقالوا نحن أكثر عملا وأقل عطاء، قال: هل ظُلمتم من أجركم شيئا؟ قالوا: لا قال: فإنما هو فضلى أوتيه من أشاء" وهٰذا الحديث يثبت زيادة الأجر لأمّة محمد صلى اللّٰه تعاليى عليه وسلم وهٰذا مع أقلّيّة العمل. [4]

---

(١) المراد أتباع موسىٰ عليه السلام الذين اتبعوه بإحسان من زمانه إلى سيدنا عيسىٰ عليه السلام من غير تحريف وتبديل

(٢) المراد أتباع عيسىٰ عليه السلام الذين اتبعوه بإحسان من زمانه إلى سيدنا ونبيّنا ﷺ من غير تحريف وتبديل

(٣) ليس المراد حقيقة الغضب؛ لأن الغضب على اللّٰه كفر بواح ، لكن المراد واللّٰه أعلم حدّهم فى الاستفهام لهٰذا التفاوت بين ثوابهم وثواب أمّة محمد صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم

(٤) يعنى ولو كان العمل أقل من الأمم السابقة؛ لأن أعمار الناس فى الأمم السابقة كانت أطول من أعمار أمّة محمد صلى اللّٰه تعالى عليه وسلم فى الجملة فهٰذا من هٰذا الحيث وأما من حيث قوة الإيمان والتقوى فالسابقون الأوّلون من الصحابة رضي اللّٰه عنهم أفضل من غير الأنبياء عليهم السلام من الأمم السابقة

وأيضًا يدل عليه سورة القدر وفي سبب نزوله أن الرسول عليه الصلوات والسلام ذكر رجلا من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله الف شهر فعجب المسلمون من ذلك فأنزل الله سورة القدر وفيه أن العبادة في ليلة القدر خير من عبادة الف شهر، فمنّ الله علىٰ امّة محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وافرا جزيلا انّه جعل عبادة ليلة القدر التي هي في كل سنة أفضل من عبادة الصالح من بني إسرائيل لألف شهر. فحاصل الكلام أن الصحابة رضي الله عنهم هم خير هذه الأمة والأمم السابقة (غير الأنبياء) وهذا كلهٗ من فضل الله تعالىٰ علىٰ هذه الأمّة أنهٗ جعل ثوابا أكثر باضعاف كثيرة علىٰ أعمال هذه الأمّة بنسبة أعمال الأمم السابقة ثم لو قيل إن الدلائل التي ذكرنا من الحديث عن القيراط والقيراطين وسورة القدر وسبب نزولها تدل علىٰ أفضلية جميع الأمّة لمحمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم علىٰ الأمم السابقة، فالأفضلية ليست محدودة فقط للصحابة رضي الله عنهم منها، فعلىٰ هذا هل غير الصحابة رضي الله عنهم منها أفضل أيضًا من أصحاب الأنبياء السابقة عليهم الصلوات والسلام؟ فالجواب بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز: هو لاشك أن جميع (من حيث الجملة) أمّة محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم أفضل من الأمم السابقة وفي الحديث "أنتم تتمون سبعين أمّة أنتم خيرها وأكرمها عند الله." (المستدرك للحاكم، ح:٦٩٨٧) وفي القرآن ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ (آل عمران:١١٠) وأيضًا يدل عليه الحديث عن أكثر الثواب لهذه الأمّة ، لكن المعلوم أن الحديث عن أكثر الثواب يفيد من يحصل علىٰ الثواب ،فاليهود الذين اتبعوا سيدنا موسىٰ عليه السلام في زمانه بالإحسان والنصارىٰ الذين اتبعوا سيدنا عيسىٰ عليه السلام في زمانه بالإحسان حصلوا علىٰ القيراط فلو كان المسلم من أمّة محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فاسقا يكثر سياته من حسناته فالمعلوم أنهٗ أقل أجرا وأكثر وزرا حتىٰ لايساوى أجره بالقيراط فضلا عن القيراطين، بل هو في الحالة السلبية بنسبته فكيف يكون أفضلا منهم؟ كلا! وغاية هذه الكلام أن أمّة محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم أفضل من الأمم السابقة من حيث الجملة لامن حيث جميع الأفراد حتىٰ يشمل فاسقا فاجرا أمّا والصحابة رضي الله عنهم لأنهم ليسوا فسّاقا فجّارا، ونعوذ بالله، وأيضًا عندهم أفضلية صحبة النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم التي تجعل ثوابهم أكثر فأكثر حتىٰ إنفاقنا مثل أحد ذهبا لايساوى مدّ أحدهم ولا نصيفه ،فهذا يدل أن الصالح غير الصحابي من أمّة محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم يحصل علىٰ القيراطين ، لكن لا مناسبة لهذين القيراطين من القيراطين اللذين يحصل عليهما الصحابة رضي الله عنهم؛ لأن مدّ أحدهم أفضل من مثل أحد ذهبا منا ،فعلىٰ هذا احرز أكثيرة الثواب للصحابة رضي الله عنهم بنسبة الأمم السابقة فهم أفضل منهم لامحالة، وهل الصالح غير الصحابي من أمّة محمد ﷺ أفضل من الصحابي للأنبياء السابقة عليهم الصلوات والسلام للحديث عن

القيراط والقيراطين؟ فالجواب بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز: هٰذا ليس لازما، بل الصحابي للأنبياء السابقة عليهم الصلوات والسلام قد يكون افضلا؛ لأن ولو ثواب هٰذه الأمّة قيراطان والثواب مثلا لبنى إسرائيل قيراط، لكن للصحابي منهم لنبيه عليه السلام أفضلية صحبة النبي عليه السلام التى غير حاصل لغير الصحابي من هٰذه الأمّة فلايمكنه أن يحصل علىٰ ثواب فضيلة صحبة النبي عليه السلام [1]؛ لأن المعلوم أن رسولنا ونبيّنا محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم خاتم الأنبياء والرسل عليهم الصلوات والسلام فقد يكون قيراط ثواب فضيلة الصحبة لنبي ما عليه السلام أفضل وأكثر من قيراطين لهٰذا الصالح من أمّة محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم بدون فضيلة الصحبة.

فحاصل الكلام أن أفضلية هٰذا الصالح غير الصحابي من أمتنا على الصحابي من الأمم السابقة ليس بلازم لأجل فضيلة الصحبة لهٗ كما واحد من أمتنا غير الصحابي مع العبادات القليلة قد يكون مفضولا من غير الصحابي من الأمم السابقة مع العبادات الكثيرة بأضعاف؛ لأن ثواب عبادات هٰذا من أمتنا علىٰ قيراطين قد يكون أقلا من ثواب عبادات هٰذا من الأمم السابقة علىٰ قيراط لأجل أنها كثيرة بأضعاف. فافهم والله أعلم ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم

وهٰذا ماقلنا لاينافى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾(آل عمران:١١٠) لأنهٗ من حيث الجملة فهٰذه الأمّة بلاشك أفضل الأمم وخيرها حتىٰ لو قورن ثواب جميع هٰذه الأمة [2] مع الأمم السابقة [3] كلها مجتمعة لَزاد ثواب هٰذه الأمّة بأضعاف كثيرة ويدل عليه الأحاديث "وعدنى ربى أن يدخل الجنة من أمتى سبعين ألفا مع كل ألف سبعون ألفا لاحساب عليهم ولا عذاب وثلاث حثيات من حثيات [4] ربّى عزوجل." (مسند الشاميين، ح:٨٢٠) "أهل الجنة عشرون ومائة صف. لكم منها ثمانون صفا." (المعجم الاوسط، ح: ٥٣٩) فى تفسير الآية ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ (الواقعة:٣٩-٤٠) الحديث "أنتم ربع أهل الجنة، أنتم ثلث أهل الجنة، أنتم نصف أهل الجنة"،(مسند أحمد،

---

(١) نعم! سيدنا عيسىٰ عليه السلام سينزل فى آخر الزمان وهو نبي الله؛ لأن الأنبياء دائما أنبياء، لكن هو يتبع ويطبق شريعة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأن بعد رسولنا صلى الله تعالى عليه وسلم لانجاة إلا فى اتباعه فالناس الذين يصاحبون سيدنا عيسىٰ عليه السلام لهم صحبة نبي ما عليه السلام، لكن هٰذا أمر استثنائى ومخصوص بزمان خاص ـ واعلم أن الناس الذين يصاحبون سيدنا عيسىٰ عليه السلام لايساوون صحابة رسولنا صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأن صحبة نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم لها فضائل ومزايا غير حاصلة لصحبة الأنبياء الأخرى عليهم الصلوات والسلام وأيضًا كما قلنا حينئذ سيدنا عيسىٰ عليه السلام يكون مع كونه نبيًا أمتيًا لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم حيث يتبع شريعتهٗ ويطبقها

(٢) يعنى غير نبينا صلى الله تعالىٰ عليه وسلم

(٣) غير الأنبياء عليهم الصلوات والسلام

(٤) هٰذا نوع من الاستعارة وإلا المعلوم أن الله تعالى هو المنزه عن الأعضاء والجوارح

ح: ١٦٦١٣) "أنتم ثلثا أهل الجنة." (المستدرك للحاكم، ح: ١٢ ٧١ ٣) "نحن الآخرون الأوّلون يوم القيامة، ونحن أوّل من يدخل الجنة." (صحيح مسلم، ح: ٨٥٥) "إن الجنة حرمت على الأنبياء كلهم حتى أدخلها، وحرمت على الأمم حتى تدخلها امّتي." (المعجم الاوسط، ح: ٩٤٢) والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

المتن :

ونثبت الخلافة بعد رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم أوّلا لأبى بكر الصدّيق رضي الله عنه، تفضيلا لهٗ وتقديما علىٰ جميع الأمّة ثم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم لعثمان رضي الله عنه، ثم لعليّ بن أبى طالب رضي الله عنه، وهم الخلفاء الراشدون والأئمة المهتدون.

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالىٰ الأن يدخل فى مسئلة الخلافة للنبي الكريم صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ويقول إن الخلافة بعد رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم لأبى بكر رضي الله عنه وهٰذا الكلام يقتضى معنيين أوّلا أن الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم حينما غادر من هٰذا الدنيا فبعد ذٰلك أوّل الخليفة الذى يخلفه فى إدارة وإمارة أمور المسلمين هو أبوبكر رضي الله عنه وهٰذا ظاهر . وثانيا أن الخلافة كانت للرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وثم بعدهٗ صارت أولا إلى أبى بكر رضي الله عنه وهٰذا المعنى يظهر من يمعن ويغور فى الجملة، "ونثبت الخلافة بعد رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "، وهٰذا المعنى أيضًا سائغ، بل فيه مزيد من المعارف التى لاتوجد فى المعنى الأوّل وهو أن الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم كان خليفة الله فى الأرض؛ لأن الأنبياء عليهم الصلوات والسلام خلفاء الله فى الأرض كما فى حق سيدنا آدم عليه الصلوات والسلام ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠) لأنهم يمضون [1] أحكامه وأوامره فى الأرض فبعد رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم (خليفة الله) فى الأرض صار أبوبكر رضي الله تعالىٰ عنه خليفة رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فى إمضاء أحكام الله وأوامره على الأرض وعلىٰ هٰذا جميع الخلفاء الراشدة خلفاء رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم لأنهم يمضون أحكام الله وأوامره فى الأرض اتباعا ونيابة لخليفة الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم.

فأوّل خليفة رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم هو أبوبكر الصديق رضي الله عنه وهٰذا

---

(١) قدر ما يتمكنون ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦)

معلوم لاخفاء فيه وقد بايع جميع الصحابة رضي الله عنهم علىٰ خلافته بلاتأخر وتوقف من أي واحد منهم واجمع المسلمون علىٰ صحة خلافته، بل من أنكر خلافته فقد كفر بالله تعالىٰ وهٰذا ظاهر؛ لأن اللّٰه عزوجل وصف الصحابة رضي الله عنهم المهاجرين ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللّٰهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللّٰهَ وَرَسُولَهُ أُولٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحشر:٨) وهٰؤلاء كلهم بايعوا لأبی بكر الصديق رضي الله عنه وأقروا بخلافته فمن أنكر خلافته فقد وصف المهاجرين بالكذب والافتراء[1]، واللّٰه عزوجل وصفهم بالصدق ﴿أُولٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحشر:٨) فناقض قولهٗ قول الله تعالىٰ فقد كفر بالله وفی الجملة من أنكر خلافة أبی بكر الصديق رضي اللّٰه تعالىٰ عنه فيستلزم قولهٗ أن الصحابة رضي الله عنهم ظلموا وعصوا وغصبوا فی اختيارهم وبيعهم لهٗ إجماعيًا وهٰذا ينافی كل ما ذكر فی القرآن والسنة فی مناقب الصحابة رضي الله عنهم وكثير منها قد ذكرناها عن تقواهم وطاعتهم وجهادهم وهجرتهم ورضوان الله عليهم والمعلوم أن من قوله يستلزم ردا لشيء واحد من القرآن فقد كفر فضلا عن الأشياء المتعددة.

فحاصل الكلام هوخليفة حقًاواعتباره وإقراره واعتقاده واجب لازم لسلامة الإيمان على الإسلام وهل نص عليه رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ؟ فالجواب بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز أنهٗ نص علىٰ خلافة أبی بكر رضي الله عنه بدون حمل الناس علىٰ بيعته ، ففی الحديث" اقتدوا بالذين من بعدی أبی بكر وعمر." (المستدرك للحاكم، ح: ٤٤٥٢) . " لاينبغی لقوم فيهم أبوبكر أن يؤمهم غيره." (سنن الترمذي، ح:٣٦٧٣) "أن امرأة أتت رسول الله فكلّمته فی شيء فأمرها بأمر فقالت: أرأيت يارسول الله إن لم أجدك قال صلى الله تعالىٰ عليه وسلم إن لم تجديني فأتی أبابكر." (صحيح البخاري، ح: ٣٦٥٩) "أمر النبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم بسدّ الأبواب إلا باب أبی بكر." (سنن الترمذي، ح:٣٦٧٨) "ما من نبیّ إلا لهٗ وزيران من أهل السماء، ووزيران من أهل الأرض، فأما وزيرای من أهل السماء فجبريل وميكائيل، وأما وزيرای من أهل الأرض فأبوبكر وعمر." (سنن الترمذي، ح: ٣٦٨٠) "وأمر النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فی مرضه الذی توفي فيه أن يصلی بالناس أبوبكر وأصر عليه إصرارا،(صحيح البخاري، ح: ٦٦٤) وهٰذہ بجملتها تدل علىٰ أن النبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم قد أمر الناس أن يختاروه لخلافة النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم كما هو الظاهر ،" لاينبغی لقوم فيهم أبوبكر أن يؤمهم غيره" وكذٰلك كان الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم علم[2] أن أبابكر وثم عمر يكونان خليفان بعدهٗ "اقتدوا بالذين من بعدی أبی بكر وعمر."

(١) لأن من أنكر خلافة أبی بكر رضي الله تعالىٰ عنه ، فكأنهٗ يدّعی أن الذين بايعوه للخلافة كانوا ليسوا على الحق.

(٢) من جهة الوحی

وفى الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: "قال لى رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فى مرضه "ادعى لى أبابكر، أباك، وأخاك حتىٰ أكتب كتابا، فانى اخاف أن يتمنى متمن ويقول قائل أنا أولىٰ ويأبى الله والمؤمنون إلا أبابكر." (صحيح مسلم، ح:٢٣٨٧)

فحاصل الكلام أن النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم قد أشار، بل أمر المؤمنين بالإشارات والتلميحات إلى بيعة لأبى بكر رضي الله عنه للخلافة بعدهٔ عليه السلام. ولا عجب أن الصحابة رضي الله عنهم اجتمعوا بلاخلاف علىٰ خلافته لأنهم قد علموا أنهٔ خيرهم وأحبهم إلى الله ورسوله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم. وكما قال الشيخ رحمه الله تعالىٰ: إنهٔ أفضل الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم. عندما قال عنه رضي الله عنه" تفضيلا لهٔ وتقديما علىٰ جميع الأمّة" وقد سئلت عائشة رضي الله عنها "أى أصحاب النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم كان أحب إلى رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فقالت: أبوبكر." (سنن الترمذي، ح:٣٦٥٧) وقال عمر رضي الله عنه "أبوبكر سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم." (سنن الترمذي، ح:٣٦٥٦) وقال صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "ما من الناس أحد أمنّ [1] إلينا فى صحبته وذات يده من ابن أبى قحافة، ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت ابن أبى قحافة [2] خليلا، و، لٰكن ودّ وإخاء وإيمان. مرّتين أو ثلاثا. ألا وإن صاحبكم [3] خليل الله." (سنن الترمذي، ح:٣٦٥٩) وفى الحديث أن النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم قال عن أبى بكر وعمر "هٰذان السمع والبصر." (سنن الترمذي، ح:٣٦٧١) وهٰذه نبذة من ما جآء فى مناقب أبى بكر رضي الله تعالىٰ عنه وهٰذا القدر يكفى فى بيان ودلالة أنهٔ قد نُص علىٰ خلافته وأنهٔ أفضل الصحابة رضي الله عنهم على الإطلاق لاسيّما اختيار النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم أبابكر رضي الله تعالىٰ عنه لإمامة الصلوٰة فى مرضه من أكبر الملامح أنهٔ أفضل هٰذه الأمّة وأولى الناس بالخلافة رضي الله تعالىٰ عنه. واسمه عبدالله ولقبه الصديق والعتيق وهو أوّل الرجال فى قبول الإسلام وزمان خلافته سنتان وأربعة أشهر وتوفي ٢٢ من الجمادى الثانية ١٣ھ الهجرة ودُفن فى جنب النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فى الحجرة المباركة لسيدتنا عائشة رضي الله عنها. رضي الله عنه وعن جميع الصحابة.

قول الشيخ رحمه الله تعالىٰ: "ثم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه" يعنى الخلافة بعد أبى

(١) هٰذا من وسعة قلب النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم أنهٔ عبّر محبة ونصرة أبى بكر رضي الله تعالىٰ عنه بالمنّ وإلا فى الحقيقة هو النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم الذى منّ الله به علىٰ أبى بكر رضي الله عنه وعلينا كلّنا بتبليغ رسالته إلينا وتبيين الطريق لمرضاته ولتجنب غضبه علينا وجزى الله تعالىٰ نبيّه عنا بما هو أهلهٔ صلى الله تعالىٰ عليه وسلم

(٢) يعنى أبوبكر رضي الله تعالىٰ عنه

(٣) يعنى رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم نفسه

بكر الصديق رضي الله تعالىٰ عنه صارت إلى عمر فاروق رضي الله تعالىٰ عنه وهذا معلوم من تاريخ الإسلام وخلافته رضي الله تعالىٰ عنه باستخلاف أبي بكر الصديق رضي الله تعالىٰ عنه إياه بالصراحة وبالأمر للناس أن يبايعوه وجميع الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم بايعوه وامتثل أمر أبي بكر الصديق رضي الله تعالىٰ عنه من غير خلاف ولاتوقف ولا تأخر كان جميعهم أقروا باختياره وصادقوه فصارت الخلافة إلى عمر رضي الله تعالىٰ عنه إجماعا من الصحابة بعد وفاة أبي بكر الصديق رضي الله تعالىٰ عنه وكان استخلافه لعمر رضي الله تعالىٰ عنه في مرضه وآخر زمان حياته. ولهٰذا من أنكر صحّة خلافة عمر رضي الله تعالىٰ عنه فقد كفر ؛ لأنهٔ خالف النصوص القطعية من القرآن والسنة في مناقب الصحابة رضي الله عنهم جملة واتهمهم بالظلم والكذب والغصب في اختيارهم وبيعهم لعمر رضي الله تعالىٰ عنه كما بيّنا نحن هٰذا في حق أبي بكر الصديق رضي الله تعالىٰ عنه فاطّرد هٰذا في حق عمر رضي الله تعالىٰ عنه أيضًا؛ لأن خلافتهما بالإجماع المطبّق من السابقين الأولين ومن تبعهم بإحسان من الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء:١١٥)

ثم ما ذكرنا من الأحاديث في نص خلافة أبي بكر الصدّيق رضي الله تعالىٰ عنه فبعض منها تدل علىٰ خلافة عمر رضي الله تعالىٰ عنه بعدهٔ مثلا "اقتدوا بالذين من بعدى أبي بكر وعمر." (المستدرك للحاكم، ح:٤٤٥٢) "وأما وزيراى من أهل الأرض فأبوبكر وعمر." (سنن الترمذي، ح:٣٦٨٠) وكذٰلك الحديث المرفوع "بينا أنا نائم رأيتنى علىٰ قليب، عليها دلو، فنزعت منها ما شاء الله، ثم أخذها ابن أبي قحافة فنزع بها ذنوبا أو ذنوبين وفي نزعه ضعف والله يغفر له، ثم استحالت غربا فأخذها ابن الخطاب، فلم أر عبقريا من الناس ينزع نزع عمر بن الخطاب، حتىٰ ضرب الناس بعطن." (صحيح مسلم، ح:٢٣٩٢) وهٰذا الحديث من جلّة الأحاديث في نص علىٰ خلافة أبي بكر رضي الله تعالىٰ وثم عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه وفيه بيان مجمل عن أحوال خلافتهما فأوّلا رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم خليفة الله في الأرض فهو الأساس وبدأ منه البنيان ورسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم لم يصرّح بكيفية وكميّة نزعه، بل قال عليه الصلوات والسلام أنهٔ نزع منها ما شاء الله، فاعلم أنهٔ لا مقارنة بنزع النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم مع نزع أي واحد ولو أبابكر كان هو أو عمرا كان أو كائنا من كان؛ لأنهٔ نبي الله وخليفته ولا مقارنة بين النبي وغير النبي فهو أساس الإسلام لهٰذه الأمّة وعبارة نزعه بنزع دلو؛ لأن نور الإسلام انتشر في الجاهلية رويدا رويدا فأوّل المسلم لهٰذه الأمّة كان[1] محمدا رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وحيدا وثم

(١) بل الأمّة منسوبة إليه ولهٰذا يقال أمة محمد صلى الله عليه وسلم



جهده المستمر وتماسكه بين يدى عراقيل الكفر والشرك، بل استعلاء ه عليها معنويا أولاً وفى الأخير معنويا ومادّيا وهٰذه كلها تفدح ظهرمعروفين من الرجال ، لكن ليس نبيّا ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ (الأحزاب:٣٩) ثم جآء أبوبكر رضي الله تعالىٰ عنه فنزع ذنوبا أو ذنوبين وفى نزعه ضعف وليس هٰذا نقصا لهٗ وكيف وقد قال رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم أنهٗ لاينبغى لقوم أن يؤمهم غير أبى بكر وهو موجود فيهم، بل هٰذه إشارة إلى فتنة قائمة للارتداد ومنع الزكوة الّتى حصلت فى قبائل العرب بعد وفاة رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وهٰذه فتنة من أكبر الفتن فى تاريخ الإسلام ولقد منّ الله علينا بشخصية أبى بكر الصديق رضي الله تعالىٰ عنه ،الرجل ناهيك عن الرجال، كمثل الجبل المستقرّ مع صلابة الحديد، قام ضد هٰذه الفتنة والصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم معهٗ وجاهدوا وناضلوا وقاتلوا قتالا شديدا واستعلوا علىٰ هٰذه الفتنة وأخمدوها من آخرها رضي الله عنهم أجمعين ،وبعد كسر هٰذه الفتنة الداهية حيى أبوبكر الصديق رضي اللّٰه تعالىٰ عنه ريثما حصل علىٰ بعض قليل من الفتوحات من بلاد الكفار خارج جزيرة العرب حتّى توفي رضي الله تعالىٰ عنه ،ثم جآء عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه وهٰذا هو الزمان الإسلام فيه قد استقرّ فى جزيرة العرب، بل فى بعض المناطق خارجها من الشمال والجنوب والعرب جلّهم متحدون تحت راية الإسلام وقد استقرّ وانجمد أساس الإسلام وعلا شطئه وتقوّى جذره وكبر جذلهٗ وارتفع وقد بدأت فروعها تنتشر، وهٰذا هو الزمان بدأت خلافة عمر الفاروق رضي الله تعالىٰ عنه ولهٰذا عبّر باستحالة الدلو غربا؛ لأن الإسلام يتقوى أساسه وارتفع جذلهٗ واستعد لنشر فروعه، فزمان خلافة عمر الفاروق رضي الله تعالىٰ عنه، الله أكبر ما شاء الله تبارك الله، زمان فتوحات الإسلام واستعلاء ه علىٰ بلاد الشرق والغرب من الشام والعراق والإيران والمصر والفلسطين إلى بلاد السند فى الشرق وبعض بلاد الأفريقة فى الغرب واستيعاب بلاد الشام فى الشمال الله أكبر وجزى الله عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه عنا بما هو أهله.

فالأحاديث التى ذكرنا تدل علىٰ نص خلافة عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه وهو أفضل الصحابة رضي الله عنهم بعد أبى بكر الصديق رضي الله عنه وقد جآء ت أحاديث كثيرة فى مناقبه فمنها ما ذكرنا ومزيدا "إن الله جعل الحق علىٰ لسان عمر وقلبه"،(سنن الترمذي، ح: ٣٦٨٢) "لو كان نبيّا بعدى لكان عمر بن الخطاب." (سنن الترمذي، ح: ٣٦٨٦) "رأيت فى الجنة قصرا من ذهب، فقلت: لمن هٰذا، فقيل: لعمر بن الخطاب ." (سنن الترمذي، ح: ٣٦٨٩) "رأيت كأنّى أتيت بقدح من لبن فشربت منه فأعطيت فضلى عمر بن الخطاب، قالوا: فما أوّلته يارسول الله ؟ قال: العلم." (سنن الترمذي، ح: ٣٦٨٧) "إن الشيطان ليخاف منك ياعمر." (سنن الترمذي،

ح: ٣٦٩٠) "عن علىّ بن أبي طالب رضي الله تعالىٰ عنه قال: كنت مع رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم إذ طلع أبوبكر وعمر فقال رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "هٰذان سيّدا كهول أهل الجنة من الأوّلين والآخرين إلا النبيين والمرسلين ياعليّ لاتخبرهما . ." (سنن الترمذي، ح:٣٦٦٥)

وعن محمد [1] بن الحنفية قال: قلت لأبي : [2] أىّ الناس خير بعد رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم قال: أبوبكر قلت: ثم من؟ قال ثم عمر، وخشيت أن يقول عثمان، قلت: ثم أنت؟ قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين." (صحيح البخاري، ح:٣٦٧١)

وهٰذه نبذة من مناقب عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه تدل بالصراحة علىٰ أفضليته بعد أبي بكر الصديق رضي الله تعالىٰ عنه واسمه عمر ولقبه الفاروق وكنيته أبوالحفص وأسلم في السنة السادسة من ظهور نبوة نبينا صلى الله تعالىٰ عليه وسلم من السابقين الأوّلين وزمان خلافته عشرة سنوات وستة أشهر وهو أوّل من لقّب بأمير المؤمنين؛ لأن أبوبكر رضي الله تعالىٰ عنه كان يقال خليفة رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وعمر خليفة [3] خليفة رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فتحوّلوا إلى تلقيبه بأمير المؤمنين واستشهد رضي الله تعالىٰ عنه بجرح رمح أبي لؤلؤ المجوس عند ما عمره ثلث وستون سنة ودفن في الحجرة المباركة لعائشة صديقة رضي الله عنها مع النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وصاحبه [4] أبي بكر الصديق رضي الله تعالىٰ عنه.

وقول الشيخ رحمه الله تعالىٰ "ثم لعثمان رضي الله تعالىٰ عنه" يعني صارت الخلافة بعد عمر الفاروق رضي الله تعالىٰ عنه إلى سيدنا عثمان بن عفان رضي الله تعالىٰ عنه وقصته أن عمر الفاروق رضي الله تعالىٰ عنه ترك تعيين الخلافة شورىٰ بين ستة من أصحاب رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم الذين قد بُشروا بالجنة من جناب رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم في حياتهم الدنيوية وهٰؤلاء ستة هم سيدنا عثمان، علي، عبدالرحمٰن بن عوف، طلحة، زبير، سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم أجمعين. فانسحب عبدالرحمٰن بن عوف رضي الله عنه منها علىٰ أن هٰؤلاء الخمسة

---

(١) هو محمد بن علي بن طالب رحمه الله تعالىٰ

(٢) هو سيدنا علي بن أبى طالب رضي الله تعالىٰ عنه

(٣) وهٰذا علىٰ صيغة 'خلف يخلف خلفا' يعني من يأتي خلفه وأما على صيغة 'خلف يخلف خلافة' فجائز أن يكون عمر أيضًا خليفة رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم؛ لأن على هٰذه الصيغة يكون معنى أنهٗ ينفذ القرآن والسنة على الناس نيابة للنبي الكريم صلى الله تعالىٰ عليه وسلم

(٤) اعلم أن صحابيّة أبى بكر الصديق رضي الله تعالىٰ عنه مع النبي الكريم صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ثابت بدليل قطعي وهو القرآن ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾ (التوبة: ٤٠) يعني النبي الكريم صلى الله تعالىٰ عليه وسلم يقول لأبى بكر الصديق رضي الله تعالىٰ عنه هٰذا باتفاق المفسرين فمن أنكر صحابيّة أبى بكر الصديق رضي الله تعالىٰ عنه فقد كفر؛ لأنهٗ خالف النص القطعي [illegible] الشريعة الإسلامية

الباقية فوضوا إليه أن يختاروا واحدا منهم بالعدل والإحسان. فالصحابي الجليل عبدالرحمن بن عوف رضي اللّٰه تعالىٰ عنه فاوض مع عدة من الصحابة رضي الله عنهم وشاور واستقرّ الراي علىٰ سيدنا عثمان ذى النورين رضي الله عنه واختاره وبايعه بمحضر من الصحابة. فبايعوه وانقادوا أوامره وصلّوا معهٗ الجمع والأعياد فكان إجماعا منهم علىٰ خلافته رضي الله عنهم أجمعين.

فمن أنكر صحة خلافة عثمان رضي الله عنه فهو بلاشک من أهل الأهواء والبدعة والفسق. وقد جآءت الأحاديث التى أشارت علىٰ خلافة عثمان رضي الله عنه فمنها "ياعثمان إنه لعل الله يقمصک قميصا فإن أرادوک علىٰ خلعه فلا تخلعه لهم." (سنن الترمذي، ح:٣٧٠٥) وقال عثمان رضي اللّٰه تعالىٰ عنه "إن رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم قد عهد إلىّ عهدا فأنا صابر عليه." (سنن الترمذي، ح: ٣٧١١) وبشره النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم بالجنة علىٰ بلوى تصيبه. وقال ابن عمر رضي اللّٰه عنه" كنا نقول ورسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم حيّ : أبوبكر وعمر وعثمان"(سنن الترمذي، ح:٣٧٠٧) وفي رواية أخرىٰ" "كنا نخيّر بين الناس فى زمان رسول الله صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم ، فنخيّر أبابكر، ثم عمر، ثم عثمان رضي الله عنهم." (سنن الترمذي: ح:٣٦٥٥) وهٰذه الأحاديث التى ذكرنا تشير إلى خلافته وأفضليته بعد أبى بكر وعمر رضي الله عنهما وأيضًا يدل علىٰ أفضليته بعدهما اختيار الصحابة رضي الله عنهم إياه للخلافة بعدهما كما ذكرناه سابقا. وأما البلوىٰ التى ذكرت في الحديث فهي ما حصلت فى خلافته رضي الله عنه من جهة الفتّانين والواقعة مشهورة فى التاريخ وهٰذه الفتنة بدايتها من اليهود، فواحد منهم اسمه عبدالله بن سبا اليهودى ظهر الإسلام وأخفى النفاق وبدأ هٰذه الفتنة رويدا رويدا قدما قدما. وكلها فى اسم حب أهل بيت النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم، والرافضة الملاحدة أساسهم من هٰذا اليهودى؛ لأنهٗ هو الذى أحدث البدعة أن عليّا رضي الله عنه وأولاده مستحق بالخلافة دون غيرهم، وهٰذا كان بداية أمر هٰذه الفتنة ثم ترقّى قدما قدما حتىٰ ادعى هٰذا اليهودي ألوهية علي رضي الله تعالىٰ عنه (معاذ الله) وعلي رضي اللّٰه تعالىٰ عنه نفسه قتلهٗ ونطاقه إحراقا بالنار ، لكن هٰذا بعد مرور الزمان فى خلافة علي رضي اللّٰه تعالىٰ عنه عند ما انكشف أمره وزندقته وكفره ونفاقه، لكن فى خلال خلافة عثمان رضي الله تعالىٰ عنه فى زمان وسطها بدأ أمره مخفيا ودون ادعاء ألوهية علي رضي الله تعالىٰ عنه (نعوذ بالله) ، بل علىٰ أن عثمان رضي الله تعالىٰ عنه خليفة جائر ونعوذ بالله واستحق العزل وعلي رضي الله تعالىٰ عنه يجب أن يكون مقامه.

وكان هٰذا اليهودى يمنيا ،فاتصل بالعراق والمصر بالمراسلات الخفيّة المملوئة بالكذب والبهتان، وبعض منها مختلقة كاذبة النسبة إلى كاتبها، والتفصيل يحصل عليه من الكتب المعتبرة

للتاريخ الإسلامي. فغاية الأمر أن الناس من بلاد مختلفة انطلقوا، بل أغاروا على عاصمة الخلافة المدينة المنوّرة وحاصروا بيت الخليفة المظلوم عثمان رضي الله تعالىٰ عنه، واستشهد سيدنا عثمان رضي الله تعالىٰ عنه بعد طول المحاصرة من أيد بعض هؤلاء الفتّانين الباغيين الفاسقين الفاجرين.

فاعلم أن من قتل عثمان رضي الله عنه استحلالا بدمه وكذلك من رضى بقتله استحلالا بدمه فهو كافر بإجماع المسلمين، ومن قتلهٔ أو شارك فى قتله بدون الاستحلال وكل هؤلاء الفتّانون شاركوا فى إثم قتله فهم الفسّاق الفجار وخارجون من أهل السنة والجماعة. وقد جاءت الأحاديث فى قصة هٰذه الفتنة الداهية ومنها عن كعب بن عجرة قال ذكر رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فتنة فقرّبها، فمرّ رجل مقنّع رأسه، فقال رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "هٰذا يومئذ على الهدى" فوثبت فأخذت بضبعي عثمان، ثم استقبلت رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فقلت هٰذا؟ قال "هٰذا." (سنن ابن ماجة، ح: ١١١) وعن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها قالت قال رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "ياعثمان إن ولّاك الله هٰذا الأمر يوما فأرادك المنافقون أن تخلع قميصك الذى قمّصك الله فلا تخلعه." يقول ذٰلك ثلاث مرّات، (سنن ابن ماجة، ح: ١١٢) وأيضًا عن أبي عبدالرحمٰن السلمي رضي الله تعالىٰ عنه قال: لمّا حصر عثمان أشرف عليهم فوق داره ثم قال: أذكركم بالله هل تعلمون أن حراء (الجبل) حين انتفض قال رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "أثبت حراء [1] فليس عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد؟ قالوا: نعم قال: أذكركم بالله هل تعلمون أن رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم قال فى جيش العسرة "من ينفق نفقة متقبلة"؟ والناس مجهدون معسرون فجهزت [2] ذٰلك الجيش "قالوا نعم! ثم قال أذكركم بالله هل تعلمون أن بئر رومة لم يكن يشرب منها أحد إلا بثمن فابتعتها فجعلتها للغني والفقير وابن سبيل قالوا اللّٰهم نعم! وأشياء عددها رضي الله تعالىٰ عنه." (سنن الترمذي، ح: ٣٦٩٩) ومن مناقب عثمان رضي الله تعالىٰ عنه ما جاء فى حديث عن أنس بن مالك رضي الله تعالىٰ عنه قال لما أمر رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان رضي الله تعالىٰ عنه رسول رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم إلى أهل مكة قال فبايع الناس قال فقال رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "إن عثمان فى حاجة الله [3] وحاجة رسوله" فضرب [4] إحدىٰ يديه على الأخرىٰ فكانت يد رسول الله صلى الله

(١) وكان عليه حينئذ رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وأبوبكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة وزبير رضي الله عنهم

(٢) وفيه قصة كما فى الأحاديث ومنها أن عثمان رضي الله تعالىٰ عنه جاء إلى النبي ﷺ بألف دينار فى كمه فنثرها فى حجره عليه السلام فقال الراوى أنهٔ رأى النبي صلى الله عليه وسلم يقلبها فى حجره ويقول "ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم" مرتين(سنن الترمذي، ح: ٣٧٠١) ـ التنبيه ولأنه من أهل الجنة فلا يعمل إلا خيرا فافهم

(٣) وهٰذا مجاز وإلا المعلوم أن الله هو الغنى ومعناه يعني هو فى فعل ما أمره الله تعالىٰ إياه على لسان رسوله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم

(٤) يعني هذه بيعة عثمان فشاركه فى بيعة الرضوان

تعالىٰ عليه وسلم لعثمان خيرا من أيديهم لأنفسهم." (سنن الترمذي، ح: ٣٧٠٢) وفى الجملة مناقب سيدنا عثمان بن عفان رضي اللّٰه تعالىٰ عنه كثيرة وهو كما ذكرنا بالدليل أفضل الصحابة بعد الشيخين أبي بكر وعمر رضي اللّٰه تعالىٰ عنهما واسمه عثمان، لقبه ذوالنورين وكنيته أبوعبداللّٰه وكان من السابقين الأولين وكان زوج ابنتي نبي اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم سيدتنا رقية وأم كلثوم رضي اللّٰه تعالىٰ عنهما واحدة بعد وفاة آخرة ولهٰذا لقب بذى النورين وزمان خلافته رضي اللّٰه تعالىٰ عنه اثنتا عشرسنة إلا اثنا عشرة يوما وكما ذكرنا أنهٗ استشهدعلىٰ يد الفتانين فواحد[1] منهم اسمه أسود التجيبى المصرى قتلهٗ ظلما عظيما وإثما كبيرا ودُفن رضي اللّٰه تعالىٰ عنه فى جنة البقيع ومما يذكر أن زمانه زمان الفتوحات الواسعة فبلغ الإسلام فى زمانهٖ إلى المحيط الأتلانتيكا واتسع دائره فى الجهات الأخرىٰ، لكن كما ذكرنا عن الفتنة الداهية ،التى بدأت فى زمانهٖ رضي اللّٰه تعالىٰ عنه، أبطأت اتساع الفتوحات وهٰذه الفتنة مدت إلى خلال زمان خلافة سيدنا علي رضي اللّٰه تعالىٰ عنه وخلافة سيدنا حسن رضي اللّٰه تعالىٰ عنه حتىٰ استقر الأمن فى زمان سلطة أمير معاوية رضي اللّٰه تعالىٰ عنه.

ونحن نذكر الأن عن خلافة سيدنا علي رضي اللّٰه تعالىٰ عنه وهو بعد شهادة عثمان رضي اللّٰه تعالىٰ عنه أجمع كبار المهاجرين والأنصار علىٰ عليّ رضي اللّٰه تعالىٰ عنه والتمسوا منه قبول الخلافة وبايعوه لما كان هو أفضل أهل عصره وأولاهم بالخلافة فهو خليفة بالحق بإجماع الصحابة رضي اللّٰه تعالىٰ عنهم من أهل زمانه فمن أنكر صحة خلافته فهو خارج من أهل السنة والجماعة وهو من أهل الأهواء والبدعة والفسوق والفجور وقد جاءت الأحاديث التى تدل علىٰ خلافة عثمان وخلافة علي رضي اللّٰه عنهما بالإشارات فمنها عن جابر بن عبداللّٰه عن رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم قال "رأىٰ الليلة رجل صالح أن أبابكر نيط برسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم ونيط عمر بأبى بكر ونيط عثمان بعمر قال جابر فلما قمنا من عند رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم، قلنا أما الرجل الصالح فرسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم وأما تنوط بعضهم ببعض فهم ولاة هٰذا الأمر الذى بعث اللّٰه بهٖ نبيه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم." (سنن أبى داود، ح: ٤٦٣٦) هٰذا الحديث فيه إشارة إلى خلافة أبي بكر وعمر وعثمان رضي اللّٰه تعالىٰ عنهم والحديث عن سمرة بن جندب أن رجلا قال يا رسول اللّٰه! إنى رأيت كأن دلوا دُلِّي من السماء فجاء أبوبكر فأخذ بعراقيها فشرب شربا ضعيفا[2] ثم جاء عمر فأخذ بعراقيها فشرب حتىٰ تضلع[3] ثم جاء عثمان فأخذ بعراقيها فشرب حتىٰ تضلع[4] ثم جاء

(١) ويقال أيضًا أن عبداللّٰه بن سبا نفسه من قاتلى عثمان رضي اللّٰه تعالىٰ عنه ، لكن أظهر نفسه بغيره.

(٢) واللّٰه أعلم هٰذه إشارة إلى إختصار زمان خلافته ومع ذلك مواجهتها بفتنة داهية فتنة الارتداد التى ذكرناها سابقا وبيّنا صمود أبى بكروالأصحاب الأخرىٰ على مقاومتها واستعلاء هم عليها واخمادهمٗ إياها

(٣) واللّٰه أعلم إشارة إلى طول زمان خلافته والفتوحات الواسعة الحاصلة فيها

(٤) واللّٰه أعلم إشارة إلى طول زمان خلافته والفتوحات الواسعة الحاصلة فيها

علي فاخذ بعراقيها فانتشطت [1] وانتضح عليه منها شيء [2] (سنن أبى داود، ح:٤٦٣٧) هذا الحديث فيه إشارة إلى خلافة أبى بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين.

وإن قيل كيف تقول أن سيدنا عليا رضي الله تعالىٰ عنه كانت خلافته بإجماع الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم ونحن نعرف حرب الجمل وحرب الصفين اللتين وقعتا بينه وبين الأصحاب الأخرىٰ رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين ؟فالجواب بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز: أن أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضي الله تعالىٰ عنها وسيدنا طلحة وزبير رضي الله تعالىٰ عنهما لم يكن خالف عليا رضي الله تعالىٰ عنه فى مسئلة الخلافة، بل هم أقروا بخلافته مبايعا لهُ رضي الله تعالىٰ عنهم، بل كانت المسئلة هي مسئلة قصاص سيدنا عثمان رضي الله تعالىٰ عنهم الذى استشهد علىٰ أيد أهل البغاة والفتن وهم بايعوا عليا رضي الله تعالىٰ عنه وهم كانوا جما غفيرا ازدادوا شيئًا فشيئًا حتىٰ بلغ عددهم نحو عشرين ألفا وهم خالطوا فى أتباع علي رضي الله تعالىٰ عنه، وسيدنا علي رضي الله تعالىٰ عنه ما كان مستعليا عليهم على الوجه المعتد بهِ حتىٰ اقتص منهم مع أنهُ قد بويع للخلافة، لأن المبايعة للخلافة لا تعني نفسه استقرار أمرها واستعلاء ها فى جميع البلاد ،كما نحن نرىٰ أن عثمان رضي الله تعالىٰ عنه الذى بويع بالإجماع واستقرت خلافته ، لكن فى خلال خلافته تشوش الاستقرار وتزلزل حتىٰ جمت علىٰ عاصمة الخلافة وحوصر ببيت الخليفة الحق سيدنا عثمان رضي الله تعالىٰ عنه وحتىٰ منع من دخول المسجد، وهٰذا الارتباك والتشوش مد إلى خلافة علي رضي الله تعالىٰ عنه، بل استفحل وتفاقم، فعلي رضي الله تعالىٰ عنه كان ينتظر أن يستقر أمر الخلافة لهُ وأن يغلب علىٰ هؤلاء الفتانين حتىٰ يتمكن من القصاص لسيدنا عثمان رضي الله تعالىٰ عنه وسيدتنا عائشة رضي الله تعالىٰ عنها وطلحة وزبير رضي الله تعالىٰ عنهما أرادوا القصاص على الفور ، لكن ثم حصل المفاوضات بينهم وكانوا يتقربون إلى الصلح والتفاهم وكيف لا؟ وهم كلهم كانوا متفقين علىٰ لزوم قصاص عثمان رضي الله تعالىٰ عنه، لكن الفتانين أرادوا الفتنة وكيف يقتنعوا بالصلح والتفاهم فبيّتوا على الفريقين وكل فريق يظن أن الهجوم من الآخر فدخلوا فى الحروب الكبير المشهور "حرب الجمل" وهٰذا لأنهم لا يتركون الجمل حماية حرم رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وكان الظفر لعلي رضي الله تعالىٰ عنه فهو أمر محمدا بن أبي بكر أخا سيدتنا عائشة رضي الله تعالىٰ عنها أن يذهب بها إلى

---

(۱) والله أعلم إشارة إلى أن خلافة النبوة تكون متوقفا منتهيا على خلافة علي رضي الله عنه يعنى هو آخر واحد عليها وأما زمان خلافة حسن بن علي رضي الله تعالى عنه لستة شهور فهي معدودة فى خلافة علي رضي الله عنه استكمالا لها؛ لأنهُ ابنه رضي الله عنهما وزمان خلافته مختصر فى غاية الاختصار

(۲) والله أعلم إشارة إلى أن زمان خلافته مملوئة بالفتن والبغى والخروج من البداية إلى النهاية كما هو معلوم من التاريخ ولم يتاح لهُ أن يركز على الوجه المعتد به إلى الفتوحات أو إلى أشياء كثيرة أخرىٰ بسبب استمرار البغى والفتن فى زمان خلافته رضي الله تعالى عنه

المدينة فأما طلحة وزبير رضي الله تعالىٰ عنهما فهما استشهدا علىٰ أيد أهل الفتنة والبغي. وكان عليا رضي الله تعالىٰ عنه مصيبا؛ لأنهٗ كان خليفة وامير المؤمنين فلا يجوز الخروج عليه ومع ذٰلک لا طعن علىٰ سيدتنا عائشة رضي اللّٰه تعالىٰ عنها وطلحة وزبير رضي الله تعالىٰ عنهما لأنهم ما أرادوا الخروج، بل أرادوا القصاص للخليفة السابق سيدنا عثمان رضي الله تعالىٰ عنه وكانوا مصيبين فى هٰذا الطلب ﴿يٰأَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلٰى﴾ (البقرة:١٧٨) ﴿وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيٰوةٌ يّٰأُوْلِى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُوْنَ﴾ (البقرة:١٧٩) وأيضا هم ما أرادوا الحرب ضد علي رضي الله تعالىٰ عنه، بل كان الأمر يتقرب إلى الصلح والتفاهم وثم تخلل بالحرب بسبب كيد أهل الفتنة والبغي لعنهم اللّٰه. فغاية الأمر منهم هو الخطأ فى فهم الحالة التى كان يواجهها سيدنا علي رضي الله تعالىٰ عنه كما بيّنا أنهٗ لم يكن مستعليا، فكان ينتظر للاستقرار لأمر الخلافة حتىٰ يتمكن من القصاص وهٰذا (يعنى الخطأ فى فهم حالة سيدنا علي رضي الله تعالىٰ عنه) لا يستلزم قدحا ناهيک عن الفسوق والفجور نعم! الذين فى الفريقين أرادوا الفتنة بين المسلمين والخروج علىٰ سيدنا علي رضي اللّٰه تعالىٰ عنه منازعا لأمر الخلافة فهم أهل الفسوق والفجور، لكن هؤلاء ليسوا من أصحاب رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم.

وإن قيل أنهٗ قدجاء فى الأثر أن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها كانت تبكى علىٰ ذكر الآية ﴿وَقَرْنَ فِىْ بُيُوْتِكُنَّ الخ﴾ (الأحزاب:٣٣) وهٰذا فى الظاهر ذكرا لخروجها إلى البصرة فى خلافة علي رضي اللّٰه تعالىٰ عنه الذى أدى إلى حرب الجمل فلماذا كانت تبكى وكيف يلائم خروجها مع هٰذه الآية؟ فالجواب بتوفيق اللّٰه تعالىٰ إن شاء الله العزيز: أن المعلوم أن النساء قد أذن لهن الخروج لحوائجهن وفى الحديث أن سيدنا عمر رضي الله تعالىٰ عنه قال لأم المؤمنين سودة بنت زمعة رضي اللّٰه تعالىٰ عنها وهي كانت محتجبة، لكن كانت إمرأة طويلة فعرفها عمر رضي الله تعالىٰ عنه لطولها وقال لها "والله يا سودة ما تخفين علينا." (صحيح مسلم، ح:٢١٧٠) وهٰذا قال لها حرصا أن الله عزوجل ينزل الحجاب فنزلت آية الحجاب ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوْهُنَّ مَتَاعًا فَسْئَلُوْهُنَّ مِنْ وَّرَآءِ حِجَابٍ﴾ (الأحزاب:٥٣) وهٰذا الحجاب فوق الاحتجاب الذى كانت يفعلنها أمهات المؤمنين، لكن فى نفس الحديث قال رسول اللّٰه صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "قد أذن الله لَكُنَّ أن تخرجن لحوائجكن." (صحيح البخاري، ح:٥٢٣٧) يعنى أمهات المؤمنين وتبعا جميع النساء والحاجة للإصلاح بين المسلمين ونفوذ الأمن بينهم وتطبيق أمر الله عزوجل بالقصاص وإخماد فتنة أهل البغي والفتن من أهم الحاجات كما لا يخفى وفى القرآن ﴿لَا خَيْرَ فِىْ كَثِيْرٍ مِّنْ نَّجْوٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوْفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ (النساء:١١٤) ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُوْنَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوْا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ (الحجرات:١٠) وهٰذا الأمر متوجه للرجال والنساء من المسلمين حسب وسعتهم ،فعائشة رضي الله تعالىٰ عنها شكى إليها

ما صاروا إليه من عظيم الفتنة وتهارج الناس ورجوا بركتها وطمعوا في الاستحياء منها إذا وقفت إلى الخلق ،وأيضا مسئلة قصاص عثمان رضي الله تعالى عنه ليست مسئلة مهملة، بل هي من أكبر المهمات للمسلمين فظنت أن خروجها ذا مصلحة عظيمة للمسلمين وهي سافرت إذا سافرت وهي كانت مع ذي محارمها وثم جميع المسلمين بمنزلة أولادها ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ (الأحزاب:٦) وهي لم تخرج للحرب ولا للمنازعة مع علي رضي الله تعالى عنه في الخلافة، بل لنفوذ أوامر الله تعالى من القصاص والإصلاح وكسر الفتنة ثم ما حصل فحصل، وكل بقدر الله تعالى، ثم رجعت إلى المدينة برة تقية مجتهدة مأجورة فيما نوت وتأولت وهو كما قلنا أن الآية ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ (الأحزاب:٣٣) لا تمنعهن من الخروج للحوائج ،ونفوذ أوامر الله من أهم الأمور وإصلاح بين المسلمين وكسرفتنة الفتانين من أهم الحوائج، وأما بكاء ها على ذكر هذه الآية، وهذا على شرط أن الأثر صحيح، يكون معناه أنها إذا كانت تذكر أوتقرأ هذه الآية فيستحضر حينئذ عندها سفرها أيام الجمل وما حصل فيها من مطاعنات وجراحات بين المسلمين في معركة فاقمة ،وقتل عدد عظيم من الناس من الفريقين ،فكانت عيناها تبدأ تفيض لا محالة، وهذا أمر طبيعي، فكأن كانت تلهف وتأسف أنها كانت تريد شيئًا يعني الإصلاح وكسر الفتنة، ووقع شيء آخر بالعكس تماما والبكاء عند هذه الأمور أمر طبيعي، وهذه الأمور طبعا وقعت خارج البيت والقرار في البيت لايكون معه شهود هذه الأمورالمؤلمة، فكانت تبكي عند قراءة هذه الآية من هذه الناحية يعني أنها خرجت بنية الاقتداء بأوامر الله عن الإصلاح والقصاص وكسر الفتنة ، لكن الوقوع كان للأشياء الأخرى التي هي في عكس لما خرجت لها بالكامل والقرار في البيت يكون مانعا لشهود هذه الأشياء الأخرى غير المقصودة، بل المؤلمة الملهفة فكانت البكاء من هذه الناحية على قراءة هذه الآية ، والله أعلم ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. وأما حرب صفين فله شأن آخر وهو حصل بين سيدنا علي رضي الله تعالى عنه وفئته وسيدنا معاوية رضي الله تعالى عنه وفئته والأمر فيه أيضا يرجع إلى طلب قصاص سيدنا عثمان رضي الله تعالى عنه والمعلوم أنهم كلهم متفقون على لزومه ووجوبه ، لكن كما قلنا التمكن من القصاص يمكن عند استقرار أمر الخلافة وهو لم يحصل بعد ومعاوية رضي الله تعالى عنه كان من نفس العشيرة التي منها سيدنا عثمان رضي الله تعالى عنه يعني بنو أمية وكان معاوية رضي الله تعالى عنه يريد القصاص على الفور حتى بسببه كأنهٗ لم يكد يبايع سيدنا علي رضي الله تعالى عنه بالكامل يعني لم يكن ينازعه في مسئلة الخلافة على الظن أن عليا رضي الله تعالى عنه لم يكن أهلا لها، بل كان يعرف مناقب سيدنا علي رضي الله تعالى عنه ومقامه عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأنه أهل للخلافة؛ لأنهٗ أفضل الصحابة حينئذ ، لكن منازعته مع سيدنا علي رضي الله تعالى عنه هي في مسئلة قصاص عثمان رضي الله تعالى عنه ولم يكن على اعتقاد أنهٗ بالنفس

ليس أهلا للخلافة فبعد هذا البيان منازعته مع سيدنا علي رضي الله عنه لا يكسر الإجماع الذى ذكرنا على خلافته الحقة؛ لأنهٗ حتىٰ معاوية رضي الله تعالىٰ عنه لم ينازعه [1] فى مسئلة الخلافة إلا من جانب اخذ قصاص عثمان رضي الله تعالىٰ عنه وبعد انكشاف الحال عن حالة سيدنا علي رضي الله تعالىٰ عنه فى عدم تمكن أخذ قصاص سيدنا عثمان رضي الله تعالىٰ عنه التى قد بيّناها سابقا يزيل هذا الجانب أيضا من المنازعة مع سيدنا علي رضي الله تعالىٰ عنه فى مسئلة الخلافة ويظهر أن معاوية رضي الله تعالىٰ عنه كان مخطئا بلا شك فى مشاجرة مع سيدنا علي رضي الله تعالىٰ عنه التى أدت إلى حرب كبير بين المسلمين وقتل عدد عظيم منهم ،ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ،وبعد إزالة هذا الجانب يستقر الإجماع علىٰ خلافة سيدنا علي رضي الله تعالىٰ عنه.

وقد جاء فى الحديث "أبشر عمار تقتلك الفئة الباغية." (سنن الترمذي، ح: ٣٨٠٠) وهذا حديث مشهور وسيدنا عمار رضي الله تعالىٰ عنه كان فى فئة سيدنا علي رضي الله تعالىٰ عنه واستشهد فى حرب صفين من جانب فئة معاوية رضي الله تعالىٰ عنه فقد صدق علىٰ فئة معاوية رضي الله تعالىٰ عنه الاسم "الفئة الباغية" وسيدنا علي رضي الله تعالىٰ عنه قال عنهم "إخواننا بغوا علينا." (السنن الكبرى للبيهقي، ح: ١٦٧١٣) وأيضا بعد شهادة سيدنا علي رضي الله تعالىٰ عنه تخلفه ابنه سيدنا حسن رضي الله تعالىٰ عنه فى أمر الخلافة وهو بعد ستة أشهر صالح مع معاوية رضي الله تعالىٰ عنه وانسحب من أمر الخلافة وصار معاوية رضي الله تعالىٰ عنه أميرعالم الإسلام كله، وهذا مصداق الحديث المشهور عن سيدنا حسن رضي الله تعالىٰ عنه "ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين." (صحيح البخاري، ح: ٢٧٠٤) وهذا حديث مشهور ونحن ذكرنا هذا الحديث ردا على الروافضة لأن بعضا منهم يقبلون هذا الحديث وفيه أن فئة معاوية رضي الله تعالىٰ عنه أيضا من المسلمين وأما نحن فنعرف هذا ولو لم نعرف هذا الحديث ، لكن لو سئل أنهٗ لا شك أن معاوية رضي الله تعالىٰ عنه وفئته من المسلمين ، لكن قد أطلق الحديث عليهم الاسم "الفئة الباغية" والبغى حرام ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ (النحل: ٩٠) فالبغى على الإمام الحق حرام فهٰذا يوجب القدح علىٰ معاوية رضي الله تعالىٰ عنه لارتكاب الفسوق، وأهل السنة لايجوّزون القدح علىٰ معاوية رضي الله عنه فكيف تلائم بين عمله والحديث الصحيح؟ فالجواب بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز: أن مثلا لو واحد يقتل آخرا خطأ فهٰذا لا يمنع كونه قاتلا لهٗ ، لكن مع هذا لا يستوى هو والقاتل بالعمد فإذا فهمت هذا فافهم أن إطلاق الاسم "الفئة الباغية" يصدق عليهم من أجل بغاوتهم ، لكن هل هذه البغاوة لاتباع الهوىٰ والشيطان أو كانت ناشئة من نية امتثال أوامر الله

(١) مكانهٗ يقول لعليّ رضي الله تعالى عنه أن يأخذ القصاص لعثمان رضي الله تعالى عنه وبعد ذلك يعطى لك بعد ذلك على الأمور.

تعالٰى من نفوذ القصاص وكسر شوكة أهل البغى فى الحقيقة الذين بغوا ظلما وعدوانا واتباعا للشيطان علٰى سيدنا عثمان رضي اللّٰه تعالٰى عنه وقتلوه ظلما عظيما رضي اللّٰه تعالٰى عنه وأدخله الجنة بالفوز والفلاح؟ فالجواب لابد من أن البغاوة كانت من أجل نية امتثال أوامر اللّٰه تعالٰى فكانت ناشئة علٰى النية الصحيحة ، لكن خاطئة من ناحية أن الواجب كان التعاون مع سيدنا علي رضي اللّٰه تعالٰى عنه حتٰى يستقر أمر الخلافة وتنشب أوتادها فى بلاد عالم الإسلام حتٰى يتمكنوا من القصاص فيقتصوا من القاتلين ، لكن معاوية رضي اللّٰه تعالٰى عنه أخطأ فى فهم هٰذا الأمر وذهل عنه فبغى علٰى علي رضي اللّٰه تعالٰى عنه وكان من الأمر ماكان ، لكن لا يجوز تفسيق معاوية ومن معهٗ من الصحابة رضي اللّٰه تعالٰى عنهم بسبب هٰذا الأمر لما ذكرنا أن بغاوتهم كانت ناشئة علٰى نية امتثال أوامر اللّٰه تعالٰى ، لكن هم أخطأوا فى اجتهادهم فى فهم صورة الحال علٰى وجه الصواب ، لكن المخطئى فى الاجتهاد لا يذم، بل يؤجر ويعذر، ولو يقال أنهم كانوا غير معذورين فى اجتهادهم لأن الخطأ البيّن فى الاجتهاد الذى يؤدى إلى أمر فاقم غير معذور كما حصل فى حق رجل شج فى رأسه ثم احتلم وسأل أصحابه عن الرخصة فى التيمم فقالوا لا نجد لك رخصة فى التيمم مع القدرة على الماء، فاغتسل ومات فقال رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم عن أصحاب الرجل "قتلوه قتلهم اللّٰه! ألا سألوا إذا لم يعلموا فإنما شفاء العى السؤال؟ إنما يكفيه أن يتيمم ويعصر أو يعصب (شك الراوى) علٰى جرحه خرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده." (سنن أبى داود، ح: ٣٣٦) فلم يعذرهم رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم فى الخطأ فى الاجتهاد، بل جرح عليهم جرحا شديدا لأن اجتهادهم أدّى إلى موت الرجل وأيضا بعض الأحيان الخطأ فى الاجتهاد بيّن من حيث أنهٗ يظهر أن المجتهد لم يستقصى جهده فيه، بل قصر تقصيرا فيستحق اللوم والجرح فلو يقال عن معاوية رضي اللّٰه تعالٰى عنه ومن كان معهٗ من أصحاب رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم فى منازعة مع علي رضي اللّٰه تعالٰى عنه أنهم كانوا غير معذورين فى اجتهادهم لأن الخطأ بيّن وأدّى إلى القتلة العظيمة، لقلنا بتوفيق اللّٰه تعالٰى إن شاء اللّٰه العزيز: أن هٰذا الخوض فى أمرهم كيف يفيدك فى الدنيا والآخرة؟ وثانيا: ولو سلمنا أن خطأهم لا يستحق العذر ، لكن فى الأخير هو خطأ وليس اتباع الهوىٰ والشياطين ،وثالثا :[1] ليس واحداً من أهل السنة والجماعة يقول أن الصحابة رضي اللّٰه تعالٰى عنهم كانوا معصومين، بل يجوز منهم وقوع السيئات، بل قد وقعت من بعضهم مثلا ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللّٰهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة:١٠٢) فى شأن بعض الصحابة رضي اللّٰه تعالٰى عنهم تخلفوا من غزوة تبوك ثم تابوا واللّٰه عزوجل قبل توبتهم وعفا عنهم، وكذٰلك

(١) وكذٰلك ما هو البيّن عند واحد قد يكون مخفيا عند آخر فقد يستحق العذر

الصحابي رضي الله تعالىٰ عنه اصاب قبلة من المراة الأجنبية فقرأ عليه رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ (هود:١١٤)، ومع ذٰلك لا يجوز القدح علىٰ هؤلاء الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم لأنهم ولو وقعوا فى السيئات ، لكن تابوا وتطهروا من أجل توبتهم وأعمالهم الصالحات فلو سُلِّمَ أن معاوية رضي اللّٰه تعالىٰ عنه ومن كان معهُ من أصحاب رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وقعوا فى السيئات من أجل مشاجرتهم مع سيدنا علي رضي الله تعالىٰ عنه بسبب الخطأ فى الاجتهاد ،لما كان القدح عليهم سائغا علىٰ ألسنتنا، لأنهم من أجل توبتهم واستغفارهم وأعمالهم الصالحات والفضيلة الحاصلة لهم لصحبة رسول اللّٰه صلى الله تعالىٰ عليه وسلم تطهروا منها ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (هود:١١٤)وقد وعد اللّٰه الحسنىٰ للذين أنفقوا وقاتلوا من المسلمين من قبل فتح مكة وبعدها، والمسبوق لهم الحسنىٰ يكونون بعيدا من النار وقد ذكرنا الحديث "لا تمس النار مسلما رآنى أو رأى من رآنى ." (سنن الترمذي، ح:٣٨٥٨) ومعاوية ومن كان معهُ من الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم شاملون فى هٰذه البشارة لا محالة والله أعلم ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

وإن سئل ماذا تقول فى التحكيم الذى كان من جهة معاوية رضي اللّٰه تعالىٰ عنه ومن جهة علي رضي الله تعالىٰ عنه وماذا تقول فى ما حكما الحكمان؟ فالجواب بتوفيق اللّٰه تعالىٰ إن شاء الله العزيز :أن الحرب فى صفين كان حربا شديدا حارا [1] فسألت فئة معاوية رضي الله تعالىٰ عنه التصفية فى ضوء القرآن [2] فتوقفوا جانبان من الحرب ثم حكّم معاوية رضي اللّٰه تعالىٰ عنه عمرو بن العاص رضي اللّٰه تعالىٰ عنه وحكّم علىّ رضي الله تعالىٰ عنه أبا موسىٰ الأشعرى رضي اللّٰه تعالىٰ عنه وهٰذا علىٰ شرط أنهما يحكمان علىٰ حكم القرآن والسنة كما فى القرآن ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا﴾ (النساء:٣٥) وهٰذا فى حق الزوجين ومسئلة فئتين عظيمتين من المسلمين والتصفية بينهما أشد أهمية بالأضعاف الكثيرة كما لا يخفىٰ وأيضا ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ (الحجرات:١٠) وأيضا ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾(النساء:٥٩) وكما قلنا هٰذا التحكيم علىٰ شرط أن يكون الحكم علىٰ حكم الله ورسوله صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم وأيضا ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ

(١) والصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم من الجانبين ما كانوا يريدون هٰذا طبعا وقطعا وهم كانوا يريدون السبيل لتوقف هٰذا النقصان العظيم فى جميعة المسلمين الذى يضعّف المسلمين ويفيد الكافرين والفاسقين من داخلهم وخارجهم فأرسل أهل الشام إلى علي رضي الله تعالىٰ عنه.

(٢) وتقبّل علي رضي الله تعالىٰ عنه وقال "أنا أحق به."

﴿إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ (النساء:١١٤) فهٰذا التحكيم موافق للقران والسنة ثم ما فعلا الحكمان ففيه روايتان فواحدة [1] منهما فيه أن عمرو بن العاص رضي الله تعالىٰ عنه خادع أباموسىٰ الأشعرى رضي اللّٰه تعالىٰ عنه وكذب وثم جرىٰ بينهما الكلام يهجم بعضه بعضا ونحن نردّ هذه الرواية لما فيها من نسبة الخدع والكذب والهجوم اللسانى إلى الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهما، فالرواية الأخرىٰ منهما ليس فيها أى شيء من هٰذه القبائح ففيها أنهما اتفقا [2] علىٰ عزل علي رضي الله تعالىٰ عنه ومعاوية رضي اللّٰه تعالىٰ عنه وتركا أمر الخلافة للمسلمين أن يختاروا من أنفسهم، وهٰذا كان خطأ عظيما منهما فلا يؤثر علىٰ خلافة علي رضي الله تعالىٰ عنه، لأن أولا: لا معنى لعزل [3] معاوية رضي الله تعالىٰ عنه؛ لأنهٗ لم يكن خليفة حتىٰ يتصور العزل منها فلا يتأثر بهٰذا الإتفاق إلا سيدنا علي رضي الله تعالىٰ عنه الذى هو كان خليفة حقًا،بويع علىٰ خلافته من جلة الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم، فكيف يقولان أنهما يعزلان كلى منهما، والحقيقة أنهٗ لا يتصور العزل فى واحد منهما فهٰذا الاتفاق لم يكن عدلابل مخطئا، وثانيا :لايجوز قطعا عزل الإمام الحق إلا بالفسوق والفجور وحاشا لله أن يكون الإمام علي رضي اللّٰه تعالىٰ عنه كذٰلك، بل هو رجل صالح شهيد ذومناقب فى الإسلام وسنذكر مناقبه قريبا إن شاء اللّٰه العزيز والتحكيم كما قلنا كان علىٰ شرط أن يكون الحكم علىٰ وفق القرآن والسنة وعزلهٗ ليس كذا فلا ينفذ الحكم فلا تتأثر خلافته رضي الله تعالىٰ عنه، وثالثا: سيدنا علي رضي الله تعالىٰ عنه نفسه لم يسوغ للحَكم من جانبه أن يعزلهٗ، بل كان التحكيم عنده للتصفية بينه وبين معاوية رضي الله تعالىٰ عنه لأن المشاجرة من جهته مع علي رضي اللّٰه تعالىٰ عنه أدت إلى قتلة عظيمة فى المسلمين ومن الواجب كبح هٰذا الأمر بالشدة وهٰذا كان وجه التحكيم عند علي رضي الله تعالىٰ عنه وليس علىٰ وجه بقاء خلافته أو إقالته منها البتة ؛ لأنهٗ كان خليفة حقًاوكان يعرف نفسه أنهٗ كذٰلك وأنه بنسبة معاوية رضي الله تعالىٰ عنه أهل للخلافة بأضعاف كثيرة، بل لا مقارنة بينه وبين معاوية رضي اللّٰه تعالىٰ عنه فى أمر الخلافة علىٰ وجه ما وهٰذا كان معروفا عند جميع المسلمين لأن عليًا رضي الله تعالىٰ عنه من السابقين الأولين ومن العشرة المبشرة والقريب الخاص والحبيب الخاص [4] عند سيدنا

---

(١) وهٰذه رواية باطلة عقلا ونقلا سندا ودراية فلا تفاوت إليه ألبتة وذكرناها فقط لبيان بطلانها۔

(٢) وهٰذا الاتفاق أيضًا لم يثبت بنقل صحيح ولأن سيدنا عليّ رضي الله تعالى عنه كان إماما حقًافكيف اتفقا على عزله فالكلام فى هٰذه الرواية على وجه ثبوتها وهي نقلا وعقلا غير موجودة۔

(٣) ولهٰذا السبب أيضًا هٰذا الاتفاق على العزل غير مقبول ولأن نزاع معاوية رضي الله تعالى عنه لم يكن فى مسئلة الخلافة، بل فى مسئلة قصاص عثمان رضي الله تعالى عنه ولهٰذا هٰذا الاتفاق صحته مشكوك۔

(٤) يعنى على وجه الخصوص الذى ليس لمعاوية رضي الله تعالى عنه

ورسولنا ونبينا صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وأفضل الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم بعد الخلفاء الثلاثة السابقة رضي الله تعالىٰ عنهم وليس عند معاوية رضي الله تعالىٰ عنه شيئًا من هٰذه المناقب.

فحاصل الكلام أن الحكم من هٰذين الحكمين كان تجاوزا وخطأ عظيما ولم يكن عدلا موافقا للقرآن والسنة فلا يؤثر علىٰ استمرار خلافة علي رضي الله تعالىٰ عنه حتىٰ استشهد رضي الله تعالىٰ عنه، ومع هٰذا نقول أن هٰذان الحكمان فعلا ما فعلا ليس قصدا أن يخالفا حكم الشريعة الإسلامية، بل علىٰ سوء الفهم والخطأ فی الاجتهاد وسوء التفقه لصورة الحال وما فوض إليهما من الأمر فبدلا أن يحاولا للتصفية بين الفئتين من المسلمين وفاوضا عليها، طفقا يتكلمان علىٰ شيء لم يكن لهما أن يفاوضا فيها وهو أمر الخلافة وهٰذا من سوء الفهم والخطأ فی تفقه الأمر ولم رأيا أن يسحبا أمر الخلافة من مكانتها حتىٰ لا تكون مجالة لمنازعة معاوية رضي الله تعالىٰ عنه مع سيدنا علي رضي الله تعالىٰ عنه فيها التی فرعت من مسئلة قصاص عثمان رضي الله تعالىٰ عنه كما بيّناه سابقا، ودفعها إلى مجتمع المسلمين أن يختاروا من أنفسهم وهٰذا كان خطأ عظيما منهما ، لكن كان بحسن النية منهما أنهما رأيا فيه مصلحة للمسلمين ولم يفهما أن تحكيمهما لم يكن لهٰذا الأمر لا سيما من جانب علي رضي الله تعالىٰ عنه فكان خطأ فی الاجتهاد والفهم والتفقه لصورة الحال ولما حُكّما اليهما والله غفور رحيم.

وإن سألتم ما ذا تقولون فی الخوارج؟ قلنا بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز أننا مسلمون نتبع أوامر الله ورسوله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فنقول فيهم ما قال رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم عنهم "يخرج قوم من أمتی يقرؤن القرآن ليست قراء تكم إلى قراء تهم شيئًا ولا صلاتكم إلى صلاتهم شيئًا ولا صيامكم إلى صيامهم شيئًا يقرؤن القرآن يحسبون أنهٗ لهم وهو عليهم لاتجاوز صلاتهم تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية وآية ذٰلك أن فيهم رجلا لهٗ عضد وليست لهٗ ذراع ، علىٰ عضده مثل حلمة الثدی عليه شعرات بيض." (صحيح مسلم، ح:١٠٦٦) وقد وجد هٰذا رجلا مع الخوارج عند قتالهم ضد علي رضي الله تعالىٰ عنه مع القتيل بعد الحرب وفی رواية "هم شر الخلق والخليقة طوبىٰ لمن قتلهم وقتلوه يدعون إلى كتاب الله وليسوا منه فی شيء من قاتلهم كان أولىٰ بالله تعالىٰ منهم." (سنن أبی داود، ح:٤٧٦٥) وفی رواية "يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان لئن أنا والله أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد." (صحيح البخاري، ح: ٣٣٤٤) وفی رواية "تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق." (صحيح مسلم، ح:١٠٦٤) "يكون فی أمتی فرقتان فيخرج من بينهما مارقة يلی قتلهم أولاهم بالحق." (صحيح مسلم، ح:١٠٦٤) "تمرق مارقة فی فرقة من الناس فيلی قتلهم أولى الطائفتين بالحق." ((صحيح

مسلم، ح:١٠٦٤) "أن النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ذكر قوما يكونون فى أمته يخرجون فى فرقة من الناس سيماهم التحالق، هم شر الخلق أو من أشر الخلق يقتلهم أدنىٰ الطائفتين إلى الحق." ((صحيح مسلم: ح:١٠٦٤) وفى هٰذه الأحاديث بشارة عظيمة لسيدنا علي رضي الله تعالىٰ عنه وفئته ومعنى الحديث أنهٗ تكون فى أمتي فرقتان يعنى جماعة علي وجماعة معاوية رضي الله تعالىٰ عنهما وتخرج من بينهما مارقة وهم الخوارج ويلى قتلهم أولاهم بالحق يعنى جماعة علي رضي الله تعالىٰ عنه فهم أولى بالحق وأدنى إلى الحق من جماعة معاوية رضي الله تعالىٰ عنه لأنهم علىٰ خطأ وأولى بالحق يشمل الخلافة أيضا ولهٰذا قلنا أن الحكمان [1] أخطئا فى عزلهما عليا رضي الله تعالىٰ عنه.

وقصة الخوارج هي لما باشرا معاوية وعليا رضي الله تعالىٰ عنهما التحكيم ونحن قد دللنا عليه من القرآن، خرج جماعة من بينهما فقالت "لاحكم إلا لله" وهٰذا القول على الظاهر حق بالتمام، لٰكن هم أرادوا من هٰذا إبطال التحكيم، والتحكيم علىٰ شرط أن الحكم يحكم بما أنزل الله موافقا للقرآن والسنة ولهٰذا سيدنا علي رضي الله تعالىٰ عنه قال [2] "الكلمة الحق أريد بها الباطل" وفى القرآن ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ﴾ (المائدة: ٤٩) فهٰذه الجماعة أبطلت التحكيم وكفّرت (ونعوذبالله) عليا وجماعته ومعاوية وجماعته رضي الله تعالىٰ عنهم، بل كفّروا كل واحد لم يوافقهم، بل قاتلوا ضدهم ،فقاتل ضدهم سيدنا علي رضي الله تعالىٰ عنه مع فئته، واستمر القتال بينهما حتىٰ واحد من الخوارج قتل سيدنا علي رضي الله تعالىٰ عنه وهم أرادوا قتل معاوية رضي الله تعالىٰ عنه أيضًا، لٰكن حفظه الله تعالىٰ من أيديهم ورزق الله تعالىٰ الشهادة فى سبيله إلى علي رضي الله تعالىٰ عنه علىٰ أيدى هؤلاء المارقين.

واستشهد علي رضي الله تعالىٰ عنه فى الكوفة علىٰ يد الخارجي [3] يقال عبد الرحمٰن بن ملجم فى شهر رمضان المبارك يوم واحد وعشرين منه فى سنة أربعين من الهجرة ودفن فى الكوفة رضي الله تعالىٰ عنه، اسمه علي، لقبه أسد الله والمرتضى، كنيته أبو الحسن وأبو التراب، من أقرب الناس نسبا إلى رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم يعنى ابن عمه أبى طالب، أول الناس إسلاما فى الصبيان من السابقين الأولين، زوج بنت رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فاطمة الزهراء رضي الله تعالىٰ عنها، أبو الحسن والحسين رضي الله تعالىٰ عنهما، أفضل الصحابة بعد الخلفاء الثلاثة

(١) وهٰذا على صحة واقعة الاتفاق للعزل وهي (صحته) غير موجود

(٢) يعنى قول الخوارج

(٣) ويقال: إنهٗ كان رافضيا خارجيا ولأنهٗ قد بايع عليًا رضي الله تعالىٰ عنه وثم قتله وعلىٰ هٰذا قاتل عليّ رضي الله تعالىٰ عنه هو من الرافضة الشيعة كما صاروا قاتلوا حسين ابن علي رضي الله عنهما أيضًا الرافضة الشيعة وهم يدّعون حب أهل البيت ـ قاتلهم الله ولعنهم.

السابقة رضي الله تعالىٰ عنهم وزمان خلافته حوالى خمس سنوات إلا ثلاثة أشهر.

وقد جاء ت فى مناقبه أحاديث كثيرة جدا كمثل الخلفاء الثلاثة السابقة وهو من أحد العشرة المبشرة مثل الخلفاء الثلاثة السابقة.

فمن الأحاديث فى مناقبه أن النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم قال لعلي بن أبى طالب "أنت منى وأنا منك." (صحيح البخاري، ح: ٢٦٩٩) عن علي رضي الله تعالىٰ عنه قال "لقد عهد إلى النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم النبي الأمّيّ أنهُ لايحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق." (سنن الترمذي: ح: ٣٧٣٦) "أن النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم قال لعليّ رضي الله تعالىٰ عنه أنت منى بمنزلة هارون من موسىٰ إلا أنهُ لا نبي بعدى." (صحيح مسلم، ح: ٢٤٠٤) وهٰذا لما رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم خلّفه فى بعض مغازيه فقال لهُ علي رضي الله تعالىٰ عنه تخلفنى مع النساء والصبيان؟ وجواب النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم لعلي رضي الله تعالىٰ عنه ومعناه والله أعلم أن كما سيدنا موسىٰ عليه السلام خلف أخاه سيدنا هارون عليه السلام أميرا مسؤلا نائبا عن سيدنا موسىٰ عليه السلام فى بنى إسرائيل لما ذهب إلى الطور فهٰكذا خلف رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم عليا رضي الله تعالىٰ عنه مسئولا نائبا عن الرسول عليه الصلوات والسلام إلا أنهُ لا نبوة بعدهُ ولا معهُ[1] لغيره عليه الصلوات والسلام، والحديث "الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وأبوهما خير منهما." (سنن الترمذي، ح: ٣٧٦٨) و قال الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم يوم خيبر "لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسولهُ ويحبه الله ورسوله" فأعطاه عليا رضي الله تعالىٰ عنه ففتح الله عليه رضي الله تعالىٰ عنه. (المعجم الكبير، ح: ٥٩٥)

وقد روى الحديث عن سيدنا علي رضي الله تعالىٰ عنه أن الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم قال عنه "من كنت مولاه فعلي مولاه اللّٰهم وال من والاه وعاد من عاداه." (المستدرك للحاكم، ح: ٥٥٩٤) والرافضة يستدلون بهٰذا الحديث علىٰ استحقاق خلافة علي رضي الله تعالىٰ عنه بعد النبي الكريم صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ولا حاجة لامسة فى إطالة الرد لهٰذا الاستدلال؛ لأنهُ باطل بالبداهة لأن الحديث لا يدل على استحقاق الخلافة فى وجه ما فنحن نقتصر بذكر الأشياء الظاهرة الكافية الدامغة لهٰذا الاستدلال.

(١) أن الحديث ليس بمتواتر ثم مع كونه خبر الواحد اختلف فى صحته وقد طعن فيه أبو داؤد السجستانى وأبو حاتم الرازى واستدلا علىٰ بطلانه بأن النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم قال "الأنصار ومزينة وجهينة وغفار وأشجع مواليّ دون الناس ليس لهم مولى دون الله ورسوله." (سنن

---

(١) فى حياته وبعد وفاته عليه الصلوات والسلام

الترمذي، ح: ٣٩٤٠) قالوا فلو كان قد قال "من كنت مولاه فعلي مولاه" لكان أحد الخبرين كذبا.

(٢) ولو قيل أن الحديث صحيح غير معلول ولا يخالف الحديث الآخر بتأويل أنهٗ الرسول عليه الصلوات والسلام مولى لهم فعلي مولى لهم تبعا بسبب الحديث الآخر فهٰذا تأويل ليس قويا لأن الحديث يقول "ليس لهم مولى دون الله ورسوله" وهٰذا حديث أخرجه مسلم(ح: ٢٥٢٠) وهو حديث ثابت وعلٰى وجه ثبوت الحديث الآخر مع التأويل الموفق بين الحديثين، الحديث فى نفسه لا يدل على الخلافة فى وجه ما كما ذكرنا لأن الكلمة "المولى" لها معانى كثيرة فى اللغة كما هو المعلوم ، ففى بعض المعانى لا يجوز استخدامها إلا لله تعالٰى ﴿أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:٢٨٦) وهٰذا فى معنى "أنت ولينا وناصرنا (الحقيقى) وعليك توكلنا وأنت المستعان وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بك" والمعلوم أن هٰذا المعنى غير مراد فى الحديث وقد يكون علٰى معنى "العبد" أو "العبد أعتقه مولاه" أو "المولى" "الذى يعتق عبده" والمعلوم أن هٰذه المعانى غير مرادة وكذٰلك هناك بعض المعانى الأخرىٰ التى بالبداهة معلومة عنها أنها غير مرادة لعدم المناسبة والعلاقة وما بقى من المعانى بعدها فلا يكون واحد منها أحرىٰ من آخر إلا بالدليل، والحمد لله أنهٗ قد وجد الدليل وهو رواية أخرىٰ عن نفس البيان الذى فى الحديث أخرجه ابن ماجة وألفاظه "فهٰذا (علي رضي الله تعالٰى عنه) ولى من أنا مولاه، اللّٰهم وال من والاه، اللّٰهم عاد من عاداه ." (سنن ابن ماجة، ح: ١١٦) "إن عليا منى وأنا منه وهو ولى كل مؤمن من بعدى." (سنن الترمذي، ح: ٣٧١٢) فهٰذان الحديثان قد صرحا علينا وفسرا معنى "المولىٰ" وهو "الولى" ومعناه "صديق قريب" ويؤيد ما فى الحديث "اللّٰهم وال من والاه وعاد من عاداه ." (سنن ابن ماجة، ح: ١١٦) يعنى "اللّٰهم من يجعله صديقا محبوبا فواله وأحبه ومن يجعله عدوا بغيضا فعاده وأبغضه"وهٰذا مناقب ظاهر وفضيلة عظيمة لسيدنا علي رضي الله تعالٰى عنه مع أن هٰذا الشيء ثابت لجميع الصحابة رضي الله تعالٰى عنهم [1] كما فى الحديث "فمن أحبهم فبحبى أحبهم ومن أبغضهم فيبغضى أبغضهم ومن آذاهم فقد آذانى ومن آذانى فقد آذى الله تعالٰى ومن آذى الله تعالٰى فيوشك أن يأخذه." (سنن الترمذي، ح: ٣٨٦٢) وكذٰلك كون الولى للمؤمنين ليس مختصا بسيدنا علي رضي الله تعالٰى عنه وفى القرآن ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ (التوبة: ٧١) ، لكن تخصيص علي رضي الله تعالٰى عنه لذكر هٰذه الأشياء فى هٰذا الحديث والله أعلم بسبب ما علم الرسول صلى الله تعالٰى عليه وسلم بذريعة الوحي من الفتن والمشاكل والمصائب والمخالفة والمشاجرة التى

(١) بل لجميع المسلمين ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (الأحزاب:٥٨) ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ (البروج: ١٠)

واجهها سيدنا علي رضي الله تعالیٰ عنه فی حياته فالرسول عليه الصلوات والسلام صرح وأكد علیٰ حب علي رضي الله تعالیٰ عنه مخبرا أن الحق يكون معهٗ واللازم موالاته وتأييده ومتابعته ضد الذين يشاجرونه [1] وكذٰلک من يعادونه ونعوذ بالله كما جاء فی الحديث الآخر قد ذكرناه "لا يحبک إلا مؤمن ولا يبغضک إلا منافق." (سنن الترمذي، ح: ٣٧٣٦) وغرض هٰذا الحديث والله أعلم نفس الشيء يعني تخصيصه بذكر هٰذا بسبب الأشياء التي واجهها هو فی حياته وإلا لاشک أن حب أبا بكر وعمر وعثمان أيضا من الإيمان وبغضهم نفاق، بل هٰذا لجميع الصحابة، بل لجميع المسلمين لأن من لا يحب المسلمين، بل يبغضهم فلا يكون مؤمنا وهٰذا الحديث يدل علیٰ إيمان علي رضي الله تعالیٰ عنه إلی الموت؛ لأنهٗ ولی لكل مؤمن بعد الرسول صلی الله تعالیٰ عليه وسلم والمؤمنون هم بعضهم أولياء بعض فيعني يكون علي رضي الله تعالیٰ عنه مؤمنا إلی الموت حتیٰ يكون وليًا لكل مؤمن وهٰذهٖ منقبة عظيمة مع كونه من العشرة المبشرة أيضا يدل علیٰ هٰذا لأن لما العشرة المبشرة ومنهم الخلفاء الأربعة، أبوبكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله تعالیٰ عنهم من أهل الجنة مقطوعا بهٖ فهٰذا لا يعني إلا أنهم يموتون علی الإيمان لأن أهل الجنة لا يكونون إلا مؤمنين.

(٣) وما ذكرنا من صحة الحديث وشرحهٖ فيه كفاية، وإضافة علیٰ هٰذا أنهٗ ما جاء فی الأحاديث فی النص (يعني غير مباشر) علیٰ خلافة أبی بكر وكذٰلک الإشارات إلی خلافة عمر وعثمان ترتيبا واحدا بعد آخر كما وقعت هي أقوی بأضعاف من الحديث "من كنت مولاه فعلي مولاه، اللّٰهم وال من والاه وعاد من عاداه." (المستدرک للحاكم، ح: ٥٥٩٤) فهٰذه النصوص علیٰ خلافة الخلفاء الثلاثة أيضا تدل علیٰ أن هٰذا الحديث لا يدل علیٰ خلافة علي رضي الله تعالیٰ عنه فی وجه من الوجوه حتیٰ لو يفترض أنهٗ يدل علیٰ خلافته لكانت الدلائل لخلافة أبی بكر وبعدهٗ عمر تُسقط هٰذا الحديث من الاعتبار لأن هٰذه الدلائل أصرح وأقویٰ بأضعاف.

فبعد شهادة سيدنا علي رضي الله تعالیٰ عنه قرروا المسلمون لا سيما من فتنه ومحاميه ابنه سيدنا الحسن رضي الله تعالیٰ عنه خليفة يتخلف أباه سيدنا علي رضي الله تعالیٰ عنه وسيدنا الحسن رضي اللّٰه تعالیٰ عنه لأجل اتحاد المسلمين وكسر المشاجرات والمعارک بينهم انسحب من الخلافة بعد ستة أشهر وبايع علیٰ يد سيدنا معاوية رضي الله تعالیٰ عنه وصدق حديث رسول الله صلی اللّٰه تعالیٰ عليه وسلم وهو الصادق الأمين عن ابن بنته سيدنا الحسن رضي الله عنه "ابني هٰذا سيد ولعل اللّٰه أن يصلح بهٖ بين فئتين من المسلمين." (صحيح البخاري، ح: ٣٦٢٩) وعمل هٰذا

(١) وهٰذا لا يعني جواز القدح علیٰ معاوية رضي الله تعالیٰ عنه (نعوذ بالله)؛ لأنهٗ فعل ما فعل ليس علیٰ بغض عليٍّ رضي الله تعالیٰ عنه (ونعوذ بالله)، بل لقصاص عثمان رضي الله عنه وغايته ليس عليًا رضي الله عنهٗ، بل قاتلي عثمان رضي الله عنه.

لسيدنا الحسن رضي الله تعالیٰ عنه مع المعلوم أنهٗ أحق بالخلافة من سيدنا معاوية رضي الله تعالیٰ عنه بأضعاف كثيرة، بل لا مقارنة بين مناقب الحسن ومناقب معاوية رضي الله تعالیٰ عنهما لأن سيدنا الحسن رضي الله تعالیٰ عنه ريحانة رسول الله صلی الله تعالیٰ عليه وسلم وسيدشباب أهل الجنة ،فانسحابه من أمر الخلافة وصلحه مع معاوية رضي الله تعالیٰ عنه فيه مثال مثيل للخصائل الحميدة من التواضع وكسر النفس والاهتمام بأمر المسلمين والشغل عن اتحاد كلمتهم ودفع الأمور المضرة عنهم حتیٰ علیٰ قيمة التضحية للأمور الذاتية، وصلح الحسن رضي الله تعالیٰ عنه كان ختاما لخلافة النبوة، وهي ما يقال الخلافة الراشدة وهي بعد النبي صلی الله تعالیٰ عليه وسلم لثلاثين سنة كما فی الحديث "خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يؤتی الله الملک أو ملكه من يشاء." (سنن أبی داود، ح:٤٦٤٧) "خلافة النبوة ثلاثون سنة" وهٰذا

خلافة أبی بكر رضي الله تعالیٰ عنه	سنتان وأربعة أشهر
خلافة عمر رضي الله تعالیٰ عنه	عشر سنة وستة أشهر
خلافة عثمان رضي الله تعالیٰ عنه	إثنتا عشر سنة إلا اثنا عشرة يوما
خلافة علي رضي الله تعالیٰ عنه	تقريبا خمس سنوات إلا ثلاثة أشهر
خلافة الحسن رضي الله تعالیٰ عنه	ستة أشهر = حوالی ثلاثون سنة

فامير معاوية رضي الله تعالیٰ عنه هو أول الملک بعد الخلافة الراشدة فإمارته لا تعتبر خلافة النبوة، وخلافة النبوة التی هي لثلاثين سنة هي التی المرادة بهٰذا الحديث "عليكم بسنتی وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ." (شرح مشكل الاثار، ح:١١٨٦) فنقول سنن هٰؤلاء الخلفاء الراشدين واجبة بأمر الرسول صلی الله تعالیٰ عليه وسلم ولأنهم لم يعملوا إلا بسنة النبي الكريم صلی الله تعالیٰ عليه وسلم أو باستنباطها من القرآن والسنة.

وإن قيل أن هٰذا قدح عظيم علیٰ معاوية رضي الله تعالیٰ عنه أنهٗ أول من كان ملكا بعد ثلاثين سنة ولا يجوز قدحه كما هو المسلّم عند أهل الحق ،فالجواب بتوفيق الله تعالیٰ :أن معاوية رضي الله تعالیٰ عنه أيضا كان خليفة مع كونه ملكا لأن الحديث يتكلم عن خلافة النبوة وليس خلافة علی الإطلاق ويدل علی ما قلنا الحديث الصحيح "لا يزال هٰذا الدين عزيزا منيعا إلی اثنی عشر خليفة كلهم من قريش." (صحيح مسلم، ح: ١٨٢١) وهٰذا يشمل خلافة معاوية رضي الله تعالیٰ عنه، بل يكون من مناقبه رضي الله تعالیٰ عنه وثم لا مقارنة بين معاوية رضي الله تعالیٰ عنه والخلفاء الراشدين رضي الله تعالیٰ عنهم، لأنک لو فعلت هٰذا كأنک تقارن بين الذهب والفضة، فمعاوية رضي الله تعالیٰ عنه توسع فی المباحات ولم يكن فی درجة الخلفاء الراشدين ، لكن هٰذا لا يستلزم ارتكاب

المحرمات وكان الخلفاء الراشدون لم يتوسعوا فی المباحات وكان سيرتهم سيرة النبي صلى الله تعالیٰ عليه وسلم فی الصبر علیٰ ضيق العيش والجهد فی التقویٰ والاتقاء عن مقتضيات الطبائع البشرية فكانت خلافة معاوية رضي الله تعالیٰ عنه لم تكن خلافة النبوة ، لكن هٰذا لا يستلزم ارتكاب المحرمات كما قلنا. واعلم أن سيدنا معاوية رضي الله تعالیٰ عنه كان يعرف ويعترف بمناقب الخلفاء الراشدين وهٰذا يشمل سيدنا علي رضي الله تعالیٰ عنه، وماجاء فی بعض الروايات الذی يناقض هٰذا فهو ليس متواترا فإما يؤول أو يُردّ لأن حب سيدنا علي رضي الله تعالیٰ عنه من أصول الإيمان وبغضه كفر لأن قد تضافر الأحاديث فی مناقبه وتكاثر وبغضه يقتضی إنكارا لها، وهٰذا لا يجوز علیٰ معاوية رضي الله تعالیٰ عنه لأن قد أجمع أهل الحق علیٰ صحابيته وعدالته ولا يجتمع أمة محمد صلى الله تعالیٰ عليه وسلم علیٰ ضلالة.

وأما استخلافه لبنيه يزيد فلا خلاف أنهٗ كان مخطئا فيه، ومع ذٰلک لعلهٗ رأیٰ فيه مصلحة للمسلمين؛ لأنهٗ قد شاهد الخلافات والمشاجرات، بل العراک بين المسلمين، فلعلهٗ مع كونه عالما بأن يزيد غير مناسب للخلافة وهناک عدد من الصحابة رضي الله تعالیٰ عنهم أحق بها رأیٰ أن استخلافه لبنيه قد يكون مانعا لخروج السيوف المتشابكة بين المسلمين مرة أخریٰ كما صالح سيدنا الحسن رضي الله تعالیٰ عنه مع معاوية رضي الله تعالیٰ عنه وبايع علیٰ يديه مع كونه عالما أن الكثير غيره أحق بالخلافة منه رعاية للمصالح، وأيضا لعلهٗ هو لم يرد من هٰذا الاستخلاف تحديد أمر الخلافة فی بنی عشيرته يعنی بنی أمية، بل فقط أراد استخلاف بنيه يزيد وما فكّر عما بعده؛ وأما تحديد أمر الخلافة فی بنی أمية فحصل ما بعد ومع ذٰلک ممكن أنهٗ استعلیٰ عليه بعض محبة الأبوة، فتجمعت كل هٰذه الأمور فی استخلاف بنيه يزيد ، لكن كما قلنا أنهٗ كان مخطئًا، ولعلهٗ كان ناشئا عن حسن النية والاهتمام والشغل لمصلحة المسلمين وثم المعلوم أنهٗ ليس معصوما والحسنٰت يذهبن السيئات والله غفور رحيم.

المتن:

وإن العشرة الذين سماهم رسول الله صلى الله تعالیٰ عليه وسلم وبشرهم بالجنة، نشهد لهم بالجنة علیٰ ما شهد لهم رسول الله صلى الله تعالیٰ عليه وسلم وقوله الحق وهم أبوبكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمٰن بن عوف وأبو عبيدة بن جراح وهو أمين هٰذه الأمة رضي الله تعالیٰ عنهم أجمعين.

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى الآن يتكلم عن الصحابة العشرة المعروف بالعشرة المبشرة يعني بالجنة رضي الله تعالى عنهم أجمعين فيقول أننا نحن نشهد لهم بالجنة كما ثبت بالصحة أن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بشرهم بالجنة وهو في رواية عبد الرحمن بن عوف وسعيد بن زيد رضي الله تعالى عنهما قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم "أبوبكر في الجنة وعمر في الجنة وعثمان في الجنة وعلي في الجنة وطلحة في الجنة والزبير في الجنة وعبد الرحمن بن عوف في الجنة وسعد بن أبي وقاص في الجنة وسعيد بن زيد في الجنة وأبوعبيدة بن الجراح في الجنة." (سنن الترمذي، ح:٣٧٤٧) وهؤلاء العشرة يقال العشرة المبشرة رضي الله تعالى عنهم ،وهم أفضل من غيرهم من الصحابة رضي الله تعالى عنهم وأفضلهم أبوبكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله تعالى عنهم أجمعين ثم الستة الباقية أفضل من غيرهم من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد جاء ت الأحاديث عن هؤلاء الصحابة العشرة رضي الله تعالى عنهم في مناقبهم غير الحديث الذي ذكرناه أنفا وقد ذكرنا الأحاديث في الخلفاء الأربعة وأما الستة الباقية: "إن لكل نبي حواريا وإن حواري الزبير بن العوام." (صحيح البخاري، ح:٢٨٤٧) "ومن سره أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله." (سنن الترمذي، ح: ٣٧٣٩) "اللّهم استجب لسعد إذا دعاك." (سنن الترمذي، ح: ٣٧٥١) "لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح." (صحيح البخاري، ح: ٤٣٨٢) "وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقول "إن أمركن لمِمّا يهمني بعدي ولن يصبر عليكن إلا الصابرون" ثم تقول عائشة فسقى الله أباك من سلسبيل الجنة تريد عبد الرحمن بن عوف وقد كان وصل أزواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بمال بيعت بأربعين ألفا." (سنن الترمذي، ح: ٣٧٤٩) وعن سعيد بن زيد أنهٗ قال "أشهد على التسعة أنهم في الجنة ولو شهدت على العاشر لم أثم قيل وكيف ذلك؟ قال كنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بحراء فقال "اثبت حراء ، فإنهٗ ليس عليك إلا نبي أو صدّيق أو شهيد" قيل من هم؟ قال(سعيد بن زيد) : رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأبوبكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة وزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف قيل فمن العاشر قال: أنا يعني سعيد بن زيد رضي الله تعالى عنهم أجمعين." (سنن الترمذي، ح:٣٧٥٧)

وإن قيل لماذا تخصيص الذكر بهؤلاء العشرة وهناك أصحاب أخرىٰ رضي الله تعالى عنهم الذين بشروا بالجنة؟ قلنا بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز: أن هذا كلام صحيح ، فمثلا

الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما والمعلوم أنهما من أهل الجنة كما فی الحديث "الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة" (سنن الترمذي، ح: ٣٧٨١) وقد جاء ت فی مناقبهما أحاديث كثيرة وكذلك أمهما سيدتنا فاطمة رضي الله تعالى عنها: أنها "سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم ابنة عمران ." (سنن الترمذي: ح: ٣٨٧٣) وكذلك عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها زوجة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فی الدنيا والآخرة كما فی الحديث وهذه بشارة للجنة لا محالة وكذلك عن خديجة رضي الله تعالى عنها بشرها زوجها نبي الله صلى الله تعالى عليه وسلم ببيت فی الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب وكذلك عبدالله بن سلام رضي الله تعالى عنه قال عنه معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه أنهٗ سمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال "إنه (يعنی عبد الله بن سلام) عاشر عشرة فی الجنة ." (سنن لترمذی، ح: ٣٨٠٤)، بل قد بشر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن الأعرابی الذی سأل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن عمل أدخله الجنة فقال صلى الله تعالى عليه وسلم "تعبدالله لا تشرک به شيئا، وتقيم الصلوٰة المكتوبة، وتؤدی الزكوٰة المفروضة، وتصوم رمضان ." (صحيح البخاري، ح: ١٤) وثم بعد تسليم الأعرابی لها بشر عنه بالجنة [1]، بل كما قلنا سابقا أن جميع أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أهل الجنة ومع ذٰلک من منهم بشروا بالجنة بالاختصاص فنحن نذكرهم بالاختصاص ونشهد لهم بالاختصاص وإلا قد جاء ت الأحاديث الكثيرة ،فی مناقب الأصحاب الأخرىٰ، ليست مبشرة بالجنة مباشرة ، لكن تدل على المناقب لهم التی لا تكون إلا لأهل الجنة فتدل بطريقة غير مباشرة علىٰ أهليتهم للجنة ، لكن من منهم بشروا مباشرة بالجنة فهم خصصوا بذكر أهلية الجنة كما نحن ذكرنا كثيرا منهم ونحن نشهد لكلهم بالجنة ، لكن الذين بشروا بالجنة مباشرة وذُكروا بالأجمع فی نفس الحديث واشتهروا بين المسلمين باللقب العشرة المبشرة وهم هٰؤلاء الصحابة العشرة رضي الله تعالى عنهم الذين جمعهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فی الحديث الواحد وثم اشتهر هذا الحديث بين المسلمين واستفاض، فهٰؤلاء صارلهم ذكر بأهلية الجنة بأخص الاختصاص ، فلهٰذا يذكرون هٰؤلاء العشرة بأخص الاختصاص بالشهود عليهم بالجنة، ولأن هٰؤلاء أفضل الصحابة رضي الله تعالى عنهم من غيرهم من أجل سابقيتهم إلی الإسلام والتضحية التی صرفوا لهٗ؛ وقدجاء ت فی هٰؤلاء العشرة الأحاديث فی مناقبهم وقد ذكرنا بعضا منها فنشهد لهٰؤلاء بالجنة بالقطع مع كل من شهد له الرسول

(١) وهذا لا يعنی تبشير بالجنة على أداء هذه الفرائض فقط، بل لا بد من اجتناب المحرمات كلها ولو وقع منها شيء فالتوبة منه وكذلك أداء جميع الواجبات والكلمة "تعبدالله" فی الحديث يدل على كل ما ذكرنا لأن العبادة لله تعالى تشمل امتثال أوامره واجتناب منهياته كلها فافهم ولا تغتر

صلى الله تعالىٰ عليه وسلم بالجنة فنشهد لهم بالجنة أيضا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العٰلمين.

المتن:

ومن أحسن القول في أصحاب رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وأزواجه الطاهرات من كل دنس وذرياته المقدسين من كل رجس فقد برئ من النفاق.

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالىٰ أعاد مرة أخرىٰ ضرورة إحسان القول في حق الصحابة رضي الله تعالىٰ عنه وهٰذا كما هو الظاهر من هٰذا الكتاب أن عادة الشيخ رحمه الله تعالىٰ إعادة الأشياء الضرورية تأكيدا وإظهارا لعظمتها ونحن الحمد لله رب العٰلمين قد فصلنا الكلام عن الصحابة رضوان الله تعالىٰ عليهم أجمعين ، لكن الشيخ رحمه الله تعالىٰ فتح بابا آخرا وهو عن الأزواج المطهرات لسيدنا ونبينا صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وكذٰلك ذرياته الطيبات وهٰذا في الجملة يقال أهل بيت النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم. فاعلم أن الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم لهٗ أحد عشرة زوجا فالاثنتان منهن توفيتا في حياته صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وكانت التسعة الباقية أحياء عند رحل رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم من هٰذه الدنيا، والأسماء لأزواجه المطهرات هي ما يلي من حيث ترتيب زواجهن

(١) خديجة بنت خويلد رضي الله تعالىٰ عنها توفيت في حياة النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم

(٢) سودة بنت زمعة رضي الله تعالىٰ عنها

(٣) عائشة بنت أبي بكر رضي الله تعالىٰ عنها

(٤) حفصة بنت عمر الفاروق رضي الله تعالىٰ عنها

(٥) زينب بنت خزيمة رضي الله تعالىٰ عنها توفيت في حياة النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم

(٦) أم سلمة بنت أبي أمية رضي الله تعالىٰ عنها

(٧) زينب بنت جحش رضي الله تعالىٰ عنها

(٨) جويرية بنت حارث رضي الله تعالىٰ عنها

(٩) أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله تعالىٰ عنها

(١٠) صفية بنت حيي رضي الله تعالىٰ عنها

(١١) ميمونة بنت حارث رضي الله تعالىٰ عنها

وعلاوة الأزواج لرسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ثلاثة إماء (١) مارية قبطية رضي الله عنها (٢) ريحانة بنت شمعون رضي الله تعالىٰ عنها (٣) نفيسة رضي الله تعالىٰ عنها

وأما أولاد النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فلهٗ ثلاثة أولاد ذكور [1]

وفي قول خمسة، (١) قاسم رضي الله عنه(٢) عبدالله رضي الله تعالىٰ عنه ويقال طيب وطاهر أيضا والبعض يقولون أنهما ولدان آخران (٣) إبراهيم رضي الله تعالىٰ عنه.

واعلم أن كل أولاد النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم الذكور فتوفوا في حياة النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وأما أولاد النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم الأنثى فلهٗ أربعة أولاد أنثى، (١) زينب رضي الله تعالىٰ عنها (٢) رقية رضي الله تعالىٰ عنها (٣) أم كلثوم رضي الله تعالىٰ عنها(٣) فاطمة رضي الله تعالىٰ عنها، فكلهن كبرن وتزوجن ، لكن ماعدا فاطمة رضي الله تعالىٰ عنها الثلاثة الباقيات رضي الله تعالىٰ عنهن فتوفين في حياة النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم.

واعلم أن جميع أولاد النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم كانوا من زوجته خديجة رضي الله تعالىٰ عنها ماعدا إبراهيم رضي الله تعالىٰ عنه الذى كان من أمته مارية قبطية رضي الله تعالىٰ عنها واعلم أن سلسة ذرية النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فلم تمشى إلا من ناحية بنته فاطمة رضي الله تعالىٰ عنها من ولديها الحسن والحسين رضي الله تعالىٰ عنهما السبطين للنبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فانتشر نسل النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم من جهتهما.

ثم اعلم أن ما ذكرنا هو أهل بيت النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم، أما أزواجه المطهرات فظاهر لأن الأزواج هن أهل في اللغة وثم في القرآن عن قول الملائكة إلى سارة رضي الله تعالىٰ عنها زوج سيدنا إبراهيم عليه الصلوات والسلام ﴿قَالُوٓا أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ (هود:٧٣) فنوديت بأهل البيت وأيضا في أزواج النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ (الأحزاب:٣٣) وهٰذه الآية كلها وما قبلها وما بعدها في أزواج النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم كما هو ظاهر في سورة الأحزاب من الآية ٢٨ إلى الآية ٣٣، وأما الصيغة "عنكم" و "ويطهركم" يعنى صيغة الذكور فهي لشمول غيرهن في أهل البيت وسنذكر قريبا إن شاء الله العزيز.

فحاصل الكلام أن أزواج النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم من أهل بيت النبي صلى الله تعالىٰ

(١) لا ينافي ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ﴾ (الأحزاب: ٤٠) لأنهٗ لم يعش لهٗ ابن حتى يصير رجلا وأما الحسن والحسين فهما سبطان وثم كانا طفلين حينئذ ـ

عليه وسلم وأما أولاد النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فلا يخفى على العاقل أنهم أهل بيت النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم لأن الأولاد من أهل بيت الرجل لا محالة وهٰذا بديهي، وأما الجاريات فنقول انهن لسن علىٰ منوال الأزواج كما هو الظاهر، لكن هٰذا لا يمنع كونهن من أهل البيت من حيث الجملة لأن الجارية التى هي حرم الرجل تكون فراشه وتسكن فى بيته كما هي العادة والرجل يكون أبا لأولاد جاريته التى هي فراشه وأيضا الرجل يغار لجاريته التى هي فراشه كما يغار لزوجته فمراعاة لجميع هٰذه المعاني نقول من حيث الجملة أن الجاريات أيضا من أهل البيت وفى القرآن ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ الخ﴾ (الأحزاب:٥٠) فذكر الله الأزواج ومعهن الجاريات .

وأيضا فى الحديث أن رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم أرسل عليا رضي الله تعالىٰ عنه لضرب عنق [1] الرجل كان يتهم بأم ولد النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فوجده علي رضي الله تعالىٰ عنه مجبوبا ليس لهٗ ذكر فتركه وأخبر النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم عن حالته التى تدل علىٰ أن الاتهام [2] كان كذبا وهٰذا كلهٗ يدل علىٰ ما قلنا عن الجاريات فهن أيضا فى الجملة من أهل بيت النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم.

ثم اعلم أنهٗ قد جاء فى الروايات كون سيدنا علي رضي الله تعالىٰ عنه من أهل البيت ، ففى الحديث عن أم سلمة رضي الله تعالىٰ عنها زوج النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم قالت إن رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم جمع عليا وفاطمة والحسن والحسين رضي الله تعالىٰ عنهم ثم أدخلهم تحت ثوبه ثم جأر إلى الله عزوجل ثم قال "هؤلاء أهل بيتي ." (سنن لترمذى، ح: ٣٨٧١) قالت أم سلمة رضي الله تعالىٰ عنها فقلت يا رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم أدخلني معهم فقال صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "أنت من أهلي ." (شرح مشكل الاثار، ح:٧٦٣) والحديث الآخر عن أنس

---

(١) وإن قيل لماذا ضرب العنق لأن حد الزنا الجلد فى غير المحصن والرجم فى المحصن وأيضا يحتاج إلى أربعة شهداء قلنا بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز أن هنا أمر أهم من الزنا وهو الارتداد لأن التعاطى إلى حرمة النبي عليه الصلوات والسلام كفر صريح ومن يتعاطى إلى أم ولد النبي عليه الصلوات والسلام فقد كفر؛ لأنهٗ هتك حرمة النبي عليه الصلوات والسلام وحد الارتداد قتل وثبوته لا يحتاج إلى ما يحتاج ثبوت الزنا

(٢) يدل على أن الله عزوجل يحفظ الأزواج والجاريات للأنبياء عليهم الصلوات والسلام من الأشياء هٰكذا محافظة على حرمة أنبياء عليهم الصلوات والسلام وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنه "ما بغت أهل النبي قط"ثم لو يقال كيف أرسل النبي صلى الله عليه وسلم عليًا رضي الله عنه لضرب عنقه بدون ثبوت هٰذا الجرم كما هو الظاهر؛ لأن الانكشاف أن الاتهام كان كذبا يدل على عدم ثبوت الجرم بعد فالجواب إن شاء الله العزيز هو يمكن ان معنى الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل عليًا رضي الله عنه لضرب عنقه بعد التحقق والتثبت والافلا!

رضي اللّٰـه تـعالٰی عنه أن رسول اللّٰه صلی اللّٰه تعالٰی علیه وسلم كان يمر بباب فاطمة رضي اللّٰه تعالٰی عنـهـا ستة أشهـر إذا خـرج إلـی صـلاة الفجر يقول، "الصلٰوة يا أهل البيت إنما يريد اللّٰه ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا." (سنن لترمذی، ح:٣٢٠٦)

وهـنـاک الـروايات الأخریٰ فی نفس الموضوع، وهٰذا الحديث يدل علٰی كون علي رضي اللّٰـه تـعالٰی عنه من أهل البيت وأما فاطمة وولديها وأم المؤمنين سيدتنا أم سلمة رضي اللّٰه تعالٰی عنها فنحن قد ذكرنا عن أزواج وأولاد النبي صلی اللّٰه تعالٰی علیه وسلم أنهم من أهل بيته ، لكن مع هٰذا لأن الـنـاس يعدّون فی العادة أهل البيت خاصة من ذرية الابن ويعدّون ذرية البنت أهل البيت لزوجها وعشيرتـه ، فـفـی هٰذه الأحاديث قد بين النبي صلی اللّٰه تعالٰی علیه وسلم أن ذرية بنته العزيزة سيدتنا فاطمة رضي اللّٰه تعالٰی عنها هم ذريته وأهل بيته حتٰی لا يلتبس علی الناس وقياسا علٰی هٰذا تكون ذرية بناته الأخریٰ أيضا من ذريته وأهل بيته وقياسا علٰی سيدنا علي رضي اللّٰه تعالٰی عنه يكون سيدنا عثمان رضـي الـلّٰـه تـعالٰی عنه أيضا من أهل بيته؛ لأنهٗ أيضا ختن الرسول صلی اللّٰه تعالٰی علیه وسلم كما علي رضـي الـلّٰه تعالٰی عنه، بل قد يقال أن جميع أصهاره وأختانه[1] من أهل بيت النبي صلی اللّٰه تعالٰی علیه وسـلـم فـی الجملة قياسا علٰی سيدنا علي رضي اللّٰه تعالٰی عنه وفی القرآن ﴿وَهُوَ الَّذِىْ خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهٗ نَسَبًا وَّصِهْرًا﴾ (الفرقان:٥٤) ، لٰكن لماذا خصص سيدنا علي وفاطمة وولديهما رضي اللّٰه تـعالٰی عنـهـم أجـمـعـين بـالـذكر علی المنوال كما جاء فی الروايات دون البنات الأخریٰ والأختان الأخریٰ؟ فـالجواب بتوفيق اللّٰه تعالٰی إن شاء اللّٰه العزيز: هو أن المعلوم أن ذرية النبي صلی اللّٰه تعالٰی عـلـيه وسـلـم لـم يتسلسل إلامن جهة فاطمة رضي اللّٰه تعالٰی عنها دون الأولاد الأخریٰ فممكن أن الـرسـول صلی اللّٰه تعالٰی علیه وسلم قد علم هٰذا من الوحي فنوسب تخصيصهم بالذكر الصريح حتٰی يـعلم الناس أن هٰؤلاء هم من أهل بيت النبي صلی اللّٰه تعالٰی علیه وسلم وتكون ذريتها رضي اللّٰه تعالٰی عنـهـا منسوبا إلی النبي صلی اللّٰه تعالٰی علیه وسلم وأما البنون للنبي صلی اللّٰه تعالٰی علیه وسلم فكما ذكرنا كلهم توفوا فی الطفولية وأما البنات الأخریٰ فلم تمش سلسة الذرية للنبي صلی اللّٰه تعالٰی علیه وسلم من جهتهن وأما هن أنفسهن فلم تكن هناک حاجة لتخصيصهن بالذكر الصريح عن كونهن من أهـل البيـت لأن هـٰذا الشيء بديهي وكذٰلک الكلام فی البنون للنبي صلی اللّٰه تعالٰی علیه وسلم ولأن سـلسة الـذرية لـلـنـبي صـلـی اللّٰه تعالٰی علیه وسلم تسلسل من جهة فاطمة رضي اللّٰه تعالٰی عنها فقط وإكـرام أهـل البيت ومحافظة علٰی مراعاتهم (حبهم وإكرامهم) فرض واجب علٰی أمة النبي صلی اللّٰه تـعالٰی علیه وسلم كما فی الحديث "أذكّركم اللّٰه فی أهل بيتي." (صحيح مسلم، ح:٢٤٠٨) "أحبوا

---

(١) وهٰذا يشمل أبابكر وعمر رضي اللّٰه تعالٰی عنهما أبوی زوجتی النبي صلی اللّٰه تعالٰی علیه وسلم

أهل بيتي بحبي." (سنن لترمذي، ح: ٣٧٨٩) "مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق." (المستدرك للحاكم، ح: ٣٣١٢) فرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صرح بالصراحة أن فاطمة رضي الله تعالى عنها وذريتها هم أهل البيت حتى الأمة تعلم أن هؤلاء لهم إكرام أهل بيت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأما الأزواج والأولاد الأخرون فهم في أنفسهم من أهل البيت، لكن لم تتسلسل سلسلة أهل البيت من ناحيتهم كما ذكرنا ولأن كون الأزواج من أهل البيت معلوم من القرآن فلا حاجة للإعادة بالذكر لهن في الحديث، لكن القرآن قد أشار إلى شمول غير هن من أهل البيت معهن عند ما ذكر بصيغة الذكور ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٣) ، لكن من هؤلاء غيرهن؟ فهذا يحتاج إلى البيان فالأحاديث (مع القياس عليها) بيّن الذين هم غيرهن لكن من أهل بيت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولبيان هذا خصص بيت فاطمة رضي الله تعالى عنها للمزية التي عندها كما ذكرناها.

ثم اعلم أن كون ذرية البنات من الذرية لأبيهن أيضا معلوم من القرآن كما في حق سيدنا عيسى عليه السلام ﴿وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الأنعام: ٨٥) فشمل عيسى عليه السلام من ذريته والمعلوم أن ليس له أبا فلا يكون ذريته إلا من جهة الأم وهي سيدتنا مريم رضي الله عنها وكذلك الحديث "ابن أخت القوم منهم." (صحيح البخاري، ح: ٦٧٦٢) يدل على كون ذرية البنات من ذرية أبيهن ولقد قال رسول الله ﷺ عن الحسن ابن علي وابن فاطمة رضي الله تعالى عنهم "إن ابني هذا الخ." (صحيح البخاري، ح: ٢٧٠٤) وهذا أيضا يدل على ما ذكرنا.

ثم اعلم أن موالي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أيضا من أهل البيت في الجملة ويدل عليه الحديث أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم استعمل رجلا من بني مخزوم على الصدقة فأراد أبو رافع أن يتبعه فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم "إن الصدقة لا تحل لنا وإن مولى القوم منهم." (سنن لترمذي، ح: ٦٥٧) فشمل المولى في هذا التحريم الذي له ولأهله كما في الحديث "إن هذه الصدقة إنما هي أوساخ الناس [1] وإنها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد." (سنن النسائي، ح: ٢٦٠٩) وهذا يدل على ما ذكرنا عن موالي النبي صلى الله عليه وسلم. ثم هذا الحديث عن تحريم الصدقة لمحمد ولآل محمد صلى الله تعالى عليه وسلم يكون دليلا أن كلا من حرم عليه الصدقة لأجل هذا الحديث يكون من آل محمد صلى الله تعالى عليه وسلم يعني من أهل بيته، فلهذا

(١) تشبيه بالأوساخ والله أعلم لأن الناس يطهرون أموالهم بإخراج الصدقة (الزكوة) منها حتى لا تكون أموالهم وبال وعذاب عليهم يوم القيامة فشبه بأوساخ من حيث إخراجها لتطهير المال الباقي والله أعلم

نحن نریٰ سیدنا زید بن أرقم رضي اللّٰه تعالیٰ عنه شمل ال علي وال عقیل وال جعفر وال عباس رضي اللّٰه تعالیٰ عنهم من أهل بیت النبي صلی اللّٰه تعالیٰ علیه وسلم، فقال رضي اللّٰه تعالیٰ عنه أن النبي صلی اللّٰه تعالیٰ علیه وسلم قام فینا یوما خطیبا بماء یدعی خمّا بین مكة ومدینة فحمد اللّٰه تعالیٰ وأثنی علیه ووعظ وذكر ثم قال "أما بعد الا أیها الناس فإنما أنا بشر یوشك أن یأتینی رسول ربی فأجیب وأنا تارك فیكم ثقلین أولهما كتاب اللّٰه تعالیٰ، فیه الهدی والنور فخذوا بكتاب اللّٰه واستمسكوا به" فحث علیٰ كتاب اللّٰه عزوجل ورغب فیه ثم قال "وأهل بیتی أذكركم اللّٰه فی أهل بیتی أذكركم اللّٰه فی أهل بیتی" ثلاثا فقال لهٗ حصین ومن أهل بیته یا زید؟ ألیس نساء ہ من أهل بیته قال نساء ہ من أهل بیته ولكن أهل بیته من حرم الصدقة بعدهٗ قال ومن هم؟ قال هم ال علي وال عقیل وال جعفر وال العباس رضي اللّٰه تعالیٰ عنهم، قال: كل هٰؤلاء حرم الصدقة بعده؟ قال نعم!. (مسند أحمد، ح:١٩٢٦٥)

فما ذكرنا من التحقیق یكشف الغطاء عن مصداق أهل البیت وعلمنا والحمد للّٰه رب العٰلمین أن أهل البیت یشتمل علیٰ أزواج النبي صلی اللّٰه تعالیٰ علیه وسلم كما هو معلوم من القرآن وكذٰلك أولاد النبي صلی اللّٰه تعالیٰ علیه وسلم وذریته كماهو معلوم من اللغة وكذٰلك الأحادیث التی عن فاطمة رضي اللّٰه تعالیٰ عنها وذریتها فقیاس علیها جمیع الذریات للنبي صلی اللّٰه تعالیٰ علیه وسلم وكذٰلك أختان وأصهار النبي صلی اللّٰه تعالیٰ علیه وسلم كما فی الأحادیث عن سیدنا علي رضي اللّٰه تعالیٰ عنه وقیاسا علیه وكذٰلك الجاریات للنبي صلی اللّٰه تعالیٰ علیه وسلم من حیث الجملة وقیاسا علیٰ مناسبة الأزواج وكذٰلك موالی النبي صلی اللّٰه تعالیٰ علیه وسلم للحدیث "مولی القوم منهم." (سنن النسائي، ح:٢٦١٢) من حیث الجملة وكذٰلك كل من حرم علیه الصدقة لقرابة النبي صلی اللّٰه تعالیٰ علیه وسلم للحدیث "إن هٰذه الصدقة إنما هي أوساخ الناس وإنها لا تحل لمحمد ولآل محمد." (صحیح مسلم، ح:١٠٧٢)

ثم إن قلت: أن اللّٰه تعالیٰ قال فی القرآن: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب:٣٣) ونحن نریٰ الیوم الناس یدّعون أنهم من ال فاطمة رضي اللّٰه تعالیٰ عنها ویخوضون فی المعاصی فماذا تقولون في هٰذه الآیة وعن هٰؤلاء الناس؟ فالجواب بتوفیق اللّٰه تعالیٰ إن شاء اللّٰه العزیز أنهٗ أولاً هٰذه الآیة لا تحكی أن أهل البیت معصومون من المعاصی ولا هم معصومون لأن العصمة هي خاصة للملائكة والأنبیاء علیهم الصلوات والسلام كما أجمع علیه أهل الحق وأیضا نفس الآیة تدل علیه وهو أن الآیة تقول عن إذهاب الرجس عنهم والتطهیر ولو أنهم معصومون لما احتاجوا إلی هٰذه الأشیاء لأنهم كانوا طاهرین من قبل ولا یلمسهم الرجس ، لكن لأنهم

غير معصومين فيحتمل وقوع السيئات منهم والله تعالىٰ يذهب عنهم هذه السيئات ويطهرهم تطهيرا بسبب الحسنات منهم كما قال تعالىٰ ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (هود: ١١٤) و ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ (النساء: ٣١) يعني بسبب الحسنات كما فسروها أهل السنة والجماعة واعتبارا للحديث "الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر." (صحيح مسلم، ح: ٢٣٣) وأما الكبائر من الذنوب فلا يتوقع وقوعا من أزواج النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ولا من أصهاره وأختانه وأسباطه وعلىٰ وجه الافتراض فهم أهل التوبة والاستغفار والإنابة و التائب من الذنب كمن لا ذنب لهٗ ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ (طٰه: ٨٢) ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ١٣٥) فالله عزوجل أذهب عن أزواج النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وأولاده وأسباطه وأصهاره وأختانه [1] الرجس وطهرهم تطهيرا بسبب تكفير السيئات بالحسنات.

وثانيا إن قيل نحن نتكلم عمن اليوم يدّعون أنهم من ذرية النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ويخوضون فى السيئات، بل الكبائر ولا يتوبون عنها فالجواب بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز أن الله تعالىٰ قال لسيدنا نوح عليه السلام عن ابنه ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ (هود: ٤٦) فأخرج الله تعالىٰ ابنه من أهله بسبب عمل غير صالح فعلمنا أنهٗ هناك علاقة بين كون واحد من أهل بيت النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم مع كونه صالحا أو غيره فمهمامن يكون عملهٗ غير صالح يكون أبعد من أن يكون من أهل البيت مناسبة فهؤلاء الناس الذين أنتم تسألون فلوهم من أهل الأهواء والبدعة ككثير من الرافضة يدّعون أنهم من أهل البيت وعندهم عقائد كفرية فهؤلاء لا يكونون من أهل البيت فى وجه ما بسبب كفرهم ولو أنتم تسألون عن الناس الذين هم مسلمون ، لكن ضالون فاسقون فكونهم من أهل البيت ناقص [2] بمناسبة ضلالتهم وعصيانهم فهٰذا النقص فالله عزوجل يذهبهم عنهم إما بالمغفرة أو إما بالعذاب فى الدنيا أو فى الآخرة أو فى كلتيهما فالله عزوجل يذهب عنهم الرجس ويطهرهم تطهيرا فى هٰذا المنوال.

اعلم أنهٗ قد جاء ت أحاديث كثيرة فى مناقب أهل البيت وقد ذكرنا كثيرا منها من قبل وأيضا ما ذكرنا فى مناقب الخلفاء الأربعة مشمول فيه لأنهم أصهار وأختان رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه

---

(١) الأصهار الذين هم مسلمون وإنما قلنا هٰذا لأن لرسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم أحد عشرة زوجا فهل جميع آبائهن مسلمون فوالله أعلم أما أختانه فكلهم أسلموا.

(٢) وفى الحديث "ألا إن آل أبى يعنى فلانا ليسوا لى بأولياء إنما وليي الله وصالح المؤمنين."

وسلم.

فالأن نذكر مزيدا منها، فمنها ما في القرآن في أزواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿يَا نِسَآءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ إلى قوله ﴿إِنَّمَا يُرِيْدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٢-٣٣) وكذلك ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ يَرْمُوْنَ الْمُحْصَنَاتِ الْغٰفِلٰتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوْا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيْمٌ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِيْنَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُوْنَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِيْنُ﴾ (النور: ٢٣-٢٥) فهٰذا الوعيد أصلا في أزواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولهٰذا من رماه بالفحش فقد كفر بالله العظيم ولأن الله تعالى ردّ ردّا بليغا شديدا على الذين جاء وا بالإفك على سيدة عائشة رضي الله تعالى عنها إحدى أمهات المؤمنين وقال ﴿يَعِظُكُمَ اللهُ أَنْ تَعُوْدُوْا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ﴾ (النور: ١٧) فعلق الإيمان على عدم العود إلى مثله فيشمل جميع أزواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لأنهن أمثال عائشة رضي الله تعالى عنها في كونها زوج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وإحدى أمهات المؤمنين وكذلك الآية بعدها ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِيْنَ وَالْخَبِيثُوْنَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِيْنَ وَالطَّيِّبُوْنَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولٰئِكَ مُبَرَّءُوْنَ مِمَّا يَقُوْلُوْنَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيْمٌ﴾ (النور: ٢٦) تشير أن أزواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هن طيبٰت من النساء وهن مبرات مما يقول الزنادقة عن العيوب فيهن وأما الأحاديث فمنها عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم "أحبوا الله بما يغذوكم من نعمه وأحبوني بحب الله وأحبوا أهل بيتي بحبي." (سنن الترمذي، ح: ٣٧٨٩) "إن العباس بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه (وهو من أهل البيت الذين حرم عليه الصدقة) دخل على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مغضبا وأنا عنده فقال ما أغضبك قال يا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما لنا ولقريش إذا تلاقوا بينهم تلاقوا بوجوه مبشرة وإذا لقونا لقونا بغير ذٰلك قال فغضب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى احمر وجهه ثم قال والذى نفسى بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله" قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم "أيها الناس من أذى عمى فقد اذانى فإنما عم الرجل صنو أبيه." (سنن الترمذي، ح: ٣٧٥٨) وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم "العباس منى وأنا منه." (سنن الترمذي، ح: ٣٧٥٩) عن المسور بن مخرمة أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال "فاطمة بضعة منى فمن أغضبها فقد أغضبنى." (صحيح البخاري، ح: ٣٧١٤) عن زيد بن أرقم رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال لعلي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله تعالى عنهم "أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم." (سنن

الترمذي، ح: ٣٨٧٠) ولقد قال رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم لجعفر بن أبى طالب رضي الله تعالىٰ عنه "أشبهت خلقي وخُلقي." (سنن الترمذي، ح:٣٧٦٥) "الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة" "إن الحسن والحسين هما ريحانتاى من الدنيا." (سنن الترمذي: ح: ٣٧٧٠) "هٰذان ابناى وابنا ابنتى، اللّٰهم إنى أحبهما فاحبهما واحب من يحبهما." (سنن الترمذي، ح:٣٧٦٩) "حسين منى وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسينا، حسين سبط من الأسباط." (سنن الترمذي، ح:٣٧٧٥) "إنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أحدهما أعظم من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتى أهل بيتى ولن يتفرقا حتىٰ يردا[1] على الحوض فانظروا كيف تخلفونى فيهما." (سنن الترمذي، ح:٣٧٨٨) "فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم ابنة عمران." (المستدرك للحاكم، ح:٦٨٣٧) أخبرها أبوها رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "خير نساء ها مريم بنت عمران وخير نساء ها خديجة بنت خويلد." (صحيح مسلم: ح: ٢٤٣٠) "وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد علىٰ سائر الطعام." (صحيح البخاري: ح: ٣٤١١)

وكذٰلك هناك أحاديث غيرها فى مناقبهم وقد ذكرنا بعضا منها، الحمد لله رب العلمين.

فما ذكرنا من الدلائل يشرح ما قال الشيخ رحمه الله تعالىٰ ويدل علىٰ صداقته فالشيخ رحمه الله تعالىٰ يقول "ومن أحسن القول فى أصحاب رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وأزواجه الطاهرات من كل دنس وذرياته المقدسين من كل رجس، فقد برئ من النفاق" ونحن الحمد لله رب العلمين قد فصلنا فى بيان الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم من قبل وأيضا قد فصلنا علىٰ بيان أزواج النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وسائر أهل بيته وبيّنا مكانتهم وفى ضوء هٰذا صار سهلا فهم قول الشيخ رحمه الله تعالىٰ يعنى لكون البراءة من النفاق يلزم الموالاة وإحسان القول فى سائر أهل بيت النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وهٰذا ظاهر لأن من يخالفه فهو يخالف القرآن والسنة اللذان يثبتان لأهل بيت النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم المكانة العالية عند الله ورسوله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ولأن قال رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم عن سيدنا علي رضي الله تعالىٰ عنه أنهٗ لا يبغضه إلا منافق وهو من أهل بيت النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فيشمل جميع أهل بيته قياسا عليه ويحتمل أن الشيخ رحمه الله تعالىٰ اختار كلمة "النفاق" نظرا إلى هٰذا الحديث وإلا يحتمل خيار الكلمات من البدعة واتباع الهوىٰ والزندقة والكفر وغيرها من أمثالها ونحن قد أجبنا الحمد لله رب العلمين الإشكال الوارد عن الناس يدّعون أنهم من أهل البيت ويخوضون فى المعاصى والطغيان فالحمد لله رب العلمين ما ذكرنا يكون مبينا لهٰذا القول للشيخ رحمه الله تعالىٰ.

---

(١) يمكن الورود لكتاب الله أيضًا بورود الحبل الممدود وكالة عن كتاب الله

ثم اعلم أن أزواج النبي صلى الله تعالٰى عليه وسلم بعضهن فضلى من بعض وكذٰلك بناته رضي اللّٰه تعالٰى عنهن، فمن لهن الأفضلية بالخصوص هي خديجة بنت خويلد رضي الله تعالٰى عنها وعائشة رضي اللّٰه تعالٰى عنها وفى البنات هي فاطمة رضي الله تعالٰى عنها ثم هناك بحث فيمن فضلهٰن ويجرى فى هٰذا البحث الكلام علٰى سيدتنا مريم وآسية رضي الله تعالٰى عنهما ولأن قد جاء فى الروايات تؤيد بعضها بعضا أن فى الجنة تكون مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وكلثم أخت موسٰى عليه السلام من أزواج النبي صلى الله تعالٰى عليه وسلم وأن الله قد زوج نبيه صلى الله تعالٰى عليه وسلم بهن فى الجنة فعلٰى هٰذا فى كون أزواج النبي صلى الله تعالٰى عليه وسلم فكلهن علٰى نفس المستوى فنرىٰ ماعداه من الفضيلة حتٰى يمكن إثبات الأفضلية بعضهن علٰى بعض علٰى قدر الإمكان فنرىٰ فى القرآن ﴿وَإِذْ قَالَتِ الملائكة يٰمَرْيَمُ إِنَّ اللّٰهَ اصْطَفٰكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفٰكِ عَلٰى نِسَآءِ الْعٰلَمِيْنَ﴾ (آل عمران:٤٢) وفى تفسير هٰذه قولان فمنهما أنها تدل علٰى أفضليتها علٰى نساء زمانها والآخر أنها تدل علٰى أفضليتها علٰى جميع نساء العٰلمين والأحاديث فى هٰذا الشأن فمنها "خير نساء العٰلمين أربع، مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد صلى الله تعالٰى عليه وسلم." (صحيح ابن حبان، ح: ٦٩٥١) "حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون." (سنن الترمذي، ح:٣٨٧٨) "كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاث، مريم بنت عمران، وآسية إمرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد علٰى سائر الطعام." (سنن الترمذي، ح:١٨٣٤) "أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم إمرأة فرعون." (المعجم الكبير، ح:١١٩٢٨) عن فاطمة رضي الله تعالٰى عنها أنهٗ أخبرها النبي صلى الله تعالٰى عليه وسلم فقالت "أنها سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران." (المعجم الكبير، ح:١٠٣٤) "سيدة نساء أهل الجنة بعد مريم فاطمة وخديجة" "سيدة نساء العالمين مريم ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية." (فيض القدير للمناوى، ح: ٤٧٥٩) "كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد علٰى سائر الطعام." (سنن الترمذي، ح:١٨٣٤).

فما ذكرنا من الأحاديث تدل علٰى أن خير النساء والأكمل وأفضل نساء أهل الجنة هي أربعة، مريم بنت عمران، فاطمة بنت رسول الله صلى الله تعالٰى عليه وسلم، خديجة بنت خويلد، آسية بنت مزاحم امرأة فرعون وكذٰلك تدل أن فاطمة وخديجة رضي الله تعالٰى عنهما سيدتا نساء أهل الجنة بعد مريم وكذٰلك تدل أن فاطمة رضي الله تعالٰى عنها سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم

بنت عمران رضي الله تعالىٰ عنها فهٰذا بالأجمع تدل أن أفضل نساء أهل الجنة وهي لا محالة أفضل النساء في العالمين هي مريم بنت عمران رضي الله تعالىٰ عنها وهٰذا يوافق مع ظاهر القرآن ﴿وَاصْطَفٰكِ عَلٰى نِسَآءِ الْعٰلَمِيْنَ﴾ (آل عمران:٤٢) ثم بعدها فاطمة بنت رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ثم خديجة بنت خويلد ثم آسية امرأة فرعون رضي الله تعالىٰ عنهن لأنها بقيت بعد الثلاثة الأولىٰ من خير نساء العالمين، وهٰذا الترتيب يوافق مع واحد من الأحاديث التي ذكرناها ، لكن كيف يكون توفيقا بين هٰذه الأحاديث والحديث "وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد علىٰ سائر الطعام ." (سنن الترمذي: ح: ١٨٣٤) فنحن بحثنا علىٰ فضل الثريد علىٰ سائر الطعام فما هو هٰذا الفضل فوجدنا في أبي داؤد حديثا والله أعلم عن صحته ، لكن نحن فقط نستخدمه لفهم الحديث الصحيح عن منقبة عائشة رضي الله تعالىٰ عنها فالحديث عن ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنه "كان أحب الطعام إلى رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم الثريد من الخبز والثريد من الحيس ." (سنن أبي داود، ح: ٣٧٨٣) ثم نحن نجد أن رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم أحب أزواجه إليه كانت عائشة صديقة رضي الله تعالىٰ عنها، عن عمرو ابن العاص رضي الله تعالىٰ عنه أنهٗ قال لرسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم من أحب الناس إليک؟ قال "عائشة" قال من الرجال؟ قال "أبوها ." (سنن الترمذي، ح: ٣٨٨٦) وكذٰلک جاء في تفسير الآية ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيْعُوْٓا أَنْ تَعْدِلُوْا بَيْنَ النِّسَآءِ وَلَوْحَرَصْتُمْ﴾ (النساء:١٢٩) أنها تتكلم عن المحبة القلبية وما يتعلقها والرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم كان يحب طبيعيا عائشة رضي الله تعالىٰ عنها أكثر من أزواجه الأخرىٰ وقد جاء في الحديث أن الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم كان يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول "اللّٰهم هٰذا قسمي فيما أملک فلا تلمني فيما تملک ولا أملک" يعني القلب.

فبعد هٰذا البيان انكشف أن كما للثريد فضيلة علىٰ سائر الطعام أنهٗ أحب الطعام إلى رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم لو صح الحديث فلعائشة فضيلة علىٰ سائر النساء أنها أحب أزواج النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فالله عزوجل أعطى ووضع في قلب النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم حب زوجة عائشة رضي الله تعالىٰ عنها أكثر من حب جميع أزواجه الأخرىٰ وفي هٰذه الفضلية لا تشاركها غيرها من أزواج النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وهٰذا يشمل مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم زوجا النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم في الجنة ، لكن هٰذا لا يدل علىٰ أفضلية عائشة رضي الله تعالىٰ عنها من وجه الإطلاق حتىٰ يناقض ما جاء في الأحاديث الأخرىٰ عن خير نساء العالمين الأربع فلهن أفضلية علىٰ عائشة رضي الله تعالىٰ عنها من الوجه الكلي ولو لعائشة رضي الله تعالىٰ عنها أفضلية من الوجه الجزئي وهي أنها أحب أزواج النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم إليه.

وإن قيل أنهٗ قد جاء في الحديث عن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها أن فاطمة رضي الله تعالىٰ عنها كانت أحب الناس إلى رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فكيف توفق بين هذا الحديث والحديث عن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها، فالجواب بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز أن الحديث عن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها حديث مرفوع يعني رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم أجاب بنفسه والحديث عن فاطمة رضي الله تعالىٰ عنها حديث موقوف وهو أن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها قالت ما رأته هي بنفسها فالحديث عن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها أقوىٰ وأرجح ثم هناك فرق معلوم بين المحبة لفاطمة رضي الله تعالىٰ عنها التي هي محبة الأب لبنته والمحبة لعائشة رضي الله تعالىٰ عنها التي هي محبة الزوج لزوجه فالفاطمة أحب الأولاد والعائشة أحب الأزواج فالعزية لعائشة أنها أحب الأزواج والمحبة التي تكون في قلب الزوج لزوجته أكثر لها في قلب النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم من النساء الأخرىٰ لا تنتقص بسبب حبه صلى الله تعالىٰ عليه وسلم لبنته فاطمة رضي الله تعالىٰ عنها لأن حتىٰ فاطمة رضي الله تعالىٰ عنها لا تشارك ولا تستطيع أن تشارك عائشة رضي الله تعالىٰ عنها في هذه المحبة الخاصة التي ذكرنا.[1]

فحاصل الكلام أن خير نساء العالمين مريم بنت عمران ثم فاطمة بنت رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ثم خديجة بنت خويلد ثم اسية امرأة فرعون فلهن أفضلية علىٰ سائر النساء من وجه الإطلاق والكل، لٰكن لعائشة صديقة رضي الله تعالىٰ عنها أفضلية خاصة جزئية التي لا تشاركها إحدىٰ نساء العالمين حتىٰ خير نساء العالمين الأربع وهي أنها أحب أزواج النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم إليه وهي في نفسها فضلية عظيمة جسيمة كما لا يخفىٰ وثم ما هو المعلوم من مناقب عائشة رضي الله تعالىٰ عنها جملة لا يمنعها من أن يكون بعد اسية رضي الله تعالىٰ عنها في خير نساء العالمين ترتيبا والله أعلم ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

ثم اعلم أن أفضل الصحابة أبوبكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله تعالىٰ عنهم وهؤلاء لما ذكرنا عنهم من الأحاديث في مناقبهم وهم الأولين من العشرة المبشرة وهم الخلفاء الراشدون و بعدهم مابقى من العشرة المبشرة أفضل من غيرهم من الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم وليس فقط لأنهم بشروا بالجنة بالصراحة لأن هذا الشيء ثابت لبعض الأصحاب الأخرىٰ أيضا رضي الله تعالىٰ عنهم، لٰكن أيضا بسبب سابقيتهم إلى الإسلام وتضحيتهم لهٗ والجهاد والنصرة والصبر والهجرة وغيرها من الأعمال العليا في سبيل الله عزوجل ثم بعدهم أصحاب البدر وقد جاء عنهم في الحديث

(١) كما عائشة رضي الله عنها لا تستطيع أن تشارك في المحبة التي لفاطمة رضي الله عنها، لأن هذه المحبة هي محبة الأب لبنته وهي مختلفة تماما من المحبة التي هي لزوج لزوجها.

انهم مغفورون لهم وأيضا أنهم أفضل المسلمين ثم أصحاب الأحد وهذا ظاهر؛ لأنها من أعظم الغزو واهمها بعد وقوع البدر وقدجاء ت فى آيات القرآن والأحاديث الكثيرة وقال رجل للنبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم يوم أحد أرأيت إن قتلت فأين أنا؟ قال فى الجنة، وهذه الغزوة أصيب المسلمون فيها بسبب الخطأ الواقع من بعضهم ولقد عفا الله عنهم كما فى القرآن وهذه الغزوة فيها من التضحية الباهرة فلا عجب من شاركها أفضل ممن لم يشاركها إلا أنهٗ قد شارك فى البدر ثم أصحاب بيعة الرضوان وهذالما جاء عنهم من الفضائل فى القرآن ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللّٰهُ عَنِ الْمُؤْمِنِيْنَ إِذْ يُبَايِعُوْنَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِيْ قُلُوْبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِيْنَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيْبًا﴾ (الفتح:١٨) ولما فى الحديث الصحيح "لايدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة." (سنن الترمذي، ح: ٣٨٦٠) يعنى بيعة الرضوان، ثم من أسلم قبل فتح مكة وقاتل أفضل ممن أسلم من بعد للآية ﴿لَا يَسْتَوِيْ مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِيْنَ أَنْفَقُوْا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوْا وَكُلًّا وَّعَدَ اللّٰهُ الْحُسْنٰى﴾ (الحديد:١٠) وفى الجملة السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار أفضل من غيرهم وفى القرآن ﴿وَالسَّابِقُوْنَ الْأَوَّلُوْنَ مِنَ الْمُهَاجِرِيْنَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِيْنَ اتَّبَعُوْهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمْ وَرَضُوْا عَنْهُ﴾ (التوبة:١٠٠) وفى تفسير السابقين الأولين أقوال والقول أنهم أصحاب بيعة الرضوان يجمعها كلها.

ولا يقال إننا لم نتعرض بذكر الصحابيات رضي الله تعالىٰ عنهن فى ذكر بيان أفضل الصحابة ترتيبا رضي الله تعالىٰ عنهم لأن الله عزوجل أعطى الرجال شيئًا وأعطى النساء شيئًا وهذا من فضله الذى يؤتيه من يشاء وفى القرآن ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللّٰهُ بِهٖ بَعْضَكُمْ عَلٰى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيْبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوْا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيْبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللّٰهَ مِنْ فَضْلِهٖ إِنَّ اللّٰهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمًا﴾ (النساء:٣٢) فالرجال أعطوا من القوة والاستطاعة ما لم تعط للنساء فحمّلوا من المسئولية لم تحمّلن النساء والكلام فى الأفضلية من حيث كثرة الثواب والمسئولية على الرجال أعظم فهم يحصلون على ثواب من الأعمال لا تحصل عليها النساء عادة مثلا الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإعلاء كلمة الله لا يقربن النساء الرجال فى حظهم من هذه العبادات ولو يشاركنهم فيها من حيث الجملة فلا يمكن أن يكون حظ أى واحد من أزواج النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم كحظ أبى بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم الذين يقربونهم فى تضحيتهم للإسلام، فلهذا لا يرىٰ فى كتب عقيدة المسلمين مقارنة بين الرجال من الصحابة والنساء رضي الله تعالىٰ عنهم، بل هم وهن ذكروا على حدة وهذا الذى نحن قد فعلنا فنحن ذكرنا فى خير النساء ثم نحن ذكرنا فى أفضل الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم كلهم نعم! الصحابيات أفضل من غير الصحابي ولو كان رجلا لأن عندهن

فضيلة رؤية النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأيضا لا نقول أن جميع الرجال من الصحابة رضي الله تعالى عنهم أفضل من جميع الصحابيات كلا! بل الصحابيات اللاتى سبقن إلى الإسلام وهاجرن وشاركن في الجهاد كما فعلن من القيام على الجرحىٰ وتعلّمن وعلّمن الدين كعائشة رضي الله تعالى عنها فهن أفضل من كثير من الصحابة من الرجال الذين ليس عندهم حظا وافرا من هذه العبادات التى ذكرنا، لٰكن مع هذا لا يناسب المقارنة بين الرجال والنساء في الجملة بسبب الفرق الذى ذكرنا وكما ذكرنا أيضا من القرآن، بل هم في شأن وهن في شأن، فذكرناهم وذكرناهن على حدة كما هو أسلوب علماء المسلمين، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

المتن :

وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين أهل الخير والأثر، وأهل الفقه والنظر، لا يذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو علىٰ غير السبيل.

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى الآن يتكلم عن الذين بقوا من خير القرون ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين فيقول عن السلف الصالح وهم خير القرون أنهم كلهم لا يذكرون إلا بالجميل ومن ذكرهم بسوء فهو علىٰ غير السبيل يعنى الضلالة وكذٰلك من يتبع منهج السلف الصالح فهم أيضا يُذكرون بالخير ولا يُطعنون والسلف الصالح هم خير القرون كما جاء في الحديث "خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ." (صحيح البخاري، ح: ٢٦٥٢) وفي رواية "خير أمتي القرن الذى بعثت فيهم الخ." (صحيح البخاري، ح: ٣٦٥٠) والقرن هو في مائة سنة وكما جاء في الحديث عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم "أرأيتكم ليلتكم هذه؟ فإن علىٰ رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو علىٰ ظهر الأرض أحد." (صحيح البخاري، ح: ١١٦) يريد بذٰلك أن ينخرم ذٰلك القرن وهٰذا الحديث (خير أمتي الخ) قد يكون معنى القرن فيه بالجيل ويدل عليه الحديث عن أبى سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم "يأتى على الناس زمان يغزو فئام من الناس فيقال لهم، فيكم من رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم؟ فيقولون نعم! فيفتح لهم، ثم يغزو فئام من الناس فيقال لهم هل فيكم من صاحب أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم؟ فيقولون نعم! فيفتح لهم ثم يأتى على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقال هل فيكم من صاحب من صاحب أصحاب رسول الله

صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم؟ فيقولون نعم! فيفتح لهم." (صحيح البخاري، ح: ٣٦٤٩) ثم ليلاحظ هٰذا الحديث "أعمار أمتى مابين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذٰلك." (سنن الترمذي، ح:٣٥٥٠)

بعد ذكر هٰذه الأحاديث فاعلم أن السلف الصالح هم الصحابة رضي اللّٰه تعالىٰ عنهم والتابعين يعنى أصحابهم وأتباع التابعين والصحابة فهم قرن النبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم والتابعين فهم القرن بعدهٗ وأتباع التابعين فهم القرن بعدهٗ وهٰذه الأجيال الثلاثة هي خير القرون وخير الأمة والسلف الصالح وكما ذكرنا من الحديث أن أعمار هٰذه الأمة مابين الستين إلى السبعين وقل من يجوز ذٰلك فعلىٰ هٰذا وأيضا نظرا للمعنىٰ الآخر للقرن وهو فيما بين مائة سنة نخمّن أن خير القرون انخرمت فى ثلاث مائة سنة من زمان بعثة النبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم حتىٰ لا يكاد يبقى من أتباع التابعين واحد ما وهٰذا أيضا نظرا للحديث عن انخرام قرن النبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم فى رأس مائة سنة من الليلة التى حدث الرسول صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم هٰذا الحديث ولأن لو قل من أمة محمد صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم من يجوز علىٰ عمر السبعين فتجاوز عمر مائة سنة أقل بأضعاف، ثم كما ذكرنا سابقا أن خير القرون لا يعنى أن كل واحد فى زمان التابعين وأتباع التابعين من المسلمين خير أمة محمد صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم كلا!؛ لأن فيهم الظالمون الفاسقون، بل من اتبع منهم أصحاب محمد صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم بإحسان فالكلام فى خيرية هٰذه القرون هي من حيث الجملة فجملة فيهم خير أكثر من القرون بعدهم، لكن هٰذا الكلام [1] لا يطّرد فى حق الصحابة رضي اللّٰه تعالىٰ عنهم لأن لهم مزايا التى ليس للتابعين وأتباع التابعين ولأن هم كانوا متطهرين من الذنوب يعنى ولو وقعوا فى السيئات لم يصروا عليها، بل تابوا وأحسنوا وورد فى فضائلهم القرآن والسنة وهٰذا ليس لغيرهم ولهٰذا هم كلهم عدول، لكن لا يمكن أن يقال هٰذا لكل من المسلمين الذين عاشوا فى زمان التابعين وأتباع التابعين ونحن قد بيّنا هٰذا سابقا.

فالشيخ رحمه اللّٰه تعالىٰ يقول "أن علماء السلف من السابقين(وكذٰلك جميع التابعين وأتباع التابعين الذين اتبعوا أصحاب رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم بإحسان) ومن بعدهم من التابعين (وهٰذا يشمل كل من اتبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين فكأن أشار إلى جميع أهل السنة والجماعة) أهل الخير (قد تكون إشارة إلى الحديث عن خير القرون فيشمل القرون الثلاثة التى هي للسلف الصالح ثم من اتبعهم بعدهم بإحسان فهم أيضا أهل الخير وعلى الخير لأنهم تابعون لأهل الخير فيتعدى إليهم) والأثر (يعنى الأحاديث والآثار فيشمل الروايات عن النبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه

(١) يعنى ليس كل واحد فى زمان التابعين وأتباع التابعين من خير أمة محمد صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم

ومسلم وعن الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم) وأهل الفقه (وهذا فهم معاني القرآن الكريم والأحاديث والآثار) والنظر (وهذا اجتهاد واستنباط من القرآن الكريم والحديث واستخدام الإجماع والقياس والذرائع الأخرىٰ للشريعة الإسلامية) فهم كلهم يعني الفقهاء والمحدثين من علماء السلف وكذلك من بعدهم الذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين فكلهم لا يُذكرون إلا بالجميل والشيخ رحمه الله تعالىٰ بدلا أن يقول يُذكرون بالجميل قال لا يُذكرون إلا بالجميل وفيه الشدة والبلاغ ليس في أولهما فيعني هم لا يُذكرون بالسوء ألبتة، بل يُذكرون إذا يُذكرون فبالجميل ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل، وهذا كلهٔ ظاهر لا خفاء فيه لأن تعظيم وتبجيل لعلماء أهل الحق فرض واجب، لأنهٔ من تعظيم دين الإسلام فمن لا يوقر العلماء من أهل الإسلام فهو لا يوقر الإسلام ولهذا من يبغض علماء الإسلام لأنهم علماء الإسلام فقد كفر وكذلك من يبغض المسلم لأنهٔ مسلم فقد كفر لأن بغضه هذا بغض الإسلام الذي هو كفر، فتعظيم علماء الإسلام فريضة وقد جاء ت في القرآن والحديث النصوص الكثيرة في تعظيم علم الدين وأهلهم، ففي القرآن ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِيْنَ يَعْلَمُوْنَ وَالَّذِيْنَ لَا يَعْلَمُوْنَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر: ٩) ﴿اَلرَّحْمٰنُ عَلَّمَ الْقُرْاٰنَ﴾ (الرحمٰن: ١) ﴿اَلَّذِيْ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ٤-٥) ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرٰةَ وَالإِنْجِيْلَ﴾ (المائدة: ١١٠) ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلٰئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُوْنِيْ بِأَسْمَاءِ هٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ﴾ (البقرة: ٣١) ﴿وَقُلْ رَّبِّ زِدْنِيْ عِلْمًا﴾ (طٰهٰ: ١١٤) ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللّٰهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨) ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَّعِلْماً﴾ (يوسف: ٢٢) ﴿قَالَ الَّذِيْ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَّرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ (النمل: ٤٠) ﴿قُلْ كَفٰى بِاللّٰهِ شَهِيْداً بَيْنِيْ وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ (الرعد: ٤٣) ﴿يَرْفَعِ اللّٰهُ الَّذِيْنَ آمَنُوْا مِنْكُمْ وَالَّذِيْنَ أُوْتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المجادلة: ١١) وغير ذٰلك من الآيات.

وأما الأحاديث "من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم وإن العالم ليستغفر لهٔ (لا يلزم للاستغفار علمهم بالتفصيل لأنه يمكن أن يقال "اللّٰهم استغفر لعلماء الاسلام") من في السمٰوات والأرض والحيتان في جوف الماء وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر علىٰ سائر الكواكب وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما و، لكن ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر." (سنن أبي داود، ح: ٣٦٤١) "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين." (صحيح البخاري، ح: ٧١) "من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتىٰ يرجع." (سنن الترمذي، ح: ٢٦٤٧) "فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد." (سنن ابن ماجة، ح: ٢٢٢) وغيرها من الأحاديث وهٰذه كلها تدل على

افضلية العلماء على عوام الناس فأوجب عليهم توقيرهم وتعظيمهم وهٰذا كله في علماء الحق وليس في علماء الباطل[1] وهٰذا ظاهر لا خفاء فيه.

فعلماء السلف ومن على منهجهم هم الذين الفرقة الناجية لأنهم على ما عليه النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وأصحابه رضي الله تعالىٰ عنهم وهٰذه علامة الفرقة الناجية من بين الفرق الضالة الّتي وردت في الحديث وقول الشيخ رحمه الله تعالىٰ أن من يذكرهم بالسوء فهو على غير السبيل يعني ليس على الإسلام. فلأن من يذكرهم بالسوء جملة فهو ليس مسلما لأن من يبغض علماء الإسلام في الجملة فهو ليس إلا مبغضا للإسلام وهٰذا كفر ولو يذكر بعضهم بالسوء بسبب ظنه أنهم ضلوا عن القرآن والسنة نُظرفيه، لو كان حقّافيما ادعى عليهم فالحق معهُ وهم على الضلال ولو كان الحق معهم فهم على الحق وهو على الضلال والضلال يعم الفسوق والكفر[2] مهما كان منهما ولو يذكر بعضهم بالسوء وادعى أنهم مبتدعة لسبب ما والسبب صحيح ، لكن الإدعاء باطل فهو كاذب عليهم ومن الظالمين ولو كان هٰذا البعض من العلماء الذين أجمعوا أهل الحق بموالاتهم واعترفوا بمناقبهم فهٰذا الكاذب عليهم إضافة على الكذب يكون خارقا لإجماع أهل الحق فيكون خارجا منهم إلى أهل الأهواء ولو يذكر بعض الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم بسوء (ونعوذبالله) وادعى عليهم القبائح افتراءً عليهم فنُظِر ولو كان هٰذا الصحابي رضي الله تعالىٰ عنه تضافرت وتواترت في مناقبه النصوص فيكون هٰذا الكاذب عليه كافر بسبب إنكار النصوص المتواتر وإلا على الأقل يكون فاسقا مبتدعا من أهل الأهواء بسبب افترائه وخرقه إجماع أهل الحق على صحابية هٰذا الصحابي رضي الله تعالىٰ عنه ولو كان هٰذا الكاذب يدعى القبائح على هٰذا الصحابي رضي الله تعالىٰ عنه مع اعتراف أنهُ صحابي رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وثم بعد ذٰلك يفسّقه ويضلّله فيكون هٰذا الكاذب كافرا بغض النظر أن هٰذا الصحابي تضافرت النصوص في مناقبه أم لا، لأن في هٰذه الحالة اعترافه أن هٰذا صحابي رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم يكون اعترافا أن النصوص الواردة في القرآن والسنة المتواترة في مناقب الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم جملة تشمل هٰذا الصحابي أيضا الذى هو يفسّقه ويضلّله فيكون بعد هٰذا الاعتراف رادًّا لهٰذه النصوص القاطعة فيكفر.

فإذا فهمت هٰذا فاعلم أن العلماء من السلف الصالح ومن تابعهم بإحسان من الإمام أبو حنيفة

---

(١) وفي الحديث إنما أخاف على أمتي أئمة المضلين.

(٢) بمعنى هٰذا الشخص الذى ادعى على بعض العلماء أنهم ضلوا والحقيقة بالعكس فهٰذا الشخص قد يكفر أوقد يكون مبتدعا فاسقا، لكن ليس كافرا نظرا إلى في أى مسئلة هو ادّعى الضلال على هؤلاء العلماء فلو ادّعى الضلال عليهم في مسائل قطعية فهو يكفرا لأنه اعتبر المسائل القطعية الدينية ضلالة وهٰذا كفر لا محالة ولو ادّعى الضلال عليهم في المسائل الظنية فهو على الأقل مبتدع فاسق.

والشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وغيرهم من الفقهاء والمحدثين الذين أجمع أهل الحق بموالاتهم لا يُذكرون إلا بالجميل ومن يذكرهم بالسوء فهو من أهل الأهواء لأن أهل الحق مجمعون على موالاتهم وحقّيّتهم وهٰذا يخبرنا أن الأئمة المجتهدين الأربع عندهم مكانة عالية فى الإسلام واحترامهم وتعظيمهم واجب فمن يذكرهم بالسوء فهو على غير السبيل وذكر الأئمة المجتهدين يأتى بالكلام استطراد إلى مجال الاجتهاد والتقليد والمذاهب الأربعة والتقيّد بها فنحن نفصّل فى هٰذه المجالات إن شاء اللّٰه العزيز.

الاجتهاد: وهو أن يجتهد فى استنباط الحكم من القرآن والسنة من دقائقهما وإسرارهما وثم من الإجماع الذى يرجع إلى القرآن والسنة وثم من القياس [1] وهٰذه أربعة مصادر متفق عليها وثم هناك الذرائع الأخرىٰ غير المتفق عليها. فنحن نذكر عن هٰذه المصادر الأربعة التى هي متفق عليها وقبل نذكر عنها مميزا نشير إلى دلائل الاجتهاد وبالترتيب الذى ذكرنا ، ففى القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا أَطِيْعُوْا اللّٰهَ وَأَطِيْعُوْا الرَّسُوْلَ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِيْ شَيْءٍ فَرُدُّوْهُ إِلَى اللّٰهِ وَالرَّسُوْلِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُوْنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾(النساء: ٥٩) فالأمر بإطاعة اللّٰه وإطاعة رسوله صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم أمر باتباع القرآن والسنة، والأمر بإطاعة أولى الأمر من المسلمين يشمل أمر اتباع ما اتفقت عليه كلمة المجتهدين من الأحكام لأنهم أولى الأمر التشريعى من المسلمين (وهٰذا إجماع) والأمر بردّ الوقائع المتنازع فيها إلى اللّٰه والرسول صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم يشمل أمر اتباع القياس حيث لا نص ولا إجماع، لأن القياس فيه رد المتنازع فيه إلى اللّٰه وإلى الرسول صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم؛ لأنهٔ الحاق واقعة لم يرد نص بحكمها بواقعة ورد النص بحكمها فى الحكم الذى ورد به النص لتساوى الواقعتين فى علة الحكم، فالآية تدل على اتباع هٰذه الأربعة فأولا فى القرآن وإن لم يوجد فيه حكمها فالسنة فإن لم يوجد فيها حكمها فإجماع المجتهدين فى عصر من العصور على حكم ، فإن لم يوجد الإجماع فالقياس على ماورد النص بحكمه وهٰذه أربع درجات الاجتهاد فى البلوغ على الحكم الشرعي ثم بعد ذٰلك الذرائع الأخرىٰ غير المتفق عليها التى يستخدمها بعض الفقهاء فى البلوغ على الحكم الشرعي، ثم الترتيب الذى ذكرنا قد جاء فى الحديث والآثار فما رواه البغوى عن معاذبن جبل رضي اللّٰه تعالىٰ عنه أن رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن "قال كيف تقضى إذا عرض لك القضاء؟ قال أقضى بكتاب اللّٰه، قال فإن لم تجد فى كتاب اللّٰه؟ قال فبسنة رسول اللّٰه (صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم) قال فإن لم تجد فى سنة رسول اللّٰه؟ قال أجتهد رأيي ولا آلو، (أى لا أقصر فى اجتهادى) قال: فضرب رسول اللّٰه صلى

(١) أيضًا يرجع إلى القرآن والسنة

الله تعالىٰ عليه وسلم علىٰ صدره وقال الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله." (سنن أبى داود، ح: ٣٥٩٢) وما رواه البغوى عن ميمون بن مهران قال كان أبوبكر إذا ورد عليه الخصوم نظر فى كتاب الله فإن وجد فيه ما يقضى بينهم قضى به وإن لم يكن فى الكتاب وعلم عن رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فى ذٰلك الأمر سنة قضى بها فإن أعياه أن يجد فى سنة رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم جمع رؤوس الناس وخيارهم واستشارهم، فإن أجمع رأيهم علىٰ أمر قضى به وكذٰلك كان يفعل عمر. وأقرهما علىٰ هٰذا كبار الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم ولم يعرف بينهم مخالف في هٰذا الترتيب وأيضا قد أمر رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم باقتداء أبى بكر وعمر بعده، الأن نذكر عن المصادر الشريعة التى يكون منها الاجتهاد ونحن نذكر المصادر التى هي المتفق عليها وأما الذرائع الأخرىٰ غير المتفق عليها فليراجع لها الكتب فى أصول الفقه.

(١) القرآن : هو كلام الله الذى نزل به الروح الأمين علىٰ قلب رسول الله محمد بن عبدالله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم بألفاظه العربية ومعانيه الحقة ليكون حجة للرسول علىٰ أنهٗ رسول الله ودستورا للناس يهتدون بهداه وقربة يتعبدون بتلاوته وهو المدون بين دفّتى المصحف المبدؤ بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس ،المنقول إلينا بالتواتر كتابة ومشافهة جيلا بعد جيل محفوظا من أى تغيير أو تبديل مصداقاً لقول الله سبحانهٗ فيه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُوْنَ﴾(الحجر: ٩) القرآن ألفاظه و معانيه من عند الله تعالىٰ فمن جحد هٰذا فقد كفر بالله وحدهٗ فالرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسدم ما كان إلا تاليا لهٗ ومبلغا إياه كما نزل وشارحا ومفسرا لهٗ كما علّمه الله تعالىٰ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾(القيامة:١٧-١٩) وأما ما أنزل الله تعالىٰ علىٰ رسوله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم من المعانى ولم ينزل عليه بألفاظ من عنده لا يعدّ من القرآن ولا تثبت لها أحكام القرآن وإنما هي الأحاديث وهٰذه لا تصح قراءة الصلاة بها ولا تتلى كما تلاوة القرآن تعبديا.

ولا نحتاج إلى تطويل الذكر فى القرآن لأن القرآن تعريف [1] فى نفسه لهٗ وهو أكبر

(١) هنا يناسب أن نذكر عن سبعة أحرف التى أنزل فيها القرآن ، ففى الحديث "إن هٰذا القرآن أنزل علىٰ سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه." (صحيح البخاري، ح:٥٠٤١) وهٰذا بحث طويل فنحن نذكر نكاتا مهمة منه (١) نزول القرآن علىٰ سبعة أحرف مقطوع لهٗ بالنصوص القاطعة (٢) النصوص تصرح أن سبعة أحرف القرآن كلها منزلة كما هو مصرح فى الحديث الذى ذكرناه أيضا (٣) الاختلاف بين سبعة أحرف القرآن لا يبدل ولا يغير معانى تعليمات القرآن وأساسه وأصوله (٤) النصوص لا تتكلم عن أى اختلاف آخر غير سبعة أحرف فمن قال أن اختلاف القراءات فى القرآن غير اختلاف بين سبعة أحرف فقد أخطأ، بل الاختلاف فى القراءات يرجع إلى الاختلاف بين سبعة احرف (٥) حكمة سبعة أحرف سهولة ووسعة على الأمة حتى يقرأوا القرآن فيما تيسر لهم من سبعة أحرفه وهٰذه وسعة ترجع إلى كون العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذى لا يقرأ كتابا قط فى هٰذه الأمة وهٰذه كلها فى النصوص فالقول أن الوسعة لأجل كون القبائل المختلفة من العرب فى الأمة لا تؤيده النصوص (الصفحة الآتية)

ضروريات الدين والمسلمون، بل غير المسلمين أيضا يعلمون عن القرآن وكذلك لا نحتاج إلى بيان الدلائل في حجية القرآن وهو حجة في نفسه ،المعجزة من عند الله تعالى يعجز الخلق عن أن يأتي بمثله ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:٢٣-٢٤) وفي القرآن ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ (النساء:١٠٥) ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ (المائدة:٤٨) ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء:١٠) ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾(البقرة:١٨٥) ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ (القمر:١٧) ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (العنكبوت: ٥١)

(٢) السنة: وهي في الاصطلاح الشرعي هي ما صدر عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير (وهو ما أقره الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم مما صدر عن بعض أصحابه رضي الله تعالى عنهم من أقوال وأفعال بسكوته وعدم إنكاره أو بموافقته وإظهار استحسانه فيعتبر بهذا الإقرار والموافقة عليه صادرا عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نفسه).

لقد أجمع المسلمون على أن ما صدر عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من قول أو

(من الصفحة السابقة) حسب ما علمنا ويرد هذا القول أيضا ماحصل بين عمر بن خطاب وهشام بن حكيم رضي الله تعالى عنهما (كلاهما من قريش)، لكن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم علّم هشام رضي الله تعالى عنه سورة الفرقان على غير حرف الذى علّمها عمر رضي الله تعالى عنه فيه ولو كانت حكمة الاختلاف بين سبعة أحرف ترجع إلى كون القبائل المختلفة من العرب في أمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم لكان أحرىٰ أن يعلّمهما النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على نفس الحرف لأنهما من نفس القبيلة (٦) سبعة أحرف كلها منزلة من عندالله تعالى ووعد الله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩) فحفاظة سبعة أحرف من حفاظة القرآن فمن قال أن سبعة أحرف فستة منها قد ضاعت فقد كفر وكذلك لو قال أن عثمان رضي الله تعالى عنه كتب المصاحف على حرف واحد وضاعت الستة الباقية فقد كفر وأنكر هذه الآية من القرآن، بل سبعة أحرف كلها موجودة باقية ومصاحف عثمان رضي الله تعالى عنه مشتملة عليها نعم ما نسخ منها في زمان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فهي منسوخة وليست في المصاحف، بل المصاحف مشتملة على مالم تنسخ وإنما لها حكم القرآن من حيث التلاوة بها والصلاة بقراء تها وهي ما كانت في العرضة الأخيرة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع سيدنا جبريل عليه الصلوة والسلام في الزمان الأخير من حياته الدنيوية عليه الصلوات والسلام (٧) وبسبب الاختلاف بين سبعة أحرف هناك القراء ات المتعددة للقران حتى أكثر من سبعة وكلها منزلة من عند الله تعالى مبلغة من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والاختلاف بين هذه القراء ات يرجع إلى اختلاف بين سبعة أحرف فكل قراء ة التي هي مشهورة ثابتة من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فلا تخالف مصاحف عثمان رضي الله تعالى عنه فلا تخالف اللغة العربية لأن القرآن منزل فيها فهي القرآن وأي قراء ة التي لا تكون كهكذا فهي شاذة ولا تكون القرآن لأنها غير ثابتة .

فعل أو تقرير وكان مقصودا به التشريع والاقتداء ونقل إلينا بسند صحيح يفيد القطع أو الظن الراجح (يعني الأحاديث لأنها حاملة لسنن رسول الله صلى الله تعالٰى عليه وسلم) يكون حجة على المسلمين ومصدرا تشريعيا يستنبط منه المجتهدون الأحكام الشرعية لأفعال المكلفين (واعتقادهم) أي إن الأحكام الواردة (وكذٰلك العقائد) في هٰذه السنن تكون مع الأحكام الواردة (والاعتقاد) في القرآن قانونا واجب القبول والاتباع. والبراهين علٰى حجية السنة عديدة قال تعالٰى ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللّٰهَ وَالرَّسُولَ﴾ (آل عمران: ٣٢) قال سبحانهٗ وتعالٰى ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّٰهَ﴾ (النساء: ٨٠) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللّٰهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّٰهِ وَالرَّسُولِ﴾ (النساء: ٥٩) وقال ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (النساء: ٨٣) ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللّٰهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٣٦) ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥) ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر: ٧) فهٰذه الآيات تدل دلالة قاطعة علٰى أن اللّٰه يوجب اتباع رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم.

أقسام السنة باعتبار سندها: اعلم أن الأحاديث التي هي حاملة للسنن لها أسانيد ومتون، فالسند هي سلسلة الرواة الذين نقلوها من الرسول صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم إلينا، والمتن هو نفس الحديث المروي، فالسنة (الحديث) باعتبار سندها تنقسم إلى ثلاثة أقسام، سنة متواترة، سنة مشهورة، سنة آحاد.

(١) **السنة المتواترة:** هي ما رواها عن رسول صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم جمع يمتنع عادة أن يتواطئوا أفراده علٰى كذب لكثرتهم وأمانتهم واختلاف وجهاتهم وبيئاتهم ورواها عن هٰذا الجمع جمع مثله حتٰى وصلت إلينا بسند كل طبقة من رواته جمع لا يمكن أن يتفقوا علٰى كذب من مبدأ التلقي من الرسول صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم إلى نهاية الوصول إلينا. ومن هٰذا القسم السنن العملية في أداء الصلٰوة وفي الصوم والحج والأذان وغير ذٰلك من شعائر الدين التي تلقاها المسلمون عن الرسول صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم بالمشاهدة أو السماع جمع من جمع من غير اختلاف في عصر عن عصر أو قطر عن قطر وفيه أيضا السنن القولية الأحاديث المتواترة مثلا "من كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار." (صحيح البخاري، ح: ١٠٧) وكذٰلك في عذاب القبر والحوض والنهر الكوثر والميزان والصراط وغيرها من المجالات قد وردت فيها الأحاديث المتواترة.

(٢) **السنة المشهورة:** هي ما رواها عن رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم صحابي أو

اثنان أو جمع لم يبلغ حد جمع التواتر ثم رواها عن هذا الراوى أو الرواة جمع من جموع التواتر ورواها عن هذا الجمع جمع مثلهٔ حتى وصلت إلينا مثل الحديث "إنما الأعمال بالنيات." (صحيح البخاري، ح: ١) "لا ضرر ولاضرار." (سنن ابن ماجة، ح: ٢٣٤٠) والفرق بينها و السنة المتواترة هو السنة المتواترة قطعي الورود من رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم والسنة المشهورة قطعي الورود من الصحابي رضي الله تعالىٰ عنه لأن فى الأولىٰ جمع التواتر إلى رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وفى الثانية جمع التواتر إلى الصحابي أو الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم فحسب، ومرتبة السنة المشهورة هي بين المتواترة والآحاد ولأن الصحابة كلهم عدول بإجماع أهل الحق والسنة المشهورة قطعي الورود منهم ، فلهٰذا الفقهاء لا سيما الأحناف يستخدمون السنة المشهورة لتخصيص عموم القرآن وتقييد إطلاقه. اعلم أن جحود أى السنة المتواترة كفر لأنها فى الثبوت كمثل القرآن وهذا بغض النظر أنها متواترة فى اللفظ والمعنى أو فقط فى المعنى. فأما المتواترة فى اللفظ والمعنى فجحود لفظها أو معناها كفر وأما المتواترة فى المعنى فقط فجحود معناها كفر فحسب.

وأما السنة المشهورة ففيه كلام:(١) لو كانت هٰذه السنة المشهورة قطعية الثبوت من الصحابي رضي اللّٰه تعالىٰ عنه الذى تواردت وتضافرت فى مناقبه النصوص الشريعة فجحود هٰذه السنة يكون كفرا بسبب أن الجاحد يفسّق (ونعوذبالله) هذ الصحابي الجليل وتفسيقه يقتضى إنكارا للنصوص القطعية فى الجملة التى وردت فى مناقبه رضي اللّٰه تعالىٰ عنه.

(٢) ، لٰكن لو الجاحد لهٰذه السنة المشهورة لا يجحدها بسبب تفسيق هٰذا الصحابي رضي الله تعالىٰ عنه، بل بسبب أنهٔ يزعم أن الصحابي وهم وأخطأ فى روايتها ذهولا ونسيانا فلا يكفر هٰذا الجاحد ، لكن يفسق ويضل بسبب إنكار السنة (الحديث) الواردة بطريقة صحيحة بالسبب الواهي الباطل.

(٣) لو هٰذه السنة المشهورة وردت من الصحابي رضي اللّٰه تعالىٰ عنه الذى لم يتضافر ويتوارد فى مناقبه النصوص الشريعة فجاحد هٰذه السنة لا يكفر بإنكار هٰذه السنة، بل يضل ويفسق وهٰذا لو هٰذا الجاحد يقول أن هٰذا الصحابي لا يتأهل أن يكون من الصحابة رضي اللّٰه تعالىٰ عنه للأسباب يزعمها الجاحد؛ لأنهٔ فى هٰذه الحالة لا يكون منكرا للنصوص القطعية ، لكن بسبب طعنه فى الصحابي الذى معلوم عند المحدثين أن يكون صحابيا فيكون هٰذا المنكر ضالا فاسقا وبسبب إنكاره السنة (الحديث) للسبب الواهي الباطل.

(٤) ، لٰكن لو هٰذا الجاحد يعترف أن هٰذا الصحابي هو من جملة الصحابة رضي اللّٰه تعالىٰ عنهم و قد تضافرت وتواترت فى مناقبهم النصوص القطعية فى الجملة [1] ، ففى هٰذه الحالة يكون هٰذا

(١) يعنى لمجموع الصحابة رضي اللّٰه عنهم كلهم

الجاحد كافرا بسبب إنكاره النصوص القطعية.

(٣) سنة الأحاد: هي مارواها عن الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم احاد لم يبلغوا جمع التواتر بأن رواها عن الرسول واحد أو إثنان أو جمع لم يبلغ حد التواتر ورواها عن هذا الراوى (الصحابي رضي الله تعالىٰ عنه) مثلة فلا تكون من المتواترة ولا المشهورة وثم تعسلسل بين الرواة حتى وصلت إلينا ولا فرق أن يكون الرواة بعد الرواة من الصحابة جمع التواتر أم لا فى كون السنة من الآحاد لأن المتواترة التى رواتها جمع التواتر فى جميع المراحل إلى الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم والمشهورة هكذا فى جميع المراحل إلى الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم فإذا لم يكن الرواة من الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم أو من الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم جمع التواتر لا تكون السنة من المتواترة أو المشهورة، بل تكون من الآحاد بغض النظر أن الرواة فى المراحل الباقية جموع التواتر أم لا، ومن الآحاد أكثر الأحاديث التى جمعت فى كتب السنة وتسمىٰ خبر الواحد وهي ظنية الورود من الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ومن الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم، وبسبب أنها تفيد الظن ولا تفيد القطع صار من صار من أهل الأهواء والبدعة منكرا لها أو كثيرا منها فضلوا عن سواء السبيل وابتعدوا عن الفرقة الناجية التى علىٰ ماعليه الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وأصحابه رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين فنحن إن شاء الله نذكر بعض الأمور القاطعة فى حجية سنة الآحاد فى الجملة.

(١) المعلوم بالتواتر من عادة النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فى توجيهه أصحابهُ الآحاد للأفاق ليعلّموا الناس دينهم فيبلغوهم سنة رسولهم صلى الله تعالىٰ عليه وسلم من الأوامر والنواهي. وإن قيل أن إرسال النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم بمرسل ما لتعليم الدين يقتضى تزكية لهذا المرسل والنبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم صاحب الوحي وليس تزكيته لواحد ما كتزكية غير النبي مثلا المحدث من المحدثين فهذا الدليل لا يطّرد على الدعوى، قلنا نحن ذكرنا هذا الدليل ، لكن لا نكتفي به، بل نذكر الدلائل الأخرىٰ التى جملة تدل على القطع لحجية خبر الواحد وما ذكرتم من الاعتراض غير وارد عليها فاقرأ ما يلى!

(٢) المعلوم من الدين ضرورة أن الحدود والحقوق تثبت بشهادة رجلين عدلين، وأما الزنا فبشهادة أربعة رجال عدول والمعلوم أن الاثنان أو الأربعة ليسوا جمعا متواترا ولا قريبا منه ، لكن مع هذا تثبت الحقوق بشهادتهم فثبت أن خبر الآحاد حجة مقبولة فى الشريعة.

(٣) قال الله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (الحجرات:٦) فتقييد التبين بنبأ الفاسق يدل أن النبأ من العدل مقبول

.ولا يحتاج إلى التثبت والتبين.

(٣) الحديث "من سئل عن علم علمه ثم كتمه ألجم يوم القيامة بلجام من النار" رواه الترمذي عن أبي هريرة وقال في الباب عن جابر وعبدالله بن عمرو رضي الله تعالىٰ عنهم(ح: ٢٦٤٩) والحديث "نضر الله امرءا سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه غيره فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ورب حامل فقه ليس بفقيه" رواه الترمذي عن زيد بن ثابت وقال في الباب عن عبدالله بن مسعود ومعاذبن جبل وجبير بن مطعم وأبي الدرداء وأنس رضي الله تعالىٰ عنهم(ح: ٢٦٥٦) والحديث "إن الدال على الخير كفاعله" رواه الترمذي عن أنس بن مالك وقال في الباب عن أبي مسعود البدري وبريدة رضي الله تعالىٰ عنهم(ح: ٢٦٧٠) والحديث "من رأى منكم منكرا فلينكره بيده، ومن لم يستطع فبلسانه، ومن لم يستطع فبقلبه، وذٰلك أضعف الإيمان." (صحيح مسلم، ح: ٤٩)

وهٰذه الأحاديث كلها مجتمعة تبلغ حد التواتروإضافة علىٰ هٰذه الأحاديث غيرها ، لكن تشاركها في القدر المشترك يعني في كون خبر الواحد حجة. ومن هٰذه الأحاديث الحديث "ليبلغ الشاهد الغائب، فإن الشاهد عسىٰ أن يبلغ من هو أوعىٰ لهٗ منه." (صحيح البخاري، ح:٦٧) والحديث "لا حسد [1](وهي أن يتمنى مثلهٗ بدون الزوال من صاحبه) إلا في اثنتين رجل أتاه الله مالا فسلط علىٰ هلكته في الحق، ورجل أتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها ." (صحيح البخاري، ح:٧٣) والحديث "مثل ما بعثني الله من الهدىٰ والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية، قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصاب منها طائفة أخرىٰ إنماهي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذٰلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذٰلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به ." (صحيح البخاري، ح:٧٩) والحديث "ثلاثة لهم أجران ومنهم رجل كانت عنده أمة فأدبها وأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها فلهٗ أجران ." (صحيح البخاري: ح:٩٧) والحديث "من جاء مسجدي هٰذا لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلمه فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله، ومن جاء لغير ذٰلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره ." (سنن أبي داود، ح:٢٢٧) والحديث "أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علما ثم يعلمه أخاه المسلم." (سنن ابن ماجة، ح:٢٤٣) والحديث "من علّم علما فلهٗ أجر من عمل به لا ينقص من أجر العامل ." (سنن ابن ماجة، ح:٢٤٠) والحديث "فمن كتم حديثا فقد كتم ما أنزل الله ." (سنن ابن ماجة، ح:٢٦٣) والحديث "من كتم علما مما ينفع الله به في أمر الناس، أمر الدين ألجمه الله يوم القيامة

(١) يعني الغبطة أي لا غبطة أعظم وأفضل منها في هٰذين الأمرين.

بلجام من النار.'' (سنن ابن ماجة، ح: ٢٦٥) وغيرها من الأحاديث كلها مجتمعة تبلغ التواتر لا محالة فى القدر المشترك وهو كون خبر الواحد حجة، بل توجب على من يعلم من العلم من أمر الدين أن لا يكتمه، بل ينشره وكذلك من رأى منكرا فليغيره وهذه النصوص تدل بالقطع على حجية خبر الواحد يعنى سنة الآحاد ونحن لا نحتاج على شرحها لأنها مبينة فى ذاتها وعلى أنها أدلة قاطعة على قبولية سنة الآحاد فى الجملة.

(٥) إجماع الصحابة رضي الله تعالى عنهم فى قبول خبر الواحد وهو معلوم ونحن نرىٰ بعض الصحابة مثلا عمر رضي الله تعالى عنه وواحد صحابي من الأنصار الذى كان جاره كانا يتناوبان النزول على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ويتشاركان ما تعلما من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ونحن نرىٰ سيدنا علي رضي الله تعالى عنه أمر المقداد رضي الله تعالى عنه أن يسأل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن حكم المذى وثم ليخبره عنه وكذلك أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كانوا يتقبلون خبر الواحد بعضهم من بعض كما تقبلوا حديثا عن الطاعون عن سعد رضي الله تعالى عنه وكما تقبلوا حديثا عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن ميراث ابنة وابنة ابن وأخت، وكذلك عن ميراث الجد تقبلوا حديثا عن المغيرة بن شعبة ومحمد بن سلمة رضي الله تعالى عنهما ومعلوم أن الاثنان ليسا جمعا متواترا ولا قريبا منه وكذلك تقبل عمر رضي الله تعالى عنه حديثا عن الضحاك بن سفيان فى المرأة ترث من دية زوجها وغيرها من الأمثال الكثيرة فى زمان السلف الصالح وإجماع الصحابة رضي الله تعالى عنهم فى قبول خبر الواحد حجة فى نفسها ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُوْلَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيْلِ الْمُؤْمِنِيْنَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيْراً﴾. (النساء:١١٥)

(٦) قال الله تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللّٰهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ (البقرة:٢٨٦) وقال الله تعالى: ﴿يٰأَيُّهَا الرَّسُوْلُ بَلِّغْ مَآ أُنْزِلَ إِلَيْکَ مِنْ رَّبِّکَ﴾ (المائدة:٦٧) وهو كان رسولا إلى الناس كافة ويجب عليه تبليغهم، فلو كان خبر الواحد غير مقبول لتعذر إبلاغ الشريعة إلى الكل ضرورة لتعذر خطاب جميع الناس شفاها وكذا تعذر إرسال عدد التواتر إلى كل واحد منهم.

وهذا ما ذكرنا من الدلائل القاطعة التى لا يمكن ردها كلها تدل على حجة خبر الواحد فى الشريعة الإسلامية ولهذا من أنكر حجية خبر الواحد فقد كفر؛ لأنهُ انكر النصوص القاطعة فى الشريعة وكذلك حجية السنة المتواترة والمشهورة من باب الأولىٰ. لكن لو أنكر خبرا واحدا من الأخبار الآحاد قائلا أنهُ لا يثبت كونه من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولا من الصحابة رضي الله تعالى عنهم فهو لا يكفر، لكن يضل ويفسق لإنكاره حديثا صحيحا من الآحاد بدون سبب من

الأسباب ، لكن لو أنكره لسبب من الأسباب الصحيحة مثلا يقول أنهٔ ينافى أصول الشريعة أو أنه شاذ أو منكر أولسبب ما صحيح فلا يضل ولا يفسق، ولو يقبل ثبوته من الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، لكن يزعم أن الصحابي نعوذبالله كذبه على الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فالكلام فيه مثل كلام السنة المشهورة ونحن قد بيّناه سابقا والحمد لله رب العالمين.

ولو قيل من قبل أصحاب الأهواء والبدعة أن خبر الواحد يفيد الظن ولا يفيد القطع وهذا لا محيص عنه وإلا تكون مكابرة للعقل والله عزوجل قد ردّ من يتبع الظن مثلا ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (البقرة:٧٨) ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (الجاثية:٢٤) ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام:١١٦) ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ (النجم:٢٣) ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَىٰ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (النجم:٢٨) فكيف توافقون هذه الآيات مع حجية خبر الواحد الذى يفيد الظن دون القطع قلنا بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز أن كل هذه الآيات التى ذكرتم لا تنافى حجية خبر الواحد البتة لأنها تتكلم عن الظن الذى هو ناشئ بدون الدليل وينافى الدلائل القطعية ، فمثلا الله سبحانهٔ وتعالى أرسل الأنبياء عليهم الصلوات والسلام المؤيدون بالمعجزات القاطعة وهم أخبرونا أن الله عزوجل يحسب الإنس والجن فى يوم الحساب فى الآخرة وهم أخبرونا أن الله واحد لا شريك لهٔ وكذلك الدلائل العقلية القاطعة تدل على توحيد الله عزوجل وكذلك ردّ الله عزوجل بذريعة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على الذين يقولون أن الملائكة هم أناث ونعوذبالله وكذلك هؤلاء ليس عندهم علم فى هذا الشأن البتة فهم اخترعوا واختلقوا وافتروا الظن من أنفسهم فها هي الظنون التى ردالله عزوجل عليها وقال أنها لا تغنى من الحق شيئًا وليست جميع أنواع الظن فقال الله عزوجل ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (الحجرات:١٢) فثبت أن ليس كل الظن مردود، بل بعضه وهو ما سبق ذكره وسنة الآحاد المروية عن الثقات عن الثقات إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليست من هذا القبيل المردود، بل هي من القبيل المقبول التى دلائل حجيتها نحن ذكرناها بالتفصيل والحمد لله فتامل هذه الآيات ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ (القيامة:٢٦-٢٨) ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ (النور:١٢) ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ (البقرة:٢٣٠) ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ

بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾ (الأعراف: ١٧١) ﴿هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ (يونس: ٢٢-٢٣) ونحن لا نحتاج إلى شرح هذه الآيات لكى نبين أن ليست جميع الظنون مردودة، بل الظن الذى هو ناشئ من القرائن الصحيحة والدلائل الراجحة التى لا تنافى الدلائل القطعية فهذا هو الظن هو مقبول وليس من الشيء من الظن المردود الذى رده الله عزوجل.

نعم! الآيات التى ذكرتم تكون الدلائل لرد خبر الواحد لو ينافى الدلائل القطعية من القرآن والسنة المتواترة والمشهورة والدلائل العقلية القاطعة وهذا مسلّم عندنا أهل السنة والجماعة ونحن لا نقبل خبر الواحد الذى ينافى ما ذكرنا، بل نؤولهٔ إلى موافقة الدلائل القطعية إن أمكن وإلا نرده بالكلية فلا يسوغ علينا الاعتراض نعم يسوغ على من يعتبر خبر الواحد من الدلائل القطعية وهم أهل الظاهر وأتباع ابن تيمية فهؤلاء الناس يعتبرون سنة الآحاد من الدلائل القطعية وثم يقعون فى المصاعب والمشاكل لو ظاهر خبر الواحد من أخبار الآحاد ينافى الدلائل القطعية الحقيقية يعنى القرآن والسنة المتواترة و المشهورة والدلائل العقلية القاطعة فيَضلّون ويُضلّون وهم فى الحقيقة لا يقيمون أنفسهم على هذا الاعتبار وهو أن خبر الواحد دليل قطعى، بل ينافون ويناقضون نظريتهم هذه، وهذا من عادتهم يعنى التناقض فى المنهج ونحن نذكر عن هذا ما يدل على بطلانهم.

فنحن نسأل أتباع بن تيمية ياأتباع بن تيمية ! أنتم تعتبرون سنة الآحاد الدلائل القطعية فعلى هذا يلزمكم أن تقول أن خبرا واحدا من أخبار الآحاد يكون فى ثبوته كأى سورة من القرآن فعلى هذا هل أنتم تعتبرون من ينكر خبر الواحد من أخبار الآحاد كمثل من ينكر سورة من القرآن والجواب من أتباع ابن تيمية هو "لا" لأن من ينكر سورة من القرآن، بل حرفا من القرآن، بل إعرابا واحدا من القرآن يكفر بالضرورة وهم لا يكفّرون من ينكر خبر الواحد من أخبار الآحاد كمثلنا، بل يقولون أنهٔ يضل ويفسق بإنكاره خبر الواحد الصحيح بدون سبب المعتد به وهذا ما نحن أهل السنة والجماعة نقول أيضا فعلى هذا نحن نقول لهم أنتم قد تناقضتم وهذا من عاداتكم لأنكم فى الحقيقة لا تعتبرون خبر الواحد الدليل القطعي ولهذا لم تكفّروا من أنكر ثبوت خبر الواحد من أخبار الآحاد فبدا منه أنكم فى الحقيقة تقولون فى هذا الشان ما نقول ، لكن بدون الاعتراف، وإن قيل من قبل أتباع ابن تيمية أننا نحن لا نكفّر من أنكر ثبوت خبر الواحد من أخبار الآحاد لأن المنكر لا يعتبره الدليل القطعي، بل يعتبره الدليل الظني ،ثم يزعم أن هذا خبر الواحد منها لم يثبت حتى لايكون الدليل الظني أيضا، فنحن نقول لهم من يفعل هذا بالقرآن أو السنة المتواترة ، فمثلا يقول أنهٔ نعوذ بالله ينكر سورة من القرآن؛

لأنهُ لا يعتبر القرآن قطعيّ الثبوت، بل ظنّيّ الثبوت ولم يقول عن السورة من القرآن أنها لم تثبت حتى لاتكون الدليل الظني أيضا ، فماذا تقولون فيه؟ فلا بدمن الجواب أنهُ الكافر بالضرورة بلاشك البتة وهذا هو الحق ، لكن أنتم لا تأخذون نفس الموقف مع من ينكر خبر الواحد من أخبار الآحاد فثبت أنكم أنتم تناقضون أنفسكم في قولكم أن أخبار الآحاد دلائل قطعية ولم لا تكفرون من ينكر ثبوت واحد منها ، ففي الحقيقة أنتم مكابرون وقولكم أن أخبار الآحاد دلائل قطعية هو القول الذى أنتم أنفسكم لا تقومون عليه، ولو واحد من أتباع ابن تيمية يجترئ ويقول أن من أنكر ثبوت خبر الواحد من أخبار الآحاد فهو كافر فحينئذ نحن نعرض عليه ما فعلوه من علماء هم من ردّ أو إعراض عن بعض أخبار الآحاد فعلى قوله طفق علماء هم يكفرون بهذا الفعل ، فمثلا في طلاق الحيض قد جاء في الحديث الصحيح أن طلاق الحيض معتدبه وعلماء هؤلاء الناس أعرضوا عنه وقالوا أن طلاق الحيض لا يقع، وهذا القول قول شاذ خلاف ما عليه أهل الحق، المذاهب الأربعة، وهذا فقط مثال واحد فماذا يقول هذا المجترئ فيهم ونحن نعرف من التجربة أن عند ما يرفع الاعتراض على علماء هم ينغلقون أفواههم وهم متعصبون لعلماء هم بالتعصب لا يجوز في دين الله عزوجل.

وإن قيل من قبل أتباع ابن تيمية أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان يوجّه ولاته ورسلهُ احادا للأفاق ليعلّموا الناس دينهم فيبلغونهم سنة رسولهم صلى الله تعالى عليه وسلم من الأوامر والنواهي وهذا يدل على قطعية أخبار الأحاد، فنقول بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز أنكم من مشاكلكم أنكم أنتم لستم أولوا النظر ولا تستخدمون العقول التى أعطاكم الله تعالى في الأمور الدينية، نحن نسألكم شيئًا هل تعديل مثلا الإمام البخاري لأى الراوى من رواة الأحاديث كمثل تعديل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لأى واحد فلا بد من الجواب أن "لا" لأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هو النبي صاحب الوحي فتعديلهُ لأى واحد أمر قطعي وتعديل مثلا الإمام البخاري هو غلبة الظن لأن غير النبي لا مندوحة لهُ إلا أن يحكم على واحد ما بحسب ما أتيح لهُ من المعلومات الظاهرة والبواطن والسرائر تفوض إلى الله عزوجل فثبت أن اختيار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وإرسالهُ لواحد ما للتبليغ والتعليم ليس كمثل تعديل المحدثين لأحد من الرواة لأن هذا التعديل لا يمكن أن يرفع فوق غلبة الظن ولهذا خبره يكون الدليل الظني. فلو قيل من قبل أتباع ابن تيمية أنهُ قد جاء في الروايات أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أرسل الوليد بن عقبة بن أبى معيط لأخذ الصدقات من بنى المصطلق فإذا قابلوه خاف لأجل ما كان بينهم قبل قبولهم الإسلام ورجع وقال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنهم ارادوا قتلهُ ومنعوا الزكوة فغضب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم غضبا شديدا وأرسل إليهم البعث وقال لهم أن لا يتعجلوا، بل يتثبتوا الأمر

وثم القصة أنهم أتوا إلى رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وأخبروهم بما حصل فى الحقيقة وأنهم لم يرد قتل الوليد بن عقبة ولا منع الزكوة وأنزل الله تعالىٰ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (الحجرات:٦) فماذا تقولون فى هٰذا المرسل الذى كان مخطئا لا محالة وما أخبربه الرسولَ صلى الله تعالىٰ عليه وسلم كان كذبا فالجواب بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز أولا! [1] أن هٰذا المرسل لم يكن مبلغا معلما، بل مصدّقا وأرسل لأخذ الصدقات فلا يطرد علىٰ ماقلنا عن المبلغين المعلمين المرسلين من قبل رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم للآفاق لتعليم الدين.

وثانيا! هٰذه الحادثة تؤيدما نقول فانظر! أن الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم اختار الوليد بن عقبة لأخذ الصدقات نظرا إلى ظاهر أحواله أنهٔ معول عليه فى هٰذا الأمر وثم هو [2] أخطأ ولم يقم بمسئوليته كما ينبغى، بل استعجل وظن ظن السوء عن بنى المصطلق أنهم يريدون قتلهٔ وأبلغ النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم كذبا عن هٰذا القوم على الظن السوء البحت والظاهر أن الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم اختاره علىٰ ظاهر أحواله ولم يكن بالوحي وهو لم يكن مبلغا معلما للدين، بل فقط اخذ للصدقات فثبت أن المحدثين لما يعدّلون واحدا من الرواة وهو لا محالة علىٰ حسب ظاهر الأحوال فلا بد من إمكان الخطأ فيه ولهٰذا لا يكون خبر الواحد دليلا قطعيا. وثالثا! أن هٰذا المصّدّق لم يكذب لأجل الكذب والافتراء، بل كان كذبه ناشئا من الخوف والظن السوء؛ لأنهٔ كانت إحنة بينه وبين بنى مصطلق قبل قبول الإسلام فلما هم خرجوا إليه ليكرموه ويؤدوا إليه الصدقات خاف هو بسبب الظن السوء ورجع خائفا وقال للنبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ما قال عنهم ولأنه مع ذٰلك كان مخطئنا آثما فيما فعل بسبب الخبرا لكاذب عن القوم ، فنسب إلى الفسوق فى الآية وهٰذا لا يعنى أنهٔ يموت فاسقا، بل التوبة والاستغفار كلها كانت موجودة لهٔ حتىٰ يموت وهؤلاء الناس كانوا أصحاب التوبة والإنابة فلا تنافى هٰذه الآية موقف أهل الحق أن جميع الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم عدول، وهٰذا ما ذكرنا إن شاء الله العزيز كافى فى إبطال قول أتباع ابن تيمية فى قطعية أخبار الأحاد.

ثم اعلم أن ما صدر عن الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم بمقتضىٰ طبيعيته الإنسانية من قيام وقعود ومشى ونوم وأكل وشرب فليس تشريعا فى الجملة لأن هٰذا مصدره إنسانيته وليست رسالته، نعم! لو واظب علىٰ شيء ،مثلا ما كان يحب من الأكل والشرب وكيف ينام وكم ينام ومتى ينام وكيف يمشى

(١) التحقيق أن هٰذاالخبر عن الصحابي الوليد بن عقبة رضي الله عنه لم يثبت وروايته ضعيفه، بل من شرور الروافضة الطاعنة فى حضرة الصحابة الكرام رضي الله عنهم

(٢) أى الوليد بن عقبة رضي الله عنه

فهٰذه السنن من عاداته وطبيعته فيسن [1] للمسلم أن يمتثل بها ويزجر عليها لحبه وطاعته للعادات للرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وكذٰلك من الأشياء التى ذكرنا لو جاء الدليل قوليا أو فعليا على أن المقصود من فعله الاقتداء به كان تشريعا بهٰذا الدليل وكذٰلك ما صدر عنه بمقتضى الخبرة الإنسانية والحذق والتجارب فى الشؤون الدنيوية من اتجار أو زراعة أو تنظيم جيش أو تدبير حرب أو أمثالها ، فليس تشريعا فى الجملة؛ لأنهٗ ليس صادرا عن رسالته وإنما هو صادر عن خبرته الدنيوية وتقديره الشخصي ولهٰذا لما رأىٰ فى بعض غزواته أن ينزل الجند فى مكان معين قال لهٗ بعض أصحابه رضي الله تعالىٰ عنه أهٰذا منزل أنزلكه الله أم هو الراى والحرب والمكيدة؟ فقال صلى الله تعالىٰ عليه وسلم، بل هو الراى والحرب والمكيدة فقال الصحابي رضي الله تعالىٰ عنه ليس هٰذا بمنزل وأشار بإنزال الجند فى مكان آخر لأسباب حربية بيَّنها للرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم، ولما رأىٰ الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم أهل المدينة يؤبرون النخل أشار عليهم أن لايؤبروا فتركوا التأبير (التلقيح) ونقص الثمر فقال لهم صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "أنتم أعلم بأمر دنياكم ." (صحيح مسلم، ح: ۲۳٦۳) ومع ذٰلك نفس الكلام فيه يعنى لو واظب عليه يكون من السنن من عاداته مندوبا للمسلمين وكذٰلك إذا قام الدليل فيكون تشريعا وكذٰلك ما صدر عن الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ودل الدليل أنهٗ خاص به فهو ليس تشريعا عاما لأمته، بل هو خاص به كتزوجه أكثر من أربع نساء.

(۳) الإجماع: وهو اتفاق المجتهدين فى عصر من العصور بعد وفاة الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم على حكم شرعي فى واقعة لأن فى حياة الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم هو المرجع التشريعى وحدهٗ فلا يتصور اختلاف فى حكم شرعي ولا اتفاق إذ الاتفاق لا يتحقق إلا من عدد وعُلم من هٰذا لو لا يكون هناك المجتهد أو يكون مجتهدا واحدا فقط فى عصر من العصور بعد وفاة الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فلا يكون إجماعا؛ لأنهٗ لا يتحقق الاتفاق وهو من عدد وليس من واحد. والاتفاق فى جميع المجتهدين يعنى كلهم بدون الخلاف والاختلاف فى العالم الإسلامي فإذا حصل هٰذا كان هٰذا الحكم المتفق عليه قانونا شرعيا واجبًا اتباعه ولا يجوز مخالفته وليس للمجتهدين فى عصر تالٍ أن يجعلوا هٰذه الواقعة موضع الاجتهاد لأن الحكم الثابت فيها بهٰذا الإجماع حكم شرعى قطعي لا مجال لمخالفته ولا لنسخه، وهٰذا الحكم المجمع عليه مستند إلى الدليل الشرعي اجتهادا واستنباطاً من القرآن والسنة بالقياس والاستحسان والاستصحاب والمصلحة المرسلة والعرف ولم لو هٰذا الحكم المستنبط المجتهد فيه أجمع عليه من قبل جميع

---

(۱) وهٰذا نوع من التشريع

المجتهدين فى عصر ما يكون هذا الحكم دليلا قطعيا وإن كان هذا الحكم المستنبط من الدلائل الشرعية دليلا ظنيا قبل الإجماع فالإجماع يرفعه إلى الدليل القطعي.

وأما حجية الإجماع فأولا، أن الله سبحانهٗ وتعالىٰ فى القرآن كما أمر المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله أمرهم بطاعة أولى الأمر منهم فقال تعالىٰ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ (النساء:٥٩) ولفظ الأمر معناه "الحكم" وهو يشمل الأمر الديني والأمر الدنيوي وأولوا الأمر الدنيوي هم الأمراء والولاة وأولوا الأمر الديني هم المجتهدون وأهل الفتيا وقد فسر بعض المفسرين وعلىٰ رأسهم ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنه أولى الأمر فى هذه الآية بالعلماء وفسرهم آخرون بالأمراء والولاة ،والأولىٰ التفسير بما يشمل الجميع وبما يوجب طاعة كل فريق فيما هو من شأنه فإذا أجمع أولوا الأمر فى التشريع وهم المجتهدون علىٰ حكم وجب اتباعه وتنفيذ حكمهم بنص القرآن ولذا قال تعالىٰ ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (النساء:٨٣) وتوعد سبحانهٗ وتعالىٰ ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء:١١٥) فجعل من يخالف سبيل المؤمنين ممن يشاقق الرسول.

وثانيا! أن الحكم الذى اتفقت عليه آراء جميع المجتهدين فى الأمة الإسلامية هو فى الحقيقة حكم الأمة ممثلة فى مجتهديها وقد وردت الأحاديث والآثار تدل علىٰ عصمة الأمة من الخطأ، فمنها الحديث "لاتجتمع أمتي علىٰ خطأ ." (جامع بيان العلم ، ح:١٤٠٤) "لم يكن الله ليجمع أمتي علىٰ الضلالة ." (مجمع الزوئد، ح:٨٣٠) والآخر "ما رأه المسلمون حسن فهو عند الله حسن." (المستدرك للحاكم، ح:٤٤٦٥) وذٰلك لأن اتفاق جميع هؤلاء المجتهدين علىٰ حكم واحد فى الواقعة مع اختلاف أنظارهم والبيئات المحيطة بهم وتوافر عدة أسباب لاختلافهم دليل علىٰ أن وحدة الحق والصواب هي التى جمعت كلمتهم وغلبت عوامل اختلافهم.

ثم اعلم أن الإجماع لهٗ مراتب فالأقوىٰ إجماع الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم مع تصريحهم بالحكم المجمع عليه وهو قطعي كالآية والخبر المتواتر ويكفر منكره ثم الذى صرح بهٖ بعض الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم وسكت الباقون ثم إجماع من بعد الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم علىٰ حكم لم يظهر فيه خلاف ممن سبقهم فيضل منكرهما ويفسق ثم إجماعهم علىٰ قول سبقهم فيه مخالف وهٰذا يأثم منكره ، لكن أقل مما ذكرنا قبله، فالإجماع الأول يعنى إجماع الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم مع الصراحة إجماع قطعي والبواقى ظنية.

(٣) القياس: هو إلحاق واقعة لا نص علىٰ حكمها بواقعة ورد النص بحكمها فى الحكم

الذى ورد فيه النص لتساوية الواقعتين في علة هذا الحكم، فمثلا قتل الوارث مورثه والعلة ثبت بالنص حكمها وهو منع القاتل من الإرث الذى دل عليه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم "لايرث القاتل." (السنن الكبرى للبيهقي، ح: ١٢٢٤٤) لعلة أنه قتله لكي يحصل على الميراث فيعاقب بحرمانه وقتل الموصى له للموصي توجد فيه هذه العلة فيقاس بقتل الوارث مورثه فيمنع القاتل للموصى من الاستحقاق للموصى به له وأيضا مثلا البيع وقت النداء للصلاة من يوم الجمعة والعلة ثبت بالنص حكمها وهو الحرمة التى دل عليه قوله سبحانه وتعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ (الجمعة:٩) لعلة هي شغلة عن الصلاة والإجارة أو الرهن أو أية معاملة وقت النداء للصلاة من يوم الجمعة توجد فيها هذه العلة وهي شغله عن الصلوٰة فتقاس بالبيع في حكمه فتحرم وقت النداء للصلاة.

وأما حجية القياس فمن القرآن والسنة و بأقوال الصحابة وأفعالهم رضي الله تعالى عنهم وبالمعقول [1]، ففي القرآن ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾(النساء: ٥٩) ووجه الاستدلال أن الرد إلى الله والرسول صلى الله تعالى عليه وسلم يعني إلى القرآن والسنة يشمل كل مايصدق عليه أنه رد إليهما ولا شك أن إلحاق ما لا نص فيه بما فيه نص لتساويهما في علة حكم النص من رد ما لا نص فيه إلى الله والرسول لأن فيه متابعة لله ولرسوله صلى الله تعالى عليه وسلم في حكمه، وقوله تعالى ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (الحشر: ٢) و ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾ (النازعات:٢٦) و ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ (يوسف: ١١١) والعبرة هي ما جرى على النظير يجري على نظيره ألا ترى أنه إذا حرم موظف من وظيفته لأنه ارتشى فقال الرئيس لإخوانه الموظفين "إن في هذا لعبرة لكم فاعتبروا" لايفهم من قوله إلا أنكم مثله فإن فعلتم فعله عوقبتم عقابه، فثبت أن الله عزوجل بيّن الأحكام في النصوص فما لم يرد فيه النصوص فحكمه ما هو الحكم في نظائره لتساويها في العلة قياسا وعبرة لحالهما وقوله تعالى ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾(يس: ٧٩) جوابا لمن قال من يحيي العظام وهي رميم؟ ووجه الاستدلال أن الله سبحانه وتعالى استدل على منكري البعث بالقياس فقال من أنشأها أول مرة يحييها مرة أخرى فقاس عليهم إعادة المخلوقات بعد موتها على بدء خلقها وإنشاء ها أول مرة لإقناع الجاحدين بأن من قدر على بدء الخلق قادر بلا شك على إعادته فهذا الاستدلال بالقياس إقرار لحجية القياس و صحة الاستدلال به. وأما السنة فالأول

---

(١) يعنى معقولا تحت القرآن والسنة

حديث معاذبن جبل رضي الله تعالىٰ عنه أن رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم لما أراد أن يبعثه إلى اليمن قال لهٗ كيف تقضى إذا عرض لک قضاء؟ قال اقضى بكتاب الله فإن لم أجد فبسنة رسوله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فإن لم أجد اجتهد رايي ولا الو، فضرب رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم على صدره وقال الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم." (سنن أبى داود، ح: ٣٥٩٢) والاجتهاد بالراى لا محالة يشمل القياس؛ لأنهٗ نوع من الاجتهاد والاستدلال، والرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم لم يقره على نوع الاستدلال دون نوع.

والثانى أن الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم اشار إلى القياس فى أحاديثه فمنها قولهٗ لمن سألته عن أبيها الزمن لا يستطيع أن يحج وأدركته الفريضة إن حج عنها هل ينفعه؟ فقال النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "أرأيت لو كان على أبيک دين فقضيتيه أكان ينفعه ذٰلک؟ قالت نعم! فقال لها فدين الله أحق بالقضاء." (سنن النسائي، ح: ٢٦٣٩) وهٰذا إشارة واضحة إلى القياس وكذٰلک ورد أن سألهٗ عمر رضي الله تعالىٰ عنه عن قبلة الصائم من غير إنزال فأجاب رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "أرأيت لو تمضمضت من الماء وأنت صائم؟ قال عمر رضي الله تعالىٰ عنه قلت لا بأس بذٰلک، قال فمه." (السنن الكبرى للبيهقى، ح: ٨٠٨١) أى اكتف بهٰذا وهٰذا كلهٗ إشارة إلى حجية القياس.

وأما أفعال الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم فهي ناطقة بحجية القياس صراحة لا خفاء فيها، فهم قاسوا الخلافة على إمامة الصلاة فبايعوا أبابكر رضي الله تعالىٰ عنه وقالوا رضيه الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم لديننا أفلا نرضاه لدنيانا وقول عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه لأبى موسىٰ الأشعرى رضي الله تعالىٰ عنه "ثم الفهم فيما أدلى إليک مما ورد عليک مما ليس فيه القرآن ولا السنة، ثم قايس بين الأمور عند ذٰلک واعرف الأمثال ثم اعمد فيما ترىٰ أحبها إلى الله عزوجل وأشبهها بالحق" وقول على بن أبى طالب رضي الله تعالىٰ عنه "ويعرف الحق بالمقايسة عند ذوى الألباب" وغير ذٰلک من الأمثال الكثيرة للقياس الشائع بين الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم من غير نكير فهو بالإجماع منهم رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين.

وأما المعقول فاعلم أنهٗ لا يخفى أن الشريعة الإسلامية فيها مصالح للعباد وهٰذا بإجماع المسلمين وليس المعنى أن الله واجب عليه ماهو الأصلح للعباد ونعوذبالله! لأن الله غير واجب عليه أى شيء، هو يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا مانع عليه ولا حجر وكما جاء فى الحديث "لو هو عذب أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم لكانت رحمتهٗ خيرا لهم من أعمالهم." (سنن ابن ماجة، ح: ٧٧) ومع ذٰلک أن الله تعالىٰ فضل علينا وشرع لنا الشريعة التى هي مملوئة بالمصالح للدنيا والآخرة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (النساء: ٢٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ

أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الصف: ١٠-١٣) ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة: ٢) فإذا ثبت حكمه فى الشيء فى النصوص وهٰذا الحكم فيه مصالح للعباد فلما جاء الشيء يشبه هٰذا الشيء المحكوم فيه فى العلة التى تسويه به فلا بد من أن يكون حكم هٰذا الشيء الجديد غير المنصوص عليه نفس الحكم الذى للشيء المنصوص عليه الذى لهٗ نفس العلة، فافهم! وأيضا الأحكام المنصوص عليها محدودة ووقائع الناس أكثر منها فأكثر فلا بد لها من الحكم فى الشريعة والقياس هو الذى سبيل لمعرفة الحكم فى هٰذه الوقائع غير المنصوص عليها بردها إلى نظائرها التى هي المنصوص عليها فى الشريعة الإسلامية وأيضا الفطرة السليمة تؤيد استخدام القياس؛ لأنهٗ مثلا من نهي عنه من الشراب لأنهٗ سامّ يقيس بهٰذا الشراب كل شراب سامّ ولا يعرف بين الناس اختلاف فى أن ما جرىٰ على أحد المثلين يجرى على الآخر ما دام لا فارق بينهما فافهم! والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

ثم اعلم أن أهل الحق اتفقوا على حجية القياس وأنكره أهل الظاهر وإنكاره لا يعنى أنهم أنكروا القياس بالكلية لا!، بل هم يثبتون ما هو من قبيل دلالة النص ، لكن ينكرون استخدام ما عداه ولا حاجة هنا للرد على دلائلهم لأنها واهية كلها وثم هناك الكتب فى أصول الفقه موجودة لمن يريد أن يطلع على الرد عليهم فنحن هنا نذكر بعض دلائلهم التى هم يقدّمون كثيرا وبطلانها وهٰذا يكفى فى بطلانهم إن شاء الله العزيز، فمنها أن القياس مبنى على الظن بأن علة حكم النص هي كذا والمبنى على الظن ظن والله عزوجل ردّ على متبعى الظن،وقال تعالىٰ ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (بنى إسرائيل: ٣٦) فالجواب إن شاء الله العزيز بعد أن يلاحظ أن القياس الذى أهل الظاهر يردّون هو الذى ليس من قبيل دلالة النص وهٰذا الرد منهم واهي لأن نحن حققنا سابقا أن اتباع الظن الذى يكون مردودا هو الظن الذى يخالف الدلائل القطعية الشرعية أو العقلية ناشئا عن الوهم بلا دليل فحسب، والقياس ليس منه فكما نعمل على خبر الواحد مع أنهٗ ظنى فكذٰلك القياس، ومن دلائلهم أن القياس مبنى على اختلاف الأنظار فى تعليل الأحكام فهو مثار اختلاف الأحكام وتناقضها والشرع الحكيم لا تناقض بين أحكامه وهٰذه شبهة باطلة لأن الاختلاف بناء على القياس ليس اختلافا فى العقيدة أو فى أصل من أصول الدين، وإنما هو اختلاف فى الأحكام الجزئية العملية الّتى لا يؤدى الاختلاف فيها إلى مفسدة ما، بل ربما كان رحمة للنّاس وفيه مصلحتهم كما يكون الاختلاف فى

الأحكام الجزئية بدون القياس وهو أن يكون خبرا واحدا ثابتا عند بعض الفقهاء دون البعض فيختلفون، ومن دلائلهم عبارات نقلوها عن بعض الصحابة ذمّوا فيها الرأى والقول فى الأحكام بالرأى مثل قول عمر رضي الله تعالىٰ عنه "إياكم وأصحاب الرأى فإنهم أعداء السنن أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها فقالوا بالرأى فضلّوا وأضلّوا." (سنن الدارقطني، ح:٤٣٢٣) والجواب إن شاء الله العزيز أن هٰذه الآثار فوق أنها غير موثوق بها ليس المراد منها إنكار القياس أو الاحتجاج به، وإنما المراد منها النهي عن اتباع الهوىٰ والرأى الذى ليس لهٗ مرجع من النصوص ولهٰذا ثبت من الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم استفاضةُ استخدام القياس قولا وفعلا من غير نكير فافهم! والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

وهٰذه مصادر الشريعة التى ذكرناها يعنى القرآن والسنة والإجماع والقياس المتفق عليها وأما غير المتفق عليها من الاستحسان والمصلحة المرسلة والاستصحاب وغير ذٰلك من المصادر الأخرىٰ فليراجع كتب أصول الفقه لبيانها، فالأن نحن إن شاء الله العزيز نتكلم عن التقليد الشرعي.

التقليد الشرعي:

وهو اتباع الإنسان غيره فيما يقول أو يفعل معتمدا عليه من غير نظر إلى الدليل، فهٰذا المتبع جعل قول الغير أو فعلهٗ متبوعا عنده من غير مطالبة الدليل، وهٰذا هو المعنى اللغوى للتقليد. ثم اعلم أن التقليد الشرعي فليس مطلقا، بل هو جعل الفعل أو القول لغيره متبوعا عنده من غير مطالبة الدليل مع بعض القيود وهي أن التقليد الشرعي يكون فى المسائل والقضايا التى ليس فيها حكما واضحا فى القرآن والسنة والإجماع فقد يكون مستعصيا عليه أن يفهم معانى القرآن والسنة وما تطلب منه الشريعة فى قضية معينة أو تكون عدة من الاحتمالات فى فهم النصوص الشريعة فقد استعصى عليه أن يعيّن احتمالا من الاحتمالات وقد يكون مبهما عليه وقد يكون فى الظاهر تعارضا بين أدلة الشريعة واستعصى عليه أن يفاهمها ويوافقها لقلة العلم والفهم ، ففى هٰذه الأحوال لا بد لغيْر المجتهد أن يقلد المجتهد المعتدبه الموثوق به المقبول عند المسلمين حتىٰ يرفع لهٗ هٰذا المجتهد هٰذه الإشكالات ويبين لهٗ ما تطلب الشريعة الإسلامية منه فى قضية من القضايا، فلهٰذا الأحكام القطعية من النصوص الشرعية وكذٰلك ما هي الواضحة من غير الإبهام والتعارض الظاهرى فلا تقليد فيها البتة مثلا لا تقليد فى العقائد الأساسة وكذٰلك لا تقليد فى الأمور البديهية وكذٰلك لا تقليد فى الأمور المتواترة الضرورية فلا تقليد فى وجوب الصلوٰة والزكوٰة والحج والجهاد والصوم فى رمضان ولا فى حرمة السرقة والزنا والقتل والنهبة والخمر. فإذا فهمت هٰذا فاعلم إذا علمنا أنهٗ لا بد لغير المجتهد

من التقليد للمجتهد في الأحكام التي ذكرنا أنهٗ يكون فيها التقليد فهٰذا التقليد هو التقليد الشرعي والمقلد بهٰذا التقليد لا يتبع المجتهد في الحقيقة، بل يتبع الشريعة الإسلامية فيكون متبعا لرسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم لأن المقلد لا يتبع هٰذا المجتهد لذاته، بل يتبعه لأنهٗ يساعده في فهم الشريعة الإسلامية وما تطلب منه في القضايا التي أشكل عليه أن يعرف بنفسهٖ حكم الشريعة فيها لأن واجب الإطاعة بالذات ليس إلا الله، والرسول هو واجب الإطاعة ليس بالذات بل لأنهٗ رسول منه تعالىٰ فطاعته في حقيقة طاعة الله وكذٰلك اتباع المجتهد ليس لهٗ بل لأنهٗ يشرح حكم الشريعة الإسلامية التي جاء بها الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم من عند الله تعالىٰ في القضايا غير الواضحة لهٗ حتىٰ يتمكن من معرفة حكمها والعمل به.

فهٰذا التقليد يشرح لهٗ حكم الشريعة الإسلامية في هٰذه القضايا و واجب عليه أن يطبق الشريعة الإسلامية في هٰذه القضايا والمسائل وهو لا يتمكن عليه إلا بالتقليد وما لا بد للواجب فهو الواجب أيضا فثبت أن التقليد الشرعي واجب علىٰ غير المجتهد، نعم! المجتهد وهو الذي يجتهد الأحكام ويستنبطها من القرآن والسنة بالذرائع من التوفيق بين النصوص الشرعية أوبرفع الإبهام لأجل الأدلة الأخرىٰ أو تعيين المعنى من المعاني لأجل الأدلة الأخرىٰ أو نظرا دقيقا إلى المتن واستخراج معانيه أوبالإجماع أو بالقياس أو بالذرائع الأخرىٰ، وهٰذا هو المجتهد، وهو ليس مصيبا دائما في اجتهاده ولا معصوما عن الخطأ، بل اعتبارهم هٰكذا يكون كفرا لأن هٰذا شأن الأنبياء عليهم الصلوات والسلام المؤيدون بالوحي المعصومون من عند الله تعالىٰ ، لكن كما جاء في الحديث أن المجتهد يؤجر حتىٰ على الخطأ منه في الاجتهاد "إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فلهٗ أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فلهٗ أجر." (صحيح البخاري: ح: ٧٣٥٢) فكما المجتهد يعذر في خطأه فما ظنك بالمقلد؟ والمعلوم أنهٗ ليس عليه إلا اتباع المجتهد الصالح المسلم المقبول عند المسلمين ولهٰذا ليس للمجتهد [1] أن يقلد المجتهد الآخر، بل عليه أن يجتهد نفسه ويتبع اجتهاده لأن المجتهد ليس معصوما عن الخطأ في الاجتهاد كما ذكرنا وهو يتبع اجتهادنفسه ظنا أنهٗ مصيب في اجتهاده مع الاحتمال للخطأ والمقلد لا يستطيع أن يجتهد فلا بد لهٗ من التقليد لاجتهاد المجتهد معتقدا أنهٗ أصاب في اجتهاده مع الاحتمال للخطأ ، لكن المجتهد الآخر يستطيع على الاجتهاد فلهٗ بد من أن يقلد اجتهاد المجتهد الآخر فليس لهٗ هٰذا لأنهٗ عنده مندوحة عنه وهو أن يجتهد بنفسهٖ لمعرفة

---

(١) لأن ليس لهٗ أن يقلّد الآخر الذي ليس معصوما عن الخطأ مع الاستطاعة أن يجتهد بنفسه ولأن اجتهاده قد يؤدي إلى شيء آخر مختلف من اجتهاد المجتهد الآخر فكيف يتبعه مع هو ليس مصيبا عنده ، لكن اجتهاده أيضًا ليس معصوما عن الخطأ ، لكن على وجه غلبة الظن هو يظنه صحيحا فعليه أن يتبعه كما في خبر الواحد الصحيح وكذٰلك المقلد يقلده على وجه غلبة الظن ولأن ليس عنده بنفسه أهلية للاجتهاد فافهم.

الصواب عند الله تعالىٰ وأيضا قد يؤدى اجتهاده إلى غير ما ذهب إليه المجتهد الآخر، فعلىٰ هٰذا لو هو يقلده ليقلده فيما هو الخطأ فى نظره عند الله تعالىٰ وهٰذا لا يجوز البتة ، بل يكون كفرا لأنهٗ من قبيل اتخاذ العلماء أربابا من دون الله كما جاء فى تفسير الآية ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٣١) وهو أن أهل الكتاب يأخذون أقوال الأحبار والرهبان فى الحرام والحلال كالشريعة فى نفسها فجعلوهم الشارعين دون الشارحين وهٰذا المجتهد لو يأخذ بقول المجتهد الآخر مع الاعتقاد[1] أنه خطأ عند الله تعالىٰ فكأنهٗ جعل هٰذا المجتهد شارعا دون شارحا للشريعة الإسلامية حتىٰ يتبعه فيما يعتقد هو أنهٗ قد فات منه الصواب فى مسئلة من المسائل.

وأما الدلائل للتقليد فمنها ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأنبياء:٧) وقد جاء فى تفسير هٰذه الآية التقليد لغير المجتهد، ففى تفسير القرطبي "ولم يختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علماء هم وإنهم مرادون بقول الله عزوجل ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأنبياء:٧) وأجمعوا علىٰ أن الأعمىٰ لا بدلهٗ من تقليد غيره ممن يثق بمن يرشده بالقبلة إذا أشكلت عليه كذٰلك من لا علم لهٗ ولا بصر بمعنى ما يتدين به لا بدلهٗ من تقليد عالمه" وأيضا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (النساء: ٥٩) ونحن ذكرنا تفسير هٰذه الآية سابقا فقلنا إن أولى الأمر يشمل العلماء وأهل الاجتهاد فإذا أمرنا الله تعالىٰ أن نطيعهم وهٰذا لا يعنى إلا أن نقلدهم وثم ذكر الله عزوجل كلمة "أطيعوا" استقلالا لهٗ ولرسوله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ولم يذكر لأولى الأمر استقلالا ، بل تبعا وهٰذا والله أعلم لأن الله عزوجل هو واجب الإطاعة لذاته مطلقا والرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم هو واجب الإطاعة لأنهٗ رسول الله ولهٰذا إطاعته فى كل شيء لأن إطاعته عين إطاعة الله ﴿وَمَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (النساء: ٨٠) فذكر كلمة "أطيعوا" لهٗ ولرسوله استقلالا ، لكن ليس هٰكذا لأولى الأمر (وهٰذا يشمل المجتهدين) لأن طاعة المجتهد ليست استقلالا ولا فى كل شيء، بل فى الأشياء التى نحن ذكرناها بالتفصيل سابقا ومع التقييدأن المجتهد لا ينحرف فى اجتهاده من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ، ففى نفس الآية ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (النساء: ٥٩) فإذا وقع التنازع[2] فالرد إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وأيضا

---

(١) يعنى عنده ، لكن مع ذٰلك هو يعرف أنهٗ ممكن أنه نفسه يخطئ فى تخطئته ، لكن هٰذا إمكانيا ، لكن فى ظنه الغالب هذ المجتهد الآخر غير مصيب ومع ذٰلك الاعتقاد لا يجوز لهٗ أن يتبع اجتهاد هٰذا المجتهد

(٢) ولا يقال كيف يرد العامي إلى الكتاب والسنة فى المسئلة التى هو لا يستطيع أن يستنبطها من القرآن والسنة بنفسه؛ لأن هٰذا ليس مراداً، بل إذا وقع التنازع بين المجتهد والعامي فعلى العاميّ أن يثبت موقفه من القرآن والسنة بين يدى العاميّ لو يستطيع أن يفهمه و بين يدى العلماء أن موقفه من القرآن والسنة وكذلك على العاميّ أن يثبت إنكاره على المجتهد من القرآن والسنة إما بالتعلم أو إما بنصر من العلماء الآخرين.

هذه الآية ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (النساء: ٨٣) ففى هذه الآية الله عزوجل أمرنا أن نرد أمر الأمن أو الخوف إلى الرسول وإلى أولى الأمر منا فعلموه الذين يستنبطون منا والرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ليس فينا، فبعدهٔ نحن نرد إلى القرآن والسنة لو وجدنا فيه واضحا الحمد لله وإلا نرد إلى أولى الأمر منا وهذا يشمل المجتهدين فهم يستنبطون لنا والآية تذكر عن الأمر من الأمن أو الخوف ،والقياس يؤدى إلى جميع الأمور.

وثم الأمر من الأمور إما أن يكون أمنا فى الشريعة الإسلامية فيكون من قبيل الحلال والفرائض والواجبات والسنن وإما يكون خوفا فيكون من قبيل الحرام والمكروهات، فثبت أننا نحن مأمورون إذ لا نجد فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم حكما واضحا فنرد المسئلة إلى أهل الاجتهاد والاستنباط وهم الأئمة المجتهدون وأيضا ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (التوبة: ١٠٠) فذكر الله تعالى أنهٔ من اتبع السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار بإحسان فقد رضي الله عنه ورضى عنه والاتباع يشمل التقليد(لأهل الاجتهاد منهم).

وأيضا ذكر الله عزوجل عباد الرحمن أنهم يدعون فيما يدعون ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان: ٧٤) وهذا يشمل المعنى أنهم يصيرون من أهل الاجتهاد فالمتقون يقلدون اجتهادهم ويجعلونهم إمامهم فهذا يدل على التقليد أيضا وأيضا ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ (البقرة: ١٣٧) فالله عزوجل جعل إيمان الصحابة رضي الله تعالى عنهم ميزانا معتبرا للإيمان فمن آمن بمثل ما آمنوا به فقد اهتدى، فهذا يعنى التقليد فى الإيمانيات [1] ولهذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال عن الفرقة الناجية المهتدية أنهم على ما عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه رضي الله تعالى عنهم أجمعين فإذا كانوا هم ميزانا معتبرا فى الإيمانيات فما ظنك فى الفروعات يعنى تقليد أهل الاجتهاد منهم فى الفروعات وقياسا عليه يكون كل من أهل الاجتهاد من أمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ونحن نرى عادة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى توجيهه ولاته ورسله آحادا للآفاق ليعلموا الناس دينهم فيبلغوهم سنة رسولهم صلى الله تعالى عليه وسلم من الأوامر والنواهي.

ففى الجملة التقليد لا بد منه، بل هو من لوازم الشريعة الإسلامية وليس فقط فى اجتهاد المجتهد، بل إذا يروى الراوى حديث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقبول هذا الحديث

---

(١) ولأن إجماعهم دليلا قطعيا فالتقليد لهم فى الإيمانيات يكون الاتباع للدليل القطعي والاتباع للدليل القطعي فرض.

ليس إلا اعتمادا على هٰذا الراوى ولا شك أن الأمة اجمعت على قبول هٰذا وهٰذه هي سنة الآحاد فإذا جاز أن يقبل حديثا من أحاديث النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم اعتمادا على رواية الراوى فكيف لا يجوز أن يقبل الفتوى من المجتهد اعتمادا أنهٗ اجتهده من القرآن والسنة ، فإذا وجب قبول حديث النبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم وكذا العمل به اعتمادا على الراوي فكيف لا يجوز قبول اجتهاد المجتهد والعمل به اعتمادا أنهٗ اجتهد من القرآن والسنة والمعلوم أن الأحكام الثابتة بطريقة الاجتهاد من القرآن والسنة أيضا يجب العمل بها كما نحن بيّناه سابقا، ففي الجملة هذه الأحكام ثابتة من القرآن والسنة بالنظر والاستدلال فإذا أمرنا الله تعالىٰ أن نطيع أولى الأمر والمجتهدون منهم ونرد القضية إليهم إذا لا نفهمها من القرآن والسنة مباشرة واضحا فهؤلاء يستنبطونها لنا نظرا واستدلالا من القرآن والسنة فلا بد لنا من أن نقلدهم في اجتهادهم وهٰذا التقليد هو عين طاعة اللّٰه ورسوله صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم نعم! الواجب علينا أن نرد هذه القضايا غير الواضحة إلى أولى الأمر منا فيجب علينا البحث والتحقيق عنهم وشأنهم يعني الفرض علينا أن نبحث ونحقق ونفتش عن أهل الاجتهاد في الحقيقة وهم الذين عندهم العدالة والتقوى والذكاوة والديانة والعلم والفهم والأهلية للاجتهاد الموثوقون بهم الذين عندهم علم القرآن والسنة والإجماع والقياس وأصول تفسير القرآن وأصول الحديث والفقه والتمكن في اللغة العربية التي فيها القرآن والسنة وكذٰلك العلم بعمل الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم وأقوالهم وبالأمور كلها الضرورية لأهلية الاجتهاد فالواجب علينا أن نرد الأمر إليهم وهٰذا هو واجب علينا، والواجب عليهم الاجتهاد ثم الواجب علينا تقليدهم.

ثم اعلم أن التقليد الشرعي الذى بيّناه آنفا هو مذهب أهل الحق وهم أهل السنة والجماعة وهناك الزائغون ينكرون هٰذا التقليد وهم أهل الظاهر وأصحاب وأتباع ابن تيمية ونحن ما ذكرنا من الدلائل تكفي في الردعليهم ومع ذٰلك يناسب أننا نذكر بيانا مزيدا ونوضح أن هؤلاء الزائغين ما هم على شيء في ردهم على التقليد الشرعي، فأولا! اعلم أن هؤلاء المنكرين للتقليد الشرعي يقولون: إن التقليد بدون الاطلاع على الدليل لا يجوز فهم يقولون لو واحد يتبع فتوى العالم من العلماء فلا بد لهٗ من أن يطلع على دليله لهٰذا الفتوىٰ ثم يتبع هٰذا الدليل ولا يجوز لهٗ أن يقلد هٰذا العالم بدون الاطلاع على الدلائل لمذهبه ويسمون هٰذا "التقليد العمياء" ويقولون إنه لا يجوز، فنحن نذكر هنا أمورا التي تكفي في الرد البليغ عليهم فأولا! لو واحد يريد أن يطلع على الدلائل للعالم الذى هو يقلده فهٰذا لا شك أمر مستحسن ومأجور عليه؛ لأنهٗ من تعلّم الدين ومنكر فضل تعلّم الدين يكفر ، لكن ليس واجبًا على كل واحد يقلد المجتهد في الأمور التي يكون فيها التقليد التي نحن بيناها سابقا أن يعرف دلائلهٗ لكل شيء لأننا أولا! نحن ذكرنا الدلائل للتقليد الشرعي وفيه طاعة لأولى الأمر وهم يشمل

أهل الاجتهاد ولو كان واجبًا أن يعرف غير المجتهد دليلا من القرآن والسنة لكل الاجتهاد الذى يجتهده المجتهد لما كانت حاجة لبيان طاعة أولي الأمر لأن بعد معرفة الدليل لاجتهاد المجتهد، غير المجتهد لا يطيع المجتهد، بل يطيع الدليل من القرآن والسنة فأىّ معنى لذكر أولي الأمر في بيان الطاعة وكذلك نحن أمرنا أن نرد القضية غير الواضحة إلى أولي الأمر فهذا يقتضي أنهٗ علينا أن نقلدهم إذا هم يستنبطون لنا من القرآن والسنة ولو كان واجبًا علينا أن نعرف الدلائل في جميع القضايا قبل أن نطبقها فأي معنى أن نرد هذه القضايا إليهم، بل في هذه الحالة يكون الرد مباشرة إلى القرآن والسنة فثبت مما ذكرنا أن التقليد للمجتهدين في الأمور التى بيناها جائز مطلقا مع معرفة الدلائل وبدونها.

ثانيا: لو كان دليل للفتوى لمسئلة ما للمجتهد دقيقا لا يستطيع أن يفهمه إلا من عنده علم أصول الفقه ، ففي هذه الحالة ما ذا يفعل عوام الناس الذى جلهم ما عندهم التمكن بأصول الفقه ، ففي هذه الحالة اطلاعهم على الدليل وعدمه سواء في النتيجة؛ لأنهٗ لا يفهمه ولا بد لهٗ من أن يطبق حكم الشريعة فلا بد لهٗ من التقليد بدون معرفة الدليل.

ثالثا: لو كان المسمىٰ به العالم يخدعه فيعرض عليه الدليل الغلط مثلا حديثا منسوخا أو موضوعا أو ساقط الاعتبار أو قياسا باطلا وغيرها من أمثالها ، ففي هذه الحالة هذا العامي يظن أنهٗ يتبع الدليل وفي الحقيقة هو يتبع الهوى لهذا المسمىٰ به العالم فلا تفيده معرفة الدليل في هذه الحالة إذ ليس عنده العلم لكي يعرف أن الدليل صحيح ، ففي الأخير هو لا يفعل إلا تقليد هذا المسمىٰ به العالم معتمدا عليه أنهٗ يهديه إلى الشريعة الإسلامية ولا يُضلهٗ وهذا يثبت أن العامي هو يقلد في الحالتين يعني المجتهد يعرض عليه الدليل والعامي يطلب منه أو المجتهد لا يعرض عليه الدليل والعامي لا يطلب منه لأن في الأخير العامي لا يفعل إلا الوثوق بهذا المجتهد.

رابعا: إذا يقول المحدث للحديث أنهٗ صحيح وأتباع ابن تيمية لا يطلبون منه البيان والدليل لتعديل هذا الحديث ثقة بالمحدث وهل هذا إلا التقليد لأنهم يعتمدون علىٰ قول المحدث في قبول الحديث المنسوب إلى النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم بدون طلب الدليل والبيان فكيف ينكرون أخذ الاجتهاد من المجتهد ثقة به بدون معرفة دليله وهل هذا إلا التناقض الظاهر.

خامسا: هل جميع أتباع ابن تيمية في أخذهم من فتاوى مشائخهم يعرفون الدلائل لكلها ويفهمونها، الجواب لا!، بل هم أيضا في كثير من المسائل أوجلتهم لا يفعلون إلا التقليد بدون فهم الدليل بالكلية فكيف ينكرون علىٰ غيرهم وهذا نوع من النفاق.

وهذا ما ذكرنا يكفي في بطلان مذهبهم في الرد على التقليد الشرعي، فالحق أن العامي لا بد

لهٗ من التقليد وثم لو ترىٰ فى الأمة الإسلامية لو كل واحد يُكلّف أن يعرف الدليل لكل شيء يفعلهٗ ماذا يحصل؟ فهناك طائفة من العلماء الذين يشتغلون بعلم الدين والتفقه فيه وثم جلة الناس هم العوام فهم يقلدونهم ولا يستطيعون أن يفهموا الدلائل الشرعية من أنفسهم لأن الأمور غير واضحة فيرجعون إلى العلماء ويقلدونهم، نعم! الواجب عليهم أن يبحثوا لعلماء الحق ويجتنبوا من علماء الباطل والضلالة هٰذا هو الواجب عليهم، فهٰذا بيان التقليد الشرعي والحمد لله رب العالمين.

المذاهب الأربعة والتقليد بها والتقيّد بها:

فالآن إن شاء اللّٰه العزيز نتكلم عن موضوع المذاهب الأربعة المشهورة المنتشرة وهي الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة، وهٰذا إن سألتم أننا نعترف بوجوب التقليد على العامي فى المسائل التي لا يستطيع أن يفهمها بنفسهٖ، لكن لماذا التقّيد بالمذاهب الأربعة فقط؟ ولماذا لا يُترك عوام الناس فإذا عرضت عليهم القضية فليسألوا أى واحد من العلماء شاءوا بدون التقييد بأى المذهب المعين والمجتهد المعين؟ فالجواب بتوفيق اللّٰه تعالىٰ إن شاء اللّٰه العزيز هو نحن قد بينا وجوب التقليد وضرورته للعامي، ففى الحقيقة التقليد قد يكون للمجتهد المعين وقد يكون لا للمجتهد المعين، بل يقلد العامي عدة من المجتهدين فى المسائل المختلفة، وفى زمان الصحابة رضي اللّٰه تعالىٰ عنهم والتابعين رحمهم اللّٰه تعالىٰ التقليد بالمجتهد المعين والتقليد المطلق (يعنى بدون المجتهد المعين) كلاهما كانا شائعان وكذٰلك جائزان، لكن لما تغير الزمان وكثرت الأهواء وفسدت الأفكار اختار العلماء الأخيار أن يلتزموا بمذهب إمام معين، لا لأنهٗ كان حكما شرعياء بل لكفّ الناس عن اتباع الهوىٰ فإن الرجل العامي إذا حصلت لهٗ الحرية، لصار الدين لعبة فى أيدى المتلعبين وهٰذا مما لا يبيحه أحد فحكم التقليد الشخصى يعنى تقليد المجتهد المعين كان سد الذريعة لهٰذا الأمر الحرام وتغيير الحرام مأمور فى الشريعة، وبيانه هو بمرور الزمان وبعد زمان النبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم والصحابة رضي اللّٰه تعالىٰ عنهم أجمعين صار الناس كثرت فيهم الأهواء فلو تُركوا أن يقلدوا من شاءوا متى شاءوا ويقفزوا من المجتهد إلى المجتهد لبحثوا عن المذهب والفتوىٰ يلائم أهواءهم، فمثلا فى هٰذه المسئلة يتبع هٰذا وفى هٰذه المسئلة يتبع هٰذا كل بنظر إلى أهواءهم بدلا بنية اتباع الشريعة الإسلامية وهٰذا حرام بالإجماع وكذٰلك فى وقت يقلدون من يفسد النكاح وفى وقت يقلدون من يصححه كل بنظر إلى أهواءهم وهٰذا كلهٗ حرام بالإجماع ولا يجوز البتة وفى القرآن ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ (الجاثية:٢٣) فلإذا التقليد المطلق يعنى بدون تعيين الإمام يؤدى إلى اتباع الهوى بين الناس وهو حرام فما يؤدى إلى الحرام فهو لا يجوز أيضا

ولهذا اتفق العلماء بعد مرور الزمان أنهٗ لا بد للعوام من التقيّد بالمذهب المعين للمجتهد المعين سدا للذريعة يعني محافظة عليهم أن لا يقعوا فى الحرام وتنزها من أن يكون دين الإسلام لعبة فى أيدى الناس يعني ليس دين الإسلام نفسه، لأنهٗ محفوظ من عند الله تعالىٰ، بل ما يتدينون به الناس فهم حينئذ لايكون يتدينون بدين الإسلام، بل بأهواء هم يعني إذا تركوا ولم يتقيدوا بالمجتهد المعين.

فإذا فهمتم هذا فإن تسأل الأن أننا نفهم ضرورة التقيد بالمذهب المعين فى حق عوام الناس محافظة علىٰ دينهم ، لكن لماذا المذاهب الأربعة فقط والمعلوم أنهٗ كانوا هناك كثير من المجتهدين دون الأئمة الأربعة؟ فالجواب بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز هو لا شك أنهٗ كانوا هناك كثير من المجتهدين فى خير القرون دون الأئمة الأربعة ونظرا إلى الأصول ليجوز تقليد أى واحد منهم ، لٰكن بالأسباب الأخرىٰ لا يجوز التقليد إلا للأئمة الأربعة وهم الإمام أبوحنيفة والإمام مالك والإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل رحمهم الله تعالىٰ وهٰذه الأسباب هي أن مذاهب الأئمة دوّنت وحرّرت وفصّلت عليها حتىٰ تكون منضبطة فعُرف ما هو المقيد منها وما هو على العموم وما هو المطلق وما هي المستثنيات وأيضا قد انتشر علماء المذاهب الأربعة الذين تعلموا مذاهبهم وعلموا وبينوا ما فيها ونصروها بالأدلة الشريعة من القرآن والسنة وكذٰلك اجتمعت الأمة أو المعتد به منها علىٰ جواز تقليدها إلى يومنا هٰذا وفى ذٰلك من المصالح ما لا تخفي لا سيما بعد مرور الزمان الذى قصرت فيه الهمم جدا وأشربت النفوس الهوىٰ وأعجب كل ذى رأى برأيه وأيضا فى الحديث " إن أمتى لا تجتمع علىٰ الضلالة، فإذا رأيتم اختلافا فعليكم بالسواد الأعظم. " (سنن ابن ماجة، ح:٣٩٥٠) والمعلوم أن أكثر الأمة يتبعون المذاهب الأربعة فيكون اتباعها اتباعا للسواد الأعظم وأيضا أن أهل السنة والجماعة قد افترق بعد القرن الثالث أو الرابع على المذاهب الأربعة ولم يبق فى فروع المسائل سوىٰ هٰذه المذاهب الأربعة فقد انعقد الإجماع علىٰ بطلان قول من يخالف كلهم وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾ (النساء:١١٥) وأما المذاهب الأخرىٰ من الأئمة الأخرىٰ الذين كانوا فى خير القرون فلم تدوّن ولم يفصّل عليها ولم يكثر العلماء لها حتىٰ بيّنوها ونصروها بالأدلة الشريعة وتعلموها وعلموها وحفظوها بالتدوين والتعلم وكذٰلك هي كلها اندرست فلم يوجد أى واحد يقلدها وأجمعت الأمة على المذاهب الأربعة فالخروج منها إلى الأخرىٰ يقتضى الخروج من السواد الأعظم وإجماع من يعتد به من الأمة المسلمة وأما المذهب الظاهري فهم ليسوا من أهل السنة والجماعة بسبب ضلالتهم فى الأصول والفروع فبعض منهم قريب من الاعتزال فى الإيمان بالله كابن حزم وبعض منهم المجسمة كابن تيمية وأتباعه وأما الفروع فقد خرقوا الإجماع وتركوه فى المسائل الكثيرة وبعض منهم لا يعتبرون القياس ومع ذٰلك يعتبرون خبر الواحد قطعيا وبعض منهم يزدرون بمقام الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم ردا علىٰ

حجية أفعالهم وأقوالهم وفي الجملة من اطلع على أصولهم وفروعهم ، فقد علم أن ليس لهم مسكة من أهل السنة والجماعة ولهذا الحمد لله ،الأمة في الجملة لم يقبلوا مذهبهم فلم يشتهر ولم ينتشر وأيضا نحن ذكرنا وبينا أن الواجب على العامي أن يبحث عن المجتهد الذى هو مجتهد في الإسلام حقيقة وإجماع الأمة أو من يعتد به منها على جواز تقليد المذاهب الأربعة دليل قاطع للعامي أن الأئمة الأربعة لهذه المذاهب الأئمةُ المجتهدون في الإسلام حقيقة بلاشك ، فاختياره لتقليد المذهب من المذاهب الأربعة يكون امتثالاً لما يجب عليه وهو البحث عن المجتهد في الحق وتقليده وأما ما عداها من المذاهب فكما قلنا لا يوجد علماء هم ولا يوجد مذهبهم مدونا، محفوظا، مبينا، بل اندرسوا فاختيار العامي تقليد المجتهدين ما عدا الأئمة الأربعة لا يقتضي امتثالا بما يجب عليه؛ لأنه في هذه الحالة يختار المجتهد الذى مذهبه لا يقلّد في الأمة فهذا دليل أن هذا المجتهد إما لا يقلّدبه بسبب أنه لا يستحق بهذه المرتبة أو إما مذهبه غير محفوظ وغير مفصل عليه ولا يوجد العلماء تعلموه وعلموه أو إما المذاهب الأربعة أحقّ بالتقليد منه فمهما من الأسباب إن إجماع من يعتد به من الأمة على غير تقليده يشير على العامي أن لا يقلد به ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾ (النساء:١١٥) والواجب عليه أن لا يقلد به، بل من يُقلّدبه فكيف يفعله؟ فلا بد لهُ من أن ينظر إلى ماهو المقبول عند المسلمين لأن ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن كما في الأثر فلا بد لهُ من التقيّد بواحد من المذاهب الأربعة ليحقق امتثالا بما يجب عليه من البحث للمجتهد في الحق في الإسلام، فعليكم يا معشر المؤمنين باتباع الفرقة الناجية المسماة بأهل السنة والجماعة فإن نصرة الله في موافقتهم وخذلانه وسخطه ومقته في مخالفتهم "يد الله على الجماعة ومن شذ شذ إلى النار." (سنن الترمذي، ح:٢١٦٧) وهذه الطائفة الناجية قد اجتمعت اليوم في المذاهب الأربعة هم الحنفيون والمالكيون والشافعيون والحنبليون ومن كان خارجا من هذه المذاهب الأربعة في الزمان فهو من أهل البدعة والنار. واعلم أن من يعرّض بمقام الأئمة الأربعة ويعتبر التقليد الشرعي الذى يبناه التقليد الشركي ويريد أن يجتهد نفسه بدون الاستعداد والأهلية كما يفعل أتباع ابن تيمية وابن حزم أو يختار بنفسه بين فتاوى المجتهدين نظرا إلى شهواته كما يفعل أتباع ابن تيمية وابن حزم فهو ليس من أهل السنة والجماعة قطعاوبتاتا، بل من أهل الأهواء والبدعة.

المتن:

ولا نفضل أحدا من الأولياء على أحد من الأنبياء عليهم السلام،

ونقول نبي واحد أفضل من جميع الأولياء.

الشرح:

فالشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى الآن يتكلم عن فضيلة الأنبياء على الأولياء وهذا معلوم من الدين بالضرورة ولولا كان الخلاف من أهل الأهواء والبدعة في هذه المسئلة لما كانت حاجة لذكرها لأنها كما قلنا من ضرورات الدين والأمة المسلمة مجتمعة في هذه المسئلة ولهذا لا تحتاج إلى الشرح أيضا ومن يخالفها من بعض الكرامية والرافضية فهم كفار وليسوا مسلمين لإنكارهم ما ثبت ضرورة في الدين ومع أن هذه المسئلة لا تحتاج إلى الشرح لكونه المعروف بالضرورة، نحن نذكر من الأدلة لهذه المسئلة، الأول: النبوة ليست كسبية، بل فضل من الله تعالى والولاية فهي كسبية يستطيع واحد ان يكون وليا بسبب الطاعات ، لكن لا يستطيع أن يكون نبيا لأن النبوة هي الإصطفاء من الله تعالى والفضيلة هي من عند الله تعالى فمن اصطفى الله للنبوة فخصه على غير الأنبياء فيكون أفضلا لا محالة.

وثانيا: الأنبياء معصومون فمن ولادتهم إلى وفاتهم معصومون وكذلك مأمونون عن سوء العاقبة والأولياء فليسوا كذلك، بل قد يكون الشخص فاسقا أو كافرا وثم يؤمن ويبلغ درجة الولاية بسبب الطاعات وثم يرتد نعوذبالله ويخلد في النار، فللعبرة فإبليس نفسه ماذا كان وماذا صار ويكون في جهنم خالدا مخلدا فيها ولعنه الله لعنة شاملة كاملة، فالنبي أفضل لا محالة.

وثالثا: الأنبياء مكرمون بالوحي وبتبليغ الأحكام وإرشاد الأنام والأولياء مأمورون باتباع الأنبياء الذين هم (الأولياء) من أمتهم فالنبي أفضل لا محالة.

ورابعا: الأنبياء عندهم درجة الولاية بأكملها وإضافة عليها عندهم النبوة والأولياء فعندهم درجة الولاية فحسب وحتى هذه ليست بأكملها التي هي عند الأنبياء عليهم الصلوات والسلام فالنبي أفضل لا محالة.

وخامسا: الأولياء فهم من أمة الأنبياء عليهم الصلوات والسلام فالأنبياء يكون لهم ثواب طاعات أمتهم والأمة تشمل الأولياء لأن الدال على الخير كفاعله فما عند الأولياء فهي عند الأنبياء والأنبياء عندهم ما سواها بأضعاف لا تحصى والأولياء ما عندهم مسكة منها فالنبي أفضل لا محالة.

سادسا: النصوص القطعية الشرعية مثلا ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ

وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِيْنَ أُولٰئِكَ الَّذِيْنَ هَدَى اللّٰهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعٰلَمِيْنَ﴾(الأنعام: ٨٩-٩٠)

سابعا: الإيمان بنبوة الأنبياء فرض وجاحده كافر وأما الأولياء فإلا أن يكون ولاية واحد منهم ثابت في الوحي من عند الله تعالى الذى يأتى إلى الأنبياء فقط لا يكون جاحد ولاية واحد منهم كافرا مثلا يقول عنه أنهٗ المرائى المنافق فى طاعاته فالنبي أفضل لا محالة؛ لأنهٗ من أصول الإيمان

وثامنا: التعريض فى شأن الأنبياء عليهم الصلوات والسلام كفر ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلّٰهِ وَمَلٰئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيْلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّٰهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِيْنَ﴾(البقرة:٩٨) وأما تعريض واحد من الأولياء فإلا أن يقتضى بطلان النصوص القطعية التى هي من الأنبياء عليهم الصلوات والسلام لا يكون التعريض كفرا كواحد يقول عن واحد من الأولياء أنهٗ كان فاسد العقيدة بعيدا من أهل السنة والجماعة على ماهو يظن عنه، فالنبي أفضل لا محالة لأن مكانته مقدسة فى غاية الكمال.

تاسعا: من اطلع على القرآن والسنة وما فيهما فى شأن الأنبياء لا يكون عنده الشك البتة أن هٰذه الجماعة جماعة خاصة فى غاية الكمال وليست كغيرها من الناس.

وعاشرا: النبي طاعته طاعة الله ﴿وَمَنْ يُّطِعِ الرَّسُوْلَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّٰهَ﴾(النساء:٨٠) فحكمه حكم من عند الله تعالى والولى ليس كذٰلك، بل مأمور نفسه باتباع نبيه عليه الصلوات والسلام وكذٰلك حكم الولى ليس الحكم من عند الله تعالى وأما الأنبياء ﴿وَمَآ اٰتٰكُمُ الرَّسُوْلُ فَخُذُوْهُ وَمَا نَهٰكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوْا﴾ (الحشر:٧) فنحن ذكرنا عشرة نقاطا من الأدلة لهٰذه المسئلة وهناك الدلائل الأخرىٰ موجودة وفى الأصل كما قلنا هٰذه المسئلة معلوم من الدين بالضرورة فلا شك فى كفر من يخالفها والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

ثم إن المسئلة لا تنتهى هنا وبس، بل كما قال الشيخ رحمه الله تعالى أننا نقول نبي واحد أفضل من جميع الأولياء يعنى النبي الواحد أفضل من جميع الأولياء مجتمعا وهٰذا أيضا معلوم من ضرورات الدين والدلائل التى ذكرناها كافية فى إثباته، بل كما قلنا أنهٗ معلوم ضرورة من الدين فلا يحتاج إلى الإثبات لأن كما قلنا أن النبوة هي ليست كسبية على الإطلاق، بل فضل من الله محض فإذا اصطفى الله واحدا لنبوته فهٰذا الواحد هو من خاص الخاص عند الله تعالى كما قال الله عزوجل لسيدنا موسىٰ عليه السلام ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِيْ﴾ (طٰه:٤١) يعنى هم خاص الخاص عند الله تعالى واصطفاهم الله تعالى لتبليغ رسالته ووحيه إلى عباده وفى آية أخرىٰ ﴿اَللّٰهُ يَصْطَفِيْ مِنَ الْمَلٰئِكَةِ رُسُلاً وَّمِنَ النَّاسِ﴾ (الحج:٧٥) وفى آية أخرىٰ ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوْا لَنْ نُّؤْمِنَ حَتّٰى نُؤْتٰى مِثْلَ مَا أُوْتِيَ رُسُلُ اللّٰهِ اللّٰهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾(الأنعام:١٢٣) وهٰذا المنصب يعنى النبوة والرسالة ليسا للأولياء البتة

ولو اجتمعوا لا يكون لهم مسكة منها فشتان بينهم وبين هذا المنصب الجليل الذي لا يحصل عليه واحد ما إلا باصطفاء الله إياه وقد انتهى على خاتم النبيين رسولنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وأيضا الأولياء كلهم مجتمعين ليسوا إلا مامورين باتباع نبيهم الذين هم (الأولياء) من أمتهم فالنبي هو إمامهم الأكبر وأيضا الأولياء كلهم مجتمعين مهما كثروا فيكونون ذرائعا لزيادة ثواب نبيهم الذين هم (الأولياء) من أمتهم وأيضا الأولياء كلهم مجتمعين ليسوا من أركان الإيمان من حيث ذواتهم وأما الأنبياء فهم من أكبر أركان الإيمان وكذلك يمكن فيه الكلام الكثير والكل يدل على ما هو ثابت ضرورة من دين الإسلام وهو أن النبي الواحد أفضل من جميع الأولياء مجتمعا وكذلك من جميع الناس من باب الأولى. والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

وفي الجملة من أنكر أن النبي أفضل من جميع غير الأنبياء مجتمعا فقد كفر بسبب إنكار ما هو ثابت ضرورة من الشريعة الإسلامية.

ثم اعلم أن رسل البشر أفضل من رسل الملائكة ورسل الملائكة أفضل من عامة البشر وأولياء البشر أفضل من عامة الملائكة، فأما تفضيل رسل الملائكة على عامة البشر فهو معلوم بالإجماع والضرورة والدلائل التي ذكرناها في تفضيل الأنبياء على الأولياء تكفي في هذا المجال أيضا لأنهم اصطفاهم الله تعالى أن يكونوا رسلة من الملائكة فيبلغوا أوامره ونواهيه إلى عوام الملائكة وإلى أنبياء البشر والرسالة من الله تعالى كما ذكرنا وليست كسبية، بل فضل من الله تعالى وعامة البشر لا يستطيعون أن يحصلوا على مسكة منها وأيضا جميع الشرائع للبشر فهي نزلت على الأرض بواسطة رسل الملائكة لا سيما سيدنا جبريل عليه الصلوات والسلام، والدال على الخير كفاعله ، ففي الجملة نحن ما ذكرنا من الدلائل في تفضيل الأنبياء على الأولياء فيها كفاية لأنها أو جلها تطرد في هذه المسئلة يعنى تفضيل رسل الملائكة على عامة البشر.

وأما تفضيل رسل البشر على رسل الملائكة فوجوه، فأولا! الله عزوجل أمر الملائكة (فيشمل الرسل منهم) أن يسجدوا لآدم عليه الصلوة والسلام فهذا يدل على أفضليته عليهم وإن قيل أن آدم عليه السلام كان بمنزلة القبلة والسجدة هي لله وحدة فعلى هذا لا يدل على أفضليته كما الأنبياء عليهم الصلوات والسلام يصلون إلى القبلة والقبلة غير أفضل منهم بالإجماع، قلنا بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز أن ما قلتم صحيح ، لكن لا يطرد في هذه المسئلة لأن القبلة في الصلاة للمصالح الأخرى وليست للتكريم والتعظيم كما هو المعلوم فانظر الآيات التي تتعلق بالقبلة ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ

عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ (البقرة: ١٤٢-١٤٤) وهذه الآيات تتكلم عن القبلة والثابت من هذه الآيات أن مواجهة القبلة ليست لتعظيمها، بل هناك المصالح الأخرى من الاختبار والامتحان، وكذلك المعلوم أن في القبلة مصلحة الاجتماعية كما لاتخفى وغيرها من المصالح وأما السجدة لآدم عليه السلام فانظر الآيات ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (الأعراف: ١١-١٣) ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي[1] فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ[2] أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (ص: ٧١-٧٧) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾ (بني إسرائيل: ٦١-٦٣) فمن يغور في هذه الآيات لا يلتبس عليه أنه هناك فرق بيّن بين اتخاذ القبلة للصلوٰة وبين اتخاذ الملائكة آدم عليه السلام قبلة للسجدة فأما الأول فليست لتعظيم القبلة البتة، بل مجرد الطاعة لله وأما الثاني فالله عزوجل أمرهم أن يتخذوه قبلة للسجدة تشريفا وتكريما لآدم عليه السلام عليهم وإن كانت السجدة لله تعالىٰ وهذا ظاهر لمن يمعن في الآيات التي ذكرنا.

ثانيا: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (البقرة: ٣١-٣٣) والظاهر من هذه الآيات تشريف لآدم عليه السلام على الملائكة من جهة العلم فعلّمه الله الأسماء وثم عرضها على الملائكة فلم يستطيعوا لعدم علمهم بها ثم أمر آدم عليه السلام أن يخبرهم بالأسماء وهذا في الظاهر يدل علىٰ تفضيل آدم عليه السلام على الملائكة.

---

(١) إضافة الروح إلى الله تعالى في معنى الملك والخلق وفيه تشريف لآدم، فإن كل المخلوق تولى الله خلقه،

(٢) ليست في معنى الجارحة، بل كما يليق به ونفي الجارحة عنه تعالى من ضرورات الدين وفي الجملة فيه تشريف لآدم عليه السلام بأضاف خلقه إليه تعالى تشريفا له كما في بيت الله تشريفا للبيت.

وثالثا: فى سورة الأنعام ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعٰلَمِينَ﴾ (الأنعام: ٨٣-٨٦) والمعلوم أن الملائكة من العلمين فثبت أفضلية الأنبياء عليهم الصلوات والسلام على الملائكة عليهم الصلوات والسلام.

وأما تفضيل أولياء البشر على عامة الملائكة فبوجوه أولا ﴿إِنَّ اللّٰهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعٰلَمِينَ﴾ (آل عمران: ٣٣) وظاهر هذه الآية يدل على تفضيل آل إبراهيم وآل عمران كلهم من الرسل وغيرهم على جميع الملائكة من الرسل وغيرهم، لكن تفضيل غير الرسل وغير الأنبياء من الهما على رسل الملائكة خلاف الإجماع والضرورة الدينية فيكون مستثنيا من عموم الآية وكذلك الكفار والفساق يكون مستثنيا من عموم الآية لأن أما الكفار فهم أسوء الخلق فناهيك من مقارنتهم بالملائكة المكرمين (ونعوذ بالله) وفى القرآن ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ (البينة: ٦) وأما الفساق ولو الهم من جملة المؤمنين المسلمين، لكن لا يقارنون مع الملائكة البتة وهم على الفسوق والفجور وكيف؟ وقد قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (الجاثية: ٢١) وقال عز وجل ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر: ١-٣) والفاسق ولو عنده الإيمان، لكن يقصر فى الأشياء الأخرى اللازمة فهو فى نوع من الخسران فكيف يقارن مع الملائكة المكرمين الذين هم ﴿عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٧) ﴿لَا يَعْصُونَ اللّٰهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم: ٦) نعم! الفاسق فى الآخرة عند ما يدخل الجنة فى الأخير بعد الطهارة من آثامه وذنوبه بسبب العقوبة والمغفرة فحينئذ لما يدخل الجنة فى الأخير بإيمانه يكون أهلا للمقارنة مع الملائكة ويكون أفضلا من عامة الملائكة؛ لأنه حينئذ يشمل فى أولياء الله تعالى؛ لأنه ثم قد طهر من الذنوب والآثام ودخل الجنة والله راضى عنه.

فحاصل الكلام أن الآية التى ذكرنا بعد هذه المستثنيات التى ذكرناها تبقى معمولا فيما عدا تلك المستثنيات وهو تفضيل رسل البشر على رسل الملائكة وأولياء البشر على عامة الملائكة فافهما

ثانيا: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعٰلَمِينَ﴾ (البقرة: ٤٧) [1] وهذه الآية تدل على أفضلية بنى إسرائيل على عالمى زمانهم والملائكة ثم كانوا

---

(١) بمعنى عالمى زمانهم فلا يدل على أفضلية على أمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وكيف؟ "كنتم خير أمة أخرجت للناس" وهذا فى أمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم

موجودين لا محالة فتشملهم أيضا ثم لا بد من المستثنيات اللازمة التى بيناها قبلا يعنى لا تشمل تفضيل العامة من بنى إسرائيل على رسل الملائكة، لأنه خلاف أصول الدين ولا يشمل الكفار والفساق منهم وهو ظاهر، فما عدا ذلك يكون معمولا به فهو رسل البشر أفضل من رسل الملائكة وأولياء البشر أفضل من عامة الملائكة.

وثالثا: الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ (البينة:٦-٨) يعنى خير الخلائق وإن قيل أن الملائكة عليهم الصلوات والسلام أيضا يؤمنون ويعملون الصلحت فالآية تشملهم، قلنا بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز هذه الآية فى الظاهر تتكلم عن الإنس والجن فتتكلم هذه السورة عن الكفار من أهل الكتاب والمشركين (وهم غير الملائكة) أنهم شر البرية وثم تتكلم عن المؤمنين العاملين بالصلحت أنهم خير البرية وثم الملائكة إيمانهم ليس إيمانا بالغيب وطاعتهم لا تقتضى كسر هواء النفس كما فى البشر لأن الملائكة مجبولون على طاعة الله عزوجل ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم:٦) فلا تكون طاعتهم مقارنة لطاعة البشر الذى له الأعداء فى سبيل الطاعة وهم أنفسهم والشياطين فإذا امن البشر يكون إيمانه إيمانا بالغيب فلا محالة يكون أفضل من إيمان الملائكة الذى ليس إيمانا بالغيب وإذا أطاع الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم تكون طاعته لا محالة أفضل بأضعاف كثيرة من طاعة الملائكة الذين هم مجبولون على طاعة الله عزوجل بخلاف البشر الذى دائما يناضل ضد الشيطان والنفس ويضحى أهواءه من أجل طاعة الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم فالآية التى ذكرنا تدل على أن البشر إذا يطيع الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم يكون من جملة أفضل الخلائق فيكون أفضل من الملائكة دون الرسل منهم؛ لأنه لا بد من جميع الاستثناء الذى ذكرنا. ثم إن قيل أن الآية تتكلم عن الجن والإنس فعلى هذا يكون الجن أفضل من عامة الملائكة أيضا، قلنا بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز أن المعلوم أن الجن ليس بأفضل من الإنس وقصة آدم عليه السلام وإبليس الذى هو من الجن تدل على هذا بالكفاية وأيضا الأنبياء هم من البشر وليسوا من الجن لا سيما خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم هو من البشر ومبعوث إلى الجن والإنس وليس بعده نبى، فالجن والإنس مأمورون باتباعه وأيضا أفضلية البشر على الجن من ضرورات الدين فأما الآية عن "خير البرية" هل تدل على أفضلية أولياء الجن على عامة الملائكة؟ ففيه التوقف لأن الجن فإيمانهم ليس كإيمان البشر الذى هو إيمان بالغيب مطلقا، بل الجان فهم قد يرون الملائكة كما تدل عليه الآية ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ[1] عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي

(١) يعنى إبليس (تمثل فى صورة سراقة بن مالك يوم بدر) لما رأى جبريل عليه السلام.

بَرِئٌ مِنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ اللَّهَ [1] وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الأنفال:٤٨) وكذٰلك قد يسمعون من كلامهم ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ (الصافات:١٠) وكما جاء فى الأحاديث التى تشرح الآية. فإيمان الجان علىٰ هٰذا ليس كإيمان الإنس الذين لا يرون الملائكة ولا يسمعونهم إلا الأنبياء عليهم الصلوات والسلام منهم نعم! هناك أمور كثيرة التى هي غيبية فى حق الجان أيضا مثلا أحوال الآخرة ، لكن مع هٰذا إيمان البشر هو أفضل من إيمان الجن لأن إيمان البشر هو إيمان بالغيب مطلقاً وتماما وأما إيمان الجن فأكثره بالغيب ، لكن ليس كلهٗ مطلقا، نعم! إيمان الجن مقبول فمن آمن منهم وعمل الصالحات يكون من أهل الجنة ، لكن مسئلة التفضيل هي مسئلة أخرىٰ فلما ذكرنا من الفرق بين إيمان الجن والإنس لا تكون الآية عن "خير البرية" تنطبق على الجن علىٰ نفس المنوال كما هي تنطبق على البشر فحصل التوقف فهل أولياء الجن أفضل من عامة الملائكة والله أعلم ، لكن الآية تنطبق بكمالها على البشر فيكون أولياء البشر يعنى المؤمنين العاملين بالصالحات أفضل من عامة الملائكة.

وإن قيل أن الأنبياء عليهم الصلوات والسلام مع كونهم أفضل البشر يتعلمون ويستفيدون من الملائكة لا سيما الرسل منهم فكيف يكونون أفضل من رسل الملائكة؟ فالجواب بتوفيق اللّٰه تعالىٰ إن شاء اللّٰه العزيز أولا! أن التعليم فى الحقيقة من اللّٰه تعالىٰ والملائكة هم مبلغون كما هو المعلوم أنهم رسل من اللّٰه إلى رسله من البشر فكما البريد بين المعلم والمتعلم لا يكون أفضلا من المتعلم لكونه البريد بينهما فكذٰلك كون رسل الملائكة رسلا من اللّٰه إلى رسله البشر لا يدل علىٰ أفضليتهم علىٰ رسل البشر.

ثانيا: المشير أو المستشار منه لا يكون أفضلا لكونه المشير أو المستشار منه على المستشير أو المشار عليه لأن الممكن أن فى الواقعة الخاصة المشير أو المستشار منه عندهما خبرة فى مسئلة ما التى ليست عند المستشير أو المشار عليه وهٰذا القدر لا يكفى كما هو المعلوم فى الأفضلية، فنحن نرىٰ الصحابي رضي اللّٰه تعالىٰ عنه قال للنبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم وأشار بإنزال الجند فى مكان آخر لأسباب حربية بيّنها للرسول صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم و كذٰلك قد قال اللّٰه تعالىٰ للنبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ﴾ (آل عمران:١٥٩) وليس هٰذا بشيء من الأفضلية كما هو المعلوم و كذٰلك استفادة الأنبياء عليهم الصلوات والسلام من الملائكة لا تدل على الأفضلية. وإن قيل أنهٗ قد جاء فى الحديث "يقول اللّٰه تعالىٰ أنا عند [2] ظن عبدى بى وأنا معهٗ حين

---

(١) وفى التفسير قيل إنه كذب وقيل أنهٗ خاف ، لكن بدون التقوىٰ خوفا على علم أنهٗ لا قوة لهٗ ضد اللّٰه تعالىٰ، لكن لا يفيد بدون التقوىٰ.

(١) هٰذا الحديث الجليل ليس على معنى كما يفهم فى حق الخلق لأن اللّٰه تعالىٰ عليم بكل شيء غير غافل ولا ساهي ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ (طٰه:٥٢) ، بل معيته وذكره يدل على عنايته وثوابه ونصرته ورحمته للذاكر.

يذكرنى فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى وإن ذكرنى فى ملإ ذكرته فى ملإ خير منهم الخ ." (صحيح مسلم، ح: ٢٦٧٥) وهو ملأ الملائكة فهذا الحديث يدل على افضلية الملائكة، قلنا بتوفيق اللّٰه تعالى إن شاء اللّٰه العزيز أن هذا الحديث لا يدل على افضلية الملائكة لأن الممكن لو واحد غير نبي من البشر يذكر اللّٰه تعالى فى ملإ البشر من غير الأنبياء فيذكره اللّٰه تعالى فى ملأ الذين هم رسل الملائكة وهم أفضل من عامة البشر بالإجماع فعلى هذا لا يدل الحديث على كون عامة الملائكة (غير الرسل) أفضل من أولياء البشر، ولو واحد بشر يذكر اللّٰه تعالى فى ملأ الذين فيه نبي من الأنبياء فمن الممكن أن يذكره اللّٰه تعالى فى ملأ الذين هم رسل الملائكة بالأجمع فيكون الملأ الذين فيهم جمع من رسل الملائكة أفضل من الملأ الذين فيهم نبي واحد من البشر فعلى هذا لا يدل على أفضلية أفراد رسل الملائكة على أفراد رسل البشر ولو فرضنا أن النبي من الأنبياء (من الامم الماضية) يذكر اللّٰه تعالى فى ملإ من الأنبياء فعلى هذا يمكن أن يذكر اللّٰه تعالى هذا النبي فى ملأ من رسل الملائكة الذين هم أضعاف هذا الملأ من الأنبياء الذين فيه هذا النبي يذكر اللّٰه ، فمثلا لو فرضنا هذا النبي يذكر اللّٰه تعالى فى الملأ من الأنبياء أقل من العشرة فيذكره اللّٰه تعالى فى الاف من رسل الملائكة فيكون الملأ من الاف من رسل الملائكة أفضل من الملإ الذى فيه أقل من العشرة من رسل البشر فلا يدل على أفضلية أفراد رسل الملائكة على أفراد رسل البشر وهذا بيان وتأويل الذى نحن ذكرناه للحديث يجعل الموافقة بين الحديث والنصوص الدالة على أفضلية رسل البشر على رسل الملائكة وأفضلية أولياء البشر على عامة الملائكة (غير الرسل) التى ذكرناها والحمد للّٰه رب العالمين.

وإن قيل أن اللّٰه تعالى يقول ﴿لَنْ يَّسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَّكُوْنَ عَبْداً لِلّٰهِ وَلا الْمَلٰٓئِكَةُ الْمُقَرَّبُوْنَ﴾ (النساء: ١٧٢) فإن أهل اللسان يفهمون من ذلك أفضلية الملائكة من عيسى عليه الصلوات والسلام إذ القياس فى مثله الترقى من الأدنىٰ إلى الأعلى يقال لا يستنكف من هذا الأمر الوزير ولا السلطان ولا يقال السلطان ولا الوزير، فالجواب الأول بتوفيق اللّٰه تعالى إن شاء اللّٰه العزيز أن النصارى استعظموا المسيح عليه السلام فقالوا أنهٗ ابن اللّٰه (ونعوذ باللّٰه) لأنهٗ لا أب لهٗ و كان يفعل من المعجزات الباهرة بإذن اللّٰه فرد عليهم بأن المسيح عليه السلام لا يستنكف أن يكون عبدا للّٰه الذي هو هو فى الحقيقة ولا يفرق فوق العبودية ولا الملائكة المقربون يستنكفون من هذا الذين هم أعلى من المسيح عليه السلام فى الأشياء التى ذكرتم فالمسيح لا أب لهٗ ، لكن الملائكة لا أب لهم ولا أم وكان المسيح عليه السلام يفعل المعجزات الباهرة بإذن اللّٰه والملائكة يقدرون بإذن اللّٰه على ماهو أقوىٰ وأعجب، فعلى هذا يكون الترقى إلى الأعلى فى الأشياء التى ذكرناها وهذا لا يدل على التفضيل كما هو الظاهر، فالجن هم أقوىٰ بأضعاف كثيرة من الإنس فى بعض الأشياء ، لكن المعلوم

بالضرورة أن الإنس أفضل منهم، بل الجن لا يكونون أهلا للمقارنة مع الإنس من البداية والجواب الثانى هو أن النصارى اتخذوا المسيح عليه السلام إلها ونعوذبالله وقالوا أنه ابن الله (ونعوذبالله) والمشركون من العرب قالوا أن الملائكة بنات الله ونعوذبالله ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ[1] مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (الزخرف:١٥-٢٠) فالآية ترد على النصارى والمشركين فتقول أن المسيح لا يستنكف ولا الملائكة المقربون أن يكونوا عباد الله وأنتم بافتراء كيف تقولون أنهم نعوذبالله بنون وبنات لله؟ فعلى هذا قصد الآية رد على الطائفتين وليس الترقى من الأدنىٰ إلى الأعلى كما يقال لا يستنكف عمر ولا زيد أو لا يستنكف زيد ولا عمر كلاهما فى نفس المعنى لأن القصد هو نفي الاستنكاف منهما وليس الترقى من الأدنىٰ إلى الأعلى والله أعلم ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

وإن قيل أن الملائكة عليهم الصلوات والسلام الرسل وغير الرسل منهم كلهم من أصول الإيمان (ولا يكون إيمانا بدون إيمان بهم) فمن عرّض فى شأن الملائكة عليهم الصلوات والسلام الرسل وغير الرسل منهم فقد كفر ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:٩٨) والملائكة هم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنبياء:٢٦-٢٧) وليس هكذا فى أفراد أولياء البشر من وجه الإطلاق فهذا يدل على فوقية عامة الملائكة على أولياء البشر. قلنا بتوفيق الله إن شاء الله العزيز أنه لا شك فى كفر من عرض فى شأن الملائكة الرسل والعامة منهم، لكن إثبات فوقية عامة الملائكة على أولياء البشر من هذا الوجه لايثبت؛ لأنه لو ثبت من النصوص القاطعة أن بشرا ما أنه ولى من أولياء الله تعالى فعلى هذا يكون تعريضنا فى شأنه كفرا أيضا؛ لأنه يقتضى إنكارا للنصوص القاطعة فلا يكون ثم فرقا بين أولياء البشر وعامة الملائكة، لكن ليست هناك النصوص القاطعة الدالة على أفراد جميع أولياء البشر كما هو المعلوم ولهذا لو واحد عرّض فى شأن هؤلاء أولياء البشر الذين ولايتهم غير ثابتة من النصوص القاطعة فيقول مثلا عن واحد منهم أنه الكذاب والمرائى والمنافق، فهو لا يكفر لأن هذا الولى فولايته ليست ثابتة من النصوص القاطعة (وهناك احتمال أنه فى الحقيقة ليس ولى الله) فلا يُعرف بالقطع

---

(١) الكلمة الحق أريد به الباطل لأن ولو جميع الأشياء بمشيئة الله فهذا لا يعنى أنه راضى بجميعها، بل هو راض بالحق وغضبه على الباطل وأيضا هم مسئولون بأعمالهم عنده تعالى.

انهُ فى الحقيقة ولى الله فهٰذا المتهم يتهمه علىٰ ما هو يظن عنه بسبب من الأسباب ولا يعتبره ولى الله، بل يعتبره المرائى المنافق فلا يمكن تكفيره، لأنهُ يعرّض فى شانه علىٰ اعتباره انهُ ليس من ولى الله ، لٰكن لو يعتبره ولي الله ولم يعرّض فى شانه يكفر، لأنهُ حينئذ يبغض ولى الله والبغض لولي الله هو بغض لله ولدينه ولرسوله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وهٰذا كفر لا محالة وأما الملائكة فولايتهم ثابتة من القرآن والسنة ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُوْنَ لَا يَسْبِقُوْنَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُوْنَ﴾ (الأنبياء:٢٧-٢٨) ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلّٰهِ وَمَلٰٓئِكَتِهٖ وَرُسُلِهٖ وَجِبْرِيْلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّٰهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِيْنَ﴾ (البقرة:٩٨) فمن عرّض فى شأنهم عرّض فى شأن أولياء الله المعلومون بالنصوص القاطعة فيكفر.

فحاصل الكلام أنهُ لا فرق بين عامة الملائكة وأولياء البشر فى الجملة فى المسئلة أن لو واحد يعرّض فى شأنهم يكفر حتىٰ تثبت فوقية عامة الملائكة علىٰ أولياء البشر من هذا الوجه فلا فرق فى عين المسئلة، بل الفرق هو أن الملائكة فولايتهم ثابتة فى النصوص القاطعة وأما أفراد أولياء البشر، فلا ، فلهٰذا لو يعرّض فى شأن واحد منهم الذى ولايته ليست ثابتة من النصوص القاطعة علىٰ عدم اعتباره ولى الله لا يكفر؛ لأنهُ حينئذ يعرّض فى شأن الذى هو فى اعتقاده ليس ولي الله فافهم! والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

المتن:

ونؤمن بما جاء من كراماتهم ، وصح عن الثقات من رواياتهم .

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالىٰ الأن يدخل فى موضوع الكرامات واستطرادا هٰذا الموضوع يدخلنا فى المواضيع من المعجزة والكرامة والإرهاص والسحر والاستدراج والشعوذة والمعونة والفرق ما بينها فنحن الأن إن شاء الله العزيز نذكر تعريفا لهٰذه المواضيع والفرق بينها حتىٰ إن شاء الله نستوعب هٰذا الباب بالكمال.

(١) المعجزة:

أمر خارق للعادة وهي من العجز الذى هو ضد القدرة قصدها إظهار صدق من أدعى أنهُ رسول الله عليه الصلوات والسلام فتكون الدالة علىٰ صدقه وسمّيت المعجزة لأنها تعجز عن الإتيان بمثلها وشرائطها خمسة (١) أن تكون مما لايقدر عليها إلا الله عزوجل وبيانه أنهُ مع المعلوم أن كل

شيء في العالم بقدرة الله البحتة ولاقدرة إلا له ، لكن الله عزوجل في العادة يخلق الحركة والسكون والقيام والقعود في الإنسان عند عزمه لها فهذه تعتبر من مقدورات البشر فلاتكون هذه الأشياء معجزة ، لكن مثلاً انشقاق القمر وفلق البحرليسا من مقدورات البشر كما هو المعلوم بضرورة المشاهدة فخلق الأشياء هكذاعلى يد الأنبياء عليهم الصلوات والسلام هي المعجزة الدالة على صدقهم.

(٢) أن تكون خارقا للعادة وبيانه مثلا طلوع الشمس من المشرق وإن لم يكن من مقدورات البشر ، لكن هو من أمر عادى في الكون فلايكون المعجزة ، لكن لو الله عزوجل يخرق العادة ومعناه مثلاً الله عزوجل عادة يخلق الحرق على لمس النار ، لكن لو هو يخرق هذه العادة كما حصل في حق سيدنا إبراهيم عليه السلام عند ما ألقى في النار ولم يحرقه النار فيكون هذا المعجزة لامحالة.

(٣) أن تكون مقرونة بدعوى النبوّة والاستشهاد بها على الله عزوجل فيكون كمثل قوله أن آية نبوّتي من عند الله أن الله عزوجل يفعل هذا وهذا أمرا خارقا للعادة ، فإذا فعل الله سبحانهٗ وتعالىٰ ذٰلك حصل المتحدّى به (أي آية دالّة على نبوته) .

(٤) أن تقع على وفق دعواه؛ لأنهٗ لو حصل على غير وفق دعواه لاتكون معجزة، بل الإهانة كما روى أن مسيلمة الكذاب الذى ادعى النبوّة كذبا وافتراء لعنه الله تفل في بئر ليكثر ماؤه فغارت البئر وذهب ما كان فيها من الماء وهذا يدل على كذبه وافترائه وكذٰلك لو يقول واحد أن آية نبوّتي أن تنطق يد فتنطق وتقول إن هذا المدّعى كذاب فلايكون معجزة، بل إهانة وهو أن الله عزوجل يخلق هذه الأمور المهينة للمدعى إظهارا لكذبه وهذا قد منّ الله عزوجل علينا فحافظ على أمر النبوّة وحافظ على الناس أن يقعوا في الضلال والالتباس فلم يخلق ولايخلق ولن يخلق المعجزة وهي ما تكون مع الشرائط الخمسة التي نحن في بيانها الآن على يد الكذّاب وفي القرآن ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ (الأنبياء:١٨) ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (الأنفال:٧-٨)

(٥) ألاّ يأتى أحد بمثل ما أتى به المتحدّى على وجه المعارضة فإن أقام الله عزوجل من يعارضه حتى يأتى بمثل ما أتي به ويعمل مثل ما عمل بطل كونه نبيّا ولايكون معجزة دالة على صدقه وقد قال الله عزوجل ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (الطور:٣٤) يعنى مثل القرآن وهو المعجزة الكبرىٰ لخاتم الأنبياء نبيّنا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . ثم اعلم أن المعجزة هي فعل الله البحت؛ لأنهٗ هو الذى يخلق الأمر الخارق للعادة وإنما الأمر نفسه يقال المعجزة على طريق التوسع والمجاز لا على الحقيقة.

(٢) الكرامة:

وهي أمر خارق للعادة تكون على يد الولي وهو العارف بالله وصفاته حسب ما يمكن،

المواظب على الطاعات ، المتجنب عن المعاصی، المعرض عن الانهماک فی اللذات والشهوات فتکون تکریما لهٗ وتعظیما للشانهٗ وهي لاتکون مقرونة بدعوی النبوّة وهذا فرق کبیر بینها والمعجزة، بل یکون علٰی ید الولی الذی هو المتدین بشریعة نبیّه علیه الصلوٰة والسلام الملتزم بها فهي فی الحقیقة معجزة لهٰذا النبی؛ لأن کرامة التابع کرامة المتبوع ومن هٰذا الفرق اندفع الإشکال وهو إمکان التباس بسبب الکرامة علی الناس فی معرفة صدق الأنبیاء علیهم الصلوات والسلام، لأن المعجزة فهي مقرونة بدعوی النبوة ودلالة علٰی صدق دعواه والکرامة تخلو من هٰذه الأشیاء فلا إشکال ولا التباس . ثم ما جاء ت فی الدلائل القطعیة من المعجزات والکرامات فالإیمان بها فرض وجحودها کفر وأما ماثبتت بالدلائل الظنیة فالإیمان بها واجب وجحودها فسق وضلال. فمن المعجزات من الدلائل القطعیة سفینة نوح علیه السلام ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْکَ بِأَعْیُنِنَا وَوَحْیِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِی فِی الَّذِینَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ (هود:٣٧) ناقة لصالح علیه السلام. ﴿وَیَا قَوْمِ هٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَکُمْ آیَةً فَذَرُوهَا تَأْکُلْ فِی أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَیَأْخُذَکُمْ عَذَابٌ قَرِیبٌ﴾ (هود:٦٤) وسلامة إبراهیم علیه السلام فی النار ﴿قُلْنَا یَا نَارُ کُونِی بَرْدًا وَسَلَامًا عَلٰی إِبْرَاهِیمَ﴾ (الأنبیاء:٦٩) وفی حق داوٗد علیه السلام ﴿یَا جِبَالُ أَوِّبِی مَعَهُ وَالطَّیْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِیدَ﴾ (سبا:١٠) وفی حق سلیمان علیه السلام ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّیْرِ﴾ (النمل:١٦) ﴿وَحُشِرَ لِسُلَیْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّیْرِ فَهُمْ یُوزَعُونَ﴾ (النمل:١٧) ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَیْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن یَعْمَلُ بَیْنَ یَدَیْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ (السبا:١٢) ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّیحَ﴾ (ص:٣٦) ﴿وَلِسُلَیْمَانَ الرِّیحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ (السبا:١٢) وفی حق موسٰی علیه السلام ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاکَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ کَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّیٰ مُدْبِرًا وَلَمْ یُعَقِّبْ﴾ (القصص:٣١) ﴿وَاضْمُمْ یَدَکَ إِلٰی جَنَاحِکَ تَخْرُجْ بَیْضَاءَ مِنْ غَیْرِ سُوءٍ آیَةً أُخْرَیٰ﴾(طٰه:٢٢) وفی حق عیسٰی علیه السلام ولادته وأشیاء أخری﴿قَالَتْ أَنَّیٰ یَکُونُ لِی غُلَامٌ وَلَمْ یَمْسَسْنِی بَشَرٌ وَلَمْ أَکُ بَغِیًّا قَالَ کَذٰلِکِ قَالَ رَبُّکِ هُوَ عَلَیَّ هَیِّنٌ﴾ (مریم:٢٠-٢١) ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّینِ کَهَیْئَةِ الطَّیْرِ بِإِذْنِی فَتَنفُخُ فِیهَا فَتَکُونُ طَیْرًا بِإِذْنِی وَتُبْرِئُ الْأَکْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِی وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَیٰ بِإِذْنِی﴾ (المائدة:١١٠) وفی حق نبینا خاتم الأنبیاء والرسل وإمامهم محمد النبي الأميّ صلی الله علیه وسلم ﴿وَإِن کُنتُمْ فِی رَیْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلٰی عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَکُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن کُنتُمْ صَادِقِینَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِی وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْکَافِرِینَ﴾ (البقرة:٢٣-٢٤) ﴿سُبْحَانَ الَّذِی أَسْرَیٰ بِعَبْدِهِ لَیْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَی الْمَسْجِدِ الْأَقْصَی﴾(بنی إسرائیل:١) ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (القمر:١) ﴿وَمَا رَمَیْتَ إِذْ رَمَیْتَ وَلٰکِنَّ اللَّهَ رَمَیٰ﴾ (الأنفال:١٧) وغیرها من المعجزات اعلم أن من جحد القرآن ولو حرفا منها أو إعرابا فقد کفر وکذٰلک من أنکر الأخبار المتواترة.

وأما المعجزات التى جاء ت فى اخبار الآحاد فجاحدها [1] لايكفر؛ لأن الأحاديث الآحاد ليست الدلائل القطعية، بل هي الدلائل الظنيّة ، لكن الجاحد يفسق ويضل؛ لأن أخبار الآحاد لايسوغ جحدها، بل هي من الدلائل الشريعة الصحيحة فلو لايكفر لفقدان اليقين فى ثبوت خبر الواحد ، لكن لايخلو جحده من الفسق والضلال بدون السبب الصحيح كما هو معروف من أصول الدين.

ثم المعلوم أن المعجزات ليست فى اختيار الأنبياء عليهم الصلوات والسلام، بل هي فى اختيار اللّٰه تعالٰى وفى القرآن ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَّأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللّٰهِ﴾ (ابراهيم:١١) ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُوْلٍ أَنْ يَّأْتِيَ بِاٰيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللّٰهِ﴾ (الرعد:٣٨) فلما أراد اللّٰه أن يظهر المعجزة أظهرها وخلقها فى أيدى الأنبياء عليهم الصلوات والسلام دليلا وإثباتا لنبوتهم ، نعم! بعض من المعجزات قد أعطاها اللّٰه تعالٰى إلى نبي من الأنبياء عليه الصلوٰة والسلام وثم بعد الحصول عليها من عند اللّٰه تعالٰى هٰذا النبي كان يحضر هٰذه المعجزة متى يشاء من عند اللّٰه تعالٰى وبإذنه مثلا اللّٰه عزوجل علّم سيدنا يوسف عليه الصلوٰة والسلام تأويل الأحاديث والأحلام فكان يستطيع أن يووّل الأحلام تاويلا صحيحا عند ما يسأل عنها وهٰذا كل بإذن اللّٰه ومن عنده وكذٰلك سيدنا عيسٰى عليه السلام قال اللّٰه تعالٰى له ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيْهَا فَتَكُوْنُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ (المائدة:١١٠) ، لٰكن هٰذا كله قد أعطاها اللّٰه تعالٰى إياهم من عنده وبدون ذٰلك لايستطيع الأنبياء عليهم الصلوات والسلام أن يأتوا بأي آية على الاطلاق. والمعجزة تقال "اية" "دليل" "علامة" "برهان" والغاية هي كما ذكرنا أنها تدل علٰى صدق نبوة الأنبياء عليهم الصلوات والسلام .

ثم اعلم أن رسولنا ونبيّنا محمد صلى اللّٰه عليه وسلم هو خاتم الأنبياء والرسل عليهم الصلوات والسلام فلانبى بعدهٔ ولارسول، فلهٰذا ولو واحد يدعى النبوّة بعدهٔ يكفر وكذٰلك من يسأله الدليل لصدق نبوته يكفر؛ لأنهٔ يكذّب ختم النبوّة لسيدنا محمد صلى اللّٰه عليه وسلم .

وأما الكرامة ففيها نفس الكلام فى إثباتها وهو مهما منها ماثبتت بالدلائل القطعية يعنى القرآن والسنة المتواترة والإجماع القطعي فجاحدها يكفر ومنها ما جاء عن أصحاب الكهف في سورة الكهف أنهم كانوا رقودا لمئات من السنين فى الكهف وثم استيقظوا من نومهم وقصتهم مشهورة وكذٰلك حمل سيدنا مريم رضي اللّٰه عنها لعيسى ابن مريم عليه الصلوٰة والسلام بدون أن يمسها رجل وكذٰلك كان يأتيها رزق من عند اللّٰه وهٰذه كلها فى القرآن ، ففى أصحاب الكهف ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَّهُمْ رُقُوْدٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِيْنِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ (الكهف:١٨) وفى حمل مريم

---

(١) هٰذا إذا يجحدها على الدعوى أن الخبر غير صحيح ، لكن لو يجحدها وهو يقول إن الخبر صحيح فيكفر لا محالة؛ لأنهٔ فى هٰذه الحالة يكذّب شيئاً ثابتا عنده من الشريعة.

رضي الله عنها ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ (مريم: ١٩-٢١) وفي رزقها من عند الله تعالى ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ (آل عمران: ٣٧) وكذلك ما ثبت من الكرامة في الدلائل القطعية يكون جحدها كفرا بواحا وما ثبت منها في الدلائل الظنية وهي السنة الآحاد والإجماع الظني فيكون جحدها فسقا وضلالا.

ثم المعلوم أن الكرامة ليست في اختيار الأولياء، بل هي من عند الله تعالى وهذا من باب الأولى إذالمعجزات ليست في اختيار الأنبياء عليهم الصلوات والسلام . نعم: بعض الأحيان الله عزوجل يعطى الكرامة إلى وليّ ما، فهذا الوليّ يحضر هذه الكرامة متى يسأل الله لها والله عزوجل يظهرها على سؤاله بمشيئته المطلقة كما في الحديث الصحيح عن الغلام كان يبرئ الأكمه والأبرص ويداوى الناس من سائر الأدواء بدعائه إلى الله وكان الله يجيبه فيها. ثم اعلم أن الكرامة فيها إكرام أولياء الله تعالى عند الناس ، لكن ظهورها على يد الولي ليست بضروري بخلاف المعجزة التى قد أعطاها الله منها إلى جميع الأنبياء عليهم الصلوات والسلام كما في الحديث "ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطاه الله من الآيات مثل ما امن به البشر." فقد يكون ولى الله في غاية عظمة الولاية ولايعطى من الكرامات مطلقا. وكرامة الأولياء هي من معجزات نبيّه عليه الصلوٰة والسلام. ؛ لأنهٗ من أمته فيدل على صدق نبوته عليه الصلوٰة والسلام.

ثم اعلم أن كرامات الأولياء حق لاشك فيها وقد ثبتت كرامات الأولياء بالتواتر من القرآن والآثار لايمكن إنكارها وفي عقيدة النسفية "وكرامات الأولياء حق، فتظهر الكرامة على طريق نقض العادة للولي من قطع المسافة البعيدة في المدة القليلة وظهور الطعام والشراب واللباس عند الحاجة والمشي على الماء والطيران في الهواء وكلام الجماد والعجماء واندفاع المتوجه من البلاء وكفاية المهم عن الأعداء وغير ذلك من الأشياء ويكون ذلك معجزة للرسول الذى ظهرت هذه الكرامة لواحد من أمته؛ لأنهٗ يظهر بها أنهٗ ولى ولن يكون وليا إلا وأن يكون محقًافي ديانته وديانته الإقرار برسالة رسوله." وهذه كلها من عند الله بمشيئته وقدرته البحتة المطلقة. وأما قولهٗ أنهٗ يظهر بكرامته أنهٗ وليّ الله فهذا ليس على الإطلاق، بل من أظهر الله تعالى على يديه ممن ليس بنبي من كرامات وخوارق فلاتدل على ولايته ضروريا؛ لأن الولاية الحقّة لاتكون إلا أن وفاته تكون على الإيمان والطاعات وهذه غير معلومة عندنا ، لكن الله العليم يعلمه وهو بكل شيء عليم والعبرة للخواتيم كما

فى الحديث "إنما الأعمال بالخواتيم." (صحيح ابن حبان، ح: ٣٤٠) وقد يكون واحد بين أظهرنا فى غاية التقوىٰ والطاعات وأعطاه الله من الخوارق التى تشبه الكرامات فى أعيننا، لكن فى قدر الله هو شقىّ يموت علىٰ الكفر والمعصية كما جاء فى تفسير الآية ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِىٓ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الأعراف:١٧٥-١٧٦) أنها فى بلعام بن باعوراء قد أوتى من الكرامات وكان مجاب الدعوات، لكن بعد ذٰلك عصىٰ وكفر ونزع منه الكرامات وقد قيل إن بعض الأنبياء عليهم الصلوات والسلام سأل اللّٰه تعالىٰ عن أمر بلعام وطرده بعد تلك الآيات والكرامات فقال الله تعالىٰ: "لم يشكرنى يوما علىٰ ما أعطيته ولو شكرنى علىٰ ذٰلك مرّة لما سلبته." وهٰذا بخلاف الأنبياء عليهم الصلوات والسلام الذين معجزاته دالة علىٰ صدقهم وهم دائما من خلقهم متصفون بالإيمان والإحسان و محفوظون من سوء العاقبة ولماذا لا؟ ﴿اَللّٰه يَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾(الأنعام:١٢٣) ﴿اللّٰهُ يَصْطَفِى مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَّمِنَ النَّاسِ﴾ (الحج:٧٥) فهم عباد الله المخلصون.

ونحن قد بيّنا الفرق بين المعجزة والكرامة وكذٰلك الفرق بينهما مع نسبتهما إلى صاحبهما فالأن نتكلم عن الإرهاص.

(٣) الإرهاص:

وهو ما ظهر من النبي عليه السلام قبل ظهور نبوته مثلا واقعة أصحاب الفيل الذين عزموا علىٰ هدم الكعبة فدمّرهم الله تعالىٰ وجعلهم كعصف مأكول كما فى سورة الفيل ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِىْ تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ (الفيل:١-٥) وهٰذه الواقعة من إرهاصات النبي صلى الله عليه وسلم الذى كان فى رحم أمّه عند وقعة الواقعة. وكذٰلك بركات النبي صلى الله عليه وسلم قد ظهرت من ولادته، كان مقدسا مباركا بارك الله عليه وبه الناس. وقد جاء ت في الآثار بركاته فى ال حليمة السعدية رضي الله عنها التى كانت أمّه من الرضاعة وكذٰلك غسل قلبه بماء زمزم من جبريل عليه السلام عند ما كان صلى الله عليه وسلم يلعب مع الغلمان وكذٰلك تسليم الحجر عليه ﷺ قبل مبعثه وكذٰلك ما لاحظ بحيرة الراهب من علامات النبوة من تعظيم الأحجار والأشجار لسيدنا ونبينا صلى الله عليه وسلم فهٰذه كلها من إرهاصات له صلى الله عليه وسلم وهي ليست من اختصاصه ﷺ،

بل الأنبياء الأخرى عليهم الصلوات والسلام لهم إرهاصات أيضا كما حفظ الله تعالىٰ سيدنا موسىٰ عليه السلام من فرعون، بل ربّاه في بيته وأرجعه إلى أمّه وغير ذلك من الإرهاصات وما منها في الدلائل القطعية فلازم قبوله وإيمان به وإلا يكون كفرا وماثبت منها في الدلائل الظنية فلايسوغ إنكاره وإلا يكون فسقا وضلالا والفرق بينه وبين المعجزة والكرامة أن الإرهاص بدون دعوى النبوة؛ لأنهٗ قبل ظهور نبوة النبي عليه الصلوٰة والسلام [1] والمعجزة هي مع دعوى النبوة دالّة علىٰ صدق نبوته ، لكن كلاهما يتعلقان بالنبي عليه الصلوٰة والسلام فقط والكرامة فهي من الوليّ وبدون دعوى النبوّة.

(٤) المعونة:

وهي الخوارق التي تظهر على المسلم ، لكن ليس متصفا بصفات الأولياء من الطاعات والتقوىٰ واجتناب المعاصي والمكروهات. وهٰذه كما هو الظاهر لاتكون مقرونة بأي دعوى؛ لأنهٗ ليس بنبيّ ولاتدل علىٰ كرامته [2] لأنهٗ ولو يكون مسلما، لكن ليس علىٰ درجة الأولياء (كما هو المعروف) وتسمى المعونة وهي عون من الله تعالىٰ له، والله يفعل ما يشاء ويحكم مايريد فمثلا واحد مسلم عاصيّ يسقط من العمارة الطويلة ويمشي بدون الجراح والكسر فقد حفظه الله برحمته، لٰكن هٰذا ليس كرامة لهٗ بين يدى الناس من حيث وليا من أولياء الله تعالىٰ . وما ذكرنا في تعريف المعونة يكفي في بيان الفرق بينها وبين الكرامة والمعجزة والإرهاص.

(٥) الاستدراج:

وهي الخوارق تظهر علىٰ يد الكافر وفق ما يدعى أن تظهر كما في الدجّال يُظهر من الخوارق ويُضل الناس ويكون فتنة وامتحانا لهم مثلا كما جاء في الحديث "وإن من فتنه (يعني فتنة الدجال) أن يسلط علىٰ نفس واحدة، فيقتلها، وينشرها بالمنشار حتىٰ يلقىٰ شقتين. ثم يقول: انظروا إلى عبدى هٰذا فاني أبعثه الآن ثم يزعم أن لهٗ ربّا غيرى، فيبعثه الله ويقول لهٗ الخبيث (الدجال) من ربّك فيقول (يعني الرجل) ربى الله وأنت عدوّ الله ، أنت الدجّال، والله ما كنت أشدّ بصيرة بك مني اليوم." (سنن ابن ماجة، ح:٤٠٧٧) وإن قيل إن هٰذا الكافر الدجّال يُظهر الأمر من الخوارق علىٰ وفق دعواه فهٰذا يكون مشوشا موقعا للناس في الالتباس في أمر المعجزة فالجواب بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز أن الأمر الخارق علىٰ وفق الدعوىٰ لايكون مع دعوى النبوة إلا في أيدى الأنبياء عليهم الصلوات والسلام والدجال لايفعل هذا من الخوارق مع دعوى النبوّة، بل مع دعوى الربوبيّة فهو في أول الأمر يدعي النبوة كما جاء في الحديث ولاتكون لهٗ الخوارق ثم يدعى الربوبيّة، و يظهر

---

(١) وهو يدل علىٰ خصوصيته عند الله تعالىٰ

(٢) من حيث وليّ الله تعالىٰ

هٰذا من الخوارق التى ذكرنا وهٰذا كلهٗ فى نفس الحديث الذى رواه ابن ماجة، والفرق بين دعوى النبوة والربوبية فرق كبير. النبي عليه الصلوٰة والسلام فهو عبد مخلوق فمحافظة علىٰ أمر النبوة، اللّٰه عزوجل برحمتهٖ لايظهر الخوارق علىٰ وفق الدعوىٰ مع ادعاء النبوة إلا عن نبيّه الحق وفائدتهٗ أن لايكون عبد ما من العباد يدعى النبوة كذبا وافتراء ولم يعطيه اللّٰه تعالىٰ المعجزة فيضل هٰذا العبد الناس أنهٗ نبيّ وليس منهم وقد قال اللّٰه تعالىٰ فى قصة موسىٰ عليه الصلوٰة والسلام مع السحرة الذين أرادوا أن يغلبوا علىٰ موسىٰ ومعجزته (نعوذ باللّٰه) بسحرهم ﴿فَلَمَّا جَآءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسٰى[1] أَلْقُوْا مَا أَنْتُمْ مُلْقُوْنَ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسٰى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللّٰهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللّٰهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِيْنَ وَيُحِقُّ اللّٰهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُوْنَ﴾ (يونس: ٨١-٨٢) فأبطل اللّٰه السحر وأثبت المعجزة ولم يدع السحرة أن يلقوا الناس فى الاشتباه والالتباس فى أمر المعجزة والفرق بينها والسحر وهٰذا كلهٗ من رحمتهٖ تعالىٰ وهو الغفور الرحيم. وأما الربوبية فهي للّٰه تعالىٰ وحدهٗ فالناس يستطيعون أن يعرفوا أن الدجّال ليس ربًا وقد جاء فى الحديث "ولاترون ربّكم حتىٰ تموتوا، وإنه (يعني الدجال) أعور وإن ربّكم ليس بأعور." (سنن ابن ماجة، ح:٤٠٧٧) لأن اللّٰه عزوجل تعالىٰ وتقدس عن أن يكون لهٗ الأعضاء والجوارح فالعور لايكون لهٗ وثم العور هو النقص واللّٰه عزوجل تعالىٰ وتقدس عن النقص وهٰذا رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم قد أخبرنا بأمر بديهيّ الذى يستطيع العامي من الصحراء أن يستدل بهٖ وإلا كون الدجال ذى صورة وشكل ولون وجسم وتمكن وحدود ومقياس وأعراض كلها من الدلائل القاطعة أنهٗ ليس ربًا فلايكون هو – علىٰ أن يعطى من الخوارق علىٰ وفق دعواه – التباسا واشتباها للناس فى أمر المعجزة؛ لأن الدجال لايفعل من الخوارق علىٰ وفق دعواه مدعيا للنبوة، بل يفعل مدعيًا للربوبية وحالهٗ كما ذكرنا يدل بالقطع علىٰ نفي ربوبيّته فالناس عليهم أن يستدلوا بهٰذه الدلائل القاطعة ولايقعوا فى الكفر والضلال وهٰذا كلهٗ من عند اللّٰه تعالىٰ بمشيئته وقدرته البحته المطلقة امتحانا للناس. وندعوا اللّٰه عزوجل أن يحفظنا من فتنة الدجال. آمين يارب العالمين. اللّٰهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام والإيمان ومن توفيته منا فتوفه على الإسلام والإيمان. امين يارب العالمين.

(٦) الإهانة:

وهي ما ظهرت علىٰ يد الكافر وعنه غير ما ادعى عليه يعنى غير موافق لدعواه، فمثلاً

(١) ليس علىٰ معنى الإجازة والجواز، بل كأنهٗ عليه السلام يقول لهم: إنكم لن تغلبوا ربّكم ولن تبطلوا آياته فلا تقاوموني، بل اقبلوا نبوّتي وامنوا بربي وربكم اللّٰه، لكن لو تصروا على الإنكار وتزعمون أنكم تبطلوا معجزتي التى من عند اللّٰه فحاولوا وجربوا فسترون ما يحل بكم من الفشل والخسران والافتضاح وكيف اللّٰه يبطل سحركم ويثبت نبوتي من عنده تعالىٰ.

مسيلمة الكذاب لعنه الله تفل فى بئر ليكثر مائه فغارت البئر وكذلك حاول أن يصلح عين الأعور فصار الأعور الأعمى بالكلية فهذه إهانة له ولأن مسيلمة الكذاب كان مدعيا للنبوة ولم يكن منهم ولانبي بعد النبي محمد صلى الله عليه وسلم والله عزوجل كما ذكرنا لايظهر الخوارق على وفق الدعوى على يد المتنبى فأظهر على خلاف ما ادعى إهانة له ولإظهار كذبه وافترائه على الله فى إدعائه أن يكون نبي الله. والفرق بين الإهانة والاستدراج ظاهر لايحتاج إلى أي بيان بعد ما فصلنا فيها بالتفصيل.

(٧) الشعوذة:

وهي ليست من الخوارق فى الحقيقة؛ لأن الشعوذة هي نوع من الخداع يستطيع أن يمهر فيها من يشاء وهي ما يروج بين الناس ويسمّون أنفسهم "ميجيشن" (Magician) والناس يعرفون أنها ليست من الخوارق فى شيء، بل الخداع من استخدام الأشياء مع الحذاقة وسرعة الأيدى ولطافتها حتى يظهر بين يدى الناس أنهُ يفعل الخوارق من تغييب الأشياء وإحضارها وأمثالها كذلك وكل يعرف أن الأشياء لاتغيب ولاتحضر من حيث الخوارق فى الحقيقة، بل المُشَعْوِذ يسرّها ويحضرها مع المهارة والسرعة من حيث أن الناس المشاهدين لايشاهدون هذا الإسرار والإحضار. والظاهر أنهُ لا مقارنة بين الشعوذة والمعجزة والكرامة لأنها ليست من الخوارق أصلا حتى لو المُشَعْوِذ يدعى النبوة والناس يحيطون به من الأجانب الأربعة ويأخذون منه عُدَّتَه التى يستخدم ليخدع الناس بالشعوذة فلايستطيع أن يفعل شيئًا ما من خداعه ويكون حالهُ كحال جميع الناس يعنى لو يحاول أن يأتي بالخوارق صدقا لدعواه الكاذب يفشل فشلا مبينا وحتى لايستطيع أن يفعل أي شعوذة لأنها ليست من الخوارق أصلا وقد أخذت منه جميع عدته يعنى الأسباب التى هي أسباب الشعوذة. ولايخفى أن المشعوذ لو يريد أن يضل الناس من الصراط المستقيم أنهُ يكفر مع أن الله عزوجل كما قلنا يُخسره لو يدعى النبوة أو يقاومها ولأنهُ كما قلنا لايستطيع أن يفعل شعوذة ما إن أخذت أسباب الشعوذة منه ولأنهُ كما قلنا ليست من الخوارق بشيء أصلا ولو لايريد أن يضل الناس، بل يفعلها مع إعلام الناس أنها نوع من الخداع وأنهُ يفعلها لمشاهدة الناس فهى حينئذ نوع من اللهو واللغو التى لافائدة فيه فتكون فيه الكراهة التحريمية وفى القرآن ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُوْنَ الَّذِيْنَ هُمْ فِيْ صَلٰوتِهِمْ خَاشِعُوْنَ وَالَّذِيْنَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُوْنَ﴾ (المؤمنون: ١-٣) ﴿وَإِذَا مَرُّوْا بِاللَّغْوِ مَرُّوْا كِرَامًا﴾ (الفرقان: ٧٢) وفى الحديث "كل لهو باطل إلا ثلاث، رميه بالقوس، ركوبه الفرس، ملاعبته بالأهل." أو كما قال عليه الصلوٰة والسلام. (جامع الأصول للجزرى، ح: ٣٠٤٠)

(٨) السحر:

وأما السحر فهو أيضًا تحت الأسباب المعتاد ، لكن هو مختلف تماما من الشعوذة من حيث أن الشعوذة هي كما قلنا من باب الخفة والسرعة مع طول المران والتدريب واستخدام الأشياء بالحذاقة حتى تخفى على الناس الأسباب. ويشاهدون ما تشبه الخوارق وليست شيئًا منها مطلقا والأفعال التي يفعل المشعوذ هي من باب ما ذكرنا من تغييب الأشياء وإحضارهاوالناس يتفرجونه وأسباب الشعوذة ولو كانت مخفية عند مشاهدة الناس ، لكن لو يفتشونها فتظهر أسبابه بالتمام؛ لأن عدّته للشعوذة معه، وأما السحر فأسبابهٔ مخفية بالتمام حتى لو فتّش عنها لاتظهر معهٔ فماذا أسبابه؟

أسبابهٔ، نعوذ بالله، الشياطين يعنى الجن الخبيث المتمرد، فالساحر يتصل بهم ويستمد منهم ولا يخفى أن هٰذه الشياطين لايفعلون شيئًا ما لهٔ حتى يكفر ويضل ويرضاهم بالكفر والشرك من عبادتهم وعبادة الأصنام والكواكب والتعريض بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم والقرآن والإسلام وشعائر الله تعالى ، فهٰذه الشياطين يرضون به ويفعلون لهٔ بعض ما يريد منهم والمعلوم أن الشياطين وكل غير الله لايستطيعون [1] أن يفعلوا شيئًا إلا بإذن الله وقدرته ، فمهما من الأفعال العادية التي يستطيع الجن المتمرد الخبيث أن يفعل، لأن الله عزوجل عادة يخلق هٰذه الأفعال لهٔ وفيه عند عزمه، بالقوة والسرعة التي أعطاه الله عزوجل ، فهٰذا الجن يفعل لهٰذا الساحر ، وهٰذه الأسباب مخفية من الناس بالتمام؛ لأن الساحر يفعل كل هٰذه الأفعال مرضاة للشياطين خفية وهم يفعلون لهٔ ما يفعلون ،والناس لايرونهم في العادة.

وإن قيل: كيف الساحر يراهم ؟ فالجواب بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيزأن رؤية الجن كما هو المعلوم ليست مستحيلة للإنسان؛ لأن الرؤية في الحقيقة بخلق الله تعالى ، فكل موجود ممكن رؤيته ، لٰكن الله عزوجل أجرى العادة العامة أن بنى آدم لايرونهم ، لكن بعض الأحيان الله عزوجل يمكّنهم برؤيتهم ،وهٰذا خاص من هٰذه العادة العامّة. وقد جاء في رؤيتهم أخبار صحيحة وقد خرّج البخاري عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: وكّلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكٰوة رمضان وذكر قصة طويلة وذكر فيها أنهٔ أخذ الجنّي الذى كان يأخذ التمر ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهٔ: "ما فعل أسيرك البارحة؟" (صحيح البخاري، ح: ٢٣١١) وفي صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "والله لو لا دعوة أخي سليمان لأصبح موثقا يلعب به ولدان أهل المدينة ." (ح: ٥٤٢) وهٰذا في العفريت الذى تفلّت عليه، ولم النبي سليمان عليه السلام لاحاجة

(١) وكذلك هم لا يسمعون ولايرون إلا ما هو قريب منهم .

للذكر عنه فى اتصاله مع الجانّ ،وفى القرآن: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ (الأنبياء:٨٢) ورؤية الجان واقعة كثيرة ، لكن كما قلنا هذه الرؤية هي نادرة خاصة من العادة العامّة ، لكن ليست ممتنعة بالتمام . وثم اتصال الساحر مع الجانّ الخبيثة لاينباط على رؤيتهم، بل قد يكون الاتصال بدون الرؤية ، لكن حتى مع الرؤية هو غير ممتنع كما ذكرنا ، فالله عزوجل يمكنهُ أن يتصل بالشياطين إضلالا لهُ بكسبه وامتحانا لعبادهِ ،وأما الآية ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾ (الأعراف:٢٧) يعني إبليس وجنوده الجن والشياطين. فأوّلا: لو واحد يقول لك هو الرجل يراك من حيث لاتراه ، فهذا لايعنى نفي رؤية الرجل مطلقا، بل نفي رؤيته من حيث هو يراك.

وثانيا: كما قلنا العادة العامة أنهم لايُرون ،فالمستثنيات فهي نادرة زويقال: إن النادر لاحكم لهُ . وثالثا: كما فى التفسير أن الله عزوجل خلقهم خلقا لايُرون فيه [1] يعنى من الإنسان ،نعم الله عزوجل يرى كل شيء، لكن إذا نقلوا من صورهم إلى الأشكال الأخرى ،فلا منع لرؤيتهم ،فحاصل الكلام أن الساحر يتصل بهم ويرضاهم بالكفر والشرك ،وهم يفعلون لهُ بعض ما يريد منهم ،والناس لايرون هذه الأشياء ، فتظهر فى أعينهم الخوارق ، لكن فى الحقيقة لها أسباب مخفية كماذكرنا.

ووجود السحر حقيقة لاشك فيه البتة للنصوص القاطعة التى جاء ت فى القرآن والسنة ،فمنها ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (البقرة:١٠٢) وكذلك قصه سيدنا موسى عليه السلام مع سحرة فرعون ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ (الأعراف:١١٦) ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ (طه:٦٦) والآية ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ (الفلق:٣) وتفسير النفاثات هي السواحر. وقد جاء فى صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن لبيد بن الأعصم اليهودىّ سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ينجح فى أي شيء من غايته؛ لأن الأنبياء عليهم الصلوات والسلام يكونون مصونا منزها من عند الله تعالىٰ فى أفكارهم وأقوالهم وأفعالهم." ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة:٦٧) ولأن الله عزوجل اصطفهم لتبليغ رسالته فهم فى خاص الخاص من حفظه ورقايته حتى لايكون إخلالا فى الرسالة وتبليغها إلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم وقع لهُ أمر عارض بهذا السحر وهو كما فى الحديث أنهُ كان يرىٰ أنهُ يأتى النساء ولايأتيهن(صحيح البخاري،

---

(١) أى عادة وإلا لو شاء الله أن يكسر هذه العادة فلا منع.

ح:٥٧٦٥). وهذا القدر من قبيل الأمراض والأعراض البشرية الجائزة في حق الأنبياء عليهم الصلوات والسلام لأنها لاتنافي العصمة ولاتخلّ بتبليغ الرسالة وحصول الوحي. وثم هذا العارض كان عارضا وقد عافاه الله من هذا المرض عند ما دعا ربّه ودعا وشفاه بالرحمة الشاملة الكاملة عليه.

والمعنى "أنهٔ يأتي النساء ولايأتيهن" فقد يكون المعنى في ضوء رواية أخرىٰ عن نفس الحادثة ومن نفس الراوية يعني عائشة رضي الله عنها فقالت في هذه الرواية "أن النبي صلى الله عليه وسلم سُحر حتىٰ كان يخيّل إليه أنهٔ صنع شيئًا ولم يصنعه" (صحيح البخاري، ح:٣١٧٥) وهذا الصنع ما هو المراد منه فشرح الحديث الأوّل أنهٔ يتعلق بإتيان النساء فالمعنى أنهٔ كان يخيّل إليه أنهٔ صلى الله عليه وسلم قد أتى على أزواجه المطهّرات ، لكن لم يفعله والإتيان قد يكون كناية عن الجماع وقد يكون مجرد الإتيان في بيوتهن والله أعلم. وهذا التخيل كان عارضيّا حتىٰ يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجه الصواب فيعني أوّلا: السحر لم يفعل شيئًا ما على الإطلاق الذى يُخلّ في العبادة والطاعات ومسئولية الرسالة. وثانيا: مهما فعل السحر فهو يتعلق فقط بالأمر الذى ذكرنا وحتىٰ في هذا كان عارضيا سريع الزوال . وثالثا: حتىٰ هذا القليل قد شفاه الله عنه.

فحاصل الكلام أن السحر لهٔ حقيقة ونحن قد ذكرنا دلالتهٔ من القرآن والسنة ومعنى أن لهٔ حقيقة يعني الله عزوجل قد يخلق الأثر عند السحر كما قد يخلق الشفا عند التداوي؛ لأن المؤثر الحقيقي هو الله وحدهٔ على الإطلاق ولا أثر إلا منه ولهذا قال في الآية التي ذكرنا فوقا ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (البقرة:١٠٢) ثم اعلم أن أثرات السحر فهي محدودة وقد يؤثر في بعض النفوس بعض التأثير وأما ما قيل إنهٔ قد ينقلب بالسحر الحيوان إنسانا وبالعكس وهذا الرأي غير معوّل عليه؛ لأنهٔ ولو ممكن في قدرة الله تعالىٰ بلا شك ، لكن هل يُظن أنّ الله عزوجل يحوّل المكلّف إلى غير المكلّف وبالعكس عند السحر هذا بعيد جد كما لايخفى فلايعوّل علىٰ هذا الرأي بل الصحيح أن السحر ليس فيه قلب الأعيان، بل التمويه والتخييل كما في قصة موسىٰ عليه السلام مع سحرة فرعون ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ (طه:٦٦) فيعني كان تخييلا ولم يكن الحبال والعصيّ انقلبت أعيانا في الحقيقة وأيضًا الأثار المترتبة على السحر قد تكون الأمراض أو الموت أو تغيير المزاج ويدل عليها الحديث من البخاري الذى ذكرنا والآية القرآنية ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ (البقرة:١٠٢) والفاعل الحقيقي هو الله عزوجل ويكون السحر من الأسباب الظاهرة وثم كما ذكرنا أنهٔ استمداد من الشياطين ومهما يفعلون الشياطين فهي أيضًا بخلق الله وقدرته. فلو الشياطين يؤذي الرجل أو يقتلهٔ أو يوسوس في قلبه الوساوس والخيالات لتغيير مزاجه لأجل الساحر فكل هذا في الحقيقة بقدرة الله تعالىٰ وبمشيئته .

وإن قیل: إن اللّٰه عزوجل یحفظ الإنسان من الجنّ الخبیث والشیاطین من أن یسطوا علیه کما فی القرآن ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (الرعد:۱۱) یعنی الملائکة یحفظونه بأمر اللّٰه وبإذنه من الجن والهوامّ الموذیة. قلنا: نعم، لکن کما هذا الحفظ بأمر اللّٰه وقدره وکذٰلک ما یصیب المرء من الضرر بأمر اللّٰه وقدره ولهٰذا قال ابن عباس وعلی بن أبی طالب رضي اللّٰه تعالٰی عنه أنهٗ إذا جاء القدر خلّوا(تفسیر ابن أبی حاتم، ح: ۱۳۰۲٦) یعنی الملائکة بین المرء وبینه یعنی لایستطیعون أن یحفظوه من قدر اللّٰه والسحر والآثار المترتبة کلها بقدر اللّٰه کما کل شيء بقدر اللّٰه، فإذا قدر اللّٰه علی الرجل أن یکون مسحورا متأثرا مضرًّا بالسحر فلا مانع یردّه کما هو المعلوم.

وإن قیل: کیف الجن الخبیث خیّلوا إلی سیدنا موسٰی علیه السلام أن الحبال والعصی کانت تسعیٰ وفی القرآن ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (النحل:۹۹) یعنی الشیطٰن لیس لهٗ سلطان علی الذین ذُکروا فی الآیة وأیضًا کیف خیّلوا إلیه علیه السلام إلی الحد أنهٗ ظن الحبال والعصی أنها کانت تسعیٰ؟ فالجواب بتوفیق اللّٰه تعالٰی إن شاء اللّٰه العزیز أوّلا! أن سلطة الشیطان هو سلطته علٰی واحد فی إضلاله وإغوائه لهٗ من الصراط المستقیم والتخیل فقط للحبال والعصیّ أنها تسعی لیس منها کما هو المعلوم وقد جاء فی القرآن عن سیدنا آدم علیه الصلٰوة والسلام وزوجته رضي اللّٰه تعالٰی عنها ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ (البقرة:۳٦)، لٰکن هٰذا لایعتبر سلطانه علیهما؛ لأنهٗ لم یُضلّهما ولم یُغوهما من هدی اللّٰه، بل خدعهما وأوقعهما فی الخطأ مع أن الخطأ کان فیه حظ النسیان ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (طٰه:۱۱۵) یعنی آدم علیه السلام، لکن لم یصرا به، بل تابا وأنابا وقبل توبتهما ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ (طٰه:۱۲۲)

وثانیا: أنهٗ قد جاء فی بعض التفسیر للآیة ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ (طٰه:٦٦) أن هٰذا السحر کان من باب الشعوذة ونحن قد فصّلنا عن الشعوذة وهي أیضًا نوع من السحر فی کون علٰی صورة الخوارق بین یدی الناس، لکن لیس منها، بل لها أسباب وعدد کما فصلنا کلها سابقا، لٰکن هي لیس استمدادا من الشیاطین، بل خفة وسرعة بحذق ومهارة مع طول المران والتدریب فقالوا فی هٰذه الآیة بعض المفسرون: إن سحرة فرعون عمدوا إلی تلک الحبال والعصی فحشوها زئبقا فصارت تتلوی بسبب ما فیها من ذٰلک الزئبق فیخیل إلی الرائی أنها تسعیٰ باختیارها. فعلی هٰذا لیس فیه دخل الشیاطین، لٰکن هٰذا التفسیر لایلائم ظاهر القرآن ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ (الأعراف:۱۱٦) ففی الآیة أنهم سحروا أعین الناس وأخذ هٰذه الآیة حقیقیا لایوافق تفسیرا بالشعوذة بالزئبق إلا أن یقال: إن سحر أعین الناس مجاز؛ لأن الحبال والعصی المحشوة بالزئبق تتراءی إلی أعینهم أنها کانت تسعیٰ.

وثالثا: وهو كما قلنا إن الآثار المترتبة على السحر هو بخلق الله وقدره كما كل شيء بخلق الله وبقدره فلو أن سحرة فرعون سحروا ما سحروا وفي هذا السحر استمدوا بالشياطين أو لم يفعلوه ، ففي أي حال الله عزوجل هو الذى خلق هذا الأثر يعنى التخيل أن الحبال والعصىّ كانت تسعىٰ فكما الله عزوجل يخلق الاحتراق عند لمس النار وهو مسبب الأسباب على الإطلاق فهو الذى جعل السحر سببا من الأسباب و هو الذى يخلق الأثرات عند وجوده لو شاء وإن لم يشأ فالسحر والساحر لا يأتى بأي أثر ولو حاول ألف سنة.

ثم اعلم أن المؤمن لايعبأ بالسحر ولايخافه ولا يهتم به ولا يشغل فكره فيه ولاينال ذٰلك إلا بالوثوق التام بالله تعالىٰ والاطمئنان العظيم إليه وأن كل شيء بيده تبارك وتعالىٰ ﴿وَإِنْ يَّمْسَسْكَ اللّٰهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُّرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ (هود:١٠٧) فلا يشغل قلبه بالساحر وما صنع وإنما يشغل قلبه بالله وطاعته وحسن عبادته، والإكثار من ذكره عزوجل والدعاء إليه تعالىٰ بالخشوع والخضوع فيفوز إن شاء الله العزيز بحفظه ونصرته ﴿إِنْ تَنْصُرُوا[1] اللّٰهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد:٧) ﴿إِنْ يَّنْصُرْكُمُ اللّٰهُ فَلاغَالِبَ لَكُمْ وَ إِنْ يَّخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِىْ يَنْصُرُكُمْ مِّنْ بَعْدِهٖ وَ عَلَى اللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُوْنَ﴾ (آل عمران:١٦٠) وقال بعض السلف من خاف الله خافه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء قال تعالىٰ ﴿إِنَّ اللّٰهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِيْنَ آمَنُوْا إِنَّ اللّٰهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُوْرٍ﴾ (الحج:٣٨) وفى الحديث عن سيدنا عبدالله بن عباس رضي الله تعالىٰ عنه مرفوعا"اعلم أن الأمة لو اجتمعت علىٰ أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك ولو اجتمعوا علىٰ أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك." (سنن الترمذي، ح:٢٥١٦)

ثم اعلم أن المسلمون أجمعوا علىٰ أنهٗ ليس فى السحر ما يفعل الله عنده من إنزال الجراد والقمل والضفادع وفلق البحر وقلب العصا وإحياء الموتىٰ وإنطاق العجماء وأمثال ذٰلك من معجزات الأنبياء عليهم الصلوات والسلام فهٰذا ونحوه مما يجب القطع بأنهٗ لايكون ولايفعله الله عند إرادة الساحر، وكذٰلك لو الساحر يدعي النبوة ويريد أن يستشهد عليها بسحره أفشله الله وأخسره وكذٰلك لو يريد أن يقاوم النبي عليه السلام ومعجزاته. ﴿فَلَمَّا جَآءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُّوْسٰى أَلْقُوْا مَا أَنْتُمْ مُّلْقُوْنَ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوْسٰى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللّٰهَ سَيُبْطِلُهٗ إِنَّ اللّٰهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِيْنَ وَيُحِقُّ اللّٰهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهٖ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُوْنَ﴾ (يونس:٨٠-٨٢) ﴿قَالَ أَلْقُوْا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوْا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوْهُمْ وَجَآءُوْا بِسِحْرٍ عَظِيْمٍ وَأَوْحَيْنَا إِلٰى مُوْسٰى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُوْنَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ فَغُلِبُوْا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوْا صَاغِرِيْنَ﴾

(١) يعنى دين الله.

(الأعراف:١١٦-١١٩)

ثم اعلم أن الفرق بين السحر والمعجزة فأوّلا السحر فهو تحت الأسباب لكنها مخفية والمعجزة فهي بدون الأسباب يفعله الله مباشرة تصديقا لنبيه عليه الصلوٰة والسلام . ثانيا: المعجزة من الأنبياء المطهرين المتقين الصالحين يشهدون الناس علىٰ أخلاقهم العالية وحياتهم السامية والسحر فهو من أهل النجاسة والقذر والعصيان والكفر.

ثالثا: المعجزة مع التحدّى فلايمكّن الله أحدا أن يأتي بمثلها وبمعارضتها والسحر بدون التحدّى وقد يكون جماعة يعرفونه ويمكنهم الإتيان به فى وقت واحد وكذٰلك من يشاء من الناس يستطيع أن يتعلمه بخلاف المعجزة التى لايأتيها بها إلا النبي عليه السلام إعطاء من عند الله تعالىٰ.

رابعا: المعجزة فهي دلالة نبوة النبي عليه الصلوٰة والسلام الذى يأتى بها والساحر لايدعى النبوة ولو يدعى لأخسره الله حتىٰ فى سحره.

والفرق بين السحر والكرامة فأوّلا: السحر من أهل العصيان والنجاسة والقذر والكرامة من الأولياء الصالحين.

وثانيا: السحر تحت الأسباب المخفية والكرامة بدون الأسباب مباشرة من عند الله تعالىٰ كرامة لعباده الصالحين.

وأما حكم السحر فلا شك أنهٗ كفر [1] تعلما وتعليما وعملا وهٰذا ظاهر؛ لأنهٗ كما ذكرنا استمداد من الشياطين فلو يناديهم ويدعوهم كأنهم السميع البصير العليم فهٰذا شرك فى صفات الله تعالىٰ ثم قد يعتبرهم النافع الضارّ وهٰذا أيضًا شرك فى صفات الله تعالىٰ ولو لا يعتبرهم شيئًا من هٰذا، بل يتصل بهم استخداما للأسباب بدون اعتبارهم السميع البصير العليم النافع الضارّ فلايكون شركا ، لٰكن الشياطين لايفعلون لهٗ شيئًا ما حتىٰ يعمل الأقوال والأعمال التى تنافى الدين من تعظيم غير الله تعالىٰ بما هو مختص به تعالىٰ أو سب الدين أو تعريض بالقرآن وغيرها من الأمور التى أمثالها التى توجب الكفر لا محالة ولاشك ، فلهٰذا السحر مباشرته بأي جهة من الجهات يوجب الكفر ويجب على الحاكم قتل الساحر وفيه الحديث المرفوع فى أحكام القرآن" حد الساحر ضربه بالسيف ." (أحكام القرآن للجصاص: ج: ١،ص ٦٦، وأخرجه الترمذي فى سننه، ح: ١٤٦٠) وإن قيل: إنكم قلتم إن الشعوذة أيضًا من أنواع السحر ، لكن ليست فيها استمداد من الشياطين فما ذا حكمه؟ فالجواب بتوفيق الله تعالىٰ أنما ذكرنا فوقا هو حكم السحر الذى هو استعانة بالجن الخبيث وأما الشعوذة ولو أنها عدّت من أنواع السحر ، لٰكن حكمها مختلف وقد بيّناه فى بيان الشعوذة والحمد لله رب

(١) ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾(البقرة:١٠٢)

العالمين.

ولو سئل عن تعلّم السحر وعمله لفك المسحور ومنع الأذى عنه.

فالجواب بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز أنهُ باطل وكفر أيضًا؛ لأن السحر هو استمداد بالجانّ الكفرة بالأفعال الكفرية فالكفر هو الكفر فلايجوز ولايحلّ وهو ليس من قبيل كمثل واحد تحت السيف يتلفظ بالكلمة الكفرية اتقاء من ضربة السيف علىٰ عنقه وقلبه مطمئن بالإيمان؛ لأن أوّلا من يريد أن يتعلم ويعمل السحر هو ليس بمسحور، بل المسحور هو الآخر وثانيا: كيف يعلم أن المسحور هو تحت تهديد الهلاك ومشرف عليه؟ وثالثا: كيف يعلم أن الجانّ الكفرة الذين يستمدهم باستخدام الأفعال الكفرية لإعانة المسحور وفك السحر عنه أن هؤلاء الجان سيعينونه فى فك السحر عن المسحور؟ هل الشياطين يُعتمد عليهم؟ اللّهم لا! ولاشك عند أي واحد من المسلمين أن الشياطين لايُعتبر عليهم قطا وبتاتا، بل هم العدوّ وفى القرآن ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (فاطر:٦) و ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ [1] رَبَّ الْعَالَمِينَ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ (الحشر:١٦-١٧) فحاصل الكلام هوأن السحر ولو بنية فك المسحور كفر؛ لأنها تكون فيه استعانة بالشياطين استخداما للأفعال الكفرية.

وإن قيل فكيف نعين المسحور؟ فالجواب بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز هو فى القرآن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة:٤) وكذلك ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (النحل:٩٨-٩٩) ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ [2] مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ (الأعراف:٢٠٠-٢٠١) وكذلك قد جاء فى سورة الفلق وسورة الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تعوذ بالله بهما لفك السحر الذى سحره عليه لبيد بن الأعصم اليهودى كما ذكرناه من الحديث.

فحاصل الكلام أن التوكل والدعاء والتعوذ بالله تعالىٰ هو الذى فيه شفاء للمسحور بإذن الله تعالىٰ وقد يكون بالرقية بالآيات القرآنية والأدعية المأثورة والأسماء الإلهية وكلها طرائق للتعوذ

---

(١) خوفه عاريّ من التقوىٰ الذى هو اجتناب محارمه وابتغاء مرضاته فلا فائدة لخوفه.

(٢) وفى التفسير عند ما نزلت "خذ العفو" قال عليه الصلوات والسلام "كيف يارب والغضب؟" فنزلت ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ (الأعراف: ٢٠٠) والله أعلم بصحته. (تفسير القرطبي: ج:٧،ص٣٤٧)

بالله تعالٰی والدعاء إليه وطرق باب رحمته تعالٰی وما ذکرنا أيضًا يفتح لنا باب الرقية فنتکلم عنها.

الرقية:

فاعلم أن الرقية والتميمة جائزة بلا شک مهما تکون مشتملة بالآيات القرآنية والأدعية المأثورة والأسماء الإلٰهية وغايتها استمداد بالله تعالٰی توسلا بها يعنی تقربا بها إلی رحمته تعالٰی وقد جاء فيه الأحاديث فمنها "اعرضوا عليّ رقاکم لابأس بالرّقی ما لم تکن شرکا." (سنن أبی داود، ح: ٣٨٨٦)

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلی الله عليه وسلم كان يعلّمهم من الفزع کلمات "أعوذ بکلمات الله التّامة من غضبه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون." (سنن أبی داود، ح: ٣٨٩٣)

وکان عبدالله بن عمرو يعلّمهن من عقل من بينه ومن لم يعقل کتبه فأعلقه عليه، قال أنس رضي الله تعالٰی عنه لثابت: الا أرقيک برقية رسول الله صلی الله عليه وسلم ؟ قال: بلیٰ. قال: فقال: "اللّٰهم ربّ الناس مذهب البأس اشف أنت الشافی. لاشافی إلا أنت، اشفه شفاء لايغادر سقما." (سنن أبی داود، ح: ٣٨٩٠) عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلی الله عليه وسلم كان إذا اشتکی الإنسان الشيء منه، أو کانت به قرحة أو جرح، قال النبي صلی الله عليه وسلم بإصبعه. هٰکذا ووضع الراوی سبابته بالأرض ثم رفعها. "باسم الله، تربة أرضنا، بريقة بعضنا، يشفی به سقيمنا بإذن ربّنا." (صحيح البخاري، ح: ٢١٩٤)

عن عثمان بن أبی العاص رضي الله تعالٰی عنه، أنهٗ أتی رسول الله صلی الله عليه وسلم قال عثمان: وبی وجع قد کان يهلکنی قال: فقال النبي صلی الله عليه وسلم : "امسحه بيمينک سبع مرّات، وقل أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد." قال: ففعلت ذٰلک، فأذهب الله ما کان بی، فلم أزل امر به أهلی وغيرهم.. (سنن أبی داود، ح: ٣٨٩١) وقال صلی الله عليه وسلم عن فاتحة الکتاب "من أين علمتم أنها رقية." (سنن أبی داود، ح: ٣٩٠٠) . وقال صلی الله عليه وسلم عن سورة الفلق وسورة الناس " ما سأل سائل بمثلها ولا استعاذ مستعيذ بمثلها [1] (سنن النسائي، ح: ٥٤٣٨) وکل هٰذا دليل واضح علٰی جواز الرقية والتميمة بالآيات القرآنية والأدعية المأثورة فی الأحاديث والأسماء الإلٰهية. ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾(الأعراف:١٨٠) وهٰذا متفق عليه عند أهل السنة لا شک فيه والشافی هو الله عزوجل وهو الفاعل الحقيقي وفعل الرقية والتميمة کلها

(١) وأيضًا فی الحديث المرفوع، خير الدواء القرآن(سنن ابن ماجة، ح: ٣٥٠١)

الأسباب الظاهرة استعانة بالله تعالىٰ ولو يشاء الله يقبل ولو يشاء لايقبل لا حجر عليه ولا منع ، لكن الرجاء نظرا إلى رحمته تعالىٰ أنهُ يقبل ويعطينا ما ندعوه لهُ إذا نحن نكمل شرائط قبول الدعاء فيعطينا عين ما نسألهُ أو شيئًا آخر غيره. وفي الحديث المرفوع "ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث إما أن يعجّل لهُ دعوته وإما أن يدّخر لهُ وإما أن يكف عنه من السوء بمثلها" قالوا: إذن نكثر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "للّٰه أكثر." (مسند أحمد، ح: ١١١٣٢) وهٰذه كلها فى الرقية والتميمة بالأدعية المأثورة والأسماء الإلٰهية والآيات القرآنية، وأما الرقية والتمائم التى فيها استعانة بغير الله فلا حاجة للبيان أنهُ حرام والشرك الأكبر وأما الرقية والتمائم التى عباراتها غير معلومة أو غير معروفة فهي أيضًا حرام للاحتمال أنها العبارات الشركية والكفرية ولأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن يأذن استخدام الرقية حتىٰ عُرضت عليه ويعرف أنهُ ليس بشرك وأيضًا قال:صلى الله عليه وسلم "دع ما يريبك إلى ما لايريبك." (سنن الترمذي، ح:٢٥١٨) وأيضًا قال صلى الله عليه وسلم "الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات فمن اتقى المشتبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى المشتبهات ، فكأنهُ رعى حول الحمىٰ يوشك أن يوقع فيه ألاإن حمى الله محارمه." أو كما قال عليه السلام(صحيح البخاري، ح:٥٢) وأيضًا قال صلى اللّٰه عليه وسلم "لايبلغ العبد حقيقة التقوىٰ حتىٰ يدع فيما لا بأس حذرا فيما به بأس." (سنن الترمذي، ح: ٢٤٥١) أو كما قال عليه الصلوٰة والسلام. وأيضًا الأصول الإسلامية أن الحرمة تغلب على الحلّة وأيضًا استخدام الرقية ليس بواجب ، لكن الوقاية من الشرك والكفر فهي أساس الإسلام فكيف يُخطر إسلام واحد وإيمانه.لأجل الرقية فلا شك أن الرقية والتميمة التى هي غير معلومة أو غير معروفة يعنى ما هي وما فيها وما غاية ما فيها من العبارات فلا شك أنها حرام لايجوز قطعا وبتاتا لأجل من الدلائل التى ذكرناها. وإن سألت ما ذا تقول فى الرقية والتمائم التى عباراتها معلومة معروفة مبيّنة وغايتها أيضًا معروفة ، لكن ليست عباراتها الأسماء الإلٰهية أو الأدعية المأثورة أو الآيات القرآنية .

فالجواب بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز: نقول إن لو هٰذه الرقية أو التميمة ليست فيها استعانة بغير الله أو أي شيء من الشرك والكفر والمعاصى الأخرى وعباراتها معلومة معروفة ، ففى هٰذه الحالة لو واحد يستخدم هٰذه الرقية أو التميمة اعتقادا أنها بنفسها تفيد أو تضر فلاشك أنهُ الشرك الأكبر والكفر الجلي؛ لأن ليس هناك تأثير إلا من عند الله تعالىٰ ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ (آل عمران:١٢٦) ، لٰكن لو واحد يستخدم هٰذه الرقية أو التميمة كالأسباب الظاهرة كمثل الدواء واستعانته حقيقة من الله اعتقادا وعلما أن الأثر هو فقط من عند الله بمشيئته البحتة فلو يشاء

يرسل الأثر ولو يشاء لايرسل ، ففي هذه الحالة قد تكون جائزة مستدلة بظاهر الأحاديث فمنها "أن خالدة بنت أنس أم بنى حزم الساعدية جاء ت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فعرضت عليه الرقى. فأمرها بها ." (سنن ابن ماجة، ح:٣٥١٣) كان أهل بيت من الأنصار يقال لهم آل عمرو بن حزم يرقون من الحمة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهىٰ عن الرقى. فأتوه فقالوا: يا رسول الله! إنك قد نهيت عن الرقى. وإنا نرقى من الحمة. فقال لهم: اعرضوا عليّ فعرضوها عليه فقال: لابأس بهٰذه هٰذه مواثيق." (سنن ابن ماجة، ح:٣٥١٥) وفى رواية قال صلى الله عليه وسلم (يعنى فى نفس الواقعة) "من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل ." (صحيح مسلم، ح:٢١٩٩) عن عوف بن مالك الأشجعى رضي الله تعالىٰ عنه قال: كنا نرقى فى الجاهلية، فقلنا يارسول الله! كيف ترىٰ فى ذلك؟ فقال: "اعرضوا علىٰ رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك." (صحيح مسلم، ح:٢٢٠٠) . وأيضًا قد يستدلّ لها من عموم الحديث " لكل داء دواء ، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله تعالىٰ." (صحيح مسلم، ح:٢٢٠٤) ؛ لأن هٰذه الرقية والتميمة نوع من الدواء وأيضًا قد يستدل لها من حديث فى العين الذى سنذكره قريباً إن شاء الله العزيز يعنى ما جاء فى علاجه .

فحاصل الكلام أن ظاهر وعموم هٰذه الأحاديث قد يدل علىٰ جواز هٰذا النوع من الرقية والتميمة مع الشروط التى ذكرناها والله أعلم والأولىٰ احتراز عنها والاقتصار والاحتصار بالرقية والتمائم التى من الآيات القرآنية والأدعية المأثورة والأسماء الإلٰهية و أولويتها لاتحتاج إلى البيان إلىٰ أي مسلم . ، فافهم، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

ولقد أشكل علىٰ بعض أمر التميمة فقالوا أنها شرك فلاتجوز واستدلوا لهٰذا بالأحاديث التى لا تدل علىٰ عدم جواز نوع التميمة الذى ذكرناه، فنوسب بالمقام أن نذكر دلائل هؤلاء وثم الرد البليغ عليهم فهم استدلوا بالحديث خرّجه أبو داؤد عن عبدالله ابن مسعود رضي الله تعالىٰ عنه عن رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم يقول" إن الرقىٰ والتمائم والتولة شرك"[1](ح:٣٨٨٣) فالجواب بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز أن هٰذا الحديث ليس مستدلالكم، بل عليكم؛ لأن الحديث يحكم علىٰ الرقىٰ بنفس الحكم الذى يحكم على التمائم وأنتم تجوّزون الرقىٰ فلما ذا

(١) هو نوع من السحر كانوا يفعلونها أهل الجاهلية لإتيان المحبة (فى زعمهم) بين المرء والمرأة. والسحر كما ذكرنا استمداد بالشياطين فهو شرك كفر لا محالة، وكذٰلك لو واحد يفعل التولة من باب الرقىٰ والتمائم الجائزة استعانة بالله تعالى ، ففى هٰذه الحالة لاتكون شركا ، لكن قد تكون بدعة؛ لأن الرقىٰ والتمائم الجائزة استعانة بالله مشروعة للأمراض وأمثالها، وليست لهٰذه الأشياء ولأن المشروع فى الحاجات العاديات الأخرىٰ هو الدعاء والذكر كمثل "لاإله إلا أنت سبحنك ..." كما جاء فى القران. وهٰذا ولو تكون التولة بالآيات القرآنية والأدعية المأثورة استعانة بالله تعالى.

تجوزون الرقىٰ و أنتم لا تجوّزون التمائم؟ وهل هٰذا إلا التناقض البين؟ فإن قلتم إن الرقىٰ فى هٰذا الحديث مخصوص بالرقية الشركية ،فنقول! فكذٰلك التمائم فى هٰذا الحديث مخصوص بالتمائم الشركية لأجل الدلائل التى تجوّز التمائم فى الجملة. وكذٰلك استدلوا بالحديث خرجه أبوداؤد عن عبداللّٰه بن عليم عن رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم قال" من تعلق شيئًا وكل إليه." (سنن الترمذي، ح:٢٠٧٢) فالجواب بتوفيق اللّٰه إن شاء اللّٰه العزيز أنهٗ هناك الحديث عن نفس المعنى فى باب الرقىٰ خرجه أحمد والترمذي وابن ماجة عن المغيرة بن شعبة عن رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم قال "من اكتوىٰ أو استرقىٰ فقد برئ من التوكل ." (سننُ الترمذي، ح:٢٠٥٥) فلما ذا تجوزون الكى والرقىٰ وأنتم لاتجوزون التمائم؟ وإن قلتم إن هٰذا الحديث فى الكى الذى يكون بدون الضرورة فهو مخصوص بالأدلة الأخرىٰ وكذٰلك إنكار على الرقىٰ فى الحديث مقيد بالرقىٰ غير الجائزة فنقول فكذٰلك التمائم فى الحديث الذى ذكرتم مخصوص بالتمائم غير الجائزة. وهٰذا الكلام كان من باب الروايات .

وأما من باب النظر فنقول بتوفيق اللّٰه إن شاء اللّٰه العزيز: إنكم تقولون إن التمائم شرك فنحن نقول أخبرنا أولا ! ما هو معنى الشرك ؟ هل الشرك يكون فقط بتعليق الشيء على الشيء؟ فلو امرأة تعلقت التميمة تزينا هل هٰذا شرك عندكم؟ لو واحد تعلق التميمة وفيها"اللّٰهم اياك نعبد واياك نستعين" هل هٰذا (ونعوذ باللّٰه) شرك عندكم؟ وفى الحقيقة اعتبار هٰذا الفعل شركا يكون كفرا نفسه. فالحقيقة إن الشرك أمر معلوم فى الدين وهو الشرك فى ذات اللّٰه وصفاته وأفعاله وحكمه ولا يتحقق الشرك إلا به ولن يتحقق فقط بتعليق الشيء على الشيء ولوكان جسما للإنسان وهٰذا معلوم ضرورة فلا بد من تقييد وتخصيص هٰذه الأحاديث فى إنكار الرقىٰ والتمائم بالرقىٰ والتمائم الشركية نظرا إلى الأدلة الأخرىٰ ، فافهم، واللّٰه يهدى من يشاء إلىٰ صراط مستقيم .

نحن الأن إن شاء اللّٰه العزيز استطرادا نبيّن الأمور من العين والعدوى والطيرة والفال وغيرها من الأمور فنذكر أمر العين أوّلا ثم نتكلم عن الأمور الأخرىٰ.

العين:

فالعين ففى الحديث "استعيذوا باللّٰه، فإن العين حق." (سنن ابن ماجة، ح:٣٥٠٨) وليس معناه أن العين فى نفسه وبنفسه يضر هٰذا لايقول المسلم أبدا؛ لأنهٗ الشرك الأكبر (المحال الأعظم؛ لأن المعلوم قطعا أن النفع والضرر كل من عند اللّٰه) ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ فَمَالِ هٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُوْنَ يَفْقَهُوْنَ حَدِيْثاً﴾ (النساء:٧٨) فماذا معناه؟ فالجواب بتوفيق اللّٰه تعالىٰ إن شاء اللّٰه العزيز هو أن

المعنى أن الله عزوجل كما يخلق الشفاء لو شاء عند التداوى بالدواء، فهو يخلق الضرر لو شاء عند ما ينظرون بعض الناس إلى الشيء اشتهاء أو حسدا فى هذا الشيء ويقال هذا "العين" و"إصابة العين من هؤلاء الناس." وقد جاء فى علاجه أحاديث فمنها: إجازة الرقية "عن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم أمرها أن تسترقي من العين." (سنن ابن ماجة، ح:٣٥١٢) وعن أبى سعيد رضي الله تعالىٰ عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ من عين الجانّ ثم أعين الإنس، فلما نزل المعوّذتان أخذهما وترك ما سوى ذلك. (سنن ابن ماجة، ح:٣٥١١) وأيضًا قد جاء غسل المعين فى علاج العين فى الحديث "مرّ عامر بن ربيعة علىٰ سهل بن حنيف، وهو يغتسل فقال: لم أرى كاليوم ولاجلد مخبّاة، فما لبث أن لُبط به (يعنى سقط سهل بن حنيف على الأرض، أصابته العين من عامر بن ربيعة الذى أعجبه جلد سهل بن حنيف) فأتى (يعنى سهل بن حنيف) به النبي صلى الله عليه وسلم فقيل له: أدرك سهلا صريعا- قال: "من تتهمون به" قالوا: عامر بن ربيعة: قال "علىٰ ما يقتل أحدكم أخاه؟ إذا رأىٰ أحدكم من أخيه ما يعجبه، فليدع لهُ بالبركة" ثم دعا بماء فأمر عامرا أن يتوضأ. فغسل وجهه ويديه إلى المرفقين وركبتيه وداخلة ازاره وأمره أن يصب عليه(سنن ابن ماجة، ح: ٣٥٠٩) وفى رواية وأمره أن يكفأ الإناء من خلفه (يعنى علىٰ سهل بن حنيف المعين) (سنن ابن ماجة، ح: ٣٥٠٩) كما جاء فى حديث عائشة رضي الله عنها مصرّحا قالت: "كان يؤمر العائن فيتوضأ ثم يغسل منه المعين." (سنن أبى داود، ح: ٣٨٨٠) فحاصل الكلام أن العلاج من العين فى الأحاديث هو الرقية والغسل على الوجه كما فى الحديث وأيضًا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لو يعجبك شيء من أخيك فادعوا لهُ بالبركة. فالدعاء بالبركة عند الإعجاب من أشياء أخيك، فالله عزوجل إن شاء الله لايخلق إصابة العين مع الدعاء بالبركة لهُ وهذه كلها من أسباب الوقاية والعلاج بقدر الله؛ لأنهُ هو الفاعل الحقيقي فالوقاية والشفاء فى الحقيقة من عنده تعالىٰ وكذلك الأسباب من عنده تعالىٰ كما فى الحديث "لكل داء دواء، ، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله تعالىٰ."

وأما الأمور الأخرى استطرادا ففى الأحاديث "لاعدوىٰ ولا طيرة ولا صفر ولا هامة ولا غول ولا نوء ولايورد الممرض على المصحّ ويعجبنى الفأل: الكلمة الحسنة، الكلمة الطيّبة." "إن كان الشؤم فى الشيء، ففى الفرس والمسكن والمرأة"،(صحيح مسلم، ح:٢٢٢٥) "كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك." (صحيح مسلم، ح:٥٣٧) "العيافة والطيرة والطرق من الجبت"(سنن أبى داود، ح:٣٩٠٧) "الطيرة شرك ثلاثاً"،(سنن أبى داود، ح:٣٩١٠) "من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بالله مؤمن بالكوكب"،(سنن أبى داود، ح:٣٩٠٦) "فلا تأتوا

الكهان"،(صحيح مسلم، ح:٥٣٧) "(الكهان) ليسوا بشىء." (مصنف عبد الرزاق، ح:٢٠٣٤٧) ،" (وما ذا يوجد حقّامن كلامهم) تلك الكلمة الحق يخطفها الجنى [1] فيقذفها فى أذن وليّه (الكهان) ،ويزيد فيها مائة كذبة." (صحيح مسلم، ح:٢٢٢٨) "من أتى عرّافا فسألهُ عن شيء لم تقبل لهُ صلاة أربعين ليلة ." (صحيح مسلم، ح:٢٢٣٠) "من أتى كاهنا فصدقه بما يقول أو أتى امرأته حائضا [2] أو أتى امرأته فى دبرها [3] فقد برئ بما أنزل على محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم. (سنن أبى داود، ح:٣٩٠٤)

ونحن الأن إن شاء الله العزيز نبيّن كل هٰذه الأمور.

لاعدوى:

وفيه الرد علىٰ عقيدة أهل الجاهلية أن المرض يعدو وينقل من المريض إلى غير المريض بطبعهٖ وهٰذه العقيدة كما هو الظاهر عقيدة كفرية؛ لأن المرض والصحّة كلها من عند الله تعالىٰ ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ﴾ (النساء:٧٨) فلايمرض المريض ولايصحّ المصحّ إلا من عند الله تعالىٰ فما ذا قدّر فى الأزل سيكون، لا مانع لهُ وما لم يقدّر فى الأزل فلا كون لهُ ولا مكوّن، وهٰذهٖ عقيدة أهل الجاهلية يعنى العدوى ينافى كل هٰذهٖ من الحقائق فردّها رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيّن أن المرض لايعدو، بل هو خلق الله يخلقه الله فيمن يشاء، وأما الحديث الآخر "لايوردممرض على المصحّ." (صحيح مسلم، ح: ٢٢٢١) وهناك حديث آخر "وفرّ من المجذوم كما تفرّ من الأسد." (صحيح البخاري، ح:٥٧٠٧) فهو ليس من أجل العدوى؛ لأنهُ "لاعدوى" ، بل والله أعلم أوّلا! لو المصح يخالط مع المريض مثلاً المجذوم والله عزوجل قد قدّر عليه أيضًا أن يصاب بنفس المرض فيمرض بقدر الله ثم قد يكون اختلاطه مع المريض الذى كان يفعلهُ مشوّشا وموسوسا ونازغا فى عقيدته ويكون فاتحا للشيطان باب الفتنة فيوسوس فيه أن هٰذا المرض بسبب العدوى فيحملهُ على الكفر، وفى الحقيقة هو بقدر الله ، فالابتعاد من المجذوم أو المريض الذى مرضه كان يعتقد أهل الجاهلية أنهُ ذوعدوى يكون غالقا لأبواب هٰذه الوساوس والتشويش ويؤيد ما قلنا من الشرح ما جاء فى الحديث الآخر الذى أخرجه أبوداؤد عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيد مجذوم فوضعها معهُ فى القصعة وقال "كل ثقة بالله وتوكلا عليه." (سنن أبى داود، ح:٣٩٢٥) ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم هو فى أكمل الإيمان فلا خطر لهُ من الشيطان الذى لا سلطان لهُ عليه مطلقاً وأيضًا هو النبي الرسول عليه الصلاة والسلام والنبي لايعرض عليه مرض الذى يُبعّد الناس منه

---

(١) فيرمىٰ عليه شهاب ثاقب كما فى القرآن وبعض الأحيان يلقون إلى الآخرين منهم قبل أن يصابوا بشهاب ثاقب ثم هم يقذفون إلى أوليائهم.

(٢) محمول على الاستحلال (٣) محمول على الاستحلال

وهذه العصمة والحفظ من عند الله تعالى لهم حتى لايُخلّ فى وظيفتهم التبليغ الذى لأجله اختلاط الناس لازم فما جاء فى الخرافات الغالى عن مرض أيوب عليه السلام فافتراء محض لما ذكرنا، فالحق ما فى القرآن والحديث عنه هو أنهٗ مرض امتحانا من عند الله ، لكن ليس مرضا مستقذرا مبعّدا للناس. وهناك حديث آخر غير هذا الحديث عن أبى داؤد وهو أيضًا يؤيد شرحنا وهو حديث عن الطاعون "الطاعون رجز [أوعذاب] أرسل علىٰ بنى إسرائيل أو علىٰ من كان قبلكم، ، فإذا سمعتم به بأرض، فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلاتخرجوا فرارا منه." (صحيح مسلم، ح:٢٢١٨) وفى رواية "فلايخرجنّه الفرار منه." (المعجم الكبير، ح:٢٧٤) وفيه نفس الكلام يعنى القدوم فى الأرض ذى الطاعون، وثم لو ابتلى به فقد يقول إنهٗ من أجل عدوى الطاعون وهذا كفر وكذلك لو يفرّ من الأرض ذى الطاعون فرارا منه وثم لو لايُبتلى به فقد يقول إنهٗ نجا لأنهٗ فرّ منه وإلا كان مُبتلا به وهٰذا أيضًا كفر؛ لأن فى كلتى حالتين ينفى قدر الله، بل الحق أنهٗ لو ابتلى ابتلى بقدر الله ولو نجا نجا بقدر اللّٰه بغض النظر حيث كان وكما كان ويدل علىٰ ما قلنا الرواية الأخرىٰ "فلا يخرجنّه الفرار منه" يعنى لو يخرج من الأرض ذى الطاعون ، لكن ليس فرارا منه، بل مثلاً للتجارة وطلب العلم ونحو ذلك فلا بأس بالخروج؛ لأنهٗ فى هٰذه الحالة لاينفى القدر ولايتعرض للوساوس والتشويش فى عقيدته السليمة وهي أن كل شيء والمرض والصحة أيضًا منها بقدر اللّٰه تعالىٰ.

ثانيا: أن الأمراض ليست معدية ، لٰكن الله عزوجل قد وضع الأسباب التى عندها يخلق النتائج من عنده تعالىٰ عادة مثلاً خلق الله الطعام فمن يأكلهٗ من الجياع فالله عزوجل يخلق فيه شبعاً عادة وخلق الله السمّ فمن يتحساه خلق الله فيه الموت عادة أو أحياناً كثيراً، فقد يكون أمراضا التى تكون لها جراثيم(من عند الله تعالىٰ) علىٰ من يمرض بها فمن يخالط من الصحيح مع المريض بهٰذه الأمراض يحصل علىٰ هٰذه الجراثيم بالمخالطة والملامسة ونحوها من الأمور ويخلق اللّٰه تعالىٰ فى هٰذا الصحيح نفس المرض؛ لأنهٗ عادة يخلق هٰذا المرض فى من يصاب بهٰذه الجراثيم، وكل بقدر الله وخلقه، فحفظا وصونا من هٰذه الجراثيم وعدم التعرض للبلاء والضرر أمر بالفرار من المجذوم وبعدم إيراد الممرض على المصحّ أخذا بالأسباب الظاهرة كما أمر الإسلام الحذر فى الجملة ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ (النساء:١٠٢) وهٰذا الحذر هو فى الأخير الحذر فلايغنى من قدر الله شيئاً فلو شاء الله فيخلق هٰذا المرض بدون ملاصقة بهٰذه الجراثيم ولو شاء لايخلق مع ملاصقة بهٰذه الجراثيم ، لكن لو الله عزوجل عادة يخلق هٰذا المرض بملاصقة جراثيمه فالأخذ بالحذر والأسباب هو عدم تعرض بهٰذه الجراثيم فافهم! والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

ولاطيرة:

وهي التشاؤم بأي شيء وهي أيضًا نوع من الشرك؛ لأن المتشائم يتشائم من الأشياء كأنها

يـأتـى بـالـضـرر أو النفع بنفسه استقلالا عن قدر الله وهٰذا كفر لامحالة فردّ رسول الله صلى الله عليه وسـلـم هـٰذه الـعقيدة الجاهلية. وفى الحديث "الطيرة شرك." (سنن أبى داود، ح:٣٩١٠) ثلاثا. وفـى الـحديث "العيافة والطيرة والطرق من الجبت." (سنن أبى داود، ح:٣٩٠٧) والعيافة والطيرة هـمـا مـن الـتشـاءم، والـجبـت يعنى اتخاذ الألهة من دون الله يعنى الشرك الأكبر فالحق أنهٗ لا طيرة ولاتشـاءم ولا عيـافة، بـل كـل شـيء من عـنـد الـلّـه بـقـدره ومشيئته وخلقه وتكوينه وأما الحديث "ويعجبنى الفأل الصالح، والفأل الصالح هو الكلمة الحسنة." (سنن أبى داود، ح:٣٩١٦) فمعناه أنهٗ لا طيرة، بـل كل شيء بقدر الله ومن ردّ هٰذا فقد كفر، لكن ليس من الطيرة أنهٗ واحد يعجبه أن يسمع الكلمةالحسنة و هـو الفأل الصالح يعنى هو يأتى بالرجاء الصالح والتوكل على الله عزوجل ومثالهٗ أن واحـدا يـخـرج من البيت فيقول لهٗ الآخر: "يا ناجح، يافائز" وهٰذه الكلمة الصالحة يأتى بحسن الظن عـلـى الـلّـه تـعـالـٰى وحـسـن الـظـن على الله تعالىٰ من الإيمان وفى الحديث "أنا عند ظن عبدى بى." (صحيح مسلم، ح:٢٦٧٥) وفى القرآن ﴿إِنَّهٗ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللّٰهِ إِلَّا الْقَوْمُ الكَافِرُوْنَ﴾ (يوسف:٨٧) ﴿وَمَنْ يَّقْنَطُ مِنْ رَّحْمَةِ رَبِّهٖ إِلَّا الضَّآلُّوْنَ﴾ (الحجر:٥٦) وليـس الـمعنى أن واحدا يعصى الله ويرجوا ويـحـسـن الـظـن بـهٖ تـعـالـىٰ؛ لأن هـٰذا لـيـس حـسـن الـظـن، بل خداع نفسه ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللّٰهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخٰسِرُوْنَ﴾ (الأعراف:٩٩)، بـل الـمـعـنـى أن المؤمن يؤمن ويعمل الصالحات ويحسن الظن بالله تعالىٰ، فـإذا خـرج من بيته لوظيفته الجائزة يعجبه أن يسمع الكلام الحسن، فإذا يقول لهٗ الآخر: يانا جح. فهٰذا يزيده فى حسن ظنه بالله تعالىٰ ورجاء برحمتهٖ وهٰذا يقال الفأل الصالح وهو ليس من الطيرة فى شيء، بل فى الحقيقة ناشئا من العقيدة الجازمة أن كل شيء بقدر الله تعالىٰ [1] فالفأل الصالح من التوكل عليه تعالىٰ ومن حسن الظن بهٖ والرجاء برحمتهٖ تعالىٰ. فافهم! والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

وأمـا الـحديث "إن كان الشوم فى شيء، ففى الفرس والمسكن والمرأة." (صحيح مسلم، ح:٢٢٢٥) فـمـعـنـاه بـتـوفـيـق الـلّـه تعالىٰ إن شاء الله العزيز هو أن الشؤم لايوجد على الإطلاق حتىٰ الأشياء التى يخالط المرء فى حياته بها كثيراً كثيراً خالية عن الشؤم فيعني لوكان الشؤم يوجد ليوجد فـى هـٰذه الأشـيـاء الـثـلاثة، لٰـكـن لـيـسـت فيها؛ لأنهٗ لايوجد. نعم! قد يوجد فى هٰذه الأشياء أشياء التى تـكـدّر عـيـش الـمرء مثلاً المرأة إذا كانت طبيعتها الجدال والخصام والنشوز والكفران وكذٰلك لو كـانـت غيـر ولـود ونحو ذٰلك والمسكن لو كان فيه من الضيق وعدم مراعاة الشمس والهواء وسوء الـجيـران ونحو ذٰلك وكذٰلك لو الفرس فيه من الجموح وعدم الانقياد وسوء الجرى وكذٰلك لو لـم يـغـز عـلـيـه قـطـا ونحو ذٰلك من الأمور، ففى هٰذا المعنى مجازاً قد تطلق علىٰ هٰذه الأشياء كلمة

(١) ولهٰذا هو لايعتقد أن هٰذا الفأل الصالح يُغيّر من قدر الله شيئا.

الشؤم وهو ليس فى الحقيقة الشؤم الذى هو الطيرة والشرك الأكبر ، لكن فى هٰذا المعنى المجازىّ الذى ذكرنا يجوز أن يقال: إن الشؤم فى هٰذه الأشياء الثلاثة كما جاء فى الحديث هٰكذا أيضًا : "وإنما الشؤم فى ثلاثة المرأة والفرس والدار ." (صحيح مسلم، ح: ٢٢٢٥) وفى الحديث "من سعادة المرء المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الهنيء، ومن شقاوة المرء المرأة السوء والمسكن السوء، والمركب السوء ." أخرجه أحمد. (ح: ١٤٢٥)

وقد قال عبدالرزاق فى مصنفه عن معمر سمعت من يفسر هذا الحديث يقول" شؤم المرأة إذا كانت غير ولود، وشؤم الفرس إذا لم يغز عليه، وشؤم الدار جار السوء" وكذلك قد جاء هذا الحديث [1] مع تفسيره على نفس المنوال فى مسند أبى حنيفة رحمه الله تعالىٰ. فحاصل الكلام أنهُ لا طيرة على الإطلاق وهو الشرك الأكبر؛ لأن كل شيء من عند الله تعالىٰ بقدره ومشيئته وخلقه وتكوينه. والحمد لله رب العالمين.

ولاصفر:

وقد جاءت فى تفسير هٰذا أقوال فمنها أنهُ الرد على ما كانوا يفعلونه أهل الجاهلية من تحريم شهر صفر بدل المحرّم فردّ عليهم أن صفر ليس من الأشهر الحرم، بل المحرّم وقول آخر أن أهل الجاهلية كانوا يزعمون أنهُ حية تكون فى بطن الماشية والناس فيضر وقول آخر أن أهل الجاهلية كانوا يزعمون أنهُ دود يكون فى الجوف فربما عض الضلع أو الكبد فقتل صاحبه فمهما كان من هٰذه الأقوال فالحاصل هو الردّ والنفى لكل هٰذه الخرافات.

ولاهامة:

وفيه أيضًا أقوال: فمنها أنها البومة الكبيرة كانت إذا وقعت علىٰ بيت أحد يتشاءم بها ومنها أنهُ إذا قتل الرجل يخرج من رأسه هامة وهي دودة أو طائر. فتدور حول قبره وتقول: اسقونى، اسقونى، فإن أدرك بثاره ذهبت وإلا بقيت، وكانت اليهود تزعم أنها تدور حول قبره سبعة أيام ثم تذهب وقيل: كانوا يزعمون أن عظام الميت تصير هامة فتطير. وحاصل الكلام الرد والنفى لكل هٰذه الخرافات.

لاغول:

قال الجمهور: كانت العرب تزعم أن الغيلان فى الفلوات، وهي جنس من الشياطين، تترائى للناس، وتغول لهم تغولا أي تتلون تلوّنا، فتضلهم عن الطريق فتهلكهم ، يقولون: غالته الغول، أي

(١) يعنى كون الشؤم فى الثلاثة.

أهلكته، فابطل صلى الله عليه وسلم ذلك. اي أنها لاتستطيع الإضلال والإهلاك ولا تسيطر على الإنسان إلى هذا الحد وإنما تتراى لهم فقط وتدعو وقديتخوف الإنسان وقد يتبعه ويوقع نفسه فى الهلاك، وليس مراد الحديث إبطال وجود الغول الذى قد ثبت وجوده من الحديث عن آية الكرسي عن أبى أيوب أنصارى رضي الله تعالى عنه انهٔ كانت لهٔ سهوة فيها تمر فكانت تجئ الغول فتأخذ منه إلى آخر الحديث وفيه أن قراء ة آية الكرسي فى البيت يبعد الشيطان والآية ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ٧١) وفيه ﴿اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾ يعنى استغوته وزينت لهٔ هواه ودعته إليه قال ابن عباس رضي الله تعالى عنه: أي مثل عابد الصنم مثل من دعاه الغول فيتبعه فيصبح وقد ألقته فى مضلة ومهلكة فهو حائر فى تلك المهامة. فحاصل الكلام الحديث "لاغول ." (سنن أبى داود، ح: ٣٩١٣) لاينكر وجود الغيلان، بل ينكر أن الغيلان تسيطر على الإنسان وتلقيه فى المهلكة، بل الغيلان تتراء ى وتدعو وثم الإنسان نفسه قد يسمع لها ويتبعها ويتعرض للوقوع فى المهلكة.

ولانوء:

وهو الكوكب وكان أهل الجاهلية ينسبون المطر إلى الأنواء (جمع النوء) وهو الكوكب وهذا كفر؛ لأن المطر، بل كل شيء من عند الله تعالى وقد جاء فى الحديث "عن زيد بن خالد الجهنى أنهٔ قال: صلىّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبيّة فى إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ما ذا قال ربّكم؟ قالوا: الله ورسولهٔ أعلم. قال: أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر، فأمّا من قال: مطرنا بفضل الله وبرحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكوكب ." (سنن أبى داود، ح: ٣٩٠٦) وحاصل الكلام أن الكوكب (الأنواء) هو خلق الله لايضر ولاينفع ولايستطيع أن يفعل شيئًا، بل كل شيء بقدر الله وإذنه وخلقه فمن ينسب المطر أو شيئًا ما إلى الكواكب أو اي غير الله فقد كفر بالله ومن يقر أن كل شيء من عند الله تعالى فهو مؤمن .

الخط:

عن معاوية بن الحكم السلميّ رضي الله تعالى عنه قال: قلت يارسول الله (صلى الله عليه وسلم) ومنّا رجال يخطّون؟ قال صلى الله عليه وسلم "كان نبيّ من الأنبياء يخطّ فمن وافق خطّه فذاك." (صحيح مسلم، ح:٥٣٧) وتفسيره: أنهم كانوا يخطون علىٰ الرمل خطوطاً كثيرةً ثم كانوا

يمحون خطين خطين ويأخذون نتيجة الخير أو الشر فيما أرادوه نظرا إلى أن الباقي خط واحد أو خطان، فإن بقي خطان فهو دليل الفلج والظهر وإن كان الباقي خطا واحدا فهو دليل الخيبة والبأس. ويقال: إن هٰذا من جملة علم الرمل، وهٰذا كلهٔ في زعمهم والحقيقة كما في الحديث "فمن وافق خطه فذاك." (صحيح مسلم، ح:٥٣٧) أى وافق خطه خط هٰذا النبي الذى كان يخط ولأن ذٰلك النبي عليه الصلاة والسلام غير معروف وطريقة خطه غير معروفة، وطريقة أخذه النتيجة غير معروفة ومواقع خطه غير معروفة و غرض خطه غير معلوم فإن من المحال أن تعرف موافقة خط أحد لخط ذلك النبي عليه الصلوٰة والسلام وما هم يفعلون من الخط وطريقته فهو فقط الزعم فلايصح أن يخط بناء علىٰ أن ذلك النبي عليه السلام كان يخط؛ لأن طريقته غير معروفة، فهٰذا معلق بالمحال فهو بمعنى عدم الإذن فيه وقد جاء النهي بالصراحة في هٰذا الحديث "العيافة والطيرة والطرق من الجبت." (سنن أبي داود، ح: ٣٩٠٧) والعيافة والطيرة نوع من الشؤم والطرق هو الخطّ يخطّ في الأرض، والجبت ما يعبد من دون الله فيعنى الطرق يعنى الخط هو الشرك الأكبر؛ لأن ما كان هٰذا النبي عليه السلام يفعل من الخط فهٰذا كان علماً أعطيه من عند الله تعالىٰ فالله عزوجل جعل هٰذا علم الخط وسيلة لأن يطّلع علىٰ بعض أنباء الغيب من عند الله تعالىٰ ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ (الجن:٢٦-٢٧) ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾ (آل عمران:١٧٩) فهو لهٔ مثل الوحي جائزا حسنا ، لٰكن غير الأنبياء لايحصلون على الوحي أوّلاً وثم لم يُعطوا علم الخط يعنى كيفيته وماهيته ، فإذا باشر بنفسه بدون هٰذه الأشياء ، فكأنهٔ يدّعي أنهٔ يستطيع أن يطّلع علىٰ بعض الغيب وهٰذا الشرك الأكبر؛ لأن علم الغيب صفة خاصة لله تعالىٰ ولايعلمه غيره وهو يُطلع ببعض أنباء منه من يشاء ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (النمل:٦٥) فأطلق الحديث "الجبت" علىٰ مباشرة الطرق وهو علم الخط.

وكذٰلك علم النجوم يعني الإدعاء علىٰ معرفة بعض الأمور بسبب النظرة إلى النجوم ، ففي الحديث "من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد." (سنن أبي داود، ح:٣٩٠٥) ولايخفىٰ أن الاعتقاد أن الكواكب مؤثرة في العالم كفر بواح ، لكن الكلام هنا ليس من حيث أنها مؤثرة، بل المعلوم أنهٔ لاتاثيرلها قطعا وبتاتا إذ لا تأثير إلا من عند الله تعالىٰ وإليه ترجع جميع الأمور، بل الكلام هو معرفة بعض الأنباء الغيبية بسبب النظرة إلى النجوم وهي من حيث أن واحدا يعتقد أن الله عزوجل يجعل الكواكب من حيث حركتها وطلوعها وغروبها علامة معلمة لبعض الأمور الحاصلة في العالم، والمنجّم يحصل علىٰ معرفة هٰذه الأمور بملاحظة هٰذه العلامات

علما استدلاليا ظنيا ولايدعى معرفة علم الغيب؛ لأن الدعوىٰ كفر؛ لأن علم الغيب صفة خاصة لله تعالىٰ، بل يقول إنهٗ حصل علىٰ بعض المعلومات علما استدلاليا ظنيا بعلم النجوم يعنى نظرة إليها وأنها فيها علامات مستودعة من عند الله تعالىٰ دالّة علىٰ هٰذه المعلومات فهو العلم الاستدلالي الظني فهٰذا نوع من العلم قد ردّه هٰذا الحديث الذى ذكرنا وينص أنهٗ نوع من السحر فلايجوز للمسلم اشتغالا بهٖ قطا وبتاتا. ثم التحقيق هو علم النجوم والرمل علمان استدلاليان منزلان علىٰ بعض الأنبياء عليهم الصلوات والسلام ثم اندرسا وخلط الناس فيهما، فمن استدل بقاعدة نبوية أصاب في الخبر (النبراس) وهٰذا الكلام أن علم النجوم والرمل كلاهما كانا منزلان علىٰ بعض الأنبياء عليهم الصلوات والسلام.

فلخطوط الرمل وقد ذكرنا الحديث أن نبيّا من الأنبياء عليهم السلام كان يخطّ (صحيح مسلم، ح:٥٣٧) وأما علم النجوم فقد يستدل من هٰذه الآية عن سيدنا إبراهيم عليه السلام ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ (الصافات:٨٨-٨٩) وقال ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنه كان علم النجوم من النبوّة فلما حبس الله تعالىٰ الشمس علىٰ يوشع بن نون عليه السلام أبطل ذلك، فكان نظر إبراهيم عليه السلام فيها علما نبويا. انتهى.

وهٰذا الكلام الذى جاء في التفسير نسبته إلى ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنه ففيه نظر؛ لأن لو كان النظرة لإبراهيم عليه السلام في النجوم نظرا علما نبويّا لكان القول ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ (الصافات:٨٩) لايُحسب في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم في التوريات لإبراهيم عليه السلام والمعلوم أن نبيّنا صلى الله عليه وسلم عدّ هٰذا القول من المعاريض والتوريات لسيدنا إبراهيم عليه السلام التي استخدمها لغاية دين الله تعالىٰ. ثم هناك تفسير آخر أليق وأنسب وهو أن معنى ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى النُّجُومِ﴾ (الصافات:٨٨) هو أنهٗ نظر فيما نجم لهٗ من الرأي أي فيما طلع لهٗ من الآراء، فتفكر أن كل حيّ يسقم (في الغالب عند الموت) فقال ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ (الصافات:٨٩) قاله الحسن، ، لٰكن لو قبلنا أن علم النجوم أيضًا أعطى إلى بعض الأنبياء عليهم الصلوات والسلام بغض النظر أن هٰذه القصة لسيدنا إبراهيم عليه السلام أن لها علاقة بهٰذا الموقف أم لا، لكن مع هٰذا هو علم مندرس ،فحاصل الكلام أن علم الرمل والنجوم كانا علمان استدلاليان لبعض الأنبياء عليهم الصلوات والسلام الذين كانوا يستطيعون أن يستدلوا بهما علىٰ بعض الأنباء الغيبية إعطاء من عند الله تعالىٰ (لهٰذان العلمان كانا بمنزلة الوحي لهم) ، لكن هٰذا مقام الأنبياء صاحبوا الوحي عليهم الصلوات والسلام وأما غير الأنبياء فهم لايستطيعون أن يعرفوا شيئًا استخداما لهٰذين العلمين إلا لو يعلموا القاعدة النبوية فيهما من الطريقة ومنهج الاستدلال والنتائج وغيرها من الأشياء وهٰذا غير

معلوم عندهم فلاتبقى إلا الخرافات لاتغنى من الحق شيئاً فلايجوز علم الرمل والنجوم لهم؛ لأن ليس عندهم علما منهما فالحديث يرد وينكر علم النجوم والرمل ثم لو واحد يشتغل بهما ادعاء بعلم الغيب فلاشك فى كفره، ولو لايدعى علم الغيب، بل يدعى أنهما علمان استدلاليان وعنده علم منهما فهو فاسق كذّاب؛ لأن العلم لهما ولو كان منزل علىٰ بعض الأنبياء عليهم الصلوات والسلام، لكن هو علم قد اندرس.

وفى شرح العقائد النسفية: والمنجم إذا ادعى العلم بالحوادث الآتية، فهو مثل الكاهن [1] (يعنى فيكون كافرا). وفى النبراس: فيكون كافرا وكذٰلك يكون مصدقه كافرا. أما إذا زعم أنهٗ يستدل بعلامات فلكية علىٰ سبيل الظن [2] كاستدلال الطبيب بالنبض علىٰ حال المريض ظنيا فلايكفر.

الكهانة:

وفى الحديث عن معاوية بن الحكم السلمى رضي اللّٰه تعالىٰ عنه قال: قلت يارسول اللّٰه أمورا كنا نصنعها فى الجاهلية. كنا نأتي الكهّان، قال صلى اللّٰه عليه وسلم "فلا تأتوا الكهان." (صحيح مسلم، ح:٥٣٧) وفى الحديث الآخر "عن عائشة رضي اللّٰه تعالىٰ عنها قالت: سأل أناس رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم عن الكهّان؟ فقال لهم رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم "ليسوا بشيء" قالوا: يارسول اللّٰه! فانهم يحدّثون أحيانا الشيء يكون حقا، قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم "تلك الكلمة من الجنّ يخطفها الجنيّ، فيقرّها فى أذن وليّه قرّ الدجاجة فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة". (صحيح مسلم، ح:٢٢٢٨)

وفى الحديث "إذا قضى اللّٰه تعالىٰ الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنهٗ سلسلة علىٰ صفوان، ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ما ذا قال ربكم؟ قالوا للذى قال الحق وهو العلي الكبير ، فيسمعها مسترق السمع ومسترق السمع هٰكذا بعضه فوق بعض" ووصف سفيان (أحد الرواة) بيده فحرفها ونشر بين أصابعه. فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيهاالآخر إلىٰ من تحته حتىٰ يلقيها علىٰ لسان الساحرأو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا، كذا وكذا، فيصدق بتلك الكلمة التى سمعت من السماء." (صحيح البخاري، ح:٤٨٠٠)

وفى القرآن ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ لَا يَسَّمَّعُونَ

---

(١) يأتى عنه قريباً إن شاء اللّٰه

(٢) لو يدعى هذا علىٰ سبيل القطع يكفر؛ لأنهٗ ليس نبيًا صاحب الوحي

إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ (الصافات: ١٠) وهٰذا ما ذكرنا من النصوص من باب الكهانة وخلاصتها أن الله عزوجل إذا قضى أمرا فى السماء [1] يعنى يوحى ما شاء من كلامه الأزلى فى السماء فهٰذا الكلام يتلقى من حملة العرش كما جاء فى رواية وثم منهم إلى الذين يلونهم ومنهم إلى الذين يلونهم هٰكذا من الفوق إلى التحت حتى يبلغ فى العنان [2] كما جاء فى رواية فالملائكة فى العنان يتلقونه والممكن يتذاكرونه ومن هٰذا الحيث تخطف الجن السمع وهم يعنى الجن بعضهم فوق بعض يلقون السمع إلى الملائكة فى العنان ليخطفوا منهم بعض ما يتذاكرونه من هٰذا الأمر الذى قد قضى يعنى أمر به وأخبر عنه إلى الملائكة وهٰذا مسترق السمع يُرمى بشهاب ثاقب وهو ما ينفصل من الكواكب شيء يرجم به الشياطين من غير أن ينقص ضوئه. ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ (الملك: ٥) فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيه إلى من تحته من الجن، وربما ألقاه قبل أن يدركه وهٰكذا بعض الأحيان يلقى من واحد إلى آخر من الجن حتى يأتى آخرهم إلى الكاهن من الإنس ويلقيه إليه وثم هٰذا الكاهن يكذب معه مائة كذبة فيقال عن هٰذه الكلمة التى سمعت من السماء أنهٗ كان صادقا فى هٰذه وفى الحقيقة هي ما خطفت الجنىّ من السماء وأما مائة كذبة فليست إلا الخرافات.

---

(١) لايعنى أن السماء مكان الله، ونعوذبالله،؛ لأنهٗ تعالى عن المكان والزمان، بل السماء مكان للملائكة الذين يُخبرون ويُؤمرون بهٰذا الأمر وهم فى السماء يعنى فى الأماكن العالية والسماء قد تأتى لمطلق العلو حتى تشمل حملة العرش لأنهم فوق سبع سموات. فكما سيدنا موسٰى عليه السلام قال لله تعالى وهو على الطور﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ (طه: ٨٤) وكذٰلك قال الله عزوجل عن سيدنا موسٰى عليه السلام ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ (مريم: ٥٢) لايعنى أن الله عزوجل نفسه على جبل الطور، بل معناه أن الله عزوجل كالمه وهو يعنى سيدنا موسٰى عليه السلام كان على الطور وكذٰلك "قضى الله فى السماء" فى الحديث (٣٢٢٣) معناه أنهٗ يوحى إلى من شاء من أهل السماء وهم فى السماء وليس المعنى أن السماء مكان الله ونعوذ بالله، بل هو مكان أهل السماء من الملائكة وغيرهم.

(٢) وهٰذا هو المعنى لماجاء فى الحديث "سُمعت من السماء" يعنى من العنان؛ لأن السماء قد يراد منه مطلق العلو والعنان بنسبة لنا فى جهة العلوّ ولايعنى أنهم يسمعون من داخل السماء وكيف؟ والمعلوم أن جميع السموات لها أبواب لاتفتح إلا لمن أذن لهٗ من عند الله تعالى كما جاء فى حديث المعراج وثم الشياطين لايؤذن لهم بدخول فى السماء ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾(الأعراف: ٤٠)

ثـم اعلم أن هٰذہٖ كلها فى الأمور غير الوحي وأما الوحي فمسترقون السمع لايتلقون منه شيئاً قطعا وبتاتا وهٰذا حفظا من عند الله تعالٰى ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ (الشعراء:۲۱۰-۲۱۲) ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ (الجن:۲٦-۲۸)

وبعد هٰذا التمهيد فاعلم أن الكهانة حرام وكذٰلك الإتيان إليهم كما جاء فى الحديث "فلا تأتوا الكهان." (صحيح مسلم، ح:۵۳۷) وهٰذا النهي للتحريم وثم تصديقهم أيضًا حرام ولايقال إنهم يحصلون على الأخبار من الجن لأنهم كما جاء فى الحديث يزيدون فيها مائة كذبة والصدق غير معلوم من الكذب فلايجوز تصديقهم وأيضًا لأنهم يتعاملون مع الجن الخبيثون المتمردون فعلٰى هٰذا كيف يكون دينهم دين الله وهم يتعاملون مع أعداء الله ويريدون منهم أن يطوفوا فى الأرض والسماء مع سرعتهم وقوتهم ويجمعون من الأخبار ويلقون إليهمّ فالجن الخبيثون يعنى الشياطين لايفعلون لهم هٰذه الأشياء حتٰى الكهنة يُفرحونهم بالكفر والضلال فمن يأتى إلى الكاهن فهو يأتى إلى عدوالله ولايجوز موالاة عدو اللّٰه ولايجوز التعاون فى الإثم والعدوان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ (النساء:۱۴۴) ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة:۲) وكذٰلك لو الكاهن يدعى علم الغيب أو يعتقد أن الجن يعلمون الغيب فهٰذا كفر بواح لامحالة وكذلك من يعتبر الكهنة أو الجن عالم الغيب يكفر لامحالة ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (النمل:٦۵) وفى الحديث أخرجه أصحاب السنن والحاكم عن أبى هريرة رضي الله تعالٰى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم "من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل علٰى محمد"؛ لأن تصديقه لهما يقتضى أنهٗ يعتقد أنهما يعلمان الغيب وهٰذا كفر بواح، والعرّاف قد يكون فى معنى الكاهن مطلقا وقد يكون فى معنى من يدعى ويزعم أنهٗ يستدرك الأمور بفهم أعطيه من الغور والإمعان فى المقدمات والأسباب. وقد جاء فى الحديث الآخر رواه مسلم "من أتى عرّافا فسألهٗ عن شيء لم تقبل لهٗ صلاة أربعين ليلة." (صحيح مسلم، ح: ۲۲۳۰) والعرّاف قد يكون علٰى معنى الكاهن مطلقا.

ومعنى الحديثين أن لو واحد يأتى العرّاف أو الكاهن ويسأل عن شيء بدون التصديق فلايقبل لهٗ صلاة أربعين ليلة لبشاعة وقباحة وحرمة ما فعل ، لكن لو يصدقهما فقد كفر لاعتقاده عنهما أنهما متصفين بعلم الغيب وإن قيل إنهٗ لو يصدّق كاهنا احتمالا علٰى أنهٗ سمعه من الجنيّ الذى حصل عليه

من السماء ولاهو ولا الجن يعلمون الغيب أو يصدّق عرّافاًفي درجة الظن احتمالا علىٰ أنهٗ قد وصل إلى النتيجة بعد ملاحظة الأسباب والمقدمات التي في العادة تصل إلىٰ هٰذه النتيجة وليس هو عالم الغيب قطعا فما ذا تقول في هٰذا المصدّق علىٰ هٰذا المنوال؟

قلنا بتوفيق اللّٰه تعالىٰ إن شاء اللّٰه العزيز : إنهٗ لاشک أنهٗ فعل شيئاً محرما ولا تقبل لهٗ صلاة أربعين ليلة ولا بدلهٗ من التوبة والاستغفار وأما التكفير فلم يوجد منه في الظاهر الاعتقاد الذي يناقض القرآن والسنة ويؤدي إلى الكفر فواللّٰه أعلم عنه ونحن نتركه للعلماء والمشائخ.

الأن نكمل هٰذا الباب بذكر التحقيق في مسئلة علم الغيب من النبراس: ”والتحقيق: أن الغيب ما غاب عن الحواس والعلم الضروري والعلم الاستدلالي وقد نطق القرآن بنفي علمه عمن سواه تعالىٰ، فمن ادعى أنهٗ يعلمه كفر، ومن صدق المدعي كفر، وأما علم بحواس أو ضرورة أو دليل. فليس بغيب ولا كفر في دعواه ولا في تصديقه على الجزم في اليقيني والظن في الظني عند المحققين وبهٰذا التحقيق اندفع الإشكال في الأمور التي يزعم أنها من الغيب وليست منه لكونها مدركة بالسمع أو البصر أو الدليل فأحدها: أخبار الأنبياء، لأنها مستفادة من الوحي، ومن خلق العلم الضروري فيهم أو من انكشاف الكوائن علىٰ حواسهم. (والوحي علم يقيني كما هو المعلوم)

ثانيها: الوحي أوالكشف أو الإلهام أوالرؤيا الصالحة: الوحي للنبي فقط وهو يشمل رؤياه والكشف والإلهام وكل من عنداللّٰه تعالىٰ لهٗ و يفيد اليقين . (والمعلوم أن الوحي هو يقيني وأما الكشف أو الرؤيا أو الإلهام لغير الأنبياء فإنها يفيد علما ظنيا ولا يفيد العلم اليقيني ولأنهاليست معصوما كالوحي وربما التبس واختلط.)

ثالثها: أخبار المحاسب بالكسوف والخسوف،؛ لأنهٗ بدلائل هندسية قطعية (وهٰذا أيضًا ظنيّ؛ لأنهٗ في الأخير غير معلوم أنهٗ أصاب أو أخطا.)

رابعها: أخبار المنجم والرمال (علم الخط) ؛ لأن النجوم (علم النجوم) والرمل علمان استدلاليان منزلان علىٰ بعض الأنبياء عليهم الصلوات والسلام ، ثم اندرسا وخلط الناس فيهما فمن استدل بقاعدة نبوية (التي غير معلومة) أصاب في الخبر.

خامسها: خبر الكاهن؛ لأنهٗ مما يخبره الجن عن مشاهدة أو سماع من الملائكة الذين عرفوا بعض الكوائن المستقبلة (من عند اللّٰه تعالىٰ كما جاء في الحديث الذي ذكرناه) ثم نقول: قد نطق كثير من الأحاديث وأقوال السلف بكفر المنجم والكاهن ومن يصدقهما وذكر غير واحد من المحققين أن التكفير خاص بمن يدعى علم الغيب (أو) يزعم أن النجوم مدبرة بالاستقلال أو يزعم

الجن عالمون بالغيب، قلت: ومع هذا ليس الاشتغال بالنجوم والكهانة وتصديقهما من فعل الصالحين، ولاشك أن فيهما إخلالا بعقائد ضعفاء المسلمين لزعمهم أن المخبر عالم الغيب (وعلى هذا يكون كفرا) على أن الكاهن يصعب أن يسلم إيمانه لاستمداده من الشياطين (والاستمداد من غير الله لو كان على وجه أن يعتقد أنهم السميع والبصير والقادر فوق الأسباب فهذا شرك جلي يعنى كفرا بواحا ولو كان على وجه ما تحت الأسباب كما واحد من الإنس يسئل إنسا آخر لشيء تحت الأسباب العاديّة فعلى هذا الوجه أيضًا استمداد من الشياطين لايخلو من أن هذه الشياطين لاينصرونه حتى هو يفرحهم ويرضيهم بالكفر والضلال) فاحفظ هذا التحقيق، فإنهُ من خواص مؤلفاتنا. انتهى من النبراس. والله أعلم. والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

المتن:

ونؤمن بأشراط الساعة من خروج الدجّال، ونزول عيسىٰ بن مريم عليه السلام من السّماء، ونؤمن بطلوع الشمس من مغربها، وخروج دابّة الأرض من موضعها .

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله الأن يدخل فى باب أشراط الساعة يعنى القيامة وهي ما بين النفخة الأولىٰ إلى دخول الناس الجنة (اللّهم اجعلنا منهم) أو النار وسمّيت بالساعة إما لقربها فإن كل ات قريب، وإما أن تكون سمّيت بها تنبيها علىٰ ما فيها من الكائنات العظيمة وقيل: إنما سمّيت بالساعة لأنها تأتى بغتة فى ساعة وكذٰلك اسمها القيامة علىٰ اختلاف الأقوال لقيام الخلق من قبورهم إليها قال الله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ (المعارج:٤٣) .وثانيا: لقيام الناس لرب العالمين ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعٰلَمِينَ﴾ (المطففين:٦) وثالثا: لقيام الروح والملائكة صفًا قال الله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ (نبا:٣٨) وفى الحقيقة اسم "القيامة" يتناول كل هذه المعانى، ثم إن كل ميت إذا مات فقد قامت قيامته، لكن هي القيامة الصغرىٰ خاصة فى حق هذا الميّت فى انقطاع عمله ورحله إلى أوّل مراحل الآخرة يعنى البرزخ ودليلهُ قول النبي صلى الله عليه وسلم لقوم من الأعراب، وقد سألوه متى القيامة ؟ فنظر إلى أحدث إنسان منهم فقال: "إن يعش هذا لم يدركه الهرم قامت عليكم ساعتكم." وأما القيامة الكبرىٰ التى تعم الناس وتأخذهم جميعا أخذة واحدة فهي تبدأ من النفخة الأولىٰ وعلم زمان وقوعها فهو عند الله تعالىٰ فقط لايعلمه ملك مقرب ولانبى مرسل عليهم السلام كما لايعرف واحد منا متى يموت يعنى عن قيامته الصغرىٰ، لكن فى

بعض الأحيان الله عزوجل أخبر نبيّه من الأنبياء عليهم الصلوات والسلام زمان رحلتهم ووفاتهم كما أخبر سيدنا آدم عليه السلام عمر داؤد عليه السلام كما جاء في الحديث [1] ، لكن القيامة الكبرىٰ لم يعط علمها ولن يعطى إلى أي واحد من الخلق قطعا وبتاتا وفي القرآن ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ (طه:١٥) ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ (لقمن:٣٤) ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾ (الاحزاب:٦٣) ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (الزخرف:٨٥) وفي الحديث "ما المسئول عنها بأعلم من السائل." (صحيح مسلم، ح:٨) يعني عن وقت الساعة. حتىٰ سيدنا اسرافيل عليه السلام وهو الملك الموكل بنفخ الصور لايعلم وقت الساعة فهو ينظر دائما لحكم ربّه تعالىٰ متى يؤمر أن ينفخ وفي الحديث "كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن واستمع الأذن متى يؤمر بالنفخ." (صحيح ابن حبان، ح:٨٢٣) فكان ذٰلك ثقل علىٰ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال لهم "قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل." (سنن الترمذي، ح: ٢٤٣١) ما هو المعلوم أنها تكون في يوم الجمعة كما في الحديث "لاتقوم الساعة إلا في يوم الجمعة"، (صحيح مسلم، ح:٨٥٤) وأيضًا اليوم العاشر من المحرّم الحرام كما ذكروا العلماء والله أعلم.

ونحن قد بيّنا أحوالا عما من النفخة الأولىٰ إلى ما بعد قبلا والحمد لله رب العالمين. الآن في هٰذا البيان نذكر إن شاء الله عزوجل ما قبل النفخة الأولىٰ يعني ما قبل الساعة من أشراطها التي قد جاءت في القرآن والسنة فاعلم أن أشراط القيامة تنقسم في أشراطها الصغرىٰ وأشراطها الكبرىٰ، فالصغرىٰ هي من مولد النبي صلى الله عليه وسلم إلى ظهور الإمام مهدى رحمه الله تعالىٰ والكبرىٰ هي من ظهور الإمام مهدى رحمه الله تعالىٰ إلى النفخة الأولىٰ، فنحن إن شاء الله تعالىٰ نذكر الصغرىٰ أوّلا ثم الكبرىٰ حتىٰ إن شاء الله العزيز نكمل هٰذا الباب كافيا وافيا.

الساعة أشراطها الصغرىٰ

١. فأوّل علامتها الصغرىٰ هي مولد النبي صلى الله عليه وسلم نفسه وبعثته ووفاته، وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم "بعثت أنا والساعة كهاتين وضم السبابة والوسطىٰ." (صحيح مسلم، ح: ٢٩٥١) وأيضًا أنهٗ خاتم النبيين وأمته خاتم الأمم.

---

(١) وأيضًا سيدنا آدم عليه السلام وهب داود عليه السلام أربعين سنة من عمره وفي الحقيقة الآجال واحدة، فالأجل عند الله تعالىٰ لسيدنا داود وآدم عليهما السلام هو ما كان عمرهما الذي لبثاه في الدنيا في الحقيقة بعد الوهب وكل شيء لأن كل شيء بعلم الله وإرادته وخلقه فوهب آدم عليه السلام ابنه داود عليه السلام أربعين سنة أيضًا بعلم الله وإرادته فالأجل لهما عليهما السلام هو مايكون أجلهما في الحقيقة بعد لبثهما في الدنيا وقت الرحلة منها.

٢. عقوق الوالدين وتفضيل الصديق على الأب وفي الحديث "سأخبرك عن أشراطها إذا ولدت الأمة ربها ." (صحيح البخاري، ح: ٥٠) وفي الحديث "وأطاع الرجل زوجته وعق أمّه وبرّ صديقه وجفاأباه" وهٰذهٖ قطعة من الحديث الذى رواه الترمذي عن على بن أبى طالب رضي اللّٰه تعالٰى عنه عن النبي صلى اللّٰه عليه وسلم (سنن الترمذي، ح: ٢٢١٠) وفيه "وإذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء ." (سنن الترمذي، ح: ٢٢١٠) ونحن ذكرنا بعضا منها في هٰذه النقطة، والحديث بكماله "إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء، :

٣. إذا كان المغنم دولا والأمانة مغنما ." (سنن الترمذي، ح: ٢٢١٠) يعنى يكون المال الفئ كما جاء فى الرواية الأخرىٰ دولا بين الأغنياء بدلا أن ينفق فيما أمر اللّٰه بهٖ ، والأمانة فتكون فيها الخيانة إلى الحد أن المؤتمن يعتبرها كالغنيمة.

٤. "والزكاة مغرما ." (سنن الترمذي، ح: ٢٢١٠) يعنى يعتبرون الزكاة كأنها المغرم والمغرم هو ما قضى على الرجل بسبب تقصير ما فيعنى بدلا أن يؤدون الزكوة ابتغاء وجه اللّٰه يعتبرونها كأنها المغرم ونعوذ باللّٰه.

٥. "وأطاع الرجل زوجته وعق أمه وبرّ صديقه وجفا أباه ." (سنن الترمذي، ح: ٢٢١٠) قد مرّت هٰذه القطعة من الحديث فى نقطة عقوق الوالدين وأيضًا يدل علىٰ طاعة الرجل زوجته وتفضيله إياها علىٰ أمّه .

٦. "وارتفعت الأصوات فى المساجد ." (سنن الترمذي، ح: ٢٢١٠) هٰذا لايحتاج إلى الشرح ويعنى إنهم يرفعون أصواتهم ويجعلون الضوضاء فى المساجد التى هي بيوت لذكر اللّٰه تعالٰى وفيه إشارة إلى تفريطهم فى تعظيم بيوت اللّٰه المساجد.

٧. "وكان زعيم القوم أرذلهم ." (سنن الترمذي، ح: ٢٢١٠) وفي الحديث الآخر "إذا كانت العراة والحفاة رؤوس الناس فذاك من أشراطها ." (صحيح مسلم، ح: ٩) وفى الحديث الآخر "إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة ." (صحيح البخاري، ح: ٥٩) وفي الحديث الآخر "لاتقوم الساعة حتىٰ تعلوالتحوت وتهلك الوعول ." (موارد الظمان، ح: ١٨٨٦) والغاية أن الرذيل والزبالة من الناس الذين ليس عندهم لياقة ولا أهلية يكونون فى مناصب الإمارة والحكومة والسيادة، فالذين هم أهلهالايختارون لها يهملون عنهم وهٰذا يشير إلى غاية الفساد والخرب فى منهج الناس وديانتهم يختارون الفساق الجهّال ويغافلون عن أهل التقوىٰ والدين.

٨. "وأكرم الرجل مخافة شره ." (سنن الترمذي، ح: ٢٢١٠) يعنى يكرمونه ليس لأنهٗ أهلا لهٗ، بل لأنهٗ ظالم وشرير فمخافة شره يكرمونهٗ وهٰذا يشير إلى غاية الجبن والضعف يكون عند الناس فبدلا أن يمسكوا يد الظالم من الظلم يخافونه ويكرمونه مخافة شره وهٰذا أيضًا يدل علىٰ فساد

دیانتهم فی غاية الفساد.

٩. "وشربت الخمور ولبس الحرير." (سنن الترمذي، ح: ٢٢١٠) وفى الحديث الآخر "وتشرب الخمر ويظهر الزنا." (صحيح البخاري، ح:٥٥٧٧) يعنى يكون الخمر كثيرا منتشرا وأيضًا يلبسون الرجال الحرير الذى لايجوز لهم.

١٠. "واتخذت القينات والمعازف." (سنن الترمذي، ح: ٢٢١٠) وفى رواية "وظهرت القينات والمعازف." (سنن الترمذي، ح: ٢٢١١) وفى رواية "ليشربن ناس من أمتى الخمر يسمونها بغير اسمها يضرب على رؤوسهم بالدفوف والمغنيات يخسف الله بهم الأرض ويجعل منهم القردة والخنازير." (سنن ابن ماجة، ح: ٤٠٢٠) وفى رواية "يضرب على رؤوسهم بالمعازف والمغنيات يخسف الله بهم الأرض." (مسند الشاميين، ح: ٢٠٦١) وفى رواية "ليكونن ناس من أمتى يستحلون الحر (هو الزنا) والحرير والخمر والمعازف، ولينزلن أقوام إلى جنب علم، يروح عليهم بسارحة لهم يأتيهم لحاجة فيقولون: ارجع إلينا غدا، فيبيّتهم الله، ويضع العلم، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة." (صحيح البخاري، ح: ٥٥٩٠) وفى الحديث "إن من أشراط الساعة أن يقل العلم ويظهر الجهل ويظهر الزنا." (سنن ابن ماجة، ح: ٤٠٤٥) وهذه كلها ما ذكرنا تشير إلى كون كثرة الزنا (ونعوذ بالله) والخمر واستخدام الحرير من الرجال بل استحلال هذه الأشياء، كلها من أشراط الساعة وأيضًا ظهور المعازف والقينات والمغنيات يعنى ظهور الموسيقى والاتها وكثرتها من أشراط الساعة يدل أيضًا أنها ليست بجائزة، وفى حرمة آلات الموسيقى والغناء أحاديث وآثار كثيرة وقد كتب فيه من العلماء كثيرا وفى الجملة الات الموسيقى غير جائزة إلا ضرب الدف بدون الخلاخل لإشهار النكاح أوفى الوليمة والعيد، وأما الغناء نفسه فالغناء المعتاد عند المشتهرين به الذى يحرّك النفوس ويبعثها على الهوى والغزل والمجون الذى يحرك الساكن ويبعث الكامن فهذا النوع إذا كان فى شعر يشبب فيه بذكر النساء ووصف محاسنهن وذكر الخمور والمحرّمات لايختلف فى تحريمه؛ لأنهٔ اللهو والغناء المذموم بالاتفاق، فأما ماسلم [1] من ذلك فيجوز القليل منه فى أوقات الفرح كالعرس والعيد وعند التنشيط على الأعمال الشاقة.

١١. "ولعن آخر هذه الأمة أوّلها." (سنن الترمذي، ح: ٢٢١٠) وهذه إشارة إلى أن الناس يلعنون أسلافهم المسلمين الذين كانوا أحسن منهم بأضعاف، بل لا مقارنة بينهم البتة وهذا يدل على غاية الفساد فى ديانة الناس وفى رواية أخرى فيها أيضًا "وتعلم لغير الدين." (سنن الترمذي، ح: ٢٢١١) وهذا والله أعلم معناه أن الناس يتعلمون علم الدين، لكن للدنيا ومتاعها بدل ابتغاء وجه

(١) أى لا يبعث النفوس على الهوى والغزل والأشياء هكذا.

اللّٰـه تـعالٰى وقد يكون معناه أن يتعلم العلم من الدين والدنيا ، لكن قصده ليس دينا وخدمته، بل الدنيا ومتاعه؛ لأنهٗ قد يكون علما مثلاً هندسة وهي ليس علم الدين مباشرة ، لكن قد يستعمل فى الخدمات التى تتعلـق بـالدين ثم الحديث يقول "فليرتقبوا عند ذٰلک ريحا حمراء، أوخسفا ومسخا ." (سنن الترمذي، ح: ٢٢١٠) وفى رواية أخرىٰ"ريحـا حـمـراء وزلزلة وخسفا ومسخا وقذفا وآيات تتابع كنظام بال قطع سلكه فتتابع ." (سنن الترمذي، ح: ٢٢١١) يعنى عند حصول هٰذه الأمور تكون هٰذه العقوبات (ونعوذ باللّٰه) من عند اللّٰه تعالٰى والعلماء يعدّون هٰذه كلها من العلامات الصغرىٰ للقيامة.

١٢ . ظهـور الـجهـل ورفـع العلم، وفى الحديث "إن من أشراط الساعة أن يقل العلم ويظهر الجهل ." (سـنـن ابن ماجة، ح: ٤٠٤٥) وفى رواية "يـرفـع الـعلم ويثبت الجهل ." (صـحيح مسلم، ح: ٢٦٧١) وفى رواية "إن اللّٰـه لاينزع العلم بعد أن أعطاكموه انتزاعا، و، لكن ينزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم فيبقى ناس جهال ." (صحيح البخاري، ح: ٧٣٠٧) وفى رواية "حتّٰى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا." (صحيح البخاري، ح: ١٠٠) .

١٣ . انتشـار الـكـذب ويعتبر كمالا وفى الحديث "سيكون فى آخر أمتى أناس يحدثونكم ما لم تسمعوا أنتم ولا أبائكم فاياكم وإياهم." (صحيح مسلم، ح: ٦) وفى الحديث عن حذيفة بن اليمان رضـي اللّٰـه تـعـالٰى عـنـه قـال: قـال رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم "من اقتراب الساعة اثنتان وسبعون خـصـلـة .....منهـا...... واسـتحـلـوا الـكـذب ..... يـكـون الـكـذب صـدقـا ." (حلية الأولياء: ج:٣،ص:٣٥٨)

١٤ . التـزام بـالدين يطلب تضحية عظيمة وفى الحديث "يأتى على الناس زمان الصابر فيهم علٰى دينه كالقابض على الجمر ." (سنن الترمذي، ح: ٢٢٦٠)

١٥ . ظهـور الثـلاثـون الكذابون وفى الحديث "سيكون فى أمتى كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنهٗ نبي وأنا خاتم النبيين لانبى بعدى ." (سنن ابن ماجة، ح: ٤٠٤٥) والـدعوى للنبوة بعد نبيّنا صلى اللّٰه عليه وسلم فى أي نوع وصورة كفر بواح وكذلک تصديقه.

١٦ . ظهـور الـخيانة وفى الحديث "سيأتى على الناس سنوات خدعات يصدق فيها الكاذب ويـكـذب فيهـا الـصادق،ويؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة الرجل التافه ينطق فى أمر العامة." (سنن ابن ماجة، ح: ٤٠٣٦)

١٧ . كثرة الـنـسـاء وقـلة الرجال وفى الحديث "إن من أشراط الساعة. . . . وتكثر النساء ويـقـل الرجال حتّٰى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد ." (صحيح البخاري، ح: ٨١) وهٰذا قد يكون فى العلامات الكبرىٰ واللّٰه أعلم وقلة الرجال كما قالوا العلماء تكون بسبب قتلهم فى الملاحم وتبقى

نساؤهم أرامل فيقبلن على الرجل الواحد فی قضاء حوائجهن ومصالح امورهن.

ثم هناک قد جاء ت الأشراط الكثيرة فی الأحاديث ونحن ذكرنا بعضا منها ومنها أيضًا كما جاء فی الحديث "إن بين يدی الساعة التسليم على الخاصة، وفشو التجارة، حتٰی تعيب المرأة زوجها على التجارة وقطع الأرحام وفشو القلم (يعنی ظهور وكثرة الكتاب) وظهور شهادة الزور وكتمان شهادة الحق ." (المستدرک، ح:۷۰۴۳) وفی رواية "حتٰی تعين المرأة بدل تعيب ." (التذكرة للقطبی: ص:۱۲۳۸) وفی الحديث "إن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوما نعالهم الشعر وإن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوما كان وجوههم المجان المطرقة وإن من أشراط الساعة أن تكثر التجارة ويظهر القلم ." (مسند أبی داود الطيالسی، ح:۱۲۶۷) وفی الحديث "لاتقوم الساعة حتٰی يكثر المال ويفيض وحتٰی يخرج الرجل زكاة ماله فلايجد احدا يقبلها منه، وحتٰی تعود أرض العرب مروجا وأنهارا ." (صحيح مسلم، ح:۱۵۷) . وغيرها من الأشراط الكثيرة فی الأحاديث وما ذكرنا من الأشراط قد يكون بعضها يتعلق بالعلامات الكبرٰی يعنی بعد ظهور الإمام مهدی رحمه اللّٰه تعالٰی.

العلامات الكبرٰی للساعة

١ . ظهور المهدی رحمه اللّٰه تعالٰی:.

وقد جاء ت أحاديث كثيرة فی ظهور المهدی رحمه اللّٰه تعالٰی التی جملتها تفيد الثبوت، والمهدی معناه الذی قد أعطی الهداية وعلٰی هٰذا كل مسلم ذو التقوىٰ والطاعات يمكنه أن يقال المهدی وقد جاء فی الحديث أن النبي صلى اللّٰه عليه وسلم دعا لأمير معاوية رضي اللّٰه تعالٰی عنه "اللّٰهم اجعله هاديا مهديا ." (صحيح البخاري، ح: ٢٠٣٠) وعلٰی هٰذا الحديث "ولا مهدی إلا عيسٰی ابن مريم ." (سنن ابن ماجة، ح: ۴۰۳۹) لو صحّ فمعناه بعد النبي صلى اللّٰه عليه وسلم المهدی الكامل المعصوم الذی يكون فی الدنيا هو عيسٰی بن مريم عليه السلام؛ لأنهٗ نبي رسول ، لكن عند نزوله قبل الساعة يتبع وينفذ شريعة محمد صلى اللّٰه عليه وسلم ونحن إن شاء اللّٰه سنذكر عنه عليه السلام قريباً والمهدی هنا فی هٰذا الباب هو رجل خاص الذی سيولد من أولاد سيدة فاطمة الزهراء رضي اللّٰه تعالٰی عنها، اسمه محمد، اسم والده عبداللّٰه يشابه النبي صلى اللّٰه عليه وسلم ، هو حسب ما قالوا العلماء سيولد فی المدينة المنورة. وفی الحديث "المهدی فی أجلی الجبهة أقنی الأنف تملأالأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما فيملک سبع سنين ." (سنن أبی داود، ح:۴۲۸۵) . "لو لم يبق من الدنيا إلايوم لطوّل اللّٰه ذٰلک اليوم حتٰی يبعث فيه رجلا من أمتی أومن أهل بيتی يواطئ اسمه اسمی واسم أبيه اسم أبی ." (سنن أبی داود، ح:۴۲۸۲) وفی رواية موقوفة عن علي

رضي اللّٰه تعالىٰ عنه "يشبه النبي صلى الله عليه وسلم فى الخُلق ولا يشبهه فى الخَلق." (سنن أبى داود، ح: ٤٢٩٠) يعنى المهدى تكون خلافته أوّلا فى العرب وثم فى سائر بلاد العالم" تملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وعلما" ويملك سبع سنين.

وظهوره كما ذكروا العلماء هو أن فى آخر الزمان يُغلب المسلمون فى الجهات الكثيرة وتكون الملاحم حتىٰ الشام يكون تحت النصارىٰ والكفار يظلمون ظلما كثيرا وجزيرة العرب حتىٰ هى لاتكون تحت المسلمين بالكامل، بل النصارى يبلغون إلى خيبر وما بقى من المسلمين هناك يذهبون إلى المدينة وفى الحديث "يوشك المسلمون أن يحاصروا إلى المدينة حتىٰ يكون أبعد مسالحهم سلاح." (سنن بى داود، ح: ٤٢٥٠) قال الزهرى: وسلاح قريب من خيبر ومعنى المسلحة كالثغر والمرقب. وحينئذ يكون الإمام المهدىّ رحمه اللّٰه تعالىٰ فى المدينة المنوّرة، فتحدث الداعيّة فى الناس أن يبحثوا عن الإمام المهدىّ يعنى تكون هٰذه الداعية من عند اللّٰه تعالىٰ فى الناس لطلبه حتىٰ يجعله إماما مبايعا، هٰكذا قالوا العلماء حتىٰ بعض الناس يدّعون كذبا وباطلا أنهم "المهدى"، لكن لا ينجحون والإمام يهرب إلى مكة يمكن فرارا من الإمارة والخلافة وهو يطوف بالبيت العتيق حتىٰ الناس يعرفونه بين الحجر الأسود والمقام فيحوطونه ويبايعونه فيسمعون النداء من السماء "هٰذا خليفة اللّٰه المهدى" هٰكذا قالوا العلماء واللّٰه أعلم، ثم إذا اشتهرت بيعته يجمع جنود المدينة المنورة فى المكة المكرمة ويأتى الجنود من الشام لقتاله، لكن إذا يكون بالبيداء بين مكة والمدينة يخسف بهم الأرض ويأتى أولياء اللّٰه من الشام والعراق واليمن ليبايعوه. وفى الحديث "يكون اختلاف عند موت خليفة، فيخرج رجل من أهل المدينة هاربا إلى مكة فيأتيه الناس من أهل مكة فيخرجونه وهو كاره فيبايعونه بين الركن والمقام ويبعث إليه بعث من الشام فيخسف بهم البيداء بين مكة والمدينة، فإذا رأى الناس ذٰلك أتاه أبدال [1] أهل الشام وعصائب [2] أهل العراق فيبايعونه ثم ينشر رجل من قريش أخواله كلب فيبعث إليهم بعثا فيظهرون عليهم وذٰلك بعث كلب، والخيبة لمن لم يشهد غنيمة كلب فيغنم المال ويعمل فى الناس بسنة نبيهم صلى اللّٰه عليه وسلم ويلقى الإسلام بجرانه إلى الأرض، فيلبث سبع سنين، ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون." (سنن أبى داود، ح: ٤٢٨٦) "سيعوذ بهٰذا البيت يعنى الكعبة قوم ليس لهم منعة ولا عدد ولاعدة يبعث إليهم جيش حتىٰ إذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بهم." (صحيح مسلم، ح: ٢٨٨٣)

---

(١) "أبدال" لايعنى قطعا وبتاتا ما يقولون أهل الشرك عنهم وينسبون إليهم من الأشياء توجب الشرك الأكبر، بل هم أهل الولاية والتقوىٰ واللّٰه عزوجل يجيب دعوتهم فيرحم الأمة ويفرّج عنها بسبب دعاءهم.

(٢) جمع العصابة يعنى جماعات أهل العراق من أهل التقوىٰ والطاعات.

ثم الإمام المهدىّ رحمه الله تعالىٰ يأتى إلى المدينة المنوّرة من مكة المكرّمة ويزور الروضة المباركة قبر النبي صلى الله عليه وسلم ثم يرتحل إلى الشام مع المسلمين فيكون القتال عند الدمشق ضد النصارىٰ الذى فيه يستشهد المسلمون كثيرا وفى الأخير يفتح المسلمون (والحمد لله رب العالمين) ثم يذهبون لفتح القسطنطنية ويفتحها ثم يرجعون إلى الشام وبعد لبث قليل يخرج الدجال. وفى الحديث "لاتقوم الساعة حتىٰ تنزل الروم بالأعماق أوبدابق. فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافوا قالت الروم: خلّوا بينا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم فيقول المسلمون لا والله لا نخلّى بينكم وبين إخواننا فيقاتلونهم، فينهزم ثلث لايتوب الله عليهم أبداء ويقتل ثلثهم ، أفضل الشهداء عند الله. ويفتح الثلث لايفتنون أبدا فيفتحون قسطنطنية فبينماهم يقتسمون الغنائم ، قد علّقوا سيوفهم بالزيتون إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح (يعنى المسيح الدجال) قد خلفكم فى أهليكم، فيخرجون وذٰلک باطل، ، فإذا جاء وا الشام خرج. فبينماهم يعدّون للقتال، يسوّون الصفوف إذا أقيمت الصلوٰة فينزل عيسىٰ ابن مريم (عليه السلام) فأمّهم، ، فإذا رآه عدوّالله ذاب كما يذوب الملح فى الماء فلو تركه لانذاب حتىٰ يهلک و لكن يقتله الله بيدهٖ فيريهم دمه فى حربته." (صحيح مسلم، ح:٢٨٩٧)

وخروج الدجال يكون بين الشام والعراق وهو يدور فى الأرض حتىٰ يأتى إلى الدمشق حيث المسلمون حينئذ يتجهزون لصلوة الصبح ، فإذا سيدنا عيسىٰ عليه السلام ينزل من السماء بين ملكين فبعد الصلوٰة يكوٰن القتال فيقتل سيدنا عيسىٰ عليه السلام الدجال ولايقبل من الناس إلا الإسلام، والإمام مهدى رحمه الله تعالىٰ يسلّم الأمر إلى سيدنا عيسىٰ عليه السلام ثم يموت الإمام مهدى رحمه الله تعالىٰ ويصلى عليه سيدنا عيسىٰ عليه السلام ويدفنه فى بيت المقدس.

٢. خروج الدجال:

ومن العلامات الكبرىٰ للساعة خروج الدجال، وقد جاء ت الأحاديث الكثيرة فى ذكر الدجال وكل نبي قد حذّر أمته عن فتنة الدجّال وثبوته ثابت بالأحاديث المتواترة وإجماع الأمّة ودجال معناه اللغوى الكذّاب الذى يخلط الحق بالباطل المموّه المكّار وفى هذا المعنى كل واحد عنده هٰذه الأوصاف يمكنه أن يقال دجّال وهنا فى هذا البيان الدجّال هو شخص معيّن يهودىّ يزعم أنهٗ الإلٰه (ونعوذ بالله) ومكتوب بين عينيه ک ف ر يعنى كافر ويكون الأعور ولبثه فى الأرض أربعون يوما أوّل اليوم منها يكون كمثل السنة فى الطول وثانيها كمثل الشهر وثالثها كمثل الأسبوع وباقى الأيام كمثل الأيام العادى ويُظهر الله تعالىٰ علىٰ يديه من الخوارق امتحانا للناس وهو يدور فى جميع

الأرض إلا مكة المكرّمة والمدينة المنوّرة وأيضًا كما فى بعض الروايات بيت المقدس وجبل الطور فإن الملائكة تطرده من هذه المواضع. وفتنة الدجال هي أكبر فتنة فى التاريخ الإنسانية وفى الحديث "اللّٰهم إني.... وأعوذبك من فتنة المسيح الدجّال." (صحيح البخاري، ح: ٨٣٢) وفى الحديث "الدجال مكتوب بين عينيه ك، ف،ر أي كافر." (صحيح مسلم، ح:٢٩٣٣) وعن النواس بن سمعان قال: "ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة.... إنهٗ شاب قطط، عينه طافئة. أنهٗ خارج بين الشام والعراق فعاث يمينا وعاث شمالا يا عبادالله فاثبتوا قلنا: يارسول الله! وما لبثه فى الأرض؟ قال: أربعون يوما يوم كسنة يوم كشهر يوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم..... فيأتى علىٰ قوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له... فيامر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرى، وأسبغه ضروعا وأمده خواصر، ثم يأتى القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم فيصبحون مَمحلين، ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجى كنوزك، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل. ثم يدعو رجلا ممتلئا شابا، فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك." (صحيح مسلم، ح:٢٩٣٧) وفى الحديث "أما مسيح الضلالة (الدجّال) فرجل أجلى الجبهة ممسوح العين اليسرىٰ عريض المنحرفيه اندفاء (انحناء)" (مصنف ابن أبى شيبة، ح: ٣٨٦١٣) وفى الحديث "معه جنة ونار فناره جنة وجنته نار." (صحيح مسلم، ح: ٢٩٣٤) "إن الدجال ليخرج من أرض بالمشرق يقال لها خراسان يتبعه أفواج كأن وجوههم المجان المطرقة." (سنن ابن ماجة، ح:٤٠٧٢) وفى الحديث "إنه لم يكن نبي إلا وقد أنذر أمته الدجال ألا وإنه أعور العين بالشمال وباليمين ظفرة غليظة." (المعجم الكبير: ح:٦٤٤٥) يعنى كلتان عينان لهٗ معيبتان. وفى الحديث "مكتوب بين عينيه كافر يقرأه كل مؤمن كاتب وغير كاتب." (سنن ابن ماجة، ح:٤٠٧٧) وفى الحديث "إن معهٗ نهرا من ماء ونهرا من نار، فأما الذين ترون أنهٗ نار، ماء، وأما الذى ترون أنهٗ ماء، نار. فمن أدرك ذٰلك منكم فأراد الماء فليشرب من الذى يراه أنهٗ نار، فإنهٗ يجده ماء." (صحيح مسلم، ح:٢٩٣٥) وأما تسميته بالمسيح ففيه أقوال: ومنها أنهٗ ممسوح العين اليسرى أو لسياحته فى الأرض وأما عيسىٰ بن مريم عليه السلام فتسميته بالمسيح فيها أقوال أيضًا ومنها؛ لأنهٗ لم يمسح ذاعاهة إلا برئ بإذن الله تعالىٰ أو لأن الله تعالىٰ مسح الذنوب عنه أولحسن وجهه إذ المسيح فى اللغة جميل الوجه.

وفى الحديث "ما بين خلق آدم إلىٰ قيام الساعة أمر أكبر من الدجال." (صحيح مسلم، ح: ٢٩٤٦) "إنه لم يكن فتنة فى الأرض منذ ذرأ الله تعالىٰ ذرية آدم (عليه السلام) أعظم من فتنة الدجال." (سنن ابن ماجة، ح:٤٠٧٧)

نحن ذكرنا سابقا عن الإمام المهدى رحمه الله تعالىٰ أنهٗ يفتح القسطنطنية مع المسلمين ثم يرجع إلى الشام ويقيم فى الدمشق وحينئذ يخرج الدجّال بين الشام والعراق [1] ويبدأ بدعوى النبوّة وعند ادعائه النبوّة لاتكون معهٗ الخوارق ونحن قد بيّنا هذهٖ كلها فى باب المعجزة والكرامات ولم يدعى الألوهيّة ويخلق الله تعالىٰ عنده من الخوارق بعد ادعائه الألوهية امتحانا للناس؛ لأن وجوده شاهد أنهٗ ليس الإله من سمات الحدوث الظاهرة عليه من الشكل والصورة والتمكن والأعراض ومع ذلك أنهٗ أعور فمن يعجز عن أن يزيل عيبه عن نفسه يعجز من باب الأولىٰ من الأمور الأخرى. وهو يدعى الألوهيّة ويعيث الفساد فى الأرض ويذهب إلى البلاد إلا مكة ومدينة وبيت المقدس ومسجد الطور ثم يذهب إلى اليمن ويتبعه كثير ثم يذهب إلى مكّة ، لكن لايستطيع أن يدخلها ؛ لأن الملائكة تحرسها ثم يذهب إلى المدينة المنوّرة ولايستطيع أن يدخلها؛ لأن الملائكة تحرسها، فينزل بالسبخة فترجف المدينة ثلاث رجفات يخرج إليه منها كل كافر ومنافق. ويخرج إليه رجل من أولياء الله تعالىٰ ويجادلهٗ فيقتله الدجال ثم يحييه (وهٰذا كلهٗ من عند الله تعالىٰ امتحانا للناس) فيقول له الرجل :إنى أشد بصيرة الأن منى فى قبل أنك أنت الدجّال، فيحاول الدجّال أن يقتلهٗ ثانيا ، لكن لايستطيع.

ثم الدجّال ينطلق إلى الشام فيبلغ قريب الدمشق الذى ثَمّ يكون الإمام مهدى رحمه الله تعالىٰ فينزل سيدنا عيسٰى عليه السلام من السماء ثم سيدنا عيسٰى عليه السلام مع المسلمين يواجه الدجّال وجنده راكبا على الفرس وفى يدهٖ عليه السلام حربة فيحملهٗ هو والمسلمون معهٗ على الدجّال وجنده فيكون قتالا شديدا وسيدنا عيسٰى عليه السلام يجعل الله لهٗ أن لايجد الكافر ريح نفسه عليه السلام إلا مات ونفسه ينتهى حيث ينتهى طرفه. فيفرّ الدجّال عند ما يرى سيدنا عيسٰى عليه السلام فيطلبه سيدنا عيسٰى عليه السلام حتىٰ يدركه بباب لد فيقتله. وفى الحديث "إنه لم تكن فتنة فى الأرض، منذ ذرأ الله ذريّة آدم أعظم من فتنة الدجال وإن الله لم يبعث نبيّا إلا حذّر أمته الدجّال، وأنا آخر الأنبياء وأنتم آخر الأمم وهو خارج فيكم لامحالة وإن يخرج وأنا بين ظهرانيكم، فأنا حجيج لكل مسلم وإن يخرج من بعدى فكل امرئ حجيج نفسه، والله خليفتى علىٰ كل مسلم وإنه يخرج من خلّة بين الشام والعراق فيعيث يمينا ويعيث شمالا، يا عباد الله فاثبتوا، فانى ساصفه لكم صفة لم يصفها إيّاه نبىّ قبلى، إنه يبدأ فيقول:" أنا نبىّ."ولا نبىّ بعدى، ثم يثنى فيقول: "أنا ربّكم" ولاترون ربّكم حتىٰ تموتوا. وإنه أعور وإن ربّكم ليس بأعور [2] وإنه مكتوب بين عينيه كافر يقرأه كل مؤمن كاتب أو غير كاتب ."

(سنن ابن ماجة، ح:٤٠٧٧)

---

(١) ويذهب إلى أصبهان فيتبعه سبعون ألفا يهوديا منه.

(٢) يعنى الله عزوجل القدوس السلام منتزه عن العيوب والأفات والأعضاء والجوارح فلايكون العور صفة لهٗ (ونعوذ بالله).

وفى الحديث "يتبع الدجّال من يهود اصبهان سبعون ألفا عليهم الطيالسة." (صحيح مسلم، ح: ٢٩٤٤) وفى الحديث "ليس من بلد إلا سيطوى الدجّال إلا مكة والمدينة وليس نقب من أنقابها إلا عليه الملائكة صافين تحرسها فينزل بالسبخة فترجف المدينة ثلاث رجفات يخرج إليه منها كل كافر ومنافق." (صحيح مسلم، ح: ٢٩٤٣). وفى بعض الروايات : فلايبقى لهٗ موضع إلا ويأخذه غير مكّة والمدينة وبيت المقدس وجبل الطور فإن الملائكة تطرده عن هذه المواضع. وفى الحديث "....فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس أو من خيار الناس فيقول لهٗ أشهد أنك الدجّال الذى حدثنا رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم حديثه فيقول الدجّال. أرأيتم إن قتلت هٰذا ثم أحييته هل تشكون فى الأمر فيقولون: لا، فيقتلهٗ ثم يحييه فيقول حين يحييه، "واللّٰه ماكنت فيك قط أشد بصيرة منى اليوم." قال: فيريد الدجّال أن يقتلهٗ فلايسلط عليه." (صحيح مسلم، ح:٢٩٣٨) وفى الحديث"... فبينما هو كذٰلك إذ بعث اللّٰه المسيح ابن مريم عليه السلام. فينزل عند المنارة البيضاء شرقىّ دمشق، بين مهرودتين، واضعا كفّيه علىٰ أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدّر منه جمان كاللؤلؤ، فلايحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ونفسه ينتهى حيث ينتهى طرفه، فيطلبه حتىٰ يدركه بباب لد فيقلته." (صحيح مسلم، ح:٢٩٣٧)

٣. نزول عيسىٰ بن مريم عليه السلام:

ومن العلامات الكبرىٰ للساعة نزول عيسىٰ بن مريم عليه السلام من السماء وقتله الدجّال، ونزولهٗ ثابت من القرآن والسنة المتواترة وإجماع الأمة فإيمان به واجب ولايكون مسلما إلا بالإيمان بنزوله عليه السلام من السماء. وفى القرآن ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّٰهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللّٰهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللّٰهُ عَزِيزًا حَكِيمًا وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾(النساء:١٥٧-١٥٩)أي إن اليهود معاذ اللّٰه يفتخرون أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم عليه السلام الذى كان يقول إنهٗ رسول اللّٰه. لا!، بل هم كذّابون فى قولهم وفى الحقيقة هم لم يقتلوه ولم يصلبوه، بل ألقى على المقتول شبه عيسىٰ فظنّوه إياه وأما عيسىٰ بن مريم عليه السلام نفسه فرفعه اللّٰه حيّا إلى السماء فهو فى السماء الأن وثم ينزل قبل الساعة ويكون بمنزلة من أمة محمد صلى اللّٰه عليه وسلم؛ لأن بعد نبيّنا محمد صلى اللّٰه عليه وسلم لاشريعة ولا اتباع إلا لهٗ حيث قال نبيّنا محمد صلى اللّٰه عليه وسلم نفسه "لو كان موسىٰ حيا لما وسعه إلا اتباعى." (مسند أحمد، ح: ١٣٦٣١). فعيسى بن مريم عليه السلام ينزل من السماء ويتبع ويحكم

بشريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وحينئذ لايبقىٰ من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسىٰ بن مريم عليه السلام قبل موت عيسىٰ بن مريم عليه السلام وذٰلک إذا ينزل من السماء ويقتل مسيح الضلالة الدجّال وأتباعه من اليهود ويضع الجزية ولايقبل من الناس إلا الإسلام أو السيف فلايبقى حينئذ من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى بن مريم؛ لأنهٗ لايقبل إلا الإسلام أو السيف علىٰ عنقه فلا يبقىٰ منهم حيًا إلا أن يكون قد أسلم والإسلام يتضمن إيمانا بعيسىٰ بن مريم عليه السلام وهم كلهم يتبعون شريعة نبيّنا صلى الله عليه وسلم ويكونون من أمته وفى الحديث عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنهٗ قال "لينزلن ابن مريم حكما عدلا فليقتلن الدجّال وليقتلن الخنزير وليكسرن الصليب وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين." (مسند البزار، ح: ٩٠٣٠) ثم قال أبوهريرة رضي الله عنه واقرؤوا إن شئتم ﴿وَإِنْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ (النساء: ١٥٩) قال أبوهريرة رضي الله تعالىٰ عنه : قبل موت [1] عيسىٰ (عليه السلام) يعيدها ثلاث مرات ."

وبيان نزوله عليه الصلوٰة والسلام هو لما يكون الإمام المهدى رحمه الله تعالىٰ فى الدمشق بعد فتح القسطنطنية والدجّال أيضًا بعد فشله وخسرانه فى الدخول فى مكة والمدينة المنوّرة يتوجه إلى الشام فيبلغ الدمشق وصار القتال بين الإمام المهدى رحمه الله تعالىٰ ومن معهٗ من المسلمين وبين اليهود وحتىٰ فى يوم ما عند وقت الصلوٰة للصبح والناس جاهزون للصلوٰة ، فإذا سيدنا عيسىٰ عليه السلام ينزل من السماء بين ملكين فيقيم العدل ويكسر الصليب فيبطل ما يعتقدون النصارىٰ عنه ويقتل الخنزير ويضع الجزية ووضعه الجزية ليس من عند نفسه، بل هٰكذا فى شريعة نبينا صلى الله عليه وسلم أن قبول الجزية هو إلى نزول عيسىٰ عليه السلام وبعدهٗ لاجزية، الإسلام أو السيف فقط فوضعه الجزية في الحقيقة إنفاذ شريعة نبيّنا صلى الله عليه وسلم .ويقتل الدجّال ومن معهٗ من اليهود فلايبقى فى العالم إلا الإسلام وحده. ﴿هُوَ الَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُوْلَهٗ بِالْهُدٰى وَدِيْنِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهٗ عَلَى الدِّيْنِ كُلِّهٖ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُوْنَ﴾ (الصف: ٩) والإمام المهدى رحمه الله تعالىٰ يسلّم الأمر إليه عليه السلام؛ لأنهٗ نبيّ الله ورسوله؛ لأن النبيّ نبي دائما ولو هو ينزل تابعا لنبينا صلى الله عليه وسلم وحاكما حسب شريعتهٖ صلى الله عليه وسلم . والإمام المهدى رحمه الله تعالىٰ فى خلال هٰذه الأيام يتوفى فيصلى عليه سيدنا عيسىٰ عليه السلام ويُدفن فى بيت المقدس.

وفى الحديث "فبينما هو كذٰلک بعث الله المسيح بن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء

(١) وهٰذا علىٰ تفسير من التفاسير والتفسير الآخر هو أن ليس أحدا من أهل الكتاب إلا يؤمن بعيسى ابن مريم عليه السلام قبل موته (أى موت هٰذا من أهل الكتاب) وهٰذا فى حالة النزع عندما عاين الملٰئكة والإيمان فى هٰذه الحالة على عيسىٰ عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم لا ينفعه؛ لأنهٗ حالة مفارقة الدنيا.

شرقى دمشق بين مهرودتين، واضعا كفيه على اجنحة ملكين إذا طاطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ فلايحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهى حيث ينتهى طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله ." (صحيح مسلم، ح:٢٩٣٧) "فيفرّ الناس إلى جبل الدخان وهو بالشام، فيأتيهم (الدجّال) فيحاصرهم فيشتد حصارهم ويجهدهم جهدا شديدا، ثم ينزل عيسٰى (عليه السلام) فيأتى فى السحر فيقول: يأيها الناس ما يمنعكم أن تخرجوا إلى الكذاب الخبيث فيقولون هذا رجل فينطلقون ، فإذا هم بعيسٰى بن مريم عليهما السلام فيقام للصلاة فيقال له: تقدم ياروح الله [1] فيقول "ليتقدم إمامكم فليصل بكم"، فإذا صلوا صلاة الصبح خرجوا إليه فحين يراه الكذاب فينماث كما ينماث الملح فى الماء فيقتلهُ حتٰى إن الحجر والشجر ينادى "ياروح الله هذا يهودى" فلايترك ممن كان يتبعه احدا إلا قتله ." (مسند أحمد، ح:١٤٩٥٣) "كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم فأمكم منكم ." وقال أحد الرواة ابن أبى ذئب، تدرى ما أمّكم منكم؟ ثم أجاب نفسه: فأمّكم بكتاب ربكم عزوجل وسنة نبيكم صلى الله تعالٰى عليه وسلم.(صحيح مسلم، ح:١٥٥) "الأنبياء إخوة علات أمهاتهم شتى ودينهم [2] واحد، وإنى أولى الناس بعيسى ابن مريم،؛ لأنهُ لم يكن نبي بينى وبينه، وإنه نازل ، فإذا رأيتموه فاعرفوه، رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، عليه ثوبان ممصران كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل، فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويدعو الناس إلى الإسلام، ويهلك الله فى زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك الله فى زمانه المسيح الدجّال ." (مسند أحمد ، ح:٩٦٣٢) وفى رواية "يقاتل الناس على الإسلام." (صحيح ابن حبان ، ح:٦٨٢٠) "، فإذا جاؤوا (المسلمون) الشام خرج (الدجّال) فبيناهم يعدون للقتال يسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة فينزل عيسى ابن مريم فيؤمهم، ، فإذا رآهُ عدو الله ذاب كما يذوب الملح فى الماء فلو تركه لذاب حتٰى يهلك و، لٰكن يقتله الله بيده، فيريهم دمه فى حربته ." (المستدرك للحاكم، ح:٨٤٨٦) . "فبينما إمامهم قد تقدّم يصلى بهم الصبح إذ نزل عيسٰى ابن مريم عليه السلام فرجع ذٰلك الإمام يمشى القهقرى ليتقدم عيسٰى عليه السلام فيضع عيسٰى يده بين كتفيه ثم يقول: تقدم فصل، فإنها لك أقيمت، فيصلى بهم إمامهم ، فإذا انصرف قال عيسٰى: افتحوا الباب فيفتح، ووراء ه الدجال معهُ سبعون ألف يهودى كلهم ذوسيف محلى وتاج، ، فإذا نظر إليه الدجّال ذاب كما يذوب الملح فى

---

(١) يعنى الروح الذى خلقه الله لهُ وأعطاه كما يقال بيت الله، فنسبة الروح إلى الله من حيث الخلق والملك وفيه إعزاز وتشريف لسيدنا عيسٰى عليه السلام كما فى بيت الله إعزاز وتشريف للكعبة وإن كان جميع الأرواح والبيوت لله تعالٰى فى الحقيقة.

(٢) يعنى الأصول واحدة

الماء وينطلق هاربا، فيقول عيسى: إن لي فيك ضربة لم تسبقني بها، فيدركه عند باب لد الشرقي فيقتله، ويهزم الله اليهود فلايبقى شيء مما خلق الله تعالى يتوارى به يهودي إلا أنطق الله ذلك الشيء لاحجر ولاشجر ولاحائط ولا دابّة، إلاالغرقدة فإنها من شجرهم لاتنطق إلا قال: يا عبدالله المسلم، هذا يهوديّ فتعال اقتله." (سنن ابن ماجة، ح:٤٠٧٧)

أكثر الروايات فيها أن الإمام وهو المهدي يصلي بهم الصبح وفي رواية أن عيسى عليه السلام يؤمهم فممكن أنهم يصلون مرّتين أوّلا وراء الإمام المهدي رحمه الله تعالى لأن الصلوٰة قد أقيمت له و الإمام يسلّم الأمر إلى سيدنا عيسى عليه السلام لأنهٗ النبي الرسول وكما في الحديث ينزل حكما عدلا فيكون سلطان المسلمين فهو يصلي بهم نفس الصلاة مرّة أخرى وثم بعد ذلك هو يكون إمام لهم والصلوٰة تجمع له كما في الحديث "ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الخنزير، ويمحو الصليب، وتجمع له الصلاة"، (مسند أحمد، ح:٧٩٠٣) وبعد قتل الدجّال الحديث يقول: "ثم يأتي عيسى (عليه السلام) قوما قد عصمهم الله منه، فيمسح على وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة." (صحيح مسلم، ح:٢٩٣٧) وفي رواية "ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم." (مسند أحمد، ح:٣٥٥٦)

(٣) خروج يأجوج ومأجوج:

ومن العلامات الكبرى للساعة خروج يأجوج ومأجوج وهما قبيلتان من أولاد يافث بن نوح وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ولد لنوح[1] سام وحام ويافث فولد سام العرب وفارس والروم والخير فيهم وولد يافث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة ولاخير فيهم وولد حام القبط والبربر والسودان." (مسند البزار، ح:٨٤٢٠) وهذا الحديث والله أعلم عن صحته، لكن كون يأجوج ومأجوج من نسل يافث بن نوح مقبول عند أكثر العلماء. وذكرهم موجود في القرآن والحديث وكذلك خروجهم، فلهذا إنكارهذه الأشياء توجب الكفر. وقد أغلق ذو القرنين طريقهم الذي كان بين الجبلين وبنى بينهما سدّا شديدا قويا. وقد جاءت الأقوال في مسكنهم وفي الحقيقة والله أعلم عن مسكنهم وأين هم في الأرض. وقد جاء في بعض الروايات "لايموت رجل منهم حتي يولد لصلبه ألف رجل." (المعجم الكبير، ح:١٢٠٣٤) يعني يأجوج ومأجوج. وبعض العلماء يقولون أنهم وراء المحيط المنجمد في الشمال مسدود بالسد الذي بناه ذوالقرنين. و في الأخير والله أعلم عن مكانهم وقد جاءت الآثار الكثيرة في كثرتهم، بل الأحاديث المرفوعة الصحيحة تشير إلى كثرتهم. وأما ذكرهم في القرآن، ففي سورة الكهف:

---

(١) لايعني أنهٗ لم يكن لهٗ ولد غيرهم

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا [1] حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ (الكهف:٩٢-٩٩) وفى سورة الأنبياء ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ (الأنبياء:٩٦-٩٧) فيعنى ذوالقرنين سدّهم وراء السدّ وهم حينئذ لم يستطيعوا أن يصعدوه ولم يستطيعوا أن ينقبوه ثم بعد مرور الزمان قبل يوم القيامة سيهدم الله هذا السدّ وهم يعنى يأجوج ومأجوج يخرجون على الناس ويفسدون فى الأرض ويموجون فى الناس وهذا الزمان هو الزمان الذى فيه قد اقترب الوعد الحق يعنى يوم القيامة والذى يبدأ بالنفخة الأولى فى الصور.

وفى الحديث: "إن يأجوج ومأجوج يحفران كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم "ارجعوا فستحفرونه غدا "فيعيده الله أشدّ ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله تعالى أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال: ارجعوا فستحفرونه غدا إن شاء الله [2] تعالى فاستثنوا فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشفون الماء ويتحصن الناس منهم فى حصونهم فيرمون بسهامهم إلى السماء فيرجع عليها الدم. (يعنى الله سبحانه وتعالى يفعل كذلك معهم فتنة لهم) فيقولون قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء فيبعث الله تعالى عليهم نغفا في أقفاء هم فيقتلهم بها." قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده إن دواب الأرض لتسمن وتشكر [3] شكرا من لحومهم." (سنن ابن ماجة، ح: ٤٠٨٠) وهذا الحديث مع أن إسناده صحيح، لكن يمكن أنهُ من الاسرائيليات تلقى من كعب الأحبار وتوهم بعض الرواة ورواه مرفوعا؛ لأنهُ قد جاء فى الحديث رواه البخاري ومسلم "استيقظ النبي صلى الله عليه وسلم من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول: لاإله إلا الله ويل للعربُ من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا وحلّق قيل: يارسول الله! أنهلك وفينا

---

(١) يعنى ذو القرنين.

(٢) لايعنى أنهُ مسلم؛ لأنهُ قد يكون كافرا آمنا بالله وأيضًا قد يجرى الله هذا على لسانه.

(٣) شكرت الناقة: امتلألبنا.

الصالحون؟ قال نعم: إذا كثر الخبث." (صحيح مسلم، ح: ٢٨٨٠) وفي هذا الحديث أنهٗ قد حصل ثقبا يسيرا في الردم فظاهر هذا يخالف الحديث السابق الذي فيه أنهم يكادون أن يبلغوا إلى حد النقب فيرجعون والردم يعود إلى أشد ما كان بإذن الله تعالىٰ وأيضًا لو أخذنا قوله تعالىٰ ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ (الكهف:٩٧) على الاستمرار [1] فعلىٰ هذا هم لايستطيعون أن ينقبون فيه أبدا، بل الله من عنده يهدمه متىٰ شاء فيخرجون على الناس. والله أعلم في الأخير نحن الآن إن شاء الله تعالىٰ نذكر بيان خروجه ولله الحمد.

بعد قتل الدجال ووفاة الإمام المهدي رحمه الله تعالىٰ ،الله عزوجل يوحي إلى سيدنا عيسىٰ عليه السلام أنهٗ يخرج القوم [2] لاقبل لهم بهٖ فاذهب بعبادي إلى الطور. وهذا السدّ يدك ويسقط فيخرج يأجوج ومأجوج ويفسدون في الأرض ويدعو سيدنا عيسىٰ عليه السلام الله عليهم حتىٰ أماتهم الله عزوجل ثم يظهر البركات من عند الله تعالىٰ ويكون عيشاً يسيرا ويصلح سيدنا عيسىٰ عليه السلام أحوال المسلمين ولايكون الكفار حينئذ ويتزوج سيدنا عيسىٰ عليه السلام ويكون لهٗ من الأولاد ثم يتوفى ويدفن في روضة النبي صلى الله عليه وسلم وفي الحديث "ثم يرجع الناس (يعني بعد قتل الدجال وجنده) إلى بلادهم وأوطانهم، فعند ذٰلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون. فيطئون بلادهم فلايأتون علىٰ شيء إلا أهلكوه، ولايمرون علىٰ ماء إلا شربوه، قال: ثم يرجع الناس يشكونهم، فأدعو الله [3] عليهم فيهلكهم ويميتهم حتىٰ تجوى الأرض من نتن ريحهم، وينزل المطر فيجترف أجسادهم حتىٰ يقذفهم في البحر، ففيها عهد إلى ربيّ عزوجل أن ذٰلك إذا كان كذٰلك، أن الساعة كالحامل المتم، لايدري أهلها متى تفاجئهم بولادها ليلا أو نهارا." (مسند أحمد، ح:٣٥٥٧) وفي الحديث "فبينما هو كذٰلك إذا أوحى الله عزوجل إلى عيسىٰ: إني قد أخرجت عبادا لي لايدان لأحد بقتالهم، فحرز عبادي إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون. فيمرّ أولهم علىٰ بحيرة طبريا فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون لقد كان بهٰذهٖ مرّة ماء، ويحصر نبي الله عيسىٰ وأصحابهٗ حتىٰ يكون رأس الثور لأحدهم خير من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسىٰ وأصحابه، فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم فيصبحون فرسىٰ كموت نفس واحدة ثم يهبط نبي الله عيسىٰ وأصحابهٗ إلى الأرض، فلايجدون في الأرض

---

(١) بدلا عن الماضي فقط.

(٢) يأجوج ومأجوج

(٣) القائل: عيسىٰ عليه السلام نفسه وهذا الحديث عند ما لقيه النبي صلى الله عليه وسلم وبعض الأنبياء الآخرين في ليلة أسري به.

موضع شبر إلا ملأ زهمهم ونتنهم فيرغب نبي الله عيسٰى وأصحابهُ إلى الله، فيرسل الله طيرا كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطرا لايكن منه بيت مدر ولا وبر، فيغسل الأرض حتٰى يتركها كالزلفة ثم يقال للأرض، أخرجي ثمرك وردي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها، ويبارك الله في الرسل حتٰى إن اللقحة من الابل لتكفى الفئام من الناس، فبينماهم كذٰلك إذ بعث الله ريحا طيبة فتأخذهم تحت اباطهم، فيقبض الله روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة." (صحيح مسلم، ح:٢٩٣٧) وفي الحديث "تفتح ياجوج ومأجوج فيخرجون على الناس، كما قال الله عزوجل، ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ (الأنبياء:٩٦) فيغشون الناس وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواشيهم ويشربون مياه الأرض حتٰى إن بعضهم ليمر بالنهر فيشربون ما فيه حتٰى يتركوه يابسا، حتٰى أن من بعدهم ليمر بذٰلك النهر فيقول: قد كان ههنا ماء مرة، حتٰى إذا لم يبق من الناس أحد إلا أحد في حصن أو مدينة، قال قائلهم: هٰؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم بقى أهل السماء قال: ثم يهز أحدهم حربته، ثم يرمى بها إلى السماء فترجع إليه مخضبة دما للبلاء والفتنة (يعنى من عند الله تعالٰى) فبينماهم علٰى ذٰلك بعث الله عزوجل دودا في أعناقهم كنغف الجراد الذى يخرج في أعناقه فيصبحون موتى لايسمع لهم حس، فيقول المسلمون ألا رجل يشرى لنا نفسه فينظر ما فعل هٰذا العدو؟ قال: فينحدر رجل منهم محتسبا نفسه قد أوطنها علٰى أنهُ مقبول، فينزل فيجدهم موتى بعضهم علٰى بعض فينادى يامعشر المسلمين: ألا أبشروا إن الله عزوجل قد كفاكم عدوكم، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم، ويسرحون مواشيهم، فما يكون لهم رعى إلا لحومهم، فتشكر عنهم كأحسن ما شكرت عن شيء من النبات أصابته قط." (المستدرك للحاكم، ح:٨٥٠٤) ونحن ذكرنا هٰذه الأحاديث التى تبيّن بالتفصيل خروج يأجوج ومأجوج وما بعدهُ من الوقائع ولايُفهم من الحديث "فبينماهم كذلك إذ بعث الله ريحا طيّبة فتأخذهم تحت اباطهم، فيقبض الله روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة." (صحيح مسلم، ح:٢٩٣٧) وفي رواية "فيبعث الله تعالٰى عيسٰى ابن مريم كأنهُ عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه (أي الدجال)، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام فلا يبقى علٰى وجه الأرض أحد فى قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان. إلا قبضته." (صحيح مسلم، ح:٢٩٤٠) فلايفهم من هٰذا أن الريح الطيّبة تكون في حياة عيسٰى عليه السلام وتأخذه والمسلمين، لا، بل هناك فجوة بين وفاة عيسٰى عليه السلام والريح الطيّبة، والحديث علٰى ظاهر يشير إلى كون الريح معا أو مباشرة بعد عيسٰى عليه السلام، لكن ليس كذٰلك، بل الحديث يخبر

ملخصا مختصرا عن الوقائع فى ذلک الوقت فيترک هذه الفجوة اليسيرة بين وفاة عيسٰى عليه السلام والريح الطيّبة وينقل إلى بيان الريح الطيبة وأخذها جميع المسلمين ، لكن بالغور والإمعان فى الحديث تنكشف الحقائق وبيانها أن الحديث نفسه والأحاديث الأخرى تتكلم عن كون جميع العالم مسلما وهلاک جميع الأديان إلا الإسلام فى زمان عيسٰى عليه السلام "لم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة ." (صحيح مسلم، ح:٢٩٤٠) وفى رواية "وتكون الكلمة الواحدة فلايعبد إلا اللّٰه وتضع الحرب أوزارها ." (سنن ابن ماجة، ح:٤٠٧٧) وثم الحديث يتكلم عن الريح الطيّبة وأخذها جميع المسلمين فلايبقى إلا شرار الناس ويتهارجون تهارج الحمر. فمن أين أتوا هٰؤلاء والناس كلهم كانوا مسلمين؟

فالجواب بتوفيق اللّٰه تعالٰى أنهٗ هناک زمان يسير الذى لم يصرح عليه فى الحديث وهٰذا الزمان هو بين وفاة عيسٰى عليه السلام والريح الطيّبة. وأيضًا هناک العلامات الكبرٰى الأخرٰى للساعة التى نحن سنذكر قريباً إن شاء اللّٰه من دابة الأرض وطلوع الشمس من المغرب وهٰذه العلامات تكون لمّا هناک المسلمون والكفار فى العالم ، وهٰذه العلامات تكون بعد وفاة عيسٰى عليه السلام كما هو ظاهر وإن شاء اللّٰه العزيز بعد بيانها يبيّن كونها بعد وفاة عيسٰى عليه السلام. فالأمر هو أن سيدنا عيسٰى عليه السلام يتوفىٰ ويصلى عليه المسلمون وثم بمرور الزمان تقلّ الخير والحسنات ويزيد الشر والسيّاٰت. وفى الحديث "ينزل عيسٰى ابن مريم إلى الأرض فيتزوج ويولد لهٗ ويمكث خمسا وأربعين ثم يموت فيدفن معى فى قبرى [1] فأقوم أنا وعيسى ابن مريم فى قبر واحد، بين أبى بكر وعمر" ، "والذى نفسى بيدهٖ ليهلن ابن مريم بفجّ الروحا حاجا أو معتمرا أو ليثنينهما ." (صحيح مسلم، ح:١٢٥٢) "ليس بينى وبينه يعنى عيسٰى عليه السلام. نبىّ، وإنه نازل ، فإذا رأيتموه فاعرفوه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض بين ممصرتين كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل، فيقاتل الناس على الإسلام فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويهلک اللّٰه فى زمانه الملل كلها إلا الإسلام ويهلک المسيح الدجال فيمكث فى الأرض أربعين سنة ثم يتوفى فيصلى عليه المسلمون ." (سنن ابن ماجة، ح:٤٣٢٤)

وقال كعب الأحبار "إن عيسٰى عليه السلام يمكث فى الأرض أربعين سنة ويكثر الخير علٰى يديه، وتنزل البركات فى الأرزاق حتٰى إن العنبة ليأكل منها الرجل حاجته ويفضل. والقطف من العنب يأكل منه الجمع الغفير والخلق الكثير، حتٰى إن الرمانة لتقل الجمل وحتٰى إن الحى لعبر بالميّت فيقول: قم فانظر ما أنزله اللّٰه من البركة (يعنى هو يشتهى أن يكون الميّت حيا فيرى هذه البركات)

---

(١) يعنى فى جانب النبى صلى اللّٰه عليه وسلم فى الحجرة

وأن عيسى عليه السلام يتزوج بامرأة من آل فلان ويرزق منها ولدين فيسمي أحدهما محمد والآخر موسى ويكون الناس معهُ على خير وفي خير زمان وذلك أربعين سنة، ثم يقبض الله روح عيسى ويذوق الموت ويدفن إلى جانب النبي صلى الله عليه وسلم في الحجرة ويموت خيار الأمة ويبقى شرارها في قلّة من المؤمنين فذلك قولهُ صلى الله عليه وسلم "بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ." (صحيح مسلم، ح:١٤٥) [1]

فهذا هو أنهُ يمكث أربعين سنة أو خمسا وأربعين سنة ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون وثم في مرور الوقت يموت خيار الأمة ويقل الخير ويزيد الشر ونحن نذكر عن الوقائع بعد سيدنا عيسى عليه السلام قريبا إن شاء الله العزيز، وأما الحديث "ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة." (صحيح مسلم، ح: ٢٩٤٠) فهو ليس مدة لبث عيسى عليه السلام في الأرض بعد نزوله بل المدة التي بعد هلاك الدجال التي فيها الناس لايكون بينهم عداوة .

(٥) الدخان:

ومن العلامات الكبرىٰ للساعة "الدخان" وفي الحديث "إن الساعة لاتكون حتىٰ تروا عشر آيات خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب، والدخان ، والدجّال، ودابة الأرض ويأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من مغربها، ونار تخرج من قعر عدن ترحل الناس." وقال بعض الرواة في العاشرة: ونزول عيسى بن مريم، وقال بعضهم: وريح تلقى الناس في البحر." (صحيح مسلم، ح:٢٩٠١) والحديث "إن من أشراط الساعة دخانا يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث في الأرض أربعين يوما. فأما المؤمن فيصيبه منه شبه الزكام. وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران يخرج الدخان من فيه ومنخريه وعينيه وأذنيه ودبره." (التذكرة:ص:٧٣٨) وهذا سنده ضعيف، بل يمكن أن يكون سنده موضوعا ، لكن المتن مدعّم من النصوص الأخرى. والحديث "إن ربكم أنذركم ثلاثا الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة، ويأخذ الكافر فينتفخ حتىٰ يخرج من كل مسمع منه، والثانية الدابة والثالثة الدجال." (تفسير الطبري: ج:٢٢،ص:١٨) إسناد جيد. والآثار فمنها عن ابن عمر رضي اللّٰه تعالىٰ عنه "يخرج الدخان فيأخذ المؤمن كهيئة الزكام، ويدخل مسامع الكافر والمنافق حتىٰ يكون كالرأس الحنيذ أي المشوى على الرضف" (تفسير ابن كثير: ج:٧،٢٢٩) وعن أبي سعيد الخدري رضي اللّٰه تعالىٰ عنه "يهيج الدخان بالناس، فأما المؤمن فيأخذه الزكمة، وأما الكافر فينفخه حتىٰ يخرج من كل مسمع منه." (تفسير ابن كثير: ج:٧، ٢٢٩) وقد جاء هذا الأثر مرفوعا أيضا . وأما الآية ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ (الدخان:١٠) وقد فسّرها بعض

(١) الحديث في صحيح مسلم هو من "بدأ الإسلام غريبا...."

الصحابة والتابعين رضي الله عنهم بهذا الدخان الذى هو من أشراط الساعة ، لكن قد فسّرها ابن مسعود رضي الله تعالى عنه بالدخان الآخر الذى أصاب قريشاإذا استعصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا عليهم بسنين كسني يوسف [1] فاصاب قريشا قحط وجهد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد. فأنزل الله تعالى ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الدخان: ١٠-١١) قال فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل: يارسول الله، استسق الله لمضر (قبيلة) فإنها قد هلكت. قال: "لمضر إنك لجرىء"، فاستسقى فسقوا فنزلت ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ (الدخان: ١٥) فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية، فأنزل الله عزوجل ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ (الدخان: ١٦) قال: يعنى يوم بدر.

وتفسير الآية بتفسير ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أقوى؛ لأن أوّلا يقول الله عزوجل ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ (الدخان: ٨-١٠) ففيها أن الله لا إله إلا هو ، لكن هم يعنى مشركين مكة وهم قريش فى شك يلعبون فأيها الرسول ارتقب يوما تأتى السماء بدخان مبين يغشى الناس ويكون هذا عذابا أليما. ولو نأخذ هذا الدخان فى الآية الدخان الذى هو علامة الساعة فهناك دهرا طويلا بينه وبين حياة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى الدنيا وكذلك الكلام فى قريش، والآية تقول للنبي صلى الله عليه وسلم أن ارتقب يوما تأتى السماء فيه بدخان مبين وأيضا تتكلم عن قريش أنهم فى شك يلعبون قبل ذكر الدخان فالظاهر هذا الدخان فى الآية يتعلق بهم وهو يكون عذابًا أليما لهم وأما الدخان الذى هو علامة الساعة فلايتعلق بهذا الشاكّين من قريش لأنهم انقرضوا ورحلوا إلى البرزخ قبل زمان طويل .

وثانيا: الآيات بعدها ﴿يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ (الدخان: ١١-١٦)وهذه الآيات تنطبق على قريش [2] بالكامل؛ لأن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم قد جاءهم مباشرة وهم قالوا عنه (نعوذ بالله) ﴿مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ (الدخان: ١٤) وفى القرآن ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (الحجر: ٦) ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ (النحل: ١٠٣) وأما الناس الذين يكونون عند الدخان من أشراط الساعة فهم لم يروا النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكلموه مشافهة، فالآيات

---

(١) يعنى الذى حصل فى زمانه عليه السلام (٢) يعنى الكفار منهم

تنطبق على قريش ظاهرا كاملا متبادرا وانطباقها على الناس عند الدخان من أشراط الساعة يحتاج إلى التأويل. ثم الآية ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ (الدخان:١٥-١٦) وما قبلها تشابه هذه الآيات ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ (المؤمنون:٧٥-٧٦) وقد جاء فى تفسير هذا أنهُ أصابت قريشا قحط وجوع وشكوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهذا هو العذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون، بل وعدوا أنهم مؤمنون لو ربنا يكشف عنا العذاب وثم نقضوا بعد كشف العذاب ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ ثم البطشة الكبرى من عند الله تعالى يوم بدر فى تفسير ابن مسعود وهكذا فسّر ابن عباس رضي الله تعالى عنه العذاب الشديد فى الآية ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ فعلى هذا يجتمع تفسير الآيات من سورة الدخان مع الآيات من سورة المؤمنون.

وثالثا: الآيات بعدها: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (الدخان:١٦-١٨) يعنى ذكر سيدنا موسى عليه السلام مع فرعون ومعلوم أن دأب فرعون وقومه مع سيدنا موسى عليه السلام ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ (الأعراف:١٣٤-١٣٥) فالآيات تقول أننا فتنّا يعنى ابتلينا قبل هؤلاء المشركين يعنى قريش فرعون وقومه وجاء هم رسول كريم يعنى سيدنا موسى عليه السلام والمعلوم دأب فرعون وقومه من الآيات يعنى أنهم كانوا يعدون سيدنا موسى عليه السلام أنهُ لو كُشف عنهم الرجز أنهم يؤمنون به ويُرسلون معهُ بنى إسرائيل وبعد الكشف ينقضون فعلى تفسير ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن الدخان فى الآيات السابقة أنهُ ما أصاب قريشا سيكون الربط بينهم وبين فرعون وقومه فكما هم كانوا ينقضون عهدهم بموسى عليه السلام فقريش نقضوا عهدهم بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد كشف القحط والجوع عنهم. والله أعلم ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

ومن اللازم أن تعلم أن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه لم ينكر الدخان الذى من أشراط الساعة، بل أنكر تفسير هذه الآيات بهذا الدخان. فعنده الدخان فى سورة الدخان هو ما أصاب قريشا كما ذكرنا [1] والدخان الذى هو من علامة الساعة فهو ثابت على مكانه من النصوص الأخرى وبعض الصحابة الأخرى رضي الله عنهم اجمعين فهم اشملوا الآيات من سورة الدخان فى الدلائل عن

(١) وهو التفسير القوى كما بيناه والحمد لله رب العالمين.

الدخان الذى من أشراط الساعة وفسرها به. فعلى أي حال الدخان الذى من أشراط الساعة فهو ثابت بلاشك لامحالة.

وبيانه أن بعد وفاة عيسى عليه الصلوٰة والسلام يكون الأمير شخصا من قبيلة القحطان يقال لهٗ جهجاه هٰكذا قالوا العلماء وفى الحديث "لاتقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه." (صحيح مسلم، ح: ٢٩١٠) "لاتذهب الأيام والليالى حتى يملك رجل يقال لهٗ الجهجاه." (صحيح مسلم، ح: ٢٩١١) ثم بعدهٗ يكون عدة من الأمراء واحدا بعد واحد والخير يكون غالبا حتى فى مرور الزمان يكون الشر يغلب فيغلب، ففى هٰذه الأيام يظهر الدخان ويغشى الأرض، والمسلمون فيصيبهم منه الزكام والكافرون فيصيرون بمنزلة السكران وينتفخون حتى يخرج الدخان من كل مسمع منهم. ويبقى هٰذا الدخان أربعين يوما ثم تنكشف السماء.

(٦) الخسف بالمشرق والمغرب وجزيرة العرب:

وخلال هٰذا الزمان تكون ثلاثة خسوف فى الأرض. فى المشرق والمغرب وفى جزيرة العرب. وفى الحديث ""إن الساعة لاتكون حتى تكون عشر آيات (منها) خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف فى جزيرة العرب . (صحيح مسلم، ح: ٢٩٠١)

(٧) طلوع الشمس من المغرب:

ومن العلامات الكبرىٰ للساعة طلوع الشمس من المغرب وقد جاء ت الأحاديث الكثيرة فى بيانه وأشار عليه القرآن أيضًا ونحن نذكر بيانه وكيفيته كما ذكروا العلماء أوّلا وثم نذكر النصوص. فقالوا العلماء بعد ظهور الدخان والخسوف، فى شهر ذى الحجة بعد عشرة أيام يطيل الليل حتى يفزع المسافرون ويمل الصبيان من النوم وطفق البهائم يصيحون لسرح إلى الزرع ويفزع الناس حتى هٰذه الليلة تساوى ثلاثة ليال تطلع الشمس من المغرب مع النور الخفيف حتى تكون كأنها مكسوفة وحينئذ يغلق باب التوبة [1] فلايقبل الإيمان من الكافر ولا التوبة من المؤمن وتعلوا الشمس رويدا رويدا حتى تكون قريبة من وسط السماء فتغرب راجعة إلى المغرب ثم بعد ذٰلك اليوم تطلع من المشرق وتغرب فى المغرب حسب العادة وبعد هٰذه العلامة تقرب الساعة إلى غاية القرب. وفى الحديث "لاتقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن من عليها فذٰلك حين لاينفع [2] نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل." (صحيح البخاري، ح: ٤٦٣٥)

---

(١) وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه أنهٗ من كان صغيرا (صغيرا إلى حد عدم التكليف مطلقا) يعني غير المميز حينئذ، فإنهٗ لو أسلم بعد ذٰلك قبل منه ـ والله أعلم

(٢) وفى القرآن ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾(الأنعام:١٥٨)

"من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها قبل منه." (صحيح مسلم، ح:٢٧٠٣) عن أبی ذر رضي اللّٰه تعالٰی عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أتدری أين تذهب الشمس إذا غربت؟ قلت: لاأدری، قال: إنها تنتهی دون العرش فتخر ساجدة ثم تقوم حتٰی يقال لها ارجعی فيوشک يا أباذر أن يقال لها ارجعي من حيث جئت وذٰلک حين لاينفع نفسا إيمانها لم تكن امنت من قبل"،(صحيح البخاري، ح: ٣١٩٩) "لاتقوم الساعة حتٰی تروا عشر آيات (منها) طلوع الشمس من مغربها." (صحيح مسلم، ح: ٢٩٠١)، "﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَايَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا﴾ (الأنعام:١٥٨) قال صلى الله عليه وسلم "طلوع الشمس من مغربها"." (سنن الترمذي، ح: ٣٠٧١) "إن اللّٰه فتح بابا قبل المغرب عرضه سبعون عاما للتوبة لايغلق حتٰی تطلع الشمس منه." (تفسير ابن كثير: ج:٣،ص: ٣٣٦)

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت:" يارسول اللّٰه ما آية طلوع الشمس من مغربها؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم "تطول تلک الليلة حتٰی تكون قدر ليلتين فينبه الذين كانوا يصلون فيها فيعملون كما كانوا يعملون قبلها والنجوم لاترى قد غابت مكانها ثم يرقدون ثم يقومون فيصلون ثم يرقدون ثم يقومون فيطل عليهم جنوبهم حتٰی يتطاول عليهم الليل فيفزع الناس ولايصبحون فبينماهم ينتظرون طلوع الشمس من مشرقها إذ طلعت من مغربها ، فإذا راها الناس أمنوا فلم ينفعهم إيمانهم." (تفسير ابن كثير: ج:٣،ص:٣٣٥) وعن عبدالله بن أبی أوفی قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "ليأتين على الناس ليلة تعدل ثلاث ليالی من لياليكم هذه ، فإذا كان ذٰلک يعرفها المتنفلون يقوم أحدهم فيقرأ حزبه ثم ينام ثم يقوم فيقرأ حزبه ثم ينام فبينماهم كذٰلک إذ صاح الناس بعضهم فی بعض فقالوا ماهذا فيفزعون إلى المساجد ، فإذا هم بالشمس قد طلعت حتٰی إذا صارت فی وسط السماء رجعت وطلعت من مطلعها قال حينئذ ﴿لَايَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا﴾ (الأنعام:١٥٨) ." (تفسير ابن كثير: ج:٣،ص: ٣٣٦)

وقد جاء مرفوعا عن ابن عباس رضي الله عنهما قدر ثلاث ليال وأيضًا عن عبدالله ابن عمرو رضي اللّٰه عنهما مرفوعا قدر ليلتين أو ثلاث. وفی الحديث"لاتنقطع الهجرة ما دام العدو يقاتل، إن الهجرة خصلتان إحداهما تهجر السيئات والأخرى تهاجر إلى الله ورسوله ولاتنقطع ما تقبلت التوبة ولاتزال التوبة تقبل حتٰی تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت طبع علٰی كل قلب بما فيه وكفی الناس العمل." (مسند أحمد، ح: ١٦٧١)

فقولهٗ تعالٰی ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ

﴿لا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ (الأنعام:١٥٨) قال العلماء فى تفسيره: ﴿كَسَبَتْ فِيْ إِيْمَانِهَا خَيْراً﴾ أي إذا أنشأ الكافر الإيمان يومئذ لايقبل منه فأما من كان مؤمنا قبل ذٰلك فإن كان مصلحا فى عمله فهو بخير عظيم وإن لم يكن مصلحا فأحدث توبة حينئذ لم تقبل منه توبته كما دلت عليه الأحاديث المتقدمة وعليه يحمل قولهٗ تعالٰى ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِيْ إِيْمَانِهَا خَيْراً﴾ أي ولايقبل منها كسب عمل صالح إذا لم تكن عاملة به قبل ذٰلك. وقولهٗ تعالٰى ﴿قُلِ انتَظِرُوْا إِنَّا مُنتَظِرُوْنَ﴾ تهديد شديد للكافرين ووعيد أكيد لمن سوّف بإيمانه وتوبته إلى وقت لاينفعه ذٰلك. فكما الحكم عند من حضره الموت أنه لاتُقبل توبته "إن اللّٰه يقبل توبة العبد ما لم يغرغر"، وكذالك عند مشاهدة العذاب ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا[1] قَالُوْا آمَنَّا بِاللّٰهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِيْنَ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ (المؤمن:٨٤-٨٥) فطلوع الشمس من مغربها له نفس الحكم.

قال العلماء وإنما لاينفع نفسا إيمانها عند طلوعها من مغربها؛ لأنهٗ خلص إلى قلوبهم من الفزع ما تُخمد معهٗ كل شهوة من شهوات النفس، وتفتر كل قوة من قوى البدن، فيصير الناس كلهم لإيقانهم بدنوّ القيامة فى حال من حضره الموت فى انقطاع الدواعى إلى أنواع المعاصى عنهم، وبطلانها من أبدانهم، فمن تاب فى مثل هٰذه الحال لم تقبل توبته كما لاتُقبل توبة من حضره الموت قال صلى اللّٰه عليه وسلم : "إن اللّٰه يقبل توبة العبد ما لم يغرغر." (سنن الترمذي، ح:٣٥٣٧) أي تبلغ روحه رأس حلقه، وذٰلك وقت المعاينة الذى يرى فيه مقعده من الجنة أو مقعده من النار، فالمشاهد بطلوع الشمس من مغربها مثله.

(٨) دابة الأرض:

ومن العلامات الكبرٰى للساعة خروج دابة الأرض من الأرض وذكرها موجود فى القرآن والسنة وبيانه أن بعد طلوع الشمس من المغرب بقليل، الجبل الواقع فى مكة المكرّمة، الجبل صفا، يشق وتخرج منه الدابة العجيبة تكلّم الناس وتسير فى جميع الأرض بغاية السرعة ويكون عنده عصا موسٰى بن عمران عليه السلام وخاتم سليمان بن داوٗد عليه السلام فتجلو وجه المؤمن بالعصا وتختم أنف الكافر بالخاتم.

وفى القرآن ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوْا بِآيَاتِنَا لَا يُوْقِنُوْنَ﴾ (النمل:٨٢) وقد جاء فى التفسير أن معنى "وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ" هو أن الناس لايؤمنون[2] إلا من قد آمن من قبل ويؤيده آخر الآية ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوْا بِآيَاتِنَا لَا يُوْقِنُوْنَ﴾ فعلى هذا

---

(١) يعنى لاينفعهم إيمانهم بعد مشاهدة العذاب.

(٢) هناك وجه آخر واللّٰه أعلم هو أن خروج الدابة بعد طلوع الشمس من المغرب الذى بعدهٗ لاينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل، فالناس ما كانوا يوقنون بآيات اللّٰه من قبل يعنى الكافرين فلو آمنوا الآن لاينفعهم وقد وجب الغضب والعقاب عليهم.

التفسير خروج الدابة يكون إذا لايقبل الكافرون الإسلام ولا يولد لهم ولد مؤمن فحينئذ تخرج الدابّة وتفرّق بالعلامة بين الكافرين والمؤمنين. وهناك أقوال فى تعيين المكان الذى منه تخرج الدابّة. وقد جاء عن ابن عمرو عبدالله بن عمرو أنهٗ تخرج من جبل الصفا بمكة وكذٰلك جاء ت الأقوال فى تعيين هٰذه الدابّة وصفتها وأصحّ الأقوال أنها فصيل ناقة صالح عليه السلام؛ لأن هٰذا القول يؤيد الحديث الذى فيه "وهي ترغو" والرغاء إنما هو للإبل وذٰلك أن الفصيل لما قتلت الناقة هرب فانفتح لهٗ حجر فدخل فى جوفهٖ ثم انطبق عليه، فهو فيه حتٰى يخرج بإذن الله عزوجل وفى الأخير والله أعلم فى تعيين الدابة وصفتها وكذٰلك المكان الذى تخرج منه. المعلوم بالقطع هو خروجها وهو من علامة الساعة.

وكذٰلك قد جاء ت الأقوال فى "تكلمهم" فمنها أنها تكلّم ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ (النمل:٨٢) ومنها أنها تكلّم ببطلان الأديان سوى دين الإسلام ومنها أنها تقول ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (هود:١٨) والمقصود واحد هو إظهار الحق وهو دين الإسلام وإبطال الباطل وهو ما سوا دين الإسلام وعلى القولين الآخرين الجملة ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ (النمل:٨٢) لا تتعلق مع "تكلمهم"، بل يكون المعنى تكلمهم بسبب أن الناس كانوا بايتنا لايوقنون. وهٰكذا وجدت فى بعض تراجم معاني القرآن: وقد جاء ت الأحاديث والآثار الكثيرة فى دابّة الأرض نذكر بعضا منها إن شاء الله العزيز.

"لاتقوم الساعة حتٰى تروا عشر آيات (منها) الدابة." (سنن الترمذي، ح:٢١٨٣) "لها ثلاث خرجات من الدهر، فتخرج خرجة من أقصى البادية ولايدخل ذكرها القرية. يعنى مكة. ثم تكمن زمنا طويلا ثم تخرج خرجة أخرٰى دون تلك، فيعلو ذكرها فى أهل البادية ويدخل ذكرها القرية. يعنى مكة. ثم بينما الناس فى أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها المسجد الحرام، لم يرعهم إلا وهي تدنوا[1] بين الركن والمقام. تنفض عن رأسها التراب، فارفض الناس عنها شتى ومعا. وبقيت عصابة من المؤمنين وعرفوا أنهم لم يعجزوا الله، فبدأت بهم فجلت وجوههم حتٰى جعلتها كأنها الكوكب الدرى، وولت فى الأرض لايدركها طالب، ولاينجو منها هارب، حتٰى إن الرجل ليتعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول: يافلان الآن تصلى، فيقبل عليها فتسمه فى وجهه. ثم تنطلق ويشترك الناس فى الأموال ويصطحبون فى الأمصار، يعرف المؤمن من الكافر، حتٰى إن المؤمن ليقول: ياكافر اقضني حقى، وحتٰى إن الكافر ليقول: يامؤمن اقضني حقى." (المعجم الكبير، ح:٣٠٣٥)

"إن أول الآيات[2] خروجا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريبا." (صحيح مسلم، ح:٢٩٤١). "بادروا.

(١) وفى رواية: ترغو (٢) ليس على الإطلاق، بل بالنسبة إلى مابعدها

بالأعمال ستا، طلوع الشمس من مغربها والدخان والدجال والدابة وخاصة أحدكم وأمر العامة." (صحيح مسلم، ح:٢٩٤٧)

"تخرج دابة الأرض ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام فتخطم أنف الكافر بالخاتم وتجلو وجه المؤمن بالعصا، حتى إن أهل الخوان الواحد ليجتمعون فيقول هذا يامؤمن ويقول هذا ياكافر"، (سنن ابن ماجة، ح:٤٠٦٦)

عن بريدة رضي الله عنه قال: ذهب بي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى موضع بالبادية قريب من مكة، ، فإذا أرض يابسة حولها رمل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "تخرج الدابة من هذا الموضع." (سنن ابن ماجة، ح:٤٠٦٧)

وعن ابن الزبير رضي الله تعالى عنه موقوفا: أنهٔ وصف الدابة فقال: رأسها الثور، وعينها عين خنزير، أذنها أذن فيل، وقرنها قرن إبل، وعنقها عنق نعامة، وصدرها صدر أسد، ولونها لون نمر، وخاصرتها خاصرة هر، وذنبها ذنب كبش، وقوائمها قوائم بعير، بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعا، تخرج معها عصا موسى وخاتم سليمان (عليهما السلام) فلايبقى مؤمن إلا نكتت في وجهه بعصا موسى (عليه السلام) نكتة بيضاء فتفشوا تلك النكتة حتى يبيض بها وجهه، ولا يبقى كافر إلا نكتت في وجهه نكتة سوداء بخاتم سليمان (عليه السلام) فتفشوتلك النكتة حتى يسود بها وجهه، حتى إن الناس يتبايعون في الأسواق بكم ذا يامؤمن ؟ بكم ذا يا كافر؟ وحتى إن أهل البيت يجلسون على مائدتهم فيعرفون مؤمنهم من كافر. ثم تقول لهم الدابة، يافلان أبشر أنت من أهل الجنة، ويافلان أنت من أهل النار، فذلك قول الله تعالى ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ (النمل:٨٢) ." (التذكرة:ص: ٧٨٣)

(٩) رفع القرآن ودرس الإسلام:

وفي حينئذ يقترب الوقت الذى فيه لايبقى في الأرض إلا الكفار فيدرس الإسلام ويرفع القرآن وفي الحديث "يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب حتى لايدرى ما صيام ولا صلوة ولانسك ولا صدقة، ويسرى بكتاب الله تعالى في ليلة فلايبقى منه في الأرض آية وتبقى طوائف من الناس: الشيخ الكبير والعجوز يقولون أدركنا اباء نا على هذه الكلمة "لاإله إلا الله" فنحن نقولها ثم سأل واحد الراوى الصحابي حذيفة رضي الله تعالى عنه : ما تغني عنهم لا إله إلا الله وهم لايدرون ما صلاة ولا صيام ولانسك ولا صدقة. فأعرض عنه حذيفة رضي الله تعالى عنه، ثم ردّها عليه ثلاثا كل ذلك يعرض عنه حذيفة رضي الله تعالى عنه، ثم أقبل عليه حذيفة رضي الله تعالى عنه فقال: ياصلة

تنجيهم من النار ثلاثا." (سنن ابن ماجة، ح: ٤٠٤٩)

يعني لايكون عندهم إلا الإيمان فهم يؤمنون بلا إله إلا الله يعنى بتوحيد ورسالة ومعاد وغيرها من الأشياء الضرورية، لكن ليس عندهم عمل من الصلاة والصيام والنسك والصدقة، لكن بسبب إيمانهم ينجون من النار فى الأخير (ولو بعد العذاب)، وقد ثبت فى الأحاديث أن الله عزوجل سيخرج من النار كل من قال لا إله إلا الله يعنى كل من عنده الإيمان ولو لم يعملوا خيرا قط.

(١٠) الريح الباردة وموت جميع المسلمين:

ثم بعد قليل يبعث الله ريحا باردا من قبل الشام فتأخذ جميع المؤمنين والمؤمنات يعنى كلهم يموتون حتى لايبقى فى الأرض واحدا منهم حيّا فالأن لايكون فى الأرض إلا الكفار. وفى الحديث "ثم يبعث الله ريحا طيّبة فتوفي كل من كان فى قلبه مثقال حبّة من إيمان فيبقىٰ من لاخير فيه فيرجعون إلى دين آباء هم (يعنى إلى الشرك والكفر) ." (صحيح مسلم، ح:٢٩٠٧) "ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام فلايبقى على وجه الأرض أحد فى قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته، حتى لو دخل أحدكم فى كبد جبل لدخلت عليه حتى تقبضه." (صحيح مسلم، ح:٢٩٤٠) ،"ثم يقال للأرض: أنبتى ثمرتك وردى بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ويبارك الله فى الرسل أي اللبن حتى إن اللقحة من الابل لتكفى الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفى القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفى الفخذ من الناس، فبينماهم كذلك إذ بعث الله ريحا طيّبا فتأخذ بهم تحت آباطهم فيقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها كتهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة." (صحيح مسلم، ح:٢٩٣٧)

وهذا الحديث الأخير قد ذكرناه قبلا وهو يتكلم فى هذه الفقرة عن الأحوال بعد إماتة يأجوج ومأجوج من عند الله تعالى ويذكر عن البركات التى تظهر بعد يأجوج ومأجوج فى زمان نزول سيدنا عيسىٰ عليه السلام وكما نحن بيّناه سابقا أنهٗ حينئذ يكون العالم جميعه مسلما ثم يتوفى سيدنا عيسىٰ عليه السلام، لكن ظاهر هذا الحديث يدل على أن هذه البركات تستمر على الأقل بين المسلمين؛ لأن بعد وفاة سيدنا عيسىٰ عليه السلام الناس يتغيّرون رويدا رويدا فيظهر الكفر بعد كون جميع العالم مسلما، لكن هذه البركات على ظاهر هذا الحديث تستمر على الأقل بين المسلمين؛ لأن الحديث يقول:" فبينما هم كذلك." يعنى فى هذه البركات فعلى هذا هذه البركات تستمر وتظهر العلامات الأخرىٰ من الدخان والخسف وطلوع الشمس من المغرب والدابة ورفع القرآن وهذه العلامات بعد وفاة عيسىٰ عليه السلام؛ لأن طلوع الشمس من المغرب والدابة يكونان عند ما

لاينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل فلايمكن وقوعهما قبل سيدنا عيسٰى عليه السلام؛ لأنهٗ يقاتل الناس على الإسلام فالناس إما يقبلون الإسلام أو يُقتلون. فالإسلام مقبول فى زمان عيسٰى عليه السلام وطلوع الشمس من المغرب والدابة يكونان عند ما يصير الإسلام والإيمان غير مقبول إلا من آمن من قبل. وأما رفع القرآن فلايمكن وقوعه قبل وفاة عيسٰى عليه السلام؛ لأن رفع القرآن عند ما لايدرى ما صلاة ولا صيام كما ذكرنا من الحديث وأما سيدنا عيسٰى عليه السلام فهو يؤم الناس ويحكم بشريعة نبيّنا صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم . وأما الخسف فممكن وقوعه قبل وفاة سيدنا عيسٰى عليه السلام، بل قبل نزوله ، لٰكن ظاهر الحديث "لا تقوم الساعة حتٰى تكون عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها والدجّال والدخان والدابّة ويأجوج ومأجوج وخروج عيسٰى بن مريم وثلاث خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس إلى المحشر تبيت معهم إذا باتوا وتقيل معهم إذا قالوا." (سنن الترمذي، ح:٢١٨٣)

فهٰذا الحديث يعد الخسوف فى العلامات الكبرٰى فلاتكون الخسوف فى زمان العلامات الصغرٰى، بل فى زمان العلامات الكبرٰى والأحاديث التى تتكلم (يعنى بالتفصيل) عن المهدى وخروج الدجال ونزول عيسٰى بن مريم عليه السلام وخروج يأجوج ومأجوج لم نجد نحن فيها حسب علمنا ذكر الخسوف، فالأغلب أنها بعد وفاة سيدنا عيسٰى عليه السلام وأما الدخان فظاهره التفريق بين المؤمن والكافر قبل طلوع الشمس من المغرب وإغلاق باب التوبة وهٰذا التفريق لايكون قبل نزول عيسٰى عليه السلام؛ لأن فى زمانه كثير من الكفار يقبلون الإسلام فهٰذا التفريق يكون بعد وفاة سيدنا عيسٰى عليه السلام عند ما رويدا رويدا يظهر الكفر ويزيد الشر ويكثر فيكون هٰذا التفريق قبل إغلاق باب التوبة عند علامة طلوع الشمس من المغرب. واللّٰه أعلم ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

فحاصل الكلام أن هٰذه البركات تستمر وتظهر هٰذه العلامات الأخرٰى حتٰى يرسل اللّٰه ريحا باردة فتقبض كل مؤمن ومؤمنة فلايبقى إلا شرار الناس.

(١١) هدم الكعبة المشرفة بيت اللّٰه:

بعد موت جميع المسلمين لايبقى إلا الكفار ولايكون فيهم خيرا ولاحياء لايعرفون معروفا ولاينكرون منكرا يتهارجون كما تتهارج الحمر يتسافدون تسافد البهائم. وفى الحديث "فيبقى شرار الناس فى خفة الطير وأحلام السباع لايعرفون معروفا ولاينكرون منكرا." (صحيح مسلم، ح:٢٩٤٠) "ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة." (صحيح مسلم، ح:٢٩٣٧) ويهدم الكعبة المشرفة بيت اللّٰه وفى الحديث "ذو السويقتين من الحبشة يخرّب بيت

الله عزوجل"،(صحيح مسلم، ح: ٢٩٠٩) "يبايع لرجل بين الركن والمقام (والله أعلم كأنه إشارة إلى الإمام المهدي رحمه الله تعالى) ولن يستحل هذا البيت إلا أهله، فإذا استحلوه فلاتسأل عن هلكة العرب ثم تجئ الحبشة يخربونه خرابا لايعمر بعدة أبدا وهم الذين يستخرجون كنزه." (المستدرك، ح:٨٣٩٥)

وفى الخبر الموقوف [1] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنه: "استمتعوا من الطواف بهذا البيت قبل أن يرفع فقد هدم مرتين ويرفع فى الثالثة." (المستدرك، ح: ١٦١٠) والله أعلم معنى رفع البيت هو أن بعد الحبشة يهدمونه فلايعمر بعدة أبدا فلا طواف ولاحج ولاعمرة ولا ثَمَّ مسلم وطفق الناس يعبدون الأوثان وفى الحديث "لاتقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس حول ذى الخلصة (كانت صنما تعبدها دوس فى الجاهلية بتبالة) "،(صحيح مسلم، ح:٢٩٠٦) "لايذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى."

(صحيح مسلم، ح:٢٩٠٧) "فيبقى شرار الناس فى خفة الطير وأحلام السباع لايعرفون معروفا ولاينكرون منكرا فيمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيقولون فما تأمرنا، فيأمرهم بعبادة الأوثان وهم فى ذلك دارّ رزقهم، حسن عيشهم..." (صحيح مسلم، ح: ٢٩٤٠) وحينئذ يكثر الروم فى الأرض وفى الحديث "تقوم الساعة والرّوم أكثر الناس." (صحيح مسلم، ح:٢٨٩٨) ولايكون فى الأرض من يذكر الله "لاتقوم الساعة حتى لايقال فى الأرض، الله، الله"،(صحيح مسلم، ح:١٤٥) "لاتقوم الساعة على أحد يقول: الله، الله." (صحيح مسلم، ح:١٤٥)

(١٢) النار تسوق الناس إلى أرض المحشر وهي الشام:

وآخر العلامات الكبرى للساعة هي النار تسوق الناس إلى أرض المحشر وهي الشام، وفى القرآن ﴿هُوَ الَّذِىٓ أَخْرَجَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ (الحشر:٢) قال الزهرى كانوا من سبط (يعنى بنو النضير رهط من اليهود من ذريّة هارون عليه السلام) لم يصبهم جلاء (أي قبل هذا الجلاء)، وكان الله عزوجل قد كتب عليهم الجلاء، فلو لا ذلك لعذبهم فى الدنيا وكان أوّل حشر حُشروا فى الدنيا. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنه وعكرمة: من شك أن المحشر فى الشام فليقرأ هذه الآية: وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم: أخرجوا. قالوا: إلى أين، قال صلى الله عليه وسلم إلى أرض المحشر.

وبيان هذا النار هو يكون الناس كما قلنا فى الشر ولا خير فيهم وتخرج هذا النار من قعر

(١) وأيضا عن ابن مسعودؓ: أكثروا من زيارة هذا البيت من قبل أن يرفع وينسى الناس مكانه(تفسير القرطبي ج:١٣:٢٣٤)

عدن أبين تسوق الناس إلى المحشر وهو الشام وفى الحديث "لاتقوم الساعة حتىٰ تكون عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها..... ونار تخرج من قعر عدن أبين، تسوق الناس إلى المحشر، تبيت معهم إذا باتوا وتقيل معهم إذا قالوا ." (سنن الترمذي، ح: ٢١٨٣) "ستخرج نار من حضرموت أو نحو بحر حضرموت قبل يوم القيامة تحشر الناس." قالوا: يارسول اللّٰه! فما ذا تأمرنا ؟ قال: عليكم بالشام." (سنن الترمذي، ح: ٢٢١٧)

عن حذيفة بن أسيد الغفارى رضي اللّٰه تعالىٰ عنه قال: اطّلع النبي صلى اللّٰه عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر، فقال صلى اللّٰه عليه وسلم ما تذكرون؟ قالوا: نذكر الساعة، قال صلى اللّٰه عليه وسلم : إنها لن تقوم حتىٰ ترون قبلها عشر آيات، فذكر الدخان... وآخر ذٰلک نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم." (مسند أحمد، ح: ١٦١٤١) وفى رواية: "ونار تخرج من قعر عدن ترحل الناس ." (مسند أحمد، ح: ١٦١٤٣) فالنار تخرج من اليمن تحشر الناس إلى الشام يعنى جميع الناس فى الأرض وخروج النار من اليمن ثم تذهب خلال الأرض تحشر الناس تبيت معهم إذا باتوا وتقيل معهم إذا قالوا فلاتتركهم فى حال من الأحوال، بل حتىٰ تحشرهم إلى الشام وهي آخر العلامة للساعة، فالناس بعد هذا الحشر يكون كما فى الحديث "دارّ رزقهم حسن عيشتهم." وهم كما ذكرنا فى الكفر والضلال وتقوم الساعة عليهم، فينفخ فى الصور. "وهم فى ذٰلک دارّ رزقهم حسن عيشتهم ثم ينفخ فى الصور." (صحيح ابن حبان، ح: ٧٣٥٣)

(١٣) النفخ فى الصور وقيامة الساعة:

كما ذكرنا سابقا أنهم كذٰلک دارّ رزقهم وحسن عيشتهم فينفخ فى الصور ويكون ذٰلک اليوم يوم الجمعة، اليوم العاشر من الشهر المحرّم ونحن قد ذكرنا تفصيلا عن الأحوال عند النفخ فى الصور فى السابق والنافخ هو إسرافيل عليه السلام فعند هذه النفخة يعنى النفخة الأولىٰ يموت سائر الخلق ثم بعد أربعين عاما يحيى اللّٰه إسرافيل عليه السلام فينفخ النفخة الثانية ، فإذا يبعث الخلق فى الحياة الثانية ويجمعون فى المحشر ويكون الشمس يومئذ قريبا منه و يكون الناس فى الشدة والكرب ولايكون الظل إلا ظل عرش اللّٰه أعطاه اللّٰه من يشاء من فضله فيستشفعون الناس سيدنا آدم عليه السلام ثم نوح عليه السلام، ثم إبراهيم عليه السلام ثم موسىٰ عليه السلام ثم عيسىٰ عليه السلام حتىٰ يأتون إلىٰ سيد الكونين نبيّنا وحبيبنا محمد صلى اللّٰه عليه وسلم فهو الذى يتقدم للشفاعة ويؤذن لهٗ من عند اللّٰه تعالىٰ فيشفع الشفاعة الكبرىٰ وهو المقام المحمود الذى أعطاه اللّٰه تعالىٰ إياه فقط ثم يبدأ الحساب. وفى القرآن ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ

شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ (الزمر: ٦٨) ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ (يٰس: ٥١) ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (يٰس: ٤٩-٥٣) ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ (المرسلات: ٣٨) ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ كَلَّا لَا وَزَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ (القيامة: ٦-١٣) ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ (المعارج: ٤٣) ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ (عبس: ٣٤-٤٢) ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٦-١٠٧) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة: ٢٥٤) ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ (سبا: ٢٣) ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ (النازعات: ٦-١٤)

وفى الأحاديث "تقوم الساعة والرجل يحلب اللقحة فما يصل الاناء إلى فيه حتى تقوم، والرجلان يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم والرجل يلط فى حوضه، فما يصدر حتى تقوم ." (صحيح مسلم، ح: ٢٩٥٤) " وهم في ذلك دار رزقهم حسن عيشهم، ثم ينفخ فى الصور، فلايسمعه احد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا، قال وأوّل من يسمعه رجل يلوط حوض إبله قال: فيصعق ويصعق الناس، ثم يرسل الله أوقال ينزل الله مطرا كأنهُ الطل أو الظلّ ـ نعمان الشاك ـ فتنبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى ، فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال: يأيها الناس هلموا إلى ربّكم، وقفوهم إنهم مسئولون ثم يقال: اخرجوا بعث النار، فيقال: من كم. فيقال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين[1] قال: فذلك يوم يجعل الولدان شيبا . وذلك يوم يكشف عن ساق." (صحيح ابن حبان، ح: ٧٣٥٣) . "مابين النفختين أربعون ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، وليس من الإنسان شيء

(١) وفى رواية "فاشتد ذلك عليهم قالوا يارسول الله اين ذلك الرجل؟ فقال صلى الله عليه وسلم "أبشروا فإن من يأجوج ومأجوج ألفا ومنكم رجل" يعنى هذا بعث النار يكون جلهم من يأجوج ومأجوج.

إلا يبلىٰ إلا عظما واحدا وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة ." (صحيح البخاري، ح:٢٩٥٥) ،"(الصور) قرن ينفخ فيه ." (المستدرک ، ح: ٣٦٣١)"وكيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن واستمع الأذن متى يؤمر بالنفخ فينفخ ." (سنن الترمذي، ح: ٢٤٣١)"ما أطرف صاحب الصور منذ وكل به مستعدا بحذاء العرش مخافة أن يؤمر بالصيحة قبل ان يرتد طرفه كان عينيه كوكبان دريان." (تاريخ بغداد، ح:١٨١٠) وفى حديث أبى هريرة الطويل"ثم يأمر الله عزوجل إسرافيل(عليه السلام) فينفخ نفخة الصعق فيصعق من فى السمٰوات ومن فى الأرض إلا ما شاء الله، فإذا اجتمعوا أمواتا جاء ملك الموت إلى الجبّار فيقول: قد مات أهل السماء والأرض إلا ماشئت، فيقول الله سبحانهٗ ، وهو أعلم، "من بقى؟ " فيقول يارب بقيت أنت الحىّ الذى لاتموت وبقى حملة العرش وبقى جبريل وميكائيل وإسرافيل وبقيت أنا. فيقول الله. عزوجل. ليمت جبريل وميكائيل . فينطق الله عزوجل العرش فيقول أي رب يموت جبريل وميكائيل؟ فيقول: اسكت إنى كتبت الموت علىٰ كل من تحت عرشى فيموتان. قال: ثم يأتى ملك الموت إلى الجبار جل جلالهٗ فيقول يارب قد مات جبريل وميكائيل. فيقول الله سبحانهٗ وتعالىٰ، وهوأعلم، "من بقى؟ " فيقول يارب بقيت أنت الحىّ الذى لاتموت وبقى حملة عرشک وبقيت أنا. فيقول: ليمت حملة العرش . فيموتون فيأمر الله العرش فيقبض الصور من إسرافيل. ثم يقول ليمت إسرافيل(عليه السلام) فيموت . ثم يأتى ملک الموت فيقول: يارب قد مات حملة عرشک، فيقول، وهو أعلم،"من بقى؟ " فيقول بقيت أنت الحىّ الذى لاتموت. وبقيت أنا. فيقول الله أنت خلق من خلقى خلقتک لما رأيت فمت فيموت. ، فإذا لم يبق إلا الله الواحد الأحد الصمد الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولدا. ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَّهٗ كُفُوًا اَحَدٌ﴾(الإخلاص:٣) فكان كما كان أوّلا. ثم قال: أنا الجبّار ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ (المومن:١٦) فلم يجبه أحد فيقول جل ثناءه وتقدست أسمائه ﴿لِلّٰهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (المؤمن:١٦) ..... ثم ينزل الله عليكم ماء من تحت العرش يقال له: ماء الحياة فتمطر السماء عليكم أربعين سنة حتىٰ يكون الماء من فوقكم اثنى عشر ذراعا ، ثم يأمر الله عزوجل الأجساد فتنبت كنبات الطراثيث وكنبات البقل حتىٰ إذا تكمّلت أجسادكم فكانت كما كانت يقول الله عزوجل: ليحيى حملة العرش فيحيون ثم يقول: ليحيى جبريل وميكائيل وإسرافيل فيأمر الله إسرافيل فيأخذ الصور، ثم يدعو الله تعالىٰ الأرواح فيؤتى بها. تتوهج أرواح المسلمين نورا والأخرىٰ مظلمة فيأخذها الله فيلقيها فى الصور. ثم يقول لإسرافيل النفخ نفخة البعث فينفخ فتخرج الأرواح كلها كأمثال النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض فيقول الله عزوجل: وعزتى وجلالى ليرجع كل روح إلى جسده فتدخل الأرواح فى الأرض إلى الأجساد..... ثم تدخل فى الخياشيم فتمشى فى الأجساد مشى السم فى اللديغ ثم تنشق الأرض

عنكم." (مسند اسحاق، ح:١٠١) وقد روى ابن المبارك عن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بين النفختين أربعون سنة. الأولى يميت الله تعالى بها كل حيّ والأخرى: يحى الله بها كل ميّت" وقال الحليمي اتفقت الروايات على ان بين النفختيز أربعين سنة. وذلك (النفخة الثانية) بعد أن يجمع الله تعالى ما تفرق من أجساد الناس من بطون السباع وحيوانات الماء وبطن الأرض وما أصاب النيران منها بالحرق. والمياه بالغرق، وما أبلته الشمس، وذرته الرياح، فإذا جمعها وأكمل كل بدن منها ولم يبق إلا الأرواح جمع الأرواح في الصور وأمر اسرافيل عليه السلام فأرسلها بنفخة من ثقب الصور، فرجع كل روح إلى جسده بإذن الله تعالى. وجاء في بعض الأخبار ما يبيّن أن من أكلة طائر أو سبع حُشر من جوفه. وهو ما رواه الزهري عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمزة يوم أحد وقد جُدع ومثّل به فقال:" لو لا أن تجد صفية في نفسها لتركته حتى يحشره الله من بطون السباع والطير." (مصنف ابن أبي شيبة، ح:٣٦٣٥٧) وفي الحديث "من مات على مرتبة من المراتب بعث عليها يوم القيامة".(المعجم الكبير، ح:٤٨٧) "إنكم تحشرون حفاة عراة غرلا ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ (الأنبياء:١٠٤) وإن أوّل الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم الخليل." (صحيح مسلم، ح:٢٨٦٠) "الأمر أشد من أن يهمهم ذاك (يعني الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض)." (صحيح البخاري: ح:٦٥٢٧). "يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعا ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم." (صحيح البخاري، ح:٦٥٣٢) "أوّل من يكسى خليل الله إبراهيم قبطيتين، ثم يكسى محمّد صلى الله عليه وسلم حلّة حبرة عن يمين العرش." (الزهد والرقائق لابن المبارك: ج:٢،ص:١٠٥) وفي رواية: "ثم النبيون والرسل عليهم السلام." "تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منه كمقدار ميل فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمهم العرق إلجاما." (صحيح مسلم، ح:٢٨٦٤) "إنكم تحشرون رجالا وركبانا وتجرّون على وجوهكم." (سنن الترمذي، ح:٢٤٢٤)

عن معاوية بن حيدة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "وأشار بيده إلى الشام فقال: ههنا إلى ههنا تحشرون ركبانا ومشاة وتجرّون على وجوهكم يوم القيامة." (المعجم الكبير: ح:١٠٣٨) "لاتزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما فعل وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وعن جسمه فيما أبلاه." (سنن الترمذي، ح:٢٤١٧)

عن عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه: "يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانو قط وأظما ما كانوا قط." (المخلصيات، ح:٢٨٥٥) "سبعة يظلهم الله في ظله يوم لاظل إلا ظلّه(أي ظل

عرشه) ، الإمام العادل ، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتٰى لاتعلم شماله ما تنفق يمينه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه." (صحيح مسلم، ح: ١٠٣١) معنى "في ظله" اي في ظل عرشه وقد جاء هٰكذا تفسيرا في الحديث. وفي الحديث "من سرّه أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفّس عن معسر أو يضع عنه." (صحيح مسلم، ح:١٥٦٣) وفي رواية "من انظر معسرا أو وضع عنه أظله الله في ظله." (يعني ظل عرشه) (صحيح مسلم، ح:٣٠٠٦) وفي الحديث "يجمع الله تعالٰى الناس. يوم القيامة فيهتمّون لذٰلك. وقال ابن عبيد. فيلهمون لذٰلک فيقولون: لو استشفعنا علٰى ربنا عزوجل حتٰى يريحنا من مكاننا هٰذا قال: فيأتون آدم عليه السلام. فيقولون: أنت آدم أبو الخلق. خلقک الله بيده[1] ونفخ فيک من روحه[2] وأمر الملائكة فسجدوا لک. اشفع لنا عند ربّک حتٰى يريحنا من مكاننا هٰذا، فيقول: لست هناكم. فيذكر خطيئته[3] التي أصاب، فيستحي ربّه منها و لكن ائتوا نوحا أوّل رسول[4] بعثه الله تعالٰى، قال: فيأتون نوحا عليه السلام ، فيقول: لست هناكم. فيذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربّه تعالٰى منها. و، لكن ائتوا إبراهيم عليه السلام اتخذه الله خليلا. فيأتون إبراهيم عليه السلام فيقول: لست هناكم. ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربه تعالٰى منها. و، لكن ائتوا موسى (عليه السلام) الذي كلّمه الله وأعطاه التوراة. قال. فيأتون موسٰى عليه السلام. فيقول: لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربه منها و، لكن ائتوا عيسى روح الله[5] فيأتون عيسٰى روح الله وكلمته، فيقول: لست هناكم، و، لكن ائتوا محمدا صلى الله عليه وسلم عبدا قد غفر لهٗ ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "فيأتوني ، فأستأذن علٰى ربّي فيؤذن لي، ، فإذا أنا

(١) ليست الجارحة (تعالٰى الله عن ذٰلك) ، بل صفة من صفات الله تعالٰى وفيه تشريف لآدم عليه السلام.

(٢) ليس الروح من صفات الله تعالٰى، بل معناه الروح الذي خلقه الله تعالٰى وهو مالكه كما يقال بيت الله، ناقة الله وفيه تشريف لادم عليه السلام كما في "بيت الله" تشريف للبيت.

(٣) خطيئة في هٰذا الحديث في معنى الزلّة التي يحصل من الأنبياء عليهم السلام بدون قصد المعاصي و الأنبياء عليهم الصلوات والسلام معصومون من اقتحام في المعاصي على العمد.

(٤) ليس أوّل رسول على الإطلاق؛ لأن أوّل رسول على الإطلاق هو سيدنا آدم عليه السلام، بل سيدنا نوح عليه السلام لأوّل رسول بعثه الله تعالٰى في الأرض إلى المشركين لدعوتهم إلى التوحيد.

(٥) روح الله بمعنى الروح الذي خالقه ومالكه الله عزوجل كما بيّنا في حق آدم عليه السلام ومما يلاحظ أن آدم وعيسٰى عليهما السلام كلاهما خلقا من وجه غير معتاد فآدم بدون أب وأم وعيسٰى بدون أب ونسبا روحي كليهما إلى الله عزوجل وإذ كانت جميع الأرواح من خلقه تعالٰى، وكلمته أي هو مكوّن بكلمة "كن" فكان بشرا من غير أب والعرب تسمى الشيء باسم الشيء إذا كان صادرا عنه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾(آل عمران:٥٩)

رأيته ووقعت ساجدا فيدعني ما شاء الله، فيقال: يامحمد! ارفع رأسک، قل تسمع ، سل تعطه، اشفع تشفع فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحدلي [1] حدًا فأخرجهم من النار وادخلهم الجنة . ثم أعود فاقع ساجدا فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقال: ارفع رأسک يا محمّد قل تسمع، سل تعطه، اشفع تشفع، فارفع رأسي فأحمد ربّي بتحميد يعلّمنيه ربي ثم أشفع فيحدّلي حدا فأخرجهم من النار وادخلهم الجنة. قال؛ فلا أدرى في الثالثة أو في الرابعة قال: فأقول: يارب! ما بقى فی النار إلا من حبسه القرآن أي من وجب عليه الخلود." (صحيح مسلم، ح:١٩٣)

العلامات المختلفة المروية فی الأحاديث

قبل أن نكمل هذا البيان نذكر بعضا من الأحاديث التى تذكر عن العلامات المزيدة للساعة التى هي مختلفة منتشرة فی الأزمنة المتغايرة. ففى الحديث: "يتقارب الزمان، وينقص العمل، ويلقى الشحّ وتظهر الفتن ويكثر الهرج." قالوا: يارسول الله. أيّما هو؟ قال: "القتل القتل"." (صحيح البخاري: ح:٧٠٣٦) "إن بين يدى الساعة لأيّاما ينزل فيها الجهل ويُرفع فيها العلم ويكثر فيها الهرج" والهرج القتل. (صحيح البخاري، ح:٧٠٦٢) "لاتقوم الساعة حتٰى تخرج نار من أرض الحجاز تضئ أعناق الإبل ببصرى ." (صحيح مسلم، ح:٢٩٠٢) "تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله ثم فارس، فيفتحها الله ثم تغزون الرّوم فيفتحها الله ثم تغزون الدجّال فيفتحه الله." (صحيح مسلم، ح:٢٩٠٠) "والذى نفسى بيده لاتذهب الدنيا حتٰى يمرّ الرجل على القبر فيتمرغ عليه ويقول: ياليتنى كنت مكان صاحب هٰذا القبر وليس به الدين إلا البلاء." (سنن ابن ماجة، ح:٤٠٣٧) "والذى نفسى بيده لاتذهب الدنيا حتٰى يأتى على الناس يوم لايدرى القاتل فيم قَتل ولا المقتول فيم قُتل." فقيل: كيف يكون ذلک؟ قال: "الهرج" القاتل والمقتول فی النار." (صحيح مسلم، ح:٢٩٠٨) "لاتقوم الساعة حتٰى تقاتلوا قومًا نعالهم الشعر. ولا تقوم الساعة حتٰى تقاتلوا قوما صغار الأعين ذلف الأنف." (صحيح مسلم، ح:٢٩١٢) "والذى نفسى بيده لاتقوم الساعة حتٰى تقتلوا إمامكم. وتجتلدوا بأسيافكم. ويرث دنياكم شراركم." (سنن الترمذي، ح:٢١٧٠) "يخرج فی آخر الزمان قوم أحداث الأسنان سفهاء الأحلام يقرء ون القرآن لايجاوز تراقيهم يقولون من قول خير البريّة يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة" فقال الترمذي: وقد روى فی غير هٰذا الحديث عن النبي صلى اللّٰه عليه وسلم وصف هٰؤلاء القوم الذين يقرؤن القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من

(١) فأوّل الشفاعة لبداية الحساب ويراحوا من هول الموقف وهي الشفاعة العامّة التى خصّ بها نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم وهي ولو لم يصرّح عليها فی الحديث ، لكن هي المفهومة من سياق الحديث ومتنه ثم تكون الشفاعات الأخرى وقد بيّناها سابقا والحمد لله رب العالمين۔

الدين كما يمرق السهم من الرمية، إنما هم الخوارج الحرورية وغيرهم من الخوارج.(سنن الترمذي، ح:٢١٨٨) "تكون بين يدى الساعة فتن كقطع الليل المظلم يصبح الرجل فيها مؤمنا ويمسى كافرا ويمسى مؤمنا ويصبح كافرا يبيع أقوام دينهم بعرض من الدنيا."،(سنن الترمذي، ح:٢١٩٧) "لاتقوم الساعة حتى ينبعث كذابون دجالون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنهٗ رسول الله." (سنن الترمذي، ح:٢٢١٨)،" قريش ولاة الناس فى الخير والشر إلى يوم القيامة." (سنن الترمذي، ح:٢٢٢٧)،"اذا هلك كسرىٰ فلا كسرىٰ بعدهٗ واذا هلك قيصر فلا قيصر بعدهٗ والذى نفسى بيدهٖ لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله." (صحيح البخاري، ح:٣١٢٠)، " يكون فى آخرامتى خسف ومسخ وقذف"،(سنن ابن ماجة، ح:٤٠٦٠) "تكون بينكم وبين بنى الأصفر(الروم) هدنة فيغدرون بكم فيسيرون إليكم فى ثمانين غاية تحت كل غاية اثنا عشر الفاً." (صحيح البخاري، ح:٣١٧٦).

المتن:

"ولا نصدق كاهنا ولا عرافا، ولا من يدعى شيئاً يخالف الكتاب والسنة وإجماع الأمة."

الشرح:

الحمد لله نحن قد بيّنا بالتفصيل عن الكاهن والعراف فلا حاجة لإعادة، والبيان عنهما تحت باب الكرامات وأما عدم التصديق بمن يخالف الكتاب والسنة والإجماع فهٰذا ظاهر لا حاجة لأي شرح ونحن أيضاً تكلمنا عن الكتاب والسنة والإجماع فلا حاجة لإعادة والحمد لله رب العالمين.

المتن:

"ونرى الجماعة حقًا وصوابًا، والفرقة زيغًا وعذابًا."

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالىٰ الآن يتكلم عن الجماعة وضدها الفرقة فيقول إن الجماعة حق وصواب والفرقة زيغ وعذاب، فالجماعة هي أهل السنة والجماعة والفرقة هي ما تعدل عنها والتفصيل هو كما جاء فى الحديث "ألا إن من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا علىٰ ثنتين وسبعين ملة وان هٰذه الملة ستفترق علىٰ ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة وهي الجماعة وانه سيخرجون فى امتى أقوام تجارىٰ بهم تلك الاهواء كما يتجارىٰ الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله." (سنن أبى داود، ح:٤٥٩٧)

وفى رواية "ليأتين على أمتى ما أتى على بنى إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى لو كان منهم من يأتى أمه علانية لكان من أمتى من يصنع ذلك وإن بنى إسرائيل تفرقت اثنتين وسبعين ملة وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة كلهم فى النار إلا ملة واحدة قالوا من هي يا رسول الله؟ قال صلى الله تعالى عليه وسلم "ما أنا عليه وأصحابى"." (سنن الترمذي، ح: ٢٦٤١) وفى القرآن ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران:١٠٣) يعنى كونوا جماعة متمسكا بحبل الله وهو القرآن والقرآن يقتضى تمسكا بجميع الإسلام من القرآن والسنة والإجماع والقياس وغيرها من الدلائل الشرعية ولا تفرقوا متابعين للهوىٰ والأغراض المختلفة، وكونوا فى دين الله إخوانا وليس فيه التحريم للاختلاف فى المسائل الفرعية فإن ذلك ليس اختلافا إذ الاختلاف ما يتعذر معهٗ الائتلاف والجمع، وأما حكم مسائل الاجتهاد فإن الاختلاف فيها بسبب استخراج الأحكام ودقائق معانى الشرع وما زالت الصحابة رضي الله تعالى عنهم يختلفون فى الأحكام والحوادث تتعلق بالفروعات وهم مع ذلك متالفون ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (آل عمران:١٠٣) وأيضا عن هذه الاختلافات قد جاء ت الرواية "اختلاف أمتى رحمة." (المقاصد الحسنة، ح: ٣٩) وإنما الاختلاف الذى هو الاختلاف فى الأصول والعقيدة فهذا هو الاختلاف الذى يقتضى التفرق وهو حرام وهو الذى قال الشيخ رحمه الله تعالى أنهٗ زيغ وعذاب وهذا هو الاختلاف الذى عني به فى الحديثين ذكرناهما فوقا ولهذا قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كلهم فى النار إلا ملة واحدة وهي الجماعة وهي ما أنا عليه وأصحابى وهذه الجماعة التى تقال أهل السنة والجماعة يعنى هم متمسكون بسنة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومنهج الصحابة رضي الله تعالى عنهم الذين منهجهم هو مبنيا على القرآن والسنة واتباع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وألفاظ الحديث "ما أنا عليه وأصحابى" أيضا تدل على أن التفرق ليس الاختلاف فى الفروعات لأنهٗ كان موجودا بين الصحابة رضي الله تعالى عنهم الذين هم ميزان ومعيار للفرقة الناجية، بل التفرق هو الاختلاف فى الأصول والعقيدة الحاصل بسبب اتباع الهوىٰ والأشياء المخالفة للقرآن والسنة، فمهما اتبعوا أهواء هم وبدعاتهم ابتعدوا من القرآن والسنة وتفرقوا من أهل السنة والجماعة مثلا الرافضة، القدرية، المعتزلة، الخوارج، المشبهة، المرجئة، الجهمية وغيرها من الفرق. ثم ألفاظ الحديث "كلهم فى النار إلا ملة واحدة" فجميع الفرق التى افترقوا من أهل السنة والجماعة فى النار ثم منهم الذين بدعاتهم تبلغ حد الكفر يكونون فى النار خالدا مخلدا فيها أبدا كمثل الكافرين الآخرين والذين لم تبلغ بدعاتهم حد الكفر فهم الذين لا يخلدون فى النار، بل يخرجون منها فى الأخير بسبب إيمانهم. ونحن إن شاء الله نذكر بالتفصيل بيان البدعة قريبا وفى

الحديث "عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الإثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، من سرته حسنته وساء ته سيئته فذلكم المؤمن." (سنن الترمذي، ح:٢١٦٥) "إن الله لا يجمع أمتي على ضلالة، يد الله على الجماعة [1] من شذ شذ إلى النار." (سنن الترمذي، ح:٢١٦٧)

ثم إن تسئل عمن أهل السنة والجماعة؟ فالجواب بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز هم الذين متمسكون بما ذكرنا فى هذا الكتاب من العقائد والأصول والحمد لله رب العالمين يعنى الذين يعتصمون بالقرآن والسنة وطريقة الصحابة رضي الله تعالى عنهم، الذين يرجعون إلى كلام الله وكلام رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم عند التنازع والاختلاف ولا يكون لهم الخيرة إذا قضى الله ورسولهٗ أمرا وحكما، الذين يعتقدون فى جميع العقائد الإسلامية كما هي بدون الغلو والإفراط والتفريط فلا يقعون فى التشبيه والتجسيم فى صفات الله ولا يسقطون فى التحريف والتعطيل والذين لا يعبدون ولا يدعون إلا الله وحدهٗ فلا يسألون الحاجات غير الله ولا يفعلون النذر والذبح إلا لله تعالى، الذين يتقون فى العبادات والمعاملات وفى جميع أطوار الحياة من البدعات والخرافات، الذين يعتقدون فى عصمة الأنبياء عليهم الصلوٰة والسلام من الصغائر والكبائر ولا يثبتون هذه العصمة لغيرهم من الإنس والجن ولا يعتبرون قول غيرهم من الجن والإنس صوابًا على الإطلاق بدون احتمال الخطأ [2]، الذين يحترمون ويعظمون الصحابة الكرام وأهل البيت رضي الله تعالى عنهم والأولياء والعلماء من السلف والخلف رحمهم الله تعالى، الذين يلزمون التقليد على غير المجتهد، الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر والذين يلزمون على العامة من زمان الخلف اتباع واحد من المذاهب الأربعة ونحن قد بيّنا سابقا سبب اللزوم للتمسک بواحد من المذاهب الأربعة وهؤلاء أهل السنة والجماعة وهم السواد الأعظم وفى الحديث "إن أمتى لا تجتمع على ضلالة، فإذا رأيتم اختلافا فعليكم بالسواد الأعظم." (سنن ابن ماجة، ح:٣٩٥٠)

ثم ما قال الشيخ رحمه الله تعالى عن الجماعة وأهميتها يشمل لزوم جماعة المسلمين وإمامهم وعدم الخروج وشق العصا عليه وقد جاء ت النصوص الكثيرة فى هذا الباب وفى الحديث "من أطاعني فقد أطاع الله ومن يعصني فقد عصى الله ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير

---

(١) يعني والله أعلم نصرته

(٢) اعلم أن المسائل الفرعية الاجتهادية فيها المجتهد قد يخطئ وقد يصيب لأن الحكم فيه معين عند الله، لكن دليلهٗ ظني لأنهٗ لو كان قطعيا لم يكن من المسائل الاجتهادية الفرعية كما هو ظاهر فإذا وجده المجتهد يعني الدليل الظني والحكم المعين أصاب وإلا أخطأ، لكن المخطئ معذور وفى الحديث "إذا اجتهد الحاكم فأصاب فلهٗ أجران وإذا اجتهد فأخطأ فلهٗ أجر واحد." (سنن الترمذي، ح:١٣٢٦)

فقد عصاني." (صحيح مسلم، ح: ١٨٣٥) وهذا كلهٗ يعني طاعة الأمير فهي في عدم معصية الله ورسوله صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم وفي الحديث "على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة." (صحيح مسلم، ح: ١٨٣٩) والسمع والطاعة لأمير المسلمين ما دام لا يأمر بمعصية حتىٰ لو يمنع حقنا لا يسوغ لنا أن ننزع يد الطاعة لهٗ فيما لا يكون أمره يقتضي معصية الله ورسوله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ولقد جاء في الحديث أن النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم سئل عن الأمراء يسألونا حقهم ويمنعونا حقنا فقال صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم." (صحيح مسلم، ح: ١٨٤٦) وفي حديث آخر "من كره من أميره شيئًا فليصبر عليه، فإنهٗ ليس أحد من الناس يخرج من السلطان شبرا فمات عليه إلا مات ميتة جاهلية"، (صحيح مسلم، ح: ١٨٤٩) "من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة لهٗ ومن مات وليس في عنقه[1] بيعة مات ميتة جاهلية." (صحيح مسلم، ح: ١٨٥١)، "من خرج من الطاعة وفارق الجماعة ثم مات مات ميتة جاهلية ومن قتل تحت راية عمّيّة يغضب للعصبة ويقاتل للعصبة فليس من أمتي ومن خرج من أمتي علىٰ أمتي يضرب برها وفاجرها لا يتحاش من مؤمنها ولا يفي لذي عهد عهدها فليس مني وفي رواية ولا يفي لذي عهد عهده فليس مني ولست منه." (سنن الترمذي، ح: ١٨٤٨) ولا يخفى أن الخروج على الإمام ما يقتضي من الفساد والفتنة والاضطراب والفرقة بين المسلمين وفي الحديث "من أتاكم وأمركم جميع علىٰ رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه." (صحيح مسلم، ح: ١٨٥٢) وقد مرّ بيان هذا بالتفصيل والفرق بين الخروج و الدفاع في باب "ولا نرىٰ الخروج علىٰ أئمتنا......".

وهٰذا كلهٗ إذا ينفذ الإمام قوانين الإسلام في البلاد ويقود الناس بكتاب الله عزوجل، فإذا كانت فيه من المنكرات والجور لا يجوز الخروج عليه لأن أمر المسلمين مجتمع عليه والإسلام نافذ في البلاد وشق العصا عليه يؤدي إلى الفرقة والفتنة والاضطراب وقد يأتي بالشر الأكبر من قبل وفي الحديث "إن أمّر عليكم عبد مجدع يقودكم بكتاب الله فاسمعوا لهٗ وأطيعوا." (صحيح ابن حبان،

---

(١) وفي زماننا هذا ليس عندنا الخلافة التي هي في القريش كما في الحديث "الأئمة من قريش." (المستدرك، ح:٦٩٦٢) بل ليس عندنا الإمارة الإسلامية في وجه ما في قريش ولا في غيرهم، بل بلاد المسلمين لا ينفذ عليها الدستور الإسلامي، بل جارى عليها النظام المغربي، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فهل نحن في وعيد هذا الحديث؟ فنرجو إن شاء الله أننا لسنا في هذا الوعيد بسبب أننا مضطرون مجبورون و، لكن عندنا النية الصالحة بحمد الله أننا نريد الخلافة الإسلامية، لكن لا بد أن نعمل العمل قدر الإمكان بهذه النية لقيامة الخلافة الإسلامية للخروج من وعيد هذا الحديث.

ح: ٤٥٦٤) وعن حذيفة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم "يكون بعدى أئمة لا يهتدون بهداى ولا يستنون بسنتي وسيقوم فيهم رجال [1] قلوبهم قلوب الشياطين فى جثمان إنس" قال حذيفة رضي الله تعالى عنه كيف أصنع يارسول الله! إن أدركت ذلك؟ قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم "تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع [2] وأطع." (صحيح مسلم، ح:١٨٤٧) "يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون فمن كره فقد برئ من أنكر فقد سلم و، لكن من رضى وتابع" قالوا يا رسول الله! ألا نقاتلهم قال "لا ما صلوا""، (صحيح مسلم، ح:١٨٥٤) "خياركم أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ويصلون عليكم وتصلون عليهم وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم" قيل يا رسول الله! أفلا ننابذهم بالسيف؟ فقال صلى الله تعالى عليه وسلم "لا ما أقاموا فيكم الصلوٰة وإذا رأيتم من ولاتكم شيئًا تكرهون فاكرهوا عمله ولا تنزعوا يدا من طاعته"." (صحيح مسلم، ح:١٨٥٥) فما دام الإمام يقود الناس بكتاب الله عزوجل ويقيم فيهم الصلوٰة وإقامته الصلوٰة فيهم تشير إلى اهتمامه بدين الله عزوجل لأن من يتغافل عن الصلوٰة يتغافل عن الأمور الأخرىٰ فى الدين فما دام اهتمامه بالدين موجود والإسلام نافذ فى البلاد لا يجوز الخروج علىٰ هٰذا الإمام بسبب المنكرات الذى فى ذاته أو بسبب الجور فى بعض أفعاله لأن هٰذا الخروج يؤدى إلى المفاسد هي أكثروأعظم من قبل وفى الحديث "إنما الإمام جنة يقاتل من ورائه ويتقى به فإن أمر بتقوى الله عزوجل وعدل كان لهٗ بذٰلك أجر وإن يأمر بغيره كان عليه منه." (صحيح مسلم، ح: ١٨٤١) فالإمام مادام جنة للمسلمين ووقاية لهم فى أنفسهم وحقوقهم يقودهم بكتاب الله عزوجل ويُنفذ الشريعة الإسلامية فى البلاد فمع ذٰلك كله لا يُخرج عليه بسبب بعض المعاصى والظلم الصادرة منه كما الأحاديث تأمرنا لأن كما ذكرنا المفاسد فى الخروج عليه أكثر وأعظم من المصالح المبتغى منه ، لكن الممنوع هوالخروج عليه ونزع يد طاعة وهٰذا لا يعنى أنهٗ لا يمكن عزلهٗ فى وجه ما، بل لو ظهر الفسوق منه، فأهل الحل والعقد لو يمكنهم عزلهٗ بدون الاضطراب والفرقة فيجب عليهم عزلهٗ لأن فى هٰذه الصورة تُجلب المصالح بدون المفاسد وهٰذه الصورة ليست ممنوعة فى الأحاديث لأنها ليست الخروج عن الطاعة، بل الطاعة للأمير جارية حتىٰ العزل وبعد العزل لا يبقى أميرا حتىٰ تكون لهٗ طاعة وهٰذا كما ذكرنا فى الإمام الذى ينفذ الشريعة الإسلامية ويقود الناس بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم.

لٰكن لو الأمير لا يُنفذ الشريعة الإسلامية، بل يُنفذ النظام غير الإسلامي ، ففى هٰذه الحالة هو

---

(١) والله أعلم يكون معناه أن فى جاشيتهم رجال فسقة.

(٢) يعنى والله أعلم فاسمع وأطع فى المعروف وإن ظلموك فى الأشياء و لا تنزع يد طاعة فى حقه.

ليس بـأمير على الإطلاق والبلد ليس بلد الإسلام، بل بلد الحرب فلا حرمة لهٰذا الأمير، بل يقاتل هو وجنوده حتى يكون الدين كلهٗ لله ، ففى القرآن ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتّٰى لَا تَكُوْنَ فِتْنَةٌ وَّيَكُوْنَ الدِّيْنُ كُلُّهٗ لِلّٰهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللّٰهَ بِمَا يَعْمَلُوْنَ بَصِيْرٌ﴾ (الأنفال: ٣٩) وكـذٰلك من يوالى مع الكفار فليس لهٗ حرمة لأن كمـا ذكرنا من الحديث أن الإمام جنة ووقاية فإذا يتولى الكفار فلا يكون جنة ووقاية للمسلمين، بل سبب الضرر والأذى لهم وأيضا من يتولى الكفار فهو منهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا لَا تَتَّخِذُوْا الْيَهُوْدَ وَالنَّصَارٰى أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَّمَنْ يَّتَوَلَّهُمْ مِّنْكُمْ فَإِنَّهٗ مِنْهُمْ إِنَّ اللّٰهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظّٰلِمِيْنَ﴾ (المائدة: ٥١) وأيضا فى الحديث "لا يزال طائفة من أمتى على الحق منصورين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله عزوجل." (سنن الترمذي، ح: ٢٢٩) فإذا قاتلت طائفة من المسلمين هٰذا الأمير وجنوده لنفاذ الشريعة الإسلامية فلا يخفى أن هٰذا الأمير وجنوده المقاتلين ضد الذين يريدون النظام الإسلامي ليسوا من هٰذه الطائفة المنصورة التى على الحق فلا تبقى إلا الطائفة التى تقاتلهم لأن هٰذا الحديث قدجاء بهٰذا اللفظ أيضا "لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة" (صحيح مسلم، ح: ١٥٦) فالحق ليس مع الأمير وجنوده فلا يبقى إلا أن الحق هو مع الطائفة المقاتلة ضد الأمير وجنوده وأما الأمير وجنوده فهم فى الحقيقة لا يستحقون اسم الإسلام لأن من يقاتل ضد النظام الإسلامي فليس مسلما وفى القرآن ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِيْنَ إِذَا دُعُوْا إِلَى اللّٰهِ وَرَسُوْلِهٖ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَّقُوْلُوْا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ (النور: ٥١) ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَّلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللّٰهُ وَرَسُوْلُهٗ أَمْرًا أَنْ يَّكُوْنَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَّعْصِ اللّٰهَ وَرَسُوْلَهٗ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيْنًا﴾ (الأحزاب: ٣٦) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا أَطِيْعُوا اللّٰهَ وَأَطِيْعُوا الرَّسُوْلَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوْهُ إِلَى اللّٰهِ وَالرَّسُوْلِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُوْنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذٰلِكَ خَيْرٌ وَّأَحْسَنُ تَأْوِيْلاً﴾ (النساء: ٥٩) وفى الأخير نذكر الحديث إن شاء الله العزيز "ما من نبي بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان لهٗ من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذٰلك من الإيمان حبة خردل." (صحيح مسلم، ح: ٥٠)

الأن إن شاء اللّٰه العزيز نتكلم عن البدعة وتعريفها وبيانها والله الموفق فنسألهٗ سبحانهٗ وتعالٰى الهداية والرشاد إلى صراط مستقيم.

البدعة:

اعلم أن كثيرا من الناس لا يعرفون تعريف البدعة مطلقا فمنهم المفرطون ومنهم المفرّطون، فأهل الإفراط فهم مثلا أصحاب وأتباع ابن تيمية وأمثالهم فى زماننا فهم لا يفهمون معنى البدعة حتى

يطلقون اسم البدعة على أشياء كثيرة ليس لها علاقة بها وأما أهل التفريط فهم كثير في زماننا من غلاة الصوفية والبريلوية والرافضة والخوارج وأتباع ابن تيمية أيضا منهم في بعض الأشياء. فمن اللازم أن نفهم معنى البدعة صحيحا صريحا لأن بدونه لا نستطيع أن نفرق بين ماهي البدعة وبين ما ليس منها لا سيما في زماننا مع الأشياء الكثيرة التي لم توجد في الزمان السابق ثم من اللازم أن نفهم معناها من الشريعة الإسلامية وهذا ظاهر لا خفاء فيه لأن من يريد أن يفهم معنى البدعة من غير الشريعة الإسلامية فهو يريد أن يفهم معنى البدعة بالبدعة نفسها لأن البدعة هي ما تقابل الشريعة الإسلامية فمن يريد أن يفهم معنى البدعة مما تقابل الشريعة الإسلامية فهو يريد أن يفهم البدعة بالبدعة فلا شك في ضلالته عن الهدى والصراط مستقيم. ونحن ذكرنا من الحديث أن الفرقة التي هي الفرقة الناجية هي "ما أنا عليه وأصحابي" وكذلك في القرآن ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ (البقرة:١٣٧) يعني بمثل الصحابة رضي الله تعالى عنهم وكذلك ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (التوبة:١٠٠) فعلمنا لكي نفهم معنى البدعة بالطريقة الصحيحة لا بد من أن نعرف كيف فهم الصحابة رضي الله تعالى عنهم معناها من الرسول الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم لأن منهجهم هو المنهج الحق حسب القرآن والسنة وكذلك ما عليه الصحابة لا يكون بدعة لأن ما عليه الصحابة رضي الله تعالى عنهم فالقرآن والسنة يشهدان له بالحق كما هو ظاهر من النصوص التي ذكرنا، فأولا نرى في القرآن الكريم ثم نرى في السنة ثم نرى كيف فهمهما الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، ففي القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (الحجرات:١) أي لا تقدموا قولا ولا فعلا بين يدي الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم وقول رسوله صلى الله تعالى وسلم وفعله هو كما تأخذوه منه ومن قدّم قولهٗ أو فعلهٗ على الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فقد قدمه على الله تعالى لأن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم إنما يأمر عن أمر الله عزوجل وفي ألفاظ أخرى أن ما قال الله وقال رسولهٗ صلى الله تعالى عليه وسلم فافعلوه بدون التبديل والتغيير لأن التبديل والتغيير هو تقديم فعلك على الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم والآية لا تعني أن كل شيء لم يفعله الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ففعلهٗ يكون تقدما عليه البتة وإلا تكون السكونة في باكستان تقدما عليه؛ لأنهٗ صلى الله تعالى عليه وسلم لم يفعلها وهذا ظاهر، بل التقدم هو كما ذكرنا إذا قال الله وقال رسولهٗ صلى الله تعالى عليه وسلم شيئًا فالشيء على مقابلته يكون تقدما على الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم فيكون من البدعة التي معناها لغويا "أمر جديد حادث محدث" ففي الشريعة كل أمر محدث على مقابلة ما قال الله وقال رسولهٗ صلى الله تعالى عليه وسلم ثم في القرآن ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ

بِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً﴾ (المائدة:٣) فهذه الآية نزلت لما نزلت في حجة الوداع في يوم عرفة يوم الجمعة كما ثبت في الروايات ولم ينزل بعدها حلال ولا حرام فأكمل الله عزوجل الدين وهو الإسلام فمن أحدث شيئًا في هذا الدين فهو المبتدع وما حدث فهو البدعة لأن الدين كامل فمن احدث شيئًا فيه مكملا له يزعم أنه ناقص وهذا يخالف الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، فعلمنا أن كل شيء الذي لا أصل له في دين الإسلام يحدث في دين الإسلام يكون من البدعة فعلى هذا ما يحدث لا في داخل دين الإسلام ليس بدعة؛ لأنه لم يحدث على الزعم لتكميل الدين فلا يخالف هذه الآية عن إكمال الدين. فالبدعة ما تقابل ما قال الله وقال رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم يعني القرآن والسنة ويكون أمرا حادثا في دين الإسلام الذي لا أصل له في دين الإسلام فليس كل شيء تقابل ما قال الله وقال رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم من البدعة، ، فمثلا الزنا الذي قد حرم الله تعالى ففعله ليس بدعة مع كونه حراما ومعصية، بل البدعة هي الأمر الحادث المحدث في دين الإسلام الذي لا أصل له في الشريعة الإسلامية على الزعم أنه فيها مثلا القول عن الشيء الذي ليس بسنة أنه سنة يكون بدعة لأن قوله تقابل ما قال الله وقال رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأنه يزعم لشيء أنه سنة مع كونه ليس بسنة عند الله وعند رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ومع هذا هو أمر حادث في الشريعة الإسلامية لأن السنن من الشريعة فزعمه عن شيء أنه سنة مع أنه ليس منها أمر حادث في الشريعة الذي لا أصل له فيها ، لكن يزعم أنه فيها فيجمع في هذا الشيء المزعوم الشروط التي تقتضي كونه بدعة فهو بدعة لا محالة.

ثم الأحاديث عن البدعة فمنها "من يعش منكم فسيرىٰ اختلافا كثيرا فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وعليكم بالطاعة وإن عبدا حبشيا فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما قيد انقاد." (سنن ابن ماجة، ح:٤٣)

"أما بعد فإن خير الأمور كتاب الله وخير الهدى هدى محمد (صلى الله تعالى عليه وسلم) وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة." (سنن ابن ماجة، ح:٤٥) "ألا وإياكم ومحدثات الأمور فإن شر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة." (المستدرك، ح:٣٣٢) "لا يقبل الله لصاحب بدعة[1] صوما ولا صلاة ولا صدقة ولا حجاولا عمرة ولا جهادا ولا صرفا ولا عدلا يخرج من الإسلام كما تخرج الشعرة من العجين"، (سنن ابن ماجة، ح:٤٩) "أبى الله أن يقبل عمل صاحب بدعة حتى يدع بدعته." (سنن ابن ماجة، ح:٥٠) ،"وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة" قال ومن هي يا رسول الله! قال (صلى الله تعالى عليه وسلم) "ما أنا عليه

(١) هذا الوعيد إذا كانت بدعته البدعة المكفرة المخرجة من ملة الإسلام.

واصحابى" "،(سنن الترمذي، ح: ٢٦٤١) "من صنع امرا على غير امرنا فهو رد." (سنن أبى داود، ح:٤٦٠٦) ، "من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد." (صحيح مسلم، ح:١٧١٨) ،"إن الله لا يجمع أمتى أو قال أمة محمد (صلى الله تعالى عليه وسلم) على ضلالة ويدالله على الجماعة [1] ومن شذ شذ إلى النار." (سنن الترمذي، ح:٢١٦٧) "من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة"(سنن الترمذي: ح:٢١٦٥) "إن أمتى لا تجتمع على ضلالة فإذا رأيتم اختلافا فعليكم بالسواد الأعظم." (سنن ابن ماجة، ح:٣٩٥٠) ،"خير أمتى قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم." (صحيح البخاري، ح: ٣٦٥٠) وفى القرآن ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء:١١٥) وفى الحديث "من أحدث فيها (المدينة) حدثا أو آوىٰ محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين"،(صحيح مسلم، ح: ١٣٧١) "من وقر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام." (شعب الإيمان، ح:٩٠١٨) ،"إن الله حجب التوبة عن كل صاحب البدعة حتى يدع بدعته." (شعب الإيمان، ح: ٩٠١١) وعن عمر بن خطاب رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال لعائشة "يا عائشة! إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا هم أصحاب البدع وأصحاب الأهواء ليس لهم توبة أنا منهم برئ وهم منى براء." (شعب الإيمان، ح:٦٨٤٧)

وهذه النصوص التى ذكرنا عرفنا منها هذه الأشياء أن كل محدث فى دين الإسلام الذى لا أصل له فيه من القرآن والسنة وأفعال الخلفاء الراشدين ومنهج الصحابة رضي الله تعالى عنهم وإجماع جماعة المسلمين أو إجماع جماهيرهم فهذا المحدث هو البدعة القبيحة التى هي الضلالة التى هي فى النار والله سبحانهٗ وتعالى لا يقبل توبة المبتدع من بدعته حتى يدع بدعته وهذا إذا كانت بدعته لم تبلغ الكفر وإلا لو كان بدعته تبلغ الكفر فلا توبة لهٗ فى شيء ما حتى يدع بدعته ويدخل فى الإسلام؛ لأنهٗ فى هذه الحالة ليس مسلما، بل كافرا، والمبتدع هو يخرج من أهل السنة والجماعة وهي الفرقة الناجية التى على ما عليه الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه رضي الله تعالى عنهم فالمبتدع خارج منها حسب قباحة بدعته فمهما ازداد البدعة والضلالة ازداد بُعد المبتدع من أهل السنة والجماعة حتى لو بدعته تبلغ الكفر يخرج المبتدع من ملة الإسلام تماما وإن لم تبلغ الكفر فلا يخرج من ملة الإسلام ، لكن يخرج من أهل السنة والجماعة على حسب ضلالة بدعته وتوقير المبتدع حرام؛ لأنهٗ إعانة على هدم الإسلام والرسول صلى الله تعالى عليه وسلم برئ من أهل البدعة فوجب البراءة منهم اتباعا لنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم. الآن نرى الصحابة رضي الله

(١) يعنى تأييده مع الجماعة والله أعلم

تعالى عنهم فى شأنهم عن المحدثات والبدعات.

عن نافع أن ابن عمر رضي الله تعالى عنه جاءه رجل فقال إن فلانا يقرئ عليك السلام فقال إنه بلغنى أنهُ قد أحدث فإن كان قد أحدث فلا تقرءه منى السلام فإنى سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول "فى هذه الأمة أو فى أمتى خسف أو مسخ أو قذف فى أهل القدر." (سنن الترمذي: ح: ٢١٥٢) وكذلك كان ابن عمر رضي الله تعالى عنه يرى الخوارج شرار خلق الله وقال إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت فى الكفار فجعلوها على المؤمنين وفى الجملة مقاومة الصحابة رضي الله تعالى عنهم ضد الخوارج معلومة وهم الذين كفّروا المسلمين واستحلوا دماء هم وأموالهم وقاتلوهم سيدنا علي رضي الله تعالى عنه وجنده وكذلك مقاومة الصحابة رضي الله تعالى عنه ضد الرفض ومنكر القدر كلها معلومة عند من اطّلع على التاريخ الإسلامية والصحابة رضي الله تعالى عنهم كانوا أبعد الناس من البدعات متمسكين بالكتاب والسنة معرضين من الأمور المحدثة فلا عجب أن القرآن والسنة جعلا منهجهم الميزان بين الحق والباطل بين الضلالة والهداية كما ذكرنا نحن من النصوص.

الأن نحن نذكر بعض الأمور من الصحابة رضي الله تعالى عنهم تؤيدنا فى فهم معنى البدعة حتى لا نقع فى الإفراط فى معنى البدعة، فمنها ما رواه البخاري عن أبى هريرة رضي الله تعالى عنه وفيه قصة خبيب رضي الله تعالى عنه الذى قتله الكفار من أهل مكة فأخرجوه من الحرم ليقتلوه فقال دعونى أصلى ركعتين فكان أول من سنّ الركعتين عند القتل (البخاري حديث رقم ٣٠٨٦) وغايتنا فى ذكر هذه القصة أن هذا الصحابي رضي الله تعالى عنه أول من سنّ الركعتين عند القتل ولم يعتبره من البدعة وكان حينئذ بعيد من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والكفار قد أجمعوا أن يقتلوه فرأى أن يكون آخر عمله من حياة الدنيا الصلوٰة وفى الحديث "إنما الأعمال بالخواتيم." (صحيح البخاري: ح:٦٦٠٧) فلأن الأصل لعمل هذا الصحابي رضي الله تعالى عنه موجود فى الشريعة الإسلامية وهو أن ما عدا الأوقات المكروهة للصلوات النافلة، فالصلوات النافلة فى ما عداها جائزة فى نفسها طلبا للثواب وفى الحديث عن عثمان رضي الله تعالى عنه أنهُ توضأ ثم قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم "من توضأ نحو وضوئى هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفرلهُ ما تقدم من ذنبه." (صحيح مسلم، ح: ٢٢٦) فأخذا بهذا الأصل جعل هذا الصحابي خبيب رضي الله تعالى عنه آخر فعله من الحياة الدنيوية صلوٰة الركعتين ولم يكن هذا الفعل من البدعة، بل السنة المقبولة الذى ذكر فى الحديث "من سن فى الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعدهُ كتب لهُ مثل أجر من

عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء ومن سن فى الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعدهُ كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء." (صحيح مسلم، ح:١٠١٧) فكان عمل هذا الصحابي الجليل رضي الله تعالىٰ عنه سنة حسنة وكذلك ما رواه البخاري حديث رقم ٥٠١٣ عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالىٰ عنه أن رجلا سمع رجلا يقرأ "قل هو الله أحد." (سورة الإخلاص) يرددها فلما أصبح جاء إلى رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فذكر ذلك لهٗ وكان الرجل يتقالّها فقال رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "والذى نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن" ففى هٰذا الحديث هٰذا الصحابي رضي الله تعالىٰ عنه يردد سورة الإخلاص لا يزيد عليها والظاهر أنهٗ يفعل هٰذا بدون أن يسأل عنه النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم، لكن الأصل لفعله موجود فى الشريعة الإسلامية وهو تلاوة القرآن ﴿فَاقْرَءُوْا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْاٰنِ﴾ (المزمل:٢٠) والنبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم أقرّ فعلها واستحسنه وكذلك ما رواه مسلم حديث رقم ١٨٩٠ عن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها أن رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم بعث رجلا علىٰ سرية وكان يقرأ لأصحابه رضي الله تعالىٰ عنهم فى صلاتهم فيختم بـ "قل هو الله أحد." (سورة الإخلاص) فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فقال صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "سلوه لأى شيء يصنع ذلك" فسئلوه، فقال لأنها صفة الرحمٰن فأنا أحب أن أقرأ بها، فقال رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "أخبروه أن الله يحبه" ففى هٰذا الحديث هٰذا الصحابي رضي الله تعالىٰ عنه اختار فعلا وهو ختم القراءة فى الصلاة بسورة الإخلاص دائما بدون أن يسأل النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم عنه والرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم بعد اطّلاعه عن سببه لهٰذا الفعل بشّره بحب الله تعالىٰ لهٗ والأصل لفعله موجود فى الشريعة وهو قراءة القرآن فى الصلاة ﴿فَاقْرَءُوْا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْاٰنِ﴾ (المزمل:٢٠) وكذلك ما رواه مسلم حديث رقم ٥٣٥٨ عن أبى أيوب أنصارى رضي الله تعالىٰ عنه أن النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم نزل عليه، فكان منزل النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فى السفل وأبو أيوب فى العلو فانتبه أبو أيوب ليلة فقال نمشى فوق رأس رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فتنحّوا فباتوا فى جانب ثم قال للنبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فقال النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم "السفل أرفق" فقال أبوأيوب لا أعلو سقيفة أنت تحتها فتحوّل النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فى العلو وأبو أيوب فى السفل وفى هٰذا الحديث أبو أيوب أنصارى رضي الله تعالىٰ عنه جاء بفكر من نفسه الذى لم يأمره النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم، بل النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم

رجّح السفل كما هو ظاهر من قوله عليه السلام "السفل أرفق"، لكن الصحابي رضي الله تعالى عنه امتنع من أن يكون في الطبق العلوّ والرسول صلى الله تعالى عليه وسلم تحتهٗ تعظيما لهٗ عليه السلام والتعظيم للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أصل من أصول الدين ﴿ذٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللّٰهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوْبِ﴾ (الحج: ٣٢) فرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لم يقل للصحابي أنهٗ يخوض في البدعة (معاذالله)، بل فهم قصده وتحوّل إلى العلو وكذٰلک ما رواه الترمذي حديث رقم ٣٦٨٩ أصبح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فدعا بلالا فقال يا بلال! "بمَ سبقتني [1] إلى الجنة ما دخلت الجنة قط إلا سمعت خشخشتک امامي، دخلت البارحة الجنة فسمعت خشخشتک أمامي. .... " فقال بلال يا رسول الله ما أذنت قط إلا صليت ركعتين وما أصابني حدث قط إلا توضأت عندها ورأيت أن لله عليّ ركعتين فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم "بهما".

ففي هٰذا الحديث اختار بلال رضي الله تعالى عنه فعلا، سمع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم خشخشته في الجنة وبلال في الأرض بسبب هٰذا الفعل وبلال لم يسأل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن هٰذا الفعل بالخصوص، بل اختاره بنفسهٖ لأن أصل هٰذا الفعل موجود في الشريعة، ففي الحديث "بين كل أذانين (الأذان والإقامة) صلاة لمن شاء." (صحيح البخاري، ح: ٦٢٤) والحديث عن ركعتين الذي قد ذكرنا سابقا فلم يكن فعلهٗ بدعة، بل سنة حسنة مقبولة.

ونحن ذكرنا هٰذه النصوص لكي تعرف كيف الصحابة رضي الله تعالى عنهم فهموا معنى البدعة وفهمهم مأخوذ من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لأنهم تعلموا الدين من الرسول عليه الصلوٰة والسلام مباشرة بلاواسطة وأيضا الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم لم يعتبر أفعالهم المذكورة في هٰذه الأحاديث من البدعة وفيه الرد على المُفرطين في معنى البدعة من أتباع ابن تيمية وأمثالهم الذين يطلقون اسم البدعة في كل ما لم يذكر حرفا بحرف في القرآن والسنة وعلمت أن الأمر ليس كذٰلک لو هناک أصل موجود في الشريعة الإسلامية لفعل ما فلا يكون هٰذا الفعل من البدعة ولو كان هٰذا الفعل بنفسهٖ لم يذكر في القرآن والسنة حرفا بحرف فلا بد من معرفة الأصل ثم يمكن عليه التفريع، لكن هٰذا الأمر ليس للعوام، بل لا بد من العالم المتبحر في الدين المتمسک بأهل السنة والجماعة فهو يرى في شيء ما ويجتهد فيحكم هل هٰذا الشيء من البدعة أم لا؟ وهٰذا يعني ضرورة العالم المتبحر لهٰذا الأمر ظاهر لا خفاء فيه لأن العامي ليس عنده علم الذي يحتاج إليه

---

(١) لا يعني أن بلالا رضي الله تعالى عنه يسبق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم إلى الجنة في الحقيقة، بل هٰذا هو كان في الأرض ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يسمع خشخشته في الجنة وفيه فضيلة عظيمة لهٗ وأيضا الخادم يمشي أمام المخدوم.

لمعرفة الأصول والتفريعات المبنية عليها. والعبد الحقير غفر الله لهٗ قد رأى بعض أتباع ابن تيمية يعتبرون تعيين الأوراق من القرآن يوميا لتلاوة من البدعة مثلا لو واحد يقرأ عشرة أوراقا من القرآن كل يوم فهم يرون هٰذا العمل بدعة وهٰذا جهل منهم والغلو وعدم الفهم لمعنى البدعة لأن قراءة القرآن ما تيسر منه من الدين فالشخص عيّن عشرة أوراقا يوميا لا لأن تعيينه بعشرة أوراق نفسه من السنة أو المندوب، بل ليكون لهٗ برنامج خاص والأصل الذى هو مطلوب هو قراءة القرآن نفسه وكذٰلك بعض أتباع ابن تيمية يرون تعيين الأذكار المعينة من البدعة وهٰذا أيضا جهل منه لأن التعيين نفسه غايته تخطيط البرنامج والأصل الذى هو مطلوب هو ذكر الله الذى من الدين وهناك أمثال كثيرة أخرىٰ فى الغلو فى البدعة وإطلاقها على الأشياء ومنها يعرف أن العمل المحدث الذى غايته تأييد والنظم للدين ولا يعتبر العمل داخلا فى الدين لا يكون من البدعة؛ لأنهٗ إحداث للدين وليس فى الدين مثلا المدارس والمكاتب فهٰذه الأشياء ليس إحداثا فى الدين، بل للدين لأن ما يعلّم ويتعلم فيها ليس إلا القرآن والسنة فالبدعة هي إحداث فى الدين داخل فيه ، لكن هي ليس منه فلا يكون لها أصل فى القرآن والسنة والإجماع والقياس ولا أثر عن الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم وهٰذه هي البدعة المحكوم عليها بالضلالة وهي أكبر الأثم بعد الكفر والشرك ونحن ذكرنا النصوص فى شناعتها وقباحتها. وأما الشيء المحدث الذى لا يعتبر داخلا فى الدين أو يعتبر داخلا فى الدين ولهٗ أصل من القرآن أو السنة أو الإجماع أو الآثار أو القياس فهٰذا الشيء المحدث لا يكون من البدعة التى هي الضلالة ، لٰكن قد يطلق عليه اسم البدعة لغويا لأن هٰذا الأمر محدث ، لكن إطلاق البدعة عليه من حيث أنهٗ أمر محدث بعد زمان النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وليس من حيث أنهٗ ضلالة وقد تكون هٰذه البدعة اللغوية شيء حسن كصلاة التراويح بالجماعة فى شهر رمضان التى بدايتها فى زمان خلافة عمر رضي الله تعالىٰ عنه وأصلها موجودة فى زمان النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ، لكن سيدنا عمر رضي الله تعالىٰ عنه قال "نعمت البدعة هذه ." (شعب الإيمان، ح: ٢٩٩٩) لأنه ولو كان أصلها موجودة فى زمان النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ، لكن بالهيئة التى هي موجودة الأن بدأت فى خلافة عمر رضي الله تعالىٰ عنه فمن هٰذا الحيث أنها كانت أمرا محدثا فأطلق عمر رضي الله تعالىٰ عنه اسم البدعة عليها من حيث اللغة لا من حيث الضلالة وقال إنها نعمت البدعة يعنى أمر محدث حسن.

ثم اعلم أن البدعة يعنى التى هي الضلالة تنقسم من حيث حكمها فى قسمين (١) البدعة فى العقيدة (٢) البدعة فى العمل، ثم البدعة فى العقيدة قد تكون مكفرة مخرجة من الإسلام وقد تكون غير مكفرة، بل مفسقة، مضللة والبدعة فى العمل كذٰلك ، لكن أكثر الأحيان أنها بدعة غير مكفرة،

بل مفسقة، مضللة ونحن ذكرنا امورا كثيرة فى هٰذا الكتاب التى هي منتشرة فيها وردنا عليها لأنها من البدعات وبيّنا حكمها أيضا والمعيار ماهي تناقض أصول الدين يكون كفرا مثلا إنكار قدر الله كما فعل القدرية أو وصف الله بسمات الحدوث كما فعل المشبهة وأمثالها كثيرة توجب الكفر وهي من البدعات فى العقيدة والبدعة المكفرة فى العمل مثاله السجود لغير الله فهٰذه كفر بواح والبدعات التى لا يناقض أصول الدين ولا توجب إنكارما هو القاطع فى الشريعة لا تكون كفرا إلا أن عاملها يزعم أن دين الإسلام كان ناقصا وهٰذه البدعة تكملهٗ ، ففى هٰذه الحالة تكون بدعته كفرا ولو لم توجب فى نفسها إنكار ما هو القاطع فى الشريعة لأن زعمه أن دين الإسلام ناقص فى نفسه ينكر أصول الدين القاطعة فيكون كفرا ، لكن فى العموم المبتدع لا يفعل بدعته زعما أن دين الإسلام ناقص وبدعته تكميلا لهٗ، بل يعتقد أن بدعته سنة مقبولة فى الدين والدين هو الكامل لا يحتاج إلى الكمال.

وفى عصرنا قد انتشرت البدعات الكثيرة الرائجة ومن اللازم اجتناب منها ومنها العرس[1] على القبور والمصابيح والغلاف والرداء عليها وتجصيصها وبنيان القبّات عليها وكذٰلک ما يفعلون بعد موت واحد ما بثلاثة أيام ويسمونه "التيجة" وكذٰلک ما يفعلون بعد أربعين يوما ويسمونه "الشاليسواں" ومنها زيادة كلمات قبل وبعد الأذان مثلا الصلٰوة والسلام ومنها ذكر بالجهر بعد الصلٰوة بهيئة المخصوص ومنها الدعاء بعد الصلٰوة على الميت ومنها ما يفعلون فى شهر المحرم الحرام من بنيان ما يسمونه "التعزية" وبنيان "سبيل" للماء ومنها حفلة الميلاد فى الربيع الأول وخروج المجتمع فيه ومنها قبلة الأصابع فى الأذان ومنها تعيين العمل أو الأذكار بالهيئة المخصوص علٰى نية أن هٰذه الهيئة مطلوب فى نفسها ومنها الأذان بعد قبر الميت على القبر ومنها تعيين الأيام أو الليالى من نفسه للأعمال المخصوصة بنية أن هٰذا التعيين مطلوب فى نفسه وكذٰلک من أمثالها كثيرة جدا والأصل هو كل أمر محدث يعتقد أنهٗ فى الدين وليس منه فيكون البدعة.

المتن:

• ودين الله فى الأرض والسماء واحد وهو دين الإسلام، قال الله تعالٰى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران: ١٩) وقال تعالٰى ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣)

---

(١) وفى الحديث "نهى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ان يبنى على القبر أو يزاد عليه او يجصص أو يكتب عليه." (سنن النسائي، ح: ٢٠٢٧) وعن علي رضي الله تعالى عنه قال لهٗ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم "لا تدعن قبرا مشرفا (أى فوق الشبر تطبيقا بالحديث أن قبر رسول الله ﷺ مسنم) إلا سويته ولا صورة فى بيت إلا طمستها." (سنن النسائي، ح: ٢٠٣١) "لعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج." (سنن الترمذي، ح: ٣٢٠)

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى هنا قريبا من آخر الكتاب يقول إن دين الله واحد فى الأرض والسماء وهو دين الإسلام ومعنى دين الله الدين الذى قد شرع الله لخلقه ومعنى فى السماء يعنى أهل السماء من الملائكة وغيرهم من خلق الله الذين فى السموات وفوقها من الأرواح والحور وغيرهم ومعنى فى الأرض فهم الإنس والجن وثم سائر الخلق تبعا لأن الكل يسلمون لله تعالى وفى القرآن ﴿بَل لَّهُ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قٰنِتُوْنَ﴾ (البقرة:١١٦) ﴿أَفَغَيْرَ دِيْنِ اللّٰهِ يَبْغُوْنَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِى السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَّكَرْهًا وَّإِلَيْهِ يُرْجَعُوْنَ﴾ (آل عمران:٨٣) ﴿وَلِلّٰهِ يَسْجُدُ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ مِنْ دَآبَّةٍ وَّالْمَلَآئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُوْنَ﴾ (النحل:٤٩) ﴿وَإِنْ مِّنْ شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهٖ وَلٰكِنْ لَّا تَفْقَهُوْنَ تَسْبِيْحَهُمْ﴾ (بنى إسرائيل:٤٤) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلٰى مَا خَلَقَ اللّٰهُ مِنْ شَىْءٍ يَّتَفَيَّؤُا ظِلٰلُهٗ عَنِ الْيَمِيْنِ وَالشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلّٰهِ وَهُمْ دٰخِرُوْنَ﴾ (النحل:٤٨) وهذا لأن جميع الخلق منقاد ومضطر تحت أوامر الله الكونية التى تتعلق بإرادته ومشيئته فكل فى العالم لا خروج لأحد من إرادة الله النافذة فى خلقه وكذلك كل فى العالم حيوان أو جماد [1] يسبّحون الله بحمده ويسجدون له وإن قيل كيف يسبّح ويسجد الكافر؟ فالجواب بتوفيق الله تعالى أن الكافر ولو لا يسجد لله ويسبّحه إيمانا واحتسابا و عبادة، لكن أجزاء جسمه وروحه وفيه تسبّح الله وتسجد له بالكيفية لا نفقهها، لكن هذه السجدة والتسبيح ليس تكليفيا بل جبلية فطرها الله عليها فلا ثواب للكافر عليها وأما تكليفيا فهذا الكافر جاحد لله تعالى، فلهذا له النار خالدا مخلدا فيها أبدا وفى القرآن ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِى السَّمٰوٰتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُوْمُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَآبُّ وَكَثِيْرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيْرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُّهِنِ اللّٰهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللّٰهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ (الحج:١٨) ففى هذه الآية بين الله عزوجل أن السجدة له تعبدا وتكليفيا فيفعلون كثير من الناس وأما الآخرون فيمتنعون ويأبون ويستكبرون، فلهذا ثبت عليهم العذاب.

فحاصل الكلام أن الإسلام دين الله فى خلقه الجميع فى معنى أن كلهم منقادون مضطرون تحت إرادته ومشيئته وأن كلهم مجبولون أن يسبّحوا له ويسجدوا له ولو لا نفهم كيفياتها وكذلك

---

(١) وفى الحديث عن عبدالله رضي الله تعالى عنه لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل (معجزة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم) (أخرجه البخاري، ح:٣٥٧٩) وفى حديث أبى ذر رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ فى يده حصيات فسمع لهن تسبيح كحنين النحل (مسند البزار، ح:٤٠٤٠) وكذلك فى يد أبى بكر وعمر وعثمان رضي الله تعالى عنهم وفى حديث أن الضفدع "نقيقها تسبيح." (السنن الصغير: ح:٣٠٥٩) وفى حديث عن الدواب "اركبوها سالمة ودعوها سالمة ولا تتخذوها كراسى لأحاديثكم فى الطرق والأسواق، فرب مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكرا لله منه." (المعجم الكبير، ح:٤٢٣)

دين الإسلام دين الله الذى كلّف المكلفين به الإنس والجن وكذٰلك الإسلام هو دين الله فى السماء للملائكة فهم يسلمون لأوامر الله وكذٰلك ما فى السماء وفوقها من أرواح المؤمنين فى حالة البرزخ والمخلوق فى الجنة فكلهم يسلمون لله تعالٰى ، لكن الفرق بين أهل السماء والإنس والجن فى الأرض أن أهل السماء وكذٰلك الملائكة الذين فى الأرض فهم كلهم لا يحسون ولا يجدون المشقة فى امتثال أوامر الله تعالٰى لأن ليس عندهم نفوس كنفوس الإنس والجن ولهٰذا ليسوا مكلفين علٰى منوال تكليف الإنس والجن وأما الإنس والجن فهم ليسوا مجبولين علٰى دين الله الإسلام كمثل الملائكة، بل هم مكلفون أن يختاروا دين الله الإسلام ويكسروا ويهدموا الشهوات النفسانية والغوايات الشيطانية إيمانا بالله ورسوله صلى الله تعالٰى عليه وسلم وإسلاما لله رب العلمين. وهٰذا هو الإسلام الذى قال الله تعالٰى عنه ﴿إِنَّ الدِّيْنَ عِنْدَ اللّٰهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران:١٩) ﴿وَمَنْ يَّبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيْنًا فَلَنْ يُّقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْاٰخِرَةِ مِنَ الْخٰسِرِيْنَ﴾ (آل عمران:٨٥) فالله عزوجل لا يقبل من الإنس والجن دينا ما من الأديان إلا دين الإسلام والإسلام لم يبدأ من نبينا وحبيبنا محمد صلى الله تعالٰى عليه وسلم، بل الإسلام من بداية الخلق وهو دين الله الذى كان عليه أول الإنسان سيدنا آدم عليه الصلٰوة والسلام وكذٰلك جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بعدهم كلهم كانوا مسلمين ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيْمُ يَهُوْدِيًّا وَّلَا نَصْرَانِيًّا وَّلٰكِنْ كَانَ حَنِيْفًا مُّسْلِمًا وَّمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ﴾ (آل عمران:٦٧) وكذٰلك فى سيدنا عيسٰى عليه الصلٰوة والسلام ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيْسٰى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِيْ إِلَى اللّٰهِ قَالَ الْحَوَارِيُّوْنَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللّٰهِ اٰمَنَّا بِاللّٰهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُوْنَ﴾ (آل عمران:٥٢) فثبت أن ما دعا إليه سيدنا عيسٰى عليه السلام قومه كان دين الإسلام وكذٰلك يعقوب عليه السلام والد بنى إسرائيل ﴿وَوَصّٰى بِهَا إِبْرَاهِيْمُ بَنِيْهِ وَيَعْقُوْبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّٰهَ اصْطَفٰى لَكُمُ الدِّيْنَ فَلَا تَمُوْتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُّسْلِمُوْنَ﴾ (البقرة:١٣٢) فثبت أن دين إسرائيل سيدنا يعقوب عليه السلام كان دين الإسلام وهو دين جميع الأنبياء عليهم الصلوات والسلام وفى القرآن ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِّنَ الدِّيْنِ مَا وَصّٰى بِهٖ نُوْحًا وَّالَّذِيْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهٖ إِبْرَاهِيْمَ وَمُوْسٰى وَعِيْسٰى أَنْ أَقِيْمُوا الدِّيْنَ وَلَا تَتَفَرَّقُوْا فِيْهِ﴾ (الشورى:١٣) يعنى كلهم واحد فى الأصول من توحيد الله وطاعته والإيمان برسله وكتبه واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله تعالٰى وكذٰلك سائر الأصول ولو كانوا مختلفين فى الفروعات ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَّمِنْهَاجًا﴾ (المائدة:٤٨) وفى الحديث "نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد." (المستدرك ، ح: ٤١٥٣) فدين الله هو دين الإسلام وهو الدين فى السماء والأرض وهو الدين من البداية إلى النهاية ﴿وَمَنْ يَّبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيْنًا فَلَنْ يُّقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْاٰخِرَةِ مِنَ الْخٰسِرِيْنَ﴾ (آل عمران:٨٥) ثم اعلم أن الدين يعنى دين الإسلام الذى هو دين جميع الأنبياء عليهم الصلوات والسلام

كان كاملا فى حق جميع الأنبياء عليهم الصلوات والسلام بحسبه وبحسب أمته فدين الإسلام فى زمان سيدنا نوح عليه السلام كان كاملا فى حقه وحق أمته وكذلك دين الإسلام كان كاملا فى زمان سيدنا موسىٰ عليه السلام فى حقه وحق أمته وكذلك جميع الأنبياء عليهم السلام ، لكن دين الإسلام فى أكمل الصفة صار عند زمان خاتم الأنبياء سيد الكونين نبينا وحبيبنا محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وهٰذا لا يعنى أن دين الإسلام فى زمان موسىٰ عليه السلام كان ناقصا لا!، بل كان كاملا ، لكن فى حقه وحق أمته ولزمان معين، فلما جاء سيدنا عيسىٰ عليه السلام وأعطى الأنجيل وغيّر بعض الأحكام كما فى القرآن ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ (آل عمران:٥٠) يعنى سيدنا عيسىٰ عليه السلام قال لهم أنهٗ ينسخ بعض أحكام التوراة بإذن الله ومن عنده تعالىٰ فحينئذ صار دين الإسلام ما جاء بهٖ سيدنا عيسىٰ عليه السلام وهو كامل أيضا ، لكن فى حقه وحق أمته ولزمان معيّن فلما جاء سيد الكونين خاتم الأنبياء محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ونسخ ما نسخ من الشرائع قبلهٗ وجاء بالقرآن وأعطى دين الإسلام الأكمل وليس فقط كاملا فلا نسخ لهٗ إلى يوم القيامة ولا شريعة بعدهٗ ولا نبي بعدهٗ ولا رسول وبعث إلى العٰلمين إلى سائر الإنس والجن، فدين الله اتباع محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وهو الدين الذى لن يقبل الله غيره، فمن ابتغىٰ دين الله فى غير اتباع النبي محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فقد خاب وخسر وضل وغوىٰ ويكون النار مثواه للأبد لا محيص عنها ولا فرار إلا أنهٗ أمن بنبينا ورسولنا محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم واتبعه ويموت علىٰ اتباعه وهٰذا هو الذى لهٗ النجاة والفوز والفلاح ومثواه الجنة، اللّٰهم اجعلنا منهم أمين.

وفى القرآن ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة:٣) ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران: ٣١-٣٢) ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء:٦٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:١٠٢) وفى الحديث "والذى نفس محمد بيدهٖ لا يسمع بى أحد من هٰذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار." (صحيح مسلم، ح: ١٥٣) "لو كان موسىٰ حيا لما وسعه إلا اتباعى." (مسند أحمد، ح: ١٤٦٣١) يعنى لو كان سيدنا موسىٰ عليه السلام حيا الأن ليس لهٗ سبيل إلى رضوان الله إلا فى اتباع سيدنا محمد خاتم الأنبياء ونبينا وحبيبنا صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وموسىٰ عليه السلام نبي رسول فناهيک عن غير الأنبياء.

فحاصل الكلام ان دين الله فى هٰذا الزمان هو اتباع محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وهو

دين الإسلام ونبينا وحبيبنا محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم مبعوث إلى سائر الإنس والجن إلى يوم القيامة فلا شريعة ولا منهاج إلا شريعتهٔ ومنهاجه إلى يوم القيامة ونشكر الله تعالىٰ علىٰ أنهٔ جعلنا من أمة حبيبه محمد صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم وجعلنا من متبعيه ونسألهٔ (يعنى نسأل الله عزوجل) الموت علىٰ إيمانه واتباعه عليه الصلوات والسلام آمين يا رب العٰلمين.

المتن:

وهو (يعنى دين الإسلام) بين الغلو والتقصير وبين التشبيه والتعطيل وبين الجبر والقدر وبين الأمن والإياس، فهٰذا ديننا واعتقادنا ظاهرا وباطنا، ونحن برئاء إلى الله من كل من خالف الذى ذكرناه وبيناه.

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالىٰ بعد بيان عقيدة أهل السنة والجماعة، يقول أن الإسلام الذى هو عقيدتنا المبين فى القرآن والسنة وكما بيّناه فى هٰذا الكتاب فهو ديننا، فنحن ملتزمون، متدينون، متمسكون به وهو دين الله عزوجل يعنى هو الدين المقبول عنده تعالىٰ وغيره مردود عنده عزوجل وهٰذا الدين بين الغلو والتقصير فيضع كل شيء علىٰ مرتبه فلا يتعدى الحق ولا يقصر عنه وكيف؟ وهو الدين من عندالله عزوجل فلا يغلو هٰذا الدين فى صفات الله عزوجل حتىٰ يشبهه بخلقه ونعوذبالله تعالىٰ ولا يقصر حتىٰ ينفى صفاتهٔ تعالىٰ التى أخبر بها تعالىٰ هو ورسولهٔ صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم ولا يغلو هٰذا الدين حتىٰ يجعل الأنبياء عليهم الصلوات والسلام علىٰ مرتبة الألوهية والربوبية ونعوذبالله ولا يقصر حتىٰ يجعلهم عليهم الصلوات والسلام كمثل عامة الناس، بل يعطيهم مراتبهم فليس لهم الألوهية ولا ربوبية ولا صفات كصفات الله ومع ذٰلک هم خير الخلائق ولو كانوا من جملة المخلوق وعلىٰ هٰذا المنوال لا يغلو هٰذا الدين حتىٰ يجعل الإنس خالق أفعالهم ونعوذباللّٰه، بل الله خالقهم وأفعالهم وكل خير وشر بقدر الله تعالىٰ وإرادته تعالىٰ نافذة ومسيطرة علىٰ إرادتهم، لكن لا يقصر هٰذا الدين حتىٰ يجعل أفعال الإنس كمثل جريان الماء يعنى لا إرادة لهم مطلقا، بل لهم الإرادة والخيار، لكن خيارهم وإرادتهم تحت إرادة الله عزوجل ونحن قد بيّنا كل هٰذه الأشياء بالتفصيل والحمدلله، وكذٰلک لا يغلو هٰذا الدين حتىٰ يأمر الإنس أن يكون على الأمن من مكر الله لا، بل عليه الخوف والخشية ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللّٰهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخٰسِرُوْنَ﴾ (الاعراف: ٩٩) ولا يقصر هٰذا الدين حتىٰ يأمر الإنس أن يكون على اليأس من رحمة الله لا، بل باب التوبة مفتوح حتىٰ

غرغرة الموت ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف:٨٧) وفى الحديث "إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر." (سنن ابن ماجة، ح:٤٢٥٣) فدين الإسلام هو الدين بين الإفراط والتفريط فهو الدين الحق فلا يميل عنه يمينا ولا شمالا وهو ديننا ظاهرا وباطنا فنحن الحمد لله نعلن به ولسنا من المنافقين الذين يظهرون تدينا بالإسلام ويخفون كفرا فى بواطنهم وهم أسوأ الكفار ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾، بل نحن مسلمون ظاهرا وباطنا الملتزمون بالإسلام والحمد لله رب العالمين. ونحن برئاء إلى الله كل من خالف الذى ذكرناه وبيّناه فنحن الحمد لله قد بيّنا عقيدة الإسلام فى هذا الكتاب ونحن عليه الحمد لله ونعلن براءتنا إلى الله عزوجل، وهو أعلم بكل شيء، من كل من يخالف عقيدة الإسلام من أهل الكفر والشرك وأهل الأهواء والبدعة ونحن متمسكون بعقيدة الإسلام ونسأل الله عزوجل أن يميتنا عليها ويرزقنا الجنة الفردوس ويجعلنا مع عباده الصالحين، آمين يا أرحم الراحمين وفى الحديث "أفضل الأعمال الحب فى الله والبغض فى الله." (سنن أبى داود، ح:٤٥٩٩) "لكل أمة مجوس ومجوس هذه الأمة الذين يقولون[1] لا قدر، من مات منهم فلا تشهدوا جنازته ومن مرض منهم فلا تعودهم وهم شيعة الدجال وحق على الله أن يلحقهم بالدجال." (سنن أبى داود، ح:٤٦٩٢) "سيكون[2] فى أمتى اختلاف وفرقة، قوم يحسنون القيل ويسيئون الفعل، يقرؤن القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، لا يرجعون حتى يرتد على فوقه، هم شر الخلق والخليقة، طوبىٰ لمن قتلهم وقتلوه يدعون إلى كتاب الله وليسوا منه فى شيء من قاتلهم كان أولىٰ بالله تعالىٰ منهم قالوا يا رسول الله! ما سيما هم قال التحليق." (سنن أبى داود، ح:٤٧٦٥) "صنفان من أمتى ليس لهما فى الإسلام نصيب المرجئة[3] والقدرية." (سنن الترمذي، ح:٢١٤٩) "تلا رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم هذه الآية ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ...... وَمَا يَذَّكَّرُ

---

(١) هذه القدرية الذين لا يؤمنون أن كل شيء بقدر الله، بل يعتقدون أن أفعال الإنس ليسوا بمشيئة الله، بل بمشيئة الإنس استقلالا وهذا كفر كما لا يخفى وأيضا يعتقدون أن الإنسان خالق أفعاله وقد بيّنا كل هذا سابقا وفى الجملة هذه العقائد كفرية.

(٢) هؤلاء الخوارج الذين كفّروا جلة الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم ونعوذ بالله وكفّروا أهل الكبائر وقاتلوا كل من يخالفهم والحديث يكفّرهم.

(٣) المرجئة هم الذين قالوا أن المعصية مع الإيمان لا تضر كما قيل الكفر بوجود الإيمان لا ينفع فى خروج من النار وهذا يستحقر أهمية معصية الله ويجعلها بمنزلة الحلال وفى الجملة هذه العقيدة تنافي الضروريات الدينية فلا شك فى كفرها.

إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران:٧) فقال صلى الله تعالىٰ عليه وسلم يا عائشة! إذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عناهم اللهُ، فاحذروهم." (سنن ابن ماجة، ح:٤٧) "إن مجوس هذه الأمة المكذبون بأقدار الله، إن مرضوا فلا تعودهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم، وإن لقيتموهم فلا تسلموا عليهم" (سنن ابن ماجة، ح:٩٢) "الخوارج كلاب النار." (سنن ابن ماجة، ح:١٧٣) "شر قتلىٰ قتلوا تحت أديم السماء وخير قتلىٰ من قتلوا[1] كلاب أهل النار قد كان هؤلاء مسلمين فصاروا كفارا." (سنن ابن ماجة، ح:١٧٦) "لايقبل الله لصاحب بدعة[2] صوما ولا صلاة ولا صدقة ولا حجا ولا عمرة ولا جهادا ولا صرفا ولا عدلا يخرج من الإسلام كما الشعرة من العجين." (سنن ابن ماجة، ح:٤٩)

المتن:

ونسأل الله تعالىٰ أن يثبتنا على الإيمان، ويختم لنا به، ويعصمنا من الأهواء المختلفة والأراء المتفرقة والمذاهب الردية مثل المشبهة والمعتزلة والجهمية والجبرية والقدرية وغيرهم من الذين خالفوا السنة والجماعة وحالفوا الضلالة، ونحن منهم براء وهم عندنا ضلال وأردياء وبالله العصمة والتوفيق.

الشرح:

الشيخ الإمام الطحاوي رحمه الله تعالىٰ الأن يختم الكتاب فهٰذه نكتة أخيرة لهٰذا الكتاب الجليل فيسأل الله عزوجل ثباتا على الإسلام والإيمان وخاتمة عليه من هٰذا الدنيا والعصمة من أهل الأهواء والبدعة والضلال وفى الحقيقة أننا نحن لا نستطيع أن نفعل الخيرات ونجتنب المعاصى إلا بتوفيق الله تعالىٰ يعنى تأييدا منه وهو خالق الهداية وغيرها، خالق كل شيء وكل شيء بقدره وإرادته وهو قد علّمنا أن نستهديه فى كل صلاة بالقول ﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة:٦) فلله الحمد والفضل والثناء الحسن كما هدانا إلى الصراط المستقيم وحفظنا من البدعة والكفر والطغيان فكما هدانا إلىٰ منهج أهل السنة والجماعة يعنى ما عليه نبينا صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وأصحابه، فنحن نتبرأ من أهل البدع والضلال الذين خالفوا أهل السنة والجماعة وأفرطوا وفرّطوا من منهج الحق وهو دين الله الإسلام فمنهم من ابتعدوا منه إلى أن يدخلوا فى الكفر ومنهم من ابتعدوا منه حتىٰ يدخلوا فى البدعات والخرافات، لكن عصموا من الكفر ونحن نتبرأ من كلهم إلى الله عزوجل ونسأله العصمة والتوفيق أن يعصمنا منهم ويجعلنا

---

(١) يعنى خير قتلىٰ من قتلهم هٰذه الخوارج.

(٢) هٰذا الوعيد إذ البدعة هي البدعة المخرجة من ملة الإسلام يعنى البدعة المكفرة.

من أهل السنة والجماعة ويميتنا على أهل السنة والجماعة امين يا أرحم الراحمين. الأن نحن إن شاء الله نذكر عن بعض هؤلاء الفرق الضالة المبتدعة.

(١) المشبهة:

هذه الفرقة تفعل التشبيه فى حق الله تعالىٰ (نعوذبالله) بالحوادث فيصفون الله تعالىٰ بسمات الحدوث من صفات الأجسام من الشكل والصورة والأعضاء والجوارح والأعراض ويعتقدون قيام الحوادث بالله تعالىٰ (ونعوذبالله) من الكلام الحادث والحركة والسكون وغيرها من الأعراض. وهم أصناف شتىٰ منهم هشام الجواليقى وداؤد الجواربى ومنهم الكرامية المنسوبة إلى من يسمىٰ به محمد بن كرام وهم يعتقدون بالجهة فى حق الله تعالىٰ وقيام الحوادث ومنهم ابن تيميه وأتباعه القائلون بالجهة فى حق الله تعالىٰ وقيام الحوادث بذاته تعالىٰ وبعض منهم يصفون الله بالأعضاء والجوارح (ونعوذبالله) وهم أيضا يصفون الله بالمكان وبعضهم يصفونه تعالىٰ بالحركة (وتعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا) وقد قال بعض الباحثين أن ابن تيمية يعتقد التركيب[1] فى حق الله تعالىٰ وأنه مفتقر إلى أجزاءه كافتقار الكل إلى جزئه وفى الجملة المشبهة أصناف شتىٰ وبعض منهم أكثر تشبيها من آخر ولا شك أنها فرقة ضالة غاية فى الضلال والبدعة، بل عقيدتهم عقيدة كفرية لا سيما وصف الله تعالىٰ بالأعضاء والجوارح والتركيب والافتقار[2] الكل إلى أجزائه والتحيز فى المكان والتحدد فى الجهات والحركة[3] والسكون (وتعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا) ونحن قد رددنا عليهم فى هذا الكتاب بالتفصيل ولا حاجة لإعادة والحمد لله رب العلمين.

(٢) المعتزلة:

وهم أهل الاعتزال سُمّوا بهذا لأنهم اعتزلوا من أهل السنة وظهروا فى القرن الثانى للهجرة فى بدايته وأولهم واصل بن عطاء الغزال وأول متبعه عمرو بن عبيد ثم هم انتشروا وكثروا وصاروا

---

(١) يعنى مركب بالأجزاء وهذه عقيدة كفرية لأن المركب لا يكون قديما لأن الجزء يكون قبل الكل وماهو مسبوق بشيء آخر لا يكون أزليا وهذا ظاهر والله عزوجل ليس فيه تركيب، بل هو الأحد والواحد ومعانى الأحد أنهُ لا تركيب فيه ولا تبعض.

(٢) وأيضا الافتقار ينافى كونه الغنى فيه إبطال صفة الله بل كون الله الله.

(٣) فعلم أن الحركة والسكون أيضا يوجب التحيز فى المكان لأن الحركة نقل من مكان إلى مكان أو فى نفس المكان والسكون سكنه فى مكان.

أصناف شتىٰ وأساسهم أنهم رجحوا فهمهم الباطل علىٰ ما هو المنقول من النبي الكريم صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فإذا لم يفهموا شيئًا فى زعمهم أنكروه أو أوّلوه بالأباطيل. وفى الجملة فى عقيدة القدر هم القدرية التى هي مجوس هٰذه الأمة كما فى الحديث، فالمعتزلة أنكروا أن كل شيء بقدر الله وأن الله خالق أفعال الإنسان وهٰذهٖ عقيدة كفرية.

وهم يقولون أن مرتكب الكبيرة ليس مسلما ولا كافرا، بل على المنزلة بين المنزلتين وهٰذا ينافى قولهٗ تعالىٰ ﴿هُوَ الَّذِىْ خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَّمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ﴾ (التغابن: ٢) فواحد إما أن يكون مسلما إما كافرا لا غير وأيضا ينافى النصوص القاطعة أن مرتكب الكبيرة لا يكفر إلا أن يفعل شيئًا الذى هو الكفر مثلا يسجد للصنم وثم هم ينكرون صفات الله تعالىٰ فيقولون: إن الله عليم بنفسهٖ بدون أن تكون لهٗ صفة العلم وهٰذا غير معقول والعجب منهم أنهم ينكرون النصوص أو يؤولونها بالتأويلات الفاسدة إذا لا يفهمونها حسب أفهامهم الباطلة ومع ذٰلك يقولون أنفسهم أشياء لا يفهمها العاقل كما أن واحدا يكون عليما بدون أن يكون لهٗ العلم وثم ينافى القرآن ﴿أَنْزَلَهٗ بِعِلْمِهٖ﴾ (المائدة: ١٦٦) فأثبت لنفسهٖ صفة العلم. ومن عقيدتهم أنهم يوجبون الأشياء على الله عزوجل (ونعوذبالله) فيقولون: إن هٰذا واجب عليه وهٰذا واجب عليه من زعمهم الباطل وهٰذا غاية فى التنقيص فى حق الله عزوجل ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُوْنَ﴾ (الأنبياء: ٢٣) وكل مسلم يعرف أن الله عزوجل لهٗ ما يفعل فهو فعال لما يريد ليس عليه منع ولا حجر وكيف يكون الإلٰه والرب والملك والمالك على الإطلاق مع الحجر والمنع عليه ونعوذبالله وتعالىٰ الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا، ففى الجملة عقيدة المعتزلة عقيدة كفرية. اللّٰهم لاتجعلنا منهم امين.

(٣) الجهمية:

هٰذه الفرقة المنسوبة إلى جهم بن صفوان السمرقندى لها العقائد الباطلة غاية فى البطلان بل الكفر ينكرون صفات الله تعالىٰ ويقولون إنه الوجود المطلق ليس لهٗ صفات ويثبتون لهٗ الجسم (ونعوذبالله) ويقولون بفناء الجنة والنار وكل هٰذا كفر. الإيمان عندهم "المعرفة" فقط والكفر "الجهل" فقط وهٰذا كفر أيضا لأن الإيمان هو التصديق والإقرار وليس المعرفة فقط وقد قال الله تعالىٰ عن فرعون ﴿وَجَحَدُوْا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَّعُلُوًّا﴾ (النمل: ١٤) فلم يقرّ ولم يصدّق فلا يعتبر إيمانا، والكفر قد يكون بدون الجهل ككفر إبليس مع عنده علم عن الله عزوجل ، لكن لاستكباره على أمره تعالىٰ اعتبر من الكافرين. والجهمية هي الفرقة الجبرية فهم لا يعتبرون للإنسان فعلا ولا خيارا، بل أفعال الإنسان عندهم كجريان الماء وهٰذا خلاف المشاهدة لأن الإنسان يحس

الفرق بين الحركة الاختيارية والارتعاش كما بيّناه سابقا ، لكن افعاله واختياره تحت قدرة الله وإرادته وخلقه فالله خالق أفعال الإنسان والإنسان كاسبها، ففى الجملة الجهمية ضلوا فى مسئلة أفعال الإنسان أيضا وفى الجملة عقائدهم عقائد كفرية وجهم بن صفوان كان تلميذ جعد بن درهم الذى كان يعتقد أن إبراهيم عليه السلام ليس خليل الله وأن موسىٰ عليه السلام ليس كليم الله وهٰذا ينافى القرآن فيكون كفرا. خالد بن عبدالله القسرى ضَحّى جعد بن درهم وقتله فى البلد الواسط بين يدى الناس فى يوم عيد الأضحىٰ.

(۴) الجبرية:

وقد مر الكلام علىٰ هٰذه الفرقة فى بيان الجهمية، فالجبرية منسوبة إلى جهم بن صفوان زعيم الفرقة الجهمية وهم سموا الجبرية لأنهم يعتقدون فى الجبر فيقولون: إن الإنسان ليس لهُ خيارا على الإطلاق فهو مجبور بمنزلة الجماد ونحن قد بينا علىٰ هٰذا سابقا ورددنا عليه وذكرنا الحق الذى عليه أهل السنة والجماعة ونحن منهم الحمد لله رب العالمين.

(۵) القدرية:

وقد مر الكلام عليهم فى بيان المعتزلة وسموا القدرية لأنهم يثبتون القدر لأنفسهم (ونعوذبالله) وينكرون قدر الله فيقولون: إن الله لم يقدر على الإنسان أفعالهُ بل الإنسان يفعلها بالإرادة المستقلة وخالقها بقدرته المستقلة ويقولون: إن الله تعالىٰ قد أعطى الإنسان الإرادة والقدرة المستقلة لأفعاله ثم يستقل الإنسان فى استخدامهما وهٰذا شرك كما لا يخفى فكما المشركون يعتقدون أن الله قد أعطى القدرة المستقلة لواحد ما وثم هٰذا الواحد يستقل بهٰذه القدرة فالقدرية يثبتون للإنسان نفس الشيء ولأجل هٰذا الشرك الأكبر سموا فى الحديث أن القدرية مجوس هٰذه الأمة فكما المجوس يعتقدون فى الٰهين فالقدرية يثبتون الٰهة كثيرة لأنهم يثبتون الإرادة والقدرة المستقلة للإنس والجنّ ويعتقدون أنهم يخلقون أفعالهم بالقدرة المستقلة، ففى الجملة عقيدتهم كفرية لأن لا استقلال لخلق ما من الخلق من ذات الله تعالىٰ لطرفة عين ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (فاطر: ۴۱) فمن اعتقد الاستقلال ولو لطرفة عين لخلق ما من الخلق فقد كفر ولا يقال أن الله أعطاه هٰذا الاستقلال لأن ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ (محمد: ۳۸) فالغنى صفة الله عزوجل والفقر صفة الخلق والمستحيل أن يكون للخلق صفة من صفات الله والاستقلال هو الغنى المطلق فلا يكون إلا لله عزوجل ويستحيل للخلق أن لا يفتقر إلى الله عزوجل ويستقل منه تعالىٰ ولو لطرفة عين وهٰذا ظاهر لا خفاء فيه فكما لا يمكن أن يقال أن

الله عزوجل أعطى الصفة من صفاته إلى خلق ما فكذلك لا يمكن أن يقال إن الله عزوجل أعطى الاستقلال المطلق لخلق ما من الخلق، فالحق أن الله عزوجل خالق أفعال الإنسان بخلقه وقدرته وإرادته المستقلة والإنسان يكسب هذه الأفعال وله خيار وإرادة، لكن هذا الخيار والإرادة تحت إرادة الله عزوجل فليس مستقلة وقد بيّنا كل هذا سابقا والحمد لله رب العالمين.

(٦) المرجئة:

هذه الفرقة تقول بعدم ضرورة الأعمال فسموا المرجئة من الإرجاء فهم أرجئوا الأعمال يعنى أخلفوها يعنى أهميتها فيقولون إن الإيمان الذى عندهم التصديق فقط كافى فى نفسه فكما الخير لا ينفع مع وجود الكفر فى الخروج من النار والدخول فى الجنة فكذلك الذنوب والآثام لا يضر مع وجود الإيمان، فالإيمان يكفى المؤمن ولو كان مؤمنا مع الذنوب والآثام الكثيرة حتى مع هذه الذنوب لا يدخل النار مطلقا ولا يخفى على المسلم أن هذه العقيدة عقيدة كفرية تخالف النصوص القاطعة لأن القرآن والسنة يأمر المسلمين للأعمال الصالحة والاجتناب من الآثام والذنوب ويهددهم بالوعيد من يخوض فى الذنوب والآثام وهذه كلها من ضرورات الدين.

(٧) الخوارج:

الخوارج جمع الخارج وفى الاصطلاح الشرعي كل من يخرج على الإمام الحق ويمتنع من البيعة وهذا الاصطلاح العام ثم الخوارج على الخصوص صار اسم الفرقة التى عتت على سيدنا علي رضي الله تعالى عنه الخليفة الرابع للمسلمين رضي الله تعالى عنه وقصّرت فى شأنه، خرجوا بعد واقعة الصفين بين سيدنا على وسيدنا معاوية رضي الله تعالى عنهما عند ما اتفقا على تحكيم أبا موسى الأشعرى وعمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما والخوارج عند ما ظهروا كانوا اثنا عشر ألفا وسموا بالأسماء "الحرورية، النواصبة، المارقة" وقد جاءت فى ذكرهم الأحاديث التى تخبر عنهم أنهم من شر الناس وقد أرسل سيدنا علي رضي الله تعالى عنه إليهم بابن عباس رضي الله تعالى عنه لإفهامهم بطاعة الأمير وعدم الخروج وشق العصا وقد رجع كثير منهم بوعظ ابن عباس رضي الله تعالى عنه إياهم، لكن أكثرهم أصروا وعاندوا على ضلالتهم ولم يسمعوا لابن عباس ولا لعلي رضي الله تعالى عنهما وقتلوا صحابي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عبد الله بن خباب رضي الله تعالى عنه ثم صار القتال بينهم وبين علي رضي الله تعالى عنه وقُتلوا أكثرهم فى هذه الحروب.

وعقيدة الخوارج فى الجملة أنهم (معاذالله) يكفّرون عليًا وعثمان وطلحة وزبير وعائشة

وعبدالله بن عباس رضي الله تعالىٰ عنهم، بل يكفّرون كل من امتنع أن يشارك معهم في حروبهم ويجوّزون قتل النساء والصبيان من المسلمين الذين خالفوهم ويقولون بعدم الرجم ويقولون بجواز أن الله تعالىٰ أعطى النبوة لمن يعلم عنه أنهٔ سيكفر فيما بعد (معاذالله) ويقولون بجواز الكفر علىٰ نبي ما قبل ظهورالنبوة (معاذالله) ويكفّرون مرتكب الكبيرة وفي الجملة عقيدتهم تخالف النصوص القاطعة فعقيدتهم عقيدة كفرية.

الرافضة:

في زمان سيدنا عثمان رضي الله تعالىٰ عنه اعتنق الإسلام واحد من اليهود اسمه عبدالله بن سبا في الظاهر، لٰكن كان قصده إثارة الفتنة وإضلال المسلمين وكسر وحدتهم وهٰذا الشخص بمنزلة الرأس في الفتن التي حصلت في خلافة سيدنا عثمان رضي الله تعالىٰ عنه وهو معروف في التاريخ الإسلامية فلا يلتفت إلى من أنكر وجوده، بل وجوده ثابت عند المؤرخين من المسلمين وعلماء هم، بل قد اعترفوا كثير من الرافضة أنفسهم ثبوت عبدالله بن سبا في صفحة التاريخ وهٰذا الشخص كان موجودا مع أهل الفتن والضلال الذين اجتمعوا حول بيت عثمان رضي الله تعالىٰ عنه وقتلوه، بل يقال أنهٔ واحد من الذين باشروا قتل عثمان رضي الله تعالىٰ عنه وهٰذا الشخص عبدالله ابن سبا بنى أساس الرفض وعقيدتهم متفرعة منه وهم أصناف شتىٰ، لكن كلهم أخذوا أصولهم وبنوا أساسهم علىٰ بعض ما كان يُعلّم عبدالله بن سبا من الكفر والضلال. فبعض الرافضة يعتقدون في تفضيل سيدنا علي رضي الله تعالىٰ عنه علىٰ جميع أصحاب رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم، لٰكن مع ذٰلك لا يفعلون الإهانة في حقهم رضي الله تعالىٰ عنهم وهٰذه ضلالة وبعض الرافضة يحملون علىٰ أصحاب رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم بألسنتهم إلا قليل منهم وهٰذا كفر وبعض الرافضة يعتقدون في ألوهية علي رضي الله تعالىٰ عنه وهٰذا كفر بواح وبعض يعتقدون أن القرآن محرف وهٰذا كفر بواح وبعض يعتقدون أن صفات الله مخلوقة وهٰذا كفر بواح وبعض يعتقدون أن هناك أشياء التي هي واجبة على الله تعالىٰ وهٰذا كفر بواح وبعض يعتقدون أن الله لا يُرى في الآخرة وهٰذا كفر أيضا. والرافضة في المسائل الكلامية قريب من المعتزلة وهٰذا معروف علىٰ من اطلع علىٰ عقيدتهم. والرافضة عندهم كلهم الشرك والكفر حسب علمنا.

(٩) البريلوية:

وقد انتشرت هذه الفرقة في البر الصغير وبدء هذه الفرقة من أحمد رضاخان البريلي. وهذه الفرقة تشابه الفرقة الرافضة في شركيّاتها وبدعاتها ولهذا هم متلائمون مع الرافضة. وأساس هذه

الفرقة هم غلاة الصوفية الذين غلوا فى حبهم للأنبياء عليهم الصلوات والسلام والأولياء رحمهم الله تعالٰى حتٰى أشركوهم مع الله فى ذاته وصفاته وأفعاله وهم من أخبث الناس الذين يفرحون بمدح المخلوق وينقبضون ويتكدرون بمدح الخالق البارى الله عزوجل وهٰذا كفر بواح. من عقائدهم أن الأنبياء عليهم الصلوات والسلام والأولياء رحمهم الله تعالٰى لهم صفات كصفات الله تعالٰى من عالم الغيب والسميع والبصير والقدير والمتصرف والمختار وغيرها من صفات الله تعالٰى والشرك فى واحد من صفات الله تعالٰى كفر فضلاً عن الشرك فى أكثر من واحد ثم هم يفعلون العبادات من الدعاء والطواف والقيام والاعتكاف والركوع والسجود لغير الله تعالٰى وكل هٰذا كفر بواح . ثم مذهبهم مملوء بالبدعات والخرافات وهم يحتفلون الميلاد فى يوم الثانية وعشرة من الربيع الأول وهٰذا شيء محدث لم يوجد فى زمان نبينا صلى الله عليه وسلم وكل محدث فى الدين بدعة ولا شك أن الصلوٰة وراء هم غيرمقبولة والنكاح والذبح منهم غير جائز لأنهم خارجون من ملة الإسلام .

(١٠) غير المقلدية :

وهٰذه الفرقة قد ذكرنا عنها كثيرا وهم أو أكثرهم من أتباع ابن تيمية فهم فى عقائدهم المشبهة. ، لٰكن هنا نذكر واحدا من أساسهم وهو إنكار التقليد فى زعمهم [1] فهم يقولون إن التقليد لإمام أبى حنيفة وغيرهم من المجتهدين غير جائز ونحن قد رددنا فى هٰذه الكتاب فلا حاجة لإعادة. وهؤلاء الناس لايتقيدون بأي من الأئمة المجتهدين ومآلة هو الحر فى الفكر والعمل بدلا عن التقيد بدين الإسلام المأثور من خير القرون ولهٰذا كثير من الكفرة الزنادقة كانت بدايتهم عدم التقليد للمذاهب الأربعة ومآلهم الزندقة والإلحاد. والواجب واللازم اجتناب هؤلاء الناس لحفاظة الدين والإيمان.

(١١) جماعة الرائيوندية:

وقد احتجنا لذكر هٰذه الجماعة لكثرة الغلو فى الأفكار والنظريات التى قد طفت وظهرت فى هٰذه الجماعة. والجماعة تزعم أنها لتبليغ الإسلام ، لكن لايفعلون التبليغ إلى الكفار ثم المبلّغون والداعيون والناصحون الذين يفعلون الدعوة والإرشاد بدون الشمول فى هٰذه الجماعة "الرائيوندية" فهٰذه الجماعة لايعتبرونهم، بل يقولون: إنه لا بد من الشمول فى جماعتهم وهٰذه بدعة قبيحة؛ لأن التبليغ أمر مطلق وتقييده بجماعتهم ومنهجهم بدعة ثم كثير من جماعة الرائيوندية ينكرون إما الجهاد أو أهميته أو ضرورته فى هٰذا الزمان وكل هٰذا كفر، والرائج عندهم تحريف معنى الآيات والأحاديث عن الجهاد فيقولون أنها عنهم وطريقتهم وتبليغهم المزعوم وليس عندهم مسكة من

---

(١) وفى زعمهم لأنهم أنفسهم يفعلون التقليد لزعماءهم

الـجـهـاد، وتحريف القران كفر بواح، ثم منهم الّذين يستخفّون ضرورة العلماء والمدارس وهٰذا كفر أيضًا ثم كثير منهم لغاية كثرة السواد والزحم لايفعلون النهي عن المنكر وهٰذا حرام وكذٰلك لايـزدون على أهل الشرك والبدعات، بل يصلون وراء هم وكل هذا أمر لايجوز فى دين اللّٰه تعالىٰ. فالحذر والحذر من هذه الجماعة.

(١٢) القاديانية واللاهورية:

ومن المعلوم من الدين بالضرورة أن حبيبنا وسيدنا ونبينا ورسولنا خاتم الأنبياء محمد بن عبداللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم أنهٗ لا نبي ولا رسول بعدهٗ ومن يدعي الرسالة والنبوة بعدهٗ فقد كفر بإجماع المسلمين وكذٰلك من يعتقد علىٰ رسالته أو نبوته.

مرزا غلام أحمد القادياني ادّعى أول ما ادّعى فى سنة ١٨٩١ء أنهٗ المسيح وهٰذا الدعوىٰ كفر لأن هٰذا الدعوى الباطل فيها ادعاء النبوة كذبا لأن المسيح عليه السلام نبي وفيها إهانة لنبي وهو كفر، لأنهٗ ادعى كذبا أنهٗ المسيح فأهان المسيح عليه السلام ولم يفعل ما هو حق الاحترام فى حق هٰذا النبي الرسول عليه السلام ثم فى سنة ١٨٩٩ء ادعى أنهٗ نبي (يعنى غير المسيح) الظلى البروزى وهٰذا يعنى الظلى البروزى من اختراعاته و ليس من الإسلام فى شيء وهٰذا كفر أيضا؛ لأنهٗ ادعى النبوة بعد خاتم الأنبياء عليهم الصلوات والسلام ثم فى سنة ١٩٠١ء ادعى أنهٗ نبي صاحب الشريعة وهٰذا كفر أيضا؛ لأنهٗ ادعى النبوة بعد خاتم الأنبياء محمد ابن عبداللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم. فهٰذا الشخص مرزا القادياني كافر مرتد زنديق وكذٰلك من يعتقد علىٰ دعاواه وهم الذين سموا القاديانية واللاهورية وكذٰلك بعضهم يسمون أنفسهم الأحمدية وفى الجملة كلهم كفرة لأن كلهم يعتقدون أن مرزا غلام أحمد قادياني كان نبيا ولو قالوا بعضهم أنهم لا يعتقدون فى نبوته، فالأول قد يكونوا كاذبين وثانيا ولوسلم قولهم، لكن كلهم يعتقدون أن غلام أحمد قادياني كان مجددا واعتبار المدعى للنبوة كذبا أنهٗ مسلم يكون كفرا فضلا عن اعتباره مجددا فى الدين، فحاصل الكلام أنهم كلهم الكفرة والزنادقة ومن كان مسلما ثم صار واحدا منهم ونعوذباللّٰه صار مرتدا عن الإسلام.

(١٣) البهائية:

الفرقة البهائية هي منسوبة إلى مرزا محمد علي الشيرازى المولود فى بلد إيران فى سنة ١٨٢٠ء كان يتعلق من واحد الفرقة الرافضة الإثنا العشرية وهٰذا الشخص المسمىٰ بمحمد علي الشيرازى ادعى أشياء كثيرة فادعى أنهٗ بمنزلة الباب للإمام المنتظر (يعنى عند الرافضة) ولهٰذا هذه الفرقة يقال "الفرقة البابية" أيضا وسبب تسميتها بالبهائية لأن واحدا من وزراء ه كان يقال "بهاء

(اللّٰـه) " وتسلسل منه سلسلتهم فمن هذا يقال البهائية وكان من دعاوات الشيرازى أنهٗ المهدى المنتظر وأن اللّٰه حل فيه حلولا وهٰذا كفر بواح وكان يعتقد برجعة سيدنا موسٰى عليه السلام كرجعة سيدنا عيسٰى عليه السلام ولم يقل بهٰذا القول الباطل سواه وكان يدعى النبوة فكان يقول أنهٗ كان نوحا فى زمانهٖ وكان موسٰى فى زمانهٖ وكان عيسٰى فى زمانهٖ وكان محمداً فى زمانهٖ (ونعوذباللّٰه من هٰذه الكفريات) وكان يقول إنهٗ لا فرق بين الإسلام واليهودية والنصرانية وهٰذا كفر وكان ينكر ختم نبوة نبينا صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم، وهوكتب الكتاب "البيان" و "الأقدس" فقال عن أولهما أنهٗ أخذ مقام القرآن الكريم وقال عن الثانى أنهٗ منزل إليه من اللّٰه تعالٰى وهٰذا كلهٗ كفر وهو جوّز جميع المحرمات الشرعية وأنكر أحكام الشريعة الإسلامية، فحاصل الكلام أنهٗ كافر خارج من ملة الإسلام وكذٰلك جميع هٰذه الفرقة.

(۱۴) الإسماعيلية والأغاخانية:

وهٰذه الفرقة تشتمل علٰى أنواع من الكفريات والمذهب لهٰذه الفرقة بدأه ممن يسمى بصدر الدين المولود سنة ۷۰۰ للهجرة فى بادية من إيران اسمها "سبزوار" وهٰذا الشخص أتى فى الهند والسند، فزار السند وبنجاب وكشمير ثم سكن فى بادية من السند اسمها "كوهادا" ومات وعمره كان مائة وثمانية عشرة سنة فى بنجاب فى بادية اسمها "أوش" وهٰذا الشخص اخترع واختلق هٰذا المذهب الإسماعيلية وهؤلاء كلمتهم "أشهد أن لا إلٰه إلا اللّٰه وأشهد أن محمدا رسول اللّٰه وأشهد أن أمير المؤمنين علي اللّٰه" وهٰذا كفر بواح فى غاية الكفر وعقيدتهم فى الإمامة غريبة جدا، فعقيدتهم أن إمام الزمان كل شيء فهو اللّٰه والقرآن والكعبة والبيت المعمور والجنة وحيثما فى القرآن الكريم "اللّٰـه" مراده إمام الزمان ولا يخفى أن هٰذا من أكبر الكفريات ثم هم ينكرون ختم النبوة فعقيدتهم أن سيدنا آدم عليه السلام يوم الأحد للدين ونوح عليه السلام يوم الإثنين وإبراهيم عليه السلام يوم الثلاثاء وموسٰى عليه السلام يوم الأربعاء وعيسٰى عليه السلام يوم الخميس ومحمد صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم يوم الجمعة والإنتظارليوم السبت ففى زمانهٖ لا يكون الأعمال، بل جزاء ها فهو قائم القيامة، ثم ينكرون القيامة والقرآن الكريم فالقرآن عندهم إمام الزمان والقيامة فهي زمان يوم السبت كما ذكرنا انفا. ومذهبهم علٰى خمسة أصول (۱) الدعاء يحضرون لهٗ فى معبدهم المسمىٰ بـ"جماعت خانة." (۲) طهارة نظر العين (۳) صدق القول (۴) صدق العمل (۵) الأعمال الصالحة.

وهٰذه كلها حسب زعمهم وليست موافقة للشريعة الإسلامية فلا يؤمنون بالصلٰوة ولا بالزكٰوة ولا بالحج ويعطون لإمامهم عشر مالهم ويزوورونه ويقولون هٰذا هو الحج ونعوذباللّٰه من هٰذه

الكفريات وهؤلاء الناس اعتبارهم المسلمين كفر نفسه فضلا عن كفر أنفسهم فلا شك فى كفرهم وخروجهم من الإسلام.

(١٥) الذكرية:

هٰذه الفرقة ظهرت فى القرن العاشر من الهجرة فى بلوشستان فى المنقطة تقال "تربت" وبدأ هٰذه الفرقة من المسمىٰ بمحمد الأتكى المولود فى ٩٧٧للهجرة ومات فى ٩٢٠ للهجرة وهوادّعى أولا أنهٗ المهدى ثم ادّعى النبوة ثم ادّعى أن يكون خاتم النبيين وهٰذا الشخص محمد الأتكى كان من أتباع محمد الجونبورى المولود فى ٨٤٧للهجرة وكان يدّعى أنهٗ المهدى ويقال أتباعه "المهدوية" وهٰذه الفرقة المهدوية نفسها تشتمل علىٰ أنواع الكفريات مثلا اعتبار محمد الجونبورى "المهدى" فرض وإنكاره كفر وأصحاب الجونبورى أفضل من الأنبياء عليهم الصلوٰة والسلام (نعوذبالله) إلا سيدنا محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم واللازم تصديق الأحاديث النبوية صلى الله تعالىٰ عليه وسلم من الجونبورى وغيرها من الكفريات والجونبورى مات فى أفغانستان فى المكان يقال "فراة" ومن فرقة الجونبورى تفرعت الفرقة الذكرية وبينهما تشابه فى العقائد مع بعض الاختلاف مثلا عند المهدوية محمد الجونبورى "المهدى" وعند الذكرية "النبي آخر الزمان"، عند المهدوية محمد الجونبورى مات فى أفغانستان وعند الذكرية لم يمت وهو نور، وعند المهدوية نبينا وحبيبنا محمد بن عبدالله العربى صلى الله تعالىٰ عليه وسلم خاتم النبيين وعند الذكرية هو نبي وليس خاتم الأنبياء (ونعوذبالله) وعند المهدوية نزل القرآن علىٰ نبينا محمد بن عبدالله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم والاعتبار لتفسيره للقرآن الكريم وعند الذكرية القرآن نزل علىٰ جونبورى والرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم بمنزلة الوسيلة فى البين والاعتبار لتفسير الجونبورى للقرآن الكريم علىٰ رواية محمد الأتكى منه، وعند المهدوية "محمد" فى القرآن هو النبي الكريم صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وعند الذكرية هو محمد الجونبورى، وعند المهدوية الصلوٰة والزكوٰة والحج والصوم فريضة وعند الذكرية منسوخة والذكرية عينوا الجبل "المراد" للحج (ونعوذبالله) وسموا الشجرة التى فى غرب المكان "تربت" بـ "مهبط الإلهام" وسموا الميدان "غل دن" فى جنوب "تربت" بـ "عرفة" والمهدوية لا يقبلون هٰذه الاختراعات لهٰذه الأماكن. وفى الجملة الذكرية هي المذهب المخلوط بالمهدوية والباطنية (التى هي فرعة من الإسماعيلية) وكلمة الذكرية "لا إلٰه إلا الله النور الطاهر محمد مهدى رسول الله" وهٰذه الفرقة الذكرية تشتمل كما لا يخفى علىٰ أنواع الكفريات فهم الكفرة الزنادقة واعتبارهم المسلمين كفر نفسه وكذلك المهدوية هم الكفرة أيضا لما ذكرنا من

عقائدهم الكفرية وكذلك اعتبارهم مسلمين كفر لنفسه. والذكرية لا يصلون الصلوٰة، بل يفعلون الذكر المخترع ولهٰذا سموا بالذكرية ولا يصومون فی رمضان، بل يصومون فی ذی الحجة فی العشر الأول منه ولا يحجون بيت الله، بل يزورون الجبل "المراد" فی المنطقة "تربت" ولا يعطون الزكوة، بل يعطون عشر مالهم إلى أئمتهم وعندهم اختراعات أخرىٰ وكلها مخالفة للإسلام.

نحن ذكرنا فوقا بعض الفرق وأحوالهم الذين يزعمون أنهم مسلمون، الأن إن شاء الله العزيز نذكر بعض الذين لا يدّعون الإسلام وأحوالهم.

(١) الهنودية:

وهؤلآء الذين أكثرهم يسكنون فی الهند ،ويقال الهنود ومذهبهم ليس فيه أصول متفق عليها وبداية هٰذا المذهب من القوم الأرياء الذين جاؤوا فی الهند ١٤٠٠ قبل المسيح عليه السلام وهؤلاء مأخذ لهٰذا المذهب وفی الجملة هذا المذهب مبنى على الشرك الأكبر ولا شك أنهم الكفرة، بل الشك فی كفرهم كفر أيضا والهنود يعتقدون أن الروح والمادة أزليان أبديان وهم يعتقدون علىٰ ثلاثة الهة الذين فی زعمهم الألهة الكبار (١) البراهمة وهو عندهم خالق العالم وهو الإله الأعلىٰ (٢) الوشنو وهم عندهم إلٰه الرحمة وأهل الحفظ والبقاء للأشياء (٣) الشيو وهو فی زعمهم إلٰه التدمير ثم بعدهم فی زعمهم الألهة الصغرىٰ الكثيرة وبسبب هؤلاء الألهة الصغرىٰ عندهم فرق كثيرة بينهم ومع ذٰلك هم يعظمون البقرة ويعبدونها ويعتقدون أن أكل فضلة البقر والبقرة وشرب بولهما وسيلة للمغفرة (ونعوذبالـلّـه من هٰذه الهذيانات) . الهنود يجوزون الزنا فی اسم "النيوك" وهو ولو مات زوج امرأة ما فلا يجوز لها فی زعمهم النكاح الثانية، بل لو تريد أن تسكن شهوتها فيزنی بأی رجل بدون النكاح وتكون أم أولاده لو تشاء وكذٰلك لو المرأة لا تحمل من زوجها فلها أن يزنی بأی رجل آخر لغاية الحمل والهنود يعتقدون فی التناسخ وهو أن الإنسان بعد موته يأتی روحه فی الشكل الآخر فی الدنيا وهلم جرا وهٰذا الشكل الآخر يكون علىٰ حسب أعماله فی حياته السابقة لأن القوم الأرياء يعتقدون أن الأرواح عددها محدودة وهي أزلية فی زعمهم وأن الإلٰه الأعلىٰ لا يستطيع أن يخلقها فنفس الأرواح ترجع إلى الدنيا فی الهيئات المختلفة وهٰذا مذهب التناسخ يعتقدونهٗ وينكرون الآخرة وفی زعمهم العبد يكون جزاء ه فی الدنيا وهو أنهٗ بعد الموت يرجع روحه فی جسم آخر حسب أعماله فی الحياة السابقة فقد يكون رجوع الروح فی جسم أولىٰ من السابق وقد يكون رجوعه فی جسم أذل وأسفل من السابق فالحياة الأخرىٰ تكون علىٰ جزاء الحياة السابقة وأهل التناسخ كثيرة الفرق وليس كلهم من الهنود، بل بعضهم يزعمون أنهم أهل الإسلام وهم ليسوا منهم كما هو ظاهر لأن التناسخ عقيدة كفرية وهؤلاء الذين يزعمون أنهم مسلمون من أهل التناسخ إمامهم

يقال أحمد بن حابط وكان تلميذه يقال أحمد بن نانوس وبعض أهل التناسخ الدهرية الذين يقولون لا فناء للدنيا وهم ينكرون الآخرة وبعض أهل التناسخ يعتقدون أن روح الإنسان قد يرجع فی الحياة الأخرىٰ فی البهائم وبعضهم يعتقدون أن الروح ينتقل فی نفس الجنس.

وحاصل الكلام أن الهنود وأهل التناسخ كلهم كفرة يحتاجون للهداية وهي الإسلام.

(٢) السكهية:

وهٰذا المذهب مخلوط بين الإسلام والهنودية وبدايته من الشخص كان اسمه "جرونانک" (گرونانک) المولود فی بادية اسمها "تلوندی" فی بنجاب وهو فی بداية عمره تعلّم كتب الهنود ثم تعلّم العربية والفارسية وجلس فی صحبة بعض الصوفياء المشهورة ببنجاب إسماعيل البخاري، سيد علی الهجويری، جلال الدين البخاري، علاء الحق، والآخرين وهٰذا الشخص سافر كثيرا فی حياته تقريبا خمسة وعشرين سنة فزار "بنغال، آسام، أريسة، راجستان، سری لنكا، كشمير، تبت، جزيرة العرب، عراق، إيران، الأسياء الوسطیٰ" وفی سفره لجزيرة العرب لبس لباس الحاجی وحج بيت اللّٰه وبعد رجوعه من أسفاره أسس بنيان بادية لسكونه فيها وسماها "كرتابور" وفی آخر حياته خلف واحد أتباعه علیٰ منصب ما يزعمونه "جرو" (گرو) وهو بمنزلة الشيخ المرشد فی زعمهم وبعد موته تخلفه هٰذا متبعه وثم صار بعدهٗ ثمانية "خليفة" علیٰ منصب "جرو" (گرو) فكلهم عشرة والعاشر منهم قرر أنهٗ لا يكون أی "جرو" (گرو) بعدهٗ، بل المتبعون لهم يرجعون إلی كتابهم الذی جهزه "جرو" (گرو) الخامس اسمه "أرجن سنج" (أرجن سنگ) وهو الذی بنی لهم المعبد "هری مندر" فی أمرتسر. ويقال أن "جرونانک" (گرونانک) يعنی الذی بدأ هٰذا المذهب نفسه كان يعتقد فی التوحيد والرسالة والصلٰوة والزكوة والصوم والحج والقرآن الكريم والكتب السماوية الأخرىٰ والقيامة وختم النبوة وكان يحكم بالإيمان بهٰذه الأشياء ومع ذٰلک يقال: إنهٗ كان يعتقد فی التناسخ فيعتقد أن ما دام العبد لا يجد اللّٰه بحبه لهٗ تعالیٰ يرجع إلی نفس الدنيا مرة بعد مرة والتناسخ عقيدة كفرية ثم لماذا لم يقل لمتبعيه أن يقبلوا الإسلام بدلا أن يبدأ المذهب الآخر المختلف، وهٰذا القوم يعنی السكهية كلمتهم الأساسية هو "أن الإلٰه واحد واسمه الحق وهو القادر المطلق وهو لا يخاف شيئًا وهو ليس عنده عداوة لأی أحد وهو أزلي وأبدی بلا شكل ولا صورة قائم بالذات ويوجد برضاه وتوفيقه" فی هٰذه الكلمة "ليس عنده عدواة لأی واحد" كلام باطل لأن اللّٰه تعالیٰ علیٰ حرب من يخالف دينه الإسلام وفی تعليمات "جرونانک" (گرونانک) أكد علیٰ حب الإلٰه ويقول إن العبد لحصول علیٰ حب الإلٰه عليه أن يترک الشهوات النفسانية والأنانية والشح ورغبة الدنيا والغضب وفی مذهب السكهية طريق العبادة أساسيته ذكر الإلٰه وهم يفعلونه بالمسبحة الصغرىٰ ويقولون: إن لحب الإلٰه من اللازم الكسب الطيب، والتواضع، وحب الخلق ومع ذٰلک عداوتهم للمسلمين مشهورة فالقوم السكهية كانوا يخالفون الملوک المغلية، وأورنجزيب

(أورنگزيب)دعا "جرو" (گرو) التاسع اسمه "تيغ بهادر" وعرض عليه الإسلام ولم يقبل "تيغ بهادر" فقتلهٔ أورنجزيب (أورنگزيب) وحارب "جرو" (گرو) العاشر "جرو كوبند سنج" (گرو كوبند سنگ) ضد وأورنجزيب (أورنگزيب) فهزمه وأورنجزيب (أورنگزيب) وكسر شوكتهم بالكلية. وهؤلاء يعنى السكهية هم الكفرة لا شك فى كفرهم، بل الشك كفر نفسه وهم أنفسهم لا يقولون إنهم مسلمون [1] ، بل يكره المسلمين وأما "جرونانک" (گرونانک)نفسه فلو يقال إنه كان يعتقد ما ذكرناه فوقا ، لكن مع ذلک يقال إنه من أهل التناسخ وهذا كفر ومع ذلک بدايته بالمذهب الآخر المختلف كفر نفسه لأن ليس فقط اعتقاد التوحيد والرسالة وغيرها من الأشياء الإسلامية يعتبر الإسلام، بل الاعتراف والتسليم والإقرار أنهٔ مسلم ومتبع النبي الخاتم محمد صلى اللّٰہ تعالىٰ عليه وسلم وأنه من جماعة المسلمين وإذا يدعوا الآخرين يدعوهم إلى نفس الشىء والبراءة مما عداه فهذا هو الإسلام وهذا لا يوجد عند "جرونانک" (گرونانک) حسب علمنا فلا يكون مسلما، بل كافرا.

(٣) المجوسية:

المجوس يعتقدون فى إلٰهين بدلا عن اللّٰہ إلٰه الحق الذى هو وحدهٔ لا شريک لهٔ فهم يعنى المجوس يعتقدون أن واحدا منهما حسب زعمهم خالق الخير والآخر خالق الشر واسم خالق الخير "يزدان" واسم خالق الشر "أهرمن" ومع ذلک هم يعتقدون فى تعظيم النار ويعبدونها وهم دائما عندهم يكون نارا موقدا لا يخمدونها ومع النار يعبدون الشمس والقمر وهذا المذهب كما لا يخفى كفر بواح، فلا شک فى كفرهم، بل الشک هو الكفر نفسه ونحن المسلمون أمرنا أن نتعامل معهم فى أشياء كثيرة بالمعاملة تشبه المعاملة مع أهل الكتاب (اليهود والنصارىٰ) ،لكن ذبيحتهم حرام وكذلک النكاح مع نساء هم.

(٤) اليهود:

وهذا الاسم "اليهود" إما مأخوذ من الهود الذى معناه "التوبة" أو مأخوذ من "يهودا" أحد أبناء سيدنا يعقوب عليه السلام، بل أكبرهم ويعقوب عليه السلام اسمه إسرائيل أيضًا ولهذا أولاده يقال بنى إسرائيل وهم أيضا يقال اليهود إما تغليبا من حيث أكبر أبناء يعقوب عليه السلام اسمه يهودا أو هو مأخوذ من كلمة "الهود" معناها "التوبة" لأنهم تابوا من عبادة العجل واليهود يزعمون أنهم أتباع سيدنا موسىٰ عليه السلام [2] الذى قد أعطى التوراة من عند اللّٰہ تعالىٰ وفى الحق إن مِن بنى إسرائيل من امن بجميع الأنبياء عليهم الصلوات والسلام واتبع النبي عليه السلام الذى أرسل إليه

---

(١) وكذلك عقيدهم وعبادتهم ليس إسلاميا بالكامل

(٢) بعد سيدنا موسىٰ عليه السلام

كان مسلما ناجيا من النار، ففى زمان موسى عليه السلام من اتبعه من بنى إسرائيل فهو على الحق لا شك فيه والله عزوجل أرسل فى بنى إسرائيل أنبياء كثيرة وآخرهم سيدنا عيسٰى عليه السلام ، لكن بنى إسرائيل إلا ما شاء الله منهم كانوا طغاة فقتلوا أنبياء كثيرة وكفروا و طغوا وأكثرهم لم يؤمنوا بسيدنا عيسٰى عليه السلام وكذٰلك كفروا بالنبي الخاتم النبي العالمى الذى أرسل إلى جميع الإنس والجن محمد بن عبدالله من بنى إسمٰعيل عليه الصلوات والسلام ومع ذٰلك هم حرّفوا التوراة والإنجيل وغيرها من الوحي الذى أعطى إلى الأنبياء الأخرىٰ عليهم الصلوات والسلام، فدينهم ليس دين سيدنا موسٰى عليه السلام ولا سيدنا عيسٰى عليه السلام ولا سيدنا إبراهيم ويعقوب عليهما السلام لأن دينهم[1] وكذٰلك دين جميع الأنبياء عليهم الصلوات والسلام هوالإسلام، بل دين هؤلاء اليهود الدين المختلق المفترى. فهم يعتقدون أنهم أحباء الله تعالٰى يعنى من حيث القوم ولو يكون عملهم من أكبر الخبائث ويعتقدون أنه لو لم يكن فى الأرض يهوديا رفع البركة منها واليهود أفضل من غير اليهود كما الإنسان أفضل من البهائم وحرام على اليهودى أن يلطف بغير اليهودى وخُلقت خزائن العالم لليهود، فلهم أن يحصلوا عليها كما يمكن والله عزوجل يقبل عبادة اليهود فقط، وفى زعمهم الأنبياء عليهم الصلوات والسلام غير معصومين، بل يرتكبون الكبائر (ونعوذبالله من هٰذه الهذيانات)و مسيح الضلالة الدجال هو عندهم الإمام العادل ويزعمون أنهم يحكمون العالم فى زمانه. وهم يكفرون بمسيح الهداية سيدنا عيسٰى عليه السلام وإمام الأنبياء سيد الكونين محمد بن عبدالله صلى الله تعالٰى عليه وسلم ويقولون على سيدنا مريم رضي الله تعالٰى عنها أم عيسٰى عليه السلام ببهتان عظيم ويزعمون أنهم قتلوا وصلبوا عيسٰى عليه السلام، والقرآن الكريم قد رد على زعمائهم الباطلة فى أماكن كثيرة وبعض اليهود يعتقدون أن سيدنا عزير عليه السلام ابن الله (ونعوذبالله) ومن جملة عقيدتهم أنهم يعتقدون أن الله عزوجل استراح فى يوم السبت بعد خلق العالم (ونعوذبالله) وحاصل الكلام هم يعتقدون فى الخرافات الكفريات الكثيرة وملهبهم مبنى على التعصب والتحزب لأنفسهم واليهود هم أهل الكتاب لأن التوراة قد أعطيت إلى سيدنا موسٰى عليه السلام واليهود يزعمون أنهم من أتباعه وكونهم أهل الكتاب لا يعنى أنهم ليسوا كفرة، بل هم الكفرة فى غاية الكفر وأشده وهم يزعمون أنهم يتبعون التوراة، بل فى الحقيقة لا يتبعونها، بل حرّفوها ومع ذٰلك كفرهم بسيدنا عيسٰى ومحمد عليهما السلام من أشد الكفر نفسه وحاصل الكلام هم الكفرة ولا شك فى كفرهم، بل الشك كفر نفسه.

---

(٢) يعنى دين هؤلاء الأنبياء عليهم الصلوات والسلام

(٥) النصرانية:

وهٰذا الاسم إما مأخوذ من القرية التى اسمها "ناصرة" كان ينزلها سيدنا عيسٰى عليه السلام فنسب إليها فقيل عيسٰى الناصرى فلما نسب أصحابه إليها قيل النصارى قاله ابن عباس رضى الله تعالٰى عنهما وقال الجوهرى و"نصران" قرية بالشام ينسب إليها النصارىٰ ويقال "ناصرة" وقيل سموا بذٰلك لنصرة بعضهم بعضا وقيل سموا بذٰلك لقوله تعالٰى حكاية عن سيدنا عيسٰى عليه السلام ﴿مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللّٰهِ قَالَ الْحَوَارِيُّوْنَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللّٰه [1]﴾ (آل عمران: ٥٢) فأيما كانت أن الحاصل هو أن فى زمان سيدنا عيسٰى عليه السلام من كان يتبعه اتباعا حقًا كان مسلما ومع ذٰلك أنهم كانوا يقالون "النصارى" وفى القرآن ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسٰى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِىٓ إِلَى اللّٰهِ قَالَ الْحَوَارِيُّوْنَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللّٰهِ اٰمَنَّا بِاللّٰهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُوْنَ﴾ (آل عمران: ٥٢) فهم كانوا مسلمين لأن جميع الأنبياء عليهم الصلوات والسلام و أتباعهم فى زمانهم كانوا مسلمين ونحن قد بيّنا هٰذا سابقا واليوم هو زمان محمد بن عبدالله العربى صلى الله تعالٰى عليه وسلم فأتباعه مسلمون ومخالفوه كافرون، فأتباع عيسٰى عليه السلام فى زمانه كانوا مسلمين وهم كانوا أيضا يقالون "النصارى"، لكن بعد ذٰلك، الناس حرفوا تعليمات عيسٰى عليه السلام والكتاب "الإنجيل" الذى أعطيه عليه السلام واختلقوا دينا جديدا مملوءا بالكفر والضلال فهم حينئذ لم يكونوا مسلمين، لكن لم يزل يقالون "النصارى" لزعمهم أنهم أتباع عيسٰى عليه السلام ولايجوز أن يسموا هؤلاء المحرفون بالمسيحيين أو عيسائيين؛ لأن عيسٰى المسيح عليه السلام هو النبي الرسول وهؤلاء ليسوا من أتباعه، بل هؤلاء حرفوا تعاليمه ونسبوا إليه الكذب والبهتان وهم لم يسموا بهٰذين الاسمين فى القرآن والحديث، بل هم يقالون: "النصارى". فهٰؤلاء يزعمون أنهم أتباع عيسى عليه السلام، لكن ليسوا منهم، بل عقيدتهم الكفر والشرك وهم يعتقدون فى التثليث ويقولون إن الإلٰه هو مع كونه الواحد ثلاثة. (الأب [2]، الابن [3]، روح القدس [4]).

وهٰذا يعنى الواحد مع كونه واحد ثلاثة من السفاهة الغريبة التى هم أنفسهم لايفهمونها فى الحقيقة ولايستطيعون بيانها ومع ذٰلك يعتقدون أن سيدنا عيسى عليه السلام قتل على الصليب وهم يعتقدون أن سيدنا آدم عليه السلام لما أكل من الشجرة فهو وذريته كلهم استحقوا العقاب (وهٰذا من

(١) يعنى قال سيدنا عيسٰى عليه السلام لهم من أنصارى لدين الله فقال الحواريون نحن أنصار دين الله.

(٢) وهو فى زعمهم الله (تعالى الله عن هٰذه الأشياء).

(٣) وهو فى زعمهم سيدنا عيسٰى عليه السلام (نعوذ بالله).

(٤) وهو فى زعمهم الأقنوم الثالث فى الألوهية (وفى الحقيقة روح القدس هو سيدنا جبريل عليه السلام خلق من خلق الله).

العجب) فالله عز وجل أرسل ابنه (معاذ الله) مجسدا فى رحم مريم رضي الله عنها فولدته وثم هذا الابن قتل على الصليب للكفارة للخطأ لآدم عليه السلام (ونعوذ بالله من هذه الهذيانات) أما الابن فـوالله تعالىٰ تقدس وتنزه عن هذه الأشياء وأما الخطأ لآدم عليه السلام فكان خطأ وليس إثما بالقصد وثم عفا الله تعالىٰ عنه وأما ذريته ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (بنى إسرائيل:١٥) فلا يستحقون العقاب لهذا الخطأ وأما الكفارة فالأول :الله سبحانهٗ وتعالىٰ لو يشاء أن يعفوعن واحد ما فلا يحتاج إلىٰ أي كفارة أو شيء من الأشياء. والثاني: من عمل الخطأ فعليه الكفارة وقد فعل سيدنا آدم عليه السلام بالتوبة والاستغفار وقد عفا الله عنه.

النصارى فيهم الفرق الكثيرة مثلا "الكيتوليك" "البروتيستنت" وغيرهما وهم فى أكثر الأصول متفقون ويختلفون فى الفروعات . النصارىٰ هم أهل الكتاب لأنهم يزعمون أنهم أتباع سيدنا عيسىٰ عليه السلام وهو قد أعطى الكتاب "الإنجيل" وهذا لايعنى أنهم ليسوا بكفرة، بل هم كفرة لعقيدتهم فى التثليث وألوهية عيسىٰ عليه السلام وروح القدس وإنكار نبينا خاتم الأنبياء وإمامهم محمد ابن عبدالله العربى صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وغيرها من الكفريات فمن اعتبر النصارىٰ أو اليهود من المسلمين أو من أهل الجنة أو أهل الذين الصحيح أو لايعتبرهما من أهل النار خالدين فيها أبدا فهو نفسه الكافر الخارج من ملة الإسلام. والمعلوم أن التوراة والإنجيل والزبور كتب الله الحقة، لٰكن حُرّف فيها وغُيّر فاليوم ما تقال التواراة والإنجيل والزبور فهٰذهٖ محرّفة مغيّرة فما منها توافق القرآن والحديث فمقبو لة [1] وما منها تخالف القرآن والحديث فمردودة وما منها لا توافق ولا تخالف القرآن والحديث ، فالمسكوت عنها لانصدّقها ولا نكذّبها وفى الحديث عن هذه الأشياء: "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وما أنزل إليكم وإلٰهنا وإلٰهكم واحد ونحن لهٗ مسلمون." (صحيح البخاري، ح:٤٤٨٥)

(١) بمعنى من حيث القبول بدون العلم أنهٗ وحي من عند الله أو شيء صحيح من النفس؛ لأن الممكن أن واحدا من الناس حرّره من نفسه بدون الوحي.

الضميمة

الحمد لله رب العلمين والصلوة والسلام على سيدنا الأنبياء والمرسلين وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وعلى أصحابهم وآلهم أجمعين، أما بعد! فنحن بحمد الله وفضله أكملنا شرح الكتاب الجليل الشامل لعقيدة أهل السنة والجماعة المعروف باسم "العقيدة الطحاوية" والحمد لله رب العلمين، فالأن من المناسب أن نذكر الأمور التى يشملونها العلماء الكرام فى الكتب للعقيدة والأصول توضيحا وتعليما للأشياء المفيدة للمسلمين وحفظا على عقيدتهم من الغواية لأهل الضلال والكفر، فنحن نذكر هذه الأمور التى لم نتكلم فى بيانها بعد ونأخذها من الكتاب المشهور "العقيدة النسفية" ونشرحها إن شاء الله العزيز بالحق متمسكا بالشريعة الإسلامية تكميلا لهذا الكتاب يعنى شرح العقيدة الطخاوية تأييدا لمسلك أهل الحق تكسيرا لمذهب أهل الباطل والطغيان.

(ا) قال أهل الحق: حقائق الأشياء ثابتة والعلم بها متحقق خلافا للسوفسطائية.

الشرح: هذا الكلام فى غاية البداهة ضرورة لأن قصده أن ما من الأشياء موجودة فهي موجودة فى الحقيقة وهذا أمر بديهي لا خفاء فيه، لكن ذكر هذا ردا على السوفسطائية وهؤلاء الحمقاء الذين لا يعتد بهم فى العالم عند المسلمين وغيرهم لكونهم منكرين للضروريات والبديهيات وفى زماننا يمكن أنهم انقرضوا مطلقا فلا يكاد يوجدون. وبعضهم (وهم العنادية) يزعمون أن حقائق الأشياء أوهام وخيالات باطلة وبعضهم (وهم العندية) يقولون أنها تابعة للاعتقاد فلو واحد يعتقد أن هذا الشيء جوهر فجوهر أو عرض فعرض وكذلك الأمر فى كل شيء وبعضهم (وهم اللاأدرية) يزعمون أن ثبوت الأشياء غير معلومة فهم شاكون والشاكون فى أنهم شاكون وهلم جرا، ولا حاجة لأى رد عليهم لأن لو واحد يقول فى الليل أنها نهار فهو أحمق فى الظاهر، بل عنيد وكذاب يعرف الحق فينكره والرد عليه ضياع الوقت والاعتداد فى نوع ما لحماقته، كلنا نعرف أن الإنسان إنسان والفرس فرس والسماء سماء والأرض أرض وكذلك جميع الأشياء، نحن الان نذكر بعض الأمور تكسيرا وهدما للسوفسطائية أولا! أن قولكم أن حقائق الأشياء أوهام وخيالات باطلة فهذا قولكم لو له حقيقة فثبت حقيّة الشيء [1] ولو ليس له حقيقة فثبت أن قولكم مردود وخلافه ثابت وهو أن حقائق الأشياء ليست أوهام، بل ثابتة حقة.

---

(١) لأن قولهم شيء لأنه عرض

وثانيا: أنكم اعترفتم بوجود الأوهام والخيال الباطل وهي نوع من الأفكار غير الصحيحة والأفكار أشياء فأنتم اعترفتم بوجود الأشياء وحقائقها.

وثالثا: لو الأشياء لا وجودلها فلماذا تحتاجون لإنكارها واعتبارها الأوهام والخيالات الباطلة وفي الحقيقة هذه الحاجة تثبت أنكم اعترفتم بوجود الأشياء، لكن تعاندون في إنكارها.

ورابعا: لو الأشياء لا ثبوت لها ولا حقائق فأنتم أنفسكم لا وجود لكم ولا حقائق، بل أنتم أوهام والخيالات الباطلة فقولكم عن الأشياء أنها أوهام وخيالات باطلة ناشيء من القائل الذى هو نفسه وهم وخيال باطل فكيف يعتد بقول وهم وخيال باطل؟.

وخامسا: الذين منكم يزعمون أن الأشياء تابعة للاعتقاد فعلى هذا لو واحد يعتقد عن الشيء أنهُ قديم وواحد آخر أنهُ حادث فهذا الشيء لو هو حادث فلا يمكن أن يكون قديما ولو هو قديم فليس بحادث، فثبت أن واحدا منهم غلط فثبت أن الأشياء لها حقائق ثابتة وليست تابعة للاعتقاد.

وسادسا: أن قولكم أن الأشياء تابعة للاعتقاد فنحن نقول إنه قول باطل فلو تقولون إننا مصيبون في إبطال قولكم لبطل قولكم وثبت أن الأشياء لها حقائق ثابتة وليست تابعة للاعتقاد ولو تقولون إننا مخطئون في إبطال قولكم فعلى هذا اعترفتم أن العقيدة قد يكون صوابًا وقد يكون خطأً وتركتم قولكم أن الأشياء تابعة للاعتقاد فثبت أن حقائق الأشياء ثابتة.

وسابعا: أن من منكم شاك في ثبوت الأشياء ويقول إنه لا أدرى عن ثبوتها ويزعم أنهُ شاك في أنهُ شاك وهلم جرا فنقول لهُ هل أنت تعلم أنت شاك في أنت شاك وهلم جرا إلى ما لا نهاية، لوقال نعم فاعترف بعلم هذا الشيء فثبت علم ثبوت الأشياء ولو قال لا فاعترف أنهُ يعلم [1] أنهُ لا يعلم أنهُ شاك في أنهُ شاك وهلم جرا فاعترف بعلم ثبوت هذا الشيء وثبت علم ثبوت الأشياء.

وثامنا: أنت تزعم أنك شاك في ثبوت الأشياء وعدمه وهذا يعني أنت تعلم ما هو معنى الثبوت وعدمه وإلا كيف تكون شاكا في شيء وأنت لا تعرف معناه فإذا تعلم معنى الثبوت وعدمه فتعترف بعلم بعض الأشياء فثبت أن الأشياء ثابتة ولها حقائق ثابتة. وفي الحقيقة هؤلاء القوم يؤخذ أموالهم ويسجنون ويعذبون ويضربون وقيل للعنادية إننا نفعل بكم كل هذه الأشياء ولكن أنتم تقولون إن الأشياء ليست لها حقائق فكل هذه الأشياء نفعلها بكم على قولكم غير ثابتة فكيف تلوموننا بها حتى يعترفون بحقائق الأشياء وقيل للعندية أن هذه الأشياء نفعلها بكم في عقيدتكم ظلم وطغيان بكم وليست هذه الأشياء نفسها شيئًا ما، بل تابعة للعقائد وعقيدتكم عقيدتكم فكيف تلوموننا بهذه الأشياء نفعلها بكم حتى يعترفون أن الأشياء لها حقائق ثابتة وليست تابعة للاعتقاد، وقيل للادرية أننا

(١) وكذلك لوقال: إنهُ شاك نعلم أنهُ شاك

نفعل هذه الأشياء بكم وأنت شاك فى علم ثبوت هذه الأشياء التى نفعلها بكم فكيف تلوموننا بالأمور المشكوك، بل عليك أن تثبت الاعتداء من وراء الشكوك وإلا تسكت وهذا حتّى يعترفون أن الأشياء معلومة الثبوت والحقائق.

وسوفسطا اسم للحكمة المموّهة والعلم المزخرف لأن سوفا معناه العلم والحكمة وإسطا معناه المزخرف والغلط ومنه اشتقت السفسطة وهذه الكلمة اليونانية وهم يقالون السوفسطائية لأن ليس عندهم الحكمة والعلم إلا المزخرف والغلط يعنى هم الحمقاء أو لأنهم يعتقدون أن الأشياء غير ثابتة الحقائق فلا علم عندهم حقيقيا، بل أوهام وخيال وشكوك والله أعلم .ولا يُحتاج إلى أى بيان أن السوفسطائية من الكفرة لأنهم ينكرون أو يشكون فى جميع الأشياء فيشمل ذات الله تعالى وصفاته وكتبه وأنبياءه وجميع الضرورات الدينية.

(٢) وأسباب العلم للخلق ثلاثة، الحواس السليمة والخبر الصادق والعقل.

فالحواس خمس، السمع والبصر والشم والذوق واللمس وبكل حاسة منها توقف علىٰ ما وضعت هي له، والخبر الصادق علىٰ نوعين، أحدهما الخبر المتواتر وهو الثابت علىٰ ألسنة قوم لا يتصور تواطؤهم على الكذب وهو موجب للعلم الضرورى كالعلم بالملوك الخالية فى الأزمنة الماضية والبلدان النائية، والنوع الثانى خبر الرسول المؤيد بالمعجزة وهويوجب العلم الاستدلالى والعلم الثابت به أيضًا هي العلم الثابت بالضرورة فى التيقن والثبات وأما العقل فهو سبب للعلم أيضا وما ثبت منه بالبداهة فهو ضرورى كالعلم بأن كل شيء أعظم من جزئه وما ثبت منه بالاستدلال فهو كسبي.

الشرح:

وهذا الكلام لا يحتاج إلى شرح كثير فيقول إن أسباب العلم للخلق ثلاثة يعنى بالعموم الله عزوجل يخلق العلم فى الخلق بوسيلة هذه الأسباب الثلاثة، والغاية ليست حصرا، بل الغاية بيان ما هو سبب العلم عامة وإلا قد يخلق الله علما فى خلق من الخلق بغير هذه الأسباب الثلاثة كما وقع فى حق الأنبياء عليهم الصلوات والسلام فهم يحصلون على العلم من الله تعالىٰ بالأسباب الأخرىٰ يعنى الوحي، لكن هذا أمر خاص والغاية بيان ما هو الأمر العام، فعامة أسباب العلم للخلق ثلاثة فمنها الحواس السليمة وقيد السلامة لأن لو الحواس ليست السليمة يعنى لو الله عزوجل لم يخلقها

سليمة أو أصابها آفة بعد السلامة فهٰذه الحواس المصابة لا تكون سببا لحصول العلم علىٰ قدر نقصانها يعنى اللّٰه عزوجل لا يخلق علما تاما فى النفس عند استعمال تلك الحواس بمناسبة نقصانها ولو هٰذه الحواس مصابة بالكلية فلا يخلق اللّٰه علما عند استخدامها على الإطلاق ، فلهٰذا قيد الحواس بالسلامة والحواس خمس: السمع: يخلق اللّٰه [1] عند استخدامها الإدراك فى النفس بالأصوات والكلام ، والبصر: يخلق اللّٰه تعالىٰ عند استخدامها الإدراك فى النفس بالأضواء والألوان والأشكال والمقادير والحركات والحسن والقبح وغير ذٰلك، والشم: يخلق اللّٰه عند استخدامها الإدراك بالروائح، والذوق: يخلق اللّٰه عند استخدامها الإدراك بالطعوم، واللمس: يخلق اللّٰه عند استخدامها الإدراك بالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ونحو ذٰلك كاللطافة والكثافة والهشاشة واللزوجة والبلة والجفاف والخفة والثقل وكل هٰذه الحواس يخلق اللّٰه تعالىٰ عند استخدامها الإدراك بالتى يخلقها اللّٰه لها كالسمع للأصوات والكلام والذوق للطعوم والشم للروائح فلو أراد اللّٰه تعالىٰ أن يخلق الإدراك بالأصوات والكلام عند استخدام حاسة البصر فلا يمنعه شيء ما وهو علىٰ كل شيء قدير ، لكن العادة للّٰه تعالىٰ هو خلق الإدراك على المنوال الذى ذكرناه آنفا.

والثانى: الخبر الصادق وهو علىٰ نوعين الخبر المتواتر وقد مر الكلام على الخبر المتواتر وهو الثابت علىٰ ألسنة القوم لا يتصور تواطؤهم على الكذب وهو موجب للعلم الضرورى يعنى لو الخبر يبلغنا من حيث أن من البداية إلى النهاية نقل الخبر هو من جمّع المتواتر إلى جمع المتواتر وهم الذين جم غفير إلى حد لا يتصور تمالئهم على الكذب وهٰكذا يبلغنا الخبر فنحن لا نتوقف فى تصديقه ولا نستخدم أى استنتاج النظر، بل نقبلهُ بدون التأخير مثلا وجود النبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم أو وجود بلد العرب والشام والمصر فكل هٰذا بلغنا فى صورة المتواتر. والنوع الثانى: خبر الرسول مؤيد بالمعجزة يعنى خبر النبي والرسول وكلهم قد أعطوا المعجزات دليلا لنبوتهم وهو يوجب العلم الاستدلالى يعنى إذا أظهر اللّٰه تعالىٰ المعجزة علىٰ يد النبي عليه الصلوات والسلام فثبت ضرورة وبداهة إلى الناس أن هٰذا صادق فى إدعاءه للنبوة من عند اللّٰه تعالىٰ ولهٰذا أظهر اللّٰه تعالىٰ علىٰ يده المعجزة دليلا علىٰ دعاوته للنبوة ثم ما يخبر النبي فخبره صادق من حيث الاستدلال أنهُ خبر الرسول من عند اللّٰه تعالىٰ فلا يمكن كونه كذبا، بل يجب أن يكون حقًا، فلهٰذا خبره يوجب العلم الاستدلالى وهو فى الثبات والتيقن كالعلم الضرورى، ولا يقال أن الأحاديث الآحاد لا تفيد إلا غلبة الظن فكيف توجب العلم لأن الأحاديث الآحاد ثبوت كونها من خبر الرسول صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم ظني ،

(١) يعنى عادة ولولا يخلق اللّٰه تعالىٰ هٰذه الإدراكات فالحواس لا تدرك شيئا.

فلهذا لا تفيد إلا غلبة الظن وإلا لو تثبت لخبر ما أنهٗ من خبر الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم بالقطع فهٰذا الخبر يلزم العلم القطعي فافهم.

والنوع الثالث: فهو العقل وهو أيضا سبب العلم وما ثبت منه بالبداهة فهو ضرورى كالعلم بأن كل الشيء أعظم من جزئه لأن هٰذا الأمر بديهي ولا يحتاج إلى الغور والنظر وما ثبت منه بالاستدلال فهو اكتسابى، والاستدلال يعنى نظرا إلى الدليل مثلا أن العالم حادث فهو نظرا إلى دليل أن العالم متغير وكل متغير فيجب أن يكون حادثا لأن ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث لاستحالة وجود الحوادث فى الأزل ثم اعلم أن العقل قد يدرك القبح والحسن على المعنى أن الموجب هو اللّٰه عزوجل يعنى هو الذى جعل هٰذا الحسن وهٰذا القبح فأمر بامتثال الأول واجتناب الآخر والعقل قد يدرك هٰذا الحسن والقبح، لكن ليس دائما وإدراك العقل أحيانا القبح والحسن فى الأشياء التى جعلهما اللّٰه فيها من إرشاد اللّٰه عزوجل يعنى هو الذى يهدى العقل فى إدراك القبح والحسن ونحن نعرف أن اللّٰه عزوجل يذكر العقل واللب فى القرآن ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُوْنَ﴾ (الشعراء:٢٨) ففى هٰذه الآية اللّٰه عزوجل يذكر سيدنا موسىٰ عليه الصلوٰة والسلام يناظر مع فرعون الملعون علىٰ وجود اللّٰه عزوجل فيحتجّ عليه من كونه تعالىٰ رب المشرق والمغرب وثم يقول إن كنت تعقل، فعقلك يرشدك فى هٰذا الأمر يعني وجود رب العلمين، فثبت أن النظر استخداما للعقل من أحد أسباب العلم وقد قال اللّٰه عزوجل ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُوْنَ أَوْ يَعْقِلُوْنَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيْلًا﴾ (الفرقان:٤٤) فعاب عليهم اللّٰه عزوجل لامتناعهم من استخدام العقل صحيحا صوابًا واعتبرهم أضل من الأنعام لامتناعهم لاستخدام العقل والسمع لبحث عن طريقة الهدى والصواب.

ثم اعلم أن محل العقل هو القلب كما فى القرآن ﴿فَتَكُوْنَ لَهُمْ قُلُوْبٌ يَعْقِلُوْنَ بِهَا﴾ (الحج:٤٦) [1]

(١) وأما ماهيته فواللّٰه أعلم. ومن المناسب أن نذكر أن النفس والروح شيء واحد كما دلت عليه النصوص، ففى الحديث "إن الروح إذا قبض تبعه البصر." (صحيح مسلم، ح:٩٢٠) وفى الحديث آخر "ألم تروا الإنسان إذا مات شخص بصره، فذلك حين يتبع بصره نفسه." (مصنف عبد الرزاق، ح:٦٠٦٩) وفى حديث "تحضر الملائكة فإذا كان الرجل صالحا قالوا أخرجى أيتها النفس الطيبة." (سنن ابن ماجة، ح:٤٢٦٢) وفى حديث آخر "إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها." (صحيح مسلم، ح:٢٨٧٢) وفى حديث "قال بلال رضي اللّٰه تعالىٰ "أخذ بنفسى يا رسول اللّٰه الذى أخذ بنفسك"." (سنن الترمذي، ح:٣١٦٣) وفى حديث آخر عن نفس الواقعة قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم "يأيها الناس إن اللّٰه قبض أرواحنا ولو شاء ردها إلينا فى حين غير هذا." (الموطا مالك، ح:٢٦) فثبت أن النفس والروح فى النصوص كلمتان مترادفتان فيدل أنهما شيء واحد والنصوص أيضا تدل على أنهٗ جسم لطيف حالّ فى البدن كما وردت النصوص فى إخراجه من البدن وفى الأكفان يلف ويعرج به إلى السماء وأنه ذو ريح طيبة أو خبيثة وكل هٰذه صفات الأجسام.

وإن قيل فما هو شغل الدماغ وأيضا الضربة على الرأس تضر العقل؟ فالجواب بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز أن العقل الذى معناه الفهم والتفقه هو عرض يخلقه الله تعالىٰ فى النفس وهٰذا الفهم والتفقه كجميع الأشياء يحتاج إلى إبقاء الله إياه فى النفس فأصلا ليس الدماغ ولا القلب اللذان يوجدان هٰذا الفهم والتفقه إذ لا خالق إلا الله كما هو المعلوم، بل الله تعالىٰ يخلق هٰذا كجميع الأشياء وهٰذا الفهم يخلقه الله تعالىٰ فى القلب كما قال تعالىٰ ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ (الحج: ٤٦) يعنى يخلق الله العقل والفهم فى قلوبهم وأما الدماغ فحيثيته ثانوية بنسبة القلب وفى الحديث "ألا فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلهٗ وإذا فسدت فسد الجسد كلهٗ ألا وهي القلب" فصلاح القلب صلاح الجسد كله وفساده فساد الجسد كله ثم المعلوم أن معنى المضغة فى الحديث ليست المضغة فقط، بل الروح الذى يتعلق بها ونحن ذكرنا أن الروح جسم لطيف حالّ فى البدن فما منه يتعلق بمضغة القلب فهو ومضغة القلب عبارتان عن القلب الحى وهو مستقر العقل والآية ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ (الحج: ٤٦) تتكلم عن القلب الحى كما هو ظاهر، ثم ما يفهم النفس فبقاء هٰذا بإبقاء الله إياه أيضا فى القلب كما يدل عليه الآية ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ (العنكبوت: ٤٩) يعنى القلوب فى الصدور فلا يبقى إلا أن نقول إن الدماغ حيثيته ثانوية وهو يساعد القلب فى نوع ما ولهٰذا لهٗ أيضا مقام ولو ثانويا من حيث نقصان العقل وصحته والله أعلم.

(٣) والإلهام ليس من أسباب المعرفة بصحة الشيء عند أهل الحق.

الشرح:

والإلهام يعنى ما يحصل للأولياء الله تعالىٰ لا يفيد العلم؛ لأنهٗ ليس بمنزلة الوحي من عند الله تعالىٰ، بل قد لا يفهم الولى إلهامه وقد يخطئ وقد يكون من وسواس الشيطان وقد يكون من عند الله فيضا بإلقاء المعنى لكن لأنهٗ غير محفوظ من جميع هٰذه الاحتمالات فلا يفيد العلم، نعم! قد يحصل به العلم إذا يكون الإلهام فيضا من عند الله تعالىٰ ، لكن هٰذا محتمل وليس يقينيا ولهٰذا لا يبتنى عليه أى أصول الدين ولا يكون حجة، بل صاحب الإلهام عليه أن يتبع القرآن والسنة ويدعوا الناس إليهما كما فى القرآن ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ (النساء: ٥٩) ولم يقل إلى الإلهامات وأيضا فى الحديث "من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار" يعنى الرأى المجرد فلا يسمع دعاوة الإلهام.

(٤) والعالم بجميع أجزائه محدث، إذ هو أعيان وأعراض، فالأعيان ما يكون لها قيام بذاتها وهى إما مركبة وهو الجسم أو غير مركبة كالجوهر

وهو الجزء الذى لا يتجزء، والعرض ما لا يقوم بذاته ويحدث فى الأجسام والجواهر كالألوان والأكوان والطعوم والروائح، والمحدث للعالم هو الله تعالىٰ.

الشرح:

والعالم بجميع أجزائه محدث وهو جميع غير الله وهو مخلوق حادث محدث خلق الله تعالىٰ إياه وفى الحديث "كل شيء خلق من الماء" فالماء خلق من لا شيء ثم هو الجوهر الأصلى فى خلق كل شيء والعالم يشتمل على الأعيان والأعراض فالأعيان ما يكون لها قيام بذاتها وهذا ليس على الإطلاق لأن كل شيء يحتاج إلى الله تعالىٰ فى خلقه وبقاء ه وقيامه، بل المعنى أن الأعيان علىٰ مقارنة الأعراض قائم بذاتها يعنى لها وجودها مستقل بائن عن الأعيان الأخرىٰ ولو تحتاج إلى الله تعالىٰ وجودها وبقاء ها وهذا بخلاف الأعراض لأنها توجد فى الأعيان فالأعيان محل لها وليس للأعراض وجود مستقل بائن، بل هي توجد وتحدث فى الأعيان، والأعيان إما أن تكون مركبة وهي الأجسام وإما أن تكون غير مركبة وهي الجواهر واحدها الجوهرُ، والجوهر هو الجزء الذى لا يتجزء ونحن نذكر عنه إن شاء الله العزيز بالتفصيل قريبا.

والأعراض واحدها العرض وهو ما لا يقوم بذاته يعنى ليس لهُ وجود بائن مستقل بل يحدث فى الأعيان وهي الجسم أو الجوهر، كالألوان والأكوان [1] والطعوم والروائح والكلام والصوت والسمع والبصر والحياة والموت والحركة والسكون والأشكال وغيرها من الحوادث التى تحدث فى الأعيان يعنى الله عزوجل يخلقها فيها وليس لخلق الأعراض حد، بل الله تعالىٰ يقدر علىٰ خلق أنواع الألوان إلى غير حدّ وكذلك الروائح والطعوم والأصوات والكلام والأكوان وكل شيء لا إلى الحد؛ لأنهُ علىٰ كل شيء قدير ، فمثلا نحن نرىٰ من الألوان: الأسود والأبيض والأخضر والأصفر والأحمر وغيرها من الألوان فالله عزوجل يقدر علىٰ خلق كل هذه الأنواع إلى ما لا نهاية للأنواع وكذلك جميع الأعراض، بل جميع الأشياء والله عزوجل قادر علىٰ كل شيء، يقدر علىٰ خلق الأشياء وأنواعها إلى ما لا حد للأشياء ولا لأنواعها وهذا من ضرورات الدين لا ينكره سوا الكافر الذى لا يفهم قدرة الله تعالىٰ. وأما الجوهر وهو الجزء الذى لا يتجزء يعنى لو أخذنا الجسم والجسم مركب الأجزاء كما هو ظاهر لأنهُ ينقسم ويتبعض فبعد التبعض والانقسام نحن نحصل علىٰ أجزاء ه والجوهر هو أن ينقسم ويتبعض الجسم إلىٰ حد أنهُ لا يقبل الانقسام والتجزى بعده، فهذه الأجزاء

(١) وهي الحركة والسكون والاجتماع والافتراق يعنى كون الجوهرين مجتمعا أو متفرقا فهما أيضا من الأعراض لأن من الممكن ان يتفرقا أو يجتمعا فى حال دون حال فهما من الحوادث تحدث فيهما.

لهٰذا الجسم التي لا تقبل التجزي بعدها تقال الجواهر، فالجسم هو مركب من الجواهر، وهنا لو سئل لماذا هٰذه الأجزاء لا تقبل التجزي والانقسام والله علىٰ كل شيء قدير فهو القادر علىٰ تجزئتها وتقسيمها؟ فالجواب بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز أنهٗ لا شك أن الله علىٰ كل شيء قدير فهو القادر علىٰ جميع التجزئة والتقسيم، لكن قولك أن الله هو القادر علىٰ تجزئة الجوهر فنحن نسألك أليس الله هو القادر علىٰ خلق الجوهر الذي لا يقبل التجزي والانقسام؟ فلا بد من نعم؛ لأنهٗ هو القادر علىٰ كل شيء فكما هو القادر علىٰ خلق جميع أنواع التجزئة فهو أيضا القادر علىٰ خلق الشيء الذي لا يقبل التجزي، ونحن الآن ندخل في الموضوع غير الصحيح؛ لأنهٗ يؤدي إلى مقارنة قدرة الله علىٰ تجزئة الشيء بقدرته تعالىٰ علىٰ خلق الشيء الذي لا يقبل التجزي وهٰذا الكلام لا ينبغي، بل يجب الاجتناب [1] من هٰذا الكلام والتحقيق أن الله علىٰ كل شيء قدير فهو القادر علىٰ تجزئة جميع الأشياء وهو أيضا القادر علىٰ خلق الأشياء التي لا تقبل التجزي ويجب أن نتوقف هنا ولا نخوض أكثر من هٰذا، بل نرىٰ هٰذا الموضوع عن الجوهر من النواحي الأخرىٰ.

فمن المعلوم أن الأجسام مركبة الأجزاء فلو قلنا إن الجسم ينقسم إلى ما لا نهاية لهٗ فهٰذا يؤدي إلى وجود الأجزاء غير متناهية في جسم واحد فضلا عن العالم كله ووجود المخلوقات غير متناهية محال بديهيا لأن لو كانت المخلوقات غير متناهية لا يمكن زيادتها لأن غير متناهية لا تقبل الزيادة، لٰكن نحن نرىٰ في العالم كل يوم زيادة إيجاد المخلوقات كثيرة كثيرة فوجود المخلوقات متناهي فلا بد من أن الجسم لا يكون مركباً إلا بالأجزاء المتناهية فينقسم إلى الأجزاء التي ليس بعدها الانقسام وهٰذه هي الجواهر وهٰذا دليل عقلي وأما دليل نقلي فقولهٗ تعالىٰ ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ (الجن:٢٨) والإحصاء بالعدد إنما يكون في المتناهي فالله عزوجل أحصىٰ كل شيء عددا فيشمل أجزاء الجسم فإنما هي متناهية، فلهٰذا أحصيت عددا وغير المتناهي لا تحصىٰ عددا فثبت أن أجزاء الجسم متناهية وهٰذا يثبت ثبوت الجوهر وهو الجزء الذي لا يتجزء.

ثم المعلوم أن الله عزوجل ليس جوهرا ولا جسما ولا عرضا فأما العرض فهو لا يقوم بذاته، بل يحل في الجوهر والجسم والله عزوجل قائم بذاته لا يحتاج إلى أي شيء، بل هو الغني الحميد وثم الأعراض حوادث تحدث في الأجسام والجواهر والله عزوجل أزلي أبدي وأما الجسم فلأنه مركب الأجزاء والله عزوجل واحد أحد ليس فيه التجزي ولا الانقسام وثم المركب لا يكون إلا حادثا لأن أجزاءه تسبقه في الوجود والمسبوق حادث [2] وأيضا الجسم تحلّ فيه الأعراض وهي

(١) لأنه يناقض بعضه بعضا فالخوض فيه قد يؤدي إلى الكفر والضلال.

(٢) والله أزلي أبدي فليس بجسم.

الحوادث وما تحل فيه الحوادث فهو حادث نفسه؛ لأنهٗ لا يسبق ما تحلّ فيه من الحوادث وهٰذا من أعظم الأدلة عقليا في حدوث العالم لأننا نرىٰ العالم لا يخلو من الحوادث فلا بد للعالم من أن يكون نفسه الحادث لأنهٗ لا يسبق ما تحل فيه من الحوادث وأما الجوهر فلأنه ولولا يكون مركبا ، لكن يتركب مع الجواهر الأخرىٰ فتكون جسما والله عزوجل تعالىٰ عن ذٰلک لأن هٰذا من أمارة الحدوث لأن التركب حادث والجوهر لا يخلو منه كما ذكرنا وما لا يخلو من الحادث فهو حادث وأيضا الجوهر يحتاج إلىٰ التحيز في مكان، والاحتياج ينافي ذات الله تعالىٰ وأيضا الجوهر تحل فيه الأعراض وهي الحوادث وقد ذكرنا التركب منها وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث ، فلهٰذا الله عزوجل لا تقوم به الأعراض والحوادث؛ لأنهٗ أزلي أبدي والأزلية ينافي قيام الحوادث لاستحالة وجود الحوادث في الأزل فالأزلي في الأزل علىٰ صفة لا تقوم به الحوادث وهٰذه صفة من الأزل فهي أزلية والأزلي لا ينعدم لأن الانعدام بعد الوجود الأزلي حادث والأزلي في الأزل علىٰ صفة لا تقوم به الحوادث [1] فهٰذه الصفة للأزلي أنهٗ لا تقوم به الحوادث صفة قائمة معهٗ التي لا تنعدم والله عزوجل أزلي فلا تقوم به الحوادث فصفاتهٗ ليست الأعراض، بل صفاتهٗ قائمة بهٖ أزلية أبدية واجبة لازمة [2] لذاته تعالىٰ فافهم! هٰذا هو الحق وعليه أهل السنة والجماعة واجتنب من زيغ الزائغين والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

(٥) وما يوجد من الألم في المضروب عقيب ضرب إنسان والانكسار في الزجاج عقيب كسر إنسان وما أشبهه، كل ذٰلک مخلوق الله تعالىٰ، لا صنع للعبد في تخليقه.

الشرح:

وهٰذا كلام ظاهر لا خفاء فيه والأصل معلوم من الدين بالضرورة وهو أن الله عزوجل خالق كل شيء فهو الخالق على الإطلاق والمخلوق يحتاج في خلقه إلى الله تعالىٰ فضلا عن أن يخلق شيئاً ما، بل هٰذا مستحيل بديهيا فإذا يضرب الإنسان إنسانا آخر فهٰذا الضرب الله عزوجل خالقه والإنسان الضارب كسب هٰذا الضرب وهو المسئول لهٗ عند الله تعالىٰ ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة:٢٨٦)

والألم الذي وجد في المضروب فهٰذا الألم الله عزوجل خالقه وليس للإنسان الضارب فيه

(١) فلا يطرأ عليه الانعدام الحادث فلا ينعدم.

(٢) يعني هٰذه الصفات لهٗ تعالىٰ لا تنعدم ولا تنقص ولا إمكان لنفيها من ذات الله تعالىٰ.

شيء أما الخلق فهو المستحيل إذ لا خالق إلا الله وأما الكسب فالإنسان يكسب الضرب الذى هو فعلهٔ وأما الألم فهو شيء آخر لا دخل للضارب لهٔ وقد يضرب الإنسان والمضروب لا يحصل على أى ألم وقد يحصل الألم بدون أى الضرب، فلهٰذا الألم ليس كسبا للضارب أيضا كما ليس خلقا لهٔ وأيضا الكسب يكون فى الكاسب ولهٰذا يقال إنه كاسب لهٰذا الكسب كما الفعل يكون منسوبا للإنسان الفاعل إذ الفاعل محل لهٰذا الفعل وهٰذا فى النسبة الحقيقية والألم لم يحصل فى الضارب، بل فى المضروب فلا يكون كسبا للضارب، لكن الضرب من الضارب وهو فاعل لهٰذا الفعل من حيث الكسبِ لهٔ والألم ولو يحصل فى المضروب، لكن بدون أى فعل منه فلا يكون كسبا لهٔ أيضا وإن كان هو محلا لهٔ كما لون الإنسان فالإنسان محل لهٰذا اللون، لكن ليس كاسبا لهٔ؛ لأنهٔ ليس من فعله وكذٰلك الكلام فى الإنكسار فهو خلق الله تعالٰى والعبد ليس لهٔ الخلق ولا الكسب فيه؛ لأنهٔ يحصل فى الزجاج وليس فى العبد وأما الكسر فهو خلق الله تعالٰى والكسب للعبد؛ لأنهٔ من فعله وهو مباشر لهٰذا الفعل وإن كان هو وجميع أفعاله مخلوقة لله تعالٰى.

(٦) والمقتول ميت بأجله والموت قائم بالميت، مخلوق الله تعالٰى والأجل واحد.

الشرح:

وهٰذا الكلام أيضا ظاهر لا خفاء فيه لأن المعلوم من الدين بالضرورة أن الله سبحانهٔ وتعالٰى علم وأراد وقدر كل شيء فى الأزل الذى لا بداية لهٔ والموت بغض النظر يكون بالقتل أو بدونه من المقدرات فإذا جاء هٰذا الوقت المقدر للعبد الذى هو يموت فيه يعنى لو قدر لهٔ أنهٔ يموت فى هٰذا الوقت المعين بالقتل فهو يقتل فى هٰذا الوقت لا محالة وهٰذا هو أجله المقدر لهٔ وكذٰلك لو قدر لهٔ أن يموت فى هٰذا الوقت المعين بدون القتل فهو يموت حينئذ لا محالة وهٰذا هو أجله المقدر لهٔ فالأجل واحد كما فى القرآن ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (الأعراف:٣٤) ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ (المنافقون:١١) والموت قائم بالميت وهٰذا ظاهر وفيه إشارة إلى أن القاتل ليس كاسبا لموت المقتول، بل هو كاسب للقتل الذى هو فعله [1] القائم بذاته وأما الموت فهو فعل الله تعالٰى بإزهاق الروح من المقتول الذى هو بفعلهٔ بأيدى الملائكة لا يد للقاتل فيه ولأن الكسب قائم بالكاسب فالقتل قائم بالقاتل فهو فعلهٔ وكسبه والله عزوجل خالق هٰذا الفعل والكسب لا دخل للقاتل فى خلق القتل لأن لا خالق إلا الله، لكن القاتل مسئول للقتل الذى هو كسبه وإن كان

(١) يعنى كسبا وأما خلقا فلله عزوجل.

اللّٰه خالقا لهٰذا الكسب وقد مر التفصيل لهٰذه الأشياء، وأما الموت فهوليس قائما بالقاتل، بل بالمقتول ولهٰذا ليس كسبا للقاتل، بل هو مخلوق اللّٰه تعالىٰ فى المقتول بدون كسب القاتل لأنهٗ ليس قائما بهٖ وبدون كسب المقتول لأنهٗ ليس فاعلا لهٗ وما ذكرنا يكون مبينا للسؤال عن مؤاخذة القاتل وإن كان موت المقتول ليس فعلا للقاتل كسبا لأن ولو كان الموت ليس كسبه لكن القتل كسبه فهو مسئول بجريمة القتل وأما الأحاديث الواردة فى أن بعض الطاعات يزيد فى العمر مثلا "ولا يزيد فى العمر إلا البر." (سنن الترمذي، ح: ٢١٣٩) و"ومن أحب أن يبسط فى رزقه وينسأ لهٗ فى أثره فليصل رحمه." (صحيح مسلم، ح:٢٥٥٧) فهٰذا لا يعنى أن الأجل تختلف لأن هذا يؤدى إلى الجهل فى حق اللّٰه تعالىٰ، بل المعنى أن اللّٰه تعالىٰ يعلم أنهٗ لو لم يفعل هذه الطاعة لكان عمره أربعين سنة لكنه يعلم أنهٗ يفعلها ويكون عمره سبعين سنة فنسبت هذه الزيادة إلى تلك الطاعة بناء علىٰ علم اللّٰه تعالىٰ أنهٗ لولاها لما كانت تلك الزيادة وإلا الأجل الذى عند اللّٰه تعالىٰ لهٰذا العبد فهو الواحد وهو نهاية سبعين سنة لأنهٗ يعلم وقد قدر عليه أنهٗ يفعل هٰذه الطاعة ويكون عمره سبعين سنة فافهم! واللّٰه يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

(٦) الحرام رزق وكل يستوفى رزق نفسه حلالا كان أو حراما ولا يتصور أن لا يأكل الإنسان رزقه أو يأكل غيره رزقه.

الشرح:

الرزق وهو ما يسوقه اللّٰه تعالىٰ إلى الحيوان فيأكلهٗ ويشربه وقد يكون فى معنى مجرد الملك كما فى الآية ﴿وَمِمَّا رَزَقْنٰهُمْ يُنْفِقُوْنَ﴾ (البقرة:٣) يعنى ما أعطيناهم فأملكناهم عليها فهم ينفقون منها ، ففى الآية الرزق ليس فى المعنى ما يأكل الحيوان ويشربه، بل ما يملكه لأن ما أكلهٗ فظاهر أنهٗ ليس منفقا لهٗ فالمعنى هنا مجرد الملك حتىٰ يتمكن من الإنفاق ، لكن المعنى الأشهر فهو الأول كما هو المعلوم [1] من اللغة والعرف وبعد هٰذا البيان فاعلم أن الحرام رزق يعنى ما يأكل الإنسان ويشربه ، فبغض النظر أنهٗ حصل عليه بطريقة الحلال أو الحرام هو رزقه لا محالة، نعم لو حصل عليه بطريقة الحلال فجيد وإلا يكون مؤاخذا به ، لكن هٰذا لا يغير الحقيقة أنهٗ رزقه والدليل هو قولهٗ تعالىٰ ﴿وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللّٰهِ رِزْقُهَا﴾ (هود:٦) ولهٰذا المعلوم من الدين بالضرورة أن اللّٰه هو الرزاق لجميع الخلق ولا رازق إلا هو حقيقة ﴿إِنَّ اللّٰهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِيْنُ﴾ (الذاريات:٥٨) ونسبة الرزق إلى غيره تعالىٰ مجاز محض لأن الرزق فى الحقيقة خلق اللّٰه تعالىٰ

(١) وهٰذا هو المعنى فى هٰذا البيان للرزق.

وكذلك سوق الرزق إلى المرزوق خلق الله تعالى فإذا علم هذا فلو قلنا إن الحرام ليس رزقا فعلى هذا من يأكل الحرام غير مرزوق من الله تعالى وهذا محال باطل، بل كفر؛ لأنه يقتضي نسبة خلق الرزق وخلق إتيان الرزق إلى غير الله والمعلوم أن لا خالق إلا الله عزوجل فإذا ثبت هذا فلا يتصور أن الإنسان لا يأكل رزقه لأن ما قدر الله عليه أن يأكل ويشرب يسوقه إليه ويجعله يأكله ويشربه وكذلك لا يتصور أن يأكل غيره رزقه لأن ما لم يقدر الله عليه أن يأكل ويشربه فلا يأكله ولا يشربه فلا يمكن له أن يأكل ويشرب الذي قد قدر الله رزقا لغيره. ولا يقال أن كون الحرام رزقا يلزم نسبة سوق الحرام إلى الله تعالى وسوق الحرام قبيح لأن أولا! إن الله تعالى ﴿لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾(الأنبياء:٢٣) وهو الله الخالق الواحد القهار المالك على الإطلاق، الخالق على الإطلاق فله أن يفعل ما يشاء لا منع عليه ولا حجر لأن كل شيء له، فما يسوقه إلى العبد فهو مالك له على الإطلاق وله أن يفعل ما يشاء في ملكه لا اعتراض ولا قباحة.

ثانيا: الحرام فهو منسوب إلى العبد لأنه هو المكلف من عند الله تعالى أن يختار حلالا، لكن هو اختار حراما وهذا كسبه له فالاعتراض والقباحة على العبد دون الله تعالى.

وثالثا: والله عزوجل خالق هذا الكسب يعني سوق الرزق إلى العبد، والعبد كاسب لجلب هذا الرزق حراما ونحن قد ذكرنا أن الله عزوجل لا خالق إلا هو فهو خالق العبد وأفعاله وإن كانت حراما فالاعتراض والقباحة ليسا على خلق الحرام وإرادته وتقديره من عند الله تعالى لأن كل شيء له فهو يفعل في ملكه ما يفعل وأيضا في خلق الحرام وتقديره من الحكمة يعلمها الله تعالى لأنه الحكيم وهذا فضله وإلا المالك على الإطلاق الله سبحانه وتعالى لا حجر عليه ولا منع في[1] ما يفعل ولا شيء فوقه يحاسبه تعالى الله عن ذلك، بل الاعتراض والقباحة في كسب العبد للحرام وهوإنما لأن الله عزوجل نهاه عنه، فالحلال والحرام من أحكام الله عزوجل بنفسهما فكيف هما يقيدا ذات الله عزوجل؟ تعالى الله عن ذلك.

(٧) وما هو الأصلح للعبد فليس ذلك بواجب على الله تعالى.

الشرح:

وهذا الكلام ظاهر لا خفاء فيه البتة، بل هو من ضرورات الدين كما هو المعلوم، منها أن الله تعالى لا يجب عليه شيء ولا حاجة للكلام في هذا الموضوع، الله عزوجل هو الواحد الملك المالك على الإطلاق لا يفوقه شيء ولا يحاسبه أحد ولا يخرج من ملكه شيء فإذا يفعل شيئا فله أن

(١) ولهذا أفعاله حكيمة في نفسها.

يفعله وإذا لا يفعل شيئًا فلهٗ أن لا يفعلهٗ كما فى القرآن ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة:١٧) وأيضا فى القرآن ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النور:١٤) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (النور:٢٠) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (النور:٢١) ففى هذه الآيات اللّٰه سبحانهٗ وتعالٰى يذكر فضلهٗ ورحمتهٗ أنهٗ لم يعذبهم، بل رحمهم والمعلوم أن الفضل والرحمة لا يكون واجبًا كما قال اللّٰه تعالٰى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ (آل عمران:١٦٤) والمِنّة لا تكون واجبة، بل كل شيء من اللّٰه تعالٰى فضل منه ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ (النحل:١٨) فلو كان الأصلح واجبًا على اللّٰه تعالٰى للعباد (ونعوذبالله) لما كان لهٗ امتنان على العباد واستحقاق الشكر فى الهداية وإفاضة أنواع الخيرات إذا كانت حينئذ كلها من الواجبات وأداء الواجبات ليس امتنانا وكذٰلك لما كان لهٗ امتنان على النبي صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم فوق امتنان علىٰ أبى جهل لعنه اللّٰه إذ فعل بكل منهما ما هو الأصلح لهما وأيضا خلق الكافر المعذب أبدا فى الآخرة لا يكون لأن من يستطيع أن يزعم أن عذاب الكافر بالدوام أصلح لهٗ، بل معلوم عذابه عذابه وهو يستحق هٰذا العذاب بسبب كفره ، لٰكن اللّٰه تعالٰى يقدر أن لا يخلقه أصلا حتىٰ لا يكفر ولا يستحق العذاب الدائمى ولو لا يخلق الكفرة لكان فى علمه وإرادته أزليا أن لا يخلقهم ، لكن خلقهم كما علم وأراد خلقهم من الأزل بغض النظر هو أصلح لهم أم لا، وكذٰلك سؤالنا للّٰه تعالٰى للعصمة والتوفيق وكشف الضراء والبسط فى الخصب والرخاء كلها لا يكون لها معنى إذا كان ما هو الحاصل هو الأصلح، بل فى هٰذه الحالة لم يبقى فى قدرة اللّٰه تعالٰى أن يفعل ما هو الخير مماهو الحاصل إذ الحاصل هو الأصلح وهٰذا يقيد قدرة اللّٰه تعالٰى وهو الكفر البواح، بل اللّٰه عزوجل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا اعتراض ولا منع ولا قباحة، لهٗ أن يفعل ما يفعل إذ كل شيء لهٗ فلهٗ أن يتصرف فيها كما يشاء وهٰذا من ضرورت الدين ولا يجحدها إلا الكافر المنكر لعظمة اللّٰه وقدرته وملكه وتصرفه كما يشاء.

(٨) ويجوز العقاب على الصغيرة والعفو عن الكبيرة.

الشرح:

وهٰذا الكلام فيه تفصيل وبيان، فالقول أن العقاب يجوز على الصغيرة يعنى سواء اجتنب

المرتكب لها الكبائر أم لا وهٰذه لدخولها تحت قوله تعالىٰ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ (النساء:٤٨) فالمعلوم من الدين بالضرورة أن الكفر والشرک لا مغفرة لمن مات عليهما وعقاب كل واحد منهما الخلود فی النار إلى أبد الأبدين وما دون ذلک تحت المشيئة كما تصرح الآية فتشمل الكبائر والصغائر، فالله عزوجل قد أخبر أنهٗ لا يغفر الكفر والشرک وما دون ذلک من الكبائر والصغائر فقد يعذب عليها وقد لا يعذب عليها فثبت إمكان العقاب على الصغائر مطلقا وكذلک الآية ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ (الكهف:٤٩) ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ (النساء:١٢٣) ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (زلزال:٨) فهٰذه كلها تدل علىٰ إمكان العقاب على الصغائر بغض النظر أن مرتكبها اجتنب الكبائر أم لا وكذلک الآية ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ (النساء:٤٨) تدل علىٰ إمكان العفو والمغفرة عن الكبيرة غير الكفر والشرک بغض النظر أن مرتكبها مات بالتوبة عليها أم لا والكلام كلهٗ من حيث النظر إلى النصوص عن الوعد والوعيد والمغفرة لأن المعلوم أن الله تعالىٰ لهٗ يغفر ما يشاء ويعذب علىٰ ما يشاء وهٰذا نظرا إلى قدرته وملكه وعظمته ، لكن المعلوم أيضا أن الله عزوجل إذا قد قال شيئًا فهو كما قال ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ (النساء:١٢٢) فنحن ننظر إلى النصوص عن هٰذا الموضوع لكی نعرف ما قال الله عزوجل فی الوعد والوعيد على الذنوب وكذلک المغفرة عنها فنظرا إلى النصوص عرفنا أن الله عزوجل لا يغفر من مات على الشرک أو الكفر وهٰذا معلوم من الدين بالضرورة ويغفر ما دونهما لمن يشاء من الصغائر والكبائر أو لا يغفر فيعذب عليها وثم يخرج المذنب من النار لأجل إيمانه على الإسلام ويدخله الجنة وهٰذه كلها أيضا معلومة من ضرورات الدين وإن قيل أن الآية ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ (النساء:٣١) تدل ظاهرا علىٰ تكفير السيئات يعنی المغفرة عن الصغائر إذا اجتنبت الكبائر فكيف تقول عن إمكان العقاب على الصغائر إذا مرتكبها يجتنب الكبائر؟ فالجواب بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز أن الآية تتكلم عن الاجتناب من الكبائر والمعلوم أن ترک الفر كبيرة فترک الصلوٰة من أكبر الكبائر فمجتنب الكبائر لا محالة يصلی الصلوات الخمس ويعمل الطاعات الواجبة فهٰذه كلها مكفّرات كما فی الحديث "الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنب الكبائر." (صحيح مسلم، ح:٢٣٣) "ما من إمرئ مسلم يحضره صلاة مكتوبة، يحسن وضوئها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب مالم تؤت كبيرة." (صحيح مسلم، ح:٢٢٨) وكذلک الآية ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (هود:١١٤) فإذا تجتنبوا من الكبائر ما تنهون عنه وهٰذا لا يمكن إلا أن تكونوا مكملين للفرائض من الطاعات فنحن نجعل هٰذه الطاعات الفريضة مكفّرات لما صدرت منكم من الصغائر

فإذا فهمت هٰذا فاعلم أن الصغائر إذا فعلت بالإصرار لا تبقى الصغيرة، بل تكون كبيرة يعنى لو واحد دائما ينظر إلى المرأة التى لا يجوز لها أن ينظر إليها فهٰذه النظرة ليست الصغيرة، بل الكبيرة ، لكن لو صدرت منه مرة أو مرتين وثم تاب منها فهٰذه الصغيرة وكذٰلك لو واحد دائما يخوض فى الذنوب الصغائر ولو مختلفة فهٰذا الإصرار يجعلها كبيرة ولو كانت كل واحد من الصغائر فى نفسها صغيرة ، ففى هٰذه الحالة هٰذا الشخص يكون مرتكبا لعدة من الصغائر وأيضا الكبيرة من حيث الإصرار والجملة وارتكاب الكبيرة ينفى هٰذه البشارة لتكفير السيئات فى الآية والأحاديث لأنها مقيدة مع الاجتناب من الكبائر ولو فعلت الصغائر فضلا عن الكبائر بالاستخفاف والاستهانة يعنى كأنها حقيرة تشبه لا شيء فهٰذا هو الكفر لأن الاستخفاف ما نهي الله عنه بغض النظر أنهٗ يُعدّ فى الفقه من الصغيرة او الكبيرة كفر لأن المرتكب حينئذ لا يحترم الشريعة والقانون الذى من عند الله تعالىٰ فلا يخفى أنهٗ لا يستحق اسم المسلم ولوواحد يفعل من الصغائر والكبائر ويعمل الطاعات المكفرات فهو لا يأتى تحت بشارة التكفير لأنها مقيدة مع الاجتناب من الكبائر ، لكن هٰذا لا يعنى أنهٗ غير مغفور لهٗ بالقطع، بل حكمه فى الآية ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَآءُ﴾ (النساء:٤٨) فمهما كان، لو هو يموت على الإسلام يعنى علىٰ غير الكفر والشرك فمرتكب لهٰذه الكبائر والصغائر (دون الكفر والشرك) قد يعاقبه الله عليها وقد لا . ولو واحد يجتنب من جميع الكبائر وهٰذا يشمل الإصرار على الصغائر فيجتنب كل ذٰلك وهٰذا يشمل أيضا عمل الطاعات الفريضة لأن تركها من الكبائر فهل طاعاته الفريضة المكفرة تكفّر صغائره ما صدرت منه بدون الإصرار بالقطع؟ فالجواب بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز أن الآية ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ الخ﴾ (النساء: ٣١) والأحاديث التى ذكرنا فى تكفير السيئات بالطاعات تدل عليه ، لكن الآية ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهٖ﴾ (النساء:١٢٣) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهٗ﴾ (زلزال:٨) تدل علىٰ إمكان العقوبة علىٰ كل نوع من الإثم والذنوب، فقلنا بتوفيق الله تعالىٰ إن شاء الله العزيز أن البشارة حاصلة بالعموم لمن يجتنب الكبائر وهٰذا يشمل اجتناب الإصرار على الصغائر واجتناب ترك الطاعات الفريضة والواجبة، فهو مغفورلهٗ من حيث الصغائر التى بدرت منه ، لٰكن مع الإمكان أن الله عزوجل قد يعذبه علىٰ ما شاء من الصغائر لأنها لم تكفّر بالطاعات بسبب ما (قد يكون بسبب التقصير فى الطاعات)وهو المعلوم عند الله عزوجل وهٰذا ما قلنا بجمع النصوص إن شاء الله العزيز والحمد الله رب العٰلمين.

(٩) والسعيد قد يشقى، والشقى قد يسعد، والتغير يكون على السعادة والشقاوة دون الإسعاد والإشقاء، وهما من صفات الله ولا تغير على الله تعالىٰ ولا علىٰ صفاته.

الشرح:

هٰذا الكلام ظاهر لا يحتاج إلى إفهام معناه ، لكن هناك تفصيل وهو أن السعيد والشقى لهما اعتباران، (١) هو السعيد الموصوف بالسعادة المعتد بها يعنى السعيد فى الآخرة وهٰذا موقوف على موته من هٰذا الدنيا على السعادة يعنى على الإيمان بالإسلام وكذٰلك الكلام فى الشقى، فالشقاوة المعتد بها هي ما تكون فى الآخرة وهٰذا موقوف على الموت من هٰذا الدنيا على الشقاوة يعنى الكفر [1] وفى هٰذا المعنى الحديث "السعيد من سعد فى بطن أمه والشقى من شقى فى بطن أمه." (المعجم الكبير، ح: ٣٠٤٠) يعنى كتابة الملك عند ما يكتب عنه وهو فى بطن أمه وهٰذا بإخبار من اللّٰه تعالٰى [2] للملك عن سعادته أو شقاوته ، ففى الحقيقة السعيد من سعد فى علم اللّٰه وإرادته من الأزل وكذٰلك الشقى، فمن علم اللّٰه وأراده أن يموت على السعادة فهو سعيد ومن علم وأراد لهٗ من الأزل أن يموت على الشقاوة فهو شقى بغض النظر ما فعل فى طول حياته لأن العبرة هي للخاتمة فمن لبث حياته على الكفر ، لٰكن امن وأسلم قبل الموت ومات عليه فهو سعيد ومن لبث حياته على الإيمان ، لكن نعوذباللّٰه ارتدّ قبل الموت ومات عليه فهو شقى وفى هٰذا المعنى قال اللّٰه تعالٰى فى حق إبليس ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِيْنَ﴾ (البقرة:٣٤) يعنى حتٰى قبل خلق آدم وقبل عناده واستكباره لحكم اللّٰه كان لم يزل كافرا مع صحة إيمانه وكثرة طاعته حينئذ لأن العبرة هي لما يختم لهٗ عليه وهو الكفر فهٰذا الاعتبار الأول للسعادة والشقاوة وفى هٰذا الاعتبار لا ينظر إلى ما فى الحال، بل مافى المال.

(٢) والاعتبار الثانى للسعادة والشقاوة هو الاعتبار لما فى الحال بغض النظر لما فى المال الذى غير معلوم لنا إلا الذين أخبر اللّٰه عنهم عن مالهم وإلا عاديا لا نعلم مال لواحد منا. اللّٰهم اجعل خاتمنا على الإيمان والإسلام (أمين) ، وهٰذا الاعتبار هو معتبر لجرى الأحكام فى الدنيا فنحن نتعامل معاملة المسلمين مع المسلم ونحن لا نعرف ما هو مالهٗ ونتعامل معاملة الكفار مع الكافر ولا نعرف خاتمته وفى هٰذا الاعتبار السعيد قد يشقى والشقى قد يسعد يعنى المسلم قد يرتد (نعوذباللّٰه) والكافر قد يسلم والحمد للّٰه رب العٰلمين وهٰذه التغيرات تجرى على العبد ولهٰذا قال إن التغير يكون على السعادة والشقاوة يعنى فى هٰذا العبد ولا تجرى هٰذه التغيرات على الإسعاد والإشقاء وهما صفات اللّٰه تعالٰى والمعلوم أن اللّٰه تعالٰى مع صفاته لا يتغير لأن التغير حادث والحوادث لا تقوم بالقديم وهو اللّٰه عزوجل.

---

(١) والكفر يشمل الشرك

(٢) وهو يعلمه من الأزل وأراده

والتفصيل هو أن الإسعاد والإشقاء هما إرادة وتكوين للسعادة والشقاوةمن عندالله تعالى من الأزل لوقت سعادة العبد وشقاوته فإذا الكافر يسلم فحصل التغير فى ذات الكافر وأما إرادة إسلامه وتكوينه لهٗ فى وقت إسلامه فالله عزوجل متصف بهما من الأزل بدون التغير ولو هو يكفر بعد إسلامه ونعوذبالله فالتغير فى ذاته ولا تغير فى الله تعالىٰ لأن تكوينه وإرادته لكسب هذا العبد للكفر من الأزل ولا تغير فيهما، وهٰذان اعتباران كلاهما معتبران فى مكانهما ومن هذا لا ينبغى للمؤمن أن يقول أنا مؤمن إن شاء اللّٰه تعالىٰ؛ لأنهٗ يوهم الشك فى إيمانه كأنهٗ ليس متيقن أنهٗ مؤمن ومن يشك فى إيمانه يكفر لأنه إما الشك فى ما يؤمن عليها وهذا كفر أو إما الشك فى إيمانه علىٰ ما يؤمن عليها وهذا يدل علىٰ عدم التأكد واليقين لهٗ على الدين وهذا كفر أيضا فالشك فى إيمانه كفر وهذا نظرا إلى الاعتبار الثانى وهو النظر إلى الحال، لكن لو قال أنا مؤمن إن شاء الله تعالىٰ فى معنى الاعتبار الأول وهو ليس نظرا إلى الحال، بل إلى المآل وهو فى الحقيقة المعتدبه فقولهٗ صحيح ولهٰذه الاحتمالات قلنا أنهٗ لا ينبغى بدلا عن أنهٗ لا يجوز، فقلنا أنهٗ لا ينبغى لأنهٗ ولو كان صحيحا فى معنى الاعتبار الأول وهو اعتبار المآل والخاتمة، لكن يوهم الشك نظرا إلى الاعتبار الثانى ولو قال حقيقة شاكا يكفر لا محالة فلاجتناب إيهام الكفر قلنا لا ينبغى أن يقول شيئًا ملتبسا، بل ينبغى أن يقول قولا واضحا فيقول أنا مؤمن حقًاوإن شاء الله أموت على الإيمان وهذا لا غبار فيه وفيه مراعاة للاعتبارين والحمد لله رب العلمين.

(١٠١) ولا يصل العبد إلى حيث يسقط عنه الأمر والنهى.

الشرح:

وهٰذا الكلام فى غاية الظهور وهو المعلوم من الدين ضرورة أن العبد دائما تحت التكليف وغاية هٰذا الكلام رد على الإباحيين الذين قالوا أن العبد إذا بلغ غاية المحبة وصفاء قلبه واختار الإيمان على الكفر من غير نفاق سقط عنه الأمر والنهي ولا يدخله الله النار بارتكاب الكبائر وهذا القول مع بواحة كفره يناقض نفسه لأن العبد لا يبلغ غاية المحبة ويبقى عليها إلا بامتثال أوامر الله تعالىٰ واجتناب نواهيه وإلا يكون آثما مذنبا وثم مدارج المحبة لله تعالىٰ لا غاية لها لأن استحقاق الله لمحبة عبده دائما أكبر منها ولهٰذا لا يمكن شكر الله إلى الغاية لأن العبد إذا يشكر الله فيشكره بالشكر الذى أيضا من توفيق الله تعالىٰ إياه فلا يمكن لهٗ قطعا وبتاتا أن يبلغ غاية المحبة والعبادة والشكر فى حق الله تعالىٰ والمعلوم من الدين ضرورة أن النصوص للأمر والنهي وردت عامة والقول بسقوط التكليف إنكارها ولا شك فى كفر هذا القول وأيضا المعلوم أن أكمل الناس فى المحبة

والإيمان هم الأنبياء عليهم الصلوات والسلام مع أن التكاليف فى حقهم أتم وأكمل.

(١١) والنصوص تحمل على ظواهرها والعدول عنها إلى معان يدعيها أهل الباطن وهم الملاحدة إلحاد بكفر.

الشرح:

وهٰذا الكلام أيضا معلوم من الدين بالضرورة وغايته رد علىٰ أهل الباطن وهم الكفرة يدّعون أن النصوص كلها ليست علىٰ ظواهرها، بل لها معان خاصة يعرفها المعلم المزعوم وقصدهم بذٰلك نفي الشريعة الإسلامية فهم يقولون أن الجنة إراحة البدن عن تكاليف الشرع والنار مشقة التكليف والوضوء محبة الإمام المزعوم المخفى عن عامة الخلق والغسل تجدّيد العهد معهٔ وغيرها من الكفريات وهؤلاء قصدهم حقيقة هدم الإسلام ، لكن الله عزوجل يحفظ الإسلام ويهدمهم إما فى الدنيا والآخرة وإلا على الأقل فى الآخرة حقيقة بإدخالهم النار خالدين إلى أبد الأبدين.

وهٰذا الكلام يعنى أخذ النصوص علىٰ ظواهرها فى العموم تقيده النصوص التى يصرفها الدليل القطعي من الكتاب والسنة إلى عدم ظواهرها كما فى الآيات والأحاديث عن صفات الله عزوجل التى ظواهرها تدل على الجسمية والجهة الحسية ، فهٰذه النصوص مصروفة عن ظواهرها بسبب الدلائل القطعية من الشريعة الإسلامية نفسها مثلا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورىٰ:١١) ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ (الإخلاص:١-٢) ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران:٩٧) والحديث "كان الله ولم يكن معهٔ شيء ." (صحيح البخاري، ح:٣١٩١) "إن الله وتر يحب الوتر ." (صحيح مسلم، ح:٢٦٧٧) وفى الجملة الجهة والجسمية تنافيان الوجوب الذاتى وتدلان على الحدوث والله عزوجل القديم الأزلي الخالق لكل شيء لا بداية لهٔ ولا نهاية فالنصوص التى مصروفة عن الظواهر بالدليل القطعي من الكتاب والسنة غير شاملة فى هٰذه القاعدة يعنى حمل النصوص علىٰ ظواهرها والقاعدة بعد هٰذا القيد شاملة نافذة فى جميع الشريعة الإسلامية.

(١٢) والمعدوم ليس بشيء.

الشرح:

المعدوم يعنى الذى غير موجود ليس بشيء حقيقة وإن يقال شيئًا فى المجاز كما فى القرآن ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ (مريم:٦٧) ففى هٰذه الآية نفي أن يكون الإنسان شيئًا قبل وجوده فثبت أن ما هو ليس بموجود لا يكون شيئًا فى الحقيقة ، لكن فى الآية ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (الحج:١) وفى الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (العنكبوت:٢٠) أثبت كلمة

الشيء للأشياء التي لم توجد بعد فالمعلوم زلزلة الساعة لم توجد بعد ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يشمل المقدورات غير المتناهية فهو يقدر أن يخلق ما يشاء ولم يخلقه بعد فهو غير موجود الآن فإثبات كلمة الشيء للأشياء غير الموجود مجاز؛ لأنهٔ لو كان على الحقيقة لا تنتفي هذه الكلمة من غير الموجود كما تنتفي في حق الإنسان [1] في الآية التي ذكرنا في الفوق، لأن حقيقة الشيء لا تنتفي منه، فثبت أن، في الحقيقة، الشيء هو الموجود وإن كان مجازيا يطلق على غير الموجود فالقول "المعدوم ليس بشيء" يعني في الحقيقة وهذا القدر في بيان هذه الكلمة، ثم المعلوم أن المعدوم ليس ثابتا متحققا في الخارج ولهذا هو المعدوم لأنه لو كان ثابتا موجودا في الخارج لكان غير المعدوم وهذا الكلام في ثبوته في الخارج وإلا المعدوم يجوز أن يكون معلوما كما نعلم الحشر والنشر ، لكن هما غير موجودان الأن في الخارج فهما معدومان الأن في الخارج ولو يكون لهما وجودا في المستقبل وأيضا يجوز للمعدوم أن يخبر عنه ويتكلم عنه ويحكم عليه كما في حق الحشر والنشر فالحكم عليهما أنهما بالقطع سيكونان في المستقبل ، لكن كل هذا الأمر لا يغير الحقيقة أن الحشر والنشر غير موجودان في الخارج الأن فهما معدومان الأن ، فلهذا المعدوم ليس ثابتا متحققا موجودا في الحقيقة وهو أمر بديهي. واعلم لوكان معدوما ثابتا متحققا في الخارج لما يمكن وجود الممكنات لأن كل ممكن مسبوق بعدمه قبل وجوده وهذا العدم كان من الأزل فلو كان هذا العدم ثابتا متحققا في الخارج لامتنع نفيه لأن هذا العدم لو كان ثابتا متحققا في الخارج من الأزل والأزلي لا ينعدم فيكون نفي هذا العدم مستحيلا فيؤدي إلى استحالة وجود الممكنات مطلقا وهذا باطل بالبداهة، فالعدم ليس شيئًا متحققا، بل هو فقط أمر في المعنى والاعتبار ولهذا لا يستحيل نفيه بإفاضة الوجود على الممكن الذي هو مسبوق بعدمه أزليا بإبطال هذا العدم عنه ، فافهم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

(١٢) مبحث الاسم هل هو عين المسمىٰ أو غيره.

فاعلم ـ هدانا الله عزوجل ـ أن الاسم لا يمكن أن يكون عين المسمىٰ في حق المخلوقات وهذا ظاهر لاخفاء فيه لأنهٔ إذا ولد المولود فهو موجود ولم يعط الاسم بعد، فالذات موجود ، لكن ليس لهٔ الاسم وثم إذا يعط الاسم فمن الممكن أن يغيروا اسمه إلى اسم آخر ، لكن لا تغير في ذاته وأيضا الاسم هو الكلمة فإما أن تكون منقوشة في الورقة أو ملفوظة بالصوت والمعلوم أن ذات المسمىٰ ليس هذه الأشياء وأيضا قد تكون الكلمات المترادفة لشيء واحد فلا جمع في الذات والكلمات جمع الكلمة وأيضا مثلا الإنسان فجميع اللغات عند كل منها كلمة مختلفة للإنسان ولا

---

(١) لما كان غير الموجود

اختلاف في ذات الإنسان وأيضا قد يكون الاسم موجود ، لكن المسمىٰ معدوم مثلا الحشر والنشر فهما لم يوجدا بعد ، لكن اسمهما موجود وأيضا لو كان الاسم عين المسمى فعلى هذا إذا كتبت الكلمة "النار" في الورقة لاحترقت وهذا باطل بالبداهة وهذه وغيرها من البديهيات تثبت أن في حق المخلوقات الاسم ليس عين المسمى وكذلك هو ليس عين التسمية لأن التسمية هو جعل الاسم للذات المعين والاسم هو الاسم المجعول لهذا الذات، والتفصيل أنه إذا ولد المولود وسمّاه أبوه "زيد" فهذه التسمية منسوبة إلى الأب فإذا قيل من سمّاه "زيد"، فالجواب أبوه، ، لكن مع هذا كل واحد غير أبيه أيضاً يناديه بالاسم "زيد" ، لكن هذه لا تقال "التسمية "التي هي منسوبة إلى أبيه فقط وأيضا الاسم منسوب إلى المولود ولا التسمية، والتسمية منسوب إلى الأب ولا الاسم، فثبت أن الاسم ليس التسمية، نعم قد يقال إن التسمية لا تكون إلا بالاسم وكذالك الاسم المجعول لا يكون إلا بالتسمية، لكن مع هذا هي ليست عين الاسم لما ذكرنا من الفرق، وكذلك المسمىٰ ليس التسمية لأن الذات قد يكون موجودا ولم يسمّ بالاسم بعد وأيضا التسمية هي منسوبة إلى من جعل الاسم المعين لهذا الذات ، لكن الذات بهذا الاعتبار ليس منسوبا إلى المسمِّي وأيضا قد تكون التسميات كثيرة مختلفة وقد تتغير ولا تكثر ولا اختلاف ولا تغير في الذات فثبت أن المسمىٰ ليس عين التسمية، فحاصل الكلام أن في حق المخلوقات الاسم والتسمية والمسمىٰ كلها متغايرة. وأما في حق الله عزوجل فالتحقيق بتوفيق الله تعالى إن شاء الله العزيز هو أن الاسم عين المسمىٰ لأن أسماء الله عزوجل كلها قديمة، أزلية وليست بائنة منه فلا يجوز ولا يمكن أن يكون الله ولا تكون له أسماءه أو تكون أسماءه ولا يكون ذاته، هذا من المحالات البديهية وكذلك لا يمكن التغير في أسماءه لأن القديم لا يتغير لأن التغير حادث ولا يقوم الحادث بالقديم وأيضا أسماء الله عزوجل لا تحتاج إلى الحروف والأصوات واللغات التي هي حادثة، نعم إذا نحن نكتب أسماء الله عزوجل فنكتب بالحروف المنقوشة في الأوراق وإذا نتلفظ بها نتلفظ بها بالأصوات فكتابتنا يعني الحروف المنقوشة وكلامنا يعني الأصوات فهذه الأشياء حادثة مخلوقة فليس الله ولا أسماءه، نعم أسمائه مفهومة من هذه الحروف المنقوشة والأصوات المتقطعة ، لكن ليست هي هي، ولأن أسماء الله عزوجل كانت معهٔ من الأزل ولم يكن مخلوقا موجودا الذي يكتب أسماءه أو يتلفظ بها فلا تحتاج أسماءه إلى هذه الأشياء، بل هي موجودة قائمة بذات الله تعالى من الأزل وأيضا جميع أسماء الله عزوجل لا يفهم منها إلا ذات الله عزوجل دون غيره بخلاف ما هو في حق المخلوقات ، فمثلا كلمة "الإنسان" تشير إلى إنسان ما من نوع الإنس الجميع فيجوز أن يكون أي واحد منهم بخلاف أسماء الله عزوجل لأن كلها له دون غيره مطلقا، نعم أسماءه كثيرة وهو الواحد ، لكن كلها قديمة معهٔ وكلها تدل على ذاته تعالى من النواحي المختلفة ، فمثلا "القادر" "القدير" يدل أنه هو

الذات ذو القدرة المطلقة "السميع" انهٔ هو الذات ذو السماعة المطلقة "البصير" انهٔ هو الذات ذوالبصارة المطلقة فكلها تدل علىٰ ذاته تعالىٰ فلا يجوز ان تكون غيره لأن المغايرة تقتضى أن الشيء يمكن أن يكون موجودا بدون المغاير لهٔ أو يكون بائنا منه وهٰذا لا يجوز فى ذات اللّٰه تعالىٰ وأسماءه، نعم! قد يقال لأن الأسماء كثيرة واللّٰه ذات واحد فليست الأسماء عين ذاته من كل الحيث [1] ولو كانت ليست غيره أيضا فاللّٰه عزوجل كان فى الأزل وكانت لهٔ اسماء ه فى الأزل بدون الحرف والصوت اللذان هما الحادثان وأما التسمية فهو لا تكون للّٰه عزوجل لأن التسمية هي جعل الاسم لشيء ما واللّٰه عزوجل لا تُجعل لهٔ الأسماء لأن الجعل هو حادث لأنهٔ لم يكن فيجعلهٔ واحد وأسماء اللّٰه عزوجل قديمة ولا تحتاج إلى الجعل يعنى إلى التسمية فالتسمية ليست اللّٰه ولا أسمائه ولا تكون لهٔ ولا لأسمائه تعالىٰ. واللّٰه أعلم ويهدى من يشاء إلىٰ صراط مستقيم.

(١٣) التصوف والتزكية.

الشرح: واعلم۔ هدانا اللّٰه۔ أن التصوف والتزكية من أصول الدين؛ لأنهٔ طهارة النفس من الأوساخ الباطنية والأمراض القلبية، بل يشمل طهارة الأمراض البدنية والقاذورات الظاهرية والمعلوم أن هٰذه الطهارة فرض علىٰ كل مسلم لأن كما يجب علىٰ كل مسلم أن يعرف كيف يصلى؟ وما هي فرائضها؟ وما هي فواسدها؟ فأيضًا يجب عليه أن يطهر قلبه من الأمراض الباطنية ويحصل علىٰ درجة الخشية [2] والخوف من اللّٰه عزوجل والرجاء والشوق إليه تعالىٰ التى تدفعه إلى الاستعداد للصلوٰة دائما ويمنعه من تركها لأن ما يلزم للفرض فهو فرض نفسه وقد قال اللّٰه تعالىٰ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة:٤٥) فحصول الخشوع [3] فرض؛ لأنهٔ يسهّل حصول الصلوٰة وهو فرض وهٰذا وجه واحد فقط وإلا طهارة القلب من البغض الحرام والحسد والشهوات المحرمة والكيد المحرم والغضب المحرم والجبن المحرم والتكبر والعجب والرياء وغيرها من الأمراض المحرمة فطهارة القلب والنفس منها فرض؛ لأن اجتناب من هٰذه الأمراض

---

(١) ولو كانت عينه فى الجملة لأن مثلا "القدير" ليس إلا اللّٰه عزوجل، لكن هٰذا الاسم فقط يدل علىٰ قدرة الذات، والذات لهٔ صفات كثيرة أيضًا غير القدرة فالاسم "القدير" ليس عين الذات من كل الحيث وهٰذا بخلاف الاسم "اللّٰه" الذى هو اسم يدل علىٰ ذات اللّٰه تعالىٰ من حيث ذاته تعالىٰ الذى لهٔ جميع الصفات للكمال فهٰذا الاسم عين ذات اللّٰه تعالىٰ من جميع الحيث.

(٢) لأن الخشية والخوف والخشوع والرجاء والشوق والمحبة للّٰه تعالىٰ فى الجملة من الإيمانيات التى بدونها لا يكون واحد مسلما.

(٣) يعنى قدر ما هو لازم لامتناع ترك الواجبات.

فرض لأنها محرمات . والنصوص فى باب التزكية ظاهرة لاخفاء فيها ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتٰبَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (الجمعة:٢) فواحد من وظائف النبوة هي التزكية وهٰذه أيضا يقال التصوف ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّٰهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسّٰهَا﴾ (الشمس:٩-١٠) فتزكية النفس عليها مدار الفلاح ﴿وَمَنْ تَزَكّٰى فَإِنَّمَا يَتَزَكّٰى لِنَفْسِهٖ وَإِلَى اللّٰهِ الْمَصِيْرُ﴾ (فاطر:١٨) ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكّٰى﴾ (الاعلىٰ:١٤) وقد روي عن الإمام مالك رحمه اللّٰه تعالىٰ "من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ومن جمع بينهما فقد تحقق" وفى الجملة تزكية النفس من المحرمات الظاهرية والباطنية معلومة من ضرورات الدين فلا نحتاج إلى إثباتها لكونها معروفة بالضرورة من الشريعة الإسلامية وكذٰلك لا كلام فى مشروعية البيعة بمسلم عالم فاضل تقي ونحن نعرف أن الصحابة رضي اللّٰه تعالىٰ عنهم كانوا يبايعون النبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم. وعن جرير رضي اللّٰه تعالىٰ عنه قال "بايعت رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم علىٰ إقام الصلٰوة وإيتاء الزكوة والنصح لكل مسلم." (صحيح البخاري، ح:٥٧) وعن عبادة بن صامت رضي اللّٰه تعالىٰ عنه قال "كنا مع رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم فى مجلس فقال "تبايعوني علىٰ أن لا تشركوا باللّٰه شيئًا ولا تزنوا ولا تسرقوا." (صحيح مسلم، ح:١٧٠٩) وفى القرآن ﴿يٰأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ الْمُؤْمِنٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلٰى أَنْ لَّا يُشْرِكْنَ بِاللّٰهِ شَيْئًا وَّلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِيْنَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِيْنَ بِبُهْتَانٍ يَّفْتَرِيْنَهٗ بَيْنَ أَيْدِيْهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيْنَكَ فِيْ مَعْرُوْفٍ فَبَايِعْهُنَّ الخ﴾ (الممتحنة:١٢) وكذٰلك بعد رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم البيعة معلومة فى الدين للخلفاء والأمراء، وإن قيل هٰذه البيعة إما للنبي صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم أو إما للسلطان وليس فيه البيعة للعامة من الناس، فالجواب بتوفيق اللّٰه تعالىٰ إن شاء اللّٰه العزيز أن الثابت أن الصحابة رضي اللّٰه تعالىٰ عنهم كانوا يتبايعون بينهم لغير الخلفاء والأمراء كما رواه مسلم فى صحيحه عن ابن حنظلة [1] كان يبايع الناس على الموت ورواه البخاري عن عباد بن تميم قال "لما كان يوم الحرة والناس يبايعون لعبد اللّٰه بن حنظلة، فقال عبداللّٰه بن زيد رضي اللّٰه تعالىٰ عنه "علىٰ ما يبايع ابن حنظلة الناس؟" قيل لهٗ على الموت قال" لا أبايع علىٰ ذٰلك أحدا بعد رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم." (صحيح البخاري، ح:٤١٦٧) وكان شهد معهٗ الحديبية، وهٰذا الصحابي عبداللّٰه بن زيد رضي اللّٰه تعالىٰ عنه ولو لم يبايع ابن حنظلة على الموت ، لكن لم ينكر علىٰ مشروعية البيعة لهٗ بل لم ينكر على البيعة على الموت علىٰ يد ابن حنظلة وإن يختر لنفسهٖ أن لا يفعلهٗ علىٰ يد أحد بعد رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم وكذٰلك الناس منهم الصحابة والتابعين لم ينكروا علىٰ مشروعية البيعة لأبى حنظلة وهو لم يكن سلطانا، بل كان بيعه للجهاد إلى الموت فى الجهاد، فثبت مشروعية البيعة ولا خلاف فى البيعة للمسلم العالم الفاضل التقي علىٰ أن المبايع يتبع الشريعة

---

(١) كأنه الصحابي واللّٰه أعلم

الإسلامية وهٰذا الشيخ التقى العالم الفاضل المتبع للكتاب والسنة سيرشده فى هذه الغاية ولأن المعلوم من الدين بالضرورة أن مقصد حياتنا هو اتباع دين الإسلام فما يساعد فى هذا المقصد فلا حاجة لإثبات مشروعيته، بل هو مطلوب محمود لا شك فيه ، لكن على المبايع أنهٗ لا يبايع إلا من عنده علم الدين والعمل عليه فليبايع من هو ولى الله فى الحقيقة الملازم على الطاعات حتى المندوبات المجتنب عن المعاصى المعرض عن الانهماك فى اللذات والشهوات وأشد ضرورة من جميعها أنهٗ صالح العقيدة صحيح الأصول العارف بالله تعالىٰ وصفاته من أهل السنة والجماعة وليجتنب كل صاحب البدعة والخرافات وكذٰلك ليجتنب الغلاة من الزاعمين أنهم أهل التصوف وفى الحقيقة أنهم أصحاب الشرك والكفر والأهواء وليجتنب كذٰلك من هو صحيح العقيدة ، لٰكن فاسد العمل فيترك من الواجبات ويخوض فى المحرمات وبعد البيعة للتقى الصالح العالم العامل المؤمن لا يكتف عليه وبس، بل غاية البيعة حصول التقوىٰ لله و محبته وامتثال أوامره واجتناب نواهيه فليعمل لهٰذه الغاية تحت إرشاد الشيخ ولينظر أن الشيخ لا يأمره بشيء ما الذى يخالف الدين وإلا فليتركه وليقل لهٗ إنه علىٰ غلط وليأمره بالمعروف ولينهه عن المنكر فمادام الشيخ يرشده تحت قيد الشريعة الإسلامية إلى غايته وهي حصول التقوىٰ فليطع شيخه لحصول الغاية.

وأما طرق التصوف الرائجة كمثل "النقشبندية" "الششتية" "القادرية" "السهروردية" فالعبد الحقير غفر الله لهٗ ليس عنده علما عن أحوالهم وأفعالهم ومناهجهم وفى الجملة قد ذكرنا فوقا ما هو اللازم الملحوظ يعنى اتباع الكتاب والسنة واجتناب البدعة والخرافات فلوكان الشيخ منسوب إلى بعض طرق التصوف الرائجة وهو متبع للكتاب والسنة ومجتنب من الشرك والبدعة والفسوق والمعصية ويعلّم ويرشد إلى هذه الخصال فنعم ما هي وإلا اجتنابه فرض بغض النظر هو منسوب إلى بعض هذه الطرق أم لا وفى القرآن ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّٰهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوْا مَعَهُمْ حَتّٰى يَخُوْضُوْا فِىْ حَدِيْثٍ غَيْرِهٖٓ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ﴾ (النساء: ١٤٠) والحديث "المرأ مع من أحب." (صحيح مسلم، ح: ٢٦٤٠) "الرجل علىٰ دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل." (سنن الترمذي، ح: ٢٣٧٨) "إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس و، لٰكن يقبض العلم بقبض العلماء فإذا لم يبق عالما اتخذ الناس رء وسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا." (صحيح مسلم، ح: ٢٦٧٣)

(١٤) المبحث عن الزعم لتحضير الأرواح.

اعلم ــ هدانا الله عزوجل ــ أن الزاعم لتحضير الأرواح كاذبين وهم فى الحقيقة يتعاملون مع الجانّ ويزعمون ويدّعون أنهم أرواح الإنس فكل شيء عندهم فموجود عند من يدعى التعامل مع الجانّ والتعامل مع الجانّ موجود كما يفعلون السحرة الكفرة الذين يتعاملون معهم فيرضون الجن

الخبيثون بكفرهم وفسوقهم والجن الخبيثون يفعلون لهم بعض ما يريدون منهم ولهٰذا السبب السحر هو الكفر ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِيْنَ كَفَرُوْا يُعَلِّمُوْنَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوْتَ وَمَارُوْتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتّٰى يَقُوْلَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ (البقرة:١٠٢) وأيضا الجن أحياء موجودون والذين ماتوا منهم وصاروا إلى البرزخ فلا تعامل معهم ولهٰذا لا تعامل مع أرواح الإنس لأن إذا مات الإنسان فروحه صار إلى البرزخ إما في العليين في الجنة أو إما في السجين في جهنم فهم في العالم الذي هو من الغيب في حقنا ونحن تحت الامتحان بالإيمان بالغيب ﴿الَّذِيْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِالْغَيْبِ﴾ (البقرة:٣) فلو كانت الأرواح موذونة للاتصال معنا لأخبرتنا هٰذه الأرواح عن الأشياء الكثيرة عن أحوال البرزخ وعن الجنة والنار وهٰذا يخلّ بالإيمان بالغيب، بل ينفيه وقد ثبت في القرآن والسنة عدم الرجوع بعد الموت ﴿حَتّٰى إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُوْنِ لَعَلِّيْ أَعْمَلُ صَالِحًا فِيْمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَّرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلٰى يَوْمِ يُبْعَثُوْنَ﴾ (المؤمنون:٩٩-١٠٠) وقد جاء في الحديث أن أبا جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما استشهد فقال الله تعالى له "تمن علي أعطيك! قال يا رب تحييني فأقتل فيك ثانية، قال الرب تبارك وتعالى إنه قد سبق مني ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُوْنَ﴾ (الأنبياء:٩٥) ." (سنن الترمذي، ح:٣٠١٠) [1]

---

(١) عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنه يقول لقيني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال لي "يا جابر مالي أراك منكسرا" قلت يا رسول الله استشهد أبي (قتل يوم أحد) وترك عيالا ودينا قال صلى الله تعالى عليه وسلم "أبشّرك بما لقي الله به أباك قال بلىٰ يا رسول الله، قال ما كلم الله أحدا قط إلا من وراء حجابه وأحيىٰ أباك فكلّمه كفاحا، فقال يا عبدي تمنّ عليّ أعطيك! قال يا رب تحييني فأقتل فيك ثانية قال الرب تبارك وتعالى إنه قد سبق مني ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُوْنَ﴾ (الأنبياء:٩٥) قال وأنزلت هٰذه الآية ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ قُتِلُوْا فِيْ سَبِيْلِ اللّٰهِ أَمْوَاتًا﴾ (آل عمران:١٦٩) رواه الترمذي وقال حسن غريب. (ح:٣٠١٠) هٰذا الحديث لو ثبت ففيه من الجواهر التي نذكر "ما كلم الله أحدا قط إلا من وراء حجابه" يعني الحجاب الذي خلقه على خلقه فهم محجوبون لأن الله تعالى لا يحجبه شيء، تعالى الله عن أن يغلبه شيء ولا يحويه مكان ولا يجري عليه زمان كما في القرآن ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوْبُوْنَ﴾ (المطففين:١٥) "وأحيىٰ أباك فكلّمه كفاحا" والله أعلم معناه أن الله تعالى لم يتكلم أحدا قط إلا من وراء حجاب وهٰذا يشمل الأنبياء عليهم الصلوات والسلام فضلا عن أبيك يعني أبي جابر بن عبدالله فكلّمه أيضا من وراء حجاب ، لكن كفاحا يعني بدون الواسطة فيقال "كافح الأمور" يعني "تعامل معها بنفسه" ولا يلزم أنهٗ تعالى أسمعه كلامه القديم بعينه كما في حق سيدنا موسىٰ عليه الصلوة والسلام كليم الله، بل يمكن أنهٗ تعالى أسمعه الأصوات المخلوقة الدالة على كلامه القديم كما هو مذهب الشيخ أبو منصور الماتريدي رحمه الله تعالى وقد بيناه سابقا والحمد لله رب العٰلمين "ياعبدي تمنّ عليّ أعطيك" فالظاهر أنهٗ لا يشمل التمني بالرجوع إلى الدنيا كما يدل عليه باقي الحديث. لو هٰذا الحديث صحيح ثابت فيكون دليلا لعدم رؤية النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لله تعالى في المعراج (الذي بعد وقعة أحد) لأن الحديث يقول "ما كلم الله أحدا قط إلا من وراء حجابه" فيشمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقد مر التفصيل في هٰذا سابقا والحمد لله رب العالمين وأما رؤية المؤمنين لله تعالى في يوم الحساب وفي الجنة فثابت وهي الرؤية حقيقة بالبصر مع كون الله تعالى كما هو المتنزه من المكان والزمان والجهات والصور والأشكال والأعضاء والأركان وقد مر سابقا والحمد لله رب العٰلمين.

وأما إحياء الموتى من سيدنا عيسى عليه السلام بإذن الله وما غيره من الوقائع الموجودة في النصوص فهي كلها المستثنيات الخاصة من عندالله تعالى ولا تخالف هذه القاعدة العامة يعني امتناع الرجوع إلى الدنيا فلا تغترّ بهؤلاء الزاعمين الكاذبين فهم لا يتعاملون مع الأرواح قطعا وبتاتا، بل يتعاملون مع الجانّ ولا يمكنهم أن يتعاملوا مع الأرواح الّذين قد صاروا إلى البرزخ.

(١٥) والله يحكم ما يشاء.

الشرح: ففي معنى الحكم الشرعي الحكم هو كلام الله فهو أزلي والأزلي لا يأتي تحت المشيئة؛ لأنهٔ موجود من الأزل فلا يحتاج إلى المشيئة لوجوده وكذلك عدم الأزلي مستحيل فلا تجرى المشيئة في عدمه فلا يبقى إلا أن تكون المشيئة في الفقرة "والله يحكم ما يشاء" متعلق بإبلاغ الحكم إلى المحكوم دون الحكم، فإذا الله عزوجل يعلم من الأزل ويريد من الأزل لواحد من الخلق أن يجعلهٔ محكوما بشيء من الأشياء فيقال "الله يحكم بما يشاء ما يشاء من خلقه" والحكم موجود قائم معهٔ في الأزل كلاما لهٔ تعالى، فالمشيئة لا تتعلق بالحكم الأزلي، بل بإبلاغ الحكم إلى المحكوم، وإبلاغ الحكم ليس أزليا [1] وإن كان الحكم أزليا.

وفي معنى الحكم الكوني، فالحكم الكوني يعني "كن"، صفة الكلام لهٔ تعالى، قائم بالله تعالى، فالحكم الكوني "كن" لا يأتي تحت المشيئة ، لكن الحكم الكوني لشيء من الأشياء أن يوجد وهكذا يوجد أيضًا يوافق العلم والإرادة لله تعالى لنفس الشيء أن يوجد وهكذا يوجد، فالمعنى للفقرة "الله يحكم حكما كونيا بما يشاء" يكون أن الحكم الكوني الأزلي لله تعالى يوافق علمه الأزلي وإرادته الأزلية لشيء من الأشياء أن يكون كذا، والشيء يوجد على نفس المنوال بغير توقف ، فافهم! والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

(١) وإن كان تكوينه أزليا فليراجع الكلام عن صفة التكوين في هذا الباب.

الخاتمة

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (الفاتحة) امين ، اللّٰهم صل علىٰ محمد وعلىٰ ال محمد كما صليت علىٰ إبراهيم وعلىٰ ال إبراهيم إنک حميد مجيد، اللّٰهم بارک علىٰ محمد وعلىٰ ال محمد كما باركت علىٰ إبراهيم وعلىٰ ال إبراهيم إنک حميد مجيد، اللّٰهم ارحم أصحاب رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم الذين قد بلغوا دين الإسلام إلينا عن نبينا ورسولنا وسيدنا وحبيبنا محمد بن عبدالله الهاشمى القرشى صلى الله تعالىٰ عليه وسلم، اللّٰهم اجعلنا علىٰ منهجهم لأنهم اتبعوا رسولک صلى الله تعالىٰ عليه وسلم بالإحسان واجنبنا من طريقة الضلال والبدعة والطغيان والشرک والكفر والعصيان.

اعلم ــ هدانا الله ــ هٰذا الكتاب لشرح العقيدة الطحاوية بحمد الله وفضله أكملناه اليوم واليوم يوم السادس من رجب لسنة ١٤٣٦ من الهجرة (٢٠١٤) وكل شيء فى هٰذا الكتاب من الحق والصواب فبحمد الله وفضله ونحن الحمد لله لم ننحرف من منهج أهل السنة والجماعة، بل جمعنا عقيدة أهل السنة والجماعة فى هٰذا الكتاب وألزمنا أنفسنا طريقة السلف الصالح رحمهم الله تعالىٰ واجتنبنا طرق المعتزلة والجهمية والروافض والقدرية من ناحية واجتنبنا طرق الكرامية والمجسمة والمشبهة والجبرية والناصبة من ناحية أخرىٰ، وفى هٰذا الزمان قد ظهر كثير من الناس يدعون اتباع السلف الصالح رحمهم الله تعالىٰ وليس عندهم مسكة منه فالحذر الحذر من الذين يدعون إلى التشبيه والتجسيم وحرية الأفكار والعمل بسبب بطلان التقليد، إن هٰؤلاء ليسوا من أهل السنة والجماعة، بل من أهل البدعة والأهواء وهم يكرهون المسلمين الذين لا يقبلون منهجهم ويتعاملون مع الكفار بطريقة اللينة والهيّنة وهٰذا من صفات الخوارج والحذر الحذر من الذين يدعون إلى الشرک والكفر والبدعة فى اسم حب الأنبياء عليهم الصلوات والسلام والأولياء فهٰؤلاء المشركون ليسوا علىٰ دين الإسلام والحذر الحذر من الذين ينقصون إكرام الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم ومكانتهم والحذر الحذر من جميع الناس الذين يدعون إلى طريقة تخالف القرآن والسنة وما عليه الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم وعليک بالتقليد بأحد المذاهب من المذاهب الأربعة وعليک بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد فى سبيل الله والقتال والجهد لقيام الشريعة الإسلامية فى البلاد، والحمد لله هٰذا الكتاب قد كمل اليوم وإن شاء الله العزيز سيكون نافعا مفيدا معلما لمنهج أهل السنة والجماعة للمسلمين إلى قرب الساعة، وصلى الله تعالىٰ علىٰ خير خلقه محمد وعلىٰ جميع الأنبياء والمرسلين وعلىٰ أصحابهم وأهلهم أجمعين، سبحان ربک رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العلمين.

المتن للعقيدة الطحاوية

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على رحمة للعالمين قال العلامة حجة الإسلام أبوجعفر الورّاق الطحاوي. بمصر. رحمه الله. هٰذا ما رواه الإمام أبوجعفر الطحاوي:

هٰذا ذكر بيان عقيدة أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة أبى حنيفة النعمان بن ثابت الكوفى. وأبى يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري وأبى عبدالله محمد بن الحسن الشيباني رضوان الله عليهم أجمعين وما يعتقدون من أصول الدين ويدينون به لرب العالمين.

قال الامام: وبه قال الإمامان المذكوران رحمهما الله تعالىٰ: نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله

الدرس الأول

(١) إن الله واحد لاشريک لهٗ ،

(٢) ولاشيء مثلهٗ ،

(٣) ولاشيء يعجزه،

(٤) ولا إله غيره،

(٥) قديم بلا ابتداء دائم بلا انتهاء ،

الدرس الثانى

(٦) لايفنى ولايبيد ،

(٧) ولايكون إلا ما يريد،

(٨) لا تبلغه الأوهام، ولا تدركه الأفهام ،

(٩) ولايشبه الأنام،

(١٠) حى لا يموت، قيوم لاينام ،

الدرس الثالث

(١١) خالق بلا حاجة، رازق بلا مؤنة ،

(١٢) مميت بلا مخافة، باعث بلا مشقة ،

(١٣) ما زال بصفاته قديما قبل خلقه ،

(١٤) لم يزدد بكونهم شيئًا لم يكن قبلهم من صفاته ،

(١٥) وكما كان بصفاته أزليا، كذلك لايزال عليها أبديا ،

الدرس الثالث

(١٦) ليس منذ خلق الخلق استفاد اسم الخالق ولا بإحداثه البرية استفاد اسم البارى ،

(١٧) لهُ معنى الربوبية ولا مربوب ومعنى الخالقية ولا مخلوق ،

(١٨) وكما أنهُ محيى الموتى بعد ما أحياهم استحق هذا الاسم قبل إحياء هم كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشاء هم ،

(١٩) ذلك بأن الله على كل شيء قدير. وكل شيء إليه فقير. وكل أمر عليه يسير لايحتاج إلى شيء، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير،

(٢٠) خلق الخلق بعلمه،

الدرس الرابع

(٢١) وقدر لهم أقدارا ،

(٢٢) وضرب لهم آجالا ،

(٢٣) ولم يخف عليه شيء من أفعالهم قبل أن يخلقهم. وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم،

(٢٤) وأمرهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته ،

(٢٥) وكل شيء يجرى بتقديره ومشيئته ومشيئته تنفذ،

الدرس الخامس

(٢٦) لا مشيئة للعباد إلا ما شاء لهم. فما شاء لهم كان وما لم يشأ لم يكن،

(٢٧) يهدى من يشاء ويعصم ويعافى فضلا. ويضل من يشاء ويخذل ويبتلى عدلا ،

(٢٨) وكلهم يتقلبون فى مشيئته بين فضله وعدله ،

(٢٩) وهو متعال عن الأضداد والأنداد ،

(٣٠) لا رادّ لقضائه ولا معقب لحكمه ولا غالب لأمره،

(٣١) امنا بذلك كله وأيقنّا أن كلاًّ من عنده ،

الدرس السادس

(٣١) وأن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم عبده المصطفى. ونبيه المجتبى، ورسوله المرتضى،

(٣٢) وإنه خاتم الأنبياء، وإمام الأتقياء ، وسيد المرسلين، وحبيب رب العالمين،

(٣٣) وكل دعوىٰ نبوة بعد نبوته فغيّ وهوى ،

(٣٤) وهو المبعوث إلى عامة الجن وكافة الورىٰ بالحق والهدى وبالنور والضياء،

(٣٥) وان القرآن كلام الله. منه بدا بلا كيفية قولا . وأنزلهُ علىٰ رسوله وحيا. وصدقه المؤمنون علىٰ ذلك حقًا وأيقنوا أنهٔ كلام الله تعالىٰ بالحقيقة ،

الدرس السابع

(٣٦) ليس بمخلوق ككلام البرية،

(٣٧) فمن سمعه فزعم أنهٔ كلام البشر فقد كفر. وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر حيث قال ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ (المدثر:٢٦) فلما أوعد الله بسقر لمن قال ﴿إِنْ هٰذَا إِلا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ (المدثر:٢٥) علمنا أنهٔ قول خالق البشر ولايشبه قول البشر،

(٣٨) ومن وصف الله بمعنى من معانى البشر فقد كفر فمن أبصر هٰذا اعتبر وعن مثل قول الكفار انزجر وعلم أن الله تعالىٰ بصفاته ليس كالبشر،

(٣٩) والرؤية حق لأهل الجنة. بغير إحاطة ولا كيفية كما نطق به كتاب ربنا ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٢-٢٣) وتفسيره على ما أراده الله تعالىٰ وعلمه ،

(٤٠) وكل ما جاء فى الحديث الصحيح عن الرسول صلىٰ الله عليه وسلم فهو كما قال ومعناه علىٰ ماأراد لاندخل فى ذلك متاولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا،

الدرس الثامن

(٤١) فإنهٔ ما سلم فى دينه إلا من سلّم لله عزوجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم . وردّ علم مااشتبه عليه إلى عالمه،

(٤٢) ولا تثبت قدم فى الإسلام إلا علىٰ ظهر التسليم والاستسلام ،

(٤٣) فمن رام علم ماحظر عنه علمه، ولم يقنع بالتسليم فهمه. حجبه مرامه عن خالص التوحيد وصافى المعرفة وصحيح الإيمان. فيتذبذب بين الكفر والإيمان، والتصديق والتكذيب ، والإقرار والإنكار، موسوساتائها شاكازائغا، لامؤمنا مصدقا ولاجاحدا مكذبا ،

(٤٤) ولايصح الإيمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها منهم بوهم أوتأولها بفهم إذا كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية بترك التأويل ولزوم التسليم وعليه دين المسلمين،

(٤٥) ومن لم يتوق النفى والتشبيه زل ولم يصب التنزيه ،

الدرس التاسع

(٤٦) فان ربنا جل وعلا موصوف بصفات الوحدانية، منعوت بنعوت الفردانية، ليس فى

معناه أحد من البرية،

(٤٧) وتعالى عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات، لاتحويه الجهات الست كسائر المبتدعات ،

(٤٨) والمعراج حق، وقد أسرى بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعرج بشخصه في اليقظة إلى السماء، ثم إلى حيث شاء الله من العلى، وأكرمه الله بما شاء، وأوحىٰ إليه ما أوحى ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ (النجم: ١١) فصلى الله عليه وسلم في الآخرة والأولى،

(٤٩) والحوض الذى أكرمه الله تعالى به غياثا لأمته حق،

(٥٠) والشفاعة التي ادّخرها لهم حق، كما روى في الأخبار،

الدرس العاشر

(٥١) والميثاق الذى أخذه الله تعالى من آدم وذريته حق،

(٥٢) وقد علم الله تعالى فيما لم يزل عدد من يدخل الجنة وعدد من يدخل النار جملة واحدة فلايزاد في ذلك العدد ولاينقص منه ،

(٥٣) وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أنهم يفعلونه .

(٥٤) وكل ميسر لما خلق له،

(٥٥) والأعمال بالخواتيم،

الدرس الحادى عشر

(٥٦) والسعيد من سعد بقضاء الله تعالى، والشقي من شقي بقضاء الله تعالى،

(٥٧) وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولانبى مرسل،

(٥٨) والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان وسلم الحرمان ودرجة الطغيان فالحذر كل الحذر من ذلك نظرا أوفكرا أووسوسة فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه ونهاهم عن مرامه كما قال تعالى في كتابه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٣) فمن سأل لم فعل؟ فقد رد حكم الكتاب ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين،

(٥٩) فهذه جملة ما يحتاج إليه من هو منور قلبه من أولياء الله تعالى وهي درجة الراسخين في العلم ،

(٦٠) لأن العلم علمان، علم في الخلق موجود وعلم في الخلق مفقود فإنكار العلم الموجود كفر وادعاء العلم المفقود كفر ولايثبت الإيمان إلا بقبول العلم الموجود وترك طلب العلم المفقود،

الدرس الثانى عشر

(٦١) ونؤمن باللوح والقلم وبجميع ما فيه قد رقم ،

(٦٢) فلو اجتمع الخلق كلهم علٰى شيء كتبه اللّٰه تعالٰى فيه أنهٗ كائن ليجعلوه غير كائن لم يقدروا عليه، ولو اجتمعوا كلهم علٰى شيء لم يكتبه اللّٰه تعالٰى فيه ليجعلوه كائنا لم يقدروا عليه، جف القلم بماهو كائن إلى يوم القيامة،

(٦٣) وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه وماأصابه لم يكن ليخطئه،

(٦٤) وعلى العبد أن يعلم أن اللّٰه قد سبق علمه فى كل كائن من خلقه، فقدّر ذٰلك تقديراً محكما مبرمًا، ليس فيه ناقض، ولامعقّب ، ولا مزيل، ولامغيّر، ولا محوّل، ولاناقص، ولا زائد من خلقه فى سماواته وأرضه،

(٦٥) وذٰلك من عقد الإيمان، وأصول المعرفة والاعتراف بتوحيد اللّٰه تعالٰى وربوبيّته كما قال تعالٰى فى كتابه ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (الفرقان:٢) وقال تعالٰى ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ (الاحزاب:٣٨)،

الدرس الثالث عشر

(٦٦) فويل لمن صار للّٰه تعالٰى فى القدر خصيما، وأحضر للنظر فيه قلبا سقيما، لقد التمس بوهمه فى فحص الغيب سرّا كتيما وعاد بما قال فيه أفاكا أثيما،

(٦٧) والعرش والكرسيّ حق،

(٦٨) وهو مستغن عن العرش وما دونه،

(٦٩) محيط بكل شيء وفوقه (أو بما هو فوقه) وقد أعجز عن الإحاطة خلقه،

(٧٠) ونقول: إن اللّٰه اتخذ إبراهيم خليلا، وكلّم اللّٰه موسٰى تكليماً ، إيماناً وتصديقاً وتسليماً

الدرس الثالث عشر

(٧١) ونؤمن بالملائكة والنبيين والكتب المنزّلة على المرسلين ونشهد أنهم كانوا على الحق المبين،

(٧٢) ونسمّى أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ، ماداموا بما جاء به النبي صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم معترفين، ولهٗ بكل ما قالهٗ وأخبر مصدقين،

(٧٣) ولانخوض فى اللّٰه، ولانمارى فى دين اللّٰه،

(٧٤) ولانجادل فى القرآن ونشهد أنهٗ كلام ربّ العلمين نزل به الروح الأمين فعلمه سيّد المرسلين محمد صلى اللّٰه تعالٰى عليه وسلم ،

(٧٥) وهو كلام الله تعالىٰ لايساويه شيءٌ من كلام المخلوقين ولانقول بخلقه،

الدرس الخامس عشر

(٧٦) ولانخالف جماعة المسلمين،

(٧٧) ولانكفّر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله،

(٧٨) ولانقول لايضر مع الإيمان ذنب لمن عمله،

(٧٩) ونرجوا للمحسنين من المؤمنين أن يعفو عنهم ويدخلهم الجنة برحمته، ولانأمن عليهم، ولانشهد لهم بالجنة، ونستغفر لمسيئهم، ونخاف عليهم، ولانقنّطهم،

(٨٠) والأمن والإياس ينقلان عن ملة الإسلام وسبيل الحق بينهما لأهل القبلة،

الدرس السادس عشر

(٨١) ولايخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخلهُ فيه،

(٨٢) والإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان،

(٨٣) وجميع ما صح عن رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم من الشرع والبيان كلهُ حق،

(٨٤) والإيمان واحد وأهلهُ فى أصله سواء، والتفاضل بينهم بالخشية والتقى، ومخالفة الهوىٰ، وملازمة الأولى،

(٨٥) والمؤمنون كلهم أولياء الرحمٰن، وأكرمهم عند الله أطوعهم وأتبعهم للقرآن،

الدرس السابع عشر

(٨٦) والإيمان هو الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الأخر، والقدر خيره وشره وحلوه ومرّه من الله تعالىٰ،

(٨٧) ونحن مؤمنون بذٰلك كله لانفرق بين أحد من رسله، ونصدقهم كلهم علىٰ ماجاء وا به،

(٨٨) وأهل الكبائر من أمة محمد صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فى النار لايخلدون إذا ماتوا وهم موحدون وإن لم يكونوا تائبين بعد أن لقوا الله عارفين مؤمنين وهم فى مشيئته وحكمه إن شاء الله غفرلهم وعفاعنهم بفضله كما ذكر عزوجل فى كتابه "ويغفرما دون ذٰلك لمن يشاء" (النساء: ٤٨ و١١٦) وإن شاء عذبهم فى النار بعدله ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته ثم يبعثهم إلى جنته،

(٨٩) وذٰلك بأن الله تعالىٰ تولى أهل معرفته ولم يجعلهم فى الدارين كأهل نكرته الذين خابوا من هدايته ولم ينالوا من ولايته اللّٰهم يا ولى الإسلام وأهلهُ ثبتنا على الإسلام حتىٰ نلقاك،

الدرس الثامن عشر

(۹۰) ونرىٰ الصلوٰة خلف كل بر وفاجر من أهل القبلة وعلىٰ من مات منهم،

(۹۱) ولاننـزل أحـدا منهم جنة ولا نارا ولانشهد عليهم بكفر ولابشرك ولابنفاق ما لم يظهر منهم شيء من ذٰلك ونذر سرائرهم إلى اللّٰه تعالىٰ،

(۹۲) ولا نرىٰ السيف علىٰ أحد من أمة محمد صلى اللّٰه تعالىٰ عليه وسلم إلا من وجب عليه السيف،

(۹۳) ولا نرىٰ الخروج علىٰ أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا ولا ندعوا عليهم ولا ننزع يدا من طاعتهم ونرىٰ طاعتهم من طاعة اللّٰه عزوجل فريضة ما لم يأمروا بمعصية وندعوا لهم بالصلاح والمعافاة،

(۹۴) ونتبع السنة والجماعة ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة،

(۹۵) ونحب أهل العدل والأمانة ونبغض أهل الجور والخيانة،

الدرس التاسع عشر

(۹۶) ونقول اللّٰه أعلم فيما اشتبه علينا علمه،

(۹۷) ونرىٰ المسح على الخفين فی السفر والحضر كما جاء فی الأثر،

(۹۸) والحج والجهاد ماضيان مع أولی الأمر من المسلمين برهم وفاجرهم لا يبطلهما شيء ولا ينقضهما ،

(۹۹) ونؤمن بالكرام الكاتبين فإن اللّٰه قد جعلهم علينا حافظين ،

(۱۰۰) ونؤمن بملك الموت الموكل بقبض أرواح العالمين،

الدرس العشرون

(۱۰۱) ونؤمن بعذاب القبر لمن كان لهٗ أهلا وسؤال منكر ونكير،

(۱۰۲) والقبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران،

(۱۰۳) ونؤمن بالبعث وجزاء الأعمال يوم القيامة والعرض والحساب وقراءة الكتاب والثواب والعقاب والصراط والميزان،

(۱۰۴) والجنة والنار مخلوقتان، لاتفنيان أبدا ولاتبيدان،

(۱۰۵) وإن اللّٰه تعالىٰ خلق الجنة والنار قبل الخلق، وخلق لهم أهلا، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلا منه، ومن شاء منهم إلى النار عدلا منه،

الدرس الحادی والعشرون

(۱۰۶) وكل يعمل لما قد فرغ له، وصائر إلى ما خلق له،

(۱۰۷) والخير والشر مقدران على العباد،

(١٠٨) والاستطاعة التى يجب بها الفعل من نحو التوفيق الذى لايجوز أن يوصف المخلوق به فهي مع الفعل. وأما الاستطاعة من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات، فهي قبل الفعل، وبها يتعلق الخطاب وهي كما قال تعالىٰ ﴿لايُكَلِّفُ اللّٰهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾(البقرة:٢٨٦)،

(١٠٩) وأفعال العباد خلق الله وكسب من العباد،

(١١٠) ولم يكلفهم الله تعالىٰ إلا ما يطيقون، ولايطيقون إلا ما يكلفهم، وهو تفسير لاحول ولا قوّة إلا بالله. نقول: لاحيلة لأحد ولاحركة لأحد، ولاتحوّل لأحد عن معصية الله إلا بمعونة الله، ولا قوّة لأحد علىٰ إقامة طاعة الله والثبات عليها إلا بتوفيق الله،

الدرس الثانى والعشرون

(١١١) وكل شيء يجرى بمشيئة الله تعالىٰ وعلمه وقضائه وقدره،

(١١٢) غلبت مشيئته المشيئات كلها وغلب قضائه الحيل كلها،

(١١٣) يفعل ما يشاء. وهو غير ظالم أبدا. تقدّس عن كل سوء،

(١١٤) وفى دعاء الأحياء وصدقاتهم منفعة للأموات،

(١١٥) والله عزوجل تعالىٰ يستجيب الدعوات ويقضى الحاجات،

الدرس الثالث والعشرون

(١١٦) ويملك كل شيء ولايملكه شيء. ولاغنىٰ عن الله تعالىٰ طرفة عين. ومن زعم أنهٔ استغنى عن الله طرفة عين فقد كفر وصار من أهل الحين،

(١١٧) والله يغضب ويرضى لا كأحد من الورىٰ،

(١١٨) ونحب أصحاب رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم، ولانفرط فى حبّ أحد منهم، ولانتبرأ من أحد منهم،

(١١٩) ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير،

(١٢٠) وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان،

الدرس الرابع والعشرون

(١٢١) ونثبت الخلافة بعد رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم أوّلا لأبى بكر الصدّيق رضي الله عنه، تفضيلا لهٔ وتقديما علىٰ جميع الأمّة ثم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم لعثمان رضي الله عنه، ثم لعليّ بن أبى طالب رضي الله عنه، وهم الخلفاء الراشدون والأئمة المهتدون،

(١٢٢) وإن العشرة الذين سماهم رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وبشرهم بالجنة، نشهد لهم بالجنة علىٰ ما شهد لهم رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وقوله الحق وهم أبوبكر

وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمٰن بن عوف وأبو عبيدة بن جراح وهو أمين هٰذه الأمة رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين،

(١٢٣) ومن أحسن القول فى أصحاب رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وأزواجه الطاهرات من كل دنس وذرياته المقدسين من كل رجس فقد برئ من النفاق،

(١٢٤) وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين أهل الخير والأثر، وأهل الفقه والنظر، لا يذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو علىٰ غير السبيل،

(١٢٥) ولا نفضل أحدا من الأولياء علىٰ أحد من الأنبياء عليهم السلام، ونقول نبي واحد أفضل من جميع الأولياء،

الدرس الخامس والعشرون

(١٢٦) ونؤمن بما جاء من كراماتهم ، وصح عن الثقات من رواياتهم ،

(١٢٧) ونؤمن بأشراط الساعة منها خروج الدجّال، ونزول عيسىٰ بن مريم عليه السلام من السّماء، ونؤمن بطلوع الشمس من مغربها، وخروج دابّة الأرض من موضعها ،

(١٢٨) ولا نصدق كاهنا ولا عرافا، ولا من يدعى شيئاً يخالف الكتاب والسنة وإجماع الأمة،

(١٢٩) ونرىٰ الجماعة حقًا وصوابًا، والفرقة زيغًا وعذابًا،

(١٣٠) ودين الله فى الأرض والسماء واحد وهو دين الإسلام، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران: ١٩) وقال تعالىٰ ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾ (المائدة: ٣)،

(١٣١) وهو بين الغلو والتقصير وبين التشبيه والتعطيل وبين الجبر والقدر وبين الأمن والإياس،

(١٣٢) فهٰذا ديننا واعتقادنا ظاهرا وباطنا، ونحن برآء إلى الله من كل من خالف الذى ذكرناه وبيناه،

ونسأل الله تعالىٰ أن يثبتنا على الإيمان،ويختم لنا به، ويعصمنا من الأهواء المختلفة والأراء المتفرقة والمذاهب الردية مثل المشبهة والمعتزلة والجهمية والجبرية والقدرية وغيرهم من الذين خالفوا السنة والجماعة وحالفوا الضلالة، ونحن منهم برآء وهم عندنا ضلال وأردياء وبالله العصمة والتوفيق.

الفهارس